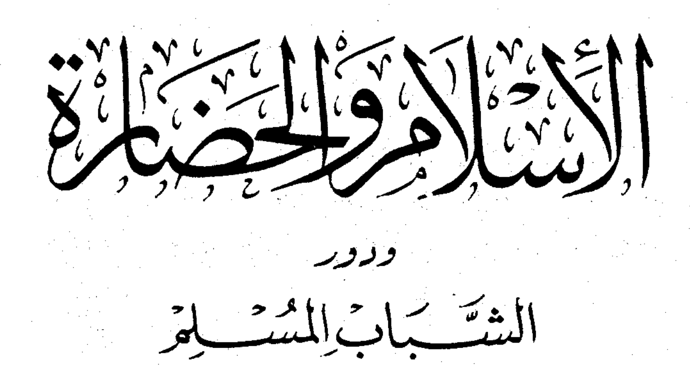
النّدوة العالميّة للشّباب الإسلامي



أبحاث ووقائع اللقاء الرّابع
للنّدوة العالميّة للشّباب الإسلامي

المنعقد في الرياض من ٢٠ - ٢٧ ربيع الثاني ١٣٩٩هـ الموافق من ١٨-٢٥ مارس ١٩٧٩م

الناشر
الندوة العالمية للشباب الإسلامي
الرياض ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م



الإسلام والحضارة

المجلد الأول

الندوة العالمية للشباب الإسلامي





بسم الله الرحمن الرحيم

ٱقْـرَأْ بِٱسْـم رَبِّكَ ٱلَّـذِي خلَـقَ *
خَلَـقَ الإِنْسَـانَ مِنْ عَلَـقٍ *
ٱقْـرَأْ وَرَبُّـكَ الأَكْـرَمُ *
الَّـذِي عَلَّـمَ بِالْقَلَـمْ *
عَلَّمَ الإِنسَـانَ مَا لَمْ يَعْلَـمْ *
كَلَّا إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَىٰٓ * أن رَآهُ اسْتَغْنَىٰ *
إِنَّ إِلَـىٰ رَبِّـكَ الرُّجْعَـىٰ *

« سـورة العلـق »

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الطبعة الأولى من كتاب

الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم

إنّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هـادي لـــه.

والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله محمد بن عبد الله، المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وأصحابه الغر الميامين. الذين شيدوا صرح الحضارة الإسلامية المجيدة بجهودهم المخلصة ودمائهم الزكية، فكانوا أصحاب فضل على كل من نهل من ينابيع تلك الحضارة الشامخة في نقاوتها وطهارتها، السامية في عقائدها وأفكارها وتصورها للحياة والغاية منها، وأساليبها التربوية ونظمها الاجتماعية، وكل من نعم وتمتع بخيراتها إلى يوم الدين.

وبعـــد :

ففي عصرنا الحاضر الذي بلغت فيه الاكتشافات العلمية والرقي المادي شأواً بعيداً لم يتوفر لعصر قبله، يخيم على العالم كله عامة والغربي منه خاصة جو من القلق الشامل العميق والاضطراب المتزايد والانحراف الخلقي البغيض، أفقد الناس معنى لذة ما وصلت إليه الحضارة المعاصرة من تيسير لوسائل العيش والرفاهية، ووصل إلى درجة جعلت علماء الاجتماع والنفس والطب في الغرب يقفون حيارى تجاه هذا الجو المعتم من القلق والاضطراب وما ينجم عنه من أمراض عصبية مختلفة لها أوخم العواقب على البشرية جمعاء.

وإذا أمعنَّا النظر في معرفة أسباب هذا القلق والاضطراب أدركنا أنه ناشئ من الأجواء النفسية التي هيأتها الحضارة الغربية المعاصرة لأبنائها ومن أخذ مأخذهم وسلك سبيلهم. هذه الحضارة الغربية المعاصرة التي ما استوت على قدميها إلا على أساسين اثنين :

الأول : الفلسفة اليونانية المادية الوثنية.

والثاني : العداء للدين والحقد على رجاله وتنحيته بعيداً عن الهيمنة على شئون الحياة وتوجيهها، وعلى هذين الأساسين وفي ظلهما نمت وترعرعت جميع المذاهب الفلسفية والأخلاقية التي سيطرت على عقول المفكرين والموجهين لتلك الحضارة والقائمين فيها.

ولما كنا نعتقد اعتقاداً جازماً لا يتطرق إليه الشك بأن خلاص المجتمع المعاصر والانسانية عامة من الآلام والأمراض التي تعانيها ـ بما جلبته تلك الحضارة الغربية المعاصرة بماديتها ووثنيتها وعقائدها الفاسدة وأفكارها الخبيثة المنحلة ـ لم ولن يكون إلا بتسلم الإسلام زمام الأمر، ومن خلال بعث إسلامي معاصر.

لهذا كله حرصت الندوة العالمية للشباب الإسلامي، جرياً على نهجها الذي تسير عليه دائماً، على تنظيم لقاءات فكرية إسلامية ضمن مؤتمرات العمل الإسلامي كي تتيح الفرصة لنخبة من المفكرين الإسلاميين

ومن قيادات الشباب الإسلامي للبحث والدراسة في قضية من قضايا الفكر الإسلامي التي تهم الشباب والأمة، وكان الموضوع الفكري للقاء العالمي الرابع للندوة هو :

« الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم » :

وستجد أيها القارئ الكريم.. بين يديك في الصفحات التالية، خلاصة لما قدم من أبحاث ودراسات ومقترحات، وما ألقي من محاضرات، وما دار من مناقشات في ذلك اللقاء. وستجد أن معظم تلك الأبحاث والدراسات والمحاضرات والمناقشات حاولت معالجة الموضوع من خلال جوانب ستة هي :

١ ـ معرفة القيم والمبادئ الأساسية التي يقوم عليها الإسلام، والنموذج الإسلامي في الحياة الإنسانية، ووجوه عطائه وتميزه بشكل واضح شامل.

٢ ـ توضيح الآفاق المستقبلية للعطاء الإسلامي، من خلال فهم الواقع الحضاري المعاصر والمنحدرات السحيقة التي يندفع إليها.

٣ ـ الفهم العلمي الصحيح للأسس الفكرية والفلسفية والعقدية التي تقوم عليها الحضارات الكبرى في التاريخ، وخاصة الحضارة المادية المعاصرة.

٤ ـ الفهم العلمي الصحيح للأسس الفكرية والفلسفية والعقدية التي تقوم عليها الحضارات الكبرى في التاريخ، وخاصة الحضارة المادية المعاصرة.

٥ ـ دراسة للواقع الحضاري المعاصر للعالم الإسلامي، والأسباب التي وضعته في موضعه الحالي، ومخاطر هذا الوضع والمنطلقات إلى تصحيح مسار الأمة.

٦ ـ الموقع الخاص للشباب في الفهم والتعلم السليم للمنطلقات الصحيحة، والتأهيل الخاص لحمل رسالات التطور والتغيير وتصحيح المسار.

هذه الجوانب الستة هي التي عولجت منفردة ومجتمعة من قبل الاخوة الباحثين، بحيث أمكن، بفضل الله، لمجموع هذه الأبحاث والدراسات والمحاضرات والندوات والمناقشات أن تعطي رؤية واضحة متكاملة، نرجو أن تكون عوناً حقيقياً، باذن الله، لشباب الأمة وقياداتها، وأن تضع أرجلهم على الخط الصحيح للمسار في محاولتهم الدائبة لخدمة الأمة والدعوة والإنسانية عامة.

وللقضاء على عوامل الانحطاط والفساد والتبعية والضعف والهوان في كيان الأمة، لتصحيح مسارها إلى الأصالة والقوة والعطاء والريادة في منعة وعزة وكرامة بإذن الله.

اننا نرجو أن تكون هذه خطوة رائدة على هذا الطريق، نأمل أن تتلوها خطوات أخرى أثبت وأرسخ ـ بإذن الله.

وإذا كانت هذه الخطوة، التي نقدمها اليوم في هذا الكتاب، قد آتت بعض ثمارها المرجوة، فذلك من توفيق الله وفضله.

والله نسأل أن يوفقنا، وأن يسدد على الحق خطانا، وأن يلهمنا رشدنا ويهدينا سواء السبيل.. هو نعم المولى ونعم النصير..

رئيس الندوة العالمية للشباب الإسلامي

حسن بن عبد الله آل الشيخ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الطبعة الثانية من كتاب

الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم

يطيب للندوة العالمية للشباب الإسلامي أن تضع بين أيدي القراء الاعزاء والدارسين والباحثين على حد سواء الطبعة الثانية من كتاب « الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم » تلبية للطلب المستمر عليه من جانب الشباب والمنظمات والهيئات العلمية والمتخصصة بعد أن نفدت طبعته الأولى.

والكتاب يحتوي على أعمال اللقاء العالمي الرابع الذي عقدته الندوة في مدينة الرياض عام (١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م) والذي ضم نخبة من المفكرين والباحثين والعلماء والعاملين في حقل الدعوة الإسلامية وخاصة في ميدان الشباب، وكان بحق لقاءًا حافلاً مشهوداً صدرت وقائعه في جزأين ضخمين عام ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م وها نحن نعيد طباعته من جديد لتعم الاستفادة منه على أوسع نطاق.

اننا سنحاول أن نجيب على تساؤل مهم يطرح نفسه وهو : ما الذي يريد أن يقوله هذا الكتاب ؟ وما هي حصيلة هذا اللقاء كله بما فيه من بحوث ومحاضرات وندوات وتعليقات ؟ ومع الاعتراف بصعوبة التلخيص وتحديد المرمى النهائي من هذا اللقاء الضخم كله، يمكن لنا أن نصل إلى التحديد المركز التالي على أنه خلاصة اللقاء ونتيجته ومرماه :

١ ـ استطاع الإسلام في تاريخه الزاهر ان ينشئ حضارة غنية خصيبة من حيث مفاهيمها وأسسها العامة ومن حيث ثمراتها وانجازاتها في كافة ميادين الحياة وعلى الصعيدين المادي والمعنوي.

٢ ـ والعبرة التي نستفيدها من ثنايا هذه البحوث وتتأكد بكافة الشواهد والبراهين هي أن الانحطاط الذي تعاني منه الأمة المسلمة اليوم هو انحطاط في أحوال المسلمين نتيجة انحرافهم عن كتاب الله وسنة رسوله ولا يعتبر الإسلام مسئولا عما أصابهم من هوان وما وصلوا اليه من ضعف وخذلان بحال من الأحوال. بل اننا نخرج بنتيجة حاسمة : مؤداها أن هذا الدين قادر على العطاء زاخر بالتوجيهات الحية التي تميز بين الحق والباطل حافل بأسباب التقدم والأزدهار التي يمكن أن تنهض بالمسلمين إذا احسنوا التعامل معه وتعيد لهم مجدهم الغابر وحضارتهم التليدة إذا استمسكوا بتعاليمه.

هذا من جانب ومن جانب آخر فان الأمم تمر بدورات حضارية تعلو فيها وتهبط ويرتفع شأنها ويقل وتصح بنيتها وتعتل. والأمة المسلمة ليست بدعا في هذا الشأن وينطبق عليها ما ينطبق على غيرها من الأمم ولكن الخط البياني لها ـ مع الإقرار بكل السلبيات والانحرافات والمخاطر ـ آخذ بالصعود بإذن الله.

٣ ـ ان الحضارة الغربية اليوم التي تهيمن بمفاهيمها وانجازاتها على مقدرات العصر ـ مع اعترافنا بكل ايجابياتها ونقاط قوتها ـ تعاني من مشكلات خطيرة جدا يحذر منها ابناء هذه الحضارة نفسها، وهذه المشكلات تتزايد من حيث العدد، وتتباين من حيث النوع، وتستفحل من حيث درجة الحدة، مما يجعل الحكم عليها بأنها آخذة بالانحدار حكما

غير ظالم، بل تسنده شواهد كثيرة جدا تدل على أن الخط البياني يتجه نحو الهبوط بالرغم من كل البريق واللمعان. واذن فلابد من بديل حضاري جديد.

٤ ـ هنا يتقدم الإسلام، باعتباره الرسالة الصحيحة الخاتمة، والمسلمون باعتبارهم حملة هذا الدين وحماته لاستلام قيادة الحضارة البشرية من جديد.

٥ ـ ومن نافلة القول أن نؤكد أن هذا لا يتم في يوم وليلة فإن لله عز وجل سننا لا تحابى ولا تجامل، ومن لوازمها أن الدورة الحضارية ـ صعوداً وهبوطاً ـ لابد أن تأخذ وقتها المرصود، ومن لوازمها أيضا أن يبذل المسلمون جهداً أكبر للقيام بمسئوليتهم الخطيرة.

٦ ـ إن الدور الحضاري المأمول الذي يرجى أن تنهض به الأمة المسلمة هو خدمة جليلة لا للمسلمين فقط، بل للبشرية جمعاء بعد أن شقيت كثيرا في ظل القيادة الحضارية الراهنة.

٧ ـ وإذا كانت الأمة المسلمة جميعها مطالبة بأن تنهض بمسئوليتها الخطيرة والنبيلة في آن واحد، فان الشباب وهم غد الأمة ومستقبلها وطاقتها المذخورة مطالبون بجهد أكبر ازاء هذه المسئولية الكبيرة.

وبعد.. فإن الطريق طويل، والجهد شاق، وحسبنا اننا ألقينا بصيصا من الضوء على جنبات الطريق وبدأنا الخطو صوب الغاية في ثبات وإصرار حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله.

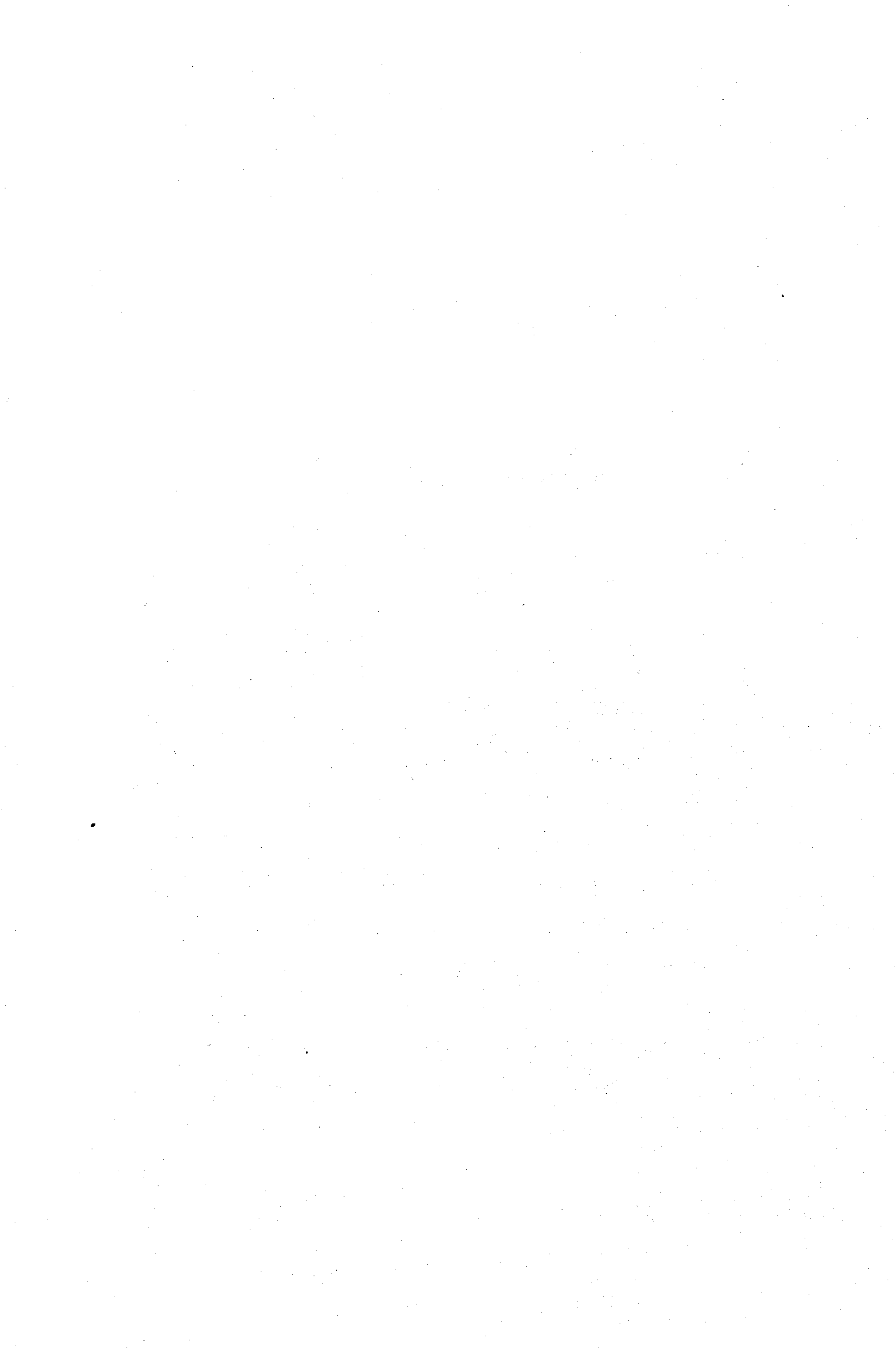
وآخر دعـوانا ان الحمد لله رب العـالميـن..



افتتاح أعمال اللقاء



كلمة صاحب المعالي وزير التعليم العالي ورئيس الندوة
الشيخ حسن بن عبد الله آل الشيخ



بسم الله الرحمن الرحيم

تم افتتاح اللقاء بتلاوة عطرة من كتاب الله ثم ألقى معالي الشيخ حسن بن عبد الله آل الشيخ الكلمة التالية :

بسم الله والحمد لله غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير..

والصلاة والسلام على محمد بن عبد الله، المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين..

أيها الإخوة في الله : نيابة عن صاحب السمو الملكي ولي العهد المعظم، أرحب بجمعكم الكريم في بلدكم الأمين، **مهبط وحيه ومهد شريعته**، في المملكة العربية السعودية ـ أرحب بكم طلائع خير ومواكب إيمان ومشاعل نور، أسأل الله أن يبدد بها وبأعمالها المخلصة ظلمات العصر التي يشقى بها الأحياء في كل مكان، وأرحب بكم رجالاً آمنوا بالله وتوفروا على العمل لنصرة دينه وإعلاء كلمته، قد هالكم ما يعانيه العالم اليوم من فتن ومظالم وانهيارات وصدامات، وعلمتم أن طوق النجاة من كل ما يلقى ويعاني هو في صدق الانتماء لعقيدة الإسلام المشرقة التي اختارها الله للعالم ورضيها وأكملها مع الإخلاص والعزيمة وبذل النفس رخيصة سهلة في ذات الله ومن أجله. ومن أجل أن يتضح هذا الواقع الصادق وتحقق تلك

الأمنية الرائعة والأمل الباسم كنتم أسرع الناس تلبية لنداء ندوتكم لهذا اللقاء، وأكثرهم حرصاً على أهدافها ودعماً لانطلاقاتها.

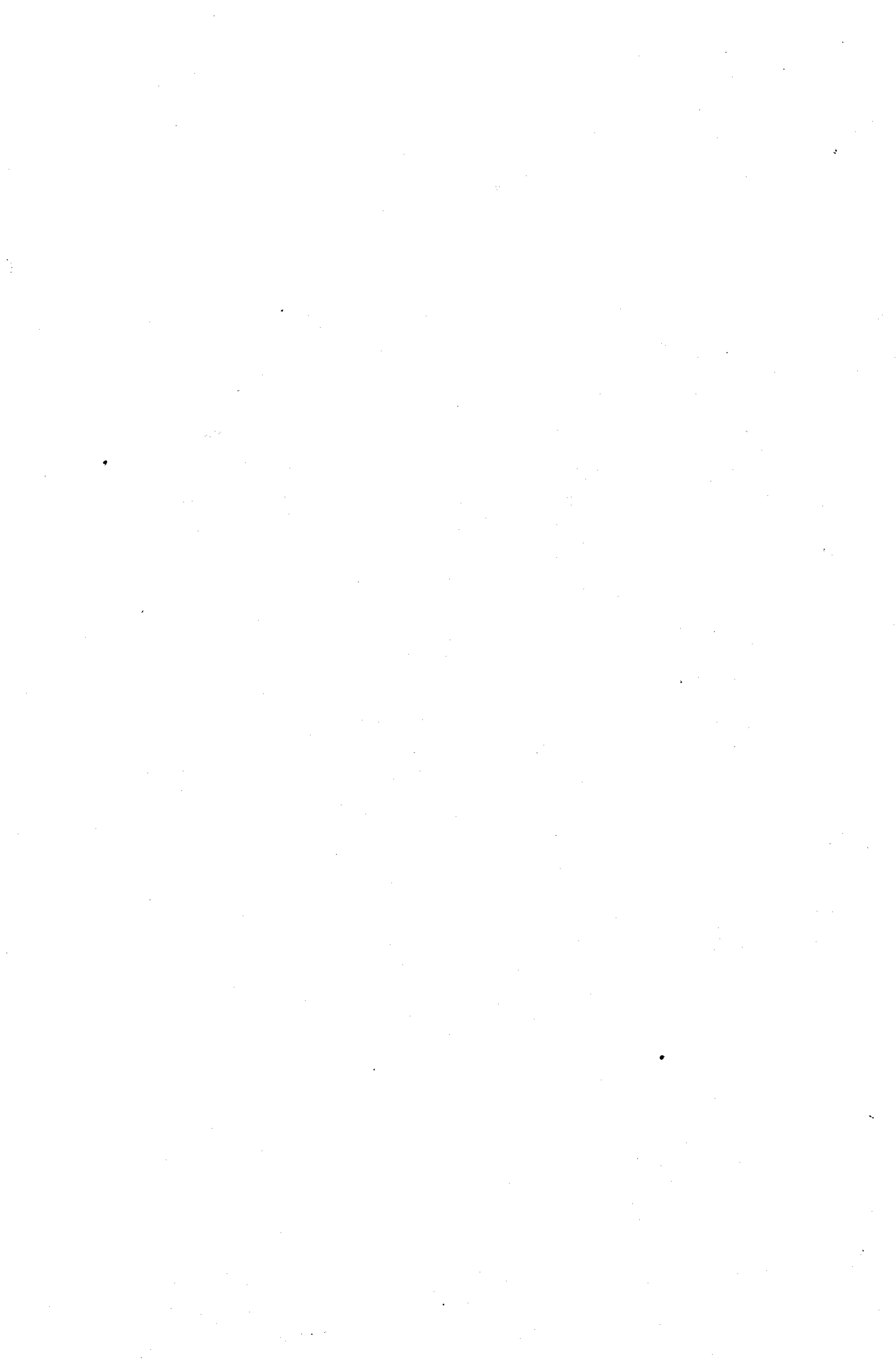
لقاءات ثلاث مضت كان رائدها صدق الانتماء إلى دين الله، وهدفها جمع كلمة المسلمين على الحق والعودة بهم إلى منابع دينم وإشراقة واقعهم وممارسة مسئولياتهم.. واليوم تلتقون لقاءكم الرابع، وقوى الشر والكفر تأخذ على المسلمين مسالك الطريق، وتتربص بهم الدوائر، وتنازلهم معركة المصير، لتحرمهم نعمة العدالة الاجتماعية التي منحها لهم دينهم، ولتغتال استقرارهم وأمنهم وتبدلهم به خوفاً وفتناً طاحنة لا قبل لهم بها، وكأنكم تقولون للعالم، من هنا، من بقاع الطهر هذه، لا نجاة لكم مما تلقون إلا بالعودة الصادقة إلى رحاب الله الآمنة الواسعة، وبالعمل على تحكيم شريعته المطهرة، وبكل منطلقات الإسلام والتسامي والتضحية ستظل بإذن الله جهودكم متصلة، وصفوفكم متحدة حتى تتسع رقعة الإسلام في أرض الله وحتى تستقيم، بمقوماته ومبادئه، دنيا الناس. والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

أيها الإخوة في الله : إن ندوتكم هذه هي إحدى منجزات شهيد الإسلام، فيصل بن عبد العزيز رحمه الله، وأكرم مثواه، كان يرعاها ويؤيد انطلاقاتها، ثم هي تلقى بعد رحيله كل العون والرعاية والمؤازرة من والدنا الغالي إمام المسلمين، خالد بن عبد العزيز، ومن صاحب السمو الملكي ولي عهده الأمير فهد بن عبد العزيز، فهي بحمد الله منهم ولهم، ونرجو الله أن يجعل استمرار فكرتها مما يقربهم إلى الله زلفى، ولن تقتصر المملكة على رعايتها للندوة، كجزء من مسئوليتها الإسلامية، بل دفعت بجامعاتها إلى تقديم العديد من المنح للشباب المسلم في كل المجالات، وللمساهمة في المؤتمرات واللقاءات والمخيمات الإسلامية، إضافة إلى استقبالها للوفود الشبابية الإسلامية، وزيارة شبابنا في الجامعات للعديد من بلاد العالم الإسلامي رغبة في إيجاد الروابط القوية بين أبناء العقيدة الواحدة. وستظل المملكة بإذن الله قائمة بهذا الدور بطواعية وقناعة وإيمان. وفقكم الله،

وجعل التوفيق حليفكم، ونفعكم، ونفع بكم.

والسلام عليكم ورحمة الله

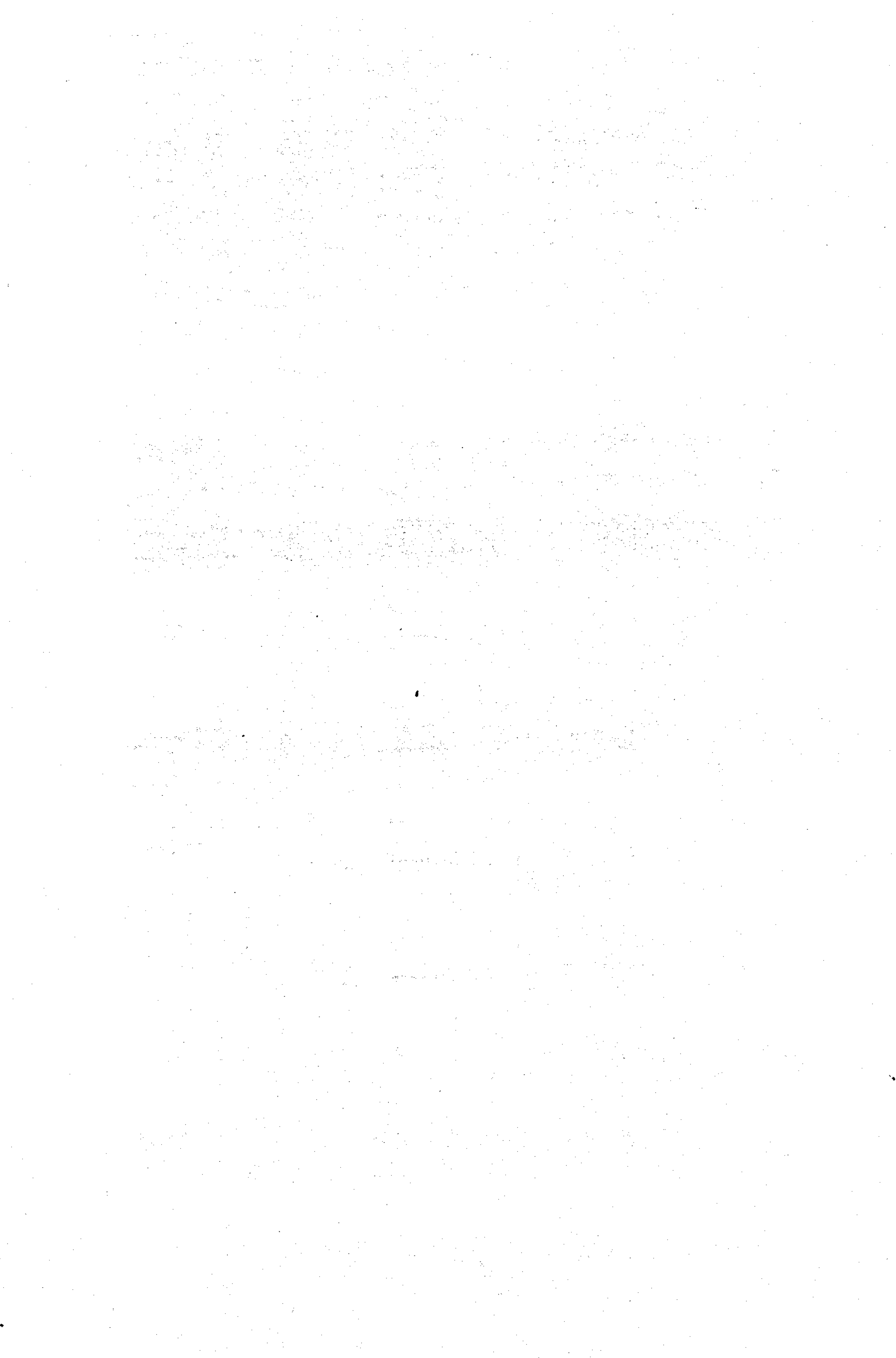
حسن بن عبدالله آل الشيخ
رئيس الندوة العالمية للشباب الإسلامي



كلمة الأمين العام الأسبق

للنّدوة العالميّة للشباب الإسلامي

الدكتور عبد الحميد أبو سليمان



بسم الله الرحمن الرحيم

صاحب المعالي ـ رئيس الندوة العالمية للشباب الإسلامي ـ الشيخ حسن بن عبد الله آل الشيخ. أصحاب الفضيلة أصحاب المعالي، أيها الإخوة، ممثلي المنظمات الشبابية الإسلامية. أيها الإخوة الضيوف.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

إنها للحظة غامرة أن أقف في هذا الموضع بعد أعوام ثلاثة، أقف لأحييكم، أحيي وجوهكم، ولكي أجدد الترحيب بكم، أرحب بكم أخوة مجاهدين في سبيل الله، سبيل الخير والحق، سبيل الوجود الأفضل، الوجود الأفعل، أخوة مجاهدين في أخطر ميدان وأرحب ميدان.. الدعوة والعقيدة.. ميدان الشباب، وبناء الشباب وتضامن الشباب ـ ثلاثة أعوام، من أصل أعوام ثمانية هي عمر هذه المنظمة الشابة، المنظمة الشامخة، منظمة الندوة العالمية للشباب الإسلامي. وبفضل الله ثم بفضلكم، بفضل وعيكم، وبفضل عزمكم. وبفضل الإخلاص والبذل الذي محضتم الندوة ومحضه إياها كل مخلص وعامل ومسئول، بفضل الله ثم بفضلكم جميعاً، أمكن لهذه المنظمة أن يكتمل بناؤها، وأن ترسي قواعدها، وأن تقف اليوم عزيزة بكم قادرة في خدمة الأمة، تعمل من أجل خدمة شباب الأمة في سبيل صفاء

عقيدته وصفاء رؤيته وترقية ثقافته، وتوحيد فكره وأمانيه وتطلعاته في سبيل تحقيق الذات، وفي سبيل خدمة الأمة ورفعة الأمة وبناء الأمة ـ تعمل في خدمة الشباب بدعم نشاطاته ورعاية مؤسساته، واستكمال أدواته لتوفير المعرفة، توفير الكتاب الجيد والمحاضر الجيد، والمربي الجيد، والخبير والمدرب الجيد، تعمل في خدمة الشباب المسلم بتوفير أدواته ومخيمات عمله، وبرامج تدريبه وتوفير الموارد اللازمة لأدائه، والسعي لدى كل مخلص في حاجته وتحقيق رغباته وتطلعاته.

أيها الاخوة : لقد حققت الندوة الكثير مما تهدف إليه وأرست دعائم الكثير مما تسعى إلى تحقيقه ـ وأقامت المؤسسات المتخصصة في خدمة تلك الأهداف في ميدان الكتاب والتعليم والتمويل.

أيها الإخوة الكرام : وأنا أسلم الأمانة في هذا اللقاء، أرجو أن تواصل الندوة مسيرتها المباركة نحو غاياتها النبيلة السامية حلماً أصبح حقيقة ودرباً فسيحاً يمتد على أفق الوعي والقدرة. بعزمكم، بإخلاصكم، بقدراتكم، بشجاعتكم، بزمام المبادرة في أيديكم الشابة، سيكون بمشيئة الله غدٌ أفضل تبنون لأنفسكم وتؤهلون أنفسكم وتستكملون عدتكم وتتبينون مواقعكم، بكم وبمؤسساتكم، بوعيكم وبوحدتكم وبوضوح رؤيتكم، لن يكون غداً حال الأمة بمشيئة الله هو الحال.

أيها الإخوة : بالإيمان، بالعزم، بالصبر، بالمجالدة، بالمثابرة، بالعمل، بكم تبنى الأمم وتصاغ المصائر وتشمخ الحضارات. اسمحوا لي أيها الإخوة باسمكم جميعاً، باسم مجلس أمانة الندوة ـ إقراراً بالفضل وعرفاناً بالجميل وتقديراً للجهد والإخلاص، أن أتقدم بخالص الشكر وعظيم التقدير إلى معالي رئيس الندوة، الشيخ حسن بن عبد الله آل الشيخ، وإلى حكومة هذا البلد الإسلامي الحبيب، أن أتقدم إليهم جميعاً وإلى كل مخلص وعامل ومسئول ساهم وبذل وضحى، أن أتقدم إليهم بخالص الشكر وعظيم التقدير لما قدموه وأعانوا به من جهد وتضحيات.

أيها الإخوة : إنها بداية الطريق، إن الأمة في أرجاء الأرض تتطلع إلى اجتماعكم هذا ولتسمع منكم وتتلمس مستقبلها في خطابكم ومرمى

أبصاركم، إن العبء ثقيل والحمل شاق والمسئولية بالغة وليس لمسلم أن ينكص.

أيها الإخوة : أرجو للقائكم هذا كل التوفيق، ولمسيرتكم في خدمة الأمة والدعوة كل الفلاح، وصدق الله، « إنَّ الله لا يُغَيرُ ما بقومٍ حتى يُغَيّروا ما بأنفسهم »[١] « والذين جاهدوا فينا لنهدينَّهم سبلنَا »[٢] و « ليَنصُرَنَّ الله من ينصره »[٣] و « بشر الصَّابرين »[٤].

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

---

(١) سورة الرعد آية ١١.

(٢) سورة العنكبوت آية ٦٩.

(٣) سورة الحج آية ٤٠.

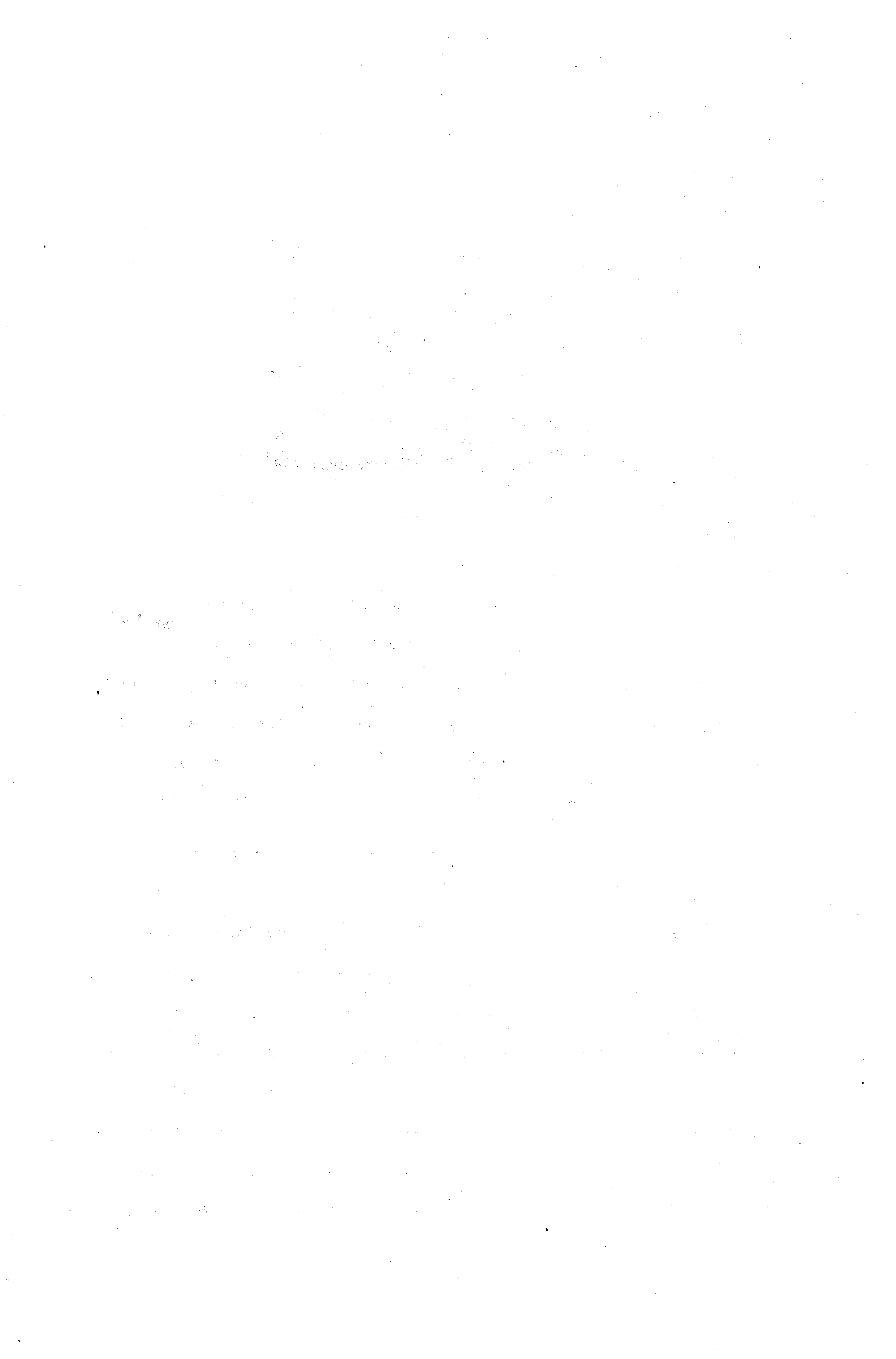
(٤) سورة البقرة آية ١٥٥.



كلمة الوفـــود

للأستاذ أيوب آدم باتل

ممثل جمعية الشباب المسلم في زامبيا



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أصحاب السمـو الإخوة الأمـراء

صاحب المعالي، الشيخ حسن بن عبد الله آل الشيخ وزير التعليم العالي ورئيس الندوة العالمية للشباب الإسلامي ـ أصحاب السماحة والمعالي والفضيلة صاحب السعادة الدكتور عبد الحميد أبو سليمان، الأمين العام للندوة العالمية للشباب الإسلامي، أصحاب السعادة، الإخوة أعضاء الأمانة العامة للندوة، أيها الجمع الكريم.. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

يسرني بهذه المناسبة الطيبة، التي يجتمع فيها الشباب المسلم من كل صوب وحدب، أن أعبر عن وافر شكري وتقديري للندوة العالمية للشباب الإسلامي، لا لأنها دعتنا إلى هذا اللقاء.. بل لما تقوم به من جهود عملية مشكورة وطيبة في خدمة شباب الأمة الإسلامية بتوفير الكتاب المسلم وعقد المخيمات واللقاءات والندوات والدراسات وكل ما يهم الشباب المسلم في حياته، ولا يخفى عليكم أن أمتنا الإسلامية تمر في هذه المرحلة بظروف حرجة وخطيرة، هي مرحلة تحول في المسار، وندعو الله مخلصين أن يكون تحول هذه الأمة في صالحها وصالح شبابها وأن يكون عند هذا المستوى وعلى قدر المسئولية الملقاة على عاتقنا، تلك المسئولية التي نص عليها القرآن بقوله تعالى « كُنتم خيرَ أمّةٍ أُخْرجت للنّاس تأمرون بالمعروف وتنهون

عن المنكر وتؤمنون بالله »[1] ويسرني أن أقولها بكل فخر واعتزاز أن الندوة العالمية للشباب الإسلامي تقوم بتوجيه الشباب المسلم خير قيام، وتعمل على تلبية حاجاته وطلباته، وتدعمه مادياً ومعنوياً. ولا يفوتني أن أقول للإخوة الشباب أنه علينا حالياً أن ننظم أنفسنا لقيادة هذه الأمة، فشباب اليوم هم قادة الغد. لقد أتيت إليكم من قلب القارة الافريقية، من زامبيا، وقد حمّلني إخوتكم في إفريقيا شكرهم وتقديرهم لما تقوم به الندوة العالمية للشباب الإسلامي ولما تتجشمه من عناء في سبيل الدعوة في صفوف الشباب. وأحب أن أطمئن الإخوة هنا بأن العمل الإسلامي قد بدأ يقف على رجليه في زامبيا وفي أفريقيا، ولا يزال في حاجة إلى كثير من التوجيه والدعم، وأن شعارنا في المرحلة القادمة يجب أن يكون، تحكيم كتاب الله والعمل وفق شريعته، وتقصي أسباب تدهور الأمة الإسلامية وضعفها وانهيارها، واتخاذ كل ما يلزم لعلاج هذه الأمراض، وليعمل كل منا بجهد خالص وبنية خالصة لوجه الله تعـالى.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

---

(١) سورة آل عمران آية ١١٠.

وَرَقَــةُ العَــمَل



اللقاء الرابع

الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم

أخي في الإسلام..

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. وبعد -

يسرني إعلامكم بأن موعد اللقاء الرابع (الاجتماع العام) لممثلي المنظمات الشبابية الإسلامية أعضاء الندوة العالمية للشباب الإسلامي، سيبدأ يوم الأحد الموافق ٢٠ / ربيع الثاني / ١٣٩٩ هـ - ١٨ / مارس / ١٩٧٩ م، ويستمر عشرة أيام، أسبوع منها لأعمال اللقاء وما يتبقى يكون لمزيد من التعارف، واداء العمرة في مكة المكرمة، وزيارة المسجد النبوي الشريف.. ان هذا اللقاء يضم ممثلي المنظمات الأعضاء في الندوة من القيادات في مجال العمل الشبابي الإسلامي، ومهمته التنظيمية الأساسية هي النظر في تقارير الأمانة العامة للندوة، وانتخاب الهيئة الجديدة لمكتب الأمانة العامة، واتخاذ التوصيات اللازمة حيال أعمال ونشاطات الندوة.

ويهدف اللقاء أيضاً إلى التعارف بين القيادات الإسلامية الشبابية لتنسيق العمل فيما بينها، وتبادل الخبرات وتخطيط التعاون بين هذه القيادات والمنظمات الإسلامية في مختلف مجالات الدعوة وخدمة الشباب المسلم في العالم.

كما يضم اللقاء عدداً من القيادات الإسلامية العاملة ذات الاهتمام والصلة بنشاطات المنظمات الشبابية، إلى جانب دعوة عدد من القيادات الفكرية الإسلامية للمحاضرة والبحث في قضايا الفكر الإسلامي ذات الصلة بعمل الشباب لتكون محور النشاط الفكري والثقافي خلال الاجتماعات، ولتكون مساهمة علمية فكرية إسلامية تثري لقاء الأخوة بما يسمعونه في الموضوع، ومن خلال مناقشاتهم وتفاعلهم وتبادل خبراتهم العملية في القضايا المطروحة.

وقد تقرر أن يكون الموضوع الفكري في لقاء هذه الدورة هو :

« **الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم** » :

وخلال فترة العمل، سيكون البرنامج الفكري حول موضوع الندوة على شكل أبحاث ومحاضرات وندوات ولجان مناقشة.

الخطوط والغايات الأساسية :

والغايات الأساسية لعلاج هذا الموضوع الخطير من الناحية الفكرية هي توعية هذه القيادات وتلاقح أفكارها مع فكر هذه النخبة المختارة من المفكرين الإسلاميين، ومن ورائهم شباب الأمة وروّادها، في هذه المرحلة الهامة من تاريخ مسيرة الأمة الإسلامية وذلك :

أولاً : لمعرفة **القيم والمبادىء** الأساسية التي يقوم عليها الإسلام، والنموذج الإسلامي في الحياة الإنسانية ووجوه عطائه وتميزه بشكل واضح شامل يعين على الفهم والرؤية، ويكون علامات بارزة على طريق البعث الإسلامي المعاصر.

ويتأتى ذلك بالدراسة العميقة الشاملة للأصول القرآنية والنبوية التي تحدد القيم والمبادىء والغايات الإسلامية في ضوء ادراك تاريخي سليم للتجربة الإسلامية في الصدر الأول من الإسلام، مما يجلو الفكرة الإسلامية ويعيد اليها صفاءها وبساطتها وفعاليتها في الحياة الإنسانية بعيداً عن ضباب الرؤية التي خلفتها المسيرة التاريخية والغزو الفكري والحضاري من داخل كيان الأمة وخارجها بما حملته من جاهلياتها القبلية والشعوبية والفلسفات

الدخيلة من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب.

وفي تجلية القيم والمفاهيم والغايات والمبادئ الإسلامية، فإن الدراسة التاريخية والدراسة الفلسفية المقارنة لها أبلغ الأثر في توضيح الرؤية وتحديد الملامح الإسلامية، حيث أن وضوح الرؤية والتحديد القاطع للملامح الإسلامية شرط أساسي سابق لأي مساهمة إسلامية فعالة في مسيرة الحضارة الإنسانية.

ثانياً : توضيح **الآفاق المستقبلية** للعطاء الإسلامي من خلال فهم الواقع الحضاري المعاصر والمنحدرات السحيقة التي يندفع اليها.

وتحديد الدور الإسلامي للمستقبل من خلال توضيح احتياجات وسبل الأداء اللازمة للعمل الإسلامي المعاصر لحمل أمانة الخلافة وتعديل المسار الحضاري المادي الغربي المعاصر في سبيل تجدد الحضارة وتعديل مسارها وتوفير الوريث المؤهل لاخصابها.

ثالثاً : الوعي الصحيح **للانجاز الإسلامي الحضاري التاريخي** من حيث الدلالات الصحيحة لتلك الإنجازات ورؤيتها بمنظار إسلامي والتعرف على جوانب القوة الحقيقية في تلك المنجزات، وبشكل مفاهيمي مقارن، وما يعود إلى ذلك من دراسة أسباب قيام وانحطاط الحضارة الإسلامية تاريخياً. ولا شك ان قطاعاً هاماً من أبناء الأمة وشبابها في حاجة إلى إدراك المنجز الحضاري الإسلامي لاستعادة ثقته بنفسه في مواجهة آثار خطط التجهيل العلمي التي نجمت عن تبعية المؤسسات العلمية في العالم الإسلامي للمؤثرات والثقافة الأجنبية التي ـ ان لم تعاد الإسلام ـ فهي لا تحفل به وتتجاهله، وكذلك لتصحيح فهم هذا المنجز ودلالاته الصحيحة من واقع المنطلق الإسلامي لا المنطلقات النقيضة والمناجزة.

رابعاً : الفهم العلمي الصحيح **للأسس الفكرية والفلسفية والعقدية التي تقوم عليها الحضارات الكبرى** في التاريخ، وخاصة الحضارة المادية المعاصرة، وبشكل علمي يوضح جوانب هذه الحضارات ويفسر للشباب المسلم معنى صرخات الذعر التي تصدر عن عدد متزايد من قادة الفكر الغربي.

ومعنى الأمراض التي يعاني منها المجتمع المعاصر، رغم كل القدرة المادية المتوفرة، بل وبسبب هذه القدرة أحياناً.

وهذا الادراك الصحيح غير المنفعل للحضارات المواجهة والمعاصرة أمر ضروري لتفهم طبيعة المهمة الملقاة على الأمة من خلال رسالة الإسلام.

خامساً : دراسة **للواقع الحضاري المعاصر للعالم الإسلامي** والأسباب التي وضعته في موضعه ومخاطر هذا الوضع، والمنطلقات إلى تصحيح مسار الأمة من التبعية والضعف والهوان والفساد إلى الأصالة والقوة والعطاء والريادة.

سادساً : **الموقع الخاص للشباب** في الفهم والتعلم السليم للمنطلقات الصحيحة والتأهيل الخاص لحمل رسالات التطور والتغيير، والقدرة على تنفيذ مخططات العمل وبناء المؤسسات واقامة الحضارات وتصحيح مساراتها.

هذه الأبعاد الستة هي التي نرجو أن يوفق الأخوة الباحثون في معالجتها منفردة ومجتمعة، بحيث تعطي مجموع الأبحاث والمحاضرات والندوات والمناقشات رؤية واضحة متكاملة فذة ـ ان شاء الله ـ سيما وان شباب الأمة وقياداتها لا تزال في أمسّ الحاجة إلى توفيرها لهم ووضع أرجلهم على خط مسارها، في محاولاتهم الدائبة لخدمة الأمة والدعوة واستعادة القوة والعزة والكرامة والتخلص من عوامل الانحطاط والفساد في كيان الأمة، والتدهور والانهيار والآلام في مسيرة الحضارة.

وفيما يلي عدد من الأبحاث المقترحة للمعالجة نترك أمر تبني جانب أو جوانب منها للأخ المفكر المشارك في هذا اللقاء :

١ ـ القيم الإسلامية الكبرى التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي والحضارة الإسلامية.

٢ ـ معالم الشخصية الإسلامية الفاعلة في الفرد والجماعة.

٣ ـ دراسة للنصوص القرآنية والنبوية في قيم مسار الحضارات ومفهومها وأسس تقويمها.

٤ ـ سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام : دراسة في الفكر والقيـادة الحضارية.
٥ ـ عصر صدر الإسلام : قاعدة الانطلاق الحضاري الإسلامي.
٦ ـ التلوث والانحراف الحضاري في مسار الحضارة الإسلامية.
٧ ـ عوامل انحطاط الحضارة الإسلامية.
٨ ـ الأسس الفكريـة للحضارة : دراسة مقارنـة للحضارة الإسلاميـة والحضارة المادية الغربية.
٩ ـ المأساة الإنسانية : دراسة لآفات الحضارة الإسلامية.
١٠ ـ تجارب التغريب الفاشلة في المجتمع الإسلامي المعاصر :
دارسة تاريخية للمحاولات المتكررة الفاشلة للتقليد منذ انحطاط الدولة العثمانية.
١١ ـ التجارب الإنسانية في بناء الحضارات :
درس في الأصالة ووضوح الرؤية الايديولوجية.
١٢ ـ واقع المجتمعات الإسلامية الحديثة :
دراسة من واقع المجتمعات الإسلامية وآفاتها وتجاربها وموقعها من الإسلام.
١٣ ـ التحديات الحضارية المعاصرة للأمة الإسلامية.
١٤ ـ القيم الإسلامية ومدى صلاحيتها للظروف المتغيرة.
١٥ ـ الانجازات الحضارية الإسلامية التاريخية في مختلف العلوم والفنون :
دراسة تحليلية في فهم المنطلقات والدلالات لتلك المنجزات.
١٦ ـ المعالم الكبرى للحضارة الإسلامية الحديثة.
١٧ ـ التحدي القائم بين الحضارة الحديثة والشباب المسلم.
١٨ ـ الحضارة الإسلامية والحضارة الحديثة، دراسة مقارنة.
١٩ ـ دراسة للقيم الإسلامية وتطبيقها في العصور الحديثة.
٢٠ ـ قيم المجتمع : هل هي ثابتة أم قابلة للتغير ـ دراسة لبعض القيم الإسلامية.
٢١ ـ أثر الاتجاهات الحديثة على الشباب المسلم ووسائل مناهضتها.
٢٢ ـ الإسلام والوفاء بحاجات الإنسان الحديث.

٢٣ ـ الشباب والتغير والبناء الحضاري.
٢٤ ـ العقبات والتحديات أمام الحضارة الإسلامية :
دور الشباب، من وجهة نظر التاريخ، في مختلف الحضارات.
٢٥ ـ كيف نعين الشباب في خدمة الأمة.
٢٦ ـ دور الشباب في بناء الأمة والحضارة.
٢٧ ـ اسهام الإسلام في خدمة الإنسانية.
٢٨ ـ الإسلام علاج لأمراض البشر.
٢٩ ـ أهمية النفس والبحث في حضارة الإسلام.
٣٠ ـ كيف ننهض بالمجتمعات المسلمة.
٣١ ـ فاعلية العمل الإسلامي :
دراسة في أولويات العمل الإسلامي ومجالات الدعوة.
٣٢ ـ الإنسان غاية الحضارة :
دراسة مقارنة للإنسان في الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية.
٣٣ ـ ماهية الحضارة وموقع الحضارة الإسلامية.
٣٤ ـ حضارة الغد الإسلامية :
غاياتها وسبل تحقيقها.
٣٥ ـ تقاعد المسلمين عن الحضارة الإسلامية.
٣٦ ـ دراسات حصر تحليلية لكل ما كتب عن الحضارة الإسلامية باللغات العالمية ولغات الشعوب الإسلامية الكبرى.

أخي الكريم..

هده عناوين تعطي بعض قضايا الموضوع وتتداخل فيما بينها.. والأمل أن تأتي جملة المشاركات على عدة أشكال :

١ ـ المحاضرات العامة :

وهي عدد من المحاضرات العامة يشترك في الاستماع إليها الجمهور العام من المثقفين والطلاب والأهالي، ولذلك يراعى في اختيارها، إلى جانب سمة العمق الفكري، سمة التبسيط في العرض والشمول، وأن تكون في قضايا وبأسلوب يحسن الجمهور تلقيه وهضمه.

٢ ـ الأبحاث العلمية :

وتتناول الأبحاث القضايا المتخصصة لتقدم فيها مادة علمية مركزة ومساهمة فكرية مبتكرة وسد نقص علمي ثقافي في وجه هام من وجوه الموضوع، ويرجى ألا يهمل الجانب العملي والتطبيقي والنظرة الواقعة والأولويات الأساسية للعمل الإسلامي في معالجة تلك الأبحاث

٣ ـ النــدوات :

والندوات أسلوب للاستفادة من أكثر من عنصر علمي في قضية هامة يتكامل عرضها للموضوع ويترك مجالاً للتفكير والتفاعل بين المتحدثين أنفسهم مع الجمهور بحيث تعكس هذه العروض والمناقشات أولويات العاملين والمستمعين وتتمخض عن خبرات ونظرة أشمل وأعمق في القضايا المطروحة.

٤ ـ لجــان العمــل :

وخلال أعمال اللقاء، بما في ذلك العمل الفكري، فانه ستتكون لجان عمل لمناقشة أهم الموضوعات المطروحة على اللقاء، ومنها الجوانب الهامة والعملية للموضوع الفكري، وتكون مهمة المشرف على أي لجنة من لجان العمل فتح باب الاقتراحات للمساهمة في الاستفادة مما تم عرضه في اللقاء وفي سبيل حلول ومقترحات عميقة للقضايا المطروحة. وعضوية اللجان مفتوحة لكافة المشاركين في اللقاء بحسب أولوية اهتماماتهم والمقترحات التي يودون ابداءها.

والمطلوب من الكتّاب والمدعوين للمشاركة الفكرية في هذا اللقاء هو التفضل في خلال شهر من تاريخ هذا الخطاب بارسال موافقتهم على المشاركة في هذا اللقاء، والموضوع الذي يرغب كل منهم تناوله، والخطوط الرئيسية لبحثه، وذلك حتى يمكن للجنة المكلفة بالموضوع الفكري للقاء التنسيق بين هذه المواضيع ومنع التكرار في المعالجات وإقرار خطة البحث وتقديم الاقتراحات المناسبة للمشاركين حتى يأتي اللقاء بالصورة المشرقة التي يتوقون اليها.

كما أن الندوة على أتم استعداد لتحمل أي تكاليف تنتج عن العمل في الدراسات التحليلية لحصر المادة المكتوبة عن الحضارة الإسلامية بأي لغة أو لغات يرغب أي أخ كاتب في القيام بها أو لمن يرشحه ـ بعد موافقة اللجنة على الترشيح ـ كما سيكون موضع سرور لنا أن تقدر اللجنة مكافأة مجزية للجهد الثمين المبذول في مثل تلك الأبحاث المجهدة والتي تتطلب نوعاً نادراً من المعرفة والاطلاع والقدرة التحليلية.

اننا نرجو، بالكتابة المبكرة اليكم، أن يتوفر الوقت الكافي للجنة لكي تتمكن من تحديد أسماء ومواضيع الأخوة المشاركين من المفكرين، والاتفاق معهم على خطة البحث والتوثق من جدية العمل والفائدة المرجوة.

كما نرجو أن يتوفر لكم بذلك الوقت اللازم للمشاركة الطيبة في مثل هذا الموضوع الهام لمثل هذه النخبة القيادية المختارة.

علماً بأن كل الاخوة الكتّاب الذين تقرر اللجنة مشاركتهم الفكرية في أعمال اللقاء ستوفر لهم الندوة تذكرة سفر مرجعة من مقر اقامتهم إلى المملكة العربية السعودية وكافة تكاليف الاقامة والانتقال خلال أيام اللقاء وزيارة البيت الحرام والمسجد النبوي الشريف، كما تعلن استعدادها لدفع أي نفقات يتكبدها الأخ المشارك لانجاز البحث المطلوب.

انه من الضروري لكل أخ مشارك في الناحية الفكرية أن يقدم إلى الندوة نصاً مكتوباً بالموضوع الذي يتم الاتفاق على الكتابة فيه وذلك من أجل نشره ضمن أعمال اللقاء، حيث قد تم بحمد الله نشر كل أعمال اللقاء الأول والثاني، وأعمال اللقاء الثالث تحت الطبع ونرجو أن تكون بين أيدي الأخوة القراء في وقت قريب بإذن الله.

ولا بد أن تتلقى الندوة ذلك النص قبل موعد اللقاء بشهر واحد على الأقل كي تتمكن ـ بإذن الله ـ من طبعه واعداده وتوزيعه خلال أيام اللقاء لتسهيل متابعة المشاركين في أعمال اللقاء استكمالاً للفائدة؛

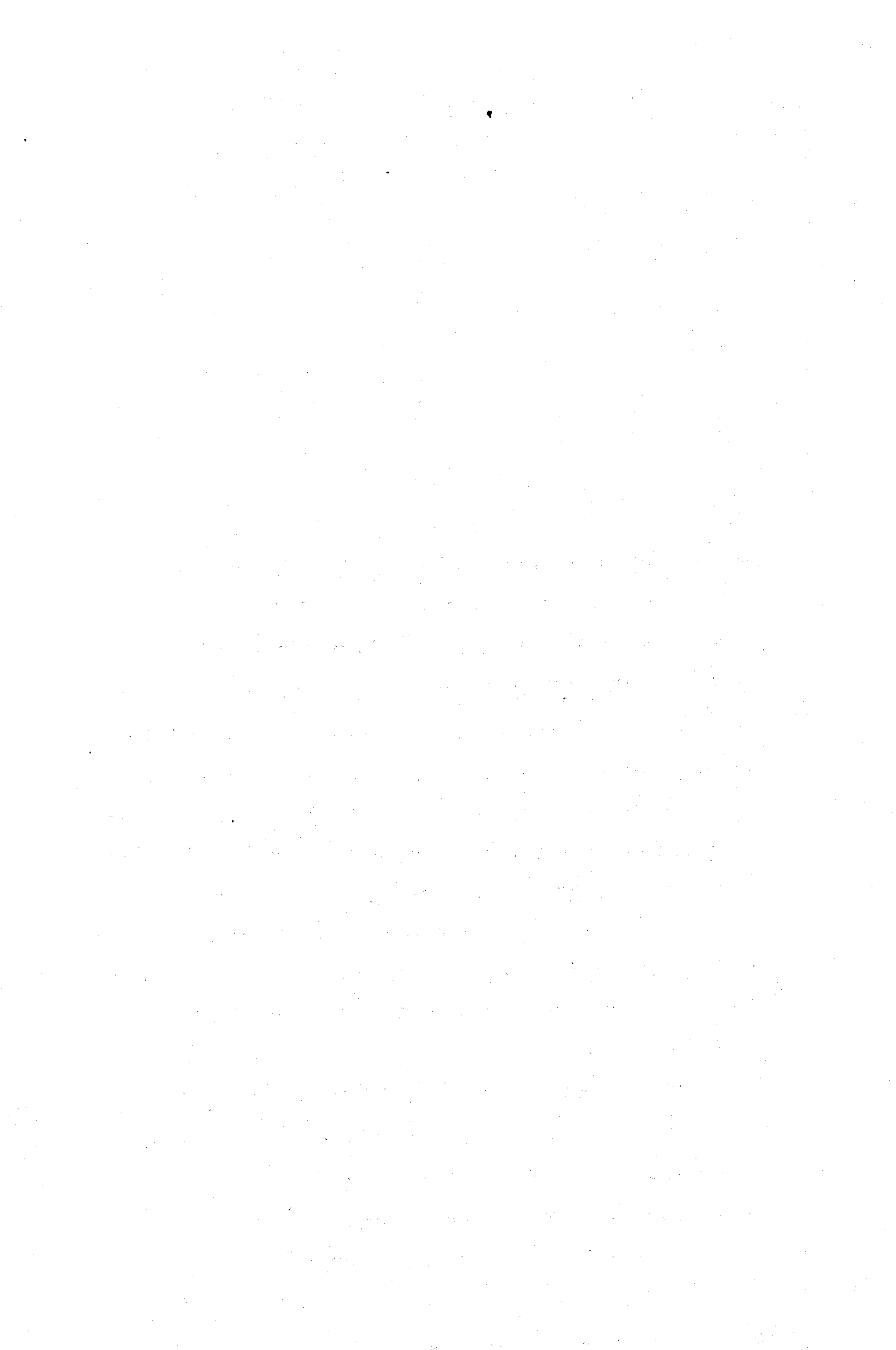
اننا كلنا أمل في كريم استجابتكم، وانجاح اللقاء بمشاركتكم الفكرية، وفي اغناء الفكر الإسلامي والاستجابة للحاجة الإسلامية الماسة في

هذا الموضوع وفي لقاء هذه النخبة من الشباب والتلاحم معهم في مهمتهم الكريمة في خدمة الأمة والدعوة والشباب المسلم في انحاء الأرض.

وفقكم الله واعانكم ونفع بكم الإسلام والمسلمين..

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

الدكتور عبدالحميد أبوسليمان



كلمة إلى الشباب المسلم

للدكتور أحمد عبد القادر باحفظ الله
الأمين العام السابق للندوة العالمية للشباب الإسلامي

(ه) انتخب الدكتور أحمد عبد القادر بَاحفظ الله أميناً عاماً للندوة في نهاية أعمال اللقاء الرابع ثم تلاه د. توفيق أحمد القصير في شغل منصب الأمين العام للندوة في الدورة الحالية.



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ...
أيها الأخوة الكرام.. شباب الأمة الإسلامية في كل مكان..

يسرني والأخوة العاملين في الندوة أن أقدم لكم ثمرة جهد فكري وروحي في قضية من أهم القضايا التي تهم الشباب والأمة وهي : « الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم »..

أيها الشاب المسلم.. ان الثمرة التي نقدمها لك اليوم هي خلاصة أبحاث ودراسات ومقترحات وأفكار توفر عليها نخبة من خيرة المفكرين الإسلاميين ومن قيادات الشباب الإسلامي من شتى أنحاء العالم.

أيها الاخوة الشباب.. انكم أمل حاضر الأمة الإسلامية وركيزة مستقبلها، وعليكم تقع مسئولية الغد وقيادة الأمة نحو الخير والحق، كما دعا إليه القرآن الكريم في قول الله تبارك وتعالى : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »..

هذه هي القضية الأساسية التي تكشف القانون الكوني وسنة الله في خلقه للاصلاح وإعمار الأرض لا تتغير ولا تتبدل.. ان حياة الأمم مرهونة بارادتها للحياة وكذلك قوتها مرهونة بتمسكها بأسباب الحق والقوة الصحيحة.. ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.. ان مستقبل

الأمة الإسلامية مرهون بعزم الشباب على أخذ نفسه وأمته بالإسلام، منهاج شامل متكامل للحياة، وطريق عمل لحاضر ومستقبل الأمة يعز ويسعد فيه المسلم باسلامه، ويتحقق فيه لغير المسلم أمنه وطمأنينته، وما ذلك إلا تصحيحاً لأفكار وأوضاع عكست في أوقات غلبت فيها الأمة الإسلامية على أمرها.

أيها الشباب المسلم.. ستجدون في السطور التي بين أيديكم وجبات فكرية دسمة وزاداً إيمانياً عميقاً ومن ورائه نرجو الله سبحانه أن يحقق هدفنا في تزويد الشباب المسلم بما يعمق فكره ومثله وايمانه بالله حتى يحكم شرع الله في أرض الله، ويقود البشرية إلى ما فيه خيرها، ويحقق للانسانية حضارة إسلامية طاهرة نظيفة، وينتشلها من حضيض هذه الحضارة المادية الماجنة الملحدة، فذلك أصبح من مسئولياتنا التاريخية ومسئولياتنا أمام الله.. « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون »..

والله سبحانه أسأل أن يهدي قلوبكم، ويمدكم بعونه وتوفيقه، ويهيىء لكم من أمركم رشداً..

الأمين العام

للندوة العالمية للشباب الاسلامي

د. أحمد عبد القادر باحفظ الله


الإسلام والحضارة
ودور
الشباب المسلم



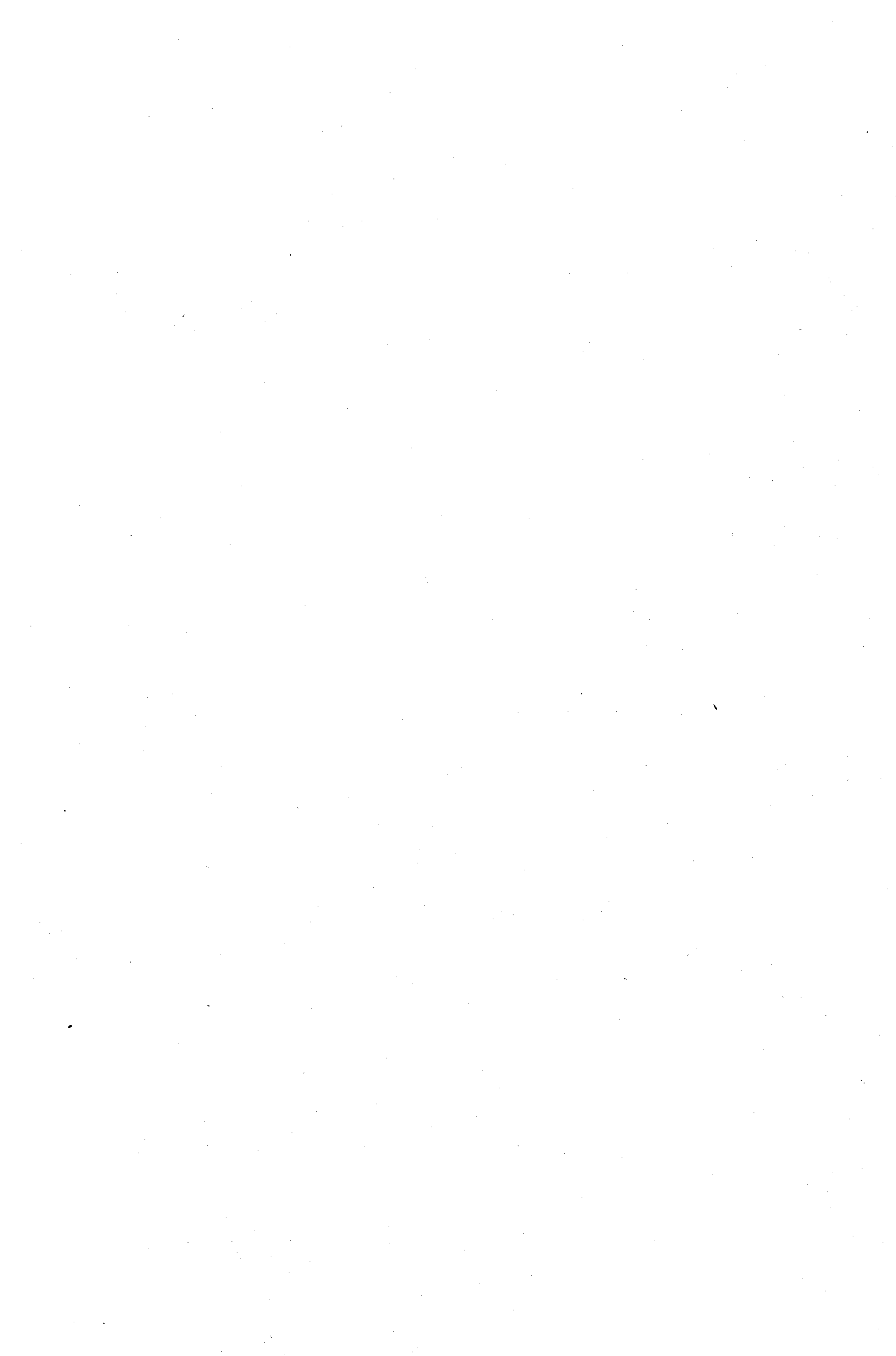
الباب الأول

الأسس النظرية للحضارة الإسلامية

الفكر الحضاري لدى عمر بن الخطاب في أصول السياسة والإدارة الحديثة
للدكتور : سليمان محمد الطماوي
الفكر الحضاري لدى فقهـاء المسلمين
للأستـاذ : محمد عبد الله السمان
الحضـارة الإسلاميـة والإنسـان
للدكتور : علي عبدِ الحليم محمود
الإسلام والتطور البشري (نموذج توضيحي)
للدكتور : عطيـة سويلـم
الحضارة الإسلامية بين التحدي والتعطيل
للأستـاذ : محمد علي ضنـاوي
الفكر العلمي الإسلامي والحضارة الإنسانية
للدكتور : عبد الحليم منتصر
من قضايا الاستدلال في القرآن (أوأهمية المناقشة والحوار في القرآن الكريم)
للدكتور : عبد الله الأوصيف
ماهية الحضارة وموقع الحضارة الإسلامية
للشيـخ : عثمان عبد القادر صافي
الصـراط الحضـاري
للدكتور : محمود محمد بابللي
هل عبادة الله واجب علمي حيوي، وما مفهومها في الإسلام
للدكتور : محمد معروف الدواليبي

القيم الكبرى التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي والحضارة الإسلامية

للدكتور محمد علي الهاشمي
الأستاذ بجامعة محمد بن سعود الإسلامية



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد، فإن رقي المجتمعات لا يقاس بما حققت من منجزات العلم، وما اكتشفت في عالم المادة من مخترعات فحسب، وإنما يقاس بهذا، وبشيء أهم منه، وهو سيادة القيم الإنسانية فيها، من عدل ومساواة وحب وتعاطف وإيثار وتضحية واستقامة ونظافة في التصور والسلوك والمعاملة.

والمجتمع الإسلامي يقوم على عديد من القيم، نطقت بها نصوص الإسلام الحنيف، من قران كريم وحديث شريف، وجعلت اعتناقها ديناً يثاب المرء عليه ويحاسب على تركه، فاستطاعت بذلك أن تجعل من الفرد المسلم الصادق نموذجاً فذاً للإنسان الاجتماعي المهذب التقي الخيِّر النظيف، وأن تجعل من المجتمع الإسلامي مجتمعاً فذاً من النمط الراقي الرفيع.

ذلك أن القيم في المجتمع الإسلامي تستند إلى أساس متين : إلى الإيمان بالله، ومن ثم كانت ثابتة راسخة دائمة، لا تعصف بها الأهواء، ولا تهزها الأزمات ولا تؤثر فيها المغريات، ولا يغير في جوهرها تطوّر المجتمعات وتتابع الدول، ولا مرور الأزمان وتعاقب العصور، ما دامت (لا إله إلا الله محمد رسول الله) سائده بمعناها وحقها في حياة المسلمين.

ومن أهم هذه القيم :

١ ـ العدل :

وهو من القيم الأصيلة الراسخة في المجتمع الإسلامي، وانه لعدل فذ فريد في تاريخ الأمم والشعوب، شهد بذلك كل من سمع به من سيرة الحكام والقضاة المسلمين، أو اطلع على النصوص القاطعة التي أمرت به أمراً، لا مجال للترخيص أو الاجتهاد فيه : « إن الله يأمركم أن تؤدّوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل »[١].

وهو عدل مجرد دقيق خالص، لا يميل ميزانه بالود أو الشنآن، ولا يؤثر في نصاعته ميل إلى قرابة أو نسب : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألّا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون »[٢] « وإذا قلتم فاعدلوا، ولو كان ذا قربى »[٣].

ولقد ضرب رسول الله ﷺ المثل الأعلى في العدل حينما جاء أسامةُ ابن زيد يستشفع في المرأة المخزومية التي سرقت، وعزم رسول الله ﷺ على قطع يدها، فقال له : أتشفع في حد من حدود الله يا أسامة ؟ والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها »[٤].

إنه العدل العام المطلق الذي يطبق على الكبير والصغير، والأمير والسوقة، والمسلم وغير المسلم، ولا يفلت من قبضته أحد، وهذا مفرق الطريق بين العدل في المجتمع الإسلامي وغيره من المجتمعات. ومما وعاه التاريخ، وأنصتت له بإجلال محافل العدل في العالم كله عبر القرون، وقفةُ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه بجانب خصمه اليهودي الذي سرق درعه، أمام القاضي شريح، الذي لم يمنعه إكباره وإجلاله لأمير المؤمنين

---

(١) سورة النساء آية ٥٨.

(٢) سورة المائدة آية ٨.

(٣) سورة الأنعام آية ١٥٢.

(٤) رواه البخاري ومسلم.

أن يطلب منه البينة على سرقة اليهودي درعه، ولما لم يجد أمير المؤمنين البينة حكم القاضي لليهودي على أمير المؤمنين.

والتاريخ الإسلامي حافل بأمثال هذه الأخبار الدالة على سيادة الحق والعدل في المجتمع الإسلامي، وحرية القضاء واستقلاله في المحكمة الإسلامية. ورسالة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري في القضاء، التي حددت معالم الحق والعدل في الخصومات، لا تزال حتى اليوم من كنوز دساتير القضاء.

٢ ـ الشـــورى :

وهي من القيم الكبرى في المجتمع الإسلامي، وليست الشورى فيه على غرار الشورى في المجتمعات الديمقراطية، فهذه شورى ابتدعها الإنسان، للتشاور في صيغة حكمه نفسه بنفسه، وشورى الإسلام للتداول بين أصحاب العقول الراجحة من أهل الحل والعقد للتوصل إلى الصورة المثلى في تطبيق حكم الله على البشر.

ومن ثم كانت الشورى في الإسلام مقدسة ؛ لأنها أمر رباني، لا يجوز لحاكم أن يعطلها، ليبسط سلطان طغيانه على الناس :

« وأمرهم شورى بينهم »[١].

« وشاورهم في الأمر »[٢].

على حين يجوز للحاكم في الدول ذات الدساتير الوضعية أن يعطل الدستور، ويفرض الأحكام العرفية باسم ضرورات الأمن، ومن ثم يكون التسلط ويكون الطغيان.

ولأصالة الشورى في الإسلام، ولكونها ربانية المصدر، ما كان الحاكم المسلم التقي يجد غضاضة أن يسمع المعارضة تأتيه من أي فرد من أفراد الرعية، فيتقبلها بطيب خاطر، ويرد عليها بسماحة نفس، كما قال

---

(١) سورة الشورى آية ٣٨.
(٢) سورة آل عمران آية ١٥٩.

عمر للمرأة التي ردت عليه بشأن المهور : أخطأ عمر وأصابت امرأة » ؛ وكما قال أيضاً، إذ اعترضه أحد المعترضين : « لا خير فيكم إذا لم تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نسمعها ».

والشورى في الإسلام تستمد قيمتها من هدى الإسلام الحنيف، الذي لم يجعلها شورى الغوغاء وسفلة القوم من محترفي السياسة وتجارها، كما هو الحال في برلمانات اليوم ومجالس الشعب، وإنما جعلها شورى قاصرة على علية القوم من ذوي العقول الراجحة والكفاءات العلمية المتخصصة، كما يفهم من قول الرسول الكريم : « ليليني منكم أولو الأحلام والنهى »[1].

فإشارة الرسول ـ ﷺ ـ بتقديم أولى الأحلام والنهي ليكونوا خلفه في الصلاة ترشيح لهم ليكونوا من أهل الشورى والحل والعقد في المجتمع الإسلامي. وشتان ما بين شورى تعتمد في تكوينها على الشارع وما يضطرب فيه من طغام الخلق وسقاطهم وسفلتهم، وبين شورى تقوم على أعيان الفضل وغرر المجد وهامة الشرف والتقوى في المجتمع.

٣ ـ المساواة :

وهي من القيم الكبرى في المجتمع الإسلامي، وهي ليست وليدة اجتهاد فردي، أو نتاج تفكير فلسفي، وإنما هي مبدأ أصيل قرره الذي برأ الخلق والكون والحياة.

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم.. »[2].

إنها المساواة المنبثقة عن وحدة المنشأ من أبوين، تحدر البشر جميعاً منهما، فكلهم إخوة من أب واحد وأم واحدة، فلا مجال إذن لتعالي أخ على أخيه، وانها المساواة التي لا تفرق بين هذا الأخ وأخيه أياً كان لسانه ولونه وجنسه ؛ إذ ما كان هذا الاختلاف في اللغة واللون والجنس للتقاطع والتدابر والتفاضل، بل كان للتقارب والتعارف والتعاون، والاستفادة من

---

(١) رواه مسلم.

(٢) سورة الحجرات آية ١٣.

خصائص الأجناس والألوان واللغات في تلاحم أخوي يبغى عمارة الأرض وإثراءها بالخير.

ومن ثم لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأبيض على أسود، الناس كلهم في ميزان الإسلام سواء : « لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، إلا بالتقوى »[1].

« إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية[2] وفخرها بالآباء، مؤمن تقي[3] وفاجر شقي، أنتم بنو آدم، وآدم من تراب، ليدعَنَّ رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم، أو ليكونن أهون على الله من الجعلان[4] التي تدفع بأنفها النتن[5].

« الناس سواسية كأسنان المشط ».

وإذا ما تفاضل الناس في المجتمع الإسلامي، فإنما يتفاضلون بالتقوى والعمل الصالح، أي بما يسدون إلى الناس من خدمات، وما يقدمون لهم من نفع :

« الخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله »[6].

وإذا ما علمنا أن الإسلام قرر هذه القيمة في المجتمع الإسلامي منذ ظهوره، وأن الإنسانية التي لم تهتد بهدى الإسلام لا تزال تعاني إلى اليوم من مشكلة الطبقات، ومن معضلة الملونين والتفاوت الرهيب بينهم وبين البيض، أدركنا الخير العميم الذي بسطت الحضارة الإسلامية رداءه للإنسانية منذ خمسة عشر قرناً.

---

(١) رواه أحمد.

(٢) أي كبرها ونخوتها وفخرها.

(٣) أي الناس مؤمن تقي وفاجر شقي يعني أن الحسب لا مدخل له.

(٤) الجعلان : جمع جعل، وهي دويبة سوداء حقيرة.

(٥) رواه الديلمي عن أنس.

(٦) رواه البزار في مسنده عن أنس.

٤ ـ تكافؤ الفرص :

تكافؤ الفرص في المجتمع الإسلامي نتيجة حتمية لسيادة العدل والمساواة فيه : ذلك أن المجتمع الذي سوّى بين الناس جميعاً، وحكم بينهم بالعدل، فتح لهم بالتالي أبوابه ليلجها كل إنسان يعيش فيه، مشاركاً بناء الحضارة الإنسانية التي يظلها الإسلام، حسب طاقاته وقدراته ومواهبه.

ومن ثم تضافرت على إنشاء الحضارة الإسلامية كنوز الفكر الإنساني من جميع الأجناس والألوان واللغات، وانصبت في حياضها ثمرات قرائحه على مدى العصور والأزمان، فكانت حضارة إنسانية عامة لا تختص بجنس دون جنس ولا بلغة دون لغة، ولولا هذه النظرة الإنسانية الشاملة للمواهب البشرية لما وصلت الحضارة الإسلامية إلى الشأو الرفيع الذي وصلت إليه.

وساعد على مجرى الحضارة الإسلامية في هذا الطريق الإنساني اللاحب أن الإسلام دين البشرية جميعاً، وليس لأمة دون أمة : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين »[١]، وأنه كان يخاطب الناس جميعاً على اختلاف أجناسهم وأديانهم ولغاتهم بـ « يا أيها الناس » :

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً....... »[٢].

ومن هنا كان الإنسان المواطن في المجتمع الإسلامي يجد طريق النبوغ مفتوحة أمامه، لا يعيقه عن ولوجه عائق من لغة أو دين أو قومية، أو فقر أو حطة نسب، كما نجد العوائق توضع اليوم في طريق النابغين الموهوبين في كثير من الدول، لأنهم ليسوا على دين النظام الحاكم، أو من قوميته، أو جنسيته، أو يقعد بهم فقرهم أو حطة نسبهم عن الوصول إلى تحقيق الأماني التي هفت إليها نفوسهم وتطلعت إليها مواهبهم وقدراتهم.

---

(١) سورة الأنبياء آية ١٠٧.

(٢) سورة النساء آية ١.

وليس أدعى إلى سعادة الإنسان في حياته من أن يرى مبدأ تكافؤ الفرص يظل مجتمعه، ويتيح لكل فرد فيه أن يفرغ جهده للوصول إلى تحقيق آماله الكبيرة في الحياة، وليس أهم من مبدأ تكافؤ الفرص في رقي المجتمعات وتطويرها، ودفع عجلة الحضارة الإنسانية إلى الأمام.

وتتسع دائرة تكافؤ الفرص في المجتمع الإسلامي، فتشمل كل وليد قبل ولادته، وذلك بتأمين الأبوين الصالحين القويين له، كيلا ينبت في منبت سوء وفقر وجهل وتخلف، على حين ينشأ غيره في بيئة صلاح وغنى وعلم وتقدم، فإنه لا تكافؤ في الفرص بين ناشئ في هذه البيئة وتلك، والفرصة ينبغي أن تكون متكافئة أو متقاربة على الأقل بين الناس في بيئاتهم الاجتماعية والعلمية والصحية، لتتفتح المواهب، وتَنموَ القدرات، وتنطلق الكفاءات في بناء الحضارة دونما مثبط.

٥ ـ المحبة والتآخي :

يتميز المجتمع الإسلامي بسيادة شعور المحبة والتآخي فيه، والحب الذي عرفه المجتمع الإسلامي بين أفراده لم يعرفه مجتمع بشري آخر. إنه الحبِ الأخوي الصادق الذي استمد صفاءه وشفافيته من مشكاة الوحي وهدى النبوة، فكان نسيجاً وحده في العلاقات البشرية، وكانت آثاره في سلوك الإنسان المسلم فريدة في تاريخ المعاملات.

ذلك أن الرابطة التي تربط المسلم بأخيه، مهما كان جنسه ولونه ولغته، هي رابطة الإيمان بالله : « إنما المؤمنون اخوة »[1]. وأخوة الإيمان أوثق روابط النفوس، وأمتن عرى القلوب، وأسمى صلات العقول والأرواح.

فلا عجب أن تثمر تلك الأخوة الفريدة نمطاً من الحب عجيباً في سموه ونقائه وعمقه وديمومته، يسميه الإسلام الحب في الله، ويجد المسلم الصادق فيه حلاوة الإيمان : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن

---

(١) سورة الحجرات آية ١٠.

يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النار »[1].

ولقد جاءت الأحاديث الشريفة تترى، ترفع من مقام المتحابين في الله وتصور منزلتهم العالية التي أعدها الله لهم في جنته، والشرف الرفيع الذي يسبغه عليهم يوم يقوم الناس لرب العالمين.

من هذه الأحاديث حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، ومنهم : « **رجلان تحابّا في الله، اجتمعا عليه وتفرّقا عليه** »[2].

ويؤكد الرسول الكريم في حديث آخر أن هذه المحبة بين المؤمنين شرط من شروط الإيمان الذي يدخل صاحبه الجنة، وذلك فيما رواه الإمام مسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابّوا، أولا أدلكم على شيءٍ إذا فعلتموه تحاببتم.. أفشوا السلام بينكم »[3].

لقد أدرك النبي الكريم بثاقب نظرته التربوية التي استقاها من تأديب الله إياه، أنه لا يستل سخائم الحقد من الصدور، ولا ينتزع أدران التنافس والحسد من النفوس، إلا أخوة صادقة عالية، تسود حياة المسلمين، وتقوم على المحبة والتواد، والتناصح والألفة والبشر، وينتفي منها الكيد والغل والحسد والتجهم والتباغض، ولذلك دعا إلى إفشاء السلام بين الإخوة، ليكون مفتاح القلوب للمحبة والتلاقي على الخير، وكان صلوات الله عليه يكرر هذا المعنى على مسامع أصحابه، متوخياً إلقاء بذرة المحبة في القلوب، وتعهدها بالرعاية، حتى تثمر ذلك الحب الوضيء الكبير الذي أراده الإسلام للمسلمين.

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه مسلم.

ذلك أن الحب في الله، لا لشيء آخر في هذه الحياة الحافلة بالمطامع والمنافع والشهوات، مرتقى صعب، لا يستطيعه إلا من صفت نفوسهم، وسمت أرواحهم، وهانت عليهم الدنيا بجانب مرضاة الله. فلا غرو أن يعد الله لهؤلاء من المكانة والنعيم ما يليق بسموهم في الدنيا وارتفاعهم على شواغلها وحطامها، نجد ذلك فيما رواه معاذ عن النبي ﷺ قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله عز وجل : المتحابون في جلالي لهم منابر من نور، يغبطهم النبيون والشهداء »[1].

بل لا غرو أن يحبُوَ الله عباده المتحابين فيه بما هو أجل وأسمى من تلك المنزلة وذلك النعيم، يحبوهم حبه الغالي، الذي تتقطع دونه الأعناق وتنتهي عنده معسولات الأماني، وذلك في حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ : أن رجلاً زار أخاً له في قرية أخرى، فأرصد الله تعالى على مدرجته[2] مَلَكاً فلما أتى عليه، قال : أين تريد ؟ قال : أريد أخاً لي في هذه القرية. قال : هل لك عليه من نعمة تربها عليه ؟[3] قال : لا، غير أني أحببته في الله تعالى. قال : فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه »[4].

ولقد كان الرسول الكريم صلوات الله عليه يدرك ما لهذا الحب النقي القوي من أثر في بناء المجتمعات والأمم، فكان لا يدع مناسبة تمر إلا ويدعو المسلمين إلى التحابب ويأمرهم أن يعلنوا عن هذا التحابب، لتنفتح مغاليق القلوب، وتشيع المودة والصفاء بين الصفوف. فعن أنس رضي الله عنه أن رجلاً كان عند النبي ﷺ، فمر رجل به فقال : يا رسول الله إني لأحب هذا. فقال له النبي ﷺ : « أأعلمته ؟ » قال : لا. قال : « أعلمه » فلحقه فقال : إني أحبك في الله، فقال : أحبك الله الذي أحببتني له »[5].

---

(١) رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح.

(٢) أي طريقـه.

(٣) أي تقوم بها.

(٤) رواه مسلم.

(٥) رواه أبو داوود باسناد صحيح.

بهذه المحبة الناصعة بنى رسول الله ﷺ جيل الإسلام الأول الذي بلّغ رسالة السماء إلى الأرض، وكان القاعدة الصلبة التي حملت صرح الإسلام الشامخ للناس.

وبدون هذه المحبة الصافية التي تفرد بزرعها الإسلام في القلوب، ما كان المسلمون الأول ليستطيعوا التماسك والصمود في تحمل تبعات الجهاد، وتقديم التضحيات الجسيمة في بناء دولة الإسلام ونشر أعلامه في الخافقين.

وبهذه المحبة الصادقة العجيبة استطاع رسول الله ـ ﷺ ـ أن ينشئ مجتمع المؤمنين الأمثل في تاريخ الإنسانية، الذي صور تماسكه العجيب أروع تصوير بقوله : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً »[١] وبقوله أيضاً : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى »[٢]، وبقوله أيضاً : « المسلمون كرجل واحد، إن اشتكت عينه اشتكى كله، وإن اشتكى رأسه اشتكى كله ».

٦ ـ الكــرم :

الكرم خلق إسلامي أصيل، يُجمِّلُ صاحبه، ويسمو به، ويحبب الناس ويدنيهم منه. والكرم الإسلامي كرم نبيل موجه دوماً في سبيل الله لا في سبيل المنافع والغايات، أو الزهو والمباهاة. ومن ثم كان من وصف الأبرار الذين عدد الله صفاتهم في سورة الدهر أنهم أجواد كرماء لا يبتغون بكرمهم جزاء ولا شكورا : « ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً، إنما نطعمكم لوجه الله، لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً »[٣].

وإنه لمرتقى صعب عسير أن ينفق الإنسان ماله، لا يبتغي من وراء إنفاقه فائدة تعود عليه، ولا شكراً يوجه إليه. وقد راض الإسلام الإنسان على بلوغ هذا المرتقى العالي مرغباً إياه بما أعد له من جزاء عظيم مضاعف يوم

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم.

(٣) سورة الدهر آية ٨ ، ٩.

الحساب : « مَثَلُ الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل، في كل سنبلة مئة حبة، والله يضاعف لمن يشاء، والله واسع عليم »[1] فإذا بأبي بكر ينزل عن ماله كله في سبيل الله، وينفق عبد الرحمن ابن عوف ماله كله أربع مرات في حياته، والنماذج التي بلغت ذلك المستوى العالي في الكرم كثيرة في تاريخ الإسلام والمسلمين.

كان الاتصاف بالكرم من أحب الأعمال الصالحة إليهم، ولم يكن كرمهم مقصوراً على البذل في سبيل الله ساعة العسرة، بل كان الكرم خليقة ملازمة لهم في الحرب والسلم، والشدة والرخاء، يصور ذلك قول علي رضي الله عنه : « لأن أجمع نفراً من إخواني على صاع أو صاعين من طعام، أحب إلي من أن أخرج إلى سوقكم فأعتق رقبة »[2].

ذلك أن مثل هذه اللقاءات الودية على الطعام، توطد أواصر المحبة بين الإخوان والأصدقاء، وتقوي روح التعاطف فيهم، وتشيع في حياتهم رباط العاطفة الإنسانية الذي افتقده إنسان الحضارة المادية الحديثة، بعد أن أصبح لا يهتم إلا بنفسه ومصلحته، فإذا هو يعاني خُواءً روحياً وجفافاً عاطفياً، نتج عنهما شعور عميق بالحرمان من الصداقة والأصدقاء المخلصين. وما اهتمامه باقتناء الكلاب، وإقباله على تدليلها والعناية بها، إلا تعويض عما فقد من ري العاطفة الإنسانية الذي جففته في نفسه الفلسفة المادية التي اتخذها ديناً له، وإطاراً يتحرك ضمنه في متقلبه ومثواه. فقد جاء في تقرير نشره أحد الخبراء في تربية الكلاب في الغرب أن في انكلترا خمسة ملايين كلب، وفي فرنسا سبعة ملايين كلب، تعيش مع أصحابها كأنها من أقاربهم، ولم يعد غريباً في مطاعم باريس ولندن أن تشاهد الكلب وصاحبه يتناولان طعامهما على مائدة واحدة. ولما سئل مسؤول بجمعية رعاية الحيوان بباريس : « لماذا يعامل الفرنسيون كلابهم مثل ما يعاملون به أنفسهم ؟ » أجاب : « لأنهم يريدون أن يُحبّوا، ولكنهم لا يعثرون بين الناس على من يحبونه ».

---

(١) سورة البقرة آية ٢٦١.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد.

إن الإنسان المادي في الغرب أو في الشرق لم يعد يجد الإنسان الصديق الوفي الودود في مجتمعه ليمنحه حبه وعاطفته، فاتجه إلى هذه الحيوانات التي وجد فيها من الألفة والوفاء أكثر مما وجد في الناس الذين حوله.

فهل بعد هذا من ارتكاس عاطفي يهوي بالإنسان، فيجعله أيضاً أليف الحيوان، بعد فقده إشراقة الهدى ونعمة الإيمان ؟.

٧ ـ الإيثـــار :

إن أخوّة الإيمان ليست شعارات ترفع، ولا تبجحاً يقصد به الإعلان والدعاية، وإنما هي رابطة مقدسة، لها التزاماتها وتكاليفها وحقوقها، يعرف هذا من آمن بالله واليوم الآخر حق الإيمان، وتمثل حقائق الإسلام حق التمثل. وإننا لنجد أثر هذا الإيمان وثمرة هذا التمثل في صنيع الأنصار الذين ضربوا المثل الأعلى في الحب والإيثار لإخوانهم المهاجرين حين قدموا عليهم مهاجرين بدينهم، لا يملكون شيئاً، فقدَّم لهم الأنصار كل شيء، حتى كان أحدهم يقول لأخيه : هذا مالي فخذ شطره، وهاتان زوجتاي فانظر أعجبهما إليك فسمها لي أطلقها لتكون زوجة لك بعد انقضاء عدتها. وكان الأخ المهاجر يقابل عاطفة أخيه الأنصاري، بأحسن منها، فيقول له : بارك الله لك في أهلك ومالك، ما لشيء من هذا في نفسي حاجة، ولكن دلوني على السوق لأعمل.

وكان الأنصاري يستضيف أخاه من المهاجرين، وليس في بيته من الزاد إلّا قوت صبيانه، فيؤثره على نفسه وعياله، قائلاً لزوجته : نوّمي صبيانك وأطفئي السراج، وقدمي ما عندك للضيف، ونجلس معه إلى المائدة، نوهمه أننا نأكل معه، ولا نأكل. ويجلسون إلى المائدة، ويأكل الضيف وحده، ويبيت الزوجان طاويين. ويغدو الأنصاري على النبي ﷺ فيقول له : « لقد عجب الله من صنيعكما الليلة »[1].

وبلغ من إيثار الأنصار للمهاجرين ومواساتهم لهم بأموالهم أنهم قالوا

---

(١) متفق عليه.

للنبي ﷺ : اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل، قال : لا. فقالوا : تكفوننا المؤونة[1] ونشرككم في الثمرة. قالوا سمعنا وأطعنا[2].

وقد أكبر المهاجرون صنيع إخوانهم من الأنصار، فقالوا للنبي ﷺ : يا رسول الله : ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل، ولا أحسن بذلاً من كثير، لقد كفونا المؤونة وأشركونا في المهنأ[3]، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله. قال : لا، ما أثنيتم عليهم، ودعوتم الله لهم[4].

وحسب الأنصار ثناء الله عليهم، وتنويهه بحسب صنيعهم، إذ أنزل فيهم قرآناً يتلى، فيحكي قصة إيثارهم الفريد على وجه الزمان، ويخلدهم نماذج واقعية حية رفيعة للتحرر من شح النفوس : « والذين تبوءُوا الدار والايمان من قبلهم، يحبون من هاجر إليهم، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، ويؤثرون على أنفسهم، ولو كان بهم خصاصةٌ[5]، ومن يُوقَ شحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون »[6].

وستبقى صورة الأنصار الوضيئة في القرآن الكريم منار هداية واشعاع للإنسانية الضاربة في المطامع والأثرة والشح والإمساك، ما أقبل ليل وأدبر نهار، ودعي الناس للبذل والسخاء والإيثار.

لقد أدرك الأنصار رضوان الله عليهم ما تعنيه أخوة الإيمان حتى آخى الرسول ﷺ بينهم وبين المهاجرين، فكانوا مؤمنين حقاً، أحبوا لإخوانهم ما أحبوا لأنفسهم، ـ كما سمعوا من رسول الله ﷺ ـ فلم يمسكوا عنهم شيئاً من حطام الدنيا، بل نزلوا عن شطر ما يملكون لإخوانهم طائعين مختارين، طيبة بذلك نفوسهم، راضية قلوبهم، وكانوا في أول الهجرة يورثون المهاجرين دون أرحامهم، ليقوموا بحق الأخوة التي رفع لواءها فيهم رسول الله ﷺ، يشهد لذلك الحديث الذي رواه البخاري عن ابن عباس، قال :

---

(١) أي تساعدوننا في زراعة البساتين.

(٢) رواه البخاري.

(٣) أي الهنيء والذي يأتيك بلا مشقة.

(٤) أخرجه الإمام أحمد.

(٥) أي فاقـــه.

(٦) سورة الحشر آية ٩.

« كان المهاجرون حين قدموا المدينة يرث الأنصاريُّ المهاجريّ دون ذوي رحمه للأخوَّة التي آخى النبي ﷺ بينهم، فلما نزلت « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض »، نسخ الميراث.. وبقي النصر والاخاء والايثار والمساواة.

ولقد بقيت روح الإيثار هذه سارية في مجتمع المسلمين عبر القرون، وتاريخنا في القديم والحديث مليء بالشواهد على إيثار المسلمين وحبهم لإخوانهم ما أحبوا لأنفسهم، ويحضرني في هذا المقام ما يتناقله شيوخ من الجيل السابق من الأحياء عن التجار في بلاد الشام، ممن تجمعهم سوق واحدة، كسوق العطارين وسوق الصباغين، وسوق الحبالين وغيرها من الأسواق المسقوفة القديمة، كان أحدهم إذا سبق إليه مشتر فاشترى منه بضاعة، ثم جاءه مشترٍ ثان، وكان جاره لم يستفتح نهاره ببيع بعد ـ قال له بلطف : اذهب واشتر ما يلزمك من جاري، فإني قد بعت، وهو لم يبع بعد.

يا لله ! كم تبدو الحياة بهيجة شائقة ممتعة في ظلال هذا الإخاء وهذا التعاطف وهذا الإيثار ! وكم يبدو الأحياء سعداء حين تسري فيهم روح الإسلام، وتسود في معاملاتهم قيمه ! إنهم حينئذ يعيشون في سمو ما وصل إليه الإنسان حين استظل بهذا الدين، الذي علمه أن « الدين النصيحة »[1]، وأنه « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »[2].

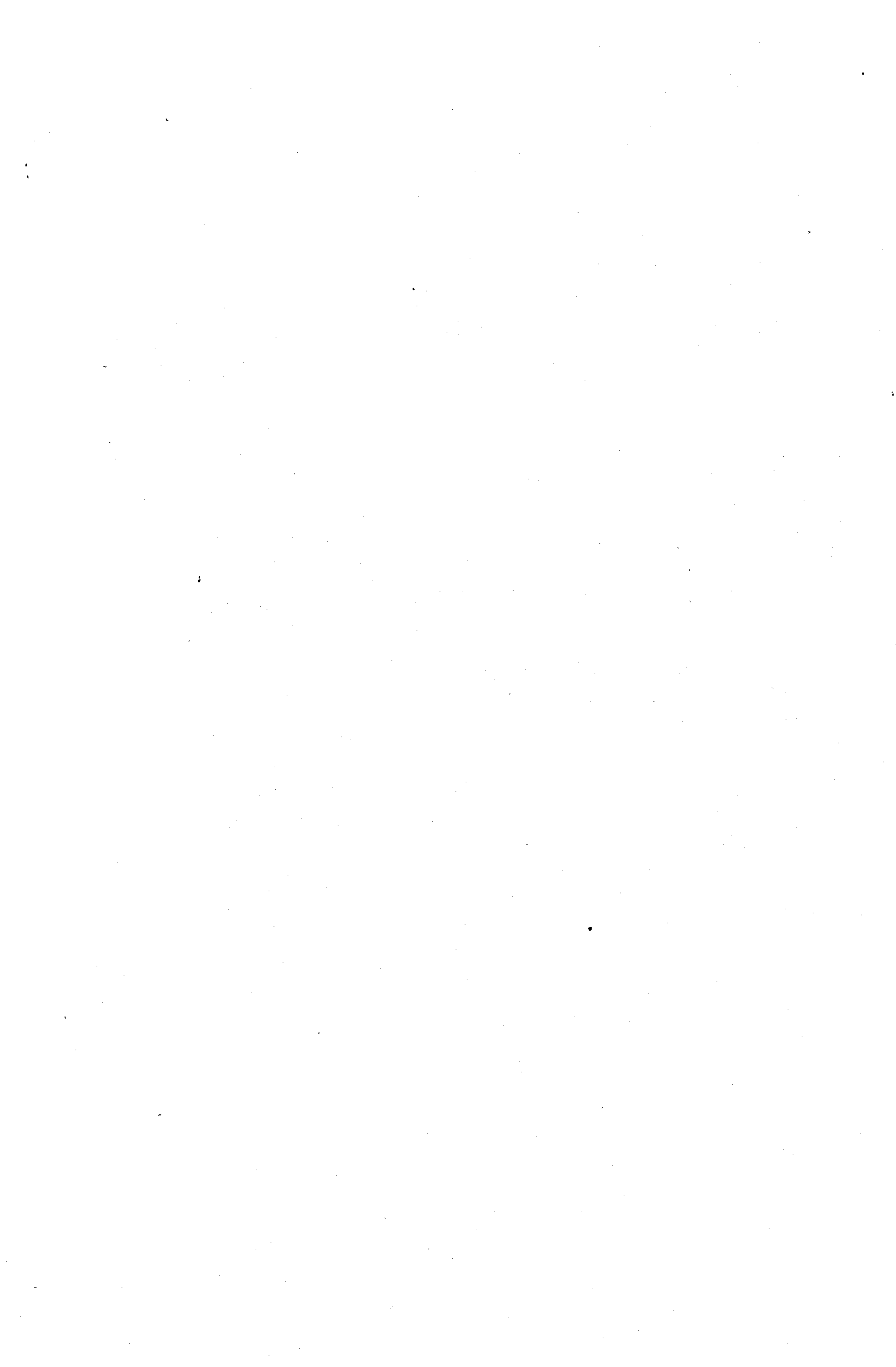
---

(١) رواه مسلم.

(٢) متفق عليه.

القيم الحضاريّة في رسالة الإسلام

للدكتور محمد فتحي عثمان
أستاذ الحضارة والنظم الإسلاميّة بكلية العلوم الاجتماعيّة
بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميّة



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ لله . وصلّى الله على رسوله الكريم

يشغل الكلام عن الحضارة أذهان الكثيرين في عصرنا.. فإذا كانت المجتمعات النامية تكدح للتقدم وتئن من التخلف وقد تعاني من بعض متاعب الطموح، فإن المجتمعات المتقدمة قد تعرضت لانفجار مشكلات متتابعة، اقتصادية سياسية حربية، ونفسية روحية اجتماعية، وغدت تعاني من ركود الطموح بعد أن استلزم التقدم التكنولوجي أعباء مالية وعلمية لإمكان الوقوف في حلبة السباق والتنافس، وتأكد أن هذه الأعباء فوق طاقة الكثيرين أفراداً وجماعات.. وكثيراً ما أدى هذا التقدم التكنولوجي إلى مشروعات رأسمالية عملاقة يملكها القليلون بينما تستغرق العامة في الاستهلاك.. فثارت التساؤلات عن حقيقة التقدم ومصير الحضارة الراهنة. وارتفعت نذر التشاؤم التي أصبح المفكر الألماني **أوزفالد اشبنجلر** **Oswald Spengler** (١٨٨٠ ـ ١٩٣٦م) علماً مميزاً معبراً عن تلك النذر بصيحته في كتابه المعروف « **انحدار الغرب** » **Decline of the West** ونظريته عن « **دورة الحضارة** » التي أعاد بها إلى الأذهان رأي ابن خلدون في « عمر الدولة »، وانتهى إلى أن حضارة الغرب قد جاوزت مرحلة الشباب

والقوة ودخلت في مرحلة الشيخوخة والتدهور. وقد حاول المؤرخ البريطاني **أرنولد توينبي Arnold Toynbee** (١٨٨٩ ـ ١٩٧٥م) أن يلطف من هذه النذر، وأن يقول إن أمراض الحضارة الغربية الراهنة حقيقية وخطيرة ولكنها قابلة للعلاج، وأن هذه الحضارة العالمية قادرة على أن تتجدد وتستمر من داخلها.

وإزاء هذه الانفجارات في واقع الحضارة المعاصرة، وما ترتب عليها من آراء متشائمة، ألحت الأسئلة على الباحثين والمفكرين بل وعلى المثقفين أجمعين : ما هي الحضارة إذن وما حقيقة التقدم إذا كانت المجتمعات المتحضرة المتقدمة تعاني ما تعانيه من انفجارات... وهل الحضارة الغربية المعاصرة التي أُصْلَت الغربيين وغيرهم ناراً حامية هي « **حضارة** » **بحق أم أن لها اسماً آخر** ؟ وهل التقدم، الذي طالما قيل خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر إنه مطرد، وأن اطراده هو سنة الوجود، مجرد تفكير متفائل **Wishful thinking** وأن الأولى القول بما قاله السابقون من أنه ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع ؟

وكما أن عالمنا المعاصر قد انقسم إلى مجتمعات متقدمة وأخرى نامية، فقد انقسم ايديولوجياً بين مذاهب متباينة متصارعة، فإلى أي مدى يقترب حضارياً مجتمع الاتحاد السوفيتي من مجتمع الولايات المتحدة أو المجتمع البريطاني أو المجتمع الفرنسي، ويقترب حضارياً المجتمع في بلجيكيا من المجتمع في تشيكوسلوفاكيا ؟ وإلى أي مدى يقترب حضارياً مجتمع الصين من مجتمع الهند، أو يقترب حضارياً مجتمع سيرالانكا (سيلان) من مجتمع كوبا ؟؟... والجميع يعيشون في ظل حضارة واحدة. وهل يصح القول مثلاً بوجود حضارة رأسمالية وحضارة اشتراكية ما دام التناقض بين الأصول الفكرية في المذهبين واسعاً وشاملاً، وقد خرج عن النطاق الاقتصادي وانعكس على مختلف الجوانب فأضحى اختلافاً جذرياً شمولياً في الفلسفة والسلوك، أم أن الأسس التكنولوجية الواحدة في عالمنا كفيلة بتحقيق الوحدة الحضارية مهما كانت الخلافات الايديولوجية ؟.

وإذا ذكرنا الايديولوجيات واختلافاتها، ذكرنا الدين، وهو العقيدة

التي لا يشاركها شيء في مدى العمق والشمول، وهنا تثور أسئلة، فهل « **الحضارة الإسلامية** » اصطلاح تاريخي يعبر عما مضى ولا مكان له في الحاضر والمستقبل ؟. وهل ثمة حضارة « مسيحية » وحضارة « يهودية »، وبالنسبة للعقائد الأخرى هل وجدت حضارة هندوكية أو بوذية أو غير ذلك ولو في فترة معينة من فترات التاريخ ؟ أم أن ارتباط الحضارة بالدين هي خصيصة مفردة لحضارة الإسلام لا تشاركها فيه عقيدة أخرى سماوية أو أرضية ؟ ويبقى بعد ذلك أن نتساءل : **هل كانت هذه الحضارة المتميزة** المفردة « تاريخية » نتيجة ظروف موقوتة معينة مضت، أم تراها حضارة حية قابلة للتجدد والاستمرار، ليس فقط في عالم الأمل والتمني والفكر المثالي المجرد بل في عالم الواقع المحقق أيضاً.

كل هذه أسئلة تلح على المثقفين في عالمنا المعاصر، وتلح أيضاً على المسلمين المؤمنين بدينهم وقيمهم وتاريخهم، ومن هنا كان هذا اللقاء من الأهمية والنفع بمكان، إذ يتصدى لتلك القضية الفكرية الحياتية الكبرى « **الإسلام والحضارة** » وللدور الحضاري أو المسئولية الحضارية لشبابنا المسلم.

ولا يستهدف هذا البحث محاولة الإجابة على كل هذه التساؤلات الكبرى، ولا أظن لقاءنا هذا يستهدف مثل ذلك، وإنما قد نعرض لشيء من هذا القبيل في طريقنا إلى هدفنا الذي حددناه للقائنا، وإلى الهدف الذي قصدته من بحثي عن « القيم الحضارية في رسالة الإسلام »، ونحن نعرض لذلك في مرور عابر بقدر ما يخدم هدفنا المقصود. وإنما نريد، بإثارتنا هذه التساؤلات، بيان أهمية القضايا الحضارية في فكرنا وواقعنا المعاصر، واحتياجنا إلى معالجة هذه القضايا من وجهة إسلامية ومنهج إسلامي. وعلى الله قصد السبيل.

* * *

الحضـــارة

ولا بأس أن نحاول تعريف « الحضارة » في مستهل هذا البحث وما أدقها من محاولة...

وقد عرف العرب من قديم المقابلة بين الحضر والسفر وهو التنقل والترحال، فكأن المقابلة بين الحضارة والبداوة هي مقابلة بين الاستقرار والتنقل، ويوصف أهل الحضر بأنهم أهل القرار، كما يقال : قراري للحضري الذي لا ينتجع ولا يتنقل طلباً للكلأ في مواضعه. كذلك يوصف أهل الحضر بأنهم « أهل المدر » وهو قطع الطين المتماسك، أو « أهل الحجر » لأنهم يسكنون بيوتاً متينة ثابتة، خلافاً « لأهل الوبر » الذين يسكنون الخيام من وبر الإبل أو صوف الغنم أو شعر الماعز.

ويذكر ابن خلدون (المتوفي سنة ٨٠٨ هـ/١٤٠٦ م) في « مقدمته » **حقيقة التاريخ** « أنه خبر عن **الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم،** وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل **التوحش والتأنس** والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض، **وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع، وسائر ما يحدث من ذلك العمران** بطبيعته من الأحوال » ويرى « أن الاجتماع الإنساني ضروري، ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم : الإنسان مدني بالطبع، أي لا بد له من الاجتماع الذي هو المدنية في اصطلاحهم – وهو **معنى العمران** ... فإذن هذا الاجتماع ضروري للنوع الإنساني وإلا لم يكمل وجودهم وما أراده الله من إعمار العالم بهم واستخلافه إياهم وهذا هو معنى العمران ». ثم يقرر ابن خلدون « أن اختلاف الأجيال في أحوالهم إنما هو باختلاف نحلتهم من المعاش، فإن اجتماعهم إنما هو للتعاون على تحصيله، **والابتداء بما هو ضروري منه وبسيط قبل الحاجي والكمالي**... فكان حينئذ اجتماعهم وتعاونهم في حاجاتهم ومعاشهم وعمرانهم من القوت والسكن والدفء إنما هو بالمقدار الذي يحفظ الحياة ويحصل بلغة العيش من غير مزيد عليه للعجز عما وراء

ذلك. ثم إذا اتسعت أحوال هؤلاء المنتحلين للمعاش، وحصل لهم ما فوق الحاجة من الغنى والرفه **دعاهم ذلك إلى السكون والدعة، وتعاونوا في الزائد على الضرورة، واستكثروا من الأقوات والملابس والتأنق فيها وتوسعة البيوت واختطاط المدن والأمصار للتحضر**. ثم تزيد أحوال الرفه والدعة فتجيء عوائد الترف بالغة مبالغها... **وهؤلاء هم الحضر، ومعناه الحاضرون أهل الأمصار** والبلدان، ومن هؤلاء من ينتحل في معاشه الصنائع، ومنهم من ينتحل التجارة (خلافاً للبدو القائمين على الرعي والفلاحة) وتكون مكاسبهم أنمى وأرفه من أهل البدو لأن **أحوالهم زائدة على الضروري**، ومعاشهم على نسبة وجدهم » « فالبدو هم المقتصرون على الضروري في أحوالهم، العاجزون عما فوقه، وأن الحضر هم المعتنون بحاجات الترف والكمال في أحوالهم وعوائدهم. ولا شك أن الضروري أقدم من الحاجي والكمالي وسابق عليه... فالبدو أصل للمدن والحضر وسابق عليهما.. وخشونة البداوة قبل رقة الحضارة... فقد تبين أن وجود البدو متقدم على وجود المدن والأمصار وأصل لها، بما أن وجود المدن والأمصار من عوائد الترف والدعة التي هي متأخرة عن عوائد الضرورة المعاشية، والله أعلم ».

ويقرر ابن خلدون أن الرئاسة المتسلطة أو « الدولة »، بما فيها من سلطة حاكمة ثابتة، هي من لوازم الجماعة المستقرة « **فالآدميون بالطبيعة الإنسانية** يحتاجون في كل اجتماع إلى وازع وحاكم يزع بعضهم عن بعض، **ولا بد أن يكون متغلباً عليهم... وهذا التغلب هو الملك وهو أمر زائد على الرئاسة**، لأن الرئاسة إنما هي سؤدد وصاحبها متبوع وليس له عليهم قهر في أحكامه، وأما الملك فهو التغلب والحكم بالقهر ». ومن الظريف أن القانونيين المحدثين يعبرون بما يشبه ذلك، فيرون أن من خصائص الدولة « سلطة القمع » Contrainte، وهي تتفرد بهذه السلطة وتحتكرها دون الأفراد.

ويرى ابن خلدون أن للمملكة عمراً وأجلاً ودورة، وأن الملك دول بين الأقوام وفقاً لما ارتآه في شأن « العصبية »[1] وهكذا نجد عند ابن خلدون أن

---

(١) ابن خلدون : التاريخ جـ ١ وهو المقدمة ـ دار البيان ـ بيروت ـ ص ٣٥، ٤١، ٤٣، ١٢٠ ـ ١٢١، ١٣١ وما بعدها.

الملك زائد على الرئاسة، وأن الحضارة زائدة على الضروري من العمران، وأن الترف زائد على الحضارة. ويبدو أن ذهنه المنطلق المرتب يرتب كل شيء على درجات، ويرى أن التغير في الكم إذا تزايد وصل إلى تغير في الكيف أيضاً، وهكذا تتحول البداوة إلى حضارة، والحضارة إلى ترف يؤذن بانحلال الحضارة، وتتحول الرئاسة إلى ملك في أهل العصبية، لكن « نهاية الحسب في العقب الواحد أربعة آباء » أي أربعة أجيال، « واشتراط الأربعة في الأحساب إنما هو في الغالب، وإلا فقد يندثر البيت من دون الأربعة ويتلاشى وينهدم، وقد يتصل أمرها إلى الخامس والسادس إلا أنه في انحطاط وذهاب. واعتبار الأربعة من قبل الأجيال الأربعة : بانٍ ومباشرٌ له ومقلدٌ وهادم ـ وهو أقل ما يمكن. وقد اعتبرت الأربعة في نهاية الحسب في باب المدح والثناء، قال ﷺ : « انما الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم » ـ إشارة إلى أنه بلغ الغاية من المجد. « ويظهر أن الأربعين سنة أقل ما يأتي فيها فناء جيل ونشأة آخر »[1].

وما قرره ابن خلدون من أن الحضارة أحوال زائدة على « الضروري من العمران » لا يسلم به المفكرون والباحثون اليوم، كما لا يسلمون بأن البدو أو حتى المجتمعات البدائية تخلو من الحضارة، بل يميلون إلى القول **بأن الحضارة ظاهرة إنسانية عامة موجودة ما وجد الإنسان الذي انعم الله عليه بالعقل والإرادة والبيان، فالإنسان دائماً قادر على تجميع خبراته واحتوائها وتذكرها والإفادة منها ـ وهذا من دقة لفظ « العقل » في العربية ومعناه الذي يقبض على الشيء ويعقله**[2]. فالحضارة ميزة للإنسان عامة بفضل جهازه العصبي المركب الذي خلق لديه **قدرات الاستدلال والإستنتاج والتذكر واستخدام اللغة كرموز** كلامية ثم كتابتها... وهكذا لا نعرف جماعة إنسانية بلا حضارة، لأن المجتمع الإنساني ليس كقطيع من الحيوان أو الطير أو الحشرات تحكمه الغريزة مهما بلغ نتاجها من احكام، مثلما هو

---

(١) المصدر السابق : ص ١٣٦ ـ ١٣٧، ١٤٢.

(٢) حسين مؤنس : الحضارة ـ سلسلة « عالم المعرفة ـ الكويت ـ المحرم ١٣٩٨ هـ يناير ١٩٧٨ م ص ١٥.

الحال في نسيج العناكب، وخلية النحل ورحيقها، واهتداء الحمام الزاجل إلى مكانه، وإرهاف حاسة الكلب في الشم، ومحاولة أنواع راقية من القردة مثل الشمبانزي حل بعض مشكلاتها، ذلك أن عالم الحيوان على اختلاف أنواعه، إذ تحكمه الغريزة فإنها تسوقه إلى أعمال متكررة ثابتة، ويفتقد الحيوان الذاكرة التي تختزن خبراته كما تعوزه القدرة على الاستدلال والابتكار. ومن هنا يمكن القول بأن الكائنات الإنسانية هي كائنات قادرة على صنع الحضارة ودعمها، ولكل جماعةٍ إنسانية حضارتها المتميزة التي صنعتها وانتقلت من جيل لآخر[1]. والبدو ليسوا خلواً من الحضارة[2]، وهم في بلاد العرب، قبل الإسلام مثلاً، كان لهم عرفهم وقيمهم الأخلاقية، وهذه كلها نظم ترتكز في تقريرها ووسائل أعمالها وإنفاذها على فكر، وكان لهم شعر فيه تأمل وتخيل يدلان على قدرة عقلية كما كانت لهم خبرات عن النجوم والرياح والمطر بنيت على الملاحظة والاستقراء. ولقد كان العرب يرون في إرسال الطفل إلى البادية أنجب له وأعون على تنمية بدنه وحواسه وفكره ولسانه. وتتعدد الشواهد على وجود سرعة البديهة في الجواب والارتجال في الكلام عند عرب البادية قديماً وحديثاً.

كذلك فإن الترف ليس قريناً حتمياً للحضارة أو نتيجة حتمية لرقيها. فالترف أسلوب معين في استعمال ما أتيح للإنسان من إمكانات وتيسيرات، وليس هو الأسلوب الوحيد أو النتيجة الحتمية لليسر، « فالترف ليس حالة من حالات الحضارة وإنما هو موقف منها »... كما عبر بحق الأستاذ الدكتور حسين مؤنس. فقد يكون هناك من هو واسع الدخل لكنه منتظم الإنفاق، بينما قد يكون هناك من هو محدود الدخل لكنه مختل الإنفاق، وإنما يكون الترف في اختلال ترتيب الأولوية في وجوه الإنفاق، وتحديد المناسب لكل وجه. والإسراف والشطط خلل تفكيري مزاجي ليس من نتائج الحضارة بل هو سمة لأفراد أو جماعة محدودة من الأفراد،

---

(١) أحمد حمدي محمود: الحضارة ـ سلسلة « كتابك » ـ القاهرة ١٩٧٧م ـ ص ٨ ـ ١٠، أيضاً مؤنس، الحضارة، ص ١٥ ـ ٢٨.

(٢) انظر في هذا الباب: مؤنس: المصدر السابق ص ٥٥ ـ ٥٦، ١٧٩ ـ ١٨١.

والتحضر والتدرج في مراتب الحضارة لا يضعف الإنسان أو الجماعة بل يقويه ويقويها... ولكن الذي يضعف البشر هو سوء استخدامهم لنعم الحضارة... أو سيطرة أدوات الحضارة على الإنسان بدلاً من سيطرته عليها... وتسمى هذه الحقيقة من حقائق الحضارة بالقبض Maniability وبدونه لا يستطيع الإنسان الإفادة من أي أداة أو ثمرة من ثمرات الحضارة توضع بين يديه... وكل استمتاع بأطايب الحياة ومطالبها بغير ضابط يصبح ضرراً على المستمتع به... ولكن ابن خلدون حَسِبَ أن الترف من خصائص الأغنياء والأقويات وذوي السلطان، مع أنه في حقيقته نزوع يوجد في (الإنسان)... ومرده إلى ضعف الإنسان عن مقاومة رغباته ومطالبه... ومن الفقراء من لا يكادون يحصلون على قوت اليوم، والمال القليل الذي يكسبونه يسيطر عليهم... والاستمتاع بخيرات هذه الدنيا مطلب صحي سليم... وموقف الإنسان من الحضارة وأدوات الترف تحدده ثقافته وتجاربه وذكاؤه وقواه العقلية والمعنوية، أو تحدده كذلك تربيته وما نشأ عليه من قواعد أخلاقية وسلوكية... »[١] والله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده. ولقد أنكر متزهد على مؤمن فقيه أكل لون من الحلوى البالغ اللذة المعقد الصنع لأنه سيعجز عن شكر مثل هذه النعمة، فكان الرد الواعي عليه بأن المؤمن عاجز عن الوفاء بشكر نعمة شربة الماء!

ونختار من تعريفات الحضارة المتعددة ما ارتآه المفكر الفرنسي جورج باستيد George Bastide من أنها « **التدخل الإنساني الإيجابي لمواجهة ضرورات الطبيعة، تجاوباً مع إرادة التحرر في الإنسان، وتحقيقاً لمزيد من اليسر في إرضاء حاجاته ورغباته ولإنقاص العناء البشري** »[٢]. فالسلوك الإنساني الذي ينتج الحضارة هو استجابة لتحدٍّ من ظروف الطبيعة يكون هو المثير والدافع والحافز Stimulus للإنسان كي يتغلب على ما يواجهه، ومن ذلك عوامل في طبيعة الإنسان نفسها مثل حاجاته للطعام والشراب والدفء والاستقرار والأمن، وهناك منافسة الإنسان الآخر له على ذلك، ثم ما يكون من قصور ظروف بيئته المادية عن تلبية هذه الحاجات.

---

(١) مؤنس: المصدر السابق ص ٥٢ ـ ٥٣، ١٥٤ ـ ١٥٩.

(٢) جورج باستيد: المدينة ـ ترجمة عادل العوا ـ طبع دمشق ـ ص ١٢ وما بعدها.

وهكذا ترجع الحركة التاريخية إلى نوع من التفاعل بين البيئة والإنسان. وتكون الحضارة هي ثمرة تحدي الإنسان لبيئته ونوع استجابته لها ـ على ما فصّل وأفاض في ذلك توينبي مثلاً[1]..

ومن مزايا التعريف المتقدم للحضارة، أنه مثلما أوضح عواملها المادية، أبرز عواملها المعنوية التي أجملها في تطلع الإنسان للتخلص من الضغوط وتحقيق حريته، فليس كل سلوك إنساني لأجل تلبية حاجة مادية مباشرة، بل إنه قد يكون أيضاً لتلبية حاجة معنوية هي التطلع للمعرفة واكتشاف المجهول وعدم الاستسلام للواقع المحيط به الذي يفرض سيطرته على الإنسان في أول الأمر. فالحضارة تحقيق للراحة الإنسانية في جوانبها المتعددة المتقابلة المتكاملة، جسدية وعقلية ونفسية وروحية. والسلوك الحضاري هو جواب الإنسان على التحدي الموجه له : تحدي الطبيعة المادية من جهة، وتحدي حاجاته هو من جهة أخرى، وتحدي الإنسان الآخر أو المجتمع من جهة ثالثة. ويأتي هذا الجواب الإنساني على التحدي في صور نشاط متعدد الجوانب، مادي ومعنوي، وهكذا تشمل الحضارة النشاط الإنساني في شتى مجالات الآداب والعلوم والفنون، كما تشمل أيضاً صور الإنتاج المادي من عمائر وطرق وجسور وقناطر وغيرها. ومن مجالات الحضارة العقائد والعوائد والأدب الشعبي وأدب الخاصة أو الأدب الرفيع belles lettres والنظم السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية (نظم الحكم والإدارة، الملكية، الأسرة : الزواج والطلاق، الميراث... الخ)، كما لا يخرج عنها تخطيط المدن والعمارة ووسائل النقل وأساليب المأكل والمشرب والزينة والترفيه.

وإن صور النشاط الفكري الروحي التي تتجاوز العالم المحسوس **transcendantal** لتشغل منزلة من أرفع المنازل في مفهوم الحضارة كما أوضح باستيد. وفي الندوة التي عقدت في ديسمبر سنة ١٩٠١ م بمدينة نيودلهي عاصمة الهند بدعوة من اليونسكو لمناقشة « المثل الأعلى الإنساني وفلسفة

---

(١) انظر مثلا : « مؤنس : المصدر السابق ص ١١٧ وما بعدها، ص ٣٧٠ وانظر توينبي : A. Toynbee civilization on Trial وجدت ترجمته العربية بعنوان « الحضارة في الميزان » ترجمة محمد بدران، وكتابه الأوسع « مدخل لدراسة التاريخ » An Introduction to the Study of History.

التربية في الشرق والغرب »، اتفق المؤتمرون مع ما أوجبه متحدث فرنسي من التفريق بين المفهوم الحقيقي الشامل لكلمة « العقل »، الذي هو سمة الإنسان الكائن المفرد الذي نفخ الله فيه من روحه وأعطاه « شرف الغاية »، **والمفهوم الذي يقصد به « العنصر الفكري البحت**، وهو في الإنسان منفصل عن مجمل شخصيته، « وقد أشار ذلك المتحدث إلى أن هذا عينه هو وجه الاختلاف بين الفيلسوف الفرنسي باسكال (١٦٢٣ ـ ١٦٦٢ م)، (وله (خواطر) أجملت خطوطاً رئيسية للدفاع عن المسيحية كان لها صداها الواسع)، ومعاصره السابق عليه ديكارت (١٥٩٦ ـ ١٦٥٠ م)، صاحب منهج الشك الذي انتهى منه إلى اليقين ومثّله قوله : أنا أفكر إذن أنا موجود، وله الأثر المشهور (مقال عن المنهج) ». وقد أشار المتحدث الفرنسي بحق في الندوة سالفة الذكر إلى أن الشكل الأدنى للعقل البشري هو أشبه ما يكون « بعصّارة الليمون » إذ يسحق كل فكر يعارضه ويطرحه. ولقد درس عالم الرياضيات الفرنسي **هنري بوانكاريه** الفضاء والزمن وخلص إلى « **أن المنطق وحده لا يكفي**، وأن (البرهنة) ليست العلم كله، بل إن المعرفة الحدسية intuition يجب أن تحتفظ بدورها كعنصر مكمل، بل كثقل موازن أو ترياق للمنطق. « وقد أبدعت مفكرة معاصرة (هي د. تيريز بروس) خلال تلك الندوة في تصوير أزمة الإنسان في الحضارة الحديثة، وقيمها ومناهجها حين قالت : « أكبر معضلة نواجهها، **هي حاجتنا إلى وضع (علم للإنسان) لا يكون مقصوراً على (علم الحيوان الإنساني) بل يكون علم الإنسان التام بكل ما ينطوي عليه من قيم روحية** مدروسة من وجهة النظر الفردية والاجتماعية في آن واحد. فالإنسان في الواقع قد انتزع من المادة سر قواها الكونية (أقول : شيئاً يسيراً من سرها فحسب !) فإذا لم يجتهد في الناحية المقابلة لأجل تحقيق استكشاف مماثل في نفسه حتى ينشر في ضميره كل إمكاناته وطاقاته في التفاهم والحب، وإذا كانت قدرة المادة التي آلت إلى الإنسان إنما تزرع الخوف والموت، فلقد قضي على البشرية »!! وهذا ما أبرزه في تلك الندوة أيضاً مفكر تركي معاصر (هو حلمي ضيا أولكن)، أستاذ الفلسفة بجامعة استانبول) إذ يقول « كان للعلم في القرن الماضي ادعاء النظر إلى الإنسان على أنه حيوان، ولكن الإنسان لا

ينطبق تماماً على بيئته وإنما يصنع عالمه (أقول : ويُكَيِّفُ بيئته كما يتكيّفُ معها)... والإنسان يمارس نشاطاً معاكساً لنشاط الحيوان، فهو يحدد وضعه بالنسبة إلى المستقبل بالمثل العليا، ويحدد وضعه بالنسبة إلى الماضي بذاكرته وشخصيته، ويحدد وضعه في الفضاء والواقع فيصنع الأدوات ويضع النظريات... وميزة الإنسان الجوهرية هي الصراع ضد نفسه وهي تظهر بتضحية الذات في جميع الحضارات... فطبيعة الإنسان منبثقة من مبدأ معاكس للحياة (أي مناقض لمجرد الوجود الحيوي أو الحيواني) غير خاضع لتطورها : وهو الروح « ومن هنا يؤكد بحق المفكر الهندي « راس – فيهاري داس » أستاذ الفلسفة بجامعة سوجار بالهند أن « **الحضارة** في جوهرها تقوم على الكائن البشري لا على الأشياء المادية، والناس هم متحضرون أو غير متحضرين وفقاً لبعض مزاياهم الروحية »[1].

وهذه الأصول الفكرية النفسية الروحية في الكيان الحضاري ضرورية لتكتمل الحضارة وتكون حضارة بحق، ويحرص المفكرون المسلمون المعاصرون على تأكيد هذه الحقيقة « فبناء الكيان الحضاري يقوم على أربع قواعد : **الإيمانية الأخلاقية والجمالية الفنية، والتقنية الصناعية، والثقافية العرفانية.**، وباختلاف كنه هذه العناصر وترتيب قواعد الكيان الحضاري تختلف الحضارات الإنسانية ويكون تميزها عن سواها... **والمنطلق الإيماني الأخلاقي في الحضارة الإسلامية هو مقومها الأول** الذي يبرز مهيمناً على بقية المقومات، من فنية جمالية وتقنية صناعية وثقافية عرفانية، فهو الذي يعطيها صبغتها وسموها ويجعلها حضارة باسقة في الأرض موصولة بالسماء. وصفتها الربانية هذه هي التي تمدها بقدرة البقاء صاعدة وصامدة، فهي صاعدة في الظروف الملائمة للتألق الحضاري وصامدة في الحالات التي تقهر فيها على الانكماش والتوقف وتتميز الحضارة الإسلامية بهذه الخاصة... فالحضارة الإسلامية لها خصائصها الجذرية الدائمة وشخصيتها

---

(١) اللجنة الوطنية اللبنانية للتربية والعلم والثقافة (الرافد الوطني لمنظمة اليونسكو العالمية) : الثقافة الإنسانية وفلسفة التربية في الشرق والغرب، مباحثة دولية نظمتها الأونسكو – تعريب أنطوان خوري – بيروت ص ١٨ – ١٩، ٩٠، ٢٠٦، ٢٢٢، ٢٢٧ – ٢٢٨.

الحركية الحية، فهي وجود واحد له في نمائه وتوقفه وفي ومضه وغمضه مراحل وأطوار من الازدهار والانحسار وليس من طبيعته أن يموت. **وهذا هو سر** المواجهة العارمة المحتدمة التي تعرض لها الإسلام ويتعرض لها في المعترك الحضاري »[1].

ويلتقي مع تصور الشاعر المفكر السوري الأستاذ عمر بهاء الأميري الأستاذ بجامعة القرويين وجامعة محمد الخامس في المغرب، الأديب المفكر المغربي د. رشدي فكار الأستاذ بجامعة محمد الخامس فيقول « في تصوري أن **الحضارة الغربية حضارة تتميز بالوسائل** ويمكن أن نتطلع إليها على مستوى الوسائل. ونستطيع أن نجمل هذه الوسائل في ثلاث : **التقدم العلمي، والمعرفة التكنولوجية، والصناعة، فهي** حضارة منهج وتنسيق وتنظيم، ومحاولة استئناس للظواهر الطبيعية والتعامل معها ومع الظواهر الإنسانية بهدف السيطرة عليها أو بهدف التعامل الموضوعي لما فيه تقدم البشرية. فالحضارة الغربية يمكن أن **تباع وتشترى، ويمكن أن تكون تطلعاتنا إليها تطلعات إلى وسائل الحضارة الغربية لا إلى جوهرها... نحن لدينا بعض القصور في الوسائل،** فالإنسان الذي يتمتع بجوهر أصيل (يحتاج لأن يتبين) كيف يقوم بتنسيق حياته وتنظيمها وكيف يتعامل مع الآخرين، وكيف يكون التعامل لما فيه صالح المجتمع وكيف لا تحدث قطيعة بين ما يتبناه كقيم وما يفعله كسلوك، وهذه كلها أمور تتعلق بالمنهج (منهج الحياة)، ونحن **نعاني من أزمة سلوك وليست أزمة قيم.** ووسائل الحضارة الغربية أدت إلى **تحضر الأشياء، أما الجوهر** (بناء الإنسان والقيم التي بفضلها يتعادل ــ أو يتوازن ــ الإنسان ــ من قيم روحية وأخلاقية وسلوكية) فهي قضية (تحتاج إلى علاج آخر). **لهذا فالإنسان في عصرنا الحاضر أصبح ضحية أزمة الحضارة، وأصبح إنساناً ذا بعد واحد...** وأن حضارتنا ليست بغريبة على عصرها، وكل الأمر أننا نحتاج إلى تصحيح

---

(١) عمر بهاء الأميري : الإسلام في المعترك الحضاري ــ بيروت ١٣٨٨ هـ/١٩٦٨ م ص ١٤، ١٨، وانظر حديثاً للمؤلف نفسه منشور بعنوان : « الحق والخير والجمال في الشعر والأدب » بمجلة « الفيصل » ــ الرياض ــ ع ١٨ ــ ذو الحجة ١٣٩٨ هـ ص ١٢٨ ــ ١٢٩.

السلوك البشري عندنا أكثر مما نحتاج إلى تصحيح القيم والمبادىء (أقول : لوجود القيم والمبادىء عندنا وإنما قد نحتاج إلى تصحيح فهمها) وتصحيح السلوك البشري هذا هو الذي يأتي من خلال اللجوء للوسائل : وسائل الحضارة الغربية (في تخطيط المنهج الصحيح) لسلوك الإنسان إذا ما كان منفعلاً مندفعاً يتصرف بطريقة عفوية أحياناً وقد يجد صعوبة في التوفيق بينه وبين ظروف البيئة المادية المحيطة به أو في التوفيق بينه وبين أخيه أو جاره... ومن هذه الزاوية أرى أن لدينا الجوهر، جوهر التقدم بمعنى عطاء الأرض وعطاء الإنسان، ولدينا جوهر الحضارة : حضارة القيم التي **تبدأ من القيم الروحية (أقول : الإيمان) وتصل إلى قيم المبادىء الأخلاقية السلوكية**... إن الحضارة الغربية محتاجة لأن يتم التقدم الحضاري في حضور الإنسان لا في غيبته... إني أحس اليوم للأسف أن الإنسان، رغم أنه هو الذي يجعل الأشياء تتقدم أساساً، **يفقد ذاته من أجل أن يعطي**، وهذه قضية خطيرة... اننا نحتاج إلى تعمق : التعمق في مناقشة تراثنا وفي مناقشة الحضارة المعاصرة على السواء.. لقد امتص الفكر الإسلامي حضارة الاغريق وحدثت مواجهات كبرى خرج منها الفكر الإسلامي الأصيل مدعماً »[1].

ومما يعزز هذه النظرة ويؤكد صوابها أن نجد المتحدث الأمريكي في الندوة الدولية السالفة الذكر التي نظمتها اليونسكو في نيودلهي عن « الثقافة الإنسانية وفلسفة التربية » وهو من بلد طالما آمن « بالبراجماتية » Pragmatism أو « فلسفة الذرائع »، ونهج طريقة على أن « الحق » و« الخير » وسائر القيم المطلقة الطيبة إنما تكون فيما يتحقق نجاحه عملياً في واقع الأمر، ذلك المتحدث الأمريكي يقول في الندوة « إن الولايات المتحدة تواجه معضلات عملية عديدة، **ويخشى أن تهتم التربية اهتماماً ضخماً (بالمناهج) وترتاب من غير مبرر (بالقيم المطلقة)** ».. وكان مما أكدته توصيات تلك الندوة المشار إليها وجوب الجمع بين تعليم الدين والفلسفة من جهة وتلقين العلوم في الجامعات من جهة أخرى

---

(١) « المفكر العربي المرشح لجائزة نوبل »، حديث مجلة « الفيصل » الرياض ع ١٩ المحرم ١٣٩٩ هـ ص ١١٤ ـ ١١٥.

و « **تأليف كتب جيدة لطلاب الجامعات في الشرق والغرب تعرض تعاليم الأنبياء وأساتذة الفكر الديني والفلسفي** »[1].

من خصائص الحضارة :

وإذا كانت « الحضارة » في صورتها الحقة « **جامعة** » لمختلف الجوانب في النشاط الإنساني وتلبي مختلف حاجات الإنسان، فإنها أيضاً « **جماعية** » بطبيعتها، فهي نتاج « جماعة » مهما كان دور أي فرد أو مجموعة أفراد فيها، ولو كان أحد هؤلاء أو كانت مجموعتهم من « الصفوة » élite الرائدة أو القاعدة. وللحضارة خاصية «**الانتشار** » في الجماعة الواحدة وبين الجماعات المتعددة، كما أن لها خاصية « **الاستمرار** » والنماء والبقاء فترة كافية من الزمن بحيث تمضي الفعالية الإنسانية في إنتاج الحضارة في شتى المجالات وصيانتها وتنميتها ونشرها، إذ أنّ الطموح الإنساني لا يقف عند حد، وبلوغ أي مستوى حضاري يستثير بدوره تطلعاً لمستوى آخر أرفع، كما يستهوي نطاقاً أوسع من المجتمعات البشرية الأخرى التي تتاح لها سبيل للتعرف على المجتمع المتحضر. وإذا لم تتواصل جهود الأجيال المتتابعة في صيانة الحضارة وتدعيمها فضلاً عن إعلاء صرحها كان ذلك إيذاناً بانحلالها. ومن هنا نتبين وجهة بعض الاجتماعيين المحدثين في تعريف الحضارة بأنها « **الوراثة الاجتماعية** » ويفصل رالف لينتون Ralph Linton ذلك بتعريفه الحضارة على أنها « الهيئة العامة لأنواع السلوك المكتسبة والنتائج التي تحصل عنها والتي يلتزم أعضاء المجتمع عناصرها ويتناقلونها » ومن ثم يظهر جلياً أنه لا يخلو مجتمع ما من حضارة ومع تأكيد « ول ديورانت » W. Diurant صاحب « قصة الحضارة » « لجماعية الحضارة ».. أو « اجتماعيتها » فإنه يؤكد أيضاً الجانب الفكري أو الثقافي فيها فهو يقرر « أن الحضارة نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من انتاجه الثقافي ». ومن ناحية تأثير الحضارة (وهي جماعية

---

(١) الثقافة الإنسانية : (المصدر السابق) ص ٢١ ـ ٢٢، ٣٣.

بطبيعتها) على شخصية الفرد وسلوكه تتعاون الدراسات الاجتماعية والانتروبولوجية والنفسية الحديثة على استجلاء هذا التأثير، كما تحاول تسليط الضوء أيضاً على السلوك الاجتماعي للفرد وتبين علاقاته مع الآخرين وإزاء المؤسسات الاجتماعية القائمة[1].

* * *

الجانب المادّي التكنولوجي من الحضارة

وقد أثار المعنى الشامل للحضارة وأنها جماع النشاط الإنساني المتعدد الجوانب، الذي يلبي حاجات الإنسان المتعددة، محاولات للتمييز بين الحضارة بهذا المدلول الشامل وبين الجانب المادي التكنولوجي الذي قد يطلق عليه البعض لفظ Civilisation ويترجم في العربية بـ « المدنية » وتخلص آراء جمهرة من الباحثين إلى أن دلالة الحضارة Culture الذي يمكن ترجمته « بالحضارة »، أعم وأشمل وإن اختلفوا في الدلالة الأخص لكلمة Civilisation فهي عند الباحثين من الانجليز تعني الحضارات العليا، وهي عند الباحثين من الألمان والأمريكيين تعني الجوانب المادية أو التكنولوجية من الحضارة، وغالباً ما يستعمل الألمان كلمة Civilisation للدلالة على أن الحضارة في طريقها إلى الاحتضار.

على أن هذا لا يعني بطبيعة الحال أن هناك مدنية بغير حضارة، فقد سلف البيان أن الحضارة أعم وأشمل، وأن الباحثين قد خلصوا إلى أنه لا يوجد مجتمع إنساني بغير حضارة. كذلك يمكن القول بأنه ما من حضارة إلا ولها جانب مادي أو تكنولوجي لصورة من الصور. ومن هنا نجد الفرنسيين يستعملون كلمة Civilisation للدلالة على الحضارة بمعناها الشامل العام، ويستعملون كلمة Culture لتدل على ما يقابل المعنى الشائع للثقافة عندنا في العربية بمعنى زيادة المعرفة والصقل، أو بمعنى ألوان المعرفة اللازمة لتحقيق هذا الغرض.

---

(١) عبد الكريم اليافي : تمهيد في علم الاجتماع ــ دمشق ص ٥٣٣ ــ ٥٣٥، وانظر : ول ديورانت : قصة الحضارة جـ ١.

ويذكر المعيار أحياناً أن التفرقة بين الجانب الحضاري أو الجانب المدني في شيء ما هو التساؤل : هل نريد **هذا الشيء لذاته ـ أو لغاية أبعد**، وهل تراه **يلبي لنا حاجة خارجية أو داخلية** ؟؟ ويذكر عالم الاجتماع « ماكيفر » الفروع الأساسية التي يتميز بها الجانبان، فيقول : إن **للمدنية معايير دقيقة تقيس كل ما ينتمي إليها باعتبار الأشياء وسائل لغايات**، يمكن قياس درجة كفايتها والتيقن من نجاحها في أداء مهمتها كالجرار والطيارة والثلاثة، أما **منجزات الحضارة** مثل النظم التربوية أو الاجتماعية أو السياسية **فتتمرد** على المقاييس المعروفة للمدنية **لأن الأمر لا يتعلق بقياس** كفاية هذه الأنظمة لتحقيق غايتها قياساً (خارجياً) أو (مادياً) منضبطاً، بل إلى **تقدير قيمة هذه النظم للفرد أو الحياة**.ثم التقدير هنا يتطلب فترة زمنية طويلة تكفي لتأكيد هذه (القيمة)، ويتطلب مؤشرات ودلالات أبعد عمقاً وأوسع نطاقاً. كذلك يمكن القول بأن **المدنية في تقدم مستمر لكن الحضارة ليست كذلك**، **ولا** يصادف تأثير المدنية ـ باعتبارها تتعلق بالجانب المادي أو التكنولوجي ـ معوقات كالتي يصادفها انتشار الحضارة أو انتقالها، **والمدنية أو** « **التقنية** » **قد تستعار** بغير أدنى تغيير وليس كذلك أمر الحضارة. **وتستطيع الحضارة أن تسخر الجوانب التقنية كأدوات لها**، **وقد** استفاد الأدب والعلم والفن من الطباعة والصحافة والسينما والإذاعة والتلفزيون مثلاً أيما فائدة. **وقد** قسم « ماكيفر » الناحية التقنية في المدنية إلى **تقنية أساسية وأخرى اجتماعية**، والأولى تختص بسيطرة الإنسان على الظواهر الطبيعية، أما التقنية الاجتماعية **فهي** تتبّع لتنظيم سلوك البشر وتكون تقنية اقتصادية أو سياسية.

وإذا كانت المدنية لا توجد بغير حضارة، فمن المهم أن تتوازن الجوانب المادية والروحية في الحضارة لتنمو وتبقى. وأكبر الخطر على الحضارة وعلى الإنسان الذي هو أساس الحضارة والذي تتميز الحضارة بخصائصه وتعبر عن طبيعته وعن طاقاته وحاجاته في مجموعها، أن تتجاوز طاقة الأدوات التكنولوجية التي أبدعها قدرة مبدعها الإنسان وتتخطاها. « والإنسان الغربي هو اليوم عاجز أكثر من أي وقت مضى عن الاكتفاء بالانتصارات التكنولوجية الناجمة عن تقدم العلم أو عن قواعد الأخلاق

القائمة على المنفعة أو الشهوة. لقد تخطت الإنسان قدرة أدواته نفسها، التي أحدثت تغييراً في العالم وأوجدت معضلات جديدة ومركبة حتى أمست القيم المتعارفة مغلوبة على أمرها »[٢].... ويطرح المفكر الفرنسي **أندريه مالرو** في بيان محكم مُعبِّر معضلة الحضارة الغربية المعاصرة والانسان الغربي المعاصر. ويبدو أن ارتقاء الثقافة الإنسانية في العهد الذي ادعى لنفسه اسم « عصر النهضة » انما كان ارتقاء الإنسان الذي ظن أنه يصير ملكاً للعالم بطاقاته وحدها وبخاصة سلطان ذكائه. وفي القرن الثامن عشر الميلادي أسلم الإنسان أمره للعقل « المجرد » غير المتجسد فخطا خطوة في طريق ممارسة سيطرته، **وقطع الغرب صلاته بما في الحضارات السابقة من طاقة روحية وتعبير عن هذه الطاقة، اذ أقام تقدمه على أساس « العقل البشري وأنه ينطوي على جميع الامكانات التي تحقق « مواصلة » هذا التقدم**، وأدخل الإنسان الغربي بناء على هذا المبدأ، فكرة أن كل ما كان في البدء هو « قديم »، وأن التقدم هو في كل « حديث »، ونظر هذا الانسان إلى الحضارة وكأنها انطلقت منذ الساعة التي بدأ فيها استعمال « العقل » على هذا الأساس والنهج، وأصبح كل ما بدا من تراث العصور الماضية منبوذاً كأثر مغاير للمنطق ومدموغاً بالسذاجة والتخبط. وهكذا أوصد عالم الروح منذ قام عهد « العقل » على هذا الشكل فخسرت الحضارة الغربية والانسان الغربي « حضارات روحية عظيمة » كما عبر الأديب المفكر الفرنسي أندريه روسو[٣].

* * *

---

(١) أحمد حمدي محمود : الحضارة ص ١٦ – ٢٦.

(٢) الثقافة الإنسانية.. (المصدر السابق) ص ٢٨٠ – ٢٨١.

(٣) الثقافة الانسانية .. (المصدر السابق) ص ٢١٠ – ٢١١.

الأساس المعنوي الفكري للحضارة

النظرة الجامعة إلى العالم

وإذا كانت « المدنية » هي الجانب المادي أو التكنولوجي في الحضارة، فان أساس الحضارة المعنوي الفكري الذي تقوم عليه الحضارة بمعناه الشامل الجامع Culture هوَ وجود نظرة إلى العالم أو نظرة جامعة Weltanschaung كما يقول المفكرون الألمان. وهذه هي الحضارة بمعناها الأخص، وقد يطلق عليها في تعبيرنا العربي المعاصر لفظ « ثقافة »، وهو لفظ حائر عندنا بين مدلولات مختلفة، من زيادة المعرفة والصقل وما كان يقابل « الأدب » عندنا في عصر سابق حين كان يعني « الأخذ من كل معرفة بطرف » وهو قريب مما يعنيه اللفظ Culture عند الفرنسيين إلى ما يقابل اللفظ Culture حين تعني الحضارة عند الانجليز والألمان والأمريكيين[1].

وهذه النظرة الجامعة إلى العالم، يرى فيلهلم ديلتاي Wilhelm Deltai الذي نشر فكرتها ومصطلحها في الفكر الألماني أنها تشتمل على **ثلاثة**

---

(١) يرى باحث عربي معاصر أن نستعمل لفظ « الثقافة » لما يكون « من صنعنا ويبرز اختلافنا كأفراد، ولذا قلما تشابهت ثقافتان، ولا تتحقق الثقافة إلا باكتمال الشعور والوعي. بينما الحضارة وتراثها أشياء نرثها وتنتقل إلى وجداننا وعقولنا بطريقة لا شعورية في الأغلب. والثقافة هي التي خلفت الحضارة، فالحضارة (تأتي إلى) المجتمع عن طريق أفراد مميزين كانوا على وعي بروح العصر وتوفرت لهم القدرة النظرية والعملية (أحمد حمدي محمود : الحضارة ص ٢٨ ــ ٢٩). ويرى حسين مؤنس أن نستعمل الثقافة « لا في الدلالة على الاطلاع الواسع والمعرفة الغزيرة، إذ أن الفلاح والعامل لديهما حصيلة من المعلومات والمفاهيم الذاتية والقيم المحلية، ولا في معنى (الأدب) أي الأخذ من كل شيء بطرف كما قال الجاحظ، بل في (مجموع) المعلومات والمعارف والممارسات والقيم الخاصة بشعب ما والتي يعيش بمقتضاها وهي التي تميزه عن غيره من الشعوب لأنها تعبير صادق عن شخصيته وملامح هذه الشخصية وطريقته الخاصة في الحياة. وهذا معنى جديد في كل اللغات عبر ثلاثين سنة... « وعلى هذا تكون لنا حضارة يشترك معها غيرنا وثقافة خاصة بنا » على أن حسين مؤنس يشير أيضاً إلى تكون ثقافة عالمية أو عامة Universal بفضل وسائل الاتصال الجماهيرية mass media إلى جانب الثقافة الخاصة بشعب ما وما يتفرع عنها من ثقافات محلية أو تحتية Sub-cultures (الحضارة ص ٣٧٠ ــ ٣٩٠).

عناصر أساسية : **أولها تصور (ذهني) عام** لطبيعة عالم الوقائع ومضمونه، والعنصر **الثاني** مستمد من الأول **وهو نسق من المشاعر تميز المستمد عن المكروه ويعبر عنها في أحكام تقويمية، وثالث** العناصر مستمد من الأولين كذلك ويتعلق (بالارادة) و « الواجب) **وهو نسق من الرغبات والغايات والواجبات والقواعد والمبادىء العملية.** ويكتسب الانسان كل هذا في نظرته الجامعة إلى العالم)، التي تضم معتقداته وعاداته ومشاعره وارادته. وقد تغلب ناحية المعرفة على هذه النظرة الجامعة عند فرد (أو جماعة)، وقد تطغى ناحية الشعور، أو قد تغلب ناحية الإرادة. وهذه النظرة الجامعة إلى العالم قد تعني أحياناً ما درجنا على تسميته « بالثقافة » التي نسعى لتوسيعها وتعميقها حتى تمكننا من حل ألغاز الحياة. ويذكر المفكر الطبيب الفنان « البرت شفاتيرز » Albert Schweitzer (١٨٧٥ ـ ١٩٦٥م) أن النظرة الجامعة إلى العالم تدور حول تساؤلنا عن أهمية المجتمع الذي نحيا فيه، وأهمية الإنسان الفرد للعالم ؟ وما الذي يريد أن يفعله للعالم ؟ وما الذي يبتغيه منه، وحق الفرد ازاء الإنسانية وواجبه نحوها ؟ **فالثقافة هي جملة المعتقدات التي يهتدي إليها الفرد بتأملاته واطلاعاته عن الكون وطبيعته وغايته ومصير البشرية**[1].

وقد أوضح علّامة الهند المسلم « مولانا أبو الكلام أزاد » وزير التربية في دولته عقب استقلالها أن « مساعي الإنسان لشق حجاب الطبيعة قد أطرد نجاحها، لكن المرآة التي صنعها الإنسان تعكس جميع مظاهر الكون من غير أن تعكس ذاته الخاصة، ولا جدال في أن الإنسان لم يتوصل بعد إلى تكوين فكرة واضحة عن طبيعته، وأنه **قد أدرك أسرار الكون أكثر مما أدرك الأسرار التي تعنيه هو نفسه**... ما هو الإنسان ؟ ومن أين جاء ؟.. وإلى أين يذهب ؟... الواقع أن الإنسان لن يتمكن من ايجاد حل ملائم لمعضلاته الفردية والاجتماعية والقومية والدولية قبل أن يعرف حق المعرفة طبيعة كيانه الخاص، وقبل أن يحدد المكان الذي يحتله في العالم

---

(١) أحمد حمدي محمود : الحضارة ص ٢٧ ـ ٢٨.

الأكبر... » وقد أكد هذه الحاجة الإنسانية الأساسية مفكر بوذي من سيرالانكا من (سيلان) هو الأستاذ « **مالالا زيكيرا** » **إذ قال « يجب أن** يتحرر البشر قبل كل شيء من قانون (النفعية) الضيق.... وان صور التقدم الحاسمة للحضارة التي أسهمت في رفاهية البشرية أكثر من غيرها قد اقترنت بمعتقدات ومثل عليا دينية. فمن أجل أن نخرج من الفوضى الحاضرة يجب أن تسيطر القيم الروحية، التي علينا أن نبعثها من جديد، على القيم المادية التي تجعل من عالمنا المعاصر سوقاً تجارية ضخمة! ولكي يسهم الدين عملياً في سعادتنا يجب أن يكون له **أثره على جميع مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والمنزلية** على حد سواء، ويجب ألا ينحصر في الكنيسة أو الهيكل، أو يكون مقصوراً على يوم الأحد أو السبت، انما ينبغي أن يغمر الدين كياننا كله، شأن الهواء الذي نستنشقه! وليس ثمة قواعد أخلاقية فردية تتميز عن القواعد الأخلاقية الجماعية. ومن أفدح العواقب الوخيمة لعصر الآلة ذلك الرجل السطحي العاري عن كل ثقافة ومثل أعلى، المغلق عن كل ما ليس له فيه مصلحة شخصية، والذي أسهمت أدوات السيطرة الحديثة على الجماهير، من اذاعة وسينما وصحافة كبرى، في تعميم نموذجه.. وحل هذه المعضلة منوط بالبشر، وسلوك الصراط المستقيم يكون بالاقلاع عن الانتهازية، ولا يكون ذلك الا بمقدار ما نعطي الموجب الأخلاقي أساساً غيبياً (ميتافيزيقياً) **فان القواعد الأخلاقية التي لا تنبثق من نظرة معينة للكون ومن مثل أعلى لحياة أكمل لا يمكن أن يتهيأ لها أساس راسخ.** وينبغي على الإنسان بادئ ذي بدء: أن يعرف نفسه، أي أن يكوِّن فكرة معينة عن ذاته، ولا وجود لمثل تلك الفكرة إلا في إطار مفهوم عام للحقيقة الواقعية والعالم ومبادئ الحياة »[1].

وهكذا ترتبط الثقافة ارتباطاً وثيقاً بالاعتقاد، بل انها تنبني على الأساس العقيدي وتنتج عنه، سواء أكان هذا الأساس ديناً أو فلسفة أو ايديولوجية. ففي الغرب، ترتبط الثقافة في علاقة وظيفية بفلسفتهم عن

---

(١) الثقافة الانسانية ... (المصدر السابق) ص ٣٦ ـ ٣٧ ، ١٩٦ ـ ١٩٨.

« الانسان » و « الانسان الفرد » بوجه خاص، فالثقافة في رأي الغربيين هي « فلسفة الإنسان » ويتبنى المجتمع هذه الفلسفة بشأن الإنسان الفرد، وتتغلغل جذور هذا الأساس الفلسفي إلى التراث الاغريقي اللاتيني للانسانيات أو العلوم الانسانية. وفي البلاد التي تدين بالماركسية، وهي التي تترك طابعها على القيم كما هو معلوم، ورد تعريف يادانوف « للثقافة »، في تقريره الذي قدّمه إلى مؤتمر الحزب الشيوعي في موسكو سنة ١٩٣٨ م، بأنها ذات علاقة وظيفية بالجماعة، فهي إذن « فلسفة المجتمع ». وهكذا تنتج الثقافة آثارها في السلوك بحكم ارتباطها بالأساس الاعتقادي ولا تكون مجرد نظرية في المعرفة، ومن هنا يظهر الفارق الكبير الجذري بين الثقافة والعلم، حتى يصبح الطبيب الانجليزي مثلاً ـ كما يصور بحق مفكرنا المسلم الراحل مالك بن نبي تغمده الله برحمته ـ أقرب إلى الراعي الانجليزي من الطبيب الهندي أو النيجيري ما لم ينخلع الأخير عن ثقافته، وحتى لو فعل فهو لن يستطيع تقمص الثقافة المغايرة تماماً. وهكذا يعرف مالك بن نبي الثقافة بأنها « **مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يتلقاها الفرد منذ ولادته كرأسمال أولي في الوسط الذي ولد فيه، وتكون الثقافة بذلك هي المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته**. ويعكس هذا المحيط الحضارة السائدة ويتحرك في نطاقه الإنسان المتحضر. ولا يمكن أن نتصور تاريخاً بلا ثقافة، والشعب الذي يفقد ثقافته يفقد حتما تاريخه ». ويذهب مالك بن نبي إلى القول بأن الثقافة، بما تتضمنه من فكرة دينية نظمت الملحمة الانسانية في جميع أدوارها من لدن آدم، لا يسوغ أن تعتبر مجرد علم يتعلمه الانسان، بل هي « محيط يحيط به، واطار يتحرك داخله ويغذّي الحضارة في أحشائه، **فهي الوسط الذي تتكون منه جميع خصائص المجتمع المتحضر، وتتشكل فيه كل جزئية من جزئياته تبعاً للغاية العليا التي رسمها المجتمع لنفسه بما في ذلك الحداد والفنان والراعي والعالم وإمام الصلاة، وهكذا يتركب التاريخ وتعطى الحضارة سمتها الخاصة** ». وفي المركب الاجتماعي للثقافة يكون لبرنامجها التربوي **عناصر أربعة** : **الأخلاق** لتكوين الصلات الاجتماعية، **والجمال** لتكوين الذوق العام، **ثم منطق عملي** لتحديد أشكال

النشاط العام، **وفن تطبيقي موائم** لكل نوع من أنواع المجتمع technique وهو ما يسميه ابن خلدون « صناعة »[1]. ويرى مالك بن نبي أن قوة التماسك اللازمة للأفراد في مجتمع يريد تكوين وحدة تاريخية تستمد أصلاً من غريزة الحياة الجماعية عند الفرد، ويستفيد المجتمع الذي يريد تكوين حضارة من نفس الغريزة، لكنه يهذبها ويوظفها بروح خلقية سامية. ويلاحظ المفكر في عمق أن كلمة religion في أصلها اللاتيني تعني (الربط والجمع). ويقرر أن الروح الخلقية منحة من السماء إلى الأرض، وهو يرى أن تتبع ما يظن أنه المظاهر المدنية (العلمانية) للحضارة الغربية يكشف عن روابطها بالأصول الدينية الأولى التي بعثت الحضارة، بل يرى مالك بن نبي أن « هذه هي حقيقة كل عصر وكل حضارة »[2]. ويمضي إلى القول بأن الشيوعية نفسها ليست استثناء مما ذهب إليه، فان الحضارة الغربية التي دخلت المسيحية في تكوين أصولها، حين تحللت على السطح وانتهت إلى ما انتهت إليه، أعطت الماركسية حيويتها. وهكذا يقرر المؤلف أننا « **مضطرون إلى أن نعتبر الشيوعية (أزمة) للحضارة المسيحية** »! ومن الناحية العملية والنفسية (السيكلوجية)، فان « الشيوعية الواقعية هي في جوهرها نشاط المؤمنين المدفوعين بنفس القوى الداخلية التي دفعت غيرهم **من المؤمنين في مختلف العصور ـ أولئك الذين يُعبِّروا عن جوهر الحضارات**، فالظاهرة متماثلة في جوهرها النفسي »[3] كما يُعبِّر مفكرنا المسلم المبرز أفسح الله له في جنته.

---

(١) مالك بن نبي : شروط النهضة ـ ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين ـ دار الفكر ـ ط ١٩٦٩/٣ م ـ ص ١٢٣ ـ ١٣٢.

(٢) المصدر السابق : ص ١٣٣ ـ ١٣٦.

(٣) المصدر السابق ص ٨٠ ـ ٨١. وقد ذهب إلى ايضاح البعد النفسي « الميتافيزيقي » لبعض الفلسفات والايديولوجيات المادية عدد من المفكرين. يقول جوستاف لوبون مثلا « لا يكون الانسان متديناً اذا عبد الهاً فقط بل عندما يضع جميع منابع نفسه وانقيادات ارادته في خدمة قضية أو موجود غدا غاية المشاعر ورائدها. ويمكن أن يقال ان جميع المعتقدات ذات صبغة دينية... ولا تستقر المعتقدات السياسية والاجتماعية الا باكتسابها شكلا دينياً على الدوام، ولو أمكن حمل الجماعات على الالحاد لاكتسب الالحاد ما في الشعور الديني من ولاء حتى يصبح ضرباً من العبادة بسرعة. ولنا في تطور (الوضعية) positivisme مثال طريف لذلك الذي آمن بالعدمية nihilisme فحطم صور القديسين=

ومالك بن نبي من أنصار الرأي القائل « بدورة الحضارة » ومن هؤلاء ابن خلدون في الماضين، واشبنجلر في المحدثين. وقبل ميلاد حضارة ما يكون الانسان على « الفطرة » ودوافعه النفسية (أو غرائزه) على الحال التي وهبتها الطبيعة للانسان، **وهذا الانسان الطبيعي أو الفطري homo natural**، تتولى الفكرة الدينية اخضاع غرائـزه وتوجيههـا conditionnement، والفكـرة الدينية على هذا النحو تنظم هذه الدوافع النفسية في علاقة وظيفية مع مقتضيات الفكرة الدينية، وهكذا تنضبط الدوافع بقواعد نظام معين ولكنها لا تلغى، ويتحرر الفرد جزئياً من قانون الطبيعة المفطور عليه جسده، ويخضع وجوده في كليته إلى المقتضيات الروحية التي طبعتها الفكرة الدينية في نفسه بحيث يمارس حياته **في هذه الحالة الجديدة حسب قانون الروح**، وهو القانون الذي كان يحكم « بلالاً » حينما كان لا يفتر تحت نير العذاب عن تكرار **« أحـد.. أحـد » ـ وهي قولة لا تمثل صيحة الغريزة في هذا** الموقف بل قمة سيطرة العقيدة على تلك الدوافع نهائياً في ذاتية بلال. **وذلكم هو الطور الأول للحضارة. ثم ينشب الصراع بين الغريزة التي تحاول التملص والانطلاق والروح المسيطرة**، وفي الوقت نفسه يواصل تطوره في المجتمع الذي أخرجته الفكرة الدينية إلى النور وتكتمل شبكة روابطه الداخلية في حين يمتد اشعاع الفكرة الدينية في العالم، فتنشأ المشاكل المحسوسة للمجتمع الوليد نتيجة اكتماله كما تتولد ضرورات نتيجة اكتماله. وحتى تستطيع الحضارة تلبية هذه الظروف الحادثة **تسلك منعطفاً جديداً وتلجأ إلى العقل الذي تمثل سيادة قانونه الطور الثاني**

= وأحل محلها كتب الفلاسفة الملحدين !!.. وهكذا كان كل التحول في موضوع معتقداته الدينية، أما مشاعره الدينية فما زالت قائمة لم تمس » (انظر « روح الجماعات » ترجمة عادل زعيتر ص ٦٨ ـ ٧٠). ويشير إلى الحقيقة نفسها عباس العقاد حيث يقول : « وقد رأيت أناساً يبطلون الأديان في العصر الحديث باسم الفلسفة المادية فاذا بهم يستمدون من الدين كل خاصة ولازمة، ثم يجردونه من قوته التي يبثها في أعماق النفس لأنهم اصطنعوه اصطناعاً ولم يرجعوا به إلى مصدره الأصيل.. وهم يطلبون النعيم المقيم على الأرض متى صحت نبوءتهم عن زوال الطبقات، وتلك بداية (الفردوس) الأبدي عندهم !... ولا يخلو دين الفلسفة المادية من شيطانه ـ وهو الرأسمالية ! » ـ انظر « الفلسفة القرآنية ».

للحضارة. لكن **العقل لا يملك سيطرة الروح على الغرائز فتشرع هذه في الانطلاق شيئاً فشيئاً** بقدر ما تضعف سلطة الروح وبقدر ما يضعف ضغط المجتمع على الفرد حتى تستعيد الطبيعة غلبتها على الفرد وعلى المجتمع تدريجياً. **وعندما يبلغ انطلاق الغرائز تمامه، يبدأ الطور الثالث للحضارة، وهو طور الغريزة السافرة،** وهنا تنتهي الوظيفة الاجتماعية للفكرة الدينية في مجتمع منحل يكون قد دخل في ليل التاريخ وقد بلغت الحضارة أجلها وتفسخ الانسان وسلبت منه الحضارة[1].

التأثير الحضاري للإسلام :

ويذكر المستشرق الدنمركي « جوستاف فون جرونيباوم » G. Von Grunebaum أن الحضارة Culture، في أساسها الفكري والروحي، أو الثقافة، بمعنى الفكرة الجامعة عن العالم ـ يمكن أن توصف من بعض النواحي بأنها **نظام محدد من التساؤلات والأجوبة التي تتعلق بالكون وسلوك الانسان فيه، يقبله مجتمع بشري باعتباره نظاماً سائداً حاكماً حاسماً.** وهي تتضمن **معياراً للقيم** يقرر الوضع النسبي لدرجة الأهمية التي تكون لموضوع السؤال والجواب. وليس يعني ذلك أن تكون هذه التساؤلات والاجوبة في حضارة ما محصورة محدودة لا تقبل زيادة على مر الزمن، وإنما يعني ذلك انحصارها وتحديدها في فترة معينة من الفترات تكون هي موضع البحث والدراسة، ويأتي هذا الحصر والتحديد وفقاً لخبرات الجماعة في تلك الفترة.

وقد أجمل « جرونيباوم » التأثير الحضاري للاسلام في تغييرات أساسية أحدثها في مجال القيم بالنسبة لما كان سائداً قبله بشبه جزيرة العرب في ظل الوثنية. ومحور هذه التغييرات : **تحديد هدف الحياة وغايتها وراء هذه الحياة الدنيا،** ومن ثم تكون قيمة أي انجاز بشري هي في تقدير حسابه وجزائه في الآخرة. ولما كانت حياة المرء على هذا النحو هي موضع حساب وجزاء في الدار الآخرة الباقية فقد تضمّن ذلك « **استمرارية** » الحياة

(١) المصدر السابق : ص ٩٨ ـ ١٠٠.

الإنسانية بدون تقطع أو تفتت، وهكذا يتوالى السير ويتصل العمل ولا تكون الحياة تتابعاً لتصرفات جزئية متقطعة منعزلة بعضها عن بعض. كذلك **فان الإسلام ينصب الجماعة حارسة على صراط الله المستقيم المبين للناس والذي عليهم أن يلتزموا نهجه في مختلف مساعيهم ومناشطهم، وان كان الإسلام يؤكد بصفة أساسية مسئولية الفرد ويقدمها على المسئولية الجماعية**[1]. وفي ظل هذه القيم الأساسية، يطرح الإسلام أسئلة جوهرية ثلاثة يقدم أجوبته عليها كما يذكر جروينباوم وهي : **كيف تعيش حياة صحيحة، وكيف تفكر تفكيراً صحيحاً، وكيف تقيم نظاماً صحيحاً. وقد قدم الإسلام أجوبته لهذه المشكلات والقضايا في : التربية الصحيحة للفرد، والترتيب النسبي لمناشط الانسان (الواجب، المندوب، المباح، المكروه، الحرام)، وتحديد القصد والمجال بالنسبة لسلطة الحكم أو ممارسة القوة السياسية.** وكان من ثمار هذه القيم الأساسية التي قررها الإسلام، والأجوبة التي ارتآها للمشكلات الانسانية الرئيسية في ظل تلك القيم، ان استحدث الإسلام واجبات على عاتق الفرد أو عهد إلى تعديل واجبات قديمة، كما أنه قرر حقوقاً جديدة. وتتناول هذه الواجبات والحقوق شتى مجالات السلوك الانساني، سواء السلوك الفردي والسلوك الاجتماعي وعلاقات الفرد بقرابته أو الجماعة كلها. وقد أدى ذلك إلى تقويم

---

(١) يقرر القرآن مسئولية الفرد بصفة أساسية « وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً » مريم/٩٥ ـ « وكل انسان ألزمناه طائره في عنقه.. الاسراء/١٣ » « ولقد جئتمونا فرادى... وما نرى معكم شفعاءكم.. الأنعام/٩٤ » « قل انما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ـ سبأ/٤٦ » « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ـ المائدة/١٠٥ » « من اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها، ولا تزر وازرة وزر أخرى ـ الاسراء/١٥ ». ولكنه يقرر تقريراً متوازناً المسئولية الاجتماعية للفرد والجماعة أيضاً « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله ـ التوبة/٧١ ». « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ـ آل عمران/١١٠ » « وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً، قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون ـ الأعراف/١٦٤ » « ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله أولياء ثم لا تنصرون ـ هود/١١٣ »، وإلى جانب ذلك هناك أحاديث كثيرة في هذا المجال، كما ان الإسلام يؤكد وحدة الجماعة وتضامنها.

أية خبرات حضارية سابقة أو لاحقة في هذا الضوء، بحيث تكون متجاوبة مع معايير الإسلام ومقاصده[1].

تصنيف الحضارات ... ووضع الحضارة الإسلامية :

يقابل تصنيف الحضارات **حسب المكان** (بأن يُقال مثلاً حضارة الصين أو حضارة اليونان)، ويقابل مثل هذا التصنيف صعوبات منها، ما قد يحدث من انتشار الحضارة خارج موطنها الأصلي، (الحضارة الهيلينية Hellnic في بلاد الإغريق التي امتدت إلى الشرق فغدت الحضارة الهيلينستية Hellnestic مثلا ولم تتخلّ عن طابعها الإغريقي وإن امتزجت بعناصر حضارية أخرى)، كذلك فان الحضارة في موطنها ذاته تتعرض لمؤثرات حضارية آتية من الخارج. كما أن المكان المعين تعرض له دورات حضارية متباينة أحياناً بحيث يتعذر النظر إليها باعتبارها وحدة حضارية. وقد يتبع المجتمع الواحد عدة حضارات في بعض الأحوال[2].

ويذكر مثلاً أن ثمة فصائل خمس من الحضارات الباقية إلى اليوم، وقد جرى تصنيفها حسب المكان وهي : الحضارة الغربية الأوربية المسيحية (بفرعيها اللاتيني والجرماني)، والحضارة الأوربية الشرقية المسيحية الارثوذكسية (في روسيا وجنوبي شرقي أوربا)، والحضارة الإسلامية (على الشريط الصحراوي المداري من المحيط الأطلسي إلى سور الصين العظيم ويشتمل على مناطق استوائية واسعة)، والحضارة الهندية (في شبه القارة الهندية ومعظمها استوائي)، وحضارة الشرق الأقصى (في وسط الشرق الأقصى الآسيوي المعتدل والجنوب الشرقي الاستوائي من آسيا).

وتُعَدُّ حضارات ست، دفعت الانسان قدماً في طريق التحرك الحضاري في القديم، هي : الحضارتان المصرية والسومرية، وحضارتا المايا والانديز (في العالم الجديد)، والحضارتان الصينية والمينوية Minoan (والاخيرة

---

(١) Grunebaum : Modern Islam, pp. 19, 21-25.

(٢) أحمد حمدي محمود : الحضارة ص ٧.

قامت في كريت وهي أم للحضارتين الاغريقية فالرومانية).

كما يذكر من الحضارات القديمة التي قامت في دولة عالمية Universal State مثلاً : المصرية والسومرية والاغريقية والرومانية والهندية والصينية والاندية (حضارة الانكا Inca في بيرو وغربي أمريكا الجنوبية)، والازتيكية Aztec (حضارة المايا أو الازتك في المكسيك وأمريكا الوسطى). ولتوينبي في تصنيف الحضارات وبيان الملامح الأساسية لكل منها جولات ممتعة. والدولة العالمية هي الجانب السياسي من الحضارة، إذ تنتشر الحضارة وتمتد في حماية الدولة العالمية التي تتطور نظمها هي الأخرى فتكون مظهراً لتلك الحضارة. ويرى توينبي أن الدولة العالمية في كيانها السياسي تتعرض للتفكك والتجزؤ وتبقى الحضارة العالمية التي نشأت وانتشرت معها وفي ظلها[1].

وتصنيف الحضارات حسب الزمان (كأن يقال حضارة العصور الوسطى مثلاً) يفترض طابعاً حضارياً موحداً في الفترة الزمنية المعينة، في حين قد لا تكون وسائل الاتصال الحضاري بين مختلف الأماكن بهذا اليسر، وتقوم عوامل التميز في الأماكن المختلفة التي تدعو إلى التباين في الطابع الحضاري بين المجتمعات المتعاصرة، (ومن أمثلة ذلك تباين الحضارتين الإسلامية والبيزنطية، وحضارة أوربا الغربية في العصور الوسطى). كما يصعب القول بانحصار حضارة ما في فترة زمنية معينة وانقطاعها عما سبقها من حضارة نظراً لخاصية الاستمرار الحضاري. **وقد يمكن أن يؤدي اقتران تحديد المكان مع تجديد الزمان إلى تصنيف للحضارات أكثر توفيقاً**، كأن يقال مثلاً حضارة اليونان في القرن الخامس قبل ميلاد المسيح. وقد سبقت أمثلة على تصنيف مكاني زمني للحضارات القديمة والحضارات المستمرة القائمة اليوم.

وتصنيف الحضارات **حسب العقيدة الدينية** يستلزم أن يكون الدين من العمق والشمول بحيث يطبع حضارة بطابعه، فيغلب هذا الطابع العام.

---

(١) انظر مؤنس : الحضارة ص ٨١ ـ ٨٩ ، ٢١٥ ـ ٢٤٥.

على الفروق المكانية والزمانية بين من دانوا لهذا الدين في مختلف الانحاء والعصور، وأن تسود أحكامه الشاملة زمناً غير قصير، وعلى ذلك يصعب القول مثلاً « بحضارة يهودية »، رغم **دعاوى** اليهود، وان تضمنت اليهودية تشريعاً دينياً، وذلك لقصر الفترة التي عاشتها الدولة اليهودية وعدم توفر الاستقرار والاستمرار الضروريين لقيام الحضارة[١]. كما يصعب القول « بحضارة مسيحية » متكاملة بالمعنى الاصطلاحي للحضارة وذلك لتركيز المسيحية على الجانب الروحي الاخلاقي وعدم صياغة طابع حضاري شامل موحد لمن دانوا بها في مختلف الأمكنة والأزمنة، وان كانت المسيحية عاملاً غير منكور أسهم ضمن عوامل أخرى في صياغة الحضارة البيزنطية وحضارة أوربا الغربية الوسيطة، بل أسهم بصورةٍ ما في الحضارة الغربية الحديثة نفسها.

وبالنسبة للإسلام، فان حضارته قد بدأ العرب المسلمون حمل مشاعلها منذ اعتناقهم للإسلام ونهوضهم برسالته، وقد غلبت على الحضارة الإسلامية صبغة لغة القرآن العربية. ومن هنا آثر بعض المحدثين، من الباحثين الغربيين، ومن الباحثين العرب المتأثرين بالنزعة القومية، تسمية الحضارة الإسلامية « **بالحضارة العربية** » لابراز صبغتها اللغوية الثقافية التي جمعت في نطاقها مسلمين وغير مسلمين يتكلمون جميعاً العربية، والتي كان نجاحها في الانتشار وتحويل الشعوب إليها لا يقل عن نجاح الفتوح الإسلامية في جانبها العسكري السياسي. ومع التسليم بأهمية الطابع اللغوي الثقافي العربي في الحضارة الإسلامية، فإنه يخشى مغبة الانزلاق إلى المعاني العرقية عند استعمال هذا الوصف، كما يخشى تجاهل الجماعات المسلمة العرقية الأخرى التي لم يتح لها أن يستعرب لسانها لكنها أسهمت في تشييد

---

(١) أنظر مثلا : لوبون ـ اليهود في الحضارات الأولى ـ ترجمة عادل زعيتر. ومن هنا يحاول اليهود إقامة أمجادهم الحضارية باطلاق دعاوى لا أساس لها أو مبالغ فيها عن جهودهم في الحضارات المختلفة التي لا تنتسب إليهم بصورة مباشرة ابتداء من الحضارات الهلنستية والرومانية والفارسية ـ بل وحتى الحضارة المصرية القديمة بما في ذلك عهود الفراعنة، ومروراً بالحضارة الإسلامية في الأندلس بصفة خاصة وفي أماكن أخرى، وحتى الحضارة الغربية الحديثة منذ النهضة الأوروبية إلى الآن.

صرح الحضارة الإسلامية ـ من فرس وترك وهنود وبربر. كذلك فان وصف حضارة الإسلام بأنها الحضارة العربية يغفل عن ابراز أثر رسالة الإسلام في قيام حضارته وصياغة طابع موحد لها في المجتمعات التي دانت بالإسلام، وان تنوعت التفاصيل تنوعاً في إطار الوحدة كما يقول التعبير المعروف Variety within Unity. وإن وجود عناصر غير مسلمة في تلك المجتمعات التي أظلتها الحضارة الإسلامية لا ينفي غلبة طابع معين على حضارة المجتمع ككل، وهو طابع الإسلام الذي يتجلى في الأصول العقيدية الفكرية لتلك الحضارة وفي قاعدتها البشرية العامة ومؤسساتها الاجتماعية والسياسية الملزمة وقياداتها الموجهة. بل ان العربية انما شغلت منزلتها الرفيعة في الحضارة الإسلامية بتأثير الإسلام نفسه، إذ كانت لغة القرآن، ولغة رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام، ولغة السلف الصالح من الصحابة والتابعين الذين اضطلعوا بنشر رسالة الإسلام، وهكذا تحققت للغة العربية مكانتها الاجتماعية وازدهارها الثقافي بفضل الإسلام ذاته، وقد جاءت الفتوح الإسلامية مختلفة عن الحروب القبلية. ونمت الحضارة الإسلامية في شتى الأمصار، ولا يمكن أن يقال انها استوردت من شبه الجزيرة العربية، واستمدت أصولها المشتركة في شبه الجزيرة وخارجها من رسالة الإسلام ذاتها لا من التراث الثقافي للعرب أنفسهم قبل ظهور الإسلام، وأسهم في انماء تلك الحضارة،العرب وغيرهم من المؤمنين بالإسلام. ولم ترتبط الحضارة الإسلامية دوماً بالغزو العسكري والقوة السياسية، فربما ازدهرت مع ضعف العنصر العربي أو حتى مع ضعف كيان الخلافة السياسي والعسكري بوجه عام. ولقد استمرت عناصر الطابع الحضاري الموحد لدار الإسلام رغم الانقسام السياسي للدول الإسلامية[1]. وما أصدق ذلك التقرير التاريخي الدقيق الذي حمله بين دفتيه كتاب « تاريخ الإسلام » الذي نشرته جامعة كمبردج في بريطانيا Cambridge History of Islam إذ يقول « ان الإسلام دين

(١) انظر في ذلك مثلا ما كتبه « جون بادو » بعنوان « دور العرب في الثقافة الإسلامية » في كتاب « عبقرية الحضارة العربية »، وانظر مواضع أخرى من الكتاب. وقد ترجمه للعربية مجموعة من المترجمين.

ومجتمع ومدنية وحضارة في نفس الوقت. وإذا كان من الصحيح أن بلداناً عدة من بين تلك الأراضي التي انتشر فيها الإسلام كانت لها مدنيات وحضارات قديمة ذات شأن، وأن حضارة الإسلام قد تشربت ما سبقها وتمثلته بطرق متنوعة، فإنه ينبغي ألا يفوتنا أن الإسلام في تمثله ما وجده من تراث حضاري متباين قد أمده بخصائص عامة جامعة، وبوجهة مشتركة في مجالات الصلة بالله وبالناس وبالعالم. وهكذا أكد الإسلام الوحدة الجامعة للمركب الحضاري « دار الإسلام » رغم التنوع في اللغات أو التراث التاريخي أو السلالات العرقية. وقد كان تاريخ الشعوب والبلدان الإسلامية مثالاً فريداً لترابط الجانبين الروحي والمادي في حضارة تقوم على أساس الدين، وقد توجد معها ثقافات دنيوية أخرى لكنها تمتصها[1] « ويلاحظ من مظاهر الثقافة الإسلامية العامة أن شخصيات السلف الصالح، الذين أبلوا البلاء الحسن في الدعوة والفتح والدولة، قد أصبحوا أبطالاً بالنسبة لكل شعب من شعوب الإسلام، وانتشر بين المسلمين اسم الرسول ﷺ[2] كما انتشرت أسماء صحابته واسم (عبد الله) وسائر أسماء الله الحسنى مسبوقة بـ (عبد). بل حرصت شعوب مسلمة عدة في افريقية وآسيا على ربط نسبها بالصحابة أو بالعرب بصورة من الصور[3] وروى الطبري في أخبار الدولة الأموية أن المسلمين غير العرب استنكروا دفع بعض الفرائض المالية المقررة بعد أن « صار القوم عرباً »[4] ـ أي مسلمين !

ويرى البعض أن تقدم سبل المواصلات في أيامنا، والطابع التكنولوجي البارز في الحضارة المعاصرة، مما يجعل حضارتنا الراهنة « عالمية » يتعذر فيها التصنيف المكاني والعقيدي. والحق أن التباين الثقافي والايديولوجي في المجتمعات التي تنتمي إلى الحضارة المعاصرة، لا

---

(١) Cambridge History of Islam, II : 369.

(٢) مؤنس : الحضارة ص ٣٩٠.

(٣) انظر مثلا عن أصل الأكراد : شرف خان البدليسي ـ شرفنامه (في تاريخ الكرد) ترجمة جميل بندي وروثر بياني. ويتناقل (اللزكي) من قبائل داغستان أنهم من أصل عربي. وغير ذلك.

(٤) انظر في تاريخ الطبري أخبار خلافة هشام بن عبد الملك في صدد السياسة المالية في خراسان وما وراء النهر أثناء ولاية أشرس بن عبد الله السليمي.

بد أن يترتب عليه تباين في الطابع الحضاري لكل منها وبخاصة على المدى الطويل، فلا يكون هذا الطابع سواء في الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي والصين وان اتّحد الطابع التكنولوجي (المادي) أو جانب (المدنية). ومن ثم يحق للمسلمين تكريس الجهود لأجل أن **تواصل الحضارة الإسلامية حياتها** وتجددها في صورة معاصرة تشارك في التقدم التكنولوجي العالمي مع تميز في الأسس العقيدية الأخلاقية التي يكون لها انعكاساتها المحتومة على الصور التنظيمية للمجتمع والدولة ومناشطهما.. بل على المنجزات التكنولوجية ذاتها. وهكذا تكون للحضارة « في التصور الإسلامي حياة مستمرة تصاحب حياة الإنسانية. وان الذي يمدها بهذا العمر الطويل الدائب الدائم : تمثّلها للخلاصات السوية من ثمرات الحضارات الإنسانية السالفة، وتلاق كامل مع الفطرة الإنسانية، وقابلية للنماء المتكيف مع الزمن... للحضارة الإسلامية خصائصها الجذرية الدائمة وشخصيتها الحركية الحية، فهي وجود واحد ــ له في نمائه وتوقفه ــ مراحل وأطوار، ولكنه لم يمت قط وليس من طبيعته أن يموت »[1]. وبذلك تستثنى هذه الحضارة من الانحلال والفناء، على نحو ما أمّل توينبي في الحضارة الغربية القائمة أو أرتأى أنها سوف تتوقى مصير الحضارات الزائلة نتيجة عالميتها وتجددها، وذلك أن « حضارة الإسلام أساسها العقيدة التي تتعاقب على حمل رايتها الأجيال، وأداتها هي اللغة العربية ــ لغة القرآن ــ وبفضله عاشت وقدر لها أن تنجو من الضياع. وبفضل الإسلام والعربية ظلت حضارة الإسلام حية، لأن العقيدة لا تبلى ما دام هناك الذين يؤمنون بها، وما دامت العقيدة حية في عالم الإسلام فاللغة العربية حية. أي أن عنصري الحضارة الإسلامية الأساسيين باقيان لا ينال منهما كر الغداة ومر العشي وتعاقب الأجناس وتغير الظروف » ومن لطيف القول، ما عقب به صاحب هذا الكلام ــ الأستاذ الدكتور حسين مؤنس ــ على عبارته سالفة الذكر حين قال : « وهذا

---

(١) عمر الأميري : الإسلام في المعترك الحضاري ص ١٦ ــ ١٨.

مبحث واسع يحتاج إلى كتاب قائم بذاته، فلنكتف بهذا القدر في هذا المجال »[1].

والحق أن رسالة الإسلام الخالدة تضمنت في ذاتها من القيم الحضارية التي لا تفتأ توجه الأبصار والبصائر إليها، وتشحذ الهمم والعزائم للعمل لها بما يحقق خضارة خالدة خلود الإسلام ذاته، ما استمسك المسلمون بدينهم والتنزموا تعاليمه.

---

(١) مؤنس : الحضارة ص ٢٧٣.

أساس القيم الحضارية في رسالة الإسلام
كرامة الإنسان

الإنسان هو محور الحضارة وأساسها، وتحديد وضعه في أي دين أو فلسفة هو منطلق الحضارة، فلا تقوم حضارة على إنسان مهين أو مضيع أو سلبي. والإنسان في رسالة الإسلام ليس مادة صماء يسير آلياً وفق قوانينها الجامدة، وليس حيواناً تحكمه الغريزة العمياء فحسب، كما أنه من ناحية أخرى ليس مَلَكاً معصوماً يستجيب ويتأثر وينفعل دون ايجابية وتأثير وفعل. ان القرآن قد أعلمنا عن الملائكة أنهم « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ـ التحريم٦ »، بينما قرر عن الإنسان « ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها. قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها ـ الشمس/٧ ـ ١٠ » فهو مخلوق له ارادته وطاقاته وامكاناته. والإيمان بالله يصون هذه الطاقات من أن يستنزفها اليأس والتواكل والسلبية، بوجه عام من جهة، أو الكبر والبطر والغرور من جهة أخرى. ومن تعاليم القرآن الكريم في الجانب الأول قوله عز وجل « ولا تيأسوا من روح الله، انه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ـ يوسف/٨٧ » « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الاعلون إن كنتم مؤمنين ـ آل عمران/١٣٩ »، « واصبر على ما أصابك ان ذلك من عزم الأمور ـ لقمان/١٧ »، « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا/آل عمران/٢٠٠ »، « وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر/العصر/٣ » « ومن يتوكل

على الله فهو حسبه، ان الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً ــ الطلاق/٣ »... وتعاليم القرآن في الجانب الثاني منها آيات القرآن البينات « ولا تمش في الأرض مرحاً، إنك لن تخرق الأرض، ولن تبلغ الجبال طولا ــ الإسراء/٣٧ »، « ولا تصعِّر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً، ان الله لا يحب كل مختال فخور، واقصد في مشيك واغضض من صوتك، إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ــ لقمان/١٨ ــ ١٩ »، « إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً، يستضعف طائفة منهم، يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم، إنه كان من المفسدين ــ القصص/٤ » « ان قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم، وآتيناه من الكنوز ما إنَّ مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة، إذ قال له قومه : لا تفرح، إن الله لا يحب الفرحين. وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا، وأحسن كما أحسن الله إليك، ولا تبغ الفساد في الأرض، إن الله لا يحب المفسدين. قال، إنما أوتيته على علم عندي، أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً، ولا يُسأَلُ عن ذنوبهم المجرمون. فخرج على قومه في زينته، قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون، إنه لذو حظ عظيم. وقال الذين أوتوا العلم : ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يُلقّاها إلا الصابرون. فخسفنا به وبداره الأرض، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين... تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون عُلوّاً في الأرض ولا فساداً، والعاقبة للمتقين ــ القصص/٧٦ ــ ٨٣ ».

وقد روى القرآن كيف خلق الإنسان، وتضمن ذلك تقرير مكانة هذا المخلوق وطاقاته وامكاناته الروحية والنفسية والعقلية واللغوية التي زوده بها الخالق سبحانه وتعالى، « فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ــ الحجر/٢٩ » « وفي أنفسكم أفلا تبصرون ــ الذاريات/٢١ »، « خَلَقَ الإنسان علّمه البيان ــ الرحمن/٢٤ »، « وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم، فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض، وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ــ البقرة/٣١ ــ ٣٣ ».

ونتيجة لما وهب الله الإنسان من قدرات نفسية وعقلية، استطاع أن يتعرف على النواميس والقوى الكونية ويستخدمها « وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره، وسخر لكم الأنهار. وسخر لكم الشمس والقمر دائبين. وسخر لكم الليل والنهار. وآتاكم من كل ما سألتموه، وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها، إن الإنسان لظلوم كفار ـ ابراهيم/٣٢ ـ ٣٤ »، « وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون. وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه، إن في ذلك لآية لقوم يذكرون. وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها، وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون. وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون. وعلامات وبالنجم هم يهتدون. أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون. وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم » النحل/١٢ ـ ١٨، « الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون. وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » الجاثية/١٢ ـ ١٣.

وبهذه الطاقات والقدرات التي منحها الله للإنسان، وبما سخر له من طاقات الكون وبما أنزل إليه من هداية الوحي، تحققت كرامة الإنسان بين خلق الله وتهيأ له أن يصنع ويبدع ويقيم الحضارة وينشرها، « ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً » الاسراء/٧٠. بل ان كيان الإنسان البيولوجي واستقامة قامته وطاقته الحركية وقدرته على النطق وغير ذلك كان مما أتاح السبيل للانسان كي يتحضّر وينشر الحضارة « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ـ التين/٤ »، « ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ـ الأعراف/١١ »، « وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات / غافر/٦٤ »، « الذي خلقك فسواك فعدلك، في أي صورة ما شاء ركبك ـ الانفطار/٧ ـ ٨ »، « ألم نجعل له عينين، ولساناً وشفتين. وهديناه النجدين ـ البلد/٨ ـ ١٠ ». وحين أبطل الإنسان قدراته النفسية والعقلية العليا، وحصر نفسه في نطاق وجوده البيولوجي وحده، فإنما أبطل

خصائصه وميزاته وارتد حيواناً لا يقيم حضارة إذ افتقد النظرة الجامعة للكون والأساس الفكري للحضارة.. « واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين. ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه، فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا، فاقصص القصص لعلهم يتفكرون. ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون.... ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام بل هم أضل، أولئك هم الغافلون ـ الاعراف/١٧٥ ـ ١٧٩ »، « أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون، إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً ـ الفرقان/٤٤ »، « فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين ـ الأعراف/١٦٦ »، « قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله، من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعَبَدَ الطاغوت، أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل ـ المائدة/٦٠ ». وعلى العكس من ذلك يرشد من يصون خصائصه وميزاته الانسانية وينميها بهداية الله « فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون ـ البقرة/١٨٦ »، « ولكن الله حبب إليكم الايمان وزينه في قلوبكم وكرّه اليكم الكفر والفسوق والعصيان، أولئك هم الراشدون ـ الحجرات/٧ ».

والإنسان الذي كرمه الله منذ خلقه، ونفخ فيه من روحه، وعلمه الأسماء كلها، هو الإنسان باطلاق، ذكراً كان أو أنثى، وفي عقيدة الإسلام يتحمل الشيطان، لا حواء، اثم اغواء آدم وفقاً لصريح القرآن. ويجمع الرجل والمرأة وحدة الأصل ووحدانية الرب ووحدة الدين عقيدة وشريعة، فكراً وخلقاً وسلوكاً، وهذه المسئولية والالتزام والجزاء في الدنيا والآخرة... « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام، إن الله كان عليكم رقيباً ـ النساء/١ »، « فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض ـ آل عمران/١٩٥ »، « يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في

معروف فبايعهن واستغفر لهن الله، ان الله غفور رحيم ـ الممتحنة/١٢ »، « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله، أولئك سيرحمهم الله، ان الله عزيز حكيم ـ التوبة/٧١ »، « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما، جزاء بما كسبا، نكالاً من الله، والله عزيز حكيم. فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فان الله يتوب عليه، ان الله غفور رحيم ـ المائدة/٣٨ ـ ٣٩ »، « الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ـ النور/٢ »، « ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً. وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً ـ الاحزاب/٢٥ ـ ٣٦ ». **وبهذا يتضافر المجتمع**، رجالاً ونساء، على تشييد صرح الحضارة، ولا يكون شطره سلبياً معطلاً أو مبدَّداً مضيَّعاً لما ينهض به الرجال. وليس معنى هذا أن يكون وضع المرأة المسلمة في حضارتنا تقليداً لوضعها في الحضارة الغربية. ولقد شرعت جماعات من النساء الغربيات تتنبه إلى خطورة وضع المرأة في مجتمعهن. كما لا يعني الوضع الصحيح للمرأة في المجتمع الإسلامي الملتزم إقرار كل ما تعارفت عليه مجتمعات المسلمين من تقاليد في شأن المرأة، وإنما ينبغي أن يرد الأمر إلى الله ورسوله، وتحكّم شريعته في الرجال والنساء « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً ان تكون لهم الخيرة من أمرهم ». وشريعة الإسلام هي شريعة الأمة الوسط، الشهيدة على الناس، وهي رحمة للعالمين.

وإذ تتقرر كرامة الإنسان على أساس العقيدة في رسالة الإسلام، فان حقوق الإنسان وحرياته، في تعامله مع الإنسان الآخر ومع المجتمع والدولة، تصبح مرتبطة بالعقيدة، مترتبة عليها، فالايمان بالله يفرده سبحانه بصفات العلو والكبرياء التي لا ينبغي لاحد من خلقه أن يتطاول إليها، وهو

وحده سبحانه الذي لا يُسأل عما يفعل، لكن الناس، حاكمهم ومحكومهم، يسألون « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » ـ الأنبياء/٢٣ ». والمساواة بين البشر تتعمق في النفس المؤمنة بالله إلى حيث تتغلغل العقيدة في أغوار النفس، فالله وحده هو الذي ليس كمثله شيء ولم يكن له كفواً أحد، والناس جميعاً أشباه وأنداد. كلهم مخلوقون وكلهم عباد. وارتباط الحرية والمساواة في تعاليم الإسلام بعقيدة الايمان بالله هو الذي ألهم الخليفة الأول الصديق أن يجعل قوله الأول حين استخلف « اني وليت عليكم ولست بخيركم، فان رأيتموني على حق فأطيعوني، وان رأيتموني على باطل فقوموني. أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فان عصيت فلا طاعة لي عليكم ». وللامام مالك رضي الله عنه تعليق على هذا القول نقله السيوطي وهو : « لا يكون أحد إماماً أبداً إلا على هذا الشرط ». وارتباط الحرية والمساواة في تعاليم الإسلام بعقيدة الايمان بالله هو الذي ألهم الخليفة الثاني عمر بن الخطاب أن يقول لوالي مصر من قبله، عمرو بن العاص، في صدد شكوى وصلته من صبي قبطي في حق ابن الوالي : « يا عمرو متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ».

كذلك فان ارتباط الحرية والمساواة في تعاليم الإسلام بعقيدة الايمان بالله **يقيم التوازن بين الحق والواجب، وبين حق الفرد وحق الجماعة**، إذ يتقرر ذلك كله بميزان العدالة الالهية الذي لا يحيف، فيتوقى المجتمع شطط **الفردية والأنانية والانتهازية والنفعية من جانب، كما يتوقى أن يكون الفرد مجرد واحد من قطيع أو تِرْساً في آلة في الجانب الآخر. بل يصل الايمان في** تعميق الشعور بالحرية والمساواة إلى ما لا يصل إليه نظام قانوني، إذ يقرر « أخوة » المؤمنين، وليس مجرد الحرية والمساواة، « انما المؤمنون أخوة، فأصلحوا بين أخويكم، واتقوا الله لعلكم ترحمون ـ الحجرات/١٠ » ويربط بين المؤمنين حبل الله المتين، « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ـ آل عمران/١٠٣ »، وعروة الايمان الوثقى، « فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ـ البقرة/٢٥٦ »، وآيات القرآن تصل في صيانة حقوق الإنسان إلى تحريم السخرية واللمز والتنابز بالألقاب وسوء الظن (الحجرات/١١ ـ ١٢). وحديث رسول الله عليه الصلاة والسلام يسمو بواجبات الاخوة التي يفرضها الايمان إلى خلجات المشاعر

والعواطف، « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ». ولا تطمع حضارة أن تصل إلى أرفع من ذلك في تقرير علاقة الإنسان بالإنسان. وبمثل هذا العمق والشمول يقوى الشعور بالواجب وبالجماعة، وهما ضروريان لقيام الحضارة وازدهارها، دون أن يذوي الشعور بالحق وبالذات، وهما ضروريان لاستمرار الحضارة وانتشارها.

تقرير مكانة العقل واثارة نشاطه والأمر بطلب العلم وتوفير وسائل التعليم :

من الكلمات الحكيمة الهادية لمفكرنا الراحل مالك بن نبي قولته الرائعة : « **إذا كانت الوثنية في نظر الإسلام جاهلية، فان الجهل في حقيقته وثنية،** لأنه لا يغرس أفكاراً بل ينصب أصناماً وهذا شأن الجاهلية، فلم يكن من باب الصدفة المحضة أن تكون الشعوب البدائية وثنية ساذجة.. ومن سنن الله في خلقه أنه عندما تغرب الفكرة يبزغ الصنم »[1].... **ويجلّي** الإسلام أن طاقة الإنسان العقلية وقدراته العلمية الذاتية من بين ما كرمه الله به واختصه به على سائر خلقه ومنهم ملائكته « وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة، فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين. قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم. **قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم، فلما أنبأهم بأسمائهم قال، ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض، وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ـ البقرة/٢٤** ».

وكتاب الإسلام يحمّل الإنسان مسئولياته العقلية في التفكير وطلب المعرفة واستيعاب ثمراتها، وهو يخاطب أولي الألباب والذين يعقلون ويتفكرون ويتذكرون القرآن، وأولى آياته نزولاً « اقرأ باسم ربك الذي خلق... اقرأ وربك الأكرم.. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم ـ العلق/١ ». ويعرض القرآن عقيدة الألوهية والبعث والجزاء على عقل الإنسان « أم خُلقوا من غير شيء، أم هم الخالقون ؟ ـ الطور/٣٥ ـ ٣٦ » « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ـ المؤمنون/١١٥ » « قل إنما أعظكم بواحدة : أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ـ سبأ/٤٦ ».

---

(١) مالك بن نبي : شروط النهضة ص ٣٦ ـ ٣٧.

ويطلب الإسلام، من المؤمنين به وغير المؤمنين، الاحتكام إلى الحجة والبرهان وهو يأمر المسلمين **بالحوار المنهجي** المثمر مع الآخرين والتزام أصوله الفكرية والأخلاقية، ويطلق القرآن على مثل هذا الحوار تسمية معبرة هي « **الجدال بالتي هي أحسن** »، يقول الحق سبحانه « أَمَّن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض، أإله مع الله، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ـ النمل/٦٤ » « قل أرأيتم ما تدعون من دون الله، أروني ماذا خلقوا من الأرض، أم لهم شرك في السموات، ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين ـ الأحقاف/٤ »، « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ـ النمل/١٢٥ »، « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ـ العنكبوت/٦٤ ». وينكر القرآن أشد النكير على الذين « كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولمّا يأتهم تأويله ـ يونس/٣٩ »، ويصف هؤلاء بأنهم ظالمون، اذ ظلموا عقولهم وفرضوا عليها شيئاً بغير بينة.. « كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ـ يونس/٣٩ ». كذلك يستنكر القرآن أن يجادل بغير علم أو حجة ذلك الإنسان الذي أكرمه الله بالعقل « ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد ـ الحج/٣ »، « ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق ـ الكهف/٥٦ »، « ان الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إنْ في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه ـ غافر/٥٦ »، « ومن يدع مع الله الهاً آخر لا برهان له به فانما حسابه عند ربه، انه لا يفلح الكافرون ـ المؤمنون/١١٧ ».

وكم من مرة يدير فيها الكتاب الكريم نفس الحوار والمناقشة، مستهلاً آياته بكلمات مثل « يسألونك... »، « قالوا »، « ... يقولون »... مردفاً القضية التي أوردها بجوابه عليها، مع ذكر دعاوى المعرضين، في أمانة وثقة بقدرة الحق على بيان حجته، ازاء كل دعوى مهما كان بريقها، « **وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية، يقولون هل** لنا من الأمر من شيء، قل ان الأمر كله لله، يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك، يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلناهنا، قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم، وليبتلي الله ما في صدوركم،

وليمحّص ما في قلوبكم، والله عليم بذات الصدور ـ آل عمران/١٥٤ »، « لقد سمع الله قول الذين قالوا ان الله فقير ونحن أغنياء ـ آل عمران/١٨١ »، « قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ـ يس/٤٧ »، « وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ـ النحل/٣٥ »، « وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم، إنْ هم الا يظنون، الجاثية/٣٤ ». وردود القرآن على هذه الدعاوى وغيرها مثبوتة في آيات أخرى عديدة منه.

والكتاب المبين يثير طاقة العقل الإنساني، ويوجهه إلى **المشاهدة والملاحظة والادراك لشتى ظواهر الكون الواضحة لكل ذي عينين ونواميسه المعجزة** التي يسبر غورها أهل العلم بالبحث والتدبر، « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج. والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج. تبصرة وذكرى لكل عبدٍ منيب ـ ق/٦ ـ ٨ »، « إن الله فالق الحب والنوى، يُخرج الحيَّ من الميت ومخرجُ الميتِ من الحي، ذلكم الله فانّى تؤفكون. فالق الإصباح، وجعل **الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً، ذلك تقدير العزيز العليم. وهو الذي** جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر.... وهو الذي أنزل من السماء ماء فاخرجنا به نبات كل شيء، فأخرجنا منه خَضِراً نخرج منه حباً متراكباً، ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنّات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه، انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه، ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ـ الأنعام/٩٥ ـ ٩٩ »، « أَوَ لَمْ ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما، وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون. وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً لعلهم يهتدون.. وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتنا معرضون. وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون ـ الأنبياء/٣٠ ـ ٣٣ »، « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها، ومن الجبال جُدَدٌ بيضٌ وحمرٌ مختلفٌ ألوانها وغرابيب سود، ومن الناس والدواب والأنعام مختلفٌ ألوانه كذلك، انما يخشى الله من عباده العلماءُ ـ فاطر/٢٧ »،

« ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم، ان في ذلك لآيات للعالمين ـ الروم/٢٢ »، « وفي أنفسكم أفلا تبصرون ـ الذاريات/٢١ »، « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق، أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ـ فصلت/٥٣ ».

وقد فتح كتاب الإسلام أبصار المؤمنين وبصائرهم على ما في هذا الكون **من نظام وتوازن وإحكام، وعلى أن له سنناً ونواميس مطردة،** « ما ترى في خلق الرحمن من نفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ـ الملك/٣ »، « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون. وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين. وان من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم. وأرسلنا الرياح لواقح، فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه ـ الحجر/١٩ ـ ٢٢ »، « لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر، ولا الليل سابق النهار، وكل في فلك يسبحون/يس/٤٠ »، « وخلق كل شيء فقدره تقديراً ـ الفرقان/٢ »، «وكل شيء عنده بمقدار ـ الرعد/٨ »، « فلن تجد لسنة الله تبديلاً، ولن تجد لسنة الله تحويلاً ـ فاطر/٤٣ ». ولقد علم رسول الإسلام المؤمنين أن سنن الله مطردة لا تَنخَرِمُ، ولو لموت ابن الرسول الكريم صلوات الله عليه، « ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يُكْسفان لموت أحد ولا لحياته ».
لحياته ».

وشريعة الإسلام تتطلب الاجتهاد في تفهم نصوص القرآن والسنة وتبين دلالاتها والجمع بينها، كما تتطلب الاجتهاد فيما سكتت عنه النصوص وفق مسالك الاجتهاد الشرعية بحيث لا يتعارض الحكم الاجتهادي مع حكم منصوص عليه أو مع مقاصد الشريعة وقواعدها الكلية ومبادئها العامة. ورسول الإسلام عليه الصلاة والسلام قرر أن « طلب العلم فريضة على كل مسلم »، ويشمل هذا الذكور والإناث. وقد جعل صلوات الله عليه للنساء يوماً يجتمعن به فيه ويسألنه عن أحكام الدين. كذلك جعل ﷺ فداء الأسير من المشركين يوم بدر تعليم عشرة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة.

وكان المسجد مجمع المسلمين الذي يهيئ لكل فرد منهم سبيلاً إلى تلقي ثقافة الإسلام العامة، كما كان معقد حلقات التعليم لطالب العلم، في مرحلته الأساسية وفي دراساته العالية إلى أن اشتغلت المدارس بأبنيتها الخاصة مجاورة للمساجد في غالب الأحوال. وقد اشتمل جامع القيروان على جناحين للتعليم، أحدهما للرجال والآخر للنساء. **وازدهرت مؤسسات التعليم، ونشط البحث العلمي في مختلف المجالات في رحاب حضارة الإسلام،** بعد أن أطلق هذا الدين طاقة الإنسان وقدراته العقلية، ينميها الايمان ويزكيها ويرشدها. وكان في كبار المساجد الجامعة مكتبات، يوقف العلماء كتبهم عليها، كما كان خلفاء المسلمين وحكامهم يفاخرون بجمع الكتب، فكان بيت الحكمة في بغداد، أثناء العهد الزاهر من خلافة العباسيين وبخاصة أيام المأمون، من أكبر خزائن الكتب، وقد ظلت قائمة حتى استولى المغول على بغداد. وكان « الحَكَمُ » صاحب الأندلس يبعث إلى بلدان المشرق من يشتري له الكتب حال ظهورها. وروي أن فهرس مكتبته كان قرابة ألف صفحة تضم عناوين الكتب. وذكر « المقريزي » أن خزانة الخليفة الفاطمي العزيز في مصر كانت تضم ألف ألف وستمائة ألف كتاب (أي مليون وستمائة ألف كتاب)، وقدرها مصدر آخر بمليوني كتاب، وقال ابن الطوير أنها كانت تحتوي على رفوف يقطع الرف حواجز، **وعلى كل حاجز باب مقفل. ويقارن « آدم متز » بين حجم مثل هذه** المكتبات الكبرى وحجم ما كان في أوربا الوسيطة من مكتبات، فيضع أمام الأذهان أن مكتبة الكاتدرائية بمدينة كنستانز كانت ذخيرتها في القرن ٩م ٣٥٦ كتاباً فحسب، وكان في مكتبة دير البندكتيين سنة ١٠٣٢م ما يزيد قليلا على المائة، وفي مكتبة الكاتدرائية بمدينة بامبرج سنة ١١٣٠م ٩٦ كتاباً فقط. وكان للأفراد المسلمين الأثرياء والعلماء مكتباتهم الخاصة الحافلة، فيروى أن أحد علماء أصفهان المياسير توفي عام ٢٧٢ هـ وقد أنفق ثلاثمائة ألف درهم في شراء الكتب، وكانت الكتب في خزانة « أبي الفضل ابن العميد » بالري من الكثرة بحيث ضمت، في كل علم، وكل نوع من أنواع الحكم والآداب، مايحمل على مائة وقر. ويحكى عن أحد فقهاء الشافعية (أبي القاسم جعفر بن محمد بن حمد بن الموصلي المتوفى

٣٢٣ هـ) أنه أقام داراً للعلم في بلده جعل فيها خزانة كتب من جميع العلوم وقفاً على كل طالب للعلم لا يُمنع عنها أحد، وإذا جاءها غريب معسر أُعطي ورَقاً (بفتح الراء)، ووَرِقاً (بكسر الراء) أي نقوداً فضية. وأقام القاضي **ابن حبان المتوفى سنة ٣٥٤ هـ في نيسابور داراً للعلم، وخزانة للكتب،** ومساكن للغرباء من طلاب العلم، وأجرى عليهم الأرزاق، ولم تكن الكتب تعار خارج الخزانة. ونسب للشريف الرضي المتوفى سنة ٤٠٦ هـ أيضاً اقامة دار بها مكتبة فتحها لطلاب العلم وعين لهم جميع ما يحتاجون اليه[1].

العمل واجب شرعي، وعمارة الأرض من مسئولية الانسان الذي جعله الله فيها خليفة :

علمت رسالة الإسلام المؤمنين الجد في العمل والنفور من الكسل والتبطل، وعملت على مقاومة معوقات العمل النفسية والبدنية، الفردية والاجتماعية. والعمل الجاد المخلص من المؤمن هو عبادة لله سبحانه، ما دام يبتغي الآخرة بعمله في الدنيا ويرجو الله في تعامله مع الناس. **ومهمة البشر عمارة الأرض، والعمل ابتغاء من فضل الله، واتقان العمل واجب** يمليه الايمان الصحيح ومراقبة الله عز وجل، وفي الحديث، « ما أكل أحد **طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده وان نبي الله داود عليه السلام** كان يأكل من عمل يده »، « ان الله يحب اذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه »، « من غشنا فليس منا ». والعمل هو الذي يشيد صرح الحضارة، وارتباط العمل بالعقيدة يصل به إلى أبعاد لا تصل إليه بحال حوافز الكسب والطموح وحدها، والتعاون على العمل يبارك الجهود والثمار. والحضارة جماعية بطبيعتها، والإسلام لا يحض على الانسحاب من الدنيا والانزواء عن الناس، فالمسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضاً، والمسلمون مطالبون بالتعاون على البر والتقوى والتواصي بالحق والصبر. وعبادة الله في الإسلام شاملة لكل فكر مخلص وكل عمر مخلص، **والعلم بالكون تسبيح للصانع**

---

(١) آدم متز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ـ ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريده ـ القاهرة ١٣٦٦ هـ ـ ١٩٤٧م جـ ١ ص ٢٤٣ ـ ٢٥٠، حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام جـ ٢ ص ٣٤٨، جـ ٤ ص ٤٣٢. وانظر للتفصيل : أحمد شلبي ـ التربية الإسلامية.

الذي أتقن كل شيء وتجلية لبديع صنعه، وهكذا يخشى الله من عباده العلماء، والعمل في الكون ابتغاء من فضل الله. وما اصطلحنا على تسميته بالعبادات هي في حقيقتها الشعائر، وهي العلامات الظاهرة المتميزة المميِّزة للفرد والجماعة، وهذه الشعائر في تعاليم الإسلام موقوتة محدودة تشير وتدل على عبادة شاملة وتقوى لله في كل زمان ومكان. وهي تريح النفس وتشفيها وتصون الطاقة وتزكيها، وتقوي المؤمن على مواصلة الجهد والصبر على مشقة العمل وفتنة الظفر والفشل وايذاء البشر واغوائهم، « فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله ـ الجمعة/ ١٠ »، « ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات ـ الحج/٢٨ ». **والمؤمن يعبد الله ويتميز في عبادته بهذه الشعائر الموقوتة، كما يعبد الله بالفكر الراشد والعمل الصالح واستخراج الطيبات من الأرض،** « كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ـ البقرة/١٦٩ ». ومن التحدث بعظمة ما أودع الله في الكون ونعمته على الانسان أن يرى الناس هذا الخير محسوساً ملموساً جلياً شائعاً في مختلف مجالات حياتهم، وقد أخبر الرسول صلوات الله عليه « إن الله يجب أن يرى أثر نعمته على عبده »... وما أفعل هذه كلها من حوافز للعمل الذي يرفع بناء الحضارة لبنة بعد أخرى.

وقد أكدت تعاليم الإسلام **أنّ التوكل على الله ليس تواكلاً**، بل هو قرين للجد في العمل يباركه ويزكيه ويقي العامل من التوقف عن ابتغاء فضل الله وطلب رزقه بطراً أو قنوطاً. ان الصبر والمصابرة ليسا وهناً وفشلاً بل هما قرينا الرباط والسعي الدؤوب والعزيمة التي لا تفتر، وان الزهد هو أن يزهد المؤمن فيما ملكه من طيبات الدنيا بكده وكسبه الحلال فيهبه لصالح جماعة المسلمين أو للفقراء والمساكين ـ كما كان يفعل أمير المؤمنين ذو النورين عثمان رضي الله عنه وأرضاه، وليس الزهد أن يزهد المرء فيما لم تصل اليه يده ولم يدخل في ملكه. وهذا دعاء رسول الله المأثور، عليه صلوات الله، يسد على نفس المؤمن كل ثغرات الضعف، فيقضي على مثبطات تعرقل نهضته الحضارية « اللهم اني أعوذ بك من الكفر والفقر ».. ولا يرتضي التدين الصحيح بحال أن تصرف شعائر العبادة عن طلب الرزق، كما لا يرتضي أن يتيه الإنسان في دروب الأرض فينسى خالقه ورازقه وهو رب كل شيء، بل يعمل الإسلام بتعاليمه على اقامة التوازن والتكامل والتفاعل بين

شعائر العبادة الموقوتة وحقيقة العبادة الدائمة أو « التقوى » التي ينفسح لها كل عمل في الدنيا وكل تعامل مع انسـان، « والله **يُقَدِّر الليل والنهار، علم أن لن تحصوه فتاب عليكم،** فاقرأوا **ما تيسّر** من القرآن، علم أن سيكون منكم مرضى، **وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله،** وآخرون **يقاتلون** في سبيل الله، فاقرأوا ما تيسر منه، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضاً حسناً، وما تقدموا لأنفسكم **من خير** تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً، واستغفروا الله، ان الله غفور رحيم ـ المزمل/٢٠ »، « ... ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج، **ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون.** واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به اذ قلتم سمعنا وأطعنا واتقوا الله، ان الله عليم بذات الصدور ـ المائدة/٦ ـ ٧ ».

ولقد علم رسول الله ﷺ أمته أن الايمان بضعة وسبعون شعبة أعلاها لا إله إلا الله، وأدناها ما تيسر من عمل صالح في دنيا الناس ولو كان اماطة الأذى عن الطريق. **وهكذا يظاهر الايمان كل عمل صالح في مختلف مجالات الخير،** « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين، وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة، **والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس،** أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ـ البقرة/١٧٧ »، « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم، كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين ـ الحج/٣٧ ». ولقد أوردت شريعة الإسلام الأحكام العادلة لتنظيم استثمار المال من مختلف المجالات المباحة ومعاملة العمل فيه.

* * *

ومن تعاليم الإسلام، التي لها دلالتها في التوجيه إلى عمارة الأرض، حث المؤمنين على **استصلاح الموات** واحيائه وزراعته، وجعل محييه مالكاً لما أحياه، ومنع العدوان على هذا الحق الشرعي والتملك الحلال بشرط احياء الأرض بالفعل خلال المدة المناسبة وإلا عادت إلى الملك العام، فيكون محييها بالفعل هو متملكها، وفي الحديث « من أحيا أرضاً ميتة فهي له،

وليس لعرق ظالم حق »، ويروى عن عمر بن الخطاب قوله « من عطل أرضاً ثلاث سنين لم يعمرها فجاء غيره فعمرها فهي له »، « وروي عنه قوله ـ رضي الله عنه ـ لبلال بن الحارث المزني الذي كان قد طلب أرضاً من الرسول ﷺ فمنحه مساحة واسعة : « يا بلال انك استقطعت رسول الله أرضاً طويلة عريضة فأقطعها لك، وان رسول الله لم يكن يمنع شيئاً يُسأله، وأنت لا تطيق ما في يدك، فانظر ما قويت عليه منها فامسكه، وما لم تطق ولم تقو عليه فادفعه الينا نقسمه على المسلمين.. فأخذ منه ما عجز عن عمارته فقسمه بين المسلمين »[1].

كذلك حثّت تعاليم الإسلام المؤمنين على الزراعة. وفي حديث رسول الله صلوات الله عليه ما رواه جابر « من زرع زرعاً أو غرس غرساً فأكل منه انسان أو سبع أو طائر فهو صدقة »[2] ـ ولقد روي عنه ﷺ أيضاً « من أحسَّ قيام الساعة وبيده فسيلة فليغرسها ».

ولقد شهدت وقائع التاريخ أن المسلمين قد زرعوا وجدّوا في استصلاح الأرض وتنظيم الري وتحسين أساليب الزراعة وتنويع مزروعاتهم. وقد دأب الأمويون منذ عهد معاوية بن أبي سفيان على استصلاح الأراضي للزراعة، ومنها البطائح المغمورة بالمياه في أدنى نهر دجلة، وعني ولاة الأمويين على العراق، ومنهم الحجاج بن يوسف الثقفي وعمر بن هبيرة ثم خالد بن عبد الله القسري، بحفر الأنهار واقامة القناطر والسدود واصلاح الجسور والعناية بالثروة الحيوانية[3]. ولقد كان من توجيه القاضي أبي يوسف صاحب أبي حنيفة

---

(١) يحيى بن آدم القرشي : كتاب الخراج بتحقيق أحمد محمد شاكر ـ ط ٢ المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٨٤ هـ ص ٨٠ ـ ٨٩ النصوص رقم ٢٦٦ ـ ٢٩٤. ويلاحظ أن ثمة رواية أوردها أبو يوسف تجعل تحديد المدة التي يجب خلالها الاحياء بثلاث سنين حتى يتحقق التملك، في حديث لرسول الله ﷺ مروى عن طاوس، يقول « عادى الأرض لله وللرسول ثم لكم من بعد، فمن أحيا أرضاً ميتة فهي له ليس لمحتجر حق بعد ثلاث سنين « وعادى الأرض ما تقادم ملكه ـ انظر : أبا يوسف الخراج ـ ط ٤ ـ المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٩٢ هـ ص ٧٠ وانظر مبحث موات الأرض عموماً عند أبي يوسف ص ٦٩ ـ ٧٢.

(٢) يحيى بن آدم : الخراج ص ٧٧ ـ ٧٨ النصوص رقم ٢٥٨ ـ ٢٦٢.

(٣) البلاذري : فتوح البلدان ـ تحقيق رضوان محمد رضوان ص ٢٩٠ ـ ٢٩٢، قدامة : نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة ملحق لكتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة ص ٢٤٠ ـ ٢٤١، ابن رستة : الأعلاق النفيسة ص ١٠٥.

للخليفة العباسي الرشيد في كتابه (الخراج) : « و « على الإمام كرْي النهر الأعظم الذي لعامة المسلمين إن احتاج إلى كرْي، وعليه آن يصلح سناته ».... « وإذا احتاج أهل السواد إلى كري أنهارهم العظام من دجلة والفرات : كُريَتْ لهم.... ولا يحمل ذلك كله على أهل الخراج.... فأما البثوق والمسنّيات والبريدات التي تكون في دجلة والفرات وغيرهما من الأنهار العظام فان النفقة على هذا كله من بيت المال لا يحمل على أهل الخراج من ذلك شيء، لأن مصلحة هذا على الامام خاصة، لأنه أمر عام لجميع المسلمين فالنفقة عليه من بيت المال.... ولا يُوَلّى النفقة على ذلك إلا رجل يخاف الله، يعمل في ذلك بما يجب عليه لله... ولا تول من يخونك ويعمل في ذلك بما لا يحل، يأخذ المال من بيت المال لنفسه ومن معه، أو يدع المواضع المخوفة، ولا يعمل عليها شيئاً يحكمها به حتى تنفجر، فتغرق ما للناس من الغلات، وتخرب منازلهم وقراهم، ثم وجه من يتعرف ما يعمل به واليك على هذه المواضع المخوفة منها وما يمسك عليها مما قد يحتاج إلى العمل وما تفجر وما السبب في انفجاره »[1].

وهكذا نظم المسلمون شبكة شاملة محكمة للري في مصر والعراق وإيران وما وراء النهر. وكانت القاعدة العامة هي حكم الشريعة **أن الماء حق للجماعة لا يحلّ لفرد بيعه وشراؤه** ـ كما لاحظ وأوضح « بحق آدم متز » في مصنفه الجامع عن الحضارة الإسلامية، « وعلى هذا فلم يكن يجوز للدولة ولا للأفراد أن يجعلوا مسألة الري وحدها سبيلاً للكسب أو التجارة. وان الجزء الأكبر من التشريع الأوربي الخاص بالماء مقتبس من تشريع الشرق، ولقد كانت طرق الري ووسائله متنوعة تنوع البلاد، وإن كنا لا نعرف إلا القليل من المعلومات الصحيحة عن ذلك مع الأسف »[2]. وقد

---

(١) أبو يوسف : الخراج ص ١٠٥ ـ ١٠٦ ، ١١٩ ـ ١٢٠ و « البثق » ما يخرقه الماء في جانب النهر، « والمسناة » السد يبنى في وجه الماء، و « البريدات » اصطلاح فارسي يعني مفاتيح الماء.

(٢) آدم متز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ـ ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريده ـ ط ٢ ـ القاهرة ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨م جـ ٢ ص ٢٤٦.

قرر أبو يوسف في كتاب الخراج : « وكل من كانت له عين أو بئر أو قناة فليس له أن يمنع ابن السبيل من أن يشرب منها ويسقي دابته وبعيره وغنمه منها. **وليس له أن يبيع من ذلك شيئاً للشفة، والشفة عندنا الشرب لبني آدم والبهائم**، وله أن يمنع السقي للأرض والزرع والنخل والشجر، وليس لأحد أن يسقى شيئا من ذلك إلا باذنه، فان أذن له فلا بأس بذلك، وإن باعه ذلك لم يجز البيعَ ولم يحل للبائع والمشتري لأنه مجهول غرر لا يعرف.... **ولا بأس ببيع الماء اذا كان في الأوعية** ـ هذا ماء قد أحرز.. وان هيأ له مصنعه فاستقى منها بأوعيته حتى جمع فوقها ماء كثيراً ثم باع من ذلك فلا بأس إذا وقع في الأوعية فقد أحرزه وقد طاب بيعه. فاذا كان انما يجتمع من السيول فلا خير في بيعه. وان كان في بئر أو عين يزداد ويكثر أو لا يزداد ولا يكثر فلا خير في بيعه ولو باعه لم يجز البيع، ومن استقى منه شيئاً فهو له »[1]. وقد ذهب أبو يوسف إلى تخصيص سهم من مصارف الزكاة في « اصلاح طرق المسلمين »[2]، تأولاً فيما يبدو لقوله تعالى، ضمن مصارف الزكاة، « وفي سبيل الله وابن السبيل ـ التوبة/ ٦٠ ».

وقد كان في « مرو »، في شرقي فارس، جهاز متخصص للري يسمى **« ديوان الماء »، يرأس صاحبه عشرة آلاف عامل ويعلو منصب** « صاحب المعونة » في المدينة. وكان للماء مقاييس على مواضع متعددة من كل نهر من الأنهار الكبرى وعند السدود في دار الإسلام مثلما كان عليه الحال في مصر وفيما وراء النهر. فالمتولي للسد يلاحظ ارتفاع الماء وينفذ سعاته بخبره إلى ديوان النهر أو الماء فينفذ صاحبه الرسل إلى جميع من يتولون شعب الأنهار فيقسمون الماء بحسب ارتفاعه ». وكان على السد الذي أقيم جنوب « مرو » أربعمائة غواص، يراعونه في ليلهم ونهارهم، وربما احتاجوا دخول الماء في البرد الشديد فيطلون أنفسهم بالشمع »[3]. وانتشرت شبكة من القنوات مدت في جوف الأرض في شرقي فارس وعقدت عليها القناطر، وهو

---

(١) أبو يوسف : الخراج ص ١٠٣.

(٢) المصدر السابق ص ٨٦.

(٣) المقدسي : أحين التقاسيم في معرفة الأقاليم ـ طبعة ليدن ـ ص ٣٣٠ ـ ٣٣١.

النظام الذي عرف باسم Kariz. وفي نيسابور كان يهبط المرء سبعين مرقاة ليصل إلى تلك القنوات الجوفية ـ وهي تسقي ضياع البلد وتدور في محلاتها وتمد أهلها بماء نظيف للشرب يكون بارداً في فصل الصيف.[١] ويعلق « آدم متز » على هذا النظام للري بقوله : « كان هذا التنظيم يحتاج إلى مهارة كبيرة، إذ كان لا بد للقائمين به أن يعالجوا الطبقات الأرضية التي يجري عليها الماء في المواضع التي يجدون فيها أرضاً لا يخترقها الماء، كما كان لا بد لهم من أن يجعلوا لهذه الطبقات ميلاً يساعد الماء على سرعة الجريان عند ازدياده، وكان يستعمل من الآلات المائية (لرفع الماء إلى سطح الأرض) الدولاب أو المنجنون والدالية والغرافة والزرشوقة والناعورة »[٢]. وبنيت السدود على الأنهار من الخشب أو الحجر، وكان سد الشاذوران الحجري، جنوبي تستر، عرضه ألف ذراع، وكان يفصل نهر مشرقان من نهر دجيل. وكان « السّكْرُ » حائطاً عظيماً يبنى في عرض النهر، أساسه من الرصاص. وقد بنى عضد الدولة البويهي واحداً على نهر الكرّ بين شيراز وأصطخر « فتبحّر الماء خلفه وارتفع فجعل عليه من الجانبين عشرة دواليب وتحت كل دولاب رحى وأجرى ماءه في قنوات فسقى ثلاثمائة قرية »[٣]. وجمع الماء في اليمن في غدر مرصوفة من جوانبها تسمى « مصانع »، وبنيت سدود في المناطق الجبلية لتجميع الماء ولها فتحات من أسفلها يجري خلالها الماء فيوزع في قنوات صغيرة وقد وصفها الجغرافي ابن رستة[٤]. وكان على نهر النيل في أدناه سدان أحدهما بعين شمس يقام قبل زيادة النيل لرفع الماء وراءه وسقي ما خلفه من المزارع ويفتح عند الفيضان صيفاً، وكان السد أعظم بناء ويقع بسردوس أسفل عين شمس، وقد أفرد المقريزي في كتابه « الخطط » قسماً مفرداً لتعداد القناطر المقامة على النيل والمجاري الفرعية التي تأخذ منه،

---

(١) المصدر السابق ص ٩٢٩ وانظر أيضاً اليعقوبي : البلدان، ملحق بالأعلاق النفيسة لابن رستة (المكتبة الجغرافية ـ ليدن) ص ٢٧٤.

(٢) آدم متز : الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ٢٤٨.

(٣) المقدسي : أحسن التقاسيم ص ٤٤٤.

(٤) ابن رستة : الأعلاق النفيسة (المكتبة الجغرافية ـ ليدن) ص ١١٢.

وروى أن عبد العزيز بن مروان بنى القنطرتين على خليج مصر الكبير وبنيت احداهما بالحمراء القصوى في طرف الفسطاط سنة ٦٩ هـ[١].

كذلك لقي نظام الري بالأندلس عناية كبرى في كنف حضارة الإسلام، وأقيمت السدود وحفرت الجداول. وكان التقويم القرطبي دليلاً لزراعة النباتات المختلفة في مواعيدها، وقد انتقل من الأندلس إلى غيرها من بلدان أوربا[٢].

وزرع المسلمون الحبوب والخضر والفواكه بأنواعها المختلفة، كما زرعوا أشجار الزيتون، واستخرجوا الزيت منه ومن غيره من الحبوب الزيتية، واستخرجوا السكر من القصب حتى انتقل لفظه العربي إلى لغات أوربا. واعتنوا بتربية الأزهار واستخراج العطور، وكان خراج فارس يتضمن ثلاثين ألف قنينة من عطر الورد الأحمر ترسل إلى بيت مال الخلافة في بغداد. وإلى جانب ماء الورد وزيته استعمل المسلمون العطور المستخرجة من البنفسج والنرجس والسوس والنيلوفر والزنبق والقرنفل والياسمين والريحان وزهر الليمون والبرتقال[٣].

وربى المسلمون الحيوان لركوب ظهره وأكل لحمه وشرب ألبانه، كما ربوا الدواجن والحمام الزاجل والصقور، وصادوا الأسماك.

* * *

كما استخرج المسلمون المعادن والأملاح والجواهر وقطعوا الأحجار والأخشاب، واشتغلوا، استخراجاً وصناعة، في الذهب والفضة والحديد والنحاس والرصاص والفحم والزئبق واللؤلؤ والمرجان والعقيق والزبرجد والفيروزج والعاج وملح الطعام والشب وملح النشادر والبورق ومواد

---

(١) المقريزي : الخطط ـ مطبعة النيل ـ القاهرة سنة ١٣٢٥ هـ جـ ٣ ص ٢٣٨ ـ ٢٤٦. وانظر أيضاً آدم متز : الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ٢٥١.

(٢) حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام جـ ٢ ص ٣٠٨.

(٣) حتي : تاريخ العرب ـ ترجمة مبروك نافع ـ ط ٣ ـ القاهرة سنة ١٩٥٢م جـ ٢ ص ٤٤٠ ـ ٤٤٤. وانظر أيضاً آدم متز : الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ٢٢٠ ـ ٢٢٨ ، ٢٦٥ ـ ٢٦٦.

الصباغة[1]. **وأورد البلاذري خبر جباية ما فرض على « النفاطات »**، وهي موارد النفط في أرض شروان قرب بحر قزوين، وكان في جيوش المسلمين فرق « النفاطين » التي تستخدم النفط في حرق تحصينات العدو الدفاعية وتجهيزاته الهجومية من مجانيق ودبابات وغيرها[2].

كذلك تفنن المسلمون في **صناعة أنواع النسيج** المختلفة من حرير وكتان وصوف وقطن، واشتهر الدمقس والدبيقي (نسبة إلى دبيق بمصر)، والموصلي (الموسلين)، وأنتجوا النسيج الرقيق « كأنه المنخل » الأبيض والملون في دمياط وتيس تصنع منه عمائم الرجال وملابس النساء، وتنوعت البسط والسجاجيد التي صنعتها أيدي المسلمين والمسلمات، وجادت عند المسلمين صناعة الورق والكاغير.

وبالنسبة **للقوى المحركة** لم يفت المسلمين الاستفادة من حركة الماء، **فذكر المقدسي أن أهل البصرة أقاموا أرحية على أفواه الأنهار ليديرها** الماء، داخلاً وخارجاً، ولم يكن الناس يستعملون الدواب في إدارة الطواحين إلا حيث لا يوجد أنهار، كما انتفع من الريح في إدارة الأرحاء، كذلك حقق **المسلمون تقدماً رائعاً في صناعة الأجهزة العلمية للكيمياء والرصد الفلكي** والجراحة وغيرها[1]، وفي صناعات السلاح والعتاد والسفن وفنون عمارة المساجد والبيوت والقلاع والأسوار.

* * *

وضرب المسلمون في فجاج البر والبحر يبتغون من فضل الله في التجارة، وعنوا بالطرق البرية ومراكز البريد وأقاموا الفنادق والرباطات للمسافرين، وازدهرت أسواقهم وخاناتهم، ونشطت رحلاتهم، كما اجتذبت

---

(١) آدم متز : الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ٢٣٠ ـ ٢٤٥.

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢١١ ـ ٢١٢، وانظر خبر « النفاطين » مثلا في حملة المعتصم على عمورية عند الطبري.

(١) آدم متز : الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ٢٥٧ ـ ٢٧٠. وانظر المقدسي، أحسن التقاسيم ص ١٢٥، أيضاً حتي : تاريخ العرب، ترجمة نافع جـ ٢ ص ٤٣٢ ـ ٤٣٨ ، ٥٣٥ ـ ٥٣٨.

أسواق بلاد الإسلام التجار من شتى الأنحاء ومنهم « الراذانية » الذي قدموا اليها من أدنى حوض الرون في جنوبي فرنسا (فرنجة) وكانوا من اليهود. ومنهم تجار الروس القادمون « من أقصى صقلية يحملون الفراء والسيوف، وقد أسلم ملك وادي الفلجا وأهل بلاده اثر اتصال الخليفة به سنة ٣٠٩ هـ.

وكانت عملة المسلمين قوية مقبولة في أنحاء العالم، وقد عرفوا « **السفاتج** »، توقياً لمخاطر حمل المال في الرحلات الطويلة البعيدة. والسفتجة أمر بالدفع إلى شخص معين. وتعاملوا « بالصكوك » وتعني كثيرا من أوراق المعاملات المدنية والتجارية ومنها العقد وسند الدين وقد عرفوا الحوالة، وكان الصك في العراق أشبه باذن الدفع الحكومي، والشبه واضح بين كلمتي « صك » و « شيك ». كذلك عرف المسلمون في معاملاتهم وفقههم « الحوالة ». وشاع في مدن المسلمين وجود **الصيارفة** الذين يعملون في استبدال النقد، **والجهابذة** المحاسبين، وقد كان في أصفهان سوق للصرافين حين أتاها الرحالة ناصري خسرو، وقد كان هذا السوق يضم مائتي صراف.

وجابت سفن المسلمين البحر المتوسط، (بحر الروم)، والبحر الأحمر (بحر القلزم أو بحر الحجاز)، والمحيط الهندي (بحر الهند). ويذكر ابن خرداذبة أن سفن بحر الروم كانت تثبت ألواحها بالمسامير، بينما كانت الألواح تثبت في السفن التي تمخر بحري القلزم والهند بحبال الليف. ويعلل المسعودي عدم استعمال المسامير في تلك السفن بالخوف من أن يأكلها ماء البحر، وذكر القزويني (في عجائب المخلوقات)، والأدريسي (في نزهة المشتاق)، أن السبب هو خوف الملاحين من حبال المغناطيس. وروى اليعقوبي أن ميناء طرابلس الشام كان يتسع لألف مركب. وقد حكى الادريسي خبر « **المُغرّرين** » الذين ركبوا بحر **الظلمات (المحيط الأطلسي)** من غربي الأندلس « ليعرفوا ما فيه وإلى أين انتهاؤه.... فجروا به نحواً من أحد عشر يوماً فوصلوا إلى بحر غليظ الموج كثير الروائح كثير القروش (أسماك القرش) »... واشتهر ميناء عيذاب على البحر الأحمر في القرن السادس الهجري، فذكر ابن جبير أنّها « من أحفل مراسي الدنيا بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط فيها وتقلع منها، زائداً على مراكب الحجاج

الصادرة والواردة »، واستلفت نظر الرحالة من سلع الهند أحمال الفلفل. ووصف المقدسي عدن بأنها « دهليز الصين ». كذلك ركب المسلمون « بحر الزنج » بين ساحل عمان وساحل افريقية الجنوبي الشرقي. وكانت زنجبار محطة بحرية هامة صار ملوكها من المسلمين. وقد ارتاد المسلمون ساحل بحر الزنج جنوباً إلى سفالة وموضعها الآن في موزمبيق واليها تقصد « مراكب العمانيين والسيرافيين » ـ على حد قول المسعودي، ويستخرج منها الحديد وينقل إلى الهند حيث تصنع منه آلات عظيمة القيمة. وذكر المسعودي أنه ركب بحار الصين والروم والقلزم واليمن والزنج فكان الأخير أصعبها عليه. وقد وصلت سفن المسلمين إلى موانئ الصين، وأخذ الإسلام ينتشر هناك حتى صار لجماعة المسلمين في خانقو (كانتون) رئيس يوليه امبراطور الصين منذ أواخر القرن الثاني وأوائل الثالث من الهجرة[1].

ولقد فكر الخليفة الرشيد في وصل البحرين الأبيض المتوسط والأحمر مباشرة، بدل اتصالهما عن طريق خليج المؤمنين بين البحر الأحمر والنيل ثم فرع النيل الذي ينتهي إلى البحر المتوسط، ولكن أشير عليه بخطر ولوج سفن الروم عن طريق البحر الأحمر إلى بلاد المسلمين، وعلى الأخص الحجاز، فعدل عن تلك الفكرة[2].

* * *

هكذا جد المسلمون في طلب الرزق وابتغاء فضل الله في شتى أرجاء البر والبحر، وكبرت أقدامهم وأيديهم وحواسهم وعقولهم في التنقيب عن نعم الله ظاهرة وباطنة.... وأقاموا حضارة زاهرة تعددت مجالاتها ومنجزاتها وثمارها وآثارها.... فهل يمكن أن يقال للدين الذي انتمى اليه هؤلاء أنه يخلع الإنسان من الدنيا والعمل فيها أو ينتزعه من الحياة مع الناس ؟؟؟

---

(١) آدم متز : الحضارة الإسلامية ص ٢٧١ ـ ٢٨٠ ، ٢٨٣ ـ ٢٨٤ ، ٢٩٨ ـ ٣٠٢ ، ٣٠٨ ـ ٣١١ ، ٣١٣ ـ ٣٢٨. وانظر ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ١٥٣ ـ ١٥٤، ابن الفقيه : البلدان ص ٢٧٠ ـ ٢٧١، اليعقوبي : البلدان ـ ملحق بالمسالك والممالك لابن رسته ص ٣٢٧، المقدسي : أحسن التقاسيم ص ٣٤، رحلة ابن جبير، المسعودي، مروج الذهب جـ ١ ص ٣٢٤، جـ ٣ ص ٦ ، ٣١ ، ٣٠٨.

(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ـ القاهرة سنة ١٣٥١ هـ ـ ص ١٩٠.

الوعي بالزمن :

كتب المفكر الإسلامي مالك بن نبي يرحمه الله، في معادلاته الرياضية التحليلية للحضارة، متأثراً بتخصصه الدراسي والمهني في صدر حياته : **حضارة = انسان** (أقول : بما له من إرادة هي من الخصائص المميزة لانسانيته) + **تراب + وقت.**

« فمشكلة الحضارة تنحل إلى ثلاث مشكلات أولية : مشكلة الإنسان، ومشكلة التراب ومشكلة الوقت. ولكي نقيم حضارة، لا يكون ذلك بأن تكدس المنتجات، وانما بأن نحل هذه المشكلات الثلاثة من أساسها »[1].

وإذا كان « **الإنسان** »، في حكم تعاليم الإسلام، مخلوق قد أكرمه الله بالعقل والبيان (النطق أو اللغة) والارادة، **وكانت** « **الدنيا** » **هي الاطار** « **المكاني** » لنشاط الإنسان على اختلاف مجالاته وعبادته ربه في كل حالاته، فان الوعي **بالاطار** « **الزماني** »، لاستعمال طاقات الإنسان، له قيمته الحضارية الكبرى إلى جانب قيمتي الإنسان والمكان. ويربي الإسلام المؤمن على محاسبة نفسه على كل يوم يحياه، بل على كل لحظة من العمر، « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله، ان الله خبير بما تعلمون. ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون. لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة، أصحاب الجنة هم الفائزون ـ الحشر **١٨ ـ ٢٠** ». وعقيدة الايمان بالله تُزَكِّي المؤمن على **مراقبة ربه الذي لا تخفى عليه خافية من خلجات نفسه وفكره وحركات أنامله لحظة من ليل أو نهار،** « **ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم،** ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو منهم أينما كانوا، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة، إن الله بكل شيء عليم ـ المجادلة/٧ »، « لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو اصلاح بين الناس، ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً

---

(١) مالك بن نبي : شروط النهضة ص ٦٤ ـ ٦٦، ٨٩.

عظيماً ـ النساء/ **١١٤** ». « وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى **أجل مسمى**، ويؤت كل ذي فضل فضله، وإن تولوا فاني أخاف عليكم عذاب يوم كبير. إلى الله مرجعكم وهو على كل شيء قدير. ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه، ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون، إنه عليم بذات الصدور ـ هود/**٣ ـ ٥** ». « وقِفوهم إنهم مسؤولون. ما لكم لا تناصرون. بل هم اليوم مستسلمون ـ الصافات/ **٢٤ ـ ٢٦** ».

ويكرر القرآن ذكر « **الأجل** »، وهو الاطار الزمني المتاح للفرد والجماعة، « **ولكل أمة أجل، فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ـ الأعراف/٣٤** ». وهذا الأجل « **مسمّى** » و « **معدود** » (هود **٣** ، **١٠٤**). والاطار الزمني يحدد وجود الكون كما يحدد حياة الإنسان.. « وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ـ الرعد/**٢** » « ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى ـ الروم/**٨** ». بل ان الأجل يحدد شريعة النبي إلى قومه، وان اتحدت رسالات الأنبياء في عقيدة التوحيد، « وما كان لرسول أن يأتي بآية الا باذن الله، **لكل أجل كتاب**، يمحو الله ما يشاء ويثبت، وعنده أم الكتاب ـ الرعد/**٣٨** ».
ومن تأويل الآية أنها تشير إلى نسخ الشرائع ما يلائم أحوال الأقوام التي يبعث اليها الرسل وفقاً لاختلاف ظروف الزمان إلى أن جاءت خاتمة الرسالات فكانت شريعة الله الباقية الخالدة. ومسيرة الدعوة بالنسبة لكل رسول لها توقيتها وتحديد مراحلها، « فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور ناراً ـ القصص/**٢٩** ». ويرتبط هذا « الأجل المحدود » لكل مخلوق بعقيدة تفرد الله بالخلود، وجريان حكم الحدود والفناء على كل مخلوق، « هو الأول والآخر ـ الحديد/ **٣** »، « كل شيء هالك إلا وجهه، له الحكم واليه ترجعون ـ القصص/ **٨٨** ».

وتأتي بعد عمر الانسان المحدود على هذه الدنيا الفانية حياة خالدة في الحياة الآخرة الباقية، وسوف يكون في حياة الانسان الأخرى حساب وجزاء على ما قدمت يداه في كل لحظة من لحظات حياته في الدنيا من قبل، وهو حساب محتوم لا مفر منه، والعاقل من أعد نفسه له فحاسبها عن

الفكر والقول والعمل في كل لحظة يعيشها على ظهر الدنيا، « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ـ الكهف/١١٠ ». « من كان يرجو لقاء الله فان أجل الله لآت وهو السميع العليم ـ العنكبوت/٥ ». **وهكذا ترهف عقيدة الحساب والجزاء في الآخرة احساس المؤمن بالزمن من جهة، كما تكفل استمرار الجدّ في السعي لآخر لحظة من العمر**، ما دام الانسان يعمل لدار الخلود لا للدنيا التي يحس استحالة دوامها في كل لحظة فناء للمادة والحياة، وإن أثر الإيمان باليوم الآخر في هذه « **الاستمرارية** »، الضرورية لاتصال النشاط الحضاري وتراكم الجهود المتضافرة عليه، مما فطن اليه في براعة المستشرق « جرونيباوم » في دراسته لحضارة الإسلام. ومن هنا تعددت نصوص الكتاب والسنة وآثار الصحابة والتابعين التي تعمق وعي المؤمن بالزمن، فمن ذلك ما ورد في الحديث « ما من يوم ينشق فجره إلا ويقول : يا ابن آدم، أنا خلق جديد، وعلى عملك شهيد، فتزود مني فاني لا أعود إلى يوم القيامة »، « لا تزول قدما العبد يوم القيامة حتى يسأل عن خمس : عن جسده فيما أبلاه، وعن عمره فيما أفناه، وعن علمه ماذا صنع فيه، وعن ماله مم اكتسبه وفيم أنفقه ». ووردت آثار منها : « من لم يكن في زيادة فهو في نقصان »، « اغتنم خمساً قبل خمس : حياتك قبل موتك، وشبابك قبل هرمك، وقوتك قبل ضعفك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك ». ونبّة القرآن المؤمنين إلى أن التبلد عن الوعي بالزمن اهدار لحساسية الإنسان وادراكه المتميز « ولكنكم **فتنتم أنفسكم** وتربصتم وارتبتم **وغرّتكم الأماني** حتى جاء أمر الله، وغركم بالله الغرور.... ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل **فطال عليهم الأمد** فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون ـ الحديد/١٤ ـ ١٦ ». « **فلما نسوا ما ذُكِّروا به** فتحنا عليهم أبواب كل شيء، حتى إذا فرحوا بما أوتوا **أخذناهم بغتة** فاذا هم مبلسون. فقطع دابر القوم الذين ظلموا، والحمد لله رب العالمين ـ الأنعام/٤٣ ـ ٤٤ »، « الذين اتخذوا دينهم **لهواً ولعباً وغرّتهم الحياة الدنيا**، فاليوم ننساهم **كما نسوا لقاء يومهم هذا** وما كانوا بآياتنا يجحدون ـ الأعراف/٥١ ». « ولكن متعتهم وآباءهم حتى **نسوا**

الذكر وكانوا قوماً بوراً. الفرقان/**١٨** ». « قال كذلك أتتك آياتنا **فنسيتها** وكذلك اليوم تنسى ـ طه/**١٢٦**». « استحوذ عليهم الشيطان **فأنساهم ذكر الله**، أولئك حزب الشيطـان، ألا إن حزب الشيطـان هم الخـاسرون ـ المجادلة/ **١٩** ». وتذكر يوم الحساب والجزاء والدار الآخرة لا يعني في تعاليم الإسلام الصحيح بحال شللاً لقوى الإنسان وتعطيلاً لطاقاته وانسحاباً من العمل في الحياة الدنيا، بل يعني وجوب الجد في السعي خلال عمر الإنسان المقدر في هذه الدنيا الفانية، فعلى هٰذا المسعى تكون المثوبة في الآخرة الباقية، وهكذا يتحقق استمرار جهوذ الفرد والجماعة، ومن ثم روي في الحديث : « من أحس قيام الساعة وبيده فسيلة فليغرسها »[1].

وقد وجهت تعاليم الإسلام المؤمنين **إلى التزام الاطار الزمني لكل أعمالهم**، من شعائر العبادة إلى سائر ما يعبدون الله به من قول وعمل، « أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهوداً. ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ـ الاسراء/**٧٨ ـ ٧٩**»، « **حافظوا على الصلوات والصلاة والوسطى وقوموا لله قانتين ـ البقرة/٢٣٨**». « **ان الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً** ـ النساء/**١٠٣** ». « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم.. أياماً معدودات... شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان، فمن شهد منكم الشهر فليصمه، ومن كان مريضاً أو على سفر فعدَّةٌ من أيام أخر، يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر، ولتكملوا العدة ـ البقرة/**١٨٣ ـ ١٨٥** »، « أُحِلَّ لكم ليلة الصيام الرفثُ إلى نسائكم، هنَّ لباسٌ لكم وأنتم لباس لهن.... وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، ثم أتموا الصيام إلى الليل ـ البقرة/**١٨٧** »، « يسألونك عن الأهلة، قل هي مواقيت للناس والحج ـ البقرة/ **١٨٩**»، « ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض، منها أربعة حرم، ذلك الدين القيّم فلا تظلموا فيهن أنفسكم.... انما النسيء زيادة في الكفر يُضَلُّ به الذين كفروا،

---

(١) رواه أحمد في مسنده.

يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدّة ما حرم الله، التوبة/ **٣٦ ـ ٣٧** »، « الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج ـ البقرة/**١٩٧** » « واذكروا الله في أيام معدودات، فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه، ومن تأخر فلا اثم عليه لمن اتقى، البقرة/**٢٠٣** »، « ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات ـ الحج/**٢٨** »، « كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ـ الأنعام/**١٤١** ».

وعلى هذا النحو يربي الإسلام المؤمن على التوقيت الدقيق، وأداء كل عمل في وقته حين يؤدي شعائر العبادة من صلاة وصوم وزكاة وحج، وغاية ذلك أن تصير هذه له عادة وسلوكاً في كل أمر، فيرعى الوقت المناسب في أي عمل أو تعامل. وقد تتابعت آيات الله وأحكام الشريعة تثبت ذلك في وعي المؤمن وسلوكه، « اذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العِدّة...

فاذا بلغن أجلهن فامسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف ـ الطلاق/ **١ ـ ٢** »، « ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله ـ البقرة/**٣٣٥** ».
« يأأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه... ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ـ البقرة/ **٢٨٢** »، « إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج، فان أتممت عشراً فمن عندك... قال ذلك بيني وبينك أيّما الأجلين قضيت فلا عدوان عليَّ ـ القصص/ **٢٧ ـ ٢٨** ».

ويحتاج بناء الحضارة إلى وعي بالزمن من جهة، **وطاقة « دينامية » تملأ الزمن بالحركة الحية المتجددة،** التي تتباين مجالاتها وأساليبها وفقاً لظروف الواقع المتغير واحتياجاته على هدى مبادىء الإسلام وتعاليمه. والدين وحده قادر على اطلاق الطاقة الإنسانية من أبعد الأعماق إلى أوسع الآفاق على مدى الزمن، ورسالة الإسلام أقدر على اشعاع آثارها طولاً وعرضاً بعد أن تمكنت من أغوار النفس والعقل عمقاً... وهكذا امتدت آثار الإسلام في حضارة زاهرة متعددة الجوانب والمناشط تظلل رقعة فسيحة من العالم قروناً متطاولة. وما أصدق تعبير المفكر الهندوكي « رادا كريشنان » في افتتاح ندوة « الثقافة الإنسانية وفلسفة التربية في الشرق والغرب » التي نظمتها

اليونسكو في نيودلهي اذ يقول : « ان الممارسة الدينية وحي رباني، ووعي داخلي، وتحرر مطلق... وليست الممارسة الدينية قضية ايمان بسلسلة من المعطيات فحسب، وإنما هي انتفاضة الكيان برمته ازاء المشكلات التي تطرحها العلاقات البشرية في الواقع اليومي[1]. على أن من واجبنا ألا نذهب بعيداً مع هذا القول ولا مع النزعات الصوفية فنجعل الدين « شعوراً » ونقلل أهمية تفهم العقائد وممارسة الأحكام العملية، ولكن لا بد من التوازن والتضافر بين الايمان والعمل، بحيث يُعمِّقُ العمل الايمان، ويحفز الايمان إلى مزيد من العمل، فتتفاعل في نفس المؤمن وسلوكه تعاليم الإسلام متآزرة متكاملة على النحو الذي عبر به القرآن عن رسالته وغايته بما يجمع بين الشحنة النفسية والتفضيل العملي « **هدى** للناس، **وبينات** من الهدى والفرقان ـ البقرة/**١٨٥** ». « والإيمان بضع وسبعون شعبة » كما علمنا الرسول الكريم صلوات الله عليه، وكذلك « البر » واسع الآفاق متعدد المجالات في بيان القرآن. وهذا يعني دينامية الايمان المشعة الدائمة التي تعززها وتثبتها قوالب تشكل السلوك وتميز المؤمن، دون أن تحصرها وتجمدها.

والايمان، كما أراده الله طاقة حية وحركة دائمة، هو الذي يبني الحضارة وينشرها ويجدد حياتها دائماً، في حين أن الانحصار والتجمد في الأشكال يؤدي إلى الركود والتخلف. وما أروع هذا التحليل الهادي المنير لمفكر الإسلام الراحل مالك بن نبي أجزل الله مثوبته وأفسح له في جنته إذ يقول : « في (الغرب) اضطراب نتج عن عدم الملاءمة بين حاجات الإنسان هناك وتيار الانتاج الصناعي المسرع، وهي مشكلة (حركة) مضطربة... بينما البلاد الإسلامية أزمتها في (الركود) لا الحركة، فهي مشكلة الإنسان الذي يسكنها وقد عزف عن الحركة وقعد عن السير في ركب التاريخ. فالأمر في الحالة الأولى يتعلق بحاجات غير مشبعة و (ديناميكية) مضطربة، على حين يتعلق في الحالة الأخرى بعادات راكدة وضعت الفرد في حالة (توازن خامد) وخمول تام، في الوقت الذي خطت فيه الحضارة خطوات عملاقة.. ومن

---

(١) الثقافة الإنسانية : ص ٥٤ ـ ٥٥.

(الرجل) تنبع المشكلة الإسلامية بأكملها، فالمسألة هي أننا يجب أولاً أن نصنع رجالاً يمشون في التاريخ، مستخدمين التراب والوقت والمواهب في بناء أهدافهم الكبرى ». ويرى مالك بن نبي بحق **أن هذا الركود والخمول هو الذي هيأ « القابلية للاستعمار » في شعوب المسلمين**، وهو الذي ينبغي أن ينعى عليه المسلمون ويلوموا أنفسهم لأجله قبل أن يدينوا الاستعمار ويلوموه[1]..

والتفاعل مع دين الله، على حقيقته مكتملاً جامعاً، يطلق طاقات الإنسان الضخمة لتعمل في الكون العملاق فتشغل بمنجزاتها وآثارها الزمان والمكان... وما أروع كلمات العقاد النيرة المنيرة : « ان حقائق الكون الكبرى لن تنكشف لعقل ينظر إلى الكون كأنه أشتات مفرقة بين الأرباب، يتسلط عليها هذا بارادة، ويتسلط عليها غيره بارادة تنقضها وتمضي بها إلى وجهة غير وجهتها، **فلم يكن التوحيد عبادة أفضل من عبادات الشرك وكفى، بل هو علم أصح، ونظر أصوب، ومقياس لقوانين الطبيعة أدق وأوفى**... والاله الواحد لم يكن حل مسألة، ولم يكن سر أحبار وحكماء ولم يكن خالق الكون والناس ولا مزيد، بل كان خالق الكون والناس، وحاكم الكون والناس، وكان منه الأمر والنهي واليه المرجع والمآب. كانت عبادته مسألة حية تمتزج بسرائر النفس وتنبعث منها فضائل الخير، ولا تنزوي عنها زاوية في الكون ولا في ضمير الانسان. (كانت صحبة البيت والطريق، وصحبة اليقظة والمنام، وصحبة العزلة والجماعة، وصحبة الحياة قبل المولد وبعد الموت.. هي صحبة الخلود الذي لا يعرف الفناء »[2].

اقامة الدولة وسلطتها الشرعية الضابطة المنظمة العادلة :

لا ترتضي تعاليم الإسلام أن يعيش المسلمون في فوضى وشتات، ولا ترتضي أن تحكم المسلمين الاهواء أو الطواغيت. **فالإسلام يتطلب النظام ونصب القيادة المختارة المسؤولة المطاعة حتى في الجماعة الصغيرة**

---

(١) مالك بن نبي : شروط النهضة ص ١١٣ ــ ١١٤.
(٢) العقاد : أبو الأنبياء.

والعمل المحدود، وفي الحديث، « **اذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم** ». وقد ارتأى العلّامة ابن خلدون « أن الاجتماع ضروري للنوع الإنساني وإلا لم يكمل وجودهم وما أراده الله من اعتمار العالم بهم واستخلافه إياهم **وهذا هو معنى العمران**. ثم ان هذا الاجتماع اذا حصل للبشر كما قررناه، وتم عمران العالم بهم، فلا بدّ من وازع يدفع بعضهم عن بعض... فيكون ذلك الوازع واحداً منهم يكون له عليهم الغلبة والسلطان واليد القاهرة حتى لا يصل أحد إلى غيره بعدوان. **وهذا هو معنى الملك**... **فالتغلب هو الملك، وهو أمر زائد على الرئاسة**، لأن الرئاسة انما هي سؤدد وصاحبها متبرع، وليس له عليهم قهر في أحكامه، وأما الملك فهو التغلب والحكم بالقهر... ». ويشبه كلام ابن خلدون ما قرره القانونيون المحدثون من بين خصائص الدولة ووظائفها وهو احتكار سلطة القمع Contrainte والانفراد بسلطة القضاء وتشكيل قوات مسلحة لكفالة الأمن الداخلي والخارجي تخص الدولة بولائها وطاعتها، فحقيقة الملك عند ابن خلدون ـ أو الدولة ـ بتعبيرنا « انه الاجتماع الضروري للبشر ومقتضاه التغلب والقهر ». وهكذا يمكننا تفسير كلام ابن خلدون بتعبيرنا أن الدولة هي التجسيد السياسي للجماعة أو المجتمع، وهي على ذلك ظاهرة اجتماعية وأساس حضاري. ويرى صاحب « المقدمة » أن الملك قد يكون « سياسيا » يحمل الكافة على « قوانين سياسية يفرضها أكابر الدولة وبصراؤها بمقتضى النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار، إذ الوجود وحياة البشر قد تتم بما يفرضه الحاكم لنفسه أو بالعصبية التي يقتدر بها على قهرهم وحملهم على جادته »[1]، والحق أن النظر العقلي للإنسان قاصر في تقدير المصلحة تقديراً صائباً مطرداً، ولغيره من الناس بحكم تغلغل الأهواء والمنافع الذاتية في نفوس الحاكمين لصالح الفرد أو العشيرة أو الحزب أو الطبقة، ومحدودية التقرير الإنساني للحق والباطل والخير والشر مهما زعم التجرد والصواب، في حين لا يحابي ميزان العدالة الربانية أحداً ولا يساير هوى أو

---

(١) ابن خلدون : المقدمة وهي المجلد الأول من تاريخه ـ دار البيان، بيروت ص ٤٣ ـ ٤٤ و ١٣٩ ، ١٩٠.

منفعة في شتى المجالات : اجتماعية كانت أو سياسية أو ادارية أو قضائية، كما لا يتحامل ضد أحد، « فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا، وإن تلووا أو تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيراً ـ النساء/ ١٤٠ »، « ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا، وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان، واتقوا الله، ان الله شديد العقاب ـ المائدة/ ٢ »، « قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره، والله لا يهدي القوم الفاسقين ـ التوبة/ ٢٤ ». وقد أوضح ابن خلدون شمول السياسة القائمة على أساس الدين اذ ترتبط فيها الدنيا بالآخرة، وعلى هذا تقوم « دولة الإسلام » وهي الاخلافة في تعبير ابن خلدون أخذاً من واقع التاريخ شاملة مستوعبة، فتتجاوز آفاق الملك السياسي وحدوده وقصورها، ومن ثم تضطلع الدولة التي يقيمها الإسلام بـ « حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الاخروية والدنيوية الراجعة اليها، إذ أحوال الدنيا كلها عند الشارع إلى اعتبارها بصالح الآخرة، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به، ونصب الامام واجب شرعاً على المسلمن بالاجماع[1].

وإذا كان نظام الحكم في الدولة الإسلامية « امامة » أو « خلافة » عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به، فلا يعني هذا أن حكومتها ثيوقراطية أو أن حاكمها معصوم، فمثل هذه الدعوى تعوق وتعرقل مبادرات الأمة الايجابية ونشاطها الذاتي الدائب لبناء الحضارة. ولما دعي أبو بكر الصديق خليفة الله قال : « لست خليفة الله ولكني خليفة رسول الله ﷺ ». وقد منع جمهور الفقهاء من تلقيب الخليفة بخليفة الله لأسباب، في مقدمتها ما يمكن أن يؤدي إليه مثل هذا اللقب من لبسٍ في أذهان عامة الناس، واحتمال أن يكون ذريعة لادعاء العصر وتطلب الطاعة من الرعية في الحق والباطل، « ولأن الاستخلاف انما هو في حق الغائب وأما الحاضر فلا »[2].

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٩٠ ـ ١٩١.

(٢) المصدر السابق ص ١٩١.

وإمام المسلمين سلطته محكومة بشريعة الإسلام في مبادئها العامة وقواعدها الكلية وأحكامها التفصيلية، ويجوز لرعيته أن يختلفوا معه في أمر من الأمور ويكون المرجع عند الخلاف والتنازع الاحتكام إلى كتاب الله وسنة رسوله صلوات الله عليه، **فسياسة المسلمين مشاركة ايجابية وتعاون حقيقي بين الراعي والرعية**، وبهذا وحده تقوم الحضارة وتزدهر، « يأأيها الذين آمنوا اطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم، **فان تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول** ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً ـ النساء/**٥٩** ». ولقد سمى الامام ابن تيمية هذه الآية بحق « آية الامراء » **في** كتابه « **السياسية الشرعية في اصلاح الراعي والرعية** »، **فهي** تجمل حقوق الحكام التي هي من جانب اخر واجبات المحكومين وواجبات الحكام التي هي من الجانب الآخر حقوق المحكومين. فالطاعة واجب الأمة لولي الأمر الذي هو منهم يتولى أمرهم برضاهم ويعتمد عقيدة أهل الايمان ويحكم شريعة الإسلام التي يسلم لها المؤمنون. وكما تقرر الآية حق ولي الأمر الشرعي في طاعة الأمة والتزام جماعة المسلمين بهذه الطاعة، فانها تقرر واجب ولي الأمر في تهيئة السبل للشورى وللنصيحة وإبداء الآراء في سياسته، ومنها ما قد يختلف مع سياسة الحاكم في بعض الأمور، وهذا الواجب على ولي الأمر هو حق للرعية بل هو واجب عليهم أيضاً بحكم إيجاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحة على المسلمين. ويقرر الامام ابن القيم في صدد ما ورد بصدد « آية الأمراء » كما دعاها بحق الامام ابن تيمية، « فأمر الله بطاعته وطاعة رسوله، وأعاد الفعل (أطيعوا) إعلاماً بأن طاعة الرسول تجب استقلالاً من غير عرض ما أمر به على الكتاب.... ولم يأمر بطاعة ولي الأمر استقلالاً، بل حذف الفعل (أطيعوا) وجعل طاعتهم ضمن طاعة الرسول، ايذاناً بأنهم **إنما يطاعون تبعاً لطاعة الرسول** »[1]. وقد كانت كلمات الخليفة الأول خير بيان لهذا الأساس الدستوري للسلطة الشرعية في الإسلام، ولتقرير الحقوق والواجبات التي تكون للحاكم والمحكوم، ولإيضاح العلاقة بينهما حين قال رضي الله عنه في خطبته

---

(١) ابن القيم : اعلام الموقعين ـ المطبعة المنيرية بالقاهرة ـ جـ ١ ص ٣٩.

المشهور : « اني وليت عليكم ولست بخيركم، فان رأيتموني على حق فأعينوني، وان رأيتموني على باطل فقوموني. أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فان عصيت فلا طاعة لي عليكم ». وقال عن ذلك الامام مالك : « لا يكون أحد إماماً إلا على هذا الشرط ». وإذا كانت مبادرة الرعية إلى إبداء الرأي المخالف حقاً مقرراً لهم، بل واجباً عليهم بمقتضى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فمبادرة ولي الأمر إلى **طلب الشورى** من أهلها واجبة عليه للاستدلال على حكم الله ورسوله من النصوص الشرعية المتعددة وللاجتهاد فيما سكتت عنه النصوص، « وأمرهم شورى بينهم ـ الشورى/**٣٨** ». وبهذا يسهم الحاكم والمحكومون جميعاً في بناء دولتهم والنهوض بجماعتهم ومواصلة سيرة الخير والاصلاح. وقد أوجب الإسلام، على الحاكمين والمحكومين، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتواصي بالحق. وبلغ رسول الإسلام عليه صلوات الله وسلامه أمته أن الدين النصيحة لأئمة المسلمين وعامتهم. **وهكا اقترنت رسالة الإسلام بتوفير أساس حضاري جليل، هو قيام الدولة بسلطتها الضابطة المنظمة، وإقامة شريعة الله العادلة،** وتقرير الشورى والحقوق والواجبات التي لولي الأمر وللرعية، فكانت أمصار الإسلام منارات الهداية والرعاية والعدالة والحضارة. وكانت دولة الإسلام بحق دولة الرخاء والرفاهية العامة، والتكافل الاجتماعي لا تقنع فحسب بكفالة الأمن الداخلي والخارجي.

عدالة وحضارة للإنسان، أياً كان، وللعالم أجمع :

عدالة الإسلام وحضارته للإنسان باطلاق، أياً كان أصله العرقي أو اللغوي أو طبقته أو عقيدته، **وهي حضارة تنشر أنوارها في كل فجاج الأرض وبين كل أقوام البشر، دون تمييز أو محاباة أو تحامل أو استعلاء،** « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ـ الأنبياء/**١٠٧** ». « تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ـ الفرقان/ **١** ». « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ـ سبأ/٢٨ ». فعدالة الإسلام، اذ يشرع أحكامها رب العالمين الذي تعالى سبحانه عن الانحياز والتمييز، هي للناس أجمعين وليست مقصورة على فئة، حتى انها حين تعلن الحرب على البغي، إذا

سُدَّت سبل الاصلاح، تفتح طريق الرجوع إلى الحق، فان رجع الباغي إلى الحق أخذ مكانه فوراً بين جماعة المؤمنين دون حقد أو حساسية مرضية، « فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله، **فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا**، ان الله يحب المقسطين ـ الحجرات/ **٩** ».

« يأأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا ان كنتم مؤمنين، فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله، **وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تَظلمون ولا تُظلمون** ـ البقرة/ **٢٧٨ ـ ٢٧٩** ». وبذلك يفتح الإسلام الطرق دوماً لتضافر الجهود وحشد الطاقات تحت لواء الحق والخير والتعاون على البر والمعروف.

وتشمل عدالة الإسلام **غير المسلمين ما داموا مسالمين**، فاختلاف الاديان يحكم فيه الديان يوم القيامة وليس مبرراً للتظالم والعدوان، « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن **تبروهم وتقسطوا اليهم**، ان الله يحب المقسطين ـ الممتحنة/ **٨** ».

بل ان الإسلام يوصي بتبادل الخير، فكما يعطي المسلمون يمكن أن يأخذوا من غيرهم، ما دام ما يأخذونه موافقاً لتعاليم دينهم، ولا ينفر المؤمن من أي شعب أو قوم، « وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ـ الحجرات/ **١٣** »، وهو يتبادل المنافع المادية والمعنوية مع البشر جميعاً على اختلاف ألسنتهم وألوانهم، محكماً فيما يأخذه ميزان الإسلام في تقديم الحق والباطل. فالقرآن يشير إلى فتح البحار « للناس » جميعاً دون تمييز للانتفاع منها، « والفلك التي **تجري في البحر بما ينفع الناس** ـ البقرة/ **١٦٤** ». ومعرفة الحق والحقيقة يسعى إليها المسلم حيثما كانت، كما أوضح الحديث « **الحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها فهو أحق الناس بها** ».

ومن ثم عرف التاريخ في حضارة الإسلام حضارة عالمية شعت أنوارها من دار الإسلام إلى شتى الآفاق، شملت غير المسلمين في دولة الإسلام وخارجها، وتقبلت ما لديهم من معارف وخبرات نافعة وفقاً لمعايير الإسلام

في القيم. « فالحضارة الإسلامية قد قامت بعملية التحديد من ناحيتها السلبية والايجابية، وصدرت فيهما عن القرآن الكريم الذي نفى الافكار الجاهلية البالية ثم رسم طريق الإسلام الصافي الذي يخطط للمستقبل بطريقة ايجابية. **وهذا العمل نفسه لازم للنهضة الإسلامية اليوم**. ولعل هذه المسألة قد أصبحت منذ زمن قريب موضوع بحث وتأمل، واننا لنجد فعلاً في روح الاصلاح التي هبت على العالم الإسلامي (في القرنين الاخيرين بوجه خاص) بشائر ذلك التحديد السلبي الذي حاول ايضاح عللنا وعوامل انحطاطنا وتحطيمها.... أما التحديد الايجابي فاننا، وان كان قد وضح لنا مجمله، إلا أنه لا يزال (في أيامنا) غامضاً غير متحدد.. والمقصود تحديد محتواه من العناصر الجوهرية اللازمة للثقافة (أو الحضارة وهي : الدستور **الخلقي، والذوق الجمالي، والمنطلق العلمي والصناعي**، بتعبير ابن خلدون، أو ما نسميه الآن technique[1].

التـذوق الجمـالي :

تعنى رسالة الإسلام بتربية التذوق الجمالي، وتؤكد ان الاستمتاع بالجمال والسعي للتجميل المقبول سمة الإنسان السوي، المرهف، الحس العميق الادراك، اللماح لروعة الخلق وعظمة الخالق وجليل نعمائه. « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، قل هي الذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ـ الأعراف/ **٣٢** ».

والقرآن يوجه النظر إلى « **الجمال** » في خلق الله إلى جانب « **المنفعة** » : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيّناها ومالها من فروج. والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج. **تبصرة وذكرى لكل عبد منيب**. ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد. والنخل باسقات لها طلع نضيد، رزقاً للعباد، وأحيينا به بلدة ميتاً، كذلك الخروج ـ ق/**٦ ـ ١١** »، « ..... فأنبتنا به حدائق ذات بهجة، ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ـ النمل/**٦٠** ». « وزيّنا السماء الدنيا

---

(١) مالك بن نبي : شروط النهضة ص ١٢٢ ـ ١٢٣.

بمصابيح وحفظا، ذلك تقدير العزيز العليم ـ فصلت/١٢ ». « والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون. ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون... والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة، ويخلق ما لا تعلمون ـ النحل/٦ ـ ٨ ». « وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها، وترى الفلك مواخر فيه ـ النحل/١٤ ». « انا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً ـ الكهف/٧ ».

وخلق الإنسان نفسه يحقق الفعالية الوظيفية كما يهيء له الجمال، « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ـ التين/ ٤ »، « الذي خلقك فسواك فعدلك ـ الانفطار/ ٧ ».

والمسلم مأمور باتخاذ الزينة عند الخروج إلى الجماعة، « يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ـ الأعراف/ ٣١ »، وهو مدعو لتجنب ما من شأنه خروج رائحة كريهة من فمه وهو ملتحم مع الجماعة في صفوف الصلاة، مندوب إلى السواك في كل صلاة، فضلاً عن الطهارة السابقة الشاملة للجسم والثوب والمكان. وقد أخبر رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام أنه قد حبب إليه الطيب، وفي الصحيح أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد تطيب قبل إحرامه لحجته بأطيب الطيب، « ورؤي وبياض الطيب في مفارق رأسه »، وروى ابن اسحق أن عبد الله بن زيد بن ثعلبة حين أخبر رسول الله صلوات الله عليه برؤياه في شأن الاذان قال له ﷺ : « إنها لرؤيا حق ان شاء الله، فقم مع بلال فألقها عليه فليؤذن بها فانه أندى صوتاً »[1]. ويصور القرآن الجنة في جمال وجلال ينفعل بها أصحاب الحس المرهف ويشيع بين المؤمنين تذوق الجمال، « وجوه يومئذ ناعمة. لسعيها راضية. في جنة عالية. لا تسمع فيها لاغية. فيها عين جارية. فيها سرر مرفوعة. وأكواب موضوعة. ونمارق مصفوفة. وزرابي مبثوثة ـ الغاشية/ ٨ ـ ١٦ ». ويعرض القرآن صورة جمالية حضارية لنور الله تأخذ بالالباب، « الله نور السموات

---

(١) سيرة ابن هشام ـ بتحقيق السقا والأنباري وشلبي ـ ط ٢ ـ مكتبة مصطفى الحلبي بالقاهرة ـ القسم الأول ص ٥٠٨ ـ ٥٠٩.

والأرض، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب دري، يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، نور على نور، يهدي الله لنوره من يشاء. ويضرب الله الأمثال للناس، والله بكل شيء عليم. في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ـ النور/**٣٥ ـ ٣٦**». وقد تأتي الصناعة بصور من الجمال الباهر في حياتنا الدنيا تتحدث بنعمة الله وتستخدم في طاعته كما ورد عن صرح سليمان الذي دخلته ملكة سبأ، « فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها، قال انه صرح ممرد من قوارير، قال رب اني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ـ النمل/ **٤٤** ».



وتربية التذوق الجمالي عند المسلمين بمثل هذه الصورة المتعددة في رسالة الإسلام تأسيس متين قويم في أعماق النفس والفكر لأصول حضارة زاهرة تؤتي ثمارها **الأدبية الفنية الجمالية** إلى جانب منجزاتها المادية النافعة. ومن آثار حضارة الإسلام المعروفة، إنشاء الحمامات والمغاسل وموارد المياه العامة استجابة لاوامر الإسلام في الطهارة والوضوء والغسل. وكان في الجانب الشرقي من بغداد وحده في القرن الثالث الهجري خمسة آلاف حمام، وروى الخطيب البغدادي انه كان في بغداد في عهد المقتدر العباسي ٢٧ ألف حمام، وصلت في عهود أخرى إلى ٦٠ ألف. ويذكر المقريزي انه كان بالفسطاط ألف ومائة وسبعون حماماً. وكان الحمام متعدد الحجرات وقد رصفت أرضه بالفسيفساء وبطنت جدرانه بالرخام، وقد أحاطت حجرات الحمام بقاعة وسطى واسعة تتوجها قبة تتخللها كوات صغيرة عليها زجاج ينفذ خلاله الضوء، وكانت هذه القاعدة تدفأ بالبخار المتصاعد من نافورة ماء في وسط الحوض، وتهيأ حجرات للاسترخاء وتناول المشروبات الدافئة المهدئة. وقد تجاوب الفن مع تعاليم الإسلام في تحريم تصوير الاحياء أو تجسيمهم فأبدع الزخارف المتميزة المستمدة من النباتات والاشكال الهندسية والتي عرفت بالزخرفة العربية (arabesque) فضلاً عن إبداع الصور الرائعة من الخط العربي واستخدامها في الزخرفة. كما بهرت الأنظار

نقوش المسلمين الزخرفية على الثياب والسجاد والخزف والقيشاني (أو الزليج). وتقدمت صناعة الميناء والزجاج وتذهيبه وتلوينه وتطعيم الخشب والنقش على النحاس، وبرز ذلك في كنوز الآثار الباقية وما اشتملت عليه من كؤوس وأوان للزهور وثريات، كما ازدهرت صناعة العطور والحلي[1].

ومن فقهاء المسلمين من أجاز الموسيقى بمختلف آلاتها. وذكر ابن حزم في « المحلى » أن بيع المزامير والعيدان والمعازف والطنابير حلال كله، ومن كسر شيئاً ضمنه... ولم يأت نص بتحريم بيع شيء من ذلك، واحتج المانعون بآثار لا تصح أو يصح بعضها ولا حجة لهم منها، وقد أورد ابن حزم في إباحة الغناء والموسيقى، كما أورد صاحب « نيل الأوطار » حجج من أباح ومن حرم : ومن حجج الاباحة ان ابن السمعاني نقل الترخيص في الغناء مع الموسيقى عن طاووس ونقله ابن قتيبة وصاحب (الإمتاع) عن قاضي المدينة سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن الزهري من التابعين، ونقله أبو سعلى الخليلي في (الإرشاد) عن عبد العزيز بن سلمة الماجشون مفتي المدينة، وحكى الروياني عن القفال أن مذهب مالك إباحة الغناء بالمعازف، وذكر أبو طالب المكي أنه سمع طنبوراً ـ وهو من آلات العزف ـ في بيت المنهال بن عمرو المحدث، وحكى أبو الفضل بن طاهر في مؤلفه في السماع أن لا خلاف بين أهل المدينة في إباحة العود. وحكى الماوردي إباحة العود عن بعض الشافعية، وحكاه الادفوي عز الدين بن عبد السلام، وحكاه صاحب (الإمتاع) عن أبي بكر بن العربي وجزم بالاباحة الادفوي. أما الغناء من غير آلة موسيقية ـ فقال الادفوي في (الإمتاع) أن الغزالي في بعض كتبه نقل الاتفاق على حله، ونقل ابن طاهر اجماع الصحابة والتابعين عليه ونقل التاج الفزاري وابن قتيبة اجماع أهل المدينة عليه، وقال الماوردي : لم يزل أهل الحجاز يرخصون فيه، وقال ابن النحوي في (العمدة) بالرواية في سماع الغناء عن جماعة من الصحابة والتابعين. ويتفق المبيحون للغناء على ألا يكون « فيه تعريض بالفواحش أو تصريح »

---

(١) آدم متز : الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ١٦٢ ـ ١٦٣ ، ٢٥٩ ، ٢٦٤ ـ ، حتي : تاريخ العرب، ترجمة نافع جـ ٢ ص ٤٢١ ـ ٤٢٢ ، ٤٣٢ ـ ٤٣٨ ، ٤٤٢ ـ ٤٤٣ ، ٥٣٥ ـ ٥٣٨.

على حد تعبير الحافظ ابن حجر في وصف الغناء المحرم في (الفتح)[1].

وفي فصل من كتاب « تراث الإسلام » الذي نشره توماس أرنولد وألفرد جيوم، كتب ج. ب. ترند J.B. Trend عن الموسيقى في الأندلس، فذكر أن المسلمين هناك علموا أوربا هذا الفن، فلا غرابة أن ينشأ فيهم ابن حزم المدافع عن الموسيقى والغناء وأوضح أن الشبه ظاهر من الموسيقى الشعبية في جنوب اسبانيا وتلك التي تسمع في بلاد المغرب وغيرها من البلدان الإسلامية الأخرى. ولا خلاف في أنه كان هناك موسيقيون مسلمون لدى ملوك قشتالة وأرغونة. وكثيراً ما جلب المسلمون آلات موسيقية إلى اسبانيا ومنها انتقلت إلى أوربا، وانعكس ذلك على تسمية تلك الآلات في اللغات الأوربية، فالعود هو lute، والقيثارة هي **guitar**، والرباب أو الربابة هي rebeck, ribble، والكلمتان الاسبانيتان penearota paner تومئان إلى علاقتهما بكلمة (بندير)، والصنوج حول هذا الدف تسمى بالاسبانية gonja، والآلة الاسبانية القديمة anafil هي النفير بالعربية. ويرى الدكتور « فارمر » المتخصص في دراسة الموسيقى العربية أن الآلة الموسيقية التي يعمل عليها عدة أشخاص تسمى fanfare مأخوذة من صيغة جمع لنفير هي (أنفار). والآلة الاسبانية afogan وتسمى باللاتينية buccinum مأخوذة عن البوق....

والقول بأن الاشارات الموسيقية لها قيم زمنية مضبوطة، ولها نسب فيما بينها ينسب إلى فرانكو الكولوني، ولكن فرانكو هذا يتحدث عن الموسيقى المقيسة كشيء سبقت معرفته من قبل، ويظهر أن الخليل والفارابي كانا رائدين في هذا المجال. وتحدث « والتر أدنجتون » شيخ الموسيقيين في القرن ١٣ ، عن موسيقى العرب الكبار باعجاب[2].

---

(١) انظر ابن حزم : المحلى جـ ٩ ص ٥٥ وما بعدها، الشوكاني : نيل الأوطار. وانظر لكاتب البحث في هذا الباب الفصل الخاص بالموسيقى في « آراء من تراث الفكر الإسلامي » و « الدين في موقف الدفاع ».

(٢) J.B. Trend فصل « الموسيقى في الأندلس » من كتاب Legacy of Islam وقد ترجم الكتاب للعربية مجموعة من المترجمين بعنوان « تراث الإسلام »، وترجم الفصل المشار إليه حسين مؤنس وتجد خلاصة له في المرجعين المذكورين لكاتب البحث في الحاشية السابقة.

أما بالنسبة للجمال المعنوي فقد جاءت رسالة الإسلام تتم مكارم الأخلاق وتدعو الناس إلى المسابقة في الخير والمسارعة إلى البر، وإلى تحقيق « التي هن أحسن » لا القنوع بفعل الحسن فحسب، وايثار الفضل لا الوقوف عند حد العدل، والسعي إلى « المندوب » والاحسن والاكمل وتجاوز الواجب والفرض « وأن تعفو أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم ـ البقرة/ ٢٣٧»، « وليعفوا وليصفحوا، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ـ النور/ ٢٢ »، « فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء اليه باحسان ـ البقرة/ ١٧٨»، « فامساك بمعروف أو تسريح باحسان ـ البقرة/ ٢٢٩ »، « وان كان ذو عسرة فنظرة إلى مسيرة، وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون ـ البقرة/ ٢٨٠ »، « واذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها ـ النساء/ ٨٦ »، « ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده ـ الأنعام/ ١٥٢»، « وجادلهم بالتي هي أحسن ـ النحل/ ١٢٥ »، « ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن، فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ـ فصل/ ٣٤ ».

ولقد علم رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام أمته « **الاحسان** »، إلى جانب تعليمها الإسلام والايمان، وأمرها أن تحسن العمل وتراقب الله فيه، لانه يعلم السر وأخفى ويرى كل عمل يعمله انسان. وهو ما يجعل فضائل الاخلاق نابعة مِن أعماق النفس، فيتحقق لها الدوام والاستمرار، ويتوقى السلوك مزالق الرياء والنفاق « كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر، فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لا يقدرون على شيء مما كسبوا... ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت اكلها ضعفين، فان لم يصبها وابل فطل، والله بما تعملون بصير ـ البقرة/ ٢٦٤ ـ ٢٦٥ ».

والاتقان والاحسان قيمتان حضاريتان أساسيتان، يقترنان في الإسلام بالايمان، فيرعاهما ضمير المؤمن لا أجهزة السلطة الحاكمة، وهكذا يداوم الايمان على حث المؤمن على فعل الاحسن والافضل مما يحفظ مسيرة الفرد والجماعة نحو التقدم والترقي دائماً.

أخلاقية الحضارة الإسلامية :

لقد تضمنت رسالة الإسلام القيم الكفيلة بتأسيس حضارة راسخة شامخة، أصلها ثابت وفرعها في السماء، نامية متجددة، تؤتي أكلها كل حين باذن ربها، فأكدت كرامة الانسان، وأهمية ما أنعم الله به عليه من عقل وإرادة، وواجب الجد في العمل في هذه الدنيا لنيل ثواب الآخرة، والوعي بالزمن، ووجهت المؤمنين إلى إقامة السلطة الضابطة المنظمة العادلة، وصبغت حضارة الإسلام بطابع عالمي، فكان خيرها للانسانية جمعاء، وأشاعت تذوق الجمال الحسي والمعنوي. على أن ميزة الحضارة الإسلامية الكبرى أنها في نشرها تلك القيم الحضارية كلها أقامتها على أساس معنوي عقيدي أخلاقي كان هو الخصيصة المتفردة لهذه الحضارة وقيمها، فمؤسساتها ونظمها وسائر منجزاتها تنبعث فيها روح اخلاقية يزكيها الايمان.

فحقوق الإنسان تنطلق أحكامها الشرعية في الإسلام من عقيدة الايمان في أعمال الوجدان. « فميزان العدل الالهي هو الذي أقام المساواة بين الناس على دعامتها الراسخة، وكل ما عداها من دعامة فانما هي دعائم القوة ممن يقدر عليها، وما كان للعدل بين الناس من سبيل وهم يقيسون بعضهم إلى بعض، فاذا ارتفع الميزان إلى اليد الالهية فهذا القوي مهما يبلغ من القوة والضعيف مهما يبلغ من الضعف، ندان متساويان ومخلوقان أمام خالق واحد »[1]، وهذا ما عبر عنه بوضوح الخليفة الراشد الأول : « ألا ان أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ الحق له، وان أضعفكم عندي القوي حتى آخذ الحق منه »، ومن رسالة الخليفة الراشد الثاني عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري في القضاء « آس بين الناس في خلقك وعدلك ووجهك ومجلسك، حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك ». وكان عمر اذا استعمل العمال قال لهم : « اني لم استعملكم على أمة محمد ﷺ على أشعارهم ولا على أبشارهم، وإنما استعملتكم عليهم لتقيموا فيهم الصلاة، وتقضوا بينهم بالحق، وتقسموا بينهم بالعدل. ألا

---

(١) العقاد : أبو الأنباء. وانظر أيضاً في هذا المعنى المودودي : الدين القيم، نظرية الإسلام السياسية، منهاج الانقلاب الإسلامي وانظر لكاتب البحث : الدين للواقع فصل (بصائر من ربكم).

لا تجلدوا المسلمين فتذلوهم، ولا تجمروهم فتفتنوهم ولا تغفلوا عنهم فتحرموهم ». وكان رضي الله عنه يوجب القصاص من العامل إذا ثبت عليه الحق ازاء من شكاه من رعيته بعد أن يجمع بينهما. ومن كلماته الخالدة : « والله ما أحد أحق بهذا المال من أحد، وما أنا فيه إلا كأحدهم... فالرجل وبلاؤه في الإسلام، والرجل وقدمه في الإسلام، والرجل وحاجته..... »[٢].

وأحكام الشريعة يقوم انفاذها على أساس من ضمائر الحاكم والمحكوم والقاضي والمتقاضي. وقد وجه رسول الإسلام صلوات الله عليه المتقاضي إلى أن يظهر سريرته حتى يعين القاضي على إصابة الحق، وإلّا فمن نال شيئاً بما أخفى من حق فإنما يأكل في بطنه ناراً لا يعفيه منها حكم القاضي المبني على الظاهر. ولقد ورد « البر ما اطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في الصدر وكرهت أن يطلع عليه الناس ». وكثيراً ما ترى الفقهاء يفرقون في دقة وحكمة بين ما يُحكَمُ به قضاء وما يُستحَبُ ديانة، إذ الاحسان فوق العدل والفضل يربو على الحق. **وقد ارتبطت منجزات الحضارة الإسلامية بالقيم الإنسانية التي دعا إليها الإسلام**، فتعاليم الإسلام في النظافة والطهارة قد أدّت إلى الاهتمام بتزويد المساجد بموارد المياه وإنشاء الحمامات. وبناءً على تعاليم الإسلام في رعاية الجائع والعطشان والضعيف جاء تقرير حق الشفة، كما جاءت إقامة الأسبلة أو الماء المسبّل وهو الماء المباح للناس كافة في سبيل الله. كذلك جاء إنشاء دور الضيافة والإيواء والرباطات (أو الأربطة). وتعاليم الإسلام في إيجاب طلب العلم وتيسير سبله قد ترتب عليها قيام التعليم بالمساجد ثم بالمدارس، وقيام مراكز البحث العلمي والثقافة العامة والمكتبات. وقدّم نظام الوقف شواهد معبرة لمؤسسات اجتماعية دائمة قامت على تحقيق الخير والمعروف.

ولا يرتضي الإسلام أن يجبر أحد بالقوة والسلطة على اعتناق عقيدته، وإنما يكفي البيان واقامة الحجة، ثم يحكم بين الناس، يوم الدين، أحكم الحاكمين. « لا إكراه في الدين، قد تبين الرشد من الغي ـ البقرة/ **٢٥٦** ». ولم تفتأ رسالة الإسلام تؤكد في نفوس المؤمنين الثقة

---

(٢) الطبري : باب مناقب عمر بعد خبر مقتله

بأنفسهم ودينهم، واليقين بأن منطق الإيمان قادر على إقناع كل ذي عقل مخلص لا يحجبه الهوى. وهكذا أعلن دين الله الأمان لأي كافر حتى يستمع إلى دعوة الإيمان بل وحتى يرجع إلى حيث يأمن بين قومه بعد سماعها، « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه، ذلك بأنهم قوم لا يعلمون ـ التوبة/٦ ». وضمن الإسلام لغير المسلمين في دولته حقوقهم الإنسانية في العيش الكريم وحرياتهم وفي مقدمتها الحرية الدينية، وألزم معاملتهم بالعدل والمعروف فتجنبوا العدوان على المسلمين، « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم، إن الله يحب المقسطين ـ الممتحنة/٨ ».

ولقد وضع عمر الجزية عن شيخ من أهل الكتاب رآه يسأل الناس، وفرض له من بيت المال. وكان من عهد خالد بن الوليد أهل الحيرة الذي أخبر عنه الخليفة عمر، « وشرطت عليهم أن عليهم عهد الله وميثاقه الذي أخذ على أهل التوراة والإنجيل أن لا يخالفوا ولا يعينوا كافراً على مسلم من العرب ولا من العجم، ولا يدلوهم على عورات المسلمين.. فإن هم خالفوا ذلك فلا ذمة لهم ولا أمان، وإن هم حفظوا ذلك ورعوه وأدوه إلى المسلمين فلهم ما للمعاهد وعلينا المنع لهم.... وجعلت لهم أيّما شيخ ضعف عن العمل، أو أصابته آفة من الآفات، أو كان غنياً فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه، طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين وعياله ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام »[1].

ومن السمات الأخلاقية المتميزة للدولة الإسلامية وشريعتها ومؤسساتها وحضارتها : **العناية بالضعيف**. يقول أبو الحسن محمد بن يوسف العامري المتوفي سنة ٣٨١ هـ في كتابه « الإعلام بمناقب الإسلام »، عما حققه الإسلام في هذا المجال، « وأما الضعيف فإن لحقه الضعف من جهة التركيب ـ أعني النساء ـ فليس دين من الأديان أزجر عن الإعتداء عليهن إلى الرفق بهن من هذا الدين، وذلك ظاهر من آي القرآن

---

(١) أبو يوسف : الخراج ـ المطبعة السلفية، القاهرة ١٣٤٦ هـ ـ ص ١٥١ ـ ١٧٢.

وفي أخبار الرسول عليه الصلاة والسلام، وإن لحقه الضعف من جهة السن ـ أعني اليتامى ـ فقد بالغ هذا الدين في الأمر بحفظهم وحماية أملاكهم، وذلك أيضاً فيما تضمنه القرآن، وإن لحقه الضعف في معاشه ـ وأعني الفقراء ـ فقد أمر هذا الدين بمواساتهم، وإن لحقه من رقبته ـ أعني الأسراء ـ فقد حث القرآن على فك رقابهم، وإن لحقه الضعف في وطنه ـ أعني الغرباء ـ فقد وجدت الوصية لأبناء السبيل في القرآن مكررة »[٢].

وكان عمر يسأل القوم عن أميرهم : هل يعود المرضى ؟ هل يعود العبد ؟ كيف صنيعه بالضعيف ؟ وهل يجلس على بابه ؟. وقد أقام دور الضيافة ورصد لها الأموال، واتخذ دار « الدقيق »، فجعل فيها الدقيق والسويق والتمر والزيت وما يحتاج اليه، ليعين من ذلك المحتاج. ووضع فيما بين مكة والمدينة، وفيما بين الشام والحجاز ما يصلح في الطريق من ينقطع به ـ وفي عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك، صاحب الفتوح الواسعة من الهند إلى الأندلس، خصصت أعطيات للمجذومين لمنعهم من الاحتكاك بالناس قدر المستطاع، كما أعطي المقعد خادماً، والضرير قائداً يأخذ بيده[١].

وإذا كانت الحضارة الرومانية قد اشتهرت بالطرق التي تربط أرجاء الامبراطورية، فإنها قد عرفت كذلك بالحواجز التي أقامتها بين الفئات المختلفة من رعاياها، إذ فرّقت في الحقوق بين سكان روما وسكان سائر إيطاليا، ثم بين الرومان وسائر رعايا البلاد المفتوحة، وبين الذين خضعوا للامبراطورية ومن كانوا خارجها الذين دعتهم « برابرة ». **أما حضارة الإسلام فقد أزالت الحواجز والمسافات بين البشر وعلى الأرض سواء بسواء**، وكانت مراكز **البريد** تعين على التنقل في أرجاء دار الإسلام المترامية. وقد أكثر الخليفة عمر بن عبد العزيز من بناء خانات البريد لإيواء المسافرين وإقامة محطات العناية بالدواب وتغييرها وأحواض الشرب. ووجدت

---

(٢) أبو الحسن محمد بن يوسف العامري ـ الاعلام بمناقب الإسلام ـ تحقيق أحمد عبد الحميد غراب ـ القاهرة سنة ١٣٨٧ هـ ص ١٦٤.

(١) تاريخ الطبري : مناقب الوليد بعد خبر وفاته.

« **الأربطة** » أو « **الرباطات** » بفعل الجماعة ذاتها فيما بعد، تستضيف العابرين وتقدم لهم ولدوابهم الطعام والمأوى. ويذكر الجغرافي المسلم « الاصطخري » مثلاً عن مسلمي ما وراء النهر : « وأما سماحتهم، فإن الناس في أكثر ما وراء النهر كأنهم في دار واحدة، ما ينزل أحد بأحد إلّا كأنه دخل دار نفسه.. لا تجد فيهم صاحب ضيعة إلّا كانت همته ابتناء قصر فسيح ومنازل للأضياف، فإذا حل بينهم طارق تنافسوا فيه وتنازعوا، وترى الغالب على أهل الأموال بما وراء النهر صرف نفقاتهم إلى الرباطات وعمارة الطرق والوقوف على سبيل الجهاد ووجوه الخير. وليس من بلد ولا منهل ولا مفازة مطروقة ولا قرية آهلة إلّا بها من الرباطات ما يفضل عن نزول من طرقه، إذا نزل النازل أقيم علف دابته وطعام نفسه... وقلّ ما رأيت خاناً أو طرف سكة أو محلة أو مجمع ناس في الحائط بسمرقند يخلو من ماء جمد مسبل (أي هيء للناس في سبيل الله) من بين سقاية مبنية وجباب منصوبة ».

كما تنافس المسلمون أيضاً في **رعاية المجاهدين** وتكريمهم بجهودهم الخاصة، ولم يقنعوا بما يفرضه بيت المال لهم ولذراريهم، ويرى « الاصطخري » أيضاً عن ثغر طرسوس عند الجبال الحاجزة بين المسلمين والروم أنه كان بها في إبّان قوة المسلمين زهاء مائة ألف فارس. « وليس من مدينة عظيمة من حد سجستان إلى كرمان وفارس والجبال وخورستان وسائر العراق والحجار واليمن والشعات ومصر إلّا وبها وأهلها (أهل طرسوس) دار وأكثر، ينزل أهلها إذا وردوها. وذكر الجغرافي المسلم ابن حوقل انه ما من « رئيس ولا نفيس » في شتى بلدان الإسلام إلّا وله على ثغر طرسوس ومجاهديه وقف من ضيعة ذات مزارع وغلّات أو مسقف من فنادق » فضلاً عما كان ينفذه أرباب الثقة من متبرعين[1].

ولنظام الوقف وتاريخه في الإسلام دلالته الجلية على العناية بالضعيف في المجتمعات الإسلامية، وبخاصة حين تقاعس الحاكمون

---

(١) الاصطخري : المسالك والممالك ـ تحقيق محمد جابر الحصين ص ٤٧، ١٦٢، ١٦٣، أيضاً : ابن حوقل.

المتأخرون خلال أوقات الضعف والتدهور عن النهوض بأعباء المرافق والخدمات العامة. فرصدت الاوقاف لتمويل المساجد والمدارس ومكتباتها والمستشفيات والملاجئ وموارد المياه وسائر المؤسسات التي تحارب الجهالة والعوز والمرض. وجاء في سجل وقف البيمارستان (المستشفى) المنصوري الذي أنشئ سنة ٦٨٢ هـ بمصر بأنه قد أقيم لعلاج « الملك والمملوك، الكبير والصغير، والحر والعبد ». وحكى الرحالة ابن بطوطة أن الواصف يعجز عن الوفاء بمحاسن ذلك البيمارستان. وقد تضمن أقساماً للحميات والرمد والجراحة والنساء، للمريض في كل منها فرش كامل « من التخوت والطراريح والمخدات واللحف والملاءات ». ويعمل في المستشفى الأطباء والصيادلة والخدم، وقد زود بمطبخ كبير. وكان المريض اذا برئ وخرج من البيمارستان تلقى منحة وكسوة. وقد رُتِّب صرف الأدوية والأشربة والأغذية اللازمة لعلاج المرضى الذين يلازمون منازلهم، فضلاً عمن يترددون على البيمارستان في العيادة الخارجية. وقدرت الحالات التي يعالجها المستشفى يومياً بعدة آلاف، وألحقت به مدرسة للطب. وأخبار هذا المستشفى الكبير يرويها المقريزي في (الخطط)، والنويري في (نهاية الارب).

ونصت حجة المدرسة الناصرية بمصر على أن يعين ناظر الوقف لكل مدرسة في المدرسة « من المعيدين والطلبة ما يراه من العدد. وينتصب كل معيد في من عين في جهته من أهل مذهبه لاستعراض مذهبه، ويشرح لمن احتاج الشرح منهم، ويرغبهم في الاشتغال ».

ونصت حجة وقف الغوري على أن يقوم خازن المكتبة بفتحها يومين في الأسبوع لطلبة العلم. وسمحت بعض حجج الأوقاف باعارة الكتب في الخارج لمن يوثق به « بعد أخذ خط منه »، ولا يُعار كتاب آخر إلا بعد رد الأول، على أن يتعاهد الخازن المستعير بالسؤال حتى لا يطول أمد الاعارة. كذلك رصدت الأوقاف لاقامة الحمامات العامة.

ونقرأ في حجج الأوقاف عن ألوان من الخدمات التي كفلها الواقفون تنبئ عن حساسية مشاعرهم المؤمنة. فثمة وقف في دمشق على الحيوان الهرم كي يرعى في الأرض الموقوفة حتى يموت. وثمة وقف بمصر لتعويض

الأواني التي يكسرها الخدم حتى يتجنبوا ما قد يلقونه من عقاب أو غرم جزاء كسرهم الأواني. وثمة وقف آخر رصد لترتيب من يتهامسون وراء المريض بحيث يسمعونه وكأنهم لا يقصدون اسماعه، أما كلماتهم المهموسة فتدور حول رأي الطبيب في قرب برء المريض، إيحاء بما يعزز العلاج ويعين على الشفاء. وواقف فاضل آخر حبس ماله على اعطاء العروس المحتاجة ثياب العرس وحليته. وفي تونس اوقاف متعددة على مؤن المرضى وعلاجهم ومعاونة المستشفيات على القيام بمهامها. وهناك من وقف على تقديم زوج من الماشية إلى المحتاج عوناً له على الكسب الحلال[1].

(١) انظر لهذه الأمثلة وغيرها : سعيد عاشور : المجتمع المصري في عهد المماليك، مصطفى السباعي : من روائع حضارتنا، وانظر لصاحب البحث « الأوقاف في تراثنا ومجتمعنا » نشر وزارة الأوقاف بالقاهرة.

تلك كانت القيم الإسلامية التي أنبتت حضارة الإسلام التاريخية في جذورها الراسخة وقممها الشامخة وخصائصها الاخلاقية المتفردة.. وهي كفيلة دائماً بتجدد الاثمار والعطاء، وبأن تؤتى أكلها كل حين باذن ربها، ما رعى المؤمنون بذرة الايمان في قلوبهم أفراداً وجماعة، فتتواصل حياتها ونماؤها وثمارها المباركة في كل المجالات..

وواجب شباب الإسلام أن يعوا قيم دينهم الخالدة وعطاءها المتجدد لخير المسلمين وخير الانسانية جمعاء.. ويحرصوا على اشاعة هذه القيم الحضارية في أنفسهم وفكرهم وسلوكهم، ويدفعوا اليها المجتمعات كلها، مسلمين وغير مسلمين، وأن يستجيبوا لقيم الإسلام ومعاييره، وهم يتلقون ثمار الحضارة المعاصرة، حتى يفرزوا انتاجهم الحضاري المتميز في أوانه الموقوف، **فتقوم « الحضارة الإسلامية المعاصرة » التي لا تتقوقع في قوالب من** الماضي شأنها أن تتبدل مع الزمن، ولا تتميع ازاء دفع الحاضر الغلاب. فحضارة العصر نشرت مع تقدمها التكنولوجي المادية والآلية، وكادت أن تحيل الإنسان إلى آلة أو نمط مطرد لا تفرد فيه، أو حالة مرضية مكررة من التمزق والضياع والغربة لمن شاء أن يبقى على شيء من مشاعر انسانية، ولم يغن التراكم الكمي السيء للمنتجات المادية عن أزمات النفوس والعقول والجيوب التي تعانيها المجتمعات المتقدمة والنامية على السواء، افراداً وجماعات.

« يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين. قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا، هو خير مما يجمعون. قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً، قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون. وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة، إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون. وما تكون في شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه، وما يَعْزُبُ عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين. ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، الذين آمنوا وكانوا يتقون. لهم البشرى في الحياة الدنيا ــ وفي الآخرة ــ لا تبديل لكلمات الله، ذلك هو الفوز العظيم. ولا يحزنك قولهم، ان العزة لله جميعاً، هو السميع العليم ــ يونس/**٥٧ ــ ٦٥**»

صدق الله العظيم



أساسيّات
في موضوع الإسلام والحضارة ودور الشّباب

للأستاذ محمد فريد عبد الخالق
الأستاذ المساعد بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ومن والاه .. وبعد :

فإنه يسيطر على فكري، كلما هممت بالكتابة أو التحدث في مثل هذه المناسبة، مخافة أن أزيد من تفاقم ظاهرة غير صحية طالما شكا منها عالمنا العربي والإسلامي ألا وهي تزايد الفارق في حجم الكلمات عن حجم الأعمال، وبعد الكلمة في كثير من الأحيان عن الموضوعية والمنهجية، وافتقار العمل إلى التخطيط والاستمرارية، فتنزع نفسي إلى الإحجام عن الكتابة والكلام.

بيد أني في هذه المناسبة بالذات، التي دعيت للاشتراك فيها بكلمة في الموضوع المطروح للدراسة، تغلبت لديّ دواعي الإقبال على مثبطات الاحجام، لأمور ثلاثة، اجتمعت لهذا اللقاء الكريم، وخلعت أهمية عليه من نوع خاص.

أولاً : النوعيات المشتركة فيه : من قيادات العمل الشبابي الإسلامي التي تعكس بجهودها أعز آمال الأمة الإسلامية في بناء غد يليق بها، ومن رجال الفكر وقادة الدعوة إلى الإسلام في أنحاء العالم بتجاربهم الغنية وفكرهم الناضج.

ثانياً : خطر الموضوع المطروح للدراسة النظرية والتطبيقية الجادة بأبعاده الثلاثة : « الإسلام، والحضارة، ودور الشباب المسلم »، وهي تمثل في مجموعها شجرة حياتنا في هذا العصر، جذورها الإسلام، وساقها وفروعها حضارته، والأجيال المسلمة الجديدة أزهارها المتفتحة، وثمارها التي تحمل بذور التجدد والاستمرار، بين يدي واقع متصل بالماضي يراد تحسينه، ومستقبل زاهر يهدف إليه.

ثالثاً : الغاية المتوخاة من هذا اللقاء، وتتلخص في محاولة للتوصل إلى ترشيد وتنسيق العمل الإسلامي، من أجل مزيد من توعية الشباب المسلم بدوره الإسلامي في هذه المرحلة الحرجة من تاريخنا، التي تشهد، بلا جدال، مولد يقظة إسلامية شاملة، تواجه من أعداء الإسلام مخاطر التحديات ومختلف العقبات.

تحية إذن، ملؤها التقدير والأمل، للقاء الرابع الذي تعقده اليوم « الندوة العالمية للشباب الإسلامي ».. وتحية من منطلق العقيدة والأخوة في الله للمملكة العربية السعودية التي ترعى النشاطات الإسلامية الهادفة، مَلِكاً وحكومةً وشعباً، « ولينصرن الله من ينصره، إن الله لقوي عزيز »[١].

ومن حسن الطالع أن يأتي هذا اللقاء، وقد ارتفعت بالأمس القريب راية الشريعة الإسلامية في باكستان الشقيقة، وتحولت إثرها إيران من العلمانية إلى الإسلام، وعلى مشارف الأفق أقطار أخرى تتحرك شعوبها في نفس الطريق.

أي المباحث اخترت :

ولأن المباحث المقترحة من الكثرة والتداخل بحيث يصعب الاقتصار على إحداها دون غيرها، فقد سلكت في كلمتي منهجاً يجمع بين رأسية المعالجة للموضوع وأفقية التناول لأطرافه المتعددة، سائلاً الله تعالى العون فيما اعتزمت، والتوفيق إلى شيء فيه نفع لشبابنا المسلم المعاصر..

---

(١) سورة الحج / ٤٠.

الباب الأول

أخطاء رأيت إلقاء الضوء عليها والتنبيه إليها

لشيوعها وعظم آثارها وأضرارها

أولاً خطأ الفكر الغربي خاصة، وأعداء الإسلام عامة في فهمهم الإسلام وفي نظرتهم العدائية إلى النشاطات الإسلامية، الرامية إلى نشر تعاليم الدين وتطبيق الشريعة في بلدانه :

ويرجع الموقف العدائي من الإسلام من جانب الشيوعيين، إلى إلحادهم وإنكارهم الوحي والدين بالدرجة الأولى، وإلى أنه يمثل أكبر عقبة في طرائقهم السياسية لأنه يملك من أسباب الخطر عليهم ما لا يملكه غيره من سائر الأديان، لقوته الذاتية الصادرة عن عقيدة التوحيد، وحماس دعاة الإسلام في نشر تعاليمه، بما يشهد به تاريخ الإسلام في روسيا وسيبريا منذ أكثر من تسعة قرون، حيث انتشر الإسلام بين القبائل الوثنية الأصلية، قبل أن تصبح روسيا تحت الحكم المسيحي وبعدها، على يد دعاة المسلمين من البلغار الذين وجدوا حوالي القرن العاشر الميلادي على نهر الفلجا.

يقول كارازين : « ويظهر أنه لم تكن هنالك حالات عن تحول بعض

الروس إلى الإسلام، إلّا بعد أن صدر في سنة ١٩٠٥ مرسوم ينص على التسامح الديني في كافة أرجاء الامبراطورية الروسية، وما تلا ذلك من دعاية نشيطة قام بها المسلمون، وإن ما حدث من هذه الحالات، يعزى إلى قوة التأثير الناتجة من المساعدة المادية التي قدمها التتار (المسلمون) إلى هؤلاء الداخلين في الإسلام، كما يعزى إلى القوة المعنوية التي تميز بها المسلمون أنفسهم ».

وجاء في كتاب الإسلام والإرساليات الدينية : « وكذلك نشطت الدعوة إلى الإسلام بين تتار القرم، وفي مستهل القرن التاسع عشر، كان كثير من القرعيز الذين يقيمون في السهول الفسيحة الممتدة جنوباً من مقاطعة بتلسك إلى بلاد تركستان لا يزالون على الوثنية، وسرعان ما سارت لنشر الدعوة (الإسلامية) جماعات أخرى (غير البعثات التبشيرية) لا تعتمد على حسن نية أية حكومة، كما كانت أكثر غيرة وإدراكاً، واحتلت هذا الميدان واجتذبت كافة قبائل القرعيز إلى الدين الإسلامي ». ويضيف توماس آرنولد في كتابه الدعوة إلى الإسلام، على ما أورده من عبارات مؤرخي المسيحية ــ وقد نقلت عنه بعضها في مواضع أخرى ــ قوله : « وفي القرن الثامن عشر بذلت الحكومة جهوداً جديدة لتنصير القبائل الوثنية، والتتار الذين ارتدوا عن دينهم (يقصد تحولوا إلى الإسلام)، كما بذلت الحكومة كثيراً من جهود الاقناع والإغراء لتعميدهم.. ولكنهم سرعان ما أخذوا يحاولون التخلص مما بذلت الكنيسة الأرثوذكسية من الجهود التبشيرية، وتركوا المسيحية، واعتنقوا الإسلام، وفي عبارة أخرى للكنسى « أوف .م.م » وقد دونت الأخبار كثيراً عن دخول الناس في هذا الدين أفواجاً.. مثال ذلك ما قيل أن إحدى وتسعين أسرة اعتنقت الإسلام في قرية أتومثا سنة ١٩٠٩، وأن عدداً بلغ من الكثرة حوالي ٥٣,٠٠٠ نسمة، أسلم بين سنتي ١٩٠٦، ١٩١٠، وقد قيل أن أكبر الفضل في نجاح هذه الدعوة يرجع إلى مستوى الحياة الأخلاقية في المجتمع الإسلامي الذي كان أكثر رقياً، كما يرجع إلى شعور التآخي الذي كان يشيع في هذا المجتمع، والذي كان أكثر تماسكاً وقوة ».

وفي وصف حماسة المسلمين في نشر دعوتهم في روسيا لقرون خلت، وفي القرن الحالي، تقرأ للمؤلف المسيحي « بوبروفيلكوف » : « ومن جهة أخرى سارت الدعوة الإسلامية قدماً في حماسة بالغة، فقد كان كل مسلم ساذج أمي داعية إلى دينه، وعجزت القبائل الفقيرة الجاهلة الأمية من الوثنيين، أو أشباه الوثنيين، عن أن تقاوم هؤلاء الدعاة، وفي كثير من القرى التي عمّد أهلها انطلق الرجال في زمن الشتاء يحترفون الحياكة في القرى الإسلامية، وهناك يتحولون إلى الإسلام، ثم يعودون إلى قراهم حمساً يجلبون معهم أفكاراً إسلامية يكون لها أثرها في بيوتهم ». كما جاء على لسان آخر « ركلس » : « ومن أهم القبائل التي تأثرت بحركة الدعوة إلى الإسلام قبيلة الفوتياك التي كان السواد الأعظم منها مسيحياً معمداً، بيد أن كثيراً منهم أصبحوا مسلمين في القرن الثاني عشر، وحتى مستهل القرن التاسع عشر، ولا يزال تأثير الإسلام آخذاً في النمو بين هؤلاء الذين يدينون بالمسيحية وبين هذه البقية اليسيرة التي لا تزال على وثنيتها ».

هذا عن حال الإسلام في روسيا القيصرية عبر تاريخ طويل، وتعرفه جيداً روسيا الشيوعية، ولا يكون من المستغرب إذن، وقد ارتدت إلى الإلحاد وماضي الوثنية التي أنقذ المسلمون منها قبائلها الأصلية، أن تناصب الإسلام والمسلمين العداء السافر أو المقنع أحياناً، داخل بلادها وخارجها، لحين زوال سلطانها، وصدق الله العظيم إذ يقول : « وتلك الأيام نداولها بين الناس »[1].

أما عن الموقف العدائي من الإسلام من جانب العالم المسيحي فيرجع هو الآخر إلى جملة أسباب نلخص أهمها فيما يلي :

١ ـ الاختلاف بيننا وبينهم في مفهوم « الدين » :

فالدين عندهم ليس أكثر من مجرد علاقة شخصية بين الله والإنسان، ذلك عند من بقيت للدين عندهم بقية، ولا محل لوجود الدين فيما وراء ذلك، من واقع الحياة والأنظمة التي تحكمها، سياسية أو اجتماعية أو

---

(١) سورة آل عمران آية ١٤٠.

اقتصادية أو جمالية، وللإنسان دائماً حرية كاملة في اختيارها، والحق المطلق في إعادة صياغتها وتغييرها حسب ما يراه وما يطرأ من تغييرات العصر والمصالح، وعلى أساس من مثالياته المادية التي تبحث عن مجتمع الوفرة والترف وحرية الاستمتاع بالجنس ومعاقرة الخمر وجمع المال وبسط النفوذ والاستغلال، متجاهلة القيم الروحية، ومتحدية في ذلك للفطرة وناموس الحياة.

في حين أن مفهوم « الدين » في الإسلام أساسه عقيدة التوحيد التي عنها تصدر كل أنظمة الحياة والقيم التي تسود المجتمع الإسلامي، والتي بها يمكن تفسير روح التجدد والإبداع في الأمة المسلمة، وتفهم الخصائص التي تتميز بها شريعة الإسلام من عالمية، وإنسانية، وربانية، ووسطية، واتساع دائرة مفهوم « العبادة » فيه ليشمل كل ما يصدر عن المسلم من قول طيب وعمل صالح ولا تقتصر دلالتها على العبادات المكتوبة.

٢ ـ رواسب النزاع التاريخي :

وهي ترجع إلى الحقبة التي شهدت صد غزوات المسيحية على العالم الإسلامي في الحروب الصليبية خلال القرون الطويلة التي تظاهرت فيها قوى معادية كثيرة من أهمها أوروبا المسيحية، وانتصر فيها المسلمون آخر الأمر في معركة حطين الشهيرة سنة ١١٨٧ م بقيادة القائد المظفر صلاح الدين الأيوبي. على أن جذوة العداء لم تخمد في نفوس الصليبيين عبر التاريخ، وقد عبر عنها « اللورد اللنبي » عند قيام إسرائيل في أرض فلسطين العربية، وضياع القدس الشريف من أيدي المسلمين، بحيلة من الإنجليز وغفلة من المسلمين، بقوله : « الآن انتهت الحروب الصليبية ».

وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى حقيقتين، تتصلان ببيان خطأ الفكر الغربي في فهم الإسلام وعداوة المسلمين، وأثر هذا الخطأ في تأجيج نار التعصب في نفوسهم وسوء ظنهم ورصدهم لكل النشاطات الإسلامية الرامية إلى تحسين حال المسلمين وتطبيق الشريعة في بلادهم، وكأنها موجهة ضد الدين المسيحي وضد مصالح العالم المسيحي.

أما الحقيقة الأولى : فالإسلام بريء من إشعال نار الحروب الصليبية التي شنها العالم المسيحي وأعداء الإسلام ضده، وإنما كان دور المسلمين فيها هو صد هذا العدوان، وحماية أرضهم أو استردادها.

وأما الحقيقة الثانية : فنجدها مثبتة فيما يسمى أدب الصليبيين وسجلات الكنائس، مما يعطي صورة مختلفة عن تلك التي يعتنقها المسيحيون على وجه العموم ويتعصبون لها، وهي حين يزعمون أن الانتصارات التي أحرزها الإسلام في كسب أتباعه من أهل الأديان الأخرى وانتشاره في رقعة واسعة من العالم عبر التاريخ تحقق أكثرها بالسيف والقوة.. وقد دحض هذا الزعم وصحح وجه الخطأ فيه كتّاب مسيحيون بما لا يحتاج إلى مزيد.

ومما يستحق الذكر هنا حالات التحول إلى الإسلام بين الصليبيين، وأثرها الباقي في نفوسهم، يقول « بروتز » : « بل إن علماء اللاهوت المسيحي حين أدى اختلاطهم بالمسلمين ــ يقصد في الحروب الصليبية ــ إختلاطاً شخصياً إلى تكوين رأي أكثر إنصافاً عن ديانة المسلمين، وزعزع الارتباط بأساليب التفكير الحديثة أفكار الناس وأثار ألوان الزندقة، فليس بغريب أن ينجذب كثيرون ــ يقصد من المسيحيين ــ إلى حظيرة الإسلام ». وجاء في كتاب بعنوان : وثائق محكمة البرجواز ومؤرخي الحروب الصليبية وأورشليم : « وكان عدد المرتدين عن المسيحية في الثاني عشر كثيراً، وهي كثرة نلاحظها في سجلات الصليبية القانونية التي يطلق عليها « مجالس قضاء بيت المقدس » والتي لم تقبل بموجبها كفالتهم في حالات معينة ». ويقول « روجر هوفيدن » : ويظهر أن أخلاق صلاح الدين وحياته التي انطوت على البطولة، قد أحدثت، في أذهان المسيحيين في عصره، تأثيراً سحرياً خاصاً، حتى أن نفراً من الفرسان المسيحيين قد بلغ من قوة انجذابهم إليه أن هجروا ديانتهم المسيحية وهجروا قومهم وانضموا إلى المسلمين.. وكذلك كانت الحال عندما طرح النصرانية فارس إنجليزي من فرسان المعبد، يدعى « روبرت أوف سانت البانس » في سنة ١١٨٥ م واعتنق الإسلام، ثم تزوج بإحدى حفيدات صلاح الدين. ويقول « بندكت بيتر بروف » في عبارة متممة لسابقتها في الموضوع : « وبعد عامين غزا

صلاح الدين فلسطين وهزم الجيش المسيحي هزيمة منكرة في واقعة حطين، وكان « جوي » ملك بيت المقدس بين الأسرى، وحدث في مسار المعركة أن ترك الملك ستة من فرسانه « قد حلت فيهم روح شريرة » وفروا إلى معسكر صلاح الدين حيث أسلموا بمحض إرادتهم »، ويضيف « توماس أرنولد » في كتابه الدعوة إلى الإسلام : « ولا شك أن هذه الأخبار المبعثرة تحمل الدليل على أن تحول المسيحيين إلى الإسلام، الذي لم يصلنا عنه أي خبر، كان على نطاق واسع »، ويقول « بروتز » : « ومن المؤكد أن المسيحيين من أهالي الأرض المقدسة قد آثروا حكم المسلمين على حكم الصليبيين ».

هذا ومن يرجع إلى كتاب المبشرين ومؤرخي المسيحيين ومفكريهم، من أمثال « توماس أرنولد » في كتابه السالف الإشارة إليه، الذي استعرض فيه تاريخ نشر العقيدة الإسلامية في العالم، يذهله ما يقول هؤلاء عن روح الإسلام الحية، وسلطان تعاليمه على النفوس، وغيرة دعاته من التجار وغيرهم، على نشره بين الوثنيين والنصارى، ونجاحهم المذهل الذي أيأس المبشرين من منافستهم، وشجب كل محاولاتهم في ذلك، على اتساع العالم، منذ القرن الأول الهجري وإلى يومنا هذا، رغم تضافر كل القوى المعادية للإسلام، وفي آسيا وأفريقية وأسبانيا والهند والصين وأرخبيل الملايو، ورغم أن الكتاب لم يخل من سقطات وأخطاء، فإنه يستحق العناية بقراءته من كل داعية مسلم.

إن هذه الرواسب التاريخية تركت في نفوس العالم المسيحي حقداً على الإسلام حجب الكثير منهم عن رؤية الحق، فضلاً عن اتِّباعه، ونجد ذلك المعنى في مثل قول « رينان » : ما دخلت مسجداً قط دون أن تهزني عاطفة حارة، أو بعبارة أخرى، دون أن يصيبني أسف محقق على أني لم أكن مسلماً ».

إنهم ينفسون علينا نعمة الإسلام، وإن جحدتها قلوبهم، وهذا البروفسور « فونتيه » يقول : « الإسلام في جوهره دين عقلي بأوسع معاني هذه الكلمة من الوجهتين الاشتقاقية، والتاريخية، فإن تعريف الأسلوب العقلي بأنه طريقة تقيم العقائد الدينية على أسس من المبادىء المستمدة من

العقل والمنطق ينطبق عليها تمام الانطباق.

وهذه الظاهرة تفسر حجبهم للرسالة الإسلامية عن عالمهم المسيحي مع دراسة بعضهم العميقة للإسلام إلا فيما ندر، وإن كانوا حين تحملهم الحقيقة على الاعتراف بها نراهم ينكرون الوحي، وتجد ذلك في مثل العبارة التالية التي يتم بها « فونتيه » نفسه ما تقدمها : « والحق أن محمداً الذي كان متحمساً لدينه كما كان يمتلك غيرة الإيمان، ونار الإقناع، تلك الصفة القيمة التي بثها كثير جداً من أتباعه، قد عرض حركته الاصلاحية على أنها وحي وإلهام، على أن هذا النوع من الوحي ليس إلا صورة من العرض والتفسير ».

ولقد لعبت هذه الرواسب التاريخية والأحقاد النفسية دورها في ترسيخ العداوة التي يلقاها الإسلام من أهل الأديان الأخرى، وفي ازدياد حملات التبشير المسيحي في مختلف أنحاء العالم، وحركات الاستشراق وكتابات المستشرقين الحاقدة على الإسلام.

ومع ذلك فهناك ظاهرة تغيير في الموقف العدائي السائد لدى المسيحيين ضد الإسلام، على مستوى محدود لا يتجاوز المستويات العليا بين بعض رجال الدين عندهم، لكنه لم يتجاوزها إلى سواد الشعب المسيحي، الذين أشربت نفوسهم مشاعر الكراهية، يتوارثونها ويلقنونها للأسف جيلاً بعد جيل. وتجد كاتباً مثل « أرنولد » يعترف بذلك حتى في معرض الثناء على الإسلام، وهو يبستعرض في أحد فصول كتابه « الدعوة إلى الإسلام » عوامل نجاح المسلمين في نشر تعاليم الإسلام بين الوثنيين في آسيا وأفريقية، وفي تحول أعداد من المسيحيين إلى الدين الإسلامي، فيرجع بعضها إلى : « تأثير حياة الورع والتقوى التي يحياها المسلمون، وقد يبدو ذلك غريباً في نظر جيل ـ يقصد من النصارى ـ تعود أن ينظر إلى الإسلام على أنه مستودع لكل ألوان الرذيلة، ومع ذلك لا مراء في أن كثيراً من المسيحيين، في عصور أقدم من ذلك، اتصلوا بمجتمع إسلامي وتأثروا تأثراً عميقاً بما تجلى فيه من فضائل. ويقول « موريس بوكاي » في كتابه الفذ، « الانجيل والقرآن والعلم »، الذي أصدره الوقف الإسلامي بأمريكا الشمالية في العام الماضي : « أن هناك تغيراً ملحوظاً بدأ يظهر مؤخراً في المستويات العليا من

العالم المسيحي، وأن مكتب شؤون غير المسيحيين في الفاتيكان قد أصدر وثيقة عن المجتمع الكنسي الثاني للفاتيكان سنة ١٩٧٠ م تحت عنوان « اتجاهات نحو الشرق من أجل حوار بين المسلمين والنصارى »، فلأول مرة دعت الوثيقة قارئها إلى إطراح الصورة القديمة المتوارثة عن الماضي، والمحرفة بتأثيرات التحامل والافتراء التي يحملها النصارى عن الإسلام. وأن الوثيقة قدمت كذلك إقراراً بالظلم التاريخي تجاه المسلمين، لامت عليه الغرب بمناهجه في التعليم المسيحي التي وضعها، كما انتقدت الوثيقة المفاهيم المسيحية الخاطئة بما مثلت له بالجبرية الاعتقادية، والتزمت، والتعصب. وأكدت الوثيقة على الاعتقاد بوحدانية الخالق، وذكرتنا بمدى دهشة الحاضرين بجامعة الأزهر الإسلامية بالقاهرة، عندما أعلن الكردينال « كوينج » هذه الوحدانية في المسجد الكبير خلال مؤتمر رسمي في مارس سنة ١٩٦٩، كما ذكرتنا كذلك بدعوة الفاتيكان في سنة ١٩٦٧ م المسيحيين أن يقدموا للمسلمين أطيب تمنياتهم بمناسبة نهاية شهر رمضان بتقدير وإحساس ديني صدق.

وقد أشار المؤلف إلى خطوات أخرى تمت في هذا الاتجاه، لكن الإعلام لم يعطها حقها كما يقول. ويذكر فيها الزيارة الرسمية للكردينال « بيجنيروني » رئيس مجلس الفاتيكان لشؤون غير المسيحيين في ٢٤ ابريل سنة ١٩٧٤، للملك فيصل رحمه الله بالمملكة العربية السعودية، بحكم مكانته الدينية في العالم الإسلامي. ويشير إلى ما ذكرته جريدة « لوموند » في ٢٥ ابريل ١٩٧٤ عن هذه الزيارة في سطور قليلة، وعن الرسالة التي حملها الزائر من البابا بول السادس إلى جلالة الملك، تعبر له عن تحياته، وعن عبادة العالمين المسيحي والإسلامي لإله واحد. وقد علق المؤلف على هذا الاتجاه قائلاً : « إن قلة من العالم المسيحي وعت هذه الظاهرة الدينية، وأن الكثرة من المسيحيين التي عاشت تحت تأثير العداء السافر للإسلام لا تتقبل أي شيء يخالف هذا الشعور ». ومما قاله كذلك : « أن الغرب لا يعرف عن الإسلام اعترافه بالأديان الأخرى وتمجيده لأنبيائها، ولا عما تضمنه القرآن لكثير مما جاء في الكتب السماوية السابقة، وأن الطرق كانت مسدودة لفترة طويلة أمام معرفة الإسلام على حقيقته، وأن اصطلاحاً مثل

« الدين المحمدي »، و « المحمديون »، كانت ولا تزال ذرائع للإبقاء على الفهم الخاطئ بأن المعتقدات الإسلامية وانتشارها إنما هي من عند إنسان، دون دور ما في ذلك للخالق ».

٣ ـ فهمهم الخاطئ للإسلام على أنه دين عدواني دموي :

وذلك لخطأ مفهوم الجهاد في الإسلام لديهم، ولأنهم اتخذوا منه لقرون طويلة موقفاً عدائياً، فقد ورثهم هذا الفهم الخاطئ، وإحساسهم بعقدة الذنب نحو المسلمين بما فعلوه بهم من احتلال بلادهم واستغلال ثرواتهم ومظاهرة أعدائهم عليهم، خوفاً من استعادة الأمة الإسلامية لمقومات وجودها الحضاري، ديناً، ولغة، وتقدماً علمياً وصناعياً واقتصادياً، ووحدة وتضامناً، أن يكون مؤدى ذلك ذهاب سلطانهم وضعف اقتصادهم، انتقاماً لما صنعوه بالمسلمين في ماضيهم البعيد والقريب، وما يصرون على صنعه بهم في الحاضر.

ولكن الإسلام الذي بني على السماحة والتسامح مع الأديان، على نحو ما شهد به تاريخه الطويل، يكذب مزاعمهم الخاطئة، فلا إكراه في الدين، ولا عدوان إلّا على المعتدين. ويقول الله تعالى في كتابه الكريم : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها »[1]. ورسول الله يقول لكفار قريش حين دخل مكة فاتحاً : « اذهبوا فأنتم الطلقاء ». ويمتدح الله تعالى في كتابه « العافين عن الناس ». فليس من طبيعة الإسلام الانتقام والتشفي، ولكنه يفتح ذراعيه لتعارف الشعوب وتعاونها على خير الإنسانية، وأن في قوة الإسلام وعزة المسلمين خيراً لهم ولغيرهم على السواء، ولو أحسنوا الفهم لبدلوا عداوتهم لنا مودة، ولتآزر أهل الأديان لمحاربة الكفر والإلحاد وإنقاذ إنسان العصر من الأخطار التي تهدد وجوده ومصيره من جرائهما.

على أن الحقيقة التي لبّسوها على أنفسهم أقوى من أن تحجبها قوى الأرض مجتمعة، مهما بدت في بعض الأوقات ولبعض الناس وكأنها قد اختفت إلى الأبد.

---

(١) سورة الأنفال آية ٦١.

يقول أرنولد في ذلك المعنى : « وهنالك في الوقت الحاضر عاملان رئيسيان يعملان على تنشيط الدعوة الإسلامية في العالم، أولهما انتعاش الحياة الدينية التي يبدأ تاريخها من حركة الإصلاح الوهابية في القرن الثامن عشر، وعلى الرغم من أن هذا الانتقال الجديد قد فقد كل معنى سياسي في خارج حدود نجد زمناً طويلاً، نرى تأثيرها من حيث هي نهضة دينية ملموسة في كافة أنحاء أفريقية والهند وأرخبيل الملايو حتى إلى الوقت الحاضر، كما أحيت كثيراً من الحركات التي أحرزت قصب السبق بين أقوى المؤثرات في العالم الإسلامي ». إلى أن يقول : « وأن ما أثارته هذه الحركة من حماسة متقدة، وما سكبته في النظم الدينية القائمة من حياة جديدة، وما بثته في الدراسة النظرية وتنظيم الشعائر المنسكبة من روح دافعة، إن ذلك كله قد عمل على إيقاظ روح الإسلام الفطرية التي جبلت على نشر تعاليم الدعوة، كما عمل على الإبقاء عليها.

وثانيهما : حركة الوحدة الإسلامية، التي تسعى إلى ربط جميع شعوب العالم الإسلامي برباط مشترك من المودة والتعاطف، أما معرفة ما ستحدثه هاتان الحركتان من تأثير أبعد مدى في حياة الدعوة الإسلامية، فإن المستقبل وحده كفيل ببيان ذلك. على أن مجرد نشاطهم في الوقت الحاضر دليل على أن الإسلام لم يمت، ولم يكن النشاط الروحي للإسلام، كما يزعم عدد كبير جداً من الناس، متمشياً مع سلطانه السياسي، بل على العكس من ذلك، نجد فقدان السلطة السياسية والانتعاش المادي، يعمل على إبراز أجمل الصفات الروحية التي تعد أصدق البواعث التي تحفز على القيام بأعمال الدعوة. وقد تعلم الإسلام منافع الشدائد ولما كان بعيداً كل البعد عن الانحدار إلى الرخاء المادي لكونه نذير انحلال هذا الدين، كان من المهم أن تلك البلاد الإسلامية الخالصة التي عاشت أطول وقت في ظل الحكم المسيحي، تتجلى كأشد ما تكون نشاطاً في القيام بنشر تعاليم الإسلام، ويظهر مسلمو الهند والملايو من الحماسة والغيرة في نشر الدعوة ما لا تجده في تركيا أو مراكش »، مع ملاحظة أن هذه الطبعة من الكتاب صدرت في سنة ١٩٣٠.

ثانياً : خطأ الربط عند البعض بين الإسلام كدين وحضارة متميزة وبين واقع المسلمين الراهن كشاهد على الإسلام نفسه وحجة عليه :

وهذه مغالطة مكشوفة يتذرع بها أعداء الإسلام في مهاجمته، ويروجون لها في محاولاتهم المختلفة لتشكيك المسلمين بصفة عامة وشبابهم المثقف بصفة خاصة، في قدرة دينهم وشريعتهم على العطاء الحضاري وملاحقة التطور العلمي والتقني، ولزحزحة تفكيرهم نحو العلمانية وفكرة فصل الدين عن الدولة وعن الحياة العامة.

ووجه المغالطة هي الخلط بين المبدأ والتطبيق، والمبدأ ثابت، وأما التطبيق، فيختلف أمره حسب حظه من التزام المبدأ أو عدم التزامه. فإذا كان التطبيق سليماً كان لنا أن نحكم من خلاله على المبدأ. أما إذا انحرف، كان لنا أن نحكم على مطبقيه وليس على المبدأ، ولا نكون قد جافينا الحق وأهدرنا المنطق.

نعم، فالإسلام، بالتعبير القرآني، شرعة ومنهاج، أما الحضارة التي تنتسب إليه فهي التي تكون تجسيداً لشريعته ومنهاجه في الحياة. وخير مثال لها حضارة المسلمين في صدر الإسلام، وفي كل وقت تمكنت فيه عقيدة التوحيد من نفوس المسلمين، بكل ما لها من أبعاد وآثار في دائرة حياة الفرد ومحيط المجتمع وكيان الدولة، وليس من هذا القبيل حضارة المسلمين، الذين تزعزعت في نفوسهم أركان العقيدة، واضطرب بهم منهجهم في الحياة، فاختل ميزانها وانحرف مسارها. وما أكثر ما شاهدنا صوراً منها في الماضي الذي تخلفنا فيه عن ركب التقدم لقرون خلت، وفي الحاضر الذي تعيشه أكثر بلدان عالمنا الإسلامي المعاصر، حيث ترى مجتمعات من المسلمين لا مجتمعات إسلامية حقة، وفارق كبير بين هذه وتلك. على أن المسلمين في جملتهم يريدون تطبيق الإسلام في واقع حياتهم، ولم تتح لهم فرصة تطبيقية، وسنعود إلى بيان أوفى في الموضوع، في موضع آخر من البحث.

فالإسلام إذن بشريعته ومناهجه في الحياة ومبادئه وأصوله وقيمه.. نور يهتدى به، وأما الحضارة فمضمون واقع، أو هو روح من أمر الله. ولو

شبهنا الحضارة بكائن حي تام له روح وجسد، فإن روح الحضارة الإسلامية يتمثل في عقيدة التوحيد، وأما جسدها فثمرات أعمال المسلمين في عمارتهم للأرض وخلافتهم عن الله فيها، من أجل إعلاء كلمته وخير بني الإنسان في الدنيا والآخرة على السواء.

وأجمل هنا مرجع المغالطة فيما يلي :

(أ) رؤية غير المسلمين للإسلام في مرآة فهمهم لدينهم أو كفرهم بالدين.

فالغرب اليوم علماني المذهب، قد تنحى الدين فيه عن حياته منذ عصر النهضة الأوربية، ولم يعد يبقى له من مسيحيته الأولى إلى مظاهر كنسية لا توجه حياته ولا تحكم مساره ولا تؤثر في وجدانه. انفصل عنه منذ وقفت الكنيسة موقفاً عدائياً من العلم والعلماء، وعجزت عن أن تقدم له نظاماً للحياة، فتولى ذلك بنفسه. واستبدل بالدين، الذي أيأسه أن يجد فيه حلا لمشاكله، الآلة والعلم والتقنية المتطورة التي صنعت له هذه الحضارة المادية المعاصرة على حساب الجانب الروحي فيه، فأذهلته عن حقيقة وجوده، وصدق الله العظيم إذ يقول في كتابه فيهم : « نسوا الله فأنساهم أنفسهم »[1].

وبعملية إسقاط فكري، نظروا إلى الإسلام من خلال فلسفاتهم المتهافتة، التي اصطنعوها بديلاً عن الدين، الذي خذلهم في مسيرة التطور والحياة، فظهرت فلسفة المذهب الوضعي في القرن التاسع عشر، ونظرية التطور لدارون، والماركسية الملحدة، والبراجمية الأمريكية، والوجودية، فما زادته هذه الفلسفات والنظريات إلا خبالاً.

ولئن كان للغرب المسيحي عذره في علمانيته، وانصرافه عن الدين وانقياده للمادة وحدها، وفصله الدين عن الحياة وعن الدولة، وعجز دينه عن الوفاء بحاجته في مسيرة حياته، وإحراز تقدمه، فإن الأمر يصبح على النقيض تماماً بالنسبة للمسلمين في نظرتهم لدينهم الذي ارتضاه الله لهم، وأتم

(١) سورة الحشر آية ١٩.

عليهم به نعمته حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

ومع ذلك، فقد رأينا علمانية الغرب تتفشى للأسف في أواخر القرن التاسع عشر في بعض البلاد الإسلامية، وتصطبغ بها مناهج التعليم في مدارسهم، وتظهر على أقلام بعض كتابها من دعاة المدنية الغربية من المتفرنجين، متخذين من انقلاب مصطفى كمال في تركيا مثلاً يحتذى لاطراح أسباب التخلف وبلوغ ما بلغت أوربا من ترقي مدني. وتابعوه في فكرة فصل الدين عن الدولة وتأليه الحضارة الغربية أو الانحياز إلى الماركسية الملحدة، التي أهدرت قيمة الإنسان واعتناق المادية الجدلية التي تنكر وجود الله.

ب) كما ترجع هذه المغالطة إلى جمود علماء المسلمين.. الذي أدى إلى وقف الاجتهاد، خلافاً لما دعا إليه أئمة المجتهدين في الإسلام أنفسهم، ولما هو من مقتضى أصول الإسلام ومبادئه التي تحث على الاجتهاد وتحقيق مصالح الأمة في إطار الشرع والتي اتسمت بالمرونة والثبات معاً.

وهذا الجمود الفقهي يحمل في طياته مكمن الخطر على الملة والأمة، ويتحمل هذه المسئولية علماء الأمة ومفكروها، وإن العالم الإسلامي المعاصر أحوج ما يكون إلى أمثال ابن تيمية الذي أحيا الكتاب والسنة، وبعث في الأمة الإسلامية دفعة روحية وإصلاحية لم يتوقف عطاؤها حتى زماننا هذا، حتى نجد لمشاكل عصرنا وأقضيته المستحدثة حلولاً إسلامية، كما وجدنا حلا جزئياً لبعضها في إنشاء البنوك الإسلامية وتخليص العالم الإسلامي من ربا العصر الذي خالط اقتصاده من الألف إلى الياء، وفرضه علينا وكأنه نظام لا بديل له ولا معدى عنه. وعندما أقول مع القائلين بضرورة فتح باب الاجتهاد، أقول به بشروطه الشرعية، حتى يحقق النفع المقصود ولا ينجم عنه الضرر المردود. فنحن نعيش في زمان غير الذي عاش فيه أسلافنا، ولكل زمان مشاكله، وهي سنة التطور في الحياة التي لا تتوقف.

جـ) كما يرجع هذا الخلط في أفهام الناس عن الإسلام وتحميله أوزار تخلف المسلمين إلى عدم الأخذ بأسباب التقدم الحضاري. فنحن

الآن في عصر التفوق العلمي المذهل الذي سبقنا فيه بمسافات واسعة، مخالفين في ذلك روح الإسلام ونصوصه التي تحث كلها على العلم والتعلم والتحضر، وإن الأمل في تخطي هذه المسافات التي لا تتوقف عن الاتساع معقود كله على شبابنا المسلم المعاصر، المدعو من دينه وأمته المنطلقة إلى النهوض من كبوتها، كي تلحق بركب العلم المتقدم، أن يأخذ في غده القريب بزمام القيادة فيه لخير الإنسانية عامة، وخير الأمة الإسلامية على وجه الخصوص.

وليس ذلك بالأمر السهل في واقعنا المتخلف، الذي يسمح بهجرة العقول الفذة والخبرات النادرة إلى خارج حدوده تحت إغراء عوامل مختلفة، يرجع بعضها إلى هذا الواقع وبعضها الآخر إلى تخطيط مقصود من الغرب. ولكنه يكون مع ذلك ممكناً إذا تحصن علماء الأمة من الشباب بغيرتهم على الإسلام وتضحيتهم من أجل ازدهاره ورقي أمته.

ولا يقتصر أخذنا بأسباب الحضارة على هذا المجال، ولكنه يتناول كل مقومات الحياة العصرية التي يلعب المال والاقتصاد والتصنيع فيها دوراً أساسياً تستكمل به الدولة ضرورات حياتها وتحصين وجودها من الأعداء. لا بد لنا أن نعمل بكل ما نملك من أسباب القوة على أن نتحول من شعوب مستهلكة لحضارة الغرب إلى موردة لحضارة، متميزة على نحو من السمو لا تعرفه تلك الحضارة.

إن أخذ المسلمين بأسباب التقدم الحضاري وإحرازهم نجاحاً فيه، هو في نظري الضمان الوحيد لقوة المسلمين، ولإنقاذ إنسان العصر من خطر الإبادة الذي تكمن بذوره في حضارة الغرب رغم بهرها الظاهري، وهي تدفع بالبشرية إلى أتون حرب عالمية مدمرة ثالثة وهي تدري أو لا تدري.

ثالثاً : خطأ ربط مفهوم الحضارة في أذهان بعض المسلمين المعاصرين، كباراً وصغاراً، بإنجازاتها « الشيئية »، بصرف النظر عن القيم والمبادئ الخلقية :

لا جدال في أن القرن العشرين قد صاحبته في تاريخ الحضارة الإنسانية تغيرات جذرية وأحداث كبرى في المجال العلمي والصناعي

والحضاري، خصوصاً ما بين الحربين العالميتين الأخيرتين وما بعدهما، وأن الغرب قد بلغ من التفوق المادي حداً وضع قيادة العالم في يده إلى حد بعيد وربط به مصير البشرية وشكل المناخ الذي يسود العالم المتحضر من شرقه إلى غربه.

ولكن مما لا جدال فيه أيضاً، أن هذا التفوق العلمي والحضاري الذي يتمثل في الحضارة الغربية المعاصرة اقتصر على الجانب المادي في الحياة، بل لعل تفوقه كان على حساب ضمور القيم الأخلاقية والمبادئ الإنسانية، فأورثها ظاهرة الفوضى والقلق، لمناقضة هذا الوضع لفطرة الإنسان التي لا تقبل بتجاهل نزوعها الفطري إلى الاستقرار المعنوي والأمن الداخلي، ولمناقضته كذلك لسنن الله في الكون والحياة التي تقوم على فكرة التوحيد والتوازن بين عقل الإنسان ونفسه والمادة التي يستخدمها في صنع حياته وحضارته، وهي الأساس الذي لا بديل له لتأمين حياة الإنسان في الأرض. لقد حاول العالم الغربي المتحضر أن يقدم لإنسانه بدائل عن حاجة الفطرة الإنسانية إلى عبادة خالقها، والاهتداء إلى سر الحياة والحقيقة، ورسالته في هذا الوجود، ولكن كل هذه المحاولات التعويضية، سواء من الناحية الفكرية أو المادية، لم تنجح في تحقيق هدفها، وسببت بذلك قلقاً في الأرواح، وحيرة في النفوس، وبلبلة في العقول، وأوقعت إنسانها، رغم ما أغرقته فيه حضارته من تقدم مادي، في شعور بخيبة أمل نحوها، حين اكتشف أن « الأشياء » التي أسرفت الحضارة في عطائها إياه لا تعنى سد جوع الفطرة فيه إلى غذاء الروح والنفس من روح الحقيقة وعطاء التوحيد.

وحضارة الإنسان ترتبط بمثالياته في الحياة ووجهة نظره فيها، وبذلك ترتبط الحضارة « بالشيئية » حين تكون مثالياتها ووجهة نظر الإنسان فيها مادية، وحينئذ تصبح القيم المعنوية تابعة للتمتع المادي وحده، دون اعتبار للقيم والمبادئ الخلقية في ذاتها المطلقة.

والقاعدة مطردة بالنسبة للإسلام، حيث ارتبطت كذلك حضارته بمثالياته في الحياة ووجهة نظره فيها. فلم يرتبط مفهوم « الحضارة » عنده « بالشيئية »، وإن عني بها وحث على اكتشاف واستخدام كل ما هو نافع

وميسر للإنسان في حياته، وإنما ارتبط أساساً بالقيم الإيمانية والمحتوى الإنساني، أي بروح الحضارة وجوهرها، ومن ثم ارتبط العطاء الحضاري في الإسلام، ليس فقط بالتفوق المادي والعلمي، ولكن وبالدرجة الأولى، بما يحقق للإنسان طمأنينة قلبه، وأمن نفسه، ويكفل هذا التوازن والتناسق، في كل أمر حياته، اللذين يحملان معهما للإنسان معنى السعادة والإحساس بها في أعلى درجاتها وأصدق صورها.

وهذه نقطة خلاف جوهرية بين المفهوم الغربي والإسلامي للحضارة، وتظهر أهمية هذا الخلاف في عمق ومدى ما يترتب عليه من نتائج فكرية وآثار علمية في حياة الأمة الإسلامية، وبصفة خاصة حياة الأجيال الجديدة، حين يكون علينا أن نعيش عصرنا، دون أن ننزلق إلى اعتناق هذا المفهوم المادي للحضارة الذي دان به الغرب، وفرضه على إنسان العصر من موقعه الحضاري المتفوق، ويكون علينا في الوقت نفسه أن نحتفظ بأصالتنا وبمنهج الإسلام في الحياة، ولو لم يكن لمنهج الحياة أهميته الأساسية في تحديد نوعيتها وضمان سلامتها لما ألحقه الله بالشرعة التي امتن بها على عباده في قوله تعالى : « لكلٍّ جعلنا منكم شِرْعَةً ومنهاجاً »[1].

---

(١) سورة المائدة آية ٤٨.

الباب الثاني

نظرة مقارنة للحضارة الإسلامية وغيرها

من الحضارات الكبرى بصفة عامة والحضارة الغربية المعاصرة بصفة خاصة

(أ) من حيث المفهوم العلمي لمصطلح « الحضارة » وصلته بمصطلحي « المدنية » و « الثقافة » :

لن أتوغل في تقصي التعريفات العلمية لمدلول هذه المصطلحات الشائعة الاستخدام في عصرنا على ألسنة المؤرخين وعلماء الأجناس والاجتماع، وفي تطورها خلال القرون الثلاثة الأخيرة الذي ارتبطت بفلسفات الغرب والشرق واختلاف النظرة إلى الإنسان والحياة والتاريخ.

ولمن شاء، أن يرجع في ذلك إلى « دائرة المعارف البريطانية والأمريكية »، ففيهما استعراض علمي واسع لهذه التعريفات المختلفة، والتطور الذي لحقها، والمدارس الفكرية والأزمنة التي ارتبطت بها وصدرت عنها، والغموض الذي اتسمت، به والتداخل فيها بينها.

فمن هذه التعريفات ما لم يفرق بين مفهومي، « الحضارة » و « الثقافة »، وتناولهما في إطار علم الأعراق البشرية، وذهب إلى أنهما يفيدان : هذا الكل المتشابك الذي يتضمن المعرفة والمعتقد، والفن والأخلاقيات، والقانون والعادة، وأية مقدرات وعادات أخرى اكتسبها الإنسان كعضو في مجتمع.

ومن أصحاب التعريفات من قال « باقتصار مدلولهما على شعب بعينه أو مجموعة بشرية ما ».

وقد تعرضت الدائرتان، البريطانية والأمريكية، إلى نظرة « الدورة التاريخية » والاهتمام الذي نالته خلال الفترة ما بين سنتي ١٩٢٠، ١٩٥٠، « حول دورة الحياة بالنسبة للحضارات وكيفية نشأتها ».

وقد ورد في دائرة المعارف البريطانية، في معرض كلامها عن هذه النظرية، ما رأيت الفائدة في نقله لصلته بالموضوع الأساسي محل البحث : « رجلان هما الفيلسوف الألماني « أوزوالد شبنجلر » (١٨٨٠ – ١٩٣٦)، والمؤرخ الانجليزي « أرنولد توينبي » (١٨٨٩ – ١٩٧٥)، معروفان باهتمامهما بالأفكار التي تحاول تفسير قيام وسقوط الحضارات، وبمقارنة حضارات العصور القديمة بسليلتها الحضارة الغربية المعاصرة. أعلن شبنجلر بأنه يستطيع أن يتبين الملامح الرئيسية لدورة الحياة، (مولد، وصبا، ونضج، وشيخوخة وموت)، التي تمر بها كل الحضارات. ومن وجهة نظره أن الحضارة الغربية تمر بمرحلة الشيخوخة، لأن الغرب كما يعتقد قد تجاوز بالفعل مرحلة النضج المبدعة في الثقافة من خلال مرحلة التفكير والرفاهية المادية، ولا يمكن أن تكون المرحلة المستقبلة إلا مرحلة انحدار، ولا سبيل إلى تغيير هذا المسار، لأن الحضارات كالكائنات العضوية، وأن تجديد الشباب بحق ضرب من المحال بالنسبة لها جميعاً.

وأما عند « توينبي »، فإن انحدار الحضارة ونزولها هي عملية إنهاك، ولكنه كان أقل اهتماماً بعوامل السقوط منه بالنسبة لعوامل قيامها، وهي عنده لا ترجع إلى مثل عوامل التفوق الجنسي في الصفات، أو البيئة الجغرافية، ولكنها بالدرجة الأولى إرادة التحدي في موقف خاص الصعوبة، يدفع من

يواجهونه إلى بذل جهد غير مسبوق. ويستند في تفسيره إلى قيام الحضارات على النظرية التي تقول « بأن الصعاب هي التي تحث الناس على تحقيق الإنجازات الحضارية بأكثر مما تفعله الظروف السهلة ».

وتكلمت دائرة المعارف الأمريكية في نفس الموضوع عن « اكتشاف المؤرخ الإسلامي « ابن خلدون » لنظرية مختلفة عن دورة الحياة الحضارية، حيث استخلص من التاريخ نمطاً من « الغزو القادم من الصحراء، الذي ظهر بعده فساد الحكام نتيجة للترف، وبعد ثلاثة أجيال، هيأ الفساد لغزو جديد من الصحراء، ليبدأ الدورة من جديد ». واتبعت الدائرة الأمريكية تناولها لتنبؤات شبنجلر وتوينبي - التي ذكرت في دائرة المعارف البريطانية فيما أوردته من نظرية دورة الحياة التاريخية للحضارات - عقب المصائب التي أنزلتها الحربان العالميتان الأولى والثانية، والتي شدت انتباهاً واسعاً إلى الفكرة المنذرة بانحدار وسقوط الحضارة الغربية الحتميين.

ومن بين التعريفات التي أوردتها الدائرتان، ما ربطت الحضارة بأهم الكشوف العلمية التي تمخض عنها القرنان الأخيران، وباستخدام الوسائل المتقدمة في الحياة الإنسانية، ومنها ما ذهب إلى أن اصطلاح الحضارة ينطبق فقط على المجتمعات الأكثر عدداً وتعقداً، والأكثر سيطرة على البيئة والطبيعة، من غيرها من المجتمعات الأدنى، ومنها ما نظر إلى الحضارة الإنسانية ككل، وعلى أنها مرحلة بلغها الإنسان بعد مراحل مختلفة، مر بها عبر التاريخ، نقلته إلى الرقي باكتشاف الآلة، والطباعة والصناعة التي ميزت حضارة النوع الإنساني، ومنها ما قصر مفهومها على الزمن والشعب الذي قامت فيه، وبذلك اختص كل شعب بحضارته التي تنسب إليه، حتى لو تعاصرت في أزمانها مع حضارات أخرى.

ويمكن أن تعرف « الحضارة » : بأنها حصيلة ديناميكية للجهد الدائب لمجتمع بشري، لبناء مستقبل أفضل يحقق ما ينشده ذلك المجتمع من مثل أعلى.

وأما « الثقافة »، فهي حصيلة المعرفة التي يتلقاها فرد أو شعب في مجتمع معين له بيئته، وتصح المعرفة عند انطباقها على العلم، والعلم « معرفة

الحق بدليله »، وهي إحدى عوامل الحضارة، وركائز هيكلها، ومؤشرات هويتها.

ب) بيان أهم أوجه الخلاف بين الحضارة الإسلامية وبين غيرها من الحضارات، وتحديد أهم السمات المميزة للحضارة الإسلامية :

يمكن في معادلة بسيطة أن نوضح الفارق الجوهري بين الحضارة الإسلامية وغيرها من الحضارات المعاصرة، وتمثلها الحضارة الغربية على النحو الآتي :

إنسان + طبيعة (مادة) + ايمان = حضارة إسلامية.

إنسان + طبيعة (مادة) = انتاج مادي أي حضارة غربية معاصرة.

كما يمكن توضيح الفارق بين إنسانيتهما على النحو التالي :

إنسان يعيش لفكرة علوية (عبادة الله) = مسلم : الله غايته.

إنسان يعيش لفكرة ذاتية = غربي : الرفاهية المادية والاستمتاع الدنيوي غايته.

وقد رأيت أن أتناول هذا البحث في مجموعة من العناصر، تحدد في جملتها الغاية من الشرعة أو المثالية الإسلامية، والنظم الحياتية التي تستمد من تلك المثالية وتصب فيها، كما تحدد أبعاد الاختلاف بين الواقع الحضاري الذي نعيشه، وبين الصورة التي نرجوها في مستقبلنا الحضاري الإسلامي :

١ ـ خلاف مبدئي يتعلق بالأساس الذي تقوم عليه الحضارة :

تقوم الحضارة الإسلامية على أساس من « الكتاب » و « السنة »، وما اشتملا عليه من قيم ومبادىء كلية وأحكام وعبادات مفروضة، تصدر جميعاً عن مركز الدائرة في الإسلام، وهي عقيدة التوحيد وفكرته، التي سما بها الإسلام إلى أعلى درجة عرفتها الأديان السابقة، وجعلها محور كل شيء في حياة الفرد المسلم والأمة الإسلامية، وسر الجدة والقوة في بناء حضارته ومصدر تعاليمه، والأصل الذي تميزت به خصائصه، ومنطلق مختلف الأنظمة الحياتية التي تسود حياة أمته، سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية أو

جمالية، تكون عناصر الحضارة التي تستمد كل جذورها من عقيدة التوحيد هذه.

إن عقيدة التوحيد التي حررت الإنسان من عبودية غير الله، رفعته إلى أعلى مكانة بين المخلوقات، وزودته بأكبر قوة دافعة في الحياة، واستحق بها الخلافة عن الله تعالى في عمارة الأرض، وولدت فيه الإرادة الحضارية التي لا تخبو جذوتها في قلبه وإن تعطلت يوماً في واقعه لبعده عن ربه، لسبب أو آخر، وهي دائماً على استعداد للاشتعال والانطلاق من جديد، لتحقق المعجزات في الحياة، وتتخطى كل العقبات التي توضع في سبيلها، مهما بدت في نظر غيره مؤيسه.

ولأن شريعة الله هي سنة الوجود الإنساني، كما أن نواميسه في الكون سنة الوجود المادي، فإنها، بكل ما جاء به من قيم ومبادىء، قانون أزلي لا يلحقه قصور ولا يصيبه تغير، فهي الحق من عند الله. ولأنها الشرعة الباقية إلى يوم الدين، الصالحة للتطبيق العملي في كل زمان ومكان، فقد تميزت بالمرونة في أعمال قواعدها الكلية ومبادئها الأساسية، فيما يجدُّ في حياة الناس من أقضية ومصالح لاستخلاص حكم الشرع فيها، ومن أجل هذا كان « الاجتهاد » من أصول هذه الشريعة ولوازمها، وكان في غَلْقِ بابه تفريطٌ وفتنة.

وإن في الصور الرائعة، التي عرفها تاريخ الإنسان والحضارات عن الحضارة الإسلامية التي قامت في عصوره الزاهرة، لخير دليل واقعي على أن الإسلام دين حضارة متميزة العطاء الإنساني، ترحب به كل فطرة سوية، ويقتنع به كل عقل سليم.

وأنا ممن يرون توجيه العناية إلى الكشف عن حقيقة الإسلام وخصائصه وأصوله أكثر من توجيهها إلى المقارنة بالحضارات الأخرى المعاصرة، لما يبدو من أن حضارة الغرب واقع يسود العالم الآن، وليست هناك بعد حضارة إسلامية تزاحمها، فإذا كانت هناك مقارنة، فثمة من يقول بفارق في القياس، ينسحب على الزمن والبيئة ولا يرى غناء في التغني بأمجاد الماضي.

ولكن واقع الحضارة المادية المعاصرة، بشقيها الرأسمالي والشيوعي، يقطع باعتراف أصحابها أن جوهرها مادي في لحمتها وسداها، ومثالياتها مادية تعبدت العلم والمادة من دون الله، مصادمة بذلك فطرة الإنسان التي فطره الله عليها، ومخالفة لقانون الله وسنته في الحياة، فحملت بذلك بذور نهايتها، وورّثت إنسانها القلق والحيرة، وأسلمته إلى ظاهرة الهروب من واقعه بشتى الوسائل التي أتاحتها له، سواء بمعاقرة الخمور، أو الارتماء في أحضان المتعة ولهو الحياة، أو تعاطي المخدرات، أو بوسيلته الأخرى التي يملكها في لحظات اليأس من الحياة التي يحياها. فازداد عدد الذين يقدمون على جريمة الانتحار من أبناء هذه الحضارة وضحاياها، بصورة فردية أو جماعية.

إن عبادة المال في الغرب جلبت معها الاستغلال والاحتكار، وأفرغت الحرية الفردية من مضمونها، ونشرت الانحلال الخلقي، وفساد الذمم في المعاملات، وأهدرت كرامة الإنسان وقدسية روابط الأسرة، وقوضت أركان السلطة الخلقية في العالم الحديث.

إننا عندما نذكر هذه السلبيات في حضارة الغرب لا نجاوز الحقيقة الواقعة، ولا ننكر ما أحرزته من نجاح في مجال التقدم العلمي والتقني، وما قدمته للإنسانية من خدمات في مجالات أخرى تتصل بالعمران، والوقاية والعلاج من كثير من الأمراض والحالات المستعصية منها، وأنظمة التعليم المتطورة وطوفان المعلومات، والتصدي لأزمتي الطاقة والغذاء، وغير ذلك مما يدور في إطار الإشباع المادي ومجتمع الوفرة، ولا يجاوزه إلى الجانب الروحي في الإنسان. ونحن بذلك لا نقف منها موقف التجني، وإنما ننعي عليها جوانب النقص في كيانها، بما نعاه مفكروها ومؤرخوها، وأنذروها بسوء العاقبة بسببه.

وفي المعسكر المقابل نجد الشرق الشيوعي بفلسفته المادية التي تنكر الدين وأسسه الماركسية اللينينية في تفسير الحياة، وفي المادية الجدلية، ونظرية الصراع الطبقي، وحتمية التاريخ، ودكتاتورية الطبقة العامة، وتحريم الملكية الخاصة. وقد تعرضت الأسس الماركسية، التي أقام عليها الاتحاد السوفييتي وجوده وحضارته، لكثير من الهزات والتراجع من جراء

فداحة الأضرار التي لحقت بالمجتمع السوفييتى بسببها، حيث أصدرت روسيا عام ١٩٣٦ م **قانوناً يحرم الإجهاض ويقيد الطلاق**، بعد أن كان قانون الأسرة الذي أصدرته حكومة لينين يعترف بالأبناء غير الشرعيين وبحق الزوجين في الطلاق، والذي أدى إلى تفكك الأسرة وانتشار الزنا، كما رجعت عن تحريم الملكية الخاصة، فأباحتها نسبياً، وخففت من قبضتها الحديدية على حرية العبادة وأداء شعائر الأديان، في العقود الأخيرة من هذا القرن، ولا يزال ينتظرها الكثير من التراجع في الأسس تحت تأثير الحضارة الغربية الحديثة من جهة، وعوامل التفكك التي تعاني منها أنظمتها ومجتمعاتها في داخل روسيا وخارجها من جهة أخرى.

والحضارتان المعاصرتان، الغربية والشرقية، تتفقان في الأساس المادي الذي تقومان عليه، وإن اختلفتا في الأنظمة الاقتصادية والاجتماعية، وفي موقفهما من الدين بين التجاهل والإلحاد، وفي موقفهما من الحرية الشخصية بين الإفراط والتفريط.

٢ ـ خلاف في البنية الحضارية والقوة الذاتية :

يتمتع الإسلام بميزات عكستها حضارته، فتميزت هي الأخرى عن الحضارة الغربية المعاصرة وحضارة الشرق الشيوعي. ولقد سبق أن تناولنا بالبيان الدعامات التي تقوم عليها الحضارة الإسلامية، وخصائص هذه الحضارة المتميزة القائمة على التوازن بين الجانب الروحي والجانب المادي، وعلى وحدة الأمة الإسلامية، بحكم عقيدتها في التوحيد، والأخوة في الدين، ولغتها الحضارية الواحدة، فاجتمعت للحضارة الإسلامية بذلك من عناصر القوة الذاتية، والتماسك بين أبنائها ما جعل لها بنية نامية قوية ليست لغيرها، ولذلك نراها في تاريخها الطويل قادرة على التفاعل مع أي حضارة أخرى، وأخذ محاسنها دون فقدان ذاتيتها واتساقها، حتى لتبدو دائماً مدنية قائمة بذاتها، مختلفة عن غيرها، ونرى الإسلام، في عصره الأول، قد ورث أفضل ما في حضارتي الفرس والروم بعد أن أدال الله له منهما، وقضى على عرشيهما، وبنى حضارة جديدة له هي الحضارة الإسلامية المتميزة عن غيرها. ورغم ما تعرضت له حضارة الإسلام من هجمات الصليبيين والتتار والاحتلال الأجنبي

في القرنين الأخيرين، فإنها بحكم بنيتها القوية لم تفقد إرادتها الحضارية وقوتها الذاتية، فسرعان ما كانت تنهض من كبوتها، وتلم شتاتها، وتستعيد مكانتها ولو بعد حين، وترد للإسلام اعتباره.

ولو أن حضارة أخرى منيت بما تعرض له الإسلام وحضارته، التي اتسعت رقعتها في عصور الازدهار ما بين المحيطين الأطلسي الهادي، من هجمات الأعداء وتآمرهم، لانتهى أمرها ودرست كغيرها. ولكن الأمر مع الإسلام وحضارته يختلف، حيث تستمد هذه الحضارة، ذات البنية الديناميكية القوية، قوتها وجذورها من الإسلام الذي يمد أتباعه بأسباب القوة والحياة، ويسكب من روحه في أرواح المؤمنين ونفوسهم سر البقاء، فيتحقق دائماً قوله تعالى : « والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون »[1].
نعم ، ثمة ظاهرتان تفرد الإسلام بهما كما تميزت بهما حضارته، لازال الغرب حائراً في تفسيرهما، حيث لا نظير لهما في تاريخ الأديان الكبرى، ألا وهما :

أ) ظاهـرة الانتشار السريـع :

لم تمض مائة عام على وفاة النبي ﷺ حتى امتدت فتوحات الإسلام غرباً إلى أسبانيا، وشرقاً إلى أن عبروا نهر السند، وما لبث المسلمون أن وجدوا أنفسهم قادة على امبراطورية أعظم من امبراطورية الفرس والروم، في أوج قوتهما، وقد انتصروا عليهما وقوضوا سلطانهما.

ورغم الفترة الزمنية التي تضعضعت فيها قوة الإسلام السياسية، ظلت غزواته الروحية مستمرة دون انقطاع، وتزايد عدد المسلمين، وتجاوز أبعاداً شاسعة من العالم.

وعن قوة الإسلام، التي تتمثل في قدرته على اجتذاب الناس إليه من الوثنيين وأهل الأديان الأخرى، يقول « توماس أرنولد » في كتابه « الدعوة إلى الإسلام » : « فهنالك حالتان تاريخيتان كبريان، وطيء فيهما الكفار من المتبربرين بأقدامهم أعناق أتباع الرسول، أولئك هم الأتراك السلاجقة في

---

(١) سورة يوسف آية ٢١.

القرن الحادي عشر الميلادي، والمغول في القرن الثالث عشر، وفي كلتا هاتين الحالتين نرى الفاتحين يعتنقون ديانة المغلوبين... وقد حمل دعاة المسلمين، الذي كانوا خلواً كذلك من أي مظهر من مظاهر السلطان الزمني، عقيدتهم إلى أفريقيا الوسطى والصين، وجزائر الهند الشرقية وتمتد العقيدة الإسلامية اليوم من مراكش إلى زنجبار، ومن سيراليون إلى سيبيريا والصين، ومن البوسنة إلى غينيا الجديدة.

وذهب بعض الكتّاب المسيحيين إلى إرجاع سرعة انتشار الإسلام إلى استخدام المسلمين السيف والنار في نشر دعوتهم، وهو ما يكذبه التاريخ، ولا يوافق تعاليم الإسلام التي تأبى الإكراه في الدين، وقد كذبه بعضهم ممن هم أكثر إنصافاً للحقيقة، فنجد، « جورج سيل » يقول منذ قرنين : « إنه لن يتحرى الأسباب التي من أجلها صادفت شريعة محمد ترحيباً لا مثيل له في العالم، لأن هؤلاء الذين يتخيلون أنها قد انتشرت بحد السيف وحده إنما ينخدعون انخداعاً كبيراً » .

ب) ظاهرة الصمود في مواجهة عوامل الانحلال :

إن جوهر هذه الظاهرة وسابقتها واحد، فالذي تأدى بالإسلام أن يشق طريقة خارج الجزيرة العربية التي نزل فيها القرآن، فهزم في أقل من عشر سنوات الفرس والروم، وا ستولى على السواد والشام وفارس ومصر، هو ذاته الذي تأدى به أن يصمد في وجه أعتى الغزوات التي شنها عليه أعداؤه، وأن يقاوم عوامل الضعف والانقسام التي تسللت إلى أمته، لأكثر من ستة قرون خلت، دون أن ينهار بناؤها الاجتماعي الذي استمد أساسه الأول من الإسلام، رغم ما لحقه من آثار نالت من قوته وسلطانه وتميز مجتمعاته.

ذلك الجوهر الذي حير المؤرخين أمره، لأنهم نقبوا عنه من خلال مذهبهم المادي في الحياة والتاريخ، هو هذه القوة الروحية الهائلة التي تكمن في بذرة عقيدة التوحيد، حية في ضمير كل مسلم، مستعدة دائماً أن تفجر في الأمة الإسلامية إرادة الحياة الحرة الكريمة، كما كانت في صدر الإسلام، وأن تواجه أعداءها، مهما تفوقت أسلحتهم، بطوفان الحق وسيل المجاهدين في سبيل الله، الذين يحرصون على الموت أكثر من حرص

أعدائهم عل الحياة.

وما هذا اللقاء الذي نحضره اليوم، ونظائره، من علامات البعث الراهن، إلا إرهاصات الفجر الجديد الذي طلع على الأمة الإسلامية، على موعد من إفلاس حضارة الإنسان المعاصر، وتطلع البشرية إلى من ينقذها من حمأة ضياعها الروحي، وترديها في أوحال المادية، وتعرضها للدمار على أيدي سدنة الحضارة الغربية، المارقين عن أمر الله، الغارقين في طوفان ماديات الحياة، ودوامة المطامع والأهواء.

٣ ـ خلاف في نوعية الحياة الاجتماعية التي تكفلها الحضارة الإسلامية وتلك المتاحة في غيرها :

لأن الإسلام بطبيعته دين حضارة ودولة، فقد اتخذ لنفسه منهجاً سوياً يوصله إلى ما يريد. فبدأ بإعداد الفرد المسلم وتربيته تربية إسلامية رشيدة، باعتباره اللبنة الأولى في بناء صرح المجتمع الإسلامي السليم، وعلى أساس سلامة الفرد والمجتمع أقام دولته.

ولما كانت نوعية أي مجتمع تتحدد بنوعية أفراده، فلا معدى عن إيراد لمحة عن الكيفية التي اتبعها الإسلام في إعداد أفراد مجتمعه.

لقد عمل الإسلام على العناية بتكوين الفرد المسلم، سواء من الناحية الشخصية الفردية أو الشخصية العامة، ليتحمل المسئوليتين فيهما نحو نفسه ومجتمعه، فعمد إلى تربية ضميره الديني، بما للعقيدة والعبادة من أثر في ذلك وحصوله على حقوقه المشروعة في حفظ الدين والنفس والنسل والمال والعقل، ليتحقق له الأمن والاستقرار، اللذان يوفران له مناخاً صالحاً للإنتاج وأداء واجباته في الحياة وكذلك الأمر بالنسبة لحقه في المساواة بغيره من أفراد الأمة الإسلامية، التي لا اعتبار فيها للجنس أو اللون أو السلطة، التي تمتد لتشمل غير المسلمين في الدولة المسلمة، لهم ما لنا وعليهم ما علينا، وتركهم وما يدينون به، وتأمين حرية الفرد في التفكير والتعبير والتملك، وغير ذلك من حريات، كفلها الإسلام للمسلمين وغير المسلمين في دولته، وقد جعلها مقيدة، حتى لا تؤدي إلى الاعتداء على حقوق الغير، بقيود داخلية من الضمير والإحساس بالمسئولية، وخارجية بسلطان الشرع.

وإن عناية الإسلام بإعداد الفرد المسلم، وتربيته تربية إسلامية متكاملة الجوانب على أساس أنها تبدأ من داخل النفس لا من خارجها، ليلفت انتباهنا إلى أهمية اتباع هذا المنهج الإسلامي في تنشئة الأجيال الجديدة، وتوجيه أقصى العناية، من جانب المعنيين على كل المستويات، بذلك الواجب الديني والحضاري، الذي يعتبر المعبر الوحيد لبناء صرح المجتمع الإسلامي وإقامة الدولة الإسلامية.

ولا شك أن نقطة الانطلاق في تكوين الفرد المسلم تكمن في ترسيخ العقيدة في نفسه، وفي تبصرته بدينه، وفي تعويده الحرص على أداء العبادات على وجهها، لما في هذه الركائز من عظيم الأثر في تربية الفضائل الإسلامية، وغرس القيم الدينية في وجدانه وحسه.

واتجهت عناية الإسلام إلى الأسرة، فهي نواة المجتمع، وما أكثر ما ورد من نصوص قرآنية وأحاديث نبوية صحيحة في شأنها، لا يسمح المقام بتفصيلها، ويكفي أن نشير هنا إلى موازنة الإسلام بين الحقوق والواجبات في نطاقها، فاستقرت العلاقة بين أطرافها، آباء وأبناء، على أساس من المودة والرحمة، وسهل بذلك ترابط الأسر فيما بينها، لتماثل بنائها ومكوناتها وآدابها، كما سهل تعاونها على البر والتقوى، وأداء مسئولياتها نحو المجتمع والدولة.

وبذلك قام المجتمع الإسلامي في أمسنا، كما نسعى ليقوم في يومنا وغدنا، لا تعارض فيه بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة، بل هي مصالح متوازنة. وقد تحققت له وحدته التي أمدته العقيدة بأسبابها، ووثقت العبادات والشعائر روابطه، وجعل من أفراده أمة واحدة هي خير الأمم، فهم متضامنون فيما بينهم في حمل مسئوليات الحياة كما أرادها الإسلام من أمته، متساوون في الحقوق والواجبات، متكافلون، إنسانيون في نزعتهم، أخلاقيون في كل معاملاتهم ومواقفهم.

وكان من كمال الإسلام، وقد صنع هذه النوعية الممتازة من المجتمعات البشرية التي تميزت بما تميز به دينها، أن عمد إلى إقرار مبدأ الرقابة العامة على المجتمع حتى لا يلحقه انحراف ولا يتطرق إليه فساد،

وناط هذه المسئولية بأفراده، على أساس التكليف الشرعي بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما طالبهم برعاية مصالح المجتمع، وذوي الحاجات من أبناء السبيل والمعسرين.

والخلاف بين نوعية المجتمع الإسلامي ونوعية غيره، كالمجتمع الغربي المعاصر، خلاف واضح. ومرة أخرى أذكر، ونحن في مجال المقارنة، بما سبق أن قلته، عما قد يرد على مقارنة واقع الحضارة الغربية المعاصرة ومجتمعاتها الراهنة بواقع إسلامي تاريخي مع فارق الزمن والبيئة، ومع ذلك يوجد في عالمنا الإسلامي نماذج محدودة جداً، تقترب من بعض الوجوه من الصورة التي لا مناص لنا من الرجوع إليها في الماضي، لنشهد الإسلام وتطبيقاته العملية كيف كانت، وكيف يجب أن تكون واقعاً حاضراً مرة أخرى.

ومهما يكن من شيء، حتى لو صرفنا النظر عن المقارنة، تبقى الحقيقة قائمة عندما نقلب النظر في واقع المجتمعات الغربية والمجتمعات الشيوعية المعاصرة.

نراها أولاً قد فشلت في تحقيق التوازن بين مصلحة الفرد ومصلحة المجتمع، ووقعت كلها بين آفتي الإفراط أو التفريط، حيث نرى المجتمع الشيوعي قد قدم مصلحة المجتمع على مصلحة الفرد، فانتهى بها نظامها البوليسي إلى تجريد الفرد من حقوقه، وإلى ديكتاتورية البروليتاريا نظرياً، والطبقة الحاكمة عملياً، وإلى انتشار الفساد والانحلال. في حين نرى المجتمع الغربي، قد غلّب مصلحة الفرد على مصلحة المجتمع فانتهى به الحال إلى طغيان الفرد وإلى الاستغلال، والاحتكار والأثرة، وتمزق روابط الأسرة والمجتمع، وانتشار نفس الفساد والانحلال الذي نراه في المجتمعات الشيوعية، وذلك لأخذ المعسكرين بالمذهب المادي، رغم ما بينهما من اختلافات أيديولوجية.

٤ ـ خلاف في الغاية النهائية التي يستهدفها المسلمون من حضارتهم وتلك التي تستهدفها الحضارات الأخرى بصفة عامة وحضارة الغرب بصفة خاصة :

أفردت هذا الخلاف بإيراده مستقلاً، وإن سبقت الإشارة إليه في ثنايا المعالجات السابقة، لما له من أهمية جوهرية في موضوع البحث، لأن في تحديد الغاية المتوخاة من حضارة ما، فائدة كبرى لا تقتصر على الحكم عليها وتقييمها، ولكنها تساعد على تفسير النوع الذي تختاره من النظم الحياتية وأسلوبها في تحقيق هذه الغاية.

ويحدد الإسلام للفرد المسلم الغاية من الحياة في قوله تعالى : « قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ». فغاية المسلم إذن، في كل أمر معاشه ومعاده، هي « الله جل جلاله »، أي إرادة وجهه وحده وليس سوى ذلك مما يبتغيه الناس عادة من الحياة : من جمع المال وكثرة الولد والتمتع والسلطة وغير ذلك مما عدّه الإسلام متاع الحياة الدنيا. إنها في الإسلام مباحة في حدود شرع الله، ولكن الذي يحذر الله منه عباده، أن تتحول، من كونها وسائل إلى غاية العبد من حياته، فيقع في الشرك. كما نصب الإسلام ميزاناً للتفاضل بين أفراده ومجتمعاته هو « التقوى »، وليس غيرها من أعراض الدنيا التي يتفاضل بها غير المسلمين في الحياة الدنيا، من مال أو جاه أو غير ذلك.

إن الرضى المتبادل بين المسلم وخالقه هو ثمرة هذه الغاية، حيث رضي الله لعباده الإسلام ديناً ورضوا عنه نعمة الإسلام، كما جاء في كتابه الكريم : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً »[1]. وقوله تعالى « رضي الله عنهم ورضوا عنه »[2].

والدولة الإسلامية دولة دعوة، والغاية من تمكينها في الأرض عبادة الله ونشر دعوته، وفي ذلك يقول عزّ من قائل : « الذين إن مكنّاهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، ولله عاقبة الأمور »[3]. وتصدر دولة الإسلام في كل أمرها عن شريعة الله، وسنة رسوله ﷺ، وتحتكم إلى الإسلام في كل ما يعرض لها.

---

(١) سورة المائدة آية ٣.

(٢) سورة البينة آية ٨.

(٣) سورة الحج آية ٤١.

هذه هي الغاية النهائية وما دونها من الغايات بالنسبة للفرد والمجتمع والدولة في الإسلام. غاية ترتفع بالفرد إلى أعلى مقام، وترتفع بالأمة إلى المنزلة التي تجعلها خير أمة أخرجت للناس، وترتفع بالدولة إلى أن تكون منارة الحق في أرض الله.

وهي بعد تفسر ما تكون عليه حال الفرد في الدنيا، ومنهجه في الحياة، وما تتسم به تصرفاته ومعاملته مع الغير، ونظرته إلى الكون والحياة والإنسان، وكذلك الأمر بالنسبة للمجتمع والدولة والمسلمين. إنها تفسر استقامة الفرد على أمر الله، وتفسر وحدة المجتمع الإسلامي وآدابه المرعية، كما تفسر قوة الدولة ونباهة ذكرها وإقامة الحق في أرض الله.

فإذا انتقلنا إلى حضارة الغرب والشرق، وإلى مجتمعاتها، وأفرادها، فماذا نجد ؟.

نجد الغاية المتوخاة هي « الإشباع المادي » عند الفرد، والتطلع إلى تحقيق مجتمع الوفرة بالنسبة لهذه المجتمعات، رأسمالية كانت أم شيوعية، وتحقيق « التفوق العسكري والسياسي » لدى دولها.. وعلى أساس من دخل الفرد تصنف هذه الدول من حيث التقدم والتخلف.

إن « المذهب المادي » الذي يحكم الغرب والشرق، هو الذي اتخذوه أساساً لتفسير الوجود والتاريخ، وعلى أساس هذا التفسير تحددت مناهجهم في الحياة، فقامت مدنياتهم على الأثرة والعدوان، وأصبح سلطان المال هو المحرك للفكر والسياسة والحكم وعلاقات الأفراد، واختل توازن الحياة باستغلال الأغنياء للفقراء، واحتكار رأس المال، وذبلت فكرة الحرية التي كان الغرب قد أقام عليها مجتمعه، في حين أنكرها الشرق الشيوعي أصلاً، واستشرى الفساد في هذه المجتمعات كلها بكل ألوانه وفي كل مجال، بدءاً بالفرد فالمجتمع، وانتهاء بدولها ومن تبعها في الغاية والمنهج من دول أخرى.

إنها أنظمة حياة من صنع الناس والظروف، فلا عجب إذا هي تعرضت للتبديل والتغيير، وهبط فيها معاملا « الصحة والثبات » إلى درجات متفاوتة في الغرب والشرق على السواء.

وعلى النقيض من ذلك شريعة الله، التي تمتاز « بالثبات المرن »، المحكوم بأصولها ومبادئها الكلية وقيمها العليا الثابتة، ثبات يحفظ عليها وعلى.الأمة الإسلامية إستقرارها، ومرونة تجعل شريعة الله صالحة للتطبيق في كل زمان ومكان. وإنها لتحث على النمو المادي في إطار الشرع، ولا يعتبر الإسلام مجتمعه متحضراً إذا هو قصّر في عمارة أرضه وتحقيق النمو المادي فيها، وكانت أمته ذليلة أو فقيرة أو جاهلة أو متخلفة في مجال العلم المتقدم والعمران المتطور. فالإسلام يطالب أمته أن تتسنّم القمة بين سائر الأمم، وتحرز أعلى مراتب الرقي الحضاري، ولا يرضى منها دون ذلك.

الباب الثالث

العقبات والتحديات المعاصرة للأمة الإسلامية

بلغت العقبات والتحديات، التي اعترضت طريق الأمة الإسلامية منذ بداية القرن العشرين، ذروتها في الفترة التي تلت الحرب العالمية الأولى، وانتهت فيها الخلافة الإسلامية، وتقسمت أوروبا تركة الرجل المريض، بسقوط الدولة العثمانية، واحتلت أكثر بلدان العالم العربي. وظلت في تصاعدها إلى أن ضاعت فلسطين العربية، وطرد الصهيونيون أهلها منها. ولا زال تصاعدها لا يتوقف إلى الآن، وعلى الأخص في مواجهة العالم العربي وفي هذه الفترة الحرجة التي يبدو فيها العالم وكأنه بات على أبواب حرب عالمية ثالثة حيث يعيش العالم كله في أزمة ثقة مدمرة، يعاني منها بالدرجة الأولى محور موسكو ـ واشنطون، الذي يمثل مركز الثقل في القوى العالمية المتصارعة، من أجل المطامع الاستراتيجية والاقتصادية، وحيث يشهد العالم متغيرات سياسية سريعة الإيقاع في أنحاء مختلفة فيه، كنتيجة حتمية لمطامع المعسكرين الكبيرين في كسب مناطق نفوذ جديدة كالذي تفعله روسيا، أو الاحتفاظ بمناطق نفوذ تقليدية كالذي تفعله الولايات المتحدة وأحلافها الأوربيون، أو البحث عن بدائل لما فقدته منها، ونتيجة كذلك

للانتفاضات الساخنة من جانب بعض الشعوب الإسلامية في أفريقيا وآسيا، لتصحيح مسارها أو الإبقاء على كيانها واستقلالها، كالذي تم في إيران وباكستان، والذي يجري في الشعب الفلسطيني المشرد، وفي أريتريا وفي لبنان وافغانستان.

إن وراء هذه المصائب والأخطار المحدقة بعالمنا العربي والإسلامي، أعداؤه التقليديون من الاستعمار الغربي والشرقي، والصهيوني، وإن استخدموا في ذلك وسائل تقليدية وغير تقليدية، ومع ذلك يبقى التحدي الأخطر، الذي يواجه العالم العربي والإسلامي، هو ذلك الذي يتهدده من داخله، ممثلاً في تأخره وتفرق كلمته، ونخشى أن نصل في تحديد هذا الخطر إلى القول بأن التحدي الأكبر في هذا المجال هو المسلمون أنفسهم بأوضاعهم الراهنة.

ويمكن تلخيص ما يعاني منه عالمنا العربي والإسلامي، في هذه الفترة، من هذه العقبات والتحديات على الوجه الآتي :

١ ـ تمزق المنطقة العربية وتشتت قواها :

وهذا واقع مشهود، قد بلغ ذروته في الآونة الأخيرة، في وقت هي أشد ما تكون حاجة فيه إلى رأب الصدع، وتعبئة قواها، وتضامن أقطارها، وتوحيد سياساتها واستراتيجياتها، لتواجه ضراوة المخططات العدوانية التي تحاك لها، والتي تعمل متساندة في ذلك الاتجاه. وإن المتغيرات السياسية العالمية التي دعت أمريكا والصين، بعد قطيعة تقليدية طويلة، لطرح خلافاتهما الايديولوجية والاستراتيجية، والدخول في مرحلة جديدة مثيرة من التحالف المفاجىء، يحمل في طيه مؤشرات ذات دلالة بالغة الخطر، والتي كان يجب أن تدعو الأقطار العربية الشقيقة، التي تربطها وشائج الدين واللغة والحضارة والمصلحة المشتركة من باب أولى، إلى نبذ كل أسباب الفرقة، مهما كان نوعها أو مداها، والدخول في مرحلة جديدة أخرى، من اتحاد الكلمة والصف، لدرء الخطر الداهم الذي يبيته لها أعداء الإسلام، وأعداؤها الطامعون في مواقعها الاستراتيجية وثرواتها الغنية، واعتبار ذلك ضرورة حياة للملة والأمة، كما هو ضرورة حياة لكل قطر منها.

وقد حذرنا القرآن الكريم من عواقب الفرقة الوخيمة، كما حذرنا منها رسولنا عليه الصلاة والسلام فقال : « لا تعودوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض ».

وعلى القادة والعلماء أن يتعاونوا في همة عالية، وبحكمة بالغة، لإيجاد مخرج من هذا المأزق الصعب، مهما كلفهم ذلك من تضحية.

وإذا صح العزم وضح السبيل. ولازالت الشعوب العربية المسلمة على ولائها لدينها، الذي طالما شد أزر المخلصين من قادتها في المواقف الصعبة، وعلى حبها لاستقلالها والحفاظ على أرضها، الذي طالما أرخصت في سبيلهما أرواحها إذا حزب الأمر ولم يكن من لقاء الأعداء بد. ولازال الإسلام الذي تدين به شعوبنا قادراً وحده على أن يحقق معجزة التضامن فيما بينها، وعلى بناء الجسر الذي نعبره إلى تماسك صفوفنا.

وإن في القوة التي تتحقق للصف العربي شد أزر للمسلمين الذين يواجهون خطر الاحتلال أو الإبادة في أفريقيا، وشرق آسيا، وجنوبها الغربي، وفي انتصارهم على أعدائهم قوة لنا.

٢ ـ التلوث والانحراف الحضاري في واقع المجتمعات الإسلامية المعاصرة ومسارها :

إن نظرة يلقيها أحدنا على واقع حضارة البلاد العربية والإسلامية، كفيلة بأن تكشف عن مدى بعدها بدرجات متفاوتة ـ وهي درجات عالية جداً في أكثرها ـ عن مقومات الحضارة الإسلامية الأصيلة التي تميّزها عن حضارة الشرق والغرب المعاصرة. فالدول الإسلامية التي تطبق الشريعة في وقتنا الراهن محدودة، وهي مع ذلك لايزال أمامها الكثير لتستكمل الصورة والمضمون في مواجهة طوفان الحضارة الغربية وتيارها السائد في أنحاء العالم، وأما سائر الدول العربية والإسلامية، ومنها للأسف ما يعتنق المذهب الشيوعي، فإن حظها من الحضارة مصطبغ بالعلمانية الغربية، وإن ضم أكثرها شعوباً تواقة للتخلص من هذه العلمانية، وتلك المذاهب السياسية الدخيلة من شيوعية واشتراكية وقومية، ولا تكف عن المطالبة، بكل ما تملك من وسائل، بتحكيم شريعة الإسلام، وهي من ذلك في بلاء مع ولاة أمورها.

ومن ثم فإن حضارات المسلمين الراهنة، تعاني، بأقدار مختلفة، من تسرب المدنية إلى مجتمعاتها منذ أواخر القرن التاسع عشر، لا سيما بعد حركة الانقلاب التي قام بها مصطفى كمال في تركيا، وإنهاء الخلافة الإسلامية، وتحول الاتجاه إلى العلمانية على حساب مبادىء الإسلام وتعاليمه، وما صحب هذا الاتجاه من الأخذ بفكرة فصل الدين عن الدولة، واستلهام الغرب في حركات الإصلاح بدلاً من الرجوع إلى الإسلام في أهدافها ومناهجها. وإن قامت حركات إصلاح ديني كبرى، قاومت هذا التيار، وعملت على إبطال تأثيره، وحققت بذلك انتصاراً على حركات الإصلاح العلماني لا يزال يحتاج منها إلى المزيد من البذل والجهاد حتى يتحقق وعد الله بنصر عباده المؤمنين، وتقوم للإسلام دولته.

ولكن تيار المدنية الغربية الذي ساد العالم، لم يتوقف مع ذلك تسلله إلى العالم العربي والإسلامي، وانتصر له دعاة المدنية الغربية الذين تأثرت أفكارهم بالغرب، لا سيما ونحن نعاني من التخلف، ونحاول بناء حضارة راقية، ونعيش في عصر كُسِرَت فيه حواجز المسافات، وتشابكت فيه المصالح، ولم تعد العزلة ممكنة، وقد كانت الدول التي تطبق الشريعة الإسلامية أكثر تحصناً ضد الآثار التي تحدثها حضارة الغرب في الفكر ومناهج الحياة من غيرها، ولا زالت الصعوبة قائمة في وجه كل دول العالم الإسلامي، في محاولة ربطها بين الأصالة والمعاصرة، والإفادة من علوم الغرب وتقنيته وخبراته المتقدمة، دون تسرب أفكاره ومذاهبه المادية وأمراضه الاجتماعية إلى شعوب تلك الدول النامية.

ويشكل هذا الموقف الصعب تحدياً خطيراً، على المستوى الفكري والحضاري لدى دول عالمنا العربي والإسلامي، وخطره بالنسبة للأجيال الجديدة أشد، ودورها في درء هذا الخطر عن الأمة الإسلامية أساسي ومصيري، وهي بعد أملك لأسباب القوة والتغيير من الأجيال المولية. ومن جميل صنع الله بنا وبشبابنا المسلم المعاصر ما نشهده، لا سيما منذ العقدين الأخيرين، من تفجر تيار إسلامي في أنحاء العالمين العربي والإسلامي، وفي هذا الجيل الجديد من شبابنا بالذات من الجنسين، في أكثر الدول العربية والإسلامية، وفي خارجها، ما يؤذن بإمكان تخطي هذا

الموقف الصعب، وذلك التحدي الذي تقفه منا حضارة الغرب، وإنقاذ عالمنا العربي والإسلامي من التلوث بالمفاهيم المادية والمذاهب العلمانية الوافدة، والفلسفات المستوردة التي تصطدم بشريعتنا، ولا تلائم حضارتنا، والتي أغناها الله بالإسلام عنها.

ولكن الأمر مع ذلك يحتاج إلى الأخذ بيد الشباب المسلم المعاصر في هذا الطريق، كما يحتاج منه إلى تحمل مسئولياته فيه.

وكما على بلدان العالم الإسلامي أن تحمي حدودها من تسلل الخطرين على أمنها، فإن عليها أن تعرف كيف تحمي شبابها من غزو الأفكار الإلحادية والمذاهب الهدامة، والاتجاهات الفكرية والسلوكية المنحرفة، التي لو تركت وشأنها بدون مواجهة جدية مخططة لأفسدت علينا ديننا وحياتنا، وأثرت أسوأ الأثر في معتقدات أبنائنا وسلوكهم، وكانت حجر عثرة في طريق خطط التنمية التي نقيم عليها بناء الغد، ونعلق على نجاحها كبير الآمال.

ومن العجيب أن ظاهرة التلوث الفكري والسلوكي التي صاحبت الحضارة المادية في الغرب والشرق، ونتجت عنها كعادم السيارات والمصانع الذي يصدر عنها ويلوث الجو الذي نتنفسه ـ تجتاح العالم المتمدن، وتنخر كالسوس في هيكل عظامه، وتهدد وجوده وسلامته، وقد نادى بخطره وضرورة التخلص منه مفكرو ومؤرخو الغرب أنفسهم، الذين نددوا بحضارتهم وحذروا من تعرضها للانهيار، من أمثال أرنولد توينبي المؤرخ الانجليزي المعروف، وغيره.

فأي حماقة نرتكبها حين نلهث وراء حضارة هذا شأنها ورأي مفكريها عنها، ونترك أصالتنا الحضارية المتميزة بتوازنها واعتدالها وتكاملها، لا نبحث عن أنفسنا فيها ولا نؤكد بالانتماء إليها وجودنا ونحتل المكانة العليا التي رشحنا الله لها خلافة عنه في الأرض، وانتصاراً لدينه، وإعمالاً لسنته في الكون والحياة.

إن ظاهرة التمزق الفكري والتلوث الحضاري اللذين يعيشهما المسلمون المعاصرون، وهذا التفكك الاجتماعي وغلبة الأنماط السلوكية

الغربية على حياتنا، كل هذه العلل التي اصطلحت علينا جاءتنا من إحساس بتبعية الضعيف للقوي، أفقدتنا الثقة بأنفسنا، وولدت في نفوسنا عقدة الشعور بالنقص حيال الغرب، كما جاءتنا من بُعْدِنا عن مصادر الحياة والقوة التي خولنا الإسلام إياها، ووعدنا الله، عند الأخذ بها، بالنصر على أعدائنا.

إن المسلمين الأوائل، على عهد النبي ﷺ وفي صدر الإسلام، واجهوا دولتين عظيمتين لهما حضارتان قويتان ماديتان، وفي مواجهة هذا التحدي الصعب، لم يركنوا إلى هذه أو تلك لدرء خطرهما عنهم وعن الإسلام، وإنما ركنوا إلى الله وإلى قوتهم الذاتية التي ولدتها العقيدة في نفوسهم، وخططوا للمواجهة، ونجحوا في القضاء عليهما، وورثوا حضارتيهما وأرضهما، وأقاموا صرح حضارتهم الإسلامية المتميزة. وما أشبه موقفنا اليوم من الشرق والغرب بذلك الموقف المنهجي الذي وقفه أسلافنا من دولتي الفرس والروم.

على أن مسئولية المسار تقع على عاتق الأجيال التي بيدها أزمة الأمور، بينما تقع مسئولية التصحيح على الأجيال الجديدة من شباب العالم الإسلامي، فهم غير مسئولين عن مناهج التعليم التي أشربت بالعلمانية الغربية وابتعدت عن معين الإسلام، ولا عن الإعلام واختلاط أمر مادته بين المتناقضات التي تبلبل نفوس شبابنا وعقولهم، ولا عن غير ذلك مما يعج به واقع أكثر المجتمعات الإسلامية من ألوان الانحراف عن الإسلام والتأثر بحضارة الغرب ومناهجه في الحياة.

٣ ـ تغلغل سلطان المعطيات الحضارية « الشيئية » على نفوس أبناء الأمة الإسلامية وعدم تصور إمكانية الحياة في هذا العصر بدونها :

وهذا مكمن خطر جائح، وتحدٍّ جوهري، يواجه الأمة الإسلامية المعاصرة في معركتها الراهنة مع أعدائها، ومحاولتها توكيد ذاتها، وشق طريقها، نحو بناء حضارة إسلامية متميزة تختلف عن الحضارة الغربية، في أصولها ومناهج حياتها وغاياتها، اختلافاً أصيلاً.

لقد نجح أعداؤنا في أن يضعونا في مفترق الطرق بين اختيار التبعية المطلقة لهم، ظاهرة أو مقنعة، واللهث وراء حضارتهم، وبين اختيار المواجهة

الذاتية لمأساة واقعنا المتخلف، بعد أن نجحوا في إغراقنا بكماليات المدنية العصرية المبهرة المتجددة بلا توقف، حتى لم يعد البعض يتصور إمكانية الحياة بدون سياراتهم، وتلفازهم، والكترونياتهم. كما نجحوا عبر سنين الاحتلال العسكري والغزو الفكري والحضاري، في إفقارنا وتحويلنا إلى أسواق رائجة لاستهلاك ما تنتجه مصانعهم بخاماتنا، وربما بأموالنا كذلك، بعد أن تأكد لهم عدم قدرتنا على الاستغناء عن صادراتهم، وتركونا بعد لأنفسنا نمضي في الطريق الذي رسموه لنا إلى النهاية الفاجعة.

واقع أليم ومؤسف حقاً، ونحن فيه يناهز تعدادنا قرابة ألف مليون مسلم، ولكننا نبدو وكأننا غثاء السيل لا خير فيه، وما ذلك إلا لضعف سلطان العقيدة في نفوسنا، وغلبة حب الدنيا علينا، وكراهية الموت، وتفرق جمعنا، وركون إلى أعدائنا، وكأننا عدنا مناذرة وغساسنة يتقسمنا الشرق والغرب، مما تأباه علينا عزة ديننا ووحدة أمتنا.

ولكن الأمل مع ذلك معقود على شبابنا المسلم المعاصر، بنقاء فطرته وقوة شكيمته، وطموح عزيمته، في تحطيم هذه الحلقة الخبيثة التي أحكمت حول رقابنا نحن الأجيال المولية.. ومن كان أقدر على الاستغناء كان أقدر على العطاء والإغناء.. وما لا نطيقه نحن يطيقه جيل من شبابنا المسلم، مؤمن بدينه حق الإيمان، يتغنى بالجهاد في سبيل الله، لا بالأغاني المخنثة التي تطلق الإذاعات سمومها القاتلة دون حساب، ولا يفسد نفوسهم التعلق بجمع المال ومتع الحياة وترفها، وإنما تتوق نفوسهم لنصرة دينهم وإعزاز أمتهم، واستنقاذ مقدساتهم، وهم يصرخون في معارك فاصلة يتأهبون لها : « وإسلاماه ». « هبي ريح الجنة »...

ولا يفهم من ذلك أننا ندعو المسلمين عامة والشباب المسلم خاصة إلى رفض المعطيات الحضارية الحديثة، التي دخلت في كل بيت وفي حياة أكثر الناس، من الآليات المتطورة التي تسهل الحياة اليومية وتوفر الجهد والوقت، فهي من متاع الحياة الدنيا المباح. ولا ندعو الشباب إلى مفارقة العصر والتقوقع على نفسه، ولكن الذي ندعو إليه هو عدم التعلق بها تعلقاً يحولها من كونها أسباباً حياتية إلى أن تكون غاية في ذاتها، نكدح من أجل

توفيرها، أو تكون انغماساً في الترف المادي الذي يرفضه الإسلام، بحيث لا نؤثرها على ما هو أوجب منها، مما قد يطلبه منا موقفٌ نقفه من أعدائنا، يستلزم الاستغناء عن بعض هذه الوسائل المادية أو إنفاق أثمانها في سبيل الله، إن ظل هؤلاء الأعداء على عداوتهم وبغيهم.

الباب الرابع

منهج التغيير، ومعالم الطريق إلى عز الدين

وحضارة الإسلام من جديد

أولاً : حقائق في الموضوع :

١ ـ الحركات الإسلامية المعاصرة :

منذ أكثر من ستة قرون، وبينما كان العالم الإسلامي آنذاك يتعرض لنكبات الغزو التتاري، وعوامل الضعف والتأخر بدأت تفعل فعلها في كيان الأمة الإسلامية، فجر الفقيه المجتهد الثائر « ابن تيمية » المتوفى سنة ٧٢٨ هـ، أول دعوة إصلاحية سلفية لتنقية العقيدة الإسلامية مما شابها من انحرافات وبدع، ورد ضعف المسلمين وتدهور أحوالهم إلى ما أصاب العقيدة الإسلامية الصحيحة من هذه الآفات التي شابتها، ودعا الأمة إلى العودة إلى كتاب الله وسنة رسوله، دفعاً لهذا الفساد وطريقاً إلى الإصلاح.

ومن هذه الشرارة التي أشعلها « ابن تيمية » ولدت الحركات الإصلاحية الدينية الكبرى، وتتابعت بلا توقف حتى يومنا هذا، وسيكون لها

ما بعد ذلك مما ستثبته الأيام، بحول الله وقوته، من تمكين للدين وعزة للمسلمين.

وقد كانت الحركة الإصلاحية السلفية التي جاءت بعدها بأربعة قرون بعثاً لسابقتها، ودفعاً بها إلى نقطة تحول سياسي وجهاد إسلامي في تاريخ الدعوة الإسلامية عبر قرون طويلة من الضعف والاستخذاء على يد إمام الدعوة الوهابية الشيخ محمد بن عبد الوهاب في القرن الثاني عشر الهجري. أقام دعوته على نفس الأصول التي أقام عليها « ابن تيمية » دعوته، فوجه عنايته إلى تنزيه عقيدة التوحيد مما شابها في عصور التأخر من بدع وخرافات، وحرم الترف والتأنق في الملبس والمأكل، وأعلن الحرب على كل مظاهر الفساد في الأمة، وقيض لدعوته فرصة النجاح على يد أشراف آل سعود، فدانت لها الجزيرة العربية بحد السيف، وانقطعت صلتها بالدولة العثمانية، التي لم تلبث أن سقطت في أعقاب الحرب العالمية الأولى، وتحولت على يد مصطفى كمال إلى دولة علمانية.

وقد تأثر بها دعاة الإصلاح الديني في العالم العربي والإسلامي فيما بعد خلال القرنين الأخيرين، وعمت فائدتها في إيقاظ المسلمين بفضل هؤلاء الدعاة الذين يضيق المقام عن ذكر جهودهم ونتائج هذه الجهود، **وإليهم جميعاً، بعون من الله، تعزى أهم أسباب تعاظم قوة الإسلام** والمسلمين في العقود الثلاثة الأخيرة ودخولهم في مرحلة جديدة حاسمة في وقتنا الراهن فكرياً وحضارياً.

وما لقاءات الندوة العالمية للشباب الإسلامي، وجهودها المثابرة في نشر الدعوة وإعداد الأجيال الجديدة لتحمل تبعاتها، في هذه المرحلة التي تستهدف وحدة الأمة الإسلامية تحت راية القرآن والسنة، إلاّ ثمرة من ثمار الشجرة المباركة التي وضع « ابن تيمية » بذرتها، واستنبتها في واقع الحياة خلفه الإمام « محمد بن عبد الوهاب »، ورعاها من تبعهما بإحسان من قادة الإصلاح الديني ودعاة الإسلام في العالمين العربي والإسلامي. وقد شهدتِ الخمسون سنة الأخيرة منْ هؤلاء، من لقى ربه شهيداً في سبيل الدعوة إلى الإسلام والحكم بالقرآن، وقد أسس أوسع حركة إصلاحية دينية

انتشاراً في عالمنا المعاصر.

حقاً، إن العمل الإسلامي المخلص نهر لا يتوقف جريانه، وهو بالغ أمره لقوله تعالى: « ولينصرن الله من ينصره، إن الله لقوي عزيز ».[1]

٢ ـ قاعدة قرآنية: « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »:

إن التغيير الجذري الذي تريده الأمة الإسلامية لنفسها، ويعمل له دعاة الإسلام، ينقلها من حال الضعف والتخلف التي هي عليه من قرون خلت، إلى حال القوة والوحدة والترقي الحضاري، متطلعة إلى تغيير ما بالنفوس والعقول والقلوب في الأفراد من علل الضعف والتأخر، قبل أن يكون في الأوضاع الخارجية التي يراد تغييرها من حال إلى حال آخر. فما لم ننجح في تغيير النفس في الفرد لن نحرز نجاحاً في تغيير الوضع الخارجي. ولذلك كانت مهمة الإسلام الكبرى في العهد النبوي، منصبة على إعداد الفرد المسلم وتربيته على الإسلام، ليكون لبنة صالحة فيما بعد لبناء الأمة والدولة. فالوهن الذي أصاب الأمة في عصور متأخرة، سبقه وهن في داخل نفس الفرد المسلم نجم عنه الوهن في الخارج، فما لم ينصب العلاج على مصدر الداء، لن يجدي الدواء.

وهذه قضية تهم الدعاة وقادة الإصلاح الإسلاميين في توجيه نشاطاتهم ورسم مخططاتهم، وما أحراها أن تكون محل عناية كبيرة في هذا اللقاء، وأن تعالج قضية تغيير الفرد من ناحيتها العملية لا النظرية فحسب.

ولا زال الفرد هو نقطة البدء في إحداث التحولات الحضارية الكبرى في مسيرة التاريخ الإنساني، وقد كان دور الفرد المسلم في تاريخ نشر الدعوة الإسلامية في أرجاء العالم الوثني، وبين سكانه من أهل الأديان الأخرى، في القرون التي تلت نزول القرآن وقيام أمته ودولته، دوراً فذاً لا نظير له في تاريخ الأديان والحضارات، وكان غالباً ما يكون أحدهم تاجراً أو جندياً في دولة ما، أو موظفاً في حكومتها، فإن هؤلاء الأفراد المسلمين في مواقعهم بين الكفار وأهل الديانات الأخرى كانوا دعاة من الطراز الأول، تحول على أيديهم ملوك،

---

(١) سورة الحج آية ٤٠.

وقبائل، وممالك إلى اعتناق الدين الإسلامي، وعملوا بدورهم عل نشر الإسلام في هذه البلاد النائية في حماس لا نظير له.

وفي كتابات المبشرين المسيحيين، الذي أرخوا لتاريخ نشر الدعوة الإسلامية، اعترافات صريحة بأهمية الأعمال التي قام بها التجار المسلمون في الصين والهند والملايو وروسيا وأفريقيا وغيرها، عبر القرون الطويلة التي أعقبت ظهور الإسلام، إنها تسجل حقائق أذهلت العالم المسيحي ومراكز التبشير المسيحي في أوروبا، ولعلهم أرادوا من وراء تسجيلها تنبيه العالم المسيحي إلى خطر انتشار الإسلام في العالم بهذه السرعة المذهلة، وضرورة وضع هذه الحقيقة في الاعتبار عند واضعي المخططات الاستعمارية في الدول الكبرى قبل فوات الأوان.

وهذا « توماس أرنولد »، في كتابه « الدعوة إلى الإسلام »، يقول في معرض حديثه عن أساليب الدعاة في نشر الإسلام : « وإذا ما دخل الداعية المسلم، تاجراً كان أو معلماً أو جندياً أو عاملاً، قرية وثنية، فسرعان ما يلفت النظر بكثرة وضوئه، وانتظام أوقات صلاته، والعبادة التي يبدو فيها كما لو كان يخاطب كائناً خفياً. وإن ما يتحلى به من سمو عقلي وخلقي ليفرض احترامه والثقة به على الأهالي الوثنيين، الذي يبدي لهم في نفس الوقت استعداده ورغبته في مدهم بمزاياه ومعارفه السامية ».

ويقول « بليدن » : « وفي الحق يظهر أن الإسلام لم يعامل الفرد الأسود قط على أنه من طبقة منحطة كما كانت الحال، لسوء الحظ، في كثير من الأحيان في العالم المسيحي ».

ويقول « كراوفورد » عن هؤلاء الذين كانوا دعاة بطبيعة دينهم وأثرهم في تحويل الوثنيين وأهل الأديان الأخرى إلى الإسلام، في كلامه عن انتشار الإسلام في أرخبيل الملايو : « إنهم لم يقدموا على هذه البلاد غزاة كما فعل الأسبان في القرن السادس عشر، بل قدموا في زي التجار، واستخدموا كل ما لديهم من ذكاء أسمى ومدنية أزهر في سبيل نشر دينهم، أكثر من أن يكونوا قد استخدموا ذلك وسيلة لنفوذهم الشخصي أو لتنمية ثرواتهم ». ويقول « مونزلمجر » عن شخصية الفرد المسلم وعلاقته بدينه : « إن

المسلم داعية بطبيعته، وهو يقوم بالدعوة بجهده ولحسابه الخاصين ».

لقد أوردت هذه العبارات التي جاءت على ألسنة مجموعة من مؤرخي ومفكري العالم المسيحي، لما تحمله من دلالة على أهمية دور المسلم في نشر دعوته، والفضل ما شهد به الأعداء، ليدرك الفرد منا أين يقف الآن من أسلافه في أداء هذا الدور الذي ناطه الله بكل مسلم، حيث كنا نرى الداعية في زي تاجر لا التاجر في زي داعية.

٣ ـ العمل الإسلامي نية وجهاد :

ربما بدت إثارة هذا المعنى لفتة ساذجة، ولكني أراها غير ذلك البته، وأعلق عليها أهمية خاصة، ونحن في زمان دخلت فيه الدنيا علينا من كل الأبواب وأصبحنا، فيما أرى، في حاجة إلى أن نصحح النية في كل قول وعمل يصدران عنا، تحرزاً من الشرك والرياء اللذين يدبان في النفوس دبيب النمل، وهو بعد تذكير وتحذير وليس اتهاماً أو إساءة ظن نهانا عنهما ديننا.

فإنه لن ينجح عمل إسلامي في بلوغ أهدافه القريبة أو البعيدة ما لم يتوفر للعاملين فيه صدق النية، والتجرد من الهوى، والقدوة الصالحة، والجهاد بالنفس والمال، مهما رصدت له أموال، وسخرت فيه من مهارات. إنه عبادة خالصة لله، وامتداد لرسالة النبي وسائر أنبياء الله صلوات الله عليهم وسلامه.

وصدق الله العظيم إذ يقول : « ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين ».[1]

٤ ـ العمل الإسلامي إحياء لواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

ووجه الارتباط بين العمل الإسلامي كواجب ديني، وبين واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أنهما مسئولية كل فرد مسلم نحو دينه ومجتمعه، أو هما وجهان لهذه المسئولية، في أدائها تقوية للدين في نفوس أبنائه، وتصحيح لمسار الأمة في الطريق الذي رسمه الله لها، وتمكين لدعائم الدولة الإسلامية.

---

(١) سورة فصلت آية ٣٣.

فالواجبان يستهدفان نشر العقيدة الإسلامية، واستقامة الأفراد والأمة على أمرهما، ومنع الزيغ والانحراف، ووقاية المجتمع مما قد يقع فيه أو يطرأ عليه من فساد.

وقد غفلت الأمة الإسلامية فترة من الزمن عن القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، اللهم إلّا في بلدان إسلامية محدودة وفي دوائر ضيقة، كانت فيما قبل تشمل الرقابة العامة على المجتمع في كل مجالات الحياة العامة، وكان لها نظامها ومحتسبوها المولون من قبل ولي أمر المسلمين، وهيبتها في الناس وحقها في التعزير في حدود اختصاصها، مما كان له أحسن الأثر في تأمين سلامة الفرد والمجتمع ورعاية مصالح الأمة وقوة الدولة.

وإن في نشاط العمل الإسلامي المتصاعد ما يحيي هذا النظام ويعيده على ما كان عليه في القرون المزدهرة بحكم الإسلام، بوصفه كما أسلفنا الوجه الآخر من مسئولية واحدة، كما أن في عودة نظام الحسبة، القائم على مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وازدهاره، دفعة كذلك للعمل الإسلامي، ففي قوة أحد الوجهين تقوية للآخر.

والله تعالى يقول : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون »[١].

وفي الدعوة إلى الخير إشارة إلى العمل الإسلامي، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إشارة صريحة إلى أهمية هذا الواجب، والربط بينهما في آية واحدة دلالة على ارتباطهما كما قدمنا.

وكان من نتائج غفلة الأمة عن هذا الواجب، أن عاقبها الله على غفلتها عنه بذهاب شوكتها وضياع حضارتها وتسليط أعدائها عليها، وهو بعد الواجب الذي يميز الله به هذه الأمة عن سائر الأمم، في قوله تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله »[٢]، كما ميز الدعاة من أفراده بقوله تعالى : « ومن أحسن قولاً ممن

(١) سورة آل عمران آية ١٠٤.

(٢) سورة آل عمران آية ١١٠.

دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين »[1].

ثانياً : دور القيادة والدعاة في العمل الإسلامي، وفي ميدان الشباب المسلم على وجه الخصوص :

١ ـ هو دور الداعية، ودور المربي، ودور المعلم، ودور الموجه، ودور المنظم ودور المحتسب، ولكل وظيفة من هذه الوظائف شروطها وصلاحياتها ورسالتها.. وهي في جملتها مهمة ثقيلة، ولكنها عظيمة الثمر كبيرة الأجر، وتتطلب من القائمين بها أن يكونوا على مستوى أدائها على وجهها، بتكوينهم الروحي والعقلي والنفسي، وبعلمهم الواسع، وبالقدوة الحسنة المؤثرة.

٢ ـ وهو دور كبير يحتاج إلى تفرغ ذويه، أو بعضهم على الأقل، لهذه المهمة الضخمة، حتى يتأتى للداعية دوام تعهد أبنائه وإخوته في الله الذين يقوم على أمرهم، والتعرف على مشاكلهم، ومعاونتهم في حلها والأخذ بيدهم في الطريق.

٣ ـ وهو دور المجاهد في سبيل الله الذي نذر نفسه للإسلام، فلا يعوزه الصبر على المتاعب، ولا تخطئه بشاشة الوجه مع المكاره، محتسباً جهده وماله وعمره عند الله، مؤثراً الآخرة على الدنيا، واعياً جيداً وصية رسول الله ﷺ لكل مسلم : « من مات ولم يغز ولم ينو الغزو مات ميتة جاهلية ».

ثالثا : دور الشباب المسلم في العمل الإسلامي :

١ ـ دور التأسي برسول الله ﷺ وبأصحابه ـ رضوان الله عليهم ـ في حمل أمانة الدعوة الإسلامية في هذا العصر، عقيدة وعبادة، ومنهج حياة، وحركة، وجهاداً في سبيل الله حتى يظهر الله دينه أو نهلك دونه.

وعليهم أن يعدوا أنفسهم لهذا الأمر من كافة الجوانب، وأن يوطنوا أنفسهم على الصبر على المكاره، واحتساب الأجر عند الله.

---

(١) سورة فصلت آية ٣٣.

٢ ـ دور الريادة العلمية والثقافية بين الشبيبة خاصة والأمة كافة، فالعلم بكل فروعه التخصصية، وخاصة العلوم التطبيقية، هو من أخطر أسلحة هذا العصر التي يفتقر إليها العالم العربي والإسلامي، في مواجهة تحديات أعدائه وتفوقهم فيه بمسافة طويلة. فالأمة الإسلامية في أمس الحاجة إلى نوابغ متخصصين، وخبراء عباقرة، من خيرة أبنائها المسلمين، من ذوي الغيرة على الدين والأمة، بقدر حاجتها إلى دعاة مخلصين واسعي الثقافة.

ولن نستطيع أن نواجه تيار الغرب إلّا بتيار أقوى منه، يرفعنا إلى مستوى علمهم المتقدم، وكفاءة اقتصادهم، إلى جانب البعد الروحي المفقود عندهم والذي تميزنا به.

إن وضوح هذا الهدف في تفكير شبابنا من النوابغ والمتخصصين، وتثبيته في نفوسهم، وربطه بعقيدتهم، أمر بالغ الأهمية في ضمان عوائد هذه العقول الممتازة أمام إغراءات الغرب التي تعمل على استقطاب الكفايات وحرمان العالم الإسلامي منها، والتي نشأت عنها ظاهرة « هجرة العقول »، وعلى العالم العربي والإسلامي أن يفكر طويلاً في وقفها، وأن يهيىء لها مناخاً علمياً وحياتياً مناسباً يحول دون هجرتها الاضطرارية.

٣ ـ دور الاستغناء بطاقاتهم الروحية القوية وتربيتهم الإسلامية العالية عن التهافت على « شيئيات » الحضارة الغربية المادية، فلا تتعلق بها هممهم وقلوبهم كما تعلقت بها نفوس أكثر الأجيال التي سبقتهم، من ضحايا فترة الوهن في الهمم والقلوب التي مرت بالمسلمين في عصور التمزق والتخلف، فعزلهم ضعف العقيدة عن مصادر القوة الحقيقية في الإسلام، وعن أصالتهم الفكرية والحضارية، وشغلوا بدنياهم عن أنفسهم وأخراهم.

وليس مؤدى ذلك، كما سبق أن قلت، العزلة عن حياة العصر، ولكن مؤداه الاستعلاء على الصغار، والبعد عن مواطن الفساد والانحراف، والتميز بالاستمساك بالدين، والاقتداء بسيرة النبي ﷺ، واتباع المنهج القرآني، والسنة النبوية، في كل قول وعمل.

رابعاً : منهج العمل الإسلامي :

١ ــ نشر الدعوة الإسلامية بين المسلمين وغير المسلمين، وتصحيح وتعميق « عقيدة التوحيد الخالص » والوعي الإسلامي.

٢ ــ تعميق وتوسيع معنى « الأخوة في الله » بين الشبيبة الإسلامية خاصة والأمة عامة.

٣ ــ نصرة الإسلام، وشد أزر المسلمين في كل مكان، بالمال والنفس، حسب خطة وأولويات تقدر بالدراسة.

٤ ــ نشر الوعي بالمتغيرات السياسية العالمية، والمخططات العدوانية ضد الإسلام والمسلمين.

ب) الوسائل :

١ ــ إقامة المعسكرات الصيفية والدورية لاستقبال الشباب المسلم من مختلف أقطار العالم، وفق مخططات مدروسة، مع توفير مختلف الإمكانات العلمية والثقافية والدينية والرياضية والتدريبية فيها، والأخذ بفكرة التوسع في هذا المجال الحيوي. فمثل هذه المعسكرات، هي بمثابة محاضن للتربية الإسلامية المتكاملة، ومصانع لإعداد الرجال والقيادات الجديدة المقتدرة.

٢ ــ تعميم « بيوت الشباب المسلم » في بلدان العالم الإسلامي، وفي الخارج، وتوفير كافة احتياجاتها على مستوى لائق، وتولي جهة مسئولة أمرها، على أن يوضع لهذا العمل مخططاته.

٣ ــ تنشيط حركة تبادل الزيارات والرحلات بين بلدان العالم العربي والإسلامي، لتوسيع دائرة التعارف، والحوار، وتبادل الرأي والخبرات، وتوثيق الصلات.

٤ ــ التوسع في سياسة تعليم اللغة العربية في البلاد الإسلامية التي لا تتكلمها، بوصفها لغة القرآن، واللغة المشتركة للتفاهم بين أكثرية المسلمين.

٥ ــ إصدار المطبوعات والمجلات والنشرات الإسلامية بمختلف اللغات.

٦ ــ تعميم استخدام الوسائل التعليمية (السمعية والبصرية) التي تخدم

شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها، وإنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون ». (يوسف ـ ٦٨) .

وهذا موسى عليه السلام يلتمس العلم. فنقرأ في سورة الكهف، « **فوجد عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما. قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا. قال إنك لن تستطيع** خُبْراً.
صابراً ولا أعصي لك أمراً ». (الكهف ٦٥ ـ ٦٩).

ونقرأ في القرآن المجيد عن داود وسليمان عليهما السلام ومدى العلم الذي علمهما الله : « وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه **غنم القوم، وكنا لحكمهم شاهدين. ففهمناها سليمان، وكلاً آتينا حكماً** وعلماً، وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير، وكنا فاعلين. وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم، فهل أنتم شاكرون ». (الأنبياء ٧٨ ـ ٨٠).

ويقص علينا القرآن المجيد من أخبار علم عيسى عليه السلام : « إذ **قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك، إذ أيدتك بروح** القدس تكلم الناس في المهد وكهلاً، وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني، فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني، وتبرىء الأكمه والأبرص بإذني، وإذ تخرج الموتى بإذني، وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلّا سحر مبين ». (المائدة ـ ١١٠).

والعلم الكامل لله العلي الكبير، فهو العليم العلّام، ومن فضله تبارك وتعالى أن أذن لنا بالتعلم وأذن لنا من علمه، فالعلم والتعلم بفضله، فلنفرح بهذا، وعلينا أن نشكر ذلك.

فعلم الإنسان من الله : لنقرأ قوله تعالى : « وعلم آدم الأسماء كلها **ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا** سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم ». (البقرة ٣١ ـ ٣٢).

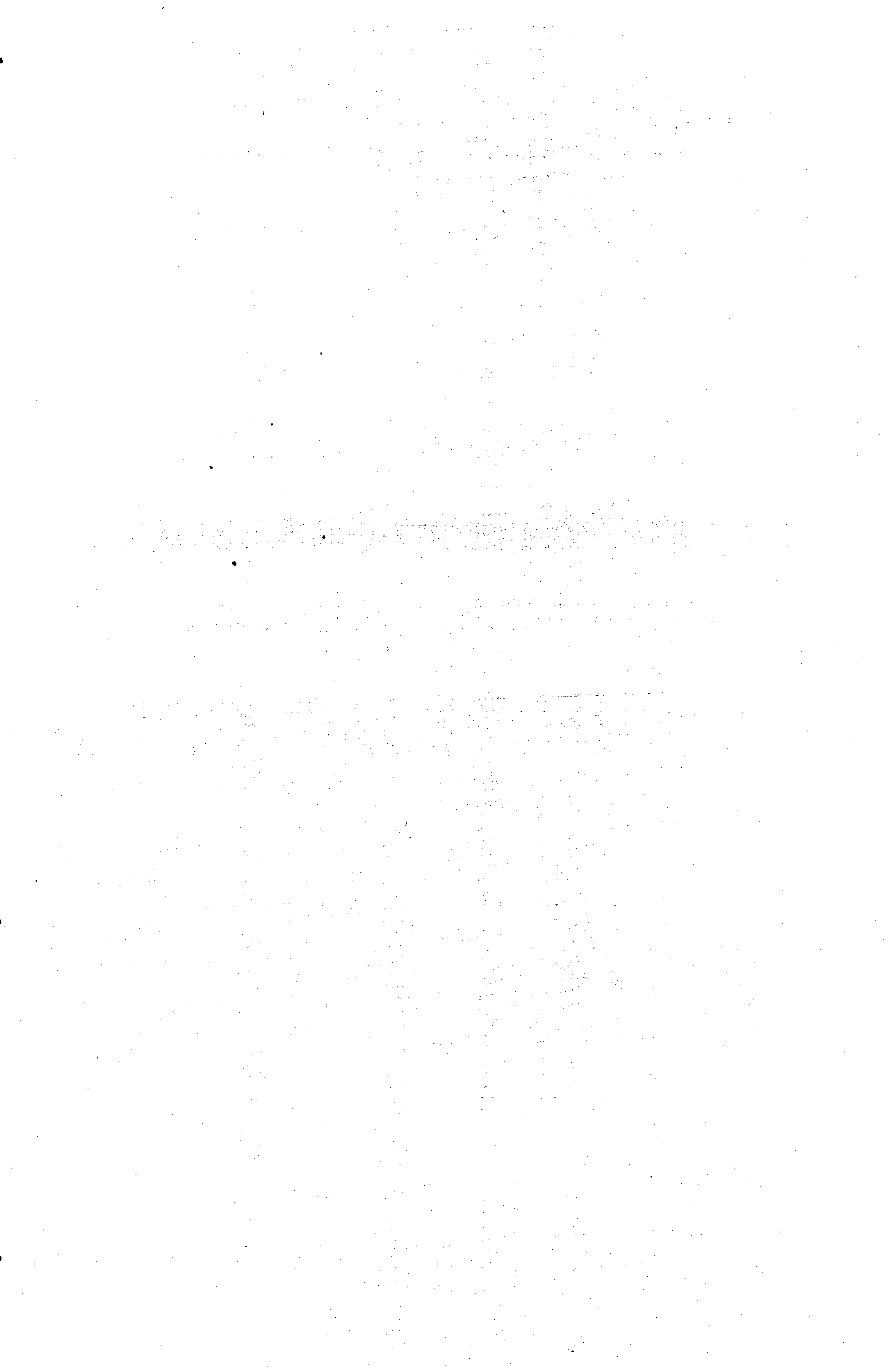
الأهداف المتوخاة.

٧ ـ توجيه بعض أنشطة الشباب في أداء أعمال نافعة في البيئات الإسلامية، مثل محو الأمية، والمكتبات المتنقلة، ونظافة الحواضر والمدن، وتجميلها، وعمارة المساجد.

والله ولي التوفيق ، وعليه قصد السبيل ...

من الأصول الإسلامية للعلم والتعلم

للدكتور محمد اسماعيل راشد
الأستاذ بكلية الهندسة - جامعة القاهرة



بســـــم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أذن لنا بالتعليم وجعل العلم من فضله، فقال تعالى في سورة النساء، معدداً فضله على نبيه : « ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك، وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء، وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم، وكان فضل الله عليك عظيماً ». (النساء ـ ١١٣).

ونصلي ونسلم على خير البرية، أرسله ربه معلماً، فقال تعالى في سورة البقرة : « كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلوا عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ». (البقرة ـ ١٥١). صلى الله وسلم عليه وعلى رسله الكرام.

والعلم كله من الحق تبارك وتعالى.

فهذا يوسف عليه السلام يذكر من فضل الله عليه تأويل الأحاديث...
« ربِّ قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث، فاطرَ السموات والأرض أنت وليّ في الدنيا والآخرة، توفّني مسلماً وألحقني بالصالحين » (يوسف ـ ١٠١).

وهذا يعقوب عليه السلام يذكر الحق تبارك وتعالى فضله عليه بالعلم فنقرأ : « ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم، ما كان يغني عنهم من الله من

شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها، وإنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون ». (يوسف ـ ٦٨).

وهذا موسى عليه السلام يلتمس العلم. فنقرأ في سورة الكهف ، « فوجد عبداً من عبادنا أتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما. قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا. قال إنك لن تستطيع معي صبراً. وكيف تصبر على ما لم تحط به خُبّرا. قال ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً ». (الكهف ٦٥ ــ ٦٩).

ونقرأ في القرآن المجيد عن داود وسليمان عليهما السلام ومدى العلم الذي علمهما الله : « وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم قوم، وكنا لحكمهم شاهدين. ففهمناها سليمان، وكلاً أتينا حكماً وعلماً، وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير، وكنا فاعلين. وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم، فهل أنتم شاكرون ». (الأنبياء ــ ٧٨ ــ ٨٠).

ويقص علينا القرآن المجيد من أخبار علم عيسى عليه السلام : « إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك، إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلاً، وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني، فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني، وتبرىء الأكمة والأبرص بإذني، وإذ تخرج الموتى بإذني، وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلّا سحر مبين ». (المائدة ــ ١١٠).

والعلم الكامل لله العلي الكبير، فهو العليم العلاّم، ومن فضله تبارك وتعالى أن أذن لنا بالتعلم وأذن لنا من علمه، فالعلم بفضله، فلنفرح بهذا، وعلينا أن نشكر ذلك.

فعلم الإنسان من الله. لنقرأ قوله تعالى : « وعلم آدام الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبؤني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم ». (البقرة ٣١ ــ ٣٢).

ونقرأ في آية الكرسي قوله تعالى : « ..... ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ...... ». (البقرة-٢٥٥).

ونقرأ في سورة الملك قوله تبارك وتعالى : « قل إنما العلم عند الله، وإنما أنا نذير مبين ». (الملك ــ ٢٦).

ونقرأ في سورة غافر تسبيح الملائكة واستغفارهم للمؤمنين : « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا، ربنا وَسِعْتَ كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ». (غافر ــ ٧).

ويقرر القرآن المجيد هذا الأمر مرات ومرات، ولنقرأ على سبيل المثال قوله تعالى في ختام السورة التي ذكر فيها الطلاق « الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن، يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً ». (الطلاق ــ ١٢).

والعلم بالنسبة لنا عريض وليس بعلم التوحيد فحسب وإن كان العلم بالله تبارك وتعالى بآياته وبأفعاله أشرف العلوم. فالقرآن المجيد حين يحدثنا عن علوم المادة وتطويعها يذكر لنا بعض تفاصيلها التقنية كأمثلة نستهدي بها حتى لا نغوى. لنقرأ قوله تبارك وتعالى « ولقد آتينا داود منا فضلاً، يا جبال أوبي معه والطير، وألنّا له الحديد. أن أعمل سابغات وقدّر في السرد واعملوا صالحاً، إني بما تعملون بصير. ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر، وأسلنا له عين القطر، ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه، ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير. يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات، اعملوا آل داود شكراً، وقليل من عبادي الشكور ». (سبأ ــ ١٠ ــ ١٣).

ولم التعلم ؟ وكيف نتعلم ؟ وما هذا الأمر الذي رفع الله تبارك وتعالى حملته حتى قرن شهادته مع شهادة ملائكته وشهادتهم في قوله تعالى : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط، لا إله إلا هو العزيز الحكيم ». (آل عمران ــ ١٨).

العلم جليل، كرم الله حملته أيما تكريم حتى يوم البعث، فأنطقهم

رداً على المشركين يوم تقوم الساعة، فنقرأ في سورة الروم : « ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة، كذلك كانوا يؤفكون. وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث، فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون ». (الروم ـ ٥٥ ـ ٥٦).

العلم الذي جعله الله من أسباب اصطفائه لبعض الناس. فقال تعالى منبئاً عن بني إسرائيل، ولم اختار الله طالوت ملكاً : « ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله، قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا، قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا، فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم، والله عليم بالظالمين. وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً، قالوا أنّى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعةً من المال، قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم، والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء، والله واسع عليم ». (البقرة ـ ٢٤٦ ـ ٢٤٧).

يرفع الله بالعلم أقواماً، ولنقرأ قوله تعالى : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات، والله بما تعملون خبير ». (المجادلة ـ ١١).

العلم الذي أمر الله نبيه أن يلتمسه بالدعاء : « فتعالى الله الملك الحق، ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه، وقل رب زدني علماً ». (طه ـ ١١٤).

ولكل امرىء منهاجاً. وذكر المنهاج في القرآن مع ذكر كتابه فقال تعالى : « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق، لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات، إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ». (المائدة ـ ٤٨).

فما المنهاج وما معالم الطريق الذي نسير فيه لكي نتعلم من ذلك العلم الذي أذن الله لنا بتعلمه. واننا حين نلتمس من القرآن المجيد ومن سنة

رسوله ﷺ منهاج التعلم فإنما نبغي الدين.

أول معالم المنهاج الإسلامي أن يكون التعلم والعلم لله تبارك وتعالى، لأن الأصل أن يكون كل عملنا لله، ولنستمع لقوله تبارك وتعالى : « قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم، ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً، وما كان من المشركين. قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين. لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ». (الأنعام ٢٦١ ـ ١٦٣).

وفضل التعلم كبير، وهذا هدى رسول الله ﷺ، فمما رواه أبو الدرداء قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من سلك طريقاً يبتغي به علماً سلك الله له طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء. وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب. إن العلماء ورثة الأنبياء. إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً إنما ورثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر ». ولنستمع هذا الحديث مع حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « من تعلم علماً لغير الله، إذ أراد به غير الله، فليتبوأ مقعده من النار ». ومع الحديث الذي رواه كعب بن مالك عن النبي ﷺ قال : « من طلب العلم ليجاري به العلماء أو ليجاري به الفقهاء أو يعرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار ».

ويهدينا حديث رسول الله ﷺ هذا إلى أمر آخر ألا وهو هدف التعلم. فالتعلم ليس مقصوداً لذاته، إنما مقصود به العمل النافع الذي يجلب النفع العام وبالتالي النفع الخاص. فقد يكون التعلم مذموماً إن قصد به الضرر والإضرار كما نقرأ في الآية : « واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان، وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت. وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر، فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه، وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله، ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم، ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق، ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون ». (البقرة ـ ١٠٢).

فهذا من العلم المذموم لأنه قصد به الإفساد. والإفساد بمعناه العام مذموم وأي ذم. ولنستمع سوياً لقوله تبارك وتعالى يصف فيمن يصف من تعلم واستغل علمه في تزيين الكلام وهو مفسد أيما إفساد : « ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام. وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل، والله لا يحب الفساد. وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم، ولبئس المهاد ». (البقرة ٢٠٤ ــ ٢٠٦).

وهذا قارون في قوم موسى يبغي على قومه إذ جمع ما جمع بعلمه فبغى على قومه فذهب مثلاً للمفسدين : « إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم، وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين. وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض، إن الله لا يحب المفسدين. قال إنما أوتيته على علم عندي، أَوَلَمْ يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً، ولا يُسْأل عن ذنوبهم المجرمون. فخرج على قومه في زينته، قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم. وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً، ولا يلقاها إلا الصابرون. فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله، وما كان من المنتصرين. وأصبح الذين تمنّوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر، لولا أن منَّ الله علينا لخسف بنا، ويكأنّه لا يفلح الكافرون. تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً، والعاقبة للمتقين. من جاء بالحسنة فله خير منها، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون ». (القصص ٧٦ ــ ٨٤).

وهكذا فإن مدخل المنهج الإسلامي أن يكون خالصاً لله تبارك وتعالى وأن يهدي إلى ما وضعه الله لنا من غايات. والإخلاص لله تبارك وتعالى في كل عمل هو مخ العبادة، وهي جوهر الإسلام، وهي تحقيق للآية الكريمة،

« وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » (الذاريات - ٥٦). وهذه العبادة في صورتها الشاملة حق الله على خلقه والتي يتحقق معها وعد الله. « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم آمنا، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ». (النور - ٥٥).

فما تفاصيل الهدف الذي ارتضاه الله للإنسان، وما صور العمل الذي يكون بالاخلاص فيه لله عبادة له. هذا أمر لا نحصيه ولا نقدر على معرفته كله، وكيف لنا بهذه المعرفة فهي الدين كله، وإنه لمتين، فليس لنا أن نوغل فيه إلا برفق كما نصحنا رسول الله ﷺ.

إن تعمير الأرض من أهداف الإنسان المسلم، يقول تبارك وتعالى حاكياً عن صالح عليه الصلاة والسلام، يوجه الحديث إلى قومه مذكراً إياهم بواجباتهم : « وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها، فاستغفروه ثم توبوا إليه، إن ربي قريب مجيب ». (هود - ٦١).

وإن مما تحمله هذه الآية من معان هي أن الاستعمار طلب العمارة، والطلب المطلق من الله تعالى على الوجوب، أي أن الله جل شأنه خلق الإنسان لعمارة الأرض، فيسر لنا ذلك بالعلم والعمل، وألهمنا عمارتها من الحرث والغرس وحفر الآبار وغير ذلك من بناء ومصانع. وقد ذكرت ثمود وما عمرت في آيات أخرى. « كذبت ثمود المرسلين * إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون * إني لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين * أتتركون في ما ها هنا آمنين * في جنات وعيون * وزروع ونخل طلعها هضيم * وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين * فاتقوا الله وأطيعون * ولا تطيعوا أمر المسرفين * الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون * قالوا إنما أنت من المسحَّرين * ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين * ». (الشعراء - ١٤١ - ١٥٤).

ومع تكليف الله الإنسان عمارة الأرض جعل تلك العمارة من عبادته.

كرم الله الإنسان أيما تكريم أن جعله خليفته على أرضه ويسر له ذلك ومكنه منها. قال تعالى : « وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك، قال إني أعلم ما لا تعلمون. وعلَّم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم. قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم، فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ». (البقرة ــ ٣٠ ــ ٣٣).

وهذا الصالح ذو القرنين، حينما وصل بين السدين وطلب منه أهلها أن يقيم سداً يمنع عنهم إفساد يأجوج ومأجوج، يرد عليهم ذاكراً فضل الله عليه في أمور التمكين في عمارة الأرض، فنقرأ قوله تعالى : « حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولاً. قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض، فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً. قال ما مكني فيه ربي خير فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردماً. آتوني زبر الحديد، حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا، حتى إذا جعله ناراً قال آتوني أفرغ عليه قِطْراً. فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً. قال هذا رحمة من ربي، فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقاً ». (الكهف ــ ٩٣ ٩٨).

فما هي الأصول للتمكن من عمارة الأرض.

لنلتمس ذلك في القرآن المجيد الذي هو كتاب هداية للعالمين.

أول هذه الأصول **إيمان بالغيب** بعد الإيمان بالله.

افتتح الله سبحانه وتعالى كتابه المجيد بسورة الفاتحة، أمّ الكتاب، فيها اعتراف لله بالملك والتماس الهداية منه. وتأتي، بعد سورة الفاتحة، السورة التي ذكرت فيها البقرة، وفي مطلعها نقرأ :

« آلم. ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين. الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ». (البقرة ــ ١ ــ ٣).

والإيمان بالغيب، رغم ما يثار حوله من أمور، فهو أصل من أصول الفكر العلمي. فالعلم به ليس أمر قطعي اللهم إلا القطع بوجود حقائق. أما وصف هذه الحقائق وتقنينها فهو أمر بعيد كل البعد عما يصفه رجال العلم. يعترف بذلك أهل العلم، فهم على بينة من أن وصفهم قاصر لقصور وسائل الحس ولنقص في طاقة أدوات القياس.

فالحقيقة قائمة، ولكن رؤيتنا لها ناقصة. وصورتها الذهنية لدينا أقل وضوحاً. وتجريدنا للصورة الذهنية يزيد من تشويهها. وبذلك تأتي النظرية بعيدة كل البعد عن الحقيقة.

وكل ما يمكننا أن نصف به النظريات العلمية أنها الوصف المشوه للتجريد في الصور التي تشوه الحقائق.

قد تقترب النظرية ونتائجها من إحساسنا بالحقائق، ولكنها لا يمكن أن تصف الحقائق وصفاً كاملاً دقيقاً.

ولنضرب مثلاً : قال الأقدمون إن الماء والتراب والهواء والنار هي أصول المادة. ثم جاء من أحدث منهم فقالوا بالذرة، وأنها الجزء الذي لا يتجزأ، ثم جاء متأخرون فقالوا بالنواة والكهارب، ثم جاء بعدهم من يقول بجسيمات أصغر فأصغر. ويتغير القول وسيتغير الوصف ولن نصل إلى كنه المادة. إن وصفها غيب وكنهها غيب، فإن كفر من كفر بالغيب فلعله المعني بقوله تبارك وتعالى : « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه، والله سريع الحساب ». (النور : ٣٩).

حقائق الدنيا غيبٌ وصفت أجمل وصف تقبله عقولنا الضعيفة في قوله تعالى : « أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب، ظلمات بعضها فوق بعض، إذا أخرج يده لم يكد يراها، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ». (النور : ٤٠).

ولنضرب مثلاً آخر. قوانين الحركة التي صاغها نيوتن ظلت حقبة طويلة من الزمن مضرب المثل في الدقة حتى جاء اينشتين وفسر بعض التعارض في المشاهدات بتعديل قوانين الحركة، ولكنه جاء بأمر أشد غرابة إذ

جعل من سرعة الضوء ـ وهي محدودة ـ جعل منها حداً أعلى لما يمكن أن تصل إليه سرعة. أمر لا يقبله. فلم لا تزيد السرعة على سرعة الضوء ؟ لا يمكن الجزم بلا. ولكن يمكن الجزم بأننا لا ندري ما الحدث عندئذ.

في الماضي كانوا لا يعرفون من الحرارة إلا ما تولد عن تفاعلات كيميائية. وسنجد أهل الكيمياء في الماضي من الذين قالوا كيف يتحدث الأنبياء عن نار جهنم وأنها أشد من نار الدنيا وقدموا حساباتهم وتجرأوا على الشمس وقدروا حرارتها بحوالي أربعة آلاف١درجة مئوية. وسخر الله منهم إذ جاء من بعدهم وقدروا عن درجات حرارة أشد وأعظم، إذ عرفوا عن الانشطار الذري والاندماج الذري، وأعادوا حساباتهم على الشمس فقدروا حرارتها بالملايين.

أي عالم أو متعلم يحاول سبر غور المعرفة يجد نفسه وقد عجزت حتى عن الوصف البسيط وصدق الله العظيم : « تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير. الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً، وهو العزيز الغفور. الذي خلق سبع سماوات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت، فارجع البصر على ترى من فطور. ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير ». (الملك : ١ ـ ٤).

الأصل الثاني هو الإيمان بإرادة الله **إذ أن مما خلق خلقه لمستقر**

وهنا يجب أن نفرق بين أمرين، الأمر اللحظي والأمر المستمر. أو بين الحالة اللحظية والحالة المستمرة. وأن عمر الإنسان لقصير القصر الخادع. فيتصور الحالة اللحظية حالة دائمة مستمرة مستقرة، لأن معدل التغير مع الزمن غير* محسوس. إننا بالنسبة للمرئي من العالم فإنما نرى الماضي والماضي السحيق. فحين ينظر الإنسان إلى السماء بنجومها فانما يرى ماضيها غير المتزامن والتي أرسلت صورته عبر الملايين والملايين من السنين. أما ماضيها غير المرئي وحاضرها ومستقبلها، فهو من أمر الغيب. ووقع الإنسان في خطأ فادح حين عمم ما كان عليه أن يقصره لحدوده الصغيرة. ولنتصور الحدود الصغيرة للإنسان حين نتصور أن حجمه قد صغر حتى تمكن من العيش على كهرب من الكهارب، وأن عمره قد صغر حتى

دنا من سبعين دورة لكهرب حول نواته. فماذا يرى. سيرى شمساً هي النواة، وسيرى سيارات هي الكهارب وسيرى... وما عمره وعمر أجداده في هذه الحالة إلا لحظة صغيرة، صغراً لا نقدر على قياسها بالنسبة لما نقيس نحن من أوقات.

وهكذا أصل إلى ما أريد أن ما نبتدعه من علم ونظريات إنما هو التشبيه العقلي للصورة الذهنية لما انطبع على إحساساتنا من آثار الحقائق. إنه، أي هذا التشبيه العقلي، لا يمكن أن يكون الحقيقة بعينها، بل هو بعيد كل البعد عنها. (وأن ما لدى العلماء هو الخلط بين الحقائق التي هي غيب ديني بتشبيهاتهم العقلية).

ولنقرأ الوصف الجميل الذي يهدينا إلى أن هناك فرقاً بين ما نرى وبين الحقيقة : « وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب، صنع الله الذي أتقن كل شيء، إنه خبير بما تفعلون ». (النمل : ٨٨). « وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود، ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد، لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً ». (الكهف : ١٨). « تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم، إنه كان حليماً غفوراً » (الاسراء : ٤٤).

المصيبة الكبرى هي استغلال المنطق العلمي للضلال ولإضلال الناس فها هو موسى عليه السلام يدعو ربه : « وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا، ربنا ليضلوا عن سبيلك، ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم. قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون ». (يونس : ٨٨ ـ ٨٩).

الأصل الثالث هو أن **كل شيء بقدر معلوم** :

لنستهدي القرآن المجيد فيما ذكر فيه التقدير والحساب. « قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً، ذلك رب العالمين. وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء

للسائلين. ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً، قالتا أتينا طائعين. فقضاهن سبع سموات في يومين، وأوحى في كل سماء أمرها، وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا، ذلك تقدير العزيز العليم ». (فصّلت : ٩ ــ ١٢).

« وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون. والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم. والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم. لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون ». (يـٓس : ٣٧ ــ ٤٠).

ونقرأ سورة الرحمن فيبرز لنا هذا المعنى :

« الرحمن. علم القرآن. خلق الإنسان. علمه البيان. الشمس والقمر بحسبان. والنجم والشجر يسجدان. والسماء رفعها ووضع الميزان. ألا تطغوا في الميزان. وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ». (الرحمن : ١ ــ ٩).

وتستمر سورة الرحمن تبرز هذا المعنى فيما تبرز وتكرر القول : « فبأي آلاء ربكما تكذبان ». ولعل ذلك ليستقر المعنى في القلوب وهذا من فضله.

ونقرأ في سورة الأنعام اتساق الخلق ونظامه :

« إن الله فالق الحب والنوى، يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي، ذلكم الله فأنى تؤفكون. فالق الإصباح، وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسبانا، ذلك تقدير العزيز العليم. وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون. وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع، قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون. وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباًمتراكباً، ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون، والرمان مشتبهاً وغير متشابه، انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه، إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ».

وتستمر الآيات لتنعي على الكفار ما ابتدعوه من شرك وكفر :

« وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم، سبحانه وتعالى عما يصفون. بديع السماوات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة، وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم. ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل. لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير. قد جاءكم بصائر من ربكم، فمن أبصر فلنفسه، ومن عمي فعليها، وما أنا عليكم بحفيظ. وكذلك نصرف الآيات وليقولوا درست ولنبينه لقوم يعلمون ». (الأنعام : ٩٥ ــ ١٠٥).

ونقرأ في سورة الرعد من مطلعها تعدد آيات الله :

« المر، تلك آيات الكتاب، والذي أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون. الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر، كل يجري لأجل مسمى، يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون. وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون. وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد، ونفضل بعضها على بعض في الأكل، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون. وإن تعجب فعجب قولهم أإذا كنا تراباً أإنا لفي خلق جديد، أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال في أعناقهم، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون. ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات، وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم، وإن ربك لشديد العقاب. ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه، إنما أنت منذر ولكل قوم هاد. الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد، وكل شيء عنده بمقدار. عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ». (الرعد : ١ ــ ٩).

الأصل الرابع أن **الوسيلة للعلم هي من آيات الله وهدايته**

كيف تعلمنا قواعد الحساب، ويقول الحق تبارك وتعالى في سورة يونس : « هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد

السنين والحساب، ما خلق الله ذلك إلا بالحق، يفصل الآيات لقوم يعلمون ». (يونس ـ ٥).

ونقرأ في سورة الأنعام : « وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ». (الأنعام ـ ٩٧).

وما نعرف من القواعد إلا نتيجة للمشاهدة وتكرار المشاهدة ودرس هذه المشاهدات :

الأصل الخامس هو أن الله سخر لنا من خلقه ما ييسر لنا ما خلقنا لـــه :

نقرأ في سورة إبراهيم :

« الله الذي خلق السماوات والأرض، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم، وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار. وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار. وآتاكم من كل ما سألتموه، وإن تعدوا نعمت الله لا تحصوها، إن الإنسان لظلوم كفار ». (إبراهيم : ٣٢ ـ ٣٤).

ونقرأ كذلك :

« والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون. ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون. وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس، إن ربكم لرؤوف رحيم. والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة، ويخلق ما لا تعلمون. وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ، ولو شاء لهداكم أجمعين. هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون. ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات، إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون. وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون. وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه، إن في ذلك لآية لقوم يذكرون. وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها، وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون. وألقى في الأرض رواسي أن

تميد بكم وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون. وعلامات، وبالنجم هم يهتدون. أفمن يخلق كمن لا يخلق، أفلا تذكرون. وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها، إن الله لغفور رحيم ». (النحل : ٥ ـ ١٨).

ونقرأ كذلك ..

« الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون. وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ». (الجاثية : ١٢ ـ ١٣).

هذه أصول فما هي الوسائل..

أول الوسائل **الرؤية والسير والنظر بشمولهم..**

وصلى الله وسلم على أبينا إبراهيم، « وإن من شيعته لإبراهيم. إذ جاء ربه بقلب سليم. إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون. أئفكا آلهة دون الله تريدون. فما ظنكم برب العالمين. فنظر نظرة في النجوم. فقال إني سقيم. فتولوا عنه مدبرين ». (الصافات : ٨٣ ـ ٩٠).

ونقرأ كذلك..

« أَوَلَمْ يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده، إن ذلك على الله يسير. قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة، إن الله على كل شيء قدير ». (العنكبوت : ١٩ ـ ٢٠).

ونقرأ كذلك..

« وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى، أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم، ولدار الآخرة خير للذين اتقوا، أفلا تعقلون ». (يوسف : ١٠٩).

« أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج. والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج. تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ». (ق : ٦ ـ ٨).

« قتل الإنسان ما أكفره. من أبي شيء خلقه. من نطفة خلقه فقدره.

ثم السبيل يسره. ثم أماته فأقبره. ثم إذا شاء أنشره. كلا لما يقض ما أمره. فلينظر الإنسان إلى طعامه. أنا صببنا الماء صبا. ثم شققنا الأرض شقاً. فأنبتنا فيها حباً. وعنباً وقضباً. وزيتوناً ونخلاً. وحدائق غلبا. وفاكهة وأباً. متاعاً لكم ولأنعامكم ». ٩عبس : ١٧ ـ ٣٢).

السبيل الثاني ـ **التفكر والتعقل**

في إحدى آيات القرآن طلب صريح بالتفكير، ففي سورة سبأ نقرأ قوله تعالى : « قل إنما أعظكم بواحدة، أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة، إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد » (سبأ ـ ٤٦).

ومدح الحق تبارك وتعالى المتفكرين في خلقه : « إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب. الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، ويتفكرون في خلق السماوات والأرض، ربنا ما خلقت هذا باطلاً، سبحانك فقنا عذاب النار ». (آل عمران ـ ١٩٠ ـ ١٩١).

« وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون. ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا، يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس، إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون ». (النحل : ٦٨ ـ ٦٩).

« وله الحمد في السماوات والأرض وعشَيا وحين تظهرون. يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحيي الأرض بعد موتها، وكذلك تخرجون. ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون. ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون. ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم، إن في ذلك لآيات للعالمين. ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله، إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون. ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزِّل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون. ومن آياته ان تقوم السماء والأرض بأمره، ثم

إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون. وله من في السماوات والأرض، كل له قانتون. وهو الذي يبدؤ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه، وله المثل الأعلى في السماوات والأرض، وهو العزيز الحكيم. ضرب لكم مثلاً من أنفسكم، هل لكم من ما ملكت ايمانكم من شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم، كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون ». (الروم : ١٨ ــ ٢٨).

ونعى الحق تبارك وتعالى على أقوام لا يستخدمون فكرهم ولا عقولهم، فقال في سورة الأعراف : « ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس، لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام بل هم أضل، أولئك هم الغافلون ». (الاعراف : ١٧٩).

وفي نفس السورة نقرأ ..

« والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون. وأملي لهم إن كيدي متين. أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة، إن هو إلا نذير مبين. أَوَلَمْ ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم، فبأي حديث بعده يؤمنون ». (الأعراف : ١٨٢ ــ ١٨٥).

الوسيلة الثالثة هي **الكتابــة**.

ولعل خير ما ينبئ عنها ما استفتح به الوحي..

« اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم ». (العلق : ١ ــ ٥).

والكتابة، كما يقول المفسرون، عين من العيون، بها يبصر الشاهد الغائب.

والكتابة تعطي المرء الفرصة للتفكر وللتعقل..

ومن فضل الكتابة أن أقسم الله بالقلم في سورة ن.

« ن والقلم وما يسطرون ». (القلم ــ ١).

الوسيلة الرابعة هي **الصبر والمصابرة**.

ونذكر هنا قصة موسى عليه السلام حين سافر يلتمس التعلم..

« وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقبا. فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سربا. فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا. قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره، واتخذ سبيله في البحر عجبا. قال ذلك ما كنا نبغ، فارتدا على آثارهما قصصاً. فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما. قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشداً. قال إنك لن تستطيع معي صبراً. وكيف تصبر على ما لم تحط به خُبْرا. قال ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمركا. قال فإن اتبعتني فلا تسئلني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً ». (الكهف : ٦٠ ـ ٧٠).

وآخر وسيلة أذكرها **الإحسان**.

فمما رواه الخمسة حديث شداد بن أوس رضي الله عنه قال : اثنان حفظتهما عن رسول الله ﷺ قال : « إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته ». وهذا كحديث رسول الله ﷺ « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه ».

وأختتم كلامي بهدي من كلم رسول الله ﷺ حول العلم والتعلم :

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال، سمعت رسول الله ﷺ يقول : من سلك طريقاً يبتغي به علماً سلك الله له طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع اجنحتها رضاء لطالب العلم. وإن العَالِمَ ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء. وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب. إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً إنما ورثوا العلم فمن أخذ به أخذ بحظ وافر ».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له ».

وعنه أن النبي ﷺ قال : « إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته، علماً علمه ونشره، وولداً صالحاً تركه، أو مصحفاً ورّثه، أو مسجداً بناه، أو بيتاً لابن سبيل بناه، أو نهراً أجراه، أو صدقة أخرجها مّن **ماله في صحته وحياته تلحقه من بعد موته** ».

وأختتم محذراً نفسي وإياكم من الرياء أو من سوء النية، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ ـ قال الله تبارك وتعالى : « **أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته** وشركه ».

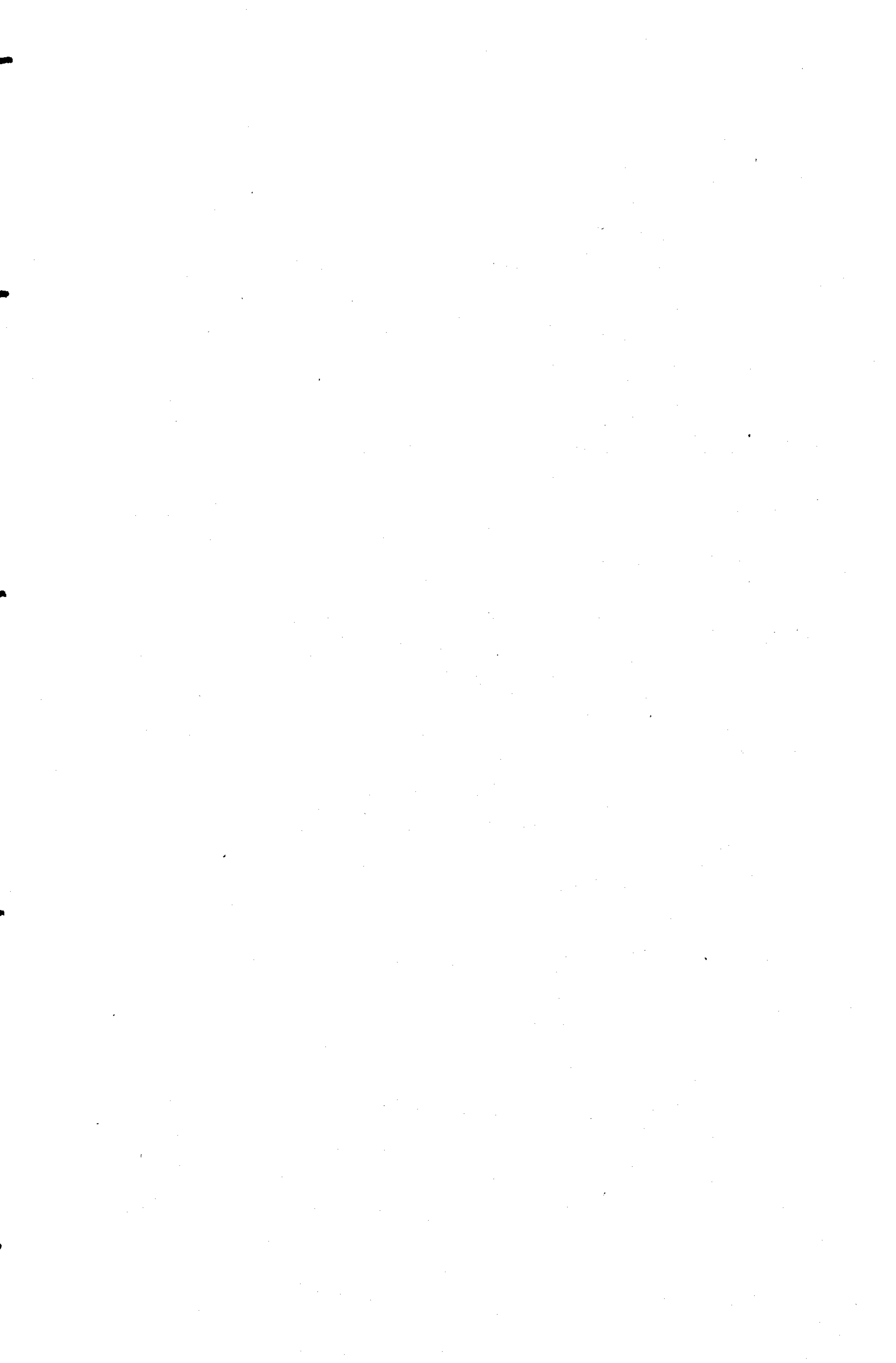
وعن أبي سعد بن أبي فضاله عن النبي ﷺ قال : « إذا جمع الله الناس يوم القيامة ليوم لا ريب فيه نادى مناد، من كان أشرك في عمل عمله لله أحداً فليطلب ثوابه من عند غير الله، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك ».

أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم، واسأله أن يتغمدنا برحمته، فلن ننال جنته إلا بها. وصلى اللهم وسلم على محمد عبدك ورسولك كما صليت وسلمت على إبراهيم إنك حميد مجيد..



النظرة الإسلامية
إلى الكون والإنسان والحياة

للأستاذ محمد المبارك رحمه الله
الأستاذ المستشار بجامعة الملك عبد العزيز سابقاً



بسم الله الرحمن الرحيم

النظرة إلى الكون

النظرة الإسلامية إلى الكون والوجود، إلى الحياة، إلى الإنسان، إلى الله، هذا الموضوع هو الموضوع الأساسي الذي عليه تقوم جميع الأبحاث الإسلامية، ذلك أن لكل دين من الأديان أساساً عقائدياً منه تنطلق سائر جوانبه، سواء قواعد الأخلاق أو تنظيم الحياة الاجتماعية، فإنها في كل دين ومذهب إنما تنبثق عن الأساس العقائدي وترتبط به وهي نتاج له. حتى أن المذاهب الوضعية البشرية إنما تقوم على أساس تصورها للوجود أو ما يسمى بالنسبة إلى المذاهب الوضعية فلسفتها، فلكل مذهب من المذاهب فلسفته التي ينظر من خلالها إلى الوجود.

هذا الأساس العقائدي، وهذه الأسس أو هذه التصورات التي من خلالها ينظر كل دين وكل مذهب إلى الوجود، ذو أثر عميق وقوي في جميع جوانب الحياة. فلو فرضنا أن انساناً يتصور أن الحياة مادية فقط، وأن ليس وراء الحياة حياة أخرى، فهو إذن سيبني أخلاقه وحياته الاجتماعية على هذا

الأساس. فالمذاهب الالحادية المادية التي تقول مثلاً : إن الإنسان مادة، وان حياة الإنسان هي هذه الحياة الدنيوية، ستنظر إلى الإنسان على أنه حيوان منتج يأكل ويشرب ويعمل وليس وراءه بعد ذلك شيء. فإذاً تصورها للإنسان وللحياة والوجود أدى إلى نتائج عملية. لو فرضنا مثلاً أبناء بلاد الهند، الهنود غير المسلمين، هؤلاء لو نظرنا اليهم وهم يقدسون أنواعاً من الحيوان كالقردة والبقر، فالقردة والبقر مقدسة عندهم، ولذلك فإن البقر لا يذبح، فكانت هنالك نتائج اقتصادية هامة، وهي أنه ليست فقط مئات الملايين من البشر تأكل وتشرب في القارة الهندية ؛ بل هنالك مئات الملايين من البقر تأكل وتشرب ولا يستفاد من لحمها لأنها مقدسة عندهم. فالنظرة إلى الوجود كله تؤثر في النظام الاجتماعي والنظام السياسي والنظام الإقتصادي والسلوك الأخلاقي.

فالسلوك الأخلاقي بالنسبة لإنسان يتصور أن الحياة حياة أخرى ومسؤولية، ليست كحياة من لا يؤمن بأن وراء هذه الحياة حياة أي : من يؤمن بأن الإنسان فيه عنصر رباني، ليس كمن يؤمن بأن هذا الإنسان هو وليد تطور قرد أوصله إلى هذه الصورة. شتان بين هذا وذاك، ليس فقط من الوجهة النظرية ؛ بل من وجهة النتائج العملية.

ولهذا فإن من المهم جداً أن نعرف النظرة الإسلامية إلى الوجود كله، هذه النظرة طبعاً نأخذها من مصدري الإسلام الأساسيين : القران كتاب الله، والسنة المفصلة لمجمله، المبينة له (لتبين للناس ما نزل اليهم). فمن هذين المصدرين سنأخذ هذه الصورة. هذا التصور عن الكون والإنسان، ذلك التصور الذي ينتهي بهذه النظرة إلى الله. أريد أن أقدم لكم نصاً يكون أساساً نستنبط منه من الآيات القرآنية هذه النظرة، ثم بعد ذلك نتوسع فيما يمكن أن نأتي به من الشواهد من الكتاب والسنة. وسألخص لكم في صورة مجملة ما سننتهي إليه وسنعود إليه حتى يكون للموضوع في جملته صورة واضحة في أذهانكم. بداية ثم بعد ذلك نهاية، ويكون التفصيل ما بين هذه البداية وهذه النهاية، وستجدون أن هذه الصورة تمثيلية، بعد أن أقرأ لكم الآيات التي أستشهد بها ــ مطابقة لما يمكن أن نستنتجه، وهذه

الصورة ستفيدكم لأنني سأقرنها بصورة أخرى تلخص لكم جميع فلسفات الدنيا القديمة والحديثة في ثلاثة أسطر. سألخص لكم من جهة في أحد هذه الأسطر وجهة النظر الإسلامية، وألخص لكم في سطرين آخرين جميع الفلسفات القديمة والحديثة. وإليكم هذه الصورة :

القرآن يخاطب الإنسان : يبتدئ بخطاب الإنسان، سواء خاطبه خطابا صريحا مباشرا (أفلا تنظرون)، (يا أيها الناس)، (يا أيها الإنسان)، أو جعله بصيغة الغائب، (يتفكرون في خلق السموات والأرض) أي : أن الإبتداء في الخطاب من الإنسان. هذا الإنسان يريد القرآن أن يوصله إلى الإيمان بالله، ومن أجل أن يوصله إلى الإيمان بالله سترون أنه سيجعله يمر بالكون وآياته. الإسلام يوصل الإنسان إلى الله، وإلى الإيمان بالله، وإلى عبادته بجميع أنواع العبادة التي شرعها.

وسترون أن هنالك فلسفات أخرى تجعل الإنسان يولي ظهره إلى الكون حتى يصل إلى الله ؛ فإما أن يؤمن بالله وإما أن يلتفت إلى الكون فيحصل عنده نوع من التناقض، فتصبح الحياة عنده لعنة، ويصبح التفكير في هذا الكون أمراً منافياً ومناقضاً للإيمان. وهكذا يكون بين حياة الإنسان الكونية وحياة الإنسان الايمانية تناقض وتعارض !

هذا التناقض والتعارض تمثله المسيحية المحرفة والبوذية وما أشبههما من الأديان التي تدعو إلى حياة الروح فحسب وتحتقر التفكير والحياة بجميع جوانبها التي أنعم الله بها علينا وتعطي لما أنعم الله به علينا من النعم وسماه نعماً وفضلاً ورزقاً صفات مخالفة ومعاكسة لهذه الصفة. ولذلك فإن هذا التعارض انتهى إلى فلسفة ثالثة هي أنه ليس هنالك إلّا الإنسان والكون ! وهنا نصل إلى الفلسفات الالحادية سواء أكانت الحادية مادية أو الحادية غير مادية ؛ المهم أنها تحذف من تصورها وجود الله !. وسنشرح نحن النظرة الأولى والتي هي :

النظـرة الإسلاميـة :

النظرة الإسلامية ـ كما قلت ـ تبدأ بالمخاطب وهو الإنسان وتنطلق به من ملكوت السموات والأرض أو من نفسه ! ونفسه ليست إلّا جزءاً من

هذا الكون، (وفي الأرض آيات للموقنين. وفي أنفسكم أفلا تبصرون ؟). ابتدأ إذاً بنا من الأرض التي نعيش عليها، وفي الأرض آيات، دلائل، وقرائن تدل على ما وراءها، على خالقها، فانظروا إليها إذاً (وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض). فالانطلاق إذاً من ملكوت السموات والأرض :
(سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق)، فترون في هذه الآيات الثلاث الانطلاق من الأرض ومن الأنفس، ومن الآفاق، ومن ملكوت السموات والأرض : (انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه، إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون) ؛ هذا النظر الذي سيوصلكم إلى الإيمان.

فإبراهيم عليه السلام أراه الله ملكوت السموات والأرض ليوصله إلى **اليقين، وليس إبراهيم عليه السلام هنا ـ وهو نبي مختار ومصطفى ـ ليس إلا** مثالاً لأي إنسان : حتى يصل إلى اليقين لا بد أن يرى ملكوت السموات والأرض وما فيهما من آيات.

المخاطب أولاً هو الإنسان ؛ ثانياً : المنطلق هو الكون، الأرض والسموات !. والإنسان داخل فيها وهو جزء منها، والهدف هو الوصول إلى **الإيمان بالله وعبادته، (وليكون من الموقنين)، (لآيات لقوم يؤمنون). الإيمان** الذي هو تصديق وإقرار وقناعة وعبادة في النهاية هو نتيجة ووسيلة للوصول إلى هذا الهدف، من المنطلق إلى الهدف وهو العقل (إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون)، (إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون)، (انظروا إلى ثمره إذا **أثمر)، (وكذلك نري) الرؤيا القلبية.**

فإذاً الأداة التي نصل بها من المنطلق، وهو الكون وآياته، إلى الهدف وهو الله والإيمان به وعبادته هو العقل الذي أنعم الله به على البشر.

واختصاراً للموضوع، سأسلك طريقة الاعتماد على النصوص لأنني قد أقول قولاً قد لا يكون لي فيه شاهد من القرآن فأكون أنا قد اخترعت فكرة وقد لا تكون صحيحة ! ولكن حينما أضع بين أيديكم نصاً من كتاب الله وأقول : هذا هو النص، وتشاركونني حينئذ فتقولون : نعم، هذا استنباط صحيح، والآية تدل على هذا ؛ يكون الأمر مشتركاً بيننا. فأختار لكم آيات قد تكون أجمع الآيات في موضوعها الذي تجدونه منشوراً في القرآن. ولكن

هذه الآيات على الخصوص كأنها جمعت الموضوع من أطرافه ! وهي ابتداء من الآية الثالثة من سورة النحل بعد الآيتين الأوليين : (بسم الله الرحمن الرحيم، أتى أمر الله فلا تستعجلوه، سبحانه وتعالى عما يشركون ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلّا أنا فاتقون). بعد هاتين الآيتين، كأن الله سبحانه وتعالى أراد بهما تهيئة النفوس يعني ترهيباً وتخويفاً وإعداداً لسماع ما سيأتي من الحجج العقلية، بعد ذلك تبدأ الآيات التي هي موضع الشاهد عندنا، (خلق السموات والأرض بالحق، تعالى عما يشركون). وكأن هذه الآية جاءت بالعنوان المجمل الذي سيفسر (خلق السموات والأرض بالحق فتعالى عما يشركون. خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين. والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون. ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون. وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلّا بشق الأنفس، إن ربكم لرؤوف رحيم).

أراد الله سبحانه أن يجعلنا نفكر في الخلق، خلق الإنسان والأنعام ؛ ولكنه ذكر شيئاً آخر هو منافع الأنعام (ستأتي بعد ذلك). ستجدون في الآية نقطتي إرتكاز : خلق أصل الشيء، ومنافعه. ستجدون في كل آية تقريباً هاتين الركيزتين : (ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون)، فهذه ركائز أولها : التعجب والتفكر في أصل خلق الشيء : (ولكم فيها جمال)، (والخيل والبغال والحمير)، والخيل معطوفة على خلقها، وخلق الخيل منصوبة لفعل محذوف ؛ وخلق الخيل والبغال والحمير لتركبوها وهذه منافع، وزينة، وهذه جمال، (ويخلق ما لا تعلمون. وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر، ولو شاء لهداكم أجمعين) ؛ وعلى الله أي : الدلالة إلى الطريق القويم بواسطة عقولكم، فقد اقتضت حكمته أن يخلقكم هكذا ؛ وأن يدلكم على السبيل ؛ وعليكم أنتم أن تفكروا، ومن هذه السبل ما هو مائل ومنحرف ومنها جائر ولو شاء لجعلكم كسائر مخلوقات الكون، فهو اما مفطور على الحركة أو على السكون أو بالغريزة، ولو شاء لهداكم أجمعين : (وهو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب)، منافع انتفاع استثمار (ومنه شجر فيه تسيمون)، ترعون أنعامكم (ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات، إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون). حينما يتفكر الإنسان

في نزول الماء وكون الماء فيه خاصة الإنبات وتحريك التراب، (وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت)، تحريك التراب ثم نمو النبات.

هذا الارتباط عليكم أن تفكروا فيه لأنكم ستسألون : من رتب على نزول الماء تحريك التراب ونمو النبات ؟ هذه سنة في الكون ولكن من وضعها، من شرعها ؟ هل الماء نفسه أعطى نفسه هذه الخاصية ؟ هل التراب أعطى نفسه هذه الخاصية ؟ هل كوّنَ التراب والماء مؤتمراً واتفقا على أن ينبت الماء النبات بواسطة التراب ؟ فكروا في هذا ! (ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون). التفكر الأداة، أداة الوصول هي التفكر والتعقل، (وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون)، بالجمع انتقل بنا إلى العالم الفلكي وهناك العالم النباتي والعالم الحيواني والعالم الإنساني وهي جميع ما في السموات والأرض (ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون).

ثم تعود الآيات بعد ذلك إلى شيء من تفصيل ما في الأرض على الخصوص لأن صلة الإنسان بالشمس والقمر والنجوم والكواكب صلة بعيدة لا يعرف تفصيلها، وأما الأرض فهي التي هو في تماس معها ويعرف الكثير من أحوالها وأجزائها : (وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه)، هذه الأشياء المتنوعة المختلفة التي في الأرض المتعددة الألوان التي وزعها الله سبحانه وتعالى ــ خلقها موزعة في هذه الأرض والتي يشير اليها في آية أخرى حينما يتكلم عن الجبال البيض والسود وعن الأنعام والدواب، وكذا، وتنتهي الآية (انما يخشى الله من عباده العلماء). الحديث عن الألوان متكرر في القرآن أكثر من مرة، ففي سورة الروم : (ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم، ان في ذلك لآيات للعالمين)، (وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه).

اذاً هنا نأتي للكلام عن الأرض والألوان ألوان الموجودات، (وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه، ان في ذلك لآية لقوم يذكرون)، (وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها، وترى

الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون).

والكلام هنا عن البحر، وقد أشار إلى البحر من عدة نواح : أولاً : من حيث خلقه، (وهو الذي سخر البحر)، والتسخير هو نتيجة بعد الخلق طبعاً. أولاً : خلق هذا البحر، ثانياً : بعد ذلك المنافع التي سخرت لنا في هذا البحر : (لتأكلوا منه لحماً طرياً) أي : استخراج السمك (وتستخرجوا منه حلية تلبسونها)، جمال اللؤلؤ الذي يستخرج من البحر ! هذه تلحق بقوله (لتركبوها وزينة)، وقوله (ولكم فيها جمال). ثلاث نقاط تتعلق بالجمال (وترى الفلك مواخر فيه) ؛ عبور السفن والفلك في البحر طبعاً هو في منفعة الإنسان، يسخره لمنفعته فينقل البضائع وينقل الأشخاص، فهذا ــ أيضاً ــ من تسخير الله البحر لمنفعة الإنسان ؛ (ولتبتغوا من فضله). وهذا السعي في كل هذا سواء في استخراج السمك أو اللؤلؤ أو في ركوب البحر وتسخيره لنقل البضائع، كل هذا سماه ابتغاء من فضل الله، كما ورد هذا التعبير في آيات أخرى : (وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله)، فسمى السعي والنشاط الاقتصادي ابتغاء من فضل الله ؛ انظروا كيف زين لنا العمل وحببه الينا وسماه ابتغاء من فضل الله حتى لكأن الإنسان الذي لا يعمل ولا ينشط اقتصادياً وعملياً معرض عن فضل الله !! (ولتبتغوا من فضله)، ولكن النهاية... ماذا ؟ ما النهاية في التفكير في كل هذه الأمور ؟ (ولعلكم تشكرون)، عبادة الله وشكره ! هذه هي النقطة الثالثة. (وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون. وعلامات وبالنجم هم يهتدون) الرواسي : الجبال ؛ وكلمة رواسي كلمة دقيقة جداً فان الجبال الآن من الوجهة العلمية ثلثاها مغمور تحت الأرض والقسم الظاهر يعدل الثلث ؛ وهي أشبه بالأضراس. الضرس عند الإنسان له جذر مختبىء تحت اللثة إلى الأسفل رآسي.

فالجبل الآن حينما يدرس علماء الجغرافيا وعلماء الجيولوجيا أو طبقات الأرض يبينون أن هذا الجبل له جذور وهي أكبر من الجبل الظاهر، ذلك هو راسي في الأرض ؛ (وألقى في الأرض رواسي)... كلمة مهمة جداً جمع راسي رواسي، (وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم)، أي لئلا أو خشية

أن تميد ؛ فالجبال كما يقول علماء الجغرافيا والجيولوجيا موزعة توزيعاً متناسباً على الأرض بحيث لا تميد.

وهنا أحب أن أقف وقفة قصيرة استطرادية ولكن لها صلة بالموضوع ؛ لأهميتها، أحب أن أقف عندها قليلا. بعض الناس أراد أن يستشهد بهذه الآية على ثبات الأرض، والاستشهاد هنا ـ لغوياً ـ غير صحيح ! هذه الآية ليست نصاً لا في الحركة ولا في الثبوت ! فالمنفي هنا : المَيدَانَ. ومَادَ يميد في اللغة هو الاضطراب. والمنفي اذاً هو الاضطراب. عندكم في اللغة العربية أفعال : مال يميل، وماس يميس، وماد يميد، وماج يموج، وماع يميع، (ما) حرفان ثم يأتي حرف ثالث، كلها تدل على الحركة ! ولكن خصصت ماس يميس للأشياء الناعمة ؛ وماج يموج للبحر ؛ ومار يمور للأشياء الثقيلة (تمور الجبال موراً) ؛ وماع يميع للسوائل ؛ وماد يميد للاضطراب ؛ فتقول : الصاحي يمشي ولا يميد، والسكران يمشي ويميد. وتقول : السفينة في البحر قد تكون واقعة فتضع فيها الأحمال موزعة توزيعاً سيئاً فتضع في اليمين ما هو أثقل عشرة مرات مما هو في اليسار وتضع في المقدمة ما هو أثقل خمس مرات مما هو في الخلف، فهذه السفينة ستضطرب. هذه المنضدة لو جعلنا أرجلها متفاوتة الطول ستميد يمنة ويسرة وأماما وخلفاً. فالميدان هو الاضطراب سواء أكان الشيء ساكناً أم متحركاً ؛ فالذي نفاه الله سبحانه وتعالى في هذه الآية هو : الاضطراب ؛ نفى عن الأرض الاضطراب ؛ ووزع الجبال على هذه الأرض وأرساها حتى يكون توزيعها بهذا الشكل مانعاً من اضطراب الأرض ومؤدياً إلى توازنها. فاذاً الآية هذه ليست دليلاً لا على الثبوت ولا على الحركة ولكن الاعجاز في أن تكون الأرض متوازنة بواسطة الجبال ! الاعجاز أقوى عندما تكون الأرض مع حركتها متوازنة : « وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون. وعلامات وبالنجم هم يهتدون».

جاءت النجم معنا من العالم الفلكي بجامع الاهتداء بها، كما أنه يهتدى بالسبل، وعلامات كثيرة في الأرض من الجبال كالأنهار، فكذلك يكون الاهتداء بالنجوم.

(أفمن يخلق كمن لا يخلق، أفلا تذكرون ؟) انظروا إلى النتيجة التي أوصلتنا إليها الآيات !! أولاً : نجد هنا أن الموضوع تناول الكون كله : السموات والأرض، ملكوت الله جميعاً. وجاء التفصيل المتعلق بالأرض، فجرى الحديث عن الانسان وخلقه وكيف انتقل من نطفة صغيرة إلى مخاصم فصيح يناقش ويجادل، (مبين)، يفصح !

ثم بعد ذلك الاشارة إلى خلق الأنعام ودواب الركوب، وإلى خلق الماء والنبات، وإلى خلق الشمس والقمر، وما إلى ذلك، وخلق البحر والجبال والأنهار.

الفكرة الأولى : التفكر في أصل خلق الشيء، فهنا الكون موضوع للتفكير. مدعاة للتفكير. مسرح للتفكير. وهذا التفكير هو أولاً، التفكير في الشيء نفسه. كيف ينزل الماء ؟ كيف بنزول الماء يتحرك التراب فينمو النبات ؟ التفكر في أوضاع الكون نفسها ؛ ثم هذا التفكير لا يقف هنا كما يقف تفكير الماديين، بل يطرح السؤال الذي طرح في آخر الآيات يتناول كل ما سبق : « أفمن يخلق » أي يخلق الإنسان والأنعام والنبات ... الخ. (كمن لا يخلق ؟) هل هذه الأشياء التي ذكرت خالقة ؟. هل البحر خالق ؟ هل الماء خالق ؟ ... الخ. هل الإنسان خالق ؟ وهو أقدر هذه الأشياء. ولا نعرف أن الإنسان يستطيع أن يخلق ذرة ! فهذه كلها لا تخلق : (أفمن **يخلق** كمن لا يخلق ؟!) هي اذا طرحت المشكلة التي جاءت في آية أخرى : (أم خُلِقوا من غير شيء أم هم الخالقون أم خَلَقوا السموات والأرض ؟).

إذاً لا بد من خالق. فاذاً انطلق بنا من طرح المسألة طرحاً عقلياً تماماً لننتهي إلى نتيجة ملزمة عقلياً ومنطقياً، (أفمن يخلق كمن لا يخلق، أفلا تذكرون ؟) تذكروا !! اربطوا كل هذه الأشياء !! من وضع هذه السنن وقدرها ؟؟ اذاً نلاحظ في مجموع هذه الآيات أنها شملت الكون كله، بسمواته وأرضه وما فيهما. وهذه النظرة واسعة الآفاق، وأن الكون هنا موضوع تفكير بالنسبة للانسان.. تفكير في الكون في ذاته ليقف عند كل جزء من أجزائه (وتفكير في البداية) من خلقهم ؟ فالكون هنا موضوع

تفكير، وموضوع انتفاع واستثمار.. نهتدي بالسبل والنجوم، ننتفع بالأنعام ودواب الركوب (ننتفع بالبحر... الخ. والكون أيضاً متعة وجمال : (ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون) ؛ (لتركبوها وزينة)، (حلية تلبسونها). طبعاً يلحق بهذا ما يأتي في غيرها ؛ مثلاً (حدائق ذات بهجة)، (قل من حرم زينة الله)، من الآيات التي تشير إلى الجمال.

صـــورة الكــون :

هنا نعود بعد ذلك إلى توسيع أفق الاستشهاد بعد أن استشهدنا بآيات جامعة. نريد أن نستخرج **صورة الكون**. صورة الكون أمر مهم جداً. ربما تقولون ما لنا ولهذا البحث، نحن لم يسبق لنا في كتب العقيدة أن قرأنا بحثاً تحت عنوان الكون. وجوابي على هذا : أن كل ما في كتاب الله مهم ويجب أن يدرس. **شيء آخر يجب أن نلتفت إليه. نجد أن الله سبحانه** وتعالى في القرآن دعانا إلى قبول وتصديق حقائق معينة أراد أن نؤمن بها ونصدقها، وهي الايمان بالله، والايمان باليوم الآخر، والايمان بالنبوة المخبرة عن ذلك.

هذه الأمور الثلاثة هي الحقائق الكبرى التي دعا القرآن، بالحاح وتكرار وتأكيد، إلى الإيمان بها ؛ وهذه نسميها عقيدة ؛ وسماها القرآن الايمان، ويمكن أن نسميها مضمون الايمان القرآني.

ما الفرق بين استعمال كلمة الايمان وكلمة العقيدة ؟ العقيدة كلمة اصطلاحية ليست في الكتاب والسنة وانما وضعت لهذا المعنى.

ما الفرق بينها وبين الايمان ؟ الايمان أوسع لأن الايمان هو تصديق عقلي ولكنه ليس فقط قناعة عقلية. فهو تحرك نفسي. أنت حينما تكون مؤمناً يترتب على ايمانك عبادة وخوف ورجاء وشكر واستعانة واستغاثة ! أما القناعة العقلية فهي إما أن تؤمن أن هذا الشيء موجود أو غير موجود. فهي مجرد تصديق. لكن الايمان فيه قرب وبعد وقوة وضعف ؛ يزداد الإنسان ايماناً.

كلمة الايمان اذاً أوسع وأشمل من العقيدة، فهي تتضمن عنصراً عقلياً وعنصراً نفسياً في آن واحد. هو تصديق عقلي، ولكن أيضاً انفعال

نفسي بهذا التصديق. فالكلمة المستعملة في الكتاب والسنة هي الايمان، والمضمون الذي طلب منا أن نؤمن به استخرجه علماء التوحيد فسموه عقيدة.

هنالك أنواع أخرى من الحقائق تمر في القرآن ولا نسميها عقيدة، ولكنها أيضاً مهمة، وهي في القرآن وسيلة إلى العقيدة. فالقرآن حينما يحدثنا عن السماء وعن الأرض وعن النجوم وعن الكواكب وعن الجبال والبحار... الخ. حينما يحدثنا عن كل هذا.. لماذا ؟ لأنها طريق إلى العقيدة، لأنه يريد أن نرى في هذه الأشياء آيات وعلامات تدل على الله وعلى قدرة الله وعلى علم الله وعلى رحمة الله... الخ.

فاذاً هذه مهمة، ولذلك ـ أيها الاخوان ـ اهتممت شخصياً بهذه الآيات منذ مدة طويلة، ولاحظت أن هذه الآيات أثرت في نفوس المسلمين وتفكيرهم تأثيراً كانت له نتائج عظيمة وفي غاية الأهمية، وأن هذه النظرات تضمنها القرآن، والقرآن لا يتضمن إلا حقائق. والقرآن أشار اليها ولفت نظرنا اليها وألح علينا في النظر اليها. هي مهمة وسترون أهميتها. ولذلك فانني أريد أن أذكر لكم خصائص وصفات العرض القرآني للكون.

الآن المحدثون في هذا العصر أحياناً يطلقون كلمة أخرى على الكون يجب أن نعرفها حتى لا نغتر بالمصطلحات ـ يستعملون كلمة الطبيعة. ويستعملونها بمعنى غير الذي كان يستعمل عندنا في كتب الفلسفة القديمة التي كانت عند المسلمين والمأخوذة عن اليونان. ان كلمة (طبيعة) بالعربية وكذلك في اللغات الأخرى يريدون بها في عصرنا كل ما في هذا الكون ! ويمكن أن نسمي هذا في اصطلاحنا الإسلامي عالم الشهادة، لأن هنالك عالمين : عالم مغيب عن حسنا، وهو عالم الغيب ؛ وعالم نشهده ؛ (وكلمة نشهده) رائعة لأنها جمعت الحواس كلها، .. فأما أن نسمعه كالرعد، وأما أن نبصره كالبرق والنجوم، واما أن نتذوقه... الخ. كل هذا يشهد !! فأنت تشهده باحدى حواسك. والله سبحانه وتعالى عالم الغيب والشهادة ؛ فهو عالم بالعالمين. وكلمة الكون كلمة استعملت قديماً ؛ وفي القرآن اشارة اليها، (انما أمرنا لشيء اذا أردناه أن نقول له كن فيكون)، فهي عملية تكوين وخلق ؛ فالكون هو الذي كونه الله وخلقه.

ما هي صفات العرض القرآني للكون أو للطبيعة ؟ ذلك ما سنفصله فيما يلي :

أولاً : ان القرآن لفت نظرنا مراراً وتكراراً إلى الكون، وأجزائه وحوادثه، كرر وألح فلا بد اذاً أن الأمر مهم !!

ثانياً : الشمول. العرض القرآني للكون لم يقتصر على البيئة التي وجد فيها محمد عليه الصلاة والسلام وقومه، وهي الصحراء، التي ليس فيها زرع ولا أنهار ؛ مثلاً : البحار المتلبدة الغيوم الموصوفة في قوله تعالى : (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء، حتى اذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه. والله سريع الحساب. أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب، ظلمات بعضها فوق بعض، اذا أخرج يده لم يكد يراها). مشهد غير موجود هنا. اذهبوا إلى جدة أو إلى رابغ لا تجدون هذا المشهد لا في الشتاء ولا في الصيف ! هذا المشهد لا تجده إلا في السويد أو النرويج أو... الخ. قال هذا الامام الشاطبي ؛ قال : لما ذكر في القرآن النخيل والأعناب والرمان والزيتون دون غيرها ؟ فأين التفاح والموز واللوز والكمثري ؟ قال : هي مذكورة ؟ ولكن الله سبحانه وتعالى أول ما خاطب خاطب العرب... خاطبهم بما يألفون من الثمار، لأنها ليست مقصودة بالذات ؛ ولكن مع ذلك تجدون مثل قوله تعالى : (وهو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون. ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب **ومن كل الثمرات**). فهي تشمل جميع الفواكه. وكذلك حينما ذكر بعض الحيوانات فقال : (والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة، **ويخلق ما لا تعلمون**)، شملت ما لم يعرفه العرب وقتها كالتمساح وغيره وتشمل من وسائل الركوب التي وجدت بعد ذلك كالسيارات والطائرات، كل هذا يشمله قوله تعالى : (ويخلق ما لا تعلمون)، وهكذا أجاب الشاطبي رحمه الله على هذه النقطة بأن الله خاطب العرب بما يألفون لأنهم هم الذين خوطبوا بالقرآن أولاً بلغته العربية ليبلغوه للناس جميعاً حتى أنه ذكر لهم في الجنة من الفواكه ما يعرفون ويألفون، ثم ذكر بعد ذلك لهم فيها ما تشتهي الأنفس، ولم يفتن عقولهم بضرب الأمثال

بأشياء لا يعرفونها.

أعود فأقول ان الصفة الثانية من صفات العرض القرآني للكون هي صفة : **الشمول** ؛ انه يشمل بحار الدنيا كلها، ونباتاتها وزروعها وحيواناتها، ويشمل السماء والأرض : (والسماء بنيناها بأيدٍ وإنّا لموسعون)، والآن يقولون : ان الكون واسع بأوسع ما يستطيع الانسان تصوره !

الصفة الثالثة : هي صفة **الحركة**. هذه الصفة مهمة. الاشارة إلى حركة الكون متكررة في القرآن بشكل يلفت النظر حقيقة. حينما يقول عن الشمس والقمر بتعميم عجيب : (وكل في فلك يسبحون)، (وترى الأرض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت) ؛ نحن لا نراها حين ينبت النبات أنها تهتز، هناك حركة. أنت تراها هامدة ؛ وهي ليست هامدة، وما أكثر خداع البصر ! (أو لم يروا أنّا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها ؟) الأرض تتحات أطرافها وتنقص. والكون في حركة وتوسع : (والسماء بنيناها بأيد)، والأيد والأيدي القوة : (وانا لموسعون)، اذاً الخلق يتوسع. هذه الحركة أمر مهم جداً.

وهنا أحب أن أنبهكم إلى فكرة مهمة جداً في الرد على الماركسيين وهي فكرة غير معروفة. « ماركس » هذا يقول هو وأصحابه : « ان أصحاب الأديان يزعمون أن الكون ثابت »، لأنه نتيجة ارادة ثابتة، فهو عالم ثابت غير متحرك ؛ والحقيقة أن العالم متحرك وليس هناك ارادة علوية » ؛ يريد أن ينفي وجود الله. ويقول : ان هذه الفكرة انما أوجدها أصحاب رؤوس الأموال ! تفسير عجيب ! فهو يزعم أنهم اخترعوا هذه الفكرة : فكرة وجود الاله وادعوا أن له ارادة ثابتة وأن الكون ـ بالنتيجة ـ ثابت من أجل ألا يتغير المجتمع لأنهم لا يريدون تغيير المجتمع !!

حينما قرأت هذه الفكرة عند الماركسيين قلت انه من المعجز أن القرآن يكرر الاشارة إلى الحركة في آيات كثيرة، وكأنه يرد سلفاً على الشبهة السخيفة ! فنقرأ في القرآن (وكل في فلك يسبحون) ؛ كلمة يسبحون هنا : عجيبة ودقيقة جداً ليس هناك أدل وأصدق وأحسن كلمة لتصوير النجوم المتحركة منها !! وكذلك حال الأجسام، فقد وجد العلماء أن ذرات الأجسام

كلها أخيراً تنتهي إلى ذرة صغيرة جداً، وهذه الذرة تتكون من ذريرات صغيرة يسمونها كهارب موجبة وكهارب سالبة تدور حول نواة لا ترى بالعين المجردة ! وهي في دوران ! ومن الأعجب أن الدوران في نفس اتجاه الطواف أي علي عكس عقارب الساعة ! وقال تعالى : (وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب)، هي على التفسيرين، سواء افسرناها على قول من يقول بأن المراد بها في الآخرة، ومن يقولون : هذه لم يرد بها الآخرة، بل الدنيا. بدليل قول الله بعدها : (صنع الله الذي أتقن كل شيء) ؛ فالاشارة إلى اتقان الصنع، الأوجه أن يكون في الدنيا وليس في الآخرة.

وفي هذا رد على ماركس وأصحابه الذين يتهمون الدين ـ وهذا لا ينطبق على الإسلام ـ بأنه يصور الكون صورة جامدة واقفة راكدة لا تتحرك. فالكون في القرآن كله في حركة (وكل في فلك يسبحون) ؛ « كل » بالتنكير والتعميم. وقد ثبت عند علماء المادة أن كل شيء يتحرك... (وكل في فلك يسبحون)، وفي هذا معجزة قرآنية.

الخاصة الرابعة : هي الاطراد والانتظام في الكون. فالقرآن الكريم يشير إلى تعاقب الحوادث بانتظام، (والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم)، تقدير دقيق، (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون)، مع أن كلا في فلك يسبحون. فلا تصادم بينها. وحينما يريد الله أن يغير هذا النظام، حينئذ يجتمع الشمس والقمر وهذا يوم القيامة.. أما الآن (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار) يعني فيه انتظام (وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا به) أي : كلما أنزلنا ماء أنبتنا، فالنبات أمر يلي نزول المطر، فقد ربط أمراً بأمر وأشار إلى ترابط الحوادث، (الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله)، حادثة وراء حادثة وراء حادثة، وكأن الله سبحانه وتعالى يشير الينا أنه خلق هذا الكون مترابط الأجزاء مترابط الحوادث.

وهنا استنبط علماؤنا وأسلافنا ما نسميه بنظام السببية، حتى أن ابن تيمية ـ رحمه الله ـ رد على بعض متأخري الأشاعرة الذين يقولون بنظرية هي

أقرب إلى الاعتباطية أو الفوضوية فيقولون ان السكين تقطع عندها لا بها، وهم كأنهم خافوا أن نقول : أن السكين هي التي تقطع فأننا بذلك، على رأيهم، ننفي قدرة الله على القطع، والأصل أن القدرة هي من الله. فالله سبحانه وتعالى أعطى السكين خاصة القطع، وأعطى الشيء المقطوع خاصة أن تعمل به السكين وأن يقطع. وجعل مثلاً الرياح تحرك السحب، وجعل السحب تتراكم، وجعل تراكم السحب مؤدياً إلى تلاحقها بواسطة الرياح، فحينئذ ينزل المطر، فرتب أمراً على أمر على أمر. قال ابن تيمية : ان الله عودنا أن يفعل بالأسباب يعني : أن يجري هذا الخلق على طريقة تعاقب الأمور بعضها وراء بعض وترابطها. هذه الخاصة التي أشار اليها القرآن مهمة جداً لأنها هي مرتكز العلوم. العلوم تقول لنا : كلما وضعنا المادة الفلانية مع المادة الفلانية ينشأ كذا، اذا حدث كذا يحدث كذا بانتظام واطراد. والعلوم المعروفة بعلوم الكون أو الطبيعة أو العلوم الكونية كالكيمياء والفيزياء وما إليها مترتبة على وجود هذه الأسباب.

وعلماؤنا المسلمون وخاصة السلفيين منهم ؛ وخاصة المعلمين منهم، أكدوا على وجود هذه الأسباب، لكن سنبين فيما بعد أن السبب ليس خالقاً، لأن الله خلق السبب وهو الحادثة الأولى والمسبب وهو الحادثة الثانية وخلق الارتباط بينهما، فلو شاء لما ولد السبب نتيجته، ويوم القيامة وبعد البعث ربما يخلق نظاماً آخـر وسببية من نوع آخر. ان الله سبحانه وتعالى حينما أشار في القرآن إلى ترابط حوادث الكون التي خلقها وخلق ترابطها بعضها ببعض وانتظام هذا الكون الذي وصفه بأنه، (ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت)، هذا النظام الذي جعله على سنن مطردة يسمونها « قوانين **الطبيعة** » ونسميها نحن بالتعبير الإسلامي « سنن الله » في الكون ؛ وهي مبنية على مقادير وكميات محسوبة. يقول الله تعالى في كتابه : (وان من شيء إلا عندنا خزائنه، وما ننزله إلا بقدر معلوم)، (وأنزلنا من السماء ماء بقدر).. (الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد، وكل شيء عنده بمقدار).. (انا كل شيء خلقناه بقدر) أي : بمقدار كما قال ابن كثير في تفسيره : كل شيء مخلوق بكمية محسوبة، (وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام)، يعني جعلها بكميات تكفي للبشر وللحيوان،

(قوارير من فضة قدروها تقديراً)، (وقدرنا فيها السير)، (ومن نطفة خلقه فقدره)، (قد جعل الله لكل شيء قدراً)، قال ابن كثير : هي بمعنى (كل شيء عنده بمقدار) فالآيات الثلاث : (كل شيء عنده بمقدار) (انا كل شيء خلقناه بقدر)، (قد جعل الله لكل شيء قدراً)، كلها بمعنى واحد، (وخلق كل شيء فقدره تقديراً) يعني : جعله بأوضاع وكميات ومقادير وكيفيات محسوبة ومعلومة عند الله (الذي خلق فسوى. والذي قدر فهدى).

وعلى هذا يكون من معاني القدر أن الله سبحانه وتعالى خلق كل ما خلق بتقدير مسبق لكمياته وأوضاعه.

ورد في الحديث (وذكر هذا الحديث السيوطي في كتابه « الدر المنثور بالتفسير بالمأثور »)، « أن الله قدر مقادير الخلائق قبل خلقها بخمسمائة عام » (رواه مسلم). الله سبحانه وتعالى قدر المقادير قبل الخلق، والمهندس يضع التصميم قبل التنفيذ، ولله المثل الأعلى ولكن على سبيل التقريب ؛ المهندس قبل أن يبني البناء يرسم خريطة ويضع عليها المقاييس، هذا بارتفاع كذا، وهذا بطول كذا. كميات كذا من الحديد والخشب ؛ الله سبحانه وتعالى كما ورد في هذا الحديث : « ان الله قدر مقادير الخلائق... ـ والمقادير جمع مقدار ـ قبل خلقها بخمسمائة عام ». طبعاً هذا زمن الله أعلم به. فاذا كان الإنسان ـ وهو مخلوق ـ يصنع شيئاً يسير بسرعة معينة وبكيفية معينة، فهو بعد ساعة ونصف وخمس دقائق يعرف أين سيكون وبأي سرعة يكون، لأنه هو الذي أعده وهيأه وصنعه وجعله بسرعة معينة، فهو قبل أن يصل هذا الصاروخ إلى مكان معين يقول : بعد ساعة وخمس دقائق يكون في كذا لأنه هو الذي أطلقه بسرعة معينة، فكيف بخالق الكون الذي خلقه وقدر كل ما فيه من أوضاع وأحوال وحركات وسرعة وغيرها ! طبعاً حينئذ ما دام البشر، وهم مخلوقون، يعرفون ما سيكون لأنهم هم الذين صنعوا ولم يخلقوا، والله الذي صنع الأشياء بل خلقها وأوجدها من العدم وقدر كل ما فيها، فمن السهل أن ندرك ونعقل أنه سبحانه يعلم ما سيكون من أمر هذه الأشياء التي رتبها هو بمقاديرها.

هذه فكرة المقادير بنتيجة ما سميناه انتظاماً وترابطاً واقتراناً وهو ترابط

مطرد منتظم وما نشأ عنه من فكرة السنن الموجودة في الكون في جميع عوالمه، في عالم الإنسان والحيوان والنبات والأفلاك، وأن هذا الانتظام مبني على مقادير، وهذه المقادير مرتبطة بسنن نسميها أحياناً « قوانين الكون » — هي قوانين الله أو سنن الله في الكون.

نلاحظ اشارة في هذا الموضوع، كخلاصة لما قلناه، أن الكون مبني على توازن أو مبني على القسط. فالله خلق السموات والأرض بالحق وبالقسط، (وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم)، (والسماء رفعها ووضع الميزان)، فكل شيء جعله بميزان أي : بتوازن، وعلى سبيل المثال : توزيع **الجبال على سطح الأرض توزيعاً متناسباً بحيث لا تختل حركة الأرض ولا** تميد، (وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم). موضوع القسط هذا موضوع مهم جداً، فالسموات والأرض وكل ما فيها مبني على التوازن والقسط، وان حياة الإنسان كما كلفه الله بها في تشريعه الذي أوحى به مبنية على القسط، (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط)، حتى اننا نستطيع أن نلخص الإسلام كله، بأن عقيدته وهدفه التوحيد، وقاعدته في الأخلاق والتشريع القسط.

التوحيد والقسط ذلك هو الإسلام، فالتوحيد هو خضوع الإنسان وكل شيء لله ولمنهج الله ولتشريع الله ولحكم الله، وهذا ما تعبر عنه (لا إله إلا الله)، والخضوع لله وحده والخضوع لتشريعه ودينه هو ما يعبر عنه قول (محمد رسول الله)، فالقسط الذي هو في الكون آلي، وبالنسبة للحيوان مثلاً غريزي، وأما بالنسبة للانسان فاختباري، ولذلك جاء في الآية (ولله يسجد من في السموات ومن في الأرض والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب)، كل ما ذكر مما عدا الناس يسجد لله ويطيعه : الشمس تدور في حركتها، والكون يسير في حركته، (كل في فلك يسبحون)... الخ. والشمس تشرق من الشرق وتغرب من جهة الغرب وكذا، كل هذا يسير بشكل يقول : (أتينا طائعين) ؛ إلا الانسان فأعطي جهاز الحرية ولذلك لم تستعمل في الآية لفظ كثير وكثير إلا للبشر، وأما الأخرى : فهي تطيع طاعة كاملة بلا خيار !.

ثمة خاصتان أو ملاحظتان مهمتان تتعلقان بنظرة الإسلام إلى الكون : الأولى منهما : اقصاء الخرافة عن الكون، وهنا لا حاجة لأن نذكر الأحاديث الكثيرة المتعلقة بالطيرة والرقي والتمائم والكهانة والعرافة وما إلى ذلك مما عُدّ من أنواع الشرك، **فهذه أشياء كأنها تنكر سنن الله في الكون** وتجعل الأمور اعتباطية، فاذا طار طائر إلى اليمين حصل كذا ــ وهو السانح ــ، واذا طار إلى الشمال يحدث كذا، ضرب في الرمل ! فتبين الصورة الفلانية أنه يحدث في حياة الإنسان كذا ــ قال ﷺ : « من أتى عرافا فصدقه لم تقبل له صلاة أربعين يوماً »، « الرقي والتمائم والتولة شرك »، وقال : « لا طيَرَةَ... » الخ. إلى ما هنالك من أحاديث كثيرة ذكرت بعضها في كتاب « الإسلام والفكر العلمي »، حيث ذكرت عدداً من الأحاديث الواردة في محاربة الخرافة في تصور الكون !. أما الأمر الثاني : فهو أنه يلاحظ أن الموجودات التي يذكرها القرآن نوعان : نو ع يمكن أن نطلق عليه عالم الشهادة، أخذاً من قوله تعالى وصفاً لنفسه : (عالم الغيب والشهادة) « بكسر لام عالم »، الله سبحانه وتعالى عَالِم، عالمُ الغيب وعالِم الشهادة، فلنأخذ التسمية من كلمة الشهادة وهي كل ما يشهد بأي حاسة من الحواس كل ما يستطيع الإنسان أن يدركه، وعالم مغيب عنا كالروح والآخرة **ويدخل فيها الملائكة والجن وابليس وما إلى ذلك. فالقرآن أخبرنا بوجود عالم** الغيب من جملة موجوداته مثلاً الملائكة والجن وابليس، نحن لا نستطيع أن نراها، ولا أن نذخلها في مخبر الكيمياء أو الفيزياء ولا في مرصد الفلك ؛ لا نستطيع ذلك ولا يمكن ولكن ليس هذا دليلاً على عدم وجودها، ومن الخطأ **أن نقول : أن كل ما لا ندركه بحواسنا ليس موجوداً ــ فعقولنا لا تدركها** حواسنا ولكن تدرك آثارها ومع ذلك فعقولنا موجودة.

فهنا نلاحظ أن الآيات القرآنية التي تذكر الكون، الأرض، الجبال، السهول، البحر، النبات، الحيوان.. تقرر أن هذه الحوادث الكونية مرتبطة بعضها ببعض كمقدمات ونتائج، (الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً) الآية. إلى أن ينزل الماء وينبت، نجد حوادث كونية متوالية مرتبط بعضها ببعض، لكن لا نجد بينها مَلَكاً ولا جنياً مع أن القرآن مشتمل على ذكر الملائكة والجن، فكأن هذا القرآن فصل النظام الكوني عن عالم الغيب فلم

يجعل هنالك تداخلاً بين عالم الغيب وعالم الشهادة.

وقد رجعت إلى ما فسر الصحابة والتابعون به مقدمات سور (والمرسلات عرفاً) و (الذاريات ذرواً) فوجدت أقوالاً للصحابة، كعلي بن أبي طالب، تذكر أنها الرياح مثلاً، والذاريات ذروا، وأن النازعات غرقا هي الملائكة التي تنتزع الأرواح.

هذه أمور غيبية موضوعها موضوع آخر، وانما النبات حينما ينبت فقد وجه نظرك أنت أيها الإنسان إلى أن تربط بين نزول الماء الذي وصف لك نزوله وبين نمو النبات، ولم يذكر لك ما بين نزول المطر وما بين النبات جنياً أو ملكاً !

هذا الفصل مهم جداً ولا ندري فقد يكون هنالك في علم الله أمور تصل بين العالمين ولكن بحسب ما يرى الإنسان وبحسب ما أراه الله هذا الكون موصوفاً في القرآن : الرياح والسحب والماء والنبات... مترابط بعضها ببعض وكلها سلسلة من الحوادث، حوادث عالم الشهادة أو الحوادث الطبيعية، وهذا أمر مهم جداً خطا بالعلم خطوة كبيرة، بحيث أن الإنسان أصبح يستطيع أن يستنبط ارتباط هذه الحوادث التي يدركها ويشهدها بحواسه ويستنبط ارتباطاتها، أما إذا كان هنالك تدخل يجعل هذه الأمور تختل سننها وقواعدها واطرادها، فان الإنسان حينئذ لا يستطيع أن يستنبط شيئاً.

ذلك هو الكون الذي عرضه القرآن، فالقرآن لا يمر بنا مراً سريعاً بالكون ؛ بل يمر بنا متأنياً، فيرينا كل جزء من الجزئيات : (انظروا إلى ثمره **إذا أثمر وينعه)، ويجيل نظرنا في البحار والأنهار والسماء والسحب** وتراكمهما والسحب المنبسطة والسحب المتراكمة، (فيبسطه في السماء **كيف يشاء ويجعله كِسَفاً) مرة يبسطه ومرة يجعله ركاماً !.**

لفت نظرنا بدقة إلى كثير من الأشياء، لكن بعد هذه الوقفة قفزة ثانية ! فهنا نودع ونخلف الماديين المحدودين الذين لا يمتد إدراكهم إلى أبعد من الكون إذ يقفون هنا ؛ أما القرآن فإنه يسير بنا ويطرح أمامنا كبرى **القضايا التي طرحها الإنسان منذ أقدم العصور إلى اليوم. فقد طرح القرآن**

مسألتين : من خلق هذا الكون ؟ من نظمه ودبره وقدر سننه ؟. مسالتان طرحهما القرآن، المسألة الأولى : قضية الخلق. الماديون الآن كالماركسيين يقولون : لم يخلق الكون أحد ؛ بل المادة أزلية والعلوم الحديثة، التحليلات في العلوم أثبتت أن الكون **يتناقص** وأن له بداية وأن له نهاية، وهذا الاكتشاف العلمي أزعج جداً الملحدين والماركسيين، لأنهم كانوا يقولون بأزلية الكون. فإذا قيل : أنه كان معدوماً ووجد فلا بد إذن أن يعود طرح المسألة : من خلقه من العدم ؟.

والقرآن طرح المسألة بشكل واضح كطرح قضية فكرية، (أم خلقوا من غير شيء) يعني : هل خلقوا من غير خالق ؟ (أم هم الخالقون) الشيء خلق نفسه، وحينما خلق نفسه كان معدوماً أو موجوداً ؟ إذا كان موجوداً **فكيف نقول حينئذ أنه يحتاج إلى خلق، (أم خلقوا من غير شيء أم هم** الخالقـون، أم خلقـوا السمـوات والأرض، بل لا يوقنـون). لنقـل أحـد الإحتمالات : هذا الكون اما أن بعضه خلق البعض أو أن كله خلق الكل ؛ اجتمع الشمس والقمر والإنسان والحيوان والنبات والجماد اجتمعوا جميعاً وخلقوا أنفسهم !.. المجموع خلق المجموع ! الشيء خلق نفسه ! وهذا **مستحيل لا يقبله العقل ! البعض خلق بقية الأجزاء ؛ فتعالوا نستعرض مثلاً :** فهل الشمس خلقتنا أم القمر خلقنا. الآن القمر صعد اليه وعرف أنه شيء خاضع لسلطان الإنسان، (وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض)، وفيما يبدو أن أجدر مخلوق في هذه المخلوقات هو الإنسان ؛ والإنسان عاجز عن الخلق، ولو جمعنا أعظم علماء الكيمياء والفيزياء في مكان وقلنا لهم : اخلقوا حياة ؛ بل ذرة من التراب دون أن نعطيهم مادة أولية يقولون : نحن عاجزون عن ذلك، نحن لا نستطيع خلق شيء من العدم !. نحن **نعطيهم** حديـداً **يصنعون منه مفتاحاً أو ساعة.**

القرآن يشير إلى مسألة بداية الخلق : (انظروا كيف بدأ الخلق)، (فطركم أول مرة)، (ولقد علمتم النشأة الأولى)، (ونحن خلقناكم فلولا تصدقون)، أيها الإنسان هل أنت خلقت نفسك ؟ هل أبوك خلقك ؟ هل أمك خلقتك ؟ هذه المادة التي ينشأ منها الإنسان وهي نطفة : هل أنت خلقتها ؟ (نحن خلقناكم فلولا تصدقون أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم

نحن الخالقون) هل يستطيع أحد حتى بالعمل الصناعي أن يخلق نطفة من المني ؟ يعقبها « الذي خلق » « هو الذي يبدل ». عدد كثير من الآيات كقوله تعالى : (كيف بدأ الخلق) (كيف يبدأ الخلق) (فطركم أول مرة) (كما بدأنا أول خلق نعيده) إلى آخره.

من آيات كثيرة تشير إلى بدء الخلق والكلام في الآيات عن قضية الخلق الأول تأتي تارة من المخلوقات الكونية غير الإنسان وتارة عن الإنسان نفسه كجزء من المخلوقات، ومن الكون أيضاً ينطلق منه في قضية بدء الخلق مثل هذه الآيات : (نحن خلقناكم فلولا تصدقون)، أو مثلاً بالنسبة إلى الكون، (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل)، إلى آخر الآية (لآيات لقوم يعقلون). والآية الأخرى (لأولي الألباب)، (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب)، (ومن آياته خلق السموات والأرض وما ثبت فيهما من دابة).

فكل ما هو مبثوث في الكون مما يدب، وخلق السموات والأرض جملة، هو موضع تفكر وتأمل ولا بد من حل. هذه هي النقطة الأولى.

(والله خلق كل دابة من ماء) نحن لم نخلق أنفسنا حتى من النطفة ولا خلقنا الحيوان من ماء.

النقطة الثانية : هي التقدير أو النظام :

نرى أن هذا الكون فيه حوادث منتظمة. هذا التقدير للقوانين والسنن، هذا الترتيب ترتيب الأمور بعضها إلى جانب بعض بانتظام واطراد : هذا من صنعه ؟ من صنع سنن الكون أو قوانين الطبيعة ؟ إن القرآن يشير بوضوح إلى هذا : (أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون).

خذوا مثلاً : موضوع نمو النبات ؛ ماذا يصنع الإنسان، يحرث الأرض ويضع البذرة ويتركها وينتظر فينزل الماء إلى الأرض من السماء (أو سقاية من النهر)، وإذا بحركات تحصل في هذا النبات : (وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج)، (وأنزلنا من السماء ماء **فأنبتنا به حدائق ذات بهجة، ما كان لكم أن تنبتوا شجرها). فهل أنتم خلقتم خاصة الإنبات في الماء ؟ فإذاً تقديره هذه الأشياء، هذا التنظيم**

والتقنين الموجود في الطبيعة، هذه القوانين هذه السنن، هذه الارتباطات المنتظمة المطردة : من خلقها ؟ هذه هي القضية الثانية، (وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء، (وأرسلنا الرياح لواقح)، تعبر السحب، **فيها كهرباء موجبة وسالبة، وتكون الرياح سبباً في تلقيح** الموجب بالسالب من هذه الكهرباء الموجودة، فحينئذ تحصل الشرارة الكهربائية وينزل الماء، هذا الربط (وأرسلنا الرياح لواقح) ولواقح يمكن أن تكون بمعنى آخر بأنها هي التي تثير غبار الطلع في النبات فيعلق غبار الذكر بغبار الأنثى. (والشمس تجري لمستقر لها)، هذا الانتظام في حركة الشمس، وهنا مسألة مهمة في موضوع (والشمس تجري لمستقر لها) : لقد وجد العلماء أن الشمس ـ نتيجة بحوث علمية ـ عمرها بتقديرهم الذي مضى خمس مليارات ونصف من السنين، والذي بقي أربع مليارات ونصف من السنين، بمعنى أنهم يعتقدون أن الشمس ستنتهي، والقرآن يقول **(لمستقر لها) ؛ هنالك مستقر ستنتهي إليه وتفنى (والشمس تجري لمستقر** لها)، هنالك تقدير سابق لها من حيث بدايتها ومن حيث نهايتها. هذا **التقدير السابق من صنعه. الحركة والتبدل من طور إلى طور. قصة إبراهيم** عليه السلام الواردة : (وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين، فلما جنَّ عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي، فلما أفل قال : لا أحب الآفلين إلى آخر هذه الآيات.

فإبراهيم عليه السلام حينما نظر إلى الكوكب ورأى أنه متغير فطلب من يغيره. هذه السنة في تسييره وحركته من جعلها ـ من وضعها ؟.

فمن خلال هاتين القضيتين : من خلق ؟ من قدر ؟ يوصلنا القرآن بأمثلة وشواهد كثيرة مما يتعلق بنا، بأنفسنا وأجسامنا، أو بما يتعلق بما هو لنا من الكون، يوصلنا إلى ضرورة وجود خالق للكون نسميه باللغة العربية (الله)، وكل لغة لها طبعاً لفظ نسمي به الله خالق السموات والأرض سبحانه وتعالى.

إذاً خالق هذا الكون هو وجود مستغن عن إيجاد، لا بد أن تصل في **نهاية الدور والتسلسل إلى وجود لا يحتاج إلى موجد. العجيب من**

الملحدين الماديين أنهم قبلوا تصور مادة أزلية وهي مادة صماء لا تدرك ولا تعي ولا تعقل، ولم يقبلوا أن يتصوروا وجوداً عالماً حياً قادراً مع أن هذا التصور أسهل من ذاك، لأن انبثاق وجود عن مادة غير عاقلة ولا مدركة ولا واعية صماء عمياء هو من المستحيل ! وأما انبثاق كون أدنى في الوجود من موجده الذي يتصف بالإدراك، كما وصف الله نفسه، (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) ـ الإدراك، بأشمل ما نتصور من العلم والقدرة والحياة، أسهل من العكس ! فلذلك فإن الماديين هم المطالبون بالدليل على عدم وجود الله، فلو أخذنا إنساناً من البادية لم ير الحضر أبداً ولم ير الآلات والمعامل والأشياء الكهربائية والأشياء الأوتوماتيكية (المتحركة بنفسها) وسافرنا به رأساً بطائرة إلى أوربا أو أمريكا وأدخلناه إلى معمل آلي ليس فيه عمال وإنما فيه إنسان لا يُرى في داخل المعمل يحرك الزر فيشتغل المعمل ويتحرك. وحينما عاد الرجل إلى بلاده قال : يجب أن تلغى الجامعات كليات الهندسة لأنه لم يعد لنا من حاجة إلى مهندسين لأن المعامل أصبحت أوتوماتيكية آلية. طبعاً هذا في منتهى الجهل والحماقة والمحدودية، لأن كون المعمل أوتوماتيكياً هذ أدعى إلى مهندس صنعه وصانه ولا يزال يشرف عليه. هذا يستدعي وجود المهندس، وكلما كان المعمل عظيماً وكبيراً ومعقداً وفيه كثير من الآلات والمحركات لا يمكن أن يكون نتيجة مصادفة، وإنما لا بد أن يكون وراءه مهندس عظيم جداً.

فهذا الكون هو أعظم من كل هذه المعامل، فالعقل يوجب وجود خالق له ؛ فمن يقول أنه لا يوجد فعليه أن يقيم الدليل وليس علينا أن نقيم الدليل ـ انعكست الآية. هذا إذا وجدنا كتاباً في علم الفقه أو الأصول أو علم الاجتماع مجموعاً فالقائل يقول : إن عشرات الألوف من حروف المطبعة نثرت هكذا وجاء بالمصادفة وسقط عليه الحبر وخرج منها كتاب مطبوع في الفلسفة أو في الأصول أو في الفقه أو في علم الاجتماع !! طبعاً نقول عن هذا أنه مجنون وأنه كلما كانت هنالك دقة في الصنعة وشمول وعظم في الشيء المصنوع فهنالك تنتفي المصادفة ولا بد من وجود صانع لها. الله سبحانه وتعالى طرح القضية في القرآن بشكل عقلي، فالعقل هو الذي كان وسيلة لننطلق من الشيء الموجود، وهو الكون، من المخلوق

إلى الخالق. ولذلك تنتهي الآيات التي ذكرت في المرة الماضية عن الكون بما يدل على العقل، (خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون، خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين، والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون. ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون. وتحمل **أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلّا بشق الأنفس، إن ربكم لرؤوف رحيم.** والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة، ويخلق ما لا تعلمون. وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر، ولو شاء لهداكم أجمعين. هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون. ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات، إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون. وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون. وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه، إن في ذلك لآية لقوم يذكرون. وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها، وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون. وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون. وعلامات وبالنجم هم يهتدون. أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون)، الآيات من أوائل سورة النحل.

استعرضنا ـ فيما سبق ـ موقع الكون في النظرة الإسلامية، وخصائص العرض القرآني الإسلامي للكون، ثم انتقلنا بعد ذلك من الكون وما فيه من مخلوقات بما فيها الإنسان نفسه إلى الكون في مادته وأصله وسننه وقوانينه ثم إلى خالق الكون إلى الله عز وجل.

والله سبحانه وتعالى ـ كما تبين لنا من المحاضرات السابقة ـ هو خالق الموجودات كلها : الكون، السموات والأرض بما فيهما، وهو خالق أسبابها أي : سننها وقوانينها ؛ فإذا كان العلم الآن قد اكتشف قانون الجاذبية أو قوانين تركيب الأجسام مثلاً أو قوانين الطاقة ؛ فهذه القوانين لا يعلل بها الكون وحوادث الكون. يعني حينما يقال مثلاً : حدث الكسوف أو الخسوف بسبب وقوع القمر بين الأرض والشمس، وكان بعض الفلاسفة من الملحدين يقول : انتهينا، لا حاجة لأن ندخل الله في الموضوع، ما دمنا عرفنا العلة وهي وجود القمر بين الأرض والشمس !! فهذا أسخف كلام

يمكن أن يقال، فكما لو قيل : لا حاجة لمن وضع المسجل هنا، المسجل ينسجل، المسجل يشتغل بنفسه، ولا حاجة لأن نفترض أن هناك إنساناً صنع هذا المسجل. من جعل القمر يوجد هنا، ومن جعل الشمس ينكسف ضوؤها عن الأرض ؟ هذا الترتيب من وضعه ؟ هل الأرض جعلت نفسها هنا ؟ هل القمر جعل نفسه هناك ؟ هل الشمس، أو أن الإنسان هو الذي ركب هذا ؟ بالطبع لا.

فإذاً وجود القوانين أو ما نسميه سنن الله في الكون أدعى بأن نطالب **بمن أوجدها وأن نتصور وجوداً أعلى من وجود الكون وقوانين الكون فوجود** الكون وقوانين الكون هو وجود مفتقر، إنه يتغير فيحتاج إلى مغير، يتحرك فيحتاج إلى محرك، ومخلوق بعد أن لم يكن فيحتاج إلى محدث، فهو محتاج إلى وجود مستغن عن وجود غيره.

وبهذه المناسبة أرى أن لا نستعمل المصطلحات الموجودة في فلسفات علم الكلام فيقال : الوجود في الفلسفة ثلاثة أنواع : واجب الوجود وممكن ومستحيل. ما لنا ولهذه المصطلحات. وجود مستغن عن وجود غيره، ووجود مفتقر إلى وجود غيره، فنحن فقراء إلى الله يعني : محتاجون إلى وجود غير مفتقر إلى وجود غيره. وأما الله فهو قيوم أي : مستغن. الله مستغن.. أما الإنسان فهو غير مستغن. اذا استغنى الإنسان فقد تأله وجعل نفسه طاغوتا : (ان الانسان ليطغى. أن رآه استغنى).

ان الصفات التي يوجبها العقل لوجود لا بد منه من أجل وجود الكون وسننه وهو وجود الله ــ هذه الصفات لا حاجة لنا هنا للاطالة فيها ولكن أسردها سرداً.

الاستغنـــاء :

لا بد من وجود يغير غيره ولا يتغير، ويحول غيره ولا يتحول، ويفرض القوانين ولا تفرض عليه. هذه صفة الاستغناء أو صفة القيومية نأخذها من القرآن. الصمد القيوم الذي يصمد بنفسه لا يحتاج إلى من يدعمه ويسنده.

الوحدانيـــة :

لا حاجة لنا هنا لذكر أدلتها وكلها موجودة في القرآن بحجج عقلية.

العلـــم :

الذي خلق الشيء يعرفه، (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير)، من صنع شيئاً يعرف أجزاءه : هذا أمر معقول ومنطقي.

الارادة والحيـاة :

نحن لنا ارادة فلا بد أن يكون من خلقنا ذا ارادة. الحياة : نحن لنا حياة فلا بد أن يكون من خلقنا له حياة لا نتصور لها حدوداً.

القـــدرة :

الأزلية والأبدية ؛ التنزه عن النقائص ؛ الكمال المطلق.

يمكن أن أذكر مع الوحدانية صفة ليست تماماً كالوحدانية، هي التفرد. وعنيت بالتفرد تلخيص ما في قوله تعالى : (ولله المثل الأعلى). لا **يوجد لـه مثل أبـداً، (ليس كمثله شيء)، نفي المثليـة. أما الوحدانيـة** فمعناها : أنه ليس لهذا الكون اله آخر. فالتفرد تفرد بالكمال والتنزه عن النقائص.

أريد أخيـراً أن أختم موضوع الصفـات بكلمـة عن موضوع آخـر هو : أن صفة السمع والبصر والكلام صفات نقلية وليست من الصفات العقلية ــ وهذا غير صحيح ؛ لأنه هو الذي خلق الأسماع والأبصار : نحن **لنا سمع نسمع به الأصوات، ونحن لنا بصر نـدرك به قسمـاً من الموجودات** وليس كلها ؛ فمن خلق السمع والبصر وخلق الكون كله : أليست عنده صفة ادراك محيطة بالمسموعات والمبصرات وبادراك ليس عندنا اسم نسميه بها ؟؟ العقل يوجب هذا. فالقول بأن هذه صفات نقلية وليست عقلية قول غير صحيح. هي صفات يوجبها العقل للوجود المستغني لله عز وجل، وهي نقلية أيضاً.

كذلك صفة الكلام. ما معنى الكلام ؟ الكلام الآن هو وسيلة ايصال المعاني والأفكار إلى الأذهان. فاذا كان البشر المخلوق قادراً على أن يوصلها لمثله، أليس الله خالق المخلوقات قادراً على أن يوصلها لمخلوقاته ؟ فصفة الكلام صفة عقلية ونقلية.

نكتفي بهذا القدر عن الصفات ويمكن الرجوع إلى كتب التوحيد.

الوصول إلى الايمان :

هنا أريد أن أقول فكرة مهمة وهي : أن القرآن نوَّع الطرق للوصول إلى إيمان الناس بالله ـ عز وجل ـ، إلى الايمان بالله وإلى توحيد الله : توحيد الله اعتقاداً وخضوعاً، الوصول إلى الايمان بالله عن طريق العقل تكلمنا عنه (أفرأيتم ما تحرثون)، (أفمن يخلق كمن لا يخلق) ؟ (أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون) ؟

أريد هنا أن أقول : أنك حينما تريد أن تجعل انسانا يقتنع بموضوع أو بفكرة فانك لا تكتفي بايراد البراهين المنطقية. لو أردت أن تقنعه بأن يشاركك في تجارة فتقول : فلان أمين مستقيم فمشاركتك معه معقولة. هذا ربما لا يدفع إلى المشاركة. ولكن لا بد من تحسينك الأمر ببيان ما يجعله مهتماً باللجوء إلى مواطن اهتمامه وفوائده ومنافعه واستعمال شتى الطرق التي تؤثر في الانسان، فهذا لا يقدح في أصل الدليل العقلي. والله سبحانه وتعالى في القرآن ذكر لنا كثيراً من الأمور التي فيها منافع الإنسان آتية من الله سبحانه وتعالى. بعد أن اجتاز هذه المرحلة (أفمن يخلق كمن لا يخلق) ؟ ماذا قال ؟ : (وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها، ان الله لغفور رحيم)، فذكرهم بالنعم التي يستفيدون منها والمنافع التي ينتفعون بها. ولذلك ـ في كثير من المواطن ـ نجد هذه الخاصة بارزة وهي : المنافع والمصالح ؛ مثلاً : (فليعبدوا رب هذا البيت، الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف).

وهنالك ناحية غير موضوع المصالح والمنافع وهي ناحية مهمة ؛ فان سورة من القرآن كاملة عنيت بايصالنا إلى توحيد الله من منطلق المشكلات والقضايا الاجتماعية، فأصحاب المذاهب يحسنون مذاهبهم لأنها تحرر الانسان من العبودية،وبأنها تحرره من الاستبداد السياسي، وبأنها تحرره من الاستغلال المالي وتؤله المال ؛ أليست المذاهب الحديثة تحاول اقناع الناس بحسنها عن هذه الطريق ؟ وتقول للانسان : أنا سأوصلك إلى حالة تكون فيها حراً، فلا استغلال لك ولا استبداد عليك.

في القرآن سورة كاملة تنطلق نحو التوحيد من منطلق التحرر السياسي، ومن منطلق التحرر الاقتصادي، وهي سورة القصص، التحرر من سلطة ما سوى الله. وسورة القصص كما تعلمون تدور على محورين ؛ المحور الأول : انزال فرعون من ألوهيته المزعومة : (ان فرعون علا في الأرض **وجعل أهلها شيعاً، يستضعف طائفة منهم، يذبح أبناءهم ويستحيي** نساءهم، إنه كان من المفسدين). وقارون الذي تأله بماله وقال : (انما أوتيته على علم عندي) : (ان قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم)، طغيان فرعون وبغي قارون ! ما الدواء الجذري لهما ؟ هذا هو ما أوصلت اليه الآية حين أهلك فرعون بالغرق وأهلك قارون بالخسف، فهما ليسا بإلهين، هما مستبدان زائلان ؛ من الباقي ؟ الباقي كما في الآية الأخيرة : (ولا تدع مع الله إلهاً آخر لا إله إلا هو، كل شيء هالك إلا وجهه، له الحكم واليه ترجعون) ؛ فالحكم والمرجع له وليس لآلهة المال والسياسة. فالسورة بدأت بمشكلة الاستبداد السياسي والاستغلال المالي الذي يأخذ صورة التأله. ابتدأت من مشكلتين عظيمتين، احداهما في مجال السياسة والأخرى في مجال الاقتصاد والمال، وانتهت إلى التوحيد.

هذه السورة هي سورة التحرير ـ تحرير الإنسان من أنواع العبوديات السياسية والمالية. ليست قضية التوحيد قضية نظرية ـ كما يظن ؛ بل قضية حيوية.

وأنا هنا سأذكر لكم شاهداً في غاية الأهمية : يقول مفكر فيلسوف انجليزي معاصر اسمه « الدوس هكسلي »، (وليس مسلماً)، يقول : ان الغرب ليس متقدماً ؛ بل هو متقهقر منحط. وتقهقره هو نتيجة ابتعاده عن التوحيد. وهذه الجملة الأخيرة أترجمها لكم ترجمة حرفية : نتيجة ابتعاده عن التوحيد ـ فان أوربا ـ كما يقول : منيت بوثنية جديدة، فهي تعبد الأصنام، وقد اخترعت أصناماً جديدة. ويعدد هنا أنواعاً من الأصنام الحديثة كالوطنية والقومية والجماهير والعقل والعلم وما إلى ذلك ؛ فهذه آلهة الغرب، ولذلك يقول : ان التقدم ليس بتقدم الآلة، التقدم بالبر والاحسان، أو بالتقوى والأخلاق. وأوربا ليس عندها أخلاق ؛ لأنها تضطهد وتعذب البشر تعذيباً وحشياً ؛ بل ان الغربيين لا تتحرك ضمائرهم عندما يجدون إنساناً يعذب

ويمثل بانسان آخر ؛ بل ينظرون ويشاهدون ذلك في فيلم في السينما فيهشون وكأن ذلك مسلاة لهم كصراع الثيران[1]. النقطة المهمة هي قوله : ان أوربا متأخرة أخلاقياً لابتعادها عن التوحيد. ثم بعد ذلك فصل آخر من كتابه المسمى « الغايات والوسائل »، يعقد للايمان بالله ويقول عنه : « ليس الاله هو اله النصارى المجسمة ؛ بل هو الاله المنزه عن التجسيم الواحد الأحد ». يقول هذا ويشرحه شرحاً مطولاً. ثم في هذا الفصل ينتقل إلى نقطة نريد ـ أيضاً ـ أن نأخذ منها بعض أفكار، يقول : ليس هنالك الحاد، وانما هنالك ايمان بآلهة مزيفة !. ثم يذكر بعض الأسباب التي تدعو الملحدين إلى الالحاد، ويقول : الالحاد ليس أمراً معقولاً أبداً ؛ وانما هو نتيجة لأسباب عارضة، قال : أنا أذكر سببين كبيرين للالحاد أولهما : الشهوات، أي : الانطلاق مع الغريزة الجنسية إذ يدفع أهلها إلى أن يشعروا وهم يمارسون فجورهم وفسقهم براحة وبألا رقابة عليهم. حينما يكونون مؤمنين بالله يشعرون بنوع من الألم والتمزق، وهذا مصداق قوله ﷺ : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن »، يقول : حينئذ لا يجدون سبيلاً إلى راحة ضميرهم وهم يرتكبون هذه الآثام إلا بطريقة واحدة وهي أن يطردوا هذا الايمان !! فيكفرون بالله ويلحدون ليستبيحوا هذه الأنواع من الفجور. (بسم الله الرحمن الرحيم، لا أقسم بيوم القيامة. ولا أقسم بالنفس اللوامة. أيحسب الانسان أن لن نجمع عظامه، بلى قادرين على أن نسوي بنانه. **بل يريد الانسان ليفجر أمامه. يسأل : أيان يوم القيامة**). أليست هذه الفكرة نفسها ؟

السبب الآخر العارض، قال : الدكتاتورية والاستبداد، لأن هذا الرئيس المستبد يجد أن الله سبحانه وتعالى يشاركه في زعامته، فهو لا يريد زعيماً آخر منافساً له. فالناس حينما يؤمنون بعظمة الله وجبروته يتحررون من جبروت البشر وعبادة البشر، ويصبح الرئيس والملك والجميع عبيداً من عباد الله. وبما أن المستبدين يكرهون هذا لأنهم يريدون الانفراد بالزعامة والتأله ولذلك فانهم يسلكون مسلك الالحاد ! والشاهد على ذلك تأله فرعون لأنه يريد أن

---

(١) هذه خلاصة عما قاله « الدوس هكسلي » في كتابه : « الغايات والوسائل ».

يستبد على الناس ويجعل نفسه إلهاً، فاذا كان هناك إله يتحرر الناس به من عبودية الآخرين إلى الطواغيت حينئذ ينزل هو عن عرشه !.

نظرة الإسلام إلى الإنسان :

نعود الآن بعدما ذكرنا إلى الإنسان مرة أخرى لبيان نظرة الإسلام إلى الإنسان بشيء من التفصيل ؛ لأننا لم نذكر الإنسان إلا في معرض كونه جزءاً من الكون ينطلق من عجائب خلقه إلى الله الخالق. والآن نريد أن نعرف موقع هذا الإنسان في الكون حسب النظرة القرآنية.

أولاً : القرآن ـ القرآن ذكر خلق الإنسان الأول وعناصر تكوينه، عناصر تكوين الإنسان :

١ ـ العنصر الترابي : (خلقكم من تراب)، (ولقد خلقنا الإنسان من طين). وهنا أكتفي بذكر مسألة بسيطة وهي : أن التحليل الكيميائي الآن يعطينا بالضبط مم يتكون هذا الجسم الإنساني ـ من الكالسيوم والبوتاسيوم والماغنسيوم والمنجنيز والحديد... الخ. وحللوا وأخذوا حفنات من التراب وجمعوا تحليلها فاذا بعناصر التراب تقابل عناصر تحليل الجسم الإنساني تماماً ! فقال طبيب كيماوي معاصر اسمه « كاريل » في كتابه : « الإنسان ذلك المجهول »، (وهذا الكتاب خرج عام ١٩٣٦ م وهو مترجم) قال : ان الإنسان مخلوق من التراب حقيقة لا مجازاً ! وذكر هذا الذي قلته لكم الآن نقلاً عنه. ان العنصر الجسمي في الانسان فيه الناحية الترابية وفيه حتى الناحية النباتية، (والله أنبتكم من الأرض نباتاً)، نحن نتغذى الآن اما من النبات أو من أجسام تغذت بالنبات. وحينما ينمو جسمنا بعد مرحلة الرضاعة، أما أن نأكل الخضار والفواكه، أو نأكل اللحم، لحم الغنم والبقر، والغنم والبقر تتغذى من النبات. فبيننا وبين التراب تفاعل عن طريق هذا النبات.

هذا واننا نشارك الحيوان بعض المشاركة، (والله خلق كل دابة من ماء، فمنهم من يمشي على بطنه، ومنهم من يمشي على رجلين، ومنهم من يمشي على أربع).

فالله سبحانه وتعالى حصرنا بين صنفين من الزواحف وذوات الأربع، فالبشر من هذه الناحية كسائر الحيوانات في الطعام والشراب والمعدة وجهاز التنفس والتناسل، فمن هذه الناحية نحن نشارك ونشابه الحيوان (وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم). فهذه مشاركة يشير إليها القرآن. ولكن بعد هذه المشاركة الترابية العضوية ميزنا، (ثم أنشأناكم خلقاً آخر)، ما هذا التمييز وبم هذا التمييز ؟ باليد واللسان، تلك هي الحضارة. ارفعوا الآن اليد ! هل يمكن لأحد أن يصنع أي آلة حتى هذه الحقيبة البسيطة ؟ لا يمكن، اذا كنا نمشي على أربع لا تستطيع أيدينا أن تنطلق ولا تستطيع الكتابة واذا فقدت الكتابة ذهبت الحضارة. واللسان، به ينقل الفكر من المخاطب إلى الحاضر ومن جيل إلى جيل. وهذا اللسان ـ أيضاً ـ نكتب رموزه كتابة، فاذاً ننقلب إلى حيوانات لولا هذا التمييز، قال الله تعالى : (فاذا سويته ونفخت فيه من روحي)، (سواك فعدلك)، (في أحسن تقويم)، هذه التسوية وهذا التقويم هو اشارة إلى انتصاب القامة وانطلاق اليدين فليستا وسيلة للمشي ؛ بل لهما وظيفة أخرى. ان القرد، نهاية تعليمه، أن يقشر الموز أو يركب على الدراجة. أين هذا من صنع الآلات الدقيقة والصواريخ ؟ فانطلاق اليدين أمر هام جداً، والحيوانات التي يحاولون أن يدربوها لتقف دقيقة أو دقيقتين رافعة الأيدي بصعوبة ثم تقع على أيديها لأن أيديها أرجل وليست أيدي، قال تعالى : (خلق الإنسان من نطفة فاذا هو خصيم مبين).

اذاً تميز الإنسان بهاتين الخاصتين : الأولى انتصاب القامة وانطلاق اليدين. والثانية : اللسان والبيان وتتبعه الكتابة. ليس هذا فحسب ؛ بل أمر آخر معروف عند علماء الأحياء يقولون : ان صغير الحيوان يولد مزوداً بجميع خصائص الكبير، بمعنى أن عنزة تلد السخلة، فالسخلة تضع نفسها أمام النار ولا ترمي بنفسها في النار. انتهت تربيتها. (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة)، إذاً بمعنى أن هذه وسيلة التعلم. قابلية التعلم ليست موجودة إلا في حدود ضيقة جداً عند الحيوان لأنه يولد مزوداً بالغريزة. وأما الإنسان فمن خصائصه التعلم. تعلم الفرد في حياته باستمرار، قال تعالى : (وقل رب زدني علماً)، فالإسلام

يقر زيادة العلم ؛ وقوله : (لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة) فيه أمران : أولاً : أن الإنسان يولد غير متعلم فيتعلم ويكتسب العلم ؛ وثانياً : أن الحواس والعقل هذه وسيلة للتعلم. هذه اذاً ناحية أخرى وهي موضوع العلم وهذا ليس عند الحيوان، وقابلية العلم وزيادة العلم وانتقال العلم من رجل إلى رجل ومن جيل إلى جيل بمعنى أن جيل اليوم يختلف عن جيل عشرة قرون ماضية بينما حمار اليوم هو حمار الأمس وهو حمار القرون الماضية والقرون الآتية.

حينئذ نصل إلى الخاصة الثانية من خواص الانسان وهي العقل والعلم، وهذا العنصر مهم وقد أشار إليه القرآن، ولذلك جعل الذين لا يعقلون كالأنعام بل هم أضل. وهو العلم المكتسب كما قال الله سبحانه وتعالى : (أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً)، وهذا هو العنصر الثاني.

إلى هذا الحد يسير الغربيون، فهم يعاملون الانسان كحيوان عاقل. أما الإسلام فيتجاوز بنا هذا الحد إلى ما هو أعلى، يقول الله تعالى : « فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين)، وتلك هي الروح وان كنا نجهلها، (ويسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربي)، ولكن هنا توجد خاصة ربانية اختص بها الانسان حينما خلقه، فهذه الخاصة الربانية أو الروحانية ناحية مهمة وعلى هذا يتكون من ثلاثة عناصر : العنصر الجسمي الترابي، والعنصر العقلي العلمي، والعنصر الروحي.

خرجنا إذاً بنظرية انسانية كاملة من هذه النظرة القرآنية. الانسان الكامل هو من نمت فيه العناصر الثلاثة مع ترتيبها في الأهمية، فالروح هي أعلى من العقل، والعقل أعلى من الجسم ؛ ولذلك فالجسم خادم للعقل، والعقل خادم للروح. فالروح هي التي تؤمن الأخلاق والصلة بالله، والعقل هو الذي يؤمن صلتنا بالأشياء، فهذا ضار وهذا سام... الخ وهذا لا يكفي لأنك قد تستعمل السام لنفسك ولغيرك، أما الروح وهذه الصلة الربانية فهي التي تمنعك. ومن المعجز أن نجد فيلسوفاً معاصراً اسمه « برتراند راسل » يقول : ان هنالك ثلاثة عناصر : الغريزة والعقل والروح، ولا بد من توازن هذه العناصر الثلاثة، وان نقص الحضارة الغربية أن هذا التوازن مفقود منها، وهذا التوازن

مذكور في القرآن بهذا المعنى في سورة الأعراف[1]، (قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد) إلى آخر الآية، ثم يقول : (يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا) ثلاثة عناصر : ١) الزينة، ٢) المسجد والعبادة، ٣) الأكل والشرب. فهذا اشارة إلى أن المقصود بالقسط هنا ليس القضاء بالعدل في توزيع الأموال ؛ بل هو أوسع بكثير، فالله سبحانه وتعالى أقام الوجود على القسط، وطلب من الإنسان أن يقوم بالقسط، وجعل القسط هو هدف وغاية النبوة كلها بنص القرآن، ففي سورة الحديد، (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط) ؛ القسط بعد التوحيد هو القاعدة العظمى وغاية النبوات بنص هذه الآية، وبعد ذلك، (وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس)، اشارة إلى حماية القسط والدفاع عنه بالحديد والقوة. فالله سبحانه وتعالى ذكر الإنسان وصفاته الخلقية وميوله وغرائزه وذكر الجماعات البشرية : الشعوب والقبائل، (وخلقكم أزواجاً)، واختلاف ألسنتكم وألوانكم)، (يا أيها الناس)، **تكررت في القرآن مئات المرات. في حين أن أسماء الأمم** والقبائل لم يذكر منها إلا بنو اسرائيل على سبيل الاستشهاد بقصص أنبيائهم والروم في قصة، (غلبت الروم في أدنى الأرض)، وما عدا هذين لم يذكر القرآن الأجناس والقبائل والأمم والقوميات، حتى العرب ليس لهم ذكر في القرآن لأن كلمة عرب غير موجودة في القرآن، وانما ذكرت لغتهم، (بلسان عربي مبين).

صلة الإنسان بالكون :

ما هي صلة الإنسان بالكون ؟ صلة الإنسان بالكون تقوم على فكرتين هامتين : التسخير والاستخلاف. (وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه)، (وهو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه)، (ذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون)، (وهو الذي سخر

---

(١) قال تعالى : (واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها، قل ان الله لا يأمر بالفحشاء، أتقولون على الله ما لا تعلمون، قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد). إلى آخر الآية ثم قال تعالى : (يا بني آدم) الآية.

لكم البحر)، (وسخر الشمس والقمر)، (ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض). فالكون ليس إلهاً، فمن كانوا يعبدون الكون من الشمس أو القمر أو الحيوانات... الخ. هؤلاء منحطون فكرياً فجاء الإسلام وحرر الإنسان من عبادة الطبيعة بجميع أجزائها ؛ بل جعل له سلطاناً عليها فسخرها له حتى الشمس والقمر، الكون كله مسخر لنا والانسان مستخلف في الأرض، (جعلكم خلائف الأرض)، (واستخلفكم فيها). هذا المعنى متكرر في القرآن الكريم. وخلائف الأرض أحياناً تأتي بمعنى ملوكها والمتحكمين فيها، وقد تأتي لجميع سكان الأرض، (جعلكم خلائف الأرض، فمن كفر فعليه كفره)، هذا دليل على أنه لا يقصد بها المسلمون فقط، ولا يقصد بها دولة معينة ؛ انما يقصد بها البشر عامة، (واذ قال ربك للملائكة : اني جاعل في الأرض خليفة)، فالإنسان مستخلف في الأرض، والكون مسخر له.

من هاتين الفكرتين يبدو لنا شيء مهم جداً : الكون ليس إلهاً للانسان، والانسان ليس إلهاً في الكون ؛ بل هو مكلف وموكل من الله سبحانه وتعالى، وقد أعطي سلطاناً على هذا الكون، ولكن ليس من نفسه ؛ بل من الله. أما في المذاهب الأخرى فأما أن يعبدوا الشمس والقمر كما كان الوثنيون القدماء، أو يجعلوا أنفسهم آلهة للكون كما هي الحضارة الغربية فيطغون ويبغون. أما في الإسلام : فالكون مسخر للانسان وهو ذو سلطان عليه، ولكن ينبغي له أن يتواضع ويعرف موقعه : هو عبد الله، صلته بالله صلة مخلوق وعبد ومملوك له فهو سيده ومالكه ومالك ناصيته، ولكنه أعطاه وظيفة في هذا الكون وجعله خليفة. من هاتين الصفتين نخرج إلى صلة الإنسان بالكون.

الصلة الأولى : صلة تفكير في هذا الكون، (ويتفكرون في خلق السموات والأرض، ربنا ما خلقت هذا باطلاً)، (ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم، ان في ذلك لآيات للعالمين) ــ بكسر لام العالمين ــ. فالله سبحانه وتعالى في القرآن كلما ذكر شيئاً من الكون اما في بداية الآية أو في آخرها تجدون مثل قوله يتفكرون ويعقلون ويعلمون...

الخ. وكذلك يبصرون ويسمعون، أَوَلَمْ يروا،... الخ. اذن الكون هو موضوع **للعقل والتفكير مع الاستعانة بالحواس. وهذا التفكير تفكير في أمرين :**

أولاً : التفكير في الكون نفسه : يريد منا أن نفكر في الكون أي : أن نستخرج ما فيه من سنن يسمونها قوانين الطبيعة، وهي سنن الله في الكون. وهكذا انطلق المسلم ليكتشف الكون وتطور العلم بفروعه... الخ. وقفزت العلوم قفزات لم تقفزها في أي حضارة من الحضارات ؛ بل ان تطور هذه العلوم في العصر الحاضر نتيجة للحضارة الإسلامية التي ترجمت كتبها للاتينية في القرن الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر للميلاد، وعلى أثرها حصل ما يسمى بعصر النهضة في أوربا.

ولكن التوجيه القرآني إلى الكون لا يقف ؛ بل يستمر التفكير حتى يصل إلى خالق هذا الكون فتنسجم حينئذ النظرة العلمية إلى الكون مع النظرة الايمانية إلى الله، وينسجم حينئذ العلم المادي الطبيعي في استخراج سنن الكون مع الايمان بالله خالق الكون وسننه ؛ ولذلك لم يكن هناك أي تعارض بين ما يسمى علم وما يسمى ايمان في الإسلام.

والصفة الثانية في صلة الإنسان بالكون : الانتفاع والاستثمار، فلم يذكر الله سبحانه وتعالى شيئاً إلا وذكر منافعه للانسان أو أشار اليها ؛ اما في ناحية معينة أو بوجه عام : (وهو الذي أنزل لكم من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات، ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون)، (وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون). ونشير هنا إلى الآية الجامعة : (وهو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور). هذه النظرة لا تنتهي إلى الانتفاع ؛ بل تنتهي إلى نظرة ربانية أخلاقية فتذكرك : من خلق هذه المنافع فتذكره وتشكره. وإذا كانت صلة التفكير نتيجتها التقدم في العلوم ؛ فهذه كانت نتيجتها التقدم في الاقتصاد، وكان النشاط الاقتصادي اثر ظهور الإسلام نشاطاً عجيباً، فكانت الموانئ الإسلامية أعظم موانئ العالم. وقد سمى القرآن هذا النشاط ابتغاء من فضل

الله، (ولتبتغوا من فضله)، (فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله)، فالمعرض عن النشاط الاقتصادي معرض عن فضل الله، فالنشاط الاقتصادي في الإسلام جزء من العبادة اذا حقق بطريقة مشروعة.

هذه النظرة جعلت الإنسان على صلة بالكون، فكان لصلة التسخير والاستخلاف ولصلة التفكير والانتفاع نتائج عظيمة جداً.

صلة الإنسان بالله :

الإنسان بين الله والكون، فهو بالنسبة لله عبد، وبالنسبة للكون ذو سلطان لأنه مستخلف فيه. هذا الموقع العجيب منه تنبثق جميع آفاق الحياة : الاقتصاد والحكم والسياسة، كلها تنبع من هذه النظرة : موقع الانسان بين الله ربه وخالقه وبين الكون الذي استخلف فيه. فالإنسان ليس إلهاً ؛ بل هو عبد ولكن لله لا للكون. والكون ليس إلهاً ؛ بل هو مسخر للإنسان والإنسان مستخلف فيه. ما هي صلة الإنسان بالله عز وجل ؟ الصلة الكبرى هي أنه مخلوق خلقه الله، وأنه عبد الله، فصلته صلة ايمان بأن الله خالقه، وصلة خضوع وقبول لأحكامه. الصلة الأولى : هي أن يعتقد بأن الله خالقه وبيده مصيره، والصلة الثانية : أن يخضع خضوعاً كاملاً لله دون غيره.

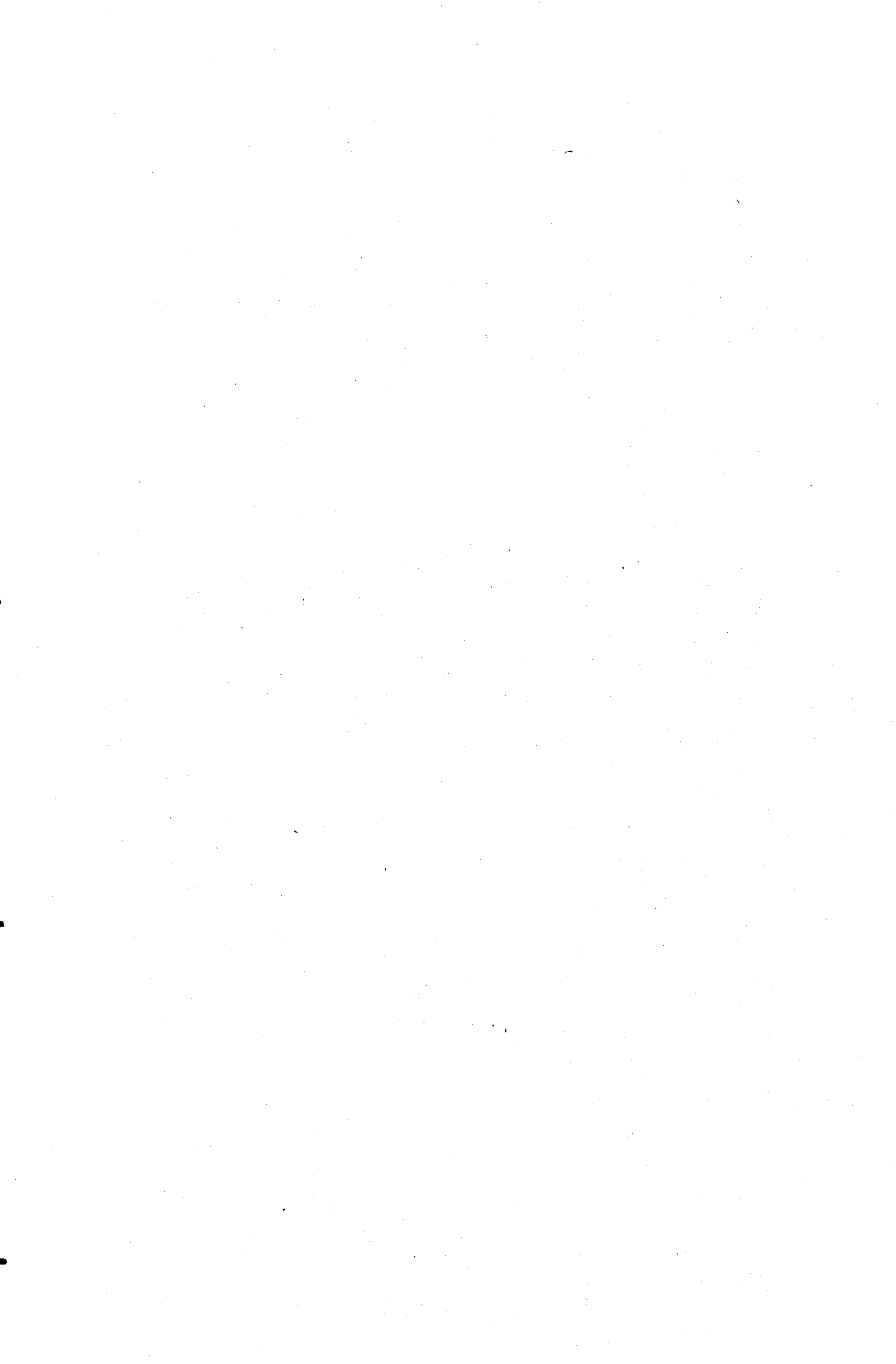
الله سبحانه وتعالى كرَّم الإنسان وأعطاه صفات لم يعطها لأحد من مخلوقاته ؛ فمنها : الحرية، حرية الاختيار، ونسب إليه الارادة والمشيئة، (من أراد العاجلة)، (ومن أراد الآخرة)، نسبت الارادة للانسان، كافراً أو مؤمناً، ولتحقيق الحرية أعطاه الارادة في حدود، ووصفه بالقوة، فعنده شيء من القوة والقدرة، وأعطاه عقلاً ليميز. واذ أعطاه سبحانه وتعالى الحرية والعقل والارادة والقدرة، كذلك كلفه، فأمره بأوامر وترك له مجال الحرية ليفعل.

وهنا أعود إلى مسألة كنت قلتها : الله سبحانه وتعالى ترك له الحرية حقيقة، قال تعالى : « فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى. وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى).

فالله سبحانه يسر للخير وللشر، وفتح الطريقين وترك لك الخيار، فالبدء منك أنت، (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم)، (فأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى)، والهداية هنا تأتي بمعنى الدلالة، والاضلال

فسح المجال لما يختاره من الشر، ولذلك تجدون اذا تتبعتم هذه الآيات أن العبد يبدأ، (ان الله لا يحب الظالمين)، (لا يحب الفاسقين)، (وهديناه النجدين)، **(انا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً)، (لو شاء الله ما أشركنا)، قول الكافرين وأرادوا بها أن الله أجبرهم على الشرك وقد كذبوا ! اذن** الإنسان مزيته أن الله أعطى له جهازاً خاصاً وهو الحرية، فقال له أنا خلقت لك الحرية لو شئت ما خلقتها، لماذا ؟ هذا هو سر القدر. أما اذا قلت لي لماذا يعاقبه ؟ أقول : لأنه أعطاه الحرية. لو أن انساناً جاء لابنه الكبير وعنده مشروع معمل كبير وأراد أن يعطي الحرية لولده في ادارة هذا المعمل، ولو أراد أن لا يعطيه لفعل ولكنه أراد، وحينما ترك له هذه الحرية لم يكن غائباً ؛ بل يرى ما يفعل بدقة. ثم قال له : سأتركك عشر سنين تفعل ما تشاء ولكن سأعطيك تعليمات، ان نفذتها كافأتك بأن سجلت لك هذا المعمل، وان فعلت غير ذلك حرمتك من كذا وكذا، فيتركه وربما هو على الأطلاع دقيقة بدقيقة ماذا يعمل من اساءة التصرف أو حسن التصرف، فهل يقال ان هذا الابن مجبر حين فعل الابن خيراً أو شراً حتى حينما فعل شراً والأب لا يريده، (الارادة التعليمية)، أعطاه تعليمات، وحينما يفعل خلافاً لما أرشده اليه فله الحق في أن يحاسبه خيراً أو شراً. فهو أعطاه الحرية ولكن لو شاء ما أعطاه، لو شاء أن يجعلنا مفطورين على الغريزة كالحيوان لفعل ولكن حكمته التي نجهلها اقتضت أن يعطينا الحرية بدون اكراه ولا اجبار مع علمه السابق بما سنفعل *.

(*) ارجع إلى كتاب نظام الإسلام ـ العقيدة والعبادة، تأليف : محمد المبارك، فصل، الإنسان حر ومسئول.



نظرة الإسلام إلى الحياة

(١)

خلق الله الإنسان أول ما خلقه من طين أو تراب أو صلصال ــ وكان التراب والماء أي الأرض والشمس والقمر والنجوم وما في السموات قد خلق لأنه خلقه من تراب أو من طين.

هذه المرحلة من الخلق لا ندري مدتها والفاصل بينها وبين كون هذا الإنسان الأول، آدم، انساناً سوياً لأن الله يقول : (هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده). فقد قضى أجلاً لا ندري مدته، وهو في هذه المرحلة التي جعله فيها من طين. وهذه مرحلة لا مجال لمعرفتها إلا بهذا الاجمال.

ثم كان خلقه الثاني الذي هو بالتوالد والتناسل، (من سلالة من ماء مهين)، إلى آخر المراحل التي يتكون أو يمر بها الإنسان في هذا النوع من الخلق، **فيكون نطفة ثم علقة ثم مضغة مخلّقة وغير مخلّقة، ثم انساناً سوياً** معتدل القامة منتصبها مزوداً بالسمع والبصر والعقل قادراً على اكتساب العلم وزيادته.

(٢)

لقد انتقل الإنسان الأول ــ آدم ــ من المكان الذي كان فيه ــ من

الجنة ـ إلى هذه الأرض التي نعيش فيها واهبط اليها ليستأنف حياة جديدة، مبتدئاً صفحة بيضاء لا دنس فيها ولا اثم بعد أنْ غفر الله له خطيئته الأولى وتاب عليه، (ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى) ٢٠ ـ ١٢٢.

ما هذه الحياة الجديدة التي استأنفها الإنسان وعلى أي أساس جعلها الله ؟ انها حياة فيها نوع من الاستقرار ونوع من المتعة للإنسان، ولكن لها نهاية تنتهي عندها وهذا ما تعبر عنه الآية الكريمة : (ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين)[1].

ليست هي الاستقرار الكامل الدائم كما يريدها ويراها الماديون والأبيقوريون، وليست كذلك عدماً وخيالاً ووهماً لا ينبغي أن يحسب حسابها، ولا تستحق أي التفات. فالنظرة الإسلامية وسَطٌ بين هاتين النظرتين، فقد أثبت لها الوجود بل الاستقرار ولكنه نوع من الاستقرار ـ يفهم من التنكير ـ وليس كل الاستقرار وكامل الاستقرار. وهي متاع وفيها للإنسان لذة ولكنها ليست اللذة الكاملة المثالية بل هي نوع من المتاع. وأخيراً ليست هذه الحياة أبدية دائمة ؛ بل هي محدودة في الزمان، فهي ـ استقرارها ومتاعها ـ « إلى حين ». وربما كان هذا هو المقصود في الأجل الثاني في الآية الكريمة التالية : (هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده)، أي أجل انهاء حياة الإنسان على هذه الأرضِ والتي تسمى « الحياة الدنيا ».

لقد وضع الإنسان في نطاق حياة لا بد له ولا معدى له عن الحياة والسير فيها. وهو فيها محاط بحواجز لا يستطيع اجتيازها ؛ بل عليه أن يعمل ضمن نظم للكون مرسومة لا قدرة له على تبديلها، وعليه أن يعرفها ويستفيد منها ويعمل ـ لتأمين استقراره ومتعته ـ في نطاقها. فهو لا يستطيع أن يغير حركة الشمس والأرض ولا سنة تبخر المياه وتجمعها في غيوم، كما أنه لا يستطيع أن يغير نظام التنفس والهضم أو الدورة الدموية في تكوينه العضوي. ولكنه ضمن هذا النظام الكوني العام له نطاق خاص به يستطيع الحركة في داخله واستعمال ارادته وتنفيذ ما يختار.

---

(١) ومثلها قوله تعالى : (ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون) ٧ ـ ١٠.

وفي مقابل هذه الحرية وهذا الامكان المتاح له زوده الله بتعليمات يهتدي بها باختياره ليتم الاختبار وليتم التمتع بكرامة الحرية التي ميز بها الإنسان عن غيره من المخلوقات. وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة : (قلنا اهبطوا منها جميعاً فاما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والذي كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) ٢ ـ ٣٨.

وتتلخص هذه التعليمات ـ كما ورد في سورة الأعراف في قصة آدم وهبوطه إلى الأرض، ومخاطبة الله لنبيه في كلمة القسط في قوله تعالى : (قل أمر ربي بالقسط) انظر الآيات ١١ ـ ٣٠. وهي تشمل ما يقابل التطرف في كل شيء والخروج عن التوازن وضدها الفحش والفاحشة والفواحش ومنه البغي والعدوان والطغيان والاسراف والفسوق والظلم. (قل انما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن، والاثم والبغي بغير الحق، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون). أما **القسط** فاعطاء كل شيء حقه وكل جانب من جوانب حياة الإنسان ما يستحقه بحسب التعليمات الالهية. وهذا ما تدل عليه الآية الواردة في السياق نفسه وهي قوله تعالى : (يا بني آدم خذوا **زينتكم** عند كل **مسجد وكلوا واشربوا** ولا تسرفوا، انه لا يحب المسرفين)، وقد جاءت مفسرة للآية التي سبقتها، (قل أمر ربي بالقسط)، ومشيرة إلى العبادة والزينة والطعام والشراب من غير اسراف وخروج عن القسط.

ان القسط هو الأصل الذي يلخص جميع أحكام الشريعة وتعاليم **الإسلام. ويدل على ذلك قوله تعالى** : (**لقد أرسلنا رسلنا بالبينات، وأنزلنا** معهم الكتاب والميزان **ليقوم الناس بالقسط**)، فارسال الرسل وانزال الكتب المتضمنة موازين القسط في كل مجال انما هو لتقوم حياة الناس ـ فرادى وجماعات ـ على **القسط** والتوازن.

ان في هذه الحياة الدنيا ملذات وشهوات ونعماً وطيبات ورزقاً وزينة يميل الإنسان إلى حبها وإلى الأخذ منها. وقد وردت النصوص في وصفها ووصف موقف الإنسان منها على أن ذلك وصف لواقع : (زين للناس حب

الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل **المسوّمة والأنعام والحرث، ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن** المآب) ٣ ـ ١٤ . وكذلك قوله : (انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد، كمثل غيث أعجب الكفار نباته...)[1]. وقد أباح الإسلام الأخذ من هذه النعم المستطابة وجعل هذا الأخذ بين حدين : أحدهما : الأخذ بحد أدنى منها، والثاني : هو عدم تجاوز ما يعتبر اسرافاً.

واشترط كذلك أن لا تكون متع هذه الحياة الدنيا هي الغاية المقصودة، وألا تكون مفضلة على الحياة الآخرة ملهية وشاغلة عنها، بل أن يستحضر الإنسان أنها متع زائلة وأن يقترن الأخذ بها بشكر الله عليها.

١ ـ أما الأخذ بحد أدنى فقد وردت فيه آيات كثيرة منها قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا **كلوا من طيبات ما رزقناكم** واشكروا لله ان **كنتم إياه تعبدون) ٢ ـ ١٧٢.**

وقوله : (يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً) ٢ ـ ١٦٨.
وقوله : (يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا).
بل انه تعالى يندد بمن يحرمها من رهبان بعض الأديان الأخرى أو غيرهم، فيقول سبحانه : (يا أيها الذين آمنوا **لا تحرموا طيبات** ما أحل الله لكم ولا تعتدوا، ان الله لا يحب المعتدين)، ويقول : (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة).

فسماها سبحانه (زينة الله)، وأضافها إليه وسماها **في مكان** آخر (نعمة الله)، وسماها (الطيبات)، وقال : (ويحل لكم الطيبات)، تحريضاً للأخذ منها بنصيب.

٢ ـ أما النهي عن الاسراف، فقد قال تعالى : (كلوا من ثمره إذا أثمر، وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا، انه لا يحب المسرفين) ٦ ـ ١٤١.

---

(١) سورة الحديد الآية ٢٠.

وكذلك قال : (وكلوا واشربوا ولا تسرفوا، انه لا يحب المسرفين) ٧ ـ ٣٠. وقد ندد بمن مال إلى الشهوات ميلاً عظيماً في قوله : (والله يريد أن يتوب عليكم، ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً) ٤ ـ ٢٦.

٣ ـ أما التنديد بمن جعلها غاية له فقد قال تعالى : (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون، أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار، وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون) ١١ ـ ١٥.

فان المؤمن ينبغي أن يجعل الآخرة ومرضاة الله غاية له، وهذا يتنافى مع جعل ملذات الدنيا غاية له. فقد قال تعالى : (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا).

٤ ـ ولذلك كان من كبريات النقائص والذنوب، التي هي من صفات الجاحدين الكافرين بالله، تفضيل الدنيا وملذاتها ومتعها على الآخرة. وقد كثرت الآيات التي تبين أفضلية الآخرة على الدنيا وتندد بمن يؤثر الدنيا على الآخرة، وهذا هو الذي وردت النصوص القرآنية في ذمه ؛ وأما الدنيا في ذاتها فلم يرد ذم لها، وانما المذموم حبها وتفضيلها وايثارها وجعلها هدفاً وغاية.

يقرر الله سبحانه أن ما في الآخرة أفضل مما في الدنيا وأبقى : (المال والبنون زينة الحياة الدنيا، **والباقيات الصالحات خير** عند ربك ثواباً وخير أملاً) ١٨ ـ ٤٨.

(وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها، وما عند الله خير وأبقى، أفلا تعقلون) ٢٨ ـ ٦٠.

ويندد **بايثار الدنيا على الآخرة** ويفضلها في الحب، ويتوعد من يفعل ذلك. **واليك بعض ما ورد في ذلك** من آيات :

(بل تؤثرون الحياة الدنيا، والآخرة خير وأبقى) ٨٧ ـ ١٦.

(فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فان الجحيم هي المأوى) ٧٩ ـ ٣٨. وهنا اقترن ايثارها بالطغيان.

(ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله، ولهم عذاب عظيم. ذلك بأنهم **استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة** وأن الله لا يهدي القوم الكافرين) ١٦ ـ ١٠٧.

(ان هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً) ٧٦ ـ ٢٧ وذلك بعد قوله : (لا تطع منهم آثماً أو كفوراً).

(قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها **أحب اليكم** من الله **ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره) ٩ ـ ٢٤.**

ان الله سبحانه ينهى عن الاغترار بها والركون اليها والاستغراق في طلبها مع أنه سبحانه يصف الإنسان عموماً بأنه محب لها وميال اليها في قوله تعالى : (وانه لحب الخير لشديد) والخير بمعنى المال. وقوله : (وتحبون المال حباً جماً).

ان الاغترار الكامل بالدنيا مقترن بالهزء بالدين واتخاذه لعباً ولهواً، وهذا من صفات الكافرين. قال تعالى : (ونادى أصحابُ النار أصحابَ الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله، قالوا ان الله حرمهما على **الكافرين الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرتهم الحياة الدنيا** فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا) ٧ ـ ٥٠ ـ ٥١.

ان الاغترار بالحياة الدنيا واعتبارها دائمة باقية ونسيان الآخرة واهمالها أو انكارها أصلاً، معان مرتبط بعضها ببعض تؤدي إلى نتائج سيئة في هذه الحياة، ولا سيما من الناحية الأخلاقية، عدا ما في ذلك من إعراض عن الله وإعراض عن لقائه وحسابه. لذلك تجد هذه المعاني مترابطة ومقترناً بعضها ببعض في الآيات الكريمة التي تتعلق بهذا الموضوع وتتضمن هذه المعاني.

قال تعالى : (يا معشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي **وينذرونكم لقاء يومكم** هذا، قالوا شهدنا على أنفسنا **وغرتهم الحياة الدنيا** وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) ٦ ـ ١٣٠.

تجد في هذه الآية مثلاً ثلاثة أمور متلازمة : الانذار باليوم الآخر، والاغترار بالدنيا، والكفر.

وقال سبحانه في آية أخرى : (ونادى أصحابُ النار أصحابَ الجنة **أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله، قالوا ان الله حرمهما على الكافرين الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرتهم الحياة الدنيا، فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا)** ٦ ـ ٧٠.

وقال ـ والخطاب للكافرين :

(وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين، ذلك بأنكم اتخذتم آيات الله هزواً وغرتكم **الحياة الدنيا)** ٤٥ ـ ٣٤.

وينبغي أن نلاحظ أن التمتع بالحلال من طيبات الدنيا أو ما سماه القرآن متاعاً هو غير الاغترار به، فقد ورد في القرآن في معرض المن به على بني آدم، فلا يكون اذاً مذموماً في ذاته. فمن ذلك قوله تعالى على سبيل الاخبار والاباحة :

(ولكم فيها مستقر ومتاع إلى حين) ٢ ـ ٣٦، ٧ ـ ٢٣.

(يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى) ١١ ـ ٣.

(ومن أصوافها وأوبارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين) ١٦ ـ ٨٠.

(وعنباً وقضباً وزيتوناً ونخلاً وحدائق غلباً وفاكهة وأبّاً، متاعاً لكم ولأنعامكم) ٨٠ ـ ٣٣.

تمتع المؤمن مقترن بالنظر إلى الدنيا على أنها زائلة مؤقتة وبتذكر نعم الله عليه وشكره. وأما تمتع **الكافر** فمقترن بالاغترار بهذه الدنيا كأنها دائمة باقية. **وبالإعراض** عن ذكر الله وعن تذكر لقائه. (والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام، والنار مثوى لهم) ٤٧ ـ ١٢. وهؤلاء هم الذين قال عنهم، (ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون) ١٥ ـ ٣.

(ان المتقين في ظلال وعيون وفواكه مما يشتهون، **كلوا واشربوا هنيئاً** بما كنتم تعملون. انا كذلك نجزي المحسنين، ويل يومئذ للمكذبين. **كلوا وتمتعوا قليلاً** انكم مجرمون) ٧٧ ـ ٤١.

ان الوقوف بين حدي الامتناع والاسراف وبين الاغترار بها والانصراف

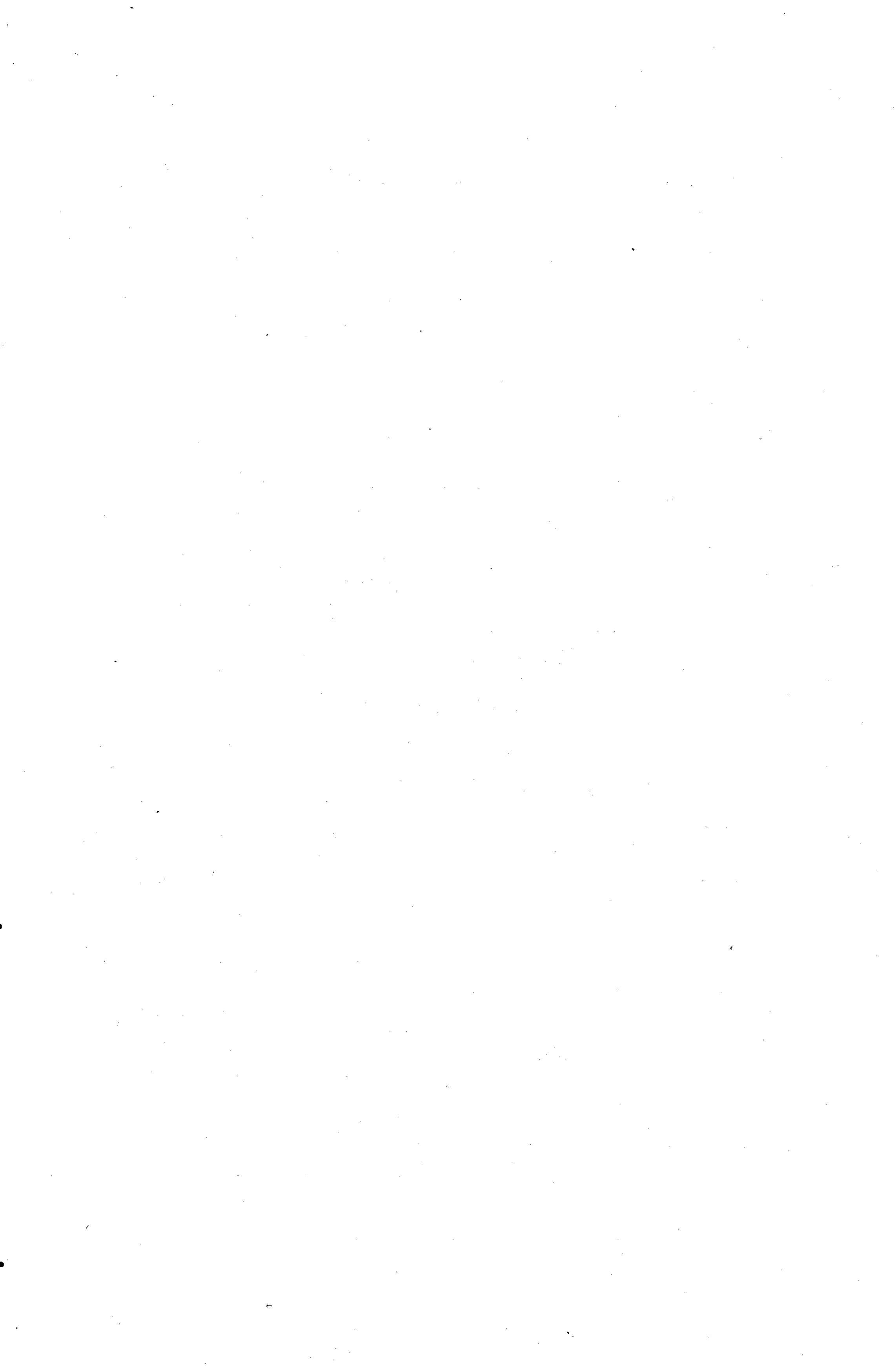
عنها كلياً بحجة النظر والتفكر في الآخرة هو الاعتدال والتوازن الذي سماه القرآن قسطاً وأمر به وجعله غاية الرسالات.

٥ ـ وأخيراً ينبغي أن يكون كسب ملذات الحياة والتمتع بها وانفاقها والانتفاع بها خاضعاً لضوابط أخلاقية حددها الإسلام وسماها (حلالا)حين تخضع لهذه الضوابط والأحكام.

هذه الضوابط هي التي تجعل، في باب ملذات الطعام والشراب، الخنزير والخمر حراماً، وفي باب المتعة الجنسية، الزنا حراماً، والزواج حلالاً، والكسب بالبيع الصحيح والعمل حلالاً، وبالربا والغش والظلم حراماً. وسبيل معرفة هذه الضوابط التي تفرق بين الطيبات والخبائث، والحلال والحرام، هي أحكام شريعة الله التي جاءت ببيناتها نصوص الكتاب والسنة.

الأمة في دلالتها العربية والقرآنية

للدكتور أحمد حسن فرحات
الأستاذ المساعد بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نحمده، ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهد الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً. والصلاة والسلام على معلم الناس الخير، سيدنا محمد، وآله وصحابته ومن دعا بدعوته واهتدى بهداه إلى يوم الدين وبعد :

فإن المراقب العادي لما يجري في العالم من أحداث، لا يستطيع أن يتجاهل ما يتعرض له الإسلام من حرب وكيد، وما يعانيه المسلمون من ظلم واضطهاد. كما أن الباحث المتأمل لا يستطيع أن يغمض عينيه عن حقيقة **هذه الحرب وأهدافها، وعن مجالاتها وأبعادها، وانها لا تعدو في حقيقتها** كونها حرباً صليبية يهودية شيوعية شاملة، استنفر لها العدو كل ما يملك من طاقة وجهد، ووضع في خدمتها كل ما وصل اليه العقل العلمي المبدع من اكتشاف واختراع، وشحن نفوس أبنائه وجنده بكل ما تختزنه الصليبية واليهودية والشيوعية من حقد دفين على هذه الأمة.

وبناء على ما تقدم فإن الغزو الفكري الغربي قد وصلت طلائعه إلى **بلادنا، ولا نكاد نجد مجالاً من مجالاتنا إلّا وقد تأثر منه بنصيب، حتى في** المجالات التي تعتبر من أخص خصائصنا. فإننا نرى الغزو الفكري يحاول محاصرتها واقتحامها، بينما لا يعرف الكثير منا أن العدو قد وصل إلى هذه

المواقع لأنه مشغول عن ذلك بتوافه الحياة، غارق في أوهامه وأحلامه، لا يشعر بتدبير العدو وخطره، وأن عليه أن يخوض معه معركة حاسمة في كل ميدان، وأن عليه أن يعد لهذه المعركة التاريخية عدتها، وأن يحسب لها حسابها.

بل إن من أظهر آثار هذا الغزو الفكري في بلادنا مانشاهده من بعض شبابنا وأبناء جلدتنا والذين يتكلمون لغتنا، يولون وجوههم شطر الحضارة المادية الغربية، يطوفون حول اصنامها، ويخدعون ببريقها، ويتغذون من ثقافتها، يساعدهم في ذلك هوى في نفوسهم، وجهل بثقافتهم ودينهم، وثمن بخس من متاع الحياة يبيعون به أمتهم وحضارتهم.

لقد وصل الغزو الفكري إلى مجالنا الديني وثقافتنا الإسلامية،وإن العدو يركز كل جهوده على هذا المعقل الحصين الذي مازال يحفظ هذه الأمة ويمنعها من السقوط، وعلى الأمة أن تحول دون سقوط هذا المعقل بكل ما أوتيت من قوة، وإلّا فإن الكارثة سوف تكون مروعة.

ومن مظاهر هذه الغارة الغربية على ديننا وثقافتنا ما يقوم به المستشرقون من بحوث ودراسات في الثقافة الإسلامية وعلومها، ومن نشر لبعض المخطوطات المتصلة بها، وما يصاحب ذلك كله من دس وافتراء وتحريف في النصوص ودلالتها، ومن عبث بالمصطلحات الإسلامية وتشويهها. بل إنهم ليبعدون كثيراً فيما يذهبون إليه من أحكام، وما يتوصلون اليه من نتائج، حتى انهم كثيراً ما يبيحون لأنفسهم حق الفتيا، في « العربية » و « الإسلام »، في جرأة غريبة ومنطق عجيب.

ولعل خير مثال نقدمه على ذلك ما ورد بشأن مصطلح « الأمة » ـ الإسلامي ـ في دائرة المعارف الإسلامية، والتي هي عمل من أعمال المستشرقين العلمية، وفي موضوع من أوسع موضوعات الثقافة الإسلامية وأخطرها، لنرى أنموذجاً واحداً من نماذج كثيرة تحفل بها كتب المستشرقين وأعمالهم ودراساتهم، وكيف تشكل مثل هذه الأعمال خطراً على ثقافتنا الإسلامية وديننا الحنيف، ولنتبين مدى تقصيرنا في سد مثل هذه الثغرات التي ينفذ منها عدونا إلى ما يريد.

جاء في دائرة المعارف الإسلامية : ٤/٤١١ ـ ٤١٤ عن مصطلح « الأمة » الإسلامية ما يلي :

أمة : هي الكلمة التي وردت في القرآن للدلالة على شعب أو جماعة وهي ليست مشتقة من الكلمة العربية « أم »، بل هي كلمة دخيلة مأخوذة من العبرية « أمّا »، أو من الأرامية « أُمّيثا »، لذلك فلا صلة مباشرة بينها وبين كلمة « أمة » التي تدل على معان أخرى مثل : حين من الزمن ـ سورة هود : وسورة يوسف : ٤٥ ـ أو الجيل، وهذه نجدها في القرآن أيضاً. سورة الزخرف : ٢٢ وما بعدها.

وقدتكون الكلمة الأجنبية دخلت لغة العرب في زمن متقدم بعض الشيء ـ انظر ما يقوله هوروفتز عن نقش الصفا رقم ٥٢ ص : ٤٠٧ ـ ومهما يكن من شيء فإن محمداً أخذ هذه الكلمة واستعملها وصارت منذ ذلك الحين لفظاً إسلامياً أصيلاً.

والآيات التي وردت فيها كلمة « أمة » ـ وجمعها أمم ـ في القرآن مختلفة المعنى بحيث لا يمكن تحديد معناها بالتدقيق. على أن مما لا شك فيه أنها تدل دائماً على فئة أو طائفة من الناس تربطهم أواصر الجنس أو اللغة أو الدين، وهم داخلون فيمن سيحاسبهم الله على ما كسبوا في هذه الحياة، ونجد دلائل تؤيد هذا المعنى حتى في الآيات التي وردت فيها كلمة « أمة » من غير نسبة إلى شيء ما، مثل آية/١٦٤/ من سورة الأعراف، وآية/٢٣/من سورة القصص.

ويطلق لفظ « الأمة » للدلالة على الجيل في آيات متفرقة ـ سورة الأعراف : ٣٨ ـ وسورة فصلت : ٢٥ ـ وسورة الأحقاف : ١٨ ـ بل وعلى جميع الكائنات الحية ـ الأنعام : ٣٨ ـ ويراد بهذا اللفظ دائماً عند إطلاقه على هذه الكائنات انها داخلة فيمن سيحشرون للحساب وانها أهل للجزاء.

وأطلق لفظ « الأمة »، شذوذاً في آية واحدة ـ سورة النحل : ١٢٠ ـ للدلالة على فرد هو إبراهيم، ومعنى لفظ « الأمة » ـ هنا ـ أيضاً : الإمام، كما يقول علماء اللغة، أو إن إبراهيم سمي « أمة » بصفته رئيس الجماعة

التي أنشأها وذلك باطلاق لفظ الكل على الجزء. وفيما عدا هذا يدل لفظ « الأمة » دائماً على جماعات كبيرة، أو على الأقل على جماعات تنطوي في غيرها اكبر منها.

وقد أرسل الله لكل أمة رسولاً ـ الانعام : ٤٢ ـ يونس : ٤٧ ـ الرعد : ٣٠ ـ النحل : ٤٣ ، ٦٣ ـ المؤمنون : ٤٥ ـ العنكبوت : ١٨ ـ غافر : ٥ ـ أو نذيراً : فاطر : ٢٣ و ٤٢ ـ يهديهم إلى الصراط المستقيم. ولكن هؤلاء الرسل أوذوا وكذبوا، كما وقع لمحمد ـ المؤمنون : ٤٤ والعنكبوت : ١٨ ـ وغافر : ٥ ـ ولذلك سيكونون يوم القيامة شهداء على من كذبهم وآذاهم ـ النساء : ٤٠ ـ النحل : ٨٤ و ٨٩ ـ القصص : ٨٥ ـ البقرة : ١٤٢ ـ وكل أمة ستحشر للحساب الأنعام : ١٠٨ ـ الأعراف : ٣٧ ـ يونس : ٤٥ ـ الحجر : ٥ ـ المؤمنون : ٤٣ ـ النحل ٨٣ الجاثية : ٢٧.

وفي الأمم المختلفة قوم اجابوا دعوة الرسل فاهتدوا إلى الصراط المستقيم وآخرون لم يؤمنوا بما جاؤوا به ـ النحل : ٣٦ ـ يصدق هذا بنوع خاص على أهل الكتاب، ويسمى المهتدون من أهل الكتاب أمماً ـ آل عمران ١١٣/وما بعدها ـ المائدة ـ ٦٥ ـ الأعراف : ١٥٩ ـ البقرة : ١٢٨، ١٣٤ ـ الأعراف ١٦٧ ـ ١٨١ ـ هود : ٤٨ ـ وهم طوائف صغيرة في جماعات كبرى.

وكثيراً ما يتعرض محمد لبحث مسألة اختلاف الناس أمماً بعد أن كانوا أمة واحدة، ويرى أن السبب الحقيقي لهذا الاختلاف هو إرادة الله التي لا نحيط بها، « وما كان الناس إلّا أمة واحدة فاختلفوا، ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم فيما فيه يختلفون » ـ يونس : ١٩، وانظر سورة المائدة : ٤٨ ـ وهود : ١١٨ ـ والنحل : ٩٣ ـ والشورى : ٨.

ويقال احياناً أن سبب الاختلاف هو بغي الناس وشقاقهم ـ البقرة : ٢١٣ الأنبياء : ٩٣ المؤمنون : ٥٣.

وفي آية أخرى يرجع السبب إلى انقسام بني إسرائيل إلى اثنتي عشرة أمة ـ الأعراف : ٦٠ وانظر أيضا : ١٦٨.

ويظهر أن أقوال محمد هذه، وفيها من الخطابة أكثر مما فيها من المنطق، إنما كانت إجابة على اعتراضات أثارها خصومه من أهل الكتاب، وما كان النبي ليتعرض لهذه المسألة الصعبة من تلقاء نفسه.

أما فيما يتعلق بأمة محمد خاصة، فنستطيع أن نتبدل بعض الاختلاف والتبدل في معنى كلمة « أمة »، والمسألة ـ هنا ـ أسهل لأننا نعالج إلى حد ما مسألة تاريخية.

كان محمد في أول رسالته يعتبر العرب عامة ومواطنيه من أهل مكة أمة قائمة بذاتها، كما أن الله أرسل رسله ومنذريه إلى الأمم السالفة، فهو قد أرسل محمداً ليبلغ رسالة الله إلى الأمة العربية، ويبين لها طريق النجاة، ولم يكن قد بعث فيها رسول من قبل، وقد كذب وأوذي أشد الإيذاء، شأن من سبقه من الرسل.

وبعد أن قطع النبي علاقاته مع أهل مكة الوثنيين، وهاجر هو وأصحابه إلى المدينة، أسس جماعة جديدة تجعل أهل المدينة جميعاً جماعة سياسية واحدة، بمن فيهم المسلمون ومن لم يستجيبوا إلى دعوته الدينية. وينص كتاب النبي بين المهاجرين والأنصار، الذي وضعت فيه أسس هذا الحلف، نصاً صريحاً على أن أهل المدينة بمن فيهم اليهود يكونون أمة ـ ابن هشام : ٣٤١ ـ ٣٤٢ وما بعدها ـ على أن الصيغة السياسية الغالبة في هذه الأمة الجديدة إنما كانت مؤقتة.

فلم يكد محمد يحس أن مركزه قد توطد في المدينة، ويرى انتصاره في حروبه مع كفار مكة حتى استطاع أن يخرج من جماعته السياسية الدينية أهل المدينة وخصوصاً « اليهود » الذين لم يعتنقوا الدين الذي جاء به، وبمرور الزمن صارت أمته تتألف من المسلمين وحدهم، وصار يعتبر المسلمين أمة، ويؤكد صفاتهم الخلقية والدينية ـ آل عمران : ١٠٤ ـ ١١٠ ويعتبرهم غير أهل الكتاب الذين كان محالفاً لهم.

وكان من أثرقطعه للصلة بأهل الكتاب أن بدأ يميل شيئاً فشيئاً إلى أهل مكة وإلى الكعبة مركز عبادتهم ـ البقرة : ١١٩ وما بعدها وخصوصاً : ١٢٢ / والحج : ٣٥ ، ٦٦ ـ وإنما كان رجوعه إلى فكرته الأولى في إنشاء

أمة تشمل العرب جميعاً رجوعاً ظاهرياً، فالحقيقة أن النتيجة الأخيرة التي وصل اليها تختلف اختلافاً جوهرياً عن النقطة التي بدأ منها، فإن فكرة إنشاء أمة عربية، وهي الفكرة التي أخذها محمد أول الأمر قضية مسلمة لم تتم إلّا بعد جهد عظيم. على أنه إذا كانت الأمة التي أنشأها أول الأمر هي من العرب، فقد كان هذا أمراً ثانوياً. أما الأمر الجوهري فهو الأساس الديني الذي قامت عليه، فبعد أن كانت أمة من العرب صارت أمة من المسلمين، ولا عجب أنه لم يكد يموت محمد حتى انتشرت إلى ما وراء جزيرة العرب وأصبحت بمرور الزمن وحدة كبيرة تشمل أجناساً وأمماً مختلفة ».

الأمـة في اللغـة :

يرى أبو البقاء في كلياته : ٣٠١/١ : أن « الأمة » ـ في الأصل ـ : المقصود كـ « العُمْدَة » و « العُدَّة » في كونهما « معموداً ومُعَدّاً ».

وهذا يعني أن « الأمة » ـ عند أبي البقاء ـ بمعنى اسم المفعول، ولم أر أحداً من اللغويين ـ فيما علمت ـ تكلم على الوزن الصرفي لكلمة « أمة » غير أبي البقاء. لكن يفهم من المعاني التي ذكرها علماء اللغة أن « الأمة » قدتكون بمعنى اسم المفعول ـ كما هو رأي أبي البقاء ـ وقد تكون بمعنى اسم الفاعل. وسنوضح ذلك فيما بعد إن شاء الله.

الإشتقـاق اللغـوي :

وإذا كانت « الأمـة » بمعنى المقصود فإن اشتقاقها من « الأمّ » بمعنى : القصد، وهذا ما أكده صاحب لسان العرب حيث قال : الأمة ـ في اللغة ـ : من القصد.

يقال : أممت إليه : إذا قصدته، ويشهد لقول صاحب اللسان قوله تعالى « ولا آمين البيت الحرام » أي : قاصدين. إلّا أن الأمر الذي يلفت الانتباه أن « الأمة » ـ في اللغة ـ تتصرف في معان كثيرة كما جاء في كتاب « بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز : ٢٩/٢ » ـ للفيروزابادي صاحب القاموس حيث قال :

« الأمة ـ لغة ـ : الرجل الجامع للخير، و « الإمام »، وجماعة أرسل

اليهم رسول، والجيل من كل حي، والجنس، ومن هو على الحق مخالف لسائر الأديان والحين والقامة، والأم، والوجه، والنشاط، والطاعة، والعالِم. ومن الوجه : معظمه. ومن الرجل : قومه. وأمة الله تعالى : خلقه ».

وإن تصرف الكلمة في هذه المعاني المتعددة هو الذي دفع المستشرقين إلى الزعم بأن الكلمة دخيلة في العربية، وانها ليست مشتقة من « الأم » بمعنى القصد، حيث لم يجدوا صلة اشتقاقية بين هذه المعاني على حد قولهم. ومن ثم حاولوا أن يلصقوها بالعبرية أو الآرامية.

الأصل الذي يجمع هذه المعاني :

يرى صاحب « لسان العرب » أن تلك المعاني المتعددة لكلمة « أمة » ترجع كلها إلى معنى القصد حيث يقول في ذلك : « وأصل هذا الباب كله من القصد، يقال : أممت إليه : إذا قصدته. فمعنى « الأمة » ــ في الدين ــ : ان مقصدهم مقصد واحد. ومعنى « الأمة » ــ في النعمة ــ : إنما هو الشيء الذي يقصده الخلق ويطلبونه. ومعى « الأمة » ــ في الرجل المنفرد الذي لا نظير له ــ : ان قصده منفرد من قصد سائر الناس، قال النابغة :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة
وهل يأثمن ذو أمة وهو طائع

ولو أن صاحب اللسان تابع الكلام على بقية المعاني لأعفانا من كثير من العناء في هذا الموضوع، ولكنه مع الأسف لم يستوعب كل المعاني السابقة مما يجعل مهمتنا أكثر صعوبة وتعقيداً، وسنحاول فيما يلي اكتشاف الصلة الاشتقاقية الجامعة لمعاني كلمة « الأمة »، مستعينين في ذلك بما ترك لنا علماء اللغة والمؤلفون فيها من إشارات وامارات.

تصنيف المعاني المختلفة ضمن مجموعات :

إن نظرة مدققة في المعاني المتعددة التي أشرنا اليها تفيد بإمكان تصنيف تلك المعاني في خمس مجموعات على النحو التالي :

المجموعة الأولى : تكون « الأمة » فيها بمعنى الجماعة وتشمل :

الجماعة من الناس ـ أتباع الأنبياء ـ جماعة العلماء ـ من أرسل اليهم الأنبياء من كافر أو مؤمن ـ الجيل والجنس من كل حي ـ إلى غير ذلك من أنواع الجماعات التي ذكرها علماء اللغة.

المجموعة الثانية : تكون « الأمة » فيها بمعنى « الدين » أو « الملة » أو « الطاعة » وهي ألفاظ متقاربة في المعنى.

المجموعة الثانية : تطلق « الأمة » على رجل واحد إذا كان على دين الحق مخالفاً لسائر الأديان، أو كان لا نظير له أو كان رجلاً جامعاً للخير أو عالماً أو قدوة أو إماماً أو ربانياً وهي كلها ألفاظ شبه مترادفة تعبر عن حقيقة واحدة.

المجموعة الرابعة : تكون « الأمة » بمعنى « الحين » أو « الزمن » أو « السنين ».

المجموعة الخامسة : تكون « الأمة » أسماء لأعضاء في الإنسان كـ « الوجه » و « القامة ». ويلاحظ أن المجموعات الأربع الأول هي التي ورد استعمالها في القرآن الكريم، ومن ثم سينصب جهدنا واهتمامنا عليها دون المجموعة الخامسة والتي يكفي أن نشير فيها إلى أن « الوجه » و « القامة » ليسا بعيدين عن معنى « القصد » الذي اشتقت منه « الأمة » وذلك أن « الوجه » و « القامة » كثيراً ما يعبر عن الجهة التي يقصدها الإنسان، وهكذا يقال : لا أمة لبني فلان، أي : ليس لهم وجه يقصدون اليه، لكنهم يخبطون خبط عشواء.

ونعود الآن إلى المجموعات الأربع لنرى كيف يمكن إرجاعها إلى أصل واحد :

المجموعة الأولى : أن تكون الأمة فيها بمعنى الجماعة :

اتفق اللغويون جميعاً على أن معنى « الجماعة » هو المعنى الأصلي لـ « الأمة » وأن المعاني الأخر يمكن ردها إلى ذلك المعنى الأصلي :

قال الراغب الأصفهاني في مفرداته : الأمة : كل جماعة يجمعهم أمر ما : اما دين واحد أو زمان واحد أو مكان واحد. سواء كان ذلك الأمر

الجامع تسخيراً أو اختياراً ». وقال أبو حاتم الرازي في كتابه « الزينة » في الكلمات الإسلامية العربية « : الأمة : أصلها الجماعة من الناس والدواب والطير ـ أي جماعة ـ وأصله الاجتماع على الشيء وعلى حالة واحدة ».

وقال ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن : أصل « الأمة » : الصنف من الناس والجماعة. أما كيف صارت « الأمة » : الجماعة، وصلة ذلك بأصل الاشتقاق فنجده عند أبي البقاء والطبري والحكيم الترمذي.

يقول أبو البقاء : الأمة ـ بالضم ـ في الأصل ـ : المقصود كالعمدة والعدة في كونهما معموداً ومُعَدّاً. وتسمى بها الجماعة من حيث تؤمها الفرق ».

ويقول الحكيم الترمذي في كتابه « تحصيل نظائر القرآن » /٨٢/فالأمة : هي الجماعة التي يؤمها الناس ويقصدونها، ثم يقول : « وإنما صارت « الأمة » ـ في المكان ـ : الجماعة لأن الذي يقصده الناس ويبصرونه : إنما يبصرون الكثرة المجتمعة حتى يقصدونها ».

ويلاحظ تقارب قول أبي البقاء مع قول الحكيم الترمذي وأن « الأمة » عندهما بمعنى اسم المفعول.

أما الطبري فيفهم من قوله أن « الأمة » بمعنى اسم الفاعل وذلك حينما يقول : وأصل « الأمة » جماعة من الناس تجتمع على دين واحد وملة واحدة... ثم تستعمل في معان كثيرة ترجع إلى معنى الأصل ». وكأن المعنى على قول الطبري ـ : ان « الأمة » هي الجماعة التي تقصد الدين وتلتقي عليه.

المجموعة الثانية : وتكون « الأمة » فيها بمعنى الدين أو الملة.

وكما اتفق علماء اللغة على أن « الجماعة » هو الأصل في معاني « الأمة »، كذلك اتفقوا على أن « الأمة » تكون بمعنى « الدين ». قال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة : الأمة : الدين، وحكى أبو زيد : لا أمة له : لادين له. وقال أبو حاتم الرازي في كتاب « الزينة في الكلمات الإسلامية العربية » ـ مخطوطة معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية بالقاهرة ـ قال

أبو عبيدة : أمة واحدة : ملة واحدة. ويستدلون على ذلك ببيت النابغة المشهور :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة
وهل يأثمن ذو أمة وهو طائع

يقصد بـ « ذو أمة » ذو دين.

أما كيف صارت « الأمة » : الدين أو الملة فنجده عند أبي البقاء والطبري وابن قتيبة : يقول ابو البقاء : وتطلق ـ أي الأمة ـ على الدين والملة والطريقة التي تُؤم ». فهو على اصله السابق في أن « الأمة » بمعنى اسم المفعول.

أما أبو جعفر الطبري فيقول : « والأمة : الدين. والأصل انه يقال للقوم يجتمعون على دين واحد : امة، فتقام « الأمة » مُقام «الدين »، وكذلك تعليل ابن قتيبة قريب من تعليل الطبري.

ومما هو جدير بالذكر ان « الدين » المقصود في تعريف الطبري يراد به التدين العملي الذي يتمثل في السلوك الانساني، ويؤيد ذلك ان « الأمة » ترد بمعنى « الطاعة » و « الطريقة » فهما تفسير للدين المراد هنا.

المجموعة الثالثة : وتكون « الأمة » فيها بمعنى الرجل المنفرد :

فقد جاء في لسان العرب : ان « الأمة » كل من كان على دين الحق مخالفاً لسائر الاديان فهو امة وحده... و« الأمة » : الرجل الذي لا نظير له... و « الأمة » : الرجل الجامع للخير. وذكر كثير من اللغويين الحديث الوارد في زيد بن عمرو بن نفيل وانه يبعث يوم القيامة امة وحده. ويقول احمد ابن فارس في معجم مقاييس اللغة : والأمة : الامام، ونقل ابو حاتم الرازي ان « الأمة » : القدوة والامام.

ولا شك بأن هذه المعاني والألفاظ تعبر عن حقيقة واحدة.

أما كيف صارت « الأمة » : الرجل المنفرد، فهذا ما نجده عند صاحب اللسان والراغب الاصفهاني والطبري وابن قتيبة وأبي حاتم الرازي وأبي البقاء.

يقول صاحب اللسان : ومعنى « الأمة » في الرجل المنفرد : ان قصده منفرد من قصد سائر الناس.

ويقول الراغب الاصفهاني في تفسير قوله تعالى « ان ابراهيم كان أمة » : أي قائماً مقام جماعة في عبادة الله، نحو قولهم فلان في نفسه قبيلة.

ويقول أبو جعفر الطبري : فالأمة بمعنى « الامام »، و « معلوم الخير » انما جاز تسمية الواحد فيها باسم الجماعة لاجتماع اخلاق الخير ـ الذي فيه يكون في الجماعة المفرقة ـ فيه. كما يقال : فلان امة وحده.

وأما ابن قتيبة فيقول : ثم تصير « الأمة » الامام والرباني كقوله تعالى : « ان ابراهيم كان أمة » أي : إماماً يقتدي به الناس لأنه ومن اتبعه أمة فسمي أمة لانه سبب الاجتماع. وقد يجوز ان يكون سمي أمة، لأنه اجتمع عنده من خلال الخير ما يكون مثله في أمة. ومن هذا يقال : فلان أمة وحده. أي يقوم مقام أمة.

وأما أبو حاتم الرازي فيقول : وقيل للرجل الواحد أمة، لاجتماع الناس اليه في حالة الدين. وسمي بذلك أيضاً لما اجتمع فيه من الخصال ما يكون متفرقة في كثير من الناس، مثل : العلم والعقل والدين والجود والشجاعة وغير ذلك. فلما اجتمعت فيه، قيل له : امة لأنه قام مقام جماعة من الناس، وكان يجمع الناس اليه.

وقال أبو البقاء : وتطلق أي : الأمة على الرجل الجامع لخصال محمودة... ومن هنا قيل : لو لم يبق من المجتهدين إلا واحد يكون قوله إجماعاً لأنه عند الانفراد يصدق عليه أنه أمة.

وهكذا نرى ان صاحب اللسان يعود بالكلمة إلى « القصد » بينما يجعلها الآخرون ترجع إلى سبب الاجتماع أو اجتماع خلال الخير فيه أو لقيامه مقام أمة في « عبادة الله ».

المجموعة الرابعة : وتكون « الأمة » فيها بمعنى « الحين » أو « الزمن » أو « السنين ».

قال صاحب اللسان : الأمة : الحين. وقال ابن فارس : وبعد ذلك اصول ثلاثة ـ يريد في معنى الأمة ـ وهي : القامة والحين والقصد.

أما كيف صارت « الأمة » : الحين أو السنين :

فيرى الحكيم الترمذي انها صارت كذلك لاجتماع الايام والشهور في سنين كثيرة. ولا يظهر لهذا القول صلة بالمعاني الأخرى لكلمة « الأمة ».

وأما القول القريب إلى ما نحن بصدده فنجده عند الطبري وابن قتيبة والراغب الاصفهاني وقد عبروا عنه بتعبيرات متقاربة : *

يقول أبو جعفر الطبري : وانما قيل « للسنين المعدودة » و « الحين » أمة لأن فيها تكون « الأمة ».

ويقول ابن قتيبة : ثم تصير « الأمة » : الحين، كأن « الأمة من الناس » ينقرضون في حين، فتقام الأمة مقام الحين.

ويقول الراغب الاصفهاني : وحقيقة ذلك : بعد انقضاء أهل عصر أو أهل دين.

نظرة جديدة تربط هذه المعاني :

ويمكن لنا ان ننظر إلى هذه المعاني الأربعة في كلمة « الأمة » نظرة أخرى تمثل المراحل التي تمر فيها « الأمة » عبر تاريخها فنقول :

تتمثل « الأمة » أولاً برجل واحد حينما يكون على دين الحق مخالفاً لسائر الأديان وهو النبي غالباً أو من يسير على طريقته ومن ثم يكون الرجل الذي لا نظير له لأنه الرجل الجامع للخير والذي يكون اماماً وقدوة لغيره من الناس.

فإذا استجابت لهذا الرجل فئة من الناس وسارت على طريقته ومنهجه سميت أمة لاجتماعها اليه في حال الدين أو لأنها تعبير عملي عن تعاليم الدين واحكامه مطبقة في عالم الواقع. فاذا تخلت الأمة عن دينها وعقيدتها فقدت حقيقة وجودها ومن ثم تسمى أمة باعتبار ما كان فكأن « الأمة » هنا يراد بها الحقبة الزمنية التي كانت فيها ملتزمة بدينها، وكأن القرآن يلفتنا في

هذا إلى ان التاريخ لا يكون بوحدات زمنية فقط وانما يمكن ان يحسب بوحدات دينية أيضاً يعبر عنها بـ « الأمة » ويراد بها الحقبة الزمنية التي كانت فيها تلك الأمة منسجمة مع عقيدتها ودينها. وهذا يعني ان الإسلام لا يقيم كبير اعتبار للزمن وحده وانما الاعتبار الأهم لما يجري فيه من نماذج عملية ملتزمة بطرق الهداية، ومن ثم يكثر في القرآن اطلاق لفظ « القرون » على الأمم السابقة مع أنها في الأصل لفترة من الزمان.

وقد أطلت الكلام في المعنى اللغوي لـ « الأمة » ليتبين فساد ما ذهب اليه المستشرقون في دائرة المعارف الإسلامية من زعمهم ان الكلمة دخيلة على العربية لعدم وجود صلة اشتقاقية بين معانيها المتعددة ومن ثم فقد جعلوها ترجع إلى أصل عبري أو آرامي. أما من حيث الصلة الاشتقاقية فاعتقد ان ما تقدم من الكلام كاف في دحض هذه الفرية التي أطلقها المستشرقون، وقد يكونون معذورين ـ لجهلهم بالعربية وفقهها ـ في ان لا يدركوا الصلة الاشتقاقية بين معاني هذه الكلمة، لكنهم غير معذورين في نفيهم هذه الصلة اصلاً، فهذا تَقَوُّل بما لا علم لهم به، ومن ثم كان عليهم ان يكونوا اكثر تواضعاً لانهم يتكلمون في شأن لغة يعتبرون تلاميذ في دراستها.

والأمر الآخر الذي تسرع فيه المستشرقون ـ وينبغي أن تكون لهم فيه اناة ـ زعمهم يأن كلمة « أمة » العربية ترجع إلى أصل عبري أو آرامي دون ان يقدموا على ذلك دليلاً علمياً واحداً الأمر الذي يتنافى مع الموضوعية التي يدعونها ومع المنهجية العلمية التي كثيراً ما يلهجون بذكرها، ذلك ان الزعم بأنْ كلمة ما مأخوذة من لغة من اللغات ليس بالأمر الهين اليسير، فان وجود كلمة واحدة في لغتين مختلفتين ليس شرطاً ان تكون احدى اللغتين قد اخذته عن الأخرى. ولو سلم فان القطع بان هذه اللغة هي الآخذة يحتاج إلى أدلة وبراهين دونها صعوبات وصعوبات.

ومع ذلك فان المستشرقين ـ والحق يقال ـ قد شعروا بضعف موقفهم هذا فاحتاطوا لانفسهم شيئاً من الاحتياط، فبعد أن اطلقوا دعواهم المريضة، في جرأة على العلم غريبة، ادركوا انهم ارتقوا مرتقى صعباً وان كلامهم هذا

غير كاف في إقناع الآخرين فكان عليهم ان يفكروا بطريقة يحسنون فيها الانسحاب فوجدوا المخرج في مثل هذه العبارة :

« وقد تكون الكلمة الأجنبية دخلت لغة العرب في زمن متقدم بعض الشيء، ومهما يكن من شيء فان محمداً أخذ هذه الكلمة واستعملها وصارت منذ ذلك الحين لفظاً اسلامياً أصيلاً ».

بمثل هذه الروح يكتب المستشرقون عن الإسلام والعربية، وبمثل ذلك المنطق العجيب يفكرون ويقدرون. وبمثل هذه البساطة يصدرون الأحكام في قضايا ديننا وأمتنا. وبمثل هذا العبث يملؤون الكتب والمؤلفات التي تعتبر مراجع العصر وأصوله الثقافية، ونحن عن كل ذلك غافلون مشغولون بأمور أخر، لا تقدم بل تؤخر ولا تنفع بل تضر. فمتى نضع ارجلنا على الطريق القاصد، ومتى نقدم الحقيقة ناصعة للناس كالشمس في رابعة النهار متــى !

معاني « الأمة » في القرآن الكريم :

أشرنا فيما سبق إلى أن المعاني الأربعة التي ترجع اليها معاني « الأمة » المتعددة في اللغة العربية هي التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، وعلينا في هذا الفصل أن نتتبع تلك المعاني في القرآن الكريم، ثم نعرض للمعنى الإسلامي لـ « الأمة » في فصل مستقل.

معنـى الجمـاعــة :

قلنا فيما سبق ان معنى « الجماعة » هو الأصل في دلالة الكلمة وانه ينطوي تحته أنواع متعددة من الجماعات فما هي الجماعات التي وردت في القرآن الكريم والتي تنطوي تحت هذا المعنى.

١ ـ الجنس من كل حي :

ورد هذا المعنى لكلمة « الأمة » في الآية الثامنة والثلاثين من سورة الأنعام وهي قوله تعالى :

« وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم، ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون ».

وقد اختلف المفسرون في المراد بالمثلية في هذه الآية : فقال الراغب الأصفهاني : أي : كل نوع منها على طريقة قد سخرها الله عليها بالطبع، فهي من بين ناسجة كالعنكبوت وبانية كالسرفة ومدخرة كالنمل ومعتمدة على قوت وقتها كالعصفور والحمام إلى غير ذلك من الطبائع التي تخصص بها كل نوع. وقال أبو حاتم الرازي : أمما : اصنافا كل صنف من الطير والدواب مثل بني آدم في طلب الرزق والغذاء وتوقي المهالك والتماس السبل.

وذهب غير هؤلاء إلى انها أمم في « الدين » كما نجد ذلك عند صاحب لسان العرب حيث يقول : ومعنى قوله « أمم أمثالكم » : في معنى دون معنى ــ يريد والله أعلم ــ : ان الله خلقهم وتعبدهم بما شاء ان يتعبدهم من تسبيح وعبادة علمها منهم ولم يفقهنا ذلك. وذهب إلى ذلك ابن قتيبة وغيره. بل ان ابن تيمية له رسالة في قنوت الأشياء كلها لله سبحانه وتعالى، مما يجعل هذا المعنى راجحاً كما أن الطبري في تفسيره لهذه الآية ذهب هذا المذهب حيث يقول : قال أبو جعفر : يقول ــ تعالى ذكره ــ لنبيه محمد ــ ﷺ ــ :

قـل لهؤلاء المعرضين عنك، المكذبين بآيات الله : أيها القـوم : لا تحسبن الله غافلاً عما تعلمون أو أنه غير مجازيكم على ما تكسبون، وكيف يغفل عن أعمالكم أو يترك مجازاتكم عليها وهو غير غافل عن عمل شيء **دب على الأرض صغير أو كبير. ولا عمل طائـر يطير بجناحيه في الهواء بل** جعل ذلك كله أجناساً مجنسة وأصنافاً مصنفة تعرف كما تعرفون وتتصرف فيما سخرت له كما تتصرفون، ومحفوظ عليها ما عملت من عمل لها وعليها ومثبت كل ذلك من أعمالها.

يقول : فالرب الذي لم يضيع حفظ أعمال البهائم والدواب في الأرض، والطير في الهواء، حتى حفظ عليها حركاتها وأفعالها وأثبت ذلك منها في أم الكتاب وحشرها ثم جازاها على ما سلف منها في دار البلاء، أحرى أن لا يضيع أعمالكم ولا يفرط في حفظ أفعالكم التي تجترحونها أيها الناس حتى يحشركم فيجازيكم على جميعها أن خيراً فخير وان شراً فشر. اذ كان قد خصكم من نعمه وبسط عليكم من فضله ما لم يعم به غيركم في الدنيا،

وكنتم بشكره احق وبمعرفة واجبه عليكم أولى لما أعطاكم من العقل الذي به بين الأشياء تميزون، والفهم، الذي لم يعطه البهائم والطير، الذي به بين مصالحكم ومضاركم تفرقون ».

ولا شك بأن هذا المذهب أليق وأقرب إلى الصواب من المعاني السابقة التي قالها بعض العلماء،إلا أن الأمر الذي يحتاج إلى شيء من التنبيه هو أن توحيد هذه المخلوقات وعبادتها لله أمور فطرية غريزية قريبة نوعاً ما من توحيد الإنسان الفطري الذي أشار إليه الرسول ـ ﷺ ـ بقوله : « كل مولود يولد على الفطرة[1] ».

٢ ـ بمعنى الجماعة من الناس :

وردت كلمة « الأمة » بمعنى الجماعة من الناس في الآية الخامسة والسبعين من سورة القصص : « ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون، ووجد من دونهم امرأتين تذودان، قال ما خطبكما، قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير ».

فكون « الأمة » ـ هنا ـ بمعنى « الجماعة » أمر لا خلاف فيه، وكونها من الناس أمر ثابت بالنص، وقد استشهد أبو البقاء بهذه الآية عند تعريفه للأمة فقال عن الأمة : « وتسمى بها الجماعة من حيث تؤمها الفرق كقوله تعالى : « أمة من الناس يسقون ». وقد انفرد أبو البقاء في جعله « الأمة » ـ هنا ـ بمعنى اسم المفعول لأنه على هذا المعنى يكون تقدير الكلام : فلما ورد ماء مدين وجد على الماء جماعة من الناس مقصودة للسقاية، بينما المعنى الذي ذكره المفسرون : وجد على الماء جماعة قاصدة السقاية وهو ما ينسجم مع وقوف المرأتين وانتظارهما حتى يصدر الرعاء، ولو كانت الآية على المعنى الأول لسقوا للمرأتين ولم تنتظرا حتى يصدر الرعاء.

(١) انظر بحث « الفطرة » للمؤلف : مجلة حضارة الإسلام ـ العددان الخامس والسادس ـ السنة السادسة عشرة ـ صفحة : ٥١.

٣ ـ بمعنى الجماعة من القوم تتخذ موقفاً من الدين : وذلك نجده في الآيات التالية :

أ ـ « وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أمماً » ـ الأعراف : ١٦٠.

ب ـ « وقطعناهم في الأرض أمماً منهم الصالحون ومنهم دون ذلك » ـ الأعراف : ١٦٨.

جـ ـ « ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون » ـ الأعراف : ١٥٩.

د ـ « واذ قالت أمة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً، قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون » ـ الأعراف ١٦٤.

هـ ـ « **ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم** ولادخلناهم جنات النعيم. ولو انهم اقاموا التوراة والانجيل وما أنزل اليهم من ربهم لاكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم، منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون » المائدة : ١٦٥ ـ ١٦٦.

و ـ « لن يضروكم إلا أذى وان يقاتلوكم يولوكم الادبار ثم لا **ينصرون**، ضربت عليهم الذلة اين ما ثقفوا الا بحبل من الله وحبل من الناس وباؤوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون. ليسوا سواء : من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله اناء الليل وهم يسجدون. يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين، وما يفعلوا من خير فلن يكفروه، والله عليم بالمتقين. ـ آل عمران : ١١١ ـ ١١٥.

وواضح ان هذه الآيات كلها تتحدث عن بني اسرائيل، قوم موسى ـ عليه السلام ـ وان آية المائدة تشمل النصارى أيضاً حيث جاءت عامة أهل الكتاب وذكر فيها اقامة التوراة والانجيل. وكلها تفيد ان الأمة يمكن ان تطلق على جماعة من القوم استجابت لنبيها فوصفت بالقائمة أو المقتصدة أو غير ذلك، أو لم تستجب له فكانت أمة مجتمعة على تكذيبه وعمل

السيئات، وهذا يعني ان الجماعة من القوم تسمى أمة اذا كان لها موقف من الدين الذي جاء به النبي المبعوث اليهم، سواء أكان هذا الموقف ايجابياً أم سلبياً.

٤ ـ بمعنى الجماعة التي أرسل إليها رسول :

وذلك في مثل الآيات التالية :

« ولكل أمة رسول فاذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون ». يونس : ٤٦.

« ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت، فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة، فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ». النحل : ٣٦.

« وان من أمة إلا خلا فيها نذير ». ـ فاطر ـ ٢٤.

وهذا يعني ان كل أمة أرسل لها رسول وان دعوة الرسل واحدة، وان من الناس من يستجيب لهؤلاء الرسل ومنهم من لا يستجيب، وكأن هؤلاء الناس الذين أرسل لهم الرسل سموا أمماً لأنهم مقصودون من قبل أنبيائهم بالدعوة التي جاؤوا بها سواء استجابوا لها أم لم يستجيبوا، فهم داخلون فيما يسمى بالمصطلح الإسلامي « أمة الدعوة ».

٥ ـ بمعنى الجماعة من الناس تؤمن برسالة محمد ﷺ :

وذلك في قوله تعالى :

« وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون » ـ الأعراف ١٨١.

« وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » ـ البقرة.

وقد روي في الآية الأولى أن الرسول ـ ﷺ ـ قال : هذه أمتي : قال : بالحق يأخذون ويعطون ويقضون.

وقد قال الطبري في الآية الثانية : والمعنى : كما هديناكم أيها المؤمنون بمحمد عليه السلام وبما جاءكم به من عند الله فخصصناكم

بالتوفيق لقبلة إبراهيم وملته وفضلناكم بذلك عمن سواكم من أهل الملل، كذلك خصصناكم بأن جعلناكم أمة وسطاً.

٦ ـ بمعنى جماعة العلماء :

وذلك في قوله تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون **بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً** لهم، منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون ». ـ آل عمران : ١١٠.

وقوله تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون ». ـ آل عمران : ١٠٤.

ولقد قال أبو جعفر الطبري في الآية الأولى :

اختلف أهل التأويل في قوله : « كنتم خير أمة أخرجت للناس ». فقال بعضهم : هم الذين هاجروا مع رسول الله ـ ﷺ ـ من مكة إلى المدينة من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ ومثله عن ابن عباس.

وعن عمر بن الخطاب : لو شاء الله لقال : « انتم » فكنا « كلنا »، ولكن قال : كنتم ـ في خاصة من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ ولمن صنع مثل صنيعهم.

وعن قتادة قال : ذكر لنا ان عمر بن الخطاب قال في حجة حجها، ورأى من الناس راءة سيئة، وقرأ هذه الآية : كنتم خير أمة... ثم قال : يا أيها الناس، من سره أن يكون من تلك الأمة فليؤد شرط الله فيها.

وقال آخرون : معنى ذلك : كنتم خير أمة اخرجت للناس اذا كنتم بهذه الشروط التي وصفهم جل ثناؤه فيهم، فكان تأويل ذلك عندهم : كنتم خير أمة، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله، اخرجوا للناس في زمانكم.

وقال أبو جعفر في الآية الثانية :

ولتكن منكم أيها المؤمنون أمة يقول : جماعة ـ يدعون الناس إلى الخير يعني : إلي الإسلام وشرائعه التي شرعها الله لعباده ويأمرون

بالمعروف...... وعن الضحاك : ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر قال : هم خاصة الرواة ــ وقد ذكره ابن كثير في تفسير ٢٠٩/٢ ولفظه قال الضحاك : وهم خاصة الصحابة وخاصة الرواة، ثم بينه فقال : يعني المجاهدين والعلماء.

معنى « الملـة » و « الـدين » :

وذلك في قوله تعالى في الآية الثالثة عشرة بعد المائتين من سورة البقرة : « كان الناس أمة واحدة، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، وما اختلفت فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم »

قال أبو جعفر الطبري في تفسير هذه الآية بعد ان ذكر اختلاف المفسرين فيها : وأولى التأويلات في هذه الآية بالصواب ان يقال :

ان الله ــ عز وجل ــ اخبر عباده ان الناس كانوا امة واحدة على دين واحد وملة واحدة.... على دين آدم فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين.

وكان الدين الذي كانوا عليه دين الحق كما قال أُبَيّ بن كعب...... فاختلفوا في دينهم فبعث الله عند اختلافهم في دينهم النبيين مبشرين ومنذرين وانزل معهم الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، رحمة منه ــ جل ذكره ــ بخلقه واعتذار منه اليهم. وقد يجوز ان يكون ذلك الوقت الذي كانوا فيه أمة واحدة من عهد آدم إلى عهد نوح عليهما السلام ــ كما روى عكرمة عن ابن عباس وكما قال قتادة ــ وجائز ان يكون ذلك حين عرض آدم على خلقه، وجائز ان يكون ذلك في وقت غير ذلك، ولا دلالة من كتاب الله ولا خبر يثبت به الحجة على أي هذه الأوقاف كان ذلك.

فغير جائز أن نقول فيه إلا ما قال الله ــ عز وجل ــ من ان الناس كانوا أمة واحدة فبعث الله فيهم، لما اختلفوا الأنبياء، والرسل، ولا يضرنا الجهل بوقت ذلك كما لا ينفعنا العلم به إذا لم يكن العلم به لله طاعة غير

انه أي ذلك كان، فان دليل القرآن واضح على ان الذين اخبر الله عنهم انهم كانوا أمة واحدة إنما كانوا أمة واحدة على الايمان ودين الحق دون الكفر بالله والشرك به، وذلك ان الله ـ عز وجل ـ قال في السورة التي يذكر فيها يونس : « وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا، ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما فيه يختلفون » يونس : ١٩ ـ فتوعد جل ذكره على الاختلاف لا على الاجتماع ولا على كونهم أمة واحدة، ولو كان اجتماعهم قبل الاختلاف كان على الكفر ثم كان الاختلاف بعد ذلك لم يكن إلا بانتقال بعضهم إلى الايمان ـ ولو كان ذلك كذلك ـ لكان الوعد أولى بحكمته ـ جل ثناؤه ـ في ذلك الحال من الوعيد لأنها حال انابة بعضهم إلى طاعته، ومحال أن يتوعد في حال التوبة والانابة ويترك ذلك في حال اجتماع الجميع على الكفر والشرك ».

ومن الآيات التي جاءت فيها كلمة « الأمة » بمعنى « الدين » قوله تعالى في الآية الثامنة عشرة بعد المائة من سورة هود :

« ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك » : يقول تعالى ذكره : ولو شاء ربك يا محمد لجعل الناس كلهم جماعة واحدة على ملة واحدة ودين واحد. قال قتادة : أي جعلهم مسلمين كلهم.

ومنها قوله تعالى في الآية الثالثة والتسعين من سورة النحل :

« ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة، ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء، ولتسألن عما كنتم تعملون ».

والمعنى ـ كما يقول الطبري ـ : « ولو شاء ربكم أيها الناس للطف بكم بتوفيق من عنده فصرتم جميعاً جماعة واحدة وأهل ملة واحدة لا تختلفون ولا تفترقون، ولكنه ـ تعالى ذكره ـ خالف بينكم فجعلكم أهل ملل شتى بان وفق هؤلاء للايمان به والعمل بطاعته فكانوا مؤمنين، وخذل هؤلاء فحرمهم توفيقه فكانوا كافرين، وليسألنكم الله جميعاً يوم القيامة عما كنتم تعملون في الدنيا فيما أمركم ونهاكم ثم ليجازينكم جزاءكم : المطيع منكم بطاعته والعاصي له بمعصيته ».

ومن الآيات التي وردت « الأمة » فيها بمعنى « الدين » و « الملة » قوله تعالى في الآية الثانية والتسعين من سورة الأنبياء :

« إنّ هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ».

يقول ـ تعالى ذكره ـ : ان هذه أمتكم ملة واحدة وأنا ربكم أيها الناس فاعبدون دون الآلهة والأوثان وسائر ما تعبدون من دوني.

ومن الآيات أيضاً في هذا المعنى قوله تعالى في الآيتين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين من سورة الزخرف : « بل قالوا انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون »، « وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون ».

والمعنى : وجدنا آباءنا على أمة : على دين وملة وذلك هو عبادة الأوثان، وكذلك قوله تعالى في الآية الثالثة والثلاثين من سورة الزخرف : « ولولا ان يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون ».

والمعنى : ولولا أن يكون الناس أمة واحدة : أي جماعة واحدة على الكفر على طلب الدنيا ورفض الآخرة، وبالاضافة إلى الآيات السابقة التي وردت فيها « الأمة » بمعنى « الدين » نجد الآية الثامنة والأربعين من صورة المائدة وكأنها بمعنى « الشرعة » :

«وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه، فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع اهواءهم عما جاءك من الحق، لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً، ولو شاء لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم ».

قال أبو جعفر في تفسير هذه الآية :

يقول تعالى ذكره : ولو شاء ربكم لجعل شرائعكم واحدة ولم يجعل لكل أمة شريعة ومنهاجاً غير شرائع الأمم الأخر ومنهاجهم فكنتم تكونون أمة واحدة لا تختلف شرائعكم ومناهجكم، ولكنه ـ تعالى ذكره ـ يعلم ذلك فخالف بين شرائعكم ليختبركم فيعرف المطيع منكم من العاصي والعامل بما

أمره في الكتاب الذي أنزله إلى النبي ـ ﷺ ـ من المخالف.

والابتلاء : هو الاختبار... وقوله فيما آتاكم : فيما أنزل عليكم من الكتب، فان قال قائل : وكيف قال : ليبلوكم فيما آتاكم ومن المخاطب بذلك ؟ وقد ذكرت ان المعنيّ بقوله :

« لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً » نبينا مع الأنبياء الذين مضوا قبله واممهم والذين قبل نبينا ﷺ على حده ؟

قيل ان الخطاب وان كان لنبينا ـ ﷺ ـ فانه قد أريد به الخبر عن الأنبياء قبله واممهم ولكن العرب من شأنها اذا خاطبت انساناً وضمت إليه غائباً فارادت الخبر عنه : ان تغلب المخاطب فيخرج الخبر عنهما على وجه الخطاب فلذلك قال ـ تعالى ذكره ـ : « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ».

٣ ـ بمعنى الرجل المنفرد الذي لا نظير له :

والمعنى الثالث لـ « الأمة » الرجل المنفرد الذي لا نظير له، وقد ورد في القرآن الكريم مرة واحدة في الآية/١٢٠/من سورة النحل في قوله تعالى « ان ابراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين، شاكراً لانعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم ». وقال الحكيم الترمذي في الصفحة : ٨٢ ـ ٨٧ من كتابه « تحصيل نظائر القرآن » :

وانما صارت الأمة إبراهيم وحده ـ في مكان آخر ـ لانه قد جمع الله الخيرات له حتى اتخذه خليلاً من اجتماع خصال الخيرات فيه وذلك : الوفاء والشكر والصبر والايمان والإسلام والحنيفية والقنوت والهدي والاجتباء والأوَّاهية والإنابة والبركة والاصطفاء والحلم واليد والبصر والحكم والنبوة والرسالة والخلة وسلامة القلب والصديقية وثناء الرب عليه والحجة والصلاح والرشد والاحسان والاخلاص، وكل ذلك مذكور في التنزيل، فقد قال الله تعالى في الآية الرابعة والعشرين بعد المائة من سورة البقرة :

« واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فاتمهن »، فشهد له بالاتمام، ثم قال أيضاً في الآية السابعة والثلاثين من سورة النجم ـ : « وابراهيم الذي وفى »،

فشهد له بالوفاء.

ثم قال ــ في الآيتين العشرين والاحدى وعشرين من سورة النحل :

« ان إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين، شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم ».

ثم قال في آية أخرى ــ الخامسة والسبعين من سورة هود عليه السلام :

« ان ابراهيم لحليم أواه منيب »

وقال في آية أخرى ــ السابعة والستين من سورة آل عمران : « وكان حنيفاً مسلماً »، ثم قال ــ في الآية الحادية عشرة بعد المائة من سورة الصافات : « انه من عبادنا المؤمنين »، ثم قال ــ في الآية الثالثة عشرة بعد المائة من سورة الصافات : « وباركنا عليه وعلى اسحاق »، ثم قال ــ في الآية الواحدة والخمسين من سورة الأنبياء ــ : « ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل »، **ثم قال ــ في الآية الخامسة بعد المائة من سورة الصافات ــ : « إنا** كذلك نجزي المحسنين ». ثم قال في الآية الثالثة بعد المائة من سورة « الصافات » : « فلما أسلما وتلّه للجبين ». ثم قال : في الآية التاسعة والعاشرة والحادية عشرة بعد المائة من سورة الصافات ــ : « سلام على ابراهيم، كذلك نجزي المحسنين، انه من عبادنا المؤمنين ». ثم قال ــ في الآية الخامسة والأربعين من سورة ص ــ : « أولى الايدي والابصار » قال : القوة والبصر في الدين والعون والتعلق بنا فانما اليد للتعلق به والبصر لمشاهدة الربوبية ».

ثم قال ــ في الآية الرابعة والخمسين من سورة النساء ــ :

« فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة ».

ثم قال ــ في الآية الرابعة والعشرين بعد المائة من سورة البقرة ــ : « اني جاعلك للناس اماماً ». ثم قال ــ في الآية الثلاثين بعد المائة من سورة البقرة ــ : « ولقد اصطفيناه في الدنيا وانه في الآخرة لمن الصالحين ». وقال أيضاً في الآية الخامسة والعشرين بعد المائة من سورة النساء ــ :

« واتخذ الله ابراهيم خليلاً ». ثم قال ـ في الآية الرابعة والثمانين من سورة الصافات : ـ « اذ جاء ربه بقلب سليم ». وقال أيضاً ـ في الآية الواحدة والأربعين من سورة مريم ـ : « واذكر في الكتاب إبراهيم انه كان صديقاً نبياً »، فاثنى عليه. ثم قال ـ في الآية الثامنة بعد المائة من سورة الصافات ـ : « وتركنا عليه في الآخرين ». يعني : الثناء عليه في الأمم. ثم قال ـ من الآية الثالثة والثمانين من سورة الأنعام ـ : « وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه ». فان قال : ان ابراهيم كان أمة ـ يعني جماعة وحده ـ فاية جماعة باعظم ممن جمع الله له كل هذه الخصال.

ومن هنا كان تفسير المعلم عبد الحميد الفراهي للامة ـ في هذه الآية ـ دقيقاً ويشمل كل هذه الصفات التي ذكرها الحكيم الترمذي حيث يقول الفراهي في كتابه « التكميل في أصول التأويل » في الصفحة التاسعة والخمسين : ان اللفظ المشترك يأتي لمعان مختلفة ولا يقضي فيه إلا بالسياق وصحة المعنى : مثلاً : كلمة « أمة » في قوله تعالى : « ان ابراهيم كان أمة » لا تؤول إلى معنى اريد به في مواضع أخر فانه لا يلتئم بالسياق ولا صحة المعنى. والمعنى المراد هنا لا نظير له من جهة اللفظ فان الأمة في باقي القرآن : اما لمدة من الزمان أو لطائفة من الناس أو للطريق ولكن اذا تمسكنا بالأصل الأول والثاني اتضح معناه.

أما الأصل الأول فان كلمة « قانتا » ـ بعدها ـ : تفسيرها فان الأمة هو الطائع بتمامه وهو اوفق بالقانت.

وأما الأصل الثاني : فلوجود نظائره لما جاء في صفاته من الطاعة الكاملة ولكن بقي علينا ان « الأمة » : هو « الطائع ».

ويوضح الفراهي ان « الأمة » : الرجل المطيع، في تعليقاته على كتاب « العمدة » لابن رشيق والتي ارسلها إليّ فضيلة الاستاذ محمد اجمل ايوب الندوى مشكوراً :

قال الفراهي : قال الطبري في تفسيره : « كقولهم للجماعة من الناس ـ أمة، وللحين من الزمان أمة، وللرجل المتعبد المطيع : أمة، وللدين والملة أمـة.

قال الفراهي : الأمة : الرجل المطيع.
قال النابغــة :

حلفت فلم اترك لنفسك ريبة وهل يأثمن ذو أمة وهو طائع

قال الفراهي : الأمة : الطاعة.
قال عدي بن زيد : ثم بعد الفلاح والملك والأمة وارتهم هناك القبور.
قال الفراهي : الأمة : أي : المطيعين.
قال الأعشى :

ولا الملك النعمان يوم لقيتـه بامتـه يعطـي القطـوط ويأفـق

قال الفراهي : أمته : أي : اتباعه.

وبهذا يستدل الفراهي على أن « الأمة » تأتي بمعنى الرجل المطيع، والذي الجأه إلى الشعر الجاهلي يستنطقه كون هذا المعنى غير مشهور في كثير من المصادر التي عرضت لمعاني « الأمة ».

٤ ـ والمعنى الرابع لـ « الأمة » الذي ورد في القرآن الكريم « الحين » :

وقد ورد في قوله تعالى في الآية الثامنة من سورة هود :

« ولئن اخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن : ما يحبسه، ألا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم وحاق بهم ما كانوا به **يستهزئون** ».

والمعنى ـ كما يقول الطبري :

ولئن أخرنا عن هؤلاء المشركين من قومك يا محمد العـذاب فلم نعجله لهم وأنسأنا في آجالهم إلى أمة معدودة ووقت محدود وسنين معلومة......

وانما معنى الكلام : ولئن اخرنا عنهم العذاب إلى مجيء أمة وانقراض أخرى قبلها.

ومن هذا الباب أيضاً قوله تعالى في الآية الخامسة والأربعين من سورة **يوسف : « وقال الذي نجا منهما وادكر بعد أمة أنا انبئكم بتأويله فارسلون ».**

والمعنى : وادكر بعد أمة : اي بعد حين.

المعنى الإسلامي لـ « الأمة » :

عرفنا فيما سبق المعاني المتعددة لـ « الأمة » في اللغة وفي القرآن الكريم وبقي علينا أن نعرف المدلول الإسلامي لـ « الأمة » حينما تطلق أو حينما تأتي بصفة المدح :

يقول ابوالبقاء في كلياته : ١/٣٠١ ـ ٣٠٢/ :

« ـ وفي حدود المتكلمين : الأمة : هم المصدقون بالرسول دون المبعوث اليهم ». ويريد بقوله : « في حدود المتكلمين » : تعريفات علماء الاعتقاد والتوحيد والكلام. ويقول الامام أبو زكريا النووي في كتابه تهذيب الأسماء واللغات ١١/٢ : لفظة « الأمة » تطلق على معان منها :

ـ من صدق النبي ـ ﷺ ـ وآمن بما جاء به وتبعه فيه، وهذا هو الذي جاء مدحه في الكتاب والسنة كقوله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا »، و « كنتم خير أمة »، وكقوله ـ ﷺ ـ : « شفاعتي لأمتي »، وقوله : « تأتي امتي غراً محجلين » وغير ذلك.

ولا شك أن ما جاء في تعريف ابي البقاء هو عين ما جاء في تعريف النووي وان كان النووي أوفى شرطاً وتفصيلاً، وبذلك يخرج من المفهوم الإسلامي لـ « الأمة » أولئك الذين لم يصدقوا الرسل ولم يؤمنوا بما جاءت به من الهدى، وان كانوا يدخلون في معنى « الأمة » لغة كما سبق ان اشرنا إلى ذلك باعتبارهم مقصودون بالدعوة من قبل الرسول المبعوث اليهم. وهذا المعنى الآخر هو الذي صرح به النووي بعد أن ذكر المعنى الإسلامي الممدوح فقال :

ومنها ـ اي من معاني الأمة ـ : من بعث اليهم النبي ـ ﷺ ـ من مسلم وكافر ومنه قوله ـ ﷺ ـ فيما اخرجه مسلم في كتاب الايمان.

« والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي ارسلت به إلا كان من أصحاب النار ».

ويعرف الاستاذ سيد قطب ـ رحمه الله ـ الأمة بالمعنى الإسلامي في كتابه « الظلال : ٩٣/٩ » فيقول :

الأمة : هي مجموعة الناس التي تدين بعقيدة واحدة وتصور واحد وتدين لقيادة واحدة، وليست كما هي في المفهوم الجاهلي القديم أو الحديث : مجموعة الناس التي تسكن في اقليم واحد من الأرض وتحكمها دولة واحدة، **فهذا مفهوم لا يعرفه الإسلام انما هي من مصطلحات الجاهلية** الحديثة ».

وهو لا يختلف عن التعريفين السابقين إلا أنه أكثر تركيزاً على معنى القيادة الواحدة والمفهومة في التعريفين من اضافة « الأمة » إلى « النبي »، فالنبي هو نواة الأمة الذي يعمل على ايجادها وقيادتها بعد ذلك في طريق الهداية.

ولقد حرص رسول الله ـ ﷺ ـ على تأكيد المعنى الإسلامي للأمة وتميزه عن كل الأمم الأخرى في اعلانه الدستوري العظيم الذي نظم به علاقة المسلمين مع غيرهم في المدينة المنورة وذلك بعد قيام الدولة الإسلامية التي كانت تضم قبائل متعددة من اليهود، ولعل هذا الاعلان التاريخي يعتبر أول وثيقة دستورية تحدد العلاقات بين أمة المسلمين وغيرهم تحديداً دقيقاً وتبين الحقوق والواجبات لكافة الطوائف والقبائل وتحيل الأمر عند الخلاف إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وفيما يلي مقتطفات من هذا الاعلان بالقدر الذي يتصل بدراستنا :

قال ابن هشام في « السيرة النبوية » ـ ج : ٢/٣٢٠ ـ ٣٢٣ ـ :

وقال محمد بن اسحاق : كتب رسول الله ـ ﷺ ـ كتاباً بين المهاجرين والأنصار وادع فيه اليهود وعاهدهم واقرهم على دينهم وأموالهم واشترط عليهم وشرط لهم :

بسم الله الرحمن الرحيم

« هذا كتاب من محمد النبي الأمي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم انهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على ربعتهم ـ حالهم التي اتى الإسلام وهم عليها ـ يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيهم ـ اسيرهم ـ بالمعروف والقسط .

....

....

إلى أن يقول :

« وان يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وانفسهم إلا من ظلم وأثم فانه لا يوتغ - يهلك - إلا نفسه وأهل بيتـه ....

....

.... »

والكتاب كما لاحظنا يجعل المسلمين جميعاً أمة واحدة من دون الناس سواء منهم الذين كانوا في عهد النبي - ﷺ - من المهاجرين والأنصار أو الذين يلحقون بهم بعد ذلك ويجاهدون معهم، كذلك يجعل اليهود أمة مستقلة ولكنهم يجتمعون مع أمة المؤمنين في دولة واحدة ولكل أمة دينها الخاص بها.

والكتاب بالاضافة إلى أنه يميز الأمة الإسلامية عن غيرها من الأمم يبين لنا كيف يمكن التعايش بين هذه الأمم المختلفة في الدين في دولة تحكمها شريعة الإسلام فتحقق العدل بين الجميع.

وبذلك لا تصح أيضاً مزاعم المستشرقين في دائرة المعارف الإسلامية والتي تدعي أن كتاب النبي - ﷺ - بين المهاجرين والأنصار ينص على أن أهل المدينة بمن فيهم اليهود يكونون أمة وان الصيغة السياسية الغالبة في هذه الأمة الجديدة انما كانت مؤقتة وان محمداً ﷺ لم يكد يحس ان مركزه قد توطد في المدينة ويرى انتصاره في حروبه مع كفار مكة حتى استطاع ان يخرج من جماعته السياسية الدينية أهل المدينة - وخصوصاً اليهود - الذين لم يعتنقوا الدين الذي جاء به وبمرور الزمن صارت أمته تتألف من المسلمين وحدهم وصار يعتبر المسلمين أمة ويؤكد صفاتهم الخلقية والدينية ويعتبرهم غير أهل الكتاب الذي كان محالفاً لهم.

فالنص الذي جاء في الصحيفة واضح في تمييزه بين أمة المسلمين وأمة اليهود وان اليهود أمة مع المؤمنين في هذا التحالف وليسوا أمة من

المؤمنين، والظاهر أن المستشرقين لا يفرقون بين كلمة « من المؤمنين » وكلمة « مع المؤمنين »، ثم أن الذي حدث بعد ذلك من مواقف ضد اليهود لم يكن إلا تطبيقاً لما جاء في الصحيفة التي حددت العلاقات بين سكان المدينة كلهم **وان الذي ينقض ما جاء فيها لا يوتغ إلا نفسه، وفعلاً فقد بدأ** اليهود بنقض ما جاء فيها حيں تآمروا مع المشركين على المسلمين وحين اخلوا بالتزاماتهم تجاه ما جاء فيها، ومن هنا كان العقاب يقع على من نقض ما تعهدوا به، وكان اخراج اليهود من المدينة متتابعاً حسب المخالفات ولم يكن دفعة واحدة. وهكذا يحاول المستشرقون الدس والتحريف للنصوص والتاريخ بمثل هذا الكلام العام وذلك الخلط العجيب الذي يتنافى مع ابسط قواعد البحث العلمي الرصين.

ومن كل تلك التعريفات لـ « الأمة » بالمعنى الإسلامي تبرز الحقائق التالية :

١ ـ ان « الأمة » بالمعنى الإسلامي هي انتماء ديني عقدي وليست انتماء عنصرياً لجنس من الأجناس أو غرق من الأعراق، ومن ثم فقد قامت الأمة الإسلامية خلال التاريخ من جميع العناصر التي استجابت لرسالة الإسلام بغض النظر عن انتسابها لجنس من أجناس البشر، فقد كان فيها من الصحابة غير العرب سلمان وبلال وصهيب، وكان فيها من الصحابة العرب كثيرون كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي، ولم يكن من هذه الأمة أبو جهل وأبو لهب واضرابهما من العرب الذين لم يدخلوا في دين الله.

ولا شك أن الدعوة الإسلامية قد قسمت العرب إلى قسمين : مؤمنين برسالة الإسلام **ومناهضين** لها، وكان الولاء في هذه الدعوة يقوم على أساس الدين وحده دون الاعتبارات الأخرى. ولم يكن هذا الأمر خاصاً برسالة الإسلام وحدها بل هو شأن كل الرسالات الإلهية، إلّا أن الفارق بين رسالة الإسلام الأخيرة وتلك الرسالات السابقة لها ان مجال تلك الرسالات كان مقصوراً على أقوام باعيانهم ومن ثم لم تعرف تلك الرسالات ما عرفته رسالة الإسلام من دخول أقوام وأجناس متعددة في دين الله فبقيت دعوتها حبيسة في إطار القوم الذين أرسل اليهم الرسول.

٢ ـ إن هذا الانتماء الديني العقدي الذي قامت عليه « الأمة » في الإسلام لا ينفي الانتماء العرقي الذي أشار اليه القرآن الكريم في قوله تعالى : « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ».

كل ما هنالك أن هذه الآية القرآنية تشير إلى حقيقة موضوعية وهي أن الناس كلهم يعودون إلى ذكر وأنثى وأن الله جعلهم في شعوب وقبائل ليتم التعارف بينهم والالتقاء، وان التفاضل بينهم لا يقوم على أساس هذا التقسيم إلى شعوب وقبائل لأنه يعود في الأصل إلى ذكر وأنثى من خلق الله وإنما التفاضل ينبغي أن يكون مرتبطاً بالعمل والخلق الصادرين عن الإنسان وهو ما تؤكده الآية نفسها : « ان أكرمكم عند الله أتقاكم ».

وإذن فالحقيقة القائمة المشاهدة هي انقسام الناس إلى شعوب وقبائل ليتم بينها التعارف واللقاء، والحقيقة التي ينبغي أن تكون والتي من أجلها أرسل الله رسله وأنزل عليهم كتبه هي التقاء الناس من القبائل والشعوب المختلفة على انتماء ديني خلقي يتفاوتون فيه ويتفاضلون بمقدار قربهم من الدين والتزامهم بقيمه واخلاقه.

وبهذا يتبين ان هذا النوع من الانتماء إنما ينفي في الواقع ما يمكن أن ينشأ عند بعض الأقوام والشعوب من نزعات التعصب والغرور والافتخار بالأحساب والأنساب والذي يؤدي غالباً إلى إثارة الاحن والعداوات الأمر الذي يتنافى مع حكمة جعل الناس شعوباً وقبائل بقصد التعارف واللقاء.

كذلك فإن هذا الانتماء العقدي لا ينفي ما يمكن أن يكون هناك من خصائص وفضائل لبعض الشعوب، إلّا ان التأكيد على هذه الخصائص وابرازها واعتبارها مقياساً للتفاضل بين الشعوب التي تشكل أمة واحدة تقوم على أساس العقيدة سيؤدي إلى نوع من العصبية التي تهدد وحدة الأمة، علماً بأنه ما من قوم من الأقوام ولا شعب من الشعوب إلّا وله خصائصه وميزاته وفضائله، وخير للأمة أن تقوم على أساس يجمع كل هذه الخصائص والفضائل والميزات التي يكمل بعضها بعضاً من أن تقوم على أساس من التعصب القومي الأحمق الذي يهدر طاقتها ويشغلها عن حقيقة اهدافها

ويقف حجر عثرة في طريق تقدمها وازدهارها.

٣ ـ سبق أن أشرنا إلى أن المعنى الإسلامي لـ « الأمة » هو نفس المعنى الذي جاء به الأنبياء جميعاً وقامت الأمم السابقة كلها عليه، غير أنه لما كانت كل رسالة من الرسالات السابقة للإسلام خاصة بقوم معينين وان القوم كلهم يسمون ـ لغة ـ أمة، باعتبارهم مقصودين بالدعوة من الرسول ـ فقد اختلط المعنى الديني للأمة بالمعنى القومي من الناحية التاريخية ولم يتضح الأمر من الناحية التطبيقية الواقعية كما هو واضح من الناحية النظرية.

ولكن الأمر بمجيء الإسلام ـ الرسالة الخاتمة ـ أخذ وضعاً آخر، ذلك أن الدعوة الإسلامية لم تكن مقصورة على قوم معينين وإنما كانت **دعوة للناس كافة « وما أرسلناك إلّا كافة للناس بشيراً ونذيراً »، هـذا من** الناحية النظرية، وأما من الناحية العملية التطبيقية فقد استجابت شعوب كثيرة غير عربية لدعوة الإسلام ومن ثم ظهر هذا المعنى الإسلامي للأمة كأوضح ما يكون في رسالة الإسلام من الناحيتين النظرية والواقعية وبالتالي لم يعرف التاريخ أمة جمعت شعوباً متعددة في أمة واحدة كما حدث بالنسبة للإسلام.

وأما ما حدث بالنسبة للنصرانية فهو مختلف تماماً، ذلك أن النصرانية في حقيقتها وصميمها كانت دعوة إلى بني إسرائيل خاصة كما جاء في القرآن الكريم في وصف عيسى عليه السلام : « ورسولاً إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم.... ـ آل عمران : ٤٩ ـ »، وكما جاء في الآية السادسة من سورة الصف :

« وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ».

بل إن الأناجيل المتداولة بأيدي النصارى تؤيد هذا حيث ورد فيها حكاية عن المسيح عليه السلام : « إنما بعثت لخراف بني إسرائيل الضالة ».

وإذاً : فالنصرانية لم تقدم تصوراً لـ « الأمة » التي تشمل شعوباً مختلفة لأنها خاصة ببني إسرائيل ومكملة لرسالة موسى عليه السلام، ومن ثم

لم تعط مفهوماً عالمياً لـ « الأمة » من الناحية النظرية.

أما من الناحية الواقعية العملية فقد خرجت النصرانية، نتيجة ظروف معينة، من إطارها القومي ـ ودون قصد منها ـ فدخلت فيها شعوب متعددة ولكن النصرانية لم تكن قادرة بمقوماتها النظرية على استيعاب هذه الشعوب في أمة واحدة لأنها لم تكن مهيأة لذلك ولا هو من أهدافها، يضاف إلى ذلك أن النصرانية في جملتها كانت دعوة روحية مكملة لما جاء به موسى عليه السلام، ومن ثمّ فلم تظهر النصرانية في التاريخ ديناً ودولة ونظام حياة كما ظهر الإسلام، وإنما ظهرت كدين **يعنى** بالقضايا الروحية والأخلاقية وقد تركت المجال مفتوحاً للقانون الروماني يحكم حياة النصارى المدنيـة، وبالتالي فلم يكن الدين في النصرانية التاريخية إلّا عنصراً واحداً من جملة عناصر تسير حياة النصارى وتوجهها، ومن هنا لم يكن الدين عندهم قادراً على تكوين أمة بمفرده مما حدا بهم أن يبحثوا عن عناصر أخرى وانتهى بهم الأمر إلى ما يسمونه بالعناصر أو المقومات اللازمة لتكوين الأمة واختلفوا في شأنها اختلافات كثيرة كما اختلفوا في تصنيفها وبيان درجة أهمية كل واحدة منها.

وبناء على ذلك لم يعرف التاريخ أمة نصرانية واحدة ـ ضمت شعوبا مختلفة ـ وإنما عرف أمماً متعددة يدين أهلها بالنصرانية في جزء من سلوكهم.

أما في الإسلام فقد وجدت الأمة المسلمة متميزة من المعنى القومي منذ نشأتها حيث دخل فيها العربي وغير العربي وكان الخطاب في كتابها الخالد موجهاً للناس جميعاً : « يا أيها الناس »، يدعوهم إلى الإيمان فإذا أجابوا دعوة الله خوطبوا بـ « يا أيها الذين آمنوا ». ثم قامت الدولة الإسلامية بعد ذلك في المدينة على هذا الأساس العقدي الايماني وما هي إلّا سنوات قليلة حتى توالت الفتوحات الإسلامية ودخلت في الإسلام أقوام وشعوب لم تلبث أن انصهرت في بوتقة الإسلام وغدت أمة واحدة تحكم بشريعة واحدة وتتجه في نظام حياتها وسلوكها اتجاهاً واحداً ولم تكن بحاجة إلى أن تبحث عن عناصر ومقومات لـ « الأمة » لأن الإسلام أغناها بعقيدته وقيمه

عن أن تتطلع إلى مثل تلك العناصر والمقومات، ولقد شارك في حكم الدولة الإسلامية عناصر تمثل تلك الشعوب المتعددة التي تكونت منها الأمة المسلمة وتنقلت عاصمة الخلافة من قطر إلى آخر مسايرة بذلك الفتوحات الجديدة وزيادة رقعة دار الإسلام وبقي الأمر كذلك ثلاثة عشر قرناً من الزمان إلى أن سقطت الخلافة تحت تأثير الضربات المتوالية والكيد الخبيث الذي مارسته الصليبية العالمية واليهودية الحاقدة وخضعت الأمة الإسلامية للاستعمار الغربي - الاسم الجديد للصليبية التاريخية - الذي بدأ ينفذ مخططاً رهيباً لتمزيق روابط الأمة بما أقام لها من دويلات متعددة وأثار في شعوبها من نزعات اقليمية وتطلعات قومية، بل انه ذهب إلى أبعد من ذلك فطرح لها أفكاراً وصيغاً جديدة لتقيم حياتها ونظامها على أساسها لكي لا تفكر بالعودة إلى صيغتها الإسلامية الجامعة، وقد نجح الاستعمار في مخططه هذا إلى حد بعيد وما زال يصر ويلح على تنفيذه كاملاً، وإننا لنرى آثار الغزو الفكري الأوروبي في ذلك الجيل من الحكام الذي تربى في مدرسة الاستعمار الفكرية وعلى عينه والذي سار في طريق تغريب بلاده بعيداً عن قيم الإسلام وثقافته، فبلغ الاستعمار بهم ما لم يستطع أن يبلغه باحتلاله العسكري.

ومن هنا بدأنا نسمع في بلاد الإسلام حديثاً عن العناصر التي تكون الأمة وهل يصلح الدين عنصراً من عناصر تكوين الأمة أو لا يصلح ؟ وهل نقول أمة إسلامية أو أمة عربية ؟ وهل الآيات التي وردت في القرآن الكريم عن « الأمة » يقصد بها الأمة العربية أو الأمة الإسلامية[1] ؟ إلى آخر ما نسمع ونرى ونقرأ من أمور لم تكن مطروحة على هذه الأمة في يوم من الأيام ولو طرحت عليها مثل هذه القضايا في تاريخها الطويل واختلفت إجابتها عليها كما تختلف الآن لما أمكنها أن تصل إلى ما وصلت اليه من أمجاد ولما استطاعت أن تقف على أقدامها في وجه البرابرة والغزاة.

---

(١) آخر ما قرأناه في هذا الموضوع ما كتبه صفوان قدسي في مجلة « المعرفة » السورية عدد ١٧٥ /أيلول/١٩٧٦م مناقشاً بعض وقائع الملتقى العاشر للفكر الإسلامي الذي انعقد في « عنابة » بالجزائر في شهر تموز سنة ١٩٧٦ م تحت عنوان « القومية البغيضة ومناقشات أخرى » قال صفوان قدسي : =

= « .... لكن القيامة قامت ولم تقعد عندما عقبت على نقطتين اثنتين وردتا في محاضرة الدكتور الفاروقي. أما النقطة الأولى فهي اجتهادي في تفسير الآية الكريمة « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً » بأن المقصود فيها هو الأمة العربية بالذات وليس أية أمة أخرى على الاطلاق فالذين استساغوا حديث الدكتور الفاروقي عن « القومية البغيضة » لم يرضهم هذا التفسير واعتبروه خروجاً على كل ما عرفوه من تفاسير لهذه الآية الكريمة فاختلفوا إلى المنصة يردون ويعترضون وعلى الرغم من أن الأستاذ الدكتور محمد المبارك قد سبقني إلى هذا الاجتهاد في كتابه « الأمة العربية في معركة تحقيق الذات » كما ذكر لي بعد انتهاء المناقشات فان الجو الانفعالي الذي ساد هذه المناقشات حال بينه وبين أن يقوم لمناصرتي في الأخذ بهذا التفسير ». ـ انتهى كلام صفوان قدسي.

ونحن نطمئن الأستاذ صفوان قدسي بأننا لم نسمع محاضرة الدكتور الفاروقي وبالتالي لم نتأثر بها ومع ذلك فان لنا معه وقفة نسائله فيها عن اجتهاده وتفسيره.

لقد أطلق الأستاذ صفوان دعوى عريضة جداً وهي المقصود بـ « الأمة » في قوله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً » الأمة العربية بالذات وليس أية أمة أخرى على الاطلاق، وأمام هذه الدعوى العريضة لم يقدم لنا دليلا واحداً على اجتهاده في هذا التفسير ونحن لا ننكر على الأستاذ صفوان حق الاجتهاد في التفسير ولكننا نطالبه بالدليل الذي اعتمد عليه في هذا الاجتهاد واذ لم يقدم لنا هذا الدليل فاننا نعتبر اجتهاده هذا من لغو القول الذي تعافه النفوس والعقول وبالتالي فانه مجرد خاطرة خطرت في نفسه فسارع بإعلانها دون أن يفطن لمنافاتها لكل عقل ونقل كان يجدر به أن يخبأها لنفسه وأن لا ينشرها عل الناس في مجلة تحمل اسم « المعرفة ».

ان ما جرى بينه وبين الأستاذ المبارك لا نخوض فيه لأننا لم نسمع ولم نعرف كل ما دار بينهما، ولكن الذي نعرفه أن ما كتبه الأستاذ المبارك في كتابه « الأمة العربية في معركة تحقيق الذات » والذي درسناه عليه في جامعة دمشق ليس فيه مثل هذا الاجتهاد في التفسير، وكان يحسن بالأستاذ صفوان أن يعود إلى الكتاب بعد عودته من الجزائر وأن ينقل رأي الأستاذ المبارك من كتابه وأن يستشهد به في مقاله، هذا ما تتطلبه أصول البحث العلمي، وإذا لم يفعل ذلك الأستاذ صفوان فانه يبقى في الميدان وحيداً باجتهاده وتفسيره وهذا يتطلب منه جهداً أكبر في البحث عن دليل لاجتهاده وتفسيره.

اذ من الأصول المقررة في فهم أي كلام مراعاة سياقه حيث يختلف المعنى باختلاف السياق ولو أننا رجعنا إلى الآية موضوع البحث وقرأناها كاملة ربما ساعدتنا على بيان المراد منها. يقول الله تعالى في الآية/١٤٣/ من سورة البقرة : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم **شهيداً** وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وان كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع ايمانكم ان الله بالناس لرؤوف رحيم ».

ان نظرة واحدة لهذه الآية تبين لنا انها خطاب للمؤمنين من المهاجرين والأنصار الذين كانوا في المدينة المنورة بعد هجرة الرسول ـ ﷺ ـ اليها ذلك ان سورة البقرة أول سورة نزلت في المدينة بعد الهجرة وسياق الآية في شأن تحويل القبلة كما هو واضح وأظن أن الأستاذ صفوان يوافقني في أن العرب الذين لم يصلوا إلى بيت المقدس ككفار قريش لا يدخلون فيها بدليل الخطاب في آخر الآية « وما كان الله ليضيع ايمانكم » اذ من المعروف أن الإيمان ـ هنا ـ يقصد به الصلاة إلى بيت المقدس وذلك رداً على اليهود الذين اعتبروا صلاة المسلمين إلى بيت المقدس ضائعة بعد أن حولت =

=القبلة إلى الكعبة.

لو احتكمنا إلى قواعد اللغة العربية في تفسير هذه الآية فماذا نجد :

ان « جعل » تكون بمعنى « خلق » وتكون بمعنى « صير » وتكون بمعنى « سمى »، فتكون بمعنى « خلق » اذا نصبت مفعولا واحداً كقوله تعالى : « الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور » ــ الأنعام : ١، وتكون بمعنى « صير ــ أو « سمى » اذا نصبت مفعولين فمما جاءت به بمعنى « صير » قوله تعالى حكاية عن فرعون « ان فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً » القصص : ٤ « ومما جاءت به بمعنى « سمى » قوله تعالى : « ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام » ــ المائدة : ١٠٣ ــ فلا يصح هنا الا معنى « سمى » لأنها ــ « البحيرة » « السائبة ــ و « الوصيلة » و « الحام » ــ من تسمية المشركين للأنعام التي لم يسمها الله بذلك ولا يصح هنا معنى « الخلق » ولا معنى « التصيير » لأنها لو كانت بمعنى الخلق لكانت : « ما خلق الله من بحيرة... » ونفي ذلك كفر لأنها نوع من الأنعام التي خلقها الله وكذلك معنى « التصيير » غير وارد أيضاً لأنه لا يصح. ولو رجعنا إلى الآية موضوع البحث نجد أن « جعل » فيها نصبت مفعولين هما الكاف في قوله « جعلناكم » و « أمة » وعلى هذا لا يصح فيها معنى « خلق » ولو كانت بمعنى « خلق » لجاز أن يراد بـ « الأمة الوسط » : العرب. فلم يبق إلا معنى « صير » أو « سمى » فاذا قلنا انها بمعنى « صير » فمعنى ذلك انكم لم تكونوا أمة وسطاً ثم صرتم كذلك وهذا يعني أنه لا بد من سبب صرتم بموجبه كذلك وليس ذلك الا بالإسلام بدليل « لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » ولا يدخل في هذه الأمة الذين لم يصيروا مسلمين لأنهم بقوا على ما كانوا عليه. واذا قلنا انها بمعنى سمى كان المراد بالأمة الوسط » الأمة المسلمة لأن هذه التسمية لم تعرف للعرب قبل الإسلام. ويدل على هذا قوله تعالى في الآية (٧٨) من سورة الحج وما قبلها حيث جاء فيهما : « يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون (٧٧) وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير (٧٨) ».

فاذا فسرنا « جعلناكم » في آية البقرة بمعنى « سمى » كان معنى آية الحج مساوياً لها :

« وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً »، « هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس »، وبمثل هذه الأدلة من اللغة والقرآن يكون الاجتهاد ويكون التفسير ولا يكون بمجرد الدعوى من غير ما علم ولا هدى ولا كتاب منير.

٤ ــ أما وقد طرحت على أجيالنا عناصر تكوين الأمة في الغرب فلا بد لنا من بيان وجهة نظر الإسلام في هذه العناصر، لا لأننا نعتبرها مقومات للأمة ــ كما يقولون ــ وإنما لبيان المعاني التي أضفاها الإسلام على هذه العناصر.

أ ـ العــرق :

قدمنا فيما مضى شيئاً مما يتصل بالعرق حينما تكلمنا عن المعنى الإسلامي للأمة وأنه يعتبر انتماءًا عقائدياً لا عرقياً ولا عنصرياً، وإن الإسلام يعترف بانقسام الناس إلى شعوب وقبائل، وان حكمة ذلك هي التعارف بين الناس. غير أن الإسلام مع اعترافه بهذا الواقع فهو يسعى إلى إيجاد انتماء عقدي فكري يكون مجالاً للالتقاء والتعاون بين الشعوب ويهذب من حدة التعصب القبلي والقومي الذي ينشأ عند الناس بدافع التفاخر بالأحساب والأنساب وان الإسلام لا يعمل على إلغاء الواقع وإنما يبعده عن أن يكون مقياساً للتفاضل بين الناس ومجالاً للتفاخر والتناحر ويقيم بدلاً منه قيم الدين مقياساً للتفاضل على أساس العمل الصالح الذي يصدر عن الناس. إلّا أن هناك نقطة كثيراً ما كانت موضع جدل ومناقشة في أوساط المثقفين المعاصرين وهي فيما يتصل بعلاقة العــرب كـ « قوم » بالإسلام كـ « دين »، فلا بد لنا إذن من الوقوف عند هذه النقطة والقاء الأضواء عليها باعتبارها من الأمور التي يكثر حولها الكلام.

٥ ـ إن الإسلام، وإن كانت صلته بجميع الشعوب والأقوام تقوم على مبدأ المساواة وتحكمها نظرة واحدة ـ كما أشرنا إلى ذلك من قبل ـ إلّا أنه بالنسبة للعرب هناك علاقة خاصة بين الإسلام والعرب ليست لشعب من الشعوب ولا لقوم من الأقوام. لقد اختار الله سبحانه نبيه من العرب، واختار لغة العرب لتكون لغة كتابه الخالد، واختار البيت الحرام كعبة المسلمين ومهوى أفئدتهم من مشارق الأرض ومغاربها ـ وهو في مكة المكرمة قلب بلاد العرب، واختار الجزيرة العربية لتكون قاعدة لدين الله، فلا يجتمع في جزيرة العرب دينان.

واذن رسول الله ـ ﷺ ـ بدعوته في مكة واستجاب له عدد قليل من العرب ودخلوا في دين الله كما دخل معهم أفراد من غير العرب الذين كانوا يعيشون في الجزيرة العربية، ولقي الرسول ـ ﷺ ـ مقاومة عنيفة من قريش اضطرته بعد ذلك إلى الهجرة للمدينة المنورة حيث وجد الأنصار الذين رحبوا به وبدعوته ودخلوا في دين الله أفواجاً. ولم يلبث رسول الله ـ ﷺ ـ

أن تغلب على قريش وخضعت له جزيرة العرب فخلصت للإسلام أرضاً وقوماً، ثم انطلق هؤلاء العرب المسلمون يحملون راية الإسلام إلى كل صقع وينشرون ألوية العدل في كل مكان بعد أن شرفوا بحمل رسالة التوحيد.

أما لماذا إختار الله رسوله من العرب ؟ ولماذا اختار العربية لغة لكتابه ؟ ولماذا كان الرعيل الأول الذي حملوا راية الإسلام معظمهم من العرب ؟ فمن الأمور التي يكثر الكلام حولها وخير ما يجاب به في مثل هذا الموضع أن نقول :

« الله أعلم حيث يجعل رسالته ». ولا شك بأن العرب في ذلك الوقت كانت لهم خصائص وفضائل كما كانت لهم قبائح ورذائل ـ كما هو الحال في كل شعب من الشعوب ـ ومع ذلك فلعل وضع العرب في ذلك الوقت كان أنسب من وضع غيرهم وأليق بحمل رسالة كرسالة الإسلام فاختبروا كطليعة لحمل هذه الرسالة إلى غيرهم من الشعوب والأقوام، ولقد كانوا على مستوى المسئولية حينما خرجوا مجاهدين في سبيل الله مضحين بأموالهم وأنفسهم فنجحوا في مهمتهم خير نجاح وقدموا للعالم هدايتهم فكانت خير هداية.

لقد شعر العرب المسلمون بعظم الأمانة التي أنيطت بهم فعرفوا قدر أنفسهم وفهموا حقيقة دعوتهم وأدوا واجبهم في نشر الإسلام وتبليغه دون أن يشعروا غيرهم من الشعوب الأخرى ـ التي استجابت لدعوة الإسلام ـ بفوقية أو تفضل وامتنان لأنهم لم ينطلقوا بهذا الدين إلّا امتثالاً لأمر الله ـ عز وجل ـ ومن ثم لم يكن جهادهم في سبيل المغانم المادية أو المطامع الاقتصادية وإنما كان جهاداً في سبيل الله ومن أجل أن تكون كلمة الله هي العليا.

ولقد قدر المسلمون من غير العرب لإخوانهم العرب المسلمين جهدهم وجهادهم فنظروا اليهم نظر المحبة والإكبار نظراً لما حملوه اليهم من خير وما تكبدوا في سبيل ذلك من تضحيات ومشاق، وساروا معهم جنباً إلى جنب يكتبون بدمائهم سطور ملحمة جهادية لم يعرف لها التاريخ مثيلاً.

أما ما تذكره كتب التاريخ من وجود فئات شعوبية في بعض مراحل

التاريخ الإسلامي حاولت تجريد العرب من مزاياهم والصاق النقائص بهم فهذا أمر لا يستبعد وقوعه من فئات منحرفة ذات أغراض خبيثة لتفرق بين المسلمين وتثير الأحقاد والضغائن بين شعوبهم. ولقد حاول اليهود مثل ذلك إبان انطلاق الدعوة الإسلامية في المدينة حينما حاولوا تذكير الأوس والخزرج بعداواتهم القديمة قبل أن ينعم الله بالإسلام عليهم. فهذا أمر ممكن الحدوث في كل زمان ومكان من الفئات الحاقدة التي تتضرر مصالحها وهذا لا يؤثر في الاتجاه العام من الاحترام والتقدير الذي كان هو السمة البارزة في نظرة المسلمين من غير العرب إلى إخوانهم من العرب المسلمين.

وبناء على ما تقدم فإن الميزة الأولى للعرب هي كونهم أقرب من غيرهم لفهم كتاب الله الذي نزل بلغتهم، ومن ثم فقد ورد في بعض الأحاديث الشريفة أن « العربية » : اللسان، وهذا ما دعا المسلمين من غير العرب أن يحبوا لغة العرب ويعكفوا على دراستها، بل إنهم قد برعوا في ذلك وأبدعوا وألفوا في علومها وأوسعوا وشاركوا مشاركة فعالة في علوم الإسلام المتعددة، بل إن كثيراً منهم تخلى عن لغته الأصلية أو نسيها بعد أن عرف العربية ودرجت على لسانه وكلما اقترب المسلمون من غير العرب من لغة العرب كلما تضاءل هذا الفارق بينهم وبين إخوانهم العرب المسلمين في فهم كتاب الله وشاركوهم في هذه الميزة الخاصة بهم.

ولا يطعن فيما قدمنا من حب المسلمين غير العرب للغة العربية ما قام به الاتحاديون في العهد العثماني من محاربة للعربية واقصاء لها عن ان تكون اللغة الرسمية والعمل على ان تكون اللغة التركية بديلاً عنها، اقول لا يطعن ذلك في حب العربية لان عمل الاتحاديين لم يكن موجهاً ضد العربية وحدها وانما كان مؤامرة يهودية ماكرة استهدفت الإسلام نفسه والخلافة ذاتها وهذا ما اكدته الحقائق التاريخية بعد انحلال الخلافة وتولي اتاتورك زمام الأمور في تركيا حيث سار بها بعيداً عن ثقافتها ودينها وتراثها، بل انه حاول قطعها نهائياً عن جذور تاريخها وتراثها بتغييره للحروف العربية إلى حروف لاتينية. ورغم كل هذه المحاولات الماكرة فلم تستطع تلك القوى ان تنال من ايمان الشعب التركي وعقيدته، وها هي تركيا الآن بعد ان انقضى جيل على عهد اتاتورك تسير في طريق العودة إلى الإسلام والعربية مرة أخرى.

فتنشئ المدارس العربية لتعليم القرآن واللغة العربية وبقية العلوم الإسلامية الأخرى وتقترب أكثر فأكثر من العرب والإسلام بعد ان ظن الناس في فترة من الفترات ان قلعة الإسلام في تركيا قد تحطمت وان جذوة الإيمان في قلوب الأتراك قد خبأ نورها وانطفأ أوارها، « والله غالب على أمره ولكن اكثر الناس لا يعلمون ».

ولقد استغل احفاد الصليبية انحراف الاتحاديين في محاربة العربية وعملوا على توسيع الفجوة بين المسلمين الأتراك واخوانهم العرب المسلمين كما حاولوا طرح افكار جديدة بديلة للإسلام بقصد اضعاف رابطة العقيدة الإسلامية وابعاد المسلمين عن مصدر قوتهم فأنشأوا الاحزاب الشيوعية والقومية المختلفة، فقام بعضها على أساس اقليمي ورفع شعارات اقليمية « سورية للسوريين » و « مصر للمصريين »، وحاولوا ان يجعلوا لكل اقليم تاريخه الخاص، فأثاروا الاعتزاز بالجاهليات القديمة التي عفى عليها الإسلام كالفينيقية والفرعونية وغيرها، كما قام بعضها على أساس قومي عربي بحيث حصر مجال نشاطه في بلاد العرب وحاول انشاء عقيدة قومية بديلة للإسلام حين اعتبر القومية رسالة خالدة، وحاول تفسير التاريخ الإسلامي على أساس قومي واعتبر الإسلام مرحلة من مراحل التاريخ العربي وقد أدى دوره في تلك المرحلة التاريخية ولا يستطيع في الوقت الحاضر ان يؤدي دوراً هاماً وعليه في هذه المرحلة أن ينسحب من الميدان ويخلي الطريق للعقيدة القومية الجديدة. وبعد أن ساروا شوطاً في هذا الطريق شعروا بأن القومية لا تكفي وحدها ان تكون بديلاً للإسلام فهي في حقيقتها انتماء وانتساب وهم ارادوها فكرة ورسالة ولكنها لم تقو على حمل ما حملوها مما جعلهم يقولون بالاشتراكية إلى جانب القومية.

ولكن الاشتراكية مذهب غربي والقومية انتماء عربي فكيف يمكن التوفيق بين العربي والغربي ومن هنا كان لا بد من التزاوج بين القومية العربية والاشتراكية الغربية فكان المولود الجديد : الاشتراكية العربية، وحينما سئلت الاشتراكية العربية من اين جاءت ؟ قالت انها نبعت من أرض العروبة وواقعها.

ان صلة العرب بالإسلام صلة أصيلة عميقة ولقد ربط الله بينهما بعروة وثقى لا انفصام لها ومهما حاول اعداء الإسلام والعرب ـ في الداخل

والخارج ـ فانهم لن يستطيعوا أن يقطعوا ما وصله الله وسيبوؤون بالفشل الذريع وتذهب جهودهم ادراج الرياح، رغم ما اوتوا من سعة الحيلة والمكر والخداع.

ولن يطول على الأمة ذلك اليوم الذي تعود فيه الأمور إلى نصابها وتطوى فيه هذه الصفحة النشاز في تاريخ امتنا الحديث، فلقد بدأ المارد المسلم يتململ داخل القمقم الذي حبس فيه في غفلة من الزمن وقد شعر أنه أُخذ غدراً وعلى حين غرة ولن يغفر للذين اساؤوا إليه وسيعرف كيف يحاسبهم على غدرهم وخيانتهم وسيلتئم شمل هذه الأمة من جديد ويعود العرب إلى أداء رسالتهم الإسلامية الخالدة وسيجدون اخوانهم المسلمين من غير العرب يقفون إلى جانبهم يشدون من أزرهم ويجاهدون معهم صفاً واحداً وقلباً واحداً وأمة واحدة.

وان هذه النظرة الإسلامية إلى العرق في أنه لا يقوى ان يكون مقوماً أساسياً في تكوين الأمة هي التي بدأت تسود العالم المعاصر حيث أصبح الالتقاء على المبادىء والأفكار والفلسفات سمة الاتجاهات الحضارية الحديثة. ومما يساعد على ذلك ويعجل به ان العالم اليوم غدا كمدينة واحدة بفضل ما اضافته يد الإنسان من اختراعات واكتشافات ساهمت إلى حد كبير في تقريب البلاد المتباعدة وازالة كثير من الفوارق بين الشعوب في انماط المعيشة ووسائلها مما يجعل العالم يقترب اكثر فأكثر من الالتقاء على عقيدة واحدة، وبهذا تبدو التجمعات القومية والاقليمية من مخلفات القرون الماضية، وبذلك يكون الإسلام قد سجل سبقاً حضارياً كبيراً حينما جعل الأمة تقوم على أساس العقيدة منذ أربعة عشر قرناً وفي وقت كان يبدو فيه مثل ذلك أمراً غريباً مستنكراً، ولعل هذا يفسر لنا شيئاً من حكمة ختم النبوة بمحمد ـ ﷺ ـ وختم الرسالات السماوية الخاصة برسالة الإسلام العامة للناس جميعاً، وان الناس بامكانهم ان يكونوا أمة واحدة تذوب بينهم الفوارق المصطنعة اذا ما جمعتهم عقيدة الإسلام، وهكذا تتطور البشرية يوماً بعد يوم لتلحق بقيم الإسلام الخالدة التي تسع البشرية كلها والزمن كله بما يجدُّ فيه من تطورات وتطلعات.

ان فكرة قيام الأمة على أساس عرقي، كما دعا اليها هتلر، لم تلق تجاوباً حقيقياً قد تمازجت واختلطت أصول الناس نتيجة التزاوج. ولا يمكن الجزم بأن عرقاً من الأعراق البشرية قد احتفظ بنقائه وصفائه، ومن ثم لم يكن لهذه الدعوة نصيب من النجاح ولعلها قد انتهت بانتهاء حياة المنادي بها. واذا كان هذا ينطبق على الأجناس البشرية في الغرب فلا شك انه ينطبق على الشرق أيضاً اذ حدث فيه من التمازج والاختلاط والتفاعل بين الشعوب ما أذاب كثيراً من الفوارق بينها وجعلها تقترب من الوحدة في كثير من شئون حياتها وبخاصة في البلاد التي كانت تنتسب إلى دين واحد أو عقيدة جامعة.

وأمام هذه الحقائق الواقعية الدامغة ترجع المنادون بفكرة « العرق »، ولم يعد يهمهم أن يتثبتوا من نقاء « العروق » وصفاء « الأجناس »، واكتفوا باعتبار التقارب الواقعي الحاضر بديلاً للتقارب العرقي المظنون وان ذلك كاف في رأيهم لان يكون أمة واحدة دونما حاجة إلى البحث في الأصول النسبية والقبلية، وبذلك يكون « العرق » فقد كونه مقوماً حقيقياً من مقومات الأمة في نظر القائلين به بل ان بعضهم ذهب إلى أبعد من ذلك حين اكتفى أن يكون للعرق دور ما في مرحلة سابقة من مراحل تكوين الأمة خلال التاريخ.

ومن كل ما تقدم نرى ان فكرة « العرق » ـ كمقوم من مقومات الأمة ـ قد طرحت أول ما طرحت في المانيا وانها انتهت بعد ذلك لان تكون وهماً وخيالاً حيث تراجع القائلون بها، إما على سبيل الحقيقة بتخليهم عنها وإما على سبيل المجاز بتأويلهم لها إلى معان جديدة لم تكن مقصودة بها أصلاً، وأياً ما كان الأمر فقد انتهت الفكرة على ايدي القائلين بها وفي البلاد التي ولدت فيها، ومع ذلك كله فقد انتقلت الفكرة على ايدي القائلين بها وفي البلاد التي ولدت فيها، ومع ذلك كله فقد انتقلت الفكرة إلى بلاد العالم الإسلامي متأخرة جداً، وبعد أن فقدت كل مبررات حياتها، إلا أن التقليد الأعمى لكل ما هو غربي في المجتمعات الإسلامية المعاصرة هو الذي دفع **المتربصين والمشككين والمرجفين إلى أن يستوردوا مثل هذه البضائع الفاسدة**

في سوق الفكر ليبلبلوا بها أفكار المسلمين وليوقعوهم في مخططات الاستعمار ومشاريعه الهادفة إلى الحيلولة دون نهضة حقيقية لهذه الأمة، وبذلك تكون لهم فرصة تاريخية نادرة ان يعبثوا بمقدرات هذه الأمة وان يحاولوا تغيير مسارها الحضاري التاريخي بعيداً عن دعوة الإسلام ورسالته الخالدة. **ومع الأسف فقد جازت مثل هذه الأفكار على كثير من المتواضعين في عقولهم وأفكارهم في عالمنا الإسلامي، وهي ان دلت على شيء فإنما** تدل على أن شبابنا المعاصر بدأ يفقد المناعة الأصيلة التي عرف بها المسلم خلال التاريخ، وذلكم لابتعاده عن مصادر ثقافته ودينه وعدم التزامه بقيمة واخلاقة، واملنا كبير في أن يعي شبابنا واقعهم ويدركوا مسؤولياتهم فيحفظوا أنفسهم من السقوط أولاً ليكونوا قادرين على مد يد العون للآخرين ثانيا وبذلك يحولون دون ما يراد لامتهم من ضياع ودمار.

ب ـ الأرض :

يراد بالأرض التي تشكل مقوماً من مقومات الأمة ـ عند القائلين بها ـ الوطن الذي يعيش فوقه أمة من الأمم أو شعب من الشعوب وان هذا الوطن قد يؤثر في ساكنيه ويمنحهم بعض خصائصه التي امتاز بها مناخه الطبيعي أو طبيعته الجغرافية بما فيها من لين أو قساوة وما إلى ذلك من آثار الأرض التي ربما تطبع سكانها بطابع مميز لهم عن غيرهم.

والإسلام ابتداء لا ينكر على المسلم ان يتعلق قلبه بحب البلد الذي نشأ فيه فهذا أمر طبيعي فطري لا يمكن تجاهله او انكاره وكذلك تأثر الانسان بالبيئة التي نشأ فيها واكتسابه من الأرض التي عاش فيها بعض خصائصها فهذه أمور تحدث بشكل عفوي لكل من يعيش على هذه الأرض.

إلا أن الإسلام لا يقف بالمسلم عند حدود الأرض التي نشأ عليها وشهدت ذكريات طفولته وصباه، بل إنه يمد عينيه إلى الأرض كلها. فالأرض كلها من خلق الله وعلى المسلم أن يخرج من حدود اقليمه الصغير ليتعرف على الكون الكبير وما فيه وليرفع كلمة التوحيد في كل مكان، فالأرض كلها بحاجة اليه بحاجة إلى عقيدته التي يحملها بحاجة إلى رسالته، فلا يجوز له

ان ينطوي على نفسه في حدود مغلقة، « ان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ». انه الخليفة في الأرض فلا ينبغي له ان يقبع في ركن من اركانها أو زاوية من زواياها يجتر ذكرياته الوطنية وينسى من حوله وما حوله، ان الأرض كلها يمكن أن تكون وطناً له حينما يحمل اليها رسالته وينقل اليها أمانته وهذه مهمته، فعليه ان يعرف قدره ويكون على مستوى المسئولية التي انيطت به.

ان فكرة الأمة التي تقوم على أساس عقدي ديني يضم شعوباً مختلفة وأقواماً متعددة لا يمكن أن تقبل بفكرة وطن محدود، فالوطن الإسلامي ان صح التعبير ليس محدداً بقطعة من الأرض وانما هو كل مكان في الأرض وصل اليه الإسلام. والإسلام بحسب تصور المسلم لا بد له ان يعم الأرض كلها : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ». وهكذا فالدين الذي قال بأمة عالمية تضم كل الأقوام والشعوب لا يمكن ان يقبل بفكرة الوطن المحدود التي يرضى بها الاقليميون العاكفون على اجترار وطنية ضيقة حبسوا فيها أنفسهم، وهكذا يوسع الإسلام آفاق المسلم في كل شيء يخرجه من القيود والاغلال التي تفرضها النظرات والنظريات البشرية المحدودة والصادرة عن عقول قاصرة محكومة باعتبارات مكانية أو زمانية عاطفية.

وإذا كانت الأرض أو الوطن في الماضي تمنح سكانها بعض خصائصها فان هذا الأمر في عصرنا الحالي في طريقه إلى الزوال بعد أن ذابت الحدود الجغرافية تحت تأثير المواصلات الحديثة التي جعلت العالم كله كأنه بلد واحد وارض واحدة، وبعد ان استطاع الإنسان التغلب على الظروف الطبيعية القاسية بما كشفه العلم من مخترعات جعلت نمط الحياة البشرية يسير في طريق الوحدة، وكلما تقدم بنا الزمن كلما زادت هذه الوحدة وهذا التقارب، وبالتالي فان هذا المقوم من مقومات الأمة الذي هو الأرض والوطن ـ عند القائلين به ـ يبدو أيضاً وكأنه مودع لهم بعد أن أتت عليه منجزات العلم ومكتشفاته، ولن يبقى أمام البشرية إلا أن تعتصم بالمقوم الوحيد الذي يجمع الناس كلهم في أمة واحدة تذوب فيها فوارق الجنس والأرض واللون، ولن تجد ذلك إلا في الإسلام العظيم، الدين العالمي الذي لا

يعرف الحدود والقيود والذي جاء هداية للناس عامة ورحمة للعالمين شاملة.

وعلى فرض بقاء ذلك كله فالإسلام لا يمنع المسلم ان يشعر بحنين إلى وطنه الأصلي ومدارج طفولته وصباه، ولكنه لا يسمح له ان يحبس نفسه في هذا المضيق وانما يرفع من تصوره ويمده ويوسعه ويقبل منه ما يمكن أن يكون قد اكتسبه من آثار نشأته في أرض معينة أو طبيعة خاصة ما لم يتعارض ذلك كله مع عقيدته الدينية وانتمائه إلى أمة عالمية ذات رسالة تستهدف صلاح البشرية كلها. وان هذا الحنين نحو الموطن الأصلي، وتلك الخصائص والطباع التي يمكن ان تكتسب من البيئة والموطن لا تكفي في نظر الإسلام لان تكون عنصراً أو مقوماً من مقومات الأمة وانما يبحث عن ذلك ويقول به الذين لا يملكون عقيدة جامعة أو ديناً موحداً، أما نحن الذين جمعنا الله تحت لوائه وربط بين قلوبنا بحبل من عنده فلا تلفت انتباهنا مثل هذه الروابط ولا تشدنا اليها مثل هذه التطلعات لاننا نملك ما هو اقوى وامتن وصدق الله العظيم : « واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخواناً ». وصدق الله العظيم : « لو انفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم، ولكن الله ألف بينهم ».

جـ ـ التـــاريـخ :

لا يستطيع الكتّاب والمفكرون حينما يتحدثون عن الأمة والعناصر المكونة لها ان يغفلوا شأن التاريخ، وهم يقصدون به تاريخ كل أمة بما فيه من امجاد ونكبات، ولا شك بأن للتاريخ أثراً كبيراً في صياغة أجيال الأمة حيث تأخذ من امجادها الماضية حافزاً لصنع امجاد جديدة وتحاول ان تتجنب الأخطاء التاريخية التي ربما وقع فيها أسلافهم.

ولما كان مفهوم الأمة اقترن من الناحية العملية عند جميع الأمم بالمعنى القومي كما سبق ان بيناه وشرحناه فقد اختلط تاريخ الأمة ـ عندهم ـ أيضاً بالمفهوم القومي، وهكذا غدا تاريخ الأمة كأنه تاريخ القوم في كل عهودهم، ومن ثم تحرص الأمم ـ بهذا المفهوم القومي ـ على ان تبعث تاريخها القديم ـ مهما كان موغلاً في شعاب الماضي ـ بما فيه من محاسن ومساوئ وبما يضم في طياته من أمجاد تبعث على الاعتزاز ومخاز

يندى لها الجبين خجلاً، بل ربما حاولوا تبرير هذه المخازي من باب الحمية الجاهلية والتعصب الأعمى الذي لا يريد الاعتراف بالحقائق الموضوعية المرة.

وقد سرت هذه الموجة في بعث التاريخ القديم واحيائه في البلاد الإسلامية بعد ما تم القضاء على الخلافة وتمزيقها، ذلك ان الذين خططوا لذلك ارادوا فعلاً ان تنقسم الأمة الإسلامية إلى أمم، وحيث أنه لا بد لكل أمة من تاريخ ولما كان تاريخ الأمة الإسلامية واحداً فلا بد اذن من بعث تاريخ هذه الشعوب قبل دخولها في الإسلام، ومن ثم وجهت الطاقات إلى بعث تاريخ الجاهليات، ولما كان الشعور الإسلامي ينفر بطبعه من كل ما هو جاهلي أو له صلة بالجاهلية فقد اضفوا عليها اسماء حديثة وقالوا حضارات، ورصدت الأموال الكثيرة للكشف عن الأصنام والتماثيل واقامة المتاحف الضخمة للمحافظة عليها.

ان مثل هذا العمل ليس خطراً على المفهوم الديني للأمة فقط ولكنه خطر أيضاً عليها بالمفهوم القومي، لان التاريخ القديم في البلاد العربية ليس تاريخاً واحداً وجاهليته ليست جاهلية واحدة وبالتالي لن يكون التاريخ القديم الجاهلي عامل وحدة في تكوين الأمة ـ بمعناها القومي ـ ولكنه سيكون عامل تفريق لانه يظهر كل قطر من الأقطار بأن له تاريخاً غير تاريخ الآخر وبذلك لا يكون التاريخ مقوماً من مقومات الأمة ولكنه يكون معوقاً من معوقاتها وعقبة كأداء تحول دون قيامها.

وإذا كان الإسلام قد أقام « الأمة » على أساس الانتماء الديني الذي يضم البشرية بكل اجناسها وعناصرها واعتبر وطنها هو الأرض كلها ـ ما كان واقعاً منها تحت سيطرتها وما سوف يقع ـ كذلك فانه قد نظر إلى التاريخ نظرة تنسجم مع عالمية الأمة وعالمية الوطن.

ان تاريخ الأمة الإسلامية لم يبدأ منذ بعث الرسول محمد ﷺ ولكنه بدأ منذ وجد آدم على ظهر هذه الأرض واستمر بعد ذلك في كل أمة استجابت لدعوة نبيها، فهو تاريخ موصول بدأ ببعثة أول نبي ويستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، انه تاريخ الدين كله الذي هو الإسلام « ان الدين

عند الله الإسلام ». ومن ثم نجد القرآن الكريم حفل بتاريخ الأنبياء ومواقفهم ودعواتهم وبصر المؤمنين بأن الأنبياء كلهم خلال التاريخ البشري الطويل ينتظمهم سلك واحد ويصدرون في مواقفهم عن عقيدة واحدة ويتلقون الوحي من اله واحد فهم اذن أمة واحدة وان تباعدت بهم الأزمان وتعددت بهم الأوطان.

وقد أوضح القرآن هذه الحقيقة بما لا يدع مجالاً للتفسير والتأويل حين ذكر الأنبياء والرسل السابقين ثم قال لنا : « وان هذه امتكم أمة واحدة وانا ربكم فاعبدون »، وحينما قال مخاطباً لنبينا عليه الصلاة والسلام بعد ذكر الأنبياء السابقين : « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ».

واذن فتاريخ هذه الأمة تاريخ عريق ضارب في شعاب الزمان، تاريخ عريض لا يحده مكان، تاريخ مواكب الايمان يقودها الأنبياء والمرسلون في معارك متصلة مع الجاهليات في كل عصر ومصر، انه تاريخ حافل مليء بالدروس والعبر، انه ذخيرة كبيرة لهذه الأمة عليها ان تحسن قراءته وتدبره كسنن اجتماعية ثابتة تستطيع الاستفادة منه في حاضرها ومستقبلها.

ويرى المعلم عبد الحميد الفراهي الهندي ان الوقائع التاريخية تعرض في القرآن الكريم بطريقة تختلف عن طرق المؤرخين، فلقد اعتاد المؤرخون ان يعرضوا التاريخ : اما بالرواية التي هي جمع الوقائع التاريخية بحسب ترتيبها الزماني دون مراعاة الربط بينها وبيان اسبابها ونتائجها، واما بالدراية وهي : جمع الوقائع بالترتيب العقلي مع الزماني حيث يلتزم المؤرِّخ طلب السبب لكل ما وقع ليعلم ان كل متأخر نتيجة لمتقدم. والتاريخ، بكلا قسميه، ليس إلا علم ما مضى وغاب عنك من أحوال بني نوعك.

وأما الوقائع التاريخية في القرآن الكريم وفي الكتب المقدسة فاننا نجدها مترتبة ترتيباً اخلاقياً وان العالم تحت قدرة الله وتصرفه وان الأمة تسمو وتهبط حسب اخلاقها.

ومن هنا نرى القرآن الكريم يضفي على التاريخ معنى خاصاً ويقدمه لنا على أنه سنن ثابتة يحكمها ناموس واحد، ومن ثم فهو لا يحفل بالزمان والمكان والتفاصيل إلا بالقدر الذي يوضح الهدف والمغزى من الحادثة

التاريخية، كما انه لا يقصد بذلك مجرد العرض والاخبار وانما يتعدى ذلك إلى التربية بالقدوة الحسنة والاعتبار بمصير الأمم الغابرة وكشف السنن التي تحكم الحياة الانسانية والتجمعات البشرية.

ان التاريخ ـ بهذا المعنى ـ يمثل التطبيق العملي للمثل والقيم الدينية التي قامت على أساسها « الأمة » بالمعنى الإسلامي، ولا شك بانه زادٌ كبيرٌ لامتنا المسلمة تتزود منه في طريقها اللاحب الطويل المليء بالأشواك والمفاجآت، ولم تزود بذلك كله إلا لأنها وارثة الأمم والرسالات حيث ختم الله بنبيها النبوات وحفظ لها أصولها النظرية بحفظه لقرآنها وسنتها بعد ان اختار نبيها إلى جواره، وجعلها خير أمة أخرجت للناس.

اللغـــة :

يميل بعض المفكرين إلى اعتبار اللغة عنصراً أساسياً في تكوين الأمة، بينما يرى بعضهم ان هناك امماً تتكلم اكثر من لغة واحدة ومن ثم لا يقيم كبير وزن إلى عنصر اللغة.

أما نظرة الإسلام إلى هذا العنصر فهي كنظرته إلى بقية العناصر التي قدمنا الكلام عليها، فهو لا يعتبره مقوماً من مقومات الأمة لأنه يعتبر الدين هو المقوم الأول والأخير، غير انه ليس معنى ذلك ان الإسلام لا يقيم له وزناً.

لغة الدين واحدة :

لقد جعل الإسلام لغة الدين واحدة وهي العربية، ولذلك انزل الله كتابه بلغة العرب واختار رسوله من العرب، فكانت مصادر الدين النظرية، الكتاب والسنة، باللغة العربية فكان لا بد لمن أراد دراسة الدين والتعمق فيه من تعلم العربية ودراستها. وفعلا أقبل المسلمون على تعلم العربية ودراستها وتعمقوا في ذلك وبرعوا وربما نبغ عدد منهم في بعض الدراسات اللغوية والدينية والمكتبة العربية مليئة بالمؤلفات والكتب التي شارك فيها المسلمون جميعاً وهم من شعوب مختلفة في الأصل، إلا أن ايمانهم بالإسلام العظيم دفعهم إلى حب العربية ودراستها، وكثير منهم ربما نسي لغته الأصلية واعتبر العربية هي لغته.

ان هذه الصلة الوثيقة بين العربية والإسلام كانت لها آثار كبيرة على اللغة العربية لا بأس ان نلم ببعضها هنا :

إثــراء اللغــة :

ان اعتبار العربية لغة لكتاب الله قد أثرى هذه اللغة بالمعانـي والاصطلاحات الجديدة التي جاء بها الإسلام الحنيف، وبذلك خرجت العربية من عزلتها اللغوية التي كانت تتمثل في استعمال المفردات الخاصة بالبيئة الجاهلية إلى استعمال مفردات كثيرة فرضتها طبيعة الرسالة الإسلامية وثقافتها، وبعد ان كان تراث الجاهلية اللغوي يتمثل في قصائد ومعلقات تركها الشعراء أصبح تراثها في الإسلام ما لا يحصى من الكتب والمؤلفات والتي يدور معظمها حول رسالة الإسلام وعلوم القرآن والعربية وبقية العلوم والفنون الأخرى. ولا شك بأن هذا كان كسباً كبيراً لهذه اللغة.

لغــة عـالميــة :

لقد خرج الإسلام بالعربية من عزلتها المكانية في جزيرة العرب وسار بها مشرقاً ومغرباً حتى غدت لغة عالمية، ومازالت العربية إلى اليوم ترافق انتشار الإسلام في كل مكان يحط فيه رحاله، فلا يدخل قوم في دين الله إلا وتبدأ المدارس العربية بالانتشار من أجل تعليم القرآن وفهم رسالة الإسلام.

ومع أن الله ـ سبحانه ـ قد اختار العربية لغة لدينه فانه لم يجبر غير العرب على ترك لغاتهم الأصلية وبذلك تكون العربية اللغة الرسمية والمشتركة بين جميع الشعوب الإسلامية، إلا أنه مع طول الوقت والزمن نرى ان اللغات المحلية التي تتكلم بها شعوب إسلامية كثيراً ما تضعف ويقل التخاطب بها يوماً بعد يوم وبذلك تحل العربية محلها في التخاطب وبذلك يقترب المسلمون يوماً بعد يوم من العربية ويبتعدون عن لغاتهم القومية الخاصة، هذا اذا سارت الأمور سيراً طبيعياً وفي إطار الحكم الإسلامي الصحيح[1]، اما اذا

---

(١) جاء في هامش صفحة /٣٣٠/ من الجزء الأول من كتاب « الإسلام والحضارة العربية » لمحمد كرد علي :

« سألت في الحرب العامة صديقي سليمان نظيف وجناب شهاب الدين من أعظم أدباء الترك =

كانت الجاهلية هي التي تتحكم فربما سارت الأمور باتجاه معاكس كما رأينا ذلك في فترات الانحراف التي ذكرنا طرفاً منها فيما سبق.

لغـــة خـالـدة :

لقد أعطى الإسلام للعربية صفة البقاء والخلود حينما جعلها لغة القرآن الخالد والدين الخالد حيث قد تكفل الله بحفظ الذكر، والذكر : لفظ ومعنى، ولا يمكن فهمه إلا بلغة العرب، واذن فلابد من بقاء لغة العرب حتى يمكن فهم القرآن الكريم، ومن ثم نجد عالماً هندياً كالامام عبد الحميد الفراهي يصر على ان تكون مؤلفاته بالعربية مع حاجة قومه الهنود إلى كتابات بلغتهم ولما سئل عن ذلك قال : أردت لكتبي الخلود.

ان هذه الصلة الوثيقة بين العربية والإسلام أمر لا يمكن فصمه لأنه قدر إلهي، وقد ادرك اعداء الإسلام ما لهذه الصلة من أثر كبير في قوة الإسلام والمسلمين ورأوا أنهم اذا امكنهم اضعاف العربية او استبدالها فسيحققون نصراً كبيراً من ابعاد المسلمين عن قرآنهم ودينهم ومن ثم انطلقوا يدعون إلى اللهجات العامية لتحل محل العربية الفصحى كما دعا بعضهم إلى استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية ليقطع صلة الأجيال الحاضرة بثقافتها وتراثها وتاريخها وقرآنها كما فعل اتاتورك في تركيا.

ان المكانة التي تحظى بها اللغة العربية في نفوس المسلمين جميعاً من عرب وغير عرب أكبر بكثير من المكانة التي يحاول دعاة القومية ان

= وعلمائهم أن يمليا علي جريدة بأسماء كتب العلم التي وضعها الأتراك العثمانيون في العهد الأخير فأنكروا سؤالي وقالا : وهل تذهب إلى أننا أمة علم ومن أين نأتيك بهؤلاء المؤلفين الذين لم ينشؤوا بين أظهرنا إلى اليوم ؟ نحن أمة خيال وأدب وجل ما عندنا من هذا القبيل شعر وقصص نقل أكثره عن اللغات الأوروبية وما خلفه الموسومون بالعلم من أبنائنا في فنون الحرب والبحر والقانون والادارة فانما هو مترجمات لا يدلنا في متونها وشروحها وحواشيها الا القليل الذي لا يؤبه له. قالا ذلك وكانا يأسفان لأنه لم يتم للسلطان سليم تنفيذ منهاجه في نشر اللغة العربية وجعلها لغة الدولة الرسمية قائلين لو وفق إلى تحقيق أمنيته لكان العثمانيون غير ما هم عليه اليوم يكتبون العربية مشبعة بهواء الآستانة الجميل ورقة بيزنطة ولأدمجوا حضارة العرب فيهم وكثروا سوادهم فأتوا بمدينة جديدة توحدت فيها جميع عناصر السلطنة.

يعطوها للغة. انهم في الظاهر يجعلونها عنصراً بارزاً من عناصر تكوين « الأمة » بالمعنى القومي، ولكنهم في الواقع لا يهتمون بدراستها وفهمها كما يهتم المسلم لان ارتباط المسلم بها ارتباط ديني عقدي فهو يحرص على فهمها والتعمق في أسرارها ليفهم أسرار كتاب الله تعالى، أما الذي لا تربطه باللغة إلا رابطة قومية فربما يكتفي فيها بفهم سطحي ساذج ولا يهمه بعد ذلك ان تكلم بلهجة محلية دارجة في تدبير أموره الخاصة.

ان الإسلام وان كان يجعل الدين المقوم الأول والاخير للأمة إلا أنه قد ربط بين الدين واللغة العربية بعروة وثقى، ومن ثم كان علماؤنا يقولون ان تعلم اللغة العربية من الدين لان فهم الدين متوقف عليها.

والمعروف ان العربية الفصحى تنتشر وتعم بانتشار العلم والثقافة وهذا ما لاحظناه في جيلنا السابق، إلا أن الملاحظ في الجيل الناشىء انه ضعيف في العربية الفصحى رغم كثرة المدارس وانتشار التعليم، كما يلاحظ زحف العامية الدارجة في السنوات الأخيرة على وسائل الاعلام كالاذاعة والتلفزيون وغيرهما وهذه ظاهرة خطيرة لا يجوز السكوت عليها لان السكوت عليها جريمة بالمعنى الديني والقومي أيضاً. ومن ثم فليس هناك مبرر واحد يسمح لهذه الظاهرة بالاستمرار، وعلى العلماء والمفكرين وأصحاب النفوذ ان يبذلوا كل جهدهم لايقاف هذا الزحف العامي على لغة العلم والدين والا تعرضت بلادنا لكارثة كبيرة لا يمكن تلافيها بسهولة.

ان ولاء المسلم أولاً وقبل كل شيء، هو لعقيدته الدينية التي تضمنها كتاب الله وسنة الرسول ﷺ كما ان تاريخه وامجاده هو تاريخ الإسلام خلال العصور.

واذا اردنا اختصاراً أكثر قلنا : ان الإسلام بالنسبة للمسلم عقيدة وعبادة وشريعة وخلق ونظام حياة وثقافة وحضارة وتراث، ولقد كانت اللغة العربية وعاء ذلك كله خلال أربعة عشر قرناً من الزمان، ومن ثم كان ارتباط المسلم بالعربية ارتباطاً لا فكاك منه إذا أراد ان يحقق لنفسه فهماً في دين الله أو أراد أن يضرب في الثقافة الإسلامية بنصيب.

* * *

وهكذا نرى ان كل ما طرح على المسلمين في هذأ العصر باسم « مقومات الأمة » أو « العناصر المكونة لها » لا يقوم على أساس ولا يستند إلى دليل، وقد رجعت إلى معظم ما كتب ـ في هذا الموضوع ـ باقلام من يسمون « المفكرون القوميون » فلم أر إلا كلاماً انشائياً مزخرفاً يعتمد على المغالطة حيناً وعلى التبعية الفكرية للغرب حيناً آخر، كل ذلك بغية قطع هذه الأمة عن جذورها الإسلامية الأصيلة وتحويل خط سيرها في حاضرها ومستقبلها بعيداً عن الإسلام العظيم.

أمّـــة مُسْـلمة

وبنـاء على ما تقدم فقد اختار الله لهذه الأمة اسماً يعبر عن حقيقة ما قامت عليه من عقيدة ودين، فلم يختر لها اسمـاً عرقياً ولا عنصرياً لانه يريدها ان تسير في طريق العقيدة التي تحكم حياتها، ويباعد بينها وبين أسباب التعصب والعداوات التي تمزق وحدتها وتضعها فريسة سهلة أمام عدوها. نعم لقد اختار الله لهذه الأمة ان تكون أمة مسلمة، ومسلمة فقط، ولكن ماذا تعني هذه التسمية وهذا الوصف ؟

انها الصفة الأولى والأخيرة لهذه الأمة والتي غلبت عليها حتى أصبحت علماً، وهي تدل على خضوع هذه الأمة لخالقها وبارئها واستسلامها لشريعته وحكمه وانقيادها له في كل ما أمر ونهى وسيرها على طريقته وهداه واستلهامها لكتابه في كل ما يعرض لها من أمور ومشكلات في خط سيرها الطويل المليء بالأشواك والصعاب والمحفوف بالمخاطر والمهالك.

ومن هنا فهذه التسمية لم تأت عبثاً، والله سبحانه وتعالى هو الذي اختار لنا هذه التسمية : « وجاهدوا في الله حق جهاده، هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج، ملة أبيكم ابراهيم، هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس... » ـ الحج : ٧٨.

وكان وجود هذه الأمة أمنية في ضمير إبراهيم عليه السلام وحلماً يراود خياله وهو غارق في مناجاة ربه يبني البيت ويرفع منه القواعد ليكون هذا البيت مثابة للناس وامناً.

« واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن، قال اني جاعلك للناس إماماً، قال : وممن ذريتي ؟ قال لا ينال عهدي الظالمين. واذ جعلنا البيت مثابة للناس وامناً، واتخذوا من مقام ابراهيم مصلّى، وعهدنا إلى ابراهيم واسماعيل ان طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع والسجود. واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق اهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر، قال ومن كفر فامتعه قليلاً ثم اضطره إلى عذاب النار وبئس المصير. **واذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل : ربنا تقبل منا، إنك أنت السميع العليم. ربنا واجعلنا مُسلمَيْن لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرِنا مناسكنا وتب علينا، إنك أنت التواب الرحيم. ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم** يتلو عليهم آياتك، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، انك انت العزيز الحكيم. ومن يرغب عن ملة ابراهيم إلا من سفه نفسه، ولقد اصطفيناه في الدنيا، وانه في الآخرة لمن الصالحين. اذ قال له ربه اسلم قال اسلمت لرب العالمين. ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب : يا بني ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون. أم كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه : ما تعبدون من بعدي ؟ **قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق** إلهاً واحداً، ونحن له مسلمون » البقرة ١٣٣ وما قبلها.

ومن هنا تبدو اصالة هذه التسمية وعمقها ويبدو هذا التكرار : « ربنا واجعلنا مسلمين لك... ومن ذريتنا أمة مسلمة لك.... اذ قال له ربه اسلم قال اسلمت لرب العالمين... فلا تموتن إلا وانتم مسلمون... قالوا نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون... يبدو هذا التكرار امراً مقصوداً لدلالته الكبرى على صبغة هذه الأمة، « صبغة الله ومن احسن من الله صبغة ». ولا يجوز لهذه الأمة بحال ان تغير هويتها وان تسمي نفسها باسم مستعار يخفي حقيقتها ويشوه شخصيتها ويعرضها للمهانة والأذى بعد ان اختار الله هذه التسمية المطابقة لها تمام الانطباق.

والأمة المسلمة هي التي تقوم الروابط بين أفرادها على أساس العقيدة، والعقيدة وحدها دون سائر الاعتبارات والروابط التي تعارف عليها البشر، ومن ثم يلفت الله ـ سبحانه وتعالى ـ نظر ابراهيم عليه السلام إلى ذلك في قوله تعالى : « قال اني جاعلك للناس إماماً، قال ومن ذريتي ؟ قال : لا ينال عهدي الظالمين »، واذن فالأمر ليس أمر ذرية فقط وانما هو أمر الذرية الصالحة أو الذرية الظالمة، ويبدو أن ابراهيم ـ عليه السلام ـ قد استوعب هذه الفكرة بسرعة فائقة حتى انه ليقول بعد ذلك مباشرة : « واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق اهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر، قال ومن كفر فامتعه قليلاً ثم اضطره إلى عذاب النار ».

وواضح هنا دعاء ابراهيم عليه السلام : « وارزق اهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر »، فقد برزت رابطة العقيدة سافرة قوية في الوقت الذي توارت فيه روابط الأرضِ والتراب. على أن الإسلام يحترم هذه الروابط الأرضية ولا يقلل من شأنها إلا إذا تعارضت مع رابطة العقيدة، ويقول الله تعالى في ذلك : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله »، كما يقول سبحانه : « وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل »، بل انه ليقيم نظام الارث كله على أساس رابطة النسب، ولكن ذلك كله ضمن اطارة رابطة العقيدة كما قدمنا.

أما إذا تعارضت رابطة النسب مع رابطة العقيدة فحينئذ : « لا توارث بين أهل ملتين شتى »، وحينئذ لا تجوز طاعة الوالدين في الشرك : « وان جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما ».

وهذا نوح عليه السلام ينادي ابنه : « ونادى نوح ابنه ـ وكان في معزل ـ يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين، قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء، قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلّا من رحم، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين......، ونادى نوح ربه فقال رب : ان ابني من أهلي وان وعدك الحق وانت احكم الحاكمين. قال يا نوح انه ليس من اهلك انه عمل غير صالح » ـ هود : ٤٦ وما قبلها ـ هكذا انه ليس من اهلك، الذين وعدت بنجاتهم، لقد فرقت بينك وبينه العقيدة حتى لم يعد

هناك اعتبار لصلة القربى بينك وبينه.

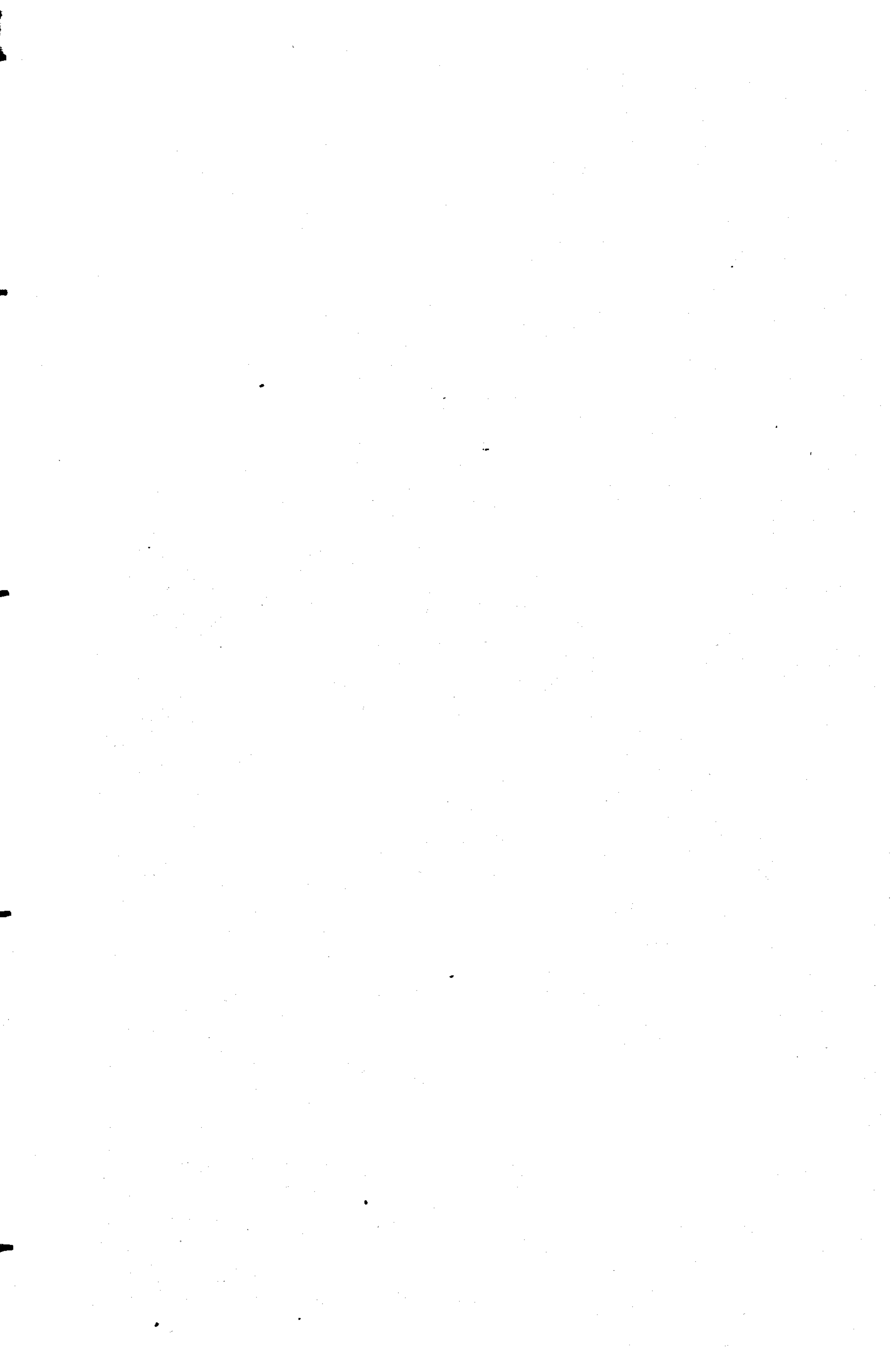
بل هذا هو ابراهيم نفسه ـ عليه السلام ـ يحب ابنه اسماعيل حباً يملك عليه نفسه وجوارحه فيأمره الله تعالى بذبحه فيستجيب لذلك مستسلماً لامر الله ويقدم على ذبح ولده بيده متقرباً في ذلك إلى الله تعالى.

انه أروع مثال عرفه التاريخ في تعارض رابطة العقيدة مع رابطة الدم، بل انه أروع مثال عرفه التاريخ في تغلب رابطة العقيدة على رابطة الدم، بل انه أروع مثال عرفه التاريخ أن يؤمر نبي بذبح ابنه تقرباً لله تعالى وتصحيحاً للقيم والروابط التي ينبغي ان تفيء إلى العقيدة وإلى العقيدة وحدها.

وبعد : هذا هو مفهوم الأمة في لغة العرب وفي القرآن الكريم وعلى هذا المفهوم قامت الأمة المسلمة خلال التاريخ، ولم تعرف الأمة الإسلامية في تاريخها الطويل مفهوماً آخر مغايراً للمفهوم الإسلامي، ولقد عرفنا محاولات المستشرقين في مطلع هذا البحث، والتي تهدف إلي التشكيك في اصالة وعربية هذه الكلمة، بحجة ان لها معان كثيرة لا تجمع بينها صلة اشتقاقية، وقد بينا خطأ ونتائج هذا الاتجاه الاستشراقي بالادلة القاطعة، وانه لم يوقعهم في هذا الخطأ الا حقدهم على هذه الأمة وعلى تراثها وتاريخها.

قيم المجتمع هل هي ثابتة أم قابلة للتغيير ؟

للدكتور احمد عبد الرحمن ابراهيم
أستاذ الثقافة الإسلامية المساعد
بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية



بسم الله الرحمن الرحيم

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمٰن الرحيم.
أحمد الله وأستهديه، وأستعيذ به من فساد الرأي وإملاء الهوى.

أيها الإخوة الأبرار، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد...

فإنه يحسن بنا، قبل بحث الثبات والتغير في قيم المجتمع المسلم، أن نلم بمعنى القيمة في الإسلام، وأن نقف على ضروبها ودرجاتها، وندرس نماذج منها ؛ بعد هذا يصبح بحث الثبات والتغير أيسر، وأقرب إلى التناول والفهم، وهذا هو المخطط الذي أعتزم السير على هداه، وإن خالف عنوان البحث من حيث الترتيب.

تصنف القيم عادة في ثلاثة أنواع رئيسية :

أ) قيم مادية.
ب) قيم أفعال.
جـ) قيم مبادئ، وهي التي تحدد قيم الأفعال.

وبعبارة أخرى، يمكن القول بأن ما له قيمة بالنسبة لحياة الفرد والجماعة لا يخرج عن : أشياء مادية، أو أفعال، أو مبادئ.

وبوسعنا أن نلاحظ داخل هذه الأنواع الثلاثة خمسة أضرب من القيم :

١) المال، وهو القيمة التي تقدر بها الأشياء المادية من النوع الأول.
٢) والمكانة الاجتماعية، وهي مختلطة من النوع الأول والثاني.
٣) والحياة، وتشمل الجسد والمواهب والقدرات العقلية والروحية، من النوع الأول.
٤) والأفعال البشرية، وهي قوام النوع الثاني.
٥) والدين، بما ينطوي عليه من نظم ومبادىء وعقائد، يضم النوع الثالث بين جنبيه.

هذه القيم هي قوام حياة الفرد والمجتمع، وإذا ما أحسن فهمها وتوجيهها، كفلت إشباع حاجات الإنسان، وارتقت به، وحققت له إنسانيته، ومثله العليا، أو في كلمتين اثنتين : سعادة الدنيا والآخرة، أو .سعادة الدارين.

وقيم الأشياء، وكذلك قيم الأفعال محايدة في ذاتها.

إنها لا تعني شيئاً في ذاتها، وهي تكتسب القيمة الإيجابية عندما تستهدف تحقيق الخير للفرد أو الجماعة، أو كليهما، كما أنها تفقد هذه القيمة الإيجابية، وتكتسب قيمة سلبية حين تستهدف إزالة الخيرات والمنافع التي ينعم بها الأفراد والجماعات.

فثمَة شروط أو قيود حسب تعبير الأصوليين هي التي تجعل لطم الغلام مرة ظلماً ومرة تربية، فالشيء المادي ربما يفيد وربما يضر، ربما يتخذ وسيلة إلى النفع أو إلى الضرر، وهذه بدَهية.

والشيء نفسه يقال على الأفعال الإنسانية، فهي من حيث هي محسوسة ليست على حال، يعني لا شر ولا خير.

أما بالنسبة لقيم المبادىء الاجتماعية الإسلامية فالوضع مختلف، فالمبادىء التي تنظم وتهدي الحياة الاجتماعية الإسلامية مبادىء دينية : أي هي جزء من تعاليم القرآن الكريم والسنة المطهرة، وهذه هي وحدها التي توصف في القرآن الكريم بأنها « قيِّمة » ـ أي ذات قيمة.

لقد وردت هذه الصفة في القرآن الكريم عدة مرات محمولة على الدين وحده دون أي شيء آخر، ولهذا ينبغي أن ندرك جيداً أن القيم الحقيقة الجديرة بهذه الصفة الرفيعة، هي المبادئ الدينية، دون الأشياء والأفعال البشرية.

يقول الحق تبارك وتعالى : (ذلك الدين القيِّم، فلا تظلموا فيهن أنفسكم) (التوبة ـ ٩).

ويقول : (إن الحكم إلّا لله، أمر ألا تعبدوا إلّا إياه، ذلك الدين القيِّم) (يوسف ـ ٤٠).

ويقول : (الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب، ولم يجعل له عوجاً. قيّماً لينذر بأساً شديداً من لدنه) (الكهف ـ ١ ـ ٢).

وفسر القرطبي لفظ « القيِّم » بأنه يعني : القائم المستقيم ؛ وفسر الآيتين الأولى والثانية من الكهف فقال : (ولم يجعل لها عوجاً) ـ أي معتدلاً لا اختلاف فيه[1].

وقال عز وجل : (فيها كتب قيِّمة) (البينة ـ ٣). وفسرها القرطبي فقال : « أي مستقيمة مستوية محكمة »، وأضاف : « والكتب هنا بمعنى الأحكام، وقيل : الكتب القيِّمة هي القرآن »[2]، والأحكام هي المبادئ الدينية ؛ والمبادئ الدينية هي المنظمة والهادية للمجتمع الإسلامي وهي ما نسميه هنا قيم المجتمع ؛ هذا هو ما ينبغي أن نفهمه من هذه النصوص القرآنية.

وقيم المجتمع المسلم ـ تبعاً لهذا ـ هي مبادئ مستقيمة مستوية، عادلة منصفة، لا اعوجاج فيها ولا ظلم ولا جور، وهذا يتضمن أن كل مبدأ اجتماعي يعاند قيم المجتمع المسلم أو يناقضها أو يخالفها أو يعطلها هو مبدأ معوج وجائر، ومن ثم يتحتم علينا نحن المسلمين أن نبذل قصارى جهدنا لإزاحة ذلك المبدأ الغريب المعوج، وإفساح المجال لتطبيق القيم

---

(١) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، ١٣٤/٨ ، ٣٤٨/١٠.

(٢) المصدر نفسه ، ١٤٣/٢٠.

مستويات، وإلى أن تبلغ حد الإيثار، الذي يعني البذل والعطاء مع حاجة الباذل إلى ما يبذل والمعطي إلى ما يعطي، ولو وقف الناس عند حدود العدل لما عرفت المجتمعات الإنسانية معنى القيم العليا أو معنى الإيثار والتضحية بكل ما هو مرتخص وغال، فالإنفاق يتجاوز العدل لأنه عطاء لا يحتمه العدل، والعفو تنازل عن حق يعطيه لنا العدل، والوفاء للصديق تجاوز للعدل لأنه عطاء بلا مقابل، والرحمة تجاوز للعدل لأنها تعني البذل بكل ضروبه من أجل مشاركة الآخرين تحمل أعمالهم وتخفيف العذاب وكشفه عنهم.

كل قيم المجتمع العليا تخرج عن نطاق العدل المجرد وتتجاوزه صُعداً إلى آفاق أرفع.

والعدل هو الذي يجب أن يحكم التشريع، لا العكس، وهذه حقيقة أخرى بالغة الأهمية.

ولهذا لم تكن المشروعية، بالمعنى الوضعي البشري، مساوية للعدل، وكثير من القوانين الوضعية ظالم جائر، ولا مسوغ له إلّا مصالح واضعيه، سواء كانوا إقطاعيين أو بورجوازيين أو اشتراكيين.

الشرعية الإسلامية هي التي تساوي العدل، لأن المشرع فيها ليس حاكماً أو هيئة أو طبقة تسعى لفرض مصالحها، وإنما هو الله عز وجل.

ومرة أخرى نجد الفرق شاسعاً بين قيمة العدل في فلسفة أفلاطون وأرسطو، وفي الإسلام. إن أفلاطون يوحد بين العدل والمشروعية، « حتى لو كانت القوانين قدوضعت لتحقيق مآرب طبقة الحكام »[1]. ومعنى هذا أنه يجيز الظلم القانوني، أو القوانين الظالمة، فأفلاطون يحترم القانون حتى لو كان ظالماً، بينما الإسلام لا يعترف بالقانون إلّا إذا كان عادلاً، وأما القوانين الظالمة فالإسلام ينكرها بشدة ويوجب على أبنائه مقاومتها وإحباطها.

وهذا فرق شاسع دون ريب.

ويقول أرسطو بالشيء نفسه تقريباً، فهو يرى أن « العمل العادل هو

---

(١) محاورات أفلاطون، ص ١٣٧ ــ ١٤٢.

الإسلامية والمبادىء الإسلامية، وصولاً إلى رفعة المجتمع المسلم وسعادته.

وهذه هي قضية القضايا اليوم، وهي قضية الشباب الإسلامي بالذات.

ذلك أن قوى الغزو الثقافي، من تنصير واستعمار وصهيونية واستشراق وإلحاد، قد أفلحت في إخضاع مجتمعاتنا الإسلامية لقيم نصرانية وإلحادية، فألفناها، وعطلت القيم الإسلامية، فجهلناها ونبذناها وراءنا ظهرياً، والأمل في الشباب قبل غيرهم ـ فهم قد جاؤوا إلى الحياة وأصداء اليقظة الإسلامية تتردد من حولهم، فلم يألفوا القيم الغربية، ولم يجهلوا قيم المجتمع المسلم. والسبيل أمام الشباب واضحة، عليهم أن يدرسوا الإسلام ويفهموه ويطبقوه ويدعوا غيرهم إليه، مقتدين بصاحب الدعوة وقائدها عليه الصلاة والسلام.

ونحن لن نفصل القول في تعداد قيم الأشياء المادية، فهي لا تحصى : (وإن تعدو نعمة الله لا تحصوها)، وبصفة عامة كل ما خلق الله في الأرض من أشياء هي لنا، (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً) (البقرة ـ ٢٩).فقيم الأشياء المادية ليست موضوعنا، وإنما كان ذكرها هنا من أجل اكتمال التصنيف وإدراك أبعاده.

إن ما نركز عليه هنا، ضارعين إلى الله أن يهدينا إلى فهمه وبيانه، هو قيم المبادىء الاجتماعية، خصوصاً تلك التي تمس أخطر قضايانا الاجتماعية المعاصرة ويحتدم حولها الجدل والنقاش، والتي بسببها سقطت نظم وانهارت مجتمعات، وشقيت أمم وتخبطت مذاهب ونظريات وفلسفات ؛ وهذا هو بالتحديد ما يتضمنه عنوان هذا البحث.

فإذا وفقنا إلى فهم قيم المبادىء الاجتماعية، أمكننا حل مشكلة من أعقد المشاكل وأبعدها أثراً في الحياة الاجتماعية، وأعني بها مشكلة تقويم أو وزن، الأفعال، والأقوال، والنظم السياسية، والاجتماعية، والتربوية، بما في ذلك أفعالنا وأقوالنا ونظمنا الإسلامية.

إنك لا تستطيع بحال أن تتخذ موقفاً مؤيداً أو مناهضاً لتقليد اجتماعي معين أو عادة فردية معينة، إلّا إذا ملكت في يدك القيمة الاجتماعية أو المبدأ، أو الميزان الإسلامي الذي يكشف لك حقيقة قيمة هذه العادة أو ذلك التقليد.

ومعنى هذا أن الجهل بالقيمة يشل العمل، ويدفع بالإنسان إلى السلبية، أو إلى الحيرة والتخبط، ويتضاعف الخطر عندما يكون موضوع التقويم مذهباً اجتماعياً أو نظاماً سياسياً أو مذهباً فلسفياً. فلنحاول إذاً أن نعرف بعض القيم الاجتماعية الإسلامية في أصولها القرآنية والحديثة.

وقد انتخبت القيم التالية موضوعاً لهذا البحث :

١) العــــدل.

٢) والانفـاق الخير.

٣) والصـــدق.

وسوف نرى مسوغات هذا الانتخاب خلال **البحث**.

ومع هذا فإنني أجد من المفيد أن أشير إلى تلك المسوغات هنا في هذا التمهيد.

فالعدل قضية اجتماعية بالغة الحيوية.

وجهاد الشباب يجب أن يتجه إلى رفع الظلم الاجتماعي الذي أرهق الجماهير الإسلامية في بقاع عديدة من عالمنا الإسلامي المعاصر.

لا بد أن ندرك جميعاً، والشباب على وجه الخصوص، معنى العدل في الإسلام وسموه البعيد إذا ما قورن بأي مذهب فلسفي أو اجتماعي، ولا بد أن نقف جميعاً، والشباب خاصة، على الوجوب المطلق الذي يعطيه ديننا للعدالة، وعلى الإدانة المنكرة التي يصم بها كل ألوان الجور والظلم.

وفي هذا كله عصمة لنا من مزالق الدعايات الشيوعية الزائفة التي تصور للناس أنها هي وحدها التي تضمن رفع الظلم الاجتماعي وإرساء العدالة على أساس وطيد.

أما الانفاق الخير بضروبه المختلفة، ابتداء بالزكاة وانتهاء بالإيثار عند القيمة السامقة، فهو الرد الإسلامي على الأنانيـة القاتلـة التـي تفتـرس المجتمعات غير الإسلامية، أوربية وغير أوربية.

فالإسلام لا يقف عند حدود العدل، كما تقف الشيوعية مثلاً، لكنه يرتفع بالمسلم صُعداً إلى آفاق أسمى.

وهذه القيمة الاجتماعية الإسلامية النبيلة هي إحدى الضمانات الكبرى لسعادة المجتمع وتكافله وتكامله وتآزره.

ويجب علينا جميعاً، والشباب على وجه الخصوص، أن ندرب أنفسنا على ممارستها، حتى يجني مجتمعنا ثمارها الثرة الوفيرة، وحتى لا نقف عند مجرد التشدق الأجوف بالحديث عنها.

وأما الصدق فهو صوان المعرفة والحق.

وهذان هما أساس كل حياة اجتماعية راقية متحضرة.

ومجتمع اليوم يواجه سيلاً من الأكاذيب والأباطيل يغطي وجه الكتب والمجلات والصحف والإذاعات والتلفاز، ويحجب الحقيقة وراء دخانه الأسود الكثيف.

كيف يقف الإسلام من هذه الأضاليل ؟

كيف يدين النفاق والبهتان ؟

وكيف يوجب الصدق ؟

وما موقفه من ضرورة تصديق الصدق والجهاد لبلوغ الصدق ودعمه والعمل به ؟

كيف يواجه شبابنا المسلم هذه الأكاذيب ؟

وما قيمة تصديق الصدق وتكذيب الكذب بالنسبة لاستقامة المجتمع الإسلامي وازدهاره وتقدمه ؟

هذه كلها أسئلة حيوية هامة ومطروحة، ولا بد من الإجابة عنها.

أيها الأخوة الأبرار :

هذه إشارة مقتضبة لمسوغات اختياري لهذه القيم الاجتماعية من بين قيم أخرى عديدة يجب بحثها أيضاً، فقد كانت أمامي قائمة لقيم المجتمع المسلم يغطي استقصاؤها كتاباً كاملاً.

فلم أجد مفراً من الاختيار الذي أرجو أن أكون قد وفقت فيه.

* * *

أولاً : العَــدْل

أيهــا الأخوة الكرام، لقد اخترت أن أبدأ هذا البحث بقيمة العدل، فلمــــاذا ؟

إن العدل أخطر قيم المجتمع على الإطلاق، وأبعدها حيوية وأهمية. والإسلام لا يعد المجتمع صالحاً إلّا إذا خضع لقيمة العدل وتبناها، أما مجتمع الظلم فليس بمجتمع صالح، والإسلام يحرص على تغييره وتخليصه من الظلم والظالمين ؛ والسنة الشريفة تتوعد الذين يسكتون على الظلم والظالمين أشد العذاب.

قال النبي ﷺ : « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله تعالى بعذاب منه »[1].

والمقصود بالمجتمع العادل هو أن تخضع أمور الناس لنظم الإسلام ومعاييره العادلة.

والعدل في الإسلام هو : أن ينال كل امرىء ثمرة عمله، وأن يتحمل كل امرىء تبعة خطئه ؛ والظلم تبعاً لهذا هو : أن يغتصب امرؤ ثمرة عمل غيره، أو أن يحتال لإلقاء تبعة خطئه على الآخرين.

وإن أردنا ترجمة هذا التصور بلغة الشعارات قلنا : خذ ثمرة جهدك، واحمل تبعة خطئك. ولو وفق الشباب إلى فهم هذه القيمة وتطبيقها لاستطاع بذلك أن يدحض الشعارات الشيوعية الزائفة، التي تدغدغ عواطف الجماهير الفقيرة الكادحة، بألفاظها الطلية وليس وراءها في الواقع إلّا سراب خادع.

من أين لنا بهذا التصور لقيمة العدل الاجتماعي في الإسلام ؟.

ليس من تراث الفلسفة والكلام، فليس في هذين كبير عناء، وإنما من الكتاب العزيز، يقول الحق تبارك وتعالى : (ألّا تزر وازرة وزر أخرى، وأن ليس للإنسان إلّا ما سعى) (النجم ٣٨ ، ٣٩)، ويقول أيضاً : (ولا تزر وازرة

---

(١) رواه أبو داود والترمذي والنسائي (انظر : الآداب الشرعية ؛ ١٩٢/١ ـ ١٩٣).

وزر أخرى، وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يُحمل منه شيء، ولو كان ذا قربى) (فاطر ـ ١٨).

هذا هو سندنا فيما أوردناه من تصور لقيمة العدل الإسلامي، نسأل الله الصواب، ونستغفره ونتوب إليه من سوء الفهم والرأي.

بهذه القيمة المحددة الواضحة يواجه الإسلام أخطر قضايا المجتمعات الصناعية العصرية، وهي قضية الظلم الاجتماعي الذي تصطلي بناره الجماهير الإسلامية في بقاع واسعة من عالمنا الإسلامي، ويشغل قلوب الشباب وعقولهم.

وأقول أخطر قضايا المجتمعات المعاصرة لأن صواب قيمة العدل الإسلامية واستقامتها وأحكامها يفضي حتماً إلى إنقاذ قيم اجتماعية أخرى عديدة وأساسية، فالأمن ـ مثلاً ـ مرهون بالعدل، وها هي الاضطرابات الدامية تندلع هنا وهناك، فإذا أمعنت النظر في علتها وجدت الظلم والجور قبل أي شيء آخر، واختلال الأمن يهدد كل القيم، يهدد الحياة والعرض والمال والدين، وفي هذا قال بعض الحكماء : « الأمن أهنأ عيش، والعدل أقوى جيش، لأن الخوف يقبض الناس عن مصالحهم ويحجزهم عن تصرفهم، ويكفهم عن أسباب المواد التي بها قوام أودهم وانتظام جملتهم »[1]، هذا قول صحيح إلى حد بعيد.

وفي القرآن والسنة التوكيد على حيوية وأهمية قيمة العدل بما لا يدع أدنى ريب. في القرآن والسنة أمر بالعدل، ونهى عن الظلم، وتوعد شديد للظالمين، وتحريم مساندتهم، وحض على مقاومتهم، وحث قوي على نصرة المظلوم.

وفوق هذا كله يقرر القرآن الكريم أن إقامة العدل بين الناس هي هدف الرسل والرسالات السماوية، يقول عزّ وجل : (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان، ليقوم الناس بالقسط) (الحديد ـ ٢٥)، إنه ولا ريب ليس الهدف الوحيد، ولكنه أحد الأهداف الكبرى للرسل والرسالات.

---

(١) الماوردي ، أدب الدنيا والدين ، ص ١٢٢.

أما الأمر بالعدل فجاء في آيات عديدة نذكر منها قوله تعالى[1] :

أ) (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى.......) (النمل ٩٠).

ب) (قل : أمر ربي بالقسط.......) (الأعراف ـ ٢٩).

جـ) (وإذا حكمت فاحكم بينهم بالقسط، إن الله يحب المقسطين) (المائدة ٤٢).

د) (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط.....) (النساء ١٣٥).

ونهى الإسلام عن الظلم والجور بشدة، قال تعالى :

أ) (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي) (النحل ـ ٩٠).

ب) (ومن يظلم منكم نذقه عذاباً كبيراً) (الفرقان ـ ١٩).

جـ) (إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق، أولئك لهم عذاب أليم) (الشورى ـ ٤٢).

وفي الحديث القدسي : (ياعبادي، إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته محرماً بينكم، فلا تظالموا)[2].

وقال الرسول صلوات الله وسلامه عليه : (يكون في آخر أمتي مسخ وقذف وخسف ويبدأ بأهل المظالم)[3]، وأدان عليه السلام أعوان الظالمين حتى أخرجهم من الإسلام، فقال : (من مشى مع ظالم ليعينه ـ وهو يعلم أنه ظالم ـ فقد خرج من الإسلام)[4].

ويقول ابن تيمية : (إن الله عز وجل ينتصف من العباد، ويقضي بينهم بالعدل وأن القضاء بينهم بغير العدل ظلم يتنزه الله عنه، وأنه لا يحمل على أحد ذنب غيره)[5].

---

(١) وأيضاً : (النساء ٣، ١٢٩) + (المائدة ٨) + (الأنعام ٧٠ ، ١٥٢) + (النحل ٧٦)، وغيرها.

(٢) البخاري، الأدب المفرد، باب ٢٢٥.

(٣) البزاز، والطبراني في الأوسط.

(٤) حديث صحيح، رواه الطبراني في الكبير.

(٥) منهاج السنة النبوية، ص ٣٣/١.

هذا التقدير الكامل لقيمة العدل، والإدانة الشديدة للظلم، هما اللذان يفسران لنا عدل الفاروق رضي الله عنه، إلى الحد الذي لا يمكن أن يتخيله المنظرون الاجتماعيون المعاصرون، وهما اللذان يفسران هروب فقهاء المسلمين من مناصب القضاء، حتى بلغ الأمر بالولاة الاضطرار إلى سجن وضرب بعض العلماء لحملهم على قبول منصب القضاء[1]، فالمنصور العباسي حبس الإمام أبا حنيفة، رحمه الله، وضربه بالسياط بسبب إصراره على رفض منصب القضاء[2]، وقصة المنصور مع أبي حنيفة ليست الوحيدة في هذا الباب[3].

وبسبب الحيوية البالغة لقيمة العدل أوجب الإسلام التضحية بأية قيمة أخرى تتعارض مع مقتضياتها في أي موقف من مواقف الحياة الاجتماعية.

يقول الحق تبارك وتعالى : (وإذا قلتم فاعدلوا، ولو كان ذا قربى) (الأنعام ١٥٢)، ومعنى هذا أن قيمة العدل مقدمة على قيمة الرحم وصلة الرحم، فلو أن العدل اقتضى تضييع أية قيمة على ذي رحم، فإن الإسلام يوجب الالتزام بالعدل وتضييع تلك القيمة.

بل إن العدل مقدم على بر الوالدين.

يقول الحق سبحانه : (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء، ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين) (النساء ١٣٥).

وقال عليه الصلاة والسلام : (أعن أخاك ظالماً أو مظلوماً، إن كان مظلوماً فخذ له بحقه، وإن كان ظالماً فخذ له من نفسه)[4].

وقال ابن حزم : (إذا رأى المسلم أباه الباغي، أو ذا رحمه كذلك، يريد ظلم مسلم أو ذمي، فَفَرْض عليه منعه من ذلك، بكل ما لا يقدر على منعه إلّا به، من قتال أو قتل، فما دون ذلك)[5].

---

(١) الذهبي، كتاب الكبائر ص ١٣٠ + عبد الحليم الجندي، الإمام الشافعي ص ٢٢٤.
(٢) أبو زهرة، أبو حنيفة، ص ٤٦ ــ ٥٠.
(٣) آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ص ٣٦٠.
(٤) رواه البخاري.
(٥) المحلى، ٨٩/١١.

هذه المكانة العظمى لقيمة العدل في المجتمع الإسلامي تمثل ثورة تقدمية اجتماعية وأخلاقية، وقفزة هائلة يسمو بها فوق جميع النظم الاجتماعية المعاصرة، فالعدل هنا قيمة مطلقة صارمة، لا تسمح بأي عبث، ولا أحد يستثنى من قيودها الصارمة، لا صغير ولا كبير، ولا مسلم ولا كافر، ولا رئيس حزب أو عضو لجنة مركزية، ولا سيناتور ولا نائب، ولا عضو مجلس ثورة، ولا غيره ؛ وكذلك ظلاله تمتد لتشمل كل هؤلاء، بلا استثناء، وبلا تفرقة ثقافية أو عرفية.

فهل يملك العالم المعاصر قيمة اجتماعية إنسانية بهذا السمو وهذه الرفعة ؟.

ونمضي إلى اكتشاف جانب آخر من هذه القيمة الاجتماعية العظمى فنجد أنها في الإسلام قيمة شاملة، بمعنى أنها مبدأ ينبغي التقيد به بصرامة من جانب الإمام والوزير، والرئيس والمرؤوس، والأب والابن، والقاضي والشاهد، والبائع والمشتري، وكل من يأخذ ويعطي، يثيب ويعاقب، بصرف النظر عن مقدار ما يأخذ أو يعطي، كل فرد في المجتمع يجب أن يحترم شعار : خذ ثمرة عملك، ودع لغيرك ثمرة عمله، احمل تبعة خطئك، ودع غيرك يحمل تبعة خطئه.

هذا أدنى مستوى مقبول من أي فرد في المجتمع، وهناك مستوى آخر أسمى لا بد من الارتفاع إلى مشارفه على أقل تقدير، وإلّا أدين المسلم بالهبوط الأخلاقي وذلك هو موضوع القيم الأخرى التي سنتكلم فيها هنا.

ولبيان هذه الحقيقة الأخيرة نقارن قيمة العدل بقيمة الإنفاق الخير، (الزكاة، والصدقات، والكرم، والإيثار).

إن الإنفاق بذل للآخرين من ثمرة عملنا، من أقوالنا أو جهودنا أو تفكيرنا، دون أن يقتضي العدل ذلك بطبيعة الحال، ولهذا كانت قيم الإنفاق معبرة عن مبدأ الغيرية، أو مبدأ الإيثار، الذي يحتمه الإسلام لإصلاح أي خلل قد ينتج عن تطبيق العدل المجرد.

إن ثمرة جهد فرد في الجماعة ربما تجاوزت حاجاته، وربما قصرت

ثمرة جهد فرد آخر عن هذه الحاجات. وربما وصل التفاوت إلى درجات تفوق الخيال، فهناك المليونير والبليونير، وهناك البؤساء الجياع المطحونين، والإسلام لا يريد للمجتمع المسلم أن يتخذ مثل هذه الصور الطبقية، مع أنه يعترف بالفروق والتفاضل بين الأفراد. فلا بد إذاً من قيم أخرى تكمل العدل، وتحقق الإيثار والغيرية، وتضمن التعاطف والتكامل والتماسك الاجتماعي، وهذه القيم الأخرى هي التي انتخبنا بعضها لدراسته ضمن هذا البحث، وفي الجزء التالي مباشرة.

لكننا نجد من الضروري أن نقف قليلاً ها هنا، قبل الشروع في دراسة القيم الأخرى، كي نقارن نظرة الإسلام إلى قيم المجتمع، بنظرة الفلسفة اليونانية إليه، فإن لذلك مغزاه ودلالته.

لقد رأى أفلاطون أن العدل ينطوي على معظم القيم الاجتماعية، وتساءل : (أليس مرجع كل ذلك أن كل قوة من قوى نفسه الداخلية « أي الإنسان » تلتزم عملها الخاص باعتبار العلاقات المتبادلة بين الحاكم والمحكوم ؟)[1].

وقال أرسطو إن العدل هو : (الفضيلة كل الفضيلة)[2].

وجرياً وراء أرسطو قرر الغزالي أن العدل : (هو عبارة عن جملة الفضائل)[3].

لكن العدل في الإسلام مجرد قيمة أساسية، تحكم التشريعات الاجتماعية، وتحدد المستوى الأدنى الذي يتحتم على كل مسلم أن لا يتدنى إلى ما دونه، لأن ما دون العدل هو الجور، والجور محرم مطلقاً في مجتمع الإسلام وشرعته.

ومن الجلي أن نظرة الإسلام هي الأسمى، بمعيار العقل المجرد، فقيم المجتمع العليا كلها، وبلا استثناء، تتجاوز حدود العدل إلى ما فوقه من

---

(١) الجمهورية، ترجمة خباز، ك ٤ ـ ص ١٤٢ ـ ١٤٣.

(٢) الأخلاق، ك ٥ ب ١ ف ١٩.

(٣) ميزان العمل، ص ٢٧٢.

الذي يطابق القانون والمساواة، والعمل الظالم هو اللاقانوني وغير المطابق للمساواة »[1]، فالعدل في النهاية هو العمل بالقوانين الوضعية.

وليس هذا هو العدل الإسلامي الذي يراد له أن يحكم أساس التشريعات في المجتمع البشري، إن القوانين الوضعية ظالمة، ولا تحقق إلّا مصالح واضعيها، وقد أدرك الفلاسفة المعاصرون هذه الحقيقة فنادوا بنبذ كل قانون، قالوا : « هل يجب أن نفرض القوانين على الناس فرضاً لا لشيء إلّا لأنها صيغت على هذا النحو، ولأن نفراً من الناس قد أقرَّ صوابها، وهي ليست بالصواب ؟ »[2]. وقالوا أيضاً : « لا ينبغي أن تعلّموا الناشئة احترام القوانين بقدر ما يجب أن تعلموهم احترام الحق »[3].

وهذا رفض للنظرية الفلسفية اليونانية، واتجاه نحو قيمة العدل الإسلامية، ولا أقول اتفاقاً أو تطابقاً، لأن ثمة فروقاً عديدة، والمهم هنا هو ملاحظة ضعف القناعة بالمشرع الإنساني ومنطقه، فهو إنسان، ولا بد أن يعبر عن مصلحته الشخصية أو مصالح طبقته أو حتى وطنه على حساب الحق العادل، فللآخرين الحق في رفض هذه التشريعات وانتهاكها ووضع غيرها مكانها. أما العدل الإسلامي فيستند إلى الوحي وإلى العقيدة الدينية، ومن ثم يتمتع بالثقة الكاملة والقبول الحسن والاحترام العظيم.

ولا يفوتنا هنا أن نبين أن التشريع الإلهي هو وحده الذي يكفل الكرامة للإنسانية، لأن خضوع الإنسان لتشريعات إنسان آخر عبودية، سواء كان فرداً أو هيئة، أما الخضوع لشرع الله فكرامة حقيقية، لأن الجميع في ذلك سواء الإمام والوزير مثل أصغر فرد في الأمة في الخضوع للشرع ووجوب طاعته.

ولقد ذكر أرسطو، وكثير من رجال الفلسفة والاجتماع والقانون والمحدثين، أن العدل هو المساواة، وتابع أرسطو في ذلك عدد من

---

(١) الأخلاق، ك ٥ ب ١ ف ٨.

(٢) د. زكي نجيب محمود، حياة الفكر في العالم الجديد، ص ٨٤.

(٣) نفسه.

المفكرين المسلمين[1]، فهل العدل مساواة حقاً ؟.

الحق أن العدل مساواة بين المتساوين، كما أنه لا مساواة بين اللامتساوين، فإذا تساوى اثنان في جهد كانت الثمرة متكافئة متساوية، ولقد كان المجاهدون متساوين في أنصبتهم من الغنائم، كما أن الأخوة متساوون في الميراث لتساويهم في الصفة (البنوة).

حقاً إن الإسلام يغفل الفروق العنصرية في تطبيق قيمة العدل على المجتمع، لكنه لا يغفل الفروق الناشئة عن الجهد الفردي الحر. قال تعالى : (فَضَّلَ الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة) (النساء ـ ٩٥). ولقد كان نصيب الفارس أكبر من نصيب الراجل، لأن الأول يقدم جهده وجهد فرسه، بينما الآخر يقدم جهده هو فقط.

وهذا هو العدل الحق في ضوء العقل والبداهة والتجربة، وأما المساواة المطلقة فظلم صراح، لأنها تسوي بين العامل والخامل، فتقتل في الأول روح المبادرة والجهاد، وتنمي في الآخر عوامل التراخي والتنطع والكسل، وقد ظهرت هذه الحقيقة بوضوح في النظم الشيوعية والاشتراكية، فتدنى الإنتاج إلى أدنى معدلاته، وماتت روح المبادرة والإبداع، وفترت الهمم وخارت العزائم، وأخذ المنظرون الشيوعيون يكدون عقولهم بحثاً عن حوافز للعمل، بعد أن قتلوا كل حافز فعال بحكم الطبع والجبلة، بنظريتهم المعاندة للحق الإلهي والعدل الإلهي ـ نظرية المساواة ـ وهكذا انتقم الحق لنفسه، وسوف ينتقم حتى يفوز في النهاية، وينهار المجتمع الشيوعي الذي قام على أساس إغفال الفرق في الجهد والتمسك بوهم المساواة العمياء باعتبارها تمثل قيمة العدل الاجتماعي على الحقيقة.

ولعل هذا يكفي للبرهنة على استقامة وإحكام وصحة قيمة العدل في الإسلام، غير أننا لا بد أن نضيف حقيقة أخرى، هي خلو قيمة العدل الإسلامية من جميع ألوان التفرقة الثقافية والعنصرية، فليس العدل الإسلامي لجنس معين، أو أهل دين معين دون غيرهم. العدل في المجتمع المسلم

---

(١) أحمد بن مسكويه : الهوامل والشوامل، ص ٨٤ + الراغب الأصفهاني : الذريعة ص ١٤٥.

واجب على المسلم في تعامله مع الجميع، مسلمين وأهل كتاب ومشركين أيضاً. يقول ابن تيمية : « إن العدل واجب لكل أحد، على كل أحد، والظلم محرم مطلقاً، لا يباح قط بحال »[1]، وجاء في تفسير المنار أن المساواة في العدل : « بين المؤمن والكافر، والبر والفاجر، والغني والفقير، والقريب والغريب »[2].

وهذا ليس مجرد رأي لابن تيمية أو نظرية لرشيد رضا، وإنما هو تعليم قرآني محض.

يقول الله تبارك وتعالى : (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله، شهداء بالقسط، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألّا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى..........) (المائدة ـ ٨). **فالقرآن يأمر بالتزام العدل إزاء كفار مكة** الذين ارتكبوا ضد النبي والمسلمين أفظع الجرائم وأبشعها، ولم يعرفوا معهم غير الظلم الفاحش والجور الفادح.

ويقول عزّ وجل : (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين، ولم يخرجوكم من دياركم، أن تبروهم، وتقسطوا إليهم، إن الله يحب المقسطين) (الممتحنة ـ ٨) هنا، القرآن يوضح أنه لا ينهى المسلم عن بر غير المسلمين ـ والبر درجات فوق العدل المجرد، طالما هم مسالمون غير معتدين، وبيّن أن الله يحب لهم أن يكونوا عادلين مقسطين معهم.

وليست هذه شعارات يتشدق بها المسلمون، دون أن تعرف طريقها إلى المجتمع المسلم.

فقد سجل التاريخ أن النبي ﷺ قد قتل مسلماً بذمي[3]، وأمكن الفاروق رضي الله عنه غلاماً قبطياً من أن يصفع ابن حاكم مصر ـ عمرو بن العاص ـ قصاصاً لنفسه، وقال الفاروق قولته الحاسمة : « منذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » ؟

---

(١) منهاج السنة النبوية، ٣/٣١.

(٢) تفسير المنار، ٩/٥٧٢.

(٣) روح المعاني، جـ ٦/١٤٨.

فعدل المسلمين ليس للمسلمين وحدهم، ولا للعرب دون غيرهم، ولكنه واجب لكل إنسان يستظل بالمجتمع المسلم، بصرف النظر عن جنسه ولونه وعقيدته الدينية.

وهذه هي القمة السامقة التي يتطلع إليها علماء الاجتماع والسياسة والفلسفة كهدف بعيد ورفيع للتقدم البشري، وقبل الإسلام لم يسمع أحد بشيء من هذا، لم يعرف اليهود هذا ولا عرفه فلاسفة اليونان وحكماء الهند ورهبان النصرانية، ولا حتى منظرو الثورة الفرنسية، وبعد الإسلام بثلاثة عشر قرناً من الزمان بدأت المجتمعات غير الإسلامية تسمع عن مثل هذه القيمة الإسلامية، مجرد كلام يتشدقون به، أما إذا ملكوا، كما ملكت فرنسا وبريطانيا وروسيا وأمريكا (في الجزائر والهند الصينية والهند ومصر ودول البلقان والعالم الجديد)، فليس لديهم غير الظلم والاستغلال والنهب لثروات الشعوب الملونة.

مثلاً في الثقافة الهندية تحكم المجتمع قيم عنصرية متخلفة في عنصريتها، فطبقاً لقانون « منو »، المجتمع خمس طبقات أعلاها البراهمة وأدناها الـ « جندال » ـ وينص قانون « منو » على أنه : (إذا مد أحد من المنبوذين إلى برهمي يداً أو عصاً ليبطش به، قطعت يده، وإذا همَّ أحد من المنبوذين أن يجالس برهمياً كويَ ظهره ونفي من البلاد، وإذا مسه بيد أو سبه يقتلع لسانه، وإذا ادعى أنه يعلمه سقي زيتاً فائراً، وكفارة قتل الكلب والقطة والضفدعة والوز والغراب والبومة ورجل من الطبقة المنبوذة سواء)[1]. فهل ثمة أبعد من هذا الظلم الاجتماعي ظلماً وجوراً ؟، مثل آخر جاء في التلمود، (إن اليهود يفضلون الأمميين، كما يفضل الإنسان البهيمة........)[2].

وأوروبا الحديثة والمعاصرة وقعت فريسة العنصرية أيضاً، وبذلك خلقت مبرراً للظلم والجور في معاملة الأجناس الأخرى، ووضعت إسفيناً في قلب المجتمعات المختلطة، كإسرائيل وجنوب أفريقيا والولايات المتحدة،

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص ٥١.
(٢) البروتوكولات، ص ٥٠.

بحيث يصعب جداً بلوغ الاستقرار والوئام الإجتماعيين، لأن التفرقة ظلم فادح، ولا استقرار ولا أمن مع الظلم الاجتماعي « المشروع »، وكان المبشرون بالعنصرية بين شعوب أوروبا عديدين نذكر منهم : جوزيف آرثر J. Arthur، والكونت دي جوبينو Conte de Jobineau، وهاوستن ستيوارت H. Stuart، ورديارد كبلنج Rudyard Kipling، وألفريد روزنبرج Alfred Rosenberg، وأدولف هتلر وغيرهم[1].

هذه النزعة العنصرية الظالمة مرفوضة في الإسلام رفضاً قاطعاً، لأنها متخلفة وخاطئة وظالمة في آن. الإسلام لا يعرف مجتمع التفرقة أو التمييز، لا في العدل ولا في أية قيمة اجتماعية أخرى.

وهذا هو أبلغ رد على ادعاء الذين يعارضون تطبيق الشريعة الإسلامية بحجة التخوف على غير المسلمين، وحقيقة أمرهم أنهم لا يعرفون شيئاً عن قيم الإسلام غير ما لقنه لهم أساتذتهم المغرضون من المستشرقين الغربيين، أو المستغربين الشرقيين.

---

(١) انظر : دائرة المعارف البريطانية، مادة Racism.

ثانياً : الإنفـــاق

أيهـا الأخـــوة،

الإسلام لا يعرف الجور، ولا يقر الظلم، ويدفع بأبنائه إلى قتال الظالمين دون تردد أو وجل.

وفي الوقت نفسه، لا يقف الإسلام بالمجتمع المسلم عند حدود العدل المجرد، وإنما يفرض أن يرتفع إلى آفاق أرفع، تحاشياً لأية إفرازات سلبية ربما تنتج عن التزام العدل وحده. فتصيب المجتمع بخلل صغير أو عظيم.

شعار العدل كما ذكرت هو : خذ ثمرة جهدك، ودع للآخرين ثمار عملهم.

وهذا لا يكفي لصلاح المجتمع المسلم، لأنك إن تأملت هذا المعنى أو هذا الشعار أدركت أنه يخلو من كل إشارة إلى مبادئ الإيثار والتضحية التي لا غناء عنها في بناء المجتمع المسلم المتكافل المتضامن المتآخي المتراحم، شعار العدل لا يطالب بالتفكير في غيرنا، في جيراننا، في مواطنينا، في أمتنا ككل، إنه فقط يمنعنا من العدوان على الآخرين، يمنعنا من ظلمهم، أي اغتصاب ثمار أعمالهم، كما يمنعنا من إلقاء تبعات أخطائنا على كاهلهم.

وليس هذا هو الموقف الاجتماعي المثالي للمرء المسلم.

ربما يصلح هذا الموقف لمواطن في مجتمع براجماتي أو نفعي فردي أناني، ينظر إلى الغيرية أو الإيثار على أنها قاعدة مشئومة[1]، لكنه لا يصلح لامرئ مسلم يؤمن بقوله تعالى : (....... حريص عليكم، بالمؤمنين رؤوف رحيم) (التوبة ١٢٨).

---

(١) د. توفيق الطويل، مذهب المنفعة العامة، ص ٢٢.

روى الإمام أحمد في كتاب الزهد أن النبي ﷺ حدث أصحابه يوماً فقال : « إن الله عز وجل رحيم، لا يضع رحمته إلّا على رحيم، ولا يدخل الجنة إلّا رحيماً. قالوا يا رسول الله، إنا لنرحم أموالنا وأهلينا. قال : ليس ذلك، ولكن ما قال الله عز وجل : (حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم).

فالرسول ﷺ يعلم صحابته رضوان الله عليهم أن الرحمة الإسلامية الحقة ليست اقتصار رحمة المرء المسلم بنفسه وماله وأهله، وإنما هي الرحمة الواسعة التي تمتد إلى سائر الناس، وهذا معناه، بعبارة أخرى، أن الأنانية، أي العمل للمصلحة الذاتية فقط، ليست كافية، وأن العمل الجدير بالقيمة الحقيقية هو ذلك الذي يمتد إلى تحقيق مصالح الآخرين وسعادتهم، فالشعار هنا هو : اعط غيرك، وليس مجرد : خذ ثمرة عملك.. نعم.. هذا هو العدل، ولكن لا بد أن تصعد خطوة إيجابية أخرى بعد أخذ ثمرة عملك، لا بد أن تمنح الآخرين من هذه الثمرة، من جهدك، ومن مالك، ومن فكرك، وهذه هي الغيرية التي تطبع الحياة الاجتماعية في الإسلام، والتي تمثل القاعدة الأساسية والخاصية الفارقة للأخلاق الإسلامية.

وإنما أمراضنا الاجتماعية نتائج حتمية لإغفالنا لهذه القيمة الإسلامية الأساسية، إننا لا نبذل، ولا نعط، وربما هبطنا إلى مستوى العدل ووقفنا عنده، وربما تدنينا إلى ما دون العدل من ألوان الظلم ودرجات الجور، وبذلك نفتح الباب على مصراعيه للشيوعية والإلحاد.

إن لدينا القدرة، ولدينا الأموال، ولكننا نضن بهذا وذاك، لقد تعلمنا الأنانية والفردية الضيقة من ثقافة الغرب، ونسينا قيمنا الإسلامية، الأفراد وقعوا في هذا، والحكومات والهيئات وقعت فيه، ونحن نجني الآن الثمار المرة لتخلينا عن هذه القيم العظيمة النافعة.

لقد عرفنا من السلف الصالح أمثلة رفيعة مضيئة لمعنى الإيثار والتضحية.

خرج الصديق رضوان الله عليه مع رسول الله ﷺ ومعه ماله كله، خمسة آلاف أو ستة آلاف درهم.

وخطب النبي ﷺ فحث على جيش العسرة، فقال عثمان رضي الله عنه : عليَّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها ـ أي بكل ما عليها، ثم عاد وتبرع بمائة أخرى، ثم بثالثة، حتى قال النبي ﷺ : « ما على عثمان ما عمل بعد هذا »[1].

وكان بذل عبد الرحمن بن عوف، وحكيم بن خزام، وابن عمر، رضي الله عنهم أجمعين، أمثلة أخرى رفيعة ومضيئة[2].

والإنفاق، والإيثار، والبذل، والتضحيات في الإسلام لا قيمة لها إلّا إذا تنزهت عن انتظار العوض أو الأجر أو المقابل.

إن فينا من يعطي ويبذل ويجود، فينا أسخياء كثيرون، لكن الآفة المهلكة التي تبدد قيمة إنفاقهم هي انتظارهم للعوض، على نحو أو آخر، الأفراد ينتظرون الاحترام والطاعة، وربما التبعية والمذلة، والحكومات والهيئات تنتظر أكثر من هذا.

وهذا ليس إنفاقاً إسلامياً، وإنما هو أقرب ما يكون إلى الكرم الجاهلي.

كان الكرم الجاهلي يستهدف الحفاظ على شرف القبيلة وعلو ذكرها، وجاء الإسلام بالإنفاق والإيثار، ووضع له بواعث وغايات ومعايير جديدة، باعدت بينه وبين الكرم الجاهلي أشد التباعد، وهذا أمر طبيعي بعد التغيير الجذري في العقيدة الدينية والنظام الاجتماعي والتشريعي الأخلاقي.

لم نعد في الإسلام مطالبين بالكرم الجاهلي المغرض، ولكننا ملزمين بواجبات متعددة الدرجات والأهداف، فلدينا الزكاة، والصدقة، والكرم، والإيثار، ولم يعد أمر الإنفاق متروكاً لأريحية الفرد، ولكن تحتم أن يمارس البذل بدرجة معينة، هي الزكاة، وأصبح الانفاق على هذا المستوى جزءاً وركناً ركيناً لا تصح عقيدة المسلم بدونه.

---

(١) أخرجه أحمد والبيهقي.

(٢) الكاندهلوي، حياة الصحابة ، ٢/١٥٠ ـ ١٥٦.

وأضحى إكرام الضيف واجباً على المضيف وحقاً للضيف، يأخذه أخذاً إذا تقاعس المضيف عن أدائه.

وانقلبت الغايات والأهداف من وراء الانفاق انقلاباً كاملاً ؛ لم يعد ثمة مجال لاسم القبيلة وعلو ذكرها، لقد عُرف الآن هدف جديد نبيل عظيم، هو مرضاة الله، وأوضح النظام الجديد أن أي إنفـاق أو بذل يستهدف الغايات الجاهلية القديمة هو محبط وعديم القيمة. إن للإنفاق الإسلامي بضروبه المتعددة آداباً وأصولاً يجب أن تراعى بدقة وحذر، فأي منٍّ أو أذى يحبطه، وأي تكبر على المستفيدين يحيله إلى فساد كريه، فما بالكم بشروط السيطرة والتبعية ثم المن والتكبر بعد ذلك ؟

إن مجتمعاتنا الإسلامية اليوم تعاني أشد العناء من البخل والضن بالمال والجهد دون انتظار لعوض. لا أحد يدرك أنه يحب أن يعمل دون انتظار لعوض، كل أحد يريد الأجر على كل عمل ـ الأجر لكل البشر في هذه الدنيا، وهذه هي الأنانية القاتلة المدمرة.

النصارى يبذلون المال بسخاء على المبشرين والمستشرقين، والدول النصرانية وحتى الملحدة تبذل الكثير لتهيئة الفرصة للعلماء والمهندسين والأطباء للبحث والدرس والاختراع وتطوير الصناعة والزراعة، وحماية الثقافة القومية وتنميتها، وأما العالِم المسلم والطبيب المسلم والمهندس المسلم فغارق في همومه الشخصية وواجباته الأسرية، لا أحد يفكر في مستقبل الأمة، لا أحد يريد أن يبذل وأن يعطي وأن يسخو من أجل تطوير المجتمع المسلم، من أجل قوته ونصرته، كما فعل عثمان رضي الله عنه، وكما فعل غيره من الصحابة رضوان الله عليهم، وكما كان يفعل السلف الصالح. هناك من ينفق ويبذل، ولكنه يريد المقابل لنفسه أو لحزبه أو لتنظيمه، أما مستقبل الأمة وحياة المجتمع فلا ! وهكذا بقينا عالة على نتائج الفكر الغربي والعلم الغربي ؛ وكل هذا طبعاً له ثمنه الفادح الباهظ : تبعية ذليلة في الصناعة والزراعة والسياسة والثقافة جميعاً.

والقرآن يدين البخل والبخلاء، ويتوعدهم بالويل والثبور، ويسميهم المشركين، ونحن نعرف ذلك، فقراء وأغنياء، قال تعالى : (وويل للمشركين،

الذين لا يؤتون الزكاة) (فصلت ـ ٦، ٧). وقال أيضاً : (والذين يكنزون الذهب والفضة، ولا ينفقونها في سبيل الله، فبشرهم بعذاب أليم) (التوبة ـ ٣٤).

وقال النبي ﷺ : « أول ثلاثة يدخلون النار : أمير مسلط وذو ثروة من مال لا يؤدي حق الله تعالى من ماله، وفقير فخور »[1].

وفي مقابل الضن على الأهداف الاجتماعية الكبرى، تفجعنا أنباء الإسراف الأحمق على ضروب المتع وألوان العبث والمجون، إلى درجات تتجاوز العقل إلى الجنون ! وأضحى المسلمون أضحوكة لأعدائهم من الصهاينة والملحدين والمستعمرين والمستغلين وغيرهم.

يجب أن يعود الانفاق الإسلامي إلى أهدافه الاجتماعية الكبرى، وأن تصان الأموال الإسلامية عن الضياع على النزوات الفردية الأنانية.

ولست بهذا أطلب تناسي المستفيدين الشرعيين من الزكاة والصدقة، ولكنني أتصور غايات اجتماعية بعيدة وبالغة الأهمية لما بعد الصدقة والزكاة. الآية ستون من سورة التوبة حددت مستحقي الصدقات، قال تعالى : (إنما الصدقات للفقراء، والمساكين، والعاملين عليها، والمؤلفة قلوبهم، وفي الرقاب، والغارمين، وفي سبيل الله، وابن السبيل، فريضة من الله، والله عليم حكيم). بعد الزكاة والصدقات هناك درجات عديدة قمتها الإيثار، والإيثار هو إنفاق المرء للمال مع حاجته إليه.

ولقد ذكر القرآن الكريم الإيثار في آية واحدة امتدح فيها الأنصار الذين آثروا إخوانهم المهاجرين، قال عزّ وجل : (والذين تبوَّءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) (الحشر ـ ٩).

هذه هي قمة هذه القيمة الإسلامية العظمى ـ الإنفاق ؛ والإسلام لا يفرض على أحد ضرورة الصعود إلى القمة، وإن حث أبناءه على محاولة

---

(١) رواه ابن خزيمة وابن حبان في صحيحهما.

ذلك. ومن المؤكد أن من بين المسلمين من بوسعه ذلك ! إن ما تفرضه هذه القيمة الاجتماعية العظمى درجات فوق درجات، وينبغي أن ندرب أنفسنا على صعود هذه الدرجات وارتقائها، وعلى أغنيائنا أن يسبقوا فقراءنا إلى ذلك، من أجل الفوز بالسعادة الأخروية، والسعادة الدنيويـة أيضاً. والتدريب واجب التربية، فعلينا أن نشرع في إصلاح نظامنا التربوي، كي يستطيع غرس الإحترام لهذه القيم الرفيعة، وجعلها معياراً اجتماعياً للحكم على أقدار الأفراد والهيئات والمنظمات، ونبذ معيار القوة المادية والثراء الذي يسود كل تقويمنا الاجتماعي والأخلاقي، والذي أدخله التغريب على حياتنا في غفلة منا.

أيهـا الأخـــوة ،،،

بهذه القيمة الإسلامية تستقيم أوضاع كثيرة لا يصلحها العـدل المجرد. العدل المجرد لا يقضي على الأنانية والأثرة، « ولا محل في الإسلام لأي نوع من أنواع الأثرة، إنه لا محل فيه للأثرة الفردية، أو العائلية التي نراها في بعض الأمم الشرقية، والأقطار الإسلامية »[1]، فلا بد أن نرفع شعار : اعط غيرك، وأن نربي أنفسنا وأبناءنا عليه، وأن يكون كبراؤنا قدوة لجميعنا، وأن نجند كل قوانا التوجيهية من إعلام ودعوة إلى إقناع الناس بفائدته العظمى وجدواه البالغة.

---

(١) الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص ٤١٢.

ثالثاً: الصّــدق

ننتقل بعد هذا أيها الأخوة إلى قيمة أخرى من قيم المجتمع الإسلامي، لو طبقناها، واحترمناها، لقفزنا إلى الأمام خطوات وخطوات، وأعني بذلك قيمة الصدق والحق والعلم.

قيمة الصدق، بل الأحرى أن نقول قيم الصدق والمعرفة والحق، هي القيم الاجتماعية الإسلامية التي لم تفهم حتى اليوم، لا من حيث خطورتها الاجتماعية وحيويتها الحياتية، ولا من حيث امتداداتها، وأنماط السلوك الاجتماعي التي تضبطها. والحق أنها لا تقل بحال عن العدل أو الإنفاق، لأن الحق والمعرفة قوام الحياة.

وهذا ولا ريب ادعاء عريض يحتاج إلى سند من القرآن والسنة، (ومن التراث الفلسفي والاجتماعي والأدبي)، وما كان لي أن أسمح لنفسي بهذا الادعاء إلّا بعد أن تبلور السند الديني عندي وفرض نفسه فرضاً على مسار البحث ونتائجه.

إن المعرفة قوام حياة البشر الدينية والاجتماعية والعقلية والمادية والسياسية. هذا حق لا نرتاب فيه.

والوصول إلى قيمة العدل واجتناء ثمارها مرهون بالمعرفة والحق، وقد عرفنا خطر قيمة العدل بالنسبة للمجتمع، فلسنا بحاجة إلى ترديد شيء مما قلنا.

والصدق هو القيمة التي تضبط وتضمن المعرفة الصحيحة، وحيويته الاجتماعية ترجع إلى حيوية المعرفة وأهميتها في حياة الفرد والجماعة في كل آفاقها العلمية والثقافية والاجتماعية والسياسية والدينية.

وقد برزت أهمية قيمة الصدق وخطورته البالغة في عصرنا هذا، وتضاعفت أضعافاً مضاعفة، بسبب اختراع الوسائل الجديدة للنشر والإذاعة، وقدرتها على إيصال الحق، أو الزيف والبهتان، إلى كل بيت في كوكبنا هذا البائس الحزين.

وآغدقت الدول والهيئات والمنظمات والاحزاب والشركات آموالها على الصحف والمجلات والإذاعات وشركات السينما وفرق المسرح، وفرضت سيطرتها عليها كي تضمن صياغة وجدان الجماهير البائسة وفق أهوائها وأهدافها وسياساتها وأطماعها.

ولقد وجدت قوى الشر في هذه الوسائل الحديثة منفذاً واسعاً بعيد الأثر في عقول الناس وقلوبهم فبذلت جهوداً جبارة للسيطرة عليها وبث الأكاذيب والافتراءات التي تسوغ لها الغلبة على الحق وأهله، والفوز بالغنائم من كل لون، وفي كل مجال ـ ثقافي أو مذهبي أو سياسي أو اقتصادي أو عسكري.

وقوى الحق تجاهد وتحاول أن تصمد، وأن تبلغ المعرفة الصحيحة إلى الناس، فتضيع جهود المجاهدين وسط جلبة الباطل وضجيج البهتان.

والإسلام الذي يقدر قيمة المعرفة الصحيحة، ويتأسس من أوله إلى آخره، يقيم للمجتمع المسلم نظاماً دقيقاً متماسكاً ومتكاملاً من شأنه أن يصون هذه القيمة الكبرى للمجتمع، ويكفل لها الغلبة.

إننا ندرس هنا قيمة الصدق، ولكن الصدق في الإسلام يمتد ليشمل مجموعة من القيم الاجتماعية التي تترابط وتتماسك معاً بأوثق الروابط وأمتنها، فهناك إلى جانب الصدق بمعناه الواسع قيم : تصديق الصدق، والوقوف إلى جانبه، والدفاع عنه وعن القائلين به، ثم تحريه وتبينه، وتكذيب الكذب ومجالدة المروجين له مهما كانت سطوتهم وقوتهم السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية.

وهذه هي الآفاق الواسعة لهذه القيمة الاجتماعية ـ الآفاق التي لم يفلح أحد في إبرازها وتحديد معالمها، فانخسف معنى الصدق إلى مجرد موعظة للأفراد بأن لا يقولوا إلّا الحق، حين يتكلم الواحد منهم إلى الآخر أو حين يُسأل فيجيب، أما الكاتب والصحفي والمؤلف والنائب والشاعر والمخرج والعالم والفيلسوف، فخارج قيم الصدق ومبادئه.

والإسلام لا يدين الكذب وحسب، ولكنه يميز بين ضروب من

البهتان والافتراء والزور والنفاق، كلها عدوان على المعرفة الصحيحة والحق المستقيم، ويدينها جميعاً.

وأنا لا « أضع » هنا مبادىء للإسلام من عندي، حاشا لله، وإنما كل همي أن أفهم قرآن ربي وسنة نبيي، مستعيذاً بالله من سوء الفهم وفساد الرأي وإملاء الهوى.

هذا تمهيد لا بد منه، وحقائق يجب وضعها في الاعتبار قبل الشروع في صميم بحثنا.

أيها الأخوة الكرام،،،

ثمة إجماع بين المسلمين على أن الصدق قيمة أساسية، وهو إجماع على الحق دون أدنى ريب.

فالقرآن الكريم يوجبه بأوامر صريحة.

قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً) (الأحزاب ــ ٧٠).

والقول السديد هو الصدق المعبر عن المعرفة الصحيحة.

وقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) (التوبة ــ ١١٩).

و « كونوا مع الصادقين » تعني أن يلتزموا الصدق، وأن يقفوا مع الصادقين في مواجهة الباطل والزيف. فها هنا واجبان أحدهما لا يقل خطورة وأهمية على الآخر.

ومن المثير للإهتمام والجدير بالإحترام والتمحيص، أن الله عز وجل يصف أنبياءه بالصدق، ثم يتبع ذلك مباشرة بوصفهم بالنبوة.

قال تعالى : (واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً) (مريم ــ ٤١).

وقال تعالى : (واذكر في الكتاب ادريس إنه كان صديقاً نبياً) (السورة نفسها ــ ٥٦).

وامتدح القران الكريم الصادق، كما امتدح مصدقه، ووعدهما جزاء المحسنين، (ومن المهم أن نتيقظ هنا لدور المصدق للصدق، فهو خطير جـــداً).

قال تعالى : (والذي جاء بالصدق وصدق به، أولئك هم المتقون. لهم ما يشاؤون عند ربهم، ذلك جزاء المحسنين) (الزمر ٣٣ ــ ٣٤).

وقد كان رسول الله ﷺ يلتزم الصدق حتى في مزاجه، قال عليه السلام : « إني لأمزح ولا أقول إلّا حقاً ».

وفي الشريعة الإسلامية، إذا قذف مسلم مسلماً، وأثبت صدق قذفه،فلا إثم عليه[1].

ومن جهة أخرى، يحرم الإسلام الكذب ويندد بالكذابين، ويتوعد المفترين، (والظلم هو هدف الكذب الرئيسي).

يقول تبارك وتعالى : (ويلكم ! لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب، وقد خاب من افترى) (طه ــ ٦١). ويقول : (فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون) (آل عمران ــ ٩٤).

والسنة الشريفة تفضح بواعث الكذب وغاياته، وتبرز الفلاح والنجاح من وراء الصدق، وتؤكد اقترانه الدائم بالإيمان بالله. قال ﷺ : « يا علي، لا تكذب، وعليك بالصدق، فإن ضرك في العاجل كان فرحاً في الآجل ». وقال أيضاً : « لا تدخل حلاوة الإيمان قلب امرىء حتى يترك بعض الحديث خوف الكذب، وإن كان صادقاً، ويترك المراء وإن كان محقاً ». وفسر عليه السلام الآية الكريمة : (إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون) على أنها تفيد امتناع اقتران الكذب والإيمان. وفي حديث آخر قال ﷺ : (إن الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل، ولا يعد الرجل ابنه ثم لا ينجز له، إن الصدق يهدي إلى البر » الحديث.

ونشير بسرعة إلى تعريف الصدق، وتمييزه من الحق، ثم ما بينهما من ارتباط، فلذلك أهميته هنا.

---

(١) عبد القادر عوده : التشريع الجنائي الإسلامي، ٢/٤٥٥ ــ ٤٥٦.

الصدق تطابق بين اعتقاد القائل وتعبيره عما يعتقد.

والحق تطابق بين : اعتقاد القائل، وتعبيره عما يعتقد، ثم الواقع أو ما عليه الأمر.

والصدق تطابق بين حدين، والحق تطابق بين ثلاثة حدود، ففي الحق تطابقان، وفي الصدق تطابق واحد، والحق يشمل الصدق ويزيد عليه[1].

أما قيمة الصدق دون الحق فمحدودة جداً ؛ والصادق الذي كلامه لا يطابق الواقع هو المخطئ الذي لا يعرف الحقيقة العينية، ويخبر الناس باعتقاده الخاطئ، ظاناً أنه صائب ! مثل هذا الصدق هو صدق شكلي لا يحقق غاية الصدق المشروعة، وهي إيصال المعرفة الصحيحة إلى الفرد والمجتمع.

إن المعرفة الصحيحة هي القيمة النافعة التي يسعى الصدق إلى إيصالها إلى الفرد والمجتمع، وعلى هذه المعرفة الصحيحة يبني الناس آراءهم وعواطفهم، ويعطون تأييدهم أو يطلقون استنكارهم، بل إن الناس تحارب وتسالم استناداً إلى ما يقدم إليهم من معرفة ؛ ونجاح الفرد والمجتمع في التفكير وفي العمل مرهون بما لديهم من معرفة صحيحة، والصدق بدون الحق، أعني الصادق المخطئ، لا يقدم للناس شيئاً من هذا. وهذا برهان على خطورة هذه القيمة وحيويتها التي لا تقل عن العدل والإنفاق.

أما الكاذب، الذي يعرف الحقيقة، ثم يحجبها، ويقول للناس ما يخالفها، فمجرم، خصوصاً إذا كان من الكتاب أو الوزراء أو النواب، أو غيرهم من الفئات التي تخاطب الأمة أو الإنسانية،وتسجل أقوالهم في الكتب، فيمتد الضرر إلى أجيال متعاقبة لا يعلم عددها إلّا الله.

والإسلام لا يعرف وسطاً في الحفاظ على هذه القيمة الاجتماعية والأخلاقية الحيوية للفرد والمجتمع.

فالجمهور على أن الصدق ليس وسطاً بين رذيلتين، كما زعم أرسطو

---

(١) إرشاد الفحول، ص ٤٤ + الذريعة، ص ١٠٤.

ومشايعوه من الفلاسفة المسلمين[1]، وكل محاولة للانحراف عن تطابق الاعتقاد والتعبير هي كذب، وليس من الضروري أن يجيء التعبير مخالفاً كل المخالفة للاعتقاد ليكون كذباً، **تكفي المخالفة الجزئية. بل إن المخالفة** الجزئية هي أخطر أنواع الكذب، لأنها مزج بين صدق وكذب بقصد ترويج الكذب ! وهذا المزج أقدر على إحداث الخداع ؛ وقد أسماه القرآن الكريم التلبيس وأدانه إدانةً منكرة.

وهذه هي الآفة المهلكة التي تهدد المجتمع المعاصر، فجل ما **يكتب ويذاع هو من قبيل التلبيس، والهدف هو التعمية والتعتيم على** الجماهير ؛ هنا تستعمل القيمة كمطية للاختلاق والتزييف، ومن ثم كان الكذب الصراح أهون ضرراً على المجتمع من التلبيس.

وهذا يضاعف من واجباتنا، وينبهنا إلى ضرورة الحرص والحذر وإعمال أقصى طاقاتنا في النقد والتمحيص والاعتصام بكتابنا وسنة نبينا **الصحيحة، كي نتبين مواقع أقدامنا فلا تزل. وفي هذا الصدد واجب الكتّاب** المسلمين خطير وثقيل ويتطلب منهم تضحيات كبرى، لأن أهل التلبيس أقوياء مادياً ومالياً واجتماعياً، وقد أفلحوا بالفعل في شراء أقلام وصحف ومجلات وأبواق لا عدد لها في عالمنا الإسلامي.

وهذا كله يبين لنا مبدأ آخر أو قيمة إسلامية أخرى، هي : كيف يجب أن يستقبل المسلم الصدق والكذب ؟.

إن الإسلام يحتم على المسلم أن يتحرى الصدق، ليس فقط فيما يقول، ولكن أيضاً فيما يقرأ ويسمع، فلا يقر شيئاً ولا ينقله ولا يذيعه ولا يؤيده ولا يستنكره، قبل الاستيثاق من صدقه أو كذبه، قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة، فتصبحوا على ما فعلتم نادمين) (الحجرات ٦)، فالقرآن الكريم يأمرنا بالتبين، والتبين يعني التحقق والاستيثاق والنقد والتقويم. فإذا اقتنعنا بصدق قول أو دعوى أو قضية وجب علينا ألّا نقف متفرجين، لا بد لنا أن نشمر لنشر الصدق واقناع الناس

---

(١) إرشاد الفحول، ص ٤٤.

به، والدفاع عنه، والموت دونه. هذا هو العمل الإيجابي المطلوب ؛ أما مجرد التصديق أو مجرد القبول أو الموافقة دون عمل ونصرة وتأييد فلا قيمة له. ولولا التزام الصحابة رضوان الله عليهم بقيمة العمل والجهاد لما كان شأن الإسلام ما كان من الذيوع والغلبة والتمكن. والشباب هم أقدر الناس على النهوض بهذا الدور الإيجابي الخطير، وبهم وحدهم يتمكن الحق ويغلب.

والوجه الآخر لهذا الجهاد العظيم يتمثل في التصدي للكذب ودحضه وإحباطه. وهذا أيضاً واجب الشباب قبل غيرهم.

وهذا الواجب لا يقل ثقلاً عن الدفاع عن الصدق، (وهما في الواقع **متلازمان ومتكاملان)، وعلة هذا ليس مجرد عسر كشف الكذب والتلبيس** وحده، وإنما سلطة الكذابين والمستفيدين من الكذب، الذين ربما يكونون في قمة النفوذ الاجتماعي أو المالي أو السياسي.

في مثل هذه الظروف يصبح التصدي للكذب مغامرة خطرة بحق، ولعل هذا هو ما أراده الرسول ﷺ بقوله : « إن من أفضل الأعمال كلمة حق تقال عند سلطان جائز »[1]. هنا لا بد من قمة في الشجاعة والتضحية، ولهذا ندر من يستطيع الوصول إلى مثل ذلك، خصوصاً حين يكون السلطان الجائر بعيداً عن روح الإسلام وأخلاقياته وتشريعاته. ولكن المجتمع المسلم عرف هذه القيمة الرفيعة، وهذه القمة السامقة، وحفظ لنا **التاريخ مواقف كثيرة قيلت فيها كلمة الحق عند سلاطين ظلمة. وإن الأمة** التي تعرف هذه القيمة وتجد من بين أبنائها من يلتزم بها لهي بحق أمة عريقة في الحضارة والأخلاق، كما أن الأمم والمجتمعات التي ينكص رجالها عن التضحيات التي يقتضيها قول الحق في وجه الجور هي مجتمعات بائسة تعيسة منكودة مصيرها إلى الضعف والتدهور والمذلة.

وفضلاً عن هذا كله، ندد القرآن الكريم بالسماعين للكذب. لأن السماع للكذب آفة اجتماعية خطيرة ومهلكة. وقد كانت فاشية بين اليهود الذين عاصروا فجر الدعوة الإسلامية في المدينة المنورة. قال تعالى : (ومن

---

(١) أدب الدنيا والدين، ص ٧٨.

الذين هادوا سماعون للكذب) (المائدة ـ ٤١). وقال أيضاً : (سماعون للكذب أكالون للسحت) (السورة نفسها ـ ٤٢). ومما يؤسف له أن الآفة **نفسها منتشرة اليوم بين المسلمين لجهلهم بدينهم وعصيانهم لقيمه ومبادئه** وتحللهم من أخلاقياته. كان اليهود يستمعون إلى كذب قادتهم، ويكذبون الصادق الأمين صلوات الله وسلامه عليه، وبعضنا اليوم يستمع إلى كل ناعق يأتينا من الشرق أو الغرب، ويرفض قيم ديننا ومبادئه ونظمه ويعمل على طمسها والترويج للقيم المناقضة لها.

وهكذا نجد الإسلام ينظر إلى المعرفة بوصفها مسئولية مشتركة بين الجميع، الجميع ينشدها ويناضل للوقوف عليها، وإيصالها للآخرين الذين يصغون إليها ويقفون معها ويناضلون الباطل الذي ينكرها، وصولاً إلى تحقيق خيرات المجتمع والفرد، تلك الخيرات التي تتعدد وتتباين، ولكنها في النهاية تستند إلى المعرفة الصادقة الصحيحة.

والإسلام يبين لنا القيم السالبة المحرمة المناقضة لقيم الصدق والحق والمعرفة الصحيحة، ثم يفصل القول في ضروبها ودرجات الإثم فيها ومدى الأضرار التي تسفر عن اقترافها وتصيب الفرد كما تصيب الجماعة.

وأهم هذه الضروب أو الشرور : الافتراء، والقذف، والنفاق. وبحث هذه الضروب مفيد وطريف.

أما الإفتراء فهو في جوهره كذب، فهو تعبير مخالف للاعتقاد.

غير أن للافتراء خاصتين تميزانه من الكذب ؛ هاتان الخاصتان هما :

أ) الاختـــلاق.

ب) الطعن في الآخرين الأبرياء.

ففي الكذب ربما ينتقص من المعرفة أو يزاد عليها، وربما تنفى المعرفة الثانية الصحيحة، وتثبت « المعرفة » الزائفة الخاطئة.

لكن في الافتراء لا يكون للخبر عادة أي سند من الحقيقة ! فالمفتري يبتكر الاتهامات ضد الأبرياء، ولا يقف عند مجرد التحوير أو التزيين أو الترقيع أو النفي والإثبات على نقيض ما هو مستقر في اعتقاده.

والمفتري لا يقصد تضليل المستمع أو القارئ وحسب، ولكنه يستهدف إنساناً بريئاً في دينه أو عرضه أو عدالته. مثال ذلك، الافتراء على شيخ الإسلام ابن تيمية بالمناصحة للتتار، أو على الشيخ الإمام محمد عبده بمراقصة امرأة أجنبية، أو على الإمام حسن البنا بالتعاون مع الانجليز، هذه أمثلة وبقية القائمة عندكم !

ويدين الإسلام الافتراء إدانة منكرة.

ويكفي أن نعلم أنه يعتبر الشرك ضرباً من الافتراء، لأنه اختلاق وجود شركاء لله تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً يقول عزّ وجل : (ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً) (النساء ـ ٤٨) (والأعراف ـ ١٥٢)، فالافتراء على الله ورسوله كبيرة من الكبائر[1]، والافتراء على الأبرياء من عباد الله ربما يبلغ مستوى الكبيرة[2]، وقد لاحظنا ما يفسر لنا هذه الإدانة الشديدة المنكرة في الأمثلة التي أوردناها. فالافتراء على حسن البنا كان هدفه الطعن في الدعوة الإسلامية السلفية، والافتراء على الشيخ محمد عبده كان هدفه القضاء على القيادة الدينية الواعية اليقظة، والافتراء على شيخ الإسلام ابن تيمية كان هدفه الوقيعة بالإمام الذي سلطه الله على البدع والخرافات ووفقه إلى نصرة الدين الحق والسنة الصحيحة.

فالافتراء سلاح مألوف واجهه المؤمنون المجاهدون في مختلف العصور، سلاح شهره أعداء الله، وأعداء الإنسان وأعداء القيم الدينية العادلة المستقيمة، وعلينا تبعاً لهذا أن نتيقظ له ونكشفه ونقاتله قتالاً مستميتاً.

ولا بد أن نذكر هنا بأن إنكار الإسلام للافتراء لا يفتر مطلقاً إذا كانت ضحيته من غير المسلمين. وهذه هي النزعة الإنسانية السمحة التي يكفل الإسلام بها سعادة أهل الذمة وكرامتهم وطمأنينتهم.

ويذكر التاريخ حادثة مشهورة، ذات مغزى عظيم هنا، كان ضحية الافتراء فيها رجلاً من اليهود في المدينة المنورة، يقال له « زيد بن السمير »،

---

(١) ابن تيمية ، كتاب النبوات ، ص ٢٢٩.

(٢) منتخب كنز العمال ، ص ٢٨٤.

وكان الجاني رجلاً مسلماً يقال له « طعمة بن أبيرق ». اقترف طعمة جريمة، ثم أراد إلصاق التهمة باليهودي البريء، فنزل قوله تعالى : ﴿ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً﴾ (النساء ـ ١١٢).

فسواء كانت الضحية من المسلمين أو من غيرهم ممن يشاركونهم مجتمعهم فالإدانة واحدة هي هي، أليس الإسلام قد جاء لكل الناس، ولكل زمان ومكان ؟ أليس الإسلام قد حرم الظلم تحريماً مطلقاً، وأليس الافتراء ظلم ؟.

ليس في الإسلام كما جاء في التوراة : **(لا تشهد على قريبك الزور)**[1]، فهذه تفرقة ثقافية مرفوضة.

في الإسلام شهادة الزور محرمة إطلاقاً بصرف النظر عن كل الفروق الثقافية والعرقية. وهذه هي التقدمية الحقيقية، والحضارة السليمة، والثقافة الإنسانية التي ينبغي أن تعتنق وأن تتخذ وأن تُتَبنى في كل المجتمعات الإنسانية، إذا أريد للبشرية أن تفوز بالكرامة والطمأنينة والسلام. وهذا هو ردنا الإيجابي على الجهال الذين يرمون الإسلام بالاتهامات الظالمة البلهاء من رجعية وتخلف وتعصب ودموية.

وأما القذف فهو أيضاً ضرب من الكذب، وربما أسميناه الإفك، فالكلمتان بمعنى واحد. وهو آفة شائعة بيننا اليوم. قال تعالى : ﴿إنْ هذا إلّا إفك افتراه﴾ (الفرقان ـ ٤).

والقذف هو رمي المحصنات بالزنا، إنه اختلاق لواقعة الزنا دون أن تقع وإلصاقها بمسلم حر عفيف[2]. والقاذف عقوبته الأخروية اللعنة، وهذا هو الدليل على أن القذف كبيرة، وأما العقوبة الدنيوية فهي الجلد ثمانون جلدة ـ وهي عقوبة رادعة تماماً. يقول عز وجل : ﴿إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة﴾ (النور ـ ٢٣).

---

(١) سفر الخروج ـ فصل ٢٠.

(٢) الذهبي، كتاب الكبائر، ص ٩٢.

ويقول : (والذين يرمون المحصنات، ثم لم يأتوا بأربعة شهداء، فاجلدوهم ثمانين جلدة، ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً) (السورة نفسها ـ ٤)، ومع ذلك يرمون الإسلام بالتساهل !!

وقد عطلنا نحن المسلمين هذه القيم السامية، فاستهان المسلم بعرض أخيه، وهان القذف وانتشر، ولم يعد يأمن أحدنا على نفسه أو على عرضه، وجنى المجتمع كله ثماراً مرة، خصوصاً حين يصل الأمر إلى الصحف والمجلات التي تجد في القذف والنيل من الأعراض مادة محببة إلى نفوس محرريها، أو تستخدمه كسلاح تشهره في وجه الأحرار والمجاهدين لرفع كلمة الله، والمناهضين للظلم الاجتماعي، والاستبداد السياسي الذي أهلك البلاد والعباد وقضى على الحرث والنسل.

الإسلام يردع كل هؤلاء ردعاً عنيفاً حاسماً، ولا يتساهل معهم بحال، كما يدعى « كولي » أو غيره من المستشرقين.

وفي الوقت نفسه يحرم العفو عنهم، من قبل المجنى عليهم، ومن قبل ولي الأمر على السواء[1]. لماذا ؟. لأن العرض قيمة رفيعة عند المسلم. والنيل منه يقض مضجعه ويقضي على هنائه وسعادته، وربما كان سبباً في تحطيم أسرته وتشريد أفرادها، وإهدار كرامتهم، والإسلام حريص على ضمان هذه القيم وكفالة السعادة للفرد والأسرة والمجتمع.

والضرب الثالث أيها الأخوة، من أخطر وأفتك الآفات الاجتماعية والسياسية التي تنخر في أوصال المجتمع المسلم اليوم، وتعد بحق سبباً أساسياً من أسباب تأخره وشقائه وضعفه، ألا وهو : النفاق.

إن المنافق لا يقول ولا يكتب إلّا ما يرضي المستمع أو القارئ، أعني الرقيب أو الحاكم (لا القارئ العادي) الذي يملك المال ويملك السلطة، فإذا كانت الحقيقة ترضي الحاكم (وهذا ربما يحدث) قالها المنافق وأكدها، لا لأنها الحقيقة الصادقة ولكن لأنها ترضي الحاكم القوي الذي يملك الإثابة والعقاب. أما إذا كانت الحقيقة تغضبه فإن المنافق يحجبها ويزين

---

(١) عبد القادر عوده، السابق ؛ ١/٨١.

الباطل للناس ويكد ذهنه للبرهنة على كذب الحق وصدق الباطل، وإذا غير الحاكم رأيه أو تبدلت رغباته، سارع المنافق إلى نفي ما كان يثبته وإثبات ما كان ينفي ! هذا كله وأبشع منه حدث في بلادنا الإسلامية ولا يزال يحدث على نطاق واسع، وكلنا يذكر أمثلة مخجلة حديثة جداً من النفاق والمنافقين، ولا داعي لتشنيف آذانكم بأسمائهم !

وهكذا يتضح البوْن الشاسع بين قيم الإسلام الاجتماعية، والقيم السالبة السقيمة المهترئة السائدة اليوم بيننا، ويحسبها الأجانب من الإسلام، وهو منها براء.

وعلينا جميعاً، والشباب بوجه خاص، أن نعرف واجباتنا تجاه هذه الانحرافات، وأن يكون هدفنا صوغ مجتمعاتنا طبقاً للقيم الإسلامية، وأن نضع لذلك الخطط، ونشرع في العمل والجهاد. إن النفاق ينشأ نتيجة لحب الدنيا، **والتعلق البالغ بحطامها، مع نسيان الآخرة وثوابها، والخور** الروحي، والأنانية ! والهبوط الخلقي هو غذاء النفاق وبيئته، ولا علاج لهذا إلّا بجهد جهيد نغطي به كل المجالات التربوية والإعلامية والثقافية[1].

أيها الأخوة... هذه هي بعض قيم المجتمع المسلم ؛ ومعرفة هذه القيم يسيرة، **لكن المعرفة وحدها لا تبلغنا الهدف : العمل، والعمل الجاد،** والتضحيات هي التي من شأنها أن تحقق أهدافنا ؛ فلا بد أن نعمل، أن نخطط، وأن نلتزم وأن ننطلق عن وعي ومعرفة ويقظة، وأن نتسلح بالصبر والاحتمال، وأن نثق بموعود الله أن النصر للإسلام وقيمه المستقيمة المحكمة، وللعاملين المؤمنين.

---

(١) نرجئ بحث « المعاريض »، إلى الجزء الأخير من البحث، والخاص بالثبات والتغير في قيم المجتمع، للصلة بينهما.

رابعاً : قيم المجتمع، هل هي ثابتة أم قابلة للتغيير ؟

والآن لعلنا نستطيع بتوفيق الله أن نجيب على السؤال الذي طرحه عنوان هذا البحث علينا :

هل قيم المجتمع الإسلامي ثابتة أم قابلة للتغير ؟

إن دراستنا لقيم العدل، والإنفاق، والصدق، سوف تعيننا على الإجابة الصحيحة ؛ ولهذا كانت خطتي تقديم دراستها على الإجابة عن هذا السؤال ؛ فبوسعنا الآن أن نكون أكثر تحديداً، فنسأل : هل العدل ثابت أو قابل للتغير ؟ وهل الصدق ثابت أم قابل للتغير ؟.......... الخ.

سأحاول أن أجيب عن هذه الأسئلة الجزئية أولاً، على أمل أن يكون حاصل جمع إجاباتي لها ممثلاً للجواب عن السؤال الكبير الشامل.

بالنسبة لقيمة العدل، هل يتصور أن تتغير ظروف المجتمع المسلم بحيث يحتاج في تقدمه إلى أن نكسر أو نغير مبدأ : خذ ثمرة جهدك، ودع لغيرك ثمرة جهده ؟؟ هل يتصور أن تنشأ حاجة أو حاجات اجتماعية تتطلب أن نغير هذه القيمة ونقول : خذ ثمرة جهد غيرك، أو : لا تدع لغيرك ثمرة جهده ؟

إن تغييراً كهذا معناه الظلم والجور ؛ والظلم والجور مرفوضان رفضاً قاطعاً مطلقاً في الإسلام. وعلى هذا فالجواب واضح وحاسم، وهو أن قيمة **العدل ثابتة وراسخة، وشعار العدل مرفوع على الدوام، ورايته خفاقة إلى يوم الدين.**

غير أن الحدود الفاصلة بين ثمرة جهدي وثمرة جهدك ليست محددة واضحة بارزة في جميع الأحوال. إن الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والأدبية تتباين تبايناً لا نهاية له، وكثير من هذه الأنشطة يؤدَّى بأيد كثيرة متعددة، كالمشاركة في الزراعة والتجارة، والعمالة في الصناعة، والاستثمارات المالية، وحتى المشاركات الفنية والأدبية.

هنا تتداخل النتائج والثمار، ويعسر التمييز بين الأدوار التي أنتجتها، وأهمية كل دور في ذلك، ففي عمل مسرحي ـ مثلاً ـ هل يمكن تحديد ثمرة جهد الكاتب وتمييزها بصورة دقيقة من ثمرة جهد المخرج والممثلين والفنيين ؟ وفي الشركات الصناعية الحديثة، وهي متباينة في أشكالها تبايناً بعيد المدى، هل يمكن أن نحدد ثمرة جهد صاحب الآلة، أي المالك، وثمرة جهد العاملين من مهندسين وعمال ؟

لو أمكننا ذلك لما شهدنا الخلافات العنيفة والثورات الدامية التي اندلعت بسبب زعم كل فريق بأنه مظلوم، وكل طبقة بأنها صاحبة الجهد والأحق بثمارها كلها أو جلها.

فالخلاف هنا ليس على مبدأ العدل نفسه، ولكن على أهمية دور كل شريك. وتبعاً لذلك، على النسبة التي يحق له الحصول عليها من الأرباح. والقضاء على هذه الخلافات يتطلب الوصول إلى وسائل من شأنها أن تكفل تحقيق قيمة العدل لفئات المجتمع وأفراده وطبقاته، وذلك بتحديد النسبة المستحقة لكل شريك أو عامل، ولا ريب أن هذه الوسائل لن تكون إلّا القضاء ؛ فالقاضي المسلم هو وحده الذي يستطيع أن ينهض بهذه التبعة الاجتماعية الخطيرة.

والنسبة العادلة المستحقة للشريك أو العامل نسبة متغيرة متبدلة متباينة في الوقت نفسه، فدور العامل في طور الصناعة اليدوية غير دوره في طور الصناعة الآلية أو عصر الانتاج الكبير، ورأس المال الذي كان مطلوباً لتشغيل عامل واحد في طور الصناعة اليدوية يقل كثيراً عن رأس المال المطلوب لتشغيل عامل واحد اليوم. وكذلك دور العامل العادي، أقصد غير المدرب، يختلف عن دور العامل الماهر المدرب، ومن ثم كان من الضروري أن تتغير النسب المستحقة لصاحب المال، وللعمال، من عصر إلى عصر، ومن مهنة إلى أخرى، وصولاً إلى تثبيت قيمة العدل التي تقتضي أن ينال كل امرىء ثمرة جهده.

فالثبات إذاً ليس ضد التغير، والتغير ليس ضد الثبات ؛ ولكن التغير هو من أجل الثبات وفي داخل إطاره. الثبات بحاجة إلى التغير، وبدون التغير

ينتهك الثبات انتهاكاً ؛ العدل بحاجة إلى تغير نسب الاستحقاق التي ينالها الشركاء والعمال وإلّا فإن ظروف العمل والمشاركة ـ مع الإبقاء على نسب معينة ـ لا بد أن ينتهي إلى الظلم الصارخ.

بهذا الفهم لثبات القيم الاجتماعية وتغيرها نقضي على وهم كبير وضلال بعيد سيطرا دهوراً على فكرنا الاجتماعي، مما حمل الكثيرين على نبذ فكرة التغير ومعاداتها باعتبارها خروجاً على القيم الدينية الثابتة.

إن العدل ميزان يجب أن يبقى معتدلاً، فإذا مال يمنة أو يسرة كان **علينا أن نعمد إلى الطرح من هذه الكفة والإضافة إلى الكفة الأخرى حتى** نعيد إلى ميزاننا اعتداله المنشود الذي نحرص على ثباته واستمراره ودقته.

وهنا سؤال يطرح نفسه عنوة، ولعله سبقَ إلى أذهانكم، باعتباره نتيجة منطقية لهذه النظرة التي نظرتها إلى التغير داخل الثبات، ومن أجل الثبات، هذا السؤال هو : على أي أساس يكون القاضي المسلم ؟ كيف يتيسر له أن يحدد النسبة المستحقة للشركاء والعمال بما يكفل العدل.

وربما مضى المتسائل فقال : إن كل طرف يريد الفوز بنصيب الأسد، ويزعم أن إرادته هي العدل، وأن ما سوى ذلك ظلم صراح ؛ وإذا نحن راجعنا النصوص للاعتصام بها لم نجد سوى قيمة العدل التي قدمناها، وهي لا تحسم الخلاف وحدها، وإن عاونت على حسمه إلى حد كبير ؛ وإذا رجعنا إلى تراثنا الفقهي وجدنا أن الربح في أنواع الشركة يوزع على حسب اتفاق الشريكين أو الشركاء. ولا جدال أن صاحب الحاجة سوف يقبل شروط الطرف الآخر وإن كانت ظالمة. ففي شركة المضاربة ربما فرض صاحب المال شروطه، وربما العكس. وفي شركة العنان أيضاً ربما تحكم طرف في الآخر، على الرغم من أن الطرفين مشتركين بالمال والجهد، بدعوى الامتياز في الخبرة، أو بأي دعوى أخرى. والشيء نفسه ربما يقع في شركة الوجوه، وشركة الأبدان، بل هو يقع حقيقة وفعلاً.

هذا اعتراض لا بد من مناقشته هنا وإلّا كانت قيمة العدل الإسلامي وهماً رفيعاً لا سبيل إلى بلوغه.

إن القاضي المسلم يستطيع دون ريب أن يحسم مثل هذه الخلافات مستهدياً تصور العدل الذي بيناه، ومستنداً إلى مبدأ المصلحة الاجتماعية، أو ما يسمى في علم الأصول بالمصالح المرسلة.

إن المصلحة أيها الأخوة هي الأصل الذي يُستَند إليه في حسم الأطماع والخلافات بين الشركات، يقول ابن القيم، في هذا المبدأ أو الأصل الحيوي الهام : « الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها »[1].

وقال الشاطبي أن الإسلام : « لا يأمر بمضرة، ولا ينهى عن مصلحة »[2].

وقال الشيخ أبو زهرة إن : « المنفعة أو المصلحة تصلح مقياساً ضابطاً لكل ما هو مأمور به في الدين أو منهي عنه »[3].

وذهب الطوفي الحنبلي إلى القول بأن المصلحة أصل من أصول **التشريع، إلى جانب النص والإجماع، بل ويقدم عليهما في حالة التعارض** « بطريق التخصيص والبيان لهما، لا بطريق الافتئات عليهما والتعطيل لهما، كما تُقدم السنة على القرآن بطريق البيان »[4].

فإذا كانت أجور العمال ــ مثلاً ــ منخفضة إلى درجة من شأنها خلق طبقة تموت من الجوع وأخرى تهلكها التخمة، وجب رفع هذه الأجور. فمثل هذا الوضع الفاسد لا ينتج إلّا في غياب العدل الإسلامي، أو على أنقاضه، فهو ظلم يجب دفعه، ومفسدة يجب القضاء عليها. وأما إذا ارتفعت الأجور وبولغ فيها إلى درجة الإضرار بالزراعة والصناعة (وهو ما لم يقع كظاهرة عامة في المجتمع الإسلامي) فإن هذه الأجور يجب أن تقف عند

---

(١) اعلام الموقعين، ١٤/٣ ــ ١٥.

(٢) الموافقات، ١٤٨/١.

(٣) أبو زهرة، مالك، ص ٣٦٩ ــ ٣٧٠.

(٤) رسالة الطوفي (ضمن كتاب : مصادر التشريع الإسلامي، لعبد الوهاب خلاف) ص ١٠٩.

حد، أو تخفض بما يضمن مصلحة المجتمع الحقيقية العامة، بما في ذلك مصالح العمال أنفسهم.

بهذا الأصل التشريعي الحيوي، وهو المصلحة الاجتماعية العامة الحقيقية، وفي هدي قيمة العدل والنصوص الدينية التي تشرحها، بوسع القاضي المسلم أن يحسم الخلاف بين الشركاء والعمال وأصحاب الأعمال، وأن يعطي لكل امرئ ثمرة جهده، ويمنع غيره من اغتصابها عنوة ؛ **القاضي المسلم** هو الذي يُرجَع إليه في تحديد الجهد وتحديد النسبة المستحقة لكل طرف ـ هذه النسبة المتغيرة المتباينة بتغير الظروف والأوضاع الاقتصادية والصناعية.

وهكذا نرى بوضوح أن التغير ليس ضد الثبات، ولا خروجاً عليه، ولكنه من أجل الحفاظ عليه وصيانته، هذه هي الحقيقة الجديدة التي غابت طويلاً عن فكرنا الاجتماعي فوهمنا أن التغيُر ضد الثبات، وضد القيم الدينية الثابتة الخالدة.

وأما بالنسبة لقيمة الإنفاق: وتشمل الزكاة والصدقات والكرم والإيثار، فإن وجود الثبات إلى جانب التغير فيها أشد وضوحاً.

فالزكاة، كما نعلم جميعاً، ركن من أركان الإسلام الخمسة، لا يصح إسلام مسلم بدونه، فليس يتخيل من مسلم أن يقول إن التغير في قيم الإنفاق قد يصل إلى درجة تعطيل الزكاة.

ذلك كفر صراح لا يقول به مسلم بحال، وهذا هو الحد الثابت في هذه القيمة الكبرى، وسوف يبقى للزكاة مكانها، وسوف تظل الحاجة إليها قائمة، مهما تغيرت ظروف المجتمع وتبدلت وتطورت، ومهما بلغت درجة ثراء الأفراد ؛ فإن علماء الاجتماع قد قرروا أن الفقر والفقراء مسألة نسبية ؛ فالنمو الاقتصادي لا يتوقف، وفقير اليوم ربما كان أحسن حالاً من غني الأمس، كما أن فقير الغد ربما كان أحسن حالاً من غني اليوم. ومع هذا سوف يظل في كل مجتمع غني وفقير، وسوف تظل الحاجة إلى البذل والعطاء قائمة.

وكما تعلمون، مصارف الزكاة في الإسلام عديدة، فهي (للفقراء، والمساكين، والعاملين عليها، والمؤلفة قلوبهم، وفي الرقاب، والغارمين، وفي سبيل الله). فإذا اختفت من المجتمع فئة من هؤلاء فلن تختفي الفئات الأخرى بحال، ولهذا فإن قيمة الإنفاق ـ والزكاة ضرب من الإنفاق ـ قيمة ثابتة في وجودها، وثابتة في جذورها الاجتماعية، وثابتة في مكانتها الوطيدة بين القيم الإجتماعية الإسلامية.

وفي مقابل هذا الثبات على الزكاة، نجد التغير والتبدل في الحد الأعلى الذي ينبغي أن يقف عنده الإنفاق فبتغير ظروف المجتمع المسلم وحاجاته الفردية والجماعية يعلو الحد الأعلى للإنفاق ويهبط، وقد كنت منذ قليل أطالب بمزيد من البذل من أجل النهوض بأمتنا الإسلامية من كبوتها التاريخية، أطالب بالارتفاع والتغيير في الحد الأعلى للإنفاق، ذلك أننا اليوم أمام جيوش عسرة، لا جيش عسرة، ولا بد من أن نطالب أغنياءنا بمضاعفة العطاء، وأن نحث فقراءنا على البذل مع الحاجة، أي على الإيثار الذي هو القمة الرفيعة في الإنفاق ؛ وفي غير هذه الظروف، حيث لا جيوش عسرة، ولا حاجات ملحة، لا نشتد في الطلب، وندع للجميع الوقوف عند حدود الله لا يتجاوزونها، وهي حدود الزكاة.

ومرة أخرى نجد أن مصلحة الأمة الإسلامية هي القيمة العليا الثابتة التي تضبط التغير والثبات في قيم المجتمع المسلم. فها هنا، كما شاهدنا في قيمة العدل، التغير في الحد الأعلى للإنفاق صعوداً وهبوطاً، هدفه الحفاظ على بقاء مصالح الأمة مصونة ؛ فالتغير هو من أجل الثبات وفي إطاره، لا كسراً للقيمة العليا ولا انفلاتاً من قيودها بحسب الأهواء والأغراض الفردية.

وبعد أيها الأخوة، أظنكم تنتظرون مني كلمة في الثبات والتغير في الصدق، كي نفرغ جميعاً من هذا البحث.

أجل، هنا أيضاً ثبات وتغير ؛ هذا من جهة، وذاك من جهة أخرى.

فلقد رأينا عند الكلام عن الصدق أن القرآن الكريم يحرم الكذب ويدينه بضروبه كلها من افتراء وزور ونفاق.

كلنا يعلم أن ليس في القرآن آية واحدة تجيز الكذب، ومعنى هذا أن الصدق، بحكم كتاب الله، قيمة ثابتة لا تتغير بتغير الزمان والمكان، ولا تتباين بتباين المجتمعات والأمم.

والوضع في السنة الشريفة لا يكاد يختلف عن حكم كتاب الله عــز وجـــل.

فهناك حديث ينسب إلى الصادق الأمين عليه الصلاة والسلام يقول : « لا يصلح الكذب إلا في ثلاثة مواضع : الحرب فإنها خدعة، والرجل يصلح بين اثنين، والرجل يرضي امرأته ». وثمة حديث آخر أيضاً جاء فيه : « الكذب مكتوب إلّا ما نفع به مسلم أو دُفع به عنه ».

الحديث الأول رواه الطبراني، وفيه محمد بن جامع العطار، وهو ضعيف.

والحديث الآخر رواه البزاز، وفيه ضعفاء.

وعلى هذا يمكننا القول بأن السنة الصحيحة ليس فيها أي نص يجيز الكذب، وأن الصدق، من ثمة، قيمة ثابتة مطلقة لا تقبل أي تغيير، وأن البهتان والافتراء، والقذف والزور والنفاق كلها رذائل منكرة في مجتمع الإسلام.

ومع هذا كله فإن الناس يتساءلون ـ ولهم الحق في ذلك ـ : ماذا يجب أن نفعل إذا أيقنا أن الصدق سيؤدي إلى ضرر عظيم بالجماعة أو الأفراد ولن يحقق أية فائدة للآخرين ؟ ماذا يجب على المسلم أن يفعل إذا واجه موقفاً معقداً ـ هو نادر الحدوث حقاً ولكنه يقع فعلاً ـ أيقن فيه أن الصدق سيفضي إلى إلحاق الضرر بالآخرين، ووجد أن ضميرة الديني وحسه الخلقي يدفعانه إلى حجب الحقيقة أو التورية أو اللجوء إلى المعاريض ؟ هل يصدق أم يكذب ؟ وأي السبيلين يحقق مرضاة الله ؟

هذا التساؤل تجيب عليه السنة العملية لرسول الله ﷺ، لا السنة القولية.

فمن الثابت أنه ﷺ حجب الحقيقة عن المسلمين في أثناء غزوة

الأحزاب، حين بعث سعد بن معاد رضي الله عنه إلى كعب بن أسد زعيم يهود قريظة يسأله ويستوثق منه إن كان حقاً قد نكث العهد وانضم إلى الجيوش الغازية التي حاصرت المدينة، حين عاد سعد بنبأ نكث العهد لم يخبر الناس بالحقيقة انصياعاً لتوجيهات رسول الله ﷺ، وورّى قائلاً : **عَضَلٌ والقارَة، وكانت تلك العبارة تعبيراً عن نكث قريظة للعهد باعتبار أن** عضل والقارَة رمز للخديعة والغدر، إذ هم القوم الذين قتلوا ستة من أصحاب رسول الله عند البئر المعروفة باسم « الرجيع » على الطريق بين المدينة ومكة، بعد أن غدروا بهم ونكثوا عهد النبي عليه الصلاة والسلام.

ومن الجلي أن النبي ﷺ لم يحجب الحقيقة عن المسلمين إلّا بسبب الأضرار الكبرى التي كانت مؤكدة الوقوع لو علموا بنكث قريظة لعهدها مع النبي وانضمامها إلى جيش الكفر المتربص بهم. كانت روحهم المعنوية معرضة للانهيار لو علموا أن ظهورهم قد انكشفت لقريظة، وأن العدو الشرس القوي، الذي كبح الخندق جماح خيله، بوسعه الآن أن ينطلق إلى قلب المدينة من خلال قريظة وبمعاونتهم أيضاً.

ودفْع المفسدة عن المجتمع المسلم يأتي قبل الصدق ؛ وإذا تعارض الصدق مع المصالح الكبرى للأمة فإن من الواجب حجب الحقيقة أو اللجوء إلى التورية أو المعاريض، كما فعل قائد الأمة ونبيها عليه الصلاة والسلام ؛ فإذا زالت الأسباب الموجبة لحجب الحقيقة وجب كشفها فوراً ودون إبطاء، وإلّا فإننا نكون خارج قيم الإسلام الاجتماعية. وهكذا يبدو واضحاً أن مصلحة الأمة ـ مرة ثالثة ـ هي الضابط الأعلى الذي يمسك بزمام الموقف الأخلاقي كله، ويحدد بوضوح نطاق التغير والثبات داخل القيم الجزئية. وهكذا يتضح أيضاً أن جواز حجب الحقيقة عن المسلمين هو جواز مؤقت، يبطل فوراً بذهاب أسبابه، وتعود الفعالية بسرعة إلى قيمة الصدق ومقتضياتها. فالسنة ـ إذاً ـ تجيز تعطيل قيمة الصدق تعطيلاً لحظياً، وعلى مضض، وصولاً إلى صيانة قيمة اجتماعية أعلى وأشمل، وهي المصلحة الاجتماعية العليا للأمة.

ولا بد أن نلاحظ هنا أن هذه الإجازة قاصرة على ضرب واحد، هو

« حجب » الحقيقة أو التورية أو المعاريض، ولا تمتد مطلقاً لجواز الزور والبهتان والافتراء والنفاق. هذه ملاحظة هامة جداً كي لا تتخذ السنة الشريفة، خطأً ذريعة إلى فتح باب الأكاذيب والأباطيل المضللة الخادعة. فإذا أضفنا هذا إلى ما بيناه من أن حجب الحقيقة هو حجب وقتي سريع الزوال، أدركنا مدى التضييق الذي يُحكِمه الإسلام على هذه الرذائل الفاسدة المفسدة، وهو التضييق الذي يؤكده خلو القرآن الكريم والسنة الصحيحة من أي نص يجيز الكذب.

وقد ذهب الأصوليون إلى إقرار هذا التخريج، أو ما يقرب منه.

قال ابن القيم : « كل ما حُرم بيانه فالتعريض فيه جائز، بل واجب، إذا أمكن ووجب الخطاب »[1]، وقال أيضاً : « ولا ريب أن من كان علمه بالشيء يحمله على ما يكرهه الله ورسوله كان تجهيله به، أو كتمانه عنه، أصلح له وللمتكلم »[2]، فهو يجيز التعريض لتفادي بيان شيء محرم، بل يوجب ذلك إذا كان في وسع المسلم، وكان محتماً عليه أن يتكلم بتأثير سلطان أو موقف قسري أو إلجائي. وأمثلة ذلك : الأسير الذي يُسأل عن جيش بلاده، والطبيب يَسأله مريضه عن خطورة علته، وصاحب الدار يسأله معتد ظالم عن بريء مختبئ بداره، هل يجب عليهم الصدق أم الكذب ؟

ونحن لا يجب أن نضيق نطاق القيم الإسلامية، أو نقصرها على الأفراد غير المؤثرين على الأمة ككل. إن القيم الإسلامية، وقيمة الصدق من أهمها، يجب أن ترسم منهج حياتنا الاجتماعية، وقيمة الصدق كما بيناها هنا، منهج كامل للتربية والإعلام والفن، وكل وسيلة خطاب وتأثير في الأمة. إن كل مسئول في هذه الدوائر يجب أن يعلم أن الإسلام لا يجيز الكذب أو الزور أو الافتراء أو النفاق، ويجب أن يتعلم أن دينه ينكر كل هذه الرذائل المنكرة ويدينها أشد الإدانة، كما يجب أن يتعلم أن بعض الحقائق يجب أن يُحجب عن الناس لحظات، ربما تقصر أو تطول، لكن لا بد أن تأخذ الحقيقة طريقها إلى العقول والقلوب في نهاية الأمر. ومما يؤسف له أننا بعيدين جداً عن هذا النهج الإسلامي العظيم ؛ فالكذب والافتراء والنفاق هي

---

(١) اعلام الموقعين، ٢٤٧/٣.

(٢) نفسه، ٢٤٨/٣.

القيم السائدة. والحقائق الضارة والمدمرة، كأنباء الجرائم وأخبار السفهاء والتافهين من الفنانين والراقصين، تزيّن وتقدم إلى الناس دون إدراك للأضرار المهلكة التي تلحقها بأخلاق المجتمع ووجدانه. وأما إذا حجبت الحقيقة فإنما يكون ذلك للحفاظ على ماء وجه حاكم فاسد أو قائد منحرف أو وزير خائن أو غني فاسق.

. نستطيع أيها الأخوة أن نخلص بعد هذا إلى أن قيمة الصدق قيمة ثابتة في الإسلام، وأن مجال التغير فيها محدود جداً، ومحكوم بالمصالح العليا للأمة، تماماً كما رأينا في العدل والانفاق.

وهنا أيها الأخوة، ربما يثور في وجوهنا ذلك الاتهام المشهور بأن القيم الإسلامية لا بد أن تكون نسبية، ما دامت قامت للتغير من وقت إلى آخر، ومن مكان إلى آخر، تماماً كما كان مذهب السوفسطائية قديماً ومذهب نيتشه حديثاً.

والحق أن هذا الاتهام زائف ولا أساس له من الصحة.

ذلك لأن التغير الجائز في تطبيق قيم العدل والانفاق والصدق هو من أجل ثبات قيمة أعلى وأبعد نفوذاً في عالم القيم الاجتماعية، وأعني بذلك المصالح الاجتماعية العليا الحقيقية للأمة الإسلامية ـ فتغير أنصبة الشركاء في الربح، وتغير الحد الأعلى للإنفاق، وإجازة حجب الحقيقة، ليست نسبية سوفسطائية تحكِّم الهوى في القيم، وليست انفلاتاً للشهوات من ضوابط الأخلاق والتشريع، ولكنها صيانة للقيمة الاجتماعية ذاتها، وحفاظ على القيمة النهائية العليا ـ فالتغير في العدل من أجل ثبات العدل، والتغير في الانفاق هدفه سد الحاجات والخلات، وسد الخلات هو نفسه هدف الإنفاق أصلاً، والتغير في الصدق هدفه تحقيق هدف الصدق الأصيل، وهو المصلحة الحقيقية العليا للمجتمع المسلم.

فالتغير في تطبيق القيم هو من أجل الثبات، وداخل إطاره، لا خروجاً عليه، ولا معارضة لأهدافه العليا، وليس معنى تغير الأنصبة في العدل أن الإسلام يغير قيمة العدل بالإجازة والإيجاب والتحريم، باختلاف المكان والزمان، كما أن تغير الحدود العليا للانفاق لا يعني مطلقاً أن الإنفاق فضيلة

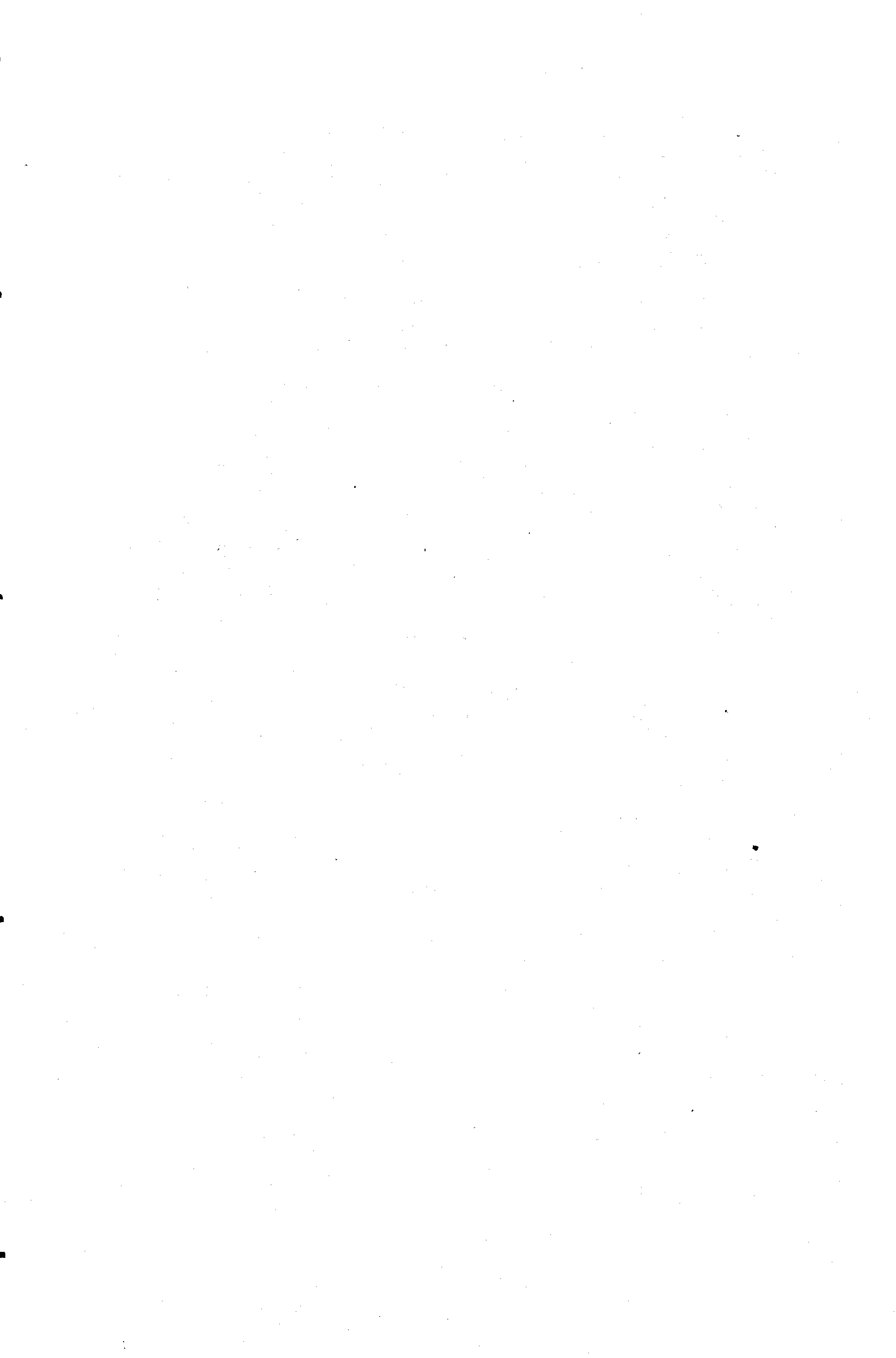
في زمان ورذيلة في زمان آخر، كما أن إجازة حجب الحقائق لا تعني أبداً أن الكذب يمكن أن ينقلب فضيلة.

إن القيم الإسلامية ثابتة في أصولها وأهدافها، ونظام القيم في الإسلام محكوم بقيم عليا نهائية، وهو نظام متسق ومذهبي. لكن جهود الإنسان محدودة، ولهذا ـ يعجز أحياناً عن النهوض بمقتضيات القيم كلها معاً، كما **هو الحال في جواز حجب الحقيقة نظراً لتعقد الموقف العيني ؛ هنا لا** مناص من تكريس الجهد للقيمة العليا النهائية، والتضحية مؤقتاً بالقيمة الأدنى ـ وهذا لا يمكن أن يعني بحال التنكر لهذه القيمة أو النظر إليها **على أنها تغيرت أو انقلبت إلى قيمة سالبة، ان المسلم يضحي بهذه القيمة** آسفاً، وسرعان ما يعود إليها بالتبني والإنجاز بمجرد زوال الموقف المعقد الذي فرض عليه تجاهلها.

هذا النظام المذهبي المتسق الذي يكفل للقيم الاجتماعية الثبات، والتغير داخل الثبات، ومن أجل الثبات، هو الذي يكفل لنظام المجتمع الإسلامي الرسوخ والتوطد، ويضمن له ـ في الوقت نفسه ـ القدرة المتجددة على استيعاب التغيرات الاجتماعية والحاجات الحيوية اللامتناهية.

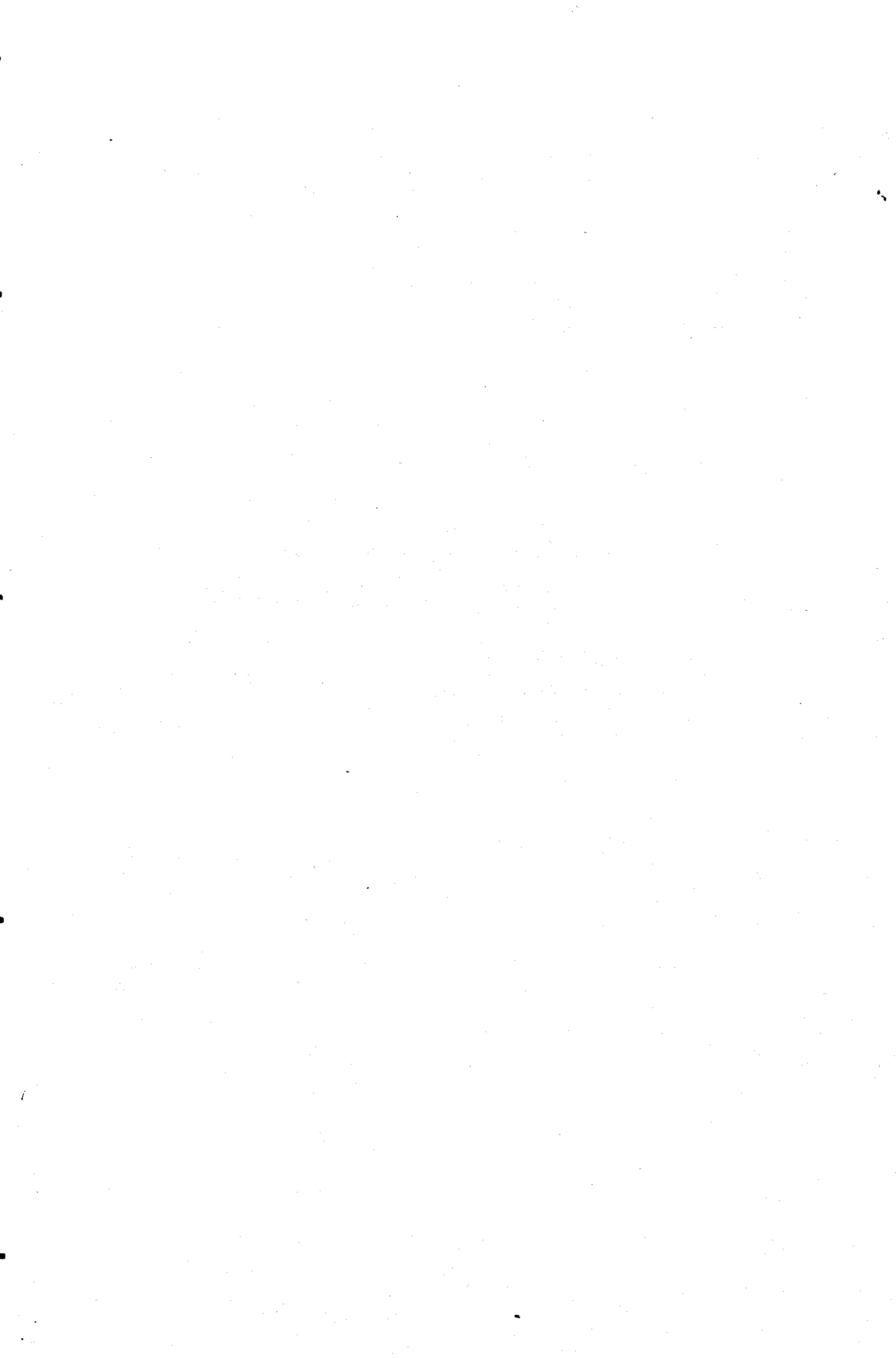
وهذه النتيجة النهائية، التي وصلنا إليها من خلال تحليل القيم الثلاث، هي البرهان العلمي على أن هذا الدين العظيم صالح ومصلح لكل زمان ومكان... والله أعلم....

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،،،



الفكر الحضاري لدى عمر بن الخطاب
في أصول السياسة والإدارة الحديثة

للدكتور سليمان محمد الطماوي
عميد كلية الحقوق - جامعة عين شمس - مصر



بسم الله الرحمن الرحيم

مما لا ريب فيه، أنه لن يختلف اثنان في أن أكثر فترات التاريخ العربي إشراقاً، وأقربها إلى الخلود، إنما هي فترة صدر الإسلام، وأيام حكم الفاروق عمر بن الخطاب بالذات، هذه الشخصية المتعددة الجوانب، ذات الضوء الباهر، والتي لا تكاد تبصر العين أبعادها.

ولقد أعجبت أيما إعجاب ـ وأنا أدرس هذه الفترة ـ بشخصية عمر، وزاد إعجابي به حين تخصصت في فرع من القانون، كان عمر فارسه الذي لا يباري، وهو ما يتصل بعلم السياسة والإدارة، وحينما أدخلت مادة « الإدارة العامة » في برنامج الدراسة في كليات الحقوق، فلقد استرعى انتباهي أن أساتذة هذه المادة من الأجانب لا يقنعون بدراسة الأفكار النظرية المجردة، التي تقوم عليها تلك المادة : من تنظيم وقيادة تنسيق وتخطيط... ولكنهم يكملون دراساتهم بعرض علمي لكبار رجال السياسة والإدارة الناجحين، في محاولة لتقصي أسباب نجاحهم، ويستوي في ذلك أن يكونوا من المعاصرين أو القدماء، ذلك أن الحقيقة العلمية التي انتهى إليها فقهاء هذه المادة من مختلف الدول، أن القيادة والإدارة تجمع بين خصائص العلم والفن معاً، وإذا كان العلم متاحاً للجميع، فإن الفن موهبة شخصية تختلف من فرد إلى آخر، ولا يمكن تحديد أبعادها إلا بدراسة شخصية الفنان، وأسلوبه في الحياة وفي التصرف وفي مواجهة المشاكل.

ونحن إذا تلفتنا في رحاب تاريخنا الطويل، برزت لنا شخصية عمر، وحجبت كل شخصية غيرها، بل لقد تضاءل بجوارها ما قدمه الفقهاء الأجانب من شخصيات.

والحق أنه ليس في التاريخ الإسلامي ـ بعد رسول الله ﷺ ـ رجل تردد الألسن اسمه ما تردد اسم عمر بن الخطاب، وهي تردده وتقرن به ـ في إعجاب وإكبار ـ ما عرف عن عمر من جليل الصفات، وعظيم المواهب، فإذا ذكر الناس الزهد في الدنيا، مع المقدرة على النهل من أنعمها، ذكروا عمراً، وإذا ذكروا العدل المطلق ـ غير مشوب بشائبة ـ ذكروا نزاهة عمر، وإذا ذكروا العلم والفقه، ذكروا عمرَ ودينه وفقهه، وأنت تتلو من أنباء ذلك في الكتب، ما تحسب الكثير منه مبالغة لا يكاد العقل يصدقها، فهي أدنى إلى المعجزات التي تنسب إلى الأنبياء منها إلى ما عرف عن أكبر العظماء سمواً، وجلالا وقدراً. ونحن إذا أردنا الرد على الشبهة التي يثيرها البعض، تلك التي تعتبر الدين، إلى حد ما، عقبة في سبيل إقامة دولة عصرية، وخلق مجتمع متحرر، سوف نجد الرد العملي في حياة عمر، منهجه، وسلوكه وفقهه.

لقد لحق الرسول بالرفيق الأعلى ـ بعد أن أدى الرسالة، وبعد أن أكمل الله الدين لعباده، ثم جاء أبو بكر فقضى على الردة، وأرسى دعائم الوحدة، وسلم الراية إلى عمر ليكمل البناء، وهنا تبرز شخصية عمر، فهو قد آمن بالإسلام إيماناً لا يفوقه إلا إيمان أبي بكر ـ وذلك إذا سلمنا بأن الكمال مراتب ـ وهو قد فهم الإسلام نصاً وروحاً بما لا يتطرق إليه شك، ثم هو بعد ذلك أرسى أسس دولة دنيوية، وأقام نظماً إدارية، ورتب علاقات اجتماعية، كل هذه في ظروف لم يشهدها رسول الله ﷺ ـ ولم يعاصرها الخليفة الأول، وذلك كله في رحاب الإسلام، على هدي من مبادئه وتعاليمه، فكيف نجح في ذلك عمر ؟، وهل تعتبر مهمة عمر في ظروفه تلك أيسر من محاولة إقامة العلاقات الاجتماعية الجديدة على هدي الإسلام ومبادئه ؟، إنني لا أتردد في القطع بأن مهمة عمر كانت أصعب كثيراً من محاولتنا اليوم، فكيف نجح عمر وتعثرنا ؟، هل يرجع العيب إلى العقيدة ؟، أم إلى عدم فهم العقيدة على وجهها الصحيح، وإلى قصورنا عن الاجتهاد الذي

يسمح بالملاءمة بين أصول العقيدة الثابتة وبين واقع المجتمع المتغير ؟.

لقد أشار فقيهان من أكبر فقهاء الإدارة العامة المعاصرين، هما الأستاذان « لوثر جيوليك، وجيمس بولوك » في تقرير قدماه إلى اللجنة المركزية لتنظيم الإدارة الحكومية في جمهورية مصر العربية ـ أشارا إلى أنه لا يمكن بحث خطط إعادة تنظيم جهاز أية حكومة أو إجراءاتها بمعزل عن تعرف التيارات العامة التي تسود حياة الأمة، والمعتقدات الأساسية التي تدين بها »، وبعد أن لخص الفقيهان الأسس العامة التي يقوم عليها الدين الإسلامي قالا : « **ويتجلى من تعمق هذه النقط أن الثقافة الإسلامية من أصلح الأسس للحكم الناجح في العصر الحديث، وليس هذا فحسب، بل إنها تقدم للشعب المبادىء التي يمكن أن يقيم عليها ديمقراطيته الجديدة،** التي تتميز بالقيادة الإيجابية الفعالة، ومشاركة الشعب في الحكم وتحري استخدام الثروة الخاصة والعامة لخير الأمة....... » .

وعمر بعد ذلك ـ وبغض النظر عن وضعه الإسلامي ـ هو قائد سياسي وإداري من أكفأ من عرفته البشرية في تاريخها المعروف، وهو بهذا يستحق وحده الدراسة المتخصصة من حيث مواهبه السياسية والإدارية، ليكون قدوة للعاملين في هذا المجال في مختلف الأمكنة والأزمنة.

إن جوانب العظمة في شخصية عمر أكثر من أن تحصى، وهي جوانب ترسم صورة دقيقة الملامح لمفتاح شخصيته، إلى علمه وثقافته وفقهه، ورجاحة عقله وبعد نظره، فلقد آلت إلى عمر شريعة الله أن يطبقها، وأن يستنبط قواعدها، فأصبح فارسها المجلى. وإذا كان الرسول ـ عليه السلام ـ هو الذي أرسى أسسها نقلاً عن ربه، فإن عمر بن الخطاب قد واصل أسلوب تطبيقها، واستمداد الأحكام الجديدة منها لمواجهة ظروف المجتمع المتغيرة، وهنا تكمن عظمة عمر، والعظمة الكبرى المستفادة من دراسته، والإحاطة بأساليبه في الحكم والإدارة، لقد جمع عمر بين الإيمان الراسخ، وبين المرونة التي تستجيب لحاجات الناس المشروعة، ومن ثم، فقد سجل الفقهاء فضل عمر في هذه الناحية، فعبد الله بن مسعود يقول مثلاً : « كان عمر أعلمنا بكتاب الله، وأفقهنا في دين الله ». بل كل ما فسر به عمر آي القرآن في معرض الحكم والعظمة، فهو التفسير الراجح في وزن

العقل والدين، وكل ما استخرجه من أحكام الشريعة فهو الحكم الواضح الصحيح.

إن جانب القيادة هو أبرز الجوانب في شخصية عمر، والقيادة البارعة هي روح السياسة والإدارة، وإذا كانت القيادة ـ سواء في مجال السياسة أو الإدارة ـ تقوم على أسس وقواعد علمية مسلم بها، وتدرس في الجامعات والمعاهد المتخصصة، فإنها من حيث الممارسة يغلب عليها طابع الفن، بل إن القيادة فيما مضى كانت أقرب إلى الفن منها إلى العلم ذي القواعد المؤصلة، وهذا يصدق تماماً في حالة عمر بن الخطاب.... لقد تجلت مشاكل السياسة والإدارة بصورتها كاملة في عهد عمر، وامتد به الأجل وبسطة العمر، لكي يضع لها الحلول الجذرية التي كشفت عن عبقرية فذة، يزيد من جلالها أن عمر لم يكن له سابق خبرة أو تجربة في هذه الميادين التي أصبح اسمه علماً عليها فيما بعد....

ومن المسلم به، أن القيادة تتصل بالأهداف وبالوسائل، أما الأهداف فليس عمر مبتدعها، بل تقررت في دعوة الإسلام كما فهمها عمر من الرسول عليه السلام، فشأنه شأن الخليفة الأول الذي كان يقول : إنما أنا متبع ولست بمبتدع، إلا أن هناك فارقاً كبيراً بين النظرية وبين التطبيق، فكم من نظرية سليمة على صعيد الفكر المجرد تتعثر من حيث التطبيق، وقد تفشل، فالتطبيق لا يقل أهمية عن رسم الأهداف الكبرى وتخطيطها، بل إن الدولة في أول شأنها، قد تكون في حاجتها إلى التطبيق السليم المبصر الرشيد، أكثر من حاجتها إلى نظريات وشعارات، وإن كان الأمران لا ينفصلان ـ ولقد نجح عمر ـ كما يسجل التاريخ ـ بل بلغ قمة النجاح في أن يجعل التطبيق في مستوى روعة الأهداف الإسلامية، حتى أصبح أسطورة تاريخ العالم...

كانت القدوة الحسنة هي المميز الأساسي لأسلوب عمر في القيادة، إلا أن هذا الأسلوب ـ من حيث كونه فناً عمرياً يميزه عن غيره من الحكام ـ لا يستقيم إلا إذا ربطناه بميزتين أخريين، كان لهما أيضاً فضل تحقيق النجاح الكبير الذي انفردت به قيادة عمر، وهما : حرصه على الإحاطة

بشئون الرعية بنفسه مباشرة في جميع شئونها، ثم إشراكه المسلمين معه في شئون الحكم، بما يطلق عليه اليوم اصطلاح « ديمقراطية الإدارة ». كان عمر قدوة في حياته الخاصة، نقصد بذلك أسلوبه في الحياة، وفي هذا المجال تفيض كتب التاريخ بأمور قد يعدها البعض اليوم من قبيل المبالغة، ولكن من تمعن في حياة عمر، يجد أنها أمر طبيعي، وأن عمر قد وضع لنفسه خطاً معيناً لا يتجاوزه، وهو أن يحيا حياة عامة المسلمين، بل دون ذلك في كثير من الحالات، وحجته في ذلك قاطعة لا سبيل إلى الرد عليها، عبر عنها بنفسه عام الرمادة، قال : « كيف يعنيني شأن الرعية إذا لم يُصِبْني ما أصابهم ؟ »، ويقيناً، إن هذه الحقيقة التي عبر عنها عمر ببساطة، هي مفتاح الحكم الصالح في كل عصر وزمان، أما القدوة العامة في حياة عمر، فنعني بها سلوكه كخليفة ورئيس دولة، لقد استودع السلطة العامة، وصار حفيظاً على أموال المسلمين. وهنا أيضاً نجد أن عمر قد جعل من نفسه ومن آله، قدوة حية على مدى العصور، لقد رأى عمر مثلاً رأياً في خلافة أبي بكر في مسألة راتب الخليفة، ذلك أن أبا بكر لم يخطر بباله حين أصبح خليفة أنه سوف يؤجر على عمله، وظنها حسبة لوجه الله تعالى، ولكن مطالب الحياة اضطرته إلى ممارسة التجارة، فانشغل بذلك عن أمور المسلمين، فطلب إليه عمر التفرغ على أن يؤجر على عمله من بيت مال المسلمين. فلما آل الأمر إلى عمر، جمع الناس يستشيرهم في مرتبه، وأجمعوا على رأي علي بن أبي طالب، « ما يصلحك ويصلح عيالك بالمعروف يا عمر »...

قلت : إن جوانب العظمة في شخصية عمر أكثر من أن تحصى، ولا سيما في مجال السياسة والإدارة، حيث تجلت عبقريته أكثر ما تتجلى، وبرز فقهه أكثر ما يبرز في موقفه من السلطات العامة في الدولة، ومن النظام الاجتماعي، ففترة حكم الخليفة عمر تعتبر ـ ولا شك ـ المثل الأعلى للفكر الإسلامي من حيث نظام الحكم، سواء على الصعيد النظري أو التطبيق العملي، ولئن كان كل من القرآن والسنة قد أرسى الأسس الكبرى لنظام الحكم، فإن تفصيل هذه الأسس، وملاءمتها للظروف المتغيرة، كان عملاً شخصياً للخليفة، يكشف عن عبقرية فذة، وفكر حضاري، واستعداد فطري

للقيادة. يقول الأستاذ العقاد في مؤلفه عبقرية عمر: « ندر في الدولة الإسلامية من نظام لم تكن له ـ أي عمر ـ أولية فيه، فافتتح تاريخاً، واستهل حضارة، وأنشأ حكومة، ورتب لها الدواوين، ونظم فيها أصول القضاء والإدارة، واتخذ لها بيت مال، ووصل بين أجزائها بالبريد، وحمى ثغورها بالمرابطين، وصنع كل شيء في الوقت الذي ينبغي أن يصنع فيه، وعلى الوجه الذي يحسن به الابتداء، فأوجز ما يقال فيه: إنه وضع دستوراً لكل شيء وتركه قائماً على أساس لمن شاء أن يبني عليه ».

فوفقا للتقسيم العصري، يجري الفقه الدستوري المعاصر على إرجاع وظائف الدولة إلى أنواع ثلاثة: هي التشريع والتنفيذ والقضاء، وبالرغم من حداثة هذه المصطلحات، فإنها في نظرنا لا تتعدى الصياغة، فكل دولة منظمة ـ قديماً وحديثاً ـ عرفت جهة ـ أياً كانت تسميتها ـ تولى التشريع، وعرفت أجهزة تقوم على تنفيذ القانون، وعلى تطبيقه بين الأفراد المتنازعين.

إنه من المسلم به أن هناك مصادر أربعة للتشريع هي: الكتاب والسنة والإجماع والقياس، وهناك مصادر أخرى مختلف عليها، منها: الاستحسان والمصالح المرسلة، والعرف، وشرع من قبلنا، وقول الصحابي والاستصحاب. ولو أننا تركنا ما يثار حول هذه المصادر من خلاف، ونظرنا إليها في مجموعها، لوجدنا أن مصادر الشريعة يمكن ردها إلى ثلاثة، هي: القرآن والسنة ثم الرأي. وقياساً على تعريفات العصر، فإننا يمكن أن نعتبر القرآن والسنة بمثابة التشريعات الدستورية، أما المبادىء التي تستقى من غيرهما من المصادر، « والتي تجمع تحت تسمية الرأي »، فإنها بمثابة التشريعات العادية، وعلى أن هذا الشبه إذا صح في خطوطه العامة، فيجب أن يوضح من عدة نواح:

الأولى: أن القواعد والأحكام المستمدة من القرآن والسنة تتسم بالخلود، ولا يمكن أن تتغير بحال من الأحوال، لكن يجب أن تفهم القاعدة السابقة في ضوء مما ورد في القرآن والسنة من أحكام، فهي في الحقيقة أحكام تقتصر على وضع ضوابط وأصول عامة تصلح للتطبيق في مختلف الظروف والبيئات والأزمنة، على أنها إذا تضمنت أحكاماً مفصلة اتسمت تلك الأحكام بالثبات العام.

الثانية : أنه مهما كانت حرية أهل الرأي في استنباط الأحكام التفصيلية من القرآن والسنة، فإن ثمة فارقاً جوهرياً بينهم وبين المشرعين في الدول الحديثة، فالمشرع الحديث يستطيع أن يضمن تشريعاته ما يشاء من أحكام ـ إلا ما استبعده الدستور صراحة ـ، أما الرأي في التشريع الإسلامي فيجب أن يدور في نطاق الأحكام الخالدة التي تقررت في كل من الكتاب والسنة.

الثالثة : بالرغم من الأهمية البالغة لكل من القرآن والسنة، فإن الرأي هو المصدر الحقيقي للقواعد الجديدة التي تحتاج إليها جماعة المسلمين لمواجهة الظروف المستحدثة.

فمثلاً : الاجتهاد الذي عرفه الإسلام له مظهران : جماعي وفردي، فالجماعي هو أن يعرض ولي الأمر المسألة على مجتهدي عصره، فيبحثونها ثم يجمعون فيها على رأي، وهذا هو الإجماع الذي اعتبر المصدر الثالث للتشريع الإسلامي، وهو مصدر ملزم للأحكام الشرعية. أما المظهر الفردي، فهو اجتهاد كل مسلم تتوافر فيه شروط الاجتهاد، وحكم هذا الاجتهاد الفردي : أنه لا يكون حجة ملزمة إلا لصاحبه، إلا أن هذه القاعدة لا تصدق على إطلاقها إلا بالنسبة للمجتهدين الذين لا يشغلون وظائف عامة، أما إذا تقلد المجتهد ولاية عامة كالخلافة أو الوزارة أو القضاء مثلاً، فإنه سيؤخذ بما انتهى إليه اجتهاده، فيما يعرض عليه من مسائل وحينئذ سيصبح اجتهاده ملزماً لمن تشملهم ولايته.

ووصول المجتهد إلى رأي معين في موضوع بعينه، لا يمنعه من الرجوع عن هذا الرأي إذا أدى اجتهاده اللاحق إلى رأي آخر، لكن إذا كان المجتهد حاكماً فليس له أن يرجع باجتهاده إلى الماضي، وهي القاعدة التي يعتنقها التشريع الحديثة بعنوان « عدم رجعية التشريع ».

فهل يا ترى حدَّت تلك القيود من حرية الحركة لدى عمر، وعاقته عن بلوغ أهدافه ؟.

لقد بلغ عمر في اجتهاده مرتبة لم يبلغها سواه، حتى عدت أولياته بالعشرات. ذكر الاستاذان علي طنطاوي وناجي طنطاوي في مؤلفهما عن

عمر، أولياته منها :

- أن عمر أول من عس في عمله بالمدينة، وأول من حمل الدرة وأدَّبَ بها.
- أول من مسح السواد وأرض الجبل، ووضع الخراج على الأرض.
- أول من مصَّرَ الأمصار : الكوفة والبصرة، والجزيرة والفسطاط بمصر.
- أول من استقضى القضاء في الأمصار، ودون الدواوين وأحصى الناس.
- أول من زاد في مسجد رسول الله، وألقى فيه الحصا.
- أول من نهى عن بيع أمهات الأولاد، وأول من وضع العشر في الإسلام.
- أول من جمع الناس على التراويح في رمضان.
- أول من أخذ زكاة الخيل، وأول من وضع التاريخ.
- أول من قضى في ميراث الأم وأعطاها ثلثي الباقي في مسألتين : زوجة وأبوان، أو زوج وأبوان.

وإليكم بعض صور من اجتهاد عمر في مختلف نواحي الحياة، لندرك كيف أمكن لهذا العبقري أن يوفق على أحسن نحو ممكن، بين أصول الإسلام الثابتة وحاجات المجتمع المتغيرة. ومن الجدير قبل أن نعرض لهذه الصور أن نذكر : أن أصول الفقه لم تكن قد وضعت، وأن الاجتهاد لم يكن يقصد به مواجهة فروض نظرية واحتمالية، ولكن كان وسيلة لمواجهة احتياجات المجتمع الإسلامي المتغيرة، وأخيراً، إن المسلمين في الصدر الأول للإسلام لم يكونوا كثيري السؤال، فلم يكونوا يعرضون للمسألة إلا عند الضرورة، فلقد نهاهم القرآن عن كثرة السؤال، لهذا قال ابن عباس : « ما رأيت قوماً قط كانوا خيراً من أصحاب رسول الله.... ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة في القرآن حتى قبض، وما كانوا يسألونه إلا عما ينفعهم، وكان عمر بن الخطاب يلعن من سأل عما لم يكن ».

أما اجتهادات عمر، فحسبنا أن نذكر منها :

أولاً : مسألة جمع القرآن في مصحف واحد، فهو الذي اقترح هذا على أبي بكر بعد موقعة اليمامة، التي استشهد فيها عدد من حفاظ القرآن.

ثانياً : مسألة الأموال العامة، فقد كانت موارد الدولة على عهد عمر تنحصر في : الزكاة، والفيء ثم الغنائم، ولكل مورد من هذه الموارد جهات

صرف محددة، ومن اجتهادات عمر في هذا المجال : تأخيره جمع الزكاة عام الرمادة، فلم يبعث الجباة لجمعها. ووقفه سهم المؤلفة قلوبهم، ورفضه تقسيم الأرض التي فتحها المسلمون عنوة في العراق والشام ومصر، بين الفاتحين، وفرضه الخراج عليها ثم استحداثه للعشر، ضريبة تفرض على التجار الذين يفدون من أرض الحرب للمتاجرة في أرض المسلمين.

ثالثاً : ولعمر في مجال العبادات اجتهادات : جمع الناس على صلاة التراويح في رمضان، وفي مجال العقيدة، قطع الشجرة التي تمت تحتها بيعة الرضوان بعد أن بلغه أن الناس يأتون إليها فيصلون عندها، وقال : أراكم أيها الناس رجعتم إلى العزى. « وخرج عمر إلى الحج مرة ــ وبعد أن صلى الفجر بالناس ــ مرَّ بهم على مسجد فأسرع إليه الناس، فقال عمر : ما هذا ؟، قالوا : هذا مسجد صلى فيه النبي ﷺ. فقال عمر : هكذا هلك أهل الكتاب قبلكم، اتخذوا آثار أنبيائهم بيعاً، من عرضت له صلاة فليصل، ومن لم تعرض له صلاة فليمش ».

رابعاً : وكان لعمر في مجال الحدود اجتهادات، فلقد وردت آيات التشريع في القرآن الكريم محدودة، كما أن الجرائم التي وضع لها القرآن عقوبات محددة محصورة، إلا أن المجتمع الإسلامي في عهد عمر تطور إلى تطور جوهري وكان عليه أن يعمل جاهداً على منع الانحرافات، والقضاء عليها في مهدها بالقرآن والسلطان معاً، ومن هنا كثرت العقوبات التي سنها عمر، والتي لم يكن لها مقابل في عهد الرسول أو أبي بكر. وعمر يعتبر أول من حد شارب الخمر ثمانين جلدة، أخذاً برأي (عليٍّ) الذي رأى أن يحد حد القذف، وقال : **« إن الرجل إذا شرب سكر، وإذا سكر هذي وإذا هذي افترى »**، بل إن عمر جلد الشارب في نهار رمضان ثمانين جلدة حداً، وعشرين أخرى تعزيراً، وعمر هو الذي جعل حد من زور خاتم الدولة وحصل من ذلك على أموال، الضرب والحبس ومقاسمة ماله، بل إن عمر عاقب على أفعال لا يعتبرها الفكر القانوني المعاصر من قبيل الجرائم، وذلك لما بين التشريع الإسلامي والشرائع المعاصرة من فروق، فالتشريع المعاصر يعتمد على العقل والمنطق المجرد أما التشريع الإسلامي فأساسه الوازع

الديني، والضمير الذي يحرك الإنسان في نطاق الجماعة وفقاً لقيم عامة واسعة، فلقد أوسع عمر رجلاً ضرباً لأنه خطب فتاة على أنه شابٌّ وقد خضَّب شعره، فاستعدى أهل الفتاة عليه عمر الذي أوجعه ضرباً، وهو يقول له : غررت القوم. وعندما سمع عمر صوت بكاء في بيت، دخل ومال على أهله ضرباً حتى بلغ النائحة فضربها حتى سقط خمارها، ثم قال لغلامه : اضرب النائحة، إنها لا حرمة لها، لأنها لا تبكي بشجونكم، إنما تريق دموعها على دراهمكم، إنها تنهى عن الصبر، وقد أمر الله به، وتأمر بالجزع وقد نهى الله عنه.

على أن اجتهاد عمر في هذا المجال يتجلى في مبدأين أساسيين، استنهما عمر، ثم صارا من المبادئ المسلمة في التشريعات الحديثة وهما : تعطيل الحدود في حالة الضرورة، وتعطيل الحدود في الشبهات، ومن مأثور قوله في هذا الخصوص : « لأن أعطل الحدود في الشبهات، خير من أن أقيمها في الشبهات »، ومن القضايا التي طبق فيها عمر المبدأين : تعطيل حد السرقة بالنسبة للمكره ـ كما حدث في عام المجاعة ـ وكان يأمر قواد الجيش بألا يحاولوا تنفيذ الحد على مسلم إلا إذا بعدوا عن بلاد الأعداء، لأنه كان يكره أن تحمل المحدود حمية الشيطان على اللحوق بالكفار.

ثم إن عمر أدرك القاعدة الحديثة والقائمة على تفسير الحدود تفسيراً ضيقاً والاقتصار على تنفيذ العقوبة المقررة دون غلو أو إسراف، لذلك غضب على أبي موسى الأشعري حين جلد شاباً، وحلق شعره، وسود وجهه، ونادى في الناس ألا يجالسوه أو يؤاكلوه، لأن حد الشراب ثمانين جلدة ـ كذلك كان يأبى عمر المجتهد أن يكون تنفيذ العقوبة سبباً لتجمهر الناس، لمجرد المتعة وإشباع الفضول.

أما موقف عمر من النظام الاجتماعي، فنشهد له بعبقرية فذة، وفكر حضاري، وحسبنا أن عمر لم يغب عنه أن حاجات الناس متغيرة، وأنه يقع على عاتق كل جماعة أن تجتهد لنفسها، لأنها أدرى بحاجتها ومصالحها، ومما يروى عنه قوله : « الناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم ».

إن ظروف تطبيق النظرية الإسلامية التي واجهها عمر، كانت بالغة

القسوة، فلقد ظل تطبيق النظرية، حتى وفاة الرسول ووفاة الخليفة الأول، محصوراً بصورة أساسية في البيئة العربية، بظروفها التقليدية، حقيقة أن الإسلام أحدث تغييراً جوهرياً في العلاقات الاجتماعية، لكنه تم في نطاق البيئة العربية التي ألفها العرب، فلما جاء عمر، تغير كل ذلك رأساً على عقب، كان عليه أن يطبق النظرية الإسلامية خارج نطاق الجزيرة، وعلى شعوب ألفت مدنية لم تتح للعرب، بعد أن عاش المسلمون، العرب الفاتحون، حياة تختلف تمام الاختلاف عما ألفوه في الجزيرة العربية، ومن هنا كانت صعوبة مهمة عمر، وكانت عبقريته الفذة في الوقت ذاته، ولقد بدأ اهتمام عمر الكبير ـ في هذا الصدد ـ بالعمل على وحدة الفكر في الدولة الناشئة، وإذا كان المثل الأعلى لوحدة الفكر، يقضي بمطاردة الأفكار الأخرى والقضاء عليها، باعتبارها فكراً مضاداً، ومن هذا المنطلق، فإن النظريات السياسية المعاصرة، إنما تقوم على عدم السماح بالفكر المضاد باعتباره ثورة مضادة، وهكذا فإن المعسكر الماركسي مثلاً، لا يسمح بالاجتهاد إلا في نطاق النظرية الماركسية، بحيث يعتبر كل اجتهاد خارجها خيانة يعاقب مرتكبها بأشد أنواع العقاب، فإن الإسلام له من هذا الأمر موقف أصيل، يكشف عن سماحة وحرية لم تعرفهما البشرية قبله، يتمثل هذا في قوله تعالى: « لا إكراه في الدين »[1].

لقد تعايشت الأديان السماوية الثلاثة في عهد الرسول وفي عهد أبي بكر في الجزيرة العربية وخارجها، وإذا كان الرسول قد أخرج بعض اليهود وقاتلهم حتى قضى عليهم، فلم يكن ذلك بسبب تمسكهم بدينهم ورفضهم الإسلام، ولكن لأنهم نقضوا العهد، وقاتلوا المسلمين وأعانوا عليهم، أما عمر فما واجهه من اعتبارات قد أدت به إلى أن يجتهد، فيميز بين شبه الجزيرة العربية من ناحية، وبين أرجاء الدولة الإسلامية من ناحية أخرى، فقد جعل الدين واحداً في شبه الجزيرة، فأجلى اليهود بعد اعتدائهم على المسلمين، وأجلى نصارى نجران، الذين عاهدهم كل من الرسول وأبي بكر على ألا يفتنوا في دينهم، ما رعوا العهد، ونصحوا ولم يأكلوا الربا، لكنهم نقضوا

---

(١) سورة البقرة آية ٢٥٦.

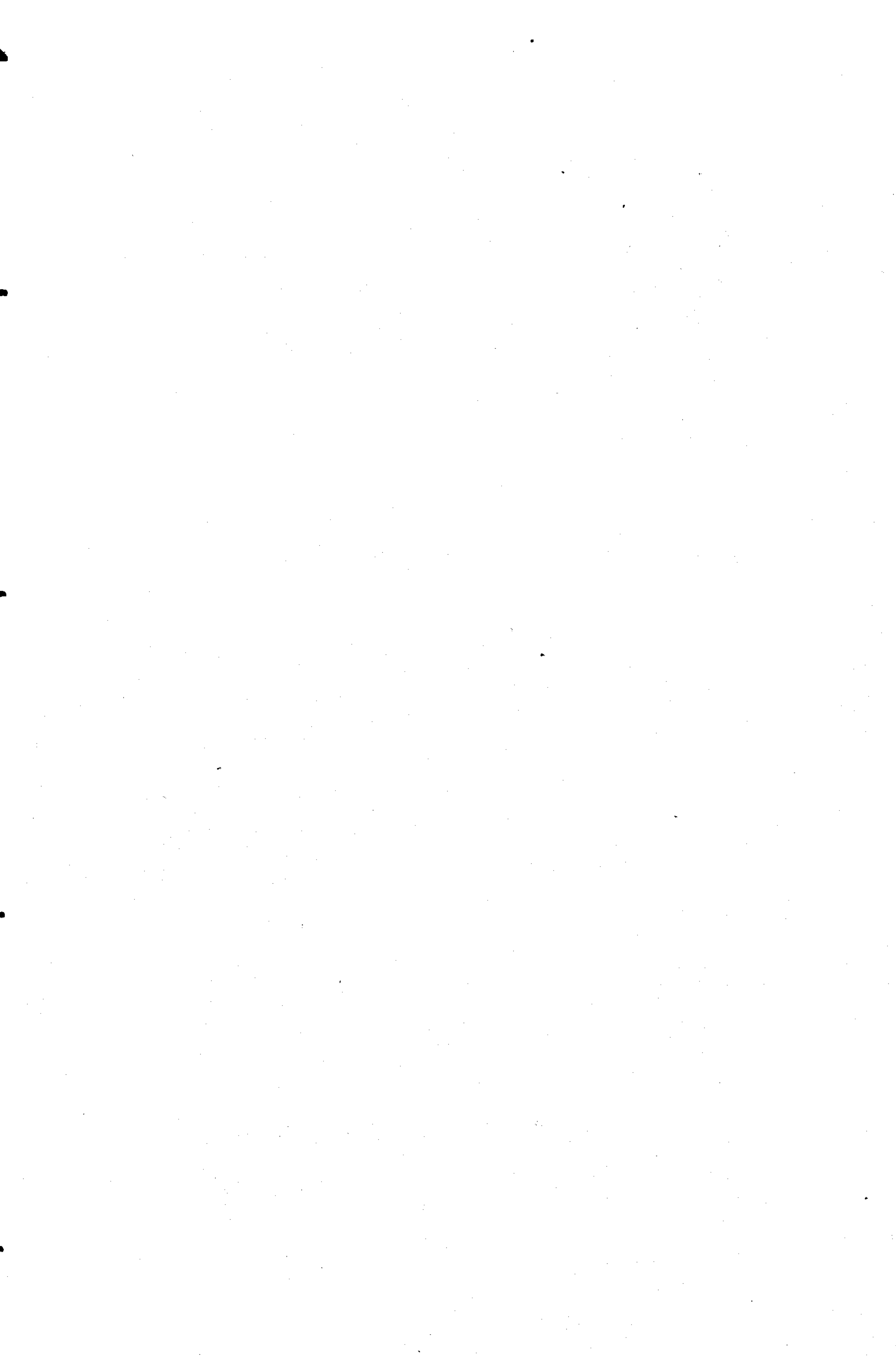
العهد، وقويت شوكتهم، وكان عمر عادلاً معهم فأعطاهم أرضاً كأرضهم، إقراراً لهم بالحق ووفاء بذمتهم، واستقر بهم المقام بالكوفة، وكتب لهم عهداً يفيض رحمة وعدلاً.

وبالرغم مما أثاره بعض المستشرقين من نقد لموقف عمر، إلا أن موقفه يقدره كل منصف، ولو أننا أخذنا الأمر بعين السياسة المجردة، لالتمسنا العذر لعمر، فالدولة التي تُقْدم على تغيير شامل في نظمها، وتتعرض لخطر محدق بأمنها ـ بل وبقائها ـ من حقها أن تؤمن نفسها بكل الطرق.

ونختم هذا البحث بموقف عمر من الأخلاق العامة، وواضح أن عمر في هذا المجال متبع وليس بمبتدع، لكن بالنظر إلى القواعد التي أرسى الإسلام أسسها، وإلى مرونة هذه القواعد، فإن مجال الاجتهاد في تطبيقها متسع، لتواجه ظروف المجتمع المتغيرة، وفي هذا المجال ـ كما هو الشأن في المجالات الأخرى ـ تتضح نظرة عمر الواقعية، كرجل دولة، يدرك تماماً متطلبات الحياة المثالية لشعب يحمل رسالة عالمية، والحاجة إلى التوفيق بين متطلبات الحياة، وبين المثل الأعلى الذي رسمه الله للناس. كان عمر يعلم أن الدين بصفة عامة، والإسلام بصفة خاصة، ليس مجرد أفكار نظرية يعتنقها الناس، وأنه ليس مجرد عبادات يتقرب بها المسلم إلى ربه، ولكنه ـ أولاً وقبل كل شيء ـ أسلوب كامل في الحياة، كما وصفه الرسول : « ما وقر في النفس وصدقه العمل ».... ومن هنا جاء اجتهاد عمر ـ في نطاق الفروع ـ لكي يجعل من تعاليم الإسلام دستوراً للحياة، وقد نجح في ذلك بصورة لم يبلغها **المجتمع الإسلامي إلّا في عهده.**

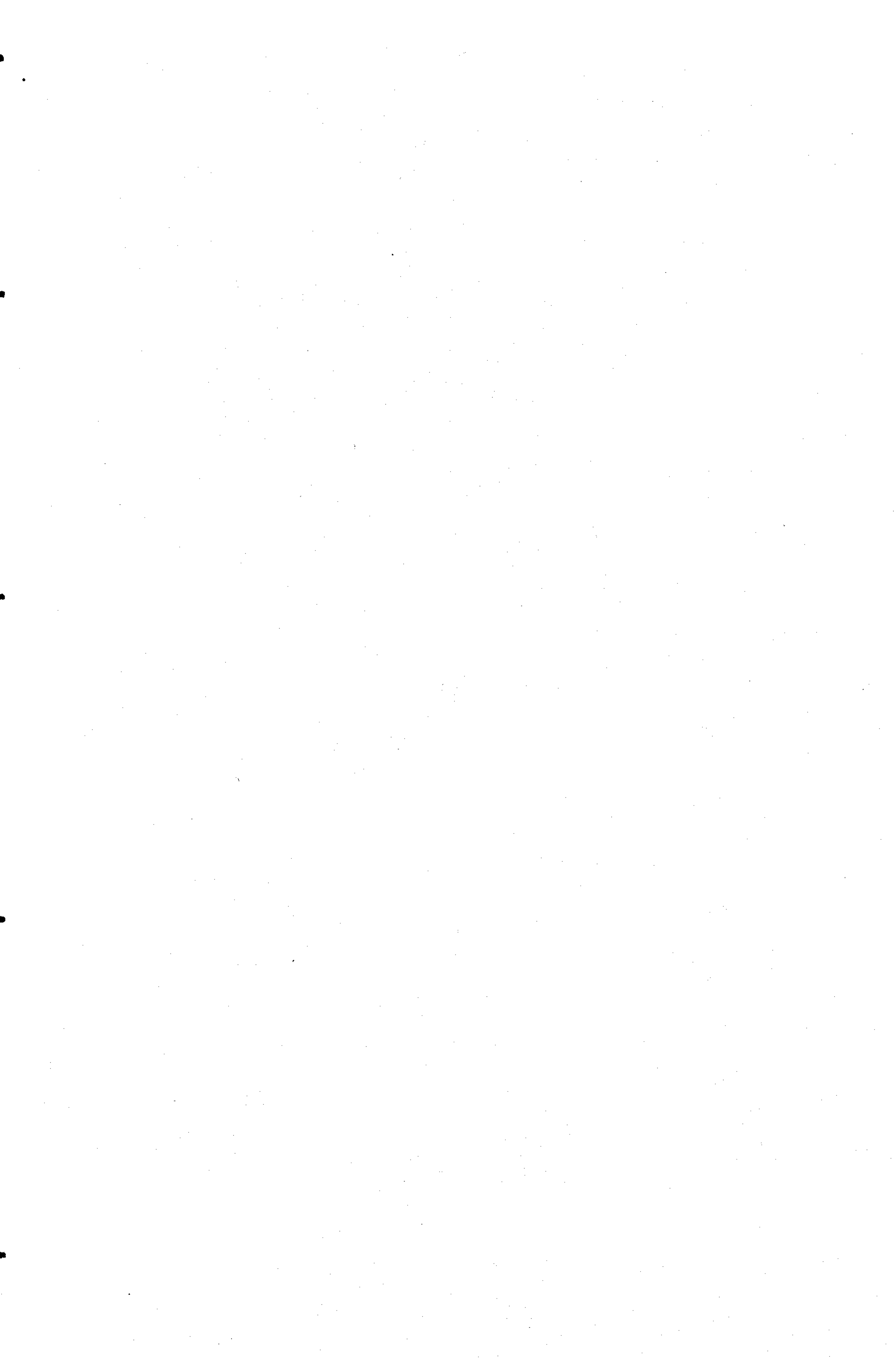
لقد كان عمر عبقرياً، ما في ذلك شك، وكان الرائد المسلم العربي الأول في مجال السياسة والإدارة، وما نود أن نؤكده في السطور الأخيرة : أن على الشعوب التي تجدُّ في البحث عن القيادة الصالحة، أن تجدَ نفسها أولاً، ومن هنا لا نؤمن إطلاقاً، بأقصوصة « المستبد العادل » كوسيلة لإصلاح الشعوب، إن القادة لا يصنعون الشعوب، ولكن الشعوب هي التي تصنع القادة، وعمر ـ رضي الله عنه ـ كان ثمرة ناضجة للشعب المسلم الذي غرز الرسول بذرته، وتعهده بالرعاية طيلة ثلاثة عشر عاماً.

ونؤكد ثانياً : أنه مهما حسنت نية القائد، فإن النظم الكفيلة بسلامة الحكم ومنع الانحراف ضرورية في جميع العصور، وأن وجود قائد كفء ورع مثل عمر، ما كان يغني عن وضع أسس هذه النظم، ولهذا فكر عمر في كل النظم التي تكفل سلامة الحكم وأرسى أسسها، ومما لا جدال فيه أن معظم ما يرد من مصطلحات حديثة في مجال الحكم والإدارة، كان له ما يقابله على أيام عمر، وكان عمر هو المنشئ والمؤسس، وأن الخلاف ـ في الحقيقة ـ إنما يرجع إلى الصياغة لا إلى الجوهر والوظيفة.



الفكر الحضاري لدى فقهاء المسلمين

للأستاذ محمد عبد الله السمان
كاتب إسلامي



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

مما لا جدال فيه أن للحضارة مكاناً مرموقاً في تاريخ الإسلام والمسلمين، ويوم أن كانت أوروبا تعيش عصر الظلام، كانت شمس الحضارة الإسلامية تشرق على العديد من الآفاق، وليس هذا راجعاً ـ فحسب ـ إلى ما كانت تتمتع به الدولة الإسلامية من الاستقرار السياسي والازدهار الاقتصادي، بل أيضاً إلى أن الإسلام كان يساير التطور، ولا يعترض طريقه ولا يعوق مساره.

ومما لا جدال فيه أيضاً أن حضارة أوروبا، بعد عصر الظلام الذي ساد أوروبا، إنما هي مدينة بالفضل للحضارة الإسلامية، ولسنا مدعين في هذا، فالمنصفون من مفكري أوروبا ذاتها لا يسعهم إلا الاعتراف بهذه الحقيقة، وحتى غير المنصفين من مفكري الغرب لم يستطيعوا إنكار هذه الحقيقة التي هي بمثابة المسلَّمَة من المسلَّمات، وإن كانوا قد أضافوا إليها، وأدخلوا عليها ما يقلل من شأنها.

وليست أوروبا وحدها هي التي تأثرت بالفكر الحضاري الإسلامي، بل آسيا أيضاً، ولا سيما الهند، فالدكتور « تارا » يقرر في مؤلفه : تأثير

الإسلام على حضارة الهند.. أن للعقلية الإسلامية والشريعة الإسلامية تأثيراً **في أخلاق الأمم، اجتماعياً وتشريعياً في أوروبا النصرانية، وفي الهند الوثنية** بعد الفتح الإسلامي، تراه وتلمسه في الاتجاه إلى التوحيد، ونزعات الاحترام للمرأة وحقوقها، والاعتراف بمبدأ المساواة بين طبقات البشر، إلى غير ذلك مما سبق إليه الإسلام وامتازت به شريعته ومدنيته.

وما أكثر ما لدينا من شهادات مفكري الغرب ـ ولا سيما المنصفون منهم ـ على تأثير الفكر الإسلامي على مسار الأفكار في أوروبا وآسيا، سواء منها ما كان سابقاً على الإسلام أو ما جاء بعده ـ لكن لا مجال هنا في هذا البحث الذي نحن بصدده، لتسجيل مثل هذه الشهادات، وما هو جدير بالإشارة إليه ـ في هذا البحث ـ أمر ذو أهمية خاصة، هذا الأمر هو أن معظم الذين أرّخوا للحضارة الإسلامية ـ من المسلمين وغير المسلمين، قد أعطوا الأهمية الكبرى لسائر ألوان الحضارة : الفكرية منها وغير الفكرية، ولا سيما الابتكارات العلمية، والفن بشتى فروعه، وغفلوا ـ دون قصد ـ عن الفكر الحضاري لدى فقهاء المسلمين.

إن نظرة سريعة إلى الثروة الفقهية الضخمة من التراث، تقنعنا بأن هذه الثروة ليست إلا نتاج فكر حضاري متقدم، كان لدى فقهاء المسلمين، هذه الثروة الفقهية شملت الحياة الإسلامية بأسرها، نظمت وجود الفرد والأسرة والمجتمع والدولة، عقائدياً واجتماعياً وسياسياً، واقتصادياً وأدبياً وفكرياً، مما وهب للحياة استقرار أبنائها.

وإذا كان واقع المسلمين اليوم لا يشير إلى أدنى استقرار ـ فليس الذنب ذنب الفقه الإسلامي القائم بيننا نظراً لا تطبيقاً، وإنما الذنب ذنب الأمة الإسلامية ذاتها، هذه التي تحللت من شريعة الله وتخلت عنها، واستبدلت الذي هو أدنى بالذي هو خير، أهملت تراثها واعتزلته، واستوردت من الغرب ومن الشرق شرائع وقوانين ومبادىء، تمتد بعض جذورها إلى عصور الجاهلية الأولى.

إن مفهوم الحضارة المتبادر إلى الأذهان، إنما يؤدي إلى الارتقاء البشري مادياً وروحياً وفكرياً، والذي يعنينا في نطاق هذا البحث من هذه

المجالات الثلاثة هو ـ فحسب ـ المجال الفكري، بل ليس المجال برمته، فإن ما يعنينا جانب واحد منه هو فكر الفقهاء المسلمين، هذا الفكر الذي لم ينل حظه من التقدير الجدير به لدى معظم الذين أرخوا للحضارة الإسلامية، ولست أدري كيف يمكن أن يتجاهل مثل عقليات الأئمة :

أبي حنيفة ومالك، والشافعي وأحمد، وابن حزم وابن تيمية، وابن القيم، وابن قدامة والشاطبي والشوكاني، وابن رشد والسرخسي، وكثيرين غيرهم من الفقهاء المجتهدين.

إنه لمن المتفق عليه أن المصدرين الأساسيين للتشريع الإسلامي، واللذين لا يختلف عليهما مسلمان، هما الكتاب والسنة، إلا أن نصوص هذين المصدرين الأساسيين هي بمثابة المادة الأولية، وكان دور الفقهاء ليس قاصراً ـ فحسب ـ على التصنيع والصياغة والتقنين، بل أيضاً كان لهم اجتهادهم في طرق الاستدلال والاستنباط من هذين المصدرين. وقد أدى اجتهاد الفقهاء ـ في إطارهما ـ إلى إبراز مصادر أخرى ثانوية، وقد ألحق بهذين المصدرين الأساسيين الإجماع والقياس، واعتبرا أقرب المصادر إليهما، والعجيب أن مفكراً إسلامياً له شأن كابن خلدون يقف عند حدود هذه المصادر الأربعة، فيقرر في مقدمته : أن ما عداها من طرق الأدلة الأخرى التي عني بها الأصوليون قليل الأهمية، لا حاجة به حتى إلى الإشارة إليها، يقول في المقدمة : « واتفق جمهور العلماء على أن هذه هي أصول الأدلة ـ يعني الكتاب والسنة والإجماع والقياس ـ وإن خالف بعضهم في الإجماع والقياس، إلا أنه شذوذ، وألحق بعضهم بهذه الأربعة أدلة أخرى لا حاجة بنا إلى ذكرها، لضعف مداركها وشذوذ القول فيها ».

أما بقية طرق الأدلة التي لم يعبأ بها ابن خلدون فمنها : الاستصحاب والاستقراء والاستحسان، والمصالح المرسلة، والأخذ بأقل القليل، وقول الصحابي وإجماع أهل المدينة، والعرف، وسد الذرائع، ثم شرع من قبلنا. والحق أن للرد على رأي ابن خلدون أهميته، لأننا نرى أن مثل طرق الأدلة هذه، كان نتاج فكر حضاري لدى فقهائنا الذين اعتبروا هذه الأدلة وقدروها حق قدرها، ولم يشذ من الفقهاء إلا الظاهرية. صحيح أن فقهاءنا لم يجمعوا

عليها، لأنهم لم يجمعوا إلا على المصدرين الأساسيين، وهما الكتاب والسنة، ولكنهم استوعبوها جميعاً ما عدا مسألة الأخذ بأقل القليل، حيث أخذ بها الشافعية وحدهم، ومسألة إجماع أهل المدينة، حيث انفرد بها الإمام مالك وخالفه بقية الفقهاء.

خطـة البحـث :

إن موضوع : الفكر الحضاري لدى فقهاء المسلمين موضوع متشعب الجوانب يضيق به مثل هذا البحث الذي روعي فيه الإيجاز، والتركيز على معالم الموضوع وخطوطه الرئيسية مع شيء قليل من التفصيل، حسبما تقتضيه الحاجة، لذلك اخترت من هذه المعالم أو الخطوط الرئيسية ثلاثة :

١) كثرة طرق الأدلة والاستنباط.

٢) الاجتهاد لدى الفقهـاء.

٣) الخـلاف بين الفقهـاء.

* * *

أولاً : كثرة طرق الأدلة والاستنباط :

وكما بدأت بمقدمة كمدخل للبحث، ختمت بخاتمة، خصصتها للرد على بعض شبهات أثارها بعض المستشرقين وعملائهم من المسلمين حول الموضوع الذي نحن بصدده.

يجدر بنا في هذه الزاوية من البحث أن نفرق بين مصطلحات ثلاثة هي : الشريعة والفقه، ثم أصول الفقه. يقول الدكتور محمد يوسف موسى في رسالته : « الإسلام ومشكلاتنا الحاضرة »(*) :

« ينبغي أن نفرق بين الشريعة وبين الفقه، فإن الخلط بينهما يجر إلى خطر كبير، وذلك بأن مخالفة شريعة الله قد تؤدي إلى الإلحاد بل إلى الكفر أحياناً، ولكن الخطأ في الفقه عن اجتهاد لا شيء فيه، ففي المأثور : أن للمجتهد إن أصاب أجرين، وإن أخطأ فله أجر واحد، إن الشريعة هي كل ما شرعه الله لعباده من الدين والأحكام، فهي في الإسلام تشمل كل ما جاء في القرآن، وعن الرسول، من ناحية ما يجب أن يعتقد في الله وذاته وصفاته وصلته بالعالم، وأحوال الدار الأخرى، وهذا ما يسمى بعلم « الكلام »، أو « التوحيد »، ومن ناحية أحكام الله لأعمالنا من الحل والحرمة والصحة والفساد، إذا كانت هذه الأحكام قد بينها الكتاب أو السنة فلا يختلف فيها أحد، مثل حل البيع وحرمة الربا، وهذا جانب من الفقه بلا ريب، ومن ناحية تهذيب المرء نفسه وأهله وأولاده، وما يجب أن يكون عليه من سلوك، وهذا ما يعرف بعلم الأخلاق.

أما الفقه، فهو العلم بأحكام الشريعة التي تتناول أحكام الإنسان وتصرفاته، سواء في هذا العبادات والمعاملات على اختلاف ضروبها، مثل الحكم بأن هذا التصرف جائز أو غير جائز، وهذا العقد صحيح أو غير صحيح.

وأما أصول الفقه، فهي علم مؤداه ــ كما يقول ابن خلدون في مقدمته ــ النظر في الأدلة الشرعية من حيث تؤخذ منها الأحكام والتكاليف،

(*) العدد الرابع من سلسلة الثقافة الإسلامية ــ لمحمد عبد الله السمان سنة ١٩٥٨ ــ القاهرة.

ثم يقول : « واعلم أن هذا الفن من الفنون المستحدثة في الملة، وكان السلف في غنية عنه، فلما انقرض السلف وذهب الصدر الأول، انقلبت العلوم كلها صناعة.. احتاج الفقهاء والمجتهدون إلى تحصيل هذه القوانين والقواعد، لاستفادة الأحكام من الأدلة، فكتبوها فناً قائماً برأسه، سموه أصول الفقه ».

إن ما قاله ابن خلدون في العبارات الأخيرة، هو بيت القصيد، إنه يؤكد لنا أن فقهاء المسلمين لم يقفوا مكتوفي الأيدي إزاء تطور الحياة، لقد أدى بهم الفكر الحضاري الذي كان لديهم أن يبتكروا طرقاً جديدة في الأدلة، ومهما بلغ اختلافهم عليها، فهي عمل له تقديره، وجهد فكري له إكباره، إذ ليس عجيباً أن تختلف آراء الفقهاء، بل العجيب ألا يختلفوا، لأننا نعد الخلاف بين الفقهاء في الرأي أحد مقاييس الفكر الحضاري لديهم.

ويجدر بنا ثانية أن نلم إلمامة يسيرة ببعض طرق الاستدلال لبيان مفاهيمها ومضامينها، ولكي يتضح لنا أن الفكر الحضاري لدى فقهاء المسلمين كان وسيلتهم إلى إدراك مقاصد الشريعة، وأهمها : المرونة والتيسير، لا الجمود والتضييق. ومما لا يجهله مسلم، أن المصدرين الأساسيين المجمع عليهما هما : الكتاب والسنة. لذلك نمر مروراً عاجلا بطرق الاستدلال المختلف عليها ومنها :

١ ـ الإجماع :

« وهو اتفاق المجتهدين من الأمة الإسلامية ـ في عصر ـ على الحكم في أمر من الأمور ».

وهذا التعريف أصح تعريف ـ كما يقول الشيخ أبو زهرة(*) ـ وهو الذي اختارته الجمهرة الكبرى من علماء الأصول، وهو الذي ذكره الشافعي في رسالته.

هذا ويعتبر الإجماع : القولي منه أو السكوتي ـ أصلاً من أصول الفقه الحنفي ويعتبر كذلك عند مالك، وإن كان يراه إجماع أهل المدينة، وخالفه الفقهاء والشافعي، واما الإمام أحمد فيقرر مع شيخه الشافعي ـ أن

(*) « أبو حنيفة للشيخ أبي زهرة، القاهرة ١٩٥٥.

الاجماع حجة، ولكن لا يقبل ممن يدعيه ويقدمه على النصوص لمجرد تلك الدعوى، وربما ـ لذلك ـ لم يعد ابن القيم « الإجماع » ضمن أصول الفقه الحنبلي، بينما نرى الامام ابن تيمية في فتاواه أكثر توضيحاً للقضية حيث يقول في الجزء الأول : « معنى الإجماع : أن يجتمع علماء المسلمين على حكم من الأحكام، واذا ثبت إجماع الأمة على حكم من الأحكام، لم يكن لأحد أن يخرج عن إجماعهم، فإن الأمة لا تجتمع على ضلالة، ولكن كثيراً من المسائل يظن بعض الناس فيها إجماعاً، ولا يكون الأمر كذلك، بل يكون القول الآخر أرجح ».

٢ ـ القيـــاس :

هناك تعريف جامع مانع للقياس، مؤداه : أنه بيان حكم أمر غير منصوص على حكمه بأمر معلوم حكمه بالكتاب، أو السنة، أو الإجماع، لاشتراكه معه في علة الحكم، « إلا أن الأصوليين قد اختلفوا في تعريف القياس تبعكا لاختلافهم في مضمونه : أهو دليل شرعي كالكتاب والسنة، نظر فيه المجتهد أو لم ينظر، أو هو عمل من أعمال المجتهد فلا يتحقق إلا بوجوده ؟ »[1].

لقد أكثر الإمام أبو حنيفة من الأخذ بالقياس، وهذا شيء بدهي، فاجتهاد الإمام ومسلكه في فهم النصوص، مع البيئة التي عاش فيها ـ كما يقول الشيخ أبو زهرة ـ من شأنه أن يجعله يكثر من القياس، وهكذا كان شأن الإمام مالك، كان القياس أمـراً لا بد منه لمثله، فقد تصدى الإمام للفتوى أكثر من نصف قرن، وكان يقصد من مشارق الأرض ومغاربها للاستفتاء، أما الشافعي فيكفي أنه كان أول من ضبط قواعد القياس وبين أسسه، وأما الامام أحمد فمجمل موقفه من القياس : أنه يقول به، ولكن لا يتوسع فيه، وعندما يأخذ به يأخذ به عند الضرورة، وهناك كلمة مشهورة عنه : إن القياس لا يستغني عنه فقيه، ويرى الشيخ أبو زهرة في مؤلفه عن

---

(١) مذكرة في أصول الفقه للدكتور محمد أبو النور ـــ القاهرة ١٩٥٣م.

ابن حنبل : أنه كان في موقفه من القياس بين ذلك قواماً، فهو لم ينف القياس نفياً باتاً كما فعل الظاهرية الذين حكموا بالنصوص دون سواها، ولم يغال في القياس مغالاة العراقيين الذين وقفوا العلل المطردة ـ في زعمهم ـ في مقام المعارضة للنصوص وفتاوى الصحابة ».

٣ ـ الاستصحاب :

عرفه ابن القيم في « أعلام الموقعين : أنه استدامة إثبات ما كان ثابتاً، أو نفي ما كان منفياً، بمعنى بقاء الحكم القائم نفياً وإثباتاً، حتى يقوم دليل على تغيير الحالة........ ».

وبعبارة أخرى : أن كل أمر علم وجوده ثم حصل الشك في عدمه، فإنه يحكم ببقائه ـ بطريق الاستصحاب ـ لذلك الوجود حتى يقوم دليل على تغيير الحال، وكل أمر علم عدمه ثم حصل الشك في وجوده، فإنه يحكم بعدمه بطريق الاستصحاب لذلك العدم، إلى أن يقوم دليل على تغيير الحال »[١].

هذا وقد اختلف الفقهاء الأُصوليون في حجية الاستصحاب، فمنهم من ذهب إلى أن الاستصحاب حجة صالحة في حالتي النفي والإثبات، ومن متأخري الحنفية من اعتبر الاستصحاب حجة ـ فحسب ـ في النفي الأصلي، مثال الحكم ببراءة الذمة حتى يقوم الدليل على شغلها، أما بعض المتكلمين، وأكثر الأُحناف، فعلى أن الاستصحاب ليس بحجة أصلاً، لا لإثبات أمر لم يكن، ولا بقاء ما كان على ما كان.

٤ ـ الاستقراء :

جاء في « المستصفى » للغزالي، وغيره : أن الاستقراء هو تتبع أمور جزئية ليحكم بحكمها على أمر كلي يشغلها، على عكس القياس عند المناطقة، حيث أن القياس عندهم عبارة عن الاستدلال بثبوت حكم الكلي على ثبوته للجزئي.

---

(١) بحوث في الأدلة المختلف فيها عند الأصوليين، للدكتور محمد السعيد عبد ربه ـ القاهرة ـ ١٩٧٧م.

هذا ويقسم الأصوليون الاستقراء على قسمين : استقراء تام، يفيد القطع في إثبات الأحكام باتفاق العلماء وهو عبارة عن تتبع جميع الجزئيات ليحكم بحكمها على أمر كلي يشملها، ثم استقراء ناقص مختلف في إفادته للحكم عند الأصوليين، وهو عبارة عن تتبع أغلب الجزئيات، ليحكم بحكمها على أمر كلي يشملها، ولذا كان يفيد الظن[1].

٥ ـ الاستحسان :

خلاصة أقوال علماء الأصول في الاستحسان : هو أن يعدل المجتهد عن الحكم في المسألة بمثل ما حكم به في نظائرها، لوجه أقوى يقتضي العدول عن الأول.

هذا التعريف قال به أبو الحسن الكرخي الحنفي، ولفقهاء المالكية تعريفات أخرى للقاضي ابن العربي وأشهب وابن رشد، وللحنابلة والشافعية تعريفاتهم أيضاً، وكلها تعريفات متقاربة.

أما موقف الفقهاء من الاستحسان، فبينما الأحناف والمالكية يعتبرونه حجة حتى لقد نسب إلى الإمام مالك قوله : الاستحسان تسعة أعشار العلم، إذ رفض الشافعية الاستحسان كحجة، حتى لقد نسب إلى الإمام الشافعي قوله : « من استحسن فقد شرع ». وأما الحنابلة فهم بين مؤيد للاستحسان وبين منكر له، ومما هو جدير بالذكر، أن لكل من مؤيدي الاستحسان ومعارضيه أدلته من الكتاب والسنة والإجماع.

٦ ـ المصالح المرسلة :

عرف الغزالي المصلحة في كتابه « المستصفى » : بأنها جلب منفعة أو دفع مضرة، هذا في الأصل، وليس هذا هو المقصود، فإن جلب المنفعة ودفع المضرة مقاصد الخلق، وصلاح الخلق في تحصيل مقاصدهم، لكن معنى المصلحة هو المحافظة على مقصود الشرع، ومقصود الشرع من الخلق خمسة، وهو أن يحفظ عليهم : دينهم وأنفسهم وعقلهم ونسلهم

---

(١) المرجع السابق.

ومالهم، فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول فهو مصلحة وكل ما يفوت هذه الأصول فهو مفسدة ودفعه مصلحة ».

هذا وللأصوليين تعريفات أخرى للمصلحة، وتقسيمات لها، وآراء في حجيتها وعدم حجيتها، والذين أقروا بحجيتها منهم، اشترطوا شروطاً يجب توافرها، ومن الذين قالوا بأنها لا تصلح أن تكون حجة مطلقة، الحنفية وجمهور الشافعية وبعضِ المالكية بالإضافة إلى أهل الظاهر.

ولقد كتب الشيخ محمد أبو زهرة ــ رحمه الله ــ بياناً مفصلاً عن المصالح المرسلة في مؤلفه القيم عن الإمام مالك، وفي هذا البيان غناء وشفاء، وقد ختم بيانه بخلاصة رأيه، ومؤاده : أن مقام المصلحة في الفقه الإسلامي هو المقصد الأول من شرائعه في معاملات الناس، قد أجمع الفقهاء على اعتبارها ــ أي المصلحة ــ واتفقوا على الأخذ بها، وكان اختلافهم ــ لا في إثبات أصلها ــ بل في مقدار اعتمادهم على العقل وحده في إدراكها من غير استعانة بالنصوص.

٧ ــ الأخذ بأقل القليل :

إن مضمون هذا، هو أن توجد للفقهاء عدة أقوال في مسألة من المسائل، وليس هناك دليل من كتاب أو سنة يدل على واحد منها، أو يرجح أحد هذه الأقوال على الآخر، وتكون ــ أي الأقوال ــ متفقة ضمناً على قسط معين فيما بينها، وهو الأقل، ومختلفة فيما زاد عنه، فيتمسك بهذا القسط الذي هو أقل ما قيل من الأقوال.

ويشير الدكتور محمد السعيد عبد ربه في مؤلفه : « بحوث في الأدلة المختلف فيها عند الأصوليين »، إلى أن هذا الدليل بحثته كتب أصول الشافعية، واعتبر حجة في إثبات الأحكام الشرعية، وأنه أصل من الأصول المقبولة عند الإمام الشافعي، وقد اشترطوا للعمل به شروطاً ثلاثة :

أ) ألا يوجد دليل غيره يدل على اعتبار الأقل أو الأكثر.

ب) ألا تكون الذمة مشغولة بما ورد فيه الخلاف، فإن كانت الذمة مشغولة بالمختلف فيه، أخذ بالأكثر، لأنه الأحوط حينئذ.

جـ) أن تنحصر الأقوال بحيث يكون الأقل جزءاً من الأكثر ومتفقاً عليه بين جميع أصحاب الأقوال في المسألة ـ وبعبارة أخرى : أن يكون مجمعاً عليه ضمن هذه الأقوال.

ومثال ذلك : اختلاف الفقهاء في دية الكتابي، على ثلاثة أقوال : ثلث دية المسلم، ونصف ديته، ثم ديته، فاختار الشافعي ثلث دية المسلم للكتابي، لأن هذا القدر مجمع عليه من الفقهاء.

٨ ـ قـول الصحـابي :

من المسلم به عند الأصوليين : أن مذهب الصحابي في مسألة من المسائل الاجتهادية ليس حجة على صحابي مجتهد آخر، لأن مخالفة الصحابة بعضهم بعضاً جائز، إذ لو كان مذهب الصحابي حجة على غيره لما جاز لغيره مخالفته، واتفق الصحابة على أن رأي الصحابي لا يكون أيضاً حجة إذا ظهر رجوعه عنه، فإذا كان رأي الصحابي عن سماع من الرسول، فهو من قبيل السنة ويجب قبوله، أما إذا صدر قول الصحابي عن الرأي والاجتهاد فهل يكون حجة على من جاء بعده من المجتهدين كالتابعين مثلاً ؟.

هنـاك آراء ثلاثة :

أ) رأي يقول : إنه حجة مطلقاً خالف القياس أو وافقه، وعلى هذا الرأي مالك كما هو منسوب إليه، وبعض أصحاب أبي حنيفة، والشافعي في المذهب القديم، وبعض روايات عن الإمام أحمد.

ب) رأي يقول : إنه ليس بحجة مطلقاً، وهذا الرأي منسوب إلى جمهور الأشاعرة والمعتزلة، وإلى الإمام الشافعي في الجديد، وإلى الإمام أحمد في إحدى الروايتين عنه، ثم لأبي الحسن الكرخي من الحنفية.

جـ) رأي يرى : أنه يكون حجة إذا خالف القياس، ولا يكون حجة إذا وافق القياس(*).

(*) الأحكام وإعلام الموقعين وغيرهما.

٩ ـ إجمـاع أهل المدينـة :

في الأحكام للآمدي، هو اتفاق المجتهدين من أمة محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ في عصر من العصور، بعد وفاته على حكم شرعي، لواقعة من الوقائع.

ويرى بعض الفقهاء أن إجماع أهل المدينة مقيد بالقرون الثلاثة التي جاءت بعد وفاة الرسول للحديث الوارد : « خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم »، والحديث في صحيح البخاري وغيره، ومن هؤلاء الفقهاء ابن تيمية، حيث ورد في كتاب « **صحـة أصول مذهب أهـل المدينة** ».

والمعروف أن الإمام مالكاً هو الذي ذهب إلى أن إجماع أهل المدينة حجة ملزمة لغيرهم، بل إن الإمام مالكاً قدمه على القياس، وعلى خبر الآحاد، وخالفه جمهور الفقهاء : الحنفية والشافعية والحنابلة، وقالوا : إن إجماع أهل المدينة ليس بحجة على من خالفهم.

١٠ ـ العـــرف :

جاء في « المستصفى » للغزالي : أن العرف والعادة، ما استقر في النفوس من جهة العقول، وتلقته الطباع السليمة بالقبول.

وخلاصة موقف الفقهاء من العرف : أن أبا حنيفة يأخذ بالعرف مصدراً من مصادر الاستنباط، وأصلاً من الأصول، ولكنه لا يرجع إليه إلا إذا لم يكن سواه، بمعنى إذا لم يكن ثمة نص من كتاب أو سنة، ولا إجماع، ولا حمل على النصوص بطريق القياس أو الاستحسان بشتى طرائقه.

ومذهب مالك موافق للأحناف، بل إن مالكاً أكثر أخـذاً بالعـرف، إلى درجة ترك القياس إذا خالف العرف، واعتبار العرف مخصصاً للعام، ومقيداً للمطلق، والشافعية يقولون بالعرف إذا لم يكن هناك نص محرم. وكذلك بعض فقهاء الحنابلة.

١١ ـ سـد الذرائـع :

الذريعة هي الوسيلة، وسد الذرائع رفعها، ومؤدى هذا : أن وسيلة

المحرم محرمة، ووسيلة الواجب واجبة، فالفاحشة مثلاً حرام، فيكون النظر إلى عورة الأجنبية حرام، والجمعة مثلاً فرض، فيكون السعي إليها فرض كذلك، يقول ابن القيم في « اعلام الموقعين » : (ولما كانت المقاصد لا يتوصل إليها إلا بأسباب وطرق تفضي إليها، كانت طرقها وأسبابها تابعة لها معتبرة بها)، ومعنى هذا أن مبدأ الذرائع، لا ينظر ـ فحسب ـ إلى النيات والمقاصد الشخصية، بل المقصود هو النفع العام أو دفع الفساد العام أي النظر إلى المآلات والنتائج. فالله سبحانه نهى عن سب الأوثان، بالرغم من أنها باطل في باطل، فقال تعالى : « ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله، فيسبوا الله عدواً بغير علم »........ فمنع الجائز لدفع ضرر هنا.

أما مواقف الفقهاء من سد الذرائع، فالإمام مالك أكثر من العمل به، وتلاه في ذلك أحمد بن حنبل، ويخالفهما في ذلك أبو حنيفة والشافعي، ويرى بعض الفقهاء أن من أسباب انتشار مذهبي مالك وأحمد، الأخذ بسد الذرائع.

١٢ ـ شـرع من قبلنـا :

أي ما نقل إلينا من الأحكام التي شرعها الله ـ عن طريق أنبيائه ورسله ـ للأمم السابقة، فهل مثل هذه الشرائع مشروعة لنا أيضاً فيلزمنا العمل بها أم غير مشروعة لنا، فلا يلزمنا العمل بها ؟.

ومؤدي مواقف الفقهاء من هذا، آراء ثلاثة، كما في الأحكام للآمدي وغيره :

أ)القبـول، وهو المختار عند الأحناف والمالكية.

ب)الرفض، وهو عند الشافعية.

جـ)الرفض والقبول، في روايتين عن الإمام أحمد.

* * *

عرضنا لبعض الأدلة المختلف فيها عرضاً سريعاً، لأننا نهدف ـ فحسب ـ إلى إبراز ثراء الفقه الإسلامي في المجال الخاص بالأصول، وأصول الفقه هي الروافد التي أمدت الفقه ذاته بالثراء العريض. هذا الثراء نتج

عن فكر حضاري لدى فقهاء المسلمين أنفسهم، والمعروف أن الإمام الشافعي ـ كما يقول الشيخ أبو زهرة* : كان فقهه يمثل تمام التمثيل الفقه الإسلامي في عصر ازدهاره وكمال نموه. فهو يجمع بين فقه أهل الرأي وفقه أهل الحديث بمقادير متعادلة، وهو الفقيه الذي ضبط الرأي، ووضع موازين القياس، وأول من حاول ضبط السنة ووضع موازين لها ومقاييس، ووضع الطرق لفهم الكتاب والسنة، وبيان الناسخ والمنسوخ، وبهذه المحاولات، وسائر ما وضعه من أصول الفقه، قد وضع المبادئ الثابتة لصناعة الاستنباط، وأصول التخريج. والمعروف أن الإمام الشافعي الذي ولد سنة ١٥٠ هـ، قد دون ما دون بعد عصر الصحابة وعصر التابعين، وأثبت أن الفقه الإسلامي لم يعرف ولن يعرف الجمود، بل شأنه الحركة الدائبة لتدوم له الحياة، ويدوم له البقاء.

وحسبنا أن نرجع إلى التراث الذي تركه لنا الفقهاء الأوائل وتلامذتهم من بعدهم، في مصادر الفقه وطرق الاستدلال والاستنباط، ليتأكد لدينا أن هذاالتراث ليس إلا ثمرة فكر حضاري، لنا مثلاً أن نرجع إلى « الاستصحاب » لنرى فقهاء الأصول قد عرضوا لأنواعه، أو أدلوا بأدلتهم قبولاً ورفضاً، ووسطاً بين القبول والرفض، ثم قعدوا القواعد الفقهية المبنية على القول بالاستصحاب ومنها : الأصل بقاء ما كان على ما كان حتى يثبت ما يغيره ـ أن ما يثبت بيقين لا يزول إلا بيقين مثله ـ أن كل شيء لم يقم فيه دليل شرعي يبقى على حكم الأصل. ولنا أيضاً أن نرجع إلى المصالح المرسلة « لنرى الأصوليين قد قسموا « المصلحة » إلى مصلحة ضرورية، وحاجية، وتحسينية، أو تزيينية، أو كمالية، وهذا تقسيم للمصلحة من حيث قوتها في ذاتها، وهناك تقسيم ثان لها من حيث الشمول، فمنها ما يتعلق بمصلحة عامة في حق الخلق كافة، ومنها ما يتعلق بمصلحة الأغلب، ثم منها ما يتعلق بمصلحة لشخص معين في واقعة نادرة. أما التقسيم الثالث، فهو من حيث اعتبار الشارع لها وعدم اعتباره لها، فمنها المصلحة

(*) الشافعي لأبي زهرة ـ القاهرة ١٩٦٧ م.

المعتبرة، وهي التي يرجع حاصلها إلى القياس، ومنها المصلحة التي شهد الشرع لبطلانها، ثم منها المصلحة المرسلة، وهي مما لم يشهد الشرع لا لبطلانها ولا لاعتبارها.

أجل حسبنا أن نرجع إلى هذا التراث الفكري الحضاري، الذي أكده تعمق الفقهاء المسلمين في البحث والاستقصاء وغزارة الإعطاء، لقد دونوا المدونات في كل دليل من الأدلة واجتهدوا واختلفوا، فكانت اجتهاداتهم واختلافاتهم دليلاً على عقلية متقدمة متطورة، وفكر حضاري مستنير.

ثانياً : الاجتهاد لدى الفقهاء :

يقول الدهلوي :

« حقيقة الاجتهاد : استفراغ الجهد في إدراك الأحكام الشرعية التفصيلية الراجعة كلياتها إلى أربعة أقسام : الكتاب والسنة، والإجماع والقياس ».

ويقول الغزالي : إنما يحصل الاجتهاد ـ في زماننا ـ بممارسة الفقه، وهي طريق تحصيل الدراية في هذا الزمان، ولم يكن الطريق في زمن الصحابة رضي الله عنهم ذلك.

ويسجل الدهلوي في رسالته شروط الإمام البغوي صاحب معالم التنزيل في التفسير ـ في المجتهد، فالمجتهد عند الإمام البغوي، هو من جمع خمسة أنواع من العلوم :

أ)علم كتاب الله : يعلم الناسخ والمنسوخ، والمجمل والمفصل، والخاص والعام، والمحكم والمتشابه، والكراهة والتحريم، والإباحة والندب والوجوب.

ب)علم السنة، ما يعلمه من القرآن، ويعرف منها الصحيح والضعيف، والمسند والمرسل........ إلى آخره.

جـ)أن يعلم أقاويل السلف، إجماعهم واختلافهم.

د)علم اللغة.

هـ)علم القياس.

هذا وقد قسم الفقهاء المجتهدين إلى قسمين : مجتهد مطلق، وهو المتبحر في شتى مذاهب الفقهاء، ومجتهد منتسب، أي من سلم بأصول شيخه، واستعان بكلامه كثيراً في تتبع الأدلة، وهناك المجتهد في المذهب، المقلد لإمامه فيما ظهر فيه نصه، ودون هؤلاء في المرتبة، مجتهد الفتيا، وهو المتبحر في مذهب إمامه، المتمكن من ترجيح قول على آخر[1].

إن الاجتهاد قضية مسلم بها، كان أصحاب رسول الله يجتهدون، وكان عهد عمر هو عهد الاجتهاد الذهبي، كان الصحابة ـ بعد لحوق الرسول بالرفيق الأعلى ـ متفقين في الاعتماد على الكتاب أولاً، وثانياً على السنة الصحيحة إن وجدت، وإلا اتجه المشهورون من فقهائهم إلى الاجتهاد في الرأي، وقد بلغ من حرص بعض أصحاب الرسول على التحري من الأحاديث النبوية أنهم كانوا يؤثرون الفتاوى بآرائهم، على أن يتحملوا تبعة الأحاديث، ولقد قال ابن مسعود بعد أن أفتى في مسألة برأيه : « أقول هذا برأيي، فإن كان صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان ».

إن الاجتهاد لم ينقطع منذ عصر الصحابة حتى عصر التدوين وما بعده، فهو يمثل ضرورة تهب للفقه الإسلامي التطور والبقاء، وها هو ذا الشهرستاني يقرر في كتابه : الملل والنحل : أن الحوادث والوقائع في العبادات والتصرفات مما لا يقبل الحصر والعدد، ونعلم ـ قطعاً ـ أنه لم يرد في كل حادثة نص ولا يتصور ذلك أيضاً، والنصوص إذا كانت متناهية، والوقائع غير متناهية، وما لا يتناهى لا يضبطه ما يتناهى، علم قطعاً أن الاجتهاد والقياس واجب الاعتبار حتى يكون بصدد كل حادثة اجتهاد، ومن أجل ذلك كان الصحابة بعد وفاة النبي ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أمام حوادث لا تتناهى، ولا تحصر، فإذا لم يجدوا لا في كتاب الله ولا في سنة رسوله ما يحكمون به على حادثة من الحوادث اجتهدوا آراءهم، ومثلهم في ذلك مثل القاضي المقيد بنصوص قانون، إذا لم يجد في النص ما يحكم به في قضية بين يديه طبق ما يراه عدلاً وإنصافاً.

---

(١) « عقد الجيد في الاجتهاد والتقليد » سلسلة الثقافة الإسلامية رقم ٥١ ـ القاهرة ١٩٦٥ م.

وإذا كان الاجتهاد أمراً مقرراً في الإسلام، فما هو ليس بمقرر إنما هو التقليد، فنحن إذا نظرنا إلى أصحاب المذاهب الفقهية المشهورة وفي مقدمتهم الفقهاء الأئمة الأربعة : أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد، نجد جميعهم لا يقرون أحداً على تقليدهم، وحسبنا أن مثل أبي حنيفة ومثل الشافعي لم يدونا مذهبيهما في الفقه بل تلامذتهم من بعدهم، وأن الشافعي عندما دخل عليه الربيع ــ وهو مريض ــ فذكر ما وضع من كتبه، قال ــ أي الشافعي : « لوددت أن الخلق تعلمه، ولم ينسب إلي منه شيء أبداً »، بل كان يقول : « كل ما قلت لكم ــ فلم تشهد عليه عقولكم وتقبله ــ فلا تقبلوه، فإن العقل مضطر إلى قبول الحق ». وان الإمام أحمد كان يوصي أصحابه : « لا تقلدوني ولا مالكاً ولا الشافعي ولا الأوزاعي، وخذوا من حيث أخذوا »، بل إن هناك ما هو أدق في التحرز من التقليد، أن أبا حنيفة مثلاً كان يأخذ برأي الصحابي، وهو حر بالأخذ بآراء التابعين، ويقول : هم رجال ونحن رجال، وان لنا أن نجتهد كما اجتهدوا، وكان كذلك مالك، إلا أن بعض التابعين كان لهم عند مالك اعتبارهم، لمقامهم في الفقه أو لسابقاتهم في الإسلام. وكان موقف الشافعي : أولاً من أقوال الصحابة، إن وجدهم مجمعين اعتبر اجتماعهم حجة، وان وجدهم مختلفين اختار من أقوالهم ما يراه أقرب إلى الكتاب والسنة وأصحّ في القياس، وذلك ميدان للاجتهاد متسع الآفاق، أما أقوال التابعين فلا مكان لها في أصول مذهب الشافعي، والتي حصرها في الكتاب والسنة والاجماع وأقوال الصحابة والقياس ».

أما الأمام أحمد، فهو أكثر الأئمة أخذاً بأقوال التابعي، لأنه كان في معظم الأحايين يباعد الاجتهاد بالرأي تورعاً، لذلك ــ كما يقول الشيخ أبو زهرة ــ كان يقبل فتاوى بعض كبار التابعين كابن المسيب، وغيره من فقهاء المدينة السبعة الذين انتهى إليهم عمر وابن عمر، لكنه لم يكن يأخذ بهذه الأقوال على أنها أصل فقهي، بل للاحتياط والاستئناس.

كان باب الاجتهاد مفتوحاً على مصراعيه في عهد الصحابة والتابعين وتابعي التابعين، وعدة أجيال أخرى بعدهم، لكن فريقاً من العلماء المتأخرين

أوهموا أنفسهم أولاً ثم أوهموا الناس ثانياً أن باب الاجتهاد قد أغلق نهائياً، ومثل هذا الوهم، كان أحد المعوقات لمسار الفقه الإسلامي ليأخذ مكانه اللائق به في حياة الأمة المسلمة، ولا جدال في أن القائلين بغلق باب الاجتهاد، برهنوا على عجزهم الفقهي وقصورهم الفكري. ومثل هذا الكلام سبق للغزالي أن قاله منذ عشرة قرون، وقاله غيره ـ قال :

« والمجتهد لا يكاد يوجد من أمد بعيد، لتوقف الاجتهاد على أمور يتعسر وجودها لشخص ما في تلك الأزمنة، ليس ذلك لاستحالته عقلاً، لأنه أمر يمكن في ذاته فلا مانع من تحققه لمن أراد الله من عباده، وإنما ذلك لقصور الهمم، وتقاصر العزائم عن البحث والتنقيب ».

وشاء الله بعد زهاء قرنين من وفاة الغزالي أن يوجد فقيه مجتهد يرد إلى الاجتهاد اعتباره، أنه ابن تيمية الفقيه المستقل الرأي والفكر والتفكير، يقول الشيخ أبو زهرة ـ رحمه الله :

« وإن القارئ لفقه ابن تيمية، يلمح فيه عقلية المجتهد الذي تحرر من القيود المذهبية في دراسته، ولا يلمح فيه المقلد التابع من غير بينة وبرهان، فهو في فتاواة متخير مستنبط، كما هو في اختياراته، بيد أنه في اختياراته لا يتقيد بمذهب، وفي فتاواة يتقيد بالمذهب الحنبلي، وترى أنه في مقارناته فقيه مستنبط، عليم بأوجه القياس ومصادر الشريعة ومواردها، مستقيم المنهاج في المقارنة ».

ولقد حمل ابن القيم رحمه الله على التقليد بغير دليل حملة قاسية، وكذلك الشوكاني، وغيرهما من الأئمة الفقهاء، ونعى الشيخ المراغي شيخ الأزهر الأسبق[1] على العلماء الذين يرفضون الوثوق بأقوال غير الأئمة الأربعة : أبي حنيفة ومالك، والشافعي وأحمد، لأنه ـ على حد تعبيرهم ـ لا توجد كتب مدونة لنقل مذاهبهم، وان وجدت فلا يمكن الثقة بها، لأنها لم تنقل إلينا بطريق موثوق به، ولم ينقلها الناس عن الشيوخ، فهي كتب منقطعة الإسناد. ويعقب الشيخ المراغي بقوله : « إن أمهات الكتب في جميع العلوم ما عدا الحديث ـ منقطعة الإسناد، فهل نرد الكتب التي تيسرت لنا، أو نرد

---

(١) الاجتهاد في الإسلام : سلسلة الثقافة الإسلامية رقم ١١ ـ القاهرة ١٩٥٩ م.

كل الكتب المذخورة من أسلافنا في المكاتب في العالم جميعه، لأنها كتب منقطعة الإسناد؟ هل نرد مثال : كتاب « الأم » للإمام الشافعي، و « المدونة » للإمام مالك، ومثال « المبسوط » و « بدائع الصانـع »، و « الموافقات »، و « دلائل الإعجاز »، و « لسان العرب »، وكل كتاب طبع أو لم يطبع بعد، لأن هذه الكتب لا يوثق بها لعدم تلقيها عن الشيوخ، ولأنها كتب منقطعة الإسناد.

لقد قال الامام محمد عبده في تعليقاته على « العقائد العضدية » :

(ومن المعلوم أن من سلك طريق الاجتهاد، ولم يعول على التقليد في الاعتقاد، لم تجب عصمته ، فهو معرض للخطأ، ولكن خطأه عند الله واقع موقع القبول حيث كانت غايته من سيره، ومقصده من تمحيص نظره، أن يصل إلي الحق، ويدرك ويستقر اليقين).

* * *

ثالثاً : الخلاف بين الفقهـاء :

من المسلمات في تاريخ التشريع الإسلامي، أن الخلاف في الرأي كان قائماً في عهد أصحاب رسول الله ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ فما انقضى عهد النبوة حتى تفرقوا في البلاد ـ كما يقول الدهلوي[1] ـ وصار كل واحد مقتدي ناحية من النواحي فكثرت الوقائع، ودارت المسائل، فاستفتوا فيها، فأجاب كل واحد حسب ما حفظه واستنبطه، وان لم يجد ما يصلح للجواب، اجتهد برأيه، وعرف العلة التي أدار رسول الله ﷺ عليها الحكم في منصوصاته فطرد الحكم حيثما وجدها لا يألو جهداً في موافقة غرضه عليه السلام، فعند ذلك وقع الاختلاف بينهم ».

ثم يشير الدهلوي إلى أنه، إزاء اختلاف مذاهب الصحابة، وجدت للتابعين مذاهبهم المختلفة، وانتصب في كل بلد إمام مثل : سعيد بن المسيب، وسالم بن عبد الله بن عمر في المدينة، وعطاء بن أبي رباح بمكة، والنخعي والشعبي بالكوفة، والحسن البصري بالبصرة، وطاوس باليمن،

(١) الانصاف في بيان أسباب الخلاف ـ سلسلة الثقافة الإسلامية رقم ٥٠ ـ القاهرة ١٩٦٥م.

ومكحول بالشام، فأظمأ الله أكباداً إلى علومهم، فرغبوا فيها، وأخذوا عنهم الحديث وفتاوى الصحابة وأقاويلهم ».

ويقول الشيخ أبو زهرة في مؤلفه عن أبي حنيفة :

« لقد وجد من لدن وفاة النبي ﷺ إلى عصر الشافعي، جماعة من الفقهاء اشتهروا بالرأي، وجماعة اشتهروا بالرواية، فكان من فهاء الصحابة من اشتهر بالرأي، وجماعة منهم اشتهروا بالحديث وروايته، وكذلك التابعون وتابعوهم، ثم الأئمة المجتهدون، وفقهاء الأمصار، هذا وقد جاء في كتاب عمر لأبي موسى الأشعري : الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة، اعرف الأشباه والأمثال وقس الأمور عند ذلك ».

وليس عجيباً بعد ذلك أن نرى خلافاً بين مالك وأبي حنيفة، وبين الشافعي ومالك، وبين أحمد والشافعي، وأن تلميذي أبي حنيفة : أبا يوسف ومحمد بن الحسن يختلفان مع شيخهما، وأن يختلف أحمد مع الشافعي، مع تقديره للشافعي، كان أحمد يقول : « الشافعي رحمة من الله لأمة محمد، وما رأيت أحداً أفقه في كتاب الله من هذا الفتى القرشي » ــ يعني الشافعي، رحمهم الله جميعاً.

ويعتبر ابن تيمية متتلمذاً على أحمد، وابن القيم متتلمذاً على ابن تيمية، والشوكاني متتلمذاً على ابن القيم، ومع هذه التلمذة، لم يكن هناك مانع يحول دون وقوع الخلاف في الرأي، لقد كان للإمام أحمد موقف وسط من القياس، فلم ينفه نفياً باتاً كالظاهرية الذين حكموا النصوص دون غيرها، ولم يغال ــ من جهة أخرى ــ مغالاة العراقيين، إلا أن تلامذته من بعده أعطوا القياس من العناية أكثر مما أعطى هو، وقد دفعتهم إلى ذلك حاجة الزمان ــ كما يقول الشيخ أبو زهرة ــ فإن الناس قد جدت لهم أحداث اضطروا فيها إلى أن يفتوا، وأن يقيسوا على فتاوى الصحابة والأمور المنصوص على حكمها، واضطروا إلى أن يخرجوا على أقوال إمامهم، ولقد خص الامامان : ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، خصا القياس في الفقه الإسلامي ببيان أوفى، وأن ابن تيمية ــ رحمه الله ــ كان مثلاً يتردد في قبول المصلحة أصلاً من أصول الاستدلال، مع أن المنصوص عليه عن الحنابلة

قبول ذلك الأصل والأخذ به، قال : « القول الجامع أن الشريعة لا تهمل مصلحة قط، بل إن الله تعالى قد أكمل هذا الدين وأتم النعمة ». وعلى أساس هذا القول تكون المصالح المعتبرة عند ابن تيمية كلها يشهد لها دليل من الشارع، وتدخل في عموم القياس، ولن تجد من بعد مصلحة لا يمكن أن تدخل في قياس.

وإذا كان من المسلمات وقوع الخلاف في الرأي بين سائر الأئمة المجتهدين من أصحاب المذاهب في العديد من المسائل الفقهية، بل في مصادر الشريعة وأصول الفقه، وطرق الاستدلال والاستنباط، فمما لا جدال فيه أيضاً أن التابعين لهذه المذاهب الفقهية لم يسيروا فيها جامدين، بل لقد كانت لهم اجتهاداتهم، يقول الشيخ أبو زهرة[1] :

« ويخطىء من يقول : إن التابعين لمذهب من المذاهب كانوا يسيرون فيه جامدين، بل إنهم كانوا يحيون المذهب، ويجددونه في كل عصر من العصور، بما جد من ألوان فكرية، ويفتون فيما يقع من الحوادث بما يتفق مع الحال، ويصلح المآل، وأحياناً كانوا يخالفون إمامهم، ويقولون : هذا اختلاف زمان لا اختلاف برهان، ولو كان الإمام في عصرنا لقال مثل قولنا، ألم تر المالكية والشافعية أفتوا في القرن الرابع بميراث ذوي الأرحام، واختاروا طريق الحنابلة، وخالفوا بذلك الإمامين مالكاً والشافعي، وكان وجه المخالفة فساد بيت المال في عصرهم، وأنه لم يعط ذوي الحقوق حقوقهم فأفتوا بما يتفق مع الحال، ولم يتقيدوا بالنصوص عن الإمامين الجليلين، وعلموا أن الامامين لو كانا في عصرهم لقالا مثل مقالهم، وقبسا من أقرب المذاهب إلى الأثر وهو مذهب أحمد ».

إن الخلاف بين فقهاء المسلمين في الرأي، دليل على ما كان يتمتع به هؤلاء الفقهاء من عقليات ناضجة، وفكر حضاري متقدم، وقدرات فائقة في البحث والاستقصاء ومجالات من الدرس والتحصيل للعلم والمعرفة، تثير الدهشة والعجب. وطاقات تجل عن الوصف في استخراج الأدلة واستنباط

---

(١) ابن تيمية ، القاهرة ١٩٥٢ م.

الأحكام، حسبنا أن نقرأ كتاباً واحداً من كتب التراث الإسلامي للفقيه العالم البطليوسي المتوفى سنة إحدى وعشرين وخمسمائة من الهجرة، والكتاب هو : « التنبيه على الأسباب التي أوجبت الاختلاف بين المسلمين في آرائهم ومذاهبهم واعتقاداتهم »، وقد طبع حديثاً بالقاهرة بتحقيق عالمين باحثين هما : الدكتور أحمد حسن كحيل، والدكتور حمزة عبد الله النشرتي، ولقد قدم المحققان للكتاب ومؤلفه بمقدمة جديرة بالتقدير، أشارا فيها إلى أن هذا الكتاب أول كتاب وصل إلينا من الكتب التي ألفت في أسباب الاختلاف، وقد جاء على نمطه بعد فترة من الزمن كتاب : « الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف » للدهلوي[1] المتوفى سنة ثمانية ومائة وألف من الهجرة، والحق أن كتاب الانصاف رسالة صغيرة، ولا تعد شيئاً بالنسبة إلى كتاب « التنبيه » للبطليوسي، هذا وقد نبه المحققان إلى شيء جدير بالتنبيه عليه حين قالا : « هذا الكتاب يدل على أن المؤلف كان على قدر كبير من الفهم العميق للشريعة الإسلامية، والإحاطة بأسرارها، وقد يعد هذا أمراً عجيباً بالنسبة لرجل يعد من أساطين علماء اللغة والأدب، حتى يخيل لمن يقرأ له في اللغة والأدب أنه فرغ لهما، فكيف يبرع في الفقه وعلوم العقيدة ؟ ويجيب المحققان عن السؤال : وهذا العجب لا يلبث أن يزول حين نعلم أن الأندلسيين كان منهجهم في التعليم الإحاطة أولاً بقدر كبير من علوم الدين، من حفظ للقرآن ودراسة للحديث والتفسير والفقه، يستوي في ذلك اللغوي والفقيه والمهندس والطبيب، ولذلك كثر بينهم : النحوي الفقيه، والفقيه النحوي، والطبيب المحدث، والمحدث اللغوي، فهذا الامام الشاطبي ألف في النحو بمثل البراعة والقوة اللتين ألف بهما في الفقه والأصول، وأبو حيان فقيه ومفسر، ونحوي وأديب وشاعر، وكان لهم من ذكائهم وقوة حافظتهم أكبر عون ».

وانما أشرت إلى هذا الكتاب الذي اهتم بأسباب الخلاف من الجانب اللغوي في الأكثر، لندرك على أية درجة من رقي الفكر والتفكير كان

---

(١) سبق الاشارة إلى هذا الكتاب للدهلوي، وهو رسالة صغيرة الحجم، وقد قمت بتحقيقها وطبعها سنة ١٩٦٥م ضمن سلسلة الثقافة الإسلامية تحت رقم ٥٠.

عليها فقهاؤنا، ولم يذكر المؤلف كل أوجه الخلاف، بل اختار ــ فحسب ــ ثمانية أوجه : اشتراك الألفاظ والمعاني ــ الحقيقية والمجاز ــ الإفراد والتركيب ــ الخصوص والعموم ــ الرواية والنقل ــ الاجتهاد فيما لا نص فيه ــ الناسخ والمنسوخ ــ ثم الإباحة والتوسع ».

في الباب الثالث : الخلاف العارض من جهة الإفراد والتركيب، يقول : « هذا باب طريف جداً، وقد تولدت منه أنواع كثيرة من الخلاف، وهو باب يحتاج إلى تأمل شديد وحذق بوجوه القياس، ومعرفة تركيب الألفاظ، وبناء بعضها على بعض، وذلك أنك تجد الآية الواحدة ربما استوفت الغرض المقصود بها من التعبد، فلم تحوجك إلى غيرها كقوله تعالى : (يا أيها الناس اتقوا ربكم....) وربما وردت الآية غير مستوفية للغرض المراد من التعبد، وورد تمام الغرض في آية أخرى كقوله تعالى : (واذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان...) ــ ثم قال في آية أخرى : (بل إياه تدعون، فيكشف ما تدعون إليه إن شاء...)، فدل اشتراط المشيئة في هذه الآية الثانية على أنه مراد في الآية الأولى ».

وبعد أن يشير هذا العالم الحجة إلى أن الفقيه مضطر في استعمال القياس إلى الجمع بين الآيات المفترقة، والأحاديث المتغايرة، وبناء بعضها على بعض، كما أشار إلى أن وجه الخلاف العارض من هذا الموضع، أنه ربما أخذ بعض الفقهاء بمفرد الآية وبمفرد الحديث، بنى آخر قياسه على جهة التركيب الذي ذكرناه، بأن يأخذ بمجموع آيتين أو بمجموع حديثين، أو بمجموع آيات، أو بمجموع أحاديث، فتفضي بهما الحال إلى الاختلاف فيما ينتجانه، فعلى مثل هذا أنتجت النتائج، وركبت القياسات، ووقع بين أصحاب القياس الخلاف بحسب تقدم القائس أو بحسب تأخره وخالفهم قوم آخرون لم يروا القياس ورأوا الأخذ بظاهر الألفاظ، فنشأ من ذلك نوع من الخلاف، قال : ومما اختلفت فيه أقوال الفقهاء لأخذ كل واحد منهم بحديث مفرد اتصل به، ولم يتصل به سواه، ما روي عن عبد الوارث بن سعيد أنه قال : قدمت مكة فألفيت فيها أبا حنيفة وابن أبي ليلى وابن شبرمة، فأتيت أبا حنيفة فقلت : ما تقول في رجل باع بيعاً وشرط

شرطاً ؟ فقال : البيع باطل والشرط باطل، وقال ابن أبي ليلى : البيع جائز والشرط باطل، وقال ابن شبرمة : البيع جائز والشرط جائز، فقلت يا سبحان الله : ثلاثة من فقهاء العراق لا يتفقون على مسألة. ثم ذكر الحديث الذي احتج به كل من الفقهاء الثلاثة.

وبعد... فنستطيع أن نقرر ــ ونحن مطمئنون ــ أن الخلاف بين الفقهاء المسلمين في الرأي كان نتيجة فكر حضاري متقدم، وثمرة جهد عقلي مضن، وأن هذا الخلاف كان ضرورة اقتضتها دوافع المرونة والخلود لشريعة الله، وهذه الضرورة هي التي جعلت من توفيق الله أن يختلف أصحاب رسول الله بعد أن لحق بالرفيق الأعلى، ويكون منهم طلائع مدرسة النقل بالحجاز وطلائع مدرسة الرأي بالعراق، فالأدلة الشرعية ضربان ــ كما يقول الشاطبي في الموافقات : أحدهما يرجع إلى النقل المحض، والآخر يرجع إلى الرأي المحض، وهذه القسمة هي بالنسبة إلى أصول الأدلة، وإلا فكل واحد من الضربين مفتقر إلى الآخر، لأن الاستدلال بالمنقولات لا بد فيه من النظر، كما أن الرأي لا يعتبر شرعاً إلا إذا استند إلى النقل.

كذلك نستطيع أن نقرر ــ ونحن مطمئنون أيضاً ــ أن اختلاف الفقهاء كان رحمة للمسلمين، ولقد ذكر الشاطبي في « الاعتصام » أن عمر بن عبد العزيز كان يسره اختلاف الصحابة ــ رضي الله عنهم جميعاً ــ في الفروع، ويقول : « ما أحب أن أصحاب رسول الله ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ لا يختلفون، لأنه لو كان قولاً واحداً لكان الناس في ضيق، وأنهم كانوا أئمة يقتدى بهم ».

ويقول الشيخ أبو زهرة في « تاريخ المذاهب الإسلامية » :

« وإذا كان الافتراق حول العقائد في جملته شراً، فإنه يجب أن نقرر أن الاختلاف الفقهي في غير ما جاء به نص من الكتاب والسنة، لم يكن شراً، بل كان دراسة عميقة لمعاني الكتاب والسنة، وما يستنبط منهما من أقيسة، ولم يكن افتراقاً، بل كان خلافاً في النظر، وكان يستعين كل فقيه بأحسن ما وصل إليه الفقيه الآخر ويوافقه أويخالفه ».

* * *

خاتمة : ردٌّ على شبهات

أولاً : أصالة الإسلام وحضارته :

يحاول خصوم الإسلام، وفي مقدمتهم المستشرقون والمبشرون، أن يشككوا في أصالة الفكر الإسلامي وحضارته، وهؤلاء الخصوم يكادون يجمعون في محاولاتهم على مضمون واحد مع التصرف في الألفاظ والأساليب، ولا يتسع المجال هنا إلا لعرض اليسير ـ واليسير جداً ـ من أقوال هؤلاء الخصوم، ولا سيما ما دونه في كتابه « العقيدة والشريعة في الإسلام »[1] المستشرق المجري اليهودي « جولد تسيهر »، الذي توفي في أواخر عام ١٩٢١ م بعاصمة المجر، يقول في الفصل الأول « محمد والإسلام » :

« والذي علينا، هو أن نلقي ضوءاً على العوامل التي أسهمت في تكوينه التاريخي ـ أي الإسلام ـ ذلك بأن الإسلام، كما يبدو عند اكتمال نموه، هو نتيجة تأثيرات مختلفة، تكون بعضها باعتباره تصوراً وفهماً أخلاقياً للعالم، وباعتباره نظاماً قانونياً وعقيدياً، وعلينا كذلك أن نتحدث عن التيارات التي أثرت في اتجاهات نهر الإسلام ».

(١) الكتاب بالألمانية، وترجم إلى عدة لغات، منها العربية ـ ١٩٥٩ م ـ قام بها الدكتور محمد يوسف وزميلان له، ورد على الكتاب الشيخ محمد الغزالي، بكتاب تحت عنوان : دفاع عن العقيدة والشريعة.

« وهناك نوعان من التأثيرات التي تحدد الاتجاه الذي يسير فيه أي نظام من النظم مهما كان نوعه ولونه ــ هنالك أولاً ــ ما في النظام نفسه من قوى داخلية ذاتية تعجل نموه التاريخي، وهناك ثانياً ــ التأثيرات الروحية التي ترد عليه من الخارج، وتضيف اليه ثروة جديدة، وتجعله خصباً، كما تعمل على أن يسير في طريق التطور حقاً، ان فعل التأثيرات الأولى، قد أُحس به بلا شك في الإسلام وتاريخه، ولكن أثر الضرب الثاني من هذه التأثيرات ــ أي التأثيرات الروحية التي جاءته من غيره واستوعبها وتمثلها، هو الذي يميز أهم عصوره في رأي الباحثين، ويبين ذلك إذا عرفنا أن نمو الإسلام مصطبغ نوعاً بالأفكار والآراء الهلينية، ونظامه الفقهي الدقيق يشعر بأثر القانون الروماني، ونظامه السياسي ــ كما تكوّن في عصر الخلفاء العباسيين ــ يدل على الأفكار والنظريات السياسية الفارسية ».

إلى أن قال : (وهذا الطابع العام يحمله الإسلام مطبوعاً على جبهته منذ ولادة محمد ﷺ مؤسسه الذي لم يبشر بجديد من الأفكار، كما لم يمدنا أيضاً بجديد فيما يتصل بعلاقة الإنسان، بما هو فوق حسه وشعوره، وباللانهاية).

ويكرر نفس القول : « ديلاسي أوليري » المستشرق الأيرلندي، في كتابه « الفكر العربي ومكانه في التاريخ »[1]، يقول : « وحدث في النهاية أن اشتملت الشريعة الإسلامية على جزء كبير من القانون المدني الروماني »، ويقول : « والحق أن الثقافة الإسلامية في أساسها وفي جوهرها جزء من المادة الهلينية الرومانية ».

وأيضاً يساند هذا الرأي، آدم متز ــ أستاذ اللغات الشرقية بجامعة بازل بسويسرا ــ في كتابه « الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري » يقول : « والواقع أنه ظهر في الميدان الفقهي ما ظهر في غيره من الميادين، وأهم ما حدث هو تسرب آراء في التشريع، مما كان قبل عهد الإسلام إلى الفقه الإسلامي، كما أحييت من جديد بعض النظريات اليونانية والرومانية القديمة،

---

(١) ترجمة الأستاذ محمد عبد الهادي أبو ريدة ــ الطبعة الرابعة ــ بيروت ٦٧ م.

وكان يمثلها الفقهاء، ويخالفهم أصحاب الحديث المتمسكون بالسنة القديمة ».

وليس عجيباً أن يفتري المستشرقون والمبشرون، وأن يتجاهلوا أن الإسلام قد ظهر في زحمة القيم التي لا تبتغي الإنسانية في عمومها، ولا كرامة الإنسان وحريته وتحريره، والأخذ بيده في طريق الرقي، نزل الإسلام المعركة، فقذف فيها بقيم جديدة ـ كما يقول الدكتور أحمد فؤاد الأهواني[1]، قذف أولاً بالقيمة الدينية الكبرى وهي التوحيد، وثانياً بالقيمة الإنسانية الكبرى، وهي كرامة الإنسان ومساواته وحريته، وهذه القيمة الإنسانية كانت جديدة على العالم كله شرقاً وغرباً، على الفرس والعرب على حد سواء، ذلك أن الانسانية رسخت أجيالاً طويلة تؤمن بانفصال الناس على الأقل طبقتين : سادة وعبيداً، وحتى الفيلسوف اليوناني أرسطو عجز عن أن يتخلص من هذا الوهم، أو أن يتصور الإنسان خلاف الواقع الذي كان يعيش عليه، فقسم الناس طبقتين، وجعل العبيد عبيداً بالطبع، فوضع بذلك الأساس النظري لأعظم خدعة في التاريخ.

أما الزعم القائل بأن الفقه الإسلامي قد تأثر بالقانون الروماني المدني والتجاري، فهو زعم يعبر عن إفلاسه، بل إن موسوعة اليونسكو[2] تاريخ الجنس البشري وتقدمه الثقافي والعلمي، جاء في المجلد الثالث منها، « أن مصادر الشريعة الإسلامية هي : القانون الروماني البيزنطي، والقانون الفارسي الساساني، وقانون التلمود، بالإضافة إلى القوانين الدينية الخاصة بالكنائس الشرقية ».

وقد تصدى العلماء لهذا الزعم المضحك، فأجرى الشيخ أبو زهرة مقارنة بين شريعة الإسلام، وقانون الرومان في رسالته « شريعة القرآن »، العدد الحادي والثلاثين من سلسلة الثقافة الإسلامية، وقال في خاتمة المقارنة : « وفي سبيل العبث بقضية العقل والمنطق، يتناسون الموازنة بين قواعد العدل التي اشتملت عليها الشريعة، وقانون الغاية الذي اشتمل عليه قانون الرومان ».

---

(١) القيم الروحية في الإسلام ـ القاهرة ١٩٦٢ م.

(٢) رددت على مفتريات هذه الموسوعة في كتاب : مفتريات اليونسكو على الإسلام ـ القاهرة ١٩٧٦ م.

ويقول الدكتور عبد المنعم ماجد في مؤلفه : تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى « القاهرة ــ ١٩٧٢م »، يقول : « مما رأيناه من نمو التشريع الإسلامي، ننبذ فكرة أن التشريع الإسلامي متأثر بتشريع الرومان أو الفرس أو غيرهم، فهو تشريع إسلامي صرف، يعبر عن طبيعة المجتمع الإسلامي المتطور، فلم يثبت لدينا ــ اطلاقاً ــ علمياً، أن التشريع الإسلامي أخذ من أي قانون آخر، أو أنه وجد فيه أي تعبير لاتيني أو فارسي أو غيره، فضلاً عن وجود نظم في التشريع الإسلامي، لا أصل لها في أي تشريع آخر ».

ثانيا : كفالة الشريعة وقدراتها :

كذلك يحاول خصوم الإسلام من المستشرقين والمبشرين التشكيك في كفالة الشريعة الإسلامية وقدراتها على إقامة نظام متكامل، يكفل لدولة ما، حياة اليمن والاستقرار، ويضع هؤلاء الخصوم عللاً تساند منطق آرائهم، منها أن الشريعة الإسلامية معقدة، وجامدة لا تساير الزمن، ولا تحل مشكلات العصر، ويبدو أن العقدة المسيطرة على هؤلاء الحاقدين، إنما مبعثها الخوف من الإسلام حاضراً ومستقبلاً، فالمستشرق الألماني « كارل بيكر » يرى أن الإسلام لما انبسط في العصور الوسطى، أقام سداً في وجه انتشار النصرانية، أما « جاردنر » فيرى أن القوة التي تكمن في الإسلام هي التي تخيف أوروبا.

ومما يدعو إلى الأسى أن بعض المنتمين إلى الإسلام بحكم شهادات مواليدهم من صنائع الفكر الغربي أو الماركسي، يتعاطفون مع خصوم الإسلام، ويؤمنون بفصل الدين عن الدولة، زاعمين الاشفاق على الدين نفسه، ومعتقدين أن الشريعة التي وضعت منذ أربعة عشر قرناً، لبيئة خاصة، لا يمكنها أن تساير العصر، أو تحل مشكلات الإنسان في عصر المادة، وهؤلاء يتجاهلون بالطبع أن شريعة الله لم تكن لبيئة خاصة، فالإسلام دين عالمي إنساني أراد الله له البقاء إلى أن تقوم الساعة، وكان من الطبيعي أن يأتي منهجه في شتى جوانب الحياة شاملاً، وقد ظلت دولة الإسلام ــ بهذا المنهج السليم الشامل بضعة قرون، قوية فتية، ولم يبدأ الضعف يتسلل إليها

إلا بعد أن تخلت عن هذا المنهج.

إن الذين يفترون على شريعة الإسلام أو يتقولون عليها، هم أجهل الناس بروح الشريعة وجوهرها، وبما دونته كتب الفقهاء المجتهدين من آراء ذات قيم حضارية مرنة، لا يمكنها أن تصطدم بالتطور، أو تقصر دون حاجيات البشر، يقول ابن عابدين في رسائله : « ان المسائل الفقهية إما أن تكون ثابتة بتصريح النص ــ وهي الفصل الأول ــ واما أن تكون ثابتة بضرب اجتهادي ورأي، وكثير منها يبينه المجتهد على ما كان في عرف زمانه، ولهذا قالوا في شرط الاجتهاد : إنه لا بد من معرفة عادات الناس، فكثير من الأحكام تختلف باختلاف الزمان لتغير عرف أهله، أو لحدوث ضرورة، أو فساد أهل الزمان، بحيث لو بقي الحكم على ما كان عليه **أولاً**، للزم منه المشقة والضرر بالناس، ولخالف قواعد الشريعة المبنية على التخفيف والتيسير، ودفع الضرر والفساد، لبقاء العالم على أتم نظام، وأحسن أحكام ».

لقد أصدر « سيد قطب » رحمه الله الجزء الأول من مؤلفه « خصائص التصور الإسلامي » وفيه ما يوضح الفكرة الكلية للإسلام، عن الله والكون والحياة، وكذلك صدر لأخي الدكتور يوسف القرضاوي كتابه « الخصائص العامة للإسلام »، وفيه خصائص المنهج الإسلامي كله، بما **في ذلك العقائد والعبادات والأخلاق والشرائع، هذا وقد اختار من هذه الخصائص سبعاً : الربانية ــ الإنسانية ــ الشمول ــ الواقعية ــ التوازن ــ** الوضوح ــ ثم الجمع بين الثبات والمرونة، وقد أشرت إلى هذين الكتابين لأنهما ردا بموضوعية على مفتريات خصوم الإسلام، ويحسن بنا أن نشير إلى كلمات قالها ــ عبد القادر عودة ــ في كتابه التشريع الجنائي، موجهة إلى الذين ما يزالون يحسنون الظن بالقوانين الوضعية، قال : « القوانين الوضعية حين تتطور مرة بعد مرة، إنما تسير في أثر الشريعة الإسلامية، وتأخذ بمبادئها، وحين يقال : إن القانون الوضعي وصل إلى الكمال، يكون قد أوشك أن يبلغ ــ فقط ــ بعض ما بلغته الشريعة الإسلامية، وأن اليوم الذي تأخذ فيه القوانين الوضعية من الشريعة قد أصبح قريباً، وأكثر مما يظن أكثر الناس ».

ثالثاً : ابن خلدون ومذهب الإمام أحمد :

قال ابن خلدون في مقدمته : « وأما أحمد بن حنبل فمقلده قليل، لبعد مذهبه عن الاجتهاد، وأصالته في معاضدة الرواية، وللأخبار بعضها ببعض، وأكثرهم بالشام والعراق من بغداد ونواحيها، وهم أكثر الناس حفظاً للسنة ورواية الحديث ».

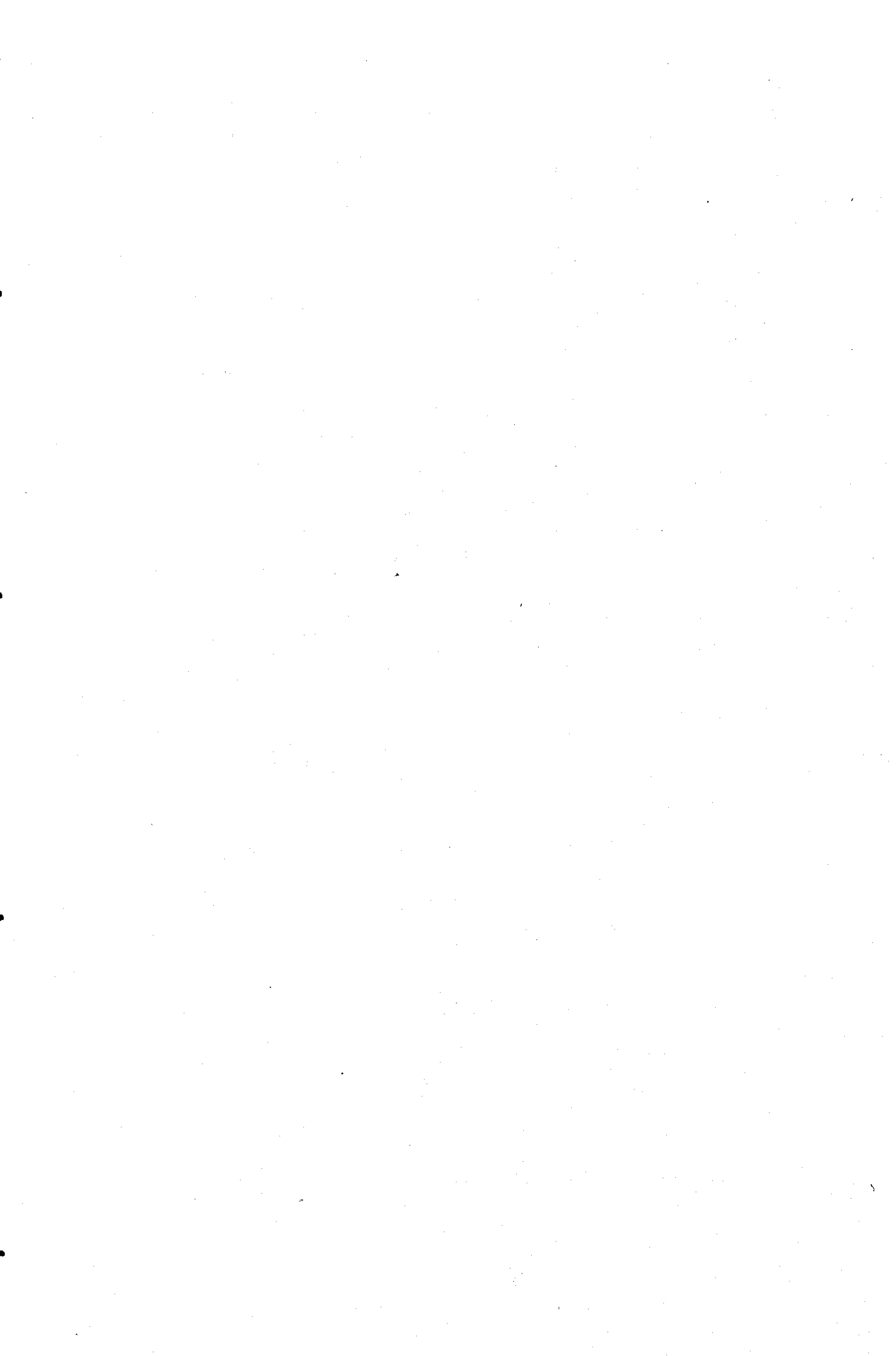
فهل يعيب مذهب الإمام أحمد معاضدة الرواية ؟، أليست السنة هي المصدر الثاني بعد كتاب الله ؟، وهل كثرة الأتباع دليل على قيمة المذهب ؟ لندع الشيخ أبا زهرة يتولى الرد على ابن خلدون، وعلى الأخص فيما يتعلق بشبهة قلة الاجتهاد، قال في مؤلفه « أحمد بن حنبل » : « إن ذلك لا يصلح تعليلاً لهذه العلة، لأن الأصل غير صحيح، فليس مذهب الإمام أحمد قليل الاجتهاد، فقد علمنا أنه المذهب الذي فتح باب الاستنباط على مصراعيه في غير النص، وأن كثرة المتقدمين أوكلهم هم الذين قرروا أن باب الاجتهاد المطلق لا يغلق قط، وأنه ظهر فيه العلماء الذين درسوا أعراف الناس في العصور المختلفة، وواءموا بينها وبين مصادر الشرع، واستنبطوا تحت ظل الكتاب والسنة ومن أضوائهما أحكاماً صالحة متناسبة، وأن مصر عندما أرادت تعديل المعمول به في الأحوال الشخصية، والوقف والمواريث والوصايا، وجدت في هذا المذهب معيناً لا ينضب من الأحكام الصالحة، فاقتبست منها الكثير ».

إن مصادر المذهب هي : الكتاب والسنة، وفتوى الصحابة والإجماع والقياس والاستصحاب، والمصالح والذرائع، فهل هي أقل من مصادر غيره من المذاهب، بل إن مذهب الإمام في حرية التعاقد هو أقرب المذاهب إلى القوانين الحديثة، وقد أردت بهذه الإشارة العابرة، نفي شبهة قلة الاجتهاد في مذهب الإمام أحمد، لأن الاجتهاد هو أبرز عوامل إثبات الفكر الحضاري لدى فقهاء الإسلام.

والله الموفق !!!.

الحضارة الإسلامية والإنسان

للدكتور علي عبد الحليم محمود
الأستاذ المشارك بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمـد لله والصلاة والسلام على محمد بن عبد الله، وعلى من سلك طريقه واهتدى بهديه إلى يوم الدين.

وبعــد...

فإن الأمة الإسلامية في وقتنا هذا تعيش فترة من حياتها، تعد من الفترات الحاسمة في تاريخها، ذلك أن الصراع بين الأمة الإسلامية وأعدائها ـ ولا بد لها من أعداء ـ بلغ درجة فيها من الحدة والتوتر قدر كبير، ومن التوجس والترقب قدر أكبر، وبحسبنا أن نذكر في التعليل لهذه الحدة وذلك التوتر أن الأمة الإسلامية، بدأت تستفيق بعد نوم عميق وضعف شديد، تعمد أعداؤها أن يوصلوها إليهما غداة تألبوا وتحالفوا من شرق وغرب للقضاء على دولة الخلافة الإسلامية في بداية القرن الرابع عشر الهجري على وجه التقريب.

منذ ذلك التاريخ والعالم الإسلامي يغلي من الداخل، والمصلحون والمفكرون يهيبون بذلك العملاق أن يهب من رقدته، وأن ينفض عن بدنه كل أسباب الضعف، ليقوم من جديد لقيادة البشرية نحو الهدى والحق، نحو الصراط المستقيم، صراط الله.

ولم يكن عجباً ولا مخالفاً لتوقعات المراقبين، أن يجهد أعداء الأمة

الإسلامية أنفسهم في قمع كل حركة إسلامية صحيحة في أي قطر من أقطار العالم الإسلامي المترامي، لأن الحرب مستمرة وأبدية، إذ هي حرب بين الحق والباطل، بين الإيمان والكفر، بين الحضارة الإسلامية الراشدة وسائر الحضارات الضالة، ولن تضع هذه الحرب أوزارها ـ بالنسبة لنا معشر المسلمين ـ إلا يوم تسود الحضارة الإسلامية العالم الإسلامي أولاً، فلا يتحاكم إلا إليها، ولا يدين إلا بها، ثم تبدأ مواكب الحركة الإسلامية بعد ذلك ماضية في طريقها لتوصل دين الله إلى كل عباده، ولتجعل حضارة الإسلام هي معبر البشرية الذي تعبر عليه من ضلالها إلى الهدى والحق والخير.

ونحاول في هذه الصفحات أن نؤكد أن الحضارة الإسلامية هي وحدها من بين سائر الحضارات، قديمها وحديثها، هي حضارة الإنسان في أكمل صورة. ومن أجل منهجية البحث لا بد أن نبدأ بإلقاء ضوء على مفهوم الحضارة بصفة عامة.

ضوء على مفهوم الحضارة :

يرى كثير من العلماء أن الحضارة بالنسبة لأمة من الأمم تعني : ما لدى هذه الأمة من : علوم وفنون وآداب وصنائع وعمران.

ويتوسع في مفهوم الحضارة بعض الباحثين فيضم إليها : نظم المجتمع، ومقدار التمدن، ونمط الحياة السياسية والاقتصادية.

ويطوي بعض الباحثين هذه المدلولات في أوجز عبارة فيقولون : الحضارة هي كل ما أبدعه عقل الإنسان.

ويبسط هذا الطي جماعة من الباحثين فيقولون : إن الحضارة هي السكان والمال والإدارة والتجارة والعلم والفن والسياسة والاجتماع.

وعند التحقيق : نجد أن كل هذه التعريفات ما هي إلا تعريفات لمظاهر الحضارة الإنسانية، لا للحضارة نفسها، وعناية بالتعريف على أثرها لا على جوهرها ولبها.

ومن منطلق إسلامي في التعريف بالحضارة ـ والإسلام له نظرته

الشاملة ـ نقول : إن الحضارة في حقيقتها تتكون من عناصر كثيرة لا يستغني بعضها عن بعض، ولا تفهم إلا من خلال هذا التكامل بين تلك العناصر.

ومن هذه العناصـــر :

تصور هذه الحضارة للحياة البشرية، ومنزلة الإنسان في هذه الحضارة وعلاقة الإنسان في ظل تلك الحضارة بالحياة، وقيمة هذه الحياة وغايتها، وما يسود هذه الحضارة من معتقدات وأفكار ترتكز عليها وتنطلق منها إلى ممارسة الحياة، مع التأكيد على أثر هذه المعتقدات والأفكار في مشاعر الإنسان، وفي سلوكه وفي آماله وأهدافه.

ثم طريقة هذه الحضارة في تربية الإنسان وإعداده ليشق طريقه في الحياة في ظل قيم أخلاقية خاصة يلتزم بها ويدعو إليها ويضحي بماله ونفسه في سبيلها، مستهدفاً أن يجمع الناس عليها.

وهناك عنصر هام ينضم إلى هذه العناصر هو : نظرة هذه الحضارة للعلاقة التي يجب أن تربط الإنسان بأخيه الإنسان.

هذه العناصر ـ بتلك الرؤية الإسلامية الشاملة ـ هي لب الحضارة وجوهرها، أما العلوم والفنون والآداب والصنائع والعمائر والإدارة والعادات والتقاليد، فما هي إلا مظاهر لهذه الحضارة، وقشرة لهذا اللباب.

والذي أحب أن أنبه إليه بادئ ذي بدء هو : أن الحضارة الإسلامية بكل تلك العناصر تتميز عن أية حضارة قديمة أو حديثة شرقية أو غربية، دينية أو وثنية، بأنها الحضارة الوحيدة التي صنعت على عين الله سبحانه، فأوحى بكل معطياتها إلى خاتم رسله وأنبيائه محمد بن عبد الله ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ وضمن الله أن يحفظ هذه الحضارة على الأرض حتى يقوم الناس لرب العالمين، « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ».

بينما سائر الحضارات من صنع البشر، والبشر بحكم خلقتهم وفطرتهم قاصرون وعاجزون ويخطئون ويصيبون، حتى الحضارات الدينية الباقية إلى الآن كاليهودية والنصرانية، لا تسامي الحضارة الإسلامية ولا ترقى إلى مستواها لسببين كبيرين :

أحدهما أن هذين الدينين يوم أنزلهما الله على رسوليه الكريمين موسى وعيسى عليهما السلام لم يرد الله بهما أو بأحدهما أن يكون الصورة المثلى للدين، وإنما أراد لكل منهما أن يعالج من مشكلات البشرية ما كان سائداً وذائعاً وضاراً بالناس في هذه الفترة من الزمان أو هذه البقعة من المكان.

وثانيهما : أن الله سبحانه لم يتكفل بحفظ هذا الدين أو ذاك، لأنه ليس آخر الأديان ولا أكملها، وإنما هو مرحلة من مراحل الحياة الدينية للبشر، تعقبهما المرحلة الأخيرة التامة الكاملة، وهي مرحلة الدين الذي جاء به محمد بن عبد الله صلوات الله عليه وسلامه، الدين الذي قال عنه رب الخلق جل شأنه : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً »[1].

أمّا ما حاوله الإنسان في مختلف أطواره في الزمان والمكان من أن يرسم لنفسه أو لبني جنسه من معالم الحضارة، فحسبه وحسبنا أنه يفكر بعقل بشري لا تستقيم نظرته ولا تتكامل أبداً إلا أن يدعمها الوحي ويؤيدها رسول من رسل الله سبحانه.

ذاك ضوء على مفهوم الحضارة كان لا بد منه، ليكون مدخلاً إلى الحديث.

---

(١) سورة المائدة آية ٣.

موقف المسلمين من الحضارة الغربية

الحضارة الغربية والعالم الإسلامي

تكـاد تكون الحضارة الغربية ـ من بين سائر الحضارات المعاصرة ـ هي الحضارة التي يصر أهلها، منذ أزمان بعيدة، أن يسيطروا على المسلمين وأن يذيبوهم في حضارتهم التي تتخذ من النصرانية قشرة وغطاء، وتتخذ من المادية لباً وجوهراً، وتنطلق من خلال ذلك مطلقة للإنسان كل الحرية في أن يخرج من إنسانيته إلى حيوانيته، فهي حضارة تعمد إلى إرضاء رغبات الإنسان وشهواته أكثر من محاولتها توجيهه وتسديد خطاه.

وليس معنى اهتمامنا بالحضارة الغربية في هذا البحث أننا نعطيها ما يميزها عن سواها من الحضارات، أو أن نعترف لها بنوع من الفضل أو قدر من النجاح.

ولكنا نهتم بها لأمرين :

الأول : أنها الحضارة السائدة في هذا العصر والتي يملك أصحابها من السلطان والإمكانات ما يجعلهم يتحكمون في مصاير عدد كبير من دول العالم منها كثير من بلدان المسلمين.

والثاني : أنها الحضارة التي واجهت الحضارة الإسلامية بصراعات وحروب منذ أزمان سحيقة البعد نسبياً، وأنها يوم اندحرت أمام جيوش

المسلمين في عصر الحروب الصليبية واضطرت مرغمة ذليلة لأن تغادر البلاد التي تفيض لبناً وعسلاً - كما تنطق بذلك كلمات ما يسمونه اليوم الكتاب المقدس - يوم اندحرت ذلك الاندحار، لم تستسلم وإنما غيرت أسلوب الحرب فقط[1].

وأخذت منذ ذلك التاريخ تكيد للمسلمين وتفرق كلمتهم وتذهب ريحهم وتصطنع في عالمهم المذاهب والمدارس والنظريات، وتغرقهم في بحر لجي من الفتن والاضطرابات والدسائس، واصطناع العملاء واختلاق الدعوات الضالة والأفكار المنحرفة والعادات التي تختلف مع الإسلام جوهراً وعرضاً، من سفور المرأة وعريها واختلاط الجنسين في مقاعد التعليم - في سن المراهقة وغيرها - وتشويه الحضارة الإسلامية ورميها بالعجز والقصور عن مواكبة ركب الحياة، وما لا سبيل إلى حصره في هذه الصفحات[2].

واستطاعت الحضارة الغربية بعد جولات عديدة ضد المسلمين أن تكون هي الحضارة الغالبة، وأن يكون أصحابها هم المسيطرون على بلدان العالم الإسلامي سيطرة منظورة حيناً وغير منظورة أحياناً.

وبدأ الاتصال الوثيق بين المسلمين وبين معطيات هذه الحضارة الغربية - وبغض النظر عن طبيعة هذا الاتصال، الذي كان في حقيقته اتصال الغالب بالمغلوب والقوي بالضعيف والخبيث بقصير النظر - بغض النظر عن طبيعة هذا الاتصال فإننا - معشر المسلمين - كان يجب علينا أن نلتقي مع تلك الحضارة - أو غيرها من الحضارات - ونحن أشد اعتزازاً بحضارتنا وأقوى إيماناً بأن ما عندنا هو أكمل وأتم ما أعطاه الله للبشر، وعندئذ كان وسيظل يجب علينا أن نأخذ من تلك الحضارة أو من غيرها ما نرى فيه نفعاً للمسلمين دون تعارض مع أسس حضارتنا وأصول ديننا، منطلقين في ذلك من مرونة أصول التشريع في ديننا التي لا تمنعنا أبداً من أن نستفيد ونفيد ونؤثر ونتأثر لكن بشرط أن نكون تحت مظلة الإسلام ومع كتاب الله وسنة

---

(١) لصاحب البحث : الغزو الصليبي والعالم الإسلامي - نشر دار عكاظ.

(٢) للتوسع في هذا : انظر التيارات المعادية للإسلام - لصاحب البحث - نشر دار البحوث العلمية.

رسوله ﷺ في كبير أمرنا وصغيره. ذلك واجبنا في الحاضر وفي المستقبل....

لكن ماذا فعل المسلمون مع هذه الحضارة الغربية ؟.

إن المجتمعات الإسلامية في العالم الإسلامي كله قد انبهرت بمعطيات هذه الحضارة الغربية، ثم انقسمت على نفسها إزاء الأخذ عنها إلى ثلاثة أقسام فيما أتصور :

قسم : آثر أن يغلق النوافذ والأبواب دون هذه الحضارة الوافدة، واعتبر أن كل ما جاء فيها أو جاء عنها شراً وفساداً وإفساداً، فحاربها وهو في موقف المغلوب على أمره والمقهور في أرضه، والمحاط به من كل جانب، فحارب ولم يحقق نصراً، ودفع بالأفواج تلو الأفواج في معركة غير متكافئة العدد ولا العُدد، فلم تكن النتيجة في صالحه، وإنما خرج من المعركة والتهم تنهال عليه من يمين وشمال، والدسائس تحاك له من مختلف أقطاره، والضحايا منه يقدمون لمشانق الظالمين ومن لم يحظ بالشهادة استقر في غياهب السجون.

ومن عجب أن هذا القسم كان قسمة بين بلدان العالم الإسلامي كله من أقصى شرقه إلى أقصى غربه، قلما خلت بلد إسلامية منه.

ومن عجب كذلك أن العدو حاول تشويه هذا القسم بسمة واحدة وسمه بها وهي : الجمود والرجعية والتخلف.

ولقد أغرى العدو بهذا القسم من المسلمين أعداداً كبيرة من الكتاب والصحفيين والفنانين، فسخروا منهم ومن جمودهم ـ فيما يزعمون ـ ونجح العدو حقاً في أن ينفر العامة والغوغاء والمأجورين من هؤلاء المسلمين.

والقسم الثاني : كان على النقيض من القسم الأول، فلم يكتف بفتح النوافذ والأبواب أمام حضارة الغرب، وإنما أغلق النوافذ والأبواب دون حضارته وتراثه ودينه، واندفع بقوة صاحب الحاجة إلى الحضارة الغربية يعب منها دون نظر أو تمييز، محاولاً أن ينسى حضارته، جاهداً أن ينماع في حضارة الغرب ومعطياتها.

ولقد اقتنص عدونا جانباً كبيراً من أفراد هذا القسم بأن رباهم في مدارسه ونشأهم على عاداته وتقاليده سواء في بلاد هذا العدو أو في بلادنا الإسلامية، ووعدهم ومناهم، ووفى لهم بما وعد وصدق لهم ما مناهم به، فألقى إليهم مقاليد الأمور في بلاد المسلمين ـ وكانت أغلب هذه البلاد في سلطان العدو ونفوذه ـ فجعلهم يسيطرون على الفكر وعلى الثقافة وعلى السياسة والاقتصاد، وعلى التعليم والتوجيه، وذلك ما نسميه بحركة « التغريب » للحياة الإسلامية كلها.

ولقد اندفع هذا القسم إلى الحضارة الغربية يأخذ كل ما فيها، حتى ما يتعارض مع دينه وقيمه الأخلاقية، ولقد أخذت آفة تقليد الأقوى تستبد بعامة المسلمين وقليل من خاصتهم حتى أصبح كثير من أفراد هذا القسم يباهون بأنهم يعتبرون التدين مسألة شخصية لا صلة لها بالحياة، وأن الدين، بناء على هذا التصور الضال، بمعزل عن الحياة، فانطلق ناعقوهم ينادون بفصل الدين عن سياسة الناس وحكمهم، واستبدلت القوانين الوضعية بقوانين الله، وانزوت الشريعة السمحة قابعة في منطقة الظل يتحاكم الناس إليها في الأحوال الشخصية فقط.

وخرجت المرأة المسلمة عارية كاسية مائلة مميلة تقلد المرأة الغربية، ونعق بهذا الباطل غير واحد من الضالين الذين لبس عليهم الحق فغلبه الباطل. وخرج الرجل المسلم عن خلقه الإسلامي، وأصبحت الغيرة عيباً، والتمسك بآداب الدين رجعية، واختلط حابل الناس بنابلهم، وشوه القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وشوه تراث المسلمين، وألقيت التهم على حضارتهم، وعمل الأعداء على تشويه تاريخ أعلامنا من المسلمين الأولين، وحوربت لغة القرآن، واستعجمت الألسنة، ووجد من المسلمين ومن العرب من يباهي بأنه لا يعرف العربية ولا يطيقها لسانه، وانهالت التهم جزافاً على لغة القرآن وعلى أدب الإسلام، وحل محل الحضارة الإسلامية حضارة غربية معادية، اقتلعت أصول التصور الإسلامي الصحيح للحياة والأحياء من المسلمين، وأغرقتهم في تيارات التصور الغربي القاصر للحياة والأحياء.

واستجاب لهذا القسم من المسلمين عدد كبير من أنصاف المتعلمين وأخماس المثقفين، وجيوش جرارة، ممن لقنوا التعليم على أسس مناهج الغرب وتربيته، ولا تزال طائفة من رواد هذا القسم مسيطرين متصدرين في كثير من بلدان العالم الإسلامي.

وإن وسائل هذا القسم ووسائل سادته وأوليائه في اجتذاب الشباب الإسلامي نحو الحضارة الغربية لعديدة ومتنوعة، ومغرية لقصار النظر في كثير من الأحيان.

والقسم الثالث : كان ـ في ظنه ـ أكثر وعياً وإدراكاً من القسمين السابقين، وحسب أنه بالتوسط بين القسمين يصنع شيئاً جديداً مقبولاً.

فلم يعجبه أن تهمل الحضارة الغربية كلها، ولا أن تتجاهل وسائلها في ترفيه العيش وإشباع رغبات الإنسان ـ أو نزواته في بعض الأحيان ـ ولم يعجبه كذلك أن يفقد كيانه، وأن ينماع في الحضارة الغربية ويسلم لها زمامه ويعطيها الحق في أن تصوغه على الصورة التي ترضيها.

فوقف هذا القسم بين الطرفين، أو أراد لنفسه أن يشرف عليهما من فوق جسر يشرف على الشاطئين، وأخذ يصوغ لنفسه، من حضارته الإسلامية ومن حضارة الغرب الغازية شيئاً جديداً، يجمع فيه بينهما ويلفق بين معطيات الحضارتين.

ولكن أفراد هذا القسم لم يوفقوا فيما أرادوا، ولم يستطيعوا أن يشقوا لأنفسهم طريقاً بين الطرفين، وكل ما استطاعوه هو التلفيق أو الترقيع، التلفيق بين حضارة الإسلام وحضارة الغرب، وهو تلفيق تغلب فيه الحضارة الغربية وتطفو دائماً، وهو وإن قبل في أحيان قليلة إلا أنه غير مقبول في معظم الأحيان، وهؤلاء : « خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، عسى الله أن يتوب عليهم »[١].

---

(١) سورة التوبة آية ١٠٢.

والترقيع للحضارة الإسلامية بمزق بالية من حضارة الغرب، شوهت الأصل وأساءت إلى الدخيل، ومن عجب أن هذا الترقيع لا يزال باقياً عند بعض المسلمين إلى الآن.

ولقد ضل هؤلاء الملفقون وهؤلاء المرقعون ضلالاً بعيداً، كما ضل من قبلهم عدد من العلماء المسلمين ـ في غابر تاريخنا ـ عندما أرادوا أن يوفقوا بين ما جاءت به الشريعة الإسلامية وما ارتآه بعض المناطقة والفلاسفة من غير المسلمين، فبددوا جهودهم، وضيعوا على الأمة الإسلامية أوقاتاً غالية من أعمار بعض علمائنا في محاولات لا قيمة لها.

ولهؤلاء الملفقين وأولئك المرقعين أسوق قول الله تعالى : شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً، والذي أوحينا إليك، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه، كبر على المشركين ما تدعوهم إليه، الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي اليه من ينيب »[1]. وإليهم كذلك أسوق الحديث عن الدعامة الثالثة من هذا البحث برمته، وهي دعامة فشل الحضارة الغربية في توجيه الإنسان.

وبعد : فهذا تصور لتلك الأقسام أخذته من واقع العالم الإسلامي اليوم، وهو واقع، على الرغم من مرارته، إلا أن بوارق أمل تلوح فيه هنا وهناك، وحلاوة إيمان تبدو في بعض أقطاره التي حكمت كتاب الله وسنة رسوله وحكمت بين الناس بما أنزل الله، حركة مد إسلامي تتحرك من الداخل وتوشك أن تغير وتبدل نحو الأحسن والأفضل، نحو سيادة الحضارة الإسلامية على أقطار العالم الإسلامي.

وأخيراً، فإن القسم الذي نبحث عنه، والذي نعقد عليه الأمل هو الشبيبة المسلمة، التي تؤمن بأنها صاحبة أكمل حضارة وأشمل منهج وأدق نظام وأخلده، والتي لا تلفق بين حضارتها وحضارة أخرى، والتي لا ترقع حضارتها بأي رقع من حضارة مخالفة، ولكنها في الوقت نفسه تستفيد من النافع المفيد الذي لا يعارض شيئاً مما جاء في الحضارة الإسلامية.

والأمل في شباب العالم الإسلامي أن يكون هو هذا القسم المنشود.

---

(١) سورة الشورى آية ١٣.

موقف الغرب من الحضارة الإسلامية

سؤال وارد على كل لسان، مؤداه : إذا كانت الحضارة الإسلامية بهذا الوزن وذاك الثقل في الكمال والتمام والقدرة على إسعاد البشرية، ضرورة أنها الحضارة التي اختارها الله لعباده، وصنعها لهم بنفسه، وتلافى فيها كل قصور بشري فكمله بالوحي، وكل غرور بشري فألجمه بالفطرة السوية التي فطر الناس عليها، وكل جنوح عقلي أو فكري فرده إلى الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وبالسنّة النبوية التي فصلته وفسرته.

إذا كانت الحضارة الإسلامية بهذا الوزن، وفي الغرب بالضرورة علماء يدركون هذا ويعرفونه معرفة أبنائهم، فلماذا لم يأخذوا عن الحضارة الإسلامية، ولماذا لم يعترفوا بكمالها ؟.

ومن أجل الإجابة على السؤال أقول :

الحق الذي لا يشك فيه أحد من الباحثين المنصفين أن الغرب قد أخذ عن الحضارة الإسلامية شيئاً كثيراً، وأن الغرب ظل يعيش ظلام العصور الوسطى ـ بالنسبة له ـ غارقاً في التأخر والتخلف، يوم كان العالم الإسلامي ينعم في ظل الحضارة الإسلامية بحياة إنسانية كريمة.

ولا يشك منصف في أن أوروبا، وهي تنطلق إلى ما يسمونه بعصر النهضة كانت تتخذ من الحضارة الإسلامية مرتكزاً ومنطلقاً.

وأن الحضارة الإسلامية في الأندلس المسلمة كانت جسراً عبرت عليه أوروبا نحو الأخذ من حضارة الإسلام، كما أن الحروب الصليبية كان معبراً آخر، اعترف بهذا بعض كتاب أوروبا أنفسهم.

ونستطيع أن نلمس تأثر الغرب بالحضارة الإسلامية في الاجتماع والاقتصاد والسياسة، حيث ضعف عندهم نظام الإقطاع بعد صلتهم بالمسلمين، وعرفوا حرية الرأي، وعرفوا حدود الحاكم دينياً كان أو مدنياً.

ونستطيع أن نلمسه في العلم والأدب والفكر، فيما نقلته أوروبا عن الحضارة الإسلامية، في علوم الطب والصيدلة والفلك والهندسة وغيرها، ولو شئنا أن نشير إلى بعض كتب المسلمين التي تتلمذت عليها أوروبا في هذه العلوم لما وسعتنا هذه الصفحات[1].

وإن نظرة إلى ما دخل اللغات الأوروبية من كلمات عربية باقية فيها حتى الآن لتدلنا على مدى ما أفادته أوروبا من الحضارة الإسلامية، يقول أحد مفكريهم : « .... وإننا ـ يعني الأوروبيين ـ مدينون لبطحاء العرب وسورية بمعظم القوى الحيوية الدافعة ـ أو بجمع تلك القوى التي جعلت القرون الوسطى مخالفة في الروح والخيال للعالم الذي كانت تحلمه روما[2] ».

وكل ما كان على الكاتب ـ لكي يكون منصفاً غير حاقد ـ هو أن يقول : مدينون للإسلام وحضارته بدل قوله : لبطحاء العرب وسورية.

وقد أكد ذلك « ماكييل » في إحدى محاضراته عن الشعر : « إن أوربه مدينة لبلاد العربية بنزعتها المجازية الحماسية ».

وكان على « ماكييل » ليكون منصفاً أن يقول : للحضارة الإسلامية بدل قوله : لبلاد العربية.

فمن حيث أخذ الغرب عن الحضارة الإسلامية قد أخذوا، ما يشك في ذلك باحث منصف، ومن حيث الاعتراف بكمال الحضارة الإسلامية أو

---

(١) لصاحب البحث : انظر الغزو الصليبي والعالم الإسلامي ـ الباب الثالث.

(٢) هاملتون جب : أثر العرب في الآداب الأوروبية ـ مجموعة تراث الإسلام.

الاعتراف بالأخذ عنها على المستوى العام، لم يحدث هذا ولا ذاك.

ولعلنا في هذه الصفحات نضع أيدينا على السر في ذلك :

تصور ـ محطئاً ـ عدد كبير من مفكري الغرب أن الحضارة الإسلامية مقتبسة من الحضارات التي سبقتها وبخاصة حضارة اليونان، والحق أن الحضارة الإسلامية ما كانت ملفقة من حضارات سابقة عليها، وكيف تكون وهي من صنع الله الذي أراد لها أن تكون أكمل الحضارات وأتمها، وكيف يسوغ هذا في منطق الفكر أو التاريخ إذا لحظنا أن حضارة يونان وثنية في طور من أطوارها، اشتراكية في طور آخر ؟.

كيف تلفق الحضارة الإسلامية، حضارة التوحيد، من عناصر وثنية ؟؟!

وكذلك زعموا أن الحضارة الإسلامية ملفقة من حضارات أخرى قديمة كالفارسية والرومية والبابلية والسريانية والفينيقية وغيرها، وكلها كما يعلم سائر المثقفين حضارات تقوم على الوثنية ؟.

فهو الحقد الذي أعمى بصائرهم وأبصارهم، ولما خيل إليهم أن هذا الباطل لن ينطلي على ذوي العقول راحوا يلتمسون أسباباً أخرى يشوهون بها **الحضارة الإسلامية، فقالوا ـ مخطئين ضالين ـ : إن هذا الدين كله من عند** محمد ﷺ، وذهلوا عما جاء به محمد ﷺ من عند ربه وتلاه بلسانه على الناس من قول الله تعالى عن محمد نفسه : « ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين، ثم لقطعنا منه الوتين، فما منكم من أحد عنه حاجزين، وإنه لتذكرة للمتقين، وإنا لنعلم أن منكم مكذبين، وإنه لحسرة على الكافرين، وإنه لحق اليقين »[1].

عجيب والله أن يستمر أصحاب الحضارة الغربية على التهجم على الحضارة الإسلامية وهم عيال عليها منذ ما يقرب من خمسة قرون أو أكثر.

غير أن الأعجب من ذلك أن يعترف أصحاب الحضارة الغربية بالفضل عليهم للحضارة الإسلامية وهم الذين يمتصون خيرات الشعوب الإسلامية، ويتخذون من بلدان العالم الإسلامي أسواقاً لمنتجاتهم ـ بينما

---

(١) سورة الحاقة الآيات ٤٤ ـ ٥١.

يعلمون علم اليقين أن الحضارة الإسلامية تجعل المسلمين ملزمين بأن يحولوا بينهم وبين هذا الاستغلال وذاك الاستنزاف.

ولعل الذي أضل أصحاب الحضارة الغربية عن الحق وصرفهم عن الاعتراف به، أنهم حكموا على الحضارة الإسلامية من واقع المسلمين اليوم، وهو واقع، كما سبق أن قلت، مرير وضعيف وفيه كثير من مظاهر التخلف ــ وهو حكم ضال مضل، أدى إلى نتيجة أمعن في الضلال والتضليل وهي قول بعضهم : لو كان في الحضارة الإسلامية نفع لانتفع بها أصحابها.

ولقد تناسوا حقيقة نسوقها نحن لهم في هذا البحث في صراحة لا تعرف الخجل، وهي أن المسلمين اليوم لا يلتزمون بالكتاب والسنة ولا يأخذون بحضارة الإسلام في حياتهم، وإنما يأخذون من حضارة الغرب الممزقة الفاشلة، وما الفشل الذي يعانيه المسلمون اليوم أو الضعف الذي يعيشونه بسبب الأخذ بحضارة الإسلام، وإنما هو بسبب عدم الأخذ بحضارة الإسلام.

وإن على الأمة الإسلامية اليوم إذا أرادت أن تعيش في ظل الحضارة الإسلامية وتحت مظلة الإسلام أن يستلهموا قرآنهم وسنة نبيهم ﷺ في كل أمر من أمورهم السياسية والاجتماعية والعلمية والمادية.

كما أن عليهم أن ينصرفوا تماماً عن تقليد أصحاب الحضارة الغربية، فليس التقليد بلائق بهم ولا هو جائز لهم وهم أصحاب أكمل حضارة وأتم منهج وأدق نظام.

كما عليهم أن يدركوا أن الحضارة الغربية التي فتنت بعضهم قشورها قد فشلت تماماً في أن تحقق للإنسان نوعاً من الحياة الكريمة التي تتلاءم مع كرامة الإنسان وتكريم خالقه سبحانه له[1].

كما أن أهم ما يجب على المسلمين أن يكونوا مسلمين حقاً وصدقاً، وأن يعودوا كما بدأ أسلافهم مجاهدين في سبيل الله لتكون كلمة

---

(١) سنفصل ذلك في الدعامة الثالثة من هذا البحث وهي : فشل الحضارة الغربية في توجيه الإنسان.

الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، ماضين في جهادهم حتى لا يعبد غير الله في الأرض.

فهل حان الوقت لكي يصبح المسلمون أصحاب القرآن أصحاباً للقرآن، يندفعون به في حياة الناس ويهدونهم بنورة، ويأخذونهم به من مهاوى الضياع والضلال، مؤمنين بأنهم خير أمةأخرجت للناس، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتدعو إلى الله على بصيرة.

هل يعي المسلمون اليوم والشباب منهم بوجه خاص قول الله تعالى : « وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون »[١]، وقوله سبحانه : « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين »[٢].

إن الأمل في ذلك معقود على الشباب أكثر من سواهم، فهم أمل الأمة الإسلامية وهم مستقبل الحضارة الإسلامية، المستقبل الحي النابض الفاعل القادر على أن يأخذ بيد الإنسانية نحو رشدها، نحو دين الإسلام وحضارة الإسلام.

---

(١) سورة الأنعام آية ١٥٣.
(٢) سورة الإسراء آية ٩.

فشل الحضارة الغربيّة في توجيه الإنسان

لعل أبرز أسباب فشل الحضارة الغربية في توجيه الإنسان، أنها لم تعرف قدر الإنسان ولم تضعه في مكانه الصحيح، وأنها آثرت عليه ما هو أقل أهمية منه.

وربما كانت عناية الحضارة الغربية بالعلوم التطبيقية أكثر من عنايتها بالإنسان، وإذا كان منهج العلوم التطبيقية والطبيعية وغيرها يقوم على مشاهدة الحواس وإجراء التجارب وسلامة التطبيق، فإن معنى ذلك أنه لم يعن من حياة الإنسان إلا بالجانب الظاهر منها فقط، أما ما وراء ذلك من الظواهر، فإن المنهج العلمي أعجز من أن يرى فيه رأياً أو يرسم له صورة، ذلك أن الحواس التي رصدت المشاهدات العلمية وأجرت التجارب لا تستطيع أن تنفذ إلى ما وراء المشاهدات، وإنما يحتاج ذلك إلى وحي الله إلى رسله، وإلى عمق البصيرة في إدراك مرامي الوحي، وإلى إيمان القلب المتلقي عن ربه بطريق الوحي ما يكشف له حقيقة هذا الكون وما فيه من علوم ومشاهد وتجارب.

فهل كان للحضارة الغربية نصيب من العناية بجانب ما وراء الطبيعة، عن طريق الوحي ؟.

كل ما لدى الحضارة الغربية من وحي قد شوه وحرف وبدل ولعبت به الأهواء السياسية والكنسية، فأصبح شيئاً مختلفاً عما جاء من عند الله، بل

لم يبال بعض المفكرين بأن يصرحوا بأن الديانات نبعت من الخوف لا من الوحي، وبأن الإيمان بما وراء الطبيعة إنما هو مجرد تعويض لما في دنيا الناس من الجهامة والعبوس.

ونادى بعضهم بأن الديانات إنما هي تلبية لمطالب النفس البشرية، فهذا هو المؤرخ الانجليزي المشهور، « هربرت فيشر » المتوفى عام ١٩٤٠ م والذي كان وزيراً للمعارف في وزارة لويد جورج (١٩١٦ ـ ١٩٢٣ م) يكتب عن الديانات فيقول : « دلت التجربة على أن الدقة في تصوير ما وراء الطبيعة قليلة الأثر في اجتذاب الناس إلى الديانة، وأن شيوع ديانة من الديانات يرجع على الأرجح إلى مبلغ ما تلبيه من مطالب النفس البشرية قبل رجوعه إلى مطابقتها لواقع الحياة ».

ولقد انخدع أصحاب الحضارة الغربية بما حققوه من مكتشفات علمية، فجحدوا الإله وجحدوا الدين ـ مع زعمهم بأنهم مسيحيون ـ فعندما نشر عالم الفلك المعروف « لابلاس » (المتوفى عام ١٨٢٧ م) كتابه في حركة الأفلاك وطبيعتها شجع هذا رجلاً سياسياً هو « نابليون بونابرت » (المتوفى عام ١٨٢١ م) أن يسأل « لابلاس » عن عمل القدرة الإلهية في تنظيم الأفلاك، فأجابه بقوله : « إنني لم أجد في نظام السماء ضرورة للقول بتدبير إله ».

بل إن « رينان » المفكر الفرنسي (المتوفى عام ١٨٩٢ م) والعدو اللدود للحضارة الإسلامية، يتصور الدين حلماً من الأحلام يتعلق به الإنسان ليقوم بالأعمال الهامة.

وبعد « رينان » ومنذ وقت ليس بالبعيد قال « جيمس فيتز » : « إذا كانت الحياة الإنسانية في نشأتها قد استوفى العلم وصفها، فلست أرى بعد ذلك مادة باقية للدين، إذ ما هي فائدته ؟ وما هي الحاجة إليه ؟ إننا نستطيع أن نسلك سبيلنا بغيره، وإن تكن وجهة النظر التي يفتحها لنا العلم لا تعطينا ما نعبده فهي كفيلة أن تعطينا كثيراً مما نستمتع به ونتملاه ».

إنها الحيرة والضلال والاضطرابات التي يعاني منها أصحاب الحضارة الغربية، ونستطيع أن نلمس هذا في بعض الفلسفات والمذاهب المعاصرة

التي تستهدف تحطيم الإنسان وإن زعمت أنها تحقق له أكبر قدر من الحرية، وهي مذاهب نالت من الشهرة والبريق ما جذب إليها الغافلين والسذج وأخص منها : الوجودية، والفوضوية، والروتاري، والعراة، والخنافس.

وسوف أتحدث في عجالة عن الوجودية، التي هي من أخطر المذاهب المحطمة لكيان الإنسان، والتي تخلعه من مجتمعه، ازدراء منه لهذا المجتمع واحتقاراً لأية علاقات اجتماعية ولأية قيم إنسانية.

فهي فلسفة تستهدف هدم كل ما بناه الإنسان في تاريخه الطويل من عادات ومثل وفضائل ومأثورات، وتقويض كل دين سماوي من الأديان، تستهدف ذلك وهي تتبجح بأنها تؤمن بحرية الفرد وبحقه في التمرد على الجماعة ومقاومة طغيانها، كائنة ما تكون قيم هذه الجماعة.

ولا يعنيني هنا أن أتتبع الوجودية في مهدها الأول في « الدنمرك » على يد « كير كجارد » (المتوفى عام ١٨٨٥ م)، أو أن أتحدث عنها بعد ذلك في ألمانيا على يد « جاسبير وهبدجار » وإنما سأكتفي بكلمة عنها في عصرها الحديث في فرنسا على يد « جان بول سارتر ».

ينادي سارتر بأن ثمة نوعين من الوجود :

وجود الأشياء الخارجية وهو وجود في ذاته، وذاك موجود بالفعل لا بالقوة.

ووجود لذاته، أي أنه موجود ليحقق ذاته وهو الشعور.. ومن هنا كانت حرية الإنسان ـ عنده ـ هي صميم وجوده الشعوري القلق، فهو حر لأنه يخلق نفسه بنفسه.. في كل لحظة.. وكلمة حر عنده ترادف : أن الله غير موجود.

والوجودية التي ينادي بها « سارتر »، الحاصل على جائزة نوبل في الأدب عام ١٩٦٤ م، ثورة على الجماعة، وحرب على الدين وعلى الفكر، وعلى أية سلطة من السلطات، الأسرة أو المدرسة أو المجتمع أو الدين، لأنه يرى أن الإنسان يخلق نفسه بنفسه في كل لحظة، فما ينبغي أن يقيده في ذلك أي قيد من القيود.

ولئن برر بعض المتحذلقين آراء « سارتر » الهدامة بأنها كانت رد فعل لما جاءت به الشيوعية أو البلشفية أو النازية من أخطار قضت على حرية الإنسان وسحقته سحقاً من أجل الجماعة الوهمية ـ التي هي في الواقع ثلة من الحكام ـ فإن هذا التبرير غير مقبول لدى العقلاء من الناس، فضلاً عن أصحاب الحضارة الإسلامية، لأن النتيجة في كلا الموقفين واحدة وهي تدمير الإنسان بيد الجماعة أو بيد وجودية « سارتر »، وما عذر « سارتر » في إباحة الإجرام والشذوذ والتبذل والخيانة وكل نقيصة ما دام الإنسان يرغب في ذلك ؟.

إن الوجودية في حقيقتها حرب على الإنسان وتدمير له، وعن هذه الوجودية تفرعت كل المساخر الخلقية والانحرافات السلوكية عند العراة والفوضويين والخنافس والساخطين والرافضين ومرضى الأعصاب والمنتحرين.

إن حضارة الغرب تجاهلت أهم ما في الإنسان وهو روحه وقلبه وإيمانه، فهي جديرة بأن تدمره تدميراً كاملاً عما قريب، فقد نمت الحضارة الغربية عضلات الإنسان فمكنته من عبور الأجواء والمشي على القمر، ولكنها أضعفت روحه فلم يعرف الرحمة بأخيه الإنسان، ولم يعرف الحب والخير، بقدر ما عرف كيف يدمر أخاه الإنسان بالحروب الفتاكة، ولقد اعترف بهذا دهاقينهم من العلماء ومن رجال السياسة.

فهذا هو العالم الفرنسي « ألكسيس كارليل » (المتوفى عام ١٩٤٤ م)، يقول : « إنه راقب آثار المادية في تجاربه بالولايات المتحدة، فعزا إليها كثيراً مما يعرض للشباب من الخلل العقلي والخلط الخلقي، فضلاً عن تعويد الفكر أن يتشبث بالآراء الحتمية حتى يفقد القدرة على صحة الحكم والتبصر في الأمور »..

إن الحضارة العصرية تجد نفسها في موقف صعب لأنها لا تلائمنا، فقد أنشئت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقية، إذ أنها تولدت عن أخيلة الاكتشافات العلمية وشهوات الناس وأوهامهم ونظرياتهم ورغباتهم، وعلى الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا إلا أنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا ».

« .... إن التقدم الهائل الذي أحرزته علوم الجماد على علوم الحياة هو إحدى الكوارث التي عانت منها الإنسانية، فالبيئة التي ولدتها عقولنا واختراعاتنا غير صالحة بالنسبة لقوامنا ولا بالنسبة لهيئتنا.. إننا قوم تعساء ننحط أخلاقياً وعقلياً... إن القلق والهموم التي يعاني منها سكان المدن العصرية تتولد عن نظمهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية........ وسوف يدرك الاقتصاديون أن بني الإنسان يفكرون ويشعرون ويتألمون، ومن ثم يجب أن نقدم لهم أشياء أخرى غير العمل والطعام والفراغ...... وأن لهم واجبات روحية مثل الاحتياجات الفسيولوجية، كما سيدركون أيضاً أن أسباب الأزمات الاقتصادية والمالية قد تكون أسباباً أدبية وعقلية.. »[1].

وهذا هو الرئيس الأمريكي « ولسون » الرئيس السابع والعشرون للولايات المتحدة الأمريكية (١٩١٣ ـ ١٩٢١ م) يقول : « إن اختصار المسألة بأسرها هو ما يلي : إن حضارتنا لا تستطيع الاستمرار في البقاء من الناحية المادية إلا إذا استردت روحانيتها... هذا هو التحدي النهائي لكنائسنا ومنظماتنا السياسية وللرأسماليين عندنا، ولكل فرد يخاف الله أو يحب بلده ».

وهذا هو « جون فوستر دالاس » وزير خارجية أمريكا من عام ١٩٥٢ إلى ١٩٥٩ م يعترف بفضل الحضارة الغربية، ويسجل عليها أنها لم تنجح في توجيه الإنسان ولا بعث الطمأنينة في قلبه.

يقول دالاس : « إن هناك شيئاً ما يسير بشكل خاطئ في أمتنا، وإلا لما أصبحنا في هذا الحرج وفي هذه الحالة النفسية... لا يجدر بنا أن نأخذ موقفاً دفاعياً، وأن يتملكنا الذعر، إن ذلك أمر جديد في تاريخنا... إن الأمر لا يتعلق بالماديات، فلدينا أعظم إنتاج عالمي في الأشياء المادية، إن ما ينقصنا هو إيمان صحيح قوي، فبدونه يكون كل ما لدينا قليلاً، وهذا النقص لا يعوضه السياسيون مهما بلغت قدرتهم، أو الدبلوماسيون مهما كانت فطنتهم، أو العلماء مهما كثرت اختراعاتهم، أو القنابل مهما بلغت

---

(١) ألكسيس كارليل : الإنسان ذلك المجهول.

قوتها... فمتى شعر الناس بالحاجة إلى الاعتماد على الأشياء المادية، فإن النتائج السيئة تصبح أمراً حتمياً.

وفي بلادنا لا تجتذب نظمنا الإخلاص الروحي اللازم للدفاع عنها، وهناك حيرة في عقول الناس وتآكل لأرواحهم، وذلك يجعل أمتنا معرضة للتغلغل المعادي ـ كما كشفت عنه أنشطة الجواسيس الذين تم كشفهم حتى الآن، ولن تستطيع أي إدارة لمكافحة التجسس أن تقوم بحمايتنا في هذه الظروف.

لقد تقابلنا مع أقسى الاختبارات التي يمكن أن يلتقي بها أي شعب وهو اختبار الحياة في رفاهية، لقد قال يسوع : إن هذه الأشياء المادية سيحظى بها أولئك الذين يعملون من أجل ما أمر به الله، من أجل تحقيق عدالته، ولكن عندما يحدث ذلك فعندئذ يبدأ الامتحان الأكبر، لأن هذه الأشياء المادية يمكنها أن تصبح الصدأ الذي ينخر في الأرواح.

نستطيع أن نتحدث ببلاغة عن التقدم المادي الذي حققناه وعن روائع الإنتاج الجماعي، وعدد السيارات وأجهزة الراديو والتليفزيون التي يمتلكها أفراد شعبنا، ولكن المبالغة في وصف الماديات تعطي البعض فكرة بأننا قد أفلسنا من الناحية الروحية.

لقد أخفقنا بشكل يدعو إلى الرثاء في أن من الممكن الحصول على عدالة اجتماعية دون أن نمارس الإلحاد والمادية.

ونتيجة لذلك فإن كثيراً من قومنا قد فقدوا إيمانهم في مجتمع حر، وكأمة فقدنا كذلك إيماننا الديني، وممارسة شعائرنا الدينية على الرغم من أننا مازلنا متدينين، ولم نعد نؤمن بأن الإيمان يتمشى مع الظروف الحديثة، ومتى تحطمت الصلة بين الإيمان والعمل فلن نستطيع بعد ذلك أن ننمي قوة روحية نستطيع بها نشرها في جميع أنحاء العالم.

إن علينا أن نغير كل شيء، إننا نستطيع ـ بل يجب ـ أن نرفض كلية النظرية القائلة بأن الأشياء المادية لها الأولوية، والروحية تابعة لها.

إن العبودية والاستبداد لا يمكن أن يكونا صواباً حتى ولو بصفة استثنائية، ويجب أن لا نخشى وضع الأديان في مرتبة الصدارة بالنسبة لحرية

الإنسانية والتحرر، وأن نتمسك بالرأي الديني القائل : إن الله قد خلق الإنسان لكي يكون أكثر من منتج مادي، وإن غايته النهائية شيء آخر غير الأمن الجسدي.

ويجب أن نفهم بوضوح أن مجتمعاً حراً ليس معناه مجتمعاً يسعى كل فرد فيه لنفسه، بل إنه مجتمع متناسق، والقيود المفروضة هي قبل كل شيء روابط الأخوة المنبعثة من الإيمان، فإن الناس خلقوا كي يعيشوا إخواناً في رعاية الله... »[1].

هكذا فشلت الحضارة الغربية في توجيه الإنسان لأنها لم تعن به عنايتها بالجماد والماديات، ولم تستطع أن توقف التيار الجارف من الأمراض النفسية والعصبية والرغبة في التخلص من الحياة.

وحسب الحضارة الغربية أنها من صنع الناس للناس، وأنها تنكرت لكل دين، وانطلقت تشبع في الإنسان حيوانيته على حساب إنسانيته فكان ما كان من الحيرة والتخبط والضياع.

وإن التاريخ القريب سوف يشهد ـ في تصوري ـ عودة إلى الدين والتدين، وبحثاً عن وحي الله إلى عباد الله، لتستقيم عليه حياة الناس وعندئذ سوف يدرك أصحاب الحضارة الغربية أن ما بين أيديهم من الوحي قد حرِّف وبدِّل وشوِّه، ولن يجدوا من وحي الله لعباده إلا القرآن الكريم وسنة المصطفى ﷺ، وأمة إسلامية واحدة مترامية الأطراف تتحاكم إلى الحضارة الإسلامية وقد زالت عن أطرافها الحواجز المادية والمعنوية، يومئذ يقبلون على الدين الحق دين الإسلام، ويومها يفرح المؤمنون بنصر الله.

وإنا لنرجو أن يكون ذاك قريباً.

* * *

---

(١) جون فوستر دالاس : حرب أم سلام.

نجاح الحضارة الإسلاميّة في توجيه الإنسان

حاجة الإنسان إلى الأمن والطمأنينة لا تقل عن حاجاته الحيوية من مطعم ومشرب ومسكن، والحضارة الإسلامية هي وحدها من بين سائر الحضارات التي حققت للإنسان الأمن والطمأنينة في دنياه وفي آخرته، بينما أكثر الحضارات الأخرى نجاحاً ـ بمقياسهم ـ هي التي تحقق للإنسان الأمن والطمأنينة في الدنيا، وقليلاً ما يحدث ذلك، فهي حضارات قلق واضطراب في الدنيا وضياع وخسران في الآخرة.

وإذا كانت الحضارة الغربية تقدم للإنسان من وسائل الرفاهية ما يرضي حواسه المادية وشهواته ونزواته، فإنها تتجاهل روحه وأشواقه ومشاعره وأخلاقه، أوضحنا ذلك فيما سلف من البحث.

أما الحضارة الإسلامية فإنها تعني بالإنسان كلاً متكاملاً جسداً وروحاً، غريزةً وعقلاً، حاجات عضوية وعواطف وأخلاقاً، فهي بذلك حضارة الأمن والطمأنينة والرضى، حضارة السعادة في الدنيا والآخرة.

وأود أن أستعرض في هذا الجانب من البحث بعض العوامل التي جعلت من الحضارة الإسلامية حضارة الأمن والطمأنينة للإنسان، بل جعلتها الحضارة الوحيدة التي تقيم للإنسان أكرم وزن وتضعه في وضعه الصحيح دون إسراف في تمجيده ودون تقليل من شأنه.

أول هذه العوامل هو : التصور الصحيح للحياة الدنيا.

فقد وضعت الحضارة الإسلامية الحياة الدنيا في وضعها الصحيح دون أن تبالغ فيها كما فعلت بعض الحضارات، ودون أن تهون من شأنها كما فعلت حضارات أخرى.

ذلك الوضع الصحيح للحياة الدنيا يتمثل أصدق تمثل في تصوير القرآن الكريم لها ولمدى إقبال الناس عليها وتمتعهم بها وانتفاعهم بما فيها، في حدود ما شرع الله وما سن رسوله ﷺ، يتمثل ذلك في قوله الله تعالى : « يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا، إنه لا يحب المسرفين، قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون »[1].

ولقد أوضحت سنة رسول الله ﷺ حدود السلوك البشري في الطعام والشراب وأخذ الزينة، فيما رواه النسائي وابن ماجه وأحمد رضي الله عنهم بالسند الصحيح عنه صلوات الله عليه : « كلوا واشربوا وتصدقوا والبسوا ما لم تخالطوا إسرافاً ولا مخيلة ».

هذا في جانب ما أحل الله، أما في جانب ما حرم فقد أوضح القرآن ذلك ولم يتركه لهوى الناس، فقال سبحانه : « قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن، والإثم والبغي بغير الحق، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون »[2].

والرسول ﷺ هو الذي يحلل الحلال ويحرم الحرام بالوحي الذي أنزل الله عليه « الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي

---

(١) سورة الأعراف آية ٣١ ـ ٣٢.

(٢) سورة الأعراف آية ٣٣.

كانت عليهم، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون »[1].

ولا يجوز لإنسان كائناً من كان أن يحرم شيئاً مما أحل الله لعباده حتى ولو كان يتوارى وراء نزعات الزهد أو التصوف أو غير ذلك من الأمور: « يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم، ولا تعتدوا، إن الله لا يحب المعتدين »[2].

وكل ما في الأرض حلال للإنسان ما دام طيباً يرضاه الله له : « يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً، ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين »[3].

هذا تصور الحضارة الإسلامية للحياة الدنيا، لا انكباب عليها ولا حرمان مما أحل الله فيها. وذلك التوسط بين الأمرين هو أكبر عوامل الأمن والطمأنينة للإنسان لأنه يلائم فطرته، في حين نجد الحضارات الأخرى قد ضلت الطريق في تصور الحياة الدنيا.

فلقد بالغت بعض الحضارات في قيمة الحياة الدنيا، حتى رأت الإنسان فيها أصغر الكائنات وأعجزها، فخشع الإنسان في ظل تلك الحضارة واستكان أمام مظاهر الكون، وأخذ يعبد هذه المظاهر ويخشع لها، فعبد الشمس والقمر والنجم والشجر والصنم والحجر، فأهان في ظل تلك الحضارة إنسانيته وخسر دنياه وآخرته.

وبعض الحضارات أسرفت في التهوين من شأن الحياة الدنيا، فرأت فيها إثماً كبيراً وشراً مستطيراً، ورأت في لذاتها ومنافعها قذارة ونجاسة لروح الإنسان، وفرضت على الإنسان إذا أراد أن يدخل في الملكوت أن يتطهر من الحياة الدنيا ويعتزل ما فيها.

غير أن تلك الحضارة أدركت أن الإنسان بحكم فطرته مضطر إلى الانتفاع بهذه الحياة، وأنه مهما كان راغباً في ملكوت السماء فلا بد له من

---

(١) سورة الأعراف آية ١٥٧.

(٢) سورة المائدة آية ٨٧.

(٣) سورة البقرة آية ١٦٨.

مطالب لبدنه وحاجات لفطرته، فاخترعت هذه الحضارة **طريقاً** عجباً للخروج من هذا التناقض، فنادت بفكرة الخلاص، وهي أن شخصاً واحداً مخلصاً قد ضحى بنفسه، فكفر بذلك عن ذنوب كل من انتسب إليه وطهره من أرجاس الحياة الدنيا.

فالحضارات الأخرى قد تصورت الحياة الدنيا تصوراً لا يلائم فطرة الإنسان، لأنها بنت تلك التصورات على فكر الإنسان القاصر بحكم خلقته وقدرته، فهو لم يؤت من العلم إلا قليلاً.

وأضيف في هذا المجال أن تصور اليهودية والنصرانية للحياة الدنيا يعد من تصورات الفكر الإنساني القاصر، لأن اليهودية والمسيحية كما أوحى الله بهما إلى رسوليه موسى وعيسى عليهما السلام لم يعد لهما وجود منذ زمن طويل.

وثاني هذه العوامل هو : وضع الإنسان في وضعه الصحيح وذلك من أبرز العوامل التي جعلت الحضارة الإسلامية أقدر على توجيه الإنسان وأجدر أن تمنحه الأمن والطمأنينة.

فقد وضعت الإنسان في وضعه الصحيح دون تقديس له كما فعلت بعض الحضارات ودون تحقير له كما فعل بعضها الآخر.

والوضع الصحيح للإنسان في ظل الحضارة الإسلامية يفهم من الآيات القرآنية الكريمة التالية :

« فلينظر الإنسان مم خلق، خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب »[1].

« يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم، ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى، ثم نخرجكم طفلاً، ثم لتبلغوا أشدكم، ومنكم من يتوفى، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً... »[2].

---

(١) سورة الطارق آية ٥ ــ ٧.

(٢) سورة الحج آية ٥.

فالإنسان مخلوق لله تعالى متقلب في نعمه لا يملك لنفسه موتاً ولا حياة ولا نشوراً، ولا رزقاً ولا ضراً ولا نفعاً، إنما الأمر كله لله، والإنسان بهذه الصفات كريم على الله أرسل إليه الرسل ليعلموه ويبصروه، ويطالبوه بعبادة الله، ويخبروه بأن الله سوف يثيبه على الطاعة وسوف يعاقبه على المعصية في الحياة الآخرة.

قال تعالى : « ولقد كرمنا بني آدم، وحملناهم في البر والبحر، ورزقناهم من الطيبات، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً »(١).

وسخر الله للإنسان ما في الأرض : « ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض والفلك تجري في البحر بأمره، ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، إن الله بالناس لرؤوف رحيم »(٢).

ولم تقبل الحضارة الإسلامية من الإنسان أن يتكبر أو يغتر أو يتعالى بجاهه أو ماله على عباد الله من إخوانه، ولو فعلت لكانت قد بالغت في قيمة الإنسان، كما لم تقبل أن تقلل من أمره أو تهون من شأنه حتى يصبح ـ كما فعلت بعض الحضارات ـ أقل من الحيوان، حيث عبد الإنسان الحيوان واتخذ منه إلهاً.

ولا قبلت الحضارة الإسلامية أن تنظر إلى الإنسان على أنه قد ورث الخطيئة واللعنة بمجرد ميلاده، ولذلك يفرض عليه أن يعيش منسحقاً أبداً متوارياً عن خيرات الحياة وطيباتها.

ولكي تتضح قيمة الإنسان على هذه الحياة الدنيا حرصت الحضارة الإسلامية على أن تحدد له وظيفته وهي أنه : خليفة لله عليها، ومن الله يستمد القدرة ومن رزقه يطعم وينعم، ومن سلطانه يستمد الجاه فيحكم ويدير ويرأس وينظم المجتمع الذي يعيش فيه. وكل ما في يد الإنسان من مال إنما هو على الحقيقة مال الله والإنسان مستخلف فيه، نادى بكل ذلك القرآن الكريم، قال تعالى : « وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة،

---

(١) سورة الإسراء آية ٧٠

(٢) سورة الحج آية ٦٥.

قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك، قال إني أعلم ما لا تعلمون »[١]. وقال سبحانه : « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه، فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير »[٢]. وقال جل شأنه : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً »[٣].

والمنطق السليم يستوجب أن لا يتصرف المستخلف إلا فيما أذن له مستخلفه، ومن هنا كان الوحي وكان الرسل، كلهم يبلغ عن الله ما أمر به عباده وما نهاهم عنه وما أذن لهم فيه.

ويختار الله الإسلام ليكون آخر الأديان وأكملها، ومحمداً ﷺ ليكون خاتم الأنبياء وداعياً للبشرية كلها إلى عبادة الله سبحانه، قال تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً[٤] ».

وقال سبحانه آمراً محمداً ﷺ أن يدعو إلى هذا الدين كل الناس : « قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً، الذي له ملك السموات والأرض، لا إله إلا هو يحيي ويميت، فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمّي الذي يؤمن بالله وكلماته، واتبعوه لعلكم تهتدون »[٥].

فليست وظيفة الإنسان في الأرض أن يستبد بما فيها ومن فيها ولا أن تستبد به الأرض فتعصف بنفسه مادياتها وتمزق مشاعره كائناتها، وتقضي عليه حضارتها، إنما هو خليفة الله فيها يأتمر بأمره وحده، « بل لله الأمر جميعاً »[٦].

---

(١) سورة البقرة آية ٣٠.
(٢) سورة الحديد آية ٧.
(٣) سورة النور آية ٥٥.
(٤) سورة المائدة آية ٣.
(٥) سورة الأعراف آية ١٥٨.
(٦) سورة الرعد آية ٣١.

وثالث هذه العوامل : توفير الأمن والطمأنينة للإنسان

فقد كان ذلك وسيظل من أقوى الأدلة على نجاح الحضارة الإسلامية في توجيه الإنسان نحو ما يصلحه في دنياه وآخرته.

وقد نجحت الحضارة الإسلامية في توفير الأمن والطمأنينة للإنسان لأنها كانت حاسمة في تحديد غايته من هذه الحياة، وهي غاية تتلاءم مع استخلافه في الأرض، وتتواءم مع فطرته التي فطره الله عليها، ومع طبيعة المجتمع الإنساني وما له من آمال مشروعة، وما يحيط به من مخاوف يجاهد في دفعها عن نفسه.

وما دام الإنسان كريماً على الله ـ كما أوضحنا ـ وما دامت وظيفته هي خلافة الله في الأرض، فإن الغاية لا بد أن تكون هي إرضاء الله سبحانه صاحب الأرض والنعم والمستخلف للإنسان في أرضه، وهي غاية منطقية يؤدي إليها التفكير السليم، وينص عليها القرآن الكريم في قوله سبحانه : « إن الحكم إلا لله أمر أن لا تعبدوا إلا إياه، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون »[1]. وقال سبحانه : « قل إنّ صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين »[2].

وقال جل شأنه : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون، وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن، ومن أوفى بعهده من الله، فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به، وذلك هو الفوز العظيم »[3].

وقال سبحانه : « فأقم وجهك للدين حنيفاً، فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون »[4].

---

(١) سورة يوسف آية ٤٠.

(٢) سورة الأنعام آية ١٦٢ ـ ١٦٣.

(٣) سورة التوبة آية ١١١.

(٤) سورة الروم آية ٣٠.

وقال تعالى شأنه : « ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى، وإلى الله عاقبة الأمور »[1].

فغاية الحياة وهدفها في ظل الحضارة الإسلامية ملائم لفطرة الإنسان منفرداً، وملائم لفطرة المجتمع الإنساني كله، لأنها غاية ناجحة تماماً في تحقيق الآمال الفردية لكل إنسان على حده، وتحقيق الآمال الاجتماعية للمجتمع الإنساني كله.

ذلك أن أي غاية غير الغاية التي حددها الإسلام لا يمكن أن يتفق عليها الأفراد أو تتحد كلمتهم في سبيل الوصول إليها، لأنها ستكون غاية مادية، وقلما يتفق الناس على الغايات المادية لما بينهم من التضارب والتطاحن من أجلها.

أما الغاية التي حددتها الحضارة الإسلامية من حياة الناس فهي إرضاء الله بعبادته، والاتفاق عليها والاتحاد في سبيل الوصول إليها ميسور، لأن الله سبحانه هو الذي يحددها ويحدد طريق الوصول إليها ووسائل الوصول وأدواته، وهي وسائل تمَّحي معها الفروق بين الطبقات وتذوب معها التناحرات، ويقضي فيها على النعرات والقوميات لأن تلك الوسائل هي طاعة الله والتزام وحيه وآداب ذلك الوحي.

والبشرية كلها عبيد لله، وعباد له إنْ آمنوا به وأطاعوا الرسول ﷺ، وسعي العبيد أو العباد في طريق يحدده المعبود سبحانه أمر لا يقوم حوله خلاف.

وإذا كان أكبر ما يصبو إليه الإنسان أو المجتمع الإنساني في هذه الحياة الدنيا هو الأمن والسلام والعافية والرفاه، والحكم والسيادة، فان الحضارة الإسلامية قد كفلت ذلك كله للمجتمع الإنساني المؤمن بالله : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد

---

(١) سورة لقمان آية ٢٢.

خوفهم أمنا، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون »[1].

وهي غاية لا يستطيع الناس أن يختلفوا على فضيلتها وشرفها، لأن الله سبحانه هو الذي حدد لها الفضل وذاك الشرف.

وتحديد الغاية من الحياة على هذا النحو هو الذي يجعل الناس قادرين على اجتناب الإثم والشر والفواحش دون أن يختلفوا على تقدير هذه الشرور والآثام، لأن الله سبحانه هو الذي قضى بأنها شرور أو آثام.

وبهذا تدرك البشرية كلها أن طريق الوصول إلى غاية الحياة وهدفها طريق واحدة، مهما وقفت الشياطين على كثير من الطرق تزينها، وتوهم الناس بأنها موصلة إلى الغاية.

وليست الحضارات المختلفة التي تصورت للحياة غايات مختلفة ليس منها إرضاء الله سبحانه، ليست هذه الحضارات إلا شياطين تقف على مفترق الطرق، تضلل عن السليم منها الموصل إلى الغاية.

لذلك نادى القرآن الكريم على رسوله ﷺ وعلى كل مسلم في كل الأمكنة والأزمنة يحذر من طريق الشياطين ويلزم بطريقه، طريق الحق، فقال سبحانه : « وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا، السبل فتفرق بكم عن سبيله »[2].

تلك بعض العوامل التي جعلت الحضارة الإسلامية تنجح في توجيه الإنسان وترشيده وزرع الأمن والطمأنينة في قلبه، وهي ليست كل العوامل وإنما هي أوضحها عندي ـ في مجال هذا البحث المحدود ـ غير أن كثيراً من العوامل الأخرى التي لا تقل أهمية عن هذه العوامل يمكن أن نضمها إليها، ونكتفي هنا بالإشارة العابرة إلى رؤوسها. فمنها ما تميزت به الحضارة الإسلامية من وضوح المعتقدات وملاءمتها لفطرة الإنسان وللحياة نفسها.

---

(١) سورة النـور آية ٥٥.
(٢) سورة الأنعام آية ١٥٣.

ومنها أسلوب التربية الراشدة الذي أخذت به الحضارة الإسلامية أفرادها، والقيم الأخلاقية التي تسود هذه التربية، ليعيش الإنسان في ظلها آمنا مطمئناً مع نفسه وذويه ومع المجتمع كله، بل مع الكائنات المحيطة به.

إنها الحضارة التي تستهدف الخير في كل مذهب تذهب إليه، الخير للبشرية جمعاء في كل زمان ومكان ما دامت تؤمن بالله وتعبده وتجعل رضاه غايتها في الحياة.

وإذا كانت الحضارة الإسلامية هي حضارة الأمن والطمأنينة، فليس معنى ذلك أنها منحة يمنحها الله لكل من انتسب إلى الإسلام أو تسمى بأسماء المسلمين، بل لا بد للحصول على الأمن والطمأنينة من الإيمان ومن العمل الصالح في الإطار الذي رسمته شريعة الله وحددت أبعاده، ولذلك **ارتبطت ألوان الأمن والطمأنينة في القرآن الكريم بالمصدر الرئيسي لهذا** الأمن وتلك الطمأنينة وهو الإيمان بالله، ثم ارتبطا بالأسس التي يرتكز عليها الإيمان وهي الأعمال الصالحة، قال تعالى : « وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر، قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار، وبئس المصير »[١].

وقال سبحانه : « فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون، الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون »[٢]. وقال جل شأنه : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله، ألا بذكر الله تطمئن القلوب »[٣].

تلك حضارة الإسلام التي نجحت في توجيه الإنسان نحو ما يصلحه في الدنيا والآخرة.

* * *

---

(١) سورة البقرة آية ١٢٦.
(٢) سورة الأنعام آية ٨١ ـ ٨٢.
(٣) سورة الرعد آية ٢٨.

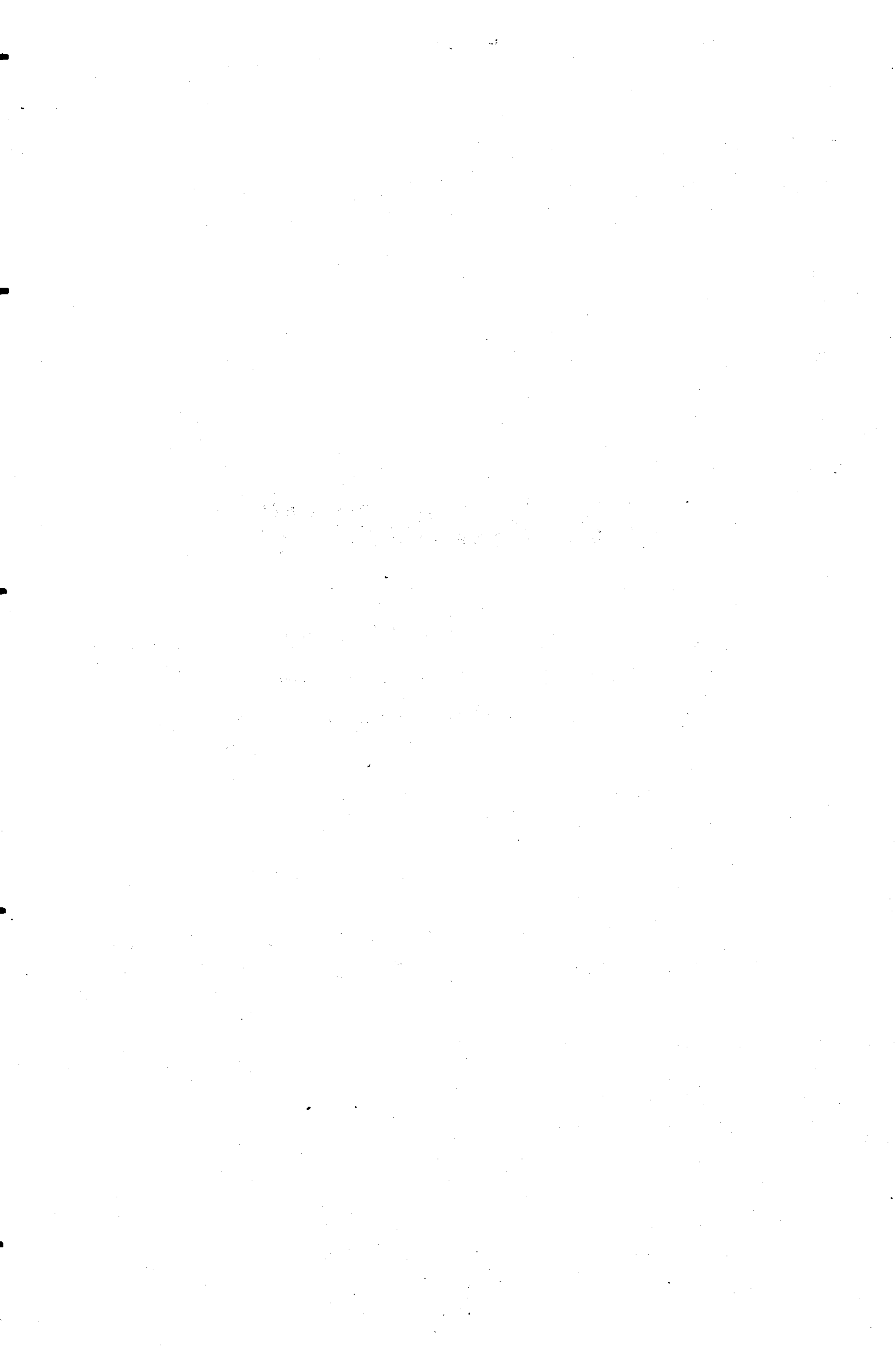
الخاتمة

في الختام أهيب بشباب المسلمين في هذا الملتقى الفكري أن يزدادوا تمسكاً بإسلامهم واعتزازاً بحضارتهم، ولن يكون ذلك إلا بمعايشة القرآن الكريم وسنة المصطفى ﷺ، فالقرآن دستورنا، لا دستور لنا سواه، والرسول ﷺ قدوتنا، ما جاءنا به وجب علينا اتباعه، والجهاد في سبيل الله، بالنفس والمال والجهد، هو سبيلنا لا سبيل لنا خيراً منه، والموت في سبيل الله أسمى أمانينا، لا نحرص على حياة اشتراها الله منا بالجنة.

ولا إله إلا الله محمد رسول الله، عليها نحيا وعليها نموت وفي سبيلها نجاهد وعليها نلقى الله.

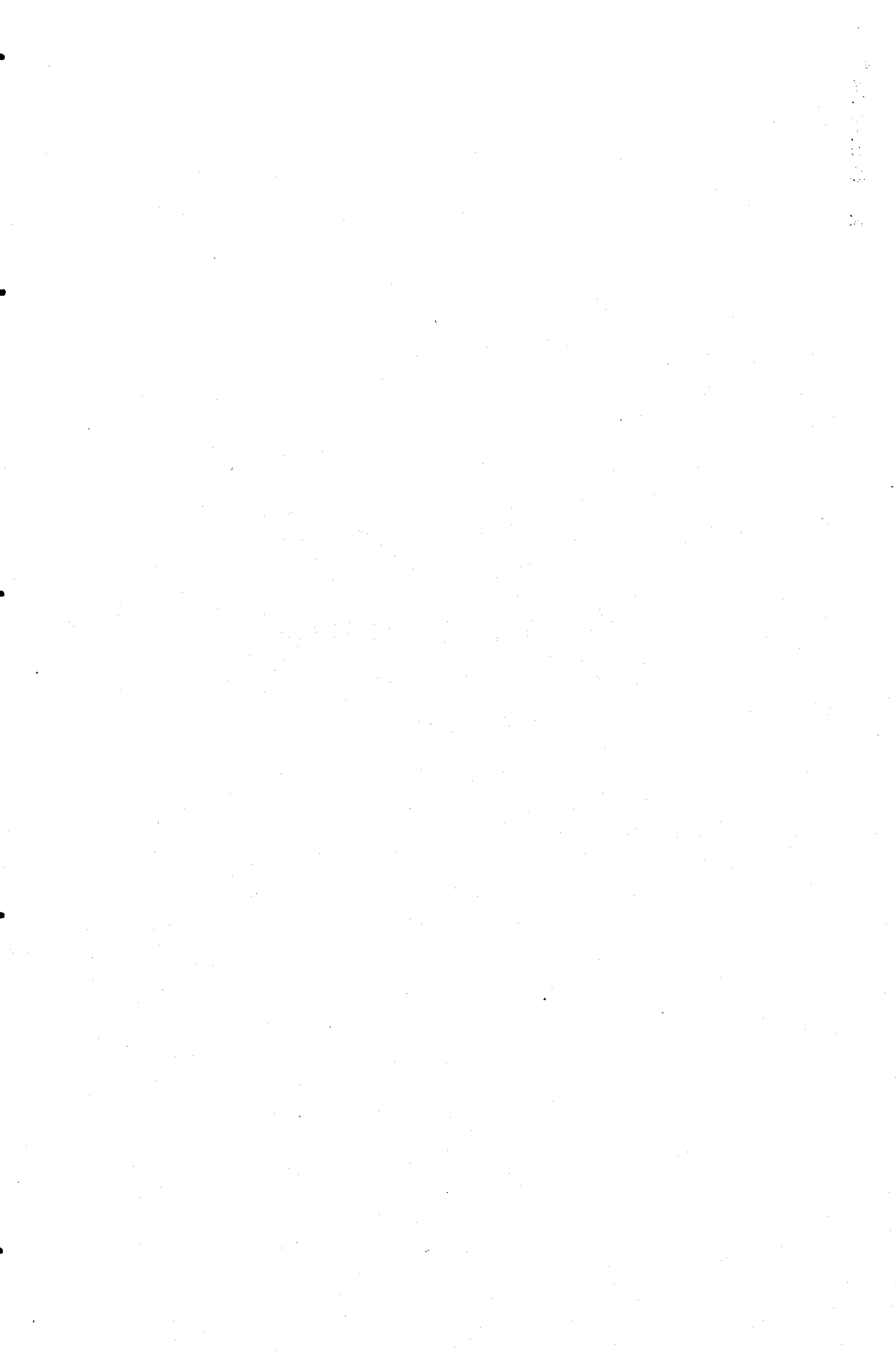
يا شباب الإسلام إن واجبكم كبير وعملكم عظيم، والمستقبل لدينكم وحضارتكم، فاعملوا وسيرى الله أعمالكم، وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الإسلام والتطور البشري

نموذج توضيحي للدكتور عطية سويلم
الأستاذ بجامعة ولاية نيويورك - ستوني بروك
بحث مترجم عن الإنجليزية



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

لمــا كانت التغييرات التي تجتاح العالم المعاصر تتحدى الإنسانية على كل المستويات، فإننا نرى مختلف دول العالم تتسابق بسرعة مذهلة نحو القرن الحادي والعشرين، والقصة مألوفة حيث الكفاح المستمر يدور على كوكبنا الأرضي من أجل القوة، ومن أجل السيطرة على المعارف المادية والتقنية في المقام الأول.

ويبدو من وراء هذا النشاط الدؤوب للأمم، وربماكان غير ملحوظ المكان، يبدو الإنسان العادي الذي نخاطبه الآن ونعرض أمامه هذا الأنموذج. ومن سوء الحظ أنه في الأغلب الأعم حينما تنشغل الأمم بالتقدم تتغافل عن الفرد، وهذا شيء مجرب وملحوظ رغم أهمية الإنسان كفرد. ورغم كونه أصغر وحدة في المجتمع أو الأمة فإنه في الحقيقة أهم العناصر وأولاها بالاهتمام.

والآن ـ والعالم يبدو أمامنا كما هو ـ فإن هناك من الأسباب ما يدعو إلى توجيه الاهتمام إلى هذا الكائن البشري.

هناك العديد من البشر يواجهون الأزمات ومن بينهم المسلمون بطبيعة الحال. والمشاكل كبيرة والتشخيص عاجز ولا بد من أن نقوم بعمل ما. إن **علماء المسلمين يواجهون تحدياً هائلاً في طريق تطبيق توجيهات القرآن** والسنة واستخدام معلوماتهم في سبيل رضوان الله ابتغاء حل مشاكل الإنسانية المعذبة. إنه أقل واجب مفروض على كل مسلم.

مستوى المفاهيم :

« الرحمن، علم القرآن. خلق الإنسان، علمه البيان »[1]. إن مدخل هذه الدراسة يكمن في توضيح عملية التطور الإنساني على ضوء القرآن الكريم كنموذج للمفاهيم التي نتفيأها. إن تطور الإنسان في الإسلام محض استجابة لوصاية المولى سبحانه وتعالى على البشر. وعملية التقدم البشري إن هي إلا حصيلة التقدم التقني للإنسان مع سعي الإنسان للتجاوب مع المجتمع والطبيعة وفقاً لأوامر الله.

ومن ثم فإن الأنموذج يتكون من ثلاثة عناصر رئيسية وهذه العناصر هي :

١) قوة الله الصانع.
٢) الإنسان الذي زوده الله بطاقات معينة.
٣) البيئة باعتبارها مجال استغلال الطاقة.

إن الفكرة الرئيسية لمبادئ الإسلام في سبيل تطور البشر تتركز على الإنسان وتحقيق شخصيته وهدفه في الحياة. الإنسان هو خليفة الله في الأرض وقد أخضع له المولى سبحانه ـ من أجل تسهيل مهمته وأهدافه ـ **أخضع له الطبيعة وجعلها متسقة ومنظمة من أجل الحفاظ على الحياة.**

والسؤال الذي يوجه دائماً هو أين موقع الإنسان في هذا العالم ؟ الغرب يبالغ في إعطاء الإنسان هالة أكبر من حقيقته، حينما ينظر إلى علاقة الإنسان بالبيئة، ويمكن أن نطلق على هذه النظرة البعد الأفقي لعلاقة

---

(١) سورة الرحمن الآيات ١ ـ ٤.

الإنسان بالعالم الذي يعيش فيه. والبعد الآخر سنطلق عليه البعد الرأسي، وهذا الأخير يؤكد على علاقة الإنسان بالله.

وهذه العلاقة هي التي تربط الإنسان بخالقه وفوق ذلك فإن هذه العلاقة تعطي الدليل النظري للحياة العملية في البعد الثاني كما مثلها الرسول محمد ﷺ الذي أقام توازناً كاملاً للحياة في مجال البعد الرأسي والأفقي.

وإذا أخذنا بعين الاعتبار جانب المفاهيم فإننا ندرك أن الإنسان نفسه كما أوضح المولى سبحانه ـ له عنصران أساسيان :

١) التكوين البدني (بمعنى أن الجسم البشري خلق من صلصال).

٢) والجانب العاطفي الروحي (أو النفس التي سواها الله بيديه).

ولكل جانب أو تكوين عناصر أخرى مشتقة منه كما يلي :

١ ـ عنصر التكوين البدني ـ تفاعل الإنسان مع البيئة تنظمه الشريعة باعتبارها برنامج العمل الذي يمكن الإنسان من تطوير نفسه في المجتمع بمقتضى الأبعاد الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

وقد ألمح القرآن بوضوح إلى معيار هذه التطورات كما يلي :

البعد الاجتماعي :

وينبني على إزالة الفوارق الطبقية والجنسية واعتبار الأسرة هي أساس القوة الاجتماعية حيث يقول القرآن.. « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون »[١].

البعد الاقتصادي :

وينشأ أساساً باعتبار أن الثروة من الله وقد أودعها المجتمع بغية التقدم والخير، وهذا يتطلب أن يقسم جماعياً ناتج هذه الثروة ويسد الحاجات الأساسية للأفراد وتنتهي الفجوة بين الأغنياء والفقراء : يقول

---

(١) سورة الروم آية ٢١.

القرآن : « وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها »[1].

« أفرأيتم ما تحرثون. أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون. لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلتم تفكهون. إنا لمغرمون. بل نحن محرومون. أفرأيتم الماء الذي تشربون. أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون. لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون. أفرأيتم النار التي تورون. أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون. نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين »[2].

البعد السياسي :

وهو العلاقة بين الحاكم والمحكوم

يقول القرآن :

« يا أيها الذين آمنوا : أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم، فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول »[3].

« ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون »[4].

١) **العنصر الروحي : وهو الصلة بين العبد (الجسم) وبين الله، وهو** أمر لازم للكائن البشري، ويشكل أساس العمل السليم.

ولروحانية الإنسان أبعاد كثيرة :

١ ـ الذكاء ـ يعتبر القرآن أن الذكاء البشري بغير حدود وأن كل شيء في متناوله وأن المعرفة تمنح القوة.

ومن ثم فإن المعرفة غير المحدودة تعني القوة غير المحدودة.

والإنسان لم يزود فقط بقوة غير محدودة لمعرفة الأشياء ولكنه قد مكن له أن يستخدم هذه القوة ويتصرف فيها.

٢ ـ الأخلاق : الإنسان كائن تنظم حياته قواعد سلوكية، وهو حر مسئول

---

(١) سورة هـود آية ٦.

(٢) سورة الواقعة الآيات ٦٣ ـ ٧٣.

(٣) سورة النساء آية ٥٩.

(٤) سورة المائدة آية ٤٧.

ومدرك للقيم، ولكن حرية الإنسان تخضع لمشيئة الله وقوته باعتباره مخلوق يخضع لإرادة الخالق، أما الخالق سبحانه وتعالى فله الحرية المطلقة.

٤ ـ الإيمان باعتباره مركوز في وعي الإنسان يحقق له القدرة والاحتمال والاعتماد على نفسه.

وهذا هو نطاق البشر الذي يعّبر عنه في الحمد والثناء على الله والصلاة والدعاء والعبادة والإذعان والخضوع لإرادة المولى، سبحانه وتعالى، وباختصار يمكن أن يقال بأن الإنسان كائن متعدد الجوانب، وأن غاية الجوانب الروحية فيه تدعيم ذكائه وقوته وحريته وإدراكه للقيم والمسئولية ووعيه بالمقدسات واستقلاليته في التصرفات.

٣ ـ التقدم البشري :

إن العلاقات المتداخلة لعناصر تركيب الإنسان يمكن توضيحها على النحو التالي :

العلاقة بين الإنسان وخالقه وهي أساس وشرط لتوفير النجاح في علاقة الإنسان بالبيئة، وحيث أن علاقة الإنسان بالله أكثر تحديداً وخطوطها العريضة ومعاييرها الدقيقة قد حددها المولى سبحانه، فإن ذلك يعين كثيراً على نجاح علاقة الإنسان ببيئته ويجعلها أكثر توفيقاً.

إن الإجراء العملي للتقدم البشري يمكن التعبير عنه في الإسلام باعتباره نظاماً يولي اهتماماً خاصاً بعلاقة الإنسان بخالقه، فهو يوقظ ضمير ووعي الإنسان للارتباط بالله سبحانه وينشئ وعياً خاصاً بالهدف من الحياة.

ويجعل الإنسان يدرك مسئوليته وعلاقته بالوجود ككل، ويبصر الإنسان بالتزامه ببذل الجهد والاتجاه نحو العمل الصالح، ووفقاً للإسلام فإن وعي الإنسان بهدفه في الحياة هو لب الإدراك على أساس أن هدف الإنسان هو المفتاح الذي يمكنه من تحقيق ذاته وتوجيه علاقاته بغيره وبالطبيعة وفوق ذلك وقبله وبعده علاقته بالله.

ولما كان الإنسان لا دخل له في وجوده فإنه يعجز بالمثل عن إدراك الغاية من هذا الوجود ما لم يتجه إلى القوة التي تسببت في هذا الوجود، وأعني بها الله سبحانه وتعالى.

وعندما خلق الله الإنسان أرسل إليه الرسل ـ في نفس الوقت ـ لهدايته ـ وهؤلاء الرسل جميعاً من لدن آدم وحتى محمد ﷺ قاموا بدعوة الإنسان لعبادة الله، وجوهر هذه العبادة هو التزام الإنسان بالتمسك بالهدف الذي خلق من أجله.

إن الغاية العاجلة للإنسان أن يكون خليفة الله على الأرض كي يعمل على تطويرها.. يقول القرآن :

« وإلى ثمود أخاهم صالحاً. قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها، فاستغفروه ثم توبوا إليه، إن ربي قريب مجيب »[1].

« لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب، إن الله قوي عزيز »[2].

خـاتمـــة :

ينظر الإسلام إلى مفهوم التطور باعتباره أصلاً وأساساً فذاً وحافزاً لعلاقة الإنسان بخالقه.

وطبقاً لهذه العلاقة فإن أنشطة الإنسان جميعها نوع من العبادة طالما تمشت مع أوامر الله، وروح العبادة تدل على أن اهتمامات الإنسان ومصالح المجتمع لا يفترقان لانهما يخدمان غاية واحدة، وأعني بها تحقيق وصاية الله.

ويشير القرآن إلى مجال العبادة في آيات مختلفة، وعلى سبيل المثال

---

(١) سورة هـود آية ٦١.

(٢) سورة الحديد آية ٢٥.

فإنه يعتبر التفكير والتأمل في خلق الله طريقاً واضحاً إلى معرفة الله.. « الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض : ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار »[1].

ويعتبر الإسلام طريقه بمثابة القرار الحاسم الذي يقضي على أي انحراف أو عداء بين الإنسان وخالقه، وبين الإنسان والطبيعة، وبين إنسان وآخر، بين الوجود وغاية الحياة، بين الموضوعية وإثبات الذات، بين الفرد والجنس البشري.

وتبعاً لما سبق فإن التطور البشري كما يراه الإسلام عملية متسقة وعالمية، وهي نتاج العلاقات المنسجمة بين الإنسان وخالقه والمجتمع الذي يعيش فيه والطبيعة من حوله.

وعلى ضوء التقدم البشري في مستواه الاجتماعي فإن حالة الإنسان من وجهة النظر السيكولوجية الروحية إنما هي صورة للنفس وعلاقتها بالله. وهذا التفكير النابع من القرآن يلقي الضوء على زيف أنماط السلوك الغربية التي ترى أن سلوك الإنسان نتيجة عمل مؤثرات اجتماعية واقتصادية، وليس كما نقول بأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. إن الكائن البشري عليه أن يصلح البيئة سواء كانت بيئة اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية، وقد أوضح المولى سبحانه وتعالى بأن لكل إنسان حسبما قدم، وكما تزرع تحصد « والذي خبث لا يخرج إلا نكدا »[2].

ويمكن القول باختصار أن :

(١) الإسلام هو نظام للتطور والتحديث، باعتبار وصاية الله على الإنسان تستهدف هذه الغاية.

(٢) الإنسان هو المستهدف بهذا التطور في كافة النواحي لأنه :

أ ـ خليفة الله على الأرض.

ب ـ لأنه أسمى من كافة المخلوقات الأخرى.

---

(١) سورة آل عمران آية ١٩١.

(٢) سورة الأعراف آية ٥٨.

جـ ـ لأنه حر الإرادة.

د ـ لأنه قد عهد إليه بمسئولية التطور والعبادة.

(٣) والإنسان مخلوق متعدد الجوانب، فمن ناحية تركيبه هناك جانبان :

أ ـ الجانب البـدني

ب ـ الجـانب الروحي.

أ ـ **الجانب البدني** يتمثل في تفاعل الإنسان مع الطبيعة والبيئة والمجتمع على أساس من الأنشطة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. وتقوم الشريعة على تنظيم هذه الجوانب.

ب ـ **الجانب الروحي** ويتمثل في الإيمان بالله والصلة به سبحانه وتعالى.

(٤) التطور في الإسلام شامل ويمثل كلاً لا ينفصل، ولا يمكن تجزئته أو تقسيمه، فهو ينتظم الجانب الروحي والجانب البدني سواء بسواء.

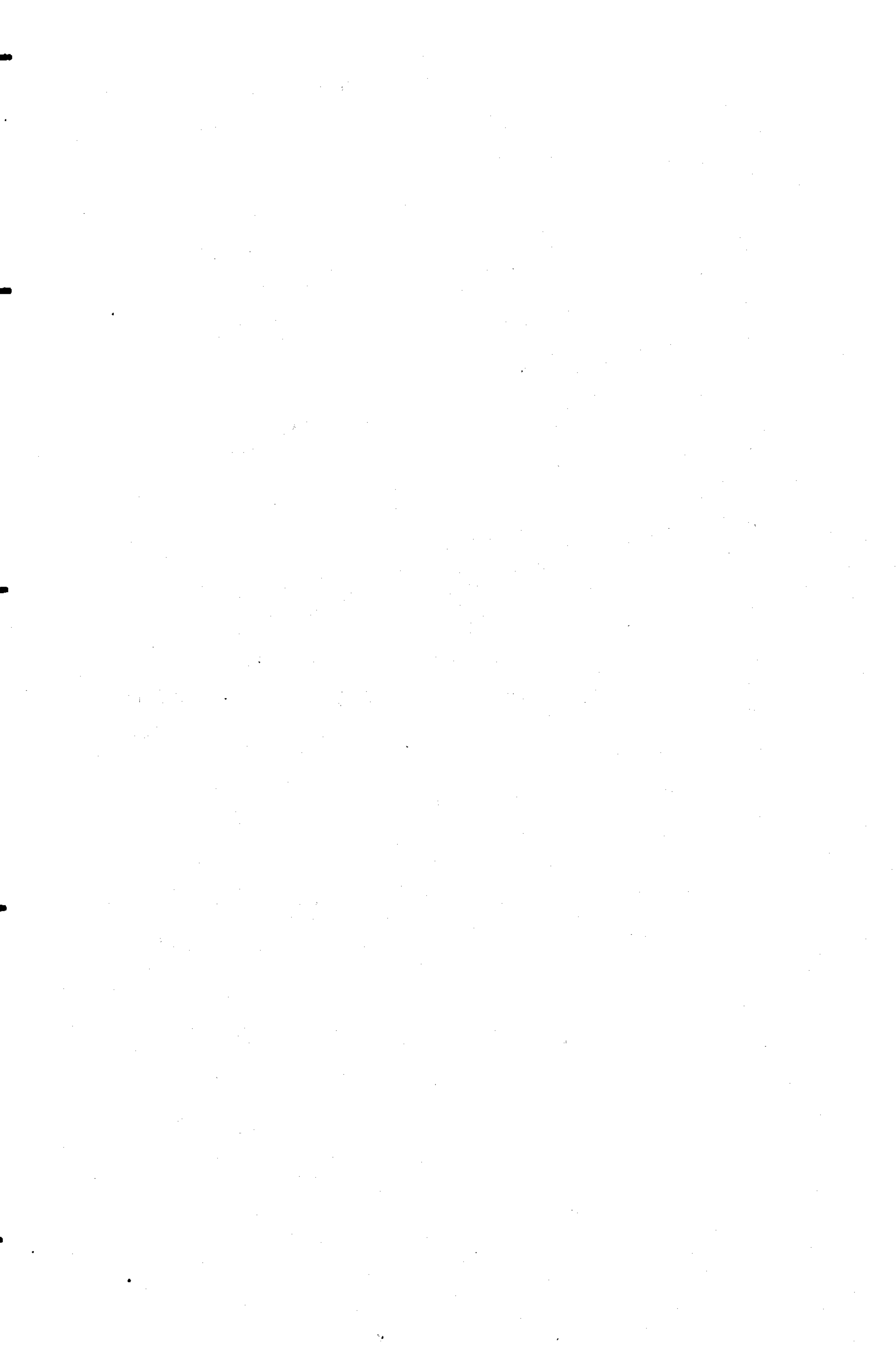
(٥) التطور الروحي شرط أساسي للتطور البدني.

(٦) إن عملية التطور يمكن إبرازها على النحو التالي :

الإيمان يؤدي إلى الوعي
الوعي يؤدي إلى الإدراك
الإدراك يؤدي إلى التحقق
التحقق يؤدي إلى بذل الجهود
وبذل الجهد يؤدي إلى التطور

الحضارة الإسلاميّة بين التحدّي والتعطيل

للأستاذ محمد علي ضناوي
رئيس التجمع الاسلامي - شمال لبنان



بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول

الحضارة مصطلحاً ومفهوماً

من المصطلحات الأكثر تعقيداً مصطلح الحضارة، فيكاد هذا المصطلح يجمع مئات التفاسير، وكل منها يعكس مرئياته الخاصة عن الوجود، ويختصر مفاهيم أصحابه عن الحياة. ولا غرو في ذلك، فمفهوم الحضارة هو مقياس لمستوى الإدراك، وعنوان على معطيات الأمم والشعوب، ومن خلاله يمكننا تفسير كثير من أحداث التاريخ ومضامين الثقافة والإبداع. وقد أكثر المؤرخون والفلاسفة والمفكرون في القرون المتأخرة من الأبحاث الحضارية، موضحين مفاهيمهم عنها ـ وبخاصة ـ تفسير تواريخ الأمم، توصلاً إلى رسم صورة أو أخرى للحضارة الأمثل التي يسعد الناس بها.

ولا يتسع هذا البحث لعرض وتحليل جميع تلك التصورات والآراء،

فهذا يخرج عن موضوعه، غير أننا لزاماً علينا توضيح بعض المعالم بقدر ما يتصل بالبحث، وبقدر ما يعين على معالجة المفهوم الإسلامي للحضارة.

الحضــارة هي المدنيـة :

أولى تأويلات الحضارة، تلك التي تجعلها مرادفة لمصطلح **المدنية، فالحضارة مدنية، والمدنية حضارة،** وكل الأقوام وبخاصة أولئك المتخلفين عن أنماط الحياة المدنية من بدو أو قبائل الأدغال هم غير متحضرين، وإن تكن عندهم مستويات من فكر **وسلوك،** وهذا الرأي الذي كان يحتل حيزاً كبيراً من مفاهيم لفيف من الباحثين ثبت بطلانه وتناقضه، فالحضارة تكون في كل مجتمع، ولو كان موغلاً في البدائية **المدنية،** إذ أن التجمع نفسه، والتفاعل ضد نمط للحياة معين... حضارة... غير أنهـا تختلـف في المستويات... ليس إلاّ...

الحضارة هي العقل أو التاريخ أو الاقتصاد :

وذهب فريق من العقلانيين، وهم الفلاسفة الغربيون الذين مجدوا العقل في عصور النهضة في أوروبا، إلى تعسف بيّن في تفسير الحضارة، **فجعلوها مرادفة للعقل نفسه، أو في أحسن الأحوال لثمرات العقل.** فلا حضارة إلا للظواهر الإنسانية المبنية على مقياس العقل **وتقريراته،** وطالما أن العقل ـ برأيهم، هو الذي يسود مختلف أوجه الحياة البشرية، فالعقل إذن هو الذي يفسر الحضارة ويعطيها أبعادها الصحيحة ؟. ومن خلال هذا المفهوم العقلي للحضارة تفرعت مفاهيم أخرى، فمنهم **من ظن أن الحضارة هي التاريخ،** فالتاريخ عندهم هو الحضارة، فهو الذي يعكس حركة الأمم والشعوب في صراعاتهم وثقافاتهم وأديانهم.

ومنهم من ذهب إلى **أن الحضارة هي العلم** المبني على مكتشفات ساعدت الإنسان على أن يحيا حياة أفضل، مستفيداً من البيئة حوله، فلا عبرة ـ في هذا المفهوم ـ **إلاّ** للتكنولوجيا، فهي الحضارة بدءاً أو نهاية، والعلم والمخترعات هما اللذان يمنحان الحضارة حيويتها ورقيها، وبالتالي مفاهيمها الصحيحة.

ومنهم من ذهب إلى أن الحياة ترتكز على عناصر اقتصادية أساسية تتكون من نتيجتها الحضارة. **فالحضارة هي الاقتصاد** ، ذلك ـ حسب ظنهم ـ ان مجموعة القضايا الاقتصادية تفسر التاريخ وتنازع الأمم والأفراد وبقاء **الأصلح**، فلا مهرب من القبول بالواقع الاقتصادي وربط الحضارة به سلباً أو إيجاباً.

الحضارة طريقة العمل والتفكير :

إزاء جزئية كل من هذه التعاريف، ومجافاتها في بعض جوانبها للواقع الحضاري، فقد بدأ بعض المفكرين محاولة إطلاق عموميات أخرى على مصطلح الحضارة، فغدت الحضارة عند « وليم هاولز » (١) مثلا : **كل ما يساعد « الإنسان » على تحقيق إنسانيته**.... ولولاها لكان مجرد نوع آخر من أنواع الحيوان. بينما حاول « تايلور » (٢) أن يكون أكثر دقة بقوله : (هي كل ما يتقبله **الإنسان كطريقة للعمل والتفكير**، وكل ما يتعلمه لغيره من الناس)، و (يدخل فيها أيضاً النظريات الخاصة بتفسير الكون تفسيراً فلسفياً يساعد على فهم الحياة وتسهيل المعيشة بشكل أو بآخر)، وكذلك (أساليب الضبط التي تهدف إلى إقرار النظام الاجتماعي وانتشار نماذج السلوك المقررة).

الحضارة هي الطاقة :

وبعد هذا جاء المشتغلون بمسائل الطاقة، فحاولوا مجدداً حصر **(الحضارة بالطاقة وبأساليب التحكم بها)** (٣) باعتبار **أن الطاقة هي** مصدر الانتاج والإبداع، والإنسان الأول استخدم طاقته العضوية الكامنة في جسده فكان الكائن العضوي أول مصادر الطاقة ثم تطورت....

الحضارة عند توينبي وكوهن :

ولا يتردد **أرنولد توينبي** في أبحاثه الحضارية، **في** محاولة ربط الحضارة بالكنيسة الكاثوليكية. فالحضارة، في رأيه، تنشأ عن الأديان، وأفضلها تلك التي تنشأ عن الديانة المسيحية الكاثوليكية برئاسة البابا، وهي ـ بدون تعمية ـ الحضارة الغربية التي هي وحدها تحافظ على (الشرارة

الإلهية الخلاقة)، وهي وحدها القادرة على أن لا تؤول إلى ما آلت إليه سابقاتها.

وقد جاء بحث توينبي هذا بعد أن حدد معالم الحضارة بقوله : (إنها حصيلة عمل الإنسان في الحقل الاجتماعي والمناقبي، وهي حركة صاعدة وليست وقائع ثابتة وجامدة، إنها رحلة حياتية مستمرة لا تقف عند ميناء ما) (٤).

ويشارك توينبي مفهومه ذاك **الأستاذ هانزكوهن**، الذي يؤكد بأن الحضارة العصرية أزلية وسرمدية وغير قابلة للانحطاط لأن الشرارة الخلاقة هي نبعها ومصدرها وأساسها. وينبغي، والحضارة الغربية مثلى الحضارات، أن تحاط حكماً بهالة من القداسة... (٥).

ابن خلدون والحضارة :

ويأتي العلامة **ابن خلدون** في مقدمة المشتغلين بالعلوم الحضارية، وجاءت مقدمته في التاريخ أبحاثاً ذات قيمة شاملة في **الحضارة**، ومع هذا فقد جاء تعريف ابن خلدون للحضارة مقتصراً على العمران وما يعرف بالمدنية وعمر الدولة، وهو تعريف قاصر.

الإسلام هو الحضارة :

وفي مقدمة المفكرين المسلمين في العصر الحديث، ممن تعرضوا لبحث الحضارة، **سيد قطب** الذي جاء بتعريف هو أقرب للشعار، عندما كتب فصلاً في كتابه « المعالم » تحت عنوان (الإسلام هو الحضارة)، (٦) مؤكداً بما لا يدع جدلاً أن الإسلام وحده الحضارة ودونه تخلف، وبالتالي لا يجوز إطلاقاً لفظ حضارة على ما سواه من أمم، وقد شابهه بذلك شقيقه **الأستاذ محمد قطب** عندما أنكر جواز إطلاق مصطلح الحضارة على أمم الإغريق والفرس والرومان وأهل الغرب باعتبار أن هؤلاء عاشوا ويعيشون جاهلية منكرة (٧).

الحضارة والوحي الهابط :

أما **مالك بن نبي** فقد حاول أن يربط الحضارة بالوحي الهابط من السماء

(فالحضارة لا تظهر في أمة من الأمم إلّا في صورة وحي يهبط من السماء ويكون للناس شرعة ومنهاجاً... فكأنما قدر للإنسان ألّا تشرق عليه شمس الحضارة إلّا حيث يمتد نظره إلى ما وراء حياته الأرضية) (٨).

الحضارة الإسلامية أو دين الإسلام :

ويتحدث الأستاذ أبو الأعلى المودودي عن الحضارة فيقول : (إنما هي نظام متكامل يشمل كل ما للإنسان من أفكار وآراء وأعمال وأخلاق في حياته الفردية أو العائلية أو الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية). ويعرف الحضارة الإسلامية بقوله : (مجموعة المناهج والقوانين التي قررها الله سبحانه وتعالى لكل هذه الشئون والشعب المختلفة لحياة الإنسان... وهي المعبر عنها بكلمة دين الإسلام أو « الحضارة الإسلامية ») (٩).

مجموعة المفاهيم عن الحياة :

ويفرق **تقي الدين نبهاني** بين الحضارة والمدنية، فيعرف الأولى (بمجموعة المفاهيم عن الحياة) بينما تقتصر الثانية على الأشكال المادية للأشياء المحسوسة التي تستعمل في شئون الحياة.

من هنا فالحضارة الإسلامية (هي التي تقوم على أساس الإيمان بالله)، وعلى (أساس العقيدة الإسلامية) (١٠).

هل يمكن تحديد معنى الحضارة بصورة تجريدية ؟ :

ومن خلال هذه المفاهيم والتصورات عن الحضارة تتضح المعطيات الأساسية الكامنة وراء هذه **التعاريف**، فكل يسعى لأن يوجد الارتباط الوثيق بين تصوره عن الكون والإنسان والحياة وبين ما يسمى (الحقيقة الحضارية) ليصل في النتيجة إلى تأكيد حضارية فكره وممارساته مغلباً عليها الطابع الذي يريد.

إن الحضارة ـ كمصطلح ـ **ينبغي أن تحدد بمعزل عن الأطر الفكرية طالما ارتضينا أن تكون الحضارة مصطلحاً**... أي أن تحاول تصدير الحضارة كما هي.... بقطع النظر عن صواب أو خطأ المعطيات

الفكرية أو الثقافية أو الدينية لأمة من الأمم... ذلك أن تحديد مفهوم الحضارة ـ على هذا المستوى ـ يساعدنا في النتيجة على فهم كثير من الأمور.

التفرقة بين الحضارة والمبادئ :

وأول ما ينبغي هنا أن نؤكده هو **أن الحضارة تفاعل، أي هي انعكاس لأنشطة الإنسان في هذا الكون، وهي ـ بمعنى أدق ـ صورة لممارسته المبنية على مبادئه وأهدافه وقيمه ومفاهيمه، أي أن الحضارة ليست المبادئ والأهداف بذاتها... فالمبادئ أو القيم أو التصورات تحمل معاني مصطلحاتها، وهي التي توحي بممارسات الإنسان المختلفة وعلى كل صعيد.**

أما الحضارة فهي نتيجة تلك المفاهيم في ظرف أو ظروف معينة، وهي أيضاً تفاعل الإنسان بالكون عبر زمان محدود أو أزمنة متعاقبة... ذلك أن المبادئ كالإسلام مثلاً، مجموعة قيم ومفاهيم عن الحياة تتضمن عقيدة وأمراً ونهياً وتنظيماً لشؤون الحياة المختلفة.

غير أن هذه المفاهيم، إن لم تمارس، تغدو تراثاً وكتباً قيمة ليس إلّا... والكلام المسطور لا يصح أن نسميه حضارة بل نسميه باسمه، أي مبادئ.. حتى إذا ما ترجم الكلام إلى واقع، والأمر والتنظيم إلى فعل وممارسة، **أي إلى وجود في عالم وإلى تفاعل في حيز محدود، ظهرت** الحضارة حاملة صفات التفاعل والتطبيق... عندها صح وصف الحضارة بالإسلامية وصح قولنا (الحضارة الإسلامية).

وهذا يعني أن القيم وحدها دون تطبيق ليست إلّا ترفاً فكرياً لا يوجد حضارة، **فالحضارة لا توجد إلا بالتفاعل.**

ومن هنا يمكننا أن نفهم لماذا جعل الإسلام الإيمان به يقيناً في القلب وعملا يدب في الحياة، غير أن هذا التفريق بين مصطلحي الحضارة والمبادئ لا يسقط استخدام المقاييس في تقدير الحضارات وتقويمها.... فبقدر ما تكون المفاهيم صحيحة وسوية وملائمة للإنسان ومعينة له على

الممارسة والانفتاح، بقدر ما تكون الصورة، أي التفاعل، أي الحضارة، مشرقة مضيئة. وبقدر ما تكون المفاهيم مجانبة للفطرة الإنسانية بقدر ما تبهت الصورة حتى قد تستحيل إلى ما يشبه الفولكلور أو الكاريكتور.

من هنا يمكننا أن نقول :

إن لكل جماعة إنسانية حضارة، مهما كان مستوى هذه الجماعة، الثقافي أو العمراني، ومهما كانت أفكارها وعقائدها، ويبقى الفارق الوحيد بين تلك الحضارات مستويات الأفكار والقيم ذاتها.

وعلى هذا، يمكننا أن نصف الجماعات المستغرقة في البداوة بالجماعة ذي الحضارة، كما يمكننا أن نصف الجماعات اليونانية والفرنسية والأسطورية والبابلية والفرعونية وأهل الغرب الرأسمالي وأهل الشرق الشيوعي.... بالجماعات المتحضرة... وإن كانت تلك الأمم أو لا تزال تؤمن بنظريات ومبادىء يثبت العلم والواقع المتجدد، فضلاً عن الإسلام، مدى مجانبتها للفطرة الإنسانية وانحرافها بها نحو متاهات الظلم والضياع والدمار...

إن البُطْلَ في المعتقدات لا يحجب في ممارسة تلك المبادىء حركة التفاعل، وبالتالي مصطلح الحضارة.

التصور الإسلامي للمصطلحات :

إن هذا التفريق بين الحضارة وبين صحة المبادىء أو بطلانها مبني على تصور إسلامي للمصطلحات العامة، فالإسلام الذي وصف حياة العرب، وكذلك حياة الأمم المنحرفة عن شرع الله، بالجاهلية، منددا ببطل وزيف كثير من الأفكار والمبادىء والعادات، لم يبخل على تلك الحيوات بمصطلحات هي أقرب للقداسة وللفهم الديني السليم السوي. فمصطلح العبادة، التي هي جوهر ذو أبعاد هامة ومتسامية، نعت به الله فعل أولئك الأقوام : « قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون »[1]. حتى أنه لم يتردد أيضاً بوصف ممارسات المشركين حول البيت الحرام ـ التي لم

---

(١) سورة الشعراء آية ٧٥ ـ ٧٦.

تكن إلّا مكاء وتصدية ـ بمصطلح الصلاة : « وما كان صلاتهم عند البيت إلّا مكاء وتصدية »[1]... ولو أن هذه الصور تدعو إلى الاشمئزاز حيناً وإلى الإشفاق أحياناً أخرى... حتى أن صيغة **(الصبغة) التي هي مجموعة** المبادىء والمفاهيم والتصورات عن الحياة جعلت في القرآن بصدد التفاضل بين **صبغة الله الربانية الصافية وبين سائر الصبغات « صبغة الله، ومن أحسن** من الله صبغة »[2].

وعلى هذا، فإن قلنا، **الحضارة العربية ما قبل الإسلام**، صح القول وجاز ونكون عندئذ قد أطلقنا المصطلح على الصورة العربية في زمن محدود دون تحديد الموقف من تلك الصورة.

أما عندما نقول : **الحضارة العربية الجاهلية قبل الإسلام**، نكون قد حددنا الموقف وأوضحنا معطياتنا الفكرية إزاءها. وعلى هذا أيضاً يمكن وصف صور الحياة الفرعونية والأسطورية والإغريقية في القديم، والغربيـة المسيحية في الحديث والاشتراكية حتى الصينية والهندية، دون تردد أو خوف، بمصطلحات الحضارة لأن ذلك مفهوم إسلامي صحيح[*].

* * *

تعريفنـا للحضـــارة :

وكتعريف واضح لمصطلح الحضارة بمعزل عن خلفيات ومعطيات فكرية ومبدئية يمكن أن نقول :

الحضارة مصطلح يعني تفاعل الأنشطة الإنسانية لجماعة ما، في مكان معين وفي زمن محدود أو أزمان متعاقبة، ضمن مفاهيم خاصة عن الحياة. وهذا التعريف يوضح العناصر التالية التي تتكون منها الحضارة :

---

(١) سورة الأنفـال آية ٣٥.

(٢) سورة البقـرة آية ١٣٨.

(*) غير أننا من الناحية التعليمية وبفعل التمايز ـ كما سنبين بعد ـ يمكننا أن ننشىء أجيالنا على امتلاك المصطلح والموقف من الآخرين بآن معاً، فنقول بوجود حضارات منها الحضارة الإسلامية وإليها ننتسب، ومنها الحضارات الأخرى التي هي حضارات الجاهلية (أي التي لا تلتزم بالإسلام).

١) **الإنسان**، بكلياته، محور أي حضارة وهو صاحب التفاعل بما يملك **من أنشطة وقدرات عقلية جسدية وروحية توجهها مجموعة المفاهيم** والتصورات عن الحياة.

٢) **الحضارة تظهر مع الجماعة الإنسانية : أي أن الفرد وحده لا يوجد** حضارة، والتجمع شرط التواجد الحضاري.

٣) **المكان والبيئة** التي يجري فيها التفاعل.

٤) **الزمن** عنصر أساسي في حساب تفاعل الأنشطة وتحسس الوجود الحضاري.

إن هذا التعريف لمصطلح الحضارة، يسقط سلبيات ويؤكد إيجابيات عدة منها :

- فهو لا يعترف بنظرية تفوق جنس على آخر. وهي نظرية تقول إن الجنس هو الدافع الحضاري **وإن** بعض أجناس البشر تصعد وتتقدم بسبب أن جنسها مهيأ للتقدم بينما لا تتمتع أجناس أخرى بمواهب كافية للتقدم فتبقى عند حالات البدائية أو الركود.

إن نظرية الأجناس هذه شائعة عند معظم الأمم في الأعصر القديمة والوسطى، ولاتزال قائمة عند أهل الغرب وخاصة غرب أوروبا والولايات المتحدة اليوم .

- وهو لا يعترف أيضاً، بتفوق اللون الأبيض وركود اللون الأسود وعدم قدرته على التقدم في الأنشطة الإنسانية. وضمن مفهوم التفوق هذا أباح الأوروبيون لأنفسهم استرقاق السود وإذلالهم، والقضاء على الهنود الحمر سكان أمريكا الأصليين. كما أن نظرية تفوق الجنس الآري الأوروبي أباحت لهم استعمار واستغلال خيرات الشعوب الأخرى.
- وهو يجعل الناس سواء في صنع الحضارة، وفي التنافس في زيادة قدرة التفاعل لارتقاء أكبر، في خدمة الإنسان التجمعي.
- **وهو لا يجعل للبيئة أثراً** حاسماً في صنع الحضارة، **إلا أنه يجعل التفاعل** والإفادة من خيراتها مصدراً رئيسياً للحضارة وتقدمها.
- يعترف بالقيم محركاً أساسياً وهادفاً لأنشطة الإنسان.

تعريف الحضارة الإسلامية :

وعلى ضوء هذا التعريف كمصطلح الحضارة، وعلى ضوء المفاهيم الإسلامية وتصوراتها للكون والإنسان والحياة ـ والتي سنستعرضها فيما بعد ـ يمكننا تحديد وتعريف الحضارة الإسلامية بقولنا هي :

تفاعل الأنشطة الإنسانية للجماعة، الموجدة لخلافة الله في الأرض، عبر الزمن، وضمن المفاهيم الإسلامية عن الحياة والأكوان.

ويجمع هذا التعريف بين مصطلح الحضارة العام وبين المفاهيم الإسلامية المكونة (لصبغة الحضارة)، كما يظهر فاعلية الإنسان ضمن الجماعة المسلمة التي تتفاعل بدورها مع مختلف الكائنات المحيطة بها، (إنسان، وحيوان ونبات وعوالم)، من أجل إقامة خلافة الله في الأرض.

ثم إن هذا التعريف يتسع ليضم بين جوانبه حلقات الحضارة الإسلامية المتعددة والتي بدأت مع فجر التاريخ، عبر الأنبياء والرسل والمؤمنين بهم، حتى الحلقة الأوسع وهي الحلقة المبتدئة بعصر النبي محمد ﷺ وما تبعه من تفاعلات وأحداث.

وهكذا تغدو الحضارة الإسلامية الحضارة العالمية، تضم بين أرجائها تفاعلات الأمم والشعوب (المرسل إليهم) وتقبل في عضويتها العالم بأسره، أسوده وأصفره وأبيضه، عربه وعجمه، أوروبيه وأمريكيه، وتعمل لخدمة الإنسان وإسعاده، ليكون مع سائر الأكوان المحيطة به في وحدة حضارية كونية تتسامى في تمجيد واحد وفي تسبيح أصيل لخالق الوجود كله.

سورة العصر وعناصر الحضارة الإسلامية :

وفي القرآن سورة انتبه الصحابة الأبرار إلى معانيها فأوصوا بعضهم بتعهدها وبقراءتها عند اللقاء والافتراق، حتى قال عنها الإمام الشافعي : لو لم يكن في القرآن إلّاها لكفت الناس... ذلك أنها بحق تمثل معنى الحضارة الإسلامية، في مفاهيمها وعناصرها... تلك هي سورة العصر « والعصر. إن الإنسان لفي خسر. إلّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر »[1].

---

(١) سورة العصر الآيات ١ ـ ٣.

فالسورة ـ كما ترى ـ حوت عناصر الحضارة كلها بوضوح كامل : الإنسان ـ التجمع (صفة الجمع في السورة الذين آمنوا وعملوا) ـ الزمن ـ الصبغة، كما تضمنت التفاعل الحضاري المستمر : العمل والتطبيق والتنفيذ للمبادىء والمفاهيم..... وفي ذلك إشارات عميقة توضح ـ ما سنوضحه فيما بعد ـ أن تعطل التنفيذ يعطل الحضارة ويجعلها في حالة توقف بانتظار استئناف الالتزام بالتطبيق الكامل وعلى صعيد الأمة.

الفصل الثاني

ضوابط الحضارة الإسلامية

باعتبار أن الحضارة ممارسة لمجموعة المبادئ والمفاهيم عن الحياة في مكان معين وفي زمن أو أزمان، وتفاعل الإنسان بالأكوان المحيطة به، من أجل سعادة هذا الكائن البشري، وفق تصوره الايديولوجي الخاص، وجب على (مجموعة المبادئ والمفاهيم) هذه أن تعالج المشكلات المتواجدة في عناصر الحضارة الأساسية، فتواجهها بضوابط **تكون من جهة قادرة على (حل تلك المشكلات)، ومن جهة أخرى على** المحافظة على مسار الحضارة التصاعدي.

إن الضوابط الحضارية هذه لا تستعار بل هي ذاتية، تنبع من مجموعة التصورات العقدية التي هي خلفيات الحضارة... وبقدر عمق هذه الضوابط بقدر ما تستطيع الحضارة مواجهة التحديات والتغلب عليها.

إن الحضارة التي تفتقد تلك الضوابط هي، بلا ريب، حضارة حملت في طياتها سبب اندثارها وزوالها وتلاشيها، ذلك أنها عدمت أسباب الحياة والتصاعد والارتقاء.

وتتلخص هذه الضوابط بالعناوين التالية :

١) العقيدة وتوجيهاتها الأساسية، الفكرية والروحية والأخلاقية.

٢) الأنظمة والمبادئ الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.
٣) الدولة مفهوماً ومقومات.
٤) القيـادة المتفتحـة.
٥) اللغة الذاتيـة المبدعـة.

الحضارة وذاتية الضوابط :

وباعتبار أن هذه الضوابط لا يمكن أن تتجانس إلا إذا خرجت من مصدر واحد، بحيث تتأمن الوحدة فيما بينها والانسجام.... وهما شرطان أساسيان لتفاعل هذه الضوابط فيما بينها تأميناً لمسار الحضارة... أدركنا سراً من أسرار أفول واندثار كثير من الحضارات القديمة التي لم تكن تملك أكثر هذه الضوابط.

فهي ـ أي الحضارات ـ عاشت بالقدر الذي امتلكت فيه ضابطاً أو أكثر، واجهت به المشكلات الحضارية المتفجرة... حتى غلبتها تلك المشكلات فاندثرت وزالت، ولولا معالمها الأثرية من حجر ومقولات لما تحسسها العالم من بعدها، كما أن مفهوم الضوابط هذا يفسر لنا رجرجة الحضارة الغربية المسيحية اليوم وصرخات الاستغاثة التي تطلقها.

وقد حاولت الحضارة الغربية، منذ عصر النهضة في أوروبا، إيجـاد هذه الضوابط، ومحاولة تأمين الوحدة والانسجام بين الضوابط المصطنعة تلك أملاً في إضفاء السرمدية أو الاستمرارية على حضارة الغرب وإطلاق عبارة (الحضارة المثلى) عليها لأنها ـ على حد تعبير أرنولد توينبي ـ (متصلة بالشرارة الإلهية الخلاقة).

محاولة ردم الفجوات في الحضارة الغربية :

وقد انكبت النخبة الطليعية في أوروبا، وعبر عصور متلاحقة، على محاولة ردم الفجوات في جدار الحضارة المكون للضوابط، فاتخذوا من تراث الإغريق والرومان مصادر عطاءاتهم وطوروها عبر نظريات ومكونات، منها ما **هو ديني مستجد، ومنها ما هو نتيجة النظر والعقل الإنساني، ومنها ما هو**

تلبية لاحتياجات الإنسان الثابتة. فكانت الأفكار والفلسفات التي تعالج الإنسان والكون والحياة مع ما تحمل تلك التصورات والمفاهيم من تناقضات وتطلعات، فاستقرت الحياة الغربية على أنماط خاصة من التفكير شملت مختلف جوانب الوجود الحضاري، موجداً الضوابط الحضارية، محاولاً بها مد سيطرة فكره وأسلوبه وأنماطه إلى مختلف حضارات الدنيا، في جدية واضحة، وضمن إرادة دثر تلك المعالم، ملزماً العالم على هضم معطياته وتصوراته، آملاً من وراء ذلك أن يكون استقرار ضوابطه وامتدادها إيحاء بخلود حضارته وبجدارتها أن تكون وحيدة وعالمية.

ذلك هو ملخص سريع لأفكار « أرنولد توينبي » و « هانز كوهن » في كتاباتهم حول الحضارة الغربية.

وهناك فارق كبير بين أن تكون الضوابط مصطنعة من مجموعة أفكار ومعطيات متضاربة لا وحدة فيها ولا ترابط، وبين أن تكون ذاتية انبعثت عن المبادىء ذاتها، بل هي العقيدة إياها، أي أن الحضارة انبثقت ومعها ضوابطها المختلفة، فلا هي تصنعتها أو اصطنعتها، ولا هي استعارتها أو استعانت بمصدريات أخرى كي ترسم لنفسها معالم حدودها وضوابطها.

الإسلام امتلك ذاتية الضوابط الحضارية :

والإسلام وحده، بين سائر الأديان والأفكار والتصورات، الذي امتلك ذاتية الضوابط ووحدتها وانسجامها، بشكل يدعو إلى تأكيد عظمة هذا الدين وإلى منحه وحده عبارة الحضارة المثلى لاتصاله هو وحده بالشرارة الإلهية الخلاقة ـ على حد تعبير توينبي ـ فلا غرو في ذلك ! « إنّ الدين عند الله الإسلام » و (اليوم أكملت لكم دينكم، واتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً).

الدورة الحضارية :

وفي محاولة لتعمية هذا المعنى الدقيق حاول كثير من المفكرين والفلاسفة والباحثين ـ ومن المؤسف أن يكون بينهم علامتنا ابن خلدون الذي تراءى له الأمر كذلك، لاستقراء ناقص وتعليل مبتور ـ حاول هؤلاء أن

يجعلوا للحضارة دورة، لا مفر من المرور بها والانتقال عبر مراحلها. فالحضارة تولد ثم تترعرع ثم تشب ثم تكهل ثم تموت. فهي كالإنسان لها عمر معلوم ثم بعد أن تموت تكون قد انبثقت في مكان آخر. حضارة أخرى، وهكذا فإن (الدورة الخالدة) كما أسماها نيتشه هي قدر الحضارات.

ولئن جاز لابن خلدون أن يعطي الحضارة عمراً ـ كعمر الإنسان ـ إلا أن هذا لا ينطبق على مالك بن نبي ـ الذي أدرك هذا القرن ـ وكان من المفروض ان لا يقبل بالدورة الحضارية وعلى الأقل أن لا يطبقها على الحضارة الإسلامية.

جبـل الحضـارات :

وبعد أن امتلكت الحضارة الغربية مجموعة الضوابط ضمن مجموعة المفاهيم عن الحياة، وفق التصورات المصطنعة والمتضاربة ـ كما ذكرنا ـ جاء تفسير آخر لمراحل الحضارة فشبهوا الحضارة العالمية بجبل أشم له درجات.

فمن الحضارات ما تبقى في السفح ومنها ما ترتقي إلى درجات ومنها ما تتوقف بعد صعود ومنها ما تصل إلى القمة فتثبت فيها تبث إشعاعاتها المضيئة تظلل الإنسانية بسعادة لا تنقطع[١٢].

ومن ذهب هذا المذهب في تفسير الحضارات كـ (سان سيمون) **كان يريد أن يزعم أن الحضارة الغربية قد تكاملت عدتها فغدت في القمة** وهي باقية هناك في حالة خلود وإشعاع مستمر، (أرنولد توينبي وهانز كوهن).

وفكرة (الجبل) هذه أقرب للتصور والاستقراء من فكرة (الدورة الخالدة) غير أن اختلافنا ـ مع أهلها ـ يكمن في الحضارة الجديرة بالارتقاء والاستمرار والخلود والإشعاع ؟ تلك التي ملكت ذاتية الضوابط (الحضارة الإسلامية) أم تلك التي صنعت الضوابط بمعطيات متضاربة ؟ (الحضارة الغربية المسيحية ذات الأصول الإغريقية الرومانية).

نقول ذلك مع **تسجيل مبادرتنا ـ هنا ـ مرحلياً ـ بالاعتراف** بتوقف الحضارة الإسلامية عن العطاء لتعطل أصاب أكثر ضوابطها ـ كما سنبين ـ

وإن كنا نسارع هنا ـ أيضاً ـ **لتأكيد خاصية التوقف عن العطاء في الحضارة الإسلامية وهي عطاؤها وبكثرة، إفرازات جماهيرية تتحدد دوماً وتتحرك لإخراج الحضارة الإسلامية من توقفها إلى مرحلة استئناف العطاء من جديد.**

هذه الإفرازات هي سر ثبات الحضارة الإسلامية أمام الهجمات الماكرة والتغلب على الاندثار وفق نظرية الدورة الخالدة ـ على حد تعبير نيتشه ومالك بن نبي ـ أو الدورة المميتة على حد تعبيرنا وهو ما سنبينه فيما بعد.

* * *

الإنســان والحضــارة

الإنسان الثابت عبر الزمن :

وكما قلنا في تعريف الحضارة، إن عناصرها تنحل إلى **إنسان** (بكل ما في الإنسان من معنى الجسد والروح والعقل)، **وبيئة** يعيش فيها ـ بصورة تجمع ـ ويتعامل معها، **وزمن** يجرب فيه التفاعل ضمن **مجموعة المفاهيم** التي اعتقدها الإنسان عن الحياة.

وهكذا فإن الإنسان هو أحد أبرز العناصر بل هو أهمها، (إذ هو الذي يستطيع توجيه الوقت وتوجيه التراب أو هو الذي عليه الإفادة من الكون في زمن محدود أو حد معلوم)[١٣]، **ولولاه لما وجدت حضارة ولما أدرك الكون ومعاني الحياة**، فالحضارة من أجله ولإسعاده، كما أن القيم كلها له وفي سبيل تنظيم وجوده وتحقيق غاياته الأصيلة في الوجود.

والإنسان، هو واحد لم يتغير، يتمتع بذات الخصائص والمقومات من عقل وروح وغرائز وجسد واحتياجات وإدراك لما حوله، وإن اختلفت هذه المميزات من إنسان إلى آخر ومن أمة إلى أخرى، فترتقي مقوماته تلك أو تجمد عند درجات البداية أو ترتكس إلى أدنى من ذلك، فتصقل أو تهمل، وفق حجم التطلعات العليا.

وقد بات مدركاً أن الإنسان عبر التاريخ والأمم ثابت لا يتغير، فهو منذ

وجوده الأول وإلى أن ينتهي يملك خصائص واحدة ومقومات واحدة. هو إنسان بالحس والشعور، بالطبائع والروح، بالأشواق والضرورات، بالآمال والآلام : ولا عبرة بعد ذلك بدرجات الترقي في هذه المقومات، إلا أنها موجودة ـ وهذا هو الأصل ـ في كل إنسان، في أية بيئة وجد فيها وفي أي زمن خلق فيه، وسواء كان لونه أبيض أم أسود، أو سكن الخيمة أم القصر، البادية أو المدينة، استخدم القطار أم اكتفى بالدابة والحصان... فتلك أمور جانبية ـ مظهرية لا تؤثر ـ فيما إذا عزلت عن معطيات فكرية وفلسفية ـ في الجواهر، إلا بمقدار محدود. فالإنسان الواحد ذو الشكل الجسدي الواحد والمعطيات والخصائص الواحدة، خلق (في أحسن تقويم[1]).

هنا تختلف النظرية الإسلامية عن النظريات الأخرى. فتلك تجعل الإنسان مختلفاً عن بعضه في جنسه ولونه فتختار الأبيض ـ من الألوان ـ لتستذل الأسود ولتبرر القضاء على الأحمر، وتفاضل، ضمن اللون الواحد، (الأبيض) الجنس الآري وتجعله الأول في جدارة الحياة والسعادة... مبررة بذلك إقدام الأوروبيين على نهب ثروات الشعوب وخيراتهم.

وفي سبيل تكامل هذه النظرية وتبريرها استفاد مبدعوها من الظروف المكانية والبيئوية التي وجد فيها الجنس الأسود ليثبتوا مدى تخلفه وعدم تمكنه من صنع الحضارة. حتى إن بعضهم تجرأ ليسقط الجنس الأسود من قائمة أجناس البشر محلين صيده والمتاجرة به.

وكما استغلوا هذه الظواهر لإثبات الفلسفة التمييزية العنصرية في الإنسان حاولوا أن يربطوا بين الإنسان ومكتشفاته، فأسقطوا عن الإنسان الأول خصائصه الإنسانية وصوروه لاهثاً وراء النار والأدوات الفخارية والمعدنية، فعرفوه بها بدل أن يعرفوها به، حتى إن (العقل الإنساني)، وهو من أكبر النعم الإلهية التي كرمه الله بها (ولقد كرمنا بني آدم)[2]، جعلوه مكتشفاً إنسانياً بقي الإنسان عشرات الألوف من السنين دون أن يدرك أن له عقلاً، حتى إذا أدرك ذلك (كان العقل أول مخترعاته) وبعدئذ (خطا الخطوة الأولى نحو الحضارة)[14]، فكانت يده دليل ذهنه وكان عقله دليل يده.

---

(١) سورة التين آية ٤.

(٢) سورة الإسراء آية ٧٠.

النظرية الإسلامية في الإنسان تجاوزت العقد :

أما النظرية الإسلامية فقد تجاوزت هذه العقد التي ألبست زوراً أثواباً علمية جاء العلم بعدئذ ليتنصل منها ـ كما هو الحال بالنسبة لتفاضل الأجناس والألوان ـ وبالتالي ليثبت النظرية الإسلامية في أن البشر سواء، يملكون خصائص واحدة ومقومات واحدة وخلقوا في أحسن تقويم، لينطلق الإنسان بعدها إلى تحقيق سعادته ودوره في الحياة والوجود، فيترقى أو ينزل إلى تسفل مخيف وهبوط بشع ولو أنه ملك المكتشفات والمخترعات.

أليست وسائل التدمير وأدوات التخريب التي تملكها الأمم المتحضرة والتي يخترعها الإنسان لتدمير نفسه، كما أن المستويات الإباحية والفوضى الخلقية في أرقى المجتمعات المدنية، أليست هذه وتلك توضعان في خانة الهبوط البشع وفي أسفل سافلين...

الإنسان عاقل من أول يوم :

إن النظرية الإسلامية جعلت الإنسان عاقلاً ومدركاً للأشياء من أول يوم خُلق فيه : « وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين »[1]. ثم جاء التكليف في الدنيا : « قلنا اهبطوا منها جميعاً، فإما يأتينكم مني هدىً فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون »[2].

بل إن الصراع بين آدم والشيطان كان مبنياً على عقل الأمور وإدراك أبعادها ومخاطرها وسلبياتها وإيجابياتها. كما أن الصراع بين قابيل وهابيل أخذ هذا الطابع، فعند أحدهما سيطر العقل والهوى، وعند الآخر سيطرت الغريزة والهوى حتى أعماه عن عقل كيف يواري سوءة أخيه، فجاءه الطير معلماً فيصرخ : « يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي، فأصبح من النادمين »[3]. وتقرر النظرية الإسلامية أن الروح الإلهية التي

---

(١) سورة البقرة آية ٣١.

(٢) سورة البقرة آية ٣٨.

(٣) سورة المائدة آية ٣١.

حلت بالإنسان الأول النفخة الربانية المباركة « ونفخت فيه من روحي »[1] هي التي أوجدت في الإنسان (القدرة الخاصة) المعبرة له عن كل خلق الله : ملائكة أو حيواناً أو جماداً، هي التي أجدت فيه « الوعي »، وعي الذات ووعي الكون والحياة وهي التي منحته « الإدراك » وكل ما يتصل به من خصائص ومقومات.

« **لقد نشأ الوعي في الإنسان ونشأ الإدراك لحظة إبداع جسد الإنسان روحاً من الله فاستحالت عندها مادة هذا الجسد إلى ذات عاقلة** مفكرة مدركة مميزة واعية تملك « القدرة » على معرفة ذاتها ومعرفة ما حولها وتملك « القدرة » على إنشاء رابطة بينها وبين ما ترى، و « والقدرة » على « التمييز » بين هذه الأشياء بدقة وعمق، هذه القدرة هي روح منحها الله سبحانه لهذا الإنسان وكأنها من علم الله الذي خص منه ما شاء لهذا الكائن العجيب تكريماً له وتشريفاً وتأهيلاً للقيام بالدور المقدس الذي رسمه له (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة »[2].

« فآدم ـ كما أسلفنا ـ الإنسان الأول، استطاع أن يسمي الأشياء بأسمائها أي أن « يعيها » بعد أن « تعرف عليها وبمعنى آخر أن « يميزها » بعد أن « عرف » صفاتها وخصائصها.

« **ولا ريب أن هذا « الوعي » أو « الإدراك » أو بمعنى شامل « المعرفة » ترتقي كلما تأصلت العلاقة بين الانسان وبين ما يحيط به : فكلما أحسن الصلة بما حوله من الوجود وأقام الارتباط المتين كلما تعمقت « معرفته » وتأصلت لا تخشى دركاً ولا حداً.**

من هنا كان الوعي « خاصة » من خواص الروح لا كما يقول « انجلز » (خاصة مادة عالية التنظيم).

والفارق بين النظريتين الإسلامية والبشرية هي : أن الأولى **تجعل الإنسان عاقلاً من أول يوم وتنيط به التكليف وتمنحه الطريق** « فإما

---

(١) سورة الحجر آية ٢٩.

(٢) سورة البقرة آية ٣٠.

يأتينكم مني هدى »[1]، وأما النظريات الفلسفية والتاريخية فتجعله، في أحسن الحالات، وحيداً في اكتشاف إدراكه وطريقه وسعادته ومن ثم توكله بأمر نفسه وعالمه يوجد لهما ما يشاء من نظريات ونظم....

نقول في أحسن الحالات لأن أسوأها يجعله قرداً أو ذا صلة بالقرود ثم يمنحه درجة الإنسان بعد حقب طويلة من الأزمان والأعصر.

وبقطع النظر عن هذه الخلفيات الهامة في الفارق بين النظريات إلا أن المهم اليوم **أن النظريات غير الإسلامية بدأت تتراجع لتنسجم مع النظرية الإسلامية** فقالت بـ (إن الإنسان جنس قائم بذاته... ولا معنى والحالة كذلك للإصرار على ربط الإنسان بالقردة أو بالقردة العليا)[16].

وإن (هذا الإنسان مهما اختلفت أجناسه يختص بخصائص جسمية وذهنية... مكنت له... في رحلته الطويلة مع الحياة.....)[17].

الحضـــارة والنظـــام

الإنسان الثابت في خصائصه محتاج إلى حضارة ذات معطياتِ ثابتة :

من هنا يمكننا أن نقرر مع النظرية الإسلامية باطمئنان كامل : « إذا ما استقرأنا التاريخ ودرسنا الإنسان في كل عصر من العصور ـ على ضوء النظرية الإسلامية ـ لوجدناه ـ كما ذكرنا ـ ثابتاً في الخصائص والمقومات ».

وانطلاقاً من هذا التقرير يمكننا أيضاً أن نقرر أن هذا الثبات في الكينونة البشرية للإنسان بحاجة إلى ثبات في المنهج أو إلى حضارة تضرب بجذورها إلى معطيات ثابتة إلى تصور ثابت لا يعرف الجمود... أو كما قال سيد قطب : (تصور له حركة ضمن إطار ومحور ثابت)، والثبات في المنهج مع المرونة اللازمة لتطور الحياة والأشكال امتلكه الإسلام ويكاد يكون وحيداً في هذا المجال.

---

(١) سورة البقرة آية ٣٨.

والنظرية الإسلامية صاحبة هذا المنهج منحت المؤمنين بها (فكرة **كلية عن الكون والإنسان والحياة، متسقة دون تصادم، عميقة دون تعقيد،** واضحة دون أي لبس أو غشاوة وهكذا غدت معالم الحياة : الذات الإنسانية والكون العجيب مكشوفة جلية)[١٧].

في تمام العبودية تمام الحرية :

وهذه المبادئ الثابتة المستقرة التي تتفق مع غاية الوجود الإنساني ـ الهادف إلى تحقيق خلافة الله في الأرض ـ تتلاحم مع الإنسان وتعتقه من كل إسار إلا عبودية الله التي هي علة الوجود ـ وفي تمام العبودية لله تمام الحرية كما يقول ابن خضرويه **إذ أن الإنسان مع غير الله حر، والحرية والوجود كل متحد**.. هذه الحرية التي تسمح للإنسان بكل حركة وبكل تطلع، فهو غير مقيد بشيء إلا بالقيم التي جاءت من أجله مقررة له هذا الوجود الحر وهذه الكرامة الرفيعة.

ويرسم الإسلام **العقيدة المطلقة بالله سبحانه** وهي عقيدة لا تعقيد فيها ولا تشويه، مقرراً إفراده بالوحدانية وبالخلق وبالإرادة وبالعلم وبصفات الربوبية والألوهية الكاملة حتى يغدو الإنسان الحر مطمئناً إلى عبودية إله فرد صمد راضياً به مقبلاً عليه راغباً بتوجيهاته ومبادئه.

وإلى جانب المبادئ الأساسية المتعلقة بالعقيدة وبتصورات الكون والإنسان والحياة **جاءت الأنظمة الإسلامية تكفل ضمان تنفيذ الأصول العقيدية** تلك في مجالات الحياة المختلفة « تربط » بينها برباط أصيل متين.

عملية ضبط الحياة بنظام واحد :

« إن عملية ضبط الحياة في نظام متسق متفق مع عمق التصور ومنسجم مع خصائص الإنسان هو أدق من الربط نفسه، فالنظام مسئول عن استمرار الربط ومنع الانحراف، ومسئول عن بقاء الناس في الخط المستقيم وعن تأصيل أبعاد التصور والمفاهيم فيهم وفي أجيالهم الصاعدة، وأيضاً هو مسئول عن نشر هذا التصور في العالم حتى يستقيم الناس جميعاً ـ إن أمكن ذلك ـ على أمر واحد وعلى منهج واحد وعلى حضارة واحدة.

ولا يمكن أن تستقيم حياة مجموعة من الناس إلا عندما تكون أنظمتهم في الحكم والسياسة والاقتصاد والاجتماع نابعة من تصورهم للكون والإنسان والحياة، ولا يمكن أن يوجد الانسجام بين الناس وبين أنظمتهم إلا عند وجود صلة روحية بين الاثنين : (تعارف يضرب بجذوره إلى الأعماق).

ومن الشروط الأساسية في الأنظمة **أن تكون مرنة**، هذه المرونة التي تضمنتها القيم التي جاءت بهذه الأنظمة. فباعتبار أن هذه الأنظمة تخص الإنسان في كل زمان ومكان لا بد لها من أن **تراعي عوامل التغيير والتطور** ضمن فهم دقيق وشامل لمجريات الأنشطة الإنسانية. وكما امتلك الإسلام العقيدة الواضحة والتصور البسيط، امتلك أيضاً **أنظمة تكفلت ثبات تصوره من جهة وتجسيد فكره العالي بواقع حياتي سليم**. ومن أجل ذلك كانت الأنظمة الإسلامية في كل مادق من الحياة وما عظم.

إن الأنظمة الإسلامية التي سادت ساحة الأنشطة الإنسانية وضعت بناء على **معرفة أصيلة بحاجات الإنسان وإمكانية تطور هذه الحاجات** غير الزمن. إلا أن هذا لا يعني أن أنظمة الإسلام متطورة فتتكيف مع الواقع أياً كان دونما اعتبار لأصل ثابت. إن الأنظمة الإسلامية بوجه عام ثابتة تتضمن الأسس التي لا حيدة عنها ولا خروج إلا أنها أيضاً مرنة فيما تبقى... في القضايا القابلة للتطور والتغيير في الأشكال التي من المفترض أن تتكيف في واقع أو مع ظرف معين.

« وبهذا تكون الأنظمة الإسلامية ــ وحدها دون سائر الأنظمة ــ قد جمعت الثبات في الأسس، والمرونة في التكييف، أي أنها جاءت منسجمة مع التركيب الإنساني »، وهي قد **تميزت بالتفصيل في جوانب الحياة غير المتغيرة** كالأحوال الشخصية وشئون العائلة، **وبإجمال غير موجز** ضمن قواعد مرنة لجوانب الحياة الأخرى القابلة للتطوير كالاقتصاد والاجتماع والمال والشورى ومختلف أنظمة الدولة.

« إن الإنسان في أي زمان ومكان ــ يستطيع ــ بسهولة أن يعتمد على الأنظمة الإسلامية الحياتية أو بعبارة أخرى أن يسلم لها فتمده هذه بصورة دائمة بأسباب النجاة وبمعطيات الاطمئنان وبأصول الحضارة

المثلى ». وليس من قبيل الصدفة، وقد ربط الإسلام أنظمته بفكرته الشاملة عن الكون والحياة والإنسان وبوظيفة هذا الإنسان في الوجود، أن يأتي القرآن بقواعد التشريع وبمبادىء أنظمة الحكم والاقتصاد والاجتماع في طيات آيات التوجيه فكان ذلك **إشارة ربانية خالدة إلى ضرورة إحكام الصلة بين التوجيه والتشريع.**

إن هذه الإشارة لتؤكد حقيقة طالما غفل عنها الناس وأصحاب النظريات الأخرى، وهي الوحدة العميقة بين التوجيه والتشريع وعدم الفصام بينهما، ذلك أن هذين المعلمين هما الضابطان الأساسيان من ضوابط الحضارة الصافية لاستمرارها في عطاء لا ينضب[١٨]

الدولــة والحضـــارة

الدولة مفهـوم ومعطيـات :

وفي هرم الضوابط الحضارية تأتي الدولة ضمن مفهوم ومعطيات أصيلة ترعى الإنسان وتكفل تجمعه وتسهل له معايشه، وتفسح المجال رحيباً لتحقيق التفاعل المستمر بين الإنسان والبيئة والأكوان، محققة في مجملها، الأمن والعدل والسعادة والاستقرار والكفاية، **وهي صفات أساسية في مقياس حضارة من الحضارات.** فالحضارة التي تعجز عن تحقيق هذا القياس تكون قد تعرضت لأقسى امتحان ينتهي بدمارها وإزالتها من الوجود إن كانت قد فقدت أيضاً الضوابط والعوامل الأخرى.

وللدولة كضابط حضارة، مفهوم خاص في الإسلام، يميزها عن الدول السياسية المتعارف عليها والتي أصَّل نظريتها « روسو » في عقده الأجتماعي من أن الناس قد تعاقدوا فيما بينهم على إنشاء دولة تكون من مقتضياتها أن تسير وفق إرادة الشعب أو أغلبيته فهي ــ أي الدولة ــ مدينة لهم بوجودها. **ثم تطور مفهوم الدولة ليصبح دولة الحزب حيث يُسَيِّرُ الحزبُ المجتمعَ** كما يراه هو أو كما يراه منفذوه، ثم جاء التصور الماركسي للدولة الذي يقول بحتمية زوال الدولة في النهاية لأن الناس، عندما يصبحون شيوعيين ــ يسيرون

أنفسهم بأنفسهم ولأن الدولة ـ في النتيجة ـ مظهر رأسمالي يقوم على القهر والإكراه **ويعمل على تحقيق مطامع الدولة الغنية.**

الدولة في النظرية الإسلامية :

أما النظرية الإسلامية **فتعتبر الدولة أمراً لا يخضع لمقررات الأكثرية والأقلية،** وهي موجودة حكماً ضمن مجموعة المفاهيم والتصورات عن الحياة. أي أن الدولة في الإسلام **لم توجد بتعاقد بين الناس وإنما وجدت بفضل الشرع نفسه** الذي ارتضاه الناس ديناً وأسلوباً في الحياة. فوجود الدولة غير مدين للناس أو للشعب بل مدين للشرع، من أجل هذا كان على الدولة أن تخضع للشرع لا للشعب وعليها أن تسير وفق المصدرية العليا.

ويتلخص مفهوم الدولة أيضاً أن الإنسان بالتزامه الإسلام ارتبط بعقد مع الله سبحانه وتعالى ولهذا العقد شروط وموجبات وبدل.... فمن شروط العقد وموجباته **أن يؤمن الإنسان بالله إيماناً عميقاً معترفاً بألوهيته وحاكميته** خاضعاً لكل أمر ملتزماً بكل نهي يصدر عنه. وبدل هذا العقد الذي تعهد الله به في الدنيا منهج حياة كامل يضيء الطريق ويوصله بطمأنينة **وهناء إلى** سعادة متكاملة وحضارة مثلى.... ومن أجل تنفيذ هذا العقد وإيصال البدل من الله كاملاً كان لا بد من **الدولة لتشرف** على استمرار **التراضي وتعين على** الالتزام بمضمون العقد....

وقد جاءت الدولة بأمر من الله. فالله سبحانه لا يعطي البدل ـ الذي هو منهج الحياة ـ إلا عبر الدولة، والناس المؤمنون لا يقدرون على تنفيذ عقدهم مع الله إلا من خلال الدولة.

ومن هنا تحتل الدولة دور الوسيط بين الله سبحانه وبين الناس. ومن أجل هذا كانت الدولة لله ـ جلت حكمته ـ وللناس. ومن هنا تغدو الدولة في الإسلام ضرورة كبرى وحتمية لا مفر منها ولا تستقيم الحياة بدونها.

الحضارة لا تصنعها الدولة :

ولا يعني القول أن البدل لا يظهر إلا مع الدولة، **أن** الدولة هي التي تصنع الحضارة باعتبار الحضارة انعكاس لممارسة المفاهيم. فالحضارة

ليست شأناً للدولة وإنما هي شأن الناس الذين يتفاعلون ويمارسون فيأتيهم البدل تصعيداً في خط الحضارة حيث الأمن والعدل والكفاية والرفاه. وهي ـ في المفهوم القرآني ـ بركات من السماء والأرض للذين يستقيمون على أمر الله. « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون »[1]. فبكل وضوح وبكل حتمية تطلق البركات في كل شيء، بركات في أنفسهم ووجودهم ودولتهم، في إنتاجهم وحضارتهم، بركات لا تنقطع ولا تنغلق، مفتوحة على مصراعيها، تعطي دون حساب وتمد الناس بأسباب الحياة والحضارة والتقدم وتطلقهم في خط الحضارة التصاعدي.

الدولة تنمو في خط تصاعدي :

إن الشرط الوحيد لكل تلك المعطيات الدفاقة استمرار المجتمع على نهج الله، الشرط هو الاستمرار وعدم الانحراف، فإذا وقع الانحراف توقفت الدولة عن ايصال البدل وأصيبت الحضارة بانتكاسة كبرى.

فالدولة إذن ـ من حيث المبدأ ـ تنمو في خط تصاعدي، وتغدو فائدة الحضارة الإسلامية أنها تقود المجتمع الإنساني إلى رعاية ربانية حانية، (بركات من السماء والأرض)... **وهذه الحتمية هي الأصل في بناء الدولة وهي التي تحفظ الدولة كضابطة حضارة.** يقول الدكتور حسين مؤنس في كتابه (الحضارة) (ص ١١) : (إن الإطار السياسي السليم هو ضمان كل تقدم وبدونه لا يمكن اضطراد مسيرة الحضارة، ولو أن المسلمين التزموا بالنظام السياسي المستقى من شريعتهم وسنة رسولهم لما انتكست حضارتهم ولا تدهور مجتمعهم قط).

* * *

(١) سورة الأعراف آية ٩٦.

دور القيادة الراشدة في صنع الحضارة :

ويأتي في قمة هرم الضوابط الحضارية القيادة الراشدة الواعية وهي القيادة التي تدرك مسئولياتها في تصعيد الحضارة ضمن المسار الأصلي فتعين على تفتح الكفاءات وتدريبها في سبيل ضمان استمرارية العمل الحضاري المنتج.

والقيادة هنا كل مسئول تتفاعل معه الدولة والأمة، بدءاً بالإمام أو الرئيس الأعلى وانتهاء بالشرطي، مروراً بكل المكونات القيادية الأخرى. غير أن الأهم في القيادة هم النخبة أو الطليعة من رؤساء ومفكرين وعلماء، فهؤلاء يملكون من التأثير على سائر أفراد الأمة ما يجعلهم بحق محط المسئولية الأولى عن تلكؤ الأعمال الحضارية أو تباطؤ التصعيد الحضاري.

إن وجود النخبة أو الصفوة القائدة في محطة المسئولية الأولى والأهم لا يناقض نظرية : (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته)، بل ان النظريتين تتكاملان بشكل مدهش ورائع من أجل ضمان استمرار الصعود الحضاري وعدم التوقف.

فالنخبة، عندما تجد قاعدة تتجاوب وتدرك المسئولية وتبعاتها بامكانها أن تترجم تطلعاتها إلى واقع ملموس. كما أن القاعدة الواعية تتمكن من محاسبة القيادة الراشدة، فتدرك النخبة أن هناك من يناقشها الحساب، أو بتعبير آخر هناك وعي حضاري عند الجماهير لا يمكن تغافله أو تجاهله.

ولا ريب أن أعباء ومسئوليات التوجيه والابتكار والنظر إلى المستقبل والتطلع إلى الأعلى تلقي بثقلها على كواهل النخبة والصفوة، وبقدر ما يكون شعور الطليعة بضخامة الأعباء شعوراً مرهفاً، وبقدر ما تواجهه النخبة بتصورات سليمة وبعقليات متفتحة، بقدر ما تتمكن هذه النخبة من تجاوز المشكلات الحضارية ومن دفع الأمة في مجالات الرقي والتصعيد.

وقد انتبه الفلاسفة والباحثون إلى أهمية هذه الصفوة فتحدثوا عنها في كل الحضارات والأمم، حتى أن « ارنولد توينبي » ربط كل تقدم بوجود الفئة القائدة هذه.

وتظل الأمة والجماعة بخير طالما أن هذه الطليعة متفتحة الآفاق والعقول، مدركة لحركة التطور وعارفة بطبيعة عصرها وبأساليب الحياة المستجدة، (**فرحم الله رجلاً عرف زمانه واستقامت طريقته**). **وعندما تبدأ هذه النخبة بالانغلاق على نفسها أو عندما تصاب هذه الفئة أو تفسد أو يقع الشقاق بين أفرادها فإنها تكون قد استنفدت أغراضها فتعجز عن القيادة الراشدة.**

فإن تمكنت الأمة أو الجماعة من إبدال القيادة بأخرى أكثر وعياً وحمية وتفهماً حافظت على مدها الحضاري وإلا فإن عدم التبديل هذا يكون قد أوصل الأمة أو الجماعة إلى ما يعرف بالعقم القيادي وهي مرحلة خطيرة تنتهي بتدمير الأمة وتفكك أجزائها ووقف العطاء الحضاري إن لم يوصل إلى اندثار الحضارة إن كانت قد فقدت سائر ضوابطها.

والإسلام اعتنى **بالقيادة عناية فائقة وأشعر القيادة أنها أكثر الناس عبئاً، فعليها أن تكون أكثر تفهماً ووعياً**، وقد عبر عن هذا المفهوم أبو بكر الصديق رضي الله عنه في خطاب الخلافة : (وليت عليكم ولست بخيركم، اطيعوني ما أطعت الله فيكم). حتى ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد ارتفع إلى قمم المسئولية حين قال : (اني خشيت أن أسأل عن دابة عثرت في أقصى العراق، لِمَ لَمْ أعبد لها الطريق).

* * *

اللغة الأصيلة ضابط حضارة :

ومن الضوابط الأساسية للحضارة : اللغة، وبقدر ما تكون اللغة أصيلة متينة بذاتها بقدر ما تتميز بها الحضارة.

واللغة وإن كانت أداة التخاطب والتعارف في الأمة إلّا أنها أيضاً الأداة الأولى والأهم في الثقافة الفكرية، وعندما تنتقل لغة ما إلى أمة أخرى ينتقل معها التأثر بثقافة تلك اللغة وعاداتها ومعطياتها ومفاهيمها عن الحياة وهو ما يسمى **بالغزو الثقافي عن طريق اللغة**، وتصبح اللغة أكثر من أداة وتتحول إلى ضابط حضاري كامل عندما تكون للحضارة معطيات فكرية متكاملة متصلة بالشرارة الإلهية الخلاقة ـ عل حد تعبير توينبي ـــ أو عندما تكون

هي أداة المعجزة الخالدة كما هو شأن القرآن في الحضارة الإسلامية.

وقد تميزت الحضارة الإسلامية بلغة أصيلة فريدة جزلة ذات إيقاع موسيقي فريد، وقد اختار الله سبحانه للمفاهيم التي أرادها لبني البشر، كخطاب أخير منه للناس، لغة العرب : (إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون)[1]. فأصبحت العربية لغة الإسلام ولغة المسلمين الأولى وقد قبلها المسلمون غير العرب دون أي تعقيد أو شعور بالنقص وأحلوها الصدارة في ألسنتهم حتى كادت العربية تقضي على اللغات المحلية الخاصة، وكادت تكون اللغة العالمية الوحيدة لولا أن كانت أحداث واعتبارات تخرج عن بحثنا هذا.

إن هذه الإعتبارات وإن حالت دون القضاء على اللغات المحلية والقومية في بعض الأقطار كتركيا وإيران مثلاً إلّا أنها لم تتمكن من القضاء على أوجه التعريب في لغات تلكِ الشعوب.

وهكذا فإننا نجد كثيراً من المصطلحات والكلمات العربية تحتل حيزاً مهماً في تلك اللغات حتى أن الحرف العربي غدا الحرف التركي والإيراني... وبينما بقيت الإيرانية تكتب بالحروف العربية رأينا أتاتورك يتمرد على اللغة العربية في لغته فيكتب التركية بالأحرف اللاتينية قاصداً من وراء محاولاته المتعددة ضد المؤسسات الإسلامية وظواهر الحضارة فيها التنصل من الحضارة الإسلامية وتغريب تركيا تغريباً كاملاً.

وقد حاول الرومان من قبل فرض لغتهم اللاتينية دون جدوى حتى إذا ما أصبحت لغة للمسيحية كدين ورسالة إنتشرت اللغة اللاتينية لكنها ظلت لغة رسمية ثم اختلطت باللغات المحلية الأوروبية فظهرت اللغات المعروفة كاشتقاقات عن اللغة اللاتينية الأم. ومعنى هذا أن العربية وحدها قدرت أن تكون لغة شعوب لم تكن في الأصل تتكلمها وبقيت العربية لغة الحضارة الإسلامية وستبقى أصيلة في حفظ الحضارة وفي دفع أبنائها لإخراج الحضارة من نقطة توقفها إلى مرحلة العطاء الكامل.

---

(١) سورة يوسف آية ٢.

إن الحضارة الإسلامية وهي تتمتع بضوابط أصيلة ذاتية من عقيدة ونظم ودولة وقيادة ولغة، تميزها عن سائر حضارات الدنيا وتجعلها بحق الحضارة الأمثل والأقرب إلى طبيعة الإنسان وذاتيته لتطرح أمامنا ـ وهي اليوم في مرحلة التوقف عن العطاء ـ مجموعة تحديات أساسية كشروط مسبقة لإمكانية استئناف عطائها الأصيل من جديد.

الفصل الثالث

حالة التوقف في الحضارة الإسلامية
والظواهر الحضارية المتمادية فيها

الضوابط الحضارية ـ المحكية آنفاً ـ تضمن المسار الحضاري في خط مستقيم وتحفظ على الحضارة حيويتها وعطاءها. فإذا كانت الضوابط هامة في كل حضارة فإنها في الحضارة الإسلامية أساس محتوم. فالضوابط بالنسبة للحضارة الإسلامية، كالروح من الجسد، فهي المناخ الوحيد الذي تتفاعل فيه المفاهيم وتظهر الحضارة، فإذا ما تعطلت هذه الضوابط أو بعضها لسبب أو لآخر، تترجرج الحضارة الإسلامية ثم يتوقف عطاؤها الكامل، وتمسي في حالة حضارية متميزة أعني **حالة التوقف عن العطاء**.

والتوقف عن العطاء يختلف عن الاندثار والتشتت، أو الأفول والغروب، فالتوقف عملية ذاتية تفرضها الحضارة على نفسها بفعل تعطل بعض أو جميع ضوابطها. فهي ـ أي الحضارة ـ موجودة في مفاهيمها ـ وربما في ممارسة جزئية لتلك المفاهيم ـ غير أنها محجمة عن العطاء والإشراق والإبداع. **ذلك أن الحضارة الإسلامية لا تقبل الترقيع وترفض التجزئة والإشراك** وأنصاف الحلول، وهذا الرفض هو أبرز معالمها ويدل بعمق على أصالتها

وقدرتها عل المجابهة والتحدي. **أما الاندثار والأفول فهو زوال الحضارة من الوجود** وتحولها إلى ركام من تراث ثقافي يتمثل عادة بفن المعمار وبكتابات علمية وفلسفية. أي أن الحضارة قد أصيبت بفعل التلاشي الكامل، وهو فعل يقضي على الإنسان المؤمن بمعطيات تلك الحضارة، ويقضي على ممارسة تلك المفاهيم والمعطيات ضمن واقع ملموس. فعندما يتلاشى **التفاعل وتسقط أسبابه ومبرراته نقول بضياع الحضارة لا بتوقفها لأن إنسان** تلك الحضارة مع مجتمعه قد انفصلا عن مفاهيم تلك الحضارة وتمردوا عليها فاندثرت تلك المفاهيم مع ركام التاريخ وحدثان الأزمان والأعصر وغدت غير قابلة للتفاعل والحياة.

إن الحضارة الإسلامية، وهي في مرحلة التوقف الذاتي تمتلك كثيراً من مقومات الحياة تلك التي لو كان مثلها عند حضارات أخرى لاعتبرت نفسها في مرحلة العطاء والقمة. فغالبية المسلمين لا يزالون يؤمنون بالمفاهيم الإسلامية العامة، مع ما شاب هذا الإيمان من اختلاط وانحراف، وكثير منهم يحاولون ممارسة الإسلام في مختلف شئون حياتهم، كما أن بعضاً من مؤسسات الإسلام العامة لا تزال تقوم في بلاد المسلمين، (تطبيق **الشريعة الإسلامية في بعض البلدان، في جوانب الحياة، كالأحوال الشخصية** والوقفية والمعاهد العلمية والحركات الإسلامية والمساجد والميراث والحج..).

ومع هذا فإن الحضارة الإسلامية الرافضة للتجزئة، ترفض أن تعطي أو أن تخرج من مرحلة التوقف عن العطاء إلّا بعد توفر كامل الضوابط، فتغدو عندئذ حرة في تنشئة المجتمعات الإسلامية، وفي رسم أطر الحياة العامة فيها، وفي حمل كافة المؤسسات على الالتزام ـ **طواعية** ـ بمفاهيمها وتصوراتها.

التوقف يحمي الحضارة :

وتنظر الحضارة الإسلامية إلى أن التوقف عن العطاء أمر بالغ الأهمية، **فالتوقف يحمي الحضارة من أي زيف يلحقها**، كما أنه يجعل المسلمبن في حالة ترقب وانتظار لعطائها، مما يدفعهم دفعاً إلى السعي الجاد

لاستئناف المسار الحضاري مع ما يرافق ذلك من الشعور بالذنب لانغلاق الحضارة على نفسها ورفضها العطاء بغياب ضوابطها أو بعض تلك الضوابط.

فالإسلام ينظر إلى التوقف عن العطاء على أنه **عقوبة استحقتها الأمة لتعطل** الضوابط أو بعض تلك الضوابط. فالانحراف عن المفاهيم الإسلامية وتعطيل الممارسة الصحيحة، يجبهان بعقوبة التوقف عن العطاء، **فلا يعقل** أن يكون مع الإنحراف عطاء كما لا يجوز أن يبقى الانحراف دون عقاب عادل.

التوقف بقـــدر :

على أن الإسلام وهو يدرك الأسباب المختلفة لهذا الانحراف، أو بعضها خارج عن إرادة الأمة ـ وهو ما سنبينه فيما بعد ـ لا يقسو في العقوبة، ولا يشتد في الامتناع عن العطاء، فحضارته تتوقف عن العطاء بالقدر الذي يجعلها غير مسئولة عما يحدث، وبالقدر الذي تحافظ به على نضارتها وخيرها، وبالقدر الذي تتمكن فيه من إيجاد ردة الفعل عند جماهير الأمة وفي دفعها لمعرفة أسباب التوقف ولمعالجة هذه الأسباب، كمرحلة أساسية لاستئناف العطـاء الكامـل. هذا « **القـدر** » **ترسمـه الـحضارة الإسلامية بكثير من الدقة والتنبه والحذر، فهي من جهة ترفض العطاء الكامل، وهي من جهة أخرى ترفض أن يحولها التوقف إلى التفكك والاندثار.**

وهذا التوازن الدقيق هو مزية من مزايا الحضارة الإسلامية انفردت بها عن حضارات الأرض كلها.

الإفراز الحضاري وعملية التوازن :

إن عملية التوازن هذه هي أخطر ما في التوقف من قضايا شائكة، وفي سبيل ضمان نجاحه واستمراره بشكل مرن وفاعل، تقوم الحضارة الإسلامية وباستمرار، في إفرازات جماهيرية تكـون هي صاحبـة التفاعـل والتـوازن المطلوب.

والإفرازات الحضارية تلك ليست إلا مؤسسات حضارية شعبية كانت في مرحلة العطاء الكامل، وبقيت في مرحلة التوقف، كالمحاكم الشرعية والأوقاف والمساجد والمؤسسات التعليمية والفقهية والحج والزكاة ومكارم الأخلاق وحركات العلماء والمفكرين، أو يمكن إيجادها ضمن المفاهيم الإسلامية وتطور العصر، كالحركات الجماعية المنظمة (الأحزاب)، أو المؤتمرات العالمية والإعلام الموجه.

إن هذه المؤسسات، وهي تجسد أسلوب عطاء فاعل، تحافظ به الحضارة الإسلامية على وجودها، تغدو عناصر دافعة إلى إخراج الحضارة من التوقف إلى العطاء. فالمسجد مثلاً بما أهل له من تجمع شعبي يقوده إمام في صلوات وفي خطبة أسبوعية على الأقل أو في توجيهات أخرى هو مؤسسة حضارية فاعلة لا يمكن تجاهلها.

والحج المؤتمر الشعبي الكبير، الذي يتحرك في لحظات واحدة في ممارسات تعبدية واضحة يجمع الناس في حيز واحد وفي مظاهر واحدة لهو ظاهرة حضارية رفيعة تغذي الحضارة الإسلامية وترفدها بإفرازات شعبية أخرى وتحفظها من أي انهيار أو اندثار. **والمؤسسات العلمية تدرس الإسلام** في مختلف جوانبه وتعمل على تخريج مجموعات يبرز منها عناصر قيادية راشدة تتمكن من جذب انتباه واهتمام جماعات مسلمة في مختلف أقطار المسلمين من أجل استئناف حياة إسلامية.

والعلماء والمفكرون وما تدفعه المطابع من آلاف الكتب الإسلامية، كتب التراث وكتب المجددين فضلاً عن المجلات والصحف الإسلامية ظواهر حضارية فذة.

والحركات الإسلامية المنظمة الهادفة إلى استئناف الحياة الإسلامية وتصحيح مسار الحياة الإسلامية الحالية، وهي حركات شعبية جامعة، واعية لمسئولياتها الحضارية، تعتبر بحق من أهم الظواهر الحضارية في عالم اليوم أو في مرحلة التوقف الحضاري.

فالحركة الوهابية التي قادها محمد بن عبد الوهاب في أواسط القرن الثامن عشر كانت ـ كما يقول هاملتون جب ـ (صيحة إنذار مدوية ضد

الانحطاط في العالم الإسلامي).

والإخوان المسلمون والجماعات الإسلامية في باكستان وإيران وتركيا، ثم اتحادات الطلبة المسلمين في أوروبا وأمريكا، ثم المؤتمرات الإسلامية الشعبية والرسمية، ظواهر حضارية فذة، وهي بمثابة سلاسل متصلة الحلقات في أعمال وتطلعات من أجل استئناف الحياة الإسلامية من جديد.

ومحاولات تطبيق الشريعة الإسلامية، فضلاً عن تطبيقها الجزئي في بعض البلدان العربية والإسلامية والإصرار على جعل الشريعة مصدراً للتشريع والتقنين وعلى جعل دين الدولة الإسلام، ظواهر حضارية رفيعة.

هذه الظواهر وسواها مما تفرزه الحضارة الإسلامية وهي في حالة التوقف تشكل جداراً واقياً يحفظها من بعض العاديات، ويضفي عليها ـ وهي في حالة التوقف ـ طابع الحركة الذاتية الابداعية المتجددة. تلك الحركة التي تغدو حركة مجابهة عنيدة ضد كافة محاور الهجوم المتمادي على الحضارة الإسلامية وضوابطها الحضارية مما ألجأها إلى حالة التوقف القسرية.

الهجـوم المـاكـر :

إن الهجوم الماكر الذي شنته حضارات الدنيا، وبخاصة الحضارة الغربية كان ولا يزال ضارياً شرساً متقدماً في كثير من المجالات، متمتعاً بكثير من الضمانات. وقد بدأ هذا الهجوم منذ فجر التاريخ الإسلامي فكانت محاولات التأثير الإغريقي اليوناني والروماني والفارسي والهندي والمسيحي واليهودي في الاتجاهات الفكرية والعقيدية الإسلامية، ثم كانت الهجمات الصليبية الضارية على بلاد المسلمين، أعقبتها هجمات التتار والمغول.

ولئن فتحت القسطنطينية بعد ذلك إلا أن الأندلس قد تفلتت من أيدي المسلمين واندثرت الحضارة الإسلامية في هاتيك البلاد. ثم كانت الحرب العالمية الأولى وما نتج عنها من استعمار كثير من المناطق الإسلامية

وتحول تركيا الدولة عن الإسلام والقضاء على القوانين الإسلامية فيها وعن الأحرف العربية في لغتها، وما رافق ذلك من بعث النعرات القومية في بلاد المسلمين ومن إصدار مجموعات القوانين المدنية والجزائية والتجارية والمالية في كافة الدول العربية والإسلامية منبثقة في معظمها من تشريعات الدول الغربية، ثم سارت المناطق الإسلامية في اتجاهات تحررية لطرد الاستعمار، فاستقل كثير منها بينما رزح بعضها الآخر تحت الحكم السوفياتي أو الشرقي، في حين أن الدول المستقلة أضحت فريسة لاتجاهات انبعثت أساساً من مفاهيم الحضارة الغربية أو الشرقية. **وفي غمرة الأحداث تلك ضاعت فلسطين في متاهات الصهيونية العالمية والتآمر الدولي وعانت الأمة ويلات هذا الضياع الخطر...**

وبالإضافة إلى الهجمة العسكرية الشرسة التي استغرقت قروناً طوالاً جاءت الهجمة « الحضارية » متآمرة على المفاهيم والتصورات الإسلامية في الصميم. ونعدد هنا أهم محاور الهجوم الماكر هذا فنذكر منها :

١) محور التبشير والاستشراق.
٢) محور الجمعيات والأحزاب.
٣) محور الاتجاهات الفكرية الحديثة.
٤) محور محاربة الاتجاه الإسلامي والتشكيك فيه[١٩].
٥) محور الدعوة إلى « التغريب » الحضاري الكامل حياة ولغة.

إن مكر وضراوة هذا الهجوم ليزيل معالم حضارات شتى ويجعلها خبراً يروى وذكريات يتفنن بالتندر بها، غير أن الحضارة الإسلامية بما أفرزته من مؤسسات واقية وبما تميزت به من قدرة ذاتية هائلة كامنة في كتابها الرباني الخالد « القرآن ». إن هذه الحضارة تمكنت ـ وهي في حالة الالتفاف على نفسها والتوقف عن العطاء ـ من تجاوز العقبات الحادة تمهيداً لمرحلة الخروج إلى مرحلة العطاء الكامل.

إن الوثبات التي نراها، متتالية دفاقة في العالم الإسلامي، ومن وراء الحدود في القارات الأخرى، لتؤكد بصورة جلية أن مرحلة التوقف قد شارفت على النهاية وأن الحضارة الإسلامية تستعد الآن لاستئناف ضيائها الوهّاج.

ولا يعني هذا أن مرحلة الخروج هذه سهلة ميسرة... فلا ريب أن المشتغلين في أمور الحضارات والمتآمرين في كل العالم يعيدون تنظيم صفوفهم محاولين الحيلولة دون استلام الحضارة الإسلامية زمام القياد العالمي ـ وهذا ما سنبحثه فيما بعد ـ ونكتفي هنا بالإشارة السريعة إلى نداء اطلقته مجلة « جويش كرونيكل » اللندنية إلى العالم الغربي والاتحاد السوفياتي بآن معاً من أن يروا **جيداً الآثار الرهيبة و (المضاعفات الهائلة التي يمكنها أن** تترتب على نزعة الجهاد لدى المسلمين) في الربع الأخير من القرن العشرين.[٢٠] وأوضحت أن واضعي الاستراتيجية السياسية الغربية سيتبينون قصر نظر فاضحاً إذا هم تجاهلوا الدعوات المتزايدة التي توجهها مؤسسات العالم الإسلامي وجامعاته إلى إعادة النظر في فوائد الحياة العصرية والعودة إلى التعاليم الأساسية للإسلام، وأكدت أن (لا العالم الغربي ولا الاتحاد السوفياتي يستطيعان رؤية يقظة العالم الإسلامي ونهضته في راحة بال...).

* * *

الفصل الرابع

التحديات التي تطرحها الحضارة الإسلامية

الحضارة ـــ كما رأينا ـــ تفاعلٌ بين الإنسان ومجتمعه من جهة وبين البيئة والأكوان المحيطة به. والحضارة الإسلامية ـــ كما رأينا أيضاً ـــ ممارسة المفاهيم الإسلامية القاضية بإقامة الخلافة عن الله في الأرض. وهذا المفهوم العريض للحضارة، وللحضارة الإسلامية بصورة خاصة، يجعل حضارة الإسلام في مواجهة نظرة وتصور شموليين لكافة أوجه الحياة، سواء كانت الحضارة في حالة عطاء أم في حالة توقف، في حالة مد أم في حالة انحسار ... وسواء كانت هذه الأوجه متعلقة بتجمعها الحضاري الخاص وباستمرار تفاعله أم في علاقتها هي كحضارة بالحضارات الأخرى.

والحضارة الإسلامية، إزاء تلك المواجهات تنطلق بعدة كاملة وبتصورات ثابتة تتحول بفعل الصراع إلى تحديات تأخذ أشكالًا صلبة حيناً ومرنة حيناً آخر.

وبحيوية تلك التحديات تمكنت الحضارة الإسلامية من الثبات إزاء الصراع وبالتالي من استيعابه وتجاوزه. وكشأن سائر خصائص الحضارة الإسلامية فإن تحدياتها هذه منبثقة عن ذاتيتها الأصيلة وهادفة إلى تحقيق وجودها وتأصيله ....

التحديات السبع :

وفي مسيرة الحضارة الإسلامية نستقرأ سبعة تحديات أساسية :

١ ــ شرعة حقوق كاملة :

شرعة حقوق كاملة للإنسان وتجمعاته ودوله، وعلاقاته بالكائنات حوله من حيوان ونبات وجماد وأكوان.

وهذه الشرعة التي هي الأولى من نوعها في حياة البشرية الأولى في تكاملها وشمولها، والأولى في عدالتها ووضوحها، والأولى في إمكانية اعتمادها في كل زمان ومكان، هذه الشرعة تتمثل في التصورات الأساسية للوجود كله.

وتتضمن هذه الشرعة الإنسان من حيث وجوده، غاية وتنظيماً، ومن حيث علاقاته بربه ونفسه وبأمثاله، ومن حيث حرياته وأنظمته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدولية. كما تتضمن هذه الشرعة حقوقاً للحيوان وتحديداً لقيمته ومدى علاقة الإنسان به. وكما الحيوان كذلك النبات والجماد. فالنبات له حقوق ينبغي ألا تهدر، وعلى الإنسان أن يرعاها أثناء تعامله معه. والكون بفضائه وبأرضه وما فيها من خيرات ومعادن له أيضاً حقوق لا يمكن تجاهلها.

وعندما يقرر الإسلام شرعته الحضارية الشاملة للإنسان والحيوان والنبات والأكوان، وينظم طبيعة العلاقات وطرق التفاعل بين هذه المخلوقات والحدود التي ينبغي أن تقف عنها كي لا تنقلب إلى عدوان، فإن الإسلام ــ بما امتلكه من شرعة واضحة ــ قد واجه العناصر الحضارية بكثير من التقدم والتفوق والجدية مرسياً بذلك قواعد التفاعل الحضاري على أسس متينة ومدروسة.

إن إستقراء الحضارات الأخرى الماضية المندثرة أو المتجددة عبر حضارة

الغرب المسيحية وما تفرع عنها من حضارة شرقية شيوعية، كما أن استطلاع شرعة حقوق الإنسان ودساتير جمعيات الرفق بالحيوان والجمعيات المهتمة بالنبات أو تلك المتعلقة بالبيئة والفضاء إن هذين الاستقراءين يؤكدان حقيقة واضحة هي أن الحضارة الإسلامية كانت سبّاقة في كل ميدان ومبرزة عن سواها حتى إنها لا تزال متفوقة على غيرها بكثير من المعطيات والخصائص.

٢ ــ الحلال والحرام والخاتم الحضاري :

وانطلاقاً من شرعة الحقوق هذه تحرص الحضارة الإسلامية على صبغ أصعدة الحياة كافة ومجالاتها المختلفة بطابعها المتميز حتى لكأنك تراها من خلال الحياة نفسها ومن الممارسات العديدة فيها. ولعل فلسفة الحلال والحرام هي الخاتم الحضاري الذي تطبع به الحضارة الإسلامية كل مقولاتها وممارساتها في شرعتها العالمية لحقوق الإنسان وعلاقات هذا الإنسان وتفاعلاته مع البيئة والأكوان والنبات والحيوان. حتى غدت تلك الفلسفة ميزاناً حساساً يملكه كل فرد ، صغيراً أو كبيراً جندياً أو قائداً مؤتماً وإماماً، بعفوية وصدق كبيرين.

إن فلسفة الحلال والحرام من أبرز معالم الحضارة الإسلامية بل هي سر من أسرارها، فهي فضلًا عن أنها ميزان يزن به المرء أعماله ويقومها على أساسه، فهي أداة واقية هامة يقيمها الإسلام في ذاكرة كل فرد **في سبيل منحه قدرات التدقيق والمراقبة على أعمال وممارسات وتفاعلات المجتمع برمته.**

وبواسطة هذا التصور العملي تمتلك الأنظمة والقوانين والشرائع والحقوق **خاصيات المراقبة الذاتية** ويغدو الفرد حارسًا لتلك الشرائع مطبقًا لها بعفوية وقصد على السواء، فهو يشعر أن القانون هذا إنما هو قانونه الذاتي ومطلوب منه تطبيقه في السر والعلن وسيحاسب عليه في الآخرة لأن الله سبحانه وتعالى مطلع عليه ... فهو إن خالف فقد ارتكب معصية وإن استترت مخالفته في الدنيا عن أعين الحكم والسلطة فستكشف في الآخرة حين تشهد عليه يداه ورجلاه وعيناه وأذناه.

وهكذا تغدو القوانين والأنظمة القائمة على معطيات الحلال والحرام أصدق في التطبيق ولو كان الإنسان وحيداً بعيداً عن أية أنظار.

والأمثلة القليلة الآتية تعطينا بعض تلك التصورات ومدى تفاعلها وتأثيرها في مختلف جوانب الحياة. فعندما يؤكد النبي ﷺ أن **للجار حقوقاً**، ومنها أن لا يستطيل عليه بالبنيان فيحجب عنه النور والهواء، إنما بذلك يرسم قواعد أساسية اجتماعية وعمرانية في آن معاً، وكلاهما مطبوعان بمعطيات الحلال والحرام...

فإذا جاء تنظيم الدولة ليرسم العمران وتخطيط المدن والأحياء كان لزاماً عليه أن يأتي ضمن التصور العمراني وإيحاءات الفن الإسلامي **للهندسة المعمارية**، حتى إذا غابت هذه الأنظمة الرسمية الصادرة عن السلطة جاء الأفراد يطبقون المعطيات بعفوية صادقة لأنها تتعلق بقواعد أساسية وبتصور الحلال والحرام فلا يجوز لهم مخالفتها.

وفي المال تتشابه القضايا وتتداخل ومع هذا فإن حقائق الحلال والحرام تبقى مستعلية... فالأسلوب الربوي مثلاً، المعروف قديماً وحديثاً، أخذ أشكالاً وأساليب عدة، غير أن الله سبحانه أحل البيع وحرم الربا ضمن مفهوم الحلال والحرام، فلو أن الدولة لم تأت بتنظيم الأوضاع المالية لجاء الناس ينظمونها بعفوية كاملة ولأحلوا ما أحل الله ولحرموا ماحرم الله، وفي الأزياء نجد الإسلام يصبغها بتصوراته يعين فيها حدوداً وشروطاً ويربطهما بمقتضيات الحلال والحرام وما يجاز أن يرى وما لا يجاز فيغدو الزي مظهراً حضارياً مرتبطاً بمقاييس يملكها كل فرد يعي أسبقياتها ويستوعب ضروراتها فإن غابت الأنظمة الرسمية قام الناس طواعية بالتقيد في أصول الزي والتشبث به....

وفي أمور الحياة المختلفة، في تربية وتعليم الأطفال والأجيال، وفي آداب الحياة وفي العلاقات الاجتماعية المختلفة، تجد فيها جميعاً ظاهرة الحلال والحرام تأخذ سبيلها في حال تصادمها مع تصورات أخرى وسط الصعاب لتؤكد من خلال هذا التصادم وجوب الارتباط وتأصيله وتعميقه.

حتى الرفق بالحيوان الذي يكتسب بالإسلام معطيات الحلال والحرام ويرتقي إلى مستوى المعاصي حيث يعاقب عليها ـ في الآخرة ـ بالنار أو مستوى المبرّات حيث ينعم عليها بالجنة.... ومثل المرأة التي دخلت النار في هرة حبستها لا هي أطعمتها ولا هي أطلقتها تأكل من خشاش الأرض، ومثل الرجل الذي دخل الجنة في كلب سقاه بكعب حذائه عندما وجده يتلوى قرب بئر... إن هذين المثلين يجعلان العلاقات الإنسانية بالحيوان تكتسي طوابع أصيلة تعجز عنها حضارات الدنيا بأسرها.

وعندما يحرم الإسلام في نظام حربه مثلاً **قطع الأشجار وإتلاف** المزروعات فإنما يرسم بذلك قواعد أساسية في طبيعة العلاقات يدركها المرء وهو في خضم المعارك ويشعر فيها بأعماقه مستلهماً معاني الحلال والحرام....

٣ ـ مسئولية التنفيذ وعملية التغيير والتطوير :

ونتيجة لهذا التصور ـ التحدي ـ الذي يتمادى في الزمان والمكان مهما تكن الظروف والصعاب تؤصل الحضارة الإسلامية في حس الفرد والجماعة بآن معاً مسئولية كلا الفريقين في تنفيذ مفاهيمها (وهذا ما رأيناه عبر ممارسات الحلال والحرام) وفي عمليتي التغيير والتطوير (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والعمل على نقض الفساد وإزالة الظلم وإقامة الحكم الإسلامي).

فعندما يجعل الإسلام عمليتي التغيير والتطوير وإقامة الحكم الإسلامي والجهاد فروضاً كسائر الفروض الفردية المتعينة على كل مسلم ـ وإن اختلفت درجات تلك الفروض في حالات وضمن مواصفات إلا أنها تبقى فروضاً ـ يأثم المسلمون حال تركها وعدم القيام بها... عندما يقيم الإسلام تصوره هذا ضمن هذه المعطيات إنما يقصد إبقاء الحياة المتجددة على حضارته وإن أمست في حالة التوقف عن العطاء.

من هنا قلنا إن الحضارة الإسلامية وهي في حالة التوقف عن العطاء تكون في حالة عطاء آخر. فهي بما تملكه من مقومات ذاتية متصلة

بجماهير الناس تضمن لنفسها قدرة الحفظ وعدم الاندثار أو التحلل، كما تضمن مقومات استئناف العطاء الأصيل من جديد بما تحققه هذه المقومات على الصعيد الجماعي في عمليتي التغيير والتطوير من قدرات تستعد بها الحضارة الإسلامية ـ وهي في حالة التوقف ـ للتغلب على كافة الحواجز والموانع، تمهيداً للانطلاق الأوسع والفاعل في بركات من السماء والأرض.

٤ ـ الغايات والوسائل :

ومن الطروحات الأصيلة التي تتميز بها الحضارة الإسلامية بأصالة كاملة وتجعلها إحدى تحدياتها الحضارية الهامة قضية تحديد أطر الغايات والوسائل والتمييز بينهما في وضوح تصوري رائع محذرة من أن تنقلب الوسائل إلى غايات.. فيرتكس الإنسان متهاوياً عن مركزه الحضاري الرفيع وهو خلافة الله في الأرض.

فإذا كانت غاية الوجود الإنساني في الأرض تحقيق الخلافة في كل ظواهر الإنسان وله أن يستخدم من أجل ذلك كل مقدرات الأرض المسخرة له فإن هذا الإنسان يكون متعسفاً إلى درجات خطيرة عندما يقلب الوسيلة، وهي هنا ما سخر له، فيجعلها غاية له كالصنم يدور حوله سواء كان هذا الصنم حجراً كما كان حال الأقدمين أو آلة كما هو الحال في العصر الحديث، ذلك أن الوسيلة لا يجوز لها أن تصبح غاية وإلا اختلطت الأمور وتعطلت المقاييس...

وفي سبيل إبقاء هذا المفهوم مؤكداً وواضحاً عند أبناء الحضارة الإسلامية، فيغدو عندهم كالبديهية أو ما يجري مجراها... أصّل الإسلام مفهوم الغايات والوسائل وربطها بإعجاز فريد بالله سبحانه وتعالى (قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين)[١].

فالنظافة مثلاً وسيلة لا غاية، يتنظف المرء ويتطهر من أجل الصلاة والصلاة لله رب العالمين. **والعملية الجنسية** وإن كانت استجابة لحاجة

---

(١) سورة الأنعـام آية ١٦٢.

جسدية في الإنسان إلا أنها ـ مع ما تحققه من لذة وتفاعل ـ وسيلة ولا يجوز أن تنقلب إلى غاية، فوسيلة الجنس تهذبها غايته وبذلك تستقيم الحياة وتتجدد.

أما في الحضارة الغربية فالنظافة غاية بذاتها وكذلك الجنس، يمارسان بالطريقة أو الوسيلة التي يراها الفرد محققة لهما. وبذلك تخلفت النظافة عندهم درجات وأصبح الجنس كالبهيمية.... حتى أمكننا القول بكثير من الجدية والتأكيد إن وسائل الحضارة الإسلامية غايات الحضارة الغربيـة... ولا غرو في ذلك إذ (أن غاية الإسلام قد جعلت لحضارته صورة مستقلة مخصوصة تختلف عن صور سائر الحضارات القديمة أو الحديثة في الدنيا اختلافاً أساسياً).[٢١]

وعلى هذا (فإن الصورة التي يعامل بها الإسلام الدنيا وما فيها حسب نظريته وعلى مقتضى من غايته هي مختلفة عن الطرق التي تسلكها سائر الحضارات لتحقيق غاياتها، فكم من تصورات عقلية... ورغبات نفسية... وطرق مقررة لقضاء الحياة ليس اتباعها بمشروع فحسب بل هي من لوازم الحضارة في نظر حضارات أخرى، ولكن يأبى الإسلام أن يحرمها وينهى عنها المؤمنين برسالته.

الفنـــــون :

فالفنون الجميلة ـ مثلاً ـ روح الحضارة وقوامها في نظر كثير من الحضارات القائمة في الدنيا، فهي لذلك تعتبر البارعين في هذه الفنون من أبطالها القوميين البارزين... ولكن الإسلام يحرم بعض هذه الفنون ويقول بكراهية بعضها ويبيح بعضها إلى حد ما. إن قانونه لا يبيح ترقية الذوق الجميل والاستمتاع بالجمال الصناعي إلا إلى حيث لا ينسى الإنسان ربه ولا يتقاعس عن بذل الجهود لأداء واجبات منصب الخلافة). وطالما أننا ضربنا المثل بالفن الإسلامي فنقول استكمالاً للرؤية إنه قد نشأ من مفهومي الحلال والحرام والغاية والوسيلة، الآنفي الذكر، تصور إسلامي متميز للفن الإسلامي إذ أن هذا الفن واضح للعيان ـ كما يقول الأستاذ برنارد لويس ـ بشكل لا يصعب التعرف عليه من كل (إنسان حتى ولو كانت ثقافته الفنية والهندسية

محدودة فإن باستطاعته أن ينظر إلى مجموعة صور فوتوغرافية لأبنية أو حاجاتٍ ويميز الإسلامية منها : فالقناطر ومنائر الجوامع والهندسة العربية والنقوش والنظم التي تتحكم في الشعر والتي تتحكم في فن الطهي كل هذه رغم اختلاف حقولها تظهر وحدة أساسية من التقاليد والأخلاق والسلوك وهي وحدة إسلامية تكونت أساساً في الشرق الأوسط على نماذج متشابهة عربية وفارسية وتركية في الموسيقى والبناء والسجاجيد والقباب وترى هذه الوحدة في فروع الحضارة الإسلامية المتشعبة وتسمعها وتلمسها وتتذوقها وهذه الوحدة موجودة أيضاً ولو أنها غير سهلة التحديد والفهم للرجل العادي موضوعات مثل القوانين والحكم والمؤسسات وفي المواقف والأفكار السياسية والاجتماعية)[٢٢].

٥ ـ حوار الحضارات والحقائق الثابتة :

والحضارة الإسلامية بما تملكه من تصورات وقيم وتفاعل ووجود تقبل حوار الحضارات، تتحاور معها بمقاييس ثابتة وتجادل بالتي هي أحسن توصلاً إلى إقرار الحقائق الثابتة، وركائز الحوار كما تقررها الحضارة الإسلامية هي كما يلي :

أ ـ الحضارة العالمية هي تلك التي تتمكن من استيعاب الإنسان منذ وجوده الأول، وحتى النهاية المنتظرة للوجود ضمن قواعد أساسية ثابتة، أي أن الحضارة العالمية الإنسانية هي الحضارة الواحدة للإنسان عبر إدراكه المستمر والمتصاعد وبالتالي فلا يصح أن تكون الحضارة العالمية تعددية ضمن حضارات متميزة عن بعضها وقد تكون متضاربة.

وقد جاء مفهوم التعددية هذا تغطية لعجز أي حضارة عن قدرة استيعاب الإنسان في الزمان والمكان، وعن عجزها في تفسير الإدراك الإنساني وتصاعده. أما الحضارة الإسلامية التي لا تشعر بأية عقدة تجاه هذه المشكلات بل تستوعبها بكثير من المرونة باعتبارها هي حضارة الإنسان الأول الذي تفتح فيه الإدراك لحظة إيداعه الروح وتعليمه الأسماء وإلهامه قدرة التمييز والضبط والاستقراء وهي بالتالي حضارة الأنبياء والرسل للأقوام والبشر وحضارة المؤمنين بالإسلام كما جاء به محمد ﷺ... وهي

على هذا حضارة عالمية إنسانية لا تعرف حدوداً ولا تقبل تمييزاً وتفاضلاً بين جنس وآخر. والتمييز الوحيد بين البشر المقبول يجري على أساس الإيمان بالله والاستقامة على نهجه **(قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون. فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا، وإن تولوا فإنما هم في شقاق، فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم. صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون)**[1].

وازاء الوحدة العالمية هذه نجد الحضارات الأخرى تقيم تمايزها على أسس من الجنس والقوميات أو الاقتصاد أو اللاهوت. وقد رأينا كيف يتم التمييز في اللون عندما جعلوا الأبيض هو الإنسان مهدرين إنسانية الأسود والأحمر، وعندما جعلوا التفاضل في الجنس الأبيض للآريين وسلالاتهم مؤكدين أنه الأعلى وأنه هو وحده القادر على صنع الحضارة والارتقاء على جبلها ــ على حد تعبير سان سيمون ــ بينما تعجز الأجناس الأخرى ولو كانت بيضاء عن الارتقاء إلا إلى ارتفاعات معينة.

ب ــ وباعتبار الحضارة الإسلامية هي الحضارة العالمية تدخل الحضارة الإسلامية ما يعرف (بحوار الحضارات) بفكرها المتكامل تناقش به ظواهر الوجود بأسره لتثبت في النهاية أن تصوراتها عن الكون والإنسان والحياة، وتصوراتها في مناهجها الحياتية المختلفة، هي وحدها المتوازنة التي تصلح للإنسان في كل زمان ومكان وهي التي تضمن له السعادة والأمن والعدل والكفاية والرفاه.

من هنا فإن مفاهيم الحضارة الإسلامية إزاء المفاهيم الأخرى هي **الحق وما عداها ــ في أسس المفاهيم وقواعده ــ باطل (ذلك بأن الله هو** الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل)[2].

جـ ــ غير أن هذا المفهوم **الحق لا يمنع من استيعاب الحكمة أنى**

---

(١) سورة البقرة الآيات ١٣٦ ــ ١٣٨.

(٢) سورة لقمان آية ٣٠.

وجدت، كما لا يمانع من الاقتباس والانفتاح على مجالات العلوم والمدنية. فالحضارة الإسلامية تقيم فاصلاً بينها كمفاهيم، وبين المدنية كوجه حضاري يترقى كلما تعمق التفاعل الإنساني مع البيئة والأكوان..... **فهي** في الوقت الذي تصر على أحقية مناهجها ومفاهيمها وتصوراتها وتعارض **إشراك سواها بها تجيز باعتزاز هضم كل العلم والمعلومات ولو كان في أقاصي** والفرعونية واليونانية والرومانية السابقة على الإسلام **قاتمة مظلمة، قائمة على** تستوعبهما أولا للتفوق بعد ذلك على كل مدنية أخرى. وعلى هذا فالمدنية ثمرات علوم نتجت عن حسن استخدام الكون المحيط بالإنسان لذلك لا بد من الانفتاح عليها وعدم التقوقع والاعتزال، يؤخذ منها كل العناصر الإيجابية والمعطيات النافعة غير المتعارضة مع قيم الإسلام وحدوده وضوابطه أو بمعنى آخر قواعد الحلال والحرام.

د ـ وأيضاً فإن اعتبار الحضارة الإسلامية هي الحضارة العالمية الواحدة **لا يسقط عن الإنسان غير المسلم قدرة صنع الحضارة**. من هنا فالحضارة الإسلامية في حوارها تعترف لغير المسلم بحضارته إلا أنها تعتبر أن تلك الحضارة غير متلائمة في كثير من جوانبها مع **حاجات الإنسان وتطلعاته**.

الحضارة عند الأمم القديمة :

فقد (كانت صورة الحضارة في مفهوم الامبراطوريات الفارسية والفرعونية واليونانية والرومانية السابقة على الإسلام قاتمة مظلمة،قائمة على الظلم والاستبداد وعبادة الفرد. وكانت العبودية هي الصيغة الغالبة للمجتمعات.... تقوم عليها جميع مفاهيم الحياة.. وقد حفلت الحضارات القديمة بأساليب من الظلم والقسوة وحب التعذيب والاستمتاع بآلام الغير)[٢٣]. وكان هدف تلك الحضارات (غزو العالم والاستيلاء على كل خيرات الأرض ولم يحجموا في سبيل ذلك عن أي عمل واستباحوا في سبيل ذلك كل خطة واستحلوا كل فكرة)[٢٤].

حتى أن الرومان عندما أصدروا بعض اللوائح القانونية ربطوا تنفيذها بالسادة دون جمهرة الشعب من العبيد والأرقاء الذين اقتصرت اللوائح القانونية

بالنسبة لهم على العقوبات، وكان من درجاتها الإعدام بطريقة الإلقاء إلى الوحوش وسط هياج السادة واستمرائهم لهذا المنظر الكريه أو نزع اللسان وصب القصدير المغلي في أفواه المجرمين.

ويقول « أرنولد توينبي » في تاريخ الحضارة الهلينية : « لعل من الأسباب الجوهرية التي أدت إلى انهيار الحضارة الهلينية انهياراً سريعاً هو حين أخذ الهلينيون يتأرجحون بين ضربين من ضروب عبادة الإنسان ».

الحضارة الغربية اليوم :

أما الحضارة الغربية التي تحكمت في مقاليد القيادة العالمية فيكفي أنها فجرت في أقل من نصف قرن حربين عالميتين دمرتا البشرية، فضلاً عن استعبادها واستعمارها لكثير من مناطق العالم، مستبيحة لنفسها قنص خيرات الشعوب بعد أن أباحت قنص السود والقضاء عل الجنس الأحمر. ويكفي أن سياسة التمييز في الأجناس والألوان لا تزال معتبرة مع سياسات اجتماعية ودولية حتى اليوم.

كارليل في (الإنسان ذلك المجهول) :

كتب الكسيس كارليل في كتابه (الإنسان ذلك المجهول) : « إن الحضارة العصرية تجد نفسها في موقف صعب لأنها لا تلائمنا، لقد أنشئت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقية إذ أنها تولدت من خيالات الاكتشافات العلمية وشهوات الناس وأوهامهم ونظرياتهم ورغباتهم، وعلى الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا إلا أنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا.... ».

وقد جاء هذا التحليل في مقدمة كتابه الذي كتبه من أجل (أولئك الذين يجدون شجاعة كافية ليدركوا ـ ليس فقط ضرورة إحداث تغيرات عقلية وسياسية واجتماعية ـ بل أيضاً ضرورة قلب الحضارة الصناعية وظهور فكرة أخرى للتقدم البشري).

روجيه غارودي يتهم الحضارة الغربية :

وبينما ينظر الفيلسوف الفرنسي روجيه غارودي في كتابه « حوار

الحضارات » إلى الحضارة الأوروبية على أنها (عرض زائل) يقرر : (ونحن نعيش في هذا الربع الأخير من القرن العشرين أزمة عميقة في الثقافة الغربية وفي النمو (الفاوستي) الذي يوحي به، وهذا الأنموذج (الفاوستي) قد ولد ما يسمى عصر النهضة الغربية التي لم تكن ظاهرة ثقافية فحسب بل أيضاً مولد الرأسمالية والاستعمار المواكبين.

الرأسمالية : أي المجتمع الذي خلق الإنسان الغربي ذا البعد الواحد : ذاك الذي ينتظر من نمو العلوم والتقنيات نمواً نهائياً ليروي غلة إرادته في السيطرة والربح.

والاستعمار : أي المجتمع الغربي الذي يزعم أنه يتخذ هذا الإنسان التقني مقياس الأشياء كلها ومركز المبادهة التاريخية الوحيد ومبدع القيمة الوحيد ومن ثم ينكر أو يهدم جميع الثقافات اللاغربية. إن (فاوست) هو الرمز المأساوي لثقافتنا الغربية.

ويذكر غارودي أن تقدم الغرب ارتبط ارتباطاً وثيقاً بتخلف جزء كبير من العالم، فنموه كان بالضرورة وليد « نهب ثروات القارات الثلاث ونقلها إلى أوروبا وإلى أمريكا الشمالية، وبالمقابل فإن الغرب هو الذي جعل ما نسميه العالم الثالث متخلفاً ».

ويذكر غارودي أن الحضارة الغربية وقعت في مسلسل العقد البشع، وفي مقدمتها عقدة الاستعلاء على باقي الشعوب المعتبرة « من الوطنيين الذي لا يتمتعون بأية حقوق إنسانية ».

ومن أجل هذا كان على العالم أن « يتغرب » تغرباً كاملاً، كما أن عقدة (العبقرية الإغريقية) ـ (والمعجزة الرومانية) تأتي في مقدمة العقد الغربية باعتبار أنهما (الإغريق والرومان) أساسان من أسس الحضارة الغربية، ومن العقد أيضاً عقدة التقوقع القومي واعتبار التاريخ الغربي محوراً للتاريخ العالمي والنظر إلى التواريخ الأخرى على أنها حواش عليه....

وبعد أن يرفض غارودي هذه العقد يؤكد أن العالم اليوم بحاجة إلى تجربة كونية تقوم على الحوار بين الحضارات، وأن الحضارة الغربية عاجزة عن تقديم هذه التجربة، لذلك فهو يدعو إلى إقامة الحوار بين الحضارات،

« فبهذا الحوار يمكن أن يولد مشروع كوني يتسق مع اختراع المستقبل وذلك ابتغاء أن يخترع الجميع مستقبل الجميع ».

كونستانتان جورجيو في ساعته الخامسة والعشرين :

وكأني بغارودي يلتقي بطريقة غير منظورة مع الكاتب الروماني « كونستانتان جورجيو » في قصته « الساعة الخامسة والعشرون »، أي الساعة التي **ستشهد حضارة جديدة بعد ليل الحضارة الغربية البشع الطويل.** فقد أكد « جورجيو » أن الحضارة الغربية، أوروبية وأمريكية وروسية، قد أفلست وهي في طريق الانهيار الكامل. ويتطلع إلى أمة ذات أصالة تفهم الواقع البشري وتتقدم لإنقاذ البشرية ويقول : (إن هذا الإنهيار الآلي سيعقبه اعتراف بالموهبات الإنسانية وسيشرق هذا النور العظيم من الشرق ولا شك، من آسيا ولكن ليس من روسيا. إن الروس قد انحنوا خاضعين أمام نور الغرب الكهربائي فلن يعيشوا ليروا الإشراق. سيكتسح رجل الشرق المجتمع الآلي وسيستعمل النور الكهربائي لإنارة الشوارع والبيوت، ولكن لن يبلغ به مرتبة الرقيق ولن يرفع له معابد وصوامع كما هو الحال اليوم في بربرية المجتمع **الآلي الغربي، إنه لن يضيء بنور النيون خطوط القلب والفكر، إن رجل الشرق سيجعل نفسه سيداً للآلات وللمجتمع الآلي).**

حضارات مصطنعة :

ومن أجل هذا وسواه تدرك الحضارة الإسلامية أن حضارات الآخرين هي حضارات مصطنعة فصلت بصورة لا تتلاءم مع الإنسان بحجمه وشكله وجوهره كما قال كارليل، إلّا أنها حضارات يمكن التحاور معها ـ على حد تعبير روجيه غارودي ـ إلّا أنه حوار لأجل إثبات أحقية الحضارة الإسلامية بريادة البشرية والعالم وإثبات قدرتها على الإبداع والعطاء. فهي التي تملك المنهج الأقوم أو الفكرة الأقرب للتطور والتقدم وفق قول كارليل، وهي التي قالت بحضارة كونية واحدة ورفضت كل العقد وكل عوامل وأسباب النقص والتخلف في حياة الإنسان.

الربط بين العطاء وتوافر الضوابط :

٦ ـ غير أن الحضارة الإسلامية التي بإمكانها وحدها اليوم تلبية

تطلعات « جورجيو » بأن يكون الإنسان سيد الآلة لا رقيقاً لها وأن يستخدم النيون لإنارة البيوت والشوارع لا العقول والأفكار، إن الحضارة الإسلامية هذه ـ كما رأينا ـ تصر على طروحاتها الخاصة وتصر على الامتناع عن العطاء الكامل إلّا بعد أن تتوفر ضوابطها، عندئذ لا تتردد الحضارة الإسلامية عن العطاء، فالعطاء قدرها الذي لا انفكاك عنه لذلك فهي تعطي في مرحلة توقفها... فكيف إذا غدت في مرحلة العطاء من جديد ؟

إن الحضارة الإسلامية تؤكد الربط بين نمائها وارتقائها وبين التقيد الكامل بجميع تصوراتها وعلى كل صعيد مع ما يمكن أن تستخلصه من تجارب الأمم والشعوب فضلاً عن إبداع العلوم وتقدم التكنولوجيا.

٧ ـ أنا مسلم إذن أنا متحضر :

وتطرح الحضارة الإسلامية وهي تستلهم كل الطروحات وكل الاعتبارات تحدياً ذا أبعاد هامة في كل المجالات هو أن المسلم لا يمكن إلّا أن يكون متحضراً، إن وجود المسلم الملتزم بمنهج الله وبمفاهيم الإسلام العامة والخاصة دليل على وجود واستمرار الحضارة الإسلامية ـ وإن كانت في مرحلة التوقف عن العطاء ـ أي أن المسلم لا يكون متخلفاً في حال من الأحوال، فإسلامه يدفعه إلى التحضر وإلى التفاعل واستخدام الكون وإقامة حياة حرة كريمة فيها الأمن والراحة والطمأنينة والعدالة والكفاية والرفاه. تلك هي مقاييس الحضارات... من هنا يمكننا بدون صعوبة أن نقرر قاعدة : (أنا مسلم إذن أنا متحضر).

ولهذه القاعدة خلفيات هامة، فهي من جهة توجد فكرة الاستعلاء الإيماني عند كل مسلم، ليس من أجل الاستهتار بالشعوب الأخرى، بل من أجل إنقاذ تلك الشعوب، فعندما يدرك المسلم أنه رجل الحضارة وأنه بالتالي بحكم إسلامه **شهيد على الإنسانية** تكون الحضارة الإسلامية قد أوجدت الذاتية التي يتجسد فيها **مقياس الحضارة المتجدد**، وهكذا يغدو المسلم مؤتمناً على مسار الحضارة التصاعدي، متكفلاً إقامة الحضارة الحديثة التي ستخرج الناس من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان والمذاهب

والعقائد إلى عدالة الإسلام، ومن عبودية الآلة إلى استعبادها، ومن إهدار القيم والموهبات الانسانية إلى الاعتراف بها وتنميتها.

* * *

الفصل الخامس

دور الشباب أو القيادة الطليعية في إخراج

الحضارة الإسلامية من مرحلة التوقف إلى مرحلة العطاء

إن قاعدة (أنا مسلم إذن أنا متحضر) صحيحة بقدر ما يعيش المسلم مفاهيم الإسلام عن الحضارة والتفاعل. وقد رأينا من قبل أن الحضارة الإسلامية غير فردية وهي لا تظهر إلا بمجموعة المؤمنين عندما يقيمون تجمعهم على أرض معينة في زمن معلوم يطبقون على أنفسهم وعلى تجمعهم هذا تصوراتهم ومفاهيمهم محققين التفاعل الحضاري مع البيئة والأكوان.

من هنا تغدو قاعدة (أنا مسلم إذن أنا متحضر) تحدياً ذاتياً للمسلمين بقدر ما هي تحدٍّ في مسار الحضارات والتحاور معها. إذ لا بد لحضارتهم من تجمع ولا بد من تكامل الضوابط الحضارية في تجمعهم هذا حتى تتمكن حضاراتهم من العطاء وإقامة المجتمع الإسلامي ولو كان صغيراً ـ على حد تعبير سيد قطب ـ فإنه سيحدث الانقلاب الأكبر في الكون بأسره، والبشرية لا تستجيب عادة لمنهج مقروء أو مسموع بالقدر الذي تستجيب فيه لمنهج حي متحرك مجسم ممثل في حياة جماعة من

البشر مترجم إلى واقع تراه العين وتلمسه اليد وتلاحظ آثاره العقول... ذلك أن إقامة المجتمع المسلم يعني في حقيقته أن العمل الطليعي بين مجموعة من المسلمين قد وصل إلى مرحلة النضج وتملك أهم ضوابط الحياة فيغدو بذلك أقدر على تحمل أعباء الحضارة الإسلامية فتعتق هذه من أسار التوقف إلى وهج العطاء المشع.

ولا ريب أن المحاولات هذه محفوفة بالمخاطر والأشواك. ولذلك فهي بحاجة إلى مزيد من التخطيط وروية في التكفير ودقة في التوجيه والتنفيذ، ولا بد لها أيضاً من ارتفاع أهل النخبة والقيادة إلى مستوى المسئولية الطليعية الرائدة.

وكأي محاولة لا بد لها من « **قاعدة** » تنطلق منها و « **طريق** » تسعى إليه للوصول إلى « **الهدف** » المنشود. وكل محاولة تفقد هذه العناصر الأساسية، القاعدة والطريق والهدف أو بعضها، يكون مصيرها في الأعم الأغلب الفشل والإحباط. وبقدر ما تمتلك المحاولة الوضوح والعمق في أساسها بقدر ما تقوى على تجسيد نفسها في واقع حي فعّال.

الريـادة والشبـاب :

إن ريادة المحاولة تقع دوماً على الشباب، على النخبة الطليعية التي تكون أو يفترض بها أن تكون قيادة منفتحة واعية راشدة.. إن درجة تفاعل هذه القيادة يرسم ـ إلى حد بعيد ـ طريق النجاح والتمكن في الأرض.

يقول أرنولد توينبي : « إنه لا بد لكل جماعة إنسانية من صفوة قائدة لكي تتقدم وتتحسن أحوالها، ولا يتم تقدم إذا عدمتها الجماعة فكأنها خميرة التقدم والنهوض.. ».. ويقول : (إن مصير الجماعة كلها مرتبط دائماً بهذه الصفوة وأحوالها فإذا ظلت على هذه الحال من القلق والسعي والمرض محل الفتح والكشف والتجديد والإحساس بمسئولياتها عن الجماعة تكونت حولهم جماعة من الناس يسيرون في الطريق بعدهم واطردت مسيرة الجماعة وطال عمر صلاحها ».

من هنا فإن دور الشباب في ريادة الحضارة دور هام وخطير، فهم

الخميرة أبداً في الأمة، وهم موئل الأمل والرجاء، ولهم - في الحضارة الإسلامية - مكان أعلى، **فهم الفتية الذين آمنوا بربهم وزادهم الله هدى وهم** من السبعة (الذين يظلهم الله في ظله)، وهم بعد ذلك وقبله الفئة التي يمكن **أن تؤثر وتقود... فهم بالتالي رعاة الأمة (وكلكم راع وكلكم مسئول عن** رعيته).

والسؤال الذي يطرح نفسه إزاء ظاهرة التوقف في الحضارة الإسلامية يتشعب إلى أسئلة.. ما هو دور الشباب اليوم ؟ ما هي واجباتهم ؟ وكيف يعملون في مرحلة التوقف الحضاري ؟ ثم كيف يتمكنون من **إتمام** العمل بإخراج الحضارة الإسلامية إلى مرحلة العطاء الكامل ؟

إن أجوبة هذه الأسئلة ليست بلغز ولا بأحاجي إنما هي مجموعة الأعمال التي لا مناص منها في سبيل الهدف الأسمى... المرسوم...

إن أسباب التوقف الحضاري التي باتت بصورها العامة معروفة مدركة هي التي ترسم معالم الطريق.

الوعي الحضـــاري الأصيل :

فلا بد من **وعي حضاري أصيل** عند مجموع الأمة، إزاء تصورات الإسلام العامة ومفاهيمه الأصيلة... أي لا بد من إزالة الغبش عن أعين الناس ليروا بصدق أكثر الإسلام في نواحيه المختلفة.

وحتى نصل إلى هذا الوعي لا بد من **تجاوز** أمور ومن مجابهة أمور ومن تأصيل أمور أخرى **تجاوز** لذواتنا **ومجابهة** لاعدائنا **وتأصيل** لأفكارنا ومبادئنا وقضايانا.

وخط المجابهة والتجاوز والتأصيل حركة دائمة متجددة معطاءة ولا يقود هذا الخط إلا الطليعة الواعية لوجودها والمدركة لتطلعاتها والمقررة **بإرادتها**..

إن ظاهرة الطليعة هذه تعني هنا كل الإفرازات الحضارية التي أفرزتها وتفرزها الحضارة الإسلامية - وهي في حالة التوقف عن العطاء - تلك الإفرازات التي حددناها - آنفاً - بالعلماء والمفكرين والقياديين والحركات

والمنظمات والاتحادات الإسلامية من جهة وبالمؤسسات الثابتة الأخرى كالمساجد والمعاهد والحج والزكاة من جهة أخرى.

الظواهر الحضارية تقود خط المجابهة :

إن هذه الظواهر الحضارية التي تعطيها الحضارة الإسلامية وهي في مرحلة التوقف عن العطاء هي التي تقود خط المجابهة وهي التي تتمحور حولها كل الطاقات والقدرات من أجل حفظ الحضارة الإسلامية وفي سبيل إخراجها إلى مرحلة العطاء بإقامة ضوابطها باستئناف الممارسة الإسلامية العاملة على الأرض أو حيز منها...

وهنا بصورة عامة لا بد من إعطاء الشباب دوراً أساسياً في تحريك الظواهر الحضارية وتجنيبها الأخطاء وتطويرها نحو ممارسة غاياتها ودفعها إلى بلوغ أهدافها المرتجاة.

فإذا كانت الظواهر الحضارية هي التي تقود خط المجابهة والتجاوز والتأصيل فإن الشباب وهم العمود الفقري لهذه الظواهر عليهم أن يمارسوا دورهم في الحماية والعطاء والتطوير.

التحدي أمام الشباب :

ولعل أبلغ تحد يطرح في مواجهة هؤلاء الشباب يكمن في عمليتي الدفع والتطوير، فمن الملاحظات الأساسية إزاء الظواهر الحضارية السالفة الذكر **أن بعضها لا يعيش زمانه فتبدو كأنها تعيش لعصر غير عصرها أي** كأن الزمن قد تجاوزها وباتت الحضارة الإسلامية مسئولة عن إفرازات جديدة تكون قادرة على القيام بالدور الخطير.

ذلك أن بعض هذه الظواهر ـ كبعض الحركات والمنظمات ـ تهرم بفعل هرم يصيب قادتها أو بعضهم فيعجز هؤلاء عن أداء الدور الطليعي أو عن سد الثغرات في خط المجابهة والتأصيل فيتقوقعون على أنفسهم ويغلقون على حركاتهم أبواب التطوير بحجة أن ما يرونه هو الصحيح وأن على أهل تلك الحركة أن يروا بمناظيرهم... هنا تكون الحركة ـ وقد أصيبت في طليعتها ـ أمام خيارات هامة، إما الخضوع لرأي القادة الهرم فتتقوقع معهم،

وإما أن تنهض الحركة فتزيح القادة الجامدين لتنطلق هي مع خط المجابهة والتغيير، وإما أن يتصادم أهل التغيير وأهل الجمود في الحركة الواحدة فيقع الخلاف وتنشق الحركة إلى حركات.

ولعل هذا التفاعل الذاتي في الحركات هو شأن طبيعي إلا أنه يغدو مع الظواهر الحضارية خطير للغاية... ذلك أنه لا يكفي الحركات الإسلامية أو سائر الظواهر الحضارية أن تتواجد تحت عنوان إسلامي، ولا يكفي قادتها أو الطليعة من الإيمان بالإسلام ومعرفة الأصول الإسلامية وإدراك المفاهيم والتصورات الإسلامية فلا بد لهم أيضاً من ممارسة ومن تفاعل، ممارسة تلك المفاهيم بالقدر الممكن، والتفاعل مع الأحداث وبالأحداث المحيطة بهم والاطلاع الواسع والمعرفة الدقيقة (بأرضية العدو) ـ كما يقال ـ وبأساليب العصر وطرقه والإفادة منها على بعد مدى في خدمة الظاهرة الحضارية التي يمثلونها.

طبيعة العقلية الحركية :

غير أننا لدى استقرائنا لأوضاع بعض الظواهر الحضارية الحركية ولدى تساؤلنا عن أسباب عدم تمكنها من إحداث الانقلاب نلاحظ أن طبيعة « عقليات » القيادات تتحمل جزءاً من إفشال المهمات التغيرية المناطة بها، نقول جزءاً لأن أجزاء أخرى تعود إلى ظروف وملابسات لا يكون قادة تلك الظواهر بمسئولين عنها.

ونقول هنا ـ بصورة عامة أيضاً ـ إن على الحركات والمفكرين الإسلاميين الانفتاح ورفض التقوقع ومعالجة الشئون الحركية ووسائل التغيير ضمن عطاءات القاعدة الشهيرة (رحم الله رجلاً عرف زمانه واستقامت طريقته) ذلك أن أخطر ما يواجه الشباب والحركات والمؤسسات تبلد في الحس المسئول يوصل إلى ما يمكن أن ننعته بالعقم القيادي، وهو ظاهرة خطيرة تقضي على الحركة وعلى تفاعلاتها وتحيلها إلى أعمال روتينية لا تجدد فيها ولا حياة، ويجعل الظاهرة الحضارية أقرب إلى طور الإفلاس الموصل إلى الاستهلاك والدمار، وبمثل هذا العقم يستحيل على الحركة أن تحدث التغيير المطلوب أو أن تعيش لترى انعتاق الحضارة الإسلامية من

مرحلة التوقف الذي ارتضته لنفسها وهو انعتاق لا يكون حتى ترتفع الطلائع الريادية في إفرازاتها المثمرة إلى المستوى المطلوب.

الارتفاع إلى المستوى :

أمر واحد كما يقول سيد قطب ـ يجب أن يكون في حسابنا... إن أمامنا كفاحاً مريراً شاقاً طويلاً... كفاحاً مريراً يجب أن نستعد له استعداداً طويلاً، يجب أن نستعد له بأن نرتفع إلى مستوى هذا الدين... نرتفع إلى مستواه في حقيقة إيماننا بالله... في عبادتنا لله... ونرتفع إلى مستواه في وعينا بما حولنا ومعرفتنا لأساليب عصرنا، ورحم الله رجلاً عرف زمانه واستقامت طريقته، ونرتفع إلى مستواه في إحاطتنا بثقافة عصرنا وحضارته وممارسة هذه الثقافة وهذه « الحضارة » ممارسة اختيار واختبار. فإننا لا نملك الحكم على ما ينبغي أن نأخذ منها، وما ينبغي أن ندع إلا إذا سيطرنا عليها بالمعرفة والخبرة، فمن المعرفة والخبرة نستمد سلطان الاختيار[٢٥].

من هنا كان لا بد من عطاءات متجددة ولا بد من تدريب هذه الطلائع وتأهيلها للقيام بدورها في خط المجابهة والتطوير.

إن من أهم المستلزمات والاحتياجات هي تطوير الكفاءات القيادية بين الشباب... فبإمكان هؤلاء القيام بالكفاح المرير ودفع سائر الظواهر الحضارية الإسلامية إلى منتهاها.

تحريك أطر التحديات الحضارية :

ومن المسئوليات الضخام الملقاة على كواهل الشباب القائد تحريك أطر التحديات التي تطرحها الحضارة الإسلامية. فالتحديات التي رأيناها لا تتحرك إلّا بجهد جبار يليق بهذه التحديات وإلّا تحولت هذه التحديات إلى طروحات أو مقولات... وبالتالي تفقد زخمها وأثرها في التحولات المرتقبة سواء في منطقة الحضارة الإسلامية أو في الحضارات الأخرى.

إن بدايات هذا التحريك تبدأ بنزع ما يسمى بحالة التخلف الحضاري أو الانبهار بحضارات الآخرين أو إحساس العجز والخور أمام التيار الحضاري الزاحف وهي حالة أناخت بثقلها على جسم الأمة.

وحتى يتمكن الشباب من تدميرها وزحزحتها عن صدور الناس لا بد من تخطيط وصبر.

وجميل هنا أن نسمع نداء الدكتور « دور لويس روفاس » أستاذ علم النفس في كلية الطب في غرناطة : (انصحوا المبهورين بحضارة الغرب أن يعيدوا النظر فيها، احذروا يا عرب يا مسلمون أن تخلطوا تصوراتكم بالتصورات الأوروبية، أنتم أهل حضارة عريقة وهي، وإن كانت لم تصل من الناحية المادية إلى مستوى الغرب، إلّا أن لها مقومات لا تملكها حضارة بلداننا الأوروبية، إن الإنسان حاول أن يؤله نفسه بواسطة العلم والعلم وحده ولكنه وجدها أحقر وأقل مما كان يعتقد، فلا تتخلوا عن نزعاتكم المكتسبة من تصوراتكم الإسلامية ولا تتطلعوا إلى الحضارة الغربية تطلع الممجد لها المعظم لشأنها : إنها ستبلى)[٢٦].

وتأتي هذه البدايات تأصيلاً لقاعدة (أنا مسلم إذن أنا متحضر) وما يستتبع هذه القاعدة من توضيح المفاهيم الإسلامية وتصوراتها وضرورة ممارستها وعلاقة ذلك كله بالتفاعل الحضاري.... فلا يمكن أن تتجدد طاقات التفاعل خاصة في مراحل الانطلاق الأولى دون مشاعر الاستعلاء الإيمانية وما يمكن أن تفرزه من عطاءات ومواهب وقدرات، ولا ريب أن قاعدة (أنا مسلم إذن أنا متحضر) تتكفل بمثل هذه الامدادات الاستعلائية.

وهكذا تتوالى التحديات الحضارية في سلسلة متكاملة حتى يدرك معها الشباب أنهم أمام تحول حضاري مرتقب وأن عليهم أن يقوموا بكل عبء وبكل تنظيم وبكل تغلغل في جسم الأمة وفي مؤسساتها من أجل إيجاد واقع حي تترعرع فيه تحديات وطروحات الحضارة الإسلامية.

واجب الشباب :

ومن هنا ينشأ واجب الشباب المسلم الواعي القائد في (حضرنة) مؤسساته الرسمية والشعبية في بلاده وفق المفهوم الإسلامي، وبمعنى آخر تطويع مؤسساته ومجتمعه لطروحات الحضارة الإسلامية. عندها تتمكن هذه الطروحات من التحول إلى تحديات تنتج تفاعلات مهمة على كافة

الأصعدة، وعلى هذا فإن دور الشباب يغدو مرتقباً إذ أنه هو الذي يربط المرافق الاجتماعية والاقتصادية والمالية والعمرانية والتربوية والسياسية والتخطيطية والصحية والإعلامية والقانونية والقضائية بالمقولات الإسلامية فتأتي ضمن إرادة التحديات الحضارية لتزيد في فرز الظواهر الحضارية وفي قدرتها على الحياة والصمود والتمكين والمجابهة. ولا ريب أن مثل هذه المسئوليات الضخام لا بد، إذا ما أريد لها حسن التنفيذ وتجاوز الأخطاء والإفادة من الظروف واستمرار المدد الشبابي والعطاءات القادرة.. لا بد لتلك المسئوليات من التنسيق والتجاذب والتعاون والتعاضد... إذ لا يجوز في المنطق الإسلامي كما في أساليب هذا الزمن التفرد والتشتت لأن هذا يؤدي إلى الضياع وفي أسوأ الظروف إضعاف حجم الظواهر الحضارية التي تفرزها الحضارة الإسلامية بسخاء.

مركز للدراسات الحضارية :

من أجل هذا ومن أجل التفاعل الأفضل كان لا بد من (مركز للدراسات الحضارية) يتولى مهمات الدفع الحضاري، والتنسيق بين مختلف الظواهر الحضارية التي أفرزتها أو تفرزها الحضارة الإسلامية، والقيام بالحوار بين الحضارات، والتعريف بالحضارة الإسلامية، ورصد أوضاع الحضارات الأخرى، وتحديد كثير من المصطلحات الحضارية، وإصدار (موسوعة الحضارة الإسلامية)، على أن يستخدم هذا المركز كافة الأساليب التكنولوجية والفنية وأن يوضع بأيدي نخبة قيادية قادرة.

مؤسسة التنمية الشبابية وتطوير الكفاءات القيادية

وأيضاً لا بد أن تسير في خط متواز مع مركز الدراسات الحضارية هذا (مؤسسة التنمية الشبابية وتطوير الكفاءات القيادية) ضمن معطيات أساسية وأطر خاصة تتكفل بمد وإيجاد طلائع التغيير الحضاري المرتقب، ومن أهم ما ينبغي للمؤسسة أن تقوم به هو اختيار مجموعات شبابية من المتفوقين وفي كل المجالات لإخضاعهم، وفي دورات طويلة، لمبادرات تأصيل مرتكزات الشخصية الإسلامية ولتنمية الكفاءات القيادية، كما أن على المؤسسة أن تتعهد فتية موهوبين منذ نعومة أظفارهم لتترقى معهم صعداً إلى

تخصصات تختارها هي وذلك في محاولة لتخريج قادة ونخبة تتمكن بواسطتهم من رفد الظواهر الحضارية بموهوبين لم يضيعوا في جوانب المجتمع أو يهملوا في زوايا النسيان...ولا بد ـ كمرحلة أولى ـ من لجان تدرس هذين المقترحين، تفصل كافة معطياتهما ومراحل العمل فيهما وموازناتهما تمهيداً لإخراجهما إلى حيز العمل والوجود.

المراجع

(١) هاولز في كتابه ما وراء التاريخ صفحة ١٤٨.

(٢) تايلور عن بحث الطاقة المنشور في مجلة عالم المعرفة ـ المجلد الخامس ١٩٧٤م.

(٣) أحمد أبو زيد المرجع السابق.

(٤) الحضارة تحت التجربة ـ انظر كتاب الحقيقة الحضارية ٢٢ و ٢٨.

(٥) كتاب الحقيقة الحضارية.

(٦) سيد قطب (معالم في الطريق) فصل (الإسلام هو الحضارة).

(٧) محمد قطب في محاضرته في المؤتمر الثالث للندوة العالمية.

(٨) مالك بن نبي في مؤتمر الشباب الإسلامي المنعقد في الرياض.

(٩) الحضارة الإسلامية ـ أبو الأعلى المودودي صفحة ٢٨٨ أسسها ومبادؤها.

(١٠) نظام الإسلام لتقي الدين النبهاني ٥٩/٦٠.

(١١) حسين مؤنس في كتابه الحضارة صفحة ٤٣.

(١٢) المرجع السابق.

(١٣) كتابنا (الطريق إلى حكم إسلامي).

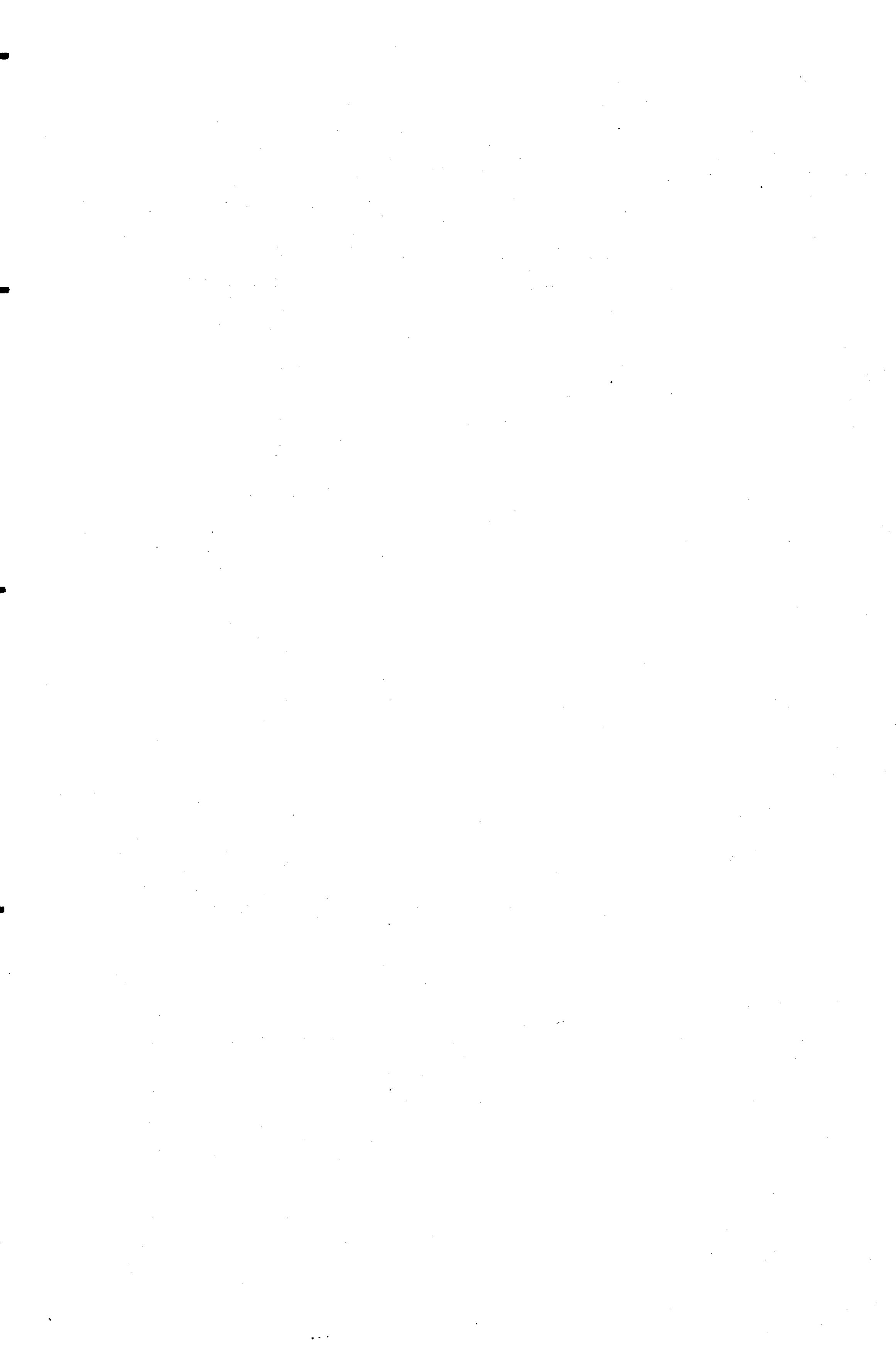
(١٤) حسين مؤنس كتابه (الحضارة) صفحة ١٥.

(١٥) كتابنا (الطريق إلى حكم إسلامي).

(١٦) الحضارة للدكتور حسين مؤنس صفحة ١٨ و ١٩.

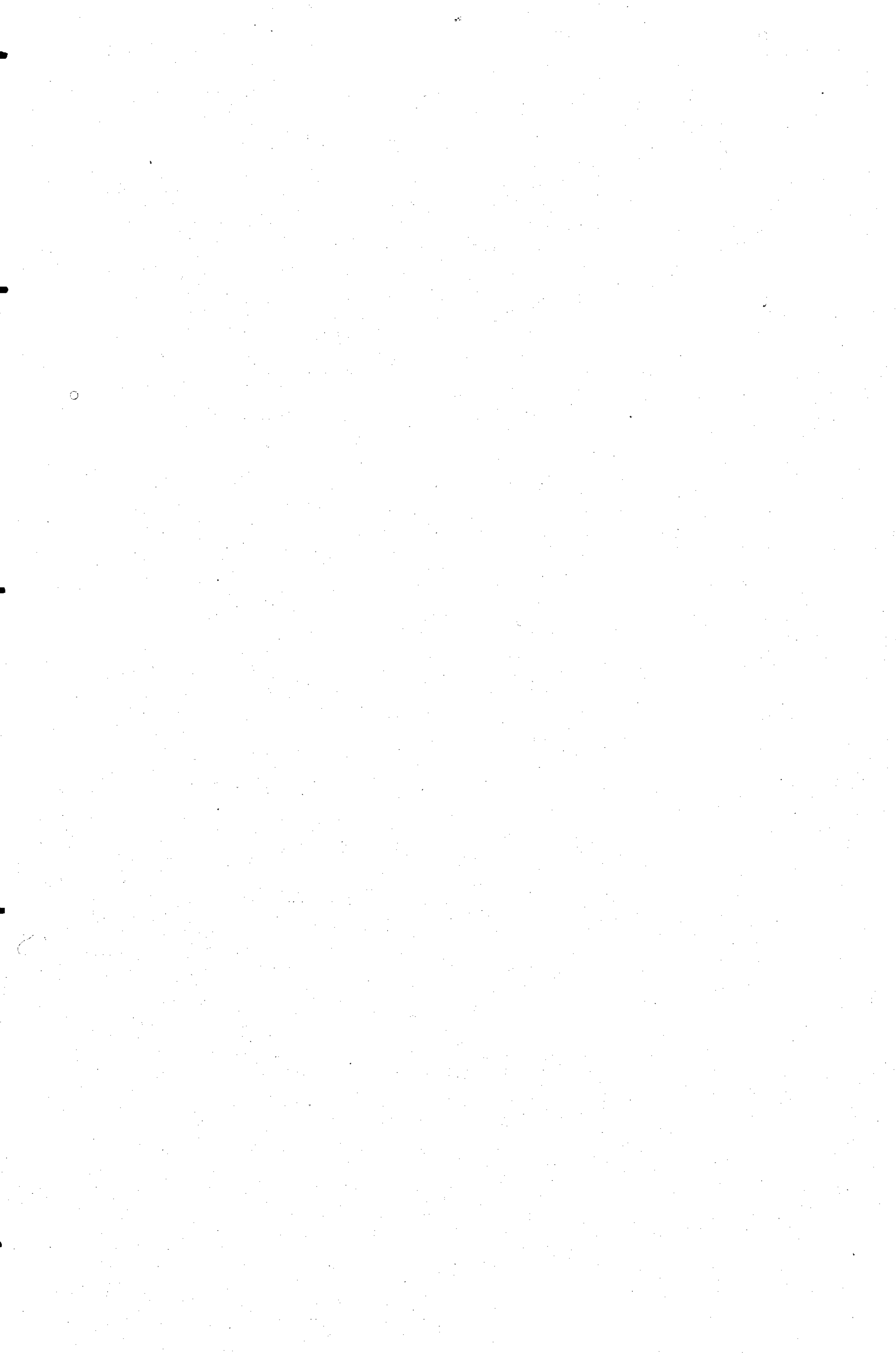
(١٧) الطريق إلى حكم إسلامي.

(١٨) المرجع السابق ص ٣٩ وما بعدها.
(١٩) المرجع السابق فصل (الهجوم الماكر).
(٢٠) عن جريدة النهار البيروتية تاريخ ٧٩/١/٦.
(٢١) المودودي في (الحضارة الإسلامية) في الصفحتين ٨٥ و ٨٧.
(٢٢) الغرب والشرق الأوسط لبرنارد لويس صفحة ٣١.
(٢٣) أنور جندي في (حضارة الإسلام).
(٢٤) المرجع السـابق.
(٢٥) المستقبل لهذا الدين صفحة ١١٩.
(٢٦) عن حضارة الإسلام لأنور جندي.



الفكر العلمي الإسلامي والحضارة الإنسانية

للدكتور عبد الحليم منتصر



بسم الله الرحمن الرحيم

نعني بالعلم في هذا الحديث، ما اصطلح على تسميته، بالعلوم الطبيعية، سواء كانت بحتة كالرياضيات والفلك والكيمياء والطبيعة (فيزيقا) والنبات والحيوان والجيولوجيا، أو تطبيقية كالطب والصيدلة والزراعة والهندسة والبيطرة وما إليها، إنها العلوم التي تحتاج إلى تجربة ومشاهدة واختبار.

إنها محاولة متواضعة لعرض إنجازات العلماء العرب، فيما سمي بالعصر الإسلامي، في مجال العلوم الطبيعية، وكيف لعبت هذه الإنجازات العلمية دورها الرائع على مسرح الحضارة الإنسانية، وكيف كانت الركيزة التي تسامق فوقها هذا الصرح الحضاري الشامخ، حتى قال المنصفون بحق : إن الينبوع الأول للحضارة في مجال العلوم الطبيعية، إنما تفجر في العصر العربي الإسلامي، وإن الأمة العربية في العصر الإسلامي، هي التي قدمت لأوروبا زاد نهضتها العلمية، وهي النهضة التي تعيش الإنسانية في فيضها وظلالها في العصر الحاضر، عصر الذرة والالكترون والرادار والمذياع والتلفاز والأقمار الصناعية وغزو الفضاء والوصول إلى القمر والتجوال بين الكواكب.

أما غير المنصفين من مؤرخي العلم، فإنهم يتجاهلون إطلاقاً هذه الحقبة الوضاءة، ويؤرخون للعلم بعصرين، لا ثالث لهما، هما العصر

الإغريقي، وعصر النهضة الأوروبية، وهم يغالطون بهذا التأريخ مغالطة، لا تليق بمؤرخ يستمد من الحقيقة، ويبغي وجه الحق، وينشد الأمانة في النقل والعرض.

العصــر القديــم :

لقد كانت ثمة حضارات تسبق العصر الإغريقي، هي تلك التي رفت على ضفاف نهـر (النيل) في مصر الفرعونية، وما بين النهرين (دجلة والفرات) عند الآشوريين والبابليين والسومريين. وما وراء النهر (سيحون) في الهند والصين، فقد عرف هؤلاء وأولئك علوماً وصناعات لم يكن للإنسانية بها عهد قبلهم. عرفوا الطب والصيدلة والتحنيط والفلك الزراعة، وصنعوا الورق والزجاج والأصباغ، وبنوا المعابد والهياكل والقصور، بل والمدارس والجامعات، وعرفوا الكتابة والنقوش والرسوم والموسيقى وما إليها.

العصــر الإغريقي :

ثم انتقلت هذه المعارف إلى الإغريق، وكان علماء العصر الإغريقي، قد تتلمذوا على علماء العصر القديم والحضارات القديمة، وقد اشتهر الإغريق بحبهم للعلم والفلسفة، وعزوفهم عن امتهان الحِرَف اليدوية، ومن حسن حظهم أنهم سجلوا علومهم وفلسفتهم بلغة ظلت مقروءة ومكتوبة عدة قرون (اليونانية القديمة)، على حين اندثرت لغات العصر القديم من هيروغليفية وغيرها، ولم تكد تفك طلاسمها إلا في القرن الماضي. واشتهر من علماء العصر الإغريقي عدد غير قليل كان لهم الفضل كل الفضل في وضع أسس عدد من العلوم الطبيعية، من أمثال « طاليس » صاحب نظرية العناصر، و « أبقراط » أبو الطب، و « فيثاغورس » في الهندسة، و « ديمقراطيس » أول من تكلم عن الذرة، ثم « سقراط » أبو الفلسفة، و « أفلاطون » أول من أنشأ الأكاديمية، وهو مكان ظليل استأجره أو ابتاعه من « أكاديموس » خصصه ليلقى فيه تلاميذه في أوقات منتظمة محددة، يعلمهم العلم والحكمة والفلسفة، وهي أول معهد علمي معروف في التاريخ، لم يسبقه سوى جامعة « أون » أو عين شمس القديمة في مصر الفرعونية، التي أنشئت منذ ألفي سنة قبل الميلاد، على حين أن أكاديمية أفلاطون

أنشئت في القرن الرابع قبل الميلاد، ثم « أرسطو » أبو العلم والفلسفة الذي ترك مؤلفات عديدة في الطب والفلسفة والكون والأخلاق والسياسية والنبات والحيوان والمنطق، وهو الذي أنشأ الليسيوم على غرار أكاديمية أستاذه أفلاطون.

العصر الإسكندري :

وبموت الإسكندر، وموت أرسطو من بعده، اضطهد العلماء، واضطروا للهجرة من اليونان، وكانت هجرتهم شبه جماعية إلى الإسكندرية، وكانت مصر من نصيب البطالمة الذين اشتهروا بحبهم للعلم ورعايتهم للعلماء، وكذلك انتقل مركز الثقل العلمي من أثينا إلى الإسكندرية، وأنشئت جامعة الإسكندرية القديمة، التي اشتهرت في التاريخ باسم مكتبة الإسكندرية، وقد كانت في الواقع جامعة بكل ما تحمل الكلمة من معنى، تشمل معهداً للبحث والتعليم، ومكتبة تضم مئات الألوف من الكتب، ومتحفاً، يضم عينات نباتية وحيوانية ومعدنية، وقد ظلت منارة للعلم عدة قرون، إلى أن أحرقت قبيل الفتح العربي الإسلامي، واتهم « عمرو بن العاص » ظلماً بإحراقها بعد أن استأذن الخليفة « عمر بن الخطاب ».

والواقع أنها رواية مدسوسة رواها القس « أبو الفرج المالطي »، ونقلها عنه المؤرخون دون تحقيق أو تمحيص، إذ الواقع أن المكتبة قد أحرقت قبل الفتح العربي، حتى قال أحد المؤرخين، إن منظر الرفوف الفارغة، لمما يثير الشجن لدى محبي العلم. واشتهر من علماء العصر الإسكندري بطليموس وجالينوس واقليدس وأرشميدس وديسقوريدس وغيرهم.

وكان قد وقع اضطهاد آخر على العلماء، من أحد الأباطرة المتعصبين للمسيحية، وكان كثير من العلماء ما زال مبقياً على وثنيته فاضطر العلماء للهجرة مرة أخرى، وكانت وجهتهم هذه المرة، نحو الشرق العربي، وتلبثوا نحو قرن من الزمان في مدينة « الرها »، ومنهم من انتقل إلى « جنديسابور » في فارس.

العصـــر الإسـلامي :

ثم ظهر الإسلام، وسطع، وأضاء بنوره وقيمه وخلقه دياجير الجاهلية، وإن معجزته الخالدة كتاب، هو القرآن الكريم، وإن أول آية « اقرأ »، وإن كثيراً من آيه يحض على طلب العلم والمعرفة، والنظر في ملكوت السموات والأرض، وإن كثيراً من الأحاديث النبوية الشريفة لتحض كذلك على طلب العلم والمعرفة، وأقواله عليه الصلاة والسلام في هذا المجال، لا يحصيها إلا العارفون، مثل القول بأن : طلب العلم فريضة على كل مسلم، وما يزال طالب العلم عالماً، حتى إذا ظن أنه علم فقد جهل. واطلبوا العلم ولو في الصين، واطلبوا العلم من المهد إلى اللحد. ويوم القيامة يوزن مداد العلماء بدماء الشهداء. والناس من أمتي ثلاث فئات : عالم ومتعلم والباقي همج. وليس من أمتي من ليس بعالم ولا متعلم، ولموت قبيلة أيسر من موت عالم.

رسالــة المساجــد :

وأخذ الناس بأسباب العلم والتعليم، وأدت المساجد رسالتها في هذا المجال، لقد أدت ما تؤديه الجامعات ومعاهد العلم والمدارس في العصر الحاضر. فكان مسجد قباء في المدينة، ومسجد المنصور في بغداد، والجامع الأموي بدمشق، والجامع الأزهر بالقاهرة، وجامع القيروان بتونس، وجامع القرويين بالمغرب، وجامع قرطبة بالأندلس، والجامع الكبير في صنعاء، وغيرها من المساجد في طول البلاد الإسلامية وعرضها، كانت منارات للعلم والدين معاً.

وامتدت الدولة الإسلامية من حدود الصين شرقاً إلى حدود فرنسا غرباً في أقل من قرن من الزمان، إنما تم ذلك بالإسلام أولاً وبالعلم ثانياً، لقد أدت المساجد رسالتها إلى جانب منازل العلماء وقصور الخلفاء والأمراء والمكتبات، وذلك قبل إنشاء المدارس النظامية.

وسادت سماحة الإسلام وتعاليمه وقيمه الخلقية الدولة الإسلامية من أقصى شرقيها إلى أقصى غربيها، حتى ليقول أحد المستشرقين : إن كل طالب علم، من الملايو في شرق آسيا إلى ساحل العاج في غرب أفريقيا، يجد مكاناً يتعلم فيه، ومعلماً يعلمه، وراتباً يقوم بأوده.

ويقول مستشرق آخر : إن أحدهم ليقطع القارات الثلاث، وليس له من دابة تحمله سوى قدميه، وما ذلك إلا ليلقى عالماً أو يبحث عن كتاب، ثم يعودون إلى أوطانهم كما يعود النحل محملاً بالعسل.

دور المكتبات :

ولعبت المكتبات هي الأخرى دورها العظيم في نشر العلم والمعرفة في أرجاء الوطن العربي الإسلامي، وأنشأ الرشيد بيت الحكمة في بغداد، كما أنشئت دار الحكمة في القاهرة، ودار العلم في الموصل، ومكتبات أخرى كثيرة في العواصم العربية، في الأندلس، في قرطبة والشام واليمن، بها مئات الألوف من الكتب، ولا تخلو قاعاتها في أية ساعة من ساعات الليل والنهار من عدد من العلماء يعلمون أو ينسخون أو يترجمون، وأوقف الحكام والولاة على هذه المكتبات أوقافاً سخية ثابتة لا تزول بزوال الحاكم.

ورعت الدولة في كل رجاء من أرجائها ـ العلم والعلماء، وأنفقت بسخاء على العلم والعلماء، وكان العلماء حيثما يحلون ويرتحلون، يجدون إكراماً وكرماً بالغين.

عصـر الترجمـة :

ولأول مرة في التاريخ نجد أمة غالبة غازية منتصرة، تطلب من الدول المغلوبة، كغرامة حربية، كتباً ورسائل ومؤلفات علمية، بدلاً من الجزية والمال والضريبة، وهكذا عمرت خزائن الحكمة والمكتبات بمئات الألوف من الكتب في كل ألوان المعرفة، وبكل اللغات المعروفة في ذلك العصر، من يونانية وقبطية وفارسية وهندية. وبدأ عصر الترجمة، وبلغ أوجه في عصر المأمون، الذي قيل إنه كان يدفع وزن ما يترجم ذهباً. وتقاطر المترجمون على بغداد من أرجاء الوطن العربي، يترجمون وينسخون، فنقلوا إلى العربية كل العلوم المعروفة من مؤلفات أبقراط وجالينوس وديسقوريدوس وأقليدس وأرسطو، وأرشميدس وبطليموس وثاون وهيروفليس وغيرهم من علماء العصرين الإغريقي والإسكندري.

عصر الإبداع العلمي :

ثم بدأ عصر الإبداع العلمي، حيث سطع في سماء الحضارة الإنسانية، عشرات ومئات من العلماء العرب والمسلمين، يقرنون إلى أعاظم العلماء في كل عصر وآن من أمثال الخوارزمي والفارابي وابن الهيثم، وابن سينا، والبيروني، والغافقي، والبغدادي، وابن يونس، والصوفي، وابن البيطار، والرازي، والزهراوي، وابن النفيس، والخازن، وابن ماجد، وابن زهر، والمقدسي، وابن رشد، والكندي، وداود الأنطاكي، وجابر بن حيان، والبوزجاني، وابن مسكويه، وابن العوام، وابن وحشية، وحنين بن اسحق، وابن ماسويه، وثابت بن قرة، وابن البطريق، وابن العباس، والعاملي، وابن الشاطر، والكاشي، والدينوري، وغيرهم كثير ممن تعد مؤلفات العالم منهم لا بالآحاد أو العشرات بل بالمئات. فكُتُبُ ابن سينا وابن الهيثم والبيروني وجابر والرازي والكندي، تزيد على المائتين لكل منهم، تتناول فروع المعرفة المختلفة من طب وكيمياء ونبات وحيوان وزراعة وصيدلة وغيرها من رياضة وذلك إلى جانب الفقه والفلسفة والمنطق وغيره.

وقد ساد الاعتقاد ردحاً طويلاً، أن العلماء العرب والمسلمين، كان إنتاجهم أغلب الأمر في مجالات العلوم الدينية والأدبية والفلسفية، من فقه وتفسير وحديث وتوحيد أو فلسفة ومنطق وشعر ونثر، مع أن مؤلفاتهم في مجالات العلوم الطبيعية من رياضيات وفلك وحساب وجبر، وهيئة، وميكانيكا، وطبيعة، وكيمياء، ونبات، وحيوان، وطب، وزراعة، وصيدلة، وبيطرة تفوق كثيراً مؤلفاتهم وإنتاجهم في سائر المعارف الأخرى.

بعض انجازات العلماء العرب في العصر الإسلامي

في مجال العلوم الطبيعية :

وليس من اليسير الإحاطة بإنجازات العلماء العرب في العصر الإسلامي في مجالات العلوم الطبيعية، وسنكتفي بالإشارة إلى بعض هذه الأعمال في هذه العجالة.

فهل ينسى فضل الخوارزمي في نقل الأرقام الهندية (١، ٢، ٣) والأرقام

اللاتينية (1, 2, 3) إلى العربية واستعمالها بدلاً من حساب الجمل الذي كان سائداً قبلاً.

ثم كان العرب أول من استعمل الكسر العشري، والصفر، والنظام العشري، **وابتداع ما يعرف بالجذر الأصم والكمية التخيلية واستعمال الرموز** في المعادلات الرياضية والجبر.

يقول أستاذنا المرحوم الدكتور مشرفة، صحيح أنه كانت هناك معلومات متناثرة مفككة في الحساب والجبر، ولكن لم يكن هناك من علم يسمى علم الحساب أو علم يسمى علم الجبر، **وأنه** كان ينبغي أن تنقل هذه المعلومات إلى عبقري كالخوارزمي لكي ينسقها ويعلمها للناس أجمعين.

وهل يمكن أن ينسى فضل جابر بن حيان، شيخ الكيميائيين العرب، وابتكاره لما نسميه الآن قانون الأوزان المتكافئة، وكان يسميه علم الميزان، ثم تحضيره لعشرات المواد الكيميائية التي نيفت على السبعين، وكان يسميها : زنجار، وزنجفر، وتوتيا، وماء الذهب، وما إلى ذلك من أسماء تعرفها الأجيال الصاعدة باسم : كبريتات أو كبريتور أو حمض وغير ذلك. وكيف كان يوصي تلاميذه بالتجربة واتباع التعليمات جيداً، **لأن** لكل صنعة أساليبها. وتكرار التجربة حتى تتطابق النتائج، والتدقيق وعدم العجلة.

وهل يجوز أن ننسى فضل ابن الهيثم في كشفه لما يسمى بالطريقة العلمية التي تنسب ظلماً إلى السير فرانسيس باكون، مع أن ابن الهيثم فيما يقول أستاذنا المرحوم مصطفى نظيف : « لقد أدرك من دقائقها ما لم يدركه باكون، بل لقد سما عليه سمواً »، ثم فضله في إبطال نظرية الشعاع في الضوء والإبصار، وهي التي ابتدعها بطليموس، الذي قال بأن الإبصار يحدث بأن يخرج شعاع من البصر، ثم يسقط على المبصر، ثم يرتد إلى البصر فنرى الصورة، فقال ابن الهيثم في بساطة : هل إذا نظرت إلى نجم في السماء، خرج شيء من بصري وقطع هذه الآلاف المؤلفة من الأميال ثم ارتد إلي فأرى الصورة، هذا شيء في غاية الشناعة بل في غاية الاستحالة، **وقال إن الضوء يسقط من المبصر على العين مباشرة فترى الصورة. كذلك**

أبطل ابن الهيثم ما سمي قديماً بالسرعة الآنية للضوء، فقال إن الضوء ينتقل في زمان، وأجرى من التجارب ما أثبت به سرعة الضوء، وبحوثه في المرايا المحدبة والمقعرة، وزوايا السقوط والانعكاس والانكسار، وكذلك بحوثه في الرياضيات والهندسة معروفة مشهورة حتى ليقول المرحوم الدكتور مشرفة « إن المطلع على كتاب (حل شكوك أقليدس) لابن الهيثم، يجد فيه رياضياً بحتاً، بأدق ما تحمل الكلمة من معنى وأبلغ ما تصل إليه من حدود ».

وهل يليق أن ننسى فضل « الخازن » في قوله بالجاذبية، وأن الأجسام تقع على الأرض بسبب قوة جاذبية موجودة في مركز الأرض، وأن هناك علاقة بين وزن الجسم الساقط وسرعة سقوطه، والمسافة التي يقطعها. ويقول المرحوم الأستاذ مصطفى نظيف : إن صاحب كتاب ميزان الحكمة (الخازن) كان يعلم هذه العلاقة، كما كان يعلم أن وزن الجسم في الهواء يقل عن وزنه الحقيقي، وأن للهواء قوة رافعة دافعة كالسوائل، وكانت بداية معرفة الضغط الجوي.

وما قدمه « الرازي » من معارف طبية، ومن ممارسة للتشريح، وما ذكره من معلومات في كتبه الحاوي والمنصوري ومحنة الطبيب وطب الفقراء، وابتكاره لخيوط الجراحة، والتجربة الضابطة، والتشخيص التفريقي، والطب النفسي، وتمييزه المبكر بين الجدري والحصبة، وقوله : « على الطبيب أن يرجي مريضه الشفاء، حتى ولو كان ميئوساً منه، وألا يعبس في وجهه، وألا يسار أحداً أمامه، لأن مزاج الجسم تابع لمزاج النفس ».

وكشف « ابن النفيس » للدورة الدموية الصغرى بقوله : إن الدم يتجه من القلب إلى الرئة ليجدد الهواء. ومع ذلك فإن الأجيال الحديثة لا تكاد تعرف إلا ما قيل لهم من أن مكتشف الدورة الدموية هو « وليم هارفي » و « سيرفنتوس »، وتصحيحه لخطأ جالينوس، الذي كان يقوم بتشريح أجنة ميتة، ويظهر أن أحدها كان به تشوه خلقي بوجود ثقب في القلب بين البطين الأيمن والبطين الأيسر، فظن أنه لنقل الدم بين أجزاء القلب.

وتصحيح البغدادي لخطأ آخر لجالينوس، الذي قال بأن عظم الفك الأسفل يتكون من عظمتين لم تلتحما. ولكن البغدادي، وكان يلقي درسه

في الطب في الأزهر ظهر كل يوم، وكان يشرح جثثاً لأشخاص مكتملي النمو، فقال إن عظمة الفك الأسفل واحدة لا اثنتين. وهل يجحد فضل ابن سينا على الطب والأطباء، إنه من أذكياء العالم المعدودين، وظل كتابه « القانون » يدرس في جامعات أوروبا طيلة قرون، وشهرته في الطب، شهرة كتاب « سيبويه » في النحو، وكتاب « أرسطو » في المنطق و « بطليموس » في الفلك (المجسطي). لقد ترجم القانون إلى اللغة اللاتينية واللغات الأجنبية، وظل مرجعاً للدراسات الطبية في جامعات أوروبا ستة قرون.

وكيف ينكر فضل « الزهراوي »، فخر الجراحة العربية، وأكبر جراحي الإسلام، كما يقول « سارفون »، وأدواته الجراحية التي ابتكرها، والعمليات الجراحية التي قام بإجرائها، وكتابه « التصريف لمن عجز عن التأليف »، وما جاء به من صور للآلات الجراحية التي ابتدعها، وتوصيفه لما يسمى ظلماً « توصيفة والخر »، والأحرى بها أن تسمى توصيفة الزهراوي. وما ابتكره من وصفات دوائية ومن عمليات في طب الأسنان. يقول أستاذنا المرحوم الدكتور نجيب محفوظ : لقد كان هؤلاء الأطباء العرب بمثابة المصابيح التي أضاءت منها أوروبا قناديلها في القرون الوسطى.

وهل ينسى فضل « ابن يونس » وكشوفه الفلكية، ورصداته القيمة، وكشفه للبندول، أو « الصوفي » الفلكي العربي الإسلامي، الذي أرخ به سارتون، فقال من عصر بطليموس إلى عصر الصوفي، وقال إنه كان نقطة تحول في تاريخ علم الفلك.

أما ابن الشاطر الدمشقي، فأول من قال بأن الشمس مركز الكون، وخالف بطليموس الذي كان يقول بأن الأرض مركز الكون. ومع ذلك فينسب هذا الكشف إلى كوبرنيق، مع أن ابن الشاطر سبق إلى إثباته، كما أن البيروني سبق إلى القول بإمكانيته.

أو ننسى « بني موسى » في كتابهم « علم الحيل »، الذين ذكروا فيه أكثر من مائة حيلة ميكانيكية، كما قالوا بالجاذبية العمومية بين جميع الأجرام والكواكب السماوية.

وهل ننسى فضل البيروني والكندي والزهراوي وغيرهم في العلوم الصيدلية، أو ابن ماجد بحار العرب الأول في علوم البحار، وربط الكندي بين المد والجزر وجاذبية القمر.

الأمة العربيـة في العصر الإسلامي

هي التي قدمت أوروبا زاد نهضتها العلمية :

وكذلك نرى أن الأمة العربية، في العصر الإسلامي، هي التي قدمت لأوروبا زاد نهضتها العلمية، وليس من اليسير الإحاطة بإنجازات العلماء العرب، ويكفي ما قدمناه من أمثلة في هذه العجالة. وقد اعترف المنصفون بهذا الفضل، من أمثال سارتون، وبرنال، وسميث، وهولميارد، وسيجريد هونكه، وكلهم يجمع بأن العرب كانوا أساتذة أوروبا في جميع العلوم والفنون، وأنهم لم يكونوا مجرد نقلة للعلم الإغريقي، كما يقول غير المنصفين. وتقول سيجريد هونكه : « **إن أوروبا مدينة للعرب وللحضارة العربية، وأن الدَيْنَ الذي** في عنق أوروبا وسائر القارات الأخرى للعرب كبيرٌ جداً، وكان يجب على أوروبا أن تعترف بهذا الصنيع منذ زمن بعيد، ولكن التعصب واختلاف العقائد أعمى عيوننا، وترك عليها غشاوة. وتضيف : **إنها** سبة أن يعلم أهل العلم من الأوروبيين أن العرب أصحاب نهضة علمية لم تعرفها الإنسانية من قبل، وأن هذه النهضة فاقت كثيراً ما تركه اليونان والرومان، ولا يقررون هذا، إن العرب ظلوا ثمانية قرون طوال يشعون على العالم علماً وفناً وحضارة، كما أخذوا بيد أوروبا وأخرجوها من الظلمات إلى النور، ونشروا لواء المدنية أنّى ذهبوا في أقاصي البلاد ودانيها، سواء في آسيا أو أفريقيا أو أوروبا، ثم تنكر أوروبا على العرب الاعتراف بهذا الفضل ».

ويقول « كارينسكي » : إن الخدمات التي أداها العرب للعلوم غير مقدرة حق قدرها من المؤرخين، وأن البحوث الحديثة دلت على عظم دَيْنِنَا للعلماء المسلمين الذين نشروا نور العلم والعرفان، بينما كانت أوروبا غارقة في ظلمات القرون الوسطى، وأن العرب لم يقتصروا على نقل علوم الإغريق، بل زادوا عليها، وقاموا بإضافات هامة في ميادين مختلفة. ويقول « كاجوري » : إن العقل ليدهش عندما يرى ما عمله العلماء العرب في

الجبر. ويقول سارتون عن ابن الهيثم : إنه أكبر عالم طبيعي مسلم، ومن أكبر المشتغلين بعلم المناظر (الضوء) في جميع العصور والأزمان. كما يقول المستشرق سخاو عن البيروني إنه أكبر عقلية علمية في التاريخ وإنه من أضخم العقول التي ظهرت في العالم، وإنه أعظم العلماء في كل العصور.

وكذلك صحت أوروبا حين انحسرت شمس هذه الحضارة العلمية العارمة عن العرب، لتشرق في أوروبا، وعرفت أوروبا الطباعة في منتصف القرن الخامس عشر، وترجمت مؤلفات العلماء العرب إلى اللغة اللاتينية واللغات الأجنبية، وظلت معتمدة كتباً مرجعية عدة قرون.

عوامل النهضة العلمية في العصر الإسلامي وجسـور انتقالها إلى أوروبا

لا مراء أن ثمة عوامل بيئية كثيرة أدت إلى ازدهار النهضة العلمية في العصر الإسلامي، من أهمها في نظري العوامل الأربعة الآتية :

١ ـ **حرية الرأي العلمي، إذ لم يحدث في العصر الإسلامي أن امتحن عالم** واحد بسبب رأيه العلمي، ولم يحدث لعالم واحد ما حدث لعلماء أوروبا من أمثال، جاليلو وكوبرنيق، من سجن أو قتل أو حرق بسبب القول بكروية الأرض أو دورانها أو أن الشمس مركز الكون مما لم يتفق ورأي الكنيسة.

٢ ـ رعاية الدولة للعلم والعلماء، والإنفاق بسخاء على العلم والعلماء، وتكريم العلم والعلماء وما نقرأ عن رعاية الخلفاء والحكام للعلماء، وقد قيل إن ثلث الخراج كان يخصص في بعض العهود للعلم والتعليم.

٣ ـ **استعلاء العلماء بعلمهم، وقصة ابن الهيثم في رده ما دفعه أحد الأمراء أجراً لتعليمه، وقولته المشهورة « يكفيني قوت يوم » وكان يعيش من نسخ** الكتب. وكذلك رد البيروني ثلاثة جمال تنوء بأحمالها من نقود الفضة للسلطان وقوله : « إنما يخدم العلم للعلم ». وقولة البغدادي المشهورة : « إذا اشتهر المرء بعلمه وخلقه سعي إليه. وجاءته الدنيا صاغرة وعرضه ودينه مصون ».

٤ ـ الاستعداد الذهني والعقلي لدى هؤلاء العلماء وجلدهم وصبرهم

ومثابرتهم على الدراسة والتأليف.

أما المعابر التي انتقلت عن طريقها الحضارة العربية إلى أوروبا فهي أربعة هي الأخرى، وهي :

١ ـ الأندلس، حيث ازدهرت الحضارة العربية الإسلامية زهاء ثمانية قرون.
٢ ـ صقلية، حيث استمر العرب زهاء ثلاثة قرون.
٣ ـ الحروب الصليبية، التي استمرت نحو قرنين من الزمان.
٤ ـ الامبراطورية العثمانية حين غزت دول شرق أوروبا.

هذا التراث العلمي العربي المُشَرِّف، ينبغي أن تدرسه الأجيال الصاعدة لتعرف مكان أمتهم في التاريخ، وأن الأمة العربية لها أصالتها وأثاثها في تاريخ العلم، فينبغي أن يُصحح تاريخنا العلمي، وأن يُقَدَّم هذا التراث إلى الشباب مُلَخّصاً ومُخَلَّصاً.

والله ولي التوفيق !!!.

المراجع

(١) أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية ـ هيئة اليونسكو ـ شارك فيه المؤلف.
(٢) الدليل الببليوجرافي للثقافة العربية ـ هيئة اليونسكو ـ شارك فيه المؤلف.
(٣) تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه ـ دار المعارف ـ للمؤلف.
(٤) الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب ـ اليونسكو العربية ـ شارك فيه المؤلف.

من قضايا الاستدلال القرآني

للدكتور عبد الله الأوصيف

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ما المراد بالاستدلال في القرآن الكريم... !

إنّ الحديث عن قضية الاستدلال في القرآن، يبدو أمراً ذا بال، في فترة يشتد فيها الاهتمام بأساليب الاستدلال، لأغراض معرفية، وإعلامية، ومذهبية، مختلفة باختلاف الدوافع والغايات.

غير أنه يحسن دفع ما قد يتبادر إلى الذهن، من البداية، من أنّ هذا الموضوع سيتناول القضية من زاوية نظر منطقية، يقصر فيها مفهوم الاستدلال على المعنى الاصطلاحي الشائع في الأوساط الفكرية الفلسفية والمنطقية فحسب، وذلك باعتبار كونه « طريقاً يتبعه العقل في دراسة لموضوع ما، بهدف التوصل إلى قانون عام، أو مذهب جامع، أي باعتباره فنّ ترتيب الأفكار ترتيباً دقيقاً بحيث يؤدي إلى الكشف عن حقيقة مجهولة، أو إلى البرهنة على صحة حقيقة معلومة »(١).

إنّ هذا المنحى المتخصص ليس هو الهدف هنا، لأنه من المعلوم أن القرآن ليس كتاب منطق محض، ولا كتاب علم متخصص، وإنما هو كتاب توجيه، ودليل إرشاد وهداية، ولهذا نجد الحديث عن الاستدلال في القرآن يرد ذكره كما يرد ذكر غيره من الموضوعات والمسائل، والأشياء التي تشغل بال الإنسان، وذلك بأسلوب مناسب لجميع الناس على اختلاف

درجات عقولهم وأفهامهم، فكان في دلالته القريبة معان واضحة، ميسورة الإدراك، سهلة التصور، في معظم سوزة وآياته، وبهذا المستوى يتجه القرآن بالخطاب إلى الناس كافة.

غير أنّ المتأمل بتدبر من أهل العلم والخبرة، يجد في آياته وعباراته، بالإضافة إلى معانيها القريبة الظاهرة تلك، معاني أخرى دقيقة وخفية[٢] تنطوي على أصول وجوامع من المعارف متسعة الآفاق، بعيدة الغور، لدقة ملحظها، وللطف إيماءاتها، وذلك بقدر ما يتناسب مع عقل الباحث الناظر في آيات القرآن، سواء اتجه إلى المواطن التي تتحدث عن عالم الكم والكائنات والمقادير، مما يشكل ميادين دراسة العلوم التجريبية، أو اتجه إلى الآيات التي تتحدث عن دائرة الخبر، والتصور، مما يتعلق بالمعاني المجردة بما وراء الحس وبالعلاقات بين عالمي الغيب والشهادة.

وقد تفطن الجاحظ إلى هذا المغزى، في رسالة النبوة، حين حصر طرق المعرفة الاستدلالية، التي تلزم بها الحجة، في ضربين، أو طريقين، وذلك حين يقول : « إنّ كلّ منطق محجوج، والحجّة حجتان : عيان ظاهر وخبر قاهر »[٣]. فاعتبر لزوم الحجة مترتباً على الوعي العقلي، الذي يقتضي بالضرورة عمليات الاستدلال، والبرهنة ويسعى إلى تأليف ذلك استمداداً من الموضوع، أو من القضية التي يتعلق بها، أو من عالم الحس، أو من الخبر المعجز، وذلك إبّانَ مزاولته لعملية التعرف، والتعقل، وهذه الروح المعرفية في القرآن هي التي أدت أيضاً إلى تأسيس حضارات إسلامية كبرى، في أرجاء واسعة من الأرض وعلى امتداد أزمنة عريضة من التاريخ، في مشارق الأرض ومغاربها، نمت وازدهرت فيها علوم وفنون متعددة المشارب والطعوم.

وإذا كان الذي يهمنا في هذا البحث، هو بيان جوانب من الاستدلال القرآني، فإن ذلك يبرز عند البرهنة كما في حالة الحجاج أو المجادلة، في مواطن مختلفة، كأن تقوم الآيات بإثبات أن هذا الكتاب هو من عند الله مثلاً، أو تتقدم لتعمل على إيقاظ النفوس، والعقول، إلى أهمية ما ورد فيه من معارف ومضامين لا يمكن بدون عمليات استدلالية أن تجتذب الأذهان إليها، وأن تتركز في النفوس، فالاستدلال أمر ضروري بحكم شمول

توجّهات رسالة الإسلام، وعموم الخطاب فيها، بغير تحدد بزمان أو مكان، وفي هذا يكمن السر في كون القرآن الكريم ليس كتاب منطق، وبالتالي فليس الحديث عن الاستدلال في القرآن، كالحديث عن الاستدلال في كتب المنطق، ومناهج البحث قديماً وحديثاً، لأنها جميعاً مستغرقة في موضوعها الخاص، وفي مراحل زمنية تنكشف بمرور الزمان، ومع ذلك فلا بأس من الإشارة إلى أن المناطقة في حديثهم عن مبحث التصديقات، يقسمونه إلى فرعين، أو مبحثين :

١ ـ مبحث القضايا.

٢ ـ مبحث الاستدلال، ويشتمل هذا الأخير على الطرق العقلية التالية :

أ ـ القياس، وهو قول قدم له بمقدمات تترتب عنها بالضرورة نتائج[٤].

ب ـ الاستقراء، ومراد به الانتقال من الجزئي إلى الكلي، وهو عكس القياس الذي فيه ينتقل الذهن من الكلي إلى الجزئي.

جـ ـ التمثيل، أي الانتقال من الجزئي إلى الجزئي.

د ـ القسمة، وهي تكثير الواحد تقديراً وافتراضاً.

وهذه المقولات المنطقية، لا يمكن إخضاع النماذج الاستدلالية القرآنية إليها، **لأن ذلك أمرٌ لا ترجى من ورائه أية فائدة، فضلاً عن أنه** بطبيعته مستحيلاً، لأن تلك المقولات أو المقاييس لا تستطيع استيعاب أو تقنين الطرق الاستدلالية في القرآن، ثمّ هي في أحسن صورها محكومة بموضوعاتها، التي غالباً ما تكون مقيدة بعالم الحس والشهادة، على أنّه إذا كانت بحور الشعر وتفعيلاته مثلاً قاصرة عن احتواء التجارب الفنية الشعرية، لدى العباقرة والأدباء، فإنه من باب أولى أن يكون فشل الأطر المنطقية ذريعاً في رصد طرائق الاستدلال القرآني المعجز، ولعله من الأنسب والأجدى في هذا المقام، تفهم طبيعة الاستدلال القرآني، على ضوء المواقف القرآنية وفي الوسط الحيوي الذي فيه تعالج آياته القضايا الاجتماعية، والاهتمامات البشرية وتناقشها، وتحاورها، سواء بدا ذلك في شكل مناظرة وجدال حيناً، أو في شكل تصوير وتمثيل، مكين في الواقعية حيناً آخر، ولا شك أن تتبع

مسالك الحوار في القرآن بالوقوف على جوانبه يقود الذهن إلى تكوين تصور عن طبيعة الاستدلال فيه، وعن أهدافه وأساليبه، ثم يبين موقف القرآن أساساً من حيث هو كتاب وحي ـ من العقل، ومن النظر الفكري الحر.

٢ ـ الاستدلال في القرآن كأساس من أسس الحوار :

لقد شجع القرآن على الحوار، بمعنى مراجعة الكلام وتبادل الرأي من أجل الوصول إلى معرفة الحقيقة، كما شجع على الجدال، بمعنى مقابلة الأدلة، لظهور أرجحها، وبيان أقواها وأحصفها، وهذا النوع من الجدال، محمود مرغب فيه بحسب القرآن، وهو يختلف عن أنواع الجدل العقيم السوفسطائي، الذي يقوم على المخاصمة والانفعال، ويشغل عن النظر إلى الحق، ويحجب وضوح الرؤية الفكرية ـ ويصد عن الاهتداء إلى الصواب عند البحث. وهذه أمور كلّها لا يبيحها القرآن الكريم، بل ينهى أتباعه عنها إلا أن يكون ذلك منهم دفاعاً ضد الظلم (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن، إلا الذين ظلموا منهم).

ولعله من الواضح أن الاستثناء في الآية جيء به لفتح باب الدفاع بما يتناسب مع المقام، وحتى لا يكون قيَّدَ الجدال « بالتي هي أحسن »، في غير موضعه إذا ما كان في موطن تَحَدٍّ جائر.

فالقاعدة العامة بحسب القرآن، هي الجدل، بمعنى مقابلة الأدلة وتبين أثبتها وأرجحها، بالتي هي أحسن، بدليل قوله تعالى : (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن).

وإثبات شرط الجدال بالتي هي أحسن يدفع كلّ أضداده من أنواع الجدال الأخرى، التي ينشأ عنها إضاعة للحق، وتسبب في مضايقات وإحراجات لا طائل من ورائها، وعلى هذا فالجدال والحوار بمعناهما السالف، يتعاضدان في القرآن، على هدف واحد، هو إيضاح الحق، والصواب، وتقريرهما، في الأذهان، وتقريبهما منها، يحذر القرآن من استخدامهما كسلاح لإضاعة الحق بنصرة الباطل وأوليائه، كالبرهنة على الخطأ بأنّه صواب، وهو ما عرض به القرآن الكريم حين قال : (ويجادل

الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق).

وقد كوّن الحوار بذلك المفهوم السابق، لبّ الحركة التاريخية الاجتماعية في صدر الإسلام، فكانت مفاهيم القرآن تلك ميزاناً ومرجعاً لما جرى عليه العمل، إبّان الاحتكاك الواقع بين المسلمين وغيرهم من أهل الديانات والمدارس الفكرية والفلسفية، ممن وقع بينهم اتصال نتج عنه حوار وجدال بذلك المعنى ـ فكان بحق أساساً لتلك التحولات العقائدية والفكرية التي صهرت تناقضات الأجناس، المختلفة، والملل المتغايرة، والمدارس **الفكرية المتباينة المشارب، صهرتها في بوتقة الإسلام التي أثمرت لوناً جديداً مشرقاً ومتميزاً في ميادين الحضارة الأكثر تناسباً مع طبع الإنسان وفطرته، لأنه النمط الأمثل من الحوار الودود، المجدي حقاً في اكتساب المعارف ذات النفع العميم، وذلك بفضل تقييده بإطار بحث مشروط « بالتي هي أحسن » في النوع، والأسلوب، وفي كلّ ما تتطلبه مناهج البحث، وطرائق التعرف والفهم.**

ولا شك أن الحوار الحاد المتوتر، الذي يستند إلى الشتيمة والسباب لا ينتج فكراً حرّاً نزيهاً، وإنّما تداخله الاعتبارات الذاتية المؤدّية إلى التحيز والمكابرة والعناد، ويرفع شعار « إنّ لبني عمّك فيهم رماحاً ». أو « الا لا يجهلن أحد علينا... فنجهل فوق جهل الجاهلينا » وهي نزعات تعيق على تفهم الموقف أو القضية التي يتعلق بها الحوار، ويراد لها مزيد من الوضوح والبيان.

ولذلك فإن اختيار أسلوب « الجدل »، أو « الحوار بالتي هي أحسن » هو من باب اختيار الأمثل والأجدى من بين أنواع الجدال الممكن ممارستها عند تحاور العقول، وتفاعلها، وتناظرها، ولا يمكن اعتبار ذلك النمط، نزولاً إلى الحلول السهلة بدافع الكسل الذهني، أو الخمول الفكري، أو أنه من باب مسالمة الضعيف بل في ذلكم المنهج القرآني تكمن القوة الفكرية والدعوة الناضجة، التي تحمل الفكر على عمليات « التذكر، والتدبر، والاستنتاج » (ولقد ضربنا للنّاس في هذا القرآن من كلّ مثل لعلّهم يتذكرون). ويقتدر الفكر على بذل الأنشطة المناسبة لاقتناء المعرفة،

ولمكافحة الشبهات والعوائق.

بهذا يحرر القرآن العقول في الأغلال، أغلال الأوثان بأشكالها المختلفة، مادية كانت أم معنوية، ويقيم بدلاً عنها أصول حرية التفكير، والتعبير، والعمل، على أرضية من الثقة المتبادلة والحكمة المنظمة المنتجة، كما سبق أن أشارت إليه الآية : (ادع إلى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن)... عندما نصت على أنّ الدعوة إلى سبيل الله يجب أن تنهض على دعامة « الحكمة »، وهي المقالة الصحيحة المحكمة، والدليل الموصل إلى الحق، وعلى « الموعظة الحسنة » أي النصح النزيه، الذي يوقظ القلوب والعقول (ولقد ضربنا للنّاس في هذا القرآن من كلّ مثل لعلهم يتذكرون).

ولا شكّ أن عمليات التذكر المرتجاة في الآية بـ (لعلّهم)، هي نتيجة لضرب الأمثال التي تمر بالذهن فتؤدي إلى وظيفة قدح زناد الفكر، لتنطلق حركته من كمونها، وسكونها، إلى فحص، وتأمل الآيات، وتدبر سائر المخلوقات التي يمكن أن يقع عليها الحسّ، (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليذكر أولوا الألباب)، (أفلا يتدبرون القرآن، أم على قلوب أقفالها)[٨]، (أوَ لَم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء)[٩]، (أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين. وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه، قال من يحيي العظام وهي رميم، قل يحييها الذي أنشأها أوّل مرّة، وهو بكلّ خلق عليم).

والاستدلال في الآيات التي تشير الظواهر الكونية والنفسية إليها، مستند إلى عنصر الفكر، المطالب بقراءة صفحات الكتاب المجلوة، شأنه إزاء الصفحات المتلوة، بتدبير وتأمل، فهو استدلال غائي، يتضمن الدعوة إلى التوحيد، ويقود إلى تصديق الوحي، وإلى الإيمان بالغيب، من البعث والجزاء يوم القيامة وذلك من طريق التعرف على ما في عالم الشهادة، والتجربة، الذي هو مرآة عاكسة للقدرة الفائقة المطلقة، وأثر من آثارها الدال عليها.

فطبيعة المعرفة المطلوبة في العديد من الآيات القرآنية ليست مجرد

تلبية لفضول، أو إشباع لتطلع تتوق فيه نفس الإنسان إلى عجائب الموجودات، وإلى تأمل مجالي الكون فحسب، بل هي معرفة وظيفية مزدوجة الهدف، فبالإضافة إلى تحقيق رغبة الإنسان الفطرية في معرفة الأشياء على حقائقها، كما تبدو عليها في نفس الأمر والواقع، فإنّ لتلك المعرفة دوراً آخر تقوم به، فيه تضحى بمنزلة الوسيلة لغاية أنبل وأبقى أثراً، وهي ما يلزم عن **تلك المعرفة الشاهدة الحاضرة، من الإقرار والاعتراف بالحقائق الكبرى الغائبة،** باعتبار أن الشاهد يدل على الغائب، وأن تلك الدلالة لا يقتصر تأثيرها على تكيف التصورات والمعتقدات النظرية بل يتجاوز ذلك إلى مجاري السلوك والأفعال، فيوجهها، ويحدد مساراتها طبقاً للقيم التي يعير بها الأشياء، وللموازين التي يضبطها من قبول ومنع وإباحة.

وهذا ما نبه إليه كثير من الباحثين حتى من سلك منهم سبيل النظر مثل ابن رشد، الذي نبه في مطلع كتابه « فصل المقال » إلى هذا الغرض حين ذهب إلى « أنّ الموجودات تدلّ على الصانع بمعرفة وجوه صنعتها، **وأنه** كلّما كانت المعرفة بصنعتها أتم وأجلى كانت المعرفة بالصانع أكمل وأوضح »، وهو يرى أنّ الشرع ندب إلى اعتبار الموجودات، وحثّ على ذلك، يقول : « فأمّا أن الشرع دعا إلى اعتبار الموجودات بالعقل، وتطلب معرفتها به، فذلك بين في غير ما آية من كتاب الله تبارك وتعالى، مثل قوله : (فاعتبروا يا أولي الأبصار)، وهذا نص على وجوب استعمال القياس العقلي، أو العقلي والشرعي معاً، ومثل قوله تعالى : (أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء)، وهذا نص بالحث على النظر في جميع الموجودات »، ثم يقول : واعلم ان ممن خصّ الله تعالى بهذا العلم وشرفه، ابراهيم عليه السّلام، فقال تعالى : (وكذلك نري ابراهيم ملكوت السموات والأرض).

ويتبين من ذلك أنَّ منهج استخدام الحجة والاستدلال في القرآن الكريم، مقرر، ومطلوب شرعاً، قال تعالى : (يا أيها النّاس قد جاءكم برهان من ربّكم)، وقال : (ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به، فإنّما حسابه عند ربّه، إنّه لا يفلح الكافرون).

نرى أنّه قد قيد الوعيد على الشرك، لأنّه لا يوجد برهان لصاحبه يحتج به، ولا يمكن أن يوجد بل هو من باب التعليق على المحال، لأنه ليس بالوسع البرهنة على صحّة عبادة الشرك لتفاهتها أصلاً.

وتجد في مجال التنويه بشأن البرهان، أن الله سبحانه يبعث يوم القيامة الأمم مع رسلهم، وورثتهم من العلماء، ويطالب المشركين بحضرتهم بالبرهان، على ما خالفوا فيه، قال تعالى : (ونزعنا من كلّ أمّة شهيداً، فقلنا **هاتوا برهانكم، فعلموا أن الحق لله، وضلّ عنهم ما كانوا يفترون)**[١٠]. **وجئنا بك على هؤلاء شهيداً)**.

بل إنّ القرآن قد أقام البرهان العقلي على بطلان الشرك حين قال : (لو كان فيهما آلهة إلّا الله لفسدتا)، وحاجَّ المشركين مطالباً إياهم بالبرهان **على صحة ما اتخذوا من آلهـة (أم اتخذوا من دونه آلهة، قل هاتوا** برهانكم)، (أم من يبدأ الخلق ثمّ يعيده، ومن يرزقكم من السماء والأرض، أإله مع الله، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين). وأورد في سياق محاجة إبراهيم لقومه قوله تعالى : (وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً، فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون).

ويورد القرآن تعليقاً على موقف إبراهيم في تناظره مع قومه، يبرز فيه منزلة الحجة التي وهبت لإبراهيم، فكسر بها دعاوى المشركين، وذلك حين يقول : (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه، .نرفع درجات من نشاء).

وقد نصّ القرآن على أنّ ما جاء به من هذا الإصلاح، هو ما سبق أن أوحي إلى موسى ومن قبله ابراهيم، أبي الأنبياء : (أعنده علم الغيب فهو يرى، أم لم ينبأ بما في صحف موسى وابراهيم الذي وفّى، ألّا تزر وازرة وزر أخرى، وأن ليس للإنسان إلّا ما سعى، وأن سعيه سوف يرى، ثمّ يجزاه **الجزاء الأوفى) وفي ذلك إعلام بأن جوهر الوحي، المنزل إلى الرسل، واحد،** وهو أن لا تَحْمِلَ نفس خاطئة خطيئة نفس أخرى، سواء بفداء أو بغيره، وأنّه **لا يحتسب للإنسان إلا سعيه وعمله. ويدخل في مدلول عموم عمل المرء ما يتسبب فيه، كالذي يقـوم بتعليم النـاس ما ينفعهم، أو كمن يعمـر الأرض** بما يفيد، ونحو ذلك مما قد يسنه المرء من السنن التي يكون له من الجزاء

مثل جزاء من يعمل بها من بعده.

يتضح من الأمثلة المتقدمة نوعية الأسلوب العملي والواقعي في حجاج القرآن الكريم، حتى ليصح القول بأنّه « لو كان القرآن عالَماً محسوساً لكان هذا الكون العجيب »، (ولو أن قرآناً سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلّم به الموتى) أي لكان هذا القرآن.

ففي مجال المعرفة، والإرشاد إليها بطرق موضوعية، قد يسلك القرآن أسلوباً علمياً وموضوعياً، حين اعتبر الحواس شرائط أساسية في عمليات التعرف : (أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها)[١٢]، (**إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع** وهو شهيد).

كما أخبرنا الله سبحانه بموقف من مواقف يوم القيامة يصور ندم أهل العذاب على تفريطهم في حسن استعمال الحواس كوسائل للمعرفة، قال حاكياً عنهم (لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير)، والقرآن يؤكد : (إنَّ شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون)[١٣].

لهذا فإن دعوة القرآن إلى الاستجابة إلى الحق القائم على الدليل دعوة حارة، واعتراضه على من يجادل في الله بغير علم حازم وواضح : (ومن النّاس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد)، (وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره).

وقد وصف القرآن المسلمين الخلص بقوله : (وإذا مروا باللغو مروا كراماً)، وبالإضافة إلى ما تقدم ندد القرآن بالتبعية المقامة على عدم الوعي، (إنا وجدنا آباءنا على أمة، وإنا على آثارهم مقتدون)، (أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءَكم).

وفي مجالٍ آخر ينبه القرآن إلى أهمية الحواس في ميدان المعرفة (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون).

يظهر ممّا تقدم كيف أنّ الأدلة تساق في القرآن لمخاطبة العقل

والوجدان معاً، وهي أدلة تستمد مقوماتها من الواقع المتصل بالإنسان، سواء ما يرجع منه إلى كيفيات الخلق أو إلى المحيط المدرك من الإنسان بواسطة التأمل في ظواهره، أو ما يرجع منها إلى المصير المنتظر، اعتباراً إلى حقائق التحول والصيرورة، التي تطبع الأشياء من حول الإنسان، والتي تمكنه من الانشغال بالمصير المنتظر والتفكير فيه، (نحن خلقناكم فلولا تصدقون أفرأيتم ما تمنون. أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون. نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين. على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون. ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون)[١٤] ويقول تعالى (أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون).

ويظهر من خلال ذلك أنَّ المعرفة وسيلة لهدف أسمى من مجرد حفظ النوع، وهي بالإضافة إلى ذلك الغرض، تهيىء الإنسان إلى سياسة جانب من هذا الوجود المحيط به، وإلى التدخل في شؤونه، لكن طبقاً لخطة محددة ترسم ملامح الرسالة.

ويتطلب تحقيق ذلك الغرض، من الإنسان، الرجوع بالنظر إلى تتبع **الظواهر الكونية والنفسية، قدر المستطاع، باعتبارها من آيات الله،** البينة المجلوة، وإلى تتبع الآيات المقروءة المتلوة، ثم محاولة تفسير تلك الظواهر، للكشف عن أسبابها، وللوقوف على نتائجها، وعلى العلاقات التي بينها، **ومعلومٌ أن كل ذلك لا يستقيم، ولا يتأتى بدون عمليات استقرائية منظمة،** تعتمد الملاحظة المضبوطة الدقيقة، وقد تستلزم من الباحث التدخل في تقبل طبيعته تلك، من ميادين البحث، مما تقع ملاحظته من الظواهر، المراد تفسيرها، فيعمد الدارس إلى الاختبار وإلى التجريب، بروح معرفية علمية وبذلك ينصح القرآن الكريم في أكثر من موطن، وذلك من صميم عمل المنهج العلمي المعاصر، سواء في روحه أو في خطواته ومراحله، لأن الحركة الذهنية الرائدة، في مثل هذا النشاط العقلي المبدع، تناضل في سبيل توسيع دائرة المعلوم بما يتناسب من الطرق الاجرائية طبقاً لمقتضيات الموضوعات المطروحة، **ولا شك أن مثل هذه الحركة لا تصدر إلا عن ذهن فطن محنَّك،** ذي خيال بارع خصيب، مثلما أشار الزمخشري إلى ذلك في كشافه حين

تحدث عن شروط المفسر الكفء قال :

(وكان مع ذلك ـ إشارة لما تقدم من شروط ـ مسترسل الطبيعة منقادها، مشتمل القريحة وقادها، يقظان النفس للمحة وإن لطف شأنها منتبهاً على الرمزة وإن خفي مكانها)[١٥].

وذلك لأن دلالة الكلمة في القرآن الكريم تستجيب إلى كل الناس المكلفين، في حدود عموم الخطاب الشرعي بالتكليف، بداية من عتبة الرشد والتكنيف. ثم تتسامى آخذة في الارتفاع إلى أعلى درجات سلم الذكاء والنبوغ، إذا جاز مثل هذا التعبير، إذ أن نفس النص يتجه إلى أصحاب القدرات المختلفة، فيخاطب مثلاً الرجل العادي، كما يخاطب الرجل العالم المتخصص، مثلما يخاطب الفيلسوف، دون أن يعتبر ذلك ابهاماً بجانب من جوانب طبيعة الفوارق الفردية كما لو نظر كلّ أولئك مثلاً إلى شجرة زيتون، فإن نظرة الرجل العادي لها تعطيه تصوراً عن كونها منتجة لمادة نافعة، غذاء وعلاجاً، وترتسم صورتها في ذهنه على نحو حسي، كما تبدو عليه في هيكلها الخارجي، المشاهد عياناً، ولكن العالم المتخصص في دراسة النباتات يمكن أن ينظر إليها على نحو مغاير، فقد يبدو بالإضافة إلى صورتها الحسية المشاهدة، ذات هيكل مطمور تحت الثرية لا يقل بجماعي هيكلها الخارجي، ونتيجة ذهنية إلى تخيل عمليات نموها، وصعود الماء في أليافها، ابتداء من أبعد أطراف جذورها، إلى أعلى نقطة من أعضائها، وقد يقف به التفكير عند خصائصها وظروفها الطبيعية الفيزيائية.

لكن الحكيم مثلاً قد يتجاوز ذلك إلى تصور انتظام هذه الشجرة في علاقات وجودية أرحب وأعم، كأن يتناول بتفكيره ماهيتها ومكانتها، وقد ينظر إليها كرمز لجنس أو لفئة معينة الموجودات ذات اتصالات بأنواع أخرى.

إن هذه المستويات الثلاث من التفكير حول أنموذج واحد، التي ترمز لخصائص الرجل العادي، ثم العالم، ثم المفكر أو الحكيم من حيث أنهم يقفون إزاء مشهد واحد من الموجودات، تكشف عن كيفية افتراق السبل المعرفية بين الناس، إزاء المعطى الواحد، كذلك الشأن، أو قريب منه،

بالنسبة لقراءة الآيات القرآنية، فمن الناس من يقف عند المعنى الحرفي الظاهر، ويجد بغيته وضالته، ومنهم من يتجاوز ذلك إلى التحليل والربط بين الدلالات والمعطيات التي تثيرها الآية، ومنهم من يرفقه إلى الأصول الكبرى، والقضايا العامة الكلية التي هي معاقد لتفاريع مضمنة بها، وجوامع بجزئيات وتفاصيل تخفى على كثير من مهرة الغواصين في بحور المعاني.

وهذا ما لاحظه ابن عرفة في تقسيمه للمفسرين إلى مفسر مجتهد اجتهاداً مطلقاً، وإلى مفسر مجتهد اجتهاداً مقيداً، وإلى مردد للتفسير حظه منه النقل والترويج، ولقد طبق الفخر الرازي من قبل ذلك، عند تفسيره للآية الكريمة **(ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن) هذا المفهوم، فجاء بما يؤكد وعيه بهذه المستويات الثلاثة،** التي تشير إلى الفروق الفردية بين الناس، حيث اعتبر أن الدعوة بالحكمة تتجه إلى طائفة الحكماء، والدعوة بالموعظة الحسنة تتجه إلى أصحاب الفطر السليمة التي لم يفسد طبعها، والدعوة بالمجادلة بالتي هي أحسن تتجه إلى الذين انحرفوا عن طريق الحق، وضلوا عن منهجه.

وان هذه المستويات الثلاثة تشمل كل الطوائف البشرية، التي يعمها منهج الدعوة، هذا المنهج الذي ينبغي أن يراعي تلك المستويات تبعاً لواقع المجتمع، ومتطلبات أحوالها.

وهذا ما جعل الجدل القرآني جدلاً مؤلّفاً وليس مفرقاً مشتتاً، ومن طبيعة الدين الإسلامي أنه دين الوحدة الاجتماعية وعدم التفرقة[١٦]. قال تعالى : (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون)[١٧].

غير أنه ينبغي ملاحظة أن القرآن الكريم لا يوغل في الجدل، وذلك حرصاً على إبقاء باب المودة مفتوحاً، إذ يعتبره مدخلاً للتفاهم والحوار النير.

يقول تعالى : (فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن، وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم، فإن أسلموا فقد اهتدوا، وإن تولوا فإنما عليكم البلاغ، والله بصير بالعباد).

تلك مهمة المجادلة في الدين، وهي مهمة محددة، مقيدة بما يجلب منفعة ويدفع ضرراً، ولا ينافي ذلك أن تكون المجادلة في العلوم الجزئية، والمعارف النفعية من الأمور المحمودة، مثل المجادلة في الفقه وما جرى مجراه من العلوم، التي تظهر فيها الحاجة إلى رد الفروع إلى الأصول، لحل مشاكل الناس، وإلى العمل على تبين جزئياتها وعناصرها، وما يتعلق بها من احتمالات وفروض تفسيرية، وهذا ما يشجع على البحث والتناظر، وليس الأمر كذلك في باب الاعتقاد عند أكثر العلماء، لأن الله سبحانه وتعالى لا يوصف إلا بما وصف به نفسه، (ليس كمثله شيء) حتى يدرك بقياس أو إنعام نظر، ولهذا كان مالك بن أنس يقول : لا أحب الكلام إلا فيما تحته عمل. وألف الغزالي « إلجام العوام عن علم الكلام ».

الجانب العلمي في الاستدلال القرآني :

لهذا كانت محاربة القرآن الكريم للخرافات، ولعبادة الأصنام الحية والمعنوية قوية جداً، سواء بالاهتمام بالحث على إقامة الأدلة على بطلانها، أو بالاهتمام بربط النظر بالواقع والتقييد به، أو بنقد مؤثرات الإلف والعادة، أو بالتصدي إلى فضح هيمنة السلطة الزمنية الباغية، باعتبار أن تلك العوائق على اختلافها أوثاناً مثبطة للعقل عن بلوغ المعرفة النافعة، ويتبلور ذلك في حكاية القرآن الكريم عن ابراهيم عليه السلام، عند مناظرته لملك زمانه الذي ادعى الربوبية، وعند مناظرته لأبيه آزر، ولقومه من عبدة الكواكب والأجرام، وقد سلك مسلكاً في الحجاج طريفاً، عند بيان استحالة ربوبية تلك الكواكب التي هي أشدّ بطلاناً من استحالة ربوبية الأصنام، لأن تقديم بطلان هيأة الأصنام على النحو الذي تذكره الآية، يساعد الأذهان على الترقي بالإدراك من الخفي إلى الأخفى.

هذا ويفهم من حجته عليه السلام أن استدلاله المنبني على إظهار التردد لم يكن في الواقع لنفسه، وليس ذاك تردداً حقيقياً منه، بل كان بهدف المحاجة، وبغية الكشف عن تهافت مذهب الخصم، باصطناع مثل هذا المنهج الشكي الاستدلالي، كما يرشد إلى ذلك سيل الآيات التي تصور هذا الموقف، يقول تعالى : « وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض

وليكون من الموقنين، فلما جنّ عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي، فلما أفل قال لا أحب الافلين، فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي، فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر، فلما أفلت قال يا قوم إني برىء مما تشركون، إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ».

والنتيجة التي ينبغي تسجيلها هي الانتهاء إلى ضرورة التوحيد إلى الذي فطر السموات والأرض : (إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين).

وهذا الاستدلال هو أقرب إلى أن يكون من جنس الاستدلال الصاعد، الذي يبتدىء فيه البحث من النظر إلى الجزئيات المحسوسة، ويترقى لينتهي إلى تعميم في الحكم، على خصائص تلك الجزئيات، تعميم يتسم بالشمول، والاستيعاب، ولو أن هذا التعميم هنا يختلف عنه في ميادين البحث العلمي المألوف من حيث المجال، ولكنه يلتقي معه على أية حال، في الشكل الإطاري كعملية الاستدلال، ومع كل الاحتمالات الممكنة في هذا المقام، نجد أن الاستدلال سبق هنا للمناظرة وللتعليم، وليس مجرد حكاية عن نظر، يعبر عن حيرة وشك، أي ليس هو مقام حيرة وشك حقيقيين.

ولعل هذا المعنى هو الذي جعل المفكر الإسلامي المعاصر عباس محمود العقاد في كتابه (إبراهيم أبو الأنبياء) يرى أنّ دعوة التوحيد تعتبر من أعظم الفتوحات التي غيرت بحق مجرى حياة الإنسان، وعلاقاته بالعالم الذي يحيط به ويحتويه، لأنها حررت الإنسان، وسمت به إلى رتب متفوقة بفضل إعلاء الإيمان بالله إلى ما فوق الطبيعة، فتحرير عقلية الفرد ثورة تفتح آفاق المعرفة العلمية، وتفرق أمام العقل بين مستوى الخالق، وبين مستوى المخلوق، ولا يستطيع فكر يخلط بين المستويين أن يتوفق إلى الحقائق العلمية لأن الكون يبدو له على أساس مفرق مفكك العناصر، تتنازعه الأرباب، ولهذا ارتفعت منزلة الإنسان حين ارتفعت عبادته من الطبيعة إلى ما فوقها، وحين أصبحت حاجته إلى المعبود تتجاوز مطالب الغرائز والأبدان،

لقد كان الإنسان قبل التوحيد أقل من الطبيعة، فأصبح بعده أعظم منها، كان عبداً لظواهرها، فأضحى قاهراً لها، يواجهها ويسائلها ويسخرها، فانطلقت الأبحاث العلمية الجادة بعدما تحرر الإنسان من الخرافات، « ولا تزال الجهود العلمية بين ناقص يتم وغامض يتضح وموزع يجتمع، وخطأ يترتب من الصواب، **وتخمين يترقى إلى اليقين** »[18].

وإزاء ذلك فإننا مطالبون بأن نفهم القرآن الكريم في عصرنا دون اضطرار إلى جحود معطيات العصر، أو غلو في الاعتزاز بها، بل لنا أن نستفيد من كل ما جدّ ويجد في ميادين المعرفة، في غير خلط بين الغاية والوسيلة، أي بين التزود بأحدث طرق المعرفة، للاستزادة من الزاد المعرفي، وبين تلوين ذلك بالشهوات والميول الذاتية لتبرير الأغراض والرغائب، وهذا ما تنبه إليه قديماً علماء أصول الفقه، مثل الإمام الشافعي في موقفه من الفكر اليوناني لمّا رأى أن المنطق اليوناني مقام على خصائص اللغة اليونانية، ولغة اليونان مخالفة للغة العرب، وتطبيقه في البحوث الإسلامية قد يؤدي إلى التناقض[19]. وقريب من ذلك رأي من رفض الاستدلال اليوناني من المتكلمين، فقد استند إلى أنه وثيق الصلة بالميتافيزيا أو الإلهيات، وكثير من أصوله تتصل بأصولها. ويرى بعض الفقهاء كابن تيمية مثلاً في المنطق الأرسطي قيداً للفطرة الإنسانية بقوانين صناعية متكلفة، بل ذهب ابن الصلاح إلى تحريمه[20].

ولا شك أن من أهم أسباب نفور العلماء المسلمين من المنطق اليوناني، الذي أدانه المنطق العلمي الحديث، والمعاصر، هو توجيه القرآن الكريم لهم، ودفعه الأذهان إلى طلب حسن **النظر والعمل** معاً، وهذا ما يفسر أيضاً عدم نجاح الفلاسفة الإسلاميين الذين تابعوا وردّدوا الفلسفة اليونانية، حتى اعتبروا تكراراً لها، وليسوا ثمرة للإسلام، كما أجاب أحد القضاة المعاصرين لابن سينا، حين سئل عن فلسفة الإسلام، أجاب قائلاً : « ليس للإسلام فلاسفة »[21].

وهذا المنزع العلمي في البيئة الإسلامية، امتدّ أثره إلى الغرب بواسطة بعض مشاهير رجالاته مثل روجر بيكون الذي درس العلم العربي، دراسة

عميقة حتى اعتبره البعض رسول المنهج العلمي الإسلامي إلى أوروبا المسيحية[٢٢].

ولعل ذلك الأثر هو الذي أفزع بعض أنصار الفكر الإنساني الصوري من المسيحيين، حتى دفع بأحدهم إلى ارتكاب جريمة الاغتيال لأحد أحرار الفكر في العالم المسيحي، وهو بطرس ريس سنة ١٥٧٢م، هذا الذي رفض منطق أرسطو وحاول وضع منطق جديد مكانه، في رسالته لنيل شهادة الماجستير التي عنون لها بما يلي : « كل ما قاله أرسطو وهم وضلال ». فكان من جراء ذلك أن حرم عليه التدريس، ونشر أبحاثه أولاً، ثم ضاق به المتعصبون للفكر المسيحي اليوناني، ذرعاً، وأقدموا على قتله حين استأنف هجومه على منطق أرسطو[٢٣].

والخلاصة مما تقدم، أن القرآن الكريم قد اعتمد في انتصاراته وفي التحولات الاجتماعية التي أحدثها على قوة الحجة وصدق الكلمة. وعلى تشجيعه للأسباب المؤدية إلى تحقيق ذلك، فاعتبر مثلاً كلمة الحق عند سلطان جائر، من الجهاد في سبيل الله، وحدد بذلك مشروعية الاعتراض على الباطل، وكشف عن الأسلوب الأمثل للاستدلال وللجدل والحوار، وربطها بالنبل في الدوافع والمقاصد.

وقد استخدم لترسيخ هذه القيم، الشواهد التي تسرد تجارب الأمم السابقة، لتكون مرآة ترى فيها النفس ما يلهمها إلى اقتناء الحلول المثلى في علاجها لمشكلاتها المتجددة، وكان القرآن يوجه إلى المشاهدة، وإلى التربية والاعتبار، ويحذر من تدخل الخصائص الذاتية، في التقديرات الموضوعية، ويوجه إلى قصر الأحكام العقلية في ظواهر الأشياء، التي تقوم دليلاً على وجود حقائق ثابتة تتجاوزها، مع الحرص على استبعاد الخرافات والتأملات العقلية المشطة المنبتة عن الواقع.

المراجع

(١) د. توفيق الطويل : أسس الفلسفة ص ١١١ ط ٢ القاهرة.

(٢) حنفي أحمد : التفسير العلمي لآيات القرآن الكريم ص ٥.

(٣) رسائل الجاحظ : ص ١١٩ ط ١ المطبعة الرحمانية بمصر ١٩٣٣.

(٤) التوسع على الشروح : المنطق / ١ / ٢٤٢ ط / ٥ القاهرة للمؤلف الدكتور زكي نجيب محمود.

(٥) انظر، الحوار والجدال في القرآن الكريم تأليف محمد الحسيني. المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ١٢١٥ ـ ص / ١٤.

(٦) سورة محمد آية / ٢٤.

(٧) سورة الأعراف آية / ١٨٥.

(٨) سورة محمد آية / ٢٤.

(٩) سورة الأعراف آية / ١٨٥.

(١٠) ٢٨ / ٧٥.

(١١) مقدمة كتاب فلسفة المعرفة في القرآن الكريم ط / القاهرة ١٩٧٣.

(١٢) الحج آية / ٤٦.

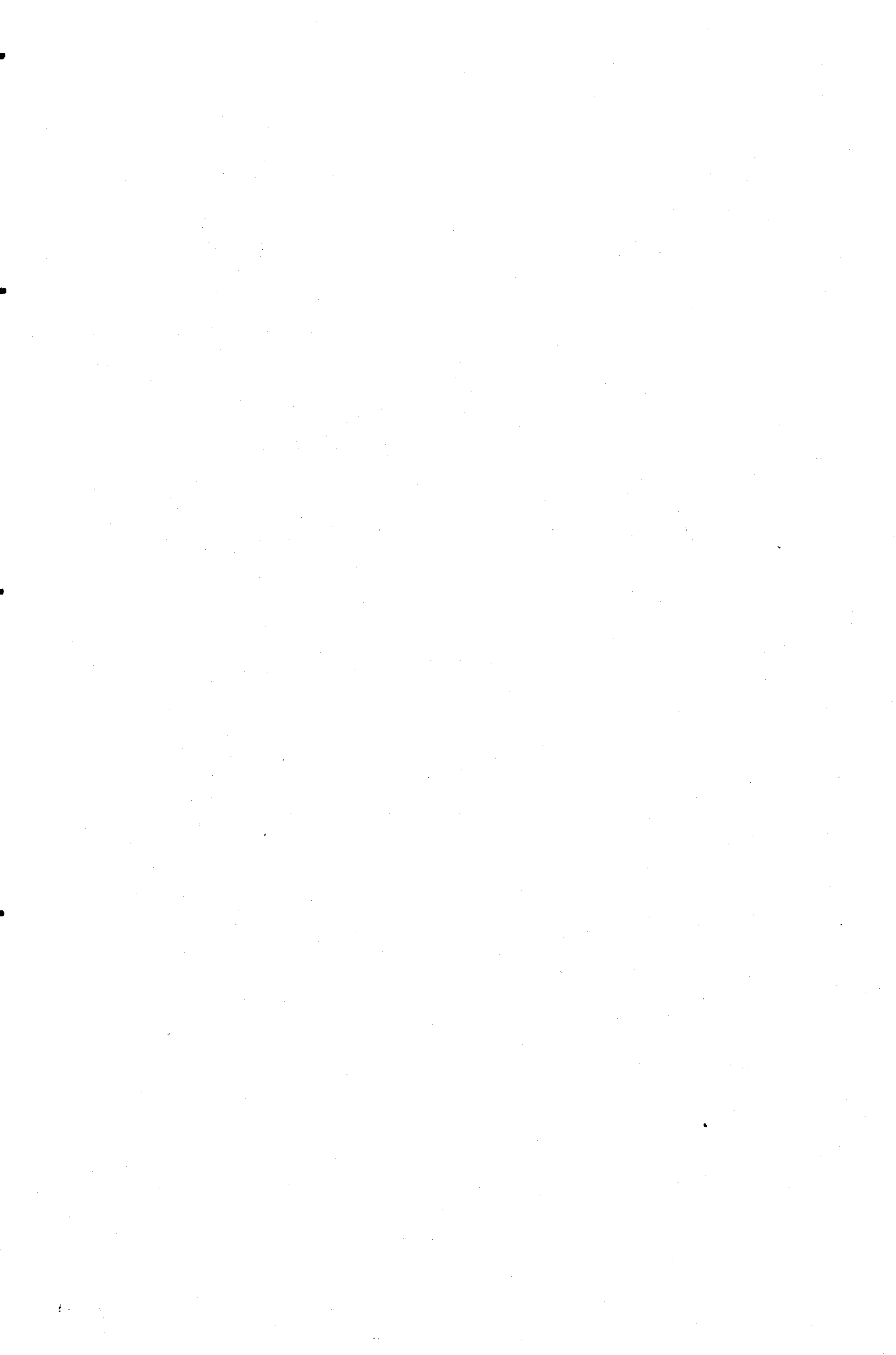
(١٣) النحو / ٧٨.

(١٤) الواقعة / ٥٧ . ٦٢.

(١٥) الكشاف للزمخشري ص / ٣ ح / ١ ط / ١ البهية المصرية ١٢٤٢ هـ.
(١٦) تمهيد لتاريخ الفلسفة ص / ٢١٥. د. مصطفى عبد الرزاق ط / ٣ مكتبة النهضة المصرية.
(١٧) آل عمران / ٦٤.
(١٨) الفلسفة القرآنية، عباس محمود العقاد ص / ١١.
(١٩) مناهج البحث عند مفكري الإسلام د. سامي الشتار ص / ٣٧٨.
(٢٠) نفس المصدر ص / ٣٧٩.
(٢١) مناهج البحث عند مفكري الإسلام ص / ٣٨٠.
(٢٢) نفس المصدر ص / ٣٨٣.
(٢٣) أسس الفلسفة د. توفيق الطويل ص / ١١١.

ماهية الحضارة وموقع الحضارة الإسلاميّة

للشيخ عثمان عبد القادر صافي



مَوقِع الحَضَارَة الإِسلَامِيَّة

المقدمة

إنّ البحث في « ماهية الحضارة وموقع الحضارة الإسلامية » هو لون من الدخول في واحد من جوانب الموضوع الأمّ. وهذا يسوّغ للكاتب ـ **إن** لم نقل ملزمٌ له ـ أن يرسم رؤية إجمالية لما أسميناه العنوان الكبير والموضوع الأمّ، وهو « الإسلام، والحضارة، ودور الشباب » حتى يأتي الانتقال، من العام إلى الخاص، طبيعياً ومنسقاً.

والإطار ـ الأعم ـ للقضية بأسرها، هو « الإسلام »، الذي له الأحقيّة ـ والأولوية، أن نحدد معالم له ليُهتدَى بهذه المعالم في البدء بالبحث ثم المضيّ فيه، حتى بلوغ الأهداف، وبين يدي كلمة ـ هي بمثابة مقدمة ـ في **تعريف** موجزٍ للإسلام ـ نجد أنفسنا أمام تقريرِ ملحوظاتٍ أولية تمليها الموضوعية في النظر :

١ ـ يتعين علينا ـ قبل الشروع والبدء، بل وطرح كل جانب من **القضية الكبرى ـ أن نقدر أهمية وخطورة ما نحن بصدد مناقشته : إنها قضية** الإنسان، ماضيه، وحاضره، ومستقبله، ولها من الأبعاد والأعماق ما يتعذر علينا تصوره، ما لم ندخل جِدّياً، إنه معترك ينتظرنا أن نخوضه، في ظروفٍ **يكاد سطح هذا الكوكب يئنّ من ساكنيه ويشفق على قاطنيه، والهواجس**

على مستقبل البشرية، هي في تصاعد مخيف.

٢ ـ إذا كانت ـ الحضارة ـ هي نتاج للنشاط الإنساني بمختلف صوره، فإن اللقاء هذا، هو جزء من التحرك الحضاري. بمعنى آخر : إن انتقاء هذه الندوة، يعتبر حلقةً في النموّ الحضاريّ المستمر والمتصاعد، فلقاؤنا ليس مجرد ترف نظري، بل المسئولية التي نضطلع بها ـ حسب التوجيهات التي عمّمتها الأمانة العامة الموقرة للندوة ـ بحرصها على « الجانب التطبيقي » ـ هي أن لا يقتصر دور الندوة على أن يكون منفعلاً، أعني جاء نتيجة لتحسس المسئولين بما تواجهه « القضية الحضارية » من أزمات، ولكن « فاعلا » أيضاً، ومؤثراً في دفة سير الحضارة الإنسانية، إنها ومضة حضارية يشهدها ظرفنا الراهن.

٣ ـ ومما يتعيّن علينا ـ من النواحي الموضوعية والتنظيرية أننا ـ في القضية المطروحة ـ أمام آراء ونظريات في المسألة الحضارية وتيارات لا يكاد يحصيها عد، فعلينا ـ والحالة هذه، أن نوفق وننسّق، بين الرؤية العلمية ـ التي تنظر إلى الأمور ـ والواقع ـ كما هو عليه، والرؤية الإسلامية الخالصة، فبهذا المنطق ـ وهذا المنطق وحده ـ يمكننا أن نتعرف على « موقع الحضارة الإسلامية » بعد التعرف على « الحضارة ذاتها » من جوانبها.

٢ ـ الحضارة في اللغة :

من السهل على من عنده إلمام بالشؤون الحضارية، أن يكتشف أواصر لغوية تربط بين لفظة « الحضارة » من جهة، والمدنية، والعمران، والتطور، والمعاصرة، من جهة أخرى، وبين الألفاظ هذه كلها، وبين التاريخ، من جهة ثالثة. غير أن العلاقة بين عامة الألفاظ هذه ـ وما جاء على غرارها، ليست علاقة ترادف.

ومن الألفاظ الآنفة الذكر، ما قد يستعمل بديلاً عن سواه كما هو الحال بين الحضارة والمدنية، مثلاً، غير أن مثل هذا الإطلاق فيه تجوّز، ذلك أن لكل من « الحضارة » و « المدنية » معنى مغاير كل المغايرة للآخر. غير أنه ـ لما كانت لفظة « الحضارة » مستحدثة ـ كما سوف يتضح ـ فإنه يمكن الزعم بأن مؤرخين قدامى نسبياً ـ كالعلامة الشهير ابن

خلدون، كان يستعمل كلاً من لفظتي « المدنية » و « العمارة » للدلالة على ما نسميه نحن اليوم « الحضارة ».

وبتتبع لأصل معنى مادة « ح ض ر » ـ التي تعتبر « الحضارة » من مشتقاتها نجد صاحب القاموس المحيط يشرحها كالآتي : « حضر : كنصر وعلم ـ حضوراً وحضارة، ضد غاب.. وكان بحضرته.. »[١]. وقال صاحب الصحاح : « كلمة بحضرة فلان، وبمحضر فلان، أي بمشهد منه.. والحضور ضد الغيبة[٢]. والحضارة حضور إنساني في عالم متقدم.

وفي الموسوعة البريطانية :

« ومن المفيد، الملاحظة أن كلمة حضارة ليست قديمة، يقول بوزول Boswell إنه حث جونسون (كاتب انكليزي عاش في القرن الثامن عشر وألف قاموساً في اللغة في ذلك الوقت) على إدخال هذه العبارة في قاموسه سنة ١٩٧٢. ولكن جونسون رفض وفضّل الكلمة القديمة : سيفيليتي » « Civility » هذه الكلمة ـ مثل كلمة أربانيتي « Urbanity » « تعكس الاحتقار عند أهل المدن للريف ـ أو البربري، هذا ـ (يقصد سيفيليتي أو أربانيتي ـ كاتب البحث) ـ مصطلح العبارة »[٣].

مَاهِيَـةُ الحَضَارَةِ بَيْنَ العِـلْمِ وَالفَلسَفَةِ

الرؤية الفلسفية للحضارة بين القبول والرفض :

يـرفض « البعض » أي شكل للحضارة غير الشكل المادي ولا يعترفون بما هو خارج عن الظواهر الكونية المحسّة، والمذهب المادي معروف، ويتركز الاعتراض على رفض أن يكون للحضارة خلفية وراء المشاهد المحسوس.

تعرف الموسوعة الفلسفية ــ وهي من « وضع لجنة من العلماء، والأكاديميين السوفياتيين »[٤] ــ تعرف الفلسفة بأنها : « علم القوانين العامة للوجود (أي الطبيعة والمجتمع)[٥] والتفكير الإنساني وعملية المعرفة. والفلسفة شكل من أشكال الوعي الاجتماعي، وهي تحدد في النهاية بعلاقات المجتمع الاقتصادية. والمشكلة الرئيسية في الفلسفة باعتبارها علماً، خاصاً، هي علاقة الفكر بالوجود، والوعي بالمادة ». الخ[٦].

لن نسمح ــ بالطبع ــ للنظريات المادية ــ الجدلية، أن تجر القلم عبر متاهات، ولكن يتعين علينا، بل توجب أمانة العلم، ان نكون على وعي تام، من انعكاس هذه المفاهيم على الحشد من الآراء حول مفهوم الحضارة. ونحن نرفض ــ بشكل قاطع ــ كل محاورة للمصادرة على الأفكار، لحجب الرؤية.

٢ ـ الانتماء الحضاري :

بين العلم والفلسفة

بوسع المحلل للشئون الحضارية، أن يميز بين ناحيتين فيما يتعلق بالعلم : « علم الحضارة »، « وحضارة العلم ».

فأما « علم الحضارة »، فنعني به الأبحاث التاريخية ـ أو المعاصرة، التي تدرس الظواهر الحضارية لأمة من الأمم أو شعب من شعوب الإنسانية كحركة وعي ونشاط فكري وإعماري للكوكب الأرضي منذ فجر التاريخ حتى عصرنا الحاضر. وأما « حضارة العلم » فهي ذلك النموذج من الحضارات التي ابتنيت على أسس علمية، فترقى كل أمة ليصدق عليها هذا الوصف، بالقدر الذي يشكل فيه العلم عاملاً في المقومات الحضارية، أو تهبط، حين تكون حصائل العلم بدائية.

وبعبارة أخرى، يمكن القول : إن « علم الحضارة » هو قواعد كلية، ترسم المعالم لما نسميه حضارة، وعلى ضوء تلك القواعد ـ القوانين ـ يمكن تقرير إن كانت نهضة ما، أو مدنية، يصح نعتها بأنها حضارة أم لا، كما يمكن أن تساعدنا ـ مثل هذه القواعد ـ بحكم ما تمثل من معايير، أن نقارن بين حضارة وحضارة، نشوءاً، وارتقاء، وانقراضاً، أو هبوطاً وتحولاً.

ماهية الحضارة :

مما لا شك فيه أن حضارات العالم ليست نمطاً واحداً بل لكل حضارة ميزة خاصة بها ومع ذلك فقد صنفت إما بحسب أهلها أو الأرض التي أقيمت عليها.

والسؤال : لماذا هذا الربط بين الحضارة والقومية أو بينها وبين الأرض. ولم تربط بمنجزاتها ؟

وهو الأجدى والأجدر !!

ولا نجد أنفسنا أمام أحراج، يضطرنا إلى التدليل على أن القومية الحديثة هي نزعة فلسفية، ذلك لما لها من إثارة على صيغتها التي عليها نمت منذ غياب سلطة الكنيسة في الغرب مع طي التاريخ للقرون الوسطى،

يقول لبيب عبد الستار في كتابه : « الحضارات » وتحت عنوان « النهضة في الغرب ـ التململ » :

« خلال القرون الوسطى، تميزت الحياة في أوربا بمظهرين : النظام الاقطاعي وسيطرة الدين. وعند حلول القرن الخامس عشر، تململ المجتمع محاولاً التفلت من سلطان هذين العاملين. وتفككت أواصر الوحدة الكاثوليكية، وتبلور مفهوم الوطن، فكانت الدول مثل فرنسا وانجلترا وأسبانيا وألمانيا... وسيطرت اللغات القومية على حساب اللغة اللاتينية التي كانت وحدها لغة الأدب والعلم والدين[٧]. عبر كل أوربا »[٨].

القسم الثاني

الفصل الثالث

حضارة أم حضارات ؟

١ - رؤية علمية

وأما أن ما ندعوه بـ « الحضارات » انما هو مسلسلٌ لوَمَضاتِ النبوغِ لأممٍ مضت، وأخرى لا تزال، وهو ما لا يفتقر إلى استدلال. فمن المسَلّم، أن لكل شعب ـ أو أمة من الأمم ـ هُوية تميزها عن سواها من الأمم. وما « الحضارة » سوى واحدة من أبرز الظواهر التي تعكس ذلك النشاط الذي أتاح القدر لتلك الأمة أن تدرجه ضمن حلقات « الحضارات ».

يعرّف فاريك « Wahrig » ـ الحضارة في معجمه « Deutsches Wörterbuch » بأنها : « الصور الخارجية المهذبة والمتقدمة تقنياً للحياة وأساليب العيش عند شعب ما »[٩].

وأما معجم وبستر فيفسر الحضارة بأنها : « ٢ ـ فن التربية ٤ ـ حالة من الثقافة وخاصة بمعنى التنور وسمو الذوق اللذين يُكتسبان بالمران العقلي ٥ ـ ٢ ـ النمط الكامل للسلوك الإنساني ونتائجه مجسدة في

الفكر والكلام والعمل والفن، ويعتمد على قدرة الإنسان على التعلم ونقل المعرفة للاجيال المتعاقبة من خلال استعمال الأدوات واللغة ومناهج التفكير المجرد »[١٠].

الحقيقة التي نجد أنفسنا أمامها وجهاً لوجه ـ أن « الحضارة » ليس لها ـ أو لنشوئها بتعبير أدق ـ توقيت محدد، بل الإنسان لا يفتأ، ولا يبرح يتفنن، ويبدع، ويكتشف، دون أن ندرك ـ بعبارة علمية غاية في الدقة والتحديد ـ أوّليةً لهذه النشاطات البشرية والإنسانية.

وفي معرض عرضها لهذه الحقائق، تقرر ـ الموسوعة البريطانية، في تعريفها بـ « الحضارة » « Civilization »، « أنها ـ أي الموسوعة نفسها ـ ليست سوى تاريخ للحضارة. يقول كاتب المقالة :

« هذه الموسوعة هي في نفسها وصفٌ للحضارة الإنسانية، لأنها تحتوي على قصة المنجزات الإنسانية بكل تصوراتها الباهرة. إنها تعرض ما كان الناس ولا يزالون خلال مئات الألوف من السنين يتعلمونه عن أنفسهم وعالمهم، والمخلوقات التي تشاركهم في هذا العالم »[١١]. وتحت عنوان : « المفهوم الجديد للحضارة » ـ يقول : « ليس من الممكن أن يكون هناك **فهم حقيقي لِلمُمَيِّزات الرئيسية والأساسية للحضارة حتى تقام أو تثبت وتضم** حقيقة أنه إذا كان بإمكاننا تتبع سلالة الإنسان رجوعاً إلى مدى بعيد بشكلٍ كافٍ، إذن لأمكننا أن نجد أنها ممتزجة مع سلالات الحيوانات المتوحشة، بدون ملاجئ اصطناعية، ثياب، أو نطق، معتمدة في بقائها على بحثها اليومي عن الطعام. إنه يتطلب جهداً كبيراً من الخيال أن يتم تصور الجنس البشري بدون تلك الحاجات الظاهرة حتى للحضارة البدائية. بدون نار وأدوات، يفترض أن الناس كانوا يعيشون كما كانت تعيش فتاة متوحشة بالقرب من شالون سورمارن (منطقة في فرنسا) عام ١٧٣١ »[١٢] وينقل المقال ـ أن « علماء الأجناس الجدد [١٣] أشاروا إلى أن الشعوب التي هي **بدون مدن مثل قبائل بولينيزيا والهنود الحمر في أمريكا الشمالية هم على درجة** عالية من الحضارة، بمعنى أنه ـ لدى التدقيق ـ (الاختبار) ـ المتعاطف ـ **وجد أنه كانت لديهم لغات (متضمنة معاني دقيقة)، فنون أصيلة (هذه الأشياء**

كلها)، مناسبة، بشكل يثير الإعجاب لظروفهم ومؤسساتهم المتطورة، وممارساتهم الاجتماعية والسياسية والدينية، وأساطيرهم ـ الوثيقة (الموثوق بها) ـ التي هي ليست بأحسن، ولا بأسوأ من كثير من تلك التي تسود اليوم بين دول أوربا »[١٤].

ويمكن القول ـ عموماً ـ أنه من الوجهة التاريخية ـ العلمية ـ لا يُستطاع القطع برأي في الموضوع، غير أنها مؤشرات ودلائلُ، تتجمهر لتُكْسِبنَا ما يشبه القناعة، بأنه لم يكن ثمة أصلان ـ أو أكثر، للإنسان. وإذا كنا قد حصرنا المصدرية ـ هنا، بآثار الأسلاف، فهو التزام بالمنحى العلمي الذي نحن بصدده، وذلك لا يعني أنْ ليس ثمةَ مصدرٌ آخر، هو الوحي، وسيأتي.

وضمن إطار ـ وبمقتضى الأصول ـ العلمية ـ المحلِّلة لأحداث التاريخ، يسعنا ـ في موضوعنا هذا، أن نستأنس بظاهرة، لنا من الحق ما يُخَوِّلنا إدراجها ضمن المُعطيات. وهي ما يشتبه « الترادف اللغوي »، في « تسمية » « **الظواهر المدنية والحضارية والثقافية** ». ومن يراجع المعاجم والموسوعات الأجنبية، ثم يقارن بينها من جهة ثم مع المراجع العربية من جهة، وربما غير هذه اللغات مما ليس بمتناول أيدينا أيضاً، فهو يستطيع باستجماعه للصورة، أن يرى « وَحْدَة » في واقع الحياة البشرية، رغم جميع **ما تأكد من وجود حضارات عبر التاريخ، بل ورغم ما يبدو من تباعد بين** مناطق المعمورة[١٥]. فالأرض ـ التي نجدها في عالمنا اليوم، تتجه مجتمعاتها نحو التلاصق، وتشد وسائل الاتصال المختلفة أصقاعها إلى البعض الآخر، متحدية ما تعانيه من انقسامات مذهبية وسياسية، الأرض هذه هي موطن إنسان التاريخ، موطن الجدود والأسلاف، الذين ينبغي لنا أن يعترينا الحياء، إن نحن زعمنا أننا انحدرنا من جدود متبايني الخِلقة ينسالون من أكثر من أصل واحد.

وجميل بنا ـ بهذا الصدد ـ ألا نتجاهل وجهة نظر تنتسب إلى العِلمِية، مع أنها فلسفة، وهي تلك التي يحملها مادّيّو النزعة، وتتبوأ زعامةَ هذا الرأي، الماركسيةُ اللينينية، فيما يتعلق بالوجود، والإنسان، وبالتالي :

تحضره وحضارته.

والاتجاه لدى المؤرخين السوفييت يميل إلى « وَحْدَة » أصل الإنسان، رغم كونهم يرون أن « من الأرجح أن الإنسان الأول كان في جنوب شرق أفريقيا وشرقيها، لأن أسلافنا ظهروا في هاتين المنطقتين بالذات منذ نحو « ٣ ـ ٤ ملايين سنة ». « ومرد ذلك أن جنوبي شرقي أفريقيا كان منطقة نشاط بركاني شديد وحصلت هناك زلازل وانفجارات بركانية متعددة مما أسفر عن انتشار الرواسب المشِعّة في مساحات شاسعة » ويعزو عالم الآثار أناتولي بيلوغورسكي كشف « تواجد الإنسان في الأزمنة الغابرة، إلى ما دعاه هيرلد « ماتيوشين » الذي تنبه لحالة لم يفطن لها غيره من العلماء العلماء في السابق. وهي أن أماكن العثور على عظام الإنسان البدائي تقع دائماً قرب المكامن الغنية بالأورانيوم حيث الإشعاع الشديد.. » وحيث يعترف الكاتب بأن « أول إنسان يسير على رجليه أطلق عليه العلماء الإنسان الماهر، ويزيد حجم جمجمته مقدار الضعف تقريباً عنه لدى الفرد، إذ يبلغ ٨٠٠ سنتمتراً مكعباً » فهو يقول ـ مختتماً مقالته : « فمنذ ٩٦٠ ألف سنة حمل الارتكاس الارمغناطيسي الدوري، وحل محل « الإنسان الماهر » إنسان جاوة الذي ارتقى درجة أعلى في سلم التطور، وبمضيّ مئات آلاف السنين تغيرت علامتا القطبين مرة أخرى، وانقرض إنسان جاوه وظهر سَلَفُنا الإنسان النياندرتالي » وبعد عشرات آلاف السنين خلف هذا النوع، الإنسانُ الذي يقطن كوكَبنا الآن واسمه « الإنسان العاقل » وما الأمر ؟ إن الصخور والرواسب الأرضية « سجّلت » من جديد تغيراً في علامتي القطبين المغنطيسيين في تلك الحقبة البعيدة بالذات. وهكذا تؤكد « فَرضية ماتيوشين » الاستنتاجات الأساسية التي توصل إليها فريدريك انجلس، وَتُكَمّلها وتوضّحها في الكثير من النقاط » ا هـ.(١٦).

إننا لنجد أنفسنا في غنىً عن مناقشة هذه الفَرَضيات التي تقرر وقائع مر عليها ملايين أو عشرات الآلاف من السنين، ونترك ذلك لذويه. كما أننا لا تحدونا رغبة للتعرف على المكامن النفسية ـ وربما السياسية، أو لِنُسَمِّيها الايديولوجية أو الفلسفية، التي صرفت أذهان هؤلاء عن افتراض قائم ـ على حد نظرياتهم، وهو أن تكون قد ظلت بقايا حية ـ هي أحفاد، لهذه

« الأصناف » من « الجدود ». ولا تقنعنا توهماتٌ ينون عليها، لمجرد أنها تملأ فراغاً فِكرياً ـ علمياً ـ فلنتقبل ـ برحابة صدر إقرارهم بوحدة أصل الإنسان. غير أننا ـ إن نحن التقينا في هذه النقطة، فثمة جوانب أخرى، لا سبيل إلى التلاقي بشأنها، وترتبط بموضوعنا ـ « الحضارة »، بصورة مباشرة. ومن أبرز تلك الجوانب : الرؤية المبدئية للكون، وإنْ كان الوجود مجردَ مادة ذاتية، أزلية، أبدية، حتى تغدو الحضارة، حسب المفهوم هذا، أن تكون مظاهر راقية للمادة، ومنها : الإنسان نفسه، وذكرنا ما فيه الكفاية عن هذا بما يليق بالدراسة الموجزة هذه. ومنها ـ أيضاً ـ عوامل التطور، ومن أبرز نقاط الخلاف فيها، أن كان ارتقاء الانسان قد تم بمحض امكانياته البشرية، أم إذا كان ثمة وحي، نزلت به الرسل، ولا يقف دور هذا الوحي على مساعدة الإنسان للإفادة مما خلق الله له من مادة بل مواد لا يحدها الحصر، تحفظ كيانه، بل حماه من شرور كثيرة، وكان يأخذ بيده، بين وقت ـ أو عصر وآخر، أن يتردّى مستجيباً لنزواته الحيوانية الشرسة، كل هذا، فيما يتعلق بحياتنا الدنيا التي نعيشها في حضورنا الواعي اليوم، ناهيك بما لارتباط الحياة الإنسانية ـ والكونية ـ طراً » بالآخرة.

قد تبدو ـ المسائل هذه ـ فلسفيّة محضاً، وهي كذلك، ولكن ـ الفلاسفة الماديين ـ وعلى رأسهم الماركسيين اللينينيين يأبون أن يُفرقوا بين الفلسفة والعلم إلا على طريقتهم طالما كانت القضية ـ أولاً وآخراً، هي المادة، بما في ذلك الإنسان، وأفكاره، ومنجزاته.

مرة أخرى، لن نخوض معترك جدل، ونحن لا ننكر حقيقة أن الإنسان تدرج في استخدامه للمعطيات الحياتية المحيطة به والمنتشرة حوله والتي منها أدوات الإنتاج، ولكن لا نُقِرّ ـ على الإطلاق ـ أن لـ « أدوات الإنتاج » الفضل ـ الأوحد ـ على حدِّ ما يراه هؤلاء ـ في التطور الحضاري للإنسانية.

ب ـ المنهج ـ العلمي ـ للمسلمين ، في تأريخهم للحضارة * :

لقد تأثر المفكرون والكتّاب، في عالمنا الإسلامي، إلى حد كبير، بالمفاهيم الغربية ولم يسلم التأريخ، من ذلك التأثير، وإذا كان لهذه الظاهرة

عوامل لا يكاد يأتي عليها الحصر، فإن من المؤكد أن من تلك العوامل، الهُوية الغربية في نمط التفكير، التي ـ رغم ما لها من خصائص مميزة فإنها تظل مدينة ـ في ارتقائها، إلى ما خلّفه الأسلاف من نتاج وثراء في عامة جوانب الحياة، ومن المآثر، للسلف، المنهجية التي كان يلتزم بها المسلمون في علومهم، وفي التأريخ. ومن أشد ما ناله سلفنا الصالح من الحقوق، تلك المحاولات التي تبذل، والتي لا تقف عند تجاهل ما لهم من فضل وحسب، بل تتعدى ذلك إلى تصوير مآثرهم على أنها مثالب.

وقوانين التاريخ، وقواعد الاستثبات، وأصول التوثيق، موروثة عنهم، فعلم « مصطلح الحديث » مثلاً ـ الذي هو فرع أصول الفقه، لم يُسبقوا إليه قط، ويضع العلم هذه الأسسَ والضوابطَ للنقل، على صورة تبعث على الروعة والإجلال، وعملية الاستقراء التي قام بها المسلمون للعلم وضوابطه، كل هذا معروف لدى المعنيين بكافة حقول المعرفة بمن فيهم غير المتخصصين.

ولعل من أبرز ما أخذ على مؤرخينا المسلمين، أنهم كانوا يسردون **الأحداث كما هي، دون تحليل. وبهذا يكونون « نقلة » للتاريخ، وليسوا** مؤرخين بالمعنى الدقيق للكلمة، على حَدّ ما يشتهر اليوم من أن التحليل التاريخي ـ بدراسة الظواهر وتعليلها، وتفكيك ألغاز العوامل والمؤثرات والمتأثرات ـ هو جزء من وظيفة المؤرخ.

ونكتفي بالإشارة، إلى أن مثل المطلب هذا ممن يُعتبرون « مؤسسين للتاريخ » ونعني بهم المسلمين، هو غير مستطاع، بل هو افتراض مبني على أن الرؤية التاريخية ينظر إليها مقلوبة الصورة :

فأولاً : ليس صحيحاً، بالمعنى الدقيق للكلمة، أن المؤرخين المسلمين لم يكونوا يحللون الأحداث، ذلك أنهم كانوا يعرضونها بصيغة تنطق بالتحليل.

ثانياً : يظل اسم الإمام في التأريخ ـ العلامة الشهير عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي ـ مَعْلَماً في هذا المجال، ومُقَدمته لموسوعته : « كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العجم والبربر، ومن عاصَرَهم من ذوي السلطان الأكبر ». تظل بمثابة التتويج لعلم التأريخ في العصور

الإسلامية. وإذا كان قد عني في مقدمته بشؤون ركز الغربيون على اعتبارها المرجع الأول لنشأة علم الاجتماع الحديث، فهل هذا الذي يسمونه الاجتماع هو شيء غير « الحضارة » إن نحن تسامحنا في استعمال الألفاظ ؟ فليس ابن خلدون ـ إذن الذي حلل وعلل ـ ينطبق عليه هذا الوصف، بل وكافة من سبقه من المؤرخين المسلمين.

ثالثاً : إن قضية التاريخ لم تكن الشغل الشاغل للسلف رحمهم الله، **بل كانت تمثل أحد جوانب ما كانوا يستشعرونه من مسؤوليات تجاه** الإنسانية. وأما الذي كان يستحوذ على مشاعرهم وأحاسيسهم، ويملأ معظم حياة كبارهم فهو « صنع الحضارة » و « بناء الإنسان » وتصحيح الأوضاع الاجتماعية وتنقية الأرض من الفساد، وهم ـ رغم ما كان يشغلهم من أعباء وواجبات دينية من عبادة وجهاد، فإن ذلك لم يذهلهم عن أن يقوموا بمهمة التدوين للأحداث. والمدهش أنها جاءت ـ رغم ما تتسم به من عفوية ـ أقرب إلى إحصائيات واسعة النطاق، شملت كل ما يمكن العثور عليه من أخبار الماضين، وتسجيلها فيما نسميه نحن اليوم « دوائر معارف » ومن نماذجها تاريخ ابن خلدون، والطبري، وابن كثير والبلاذري، والمقريزي، وابن خِلكان وغيرهم كثير من أمتنا العظماء والأجلاء.

رابعاً : وكان مما تتميز به منهجيتهم في التأريخ، الرواية، ويا لها من **مأثرة لعل أروع ما فيها، تحررهم من التعصب. فقد نقلوا ـ رحمهم الله ـ ما صح وما لم يصح، ما لهم وما لسواهم، وأية ميزة للتاريخ، يمكن أن تفضل على نقل الوقائع والأحداث والمرويات كما هي ؟ وينظر البعض إلى هذه المأثرة على أنها مأخذة، لما تضمنته كتبهم من الإسرائيليات والضعيف من** الأحاديث. وهذه غفلة عن جوانب ـ بالغة ـ من الخطورة :

فأما فيما يتعلق بحفظ تراث الخصوم، فإننا يتعذر علينا أن نقدر أهمية المأثرة هذه، ففيما لو أنهم طمسوا معالمها، وأتلفوها، إنها ستكون مأخذة وأي مأخذة، ذلك أن الذي سوف يقال : إنهم أتلفوا الحقائق.

وأما بالنسبة إلى الضعيف والموضوع، فهي مأثرة من نوع آخر، فبالإضافة إلى ما توجبه الأمانة والوثائقية، فقد مَضَوْا ـ في منهجيتهم ـ

رحمهم الله، على خطوط، لتلافي ما قد ينجم عن نقلهم لما دُونَ المتواترِ أو الصحيح والحسن من المرويّات، من ذلك، قوانين التوثيق باشتراط العدالة والضبط، وعلم الرجال، والتعديل، والتجريح حتى ألّفوا في هذا المصنفات الطوال.

يضاف إلى هذا وذاك، أن ـ المنطق العلمي ـ لا يسمح ـ للعالم، أياً كان حقله ان يتجاهل الفَرَضيّات، قويت احتمالاً أم ضعفت، وكم من ضعيف تبين بعدُ أنه ليس كما وُصِفَ، أو ـ على الأقل، مثّل معياراً للصحيح، ومعرفته، عن طريق المقارنة.

ثم لا يفوتنا ـ في هذا المقام، أن نذكر ـ وبالغ الفخر والاعتزاز، أن كل خَلَف، لم يكن مقلداً تقليداً أعمى لسلف، بل كان : إما مجتهداً، أو مُتّبِعاً على بصيرة.

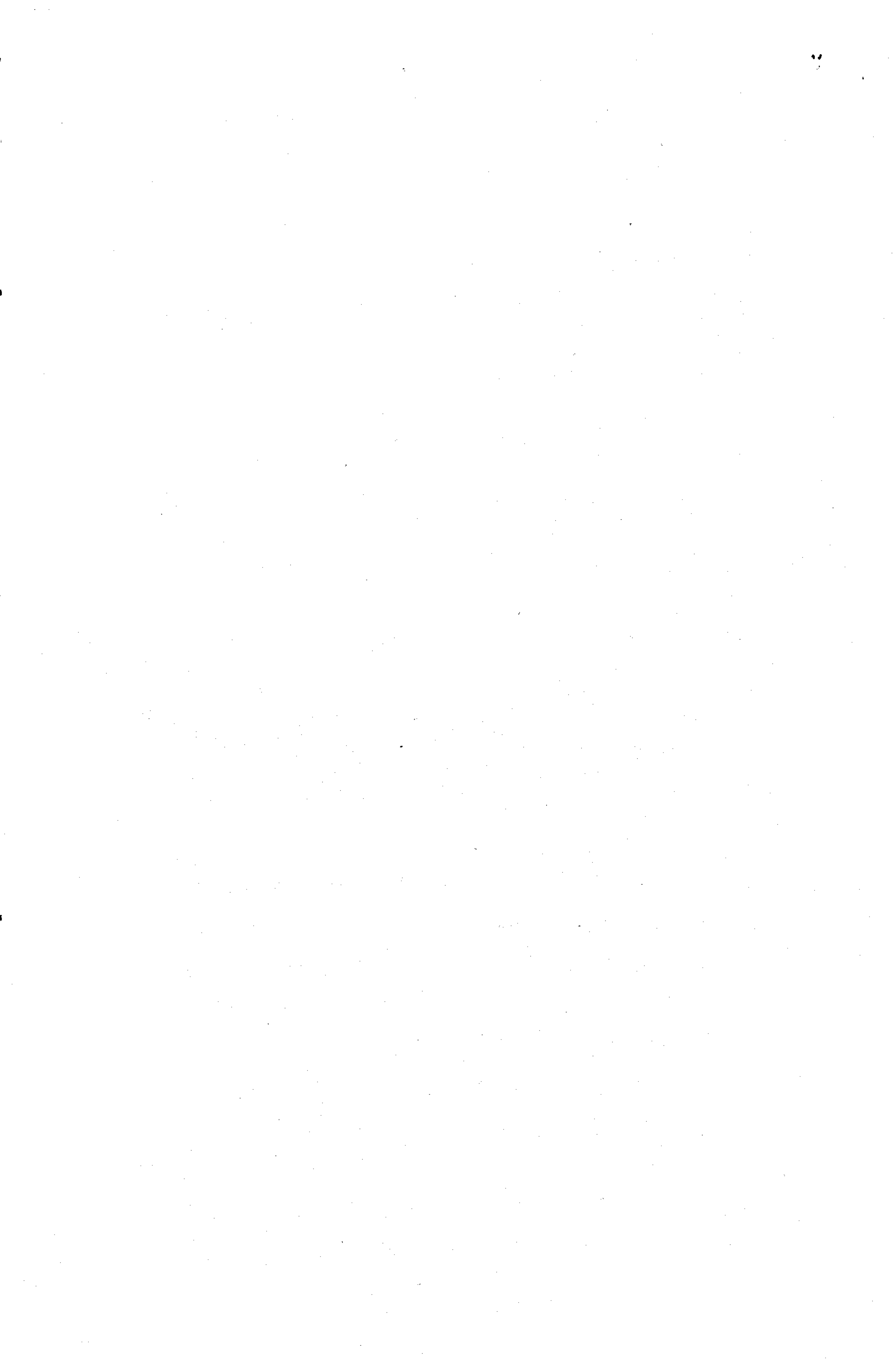
وأما المهم في الأمر، فهو « الأمانة ».. وهكذا تحال القضية إلى « المبدأ الأخلاقي » الذي لم يُعرَف مثيلٌ للإسلامي منه ـ عبر التاريخ القديم والحديث. هذا، ورغم أن هذا المبدأ كان سائداً على نطاقٍ اجتماعي فقد كان « الصدق » من « أخلاق المجتمع » وليس الفرد فقط، فإن السلف الصالح ـ رحمهم الله، لم تغمض أعينهم عن تجاوزات قد تحدث، وكان لـ « التدليس » وغيره من آفاق النقل أبواب في بحوثهم وقواعدهم للتاريخ والرواية ـ في علم المصطلح وغيره من الأصول.

تبقى ناحية، تتعلق بالحضارة، اهتم بها المتأخرون ـ الغربيون اليوم ـ دون السلف من المسلمين، وهي الاكتراث البالغ بالمظاهر المدنية والاثَريّات، فلقد أفاض سلفنا ـ رحمهم الله ـ في الكلام عن الأقوام الذين كانت الرسل تبعث إليهم، بمن فيهم الفراعنة مثلاً، ولكنهم لم يُولوا عظيم اهتمام للأهرامات **مثلاً**، أو لمعابد الفرس وسائر المشرق، والمغرب، وإن كانوا حَرَصوا على التعريف بمراكز العبادة للأديان السماوية، ومرد هذا إلى « الانتمائية الفلسفية » لكل من الحضارات. والاهتمام ـ عند الإنسان، هو فرع عقيدته ومفاهيمه، وهذا لا يخص العرب وحدهم ـ الذي قطع أحد كبار حكامهم ثاني الخلفاء الراشدين شجرة الرضوان، بل يعم جميع من

سجّل لهم التاريخ حضارات، بمن فيهم الغربيون اليوم ـ رأسماليين أحراراً أو شيوعيين اشتراكيين. ومرة أخرى : **الفضل والمأثرة للمسلمين الذين ـ بِحَطْمِهِم للأوثان ـ لم يكن هدفهم قط محوَ حضارات، ولكن سحقَ الوثنية** والشرك. هذا السحق، الذي لا تزال تنعم البشرية اليوم بفضله، وإذا كانت تنبت له بذور، فإنها إن كانت تدل على شيء، فهي مؤشر ـ تاريخي على ضرورة أن ترجع ـ الإنسانية بأسرها ـ اليوم إلى الخط السويّ الذي رسمه وحي الله، وهي نذر، بتدهور مريع تتعرض له. وتُكتب ـ هذه الأسطر، على أثر المجزرة الجماعية التي حدثت في مزرعة « جونزتاون » والانتحار **الجماعي المريع الذي ارتفع عدد ضحاياه إلى (٩٠٠) لأعضاء ما يدعى** بطائفة « هيكل الشعب » في غويانا بأمريكا اللاتينية[١٧].

ومن الجدير ذكره، أن صحيفة الايكونومست البريطانية، علقت على الحادثة هذه ـ في مَعرِض التحليل للمجزرة، ورأت « أنه ـ بفتح ملف الأديان التقليدية نرى أن الأديان التقليدية، كلها، تتهاوى، ما عدا الإسلام، فإنه يحافظ على مواقعة، في الوقت الذي تحاول فيه الكاثوليكية لملمة مواقعها »[١٨].

و « الشيطان » لا يفتأ يعثر على من يجدد الولاء له، فنرى عَبَدتَهُ يظهرون بأشكال وأنماط مختلفة، خارج العالم الإسلامي، على الأخص في الغرب، الذي تباح فيه الحريات المطلقة، حتى يحق ـ في الولايات المتحدة **مثلاً ـ لكل راغب، أن ينشئ لنفسه ديناً، في الوقت الذي تُكْبَت فيه المشاعر الدينية وممارسة الحقوق الشرعية من تكاليف، غير عبادية، في** البلدان الاشتراكية.



الفصل الرابع

حضارة أم حضارات ؟

رؤية فلسفية

هل تقف ـ مسؤوليتنا ـ وما نضطلع به من تحقيق، أن « نؤرخ للحضارة » ـ القديم منها، والحديث ؟ أم أن القضية هي أكبر من ذلك كله، بأن تكون بحوثنا في ندوتنا هذه « إنجازات حضارية »، تدخل ـ ضمن المسار الحضاري ـ فاعلة ومؤثرة ؟

الثاني ـ دون مراء ـ هو العبء الذي نضطلع به..

إذا كان الأمر كذلك ـ وهو كذلك فعلاً ـ فإن جهوداً تبذل، تعريفاً للحضارات، وتَعَرُّفاً عليها ـ بما فيها الحضارة الإسلامية، لن يكون سوى مجرد معلومات نستجمعها كالتي تختزن في الآلات الحاسبة « الكومبيوترز » وأما الإنجاز المرتقب منا، فهو « استخدام » تلك المعلومات، التي تُصور لنا « ما كان » أو « ما هو كائن » فنسلطها أضواء على « الوضع الإنساني » لنتعرف ـ بواسطة ما هي ثرية به من معطيات ـ كي نكتشف الحقائق، ونصل إلى الهدف، وهو معرفة « ما ينبغي أن يكون » هذا إن لم نقل « يجب » ولعل الحقيقة هذه، تميط اللثام وتهتك الحجب التي تعيق وضوح الرؤية حتى تبلغ بنا المعرفة، أن ندرك الفارق بين « الحضارة »

و « التاريخ للحضارة ».

إن الذين « يُؤرخون للحضارات » ـ ويصح لنا ـ ببعض التسامح ـ أن نسميهم « علماء الحضارة » قد أسدوا إلينا خدمات جُلّى، بنقل ما يصح لنا أن نسميه « صوراً » لمسار البشرية في تاريخها، وما يشبه أن يكون « روائع من ثمار النشاط الإنساني وإفرازات العقول لعباقرة، غير أنه من الملاحظ، مما لا يتطرق إليه الشك ـ أن اهتمام المتخصصين بالحضارات قد استهوتهم الآثار المادية، المشاهدة، من بناء وعمران، وما طرأ على نسقِ حياة الإنسان ـ المظهرية ـ من تطوّرٍ وارتقاء.

ولكن، ثمة منجزات، رغم روايتهم لها، لم تكن تحظى سوى بحظ من الدرجة الثانية إن صح تقديرنا، وإذا كان « المؤرخ » : يعذر، بأن يركز على الآثار المُحسّة، بموجب ما تمليه قيود العلم من دراسة « الظواهر » فإن ثمة « ما وراء الظواهر »، التي ـ وإن لم يسقطها المؤرخون من حسابهم، ولكن كان لها حظٌ هامشي يكاد يكون مقتصراً على « تظهير » صورها، وإذا كان من جاء قبلنا من الأقوام سَخَّروا معطيات ما يحيط بهم من موارد الطبيعية، وكانت لهم إنجازات باهرة ـ في حياتهم المادية، فقد كانوا معتركاً بالغ الضراوة غير منظور، ولكنه مدركٍ، وترك معالم تبقى آثارها، في حياتهم المعنوية والروحية. وبعبارة أخرى : إن السبل الحياتية المادية والمعيشية التي كانوا يَمضون عليها على مسار التاريخ ـ كانت « توازيها » « مسارات أخرى، غير مُحَسّة، سبق لهم أن غذّوا السير فيها أيضاً » :إنها الحياة المعنوية التي كانوا يحسنون اختيارها حيناً، ويضلون السبيل طوراً، حتى ـ كثيراً ـ ما كانوا يتيهون عن جادة الصواب تيهاناً، هذا إن لم نقل يسقطون في منزلقات مهلكة، ويتردون في منحدرات قاتلة.

نحن لا ننكر ـ بالطبع ـ على مؤرخي الحضارات ـ فضلهم في نقل صور عن الأحوال الفلسفية لمن سلف من الجدود، وكذا الدينية، ولكن هل يقف الأمر بنا، عند حدود التقاط ما هو أشبه بالصور الفوتوغرافية، ونضعها ـ كلوحات. في معارض ؟

مرة أخرى، قد تكون وظيفة ـ المؤرخ، تقف عند هذا الحد، ولكن

بصفته « عالماً » ـ حسب المفهوم ـ المعاصر ـ للكلمة ـ غير أن الرؤية الفلسفية، تفوق هذا المعنى بل تغايره، وتتخطى هذه الحدود، بكثير، كثير..

والمنعطف ـ في البحث ـ الذي يتعين علينا أن نواجهه، لنتجه بأنظارنا نحو الجانب الفلسفي، لا يعني ـ بالضرورة، الانتقال الفجائي، أو القفز من أفق إلى آخر بل يفترض أن تكون ثمة أواصر تربط بين المجالين ـ العلمي والفلسفي، أو المظهري والضمني ـ، للمسألة الحضارية، لا نعذر إن نحن جهلناها. ذلك أن المؤرخين ـ الذي أملت عليهم موضوعية العلمية في البحث أن يلتزموا بالظواهر لم يُغفلوا ـ بل لا يستطيعون هذا ـ الهوية الفلسفية لكل حضارة، سواء القديم منها أو الحديث، من الحضارات الإنسانية.

ولسنا هنا ـ كما هو واضح ونوهنا به في أكثر من مناسبة ـ بمعرضِ التأريخ للحضارات بما في ذلك التعريف بهوياتها الفلسفية. ويكفي أن نشير أنه كان لكل قوم ـ ذوي حضارة ـ هوية فلسفية، تتمثل فيما كانوا يعتقدون، من أديان توحيدية أو وثنية، أو تفلسف، حتى اشتهرت ـ على سبيل المثال ـ الهند بتعداد الديانات والشرق عموماً بنماذج من الفلسفات. وينسب إلى الصينيين القدامى عبادة ظواهر طبيعية، وأما الحضارة اليونانية فقد تميزت ـ بالإضافة إلى الوثنية ـ بالخيال والفكر الفلسفي والفنية في الطقوس ـ والرومانية البيزنطية بالتشريع، والمصرية بتعدد الآلهة، وبالإيمان بالبعث، ويعزى إلى « أخناتون » أنه حاول توحيد الآلهة، ثم ما لبث أن فشل بعودة التعددية إلى غير ذلك مما هو منقول عن الحفريات والأساطير وتغص به كتب التاريخ.

ونسجل ههنا ملاحظة على المؤرخين المعاصرين ـ وأغلبيتهم من الغربيين ـ فقد صُبّ اهتمام المستشرقين منهم ـ على الأخص ـ على ظروف تاريخية معينة، فيُفاض في التعريف بها حتى تضخم الأحداث لتأخذ أكبر من حجمها، هذا، بينما، هناك ظروف تاريخية أخرى بالغة الأهمية ـ في الامتدادين الزمني والجغرافي ـ تأثيراً على المجتمع البشري ويُستَهدَف الإسلام على وجه الخصوص بهذا التجاهل، ويغمط ما أدى من دور في تصحيح المسار الحضاري للإنسانية.

هذا مع أن الموضوعية في البحث ـ والتزام المنهج العلمي، يحظِران التحيز والمحاباة، وبما نحمل ـ بصفتنا مسلمين ـ من منطق التجرد الحق، فإن ما نضطلع به من مسئولية يفرض علينا أن تأتي مقارنات نجريها، مُعرّية لكل هوية ـ فلسفية أو دينية، من الأثواب المبهرجة، طالما كان الهدف هو خَير الإنسانية، وتَلَمُس الحلول لمشاكلها والحيلولة دون حدوث المزيد من الكوارث.

سبق وقلنا : أن اهتمامات المؤرخين بالجانب العَقديّ لكل حضارة يصلنا بما نعنيه بالجانب الفلسفي. ذلك أن القضية ليست مجرد التعرف على أن أمة من الأمم اعتنقت ديناً بينما أمة أخرى تخيرت لنفسها ملة من نو ع آخر، ـ ثم يقف اهتمام المؤرخ عند هذا الحد، بل يتعين علينا ـ في جهد يصح لنا أن نسميه « حضارياً »، ونتخير هذا الاسم بالذات لكونه موضوع ندوتنا، أن نغوص في الأعماق، نستنطق ذلك التراث الهائل من المفاهيم العقائدية، فنكتشف زيف الزائف منها وأحقيّة الصحيح.

والمنطق ـ الذي قلنا إننا نعتمده ونعتنقه، يوجب ـ، أن ندرج في خطة بحثنا ظاهرة جرت عادة البحّاثة ممن ينتسبون إلى الحقول العلمية ـ في التاريخ والشئون الإنسانية والمجتمعية، بما فيها السياسية، أن يغضوا الطرف عنها، أو هي لا تحظى ـ في أقصى الاهتمام، بما يزيد عن ذكرها عَرَضاً أو بصورة خاطفة، ألا وهي ظاهرة الرسالة الإلهية، التي تعاقب على حَملها وتبليغها عدد من كبار الرجالات العظماء في التاريخ، وهم الرسل الكرام.

ونحن يجزينا ـ من العلم ـ إقراره بالظواهر واقتصار العلماء عليها ـ غير أنهم ـ أي العلماء ـ حسب الاصطلاح المعاصر لمفهوم العلم ـ إن كان لا يتيح لهم اختصاصهم أن يقرروا صدق الرسلْ أو كذبهم، كما لا يمتلكون ـ قط ـ حق التقرير في أن العقائد الأخرى المناهضة لرسالاتهم هي صحيحة وجديرة بالاتباع، فإن العلم على الأقل وفي أدنى معطياته ـ بالإضافة إلى تعريفه لنا بوجود أديان وأن البشرية ما فتئت يَلْتمِس كل قوم منها أو أمة ديناً تعتنقه ـ فإنه ـ أعني العلم ـ لا يمتلك أهله إنكار مسلسل

الرسالات، وأن التاريخ قد شهد أحداثاً ملفتة للانتباه، وكان لها تأثيرها البالغ في مجرى حياة الإنسانية : رجال عظماء، قِمَم في حَمل المثل، يَدّعون أنهم مبعوثون من قِبَلِ الله، مبشرين ومنذرين يرشدون بني البشر إلى الهدى والحق، وينهونهم عن الباطل والضلال.

وبنقل التاريخ للأحداث وللحضارات ووصول صور إلينا عنها تنتهي مهمة المؤرخ، حيث حدود العلم، لتصلنا ــ معطيات العلم ــ ذاتها بالحقل الفلسفي.

وهكذا نجد أنفسنا أمام تكدّس هائِل للمعلومات لا يَعْدِلـه شيء ضخامة، حتى نجد لنفسنا أمام اضطرار ــ دون أن تكون لنا من خِيرةَ ــ إن كنا نَنْشد حصيلةً تنفع البشرية وتمثل مشروع إنقاذ لها من محنِها ــ أن لا تقف عند حدود التمتع بتلك الموروثات كألهيات نظرية وترفٍ عقلي، بل نحلل وندقق، ونمحّص، وأخيراً : نلتمس المواقف.

وإذا كنا نجد أنفسنا ــ مرة أخرى ــ أمام شئون ومشكلات خارجة عن موضوع هذا البحث حتى يضيق بنا المقام ــ والموضوعية لا تسمح ــ باستطرادات ــ فإنه بوسعنا ــ على الأقل ــ أن نقرر عدداً من الأفكار الأساسية نَتَّخِذ منها منطلقات، دون أن تزحزحنا عن الترابط المنطقي بين المعاني. من هذه الأفكار :

١ ــ إن ما تكشّف لنا من « وحدة الجنس البشري » وتوافق الفرقاء، على تقرير ذلك، يرسي أساساً يتعين بموجبه أن يكون ما نسميه « حضارات » ليس سوى سلسلة تربط بينها أواصر شتى : « حضارة واحدة » هي « الحضارة الإنسانية ». الوحدة هذه ــ المظهرية الصورة والمادة ــ توري حقيقة فلسفية، تتلخص في ضرورة أن تكون « العقائدية » موحَّدة كذلك، والفكرة هذه ــ التي أسميناها أساسية ــ لا تتفق ونظرية النسبية في الرؤية الفلسفية، ومرفوض ــ بموجبها ــ أن يكون وجود خالق للكون مثلاً، حقيقةً لدى أُناس، وانعدامه ــ حقيقةً أيضاً ــ لدى آخرين، حتى يُدفع بالتالي أن يكون لكل فئة من بني البشر، أن تتخير معبوداً عن هوىً أو أساس من المزاج. بل يقتضي الحال ــ طالما كان الإنسان موحداً ــ أن يوحد

معتقده، أو بعبارة أخرى : إن من كان جديراً بالعبادة، هو بالضرورة جدير من قبل بني البشر قاطبة، في كل صقع من أصقاع المعمورة وكل عصر، أن يكون الإله الحق.

٢ ـ بما أن كافة ما استُجمع حتى اليوم من الشواهد المُتكَلَّفة، في محاولات يائسة، لاعتبار الإنسان متحدّراً من سلالة قردية، ولما كانت الدلائل ـ لحضارات الإنسان القديم، تثبت له نبوغاً وتفوقاً يبز فيه أحياناً الإنسان الحديث، وبما أننا لا نرى، ولم نشاهد أو نعرف، سوى هذا الإنسان العاقل « **فإن نظرية : أنه ـ أي الإنسان ـ إنما هو : » مجرد حيوان كبير** « ومتطور »، مرفوضة أيضاً ولا تنتهض لتحظى بالاحترام، **فالإنسان** هو « هذا الإنسان »، وإن كان يشارك بقية الأحياء الجسمية والحيوية وحرية الحركة، **فهو يفارقها في أنه « غير بهيم » ولا يغرنا ـ في شيء ـ صفات** اقتضاها التكوين الحيوي (البيولوجي) وإذا كانت القواسم المشتركة، التي تجعل من جميع الأحياء البهم ـ في منزلة ـ هذا إن لم نقل أنها أقرب أن تكون على نسق واحد في طبيعة تكوينها الحي النفسي والغريزي، فإن الإنسان ـ وحدَه يغايرها ـ كلها ـ في التكوين حتى لا يشاركه فيها حي على سطح الأرض قط، في خصائصه الإنسانية. الخصائص هذه، التي جعلت منه كائناً « حضارياً » **فذاً والمشاهد المُتَجَلي للعيان، أنه لا حضارة على سطح** المعمورة، لا اليوم، ولا في التاريخ، لسوى الإنسان[١٩].

٣ ـ إذا كان « الجانب المظهري » استهوى المؤرخين للحضارات، نظراً لمؤثرات الموروثات الحسيّة، من نقوش وعمران، فالذي يهم ـ **العقائدي « المحتوى الفكري » لكل حضارة، وليس ذلك المحتوى وجوهره** سوى المعاني الفلسفية والقيم.

وبموجب هذا الاهتمام، يجتذب الانتباه فريقان من الرجال العظماء، الفلاسفةُ، والرسل، ويَشُد ـ الأذهان ـ على وَجه الخصوص ـ ظاهرة نذير من يوليها قسطها من العناية والدراسة، وتتلخص في أن الرسل الكرام ـ خلافاً **للفلاسفة ـ جاء كل متأخرٍ منهم عمن سبقه، لِيصَدِّقه في دعوته.**

وتواجد مسلسل الرسالات عبر التايخ، ليس بوسع أي عالم أو مؤرخٍ

إنكاره، وهذا يعني، أنه كان لهذه الرسالات « موقع » في الحضارة والارتقاء الحضاري، ودور في توجيهه والبحث ـ من جانبه أو وجهه الفلسفي ـ يلزم الباحث بتحليل هذا الدور علمياً، مدى فعاليته، وأما فلسفياً : فبمقارنته بطرائق وأساليب ووسائل النصح للبشرية وإرشادها، التي جاءت عن طريق التأمل العقلي، ومنها النظم الوضعية على اختلافها.

٤ ـ والأهم من هذا وذاك، المقولة الكبرى ـ بل أكبر مقولة واجهتها **البشرية في حياتها عبر التاريخ ـ وهي دعوى هؤلاء الأقوام ـ الأنبياء الكرام ـ** أنهم رسل مبعوثون من قِبَلِ الله الخالق، مبشرين ومنذرين. ولا خيرة ـ **فلسفياً ـ في أن نُهمِل التحقق من مثل هذه الدعوى، ذلك أنه ـ على ضوء قرار يتخذ بشأنها ـ يتحدد : لا موقفنا من الحضارات السابقة أو المعاصرة،** وحسب، بل الهوية للحضارةِ الحقة الجديرة بأن لا تتأثر في جوهرها بزمان أو مكان، ذلك أن تعاليمهم، تجعل « الحضارة » ذات صبغة معينة، وترسم المعالم لنمط الحياة ونموذج العيش المتوجب على الإنسان أن يحياه. وإذا كان لكل حضارة « مثال » يحتذى، فإن لحضارة نموذجيةً تضع الإنسان والبشرية في الموقع المكرَّم « مثالها » أيضاً. وهو مغاير لكل « نماذج الأمثال والمثاليات » بأسرها قاطبة.

٥ ـ ومن أهم ما يعكسه « مثال » الحضارة، الذي شرعه الله لعباده، اختلاف أساسي وجذري بشأن وجهة النظر إلى طبيعة الحياة الدنيا ومظاهرها. ذلك أن النموذج الحضاري ـ الإلهي المورد والمصدر، يرتفع بالإنسان عن مجرد « حيوان كبير » وجِدَ على سطح المعمورة ـ دون وجهةٍ **منطقية وبمحض مصادفات الطبيعة ـ ليعيش أياماً ثم يَلقَى حتفه إلى غير** رجعة، بل ـ الإنسان ـ بمنطق مثالِ الوحي، أو الوحي المثاليّ، هو أكرم من **ذلك.** فالسنوات التي يقضيها الفرد، بلَ والعمر الذي تعيشه البشرية ـ مهما طال ـ فإنه سيواجه نهايته، ولكن إلى عودة ولو بعد حين. والعلماء الطبيعيون **ـ والمعنيون بالشئون الكونية بصورة أخص ـ هم على قناعة ـ بدورهم ـ من** أن لنظامنا الشمسي نهاية[٢٠]. وأما ما بعد ذلك، فهو خارج عن اختصاصهم.

٦ ـ ولا يخفى أن الجانب الفلسفي من الموضوع هو ذو شعب يتعذر حصرها، نتخير منها ما يتوارد على الخاطر، على ضوء التحقيقات السابقة، والمرجع الموثوق، ـ الوحيد ـ الذي يمكننا الاعتماد عليه في تفهم شئون رسالة السماء ؟ ثم علاقتها بالحضارة ـ كي نُطِل أخيراً ـ على « موقع الإسلام » ـ (الشطر الثاني من عنوان هذا البحث) ـ فهو القرآن الكريم. ذلك أنه المصدر الأوحد الذي نقل بالتواتر المستفيض عن لسان مدَّعِيهِ عن الله والذي يمُدنا بالحقائق فيما يتعلق بما نحن بصدد تقريره بأصدق صوره.

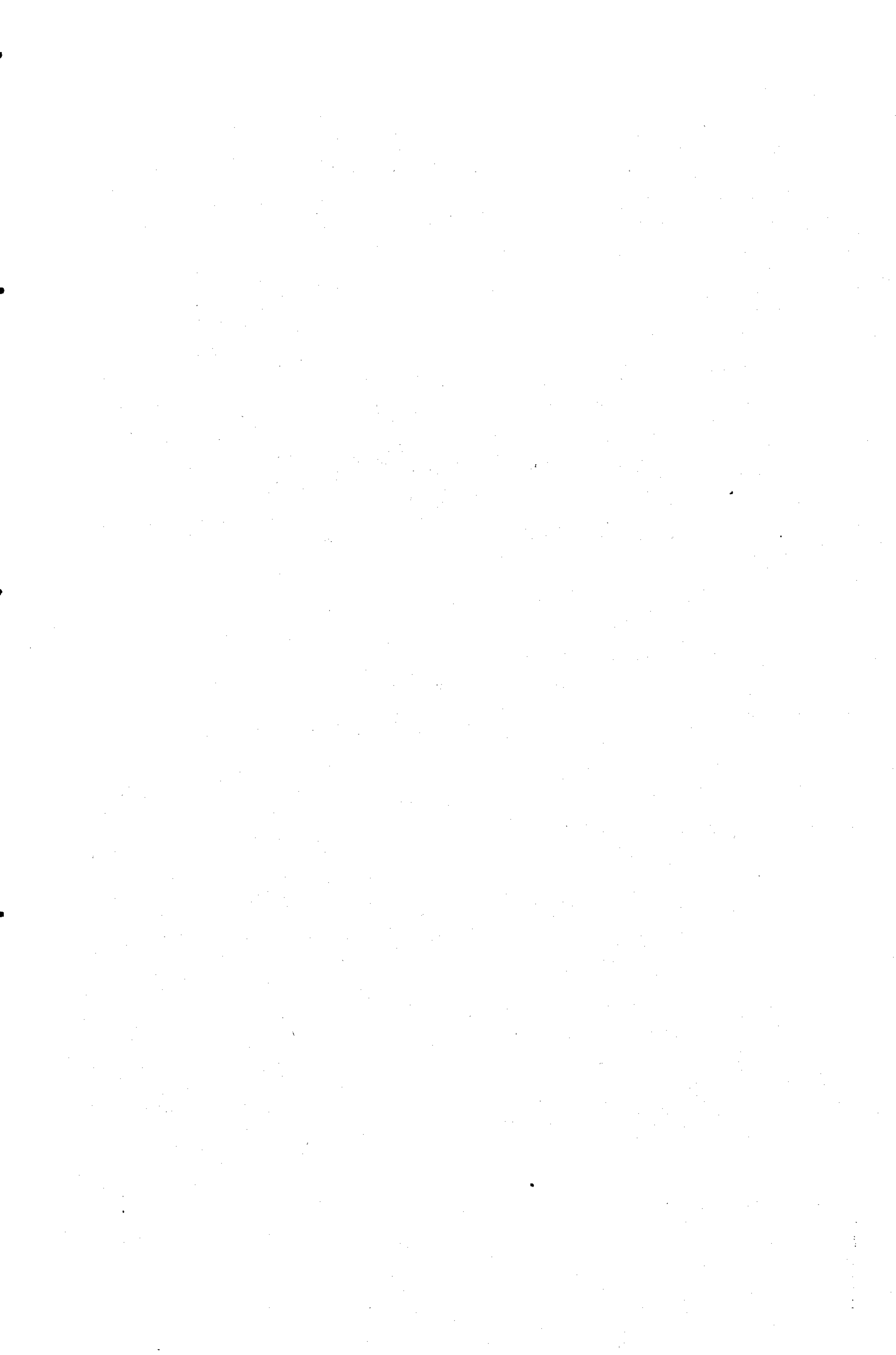
ويجدر بنا التنويه هنا أنه لا يسع باحثاً، محللاً للتاريخ، تجاهل أن كتاب الله، هو مصدر تاريخي وعلْمِيّ للحضارات، بالإضافة إلى كونه يمثل ـ أيضاً ومن حيث الأصل ـ مصدراً لجهة كونه وحياً فيه تبيانٌ لكل ما يفتقر الإنسان إليه في حياته المعنوية والفلسفية. ذلك أنه نَقَلَ لنا أخباراً تعتبر كثيرة ونادرة، عن أمم خلت والأخبار هذه وردت على لسان محمد عليه الصلاة والسلام ناقلاً لها عن ربه، في ظرفٍ انتقالي بين حضارات سابقة، وأخرى لاحقة، وهي المعاصرة. والقرآن العظيم ينقل مشاهد ـ حضارية ـ محكمة الترابط المنطقي، بين واقع الجاهلية وما تقدم عليه مباشرة، ثم ما سبق ذلك، مما كان معروفاً لدى جماهير العرب، وغير العرب أيضاً، في عهد النبوة، الذي شكل منعطفاً تاريخياً على مستوى الإنسانية والجنس البشري، من ظروف كانت فيها المجتمعات، والحضارات على شفا هاوية، هذا إن لم نقل كانت تتهاوى بالفعل، وجاء الإسلام لينقذ الإنسان من نفسه وما يهدده من أخطار مُحدقَة، وعلى رأسها غلبةُ نزعته نحو الوحشية، والانحدار الأخلاقي والقِيَمِي، ضمن التدهور الحضاري العام.

٧ ـ وختاماً، يمكن القول : من الوجهة الفلسفية لا بد وأن يكون لتعرفنا على « ماهية الحضارة » عنوان هذا البحث غاية هادفة، تتجاوز الأشكال إلى المضامين، والمُتَع الجسدية إلى الطمأنينة الروحية، والعقلية (العقلانية) الجافة، إلى الاستقرار النفسي والارتياح الضميري.

وبعبارة أخرى : لا جدوى من بحثٍ ـ في الحضارة ـ ما لم تُسَلَّطْ

أضواء على واقع الإنسان اليوم، وأوضاع البؤس التي يعيشها، فيحلل عواملها وأسبابها، ويُسْهِم، في مخطط، لرسم خريطة للحاضر والمستقبل، واستنطاق ماضي البشرية الطويل، فيستلهم منه العبر، وتقنص العظات، في سبيل « تقويم » يجرى على الحاضر الشاذ، الذي لم يعد بالإمكان أن تَنْزِلَ كارثةٌ في صقعٍ من أصقاع المعمورة ــ وهي في شبه توحد ــ دون أن يَلحق من آثارها أصقاعاً أخرى، منظورةً كانت تلك الآثار أم غير منظورة.

ونحن ــ إذ نقرر أن للإسلام « موقعاً » في الحضارة، فإنها ليست مجرد دعوى تصدر عن عواطف نابعة من مزاجٍ انتمائي، ولكن لنا ــ من جوهر الإسلام، وحقيقته وماضيه، ودوره الحضاري ضمن المسار التاريخي للحضارات، ما يجعل من هذا حقيقةً ثابتة، لا يتطرق إليها شك. وإذا كان ثبت للإسلام هذه المَكرُمة، فحق له، علينا ــ وعلى القيادات الفكرية في العالم كلها ــ أن نضع القضية محل دراسة، بل ترقى القضية لأن تكون أمانةً في أعناقنا ــ نحن أولاً ــ لإنفرادنا بعمق معرفتنا به، لا جرم أن رسالته نزلت بلساننا نحن العرب، وإن كان الكثير من غير العرب، وعلى الأخص المستشرقون لهم درايتهم به أيضاً، وكذا غالبية كبار مفكري العالم اليوم، الذين ليس فيهم ــ ومنهم ــ إلا ويُلِمُّ بِقِسطٍ من معرفةٍ بالإسلام، الأمر الذي يُحَمِّلُهم قِسطاً من المسؤولية، تجاه الأُسرة البشرية، كُلاً بقدره طالما كنا ــ كلّنا ــ لآدم، وآدم من تراب.



القسم الثالث

موقع الحضارة الإسلاميّة

الفصل الخامس

مَوقِعُ الإسلام مِنَ الحَضَارة

أمامنا وجهتا نظر ـ أو ـ بعبارة أخرى ـ طريقتان في التعرف على المقصود : إحداهما : أن نسلط الضوء على « الحضارة الإسلامية » والطريقة هذه تُلزِم بحصر الموضوع ضمنَ مرحلةٍ تاريخية تبتدئ بظهور الإسلام دينِ محمد عليه الصلاة والسلام، وأما الثانية : فهي أن يركز النظر على « موقع الإسلام » مِنْ ـ أو ـ في ـ الحضارة.

وبمقتضى المنهجية الثانية في البحث، تتسع آفاق التأمل لتشمل التاريخ بأسره، ابتداء من ظهور الإنسان على سطح هذه المعمورة، وامتداداً حتى رسالة القرآن الكريم التي جددت المبادرة الإلهية عن طريق الوحي ـ وعلى أوسع نطاق ـ بالتدخل في الشئون الإنسانية ـ وتصحيح مسار البشرية ومجتمعها، وبالتالي : « تحديد الهُوية الحضارية للإنسان » وإعادة النضارة إليها.

ولا تعارض، أو تضاد، بين الرؤيين، حيث لا يزيد الأمر على أن تُرَكِّزَ النظرةُ على مرحلة من التاريخ، أو تُوَسّع. ذلك أننا ـ في تحقيقات نجريها على « موقع الحضارة الإسلامية » لا نبتعد قيد أنملة، عن « موقع الإسلام » في الحضارة. ذلك أن الحضارة التي نشأت بظهـور رسالـة الله الأخيـرة، خاتمة الرسالات، إنما حملت النسبة إلى الإسلام وسُمِّيت إسلامية، لما تحمل من هُوية فلسفية فذة، وهذا يؤدي بنا إلى حقيقة أن « الهويـة الإسلامية » لـ « الحضارة الإسلامية » إنما اكتسبتها ـ أي اكتسبت الهوية الإسلامية ـ من موقع الإسلام نفسه منها، وتأثيره فيها، حتى طُبعت بطابَعه واصطبغت بصبغته.

بعبارة أخرى : إن وسيلتنا للتعرف على « موقع الحضارة الإسلامية » ليست سوى التعرف على « موقع الإسلام من الحضارة ». حتى ليمكننا الادعاء أن ضبط معالم « حضارة الإسلام » يتوقف على معرفـة « دور الإسلام في الحضارة ». و « الروح الإسلامية » المناسبة في الحضارة. وأمّا ما مثّله ذلك كله من دورٍ في « التاريخ » ـ ولا تزال معالمه ـ فهو الذي يُمكِّننا من مشاهدة « موقع الحضارة الإسلامية » من صورة جلية، سواء في التاريخ الغابر، أو الحديث.

بَيْدَ أن المعطيات التي نمتلكها ـ تاريخيةً ومعاصرة ـ تقِفنا على حقيقة أخرى هي الأهم ـ وتتلخص في أنه لا يفتأ لـ « الحضارة الإسلامية » موقع. وأن رسالة محمد عليه الصلاة والسلام، إنما تتميز بخاصيّةٍ فريدة من نوعها، وهي أنها هزت المجتمع البشري بأسره، وأعادت إلى الإنسانيةِ إنسانيتها، ليس ضمن نطاقٍ أو حدود اقليمية ـ على غرار ما كان يحدث بين حين وآخر وكلما كان يبعث بنبي أو رسول إلى قومه خاصة، بل من طراز فذّ، لم يسبق له مثيل، ولن يأتيَ بعدَه نظير، عمَّ أرجاءَ المعمورة، وامتدت تصحيحاتُه لمسارِ الإنسان حتى عمّت أنحاءَ الدنيا، وكان تأثيره : إما مباشراً ـ عهود الفتح الإسلامي وما بعده، وهذا ـ أعني التأثير المباشر ـ كيّفَ كل منطقة تدخل ضمنَ المجتمع الإسلامي بحضارته الحديثة الناشئة، وإمّا غيرَ مباشر، وهو تأثير الهوية الإسلامية لحضارة المجتمع

الإسلامي على الأقطار التي ظلت خارج دولة الإسلام. والتأثير ـ غير المباشر ـ هذا، انتقل بوسائلَ ووسائط متعددة ومعروفة،منها التلمذة على علماء الإسلام، وترجمةُ الكتب الإسلامية التي شكلت الأساسَ العلمي للحضارة المعاصرة، ومنها : ما يصح لنا أن نسمّيه : « العدوى » التي امتدت إلى المجتمعات الغربية تحت ضغط مؤثرات، منها ما يرجع إلى الظروف القاسية وغير الإنسانية التي كان يعيش المجتمع الغربي في ظلها، و « رياح الغَيْرَة » التي كانت تهب من الشرق والجنوب، وجزء من الغرب (أسبانيا في أيام المجد الإسلامي بالأندلس) هذه الرياح، التي أيقظت الإنسانَ الأوربي من سباته، حتى جعلته يثورُ على العبودية، وظهرت ـ في أعقاب هذه التطورات ـ ما سمي بـ « النهضة » في الغرب، حتى « بدأت تنشأ له حضارة ». بعد أن ظل يعيش قروناً على هامش الحياة الحضارية، هذا إذا لم نقل حياة موغلة في الهمجية وهي أقرب إلى الحيوانية ـ وليست البداوة ـ منها إلى الإنسانية. وكل هذا مقرر في التاريخ.

وتقرير « موقع للإسلام » ـ في الحضارة له أهمية خاصة وذلك لما يمكن أن يُسهِم في حَلِّ ما يسوغ لنا أن نعتبره مشكلة، ذلك أن عبارة الألفاظ الشرعية : كالإسلام والإيمان، والبدعة ـ من قواعد الإسلام الكلية أو الأحكام الفقهية الشرعية : كالبيوع والإجارة والرهن، وما أشبه بعبارة أخرى : أن القاموس الإسلامي هو خال من لفظة « الحضارة » الأمر الذي يبعث على التساؤل عن مسوِّغ يسمح بأن تُدْرَج ـ « الحضارة » ضمن اهتمامات المسلمين والعلماء، مع أنها ليست من الألفاظ الشرعية.

وملخص الإجابة على هذا التساؤل : أن اللفظة هذه استعملت للتعريف بواقع، ووضعت عُرْفِيّاً واصطلاحياً كسائر الأسماء ـ إزاء مسمّى للدلالة عليه. ونظراً لما لهذا المسمى « الحضارة » ـ ذاتها ـ من علاقة بالفكر والدين والفلسفة ـ بالإضافة إلى العلم والفن والمظاهر المدنية، فإنه لم يعد لنا خِيرَة في أن نرفض هذا الاستعمال وإن كان عرفيَّ المنشأ أو اصطلاحياً من الناحية الدِلاليّة، وذلك لما ينبغي من التفريق بين لفظٍ يطلق على واقع للدلالة عليه، وبين لفظ له دلالته الخاصة على معنى شرعي. الثاني

معروف، وأما الأول فليس ثمة مانع من وجهة نظر شرعية وفقهية ـ أن تسمى أوضاعٌ وأشياء بمسمياتها، وللشرع أن يتدخل في المسمى ذاته، على الأقل لجهة مدى توافقه مع الشرع، وقصارى القول : إن حصيلة هذه المسألة تتلخص في أن قضية الحضارة لا يتوقف الأمر بشأنها عند حدود الإباحة وحسب، بل الوجوب، لجهة كشف الحقائق فيما يتعلق بالمسمى، ودحض الأباطيل إن وجدت.

ب ـ القرآن مصدر للتاريخ الحضاري :

إننا ـ حين نعترف بـ « حضارة إسلامية » فهذا لا يتوقف فقط على إقرار الواقع وحسب، بل إن جَمْهَرَةَ المؤرخين، مخضرمين ومعاصرين يقرون بهذه النسبة، وعليه فإنه لا معنى لمثل هذا الاعتراف، إن لم يدخل « القرآن الكريم » كواحدٍ من مصادر التاريخ. هذا من حيث المبدأ. وأما لدينا ـ نحن المسلمين ـ فإن القرآنَ هو المصدر الأوحد الذي يتمتع بوثائقية قَطْعية، بالإضافة إلى السنة المطهرة إجمالاً وتفصيلاً بنسب متفاوتة في الثبوت كما هو معروف. وقطعية الوثائقية هذه لا تنبع من مجرد نسبة كل منهما إلى من جاء به وهو محمد عليه الصلاة والسلام ـ وحسب ـ وَيُقِرُّ الخصوم بهذا ـ ولا قِبَل لهم بدفعه ـ بل بإضفاء الصدق على نسبته إلى الله تعالى، فخبره ـ وهو الوحي ـ هو حق، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

والحد الأدنى، الذي لا يمتلك المناهضون لأنباءِ الوحي رفضَه أو تجاهله يتمثل في الكثير من أخبار الأولين، مما كان له صلة بالعرب الجاهليين : إما مباشرة، وهو الأحداث التي شهدها آباء معاصريه ـ عليه السلام ـ وجدودهم، أو غير المباشرة، وهي التي سبقتها، ولا يتسع المقام هنا للتدليل على الروابط التعليلية ـ التاريخية، بين ما حدّث به القرآن العظيم عن أخبار الأسلاف والعلائق المنطقية بين لاحقها بسابقها.

ومن المفارقات ـ التي لنا من الحق ما يُجيز لنا أن نسجِّلَها عَيْباً خطيراً في النظر التاريخي، عند أولئك الذين تجاهلوا القرآن كمصدر للتاريخ، ما وقعوا فيه من التناقض. ذلك أنهم : بين أن يقبلوا نسبة ما جاء به محمد ـ رسول الله ﷺ ـ إلى ربه، فيؤمنوا، ويُحَلّ الإشكال بفروعه

وتفاصيله، أو أن يلتزموا بمقتضى اعتبار القرآن منْ صناعة محمد عليه السلام وتأليفه. وفي حال كهذه، فإننا لا ندري ـ لَعَمْر الحَق ـ ما الذي يحملهم على التنكّر لوثائقية القرآن وما حفل به من أخبارِ الأسلاف، اللهم إلا أن نفترض أن البواعث إنما هي تَعَقُّدٌ تجاه القرآن وعداء له، والخوفُ ـ أو تحاشي ـ أن يفضي بهم مِثْلُ هذا الإقرارِ بالفضل، إلى التسليم الاضطراري بصدق نسبته إلى الله تعالى. ويُذَكِّرنا هذا باهتمامات المؤرخين بالأساطير، التي يَصنُفّونها ـ رغم بَهْتِها(*) ـ بين مراجع التاريخ.

والقضية ـ من زاويتها هذه ـ ليست محل مُهادَنَة، وتتطلب ـ نظرياً وعلمياً على السواء ـ الحسم، ذلك أنها تصلنا بصورة تلقائية بالهدف ـ الفلسفي الحقيقي ـ الهدف والغاية : فإما أن تكون هويةٌ إسلاميةٌ للحضارة، أو لا تكون، وإن كانت، فلا خِيَرَةَ في أن لا يُتقبل القرآن العظيم كمرجع، وفي حال قبوله، يتعين الإقرار به وأنه من عند الله، والبديل لهذا ـ الوحيد ـ هو أن يُسقَط دور الإسلام جملة، وهذا تَنَكُّرٌ للمنطقية النظرية والعلمية في البحث، وانخراط في المذهبية المادية وولوغٌ في أوحالها، ويترفع عنه من يَنْشُد لنفسه الاحترام في النظر والموضوعية في البحث. وغاية ما يمكن أن يقال : إن المجال الذي تُقَرَّرُ فيه هذه الشئون هو حقل علم الكلام ـ وهذا صحيح ـ غير أن علمَ التاريخ، يحمل ـ بدوره ـ من المؤشرات ما يضطر الباحث إلى التسليم بما لا قِبَلَ له بتعليله على الطريقة المادية أو التجريبية في حقل الطبيعيات. ولا نذهل هنا قط، عن حقيقة أن الرافضين لاعتماد القرآن كمصدر يحملون بين جوانحهم احتمالاتٍ نفسيةً ودوافع فلسفيةً عدائية، ونزوعُهُم مزاجي لا يمت إلى العِلمية بصلة.

على أن اقصاء القرآن الكريم عن « المسألة الحضارية » ناتج عن جهلٍ به، فكتاب الله تعالى لا يقف الأمر به عند سرد قصص الأولين، وحسب، بل يضم بين دفتيه آيات هي بمثابة نصوص في الحضارة.

آ ـ على سبيل المثال ـ وليس الحصر ـ يروي لنا القرآن ـ في معرِض سرده لقصة يوسف مع إخوته : « ورفع أبويه على العرش وخروا له

(*) البهت يحمل معاني الكذب والبطلان والمدعاة للحيرة ـ اللسان.

سجداً، وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل، قد جعلها ربي حقاً، وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي، إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم » (١٢ / ١٠٠) هذه الآية الكريمة بالغة الوضوح، في تقرير أول تحرك لنشأة إحدى الحضارات المعتبرة قديمةً ــ وهي الحضارة العبرية والتي يرى بعض المؤرخين أنها نفسها الكنعانية[٢١].

ب ــ وقال تعالى : « وإلى ثمود أخاهم صالحاً، قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه، إن ربي قريب مجيب » : (١١ / ٦١).

ج ــ وقال سبحانه : « أَوَلَمْ يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم، كانوا أشد منهم قوةً وأثاروا الأرض وعَمَروها أكثر مما عمروها، وجاءتهم رسلهم بالبينات، فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » (٣٠ / ٩).

د ــ ويقول ــ جل وعلا ــ : « ادعوا ربكم تضرعاً وخُفية إنه لا يحب المعتدين. ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها، وادعوه خوفاً وطمعاً، إن رحمة الله قريب من المحسنين » (٧ / ٥٥ ــ ٥٦) وواضح في الآية الكريمة النهيُ عن الإفساد في الأرض، والإسلام ــ كما سوف يتضح لنا بإذن الله تعالى في الفصل التالي، يَحُضّ على الإعمار وعدم الإفساد وهذا من مبادئه ــ وهو واحد من الركائز الحضارية الأساسية.

هـ ــ وقد حكى لنا القرآن مسلسلات من قصص الأمم السابقة، ابتداء من العرب البائدة وغير البائدة، ومروراً بعصر عيسى عليه السلام، ومن بعده الرومان، ورجوعاً إلى سكان مصر وأقوام ما بين النهرين، والإسكندر، حتى نوح وانتهاء إلى آدم عليه الصلاة والسلام. « ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك ».. (٤ / ١٦٤) « ذلك من أنباء القرى نقصّه عليك، منها قائم وحصيد » (١١ / ١٠٠) « تلك القرى نقصّ عليك من أنبائها ».. (٧ / ١٠١).

كل هذا، فيما يتعلق بالعمران، وأما الشئون الحضارية الأخرى، فذلك مما لا يدرك له أبعاد وآفاق.

الفصــل الســادس

إن « الحضارة الإسلامية » جاءت متأخرة، مع الأخذ بعين الاعتبار أنها سبقتها حضارات لا يمكن حصرها خلال تاريخ البشرية الذي يمتد عبرَ الماضي السحيق، وأنها لم تأت بعدها، سوى الحضارة العالمية المعاصرة، التي لم تكن سوى وليـدة للحضارة الإسلامية. والوليد الجديد، يتمتع بقوة، ولكنه غيرُ سَوِي البُنْيَة. ولا بُدّ وأن يكون ـ هذا التوقيت لحضارة الإسلام ـ له مغزى على مستوى فلسفيٍّ كوني.

إن الحضارة ليست وصفاً عَرَضِيّاً لظاهرة إنسانية، ولكنها : الظاهرةُ ذاتُها، التي تُحدث تغيُّرات جذريةً في مسارِ المجتمع البشري ـ وتصنع نمطاً فذاً للحياة وَنَسَقاً للعيش، يسري في اللاشعور عند كلٍ من الفرد والجماعة بحيث يحمل كل منهما قناعات، لا تستأصلها الأحداث والمتغيـرات العارضة، وإن كان يمكن لهذه القناعات أن تُمَسّ باهتزاز بين الحين والآخر، وعليه، فإن الخصائص ـ النوعية ـ لحضارةٍ مّا، والتي تجعلها ذاتَ صفةٍ استقلالية تميزها عن أية حضارة أخرى، تشكل المعالم الأساسية للهُوية الحضارية.

إن الحضارة الإسلامية تنفرد، دون أية حضارة أخرى، بخصائص ومميزات بالغة الشمول وهائلة التعداد، حتى لم تَدَعْ جانباً من جوانب الحياة الإنسانية إلا وَصَمّمَت له، لا يُستثنى الفكر، أو المعتقد، أو السلوك، فردياً

وجماعياً، بكل ما تعنيه كلمة السلوك من معنى، والأدب والفن، وعُنيت بظواهرِ حياة الجنس البشري وبواطنِها، وكان للروح حظها، ليس على حساب المادة، ولم يشغَل صانعيها الجانبُ الفلسفي عن الجوانب الأخرى المدنية والمعيشية، وفي الوقت الذي أُوليت فيه النفسُ البشرية أعظمَ قدرٍ من الاهتمام، ولم يُذْهَلُ عن التطلع إلى الواقع الطبيعي والكوني.

فما هي تلك الخصائص ـ التي تتمتع بها الحضارة الإسلامية، وتكوِّن معالمها وتعيِّن مقوماتِ تكوينها ؟

بحكم نعتنا ـ لحضارتنا ـ أنها إسلامية، فإنه يتوجب أن تكون تلك الخصائص إسلامية بدورها، وهذا أمر بَدَهِيّ. وطالما كانت نسبة تلك المقومات هي إلى الإسلام، فمن البدهي ـ أيضاً ـ أن يُراعَى المنطقُ الإسلامي، في استقراء تلك الخصائص وتحديد عناصرها.

إن خيرَ طريقة لدراسة الحضارة الإسلامية ـ بل مطلق حضارة، أن تُستنطق، فتكون ـ كل حضارة ـ معبِّرةً عن ذاتها ومعرِّفةً لهويتها، وهذا أمر ضروري لفهمها على الوجه الأفضل.

الأصل ـ الذي يمكن أن نعتبره الأول، في تعرُّفِ على « موقع الحضارة الإسلامية » هو انتماؤها. والنقطة هذه، هي جديرة بأن تثير جدلاً حقاً ولكن من دخلاء على الفكر، فقد يمعن ملادِدٌ في المعارضة. ويدّعي أن دراسة الحضارات إنما تعني ملاحظةً للظواهر الحضارية دون الانتماء الفلسفي، وإلا أفضى بنا هذا ـ على حد الاعتراض ـ إلى الخروج عن موضوعية البحث. ويدحض هذا أن الانتماءات ـ الفلسفية والدينية، هي من صميم المسألة الحضارية، بل لقد أولاها المتخصصون بالحضارات عظيمَ اهتمامِهم. فلماذا تستثنى الإسلامية ؟ والإسلام هو دين أصحاب حضارة الإسلام ؟

إن عزل الإسلام عن الموضوع، يعني تفريغ « الحضارة الإسلامية » من محتواها الحقيقي، هويتِها وجوهرِها، حتـى لا يبقـى سوى الاسم. وبكلمة : إن الحضارة الإسلامية ما كان لها أن تُنعَتَ بالإسلامية لمجرد أن الاسم الذي أطلق على من أنشأوها هو « المسلمون »، ولكنها إسلامية

لكونها صدرت عن أساس هو الركيزة الأولى لها، وهو الوحي، المتمثل بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ. أما الظواهر المادية أو المعنوية : من عمران، وفكر وأدب، وشعر، وتشريع، وما إليها، فهي ـ وإن كانت من صنع المسلم ـ ولكنه إبداع لا يرجع الفضل فيه إلى نبوغ عمالقة في العصور الإسلامية، بل إلى كون كل من النبوغ والإبداع إنما هما إفرازاتٌ لما أرساه الوحي من منطلقات ومبادىء، حتى التصقت القيم الأخلاقية التصاقاً تلاحمياً بالمسيرة الحضارية الإسلامية فكانت من شرائطها وقيودها، وأما ما أحدث من تجاوز فهو استثناء اقتضته نواميس الحياة الكونية.

الأصل الثاني : هذا الارتباط والتلاحم ـ الذي نوهنا به، بين سلوك الإنسان ـ كل إنسان شغل مكاناً في عصر الحضارة الإسلامية، وبين توجيه الإسلام وما رسمه الوحي من خطوطٍ حياتية عريضة ـ التلاحم هذا، هو المعيار لأن تكون حضارة قد أثبتت وجودها بدخولها عمق الكينونة الحياتية للإنسان. وما ذكرنا من الاستثناء، الذي كان يبدو بين حينٍ وآخرَ كتجاوزٍ لتعاليم الإسلام، سواء من قِبَل حكام أو عاملين أو مفكرين ـ ولم تكن له سوى ملامح في سواد الأمة التي لم تزل إسلاميةً حتى اليوم ـ هو شاهدٌ على هذا الارتباط دون العكس.

الأصل الثالث : تقرير الألوهية والربوبية لله الأوحد ـ وهو قمة البُنْيَة لِهَرَمِ « الحضارة الإسلامية » ويتفرع عن هذا الأصل ـ العقائدي، أصولٌ حضارية، تُحدِّدُ النظر إلى الحياة والكون والإنسان. فالوجود ـ الإنساني ـ لا يقف عند امتداد هذه الحياة الدنيا، حتى ينقطع ـ بانقطاعها ـ إلى غير رجعة. ولكن الزمنِ الذي تعيشه البشرية اليوم، وضمنَ حدود وعيها، إنما هو ظرفيٌّ، تعقبه نشأةٌ أخرى. فوجودنا في هذه الدنيا إنما هو مَرْحَلِيّ. ويترتب ـ على هذا الأصل ـ تفرعاتٌ لا يأتي عليها الحصر، تُكَوِّنُ عنصراً أساسياً في « نوعية » الحضارة الإسلامية وتحديدِ هويتها ومعالِمها. ذلك أنه، شتان ـ بين أن نعتبر حياتنا هذه هي كل شيء وأننا سنقضي بانتهائها ويفنى الجنس البشري ـ بفنائها فناءً مطلقاً لا عودة بعده ـ ، وبين أن ينظر إليها على أنها « مرحلة » مِنْ بَدءٍ لوجودٍ خالدٍ لا ينقصه سوى غيابٍ، برزخي، طال زمنه أم قَصُر، ثم سرعان ما « تُبَدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ، والسموات » (١٤ / ٤٨).

الأصل الرابع : وينبني على الأصول الثلاثة التي لها أولوياتها : المتفرعات، وعلى رأسها : طبيعة العلاقة بين الإنسان والمُقدِّرات الحياتية التي تحيط به، والتي تتكون في كل حضارة، بالتفاعل بين الإنسان، وتلك المقدرات وبموجب شرعة الإسلام التي تقضي بأن الله هو مالك المُلكِ بأسره، بما فيه بنو البشر وما يحيط بهم من بيئة الأرض وما حولها، فإنه ـ أي الإنسان ـ مُسْتَخْلَفٌ في هذه المعمورة. والذي يقرر طرائق إفادته من مرافق الحياة هو الله الخالق والمالك. الذي له أن يوجب أو يُحَرِّم ويَحْظِر، وكذا له ـ وحدَه ـ أن يبيح أيضاً، وعلى الإنسان أن يُكَيِّف نَسَقَ عيشه وفق ما نزّل الله من شرع، على لسان الرسل الكرام.

والأصل هذا، يعتبر أحدَ المعالم الرئيسيةِ لحضارة الإسلام، من حيث كونُه يحدد نوعيةً فذةً لها ـ أي للحضارة ـ بموجب التنظيمِ المرسومِ الأسسِ، والقواعد المقررةِ عن طريق الوحي.

الأصول الأربعة السابقة، تشكل الخطوطَ الرئيسية لخصائصَ وجزئياتٍ تنبثق عنها، تمثل ـ بمجموعها ـ الصورةَ المتكاملة لما نسميه « الحضارة الإسلامية ».

وتأتي أصولُ وتفرعاتُ المسألةِ الحضارية ـ إسلامياً ـ على أرفع مستوى يمكن للعقل البشري أن يتصوره، من تلك التفرعات :

١ ـ أن الله تعالى قد عرف عباده عن طريق رسله الكرام أنه ـ إنما خلق ما في السموات والأرض مسخّراً لهم. فالعلاقة بين الإنسان، والمواد ـ الخام ـ الصالحة للبناء الحضاري ـ إن صح التعبير ـ لم توجد على سطح المعمورة عبثاً، أو لِيُتْرَكَ الإنسان على غاربه، ليفيد منها فوضوياً وعشوائياً على طريقة العيش الغريزي لسائر الأحياء، البهائم. كما أن الله عز وجل قد كَرَّمَ الإنسان « ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً » (١٧ / ٧٠).

والقَدَرُ الإلهي هذا، لا يقف به الأمر عند كون الله عز وجل قد خلق ما خلق : ـ « رحمة بعباده » « ونِعَماً لهم »، وتسهيلاً لحياتهم وتيسيراً لما خلقوا له من تأديةِ وظيفةٍ في كونه الواسع، بل أعلَمنا ـ ويؤيد الواقعَ هذا

إبلاغُنا ـ أنه لم يُغفل شيئاً مما تَنْزِعُ النفس الإنسانية إليه، إلا ووفره : « .. وآتاكم من كل ما سألتموه، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها »... (١٤ / ٣٤).

٢ ـ ولما كان الإنسان « مُكَلّفاً » بموجب قواعد الإسلام ـ التي هي أصول بدورها للحضارة الإسلامية ـ ومسئولاً، فقد تعين ـ والحالة هذه ـ أن يزاول نشاطاته ـ بما في ذلك الممارسة الحضارية ـ ملتزماً بمبادئ وخطوط، هي « أحكامٌ شرعية » وخليق بنا التنويه هنا، إلى أن الإسلام قد تمتع بهيكل تنظيمي لأفعال الإنسان إلى : مُلْزِمِ الأداء وهو الواجب، وملزِمِ الترك، وهو المحظور أو المحرم، وأمّا إن تَرجّحَ الفعل على الترك فهو المندوب. وعكسه ـ المرجّح الترك على الفعل فهو المكروه. وأخيراً : المُخَيّر غير الملزِم الفعل أو الترك أو الترجيح، وهو المباح هذا، بالاضافة إلى أن الإسلام قد رسم أصولاً ومعايير لهذه الأحكام الشرعية العملية. هي الأحكام الوضعية : كالصحة والبطلان والفساد، والشرط، والعلة، والمانع، إلى غير ذلك مما هو مقرر تفاصيله في أصول الفقه. وهو عَلَمٌ « مَعْلَمٌ » للحضارة الإسلامية، ومفخرةٌ كبرى من مفاخر الفكر الإسلامي.

وبموجب هذا التقنين وما رُسم من الضوابط، تَحَدَّد المسار للحضارة وصيغت هُويتها، وبالتالي تَعيّنَ « موقعها ».

٣ ـ وجاء التقرير بشأن طرائق الإفادة من معطيات الحياة وما تحويه الأرض أو تحمله على سطحها أو في جوها من ثراء لا يُحَدّ، موائماً مع تعريف الله للإنسان ـ فِطرياً ـ بمنافعِ كلٍ من الموجودات المحيطة به وأساليب ووسائل الإفادة منها : « وعلم آدم الأسماء كلها » (٢ / ٣١) جاء ـ شرع الله ـ مراعياً مصلحة الإنسان في حياته الدنيا ومعاده في الآخرة. ولما كانت حكمة الباري عز وجل اقتضت أن تحوي الأرض من النافع البين النفع، وهو الأصل، والبعض فيها مما له منافع مجهولة أو مضار، فقد جاء الوحي ليرسي أساساً : أن الأصل مما هو على سطح الأرض هو الإباحة وإن كان المباح ليس نهباً للغرائز، بل ـ بموجب اختلاف الإنسان عن الحيوان البهيم لما يتمتع به من خصائص إنسانية ـ فإن ما أبيح، قد

أبيح له بشرائط وبمقتضى تنظيمات، كقوانين الأحكام الشرعية ـ للملكية ـ مثلاً، كما أن للاشياء الضارة بالإنسان أحكامها الخاصة أيضاً، فمنها ما يباح بقيود، ومنها ماهو ممنوع الإفادة منه بدافع الرغبة المحض، أو المحظور مطلقاً، كما أن من تلك الأشياء التي زينت بها الأرض ما يتطلب التهذيب، وللإنسان أن يتصرف فيها ضمن حدود وحسب أصول، ولكن من غير إفساد. هذا كما حرم أشياء محدّدةً سماها بأسمائها.

قال تعالى : « قل لا أجد فيما أوحي إليَّ محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتةً أو دماً مسفوحاً أو لحمَ خنزير فإنه رجس أو فسقاً أهلَّ لغير الله به، فمن اضطُرَّ غير باغٍ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم » (٦ / ١٤٥) وللمحرمات تفاصيل في كتب الفقه، والأساس المبتناة عليه ـ الإباحة أو التحريم، مُحَدَّدٌ ـ بالإجمال ـ في قوله تعالى : « الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويُحِل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون ». (٧ / ١٥٧).

٤ ـ ومن الأسس ـ الضوابط ـ التي رسمها الإسلام للممارسة ـ الحضارية، إضفاء أهمية خاصة لفطرية الأشياء، ولا يستثنى من ذلك الإنسان ذاته. وإذا كان الإسلام ـ قد قرر أن كل ما خلقه الله على سطح المعمورة هو لصالحه، فقد الزمه وأوجب عليه الاعتدال والتعقل في إشباع غرائزه وإرواء طموحاته، وحظر عليه الإفراط والبطر وعلى الأخص، ساعة يفضي ذلك إلى الإفساد. كما حظر عليه أفعالاً محددة اقتضتها حكمة الباري. يذكر سبحانه ـ من أمهاتها في قوله : « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم، ألا تشركوا به شيئاً، وبالوالدين إحساناً، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون * ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً إلا وسعها، وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى، وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تَذَكَّرون * وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبُل فَتَفَرَّقَ بكم عن سبيله،

ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » (٦ / ١٥١ ـ ١٥٣).

٥ ـ وخلافاً للهواجس التي تخامر بعض كبار العلماء الغربيين، فإن مخزون الأرض وما خلقه الله على سطحها، فيه الكفاية لبني البشر، وليس ثمة تخوّفٌ من جوعٍ أو سواه. جاء بهذا خبر السماء « قل أَئِنّكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين * وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقَدَّرَ فيها أقواتَها في أربعة أيامٍ سواء للسائلين » (٤١ / ٩ ـ ١٠) ومن تلك الأقوات : « الماء » « وأنزلنا من السماء ماءً بقدرٍ فأمسكناه في الأرض، وإنّا على ذهابٍ به لقادرون » (٢٣ / ١٨) وإن حدث اختلال أو تنغيص في العيش، فمرده إلى سوء الإفادة وما سبق وأشير إليه من البَطَر. ولا يخفى ما يجلب مثل هذا القضاء الإلهي، والإخبار به، من الطمأنينة والارتياح، ويحول دون القلق وما يُرَوَّج له من الإرهاصات والنذر، التي ترجع بواعثها إلى المستوى الشاذ للإنفاق والتمتع في العالم الغربي. وعيش الإنسان لمدى آلاف آلاف السنين على سطح هذه المعمورة، الصغيرة الحجم نسبياً، مع ما عليها من صنوف الأحياء، هو خير شاهد على صدق الحقيقة هذه، وإليها يميل العديد من أعاظم علماء موارد الأرض في العالم.

المعالم ـ الأساسية ـ هذه للصورة الإسلامية للحضارة إنما هي ركائز وأصول أولية، نكتفي بما ذكرناه منها ـ ونعيد إلى الأذهان أنها ليست مُحْصِيَةً أو حاصرة، كما أنه، يتفرع عنها أصول أيضاً هي دونها في الأهمية، يمكن تَفَهُّمُها على ضوئها : من ضبطٍ للكلمة، وللسلوك، ومُواءَمَةِ التشريع للواقع، ومواكبته لتطوراته، هذه المواكبة التي ينقلها إلينا تاريخ التشريع الإسلامي في كتب الفقه، وما أفرزته العقول ـ التي دخل أصحابها في الإسلام، بل مِمّن لم يُسْلِم أيضاً، عـائشٍ في المناخات الإسلامية، من نتاجٍ فكري أثْرَى البشريةَ وأمدَّ الحضارة الحديثة بمقومات النشوء، ثم ذلك البناء الاجتماعي، والمادي والعمراني الهائل، الذي امتد من أقصى المعمـورة آنذاك : الصين وما وراءها شرقاً، إلى أقصى الغرب، المحيط الأطلسي، مما لا غرض في هذه الدراسة لخوض تفاصيله. وموجز القول : إن جهداً جدِّياً

يبذل لعمليةِ مسحٍ للحضارة الإسلامية والتعرف عليها كاملة، يتطلب أن تُجرَى عملية إحصاءٍ للتراث الفكري الإسلامي بأكمله، ودراسة ما أحدثته رسالة الإسلام من تحول تصحيحي لمسار الحياة الإنسانية. وأما جوهر القضية، فهو « الإنسان الحضاري » ـ نفسه ـ الذي صنعه الإسلام.

ولعل من أمهات الأمارات المُعَرِّفةِ للإنسان ـ الذي صنع الحضارة الإسلامية : أنه ـ أي الإنسان ـ الذي يُتَرْجِمُ الحضارةَ بهويته، كان المثالُ الذي احتذاه ـ ولكل حضارة مثال ـ هو مثالُ إنسانِ الحضارةِ الإسلامية. ألا إن هذا المثال هو : « محمد رسولُ الله » عليه الصلاة والسلام، الذي رسم لأتباعه أن يتخذوا من سنته منهجاً لحياتهم. وإذا كان يَعْجِز كل متبع، أو مقلد، أن يكون نسخةً طِبْقَ الأصل لما عليه يَحتذى به من مثال ـ وفي قضيتنا من المحال أن يَنالَ إنسانٌ درجةَ نبوةٍ أو رسالةٍ بعد خَتْمِ الله لهما، فلقد أمكن ـ للإنسان المسلم، أن يُجَسّد تلك المثالية في حدود القدرات البشرية ، ولا تزال ملامح الإنسان المسلم وسجاياه ـ حتى أيامنا هذه ـ رغم ما أَلَمَّ بمجتمعنا من التدهور. وإذا كانت ثمة انحرافات، فحيث تشير إليه الأصبع من الشوائب نجد : الحيدةَ عن الجادة وما رَسَمَ الإسلامُ من أحكام، أو : الدخيلَ على المجتمع الإسلامي موطنِ الحضارة الإسلامية ـ من المفاهيم والسلوك والعادات الغربية والمستوردة عموماً ».

إن الذي يحدد لنا موقعَ رسلِ الله الكرام ـ الذي هو « جوهر موقع الإسلام في الحضارة الإنسانية » ليس تأملاتٍ لزيد أو عمرو، من شرق أو غرب، شمال أو جنوب ـ ولكن رسلُ الله أنفسهم، وعلى لسان خاتمهم محمد عليه الصلاة والسلام، وهو مستفيض في كتاب الله تعالى، ويصوّره ـ عليه الصلاة والسلام ـ أروع تصوير ـ وبكل تواضع لا نظير له، في حديث بالصحاح، فعن جابر بن عبد الله، وأبي هريرة رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ، قال : « إن مَثَلي ومثل الأنبياء من قبلي كرجلٍ بنى بيتاً فأحسنه وأجمله، إلا موضعَ لبنة من زاوية. فجعل الناسُ يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هَلاَّ وُضعت هذه اللبنة ؟ فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين » هذه رواية البخاري عن جابر، ولمسلم عن أبي هريرة : « فجعل الناس يطوفون به

ويقولون : ما رأينا تبيانا أحسن من هذا إلا هذه اللبنة، فَكنت أنا تلك اللّبِنَة »[٢٢].

أما فيما يتعلق « بما هو كائن » فيمكن اختصار الصورة، بأن الإسلام، بعد أن أنشأ أهلُه حضارةً للبشرية، لم يَحتكروا من حضارتهم شيئاً قَطّ، بل كان تقديمُها ومنحها للعالمين جزءاً من رسالتهم إليهم، وخُلُق الإسلام كان ـ ولا يزال ـ الإيثارَ لا الأثرةَ، ولم يحمل ـ المسلمون، المفاهيمَ المعاصرةَ للقوميةِ أو الاستعمار في أي عصر من العصور. والقرآن ـ والسنّة ـ حافلان بالحض على السخاء والكرم والعطاء، دون لقاءٍ من عَرَضٍ دنيوي، حتى كان أحدَ سبعةٍ يُظلهم الله تحت ظله يوم لا ظل إلا ظله. « رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تَعْلم شِمالُه ما تنفق يمينه ».

الصورة التى انف ذكرها ـ وهى ولادةُ الحضارةِ المعاصرةِ من حضارةِ الإسلام الكبرى ـ ليست بِدْعاً في تاريخ الحضارات. فلم تفتأ كل حضارةٍ متأخرة، تقبس عن سابقاتٍ لها، ولكن عملية التحول ـ من الواقع الحضاري الإسلامي إلى المعاصر ـ فما مدى ما أفادت الحضارة الغربية اليوم من التراث الحضاري الإسلامي، من منطقٍ، وكلامٍ، وتشريعٍ، وعلمٍ، وفن، دون الهدى ؟ ثم، كم اكتسبت الكيانات العملاقة اليوم من مقومات، بنت عليها ما تملكه اليوم من قوى مادية وفكرية، دون الروحية ؟ وما هي الطرائق والوسائل، والأساليب البالغة الحداثة، التي لا يزال بُناة حضارة اليوم يفيدون بواسطتها التراث الإسلامي الذي لا يبرح يثري به الغرب ؟ وكم تبقى للعالم ـ والمجتمع ـ الإسلاميين، من مختزنات حضارية يتمتعان بها ؟ وما علاقة ما يسمى بـ « هجرة العقول » بهذه القضية ؟، كل هذا لا يفي ـ بكشفه ـ مثل هذا البحث الموجز، ونرتقب أن نطلع على جوانب تفصيلية منه في بحوث الإخوة المشاركون باللقاء.

ههنا، نجد أنفسنا ـ وقد قاربنا نهاية المطاف لهذا البحث ـ بحاجة ماسّة إلى ضم ما بُذل من جهود، لتتكامل الصورة، كي تضع أمامنا « الخريطة الحضارية » التي تنير لنا الطريق، وتعرّفنا ـ فيما تعرفنا بـ « الموقع ـ الدقيق » للحضارة الإسلامية أو ـ بعبارة أخرى ـ بـ « موقع الحضارة الإسلامية » « بدقة ».

ملامح الصورة ـ حتى الآن ترينا المعاني « تَتَمَاوَج » والظواهر الحضارية الإسلامية مُوَزَّعَة بين « الذاتية » و « الانتشار ». على ضوء هذه الصورة، ما الذي يمكننا ان نَسْتَشِفّه من « موقعٍ لنا »، حضاريّ، في الظروف الراهنة التي تَمُرُّ بها الإنسانية ؟ أو : كيف نتخطى النظر والتأمل ـ بالحضارة الإسلامية وموقعها بين « ما كان أو هو كائن » إلى ما « ينبغي أو يجب أن يكون » ؟

والإجابة الموجزة على هذا التساؤل، ذات شعبتين أساسيتين : الأولى : ضرورة الجمع بين المفهومين « المدني » للحضارة، و « الفلسفي » الذي يمسّ الهوية الحضارية في الصميم. وبالنسبة للحضارة الإسلامية، هو « الإسلام » بالضرورة، وأما الثانية، فإن « الانبعاث » الحضاري ـ الإسلامي، يتعين أن يمضي ـ بدوره ـ على خطين اثنين : الأول : « استعادة الشخصية » لحضارتنا الإسلامية، والثاني : مواصلة العطاء. ولا بد من المضيّ على الخطين معاً، ذلك أنه ـ دون تواجد شخصيةً متميزة ـ فإنها تتبدد المفاهيم، وتلتبس المعاني، وتَضِلّ الأهداف. ويتشوش ـ بالتالي ـ العطاء. وأما الضنّ بالخير وتوقف العطاء، فهو ليس من خصائص الإسلام وحضارته، بالإضافة إلى ما يؤدي إليه من ضمور في الشخصية من جهة، والعزلة عن الساحة الحياتية، من جهة أخرى، في ظروف لم تعد الأوضاع فيها تسمح بالاستقلالية المطلقة.

وهكذا نجد أنفسنا أمام مسئوليات جسام تنتظرنا، كي نستعيد دورنا الحضاري ـ والريادي، بل لا خيرة لنا في أن لا نتخذ قرارات صعبة، هذا إن لم تكن في غاية الصعوبة، تتراوح بين التزامنا ـ العقائدي ـ الذي لا يقبل المساومة، من إرضاء الله عز وجل، والصدور عن أمره، وبين مواجهة المتغيرات. وإننا لنعاني مرارة، بعد عقوقٍ نلناه مِمّن أحسنّا إليهم، وسهامٍ تُصوَّب نحو مقاتلنا ممن ارتشف من مَعين أسلافنا، ولا يزال يبتزّ مقوماتِنا، إننا أمام اضطرار، أن نتابع سيرة أسلافنا الأبرار، ولكن بفارق، يتمثل فيما يتعين علينا أن نواجهه من تعقيدات يتميز بها حاضرنا، والشعار الذي يمكن لنا أن نحمله، هو : « إصلاح ما قد فسد » قال تعالى : « ظهر الفساد في

البر والبحر بما كسبت أيدي الناس، ليذيقَهم بعضَ الذي عملوا لعلّهم يرجعون » (٣٠ / ٤١) وأما رائدنا، فهو القناعة الموروثة : أنه « لا يصلح آخر هذه الأمة، إلا بما صلح به أولها » دون أن يعني هذا، التحجر، أو العودة بمسيرة التاريخ ـ صَمَماً ـ نحو الوراء، ولكن حسبما رسمه وحي الله تعالى : « فلولا كان من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض، إلا قليلاً ممن أنجينا منهم، واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين » (١١ / ١١٦).

وإذا كان رَبُّنا جلّ وعلا، قد أكرمنا في كتابه العزيز بهذا الوصف : « كنتم خيرَ أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » (٣ / ١١) ـ وكنا قد فَرّطْنا فيما كرَّمنا الله به من حَمْلِ رسالة، فإن من البداهة بمكان، أن مسئوليتنا ـ الحضارية ـ تتحدّد في : أن نستأنف حملَ هذه الرسالة المجيدة بجِدِيّةِ سَلَفِنا وإخلاصهم، وأمانتهم، ونزاهتهم.

مراجع وهوامش البحث

(١) القاموس المحيط للفيروز آبادي ـ فصل الحاء باب الراء.
(٢) المختار من صحاح اللغة ـ مادة حضر.
(٣) دائرة المعارف ٧/٤٥٨ مادة حضر.
(٤) غلاف الموسوعة الكرتوني والداخلي ـ ط/١٩٧٤ ـ دار الطليعة بيروت.
(٥) ما بين الأقواس من النص المنقول.
(٦) المصدر السابق ص ٣٠٩.
(٧) الحضارات ط ١ ـ دار المشرق ـ المطبعة الكاثوليكية ١٩٦٩م ص ٣٢٦ والطبعات التي تليها.
(٨) الزيادة من الطبعات التالية. ولا يخفى أن الفكرة ليست للمؤلف فلها من الشهرة ما يغني عن التماس مصادر لها، والكتاب مدرسي.
(٩) المرجع المذكور ص ٢١٨٧.
(١٠) معجم وبستر ـ (تنظر الملحقات الترجمة الانكليزية).
(١١) الموسوعة البريطانية.
(١٢) يقصد الكاتب بـ « الناس » : معاصرين كما هو واضح من التاريخ المذكور.
(١٣) المرجع السابق « الموسوعة البريطانية ».

(١٤) المصدر السابق ـ الموسوعة البريطانية.

(١٥) أ يلغى.

(١٦) مجلة « المدار » ـ شهرية تصدرها وكالة نوفوستي في موسكو (عدد ٣ ـ آذار ١٩٧٧م ص ٣٠) وينظر أيضاً الموسوعة الفلسفية : نظرية نشوء الإنسان ص ٤٩٧ ونظرية التطور ص ٤٨٩ والداروينية الخ..

(١٧) وكالات الأنباء والإذاعات والصحافة العالمية ـ النصف الثاني من تشرين الثاني ١٩٧٨م.

(١٨) إذاعة لندن ـ برنامج من أقوال الصحف الأسبوعية البريطانية ـ البرنامج الانكليزي ٢٥/١١/١٩٧٨م ـ التقط الخبر سماعاً، ويمكن التحقق منه بالرجوع إلى الصحيفة ولا تصلنا.

(١٩) وآخر ما استجد مما يعزز هذا المعنى « القرار الذي صدر عن منظمة اليونسكو بإدانة العنصرية بمختلف صورها » (الإذاعات ووكالات الأنباء ٢٩/١١/١٩٧٨م).

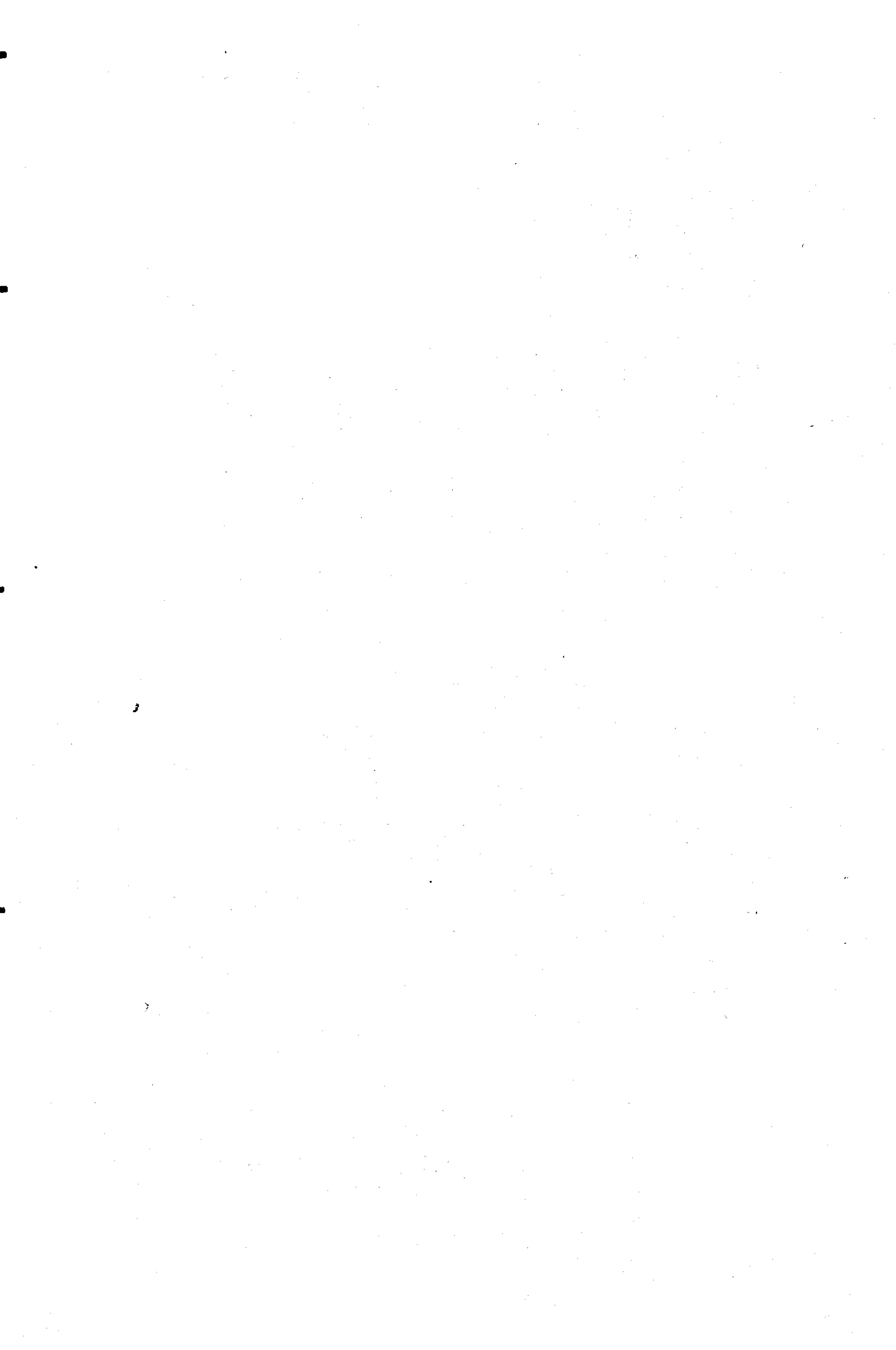
(٢٠) في تقرير صادر عن جهات مختصة غربية، أنه « قد بقي من عمر الشمس ستة آلاف مليون عام كي تبرد »، إذاعة صوت أمريكا ٢٨/١١/١٩٧٨م، والمهم في الأمر توافق العلم والدين أن لعمر الكون نهاية، وإن تباينت التفاصيل مما لا محل لتوضيحه الآن.

(٢١) حضارات العالم في العصور القديمة والوسطى ص ١١٠ ـ تأليف شفيق جحا، منير بعلبكي، بهيج عثمان ـ دار العلم للملايين بيروت ط ٧، ١٩٧٨م.

(٢٢) ينظر : فتح الباري شرح صحيح البخاري جـ ٦ ص ٤٣٦ المطبعة البهية. وصحيح مسلم جـ ٧ ص ٦٤ ـ ٦٥.

الصراط الحضاري

للدكتور محمود محمد بابللي



بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

كلمة بين يدي البحث :

إن كلمة الحضارة بمصطلحها الحديث لم تستعمل من قبل بهذا المعنى الواسع، وهي ترجمة لكلمة أجنبية Civilisation أي المدنية.

فالمراد من كلمة حضارة : هي التمدن أو الأخذ بأخلاق سكان المدن. وتمدين : بمعنى تنعّم.. والتنعم : الترفه. والنعمة : المسرة والفرح والترفه.

وفي الحديث : إنها لطير ناعمة. أي سمان مترفة.

والنعيم والنعمى (بالضم) : الخفض والدعة والمال.

وهذه المعاني تغلب على من يسكن الحاضرة أو المدينة، فيتنعم، ويهنأ ويطمئن في سكناه، وفي معاشه، وفي صِلاته مع الآخرين، متى ما توافرت له الشروط المحققة لهذه المعاني.

فالنعيم بمعناه الواسع هو مبتغى الحضارة الحقة، وما تنشده للإنسانية. وإنني سأستعرض فيما يلي من النقاط ما هو أقرب إلى المسلَّمات، حتى إذا ما تحققت في أمة من الأمم توصلت إلى تحقيق الحضارة الخيرة التي توفر لأتباعها طمأنينة النفس ورغد العيش ومتانة الجانب وسلامة العاقبة. وهي معان يدعو إليها الإسلام.

والمسلم مخاطب بها خطاب تكليف. وهي عرى متماسكة إن فرط في واحدة منها تلاحق الخلل إلى غيرها حتى يعود إلى الصراط السوي، فيعود التماسك ويقوى ويشتد.

وصدق الله العظيم :

« ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، إن الله سميع عليم ». الأنفال ٥٣.

ضرورة التجمع والتنظيم :

تستمد الحضارة أصولها ومرتكزاتها من القيم والمبادئ الأساسية التي تقوم عليها.

وإن كل حضارة سابقة، أو قائمة، لا بد من أن تستند إلى عناصر بارزة تميزها عن غيرها من الحضارات.

والحضارة تعني في معناها اللغوي الاستقرار والاستيطان، وهي مشتقة من كلمة (حضر أو حاضرة)، أي خلافاً للبدو والبداوة.

وقد عدد يوسف عليه السلام نعم الله عليه، وذكر منها أن الله جاء بأهله من البدو. أي جاء بهم من شظف العيش وقساوة البيئة إلى حيث الاستقرار والأمن والرفاهية.

وإن مجمعات البشر لا بد لها من تنظيمات وقواعد لتسير عليها وتأمن خطر الضياع عند فقدان الضوابط والزواجر التي تكفل للمجتمعات سلامة المصير واستقامة السلوك.

وهذه التنظيمات والقواعد تتأثر بالمصدر الذي تنبثق عنه، وبالعناصر التي تتولى شؤونها.

وبمقدار ما يكون المصدر موثوقاً بعيداً عن نزعات البشر وتقلبات الأهواء، يكون أثره واضحاً في تصرفات الأفراد وفي ضبط سلوكهم، وكذلك تتأثر العناصر التي تتولى تنفيذ وتطبيق مفعول هذه التنظيمات والقواعد، وتنعكس هذه التأثرات والتأثيرات على المجتمعات بأسرها.

الإنسان محور الحضارة :

وإذا أردنا أن نحدد مفهوم الحضارة ومؤداها نجدنا مضطرين إلى التعرض للعنصر الأصيل الذي تقوم لمصلحته هذه الحضارة، ألا وهو الإنسان.

والإنسان بحكم فطرته، مخلوق اجتماعي لا يستطيع أن يعيش بمفرده، فلا بد له من آخرين لينهضوا جميعاً في تيسير أمر معاشهم وأمنهم واستقرارهم.

وهذا الإنسان مخلوق. أي أنه لم يأت بإرادته إلى هذه الدنيا، وإنما أوجدته مشيئة عليا، وفرضت عليه المكان الذي سيكون مسرح حياته، ومنطلق نشاطه، ومقر نهايته، وهو الأرض التي يعيش عليها.

وقد خلق الله الإنسان من طينة هذه الأرض ليتمكن من العيش عليها والتأقلم بالبيئة التي وجد فيها، وخلق له من نفسه زوجاً ليتوالد منهما من يعمر هذه الأرض، ويحققوا الغرض الذي من أجله تم خلقهم.

وإن كون الأرض مسرح حياة الإنسان ومنطلق نشاطه يتطلب أن تكون الأرض مذللة له ومطواعة، وأن يتمكن من استثمارها وإعمارها وفق سنن الخالق التي أوجدها فيها، ولا تتكشف للإنسان هذه السنن إلا بالعلم..

وبهذا يتحقق لنا أن ما هو موجود في هذه الأرض قد وجد لصالح هذا النوع الإنساني، وأن جميع ما فيها مخلوق ومسخر له، وأن ما يحيط بها ويتصل بها اتصال تبعية هو مسخر أيضاً، لأن انعدام هذا التسخير العام يحول دون تحقيق هذه الاستفادة، ويمنع الإنسان من تأدية رسالته التي خلق من أجلهـا. هذا الخلق وهذا التمكين والتسخير محدود بأجل لا بد أن

وأن هذا الخلق وهذا التمكين والتسخير محدود بأجل لا بد أن يبلغه

هذا النوع الإنساني لتصفية الدور الذي قام به طوال وجوده على ظهر هذه الأرض، ولتوفى كل نفس ما كسبت، لأن استمرار هذا النوع الإنساني إلى ما لا نهاية أمر غير منطقي..

فالإنسان هو صاحب المصلحة في التنعم بالحضارة، وهو مخلوق من قبل الخالق الذي خلقه، وسخر له كل شيء، ليعمر الأرض ويستثمر خيراتها، ويؤدي رسالته عليها.

وأن هذه الأرض مذللة له ومطواعة، وأن ما فيها وما يحيط بها مخلوق للإنسان ومسخر له.

وإن اكتشاف سنن الخلق فيها لا يتحقق إلا بالعلم والعمل.

وإن الأجيال السابقة والمتلاحقة تنقرض ويخلفها غيرها، وأن هذه الخلائف لا بد لها من نهاية تقف عندها يوماً من الأيام.. وأن هذا اليوم آت لا محالة، وأنه يوم الدينونة، أي يوم الحساب..

تحمل المسؤولية :

هذا وإن وجود الخلق يستوجب وجود الخالق، وأن هذا الخالق يعلم ما خلق، ويعلم ما يصلح لخلقه، فأصدر أوامره إليهم عن طريق رسله الذين اختارهم من خيرة خلقه، على فترات متلاحقة، وترك لهم اختيار ما يرغبون، بعد أن بين لهم الحجة وأوضح لهم الطريق، وأرشدهم إلى ما يجب عليهم اتباعه واجتنابه لتقوم الحجة عليهم، لأن المؤاخذة لا تكون إلا بعد التبليغ والتحذير.

والتكليف لا يتحقق إلا لمن كان أهلاً له، أي متمتعاً بالأهلية التي تجعله يتحمل تبعة هذا التكليف. فإذا فقدت هذه الأهلية أو شابها ما يفسد عليها إرادتها، انعدمت المسؤولية وبطلت المؤاخذة.

فالإنسان مكلّف من خالقه وهو مسؤول أمامه ومحاسب على عمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

وهذه المسؤولية تكبح انطلاقة الإنسان غير الحميدة فيقدر للأمور عواقبها وللتصرفات نتائجها، فيقدم حين يقدم عن بصيرة وتقدير. وتقدير

العواقب يتأتى من دراسة مقدماتها والتبصير مما تؤدي إليه، لأن من يستهين بالنتائج يجهل حقيقة التكليف، فيضر بنفسه ويلحق الضرر بغيره.

فالعلم بالشيء مدعاة لمعرفة خواصه والاستفادة من منافعة وتوقّي مضاره.. ولهذا كانت الخشية من الله لاصقة بالعلماء لمعرفتهم بآياته المبثوثة في الآفاق وفي أنفسهم.

وهذه دعوة مفتوحة إلى العلم لا حدود لها.

والعلم وسيلة للنجاة ما عمل الإنسان به، وإلا كان حجة على صاحبه ولا نجاة في علم لا ينفع.

حضـــارة الخيـــر :

والعلم النافع هو كل علم يعود على صاحبه وعلى غيره بالخير وسلامة العاقبة.

وإن اقتصار النفع على إنسان دون آخر لا يجعل هذا العلم نافعاً حقاً ما دام الفرد قد حجب الخير عن غيره أنانية منه، أو سبب الضرر لغيره، بنفع اقتصر عليه وحده.

فشمول الخير للآخرين من مقتضيات نفع العلم. وهذا الشمول هو أسّ الحضارة التي يراد منها جلب الخير ودفع الضرر عن المجتمعات البشرية.

فالحضارة إذن هي تحقيق الخير العميم للمجتمعات البشرية، ولا يكون المجتمع (متحضراً) إذا ما غلبت الأنانية أو المصلحة الذاتية على أفراده ولم يشملهم العلم النافع تحقيقاً لمصلحتهم المشتركة.

ومفهوم الحضارة يقوم على تعاون الجميع فيما يعود عليهم بالخير العميم، ومدلولها تلك الآثار الطيبة التي تسطر ما في سجل التاريخ ويتوارثها جيل بعد جيل، فينهض بها من أخذ بمفهومها وحقق مدلولها في تصرفاته.

وهذا المفهوم يفترض وجود من يضمن تحقيق هذا التعاون المشترك بوضع التنظيمات، وفرض القواعد الآمرة والزاجرة، ومراقبة سلوك الأفراد،

والأخذ على يد السيء، ومكافأة من أحسن العمل.. أي وجود السلطة التي عليها مراعاة هذا كله.

وهذه السلطة تستمد سلطانها من وجوب طاعتها على الأفراد التي فرضها من فرض طاعته وطاعة رسله. فلا تكون طاعة إلا في حدود هذا الفرض، ليستقيم الأمر وتستبين السبيل.

ضرورة التشريع :

وهكذا نخلص إلى وجوب وجود الأوامر التي تلتزم بها الجماعة لتحقيق مصلحتها المشتركة في تعميم الخير على أفرادها ودفع الضرر عنهم.

وحيث أن الخالق منزه عن الخطأ وعن الغرض، فإن ما يفرضه على خلقه واجب الاتباع أخذاً واجتناباً، لعلمه، جل شأنه، بما هم في حاجة إليه، ولاستغنائه سبحانه عنهم. وتكون لهذا التشريع الرباني مكانته في النفوس، وحرمته لديها، فلا يقدم أحد على مخالفته إلا وهو على يقين بأنه معرض للعقوبة إن عاجلاً أو آجلاً، فمصدر التشريع الرباني يوحي بالاطمئنان إلى صلاحه، ويدفع بأولي الأمر إلى حسن تطبيقه ورعايته كيلا تنالهم العقوبة ويبوؤوا بالإثم والعصيان فيتجنبوا مخالفته، وبذلك يستقيم سلوكهم وتهنأ بهم رعيتهم، وينعم الجميع بالحضارة الحقة التي تقوم على تعميم الخير ودفع الضرر وقمع الفساد.

والحضارة التي لا يراعي فيها أربابها جوانب الخير، ليست حضارة، وإن جرت تسميتها بهذا الاسم، لأنها تنقلب إلى مفاسد تحصد عواقبها الأمة نفسها في تالي أيامها أو في أجيالها المتلاحقة.

وإن تنكب الأمة عن جادة الخير يودي بها إلى المهالك ما لم ترتجع وتعود سيرتها الأولى. وهذا الرجوع قد يتحقق عن طريق العلماء المخلصين الذين ينتبهون إلى المخاطر ويحذرون من عواقبها والاستمرار في سلوك طرقها، فيقولون كلمة الحق بمواجهة المنحرفين عن الجادة، عسى أن تستقيم بهم الطريق.

لأن كلمة الحق المعلنة المدوية لها سلطانها على النفوس مهما ظن

الطغاة.. أن الأمر مستتب لهم.. ولا بد أن تؤتي ثمارها ما أخلص القائلون لها الدعوة إلى الحق.

المفهوم الحضاري المعاصر :

هذا وإن المفهوم الحضاري المعاصر يقوم على أساس التقدم الاجتماعي والمادي، وهذا التقدم عماده العلم والثروة. وإن العلم هو معيار تقدم الأمم ورقيها، وبمقدار ما تحصله من العلم تتمكن من الأخذ بأسباب الحضارة، حتى إن العلم هو الذي يساعد على تحصيل الثروة والكسب المادي.

وإن بعض الأمم المتقدمة حضارياً نجدها متفوقة بالعلوم، وإن كانت فقيرة بالموارد الطبيعية. وإن تفوقها بالعلم جعلها تستفيد من خيرات الأمم الأخرى فتصنعها وتعيد بيعها لتلك الأمم بأسعار خيالية، وأبرز مثل على هذه الأمم المتقدمة مادياً والمتفوقة بالعلوم هي ألمانيا الاتحادية واليابان.

وكلنا يعلم أن ألمانيا واليابان خسرتا الحرب العالمية الثانية، وخرجتا منها بذل المنكسر، ورضختا لشروط المنتصر، وبقيتا خاضعتين لبعض شروطه، ولكنهما استطاعتاالاستفادة من القدرات العلمية التي يتمتع بها معظم أفراد الأمتين فاستعادتا اعتبارهما، فأصبحتا في طليعة الأمم الصناعية المنتجة، وتفوقتا في هذا المضمار الحضاري حتى على الدول التي انتصرت عليها. وهذه أمور معروفة للجميع، ولم تعد سراً تجهل الأمم بواعثها. وإن الأخذ بأسباب العلم لتحقيق التقدم والرفاهية لأية أمة من الأمم. يستوجب الانصراف عن اللهو والعبث والانقطاع التام لتحقيق السبق العالمي فيما يعود على البشرية بالنفع العميم.

المستلزمات الحضارية :

إن من أبرز المستلزمات الحضارية تحكيم أبناء الأمة عقولهم في كل تصرفاتهم وإخضاعهم لمفهوم المصلحة العامة التي يجب أن تعلو على كل مفهوم.

وتحكيم العقل يحول دون سيطرة الدجل والأهواء، ويقضي على الأنانية

والفردية، ويفرض احترام المصلحة المشتركة، فتطمئن النفوس لرعاية حقوقها، وسلامة مصيرها، بتحقيق العدالة وتطبيق المساواة وفرض الأمن، وتأمين أسباب الرخاء والعيش الكريم، وغير ذلك من القيم الاجتماعية والضوابط الأخلاقية التي أجمعت على احترامها والالتزام بها الشرائع كافة.

وكذلك إعداد القوة بمختلف متطلباتها، فإنه من مستلزمات الحضارة لأن الإعداد والاستعداد الدائمين يكفلان الاحترام للأمة ويضمنان الاستقرار لها.

والقوة ذات مفهوم مطلق، يشمل الناحيتين المادية والمعنوية، فالأخذ بها ـ في مفهومها العام ـ أدعى إلى تثبيت الأسس الحضارية والمحافظة على استمرارها.

ولا يضير الأمة أن تسلك هذا السبيل، بل يجب عليها ذلك لأنها من مستلزمات الحضارة ومن مؤيداتها..

ومن القوة التفوق في الميادين الجوية جميعها خلقاً وعلماً وصحة وتعاوناً وكسباً لأن اليد العليا خير من اليد السفلى.

وكذلك فإن من مستلزمات الحضارة أن يكون للأمة مثل أعلى تحرص على نشدانه لأن الأمة التي تقنع بالدون لا تصنع حضارة، ولا تكون أهلاً للسيادة، وإن أعلى مثل للأمة أن تنشد الكمال في تطلعاتها وأهدافها. والكمال في حقيقته غاية لا تدرك، ولكنه يرتفع بالأمة إلى أعلى المستويات، ويشدها إليه بأمل أن تحقق أعلى مستوى منه.

هل حققت الحضارة المعاصرة مفهومها الأصيل ؟ .

إن التقدم الذي حققته الحضارة المعاصرة في العلوم الكونية والرفاهية المادية كسب لا شك فيه، وإنه انطلاقة في اكتشاف سنن الله ـ أبرزت للعلماء المتبصرين المنصفين قدرة الله سبحانه وإبداعه في خلقه.

فالمنجزات الحضارية المعاصرة تجاوزت حدود الأرض وأخذت تطوّف في الأجواء العالية ـ وتقرب بين الأبعاد النائية، وتخترق من علٍ باطن الأرض ومخزوناتها... وتربط بين الدول في اتصالاتها اللاسلكية عن طريق الأقمار

الصناعية.. هذا بعض ما تحقق في عالم الفضاء، أما في عالم الأرض، فإن المكتشفات العلمية ـ في مختلف المجالات ـ فاقت حدود التصور.

والإنسان في مكتشفاته منطلق في سبيله دون توقف، يحدوه الأمل والجد في أن يحقق ما كان يظنه الإنسان العادي من ضروب المستحيلات.

وهذه الانطلاقة في مختلف الاتجاهات تقوم على العلم، كما سبق ونوهنا من قبل، فما هو نصيب الإنسان المعاصر من هذا السبق العلمي ؟

هل عم النفع العلمي أفراد النوع البشري، وهل تناقص عدد الوفيات من الجوع والأوبئة في بعض البلدان ؟

وهل تقلص ظل البؤس بعد أن عم الرخاء والرفاهية أجزاء من العالم، أم أن رقعة البؤس في ازدياد واتساع ؟.

وهل انعدمت التفرقة العنصرية ونظر الناس بعضهم إلى بعض بمنظار الأخوة الإنسانية.. أم هل استطاعت الدول المتقدمة مادياً القضاء على الإجرام في بلادها.. أو الحيلولة دون قتل النفوس بالمخدرات والانحدار الخلقي ؟

وهل استقر الأمن الداخلي والخارجي،وتوقفت التهديدات، وأمن الناس بعضهم بعضاً ؟

إن هذا العلم الذي تتسابق فيه الأمم ـ علم خال من الروح والأخلاق ـ فلا إيمان بالله يملأ الفراغ النفسي الذي خلفته هذه الحضارة المادية ويعصمها من الانتحار حقيقة ومعنى، ولا أخلاق تضبط سلوك الأفراد، وتحول بينهم وبين الانحدار إلى البهيمية (البوهيمية) المنتشرة لدى كثير من الشعوب المتحضرة مادياً.

إن هذه الحضارة المادية المعاصرة قد أعلنت إفلاسها ـ على الرغم من التسابق العلمي ـ على لسان عدد من زعمائها والمفكرين فيها، وبشهادة واقع شعوبها وصلاتهم بغيرهم من الأمم.

الصـراط الحضـاري :

سبق أن تحدثت في الفقرات الأولى من هذا البحث عن مسلَّمات لا

شك عندي في صحتها، وفي أن الاعتقاد والأخذ بها يؤدي إلى سلوك الصراط الحضاري، وأرجو أن يعود إليها القارئ للتذكر والتدبر مرة أخرى.

إذ لا نكران في أن التجمع والتنظيم أمران لا بد منهما لأي مجتمع إنساني، وإن قوام هذا التجمع هو الإنسان، لأنه محور الحضارة. وأن على هذا الإنسان أن يتحمل مسؤولية كاملة غير منقوصة ليعمل على إيجاد حضارة الخير التي تعم الإنسانية، دون تفريق بين شعب وشعب أو بين أمة وأخرى.

وإن الدعامة الكبرى لتحقيق حضارة الخير وجود تشريع لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ـ ليضمن السلامة والطمأنينة للجميع تحت ظل هذا التشريع العادل، وأن يقوم على تطبيق هذا التشريع من يحرص على تحكيم العقل، وإعداد القوة المقلقة في جميع الميادين، واتخاذ مثل أعلى لتحقيق الكمال المنشود في تطلعات الأمة وأهدافها.

وهذه البدهيات عند توافرها تستقطب مطالب الحياة البشرية في مختلف مجالاتها، فالإنسان مخلوق ولا بد له من أن ينظم علاقته بخالقه ـ فكانت العبادة لله، وفي مقدمتها الاعتقاد بوحدانيته سبحانه والالتزام بأوامره وابتغاء مرضاته.

والإنسان كائن يختلف عن باقي المخلوقات بعقله وتكوينه وتكليفه، لأنه السيد لسائر المخلوقات، وهي جميعها مسخرة له، فلا بد له من أن يكون على المستوى الذي يليق بسيادته وتفضيله، من سمو بالأخلاق والمعاملات.

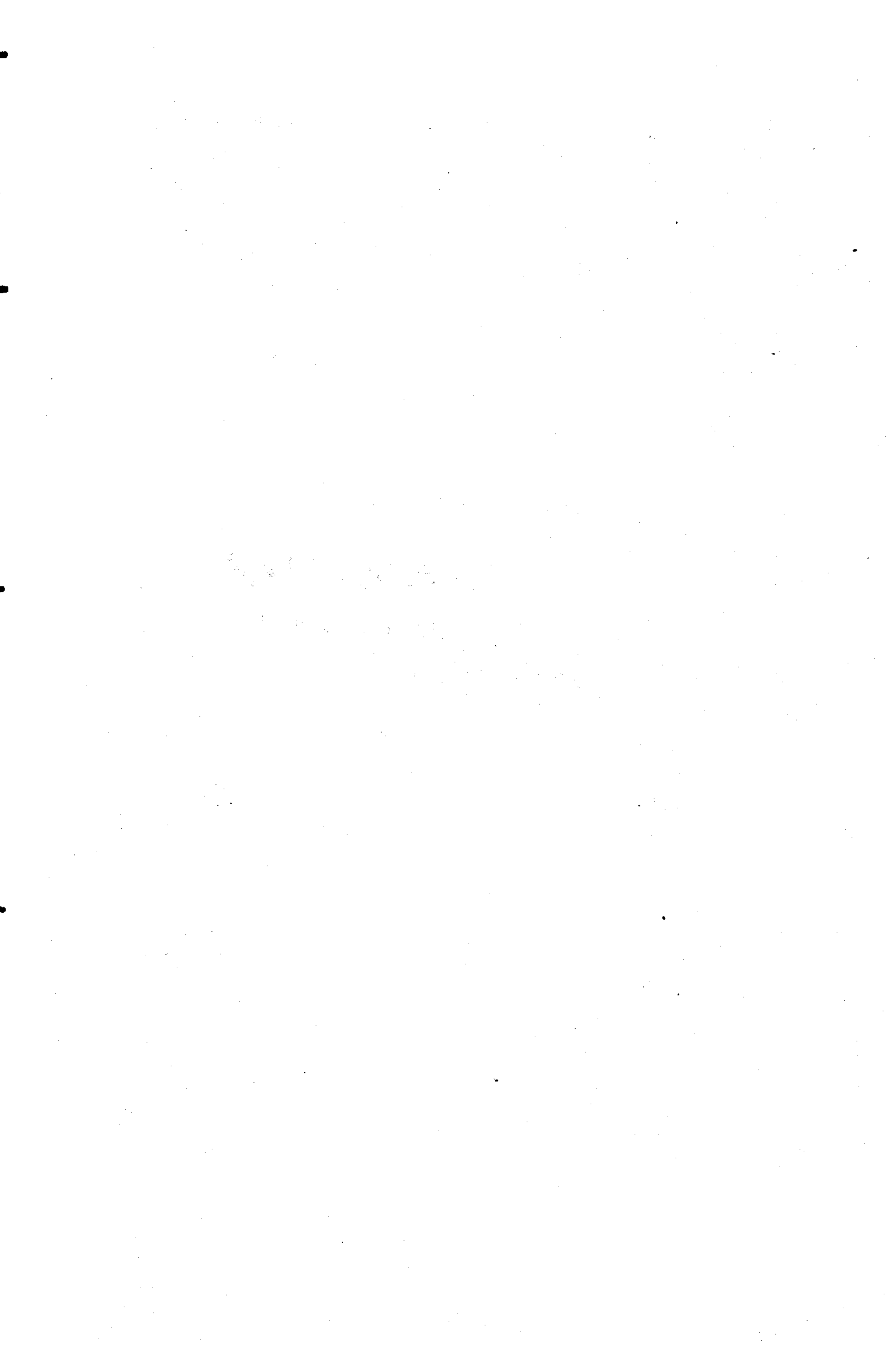
والإنسان كائن اجتماعي بطبعه لا يستطيع العيش دون تعاون مع أبناء جنسه، فلا بد له من تجمع وتنظيم وتشريع وقيادة، تضبط علاقة الإنسان بغيره، فرداً وأسرة ومجتمعاً وحاكماً ومحكوماً.

هذا الإنسان هو محور الحضارة، فإذا ما استقام في سريرته وعلانيته، استقامت حضارته، وإذا ما فسد فسدت حضارته.

والصراط الحضاري هو الصراط المستقيم الذي أمرنا الله باتباعه وتجنب اتباع السبل الأخرى لكي لا نضل عن سبيله.

والصراط المستقيم هو صراط الله العزيز الحميد، هو هذا الدين الإسلامي الذي لم يرتض الله لنا ديناً غيره.. فإن أحسنا فهم تعاليمه وأخذنا بها سلكنا الصراط الحضاري المستقيم، وإن تنكبنا عن جادته خسرنا الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين.

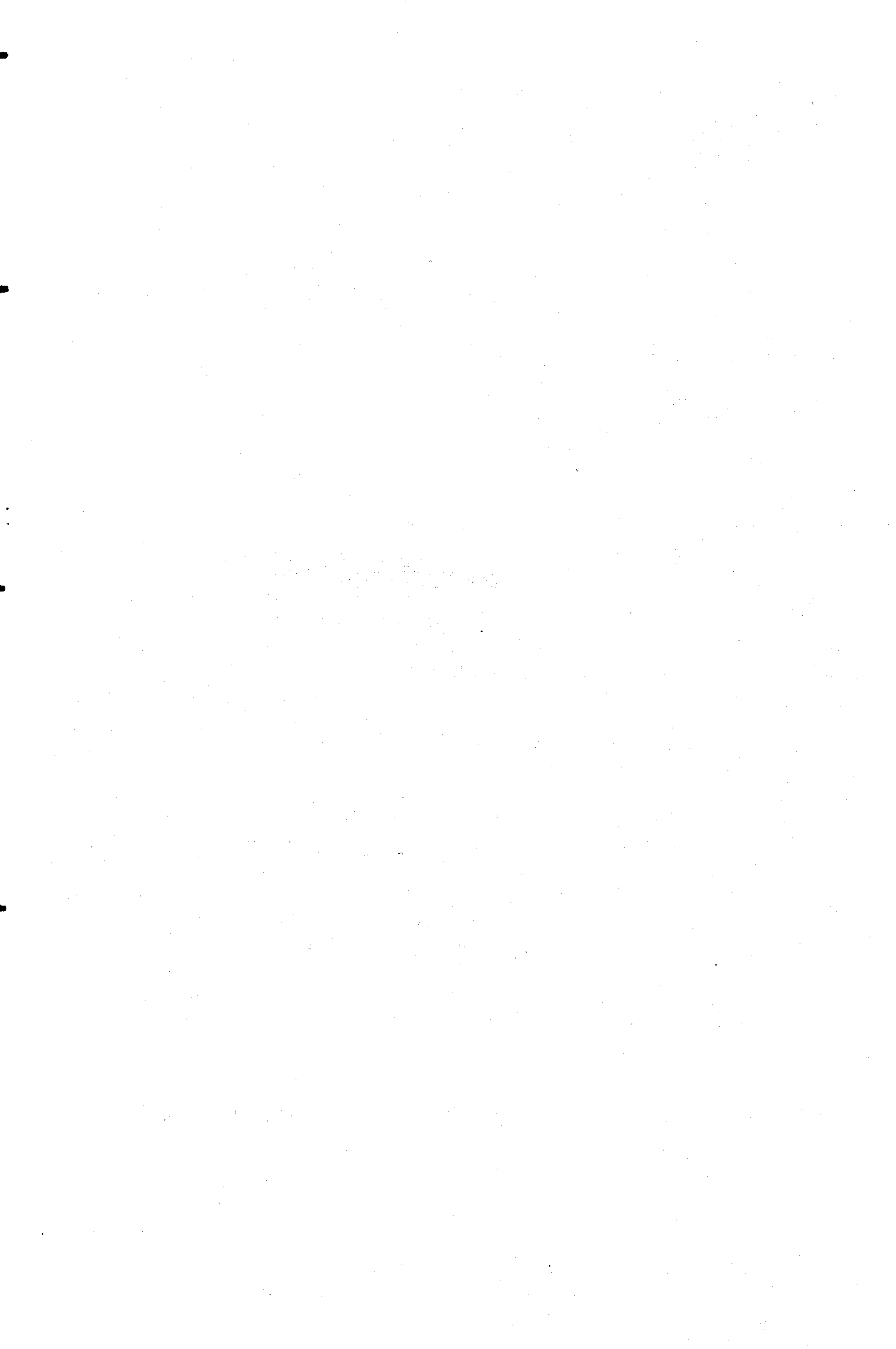
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



هل عبادة الله واجبٌ علميّ حيويّ

وما مفهومها في الإسلام

للدكتور محمد معروف الدواليبي



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لن نكون مخطئين إذا اعتبرنا أن الدافع الأساسي للتقدم العلمي المعاصر في مختلف وجوهه هو بصورة عامة خدمة مصالح الإنسان الحيوية.. سواء كانت هذه الخدمة شاملة لكل بني الإنسان، أو لبعضهم فقط بسبب من الأسباب الخاصة.

وهكذا بلغ مثلاً اليوم علم النباتات أوجه من التقدم، وذلك من أجل ضمان حياتها وبقائها في مختلف أقاليم الأرض. والغاية من ذلك تأمين حاجة الإنسان منها في مختلف الأقاليم وفي مختلف الأزمان.

ولذلك تعمق العلماء على مختلف وسائلهم من تجارب ومخابر لاكتشاف « طبيعة » مختلف النباتات من مزروع أو أشجار، ولاكتشاف شروط بقائهاوحياتها التي فطرت عليها والتي تعيش، أو لا تؤتي ثمارها بدونها.

كما اهتم العلماء بعد ذلك بتصنيف النباتات وفقاً لتلك الشروط الخاصة بكل منها، كي تؤدي ثمارها المفيدة للإنسان موصولة غير مقطوعة. وقد جعل لكل منها شروط خاصة لزراعتها وتنميتها في الزمان والمكان : فلا تزرع مثلاً فاكهة أو أشجاراً استوائية في مناطق باردة لا تناسب خصائص تكوينها وما فطرت عليه من شروط للحياة الصالحة لها، إذ

أنها تموت عندئذ، أو لا تعطي ثمارها المنتظرة، لأنك لم توفر لها شروط فطرتها، فعاقبتها قوانين الفطرة نفسها بالموت والفساد، فتضررت عندئذ من ذلك مصالح الإنسان، وفاته منها خيراتها المتوقفة عليها حياته.

وكذلك اهتم العلماء بعالم الحيوان خدمة للإنسان، وتعمقوا بمختلف وسائلهم من تجارب ومخابر فيما ينفع الإنسان منها وما لا ينفعه، بغية ضمان بقائها وحياتها أيضاً على أحسن وجه، وذلك من أجل إعداد الشروط اللازمة لحياة كل منها وفقاً لشروط فطرتها في الحياة والبقاء. والغاية من ذلك هي أيضاً تأمين حاجة الإنسان منها في مختلف الأقاليم والأزمان.

أما الإنسان، وهو المقصود بالدرجة الأولى من العمل على تأمين حاجاته الحيوية على هذه الأرض، فقد كان الاهتمام بمعرفة مبدئه ومعاده وطبائع فطرته، هو الشغل الشاغل للأديان والفلاسفة والعلماء منذ أقدم الأزمان، قبل ذلك الاهتمام الكبير بعالم النبات والحيوان، وذلك أيضاً من أجل تأمين أحسن الشروط للحياة السعيدة للإنسان على هذه الأرض. وما الكتاب المشهور لأفلاطون « المدينة الفاضلة » إلّا مثل على كثير من البحوث الفلسفية في هذا الشأن، سواء فيما قبل أفلاطون أو فيما بعد.

غير أنه يؤسفنا أن تقدُّمَ الحضارة المادية اليوم قد أقصى نهائياً عن بحوثه كل ما قد كانت اهتمت به الأديان والفلسفة قبل ذلك من بحوث عن مبدأ الإنسان ومعاده، وعن فطرة الإنسان وطبيعته، لمعرفة مقتضيات فطرته، وشروط حياته السعيدة، إلّا ما قد اقتصر عليه علم التربية من « ظواهر علم النفس » فقط وما يتبعها من أخلاقيات تعلمهم « الحياة من أجل الحياة » دون الذهاب إلى ما وراء هذه « الظواهر »، وهذا ما جعل الاهتمام بحياة الإنسان نفسه في عصر الحضارة الحديثة « المادية » من أجل الإعداد لمجتمع إنساني سعيد، لا يدرس إلّا على « أساس مادي فقط » كما هو الشأن في دراسة النباتات والحيوانات، بل دون مستوى الدراسة لعالم الحيوان الذي أعطيت فيه قيمة أساسية لفطرته وأحاسيسه من أجل فرض المناخ والظروف المناسبة لحياة الحيوان حياة سعيدة، بينما قد أقصي عن عمد وتصميم بحث فطرة الإنسان وخصائصها وما بني عليه تكوينه من مادة

وروح، أو بتعبير آخر ما بني عليه تكوينه من عنصرين أساسيين : هما العنصر المادي المشاهد، والعنصر الروحي غير المشاهد، وحصر البحث في « العنصر المادي » فقط، وهذا ما جعل البحث في شروط سعادة الإنسان الحقيقية قائماً على أحد عنصرين من تكوينه، وعلى « العنصر » المادي خاصة، وذلك على مثل الحيوان ! وهذا أيضاً ما يهبط أولاً بمستوى الدراسات الإنسانية وبخصائصها التي تسمو على خصائص الحيوان، بل ويهبط بها أيضاً عن مستوى الكرامة الإنسانية إلى مستوى الحياة الحيوانية البهيمية.

هَل الرّوح في الانسان عنصر أسَاسيّ

لسنا هنا في صدد البحث عن « جوهر الروح » الذي أتعب الفلاسفة والعلماء قديماً وحديثاً، فإننا لا يهمنا من « الروح » هنا معرفة « جوهره »، وإنما يهمنا معرفة « وجوده » في تكوين الإنسان بدلالة « أثره » أو « ظاهره » التي لا شك فيها في حركات الإنسان وسكناته ما دام حياً، وإن ظل « جوهر الروح غيباً عنا » وسراً في أسرار الوجود حتى اليوم بإجماع العلماء : من ماديين لا يؤمنون بالمغيبات وفي مقدمتها الله جلّ جلاله، ومؤمنين يؤمنون بالغيب بَدْءاً من الله سبحانه وتعالى. وإننا سنقتصر هنا على أوجز النصوص وأدلها، وخاصة ما قال به جهابذة الماديين على الرغم من إنكارهم لما وراء المادة من « عالم الغيب »، وكذلك أقوالهم التي اشتركوا فيها حديثاً مع كبار الاخصائيين من غيرهم في نيويورك. ومن المفيد أولاً أن نعرف أن ما يطلق عليه اسم « الروح » هو ما يطلق عليه أيضاً « النفس » أو « الحياة ».

أما « انجلز »، من مؤسسي المذهب المادي الماركسي، ومن أركان فلاسفته فيقول في كتابه : « أنتي دوهزنغ أي ضد دوهزنغ » : إن علم الطبيعة لم ينجح في إنتاج الكائنات العضوية، أي الكائنات الحية.. دون تناسل من كائنات أخرى.. وبالتالي فإنه ليس في مكنة علم الطبيعة حتى

الآن أن يؤكد شيئاً بخصوص أصل الحياة »[1]. وهكذا يعترف صراحة بعنصر مادي في تكوين الإنسان.

وكذلك ينقل « لينين » مثل هذا الكلام عن « انجلز » وعن « فيورباخ » في دفاتره الفلسفية مؤيداً ومؤكداً[2].

وأخيراً فقد عقد مؤتمر في نيويورك عام ١٩٥٩م، وقد عقده ستة من أئمة علماء الحياة في كل من الشرق والغرب حول مائدة مستديرة أملاً في الوصول إلى فهم شيء عن « أصل الحياة » (الروح) ونشأتها على الأرض، أو إلى معرفة مدى إمكان إيجاد « الحياة » عن طريق التفاعل الكيمائي، كما كان يظن فلاسفة الماديين الماركسيين، وكان فيهم العالم الروسي « الكسندر ايفانوفتش أو بارين » أستاذ الكيمياء الحيوية في أكاديمية العلوم السوفياتية.

وقد قرر المؤتمرون في نهاية بحوثهم بالإجماع : « أن أمر الحياة (الروح) لا يزال مجهولاً، ولا مطمع في أن يصل إليه العلم يوماً ما. وأن هذا السر أبعد من أن يكون مجرد بناء مواد عضوية معينة وظواهر طبيعية وكيميائية خاصة[3]، وفي ذلك رد على ما كان يقول انجلز وأمثاله في بعض فرضياتهم من أن الحياة يجب أن تكون نتيجة بعض التفاعلات الكيميائية[4].

أما القرآن الكريم فقد حسم الموقف في ذلك منذ أربعة عشر قرناً على طريق الإعجاز وقال : « يسألونك عن الروح.. قل الروح من أمر ربي »، فهو سرٌّ إذَنْ من أسرار الخالق وعالم الغيب لا يعلمه إلا الله، وهذا ما جاء يعترف به اليوم أساطين علماء « الحياة » ومخابرها الكيماوية حيث قالوا : « إن أمر الروح لا يزال مجهولاً، وأنه لا مطمع في أن يصل إليه العلم يوماً ما »، فكان ذلك دليلاً جديداً في عصر العلوم المتطورة على إعجاز

---

(١) الصفحة (٩٠) نقلا عن كتاب « نقض أوهام المادية الجدلية » للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، دمشق، دار الفكر ١٩٧٨م، ص ٩٨.

(٢) الدفاتر الفلسفية ٥٧/٢، نقلا عن المصدر السابق للدكتور البوطي في الصفحة ٩٨.

(٣) انظر أخبار هذا المؤتمر في كتاب « قصة التطور » للدكتور أنور عبد العليم ص ١١ ــ ٢٣، وكذلك كتاب « كبرى اليقينيات الكونية » لمؤلفه الدكتور البوطي ص ٩٦ ــ ٩٧.

(٤) الكتاب السابق للدكتور البوطي، الصفحة ٩٨ ــ ٩٩.

القرآن، وإن الروح رغم جهالة جوهره، ورغم أنه مغيب عنا، هو عنصر أساسي لا شك فيه من عنصري جسم الإنسان، وأنه شيء غير عادي قطعاً، ولذلك كان الاهتمام بعنصر الإنسان « المادي » فقط لمعرفة متطلباته، ولوضع شروط طبيعته للحياة السعيدة له، دون ملاحظة العنصر « الروحي » وهو الأهم في الإنسان والذي لا حياة للإنسان بدونه، نقول فقد كان قصر البحث على ذلك عملاً غير علمي لتحديد فطرة الإنسان « المادية » فقط وتحديد مستلزماتها في الحياة، دون ملاحظة فطرته « الروحية » ومستلزماتها أيضاً في الحياة. بل إن كلاً من « بودو ستنيك » و « ياخوت » من علماء الماركسيين قد جاهروا بأن « المادة نفسها الموجودة في العالم لها جانبان : الجانب الخفي عنا، والجانب الخارجي الذي هو وحده في متناول إدراكنا الحسي كما أكده لنا العلم والنشاط العملي »[1].

فهم يقرون اليوم أيضاً كما ترى « بجهالة حقيقة المادة نفسها في أحد جوانبها »، فضلاً عما سبق من إقرارهم « بجهالة جوهر الروح ». ومن الغريب بعد ذلك أنهم ينسبون للمادة وحدها عن طريق الجزم « كل تلك القدرة في التكوين، تحت ستار الديالكتيك » ! رغم إقرارهم علمياً بأن « المادة المحسوسة نفسها لم تنكشف لهم جوانبها الخفية » ! وهنا أيضاً حَوْل جهالة بعض جوانب المادة بعد « جهالة جوهر الروح » جاءت المعجزة القرآنية تؤكد لنا كذلك هذا « السر الخفي عنا » فقد قال الله سبحانه وتعالى في قرآنه الحكيم المبين : « .. وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » وهو نص في ذلك الجانب المجهول.

وهكذا ننطلق الآن من مسلمات علمية لا شك فيها لدى علماء الحياة من ملحدين ومؤمنين، لنقول : إن الإنسان « روح ومادة »، وإنه في تحديد شروط حياته السعيدة يجب مراعاة عنصري تكونه كليهما من روحي ومادي، والعمل وجوباً « بقوانين العنصر الروحي » ومتطلباته، بالإضافة إلى العمل وجوباً « بقوانين العنصر المادي » ومتطلباته.

---

(١) انظر كتاب « نقض أوهام المادية الجدلية » للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، الصفحة ١١١، طبع دار الفكر بدمشق سنة ١٩٧٨م.

وإذا جاهر الماديون المنكرون بأن الإنسان لا يكون « حراً » بالاستقلال عن قوانين الطبيعة، وأنه إذا حاول الخروج عليها عاقبته هي بالموت، وذلك كمن يخرج على قوانين الرئتين اللتين توجبان التنفس ليعيش، فإذا امتنع عن التنفس عاقبته قوانين الرئتين حالاً بالموت جزاء وفاقاً، كذلك نجاهر نحن المؤمنين بأن الإنسان لا يكون « حراً » بالخروج على قوانين فطرته الروحية، وأنه إذا حاول الخروج عليها عاش إنساناً ضائعاً فاقداً لمطالب أعز عنصريه وهو الروح، فيشقى بذلك، ويشقى المجتمع كله بشقاوة أعماله ونزوات شهوات « عنصره المادي »، بعيداً عن أحكام قوانين « عنصره الروحي » ومتطلباته التي سنشرحها فيما بعد.

وهكذا يقول « انجلز » : لا تكمن الحرية في الاستقلال الموهوم عن « قوانين الطبيعة »[1]، ثم يأتي « بليخانوف » مريداً أن يزيد المسألة إيضاحاً فيقول : إن الدواء ضروري ليكون العلاج ناجعاً، وإن الرحلة إلى « إيجينا » ضرورية لجمع الديون. كل هذه ضروريات مشروطة. وإنه علينا أن نتنفس إذا أردنا أن نعيش، وأن نتناول الدواء إذا أردنا أن نتحرر من المرض.. الخ[2].

وهكذا الشأن أيضاً في « العنصر الروحي » بل العنصر الأساسي للجسم، فلا يجوز تعطيل مطالب الروح، وقطع الاتصال بين « الروح » وبين مصدرها العلوي وأوامر شريعته، إذا أراد الإنسان المكون من عنصريه الروحي والمادي أن يعيش هو، وأن يعيش المجتمع معه عيشة سعيدة هنيئة.

وعلى هذا، فإذا انطلقنا من المسلمات العلمية بأن الإنسان : روح ومادة، وجب علينا الاستجابة علمياً أيضاً لمطالبهما. ففي الجسم « رئتان » ويجب علينا أن نعطيهما متطلباتهما من التنفس، وإذا لم نستجب لمتطلباتهما الملازمة لفطرتهما باعتبارهما جهازاً فُطِرَ وخُلِقَ للتنفس، وأوقفنا الرئتين عن التنفس، مات الإنسان.

---

(١) الصفحة ٤٢ من الكتاب السابق للدكتور البوطي.

(٢) نفس المصدر قبله، الصفحة ٤٢ ــ ٤٣.

وفي الجسم أيضاً معدة تتطلب إمدادها بحاجة الجسم من الغذاء، وإذا لم نمد المعدة بمتطلباتها مات الإنسان. وهكذا سائر أجهزة الجسم المادية في متطلباتها المادية.

ولما كانت « الروح » هي العنصر الأساسي لتكوين الجسم، فإن لها متطلبات أيضاً على نفس مستوى متطلبات العنصر المادي، خاصة وهي التي يتحرك بها الجسم ويبصر ويسمع ويرى ويمشي ويفكر، بل هي كما نرى أسمى من العنصر المادي، ولذلك كانت أمراً من « أمر ربي » أي سراً من أسرار الله، وقد شاءت قدرته سبحانه وتعالى أن يودعها جسم الإنسان.

ولما كان العنصر المادي في الإنسان، وهو جسمه، لا يعيش بدون إمداده بمتطلباته المادية من تنفس للهواء النقي وتقديم ما يجب للمعدة من طعام، فكذلك الروح وهي من أسرار الله التي أنزلها علينا ليتحرك بها الجسم، لا يجوز أن نقطعها عن صلتها بمصدرها العلوي، وما صلتها هذه إلا بالعبادة لله سبحانه بالحمد والشكر والاستعانة به وبالتضرع إليه، وبالخوف من شذوذ على أحكام شريعته.

وكما أن الجسم ليس له أن يخالف مقتضيات قوانين طبيعته من امتناع عن التنفس والطعام فيموت، فكذلك ليس للروح أن تخالف مقتضيات قوانين فطرتها وخلقتها بالانقطاع عن مصدرها والتضرع إليه والخوف من الخروج على شريعته، فعندئذ يختل سير الجسم باختلال أحد عنصريه، الأساسي منهما، ولذلك قال الله سبحانه وتعالى : « ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً، ونحشره يوم القيامة أعمى ». فإذا لم يعبد الإنسان الله، وذلك بذكره لمراقبة الله له في كل حركة من حركاته وسكناته، وإذا لم يلجأ إليه ولم يستعن به على الدوام على أساس التضرع إليه والخوف من الشذوذ عن أحكام شريعته، فقد غدا الجسم المادي يعمل وحده بمقتضى شهواته ونزواته ولا يبصر في حياته إلا إياها، ولا يبتغي غيرها، فيسيء إلى نفسه ويشقى المجتمع كله بشقاوة تصرفاته ونزواته فتفسد معيشتهم مصداقاً لقوله تعالى : « ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً، ونحشره يوم القيامة أعمى ».

وهكذا فإن مراقبة الإنسان لأعماله بالتضرع إلى الله وبالاستعانة به، والخوف من الخروج على شريعته، وهو المقصود من العبادة، تكون هذه المراقبة هي الضمان الوحيد لاستقامة الإنسان في حياته، ولسعادة مجتمعه به، ولسلامة الإنسان نفسه، ولسلامة الأرض التي يعيش عليها، وهذا ما قد حرمت منه الشرائع الوضعية المادية التي لا ضامن لاحترامها ولاحترام حقوق الناس فيها غير السلطات الحكومية، تلك السلطات المادية التي لا يمكنها أن تلازم الإنسان في جميع حركاته وسكناته. وهكذا يستطيع الإنسان أن يفلت منها كلما أراد، وأن يعيث في الأرض فساداً كلما تمكن من الافلات منها، أو كان سلطانه فوق سلطانها.

ولذلك كله كانت عبادة الله، بالتضرع إليه والتماس رضاه، وبالخوف من عقابه كلما شذ عن أحكام شريعته، هي بحق :

أولاً ـ واجب حيـوي

وثانيا ـ واجب علمي لما أسلفنا من قبل.

مَاهوَمفهُوم العبَادَة في الإسْلاَم

إن الكثيرين من المصلين المواظبين على صلواتهم مثلاً من العبادات، قد لا يشعرون في أول الأمر من صلواتهم إلا أنها تكليف، فيصلونها ليستريحوا من عبء التكليف، لا ليستريحوا بها كما هو الواجب أن يكون، وكما قال رسول الله ﷺ : أريحونا بالصلاة، فكانت الصلاة في الحقيقة مصدر راحة واطمئنان، بعد تعب واضطراب من شؤون الحياة المعقدة. ولذلك كان رسول الله ﷺ، وصحابته الكرام إذا أزعجهم أمر فزعوا إلى الصلاة، لأنهم بالتضرع إلى الله وبالاستعانة به، يعودون بعد الصلاة إلى شؤونهم وهم أكثر عزيمة وأكثر اطمئناناً، مصداقاً لقوله تعالى : « ألا بذكر الله تطمئن القلوب ». وإذا عرف المسلم ما هي الأمور التي خلق الله الإنسان من أجلها، وآمن بها، لم يسترح عندئذ إلا بأداء ما خلق له على أحسن وجه، وذلك كالمثقل بالديون من الأوفياء العارفين بواجباتهم، فإنه يظل في قلق واضطراب بال ما لم يتمكن من أداء ما وجب عليه بأحسن وجه.

فما هو الذي خلق من أجله الإنسان على هذه الأرض ؟

يقول الإمام الراغب الأصفهاني رحمه الله في كتابه « الذريعة إلى أحكام الشريعة »[1] : « الفعل المختص بالإنسان ثلاثة :

أ ــ « عمارة الأرض » المذكورة، في قوله تعالى « واستعمركم فيهــا ».

ب ــ « عبادته » المذكورة في قوله تعالى : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون »، بالامتثال للباري في عبادته، وفي أوامره ونواهيــه.

جـ ــ و « خلافته »، المذكورة في قوله تعالى : « ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون ».

ومعنى استخلافنا في الأرض من قبل الله فاطر السموات والأرض، هو توظيفنا فيها من قبله جلّت حكمته بأتم مفهوم « التوظيف اليوم في دوائر

---

(١) الصفحة ٢٦، طبع سنة ١٩٧٣.

الدولة وفقاً لقوانينها »)، وتحميلنا وحدنا مسؤولية عمارتها « مختارين » على خلاف دور الشمس في عمارة الأرض حيث تقوم بوظيفتها بإرادة الله فقط غير مختارة، وتؤدي فوائدها للإنسان مدللة بذلك على قدسية الله وكما خلقه وأمره ونهيه، وذلك بالتسبيح له أي بالتقديس له، وفقـاً لقوله تعالى : « وإن من شيء إلا يسبح بحمده، ولكن لا تفقهون تسبيحهم »)، فهي بذلك تقدسه وتقدس أفعاله الحكيمة المحمودة دائماً، وهذا ما جعله سبحانه وتعالى مستحقاً للتقديس وللحمد دائماً.. وهكذا فإن عبادتنا لله ضرورية بحكم وظيفتنا على الأرض لعمارتها، وما عبادتنـا لله في الأرض ونحـن مستخلفون وموظفون فيها ومسؤولون عنها، إلا اتباع أحكام شريعته من أجل كمال عمارة الأرض لمصلحتنا. وذلك كما يجري تحميل الموظف في دوائر الدولة على الدوام مسؤولية عمله فيها وفقاً لقوانين الدولة، وإنه إذا شذ عن قوانينها فسد نظام الدولة بأجمعها، وشقي الناس بذلك الفسد، فاستحق الموظف أشد العذاب، وكذلك فطر الله الإنسان أي خلقه على هذه الأرض على هذا الأساس من الاستخلاف من أجل عمارتها مختاراً مثل خيار الموظف، وفقاً لأحكام شريعة الله فيها، لا تبديل لفطرة الله، وله الحمد على ذلك.

وكما يفكر الموظف دائماً، وفي كل عمل من أعمال وظيفته اليومية بأحكام القانون، وبالحذر من الشذوذ عليها، فكذلك يجب على الإنسان في خلافته على الأرض لعمارتها أن يراقب الله دائماً في أوامره ونواهيه، وفي كل تصرف من تصرفات العمارة والخلافة من غير انقطاع : بالغدو والآصال، وفي جميع الصلوات الخمس على الأقل، ليكون بذلك من العابدين لله دائماً وحقاً، ومن القائمين بعمارة الأرض عبادة لله دائماً أيضاً وحقاً.

وكل ذلك في الحقيقة من عبادة الله إذا قام به الإنسان وفقاً لأوامر الله ونواهيه، من عمارة الأرض، والخلافة عن الله على الناس في الأرض والحكم فيهم بالعدل.

ويتضح من ذلك أن العبادة في الإسلام ليست انزواء بين الجدران، وانقطاعاً عن الحياة، بل قال الله سبحانه تعالى : « قل من حرم زينة الله التي

أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا، خالصة يوم القيامة ».

وهكذا يظهر بكل وضوح أن العمل بأوامر الله في عمارة الأرض والأخذ من الطيبات وفقاً لشريعة الله هو من العبادة التي يؤجر عليها الإنسان من أجل كمال عمارتها، ولو كانت شهوته الجنسية إذا أتاها من وجه مشروع فله فيها أجر لأن عمارة الأرض بالبشرية متوقفة عليها، فهي إذن عبادة، ولذلك قال بعض الصحابة لرسول الله ﷺ : أيأتي أحدنا شهوته وله فيها أجر ؟ فقال لهم : أرأيتم لو وضعها في محرم ؟ أكان عليه وزر ؟

وبعد هذا الذي قدمناه في مفهوم العبادة في الإسلام، وأنها العمل الأساسي الذي خلق له الإنسان ضمن مفاهيم عمارة الأرض، والعدل بين الناس، والأكل من الطيبات وفقاً لشريعة الله، يبقى علينا أن نوجز خاتمة بحثنا عن العبادة في الإسلام ببيان ركنها الذي لا تصح إلا به.

لم يترك القرآن الكريم معنى العبادة لله غامضاً، بل نص عليه بكل وضوح. فهي ليست الشكليات الظاهرة في الصلاة من قيام وقعود، وركوع وسجود، فقد قال الله سبحانه : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب » وليست الشكليات الظاهرة في الحج، من طواف، وسعي، ووقوف في عرفات، ورمي الجمرات، وإنما العبادة أن تكون على ذكر الله « راجياً رحمته، وخائفاً من عذابه » إن خرجت على شريعته. وهكذا قال الله سبحانه وتعالى في الصلاة : « وأقم الصلاة لذكري »، أي أن الغاية من هذه الشكليات الواجبة أيضاً هي ذكر الله. وقال رسول الله ﷺ في الحج : « إنما جعل الطواف والسعي والرجم لذكر الله ».

ولكنِ ما هو ذكر الله الذي أراده الإسلام في عبادة الله ؟ هل هو ذكر اسم الله جلّ جلاله على اللسان وحسب ؟

كذلك هنا فإن القرآن نفسه حدده بصراحة فقال : « واذكر ربك في نفسك : تضرعاً، وخيفة، ودون الجهر من القول، بالغدو والآصال، ولا تكن من الغافلين ».

أي أنك إذا صليت لله، أو حججت، أو ذكرت الله قياماً وقعوداً وعلى

جنبيك، فيجب أن يكون الذكر لا لفظاً فقط، بل مشتملاً على « التضرع إلى الله، والتوسل إليه، والاستعانة به، والخوف منه في سقطاتك، وأن لا تغفل في تصرفاتك اليومية عن هذا الذكر لله »، سواء كنت في صلاتك أو خارج صلاتك، فإنك إن فعلت ذلك كنت من العابدين دائماً، ومن الذاكرين حقاً، ومن الذين قال الله سبحانه وتعالى فيهم : « ألا بذكر الله تطمئن القلوب ».

وأن هذا الحال من الذكر بالتضرع إلى الله، وبالخوف منه، يجب أن لا تغفل عنه في يومك، وفي كل خطوة من خطواتك، وفي كل حركة من حركاتك وتصرفاتك، وخاصة الدنيوية منها، بحيث تكون طوال يومك في ذكر له، أي تكون دائماً في ذكر الله تضرعاً وخيفة. وما الخبر الصحيح في أن الله قد فرض في أول الأمر على المسلمين خمسين صلاة في اليوم، ثم ما زال رسول الله ﷺ يراجع ربه طالباً التخفيف حتى ردت إلى خمس صلوات، أقول إن هذا الخبر عن الله، وهو أعلم بحال عباده، وحاجتهم إلى الرفق بهم، ليس الغرض منه إرهاق عباده، وإنما الغرض منه الرمز به، إلى الواجب على الإنسان في أن يكون على ذكر دائم لله في حركاته وتصرفاته، وخاصة فيما أحل الله للناس من طيبات الرزق والجنس فلا يتعدى حدود شريعته فيها، فيذكر الله في كل ذلك متضرعاً ومستعيناً وخائفاً وليس في ذلك أي إرهاق للعباد، فيكون بذلك عندئذٍ من العابدين لله دائماً، مصداقاً لقوله تعالى : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » ومن الذاكرين لله حقاً، ومن القائمين بخلافة الله على الأرض حقاً، وممن اتبع رضوان الله حقاً الذين قال سبحانه وتعالى فيهم : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين :

ـ يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام..

ـ ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه..

ـ ويهديهم إلى صراط مستقيم »..

جعلنا الله سبحانه وتعالى منهم.. وله الحمد أولاً وآخراً، وإياه نعبد وإياه نستعين، والصلاة والسلام على معلم الخير وخاتم الأنبياء والمرسلين.

* * *

الباب الثاني

منجزات الحضارة الإسلامية

منجزات الحضارة الإسلامية في ميادين العلوم والفنون

للأستاذ : عبد اللطيف بن حاجي ابراهيم

التراث العلمي العربي الإسلامي : الشخصية الحضارية للعالم العربي

للدكتور : علي عبد الله الدفاع

تفوق الإسلام في مجال الفنون المرئية ودور الشباب المسلم في حفظ وتنشيط هذا التراث

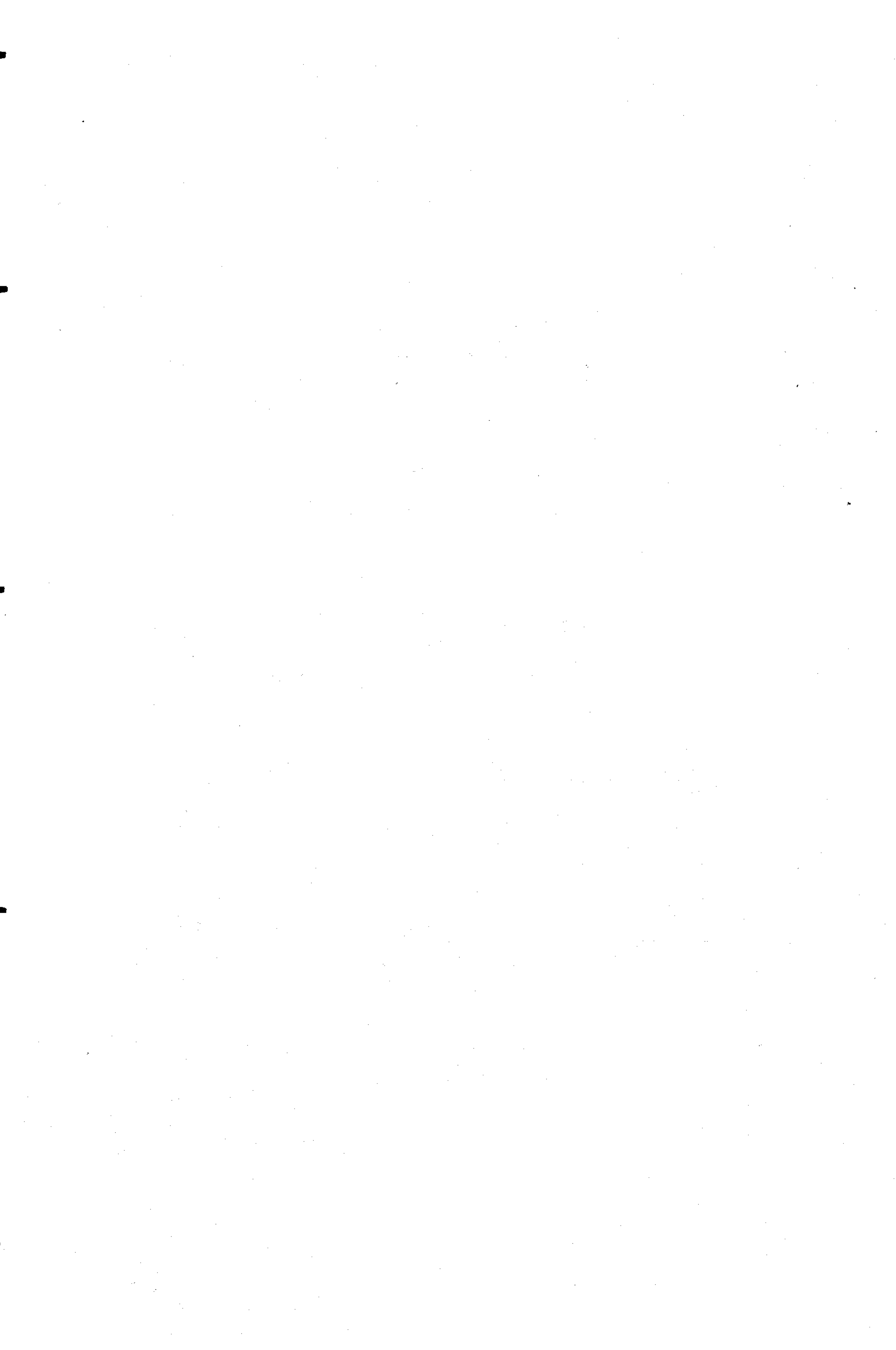
للدكتور : سيد برويز منظور

تفسير الإسلام للتناقض الإنساني الظاهري والحلول المقترحة لهذا التناقض

للأستاذ : قيصر أديب ماخول

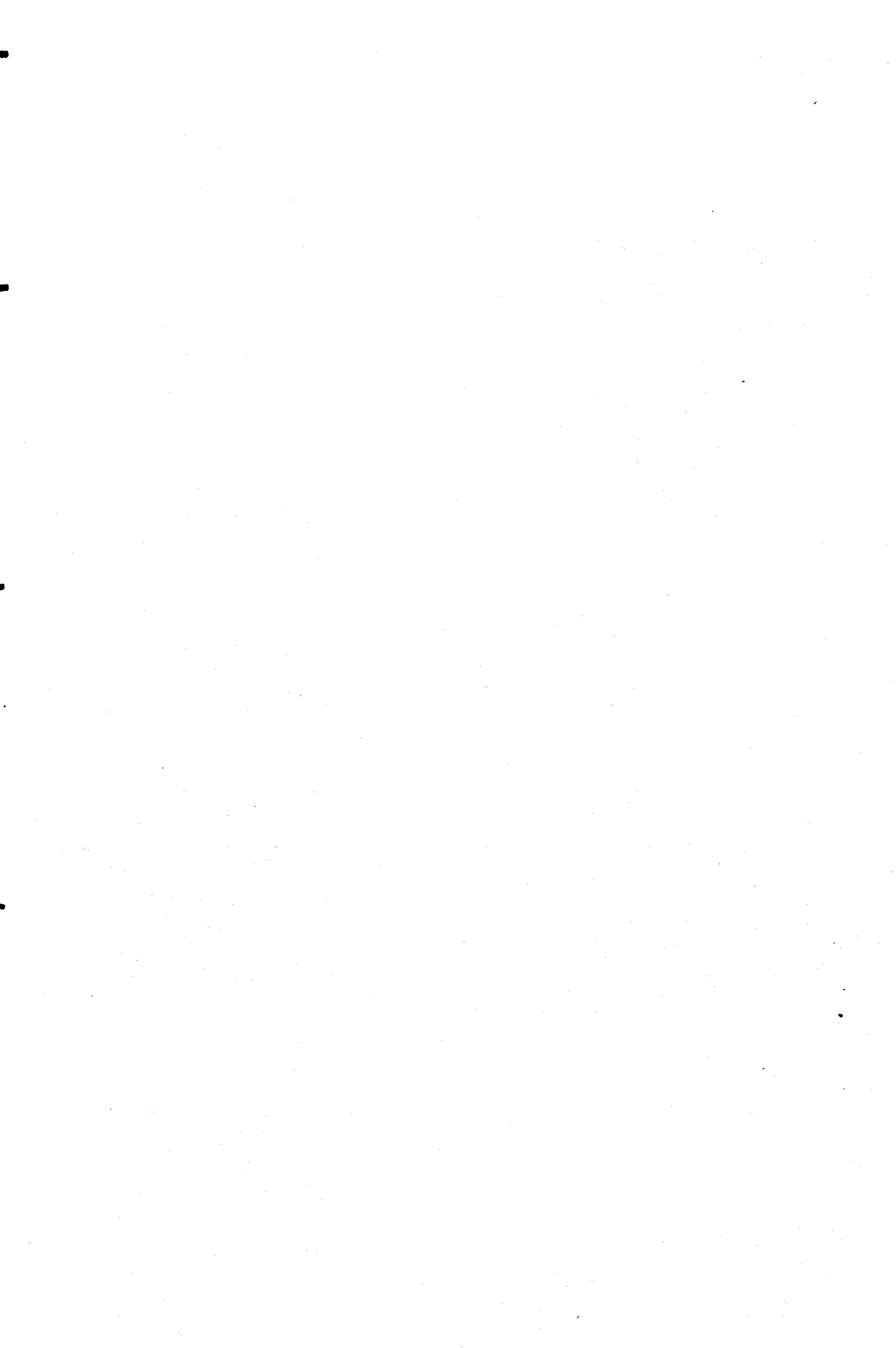
منجزات الحضارة الإسلامية في مجال العلوم والفنون

للأستاذ : حكيم امتياز حسين



منجزات الحضارة الإسلاميّة في ميادين العلوم والفنون

للاستاذ عبداللطيف بن حاجي ابراهيم



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة :

لقد وهبت الحضارة الإسلامية هذا العالم ـ طوال أربعة عشر قرناً ـ عطاء متنوعاً، وآثرته بميراث حضاري من المنجزات الفكرية والفنية، والإسلام كعقيدة وكحضارة قد جمع بين الناس من مختلف الأجناس حول شعور بالوحدة الثقافية. وفي جنبات المتاحف وصالات عرض الآثار دلائل وأمثلة على مقدار ما أسهم به الإسلام ـ كفن ـ في إثراء رصيد العالم من الفنون. كما أن الإسلام قد قدم إلينا كثيرين من أعظم من عرفت الدنيا من العلماء والفلاسفة، ومن ثمار المعمار والهندسة والطب والخطوط والموسيقى والفلسفة والشعر ما أضاف إلى رصيد الدنيا الحضاري بصورة أذهلت الناس وملأتهم بالعجب الذي يصل إلى التساؤل حول إمكانية تحقيق مثل هذه الأشياء اليوم.

ولما أقيم مهرجان العالم الإسلامي في لندن سنة ١٩٧٦ م كان المقصود منه أن يعكس عظمة الحضارة الإسلامية، والتشجيع على إيجاد تفهم وتعريف جيد بالإسلام على مستوى العلماء... وعلى مستوى الرجل العادي... وقد حاول القائمون على المهرجان أن يجعلوا الحضارة الإسلامية ـ ككل ـ شيئاً قابلاً للتذوق والفهم.. وعلى وجه العموم فقد كان المهرجان ناجحاً، ومع ذلك فإن عملية الاستمرار في هذا العمل ـ التعريف بالإسلام ـ لم تتم، وها نحن أولاء أمام فجوة زمانية كبيرة تحول بين الناس ـ مسلمين وغير مسلمين ـ وبين التعرف على الإسلام من خلال الأشكال المرئية.

إن حب الاقتناء والجمع، مكن الإنسان ـ المعاصر ـ من دراسة الماضي من أجل المستقبل، وبفضل هذه الغريزة أيضاً تم الحفاظ على كنوز حضارات الدنيا القديمة، كالحضارة المصرية والحضارة الصينية والحضارة الهندية وكذلك الحضارة الإسلامية حيث بقيت محفوظة في مؤسسات مشهورة مثل المتحف البريطاني في لندن ومتحف الفن الإسلامي في القاهرة، وغيرها، وليس هناك مبرر لعدم وجود مثل هذه الكنوز التي تشير إلى ما حققته الحضارة الإسلامية في مؤسسات الدول الإسلامية في كافة أنحاء العالم.

وعلى كل، فما أن نتناول منجزات الحضارة الإسلامية حتى نطرح على أنفسنا هذا السؤال ؟ ما هو مدى معرفة المسلم العادي بوجود مثل هذه المنجزات ؟. ولا يمكن القول بأن على المسلم أن يسافر إلى الهند ليشهد جمال تاج محل أو أن يسافر إلى القاهرة ليرى ـ مجرد رؤية ـ متحف الفن الإسلامي... إن معظم المسلمين لم يعرفوا شيئاً عن عظماء المفكرين من المسلمين مثل الرازي وابن سينا وابن رشد وهؤلاء قطرة من بحر.

إن هناك ـ في الحقيقة ـ قصوراً في فهمنا لموضوع دراسة وعرض الحضارة الإسلامية الغابرة، فالمؤسسات التي لا تحمل الطابع الإسلامي قد نمت وترعرعت بسرعة كبيرة، ولقيت إقبالاً كثيراً من الناس الذين يقضون فيها أوقات فراغهم ويتذوقون نتاج حضارات الدنيا، وإن بناء المسجد هو أهم

تقدم أحرزته المؤسسات الإسلامية، وفي صدر الإسلام كان المسجد هو ملتقى المجتمع ومركز تجمع المؤمنين حيث تتم فيه كل المعاملات السياسية والتعليمية والشخصية، ولكن هل يقوم المسجد بنفس الدور اليوم ؟ وما لم تكن هناك بعض الحفلات في بعض المناسبات فإن المسجد لا يؤم إلا لصلاة الجمعة، فاليوم نجد العلاقة بين المسلمين وبين المسجد ـ بيت الله ـ واهية وغير متميزة، والواقع أن عوام المسلمين تعرضوا لمواجهة عوامل غير إسلامية.

وهذا البحث محاولة لإبراز ضرورة إقامة مؤسسات إسلامية متنوعة ـ غير المسجد ـ لإيجاد فهم عام للمنجزات الحضارية الإسلامية الماضية في مجالات العلم والفن، ونحن نأمل أن يؤدي وجود هذه المؤسسات إلى رفع روح المسلمين المعنوية وشعورهم بالاعتزاز، حتى يكونوا فخورين بما أنجزته الحضارة الإسلامية.

وإذا ما أقيمت هذه المؤسسات، كالمتحف الإسلامي والمكتبة الإسلامية والجامعة الإسلامية والمراكز الإسلامية، في المدن المهمة من البلاد الإسلامية في كافة أنحاء العالم، ومن خلال هذا العمل يتم تجميع وإعداد وعرض نماذج وعينات من مادة الحضارة الإسلامية، ومعنى ذلك أننا نجمع ونعرض الماضي توطئة لدراسته من أجل الوصول إلى المستقبل.

أهمية إنشاء المؤسسات الإسلامية :

قبل هذه الصحوة الحديثة للإسلام، كانت أي معلومات عن الإسلام قائمة ـ فقط ـ في المراكز الإسلامية، ومن المسجد بالذات، ويبدو أن الصلاة الجامعة في يوم الجمعة ليس لها أي أثر في إيجاد التضامن. وأن أول ما نهدف إليه من إقامة نماذج متنوعة من المؤسسات الإسلامية هو إيجاد التماسك والوحدة الإسلامية، جنباً إلى جنب مع عرض ونشر الحضارة الإسلامية، وهذا يؤدي إلى فهم أكثر لتعاليم الإسلام ودعوة الإسلام.

ويوضح الرسم (ملحق رقم ١) مختلف المؤسسات التي يمكن

إقامتها مع المسجد كمركز وحيد، ولا يلزم أن تكون هذه المؤسسات في منطقة واحدة، مع مراعاة تأثير درجة سهولة المواصلات.

١) المتحف الإسلامي.
٢) المكتبة ومركز الأبحاث الإسلامي.
٣) مركز السكرتارية والاستعلامات.
٤) الجامعة والمدارس الإسلامية.
٥) المستشفى الإسلامي.
٦) الإسكان والإعاشة.
٧) صالة الاجتماعات والمحاضرات.
٨) مركز التغذية.

ولعل إقامة هذه المؤسسات المقترحة ـ يؤدي إلى ارتفاع درجة التفهم بديلاً عن العزلة والانغلاق، فيكون الانفتاح على الأديان الأخرى، وعلى كل فإن إقامة هذه المؤسسات الإسلامية لإيجاد تذوق وتفهم لمنجزات الحضارة الإسلامية أمر كبير الأهمية، وأن النشاطات التي تتركز في هذه المؤسسات جديرة بأن توجد وعياً واهتماماً بإحياء عظمة الإسلام ووحدته.

وحتى نصل بكل المسلمين إلى فهم أفضل لنواتج هذه الحضارة يلزم أن تكون هذه المؤسسات في أماكن حيوية مهمة تغطي القارات الخمس بادئاً بواحدة في الشرق الأوسط، وأخرى في آسيا، وثالثة في أوروبا، ثم أفريقيا والولايات المتحدة الأمريكية، ثم بعد ذلك في أماكن أخرى كاستراليا وجنوب أمريكا.

المتحف والمعرض :

إن ضرورة إقامة متحف كوسيلة من وسائل عرض الإنسان لحضارته شيء لا مرية فيه.

وقد عرف المجلس الدولي للمتاحف (ICOM) المتحف بأنه : مؤسسة لها صفة الاستمرار تعمل في خدمة المجتمع والتقدم ولا تهدف للربح، تفتح أبوابها للجمهور، وهي تقوم بالبحث والمحافظة والتحقيق وعرض

ما يخص الإنسان والبيئة تسهيلاً لأعمال الدراسة والتعليم وتوفير المتعة، وباختصار فإن عمل المتحف يتلخص في عملية التجميع والمحافظة وتسهيل مهمة إجراء الأبحاث، فهو يعرض مجموعاته على الناس ليقوموا بدراسة أنفسهم وما يحيط بهم ولا يتصور أن ينبو المتحف الإسلامي عن هذا التعريف.

وإن آثار التحديث والتمدين قد حرمت كثيراً من البلاد من مادة حضارتها، فهذه المكونات الحضارية تعرضت للتدمير في فترات الاستعمار أو بيعت لمن تستهويهم هذه الآثار من طلاب الاحتفاظ بالأثريات القديمة أو السياح، وحين أرادت هذه البلاد أن تجمع آثارها ومادة حضارتها تبين لهم أنهم تأخروا كثيراً وعليهم أن يجمعوا أشياء من الدرجة الثانية، ولكن لحسن الحظ فإن كثيراً من مواد هذه الحضارات محفوظ في المتاحف الأجنبية حتى يراها الناس، ولكننا في الوقت نفسه لا ندري مقدار ما استحوذت عليه الأيدي، كممتلكات خاصة وليست للعرض في المتاحف.

وان دراسة وحفظ الحضارة الإسلامية للأجيال القادمة يعد واحداً من أهم أهداف إقامة متحف إسلامي. وحين نتكلم عن الأجيال القادمة فإنما نقصد هذا الشباب المسلم الذي نحب له أن يحيا ويعلم كما ينبغي للمسلم أن يحيا ويتعلم، لأن اهتمامنا بالشباب ضروري، وان التعليم غير المناسب يؤدي إلى تغير الشباب وتحوله إلى سوء السلوك ومجافاة الخلق الإسلامي والشخصية الإسلامية.

وان الظاهرة الحديثة التي جعلت من المتحف مجالاً للترويح تماماً كما هو مركز للتعليم، أدت في الواقع إلى تزايد زوار المتحف لأغراض عديدة، فتعقد للأطفال فصول المهارات لمختلف المستويات التعليمية، كما أن هناك المثبتات الحائطية، وعروض سينمائية، والهدف من وراء ذلك هو زيادة المعرفة. وفي بعض مناطق انجلترا نجد محاولات لغمس أطفال المدارس في نشاط المتاحف لتوجيههم وإبعادهم عن الانحراف والمشاكل الاجتماعية.

ومن المدهش أنه وفي غضون ١٣٣ سنة وصل معهد سميث (Smithonian Institute) إلى درجة عظيمة، وهو اليوم واحد من أعظم المؤسسات التعليمية في العالم، والغرض منه زيادة ونشر المعرفة بين الناس.

وهنا نحن أمضينا ١٤٠٠ سنة فهل فكرنا نحن المسلمين في أن نقدم لشبابنا مؤسسة إسلامية تعرض لما أنجزته حضارتهم في الماضي ؟. واننا حين نرى المتاحف العظيمة في أمريكا وآسيا وأوروبا نحس بالحسرة لأننا نجد أن ما يعرض لا يعبر تعبيراً كافياً عن عظمة الإسلام.

ففي صالة العلوم الطبيعية في متحف التاريخ والتكنولوجيا بمعهد سميث نجد أدوات فلكية وجيولوجية مختلفة، معروضة لإيضاح أوضاع العلم القديم وفي القرون الوسطى، ومع هذا لا نجد ذكراً لعلماء المسلمين العظام، والتعليق الوحيد عن أثر الإسلام ورد في أحد الكتب التي تستخدم كدليل، وكان عن الاسطرلاب وعن نشأته في العالم الإسلامي قبل انتقاله إلى أوروبا.

ومعهد الكومنولث في لندن مثال للمؤسسة التي توحد وتربط بين شعوب هذه المنظمة (الكومنولث)، فهذا المعهد يهدف إلى تبني ونشر وتبادل المعارف بين أعضاء الكومنولث ولإبراز أهمية رابطة الكومنولث. فهل نستطيع أن يكون لنا مثل هذه المؤسسة أو أفضل منها للربط بين المسلمين ؟.

ومن خلال هذا المعهد، يوجد معرض غير دائم، ومركز تجاري وصالة للفنون وخدمات تعليمية ومكتبة ومركز للموارد والعروض الثقافية والأشرطة السينمائية، وما إلى ذلك من نشاطات.

ونحن لا ننكر أن هناك متاحف إسلامية عظيمة خاصة في الشرق الأوسط ولكنها لا تتعدى كونها بداية أو نواة لنشر الحضارة الإسلامية التي مازالت مجهولة، وأن تجشم السفر من أوروبا أو جنوب شرق آسيا لمشاهدة متحف الفن الإسلامي في القاهرة ـ والذي يعرض أقيم المجموعات من الفن الإسلامي في العالم ـ قد يكون جميلاً بالنسبة لعشاق الفنون ولكنه أمر لا يتصور بالنسبة للمسلم العادي.

وقد أصبحت كثير من المتاحف جامدة عند حد عرض الجماليات فقط وعلى كل فبدون زيارة متحف الفن الإسلامي في القاهرة لا استطيع تقدير قيمتها. فالمتحف إلى جانب العرض يلزم أن يقدم أقصى تشجيع للفنون الموجودة في المجتمع، بما في ذلك إتاحة الفرص للفنانين للتعرف على تطورات الفنون خارج حدود بلادهم بحيث يصبح المتحف مكاناً مثالياً لتزجية وقت الفراغ والاسترخاء والمتعة، كما في المتاحف المفتوحة أو في الهواء الطلق مثل متحف سكانسن في ستوكهولم (السويد).

والواقع أن هناك حوالي مليونين من الزائرين ترددوا عليه في سنة ١٩٧٣ بالرغم من أن استوكهولم الكبرى تعدادها مليون شخص فقط، وهذا يوضح مدى جاذبية هذا المتحف.

إن المتحف مُنشأ أساساً لإكمال رسالة المدرسة، ولهذا السبب فإنه من أمتع الأماكن التي يزورها أطفال المدارس.

وقد أوضح مسح شامل تم سنة ١٩٧١م لمتاحف لندن، أن زائري هذه المتاحف معظمهم من الشباب، وتتراوح سنونهم بين ١٦ سنة بالنسبة للمتحف العلمي، ٢٢ سنة للمتحف البحري، ٢٧ سنة للمتحف البريطاني.

ورغم عدم الاكتراث اللذان يصاحبان الفكرة المشار إليها بأن المتحف مكان مثالي للتعلم بجانب المدرسة، فقد أظهرت الخبرات أن الشباب يتلقى بحماس، ويساهم بإخلاص في التجاوب مع المتاحف، وفكرة أن الرؤية تؤدي إلى الاقتناع لا تنطبق على عرض الأشياء من جوانب ثلاث فقط، بل لا بد من رؤية الأشياء من كافة أبعادها على الطبيعة كحقيقة ماثلة، فإن لمس الشيء ورؤيته حقيقة ماثلة يؤدي فعلاً إلى الإيمان به، ومن ثم فإننا نعطي الأطفال الفرصة للمس المعروضات واللعب بالأشياء بل واستعارتها كما يحدث في أكاديمية هنولولو للفنون، وهاواي، لأن ذلك يخدم أغراضاً مهمة مثل أن :

١) ينمي في الأطفال عن طريق الفن إثراء فهم الحضارة البشرية قديماً وحديثاً.

٢) يعمل على خلق التقدير للمشروعات بالتعرف على أمثلة رائعة من التلوين والطبع والنسيج والسيراميك .... الخ.
٣) يبعث على ازدياد مباهج الحياة بتنمية قوة الملاحظة والتخيل.
٤) ينمي الخيال والتعبير الخلاق.

وبين المجموعات التي يمكن للأكاديمية إعارتها، مجموعة من البرامج الخاصة عن تعليم الدين المسيحي، وفي جنوب كوريا يوجد متحف قبطي.

ألا يدعونا ذلك بكل حماس ووازع طيب إلى أن نعرض عظمة الإسلام وروعة حضارته بأن يكون لنا متحفنا الإسلامي الموزع في قارات الدنيا الخمس، ويمكن أن نبدأ بالشرق الأوسط لإنشاء أول متحف فيه.

إن المهرجان الإسلامي العالمي الذي عقد في مدن انجلترا لمدة ثلاثة شهور كان له مغزيان عظيمان في إبراز الحضارة الإسلامية، وأول هذه الفوائد أن يتم جمع هذه المجموعات التي تمثل ميادين مختلفة كالقرآن والعلوم وتكنولوجيا الإسلام وفنون الإسلام والموسيقى الإسلامية والأدوات الموسيقية والأشغال المعدنية التي تم جمعها من مؤسسات مختلفة ومن الأشخاص المهتمين بجمع هذه المجموعات في جميع أنحاء العالم. وهذا بلا شك يعطينا مثلاً طيباً لوحدة المسلمين وكيف يمكن تحقيقها بنفس الروح التي تم بها جمع كل هذه المجموعات التي تبرز المدنية الإسلامية. لقد كشف منظمو المهرجان الطريق إلى وحدة أشمل وأبعد أثراً، والفائدة الثانية وهي أشد ارتباطاً بعنوان هذا البحث، وأعني بها مدى الحاجة إلى مؤسسة دائمة يتم عن طريقها إبراز ونشر المدنية الإسلامية.

وإذا كان المهرجان مؤقتاً فلا شك أن أثره مستمر ودائم، وربما لا يتاح للمسلمين في جهات متفرقة من العالم ربما لا يتاح لهم الفرصة كي يشاهدوا مهرجاناً ثانياً مثل هذا ما لم يكن هناك مؤسسة دائمة يمكن نقل محتوياتها للعرض في مدن إسلامية مختلفة.

وان نجاح المهرجان الإسلامي يمكن أن يعتبر بحق أفضل أسلوب

لتصوير وعرض المدنية الإسلامية بشكل أوسع. وأقتبس هنا بعض الملاحظات على المعرض :

« إن هذا المعرض يعتبر بحق المعرض الأول من نوعه، والذي يبرز علم وتكنولوجيا الإسلام، الذي هيىء لخدمة هذه الأغراض. وإن كانت علوم الإسلام لم تنفصل عن الاتجاه الأدبي والدراسات الفلسفية أو المتعلقة بفقه اللغة التي تدخل في نطاق الأدب (وجملة هذه الأشياء تعرف بالثقافة).

لقد حدد القرآن وحددت السنة القالب الذي تتشكل بمقتضاه العلوم الإسلامية والشروط التي ينبغي أن تتوفر فيها بما يجعلها ذات طبيعة متميزة.

إن فنون الإسلام لم يتح للجمهور رؤيتها على نطاق واسع بحيث يدرك جمالها ـ وقد أقيم أول معرض لهذه الفنون في ميونيخ سنة ١٩١٠ م، وكان الهدف منه توضيح مدى تنوع وأصالة وغنى الفن الإسلامي، وبعد هذا المعرض لم يقم معرض آخر لأكثر من ستين عاماً. ولا بد أن يتوفر في المعرض توضيح جوانب ومزايا التقدم الذي تم في مجال الدراسات والآثار الإسلامية ويجلب للمعرض خامات ومواد من معارض أخرى، ومن المجموعات الشخصية التي يستحوذ عليها أفراد بذاتهم في كافة أنحاء العالم الغربي كذلك، وينبغي أن يعرض السجاد الفارسي المشهور في العالم كله بما عليه من رسوم حيوانية رائعة وكذلك الأنواع الأخرى التي تتمثل في القطع الصغيرة المتبقية من السجاجيد التاريخية العظيمة وما على أجزائها من ألوان زاهية، وتشكل الزخرفة المطرزة التي تعرضها قبائل الهوسا علاقة مميزة في دراسة الفن الإسلامي في غرب أفريقيا وربما لو تم ذلك تكون هذه أول مرة تعرض فيها مثل هذه الجوانب بشكل متكامل في معارض رئيسية.

ولعل مما يبرز ويوضح أثر مادة التاريخ الإسلامي التفاعل الذي تم بين الشعوب ذات الطبيعة اليدوية والشعوب المستقرة والمتمثل في مدينة صنعاء.

إن العرض يستهدف في أبسط صوره إظهار التجانس والترابط بين المواد التي تشكله بحيث تنتقل الفكرة إلى نفوس الزائرين.

وتؤدي المتاحف دوراً فذاً لا يمكن الاستغناء عنه في حياة

المجتمعات كما أنها تبرز بعض مظاهر العظمة وصور الحضارة ومدى المعارف المتصلة بالماضي وما يتمثل فيها من علوم رياضية وفلك بما ينهض شاهداً ودليلاً على مدنيتهم كما يبرز التسلسل التاريخي في حياة الأمم والشعوب.

وفي هذا المنحى أيضاً يتجه المعرض إلى الإبانة عن حقائق الإسلام ودحض التهم الزائفة وتصحيح سوء الفهم أو الحكم بالنسبة للأفكار الإسلامية. وإذا أردنا أن يكون المعرض الإسلامي تصويراً صادقاً فيجب أن تعرض حقائق القرآن بصورة مستقلة بحيث يكون كلام الله الأصل في كافة المعارض. ويمكن في متحف القرآن إبراز الأبعاد الثلاثة للقرآن من حيث تسجيله وتفسيره وأقوال الرسول ﷺ، دون الالتفات إلى وجهات النظر الفردية والتفسيرات الخاصة حتى لا تسبب انشقاقاً بين المسلمين. وربما ساعد هذا المدخل على مساعدة المسلمين على فهم أفضل للقرآن ومعانيه. إن القرآن يوضح أن الإسلام نظام كامل للحياة وأن الله سبحانه وتعالى هو الخالق الأعظم لهذا الكون. ولذلك يراعى أن يكون المعروض متناسقاً تماماً مع الآيات القرآنية، فإذا أردنا عرض تطور الإنسان يمكن اقتباس قوله تعالى :

« أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون » (سورة الأنبياء ـ ٣٠).

ولا شك أن هذا العرض يساعد على نبذ أي فكرة أخرى عن أصل الإنسان وأنه تطور من قرد ثم صار إلى ما هو عليه الآن.

وفي المتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي بنيويورك تصوير لمعجزة الحياة وأطوار نمو الجنين وكيفية عمل الجسم البشري وتصوير للجهاز العصبي.

وبالنسبة لنا نحن المسلمين ننظر إلى هذه الآيات الباهرة على أنها من صنع الله العلي القدير، وكأننا نريد بهذا الأسلوب أن نغرس فكرة أن الله سبحانه وتعالى هو الخالق الباري في نفوس زائري المتحف. وبذلك يخدم المتحف كوسيلة لنشر الدعوة الإسلامية.

ويمكن عمل معارض متنوعة تبرز المدنية الإسلامية، وتوضح الإسلام كدين مثالي من خلال قوله تعالى « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين » (آل عمران ـ ٨٥).

إن إسهام الإسلام في مجال الفنون حافل وخالد. فقد ربط الفن الإسلامي النواحي الجمالية بالنواحي العملية، وكذلك النواحي الإنسانية بالنواحي المادية وهذا الربط جعل له صفة مميزة (ستيوارد سنة ١٩٦٧ م)، ومن أهم منجزات الفن الإسلامي ما كان منها في مجال الهندسة المعمارية حيث شجعت الزخارف على العبادة وجعلت الحياة الشخصية بهيجة وممتعة، وفي مجال الأدب أوضحت اتجاهات الإنسان أمام الحياة والموت.

ولم تتغير الأشكال الهندسية المعمارية الأساسية عبر التاريخ الإسلامي وأبقت على الأفنية المكشوفة وقاعات الصلاة التي تحيط بها الجدران بنفس الصورة التي عاشها الرسول ﷺ في منزله المتواضع بالمدينة المنورة في القرن السابع.

ويمكننا معاونة المسلم على فهم أعمق لبساطة حياة الرسول ﷺ بإنشاء معرض يمثل بيت الرسول الخاص ببساطة، وذلك عن طريق تهيئة فضاء واسع مكشوف يحتوي على حجرات خاصة في إحدى الجوانب وصفوف من جذوع النخيل تشكل ممراً على الجانبين وفي آخر الصف توجد القبلة.

إن أصول الفن الإسلامي تنفرد بميزات خاصة عند مقارنتها بالفنون الأخرى، فإذا أشرنا إلى أصولها القرآنية وعلاقاتها بالحضارات الأخرى وكذلك العنصر البشري فيها نكون قد ألقينا عليها ضوءاً بغير شك.

وإذا عرضنا أمثلة من تغلغل الفن الإسلامي في كل جنبات الحياة وكيف أصبح البيت عند المسلمين أكثر جمالاً، والجسم مغطى بملابس أخاذة والطعام والشراب معدان بطريقة أفضل فسيكون لذلك تأثيره خارج نطاق الأشكال المرئية والبيئة المحيطة وربما انتقل التأثير إلى تغيير العادات السائدة في الديانات الأخرى.

إن أفكار المسلمين الصوفية امتزجت تماماً بتقاليد المسيحيين الاسبان، ولم تكن سانت تريزا (في أفيلا)، وسانت جون لتسجل بنفس الصورة لو لم يتعرف الغربيون على الأفكار الصوفية كالفكرة عن الله المحبوب وأنه يمكن معرفة الله فقط من خلال الزهد في الحياة واحتقارها.

وقد زخرف اللباس الكهنوتي الخاص « بروجر الثاني » بنقوش عربية، وذكر التاريخ توليه بالتاريخ الإسلامي.

وقد حرصت الأميرات المسيحيات على تجميع آثار وأشياء من الفنون الإسلامية كما جمل اللباس الكهنوتي لأسقف كانتربري الراحل والذي تحمل زخرفته بالخط الكوفي اسم الرسول محمد ﷺ والخليفة علي رضي الله عنه.

ولم يتجه الفن الإسلامي إلى تخصيص معانٍ معينة تجعله غير مناسب في نظر الغير بمعنى أن يحمل لوناً من التناقض الظاهري بل إن النقوش تبرز وتختفي مع تنوع أنشطة الحياة وتختلط بمواد يمكن إزالتها موحية بالمعنى الإسلامي الكبير بأن كل شيء هالك إلا وجهه سبحانه وتعالى.

إن فكرة إيجاد متحف إسلامي لا تصطدم بالمصالح القومية، فهو ينشأ حين ينشأ للحفاظ على الحضارات القومية والعادات والتقاليد الوطنية وإظهار بدائية الحياة وتطورها إلى الصورة الحاضرة. إن المتحف الإسلامي سوف يقدم نفسه ويبرز وجهة نظر الإسلام في الحياة، ويتيح للمسلمين التعرف على دينهم بصورة أفضل.

أنواع أخرى من المؤسسات :

سوف أشير إلى أهمية المؤسسات الأخرى هنا بإجمال مع ذكر بعض الأمثلة حسب معلوماتي المحدودة في المجالات المعينة، ولكن الحاجة للوحدة المشتركة التي تجمع المسلمين تحبذ إيجاد مثل هذه المؤسسات.

فمؤسسة عظيمة كجامعة الأزهر تعتبر مركزاً للدراسات الإسلامية

والعربية حيث أنشئت منذ أمد بعيد، وبناء فروع للجامعة أو مؤسسات تابعة لها يمكن أن يساعد على فاعلية ووحدة المستويات والدراسات إلى أبعد حد.

وإن المركز الشرقي الغربي في هونولولو وهاواي يعتبر مؤسسة تعليمية قومية أنشأها الكونجرس في الولايات المتحدة سنة ١٩٦٠م لتنمية علاقات وإيجاد تفاهم أفضل بين الأمم عبر طريق البرامج الدراسية التعاونية وعن طريق الأبحاث والتدريب. وتقويم العلاقة في هذا المركز بين الولايات المتحدة الأمريكية والأقطار غير الشيوعية وخاصة في المحيط الهادي. والحافز الرئيسي من وراء إنشاء هذا المركز هو التوجيه نحو أسلوب الحياة الأمريكي وطريقتهم في التفكير.

ولعل عدم وجود أماكن مناسبة واستمرار الدراسة يوم الجمعة يشكل صعوبة أمام الطلبة المسلمين كي ينسقوا أمورهم بأنفسهم.

ولا يجتمع الطلبة المسلمون عادة إلا في مناسبة العيد. وربما ساعد إنشاء مكتبة إسلامية ومركز للأبحاث على تمهيد السبيل لجلب كافة المطبوعات الإسلامية كما هو الشأن بالنسبة لمكتبة الكونجرس ومكتبة المتحف البريطاني. وإن الاحتفاظ بثبت بأسماء الكتب وقوائم كاملة بالمؤلفات يمكن إعدادها بحيث تغطي كافة المطبوعات الإسلامية التي يحتفظ بها في المكتبة. وأعتقد أن كل الأقطار الإسلامية لا تتردد في تنظيم هذا المشروع، وستساعد كافة الكتب التي يمكن توفيرها قديمها وحديثها شائعها ونادرها وكذلك الخرائط والمخطوطات وكافة أشكال المطبوعات المتعلقة بالإسلام، تساعد هذه جميعها على إيجاد فهم أفضل لتعاليم الإسلام وإنشاء علاقات أوثق بين المتاحف والجامعات وبين هذه المكتبة الإسلامية.

وقد ثارت مناقشات حامية حول الموضوع المقترح بإنشاء مستشفى إسلامي ولا شك أن مثل هذا المستشفى سوف يخدم المجتمع المسلم ويسمو عن مجالات الشكوك بالنسبة للعمليات الجراحية والأدوية المركبة التي

يصاحبها تصرفات غير أخلاقية وبالتالي غير إسلامية.

وأهم عنصر في فكرة إنشاء مستشفى إسلامي هو ابتغاء وجه الله أحسن الخالقين في أداء الخدمات الطبية. وينبغي علينا دائماً أن نذكره سبحانه في كافة أحوالنا وتصرفاتنا. إنه من الضرورة بمكان أن يوفر لهذا المستشفى كافة وسائل الراحة وإقامة الصلوات وممارسة العبادات من تهجد وصلاة وسجود لله. وحتى في أوقات تغيير النوبات ينبغي على العاملين بالمستشفى أن تتاح لهم الفرص لأداء الصلاة.

إن الكثير من المستشفيات في الأقطار الإسلامية يعوزها مثل هذه المرافق وينقصها هذا التوجيه. وأعتقد أن هذه الكلمات المقتبسة من « ريدرز ديجست » تعكس الشعور الداخلي للجراح، ويمكن أن تساق مثلاً في التعرف على الواجب نحو الله سبحانه وتعالى : « إنه لولا لطف الله ومساعدته ما تمكنا من اتخاذ القرار وحسن الأداء، وإذا كان كثير من العلماء الباحثين يفقدون ثقتهم وإيمانهم مع اتساع معارفهم فإن الأمر بالنسبة لي على النقيض من ذلك. إن خبراتي مع المرضى وفي أبحاث الأعصاب لمحاولة اكتشاف غموض وكنه المخ البشري قد جعلتني ـ أكبر من أي وقت مضى ـ في ذهول وحيرة أمام المخ البشري. وليس أمامي خيار إلا الاعتراف بوجود قدرة سامية عليا مسئولة عن التخطيط وتطوير العقل وعلاقاته بالأشياء وليس في مكنة الإنسان أن يحيط علماً أو يفهم مثل هذه الأمور ».

وإنشاء مراكز أغذية إسلامية يخدم بلا شك المسلمين ويزودهم بالطعام السليم والمناسب. وأحياناً ما يتلقى المسلمون تعليمات دينهم بشأن الأطعمة بشيء من التساهل نتيجة إغفال المبادىء الأخلاقية والكسل في البحث عن الطعام المناسب.

وهناك فكرة سائدة بأن المسلمين يباح لهم أكل كافة أنواع الأطعمة باستثناء لحم الخنزير. ويأتي في المحل الثاني السؤال عن الطعام إذا كان معداً بطريقة إسلامية أم لا. وفي ماليزيا يساء استخدام كلمة حلال في المناسبات المختلفة بهدف تشجيع المبيعات وتوفير أعلى قدر من الأرباح على حساب المسلمين.

وقد أتيح لبعضنا فرصة زيارة أقطار إسلامية أخرى ولكن علية القوم وهم قلة هم وحدهم الذين يستطيعون الإقامة في الفنادق الفاخرة. ومن هنا تبرز فكرة إنشاء أماكن إيواء مناسبة للمسلمين ذوي الدخل المحدود وتوفير أماكن سهلة ومريحة لحل مشاكل عقد اللقاءات وإقامة المؤتمرات وتنفيذ البرامج الإسلامية.

وهناك اتحاد عالمي للشبان المسيحيين منتشر على مستوى العالم يقدم الإيواء المناسب والطعام المناسب ويتم الحجز فيه، وعن طريق ما يحصله من أرباح يستفاد من هذه الدور في نشر المسيحية.

وقد أتيح لي منذ عشر سنوات أن أكتسب خبرة كبيرة أثناء الإقامة في دار الاتحاد العالمي للشبان المسيحيين في سان فرنسيسكو ونيويورك، وأن أحظى بإقامة هادئة في هونج كونج أيضاً في دار الاتحاد العالمي للشبان المسيحيين نظير مصاريف محدودة. إن مقتضى الوحدة الإسلامية يجعل من الأفضل لنا أن نقيم اتحاداً عالمياً للشبان المسلمين لا يستهدف فقط التزويد بما يحتاجه الإنسان المسلم المحدود الموارد، ولكنه أيضاً يساعد على وحدة المسلمين وترابطهم وإيجاد الفهم المشترك بينهم في مكان يجمعهم تحت سقف واحد.

التمويل والإدارة :

وباختصار فإن تمويل هذا المشروع الضخم لن يشكل صعوبة في ظل الظروف والأوضاع الاقتصادية السائدة الآن في الأقطار الإسلامية. وإن المساهمات التي تقدمها الأقطار الإسلامية وخاصة دول البترول الغنية في الشرق الأوسط والدولة التي يقام على أرضها المؤسسات المطلوبة كل ذلك يمكن أن يدعم المشروع مالياً. وإذا كان هذا القول غير عملي من الناحية الاقتصادية بالنسبة للتعريف بالمدنية الإسلامية، ونظراً للظروف والملابسات التي تصاحب المشروع فإني أعتقد على المدى الطويل بأن الأجيال القادمة سوف تستفيد كثيراً إن شاء الله من مثل هذه المشاريع، وليس هناك وقت محدد لإنجاز مثل هذا العمل، وأحب أن أنوه بأن مساندة الأقطار العربية

المالية لدورة الألعاب الرياضية الآسيوية في بانكوك في ديسمبر الماضي دعمت بوضوح وساعدت على طرد إسرائيل من الدورة واعتبرت الدول الآسيوية نفسها مدينة إلى حد كبير للدول الإسلامية. وبهذه الإشارات ونتيجة لهذه الموارد يساعد الإسلام على دعم الوحدة. وعند تنفيذ المشروع يعهد إلى إحدى الدول العربية بإيواء مركزه الرئيس وإدارته من قبلها.

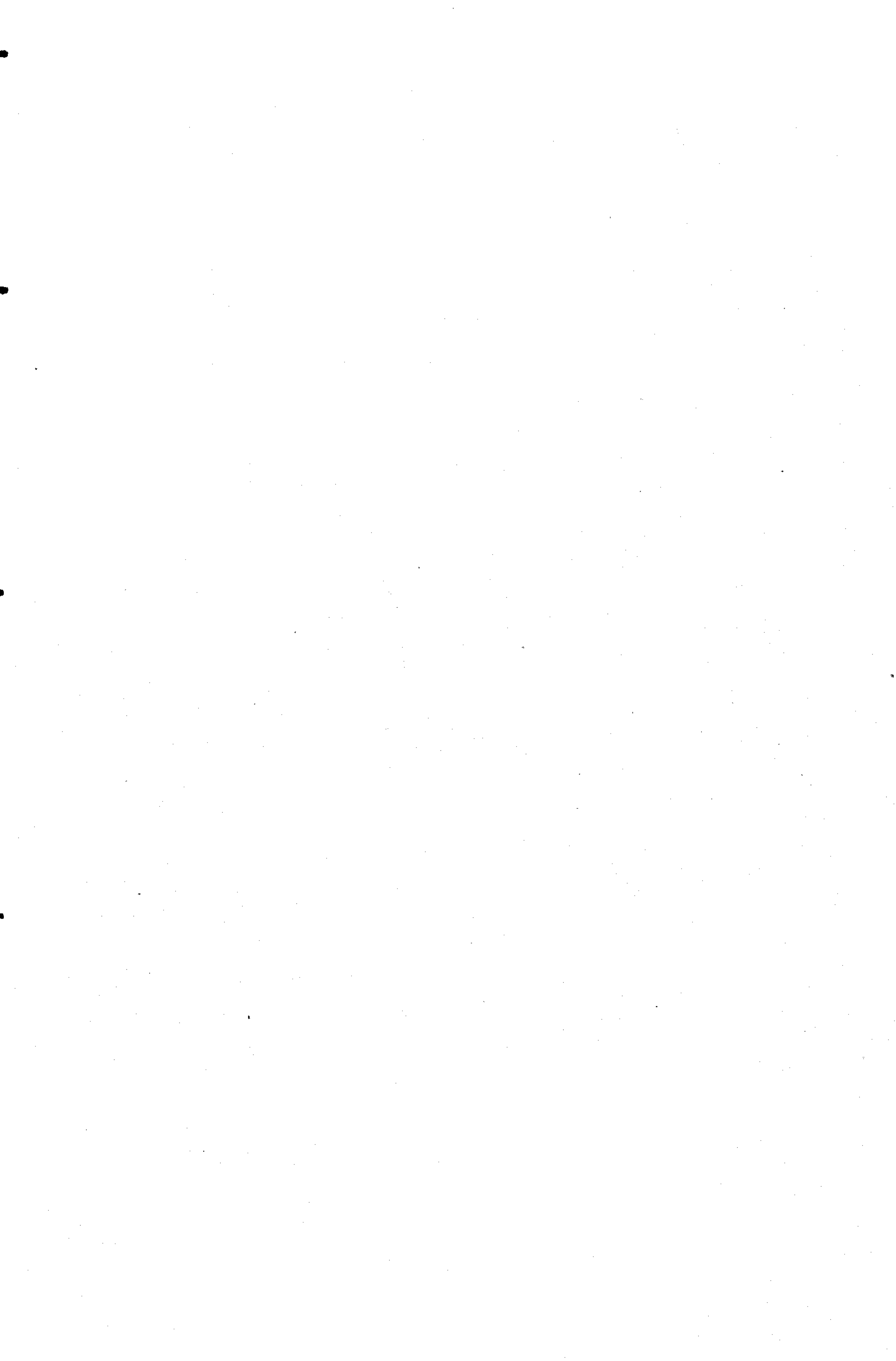
وإذا وجدت سلسلة من المؤسسات الإسلامية في جميع أنحاء العالم ساعد ذلك على توسيع نطاق الأنشطة الإسلامية وأمكن إقامة مراكز تدريب ودعوة خبراء في مجالات الحضارة الإسلامية المختلفة إلى أن يسهموا بإلقاء المحاضرات.

إن المركز الشرقي الغربي في هاواي قد وجه الدعوة إلى دول المحيط الهادي ليكونوا أعواناً ومساعدين في الموضوعات الطارئة التي تجد. ويمكن أن نتوسع في مشروعنا ببذل المنح المختلفة للطلبة النجباء الذين يبشرون بمستقبل زاهر، كي يقوموا بأبحاث إسلامية لصالح جميع المسلمين.

* * *

التراث العلمي العربي الإسلامي :
الشخصيّة الحضارية للعالم العربي

للدكتور علي عبدالله الدفاع
عميد كلية العلوم بجامعة البترول والمعادن بالظهران



بسم الله الرحمن الرحيم

إن لكل أمة حية تاريخها، يسجل تطورات الفكر الذي عاشته الأجيال السابقة، وليس هناك أجدر من التاريخ العلمي للأمة الإسلامية في عهد ازدهارها وسيادتها على العالم المعمور في العصور الوسطى، وهذا التراث العلمي الإسلامي الحافل هو عنوان شخصيتها الحضارية، وقدرتها على العطاء للأمم الأخرى فقد أسهمت الأمة الإسلامية برسالتها في معارك المدنية الإنسانية، وقادت الركب الحضاري بطبها وفلكها ومعمارها وفنها ورياضياتها وكيميائها وتراثها الديني والعربي إلى التقدم والبناء خلال ألف سنة.

إن هذه الأمة الإسلامية لا يمكن لها أن تحمل مشعل الحضارة مرة ثانية دون أن تجلو هذا الصدأ عن تراثها، ودون أن تجعل منه ركيزة قوية، ودعامة وطيدة لمستقبلها، فلا أمة عريقة بدون تاريخ وبدون تراث لأن فيه ذاتها، ولا بد للأجيال الصاعدة أن تتشبع به فهو مجال فخرها وعنوان رقيها وقاعدة انطلاقها.

وكثيراً ما ينكر بعض مدعي العلم في الغرب ما قدمه الغقل الإسلامي للحضارة الإنسانية من خدمات جليلة، ومنهم من يدعي أنه ليس بين علماء المسلمين من يقف في صف أويلر، ونيوتن، وقاوس، وفراداي، وكبلر وغيرهم. ويرجع هذا الجهل العقيم إلى أسباب، هي :

أولاً : عداوة بعض علماء الغرب للعلماء المسلمين نتيجة للتعاليم الصليبية التي ورثوها جيلاً بعد جيل.

ثانياً : إهمال العرب والمسلمين لتراثهم العلمي في مكتبات العالم، حيث ترقد الكتب دفينة ترابها. وكثيراً ما تسمع من بعض مدعي العلم من العرب والمسلمين المحدثين أن التراث القديم لا يعنينا وأنه خال مما يلائم العصر الحديث حيث أن آراء علماء المسلمين كانت بدائية تفتقر إلى النضج. وهذا في نظرنا جهل مطبق ومغالطة مفجعة تسيء إلى مستقبل الأمة العربية والإسلامية. إن الفكر البشري ينمو ويتطور كالكائن الحي. وقد اضطلع اليونانيون بدور أساسي في علوم الرياضيات مهد للدور الذي اضطلع به المسلمون وأبدعوا فيه أيما إبداع. وهذا الدور الإسلامي كان من ناحيته أساساً لنهضة القرن الثامن الهجري في أوروبا. وفي هذا يقول جورج سارتون في كتابه « **المدخل إلى تاريخ العلم** » : « إن الحضارة الإسلامية ظاهرة ليس فيها شذوذ أو خروج عن منطق التاريخ. فلم يكن هناك مفر من قيامها حين قامت. وقد أسدى العلماء المسلمون خدمة عظيمة إلى حركة تقدم الفكر وتطوره، منبعثين إلى ذلك بحماسة شديدة وحسن فهم. ولم يكونوا مجرد ناقلين، كما زعم بعض المؤرخين من المستشرقين، بل بثوا في ما نقلوه روحاً وحياة. ويتميز فضلهم على تطوير الفكر الرياضي بالحماسة المتناهية والفهم العميق ». وإلى هذا يضيف العالم الأوروبي وايدمان قوله : « ان المسلمين نقلوا عن اليونانيين بعض نظرياتهم واستوعبوها جيداً وطبقوها على حالات كثيرة متباينة، ثم أنشأوا من ذلك نظريات جديدة وبحوثاً مبتكرة فأسدوا إلى العلم خدمات لا تقل عما أسفرت عنه جهود نيوتن ».

وفي مقالة للدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا بعنوان **مدخل إلى تراث العرب العلمي وأهميته في تاريخ الحضارة** نشرت بمجلة الفيصل واختتمها بقوله : « لذلك فإن تجاهل العرب وإغفال دورهم في التاريخ يترك فجوات هائلة في مسيرة الفكر الإنساني والحضارة الإنسانية، ويزيد في صعوبات كل من يتصدر لدراستها وفهمها فهماً عميقاً شاملاً. إنه يعقد مهمته ويلقي عليه أعباء جديدة لا قبل له بها. ومع أن العلوم قد تقدمت اليوم تقدماً كبيراً هائلاً

تخطى خيال المفكرين العرب القدامى وتجاوز إنتاجهم العلمي بمراحل وأشواط لا تحصى إلّا أن هذا لا ينفي فضل الأسلاف على الأخلاف، ولا يقلل من دَيْنِ اللاحق للسابق. يضاف إلى ذلك أن الوقوف على التراث العلمي العربي ـ وإن تجاوزه الزمن ـ له فائدتان :

* الأولى قومية، وهي إشعار الجيل الجديد بقيمة هذا التراث وفائدته. إنه يحث همم علماء العرب المعاصرين على استئناف أمجادهم القديمة، وينعش فيهم الأمل والثقة بالنفس. فالأمة التي أنجبت : الكندي والرازي والفارابي وابن الهيثم وابن سيناء والبيروني والبناني وابن خلدون، وغيرهم ممن يزدهي بهم تراث العرب العلمي، هذه الأمة جديرة بإنجاب أمثالهم في الوقت الحاضر.

* والثانية أكاديمية، وهي تعريف النشء بتطور العقل البشري في بحثه عن الحقيقة واطلاعه على كيفية تكامل النظريات العلمية في العصور المتعاقبة وتعاون العلماء على إقامة صرح العلم.. حتى إذا ما تم له ذلك أدرك أن لكل عصر مفاهيمه الخاصة ونظرياته التي ينفرد بها دون سائر العصور. فالنظريات العلمية في تطور مستمر وتغير مطرد، لا تكاد إحداها تستقر في الأذهان حتى تنتقض بأخرى تحل محلها. ثم تدور الدوائر على هذه الأخيرة فتخر صريعة نظرية جديدة أكثر صموداً وأدعى إلى تلبية الحاجات والمطالب الجديدة. وهكذا دواليك. فكل عالم، وكل مفكر، وكل مبدع، كل واحد من هؤلاء يجب أن ينسب إلى زمانه هو، وأن ينظر اليه على أنه ومضة من ومضات، وشذا من أشذاء عطرة فواحة تنطلق من آن إلى آخر، وحدث في الملحمة الرائعة الكبرى التي خاضها قادة الفكر وأصحاب القرائح والعبقريات، بعصارة أدمغتهم وذوب نفوسهم وقلوبهم. فلو لم يكن في هذه الملحمة غير استنهاض بعض الهمم، وإعادة الثقة إلى بعض النفوس، وإحياء بعض الآمال، فناهيك بها نفعاً، فكيف إذا صحت بها العزائم وتحققت الأمال، ومن يدري، فلعل التاريخ يعيد نفسه، فليس بدعاً أن يعود التاريخ ».

وربما عرت الدهشة بعضنا وتساءلوا : فكيف تقدمت أوروبا في هذا العصر، بينما تخلف العالم الإسلامي، وهو الذي نشر الحضارة الإسلامية

يوم كانت أوروبا تعاني ظلاماً فكرياً وتعصباً دينياً وتخلفاً اقتصادياً لا حدود له. وتزيد أسباب الدهشة إذا راعينا الحقيقة المماثلة وهي أنه ليس بين مسلمي اليوم وأجدادهم في العصر العباسي اختلاف من النواحي الدينية والعنصرية والمحيط الجغرافي واللغة والأساس التاريخي. والواقع أن الدولة الإسلامية، بما دان لها من حضارة ومدنية، قد كانت قوة مسيطرة في العالم أجمع طوال خمسمائة عام، وظلت هي الرائدة في المجال العلمي حتى القرن الثالث عشر ولمدة مئتي سنة أخرى. ويعزى تأخر الدولة الإسلامية وتشتتها إلى ما تعرضت له من تفكك سياسي نتيجة للمطامع الشخصية والنزعات القومية والقبلية التي نهى الإسلام عنها، ولكنها ظهرت عندما ضعف ايمان المسلمين. وأخذ الفكر العلمي يتضاءل وتزايله خصوبته بعدما أصاب الدولة الإسلامية من محن وتمزق مهدت للغزو التتري والمغولي. وكان الغزو المغولي الضربة القاضية على الدولة الإسلامية، فخربت خلاله المدن ودمرت الحقول وقتل الملايين من البشر. وأصاب المسلمين بعد هذا الغزو الوحشي عجز عن استرداد قوتهم السابقة واستئناف ما كان لهم من منجزات علمية.

وفي القرن الثالث عشر الهجري الموافق للتاسع عشر الميلادي حط الاستعمار الأوربي في عقر دار الأمة الإسلامية، أعني مصر، التي احتلتها بريطانيا سنة ١٢٩٧ هـ (الموافقة لسنة ١٨٨٢ ميلادية)، ثم شمل الاستعمار البلدان الإسلامية فلم يسلم منه إلا بعض المناطق النائية. ولم تظفر دول العالم الإسلامي باستقلالها إلا بعد الحرب العالمية الثانية، وما زال أكثرها يعيش تحت القوانين التي سنها الغرب، وتحت أوضاع الاستعمار الثقافي والحضاري، وفي حالة من التفكك تورث اللبيب خشية على مستقبل هذه الأمة من الضياع والشتات. ولقد عاشت الدول الإسلامية، بما فيها العربية، تحت نير الاستعمار الغربي أدهراً طويلة، ونسي أبناء هذه الأمة ــ مع الأسف الشديد ــ الأسباب التي أدت إلى قيام أمة الإسلام وانتشارها من الصين إلى فرنسا بعد البعثة المحمدية بأقل من قرن. ولا ريب في أن نشأة تلك الحضارة انما تعود إلى التعاليم الإسلامية وما جاءت به من مبادئ سامية جعلت من العرب أمة واحدة بعد أن كانوا قبائل مشتتة مجزأة،

وجعلت من الشعوب الأخرى التي اعتنقت الإسلام أمماً لها في سير الحضارة الإسلامية دور عظيم.

وعسير على أمة غفلت عن أسس حضارتها حتى تردت إلى الحضيض راسخة طويلاً تحت نير الاستعمار الأجنبي أن تخرج من هذه الوهدة وتعود إلى تأدية الدور الذي يليق بها بوصفها « خير أمة أخرجيت للناس » دون أن تعي تاريخها وتلقنه لأبنائها. ومازال التحدي الاستعماري الغربي لأمة الإسلام قائماً، يتمثل بصفة خاصة في العملاء الصهاينة الذين أنشأوا لهم دولة دخيلة في قلب العالم العربي الإسلامي ابتغاء تقسيم العالم العربي الإسلامي وتقطيع أوصاله جغرافياً وانشاء حالة من التوتر الدائم في وسطه وشن حروب متتالية تستنفد أكثر طاقات العرب والمسلمين وتصرفهم عن متابعة بناء مجتمعاتهم.

وقد بقيت اللغة العربية خلال القرنين الثاني والسادس الهجريين (الموافقين للقرنين الثامن والثاني عشر الميلاديين) لغة التأليف في مختلف المجالات العلمية لأنها لغة البيان والوضوح، ولأنها ذات ثراء واسع في الألفاظ ودلالات بعيدة في المعاني. وصدق أبو ريحان البيروني، الذي وصفه كثير من علماء الغرب بأنه أكبر عقلية في التاريخ، عندما قال في كتابه « **الصيدلة** » : « وإلى لسان العرب نقلت العلوم من أقطار العالم فازدانت، وحلت في الأفئدة، وسرت محاسن اللغة منها في الشرايين والأوردة، وإن كانت كل أمة تستحلي لغتها التي ألفتها واعتادتها واستعملتها في قاربها مع آلافها وأشكالها، وأقيس هذا بنفسي، وهي مطبوعة على لغة لو خلد بها علم لأستغرب استغراب البعير على الميزان، والزرافة في العراب، ثم متنقلة إلى العربية والفارسية، فأنا في كل واحدة دخل ولها متكلف. والهجو بالعربية أحب إلي من المدح بالفارسية، وسيعرف مصداق قولي من تأمل كتاب علم قد نقل إلى الفارسية كيف ذهب رونقه، وكسف باله، واسود وجهه، وزال الانتفاع به، اذ لا تصلح هذه اللغة إلا للأخبار الكسروية والأسمار الليلية ». وإلى هذا أضاف المؤلف فيليب حتى في كتابه « **تاريخ العرب** » : « لم يسهم أي شعب من شعوب الأرض بقدر ما أسهم المسلمون في التقدم البشري، وظلت اللغة العربية لغة العلوم والآداب والتقدم

الفكري قروناً متعددة في جميع أنحاء العالم المتمدن آنذاك، وكان من آثارها أيضاً أنه فيما بين القرنين التاسع والثاني عشر الميلاديين فاق ما كتب بالعربية عن الفلسفة والطب والتاريخ والفلك والرياضيات والجغرافية كل ما كتب بأي لسان آخر ». وصدق المؤلف المشهور جورج سارتون عندما قال في كتابه « **المدخل إلى تاريخ العلم** » : « حقق المسلمون، عباقرة الشرق، أعظم المآثر في القرون الوسطى، فقد كتبت أعظم المؤلفات قيمة وأكثرها أصالة وأغزرها مادة في تلك العصور باللغة العربية التي كانت من منتصف القرن الثامن الميلادي وحتى نهاية القرن الحادي عشر لغة العلم للجنس البشري. والحق أنه كان ينبغي لأي كان، إذا أراد أن يلم بثقافة عصره وبأحدث صورها، أن يتعلم اللغة العربية. ولقد فعل ذلك كثيرون من غير المتكلمين بها ». وجدير بالذكر أن اللغة العربية، لغة القرآن الكريم، كانت لغة الحضارة الإسلامية الوحيدة، وبقيت الوشيجة القوية الأصيلة بين الأمم الإسلامية، فحاربها الغرب بلا هوادة حتى انحصرت في الدول العربية العشرين. وحتى هذه الدول تعاني اللغة العربية فيها الأمرين من تجاهل أبنائها وجحودهم، ولا سيما في مجالات التعليم الجامعي وتدريس العلوم. وتفرض علينا الأمانة العلمية أن نقول انه : **لا عزة للأمة الإسلامية إلا واللغة العربية كريمة في وطنها سيدة في أرض العرب والمسلمين.**

وفي الختام يهمني لفت نظر القارىء للآتي :

(١) في دراستنا لتراثنا ربط بين المدنية القديمة والمدنية الحاضرة لنعرف إلى أي حد قامت الحضارة الحديثة على الدعائم وعلى التراجم التي نقلها جدودنا من الحضارات القديمة، وطعموا بها الحضارة الحديثة في وقت كانت فيه أوروبا غارقة في الظلام والجهل.

(٢) والموضوع ذو نفع تاريخي عظيم، لأن فيه تصحيحاً لأخطاء وقع فيها كثير من المؤرخين قصداً أو عن غير قصد، ليس في مجال العلوم البحتة فقط، بل حتى في أسس وقواعد الشريعة الإسلامية، ويكفي أن نكشف الغطاء عن روح التعصب السائد في كلام المستشرقين فقد بلغ بهم القول بأن (العقيدة الإسلامية) من نتاج العالم الغربي. ويكفي أن نقرأ كتاب

المستشرق المجري جولد زيهر (العقيدة والشريعة الإسلامية) لنقف على هذه الدعوة الباطلة ثم نعمل على تصحيحها هي وغيرها.

(٣) أن المدنية الحديثة قد نشرت طائفة من الأمراض السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وإذا قسنا حضارة الإسلام في عصوره الزاهرة، حيث كانت تسود الحرية والمساواة والعدل، بهذه المدنية الزائفة التي تعيش على المادة والوهم ازددنا يقيناً بأنه لا بد من أن نكشف عن ألوان حضارتنا ونقدمها للعالم الحديث.

(٤) ولا بد إلى جانب تحقيق التراث واعادة نشره في صورة علمية، وبيان أصوله التي اعتمد عليها الغرب في حضارته، لا بد أن نعرف الجانب الكبير الذي أدته الترجمة باعتبارها الوسيلة الفذة للوقوف على تراث الأمم، ولكن هذه الترجمات ينبغي أن تكون أمينة ودقيقة، وأن يقوم عليها الأشخاص الذين يحسنون اللغات.

وفي الختام لا يسعني إلا أن أقترح أن تقرر مادة التراث العلمي العربي الإسلامي مادة اجبارية على المستويين الثانوي والجامعي في البلاد العربية والإسلامية على السواء، لأن هذا التراث لم ينل بعد ما يستحقه من عناية في مدارسنا أو جامعاتنا، ومن هنا تجيء أهمية تشخيص دور التجديد الذي لعبه (المسلمون) وبيان ابداعهم على المستوى الشعبي والرسمي ابان العصور الوسيطة، وأعتقد أن الأهداف الأصيلة من وراء تدريس هذه المادة هي :

(١) ان التاريخ الإسلامي وتاريخ الأدب العربي والحمد لله وجدا من الدارسين العناية الكبيرة، ولكن الضلع الثالث لهذا المثلث لا يزال ينتظر، وإن كان هناك بعض المقالات والكتب التي كتبت في مجال التراث العلمي العربي الإسلامي في الشرق والغرب، تعتني بالتراجم وسرد المؤلفات، ولكنها تفتقر إلى الكشف عن الجوانب التطبيقية والإبداعية، واقامة البراهين الحديثة على صحتها وخلودها.

(٢) ان تراثنا العلمي الإسلامي، كانت دراسته ولا تزال مقصورة على

المستشرقين، فهم الذين عملوا في هذا المجال ومع شديد الأسف أنهم كانوا غير منصفين. لذا وجب علينا اليوم أن نتسلم مقاليد تراثنا، فنحن أعلم منهم باللغة والتاريخ والجغرافيا.

(٣) مدى تطويع التراث العلمي الإسلامي، لأن يصبح تاريخاً يملأ جوانب حياتنا التعليمية والحضارية، لا سيما وقد استهدفت الأمة العربية على مر العصور التاريخية لمحاولات النيل منها علمياً وحضارياً بطمس معالم تراثنا (العربي الإسلامي) والتقليل من قدرة العقلية العربية على الابداع والتطوير.

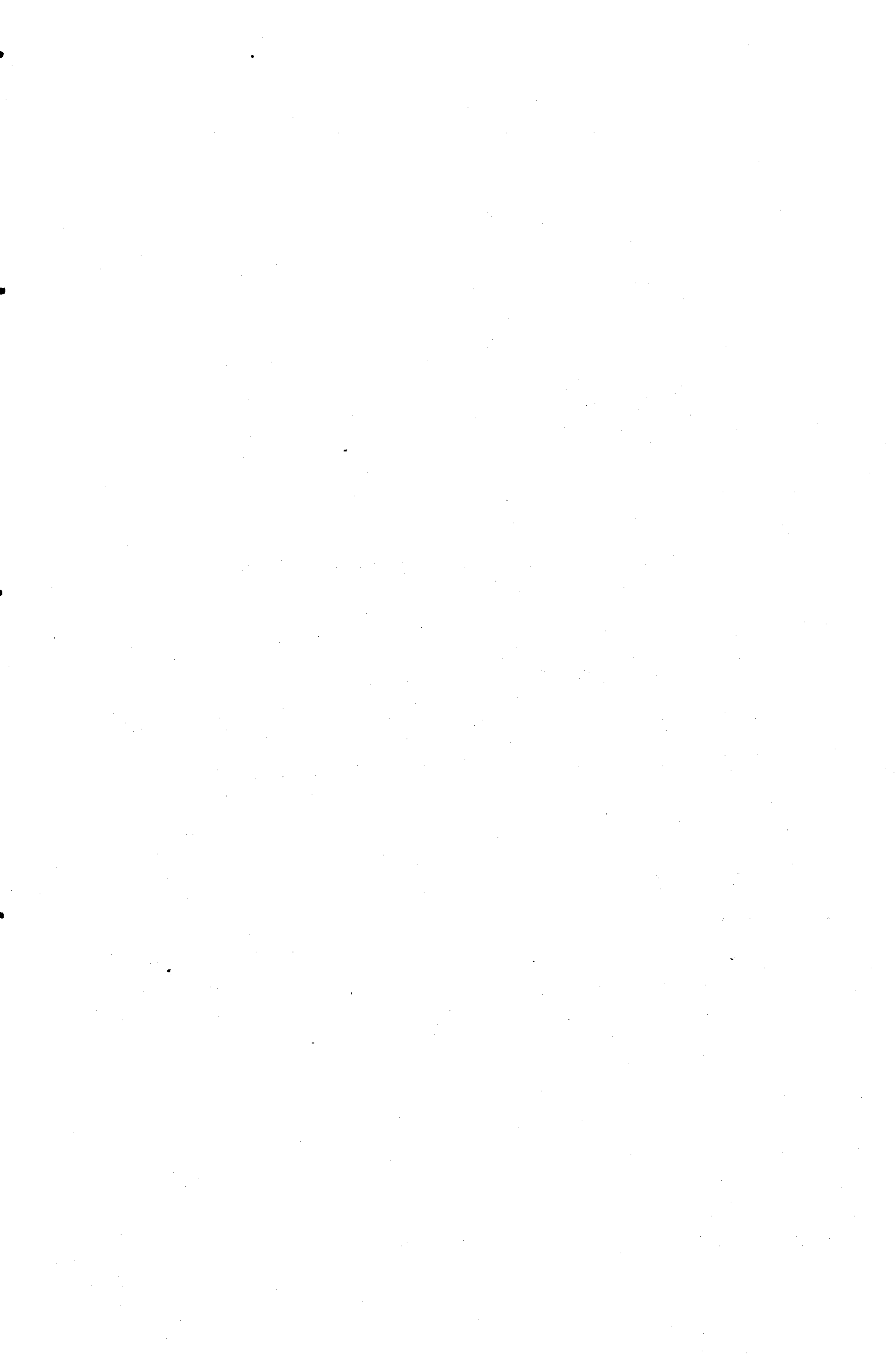
(٤) معرفة الجهد الذي بذله أجدادنا القدامى في هذا المضمار، حتى نقل عنهم العالم عشرات العلوم والفنون من فيزياء ورياضيات وكيمياء وطب وصيدلة ونبات وفلك وغيرها، وبذلك ولدت النهضة الأوروبيةالحديثة.

(٥) التعريف بمقومات وأسس هذا التراث العلمي، وذلك ليس بالموضوع السهل، لأن آثار هذا التراث الإسلامي لا تقتصر على باب واحد، بل هي أبواب متفرقة تشمل العلوم الطبيعية والرياضيات والفلك والكيمياء وغيرها وكل فرع من هذه العلوم في حاجة إلى متخصص عالم بتاريخ هذا الفرع.

* * *

تفوق الإسلام في مجال الفنون المرئية ودور الشباب المسلم في حفظ وتنشيط هذا التراث

للدكتور سيد برويز منظور



بسم الله الرحمن الرحيم

تعتبر اليقظة التدريجية للمسلمين وحركة إيقاظ التراث الإسلامي القديم وإعادة السيطرة على القوة السياسية ومفاهيمها اللغوية من بعض التعبيرات الخالدة في الحياة الحديثة للمسلمين، وهذا ما نشاهده بشكل أو بآخر. فهناك اتجاه فكري عظيم ونتيجة لذلك مناقشات علمية فيما يتعلق بالإسلام وقيمته الإيجابية ودوره في العالم الحديث وقدرته على حل جميع المشاكل الصعبة التي يعاني منها عصرنا ـ ومع ذلك فإن آثار السيطرة الأجنبية لم تواجه بعد بصورة كاملة، والأحداث الحزينة للحرمان من القوة السياسية بدأ يسمع صداها في أنحاء العالم الإسلامي الذي قد عانى بشكل أو بآخر من فقدان المكانة الذاتية. وقد قبلت طبقة المثقفين المسلمين التي شكلها الغرب باستسلام وبدون تحفظ أي حكم ثقافي غربي فيما يتعلق بالإنجازات الفكرية للحضارة الإسلامية. ولحسن الحظ فهناك دلالات لنهضة فكرية قوية بين الشباب المسلم، كما هو مشاهد في الترتيبات لمجموعة اللقاءات عن الحضارة الإسلامية التي تنظمها الندوة العالمية للشباب الإسلامي. واستنتاجاً من ذلك فإن كل فكر أجنبي غريب ـ مهما كانت درجة حداثته أو مكانته العلمية أو أهميته لا بد أن يفحص تحت الأضواء القوية الساطعة للعقيدة الإسلامية. وكذلك فإن الحضارة الإسلامية كلها يجب أن ترى سواء من ناحية إنجازاتها الإيجابية أو من

ناحية فشلها، من وجهة نظر العقيدة الإسلامية، وما يتلو ذلك فهو محاولة متواضعة لتقويم جزء من حضارة تراثنا الإسلامي، وهو لسوء الحظ قد عانى كثيراً من الخضوع للأنماط الغربية. ومما يؤسف له، أنه حتى المتعلمون منا لا يدركون إنجازات حضارتهم الإسلامية في هذا المجال ولا يدركون أيضاً إضافاتنا للتراث الحضاري والثقافي والفكري للبشرية.

والفن الإسلامي هو فن تجريدي هندسي إنشائي منطقي، ومع ذلك وبالرغم من اتجاهه الفكري العميق، إلا أنه دائماً مرتبط بأنغام الحياة الأزلية، فإنه فن حركي وحركته الطبيعية لا يمكن وضعها تحت أي موضوع فيه - ومع ذلك فإنه فن متناسق وهادئ خال من أي توترات. وحركته الحرة لا هدف لها، وإن انسجامه الدائم لا يكل واستمراريته الرزينة لا تتغير. وهو يحاول إعطاءنا فكرة لا حدود لها عن جمال الخالق كما يقول الشاعر الصوفي جلال الدين الرومي.

والفن الإسلامي يحاول التعبير عن الومضات السائدة لجمال خلق الله، وحتى لا تشوب هذه النظرة جمال خلقه، فإنها تخضع دائماً لعظمة الله بوقار يشوبه الإجلال، ومع ذلك فإن هذه النظرة تعطي صمتاً فيه بلاغة كبيرة. وفي مواجهة سر هذا الجمال، فإن الفن الإسلامي لا يقف مشلولاً أمام وقار ورهبة هذا الإجلال لعظمة الخالق. ومهما كان من أمر فإن مدلول الحقيقة هو أن الفن الإسلامي بإعلانه أن المجال الديني هو عالمه قد تعدى حدوده إلى جميع أنواع التصور سواء رمزية أو خلاف ذلك.

ومن شهادة التاريخ الغير عادية والتي تدعو لكل استغراب هو أن العبقرية الإسلامية المبدعة قد أنتجت نوعاً من الفنون العنصرية الجديدة لم يعرفها العالم من قبل. وعندما أدركت اليهودية حقيقة عدم وجود شيء في الطبيعة يمكن أن يستخدم كوسيلة دينية فإنها فقدت قدرتها على الإبداع في مجال الفن المرئي لأي نوع، وركزت كل طاقاتها في مجالات أخرى. بينما الإسلام قد وجد حلاً ليس فقط لهذا الطريق المسدود، وإنما بما له من حل ممتاز.. وعند هذه الإشارة فهناك ما يبرر لنا بوصف الفن الإسلامي كفن معبر عن وحدانية الله.

وفي فن الأرابيسك نجد العبقرية الإسلامية قد شكلت صوراً مرئية لأشكال لها حدود الصورة نفسها. وفي فن الكتابة الدينية فقد وجدت الروح الدينية بديلاً حيوياً وعوضاً فكرياً وتصويرياً للصورة نفسها. وأخيراً أصبح العالم حساساً بجمال الفن الإسلامي. وبعد مرور أحقاب من الزمان. على الإهمال وسوء التفسير والعداء حتى لدرجة الإدانة، أخذ الفن الإسلامي مكانته المرموقة المحترمة، واعتُرف أخيراً بعظمة الفن الإسلامي كفن ديني ورمز واضح لها، للروح الإسلامية الدينية.

وأخذت إضافته الموضوعية كمفهوم عظيم نتيجة الوحدة الإسلامية وتفسيراً لها أدى للتصوير الإحساسي الإسلامي بالقدسية بدل من أن كان يشار إليه كفن تجريدي بربري ـ وهو الدور المتحيز العنصري ضد تمثيل الأشكال الحية. فوحدة الأسلوب بتنوعها الذي يدعو للإعجاب وتصويرها الإبداعي الذي لا حدود له ـ كل ذلك قد ظهر بالتدريج أمام أعيننا. فإعجابنا واحترامنا لهذه الإنجازات ينمو مع فهمنا لأسراره، ومن دواعي السخرية، أنه بينما تحاول المدارس العلمية الغربية تصحيح حكمها عن مزايا التراث الفني الإسلامي، فإننا نجد العالم الإسلامي نائماً في سبات عميق ومستمراً في التحيزات التي رفضها الغرب الآن بكل شهامة.

وعلى خلاف الأجيال الإسلامية السابقة، وهم الذين شاهدوا شجب الفن اليوناني القديم ورفضه على أساس قلة قيمته الفنية بالنسبة لهم أمام مفهوم التوحيد الإسلامي فإننا في العالم المعاصر قد حرمنا من كل تقدير جمالي يمثل هذا القدر، وإننا نستسيغ ونهضم بدون تمييز كل ما هو رخيص، كما نبلع التعبيرات للفن الإنساني الغربي. بدافع عقدة النظريات الطبيعية والتقليد الأعمى الذي يقوم به كل فنان مسلم، ومن الإهانة المباشرة ما تتوجه إليه أكاديميات الفنون الحديثة في العالم الإسلامي حيث تمارس ويدرس بها جميع الأنماط الفنية فيما عدا النماذج الجمالية للفن الإسلامي ـ هذا شيء مخز ومن العار التباهي بعرض التماثيل في الميادين العامة في بعض البلاد الرئيسية في ديار الإسلام. كل هذه الحقائق تشير إلى اندثار الفن الإسلامي. وهذا مؤلم جداً لشخص مثلي حساس جداً للجمال الخالد

والروعة الفريدة للفن الإسلامي، وإنني لست فقط أعتقد بأن الفن الإسلامي هو من أرقى وأعظم أعمال الحضارة الإسلامية وأنه يعكس وباخلاص تام مبدأ الإسلام في التوحيد، وإنما هذا الفن أيضاً إذا ما قدرت قيمته الحقيقية فإنه يجب أن يوضع كأرقى مفهوم للجمال التصويري الأصيل قام به الإنسان. ومع ذلك فإن سوء الفهم ما زال قائماً ـ حتى بين المسلمين أنفسهم ـ بأن الإسلام لم ينتج فناً بسبب تحريم التشخيص الفني ـ وهذا هو مفهوم بعيد عن الحقيقة. وفي لغة رقيقة مميزة لعالم فاضل، نفى الأستاذ اسماعيل الفاروقي هذه التهمة بالكلمات التالية :

« حاول الفن في الإسلام تحقيق نفس المهمة الرفيعة الإنسانية المحققة للذات ـ وقد تم ذلك بواسطة تذكير الإنسان باستمرار بوجود الله. وأن ذات الله ليست على شكل إنسان. والنموذج الإسلامي للفن لم يرتكز على الشر ولم يكن متغطرساً أو مثالياً. فهو فن إنساني نظم نفسه بالإحساس بأن ذات الله لا تمس. فهل يكون بذلك فناً محدوداً ؟ بالتأكيد... ولكنه فن محدد بالقيم السماوية التي تبدأ (من حيث التعريف) باللانهائية : وبالقيم التي (تتناسب) (وترى) عندما نقف أمامها بدلاً من أن (تتلخبط) مع بعضها البعض. ولأن كلاً من النوعين من القيم متناسقان معاً، فإن (اللخبطة) بينهم بواسطة الإنسان تصبح محتملة فرضاً. فالشرير دائماً يكون سعيداً بنفسه. إن عظم الفن الإسلامي من عظم الدين الإسلامي نفسه. إنه يتقدم باستمرار ولكنه كفن دائماً ما يقيم الحاجز بينه وبين حقيقة ذات الله ».

وهنا نؤكد العلاقة بين العقيدة الإسلامية والأعمال الفنية التي قام بها المسلمون من قرون. وبذلك نرى ماذا كانت تحتوي أعمالهم الفنية الإسلامية وإلى أي مدى كانت رؤيتهم لهذه الأعمال إسلاميةً ؟

المبادىء الروحية والميتافيزيقية للفن الإسلامي :

لم ينشأ الفن الإسلامي من فراغ. فقد ورث الإسلام كل التقاليد الفنية للثقافات والأديان القديمة وقد استشفها واحتواها بسرعة غريبة. ومع ذلك فإن تطور أنماط التعبير الجمالي الإسلامي بصورة خاصة إجراء بطيء وتدريجي،

وهذه الأنماط في ذاتها جزء من الإحساس الثقافي للعقيدة الدينية.

وبدايات الفلسفة الإسلامية للفنون التشكيلية، التي بلغت أقصى درجات ظفرها في ديار الإسلام، ممكن أن ترى بصورة غير واضحة كجزء من القرار الواعي للعقيدة الإسلامية التي كانت تتحكم فيها الشريعة في القرنين الثاني والثالث من التاريخ الإسلامي. وعلى أي حال فإن اتجاه النشاط الفني في مجال الفنون التشكيلية أيضاً ـ والإخلاص لهذه المفاهيم الإسلامية مطلوب من الفنانين المسلمين، ولا يمكن قبول أي موقف منحرف عن هذه المبادىء الأساسية على الأقل في مجال الفن الديني ـ وسيكون هذا الموقف الديني الصلب ضرورياً وله فائدة عند النظرة للماضي عمّا إذا كان الفن الإسلامي ـ كباقي الأديان القديمة ـ قد انحدر إلى صناعة الأصنام ـ أو بقيت صفحته طاهرة ـ ويمكن تلخيص المواقف الأساسية للتصوير الفكري الإسلامي ـ وهو الذي استشف من المفهوم لوحدانية الخالق :

١ ـ نفي وجـود الصـورة :

إن الحقيقة المطلقة في نظر الإسلام ـ : تنبع من الله، إنه أسمى من العالم الذي خلقه. والعالم زائل ولكن الله باقٍ، « كل من عليها فانٍ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام »[1]. والله الواحد لا شريك له من أي نوع ولا يوجد شيء مطلقاً يشبهه. والفن الذي ينبع من وحدانية الله لا يمكن أن يقبل أي صورة خيالية ترسمه من الطبيعة لتكون بداية لهذه الطبيعة التي خلقها الله. فالفن الإسلامي ينفي وجود هذه الصورة، وعلى العكس فإن هذا هو الموقف الإيجابي أيضاً كما ذكر ذلك (تيتوس بيركهارت) : « إذا حذفنا جميع الصور المجسدة لله والموجودة في الإطار الديني على الأقل، فإن الفن الإسلامي يساعد الإنسان على أن يجد نفسه كلية، ولا بد من عرض النفس خارج النفس، كأن يتركز في دائرته الذاتية حيث هو خليفة الله وعبده. والفن الإسلامي بصورة عامة يهدف إلى خلق كيان يساعد الإنسان على إدراك قيمته وعلى ذلك فهو يتجنب كل ما يمكن أن يكون صنماً ـ

---

(١) سورة الرحمن آية ٢٦ ـ ٢٧.

حتى بأي درجة لشبيه، فلا شيء يقف بين الإنسان ووجود الله ».

٢ ـ الفن التجريدي :

بالرغم من أن الله ليس مجرداً فإنه موجود في التفكير الإسلامي بطريقة مجردة، فإن عبارة « لا إله إلا الله » تعتبر من أكثر العبارات المجردة عن الله الحي الموجود، وكما أن الإسلام لا يضفي على الدين أي لباس خرافي أو نداء مجسد لله الخالق، فإن الإسلام غير ملزم بأن يقبل الصورة التجسيدية، أو على الأقل الصورة الإنسانية. والفن الذي يشارك الإسلام عاطفته في التجريد سوف يفضل الفن غير التجسيدي.

٣ ـ الكلمة المصورة :

وفي الإسلام بالرغم من أن الله ذو الجلال لا يوجد له شريك في الملك، فإن هناك علاقة وثيقة بين الإنسان وربه. فالإنسان ليس فقط خليفة الله.. ولكنه بالمفهوم الشامل قد قبل حكم الله في جميع المناسبات. ونموذج هذا البيان في الإسلام هو القرآن الكريم. وهو موجود بين أيدينا كاملاً بدون تحريف. وبالإضافة إلى ذلك فإن شكل هذا البيان الإلهي هو حكم معبر بالكلمة وليس مرئياً أو إحساسياً وهذا يضفي تأكيداً كبيراً للإجراء الفكري عن الإجراء الحسي، أو تفوق الروح على الإحساس وجميع النشاطات الفنية للفنانين المسلمين تتركز في تجميل كلام الله (وهو القرآن) سواء بالكتابة أو التجويد ـ وحتى الآن يبقى المسلمون بدون منافس في مجال فن الكتابة الدينية، وفن التجويد الجميل للقرآن.

٤ ـ التصور الذهني :

وكما صور الإسلام الإنسان « ككائن حي » فقد منحه الله ذكاءً، وهو قادر على الإدراك المطلق، له إرادة قادرة على اختيار ما يؤدي به إلى المفهوم المطلق، « هذا وقد منحه الله أيضاً القدرة على الكلام والقدرة على الإدراك. فقد خلق الإنسان قادراً على فهم الدعوة السماوية، ومن وظيفة الذكاء في الإسلام إنقاذ الإنسان من الخطيئتين الكبيرتين وهما : الكفر والشرك بالله. والذكاء في حد ذاته ليس تأكيد المعرفة عن الوحدة المطلقة

ففي الإسلام يعتبر الذكاء هو القدرة التي تنقذ الإنسان. ويضع الإسلام ثقته في ذكاء الإنسان ويؤكد بجرأة أن أساس التجربة الدينية هو المعرفة النقدية. وعلى عكس الديانة المسيحية فإن الإسلام لا يميل إلى وضع تشبيهاته على شكل متناقضات، فلا يوجد أي إجراءات غامضة أو طقوس ذات طابع سري فكل الإجراءات الدينية الإسلامية معروفة ولا سر فيها ـ فهي عامة وجماعية. وهذا الاعتماد الفريد على الذكاء الإنساني ـ سواء في التعرف على الله أو في خدمة المجتمع ـ ترك آثاره على الفن الإسلامي. فرؤيته دائماً واضحة، فكرية ومتزنة. والمعمار الإسلامي يرفض بشدة أي توتر أو غموض أو إبهام، وجميع إنشاءاته تنم دائماً عن شفافية منطقية، وتوازن واضح وهدوء الموضع، فإنه يبهج في وضوحه وضوئه هازئاً بكل غموض وظلام. والرؤية الفكرية في الفن الإسلامي غالباً ما تظهر عاطفتها وحبها للهندسة والحساب وهذا ليس له أي مثيل في أي مكان آخر.

٥ ـ الطابع الانسجامي :

يرى الإسلام نفسه كدين طبيعي (دين فطرة)، وعلى ذلك وصف المسلمون في القرآن (بالوسطية)، وكل شيء في الإسلام في انسجام مع الطبيعة الداخلية للإنسان لأن هذه الطبيعة الداخلية عندما تتقى بواسطة القوة الدينية الموجودة في العقل يؤدي إلى مفهوم وحدانية الله المذكور في القرآن. وعلى عكس ما هو موجود في الديانات العالمية الأخرى وبصورة خاصة على عكس ما هو موجود في المسيحية فإنه لا يوجد أي توتر داخلي بين الإنسان وربه. ولا يعترف الإسلام بالخطيئة الأصلية ولا يوجد أي حاجة إلى إجراء طقوس للتضحية أو إلى الخلاص المقدس. وهذا الانسجام الكامل للعقيدة الإسلامية تعكسه بإخلاص الطريقة الإسلامية في الحياة، مما يثير دهشة أي دارس غربي للدين الإسلامي. وأمام ذلك يقف الدارس الغربي مبهوراً ويقول :

« إن سحر الاقتراب والإحساس بالسرعة التي وصف به هيجل الإغريق وهو الذي قال عنهم « ان الروح تسقط » ـ هذا السحر تشاركه طريقة الحياة العربية التقليدية ـ فهذه البساطة السامقة التي تمتع بها اليونانيون من البداية، وعن طريق اتصالهم الجمالي بالعالم، تشكل أيضاً

لأسباب عديدة وبطرق مختلفة أي طريقة (إسلامية) في الحياة. فالتمثال اليوناني الذي أقيم في أزهى العصور يبدو أنه قد جاء نتيجة آلة الحفر التي صنعته وأنه مفصول عن الطبيعة التي هي كاملة وعن الإنسان الذي يحاول التمثال أن يجسده.. وبنفس المفهوم ـ وبالرغم من ذلك في الإسلام فإن الحياة التقليدية في الإسلام لها صفة الاكتمال. فهي حرة عن أي خطيئة أزلية ودائماً في انسجام مع نفسها ومحببة إلى الله. وبدافع الغريزة ترحب بكل عاطفة ولا ترفض إلا كل ما قد يعتبر وسيلة لأشياء محرمة. كالقمار والربا والزنا.. وعلى ذلك فلها كما كان للفلسفة اليونانية القديمة ـ سر قد فقدناه نحن. وفن النحت اليوناني من ناحية والسلوك الإسلامي من ناحية أخرى هما مثال للتناسق والإحساس بالاقتراب الإنساني ».

والفن الإسلامي بلا شك، هو في انسجام كامل قد نجح في حفظ التوازن والتناسق والتساوي مع الطرق الإسلامية في الحياة في مجال التصور الجمالي.

الإسلام ضد أوروبا :

إن المجرى الحيوي في التفكير الأوروبي يرتكز في الإنسان. فالإنسان ـ وليس الله ـ يستحوذ كل الاهتمام في الروح الأوروبية الفاسدة كما مثلها الشاعر الانجليزي (اسكندر بوب) عندما قال :

« اعرف إذن نفسك ولا تتبع طريق الله في دراستك الحقيقية ـ فإن الإنسانية هي الإنسان ».

وحتى في المجال الديني فالإنسان ـ حتى الإنسان المؤله ـ هو الدخيل الذي حل بنجاح محل الله كنوع من التكريس والاهتمام. فالآلهة الوثنية في الماضي كانت في حقيقة الأمر وفي شتى أشكالها ـ إنسانية وحتى الإله المسيحي فهو إنسان مؤله. وعلاوة على ذلك ـ فكل المنظورات التالية للفكر المنطقي الأوروبي التي تواجهنا الآن تحت قناع الماركسية أو التحررية، إنما هي دين دنيوي بصورة رئيسية وقوانين كافرة من صنع الإنسان. وهكذا أصبح الإنسان مقياساً ومحوراً لكل الفنون الأوروبية. فكل الفنون التشكيلية

هي تنويع لموضوع واحد وهو جسد الإنسان. إنها تركزت للفن العادي واستعملت شخص المسيح كرمز لكل ما له معنى في مبادىء المسيحية، كالعاطفة والمسرحية، وتصوير البعث. الخ.. وهو الفن نفسه الذي يقود الملوك والنبلاء في شكل الفن التجسيدي وهو كذلك يسيطر على الطبيعة، وعلى عكس الفن الموجود في الشرق الأقصى فإنه امتداد للذات الإنسانية. وقد عبر ناقد أوروبي فذ مشهور شديد الحساسية بمكانة تراثه الفني وبطريقة شعرية عن المبادىء والمفاهيم للفن الإنساني والفلسفة التي يرتكز عليها بقوله :

« إنها تأخذ الأجزاء الأكثر حسية من جسم الإنسان والمثيرة للاهتمام تبقيها بعيداً عن الشهوة وعن تأثير الزمن. ويحتاج الأمر إلى عمل ذلك لمفهوم منطقي ونظام حسابي لتجعلها محببة للحس، وتجسد كل ما يخيف من المجهول واللامعروف وتعطيه مذاقاً حلواً وذلك بإظهار الآلهة مثل البشر وربما يعبدونها كمعطية للجمال في الحياة ».

ولسوء الحظ بالنسبة لمؤرخي الفن الغربي فإن هذا الارتباط العاطفي للجمال الإنساني كان يمثل قوة عمياء لكي تشل كل أحاسيس الحكم النقدي في شرحه للتراث غير الموضوع عن أساس مفهوم النظرية الطبيعية ــ كالإسلام ــ مثلاً. وهناك فنان على درجة عالية من الفهم وهو (أندريه مارلو) قد ادعى أن الفن الإسلامي بسبب تصويره التجريدي يعتبر « فناً ثانوياً، ليس فقط لأنه لا يجسد الإنسان، ولكن لأنه أيضاً لا يعبر عن الإنسان ». ونحن هنا لا نعارض العالم الأكاديمي (مارلو) لما هو في صالح الدين والفن ولكن يجب أن نقبل أن الفن الإسلامي أولاً غير مهتم بتجسيد الإنسان، وذلك لأن الإنسان هو « ممثل للعاطفة والدراما ».. الخ. وبالرغم من ذلك، فإننا يجب أن نؤكد أن الفن الإسلامي لا يهمل الإنسان، ولكنه ينظر إليه بطريقة مختلفة عن الفن الأوروبي. ومن وجهة النظر الإسلامية، فالإنسان أساساً كائن ذكي وليس مجرد كونه من اللحم والعظم، وإذا لم يوجد أي تصور إنساني في الفن الإسلامي بالمقارنة إلى الفن التقليدي اليوناني مثلاً فذلك بسبب **أن الإسلام يعتقد أن الإنسان هو الإنسان، ليس لمجرد ما**

فيه من عضلات، ولكن لسبب عقله، وهو ما يميز الإنسان عن المخلوقات الأخرى وما يربطه بالله. وعلى ذلك فالجسم الإنساني قد رفض كرمز تجسيدي للإنسان في الفن الإسلامي، ويرفض هذا التجسيد الإنساني، فقد أوجد الفن الإسلامي تنوعاً للتصور الفكري يدعو للإعجاب وعن طريق فلسفة جمالية وضعت على أساس العقل والتجريد الذي رمز به **باللغة، والهندسة، وفن الكتابة الدينية، والأرابيسك**، أظهر الفن الإسلامي تقديره للفكر البشري دون تجسيد للإنسان، أما فيما يتعلق بالفن الديني الأوروبي، فالإنسان المسلم يؤكد بكل صدق وحيادية أن أعظم الأعمال الفنية الدينية القائمة على المفهوم الغربي للإنسان كأعمال (أنجلو) في كنيسة سستن لا تحرك أي عاطفة دينية بالمرة في نفس المشاهد المسلم. فلا يوجد فيها أي شيء يعبر عن الطبيعة الإلهية بالضبط، فكل شيء مجرد غرور وخداع للنفس وتكبير للأصنام. فالمسلم يواجه هذه الكتل الضخمة من اللحوم والعضلات بحزن عميق، واحتقار وربما الغضب. فهل هذا فن عظيم ؟ محتمل.. ولكنه بالتأكيد تعبير عن دين فاسد.. وأن على أساس مواجهة الفن بهذا الشكل عرف المسلم كم هو محظوظ بالإسلام لأنه لم يسمح بأي تجسيد خداع لذات الله.

فن الكتابة الإسلامي.. الأنشودة المرئية للجمال الفكري :

ومن كل العناصر الفريدة للفن الإسلامي ربما لا يوجد فن آخر يؤكد شخصيته بقوة كبيرة أكثر من فن الكتابة الإسلامية، فالكتابة الإسلامية أولاً وقبل كل شيء هي منهج جمالي للتعبير، عن طريقها وصلت العبقرية الفنية للشعوب الإسلامية أقصى درجاتها في مجال الإبداع الفني. والكتابة في حد ذاتها فن ديني إسلامي حيث تتقابل الروحانية الأصيلة والإبداع الجمالي للمسلمين في اتجاه مثمر. ومن الممكن لكل مسلم مهما كانت نظريته الخاصة في العقيدة الإسلامية أن يشارك ويستمتع بالجمال السارح للكتابة العربية. وعن طريق فن الكتابة العربي حاول العقل المسلم أن ينفذ التعبير الجمالي لكلمة الله، يمكن أن تفهم بالمنطق العلمي، إنها خليط عام من

الجمال والتفكير، خليط من الجمال المرئي مع المعنى المنطقي. والكتابة بدون شك هي الأنشودة المرئية للإسلام للجمال الفكري.

ومنذ سنوات، وأثناء مشاهدتي كنيسة أياصوفيا وهي كنيسة يونانية وإحدى المباني المشهورة على مر العصور، فقد قمت بتجربة مثيرة واكتشفت ــ كصدمة مفاجئة ــ التجسيد للبيان الجمالي الإسلامي ــ فأصبح هذا المبنى التذكاري العظيم، وبدون إجراء أي إزالة جذرية أو حتى مجرد حذف منه، فبواسطة إضافات بسيطة لبعض الكتابات القرآنية على سقف القبة فقد كل طابعه المسيحي. وفي نظري ان إقامة هذه المآذن العثمانية الفخمة الجديدة لم تنجح بشكل مؤثر في تغيير الجو المسيحي للبناء كما فعلت تلك الكتابات الثلاثية الموجودة بالداخل. فالعبقرية الإسلامية قد أضفت بذقة وباقتصاد بليغ تعبيرها الجمالي. ومع ذلك وبالرغم من بساطة التعبير، فإن بلاغة النطق تدوي كالبرق وسط الظلام ــ كما أضاءت الظلام من داخل القبة.

إن الحقيقة الكاملة ــ طبقاً للإسلام ــ ممكنة للإنسان عن طريق العقل والبيان ــ فالإنسان ــ كما ذكر سابقاً هو مخلوق ذكي قادر على إصلاح نفسه عن طريق الاستعمال النشط للفكر ــ وعلى أسوأ الأحوال إنه مقيد بقدرته الفكرية وفي حاجة إلى البيان لكي يكيف ذكاءه إذا انحرف تفكيره. وعلى عكس المسيحية فإن الإنسان ليس بخاطىء ذو نفس ثائرة لا يغفر له إلا عن طريق التضحية المقدسة. فالذكاء الإنساني في الإسلام له أفضلية على الإرادة الإنسانية فقد بيّن الله نفسه فقط في عالم الفكر وليس عن طريق الإحساس، والاتصال الإنساني بالله ــ طبقاً للمفهوم الإسلامي ــ يجب أن يكون ذا طبيعة معينة وهي عدم المساس بذات الله. بعد هذا الاتصال لا يمكن أن يكون إلا في فكر الإنسان فقط. وحتى عند ذلك لا يكون اتصالاً بذات الله، ولكن بإرادة هذه الذات العلية. وسواء عند الرسول أو في عقل أي إنسان توصل إرادة الله بالكلمة. ولأن المفهوم قد يكون عن طريق الكلمات فإن هذه الكلمات تفهم عن طريق العقل البشري بواسطة التفكير.

إن مثل هذه المعرفة ليست رئيسية ولكنها أساسية ــ وأول الآيات التي

أوحيت للرسول عليه السلام تبين هذا التداخل بين البيان والعقل، وبين علاقة الوحي والمعرفة الإنسانية :

« اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، إقرأ وربك الأكرم الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم »[(١)].

ولم يذكر الله الإنسان فقط بأن وجوده بالرغم من طبيعته العضوية والحيوانية (العلق)، فقد رفعه عن طريق المعرفة الإلهية التي أوحاها له ولكن هذه المعرفة قد علمت الإنسان عن طريق القلم ـ فالقلم ـ كما يبدو ـ يقف كرمز للكتابة وبعبارة أخرى رمز للتفكير نفسه. وطبقاً للتراث الإسلامي فإن القلم يشير في الواقع إلى (العقل الأول) ـ أول خلق الإنسان.

وقد استشهد الطبري بحديث لرسول الله ﷺ[(٢)].

إن هذا الإحساس القرآني بالمجتمع الإسلامي الذي جعله ينشىءفناً جديداً، فن الكتابة العربية الإسلامية (الذي يعتبر أرفع وأسمى فن يوحي بالإحساس بوجود الله). وعندما تم ذلك، فقد حقق الفنان المسلم رباطاً حقيقياً، بين العقل والجمال والتنوع ـ فالشاعرية أصبحت الوسيلة السامية للتعبير الفني للحضارة الإسلامية ـ فطالب العلم المسلم يعبر عن ذلك بالكلمات الآتية :

« إن الكتابة العربية قد حولت وسيلة التعبير الممتازة للإدراك المتنوع ونعني الحروف الأبجدية أو الرموز المنطقية ـ إلى مادة فنية حسية، كوسيلة جمالية ومثيرة للغريزة الجمالية. وهذا هو نجاح الفن الإسلامي فقد تغلب على آخر مجالات الفكر المتنوعة لربطها وخلطها في عالم الجمال الحسي. إنه أعلى الانتصارات الفنية للإسلام ».

---

(١) سورة العلق الآيات ١ ـ ٥.

(٢) قال ابن جرير الطبري يوقفه على ابن عباس :

« إن أول شيء خلق ربي عز وجل ـ القلم ـ ثم قال له اكتب ؟ فكتب ما هو كائن إلى أن تقوم الساعة ». في حديث طويل. تفسير الطبري : ٢٩/٩ ـ ١٠ انظر ابن كثير.

وفي المراحل الأولى للكتابة فقد اكتسبت شخصيتها الوضع الديني الذي تميز بقوة سحرية ربطته بها الكتابة القديمة في الشرق الأدنى. وقد تفوقت الكتابة حتى على اللغة كرمز مقدس للإسلام. إن الكتابة العربية ـ أكثر من اللغة العربية نفسها ـ هي التي قدر لها أن تصبح شعاراً وقوة للعقيدة الإسلامية في الأمة كلها. وبمرور الوقت، بعد أن ارتقى وتطور تذوق الأمة الإسلامية للجمال الشفاف للكتابة العربية لدرجة أن الأجيال القادمة سوف تتباهى وتقول :

« إن قلمي يعمل المعجزات وشكل الكلمات بحق يتباهى بعظمته على المعنى. فكل منحنى في كلماته اعترفت به منحنيات السماء وإن قيمة كل حركة في خطي هي الأبدية بذاتها ».

الخلاصة

إن الفن الإسلامي ـ بلا شك ـ يعتبر الهدية الحقيقية التي قدمتها الحضارة الإسلامية للثقافة الإنسانية. وهذه الإضافة الإسلامية للحضارة العالمية يجب أن تأخذ مكانها الذي تستحقه كأحد الأعمال الفنية العظيمة للبشرية. ومع ذلك ـ ولسوء الحظ ـ فإن علماء الغرب غالباً ما فشلوا في فهمهم لرؤيته الفكرية وخياله التجريدي ومثالياته الدينية: « بالنسبة للإنسان وكل واحد يعتقد خاطئاً ـ ويتحيز ـ بأن الإسلام قد أعاق وحدد، وبذلك أفقر الاتجاهات الفنية الإسلامية، أكثر من أنه قد أعطى وأضاف أي شيء لفنون الشعوب الإسلامية على مر العصور ». وحتى جلالة وعظمة فن الكتابة الإسلامية لم تستطع أن تثير إعجاب الدارسين الأوروبيين المتحيزين الذين لم يروا شيئاً إلا التحيز الأسود أمام الاستخدام العظيم للكتابة القرآنية. وقد فجر الأستاذ الفاروقي هذا الإحساس بالتحيز المضلل الغربي في مقالة تفسيرية علمية. وهي تعتبر عملاً أكاديمياً على درجة عالية. ولا يقف الأستاذ الفاروقي وحيداً في حكمه فبعض المواقف الأخرى العادلة التي تدل على الفهم قد اعترفت أنه لا يوجد أي عمل غربي أكاديمي عن الفن الإسلامي يتفق مع أبسط المبادىء الخالية من التحيز.

وأكرر كلامي هنا وأقول إن الفن الإسلامي لم يدرس بدقة من وجهة نظر النظرية الجمالية الإسلامية، وشكراً لجهود بعض العلماء المسلمين

الموهوبين أمثال إسماعيل الفاروقي، وسيد حسين نصر، والقريشي. وان العمل الفكري المحبب الذي قام به الدكتور (تيتوس بركهاردت) قد جعل الفن الإسلامي معروفاً إلى جمهور المتعلمين. ومع ذلك يجب علينا أن نذكر فشل الحركة الاستشراقية الغربية لفهم أسرار تراثنا العظيم. وهذا يدل على فشلنا طالما أن المسئولية هي مسئوليتنا.

وإلى هنا نأتي إلى نهاية البحث فإن التراث الفني المصور للإسلام يحتاج لدراسة جدية وأبحاث يجب أن تدور كلها من وجهة النظر الإسلامية. وهذا يثير التحديات العظيمة للشباب المسلم. فيجب أن لا يكتشفوا فقط الرؤية الجمالية للأجيال السابقة المسلمة ولكن نفس الرؤية التي هي بالنسبة لي ترجمة عظيمة للوسيلة المرئية لوحدانية الله في الإسلام. فالتوحيد يجب أن تعاد كتابته بتعبيرات دقيقة فكرية مناسبة لعصرنا الحديث.

إنه بهذا العرض النظري والفكري للنظريات الإسلامية عن الجمال – على الأقل – فإننا نكون قد قدمنا الرؤية الفكرية للفن الإسلامي.

اقتراحات عملية :

هناك اقتراحات عملية بسيطة لقادة حركة الشباب المسلم لا أعتقد أنها تعتبر خارج الموضوع هنا. وهذه الاقتراحات هي :

١ – تدريس النظرية والتطبيق لكتابة الخط العربي لا بد أن تكون إجبارية في جميع المراحل الابتدائية والثانوية مع تأكيدها في كافة المستويات التعليمية – ليس فقط لاكتساب المهارة العملية في الكتابة الجميلة، ولكن للمغزى الثقافي والجمالي لفن الكتابة في الحضارة الإسلامية.

٢ – كل ما يطلق عليه أكاديميات الفنون في البلاد الإسلامية والذي يعتبر وجودها أمراً عادياً – يجب أن يعاد دراسة وتفسير مناهجها العلمية في ضوء التراث الفني الإسلامي. وبكل معنى للكلمة، فإن إنشاء الأكاديميات الإسلامية الصحيحة التي يتدرب فيها الشباب المسلم على التفكير والإبداع الجمالي بتعبير مسلم أصبح وجودها الآن أمراً ملحاً.

٣ ـ إن المعمار الإسلامي يجب أن يحاول في إنشاءاته تنفيذ أكثر الرموز الإسلامية وضوحاً. وإن البعثات العلمية للمعمار الحديث يجب أن تمنح للمعماريين المسلمين، ويجب أن يشجعوا للتطوير الجذري للتغييرات دون أن يحيدوا عن النماذج القديمة الثابتة والحضارة الحديثة بصواريخها وقواطعها الالكترونية وحاسباتها الآلية (الكمبيوتر) ممكن مسايرتها وتطويعها للخيال التجريدي الفكري الذي هو من إيحاء الفن الإسلامي، وعلى ذلك فالفن الإسلامي يجب أن يكون قادراً على استخدام التعبير الصحيح للتكنولوجيا الحديثة للحضارة. إن التقنيات الحديثة والمواد تحتاج بدرجة كبيرة إلى تنفيذ عملي وفكري في المعمار. وهنا أكرر مرة أخرى بأن الاتجاه الإسلامي يقف على خطوط متشابهة، فيجب على المعماريين المسلمين أن يرتقوا بالمعمار إلى هذا التحدي. والتجديد الحذر في المعمار يجب أن يشجع من هؤلاء المسئولين وإعطاء المنح العلمية له. ومما يؤسف عليه فإنهم فضلوا الآن الاتجاه التقليدي.

٤ ـ يجب أن يحافظ على المنشآت الإسلامية العظيمة في جميع أنحاء مدينة دار السلام، كما يجب الاهتمام بها. فإن الحالة المحزنة للمنشآت الإسلامية القديمة في مدينة القاهرة هو تحد آخر لنا جميعاً. يجب أن يبدأ دفع تمويل كاف لمثل هذه المشروعات النبيلة.

٥ ـ إن قرار سكرتارية المؤتمر الإسلامي لفتح معهد إسلامي للفنون والآثار في تركيا لهو خطوة في الاتجاه الصحيح، ومع ذلك فإنني أفضل أن يكون مقر هذا المعهد هو مدينة القاهرة التي، بهروبها من ضربات المغول، احتفظت بكل أساليب العمارة الإسلامية وبجانب ذلك، فيوجد بها عدد كبير من المنشآت لا يوجد مثيل لها في أي بلد إسلامي آخر، كما يوجد في هذه المدينة أغنى مجموعة من التحف الفنية الإسلامية في متحفها العظيم. وبعد إنشاء معهد مركزي واحد، فإنه يجب أن تفتح معاهد إقليمية أخرى، وهذه المعاهد يجب أن تموّل عن طريق الحكومات المحلية، كما يجب أن ترتبط جميعها بعضها ببعض.

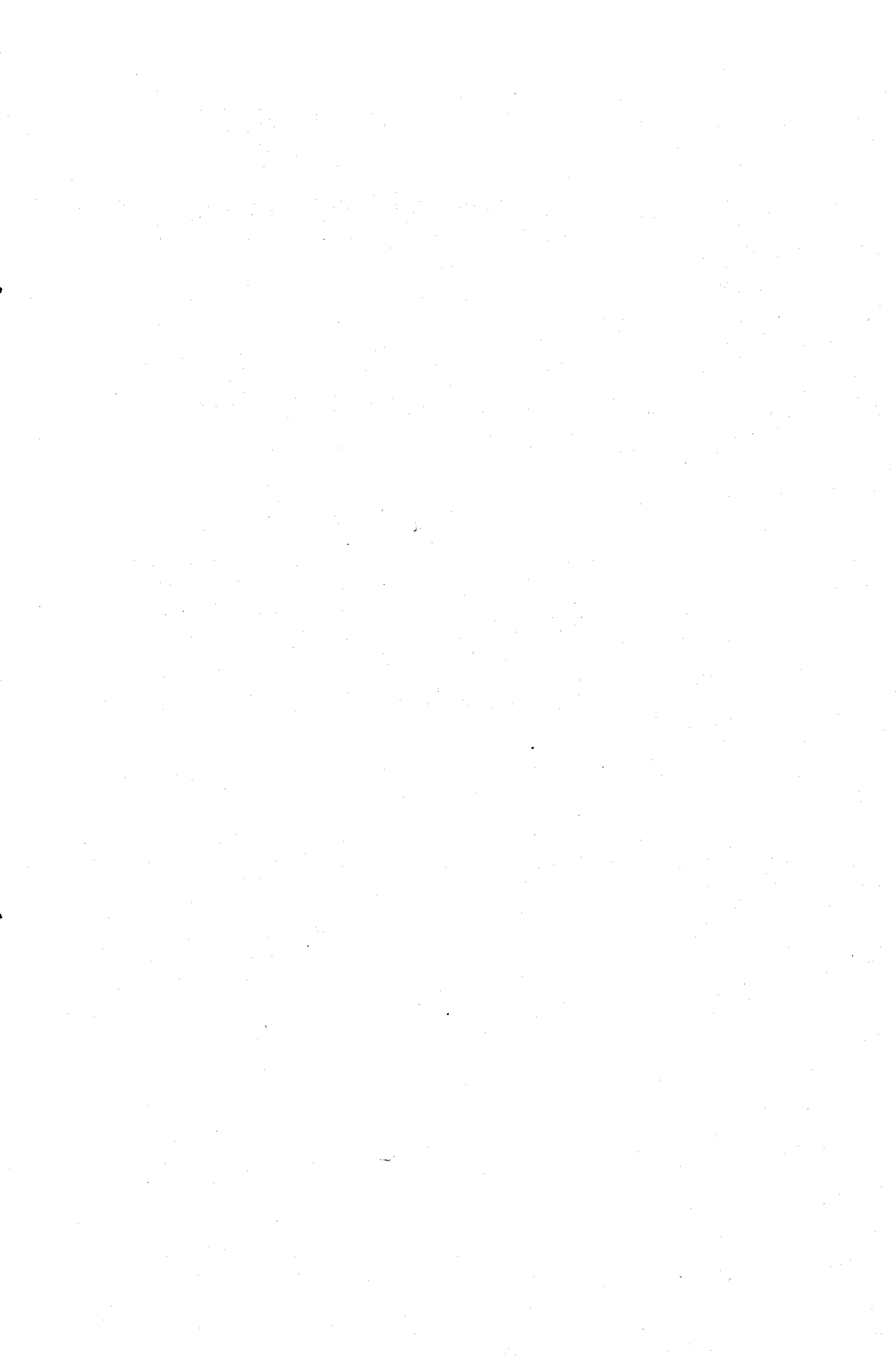
وسوف أنهي البحث هذا بتذكير الشباب المسلم، بأننا نتباهى بأننا

الوارثون لإحدى الكنوز الفنية النادرة للبشرية، وأن سبب جمال وعظمة فنونها هو العقيدة الإسلامية وإلى إخلاص أجدادنا، فالإسلام هو نظام كامل للعقيدة والتطبيق، وهو ثقافة كما هو حضارة، وببساطة وبخضوعنا لمشيئة الله، ولأننا مسلمون، فقد وهبنا أنفسنا أن ننشئ ثقافة إسلامية باسم الدين الإسلامي. فمهما كانت آمالنا الجمالية، فإننا يجب أن ندرك أنه لسبب كوننا مسلمين فقد أدركناها لأقصى درجة. والإسلام فقط ممكن أن يغرس فينا الروح التي تجددنا ثقافياً وجمالياً. فإذا نجحنا في إثبات ملكتنا الإبداعيـة لإعادة إبداع فن إسلامي عظيم وبشكل جديد، فإن أولادنا سوف يتباهون بنا، كما نحن نتباهى بأجدادنا. فالبذور موجودة، ولكن إلى أي مدى تكون التربة صالحة. كل ذلك متروك لنا أن نبنيه. وفوق كل شيء آخر، فإن كل نظرية إسلامية للجمال ممكن أن تتلخص في قول النبي عليه أفضل الصلاة والسلام :

« إن الله جميل يحب الجمال ».

فهل يوجد مسلم واحد لم يسمع بهذا الحديث ؟ هل يوجد بيننا إنسان واحد يستطيع أن ينكره ؟.

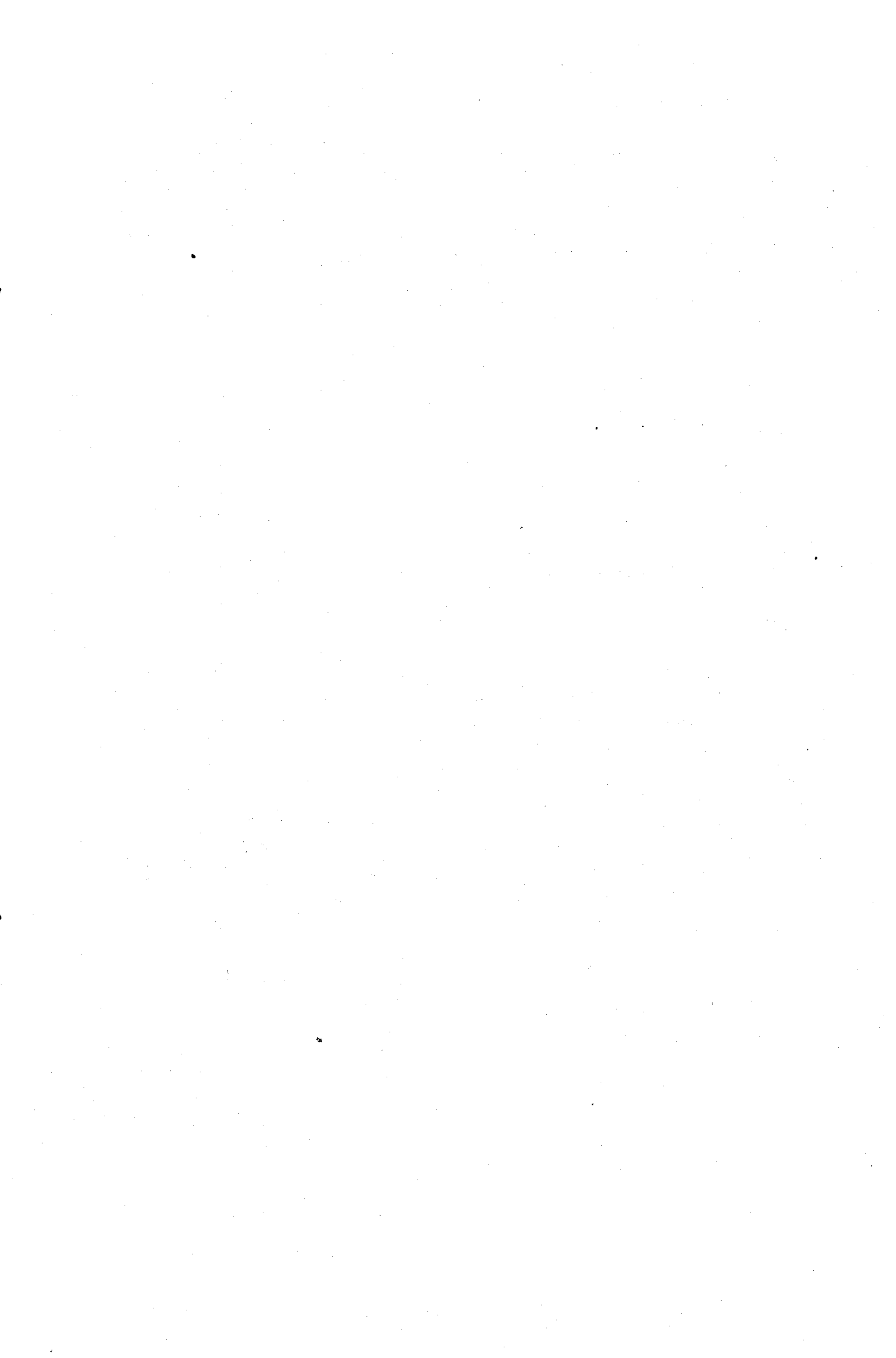
❊ ❊ ❊



تفسير الإسلام للتناقض الإنساني الظاهري

والحلول المقترحة لهذا التناقض

للاستاذ قيصر اديب مخول



بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ المشكلــــة :

إن كثيراً مما يسمى بالمأساة الإنسانية وقدراً كبيراً من الشرور الاجتماعية عبر تاريخ البشرية يمكن إرجاعه إلى فشل الإنسان في معرفة وجود وطبيعة التناقض الإنساني الظاهري بصورة حقيقية، وكذلك إلى فشله في إيجاد الحلول الصحيحة للمحن التي تتولد عنه. والحقيقة أن تحليل هذا التناقض الإنساني الظاهري من وجهة النظر الإسلامية البحتة من شأنه أن يفسر إلى حد كبير الأمور التالية : كيف ولماذا انحدرت الحضارة الإسلامية في الماضي من عظمتها السابقة، وعدم قدرة الكثير من المسلمين على مسايرة المشكلات التي برزت في العالم الحديث، والاضطراب الذي يقلق الكثير من المفكرين والشباب المسلمين. وباختصار، فإن المحن التي واجهت وما زالت تواجه الثقافة والحضارة الإسلامية وكذلك المفكرين والشباب المسلمين ما هي إلا واجهات للتناقض الإنساني الظاهري. إن معرفة التناقض الإنساني الظاهري والمحن التي يسببها من وجهة نظر المبادىء الإسلامية هي التي ستساعد المسلمين والبشرية على حل الكثير من مشاكلهم الفردية والاجتماعية. والمأساة في العالم الحديث هي أن الحلول لهذه المشكلات كانت دائماً ترتكز على مبادىء تعسفية أو تقليدية

إن لم تكن مبادئ خاوية. ومن ثم فإن هذه الحلول، بدلاً من أن تحل المشاكل فإنها تخلق مشاكل أخرى، بل إنها تزيد من اضطراب الإنسان في العصر الحديث.

ويهدف هذا البحث إلى عرض التفسير الإسلامي للتناقض الإنساني الظاهري، وكيف أن حل هذا التناقض في الماضي على أسس إسلامية قد ساعد على ازدهار الثقافة والحضارة الإسلامية، وكيف أن الفضل في معرفته وإيجاد الحل له على أساس من المبادئ والأفكار الإسلامية قد أدى إلى اضطراب المجتمع الإسلامي ومفكريه وشبابه، وكيف يمكن تناول طبيعة الحل الإسلامي من خلال إيراد الأمثلة المحددة.

٢ ـ طبيعة الإنسان والتناقض الإنساني الظاهري :

خلق الله الإنسان كمخلوق يتكون من الروح والجسد. وجسده كيان مادي ينتمي إلى عالم المادة، بينما تنتمي روحه إلى النظام الروحي الذي يقتبس، كما هو الحال، من الروح الإلهية. ومن ثم فإن الروح تنتمي إلى نظام أعلى من نظام الجسد الذي تعتمد عليه في حياتها وحركتها. والروح هي جوهر الإنسان، وجسده هو مجرد أداة تقوم بمهام معينة[١].

ولما كانت الروح تقتبس من الروح الإلهية فإنها قد وهبت قدرات وإمكانيات معينة مثل المعرفة والقوة (بمعنى السيطرة أو التحكم في الأشياء والأحداث)، كما أنها وهبت قدرات أخرى مثل الرحمة والصبر والصدق وما إلى ذلك. وينبغي أن نلاحظ أن كل هذه الصفات إنما هي من صفات الله، ولكنها بالنسبة لله صفات مطلقة غير محدودة. فهو سبحانه (العليم) و (القادر) و (الملك) و (مالك الملك) و (الرحيم) و (الصبور). ومن ثم فإنه من الصعب ألا نفترض أن القدرات المذكورة في الروح تشير إلى هذا العنصر من روح الله الذي وهبه لآدم. غير أن هذه القدرات الموجودة في

---

(١) انظر الملخص الممتاز عن فكرة الإسلام عن طبيعة الإنسان في البحث الذي أعده سيد محمد النجيب العطاس بعنوان « أفكار مبدئية عن طبيعة المعرفة وتعريف أهداف التعليم » وقدمه للمؤتمر الدولي للتعليم الإسلامي الذي عقد في الفترة من ٣١ مارس إلى ٨ أبريل ١٩٧٧ في مكة المكرمة ـ ص ٤ ـ ٩.

روح الإنسان لا يمكن في الحقيقة ظهورها إلا بشكل نسبي ومحدود.

ذلك أنه من الأهمية بمكان أن الروح لكي تظهر القدرات المغروسة فيها وتصل فيها إلى الكمال، فإنها تحتاج إلى الجسد وكذلك إلى العالم المادي. وهناك قدر كبير من المعرفة يبدأ بالحواس. كما أن صفات الرحمة والقوة والسيادة تظهر من خلال العلاقة مع الكائنات البشرية والمخلوقات الأخرى. كذلك فإن صفة الصبر تظهر غالباً من خلال الآلام الجسدية والأحوال الفسيولوجية وفقدان الأشياء والمحن والضغوط الاجتماعية... الخ[1].

إن لكل خلق الله هدفاً. وقد خلق الإنسان ليعبد الله ويطيعه. ولا شك أن من أفضل الوسائل لعبادة الله وطاعته هي تنمية تلك الصفات التي غرسها الله في الروح ولقد خلق الإنسان على الأرض كاختبار له. إن الله يختبره بما وهبه له. ومن ثم فإنه لما كانت الروح هي جوهر الإنسان، فإنها هي التي يجري عليها الاختبار. أما الجسد فإنه على الأكثر سيكون شاهداً على كيفية استخدامها له. ولهذا فإن على الروح أن تعتني عناية كبيرة بالجسد.

وفضلاً عن ذلك، فإنه لكي يمكنه تنمية قدرات الروح، فإن الله قد أباح له أن يأخذ من خيرات الأرض ومنحه القوة فيها. وهنا أيضاً فإن القوة هي إحدى صفات الروح ولهذا فإن الروح يجري اختبارها من خلال الطريقة التي تستخدم بها هذه القوة في معالجة خيرات الأرض وثرواتها. وفكرة القرآن هنا تتمثل في أن من يجتاز الاختبار بنجاح سوف يستحق الجنة.

إن إعطاء الأرض للإنسان لتكون خادمة وطيعة له هو ما يعنيه القول بأن الإنسان « خليفة » في الأرض. ويقول الله إنه سبحانه وتعالى قد اختار الإنسان ليكون خليفة في الأرض تفضيلاً له عما عداه. وعلى أية حال، فإن هذا الوضع وهذه المسئولية التي أعطيت للإنسان المقصود منها هو الاختبار.

---

(١) انظر الملخص الجيد عن التناول الفلسفي لعلاقة الروح بالجسد والطريقة التي يحتاج كل منهما إلى الآخر وعلاقتهما ببعضهما البعض الذي كتبه محمد أبو القاسم بعنوان : « أخلاقيات الغزالي – الأخلاقيات المتكاملة في الإسلام » ماليزيا – ١٩٧٥ ص ٤٣ – ٧١.

ولا شك أن كلمة « خليفة » تعني الشخص الذي أعطيت له القوة. ولكن ينبغي التأكيد على أن مثل هذه القوة هي قوة مفوضة فقط، ومن ثم فهي ليست قوة مطلقة. وبمعنى آخر فإن القوة المقصودة هنا هي القوة الممنوحة كوديعة (أو أمانة) ويتعين بالتالي ممارستها طبقاً لإرادة وشروط الذي منحها.

يقول الله في القرآن : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان، إنه كان ظلوماً جهولا »[1]. إن هذه الآية توضح بشكل مثير وواضح أن الإنسان قد أساء إلى الأمانة، أي أنه كخليفة قد تصرف بطريقة غير مسئولة وانتهى به الأمر إلى أن صار ظلوماً وجهولاً على الأرض. إنه في هذه الآية يتحدد بوضوح معنى التناقض الإنساني الظاهري. ذلك أن نفس القدرات والخيرات التي قصد بها اختبار الإنسان ومساعدته على التكامل، قد استخدمت لتكون العقبات التي تمنعه من التقدم على طريق التكامل. ويمكن توضيح التناقض الإنساني الظاهري أكثر من ذلك على النحو التالي : إن الله يمنح الروح قدرات للمعرفة والقوة (أو السيادة). كما أنه يعطي الإنسان الجسد وخيرات الأرض لمساعدة هذه القدرات على الظهور لتأخذ شكلاً محدداً من خلال العمل في الحياة المادية والعلاقات الاجتماعية. وأن الطريقة التي تظهر بها هذه القدرات والأسلوب الذي يستخدم به الجسد وخيرات الأرض إنما هي جميعاً اختبار للإنسان. غير أنه باستخدام هذه القدرات وتلك الخيرات تحولت معرفة الإنسان إلى جهالة وانحدرت قوته (أو سلطته) إلى ظلم. وهذه في الحقيقة هي مأساة الوضع الإنساني عبر التاريخ وفي العالم الحديث.

أسباب الإساءة للأمانة :

قبل أن نناقش الحل الإسلامي للتناقض الإنساني الظاهري، فإنه من الضروري أولاً معرفة أسباب إساءته للأمانة. والأفكار الرئيسية هنا لها علاقة بعنصر من عناصر طبيعة الإنسان وكذلك بوجود « ميثاق » له مع الله.

---

(١) سورة الأحزاب آية ٧٢.

ويقول الله في القرآن : « وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم، ألست بربكم، قالوا بلى، شهدنا، أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين »[1]. وتعني هذه الآية أنه من طبيعة الإنسان أو تكوينه العقلي القبول بأن الله هو ربه، وأن فهمه أو ذلك الجزء العاقل من روحه هو الذي يشهد بوحدانية الله. غير أن الإنسان بما ركب فيه من جسد فيه ضعف معين يظهر في شكل النسيان. وعصيان آدم يعتبر في المقام الأول نسياً للميثاق الذي ذكرناه آنفاً. يقول الله في القرآن : « ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً »[2]. وهنا نجد مرة أخرى شكلاً من أشكال التناقض : جانب يتذكر فيه الإنسان الميثاق وجانب آخر ينساه فيه ـ وكلا الجانبين ينتمي إلى طبيعته البشرية التي تشكله.

وهناك نظرة أخرى إلى نسيان آدم أو الإنسان قد تكون لها علاقة بما علمه الله أو غرسه فيه. وكما يقول القرآن : « وعلم آدم الأسماء كلها »[3]. ويقول بعض الفلاسفة المتصوفين المسلمين إن هذه الأسماء تشير إلى « الصفات » الإلهية أو ما يعرف « بالأسماء الحسنى ». ومن وجهة النظر المنطقية فإن نسيان الإنسان لميثاقه مع الله يعادل نسيانه لبعض الصفات الإلهية التي يتصف بها الله كرب له، ذلك أن نسيان الله كرب هو في الحقيقة نسيان أنه هو مصدر القوة والمعرفة ـ وهما صفتان من الصفات الإلهية. إن نسيان الله كمصدر للقوة أو « مالك الملك » هو الذي أدى بآدم إلى الوقوع في الغواية. وهذه الغواية التي أدت بآدم إلى العصيان، ويصفها القرآن بإيجاز على النحو التالي : « فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى[4] ». وهذه الآية هي التي تكشف النزعتين اللتين أدتا بالإنسان إلى الشرور والآلام على هذه الأرض عبر مراحل التاريخ وهما : الرغبة في القوة المطلقة، والاعتقاد بأنه يستطيع أن

---

(١) سورة الأعراف آية ١٧٢.

(٢) سورة طه آية ١١٥.

(٣) سورة البقرة آية ٣١.

(٤) سورة طه آية ١٢٠.

يعيش إلى الأبد فوق هذه الأرض. ومعنى هذا الاعتقاد هو أن القوة التي تمارس على الأرض تعتبر قوة غير مسئولة على الإطلاق إذا لم يكن هناك أحد يحاسب الإنسان على كيفية ممارستها بالثواب أو العقاب. وينبغي أن نذكر هنا أنه يمكن اعتبار المعرفة نوعاً من أنواع القوة حيث أنه بالمعرفة يستطيع الإنسان أن يسيطر على غيره وعلى الموارد المادية من أجل الخير أو من أجل الشر.

ونؤكد مرة أخرى أن سوء استعمال القوة يؤدي بالإنسان إلى أن يكون ظالماً غير عادل، كما أن نقص المعرفة أو سوء استعمالها يؤدي به إلى أن يكون في نهاية الأمر جاهلاً. وفي كلتا الحالتين ينسى الإنسان أن الله هو مصدر القوة (أو السيادة) كما أنه هو مصدر المعرفة، إنه يفشل في إدراك أن القوة والمعرفة هما صفتان من صفات الروح ويتعين أن يحافظ عليهما كأمانة، أي أن يستعملها لتنفيذ أوامر الله التي ترتبط بالهدف من وجوده على الأرض وبمصيره النهائي فيها. فيبين الله أن من ينسى الله فإن الله ينساه. ويحذر الإنسان بقوله: « ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم، أولئك هم الفاسقون »[1]. ومن الواضح أنه عندما ينسى الإنسان نفسه، فإنه ينسى الهدف من خلق هذه النفس وهذا الجسد أيضاً ـ إنه في الحقيقة ينسى طبيعته وهدف وجوده على الأرض. وإذا نسي طبيعته فإنه ينسى ميثاقه مع الله ـ ذلك الميثاق الذي يؤكد على أن طبيعة الإنسان ذاتها تقبل الله رباً. إن مثل هذا النسيان من شأنه أن يؤدي بالإنسان إلى أن يرتكب الظلم في حق نفسه. وغني عن القول أن الإسلام يؤكد على أن الإنسان الذي يرتكب الظلم في حق غيره إنما هو في الحقيقة يرتكب الظلم في حق نفسه لأنه بهذا يخالف طبيعة نفسه ذاتها.

---

(١) سورة الحشر آية ١٩.

٤ ـ دلالتان على فشل البشرية في النظر إلى قدرة المعرفة ومضامينها على أنها أمانة من الله :

أ ـ فكرة أن الإنسان يستطيع بالجهد العقلي وحده أن يصل إلى الحـــق :

إن هذه الفكرة تنكر أن الله خلق الروح ووهبها القدرة على المعرفة وأن لهذه القدرة هدفاً معيناً في نطاق هداية الله. إنها إنكار للوحي الإلهي على أنه مصدر المعرفة والحق. وهي تعني أن قدرة الإنسان على المعرفة يمكنها أن تكون بديلاً لوحي الله أو حتى تجعله غير ضروري. كما أنها تعكس كبرياء قارون عندما زعم أن ما يملكه إنما هو نتيجة لمعرفته وحدها وليس للقدرة الإلهية دخل فيها. وهذا الإنكار موجود أيضاً فيما يعتقده بعض المفكرين من أن مذاهب أو نظم الفكر التي وضعها الإنسان في المجالات الاجتماعية تستطيع وحدها وبنفسها أن توجد الحياة الطيبة والسعادة على الأرض. ويمثل هذا الإنكار ليس فقط ما يسمى بخطيئة الكبرياء ولكنه يعتبر أيضاً نوعاً من الشرك من حيث أنه يضع الأنظمة التي وضعها الإنسان على نفس مستوى الأنظمة التي وضعها الله. وبهذه المثابة فإنه يعتبر من أكبر الكبائر في الإسلام. وفضلاً عن ذلك فإن خطيئة الكبرياء تعتبر نسياناً لحقيقة أن الله وحده هو « المتكبر ».

وهناك نتيجة أخرى لهذا الإنكار السالف الذكر، وتتمثل في هذا النوع من العلمانية المنتشرة الآن في العالم الحديث. وهنا ينظر الإنسان في بحثه عن المعرفة ومضامينها على أنها بعيدة تماماً عن الأهداف والحوافز الدينية. ومن ثم فإن نضاله وجهده يفقدان معناهما بالنسبة لطبيعته الحقيقية ويصبح هذا النضال والجهد بلا هدف لأنهما يتجهان نحو غاية قصيرة الأمد. وبمواجهتها للعديد من أنظمة الفكر والفلسفات المختلفة وأنظمة القيم المتصارعة، فإن الإنسان في العصر الحديث يصير مضطرباً إن لم يكن متعسفاً في أحكامه وأعماله. وبتأرجحه كالبندول بين نظام أخلاقي فردي ونظام يغرقه فيه المجتمع إغراقاً تاماً وبمحاولته أحيانـاً البحث عن وسيلة بين هذه الأنظمة المتعارضة فإن الأمر ينتهي به إلى أن يكبت في نفسه قرار

الاختيار النهائي وبهذا يرتكب مرة أخرى خطيئة الكبرياء والشرك.

ومن الجدير بالملاحظة أن بعض فلاسفة المسلمين في الماضي قد تطرفوا في تأكيد قدرة العقل على الوصول إلى الحق. وأحد هؤلاء على سبيل المثال هو أبو بكر محمد بن زكريا الرازي (المتوفى عام ٩٢٥ أو ٩٣٢) الذي كان يرى أن النبوة (وبالتالي الوحي) لم تكن ضرورة لازمة حيث أن العقل كاف للوصول إلى معرفة الله والروح وغيرها من الأشياء.[١] ولقد كان من بين الأسباب التي دفعت أبا حامد محمد الغزالي (١٠٥٨ - ١١١١ م) إلى الدخول في جدل طويل مع غيره من الفلاسفة المسلمين هو زعمهم بكفاية العقل للوصول إلى أنواع معينة من الحقائق. وباستعماله الأسلوب المنطقي وكذلك الأفكار الفلسفية التي كان يستعملها الفلاسفة الآخرون، استطاع الغزالي أن يبرهن بشكل فعال ليس فقط على أن هناك حدوداً للفلسفة بل أيضاً على أن الكثير من الأشياء التي كانوا يريدون إثباتها لا يمكن معرفتها إلّا بالوحي. وبهذا استطاع أن يكشف بعض التضارب في أقوال الفلاسفة وأن يدفعهم إلى أن يكونوا أكثر تواضعاً فيما يتعلق بالحديث عن العقل.

إن تأثر بعض المفكرين المسلمين بالمنطق الإغريقي ونتائجه قد أدى بهم، ليس إلى حد إنكار الوحي ولكن إلى فصل حقائقه عن جهودهم الذهنية، وبهذا فقد حجبوا عن هذه الجهود المصادر الكبرى للإلهام التي أدت بأسلافهم إلى توسيع نطاق معارفهم على أساس من الدعاء القرآني: « وقل رب زدني علماً »[٢]. على أن ما نرمي إليه هنا على وجه الخصوص هو أن الإيمان بالإسلام في قرونه الأولى هو الذي دفع بمعتنقيه إلى العمل على نشر الرسالة. وبإيمانهم وعملهم على نشر الرسالة كانوا يريدون أن يزدادوا معرفة بها. وقد أدى بهم ذلك إلى دراسة وتطوير العلوم وغيرها من مجالات الدراسة كأشكال لما يصفه الوحي الإلهي. ومن ثم فإن ما دفعهم إلى أن

---

(١) ماجد فخري - تاريخ الفلسفة الإسلامية - مطبعة جامعة كولومبيا (نيويورك ولندن - ١٩٧٠) ص ١٢٤.

(٢) سورة طـه آية ١١٤.

يصبحوا علماء هو الحافز الديني. وبهبوط هذا الحافز الديني أو على الأقل عندما نحّوه جانباً في جهودهم الفكرية، بادعاءاتهم بقدرات العقل دون مساعدة، بدأوا يفقدون القوة الدافعة. وأكثر من ذلك، فإنهم بفصلهم الحقائق التي يكتشفها العقل عن تلك التي جاء بها الوحي كانوا يفتحون الأبواب ببطء ودون إدراك أمام النظرة العلمانية تجاه العالم المادي. وقد تفسر كل هذه الأسباب جزئياً كيف أن المسلمين بصفة عامة قد تركوا مشعل المعرفة ينتقل من أيديهم إلى أيدي غيرهم.

ولقد شهد العالم الحديث بحقيقة أمر الاكتشافات السريعة والخطى الواسعة في مجال العلوم والتكنولوجيا، في الوقت الذي تهدف فيه إلى ما تعتقد أنه يحقق تقدم الإنسان وسعادته في الحياة، قد جلبت الألم للإنسان في الكثير من الأحيان وصارت في الوقت.نفسه تشكل تهديداً لحياته ذاتها.

وهذا مثل محدد على التناقض الظاهري. والمحنة التي يواجهها بسبب هذا التناقض هي ماذا يمكن أن يفعل حيالها. وباختصار، فإنه يعتقد أنه إذا أوقف هذه السرعة وهذه الاكتشافات، فإن ذلك سيؤدي به إلى الركود، في حين أنه إذا استمر فيها فإنه سيعرض وجوده للخطر.

وتتمثل محنة المسلم في العالم الحديث في الوضع التالي : **أولاً** : إنه يرى التقدم الكبير في مجال العلوم والتكنولوجيا بالدول الغربية وكيف أنه أعطاها القوة للسيطرة والتحكم في الدول الإسلامية. **ثانياً** : إنه يرى كيف أن الدول الإسلامية، في الوقت الذي تتمسك فيه بالحوافز الدينية في المجتمع، فإنها تجد نفسها متأخرة عن ركب هذا التقدم. إن المسلم يرغب في أن تمتلك الدول الإسلامية مثل هذه القوة ولكنه ينتقد القيم المرتبطة بها على أنها مخالفة للروح الإسلامية. وفي نفس الوقت فإنه يدرك دائماً أنه جاء وقت كان فيه أعظم العلماء والأطباء والمفكرين والقضاة من المسلمين، وأن قدراً كبيراً من معلومات العلوم الحديثة قد أسهم فيها أو أوحى بها فكر ومؤلفات العلماء والمفكرين المسلمين.

ب ـ فكرة أنه لا يمكن تحقيق المعرفة سواء بجهود الإنسان أو بمساعدة الله :

وتمثل هذه الفكرة الثانية موقف التشكك التام وهي على العكس تماماً من الفكرة الأولى. فهي تنكر منذ البداية الوحي وكذلك قدرة الروح على المعرفة. كما أنها تعني عدم وجوب الشكر للخالق الشكور. ويظهر هنا أيضاً نسيان الإنسان. فقد وهب الله روح الإنسان القدرة على الشكر من خلال الروح التي نفثها فيه. ومن ثم فإن عدم الشكر يعتبر منافياً لطبيعة الإنسان وميثاقه.

وبشرط أن يكون مقيداً بحدود معينة، فإن أسلوب التشكك يمكن أن يكون مفيداً كأسلوب علمي فقط. ولكنه إذا صار غاية في حد ذاته فإن نتائجه تصبح مدمرة، ومن شأنه أن يؤدي على وجه الخصوص إما إلى الكفر أو إلى الإلحاد. إن الروح العملية التي يخلقها يمكن أن تولد السخرية والأنانية وفقدان الضمير الاجتماعي في الأعمال اليومية.

٥ ـ دلالتان على فشل النظرة إلى القوة واستخدامها كأمانة :

أ ـ فكرة أن القوة يمكن ممارستها بشكل مطلق وأن من يملكها ليس محاسباً عليها أمام أي أحد :

تنكر هذه الفكرة أن القوة مستمدة في النهاية من الله وأنه يجب ممارستها بأقصى درجة من الإحساس بالمسئولية أمام الله الذي سيحاسب عليها. وتتمثل في نسيان أن الله وحده هو الذي « لا يُسْأَلُ عما يفعل وهم يُسْأَلون ».

وكما ذكرنا من قبل فإن غواية آدم كانت ترتكز على وعد الشيطان له بالقوة التي لا تضمحل وبالملك الذي لا يبلى، أي بالقوة المطلقة. وتأخذ القوة أشكالاً متعددة، منها المادية والفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية.. الخ. وتظهر هذه القوة في أغلب الأحيان في قدرة الفرد على التأثير أو السيطرة على أفعال شخص آخر مثل دفعه إلى عمل شيء ما. ومن ثم فإن امتلاك القوة يعد أمراً مروعاً، ويظهر سوء استعمالها بالتمييز على

الآخرين أو استغلالهم باحتكار الثروات الطبيعية واستبعاد الآخرين الذين هم أيضاً في حاجة للمشاركة في خيراتها لتنمية أنفسهم، بإزهاق الأرواح بلا عدل أو ضرورة، وبإلحاق الأذى بالآخرين أو حتى بالنفس. ويظهر سوء استخدام القوة في المجال السياسي في شكل حكومات طاغية وظالمة ومفروضة على الشعب. وكمثال على ذلك كانت هناك حكومة فرعون المذكورة في القرآن. وفي المجال الاقتصادي يظهر سوء استعمال القوة في شكل الاستغلال الإنساني والاحتكارات الضارة. ولا شك أن الإسلام يعارض احتكار الثروة. وفي المجال الفكري يظهر سوء استعمال القوة في التطبيق التعسفي للأفكار والتعاليم والمبادئ كما يظهر أيضاً في حجب المعارف المهمة والنافعة عن الآخرين بشكل متعمد وأناني، واستعمال القوة لأغراض ذاتية وشخصية محضة ضد مصلحة المجتمع. وفي أغلب الأحيان يمنع بعض الرجال المسلمين زوجاتهم من التعليم الذي يبين لهن حقوقهن في الإسلام وذلك من أجل إحكام السيطرة وممارسة القوة عليهن، وهم بهذا العمل إنما يضعون الأمة في حقيقة الأمر.

ب ـ فكرة أن ثروة الشخص وقوته ترجع إلى جهوده فقط وأن دور الله فيها غير ذي موضوع :

وتوجد هذه الفكرة فيما حكاه القرآن في سورة الكهف حيث يفخر صاحب الجنتين بثروته وقوته ناسياً أن الله هو القادر وهو المغني. ويظن صاحب الحديقة أنه غني عن الله، في حين أن الله هو الغني وحده. لقد ظل صاحب الجنتين يزهو بفخره ظناً منه بأنه ليس هناك أحد يحاسبه على ثرواته. لقد سقط هو الآخر، مثل آدم، في حبائل الغواية عندما قال عن ثروته وقوته « ما أظن أن تبيد هذه أبداً »، لقد نسي حقاً أن الدنيا فانية وأن الله وحده هو الباقي، وعندما أصابته الكارثة ندم قائلاً : « يا ليتني لم أشرك بربي أحداً »[1]. ومن الواضح أن صاحب الحديقة قد ارتكب خطيئة الشرك. ذلك أنه برفضه رد قوته وثروته إلى الله، وبزعمه أنه استطاع أن يحقق هذه الثروة بدون

---

(١) سورة الكهف آية ٤٢.

الله، قد جعل من نفسه في نهاية الأمر إلهاً. ومن ثم فقد جعل لله شريكاً، وهو بهذا العمل ارتكب ظلماً في حق نفسه، وهو ما يماثل الإقرار بنسيان الميثاق أو التعدي عليه. ومن ثم فقد عمل ضد طبيعته الحقيقية وضد مصيره.

ولا يصعب أن نستنتج من دراسة تاريخ الأوضاع السياسية للخلافة والسلطنة في الامبراطورية الإسلامية أن بعض أسباب اضمحلالها إنما يرجع إلى انحرافها عن مبدأ : أن كل القوة السياسية والاقتصادية إنما هي أمانة مودعة في أيدي أصحاب هذه القوة. وكم كانت هناك أسر حاكمة تعتقد بأن مصائر الإسلام وكذلك مصائر ومصالح الأمة إنما تتفق وتتماثل مع مصائرها ومصالحها الضيقة. ومن ثم صارت مصالح المجتمع تتشكل طبقاً لمصالح الطبقات الحاكمة. ولقد كانت الحروب بين الأسر الحاكمة في أغلب الأحيان صراعات من أجل السيطرة على هذه المصالح بصرف النظر عن رفاهية ورخاء الأمة. وكانت المعارك بين الحكام وأقاربهم وبين الحكام وعمالهم وبين القبائل العربية وقبائل البربر في أسبانيا الإسلامية.. الخ ؛ إنما هي مجرد نزاعات من أجل السلطة الشخصية أو الأسرية. ومن ثم كان ضياع أسبانيا الإسلامية أمراً حتمياً في القرن الخامس عشر الميلادي. كذلك كانت أغلب الحروب بين مختلف الأسر الإسلامية الحاكمة في الهند وإيران والأراضي العربية وكذلك بين الأتراك العثمانيين بقيادة بايزيد والتتار بقيادة تيمورلنك في حوالي عام ١٤٠٠م ـ كانت كل هذه الحروب لا علاقة لها بالإسلام ولكنها كانت في الحقيقة ترتبط بالمصالح الاستعمارية أو القبلية أو العرقية. وبهذا تمت تجزئة الأمة الإسلامية. إن القوة في هذه الحروب لم تستخدم كأمانة لتحسين أوضاع الأمة أو حمايتها، ولكنها استخدمت من أجل المصالح الاستعمارية أو الأسرية، ولا عجب فقد كان الكثير من الخلفاء والسلاطين من الطغاة. وكانت النتيجة أن ضعف تأييد أتباعهم لهم وقلة انقياد المحكومين لهم. ولقد اختلط الأمر بالنسبة للمسلم العادي الذي كان لا يعرف ما إذا كان يحارب من أجل الإسلام أم من أجل مسلمين بعينهم. وهناك بالتأكيد فرق كبير بين الاثنين. وينبغي ألا ندع أمجاد الإسلام في الماضي تجعل الدارسين المسلمين يغفلون هذا الفرق.

وعلى أية حال فإن كل ذلك لا يعني إنكار وجود قادة مسلمين أتقياء مستنيرين، كانوا حماة للعلوم والفنون في الوقت الذي كانوا فيه قادة عسكريين عظماء حموا حدود دار الإسلام وحافظوا على وحدتها.

وفضلاً عن ذلك، فإن زيادة الفقر بين الجماهير الإسلامية ـ نتيجة ضعف البنيان السياسي للامبراطوريات أو الممالك الإسلامية، والضرائب الباهظة المفروضة عليها لتمويل الحروب والمشروعات الباذخة للحكام ـ أدى إلى إضعاف فريضة الزكاة التي من المفروض أن تجبى من أجل الأغراض الإسلامية المحضة. ومن ثم فإن القوة الاقتصادية للمجتمع لم تعد أمانة من أجل مصلحة المجتمع. والواقع أنه لا يمكن القول بأنه لم يكن هناك استغلال في المجتمع الإسلامي، ليس فقط بين الحاكم والمحكوم، وإنما أيضاً بين الفقير والغني من المحكومين.

ويرجع الكثير من المسلمين في العالم الحديث القوة الاقتصادية التي تتمتع بها القوى الغربية المتقدمة إلى المذاهب والبنيان الاجتماعي للمجتمعات التي تملكها هذه القوى. وهم يريدون من الآن أن يعتنقوا ويستوعبوا ويطبقوا مثل هذه المذاهب وهذا البنيان. غير أن قيمهم الإسلامية التقليدية تبين أن مثل هذه المذاهب هي في جوهرها مادية وأن مثل هذا البنيان يمكن أن يقوم فقط بين أناس لهم قيم وتجارب تاريخية مختلفة. وبهذا تظهر المحنة مرة أخرى.

وفي التحليل النهائي، فإن العلمانية والمادية هما النتيجتان المباشرتان للتخلي عن مبدأ كون المعرفة والقوة هي قدرات تتمتع بها الروح المخلوقة ويتعين أن تكون أمانة عندها. وتعني هذه الفكرة أن الروح محاسبة أمام الله فيما يتعلق بتنمية هذه القدرات واستخدامها وتطبيقها في المجتمع والعالم المادي. إن سوء استخدام هذه القدرات ينبع من إنكار مبدأ الأمانة وكذلك مبدأ أن الله هو مصدر كل المعرفة والقوة وأنه بدونه لا يمكن تحقيق أي شيء. وتكمن مأساة أكثرية العالم الحديث في أن إنكار هذه المبادئ قد أدى بالإنسان إلى أن يصبح « ظلوماً جهولاً » بالنسبة لنفسه وبالنسبة لغيره على السواء.

٦ ـ الحل الإسلامي لنسيان الإنسان واستعادة فكرة الأمانة :

إن الإسلام كنظام شامل ومتكامل تكمن في داخله كافة العناصر الكفيلة بحل هذا التناقض الإنساني الظاهري وكذلك حل المشاكل الناتجة عنه. والفكرة الأساسية للحل الإسلامي تتمثل في « الذكر » أو التذكر.

يقول الله في القرآن : « فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون »[1]. ان كلمة « ذكر » هنا غنية بالمعاني والإيحاءات. وعلى الرغم مما تحمله من إيحاءات متعددة إلا أنها ترتبط جميعاً ارتباطاً وثيقاً بخيط واحد.

ففي مجال المعرفة، فإن ذكر الله أمر ضروري لأنه علم الإنسان ما لم يعلم. ويتصل بذلك أن أهل العلم هم وحدهم الذين يذكرون الله ويعرفون أن هناك غاية مقدسة من الخلق. ويتضمن الذكر معرفة أن الله هو الخالق وأنه لا يمكن تحقيق شيء بدونه. كما أنه يعني إدراك معنى المسئولية والحساب، ذلك أن من يذكر لا ينسى يوم الحساب. ويتضمن الذكر إرجاع الفضل لله على نعمه وهوايته وتوجيهه وإلهامه. كما يعني الذكر عبادة الله والصلاة له. ويأمر الله الإنسان أن يذكر الميثاق الذي بينه كعبد وبين الله كرب. وبيَّن الله أن الإنسان سيحاسب يوم القيامة عن الجانب المتعلق به في الميثاق، ولا عجب أن يصف بعض الفلاسفة المسلمين المتصوفين الميثاق بأنه « الذكر الأول ».

وكما يعلم السيد عبيده ويوفر لهم السبل التي يطيعونه بها بشكل أفضل، فإن الله كرب قد وهب الإنسان قدرات وطاقات معينة. ولما كان الله قد غرس في آدم شيئاً من روحه، فقد أصبح من واجب الإنسان أن ينمي هذه القدرات ليعبد الله بأفضل السبل الممكنة. ومن ثم فإن أداء هذا الواجب يصبح معادلاً من الناحية المنطقية لأداء ميثاقه، ولكن الشيطان هو الذي يسبب نسيان الله وكانت غوايته هي التي أدت بآدم إلى أن ينسى الميثاق وبالتالي الواجب المفروض عليه وهو تنمية قدراته الروحية لتعبد الله حق عبادته. ومن ثم انحرفت هذه الطاقات في اتجاه غايات أخرى.

---

(١) سورة البقرة آية ١٥٢.

ولكن الله برحمته الواسعة غفر لآدم وأعطاه كلمات الوحي ووعده بالهداية. وقد ظهرت هذه الهداية عبر تاريخ البشرية في شكل الوحي الذي يعتبر في حقيقة الأمر تذكيراً. فالقرآن تذكير للإنسان حتى لا ينسى الإنسان الميثاق والواجبات المنبثقة عنه « فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكراً »[1]. كما أن النبي محمداً ﷺ قد أرسله الله إلى البشرية للذكر والتذكير وشرح الوحي الذي أوحى إليه.

والقرآن كذكر يعلم البشر كيف يمتنعون عن إساءة استعمال قوى الروح التي ينتج عنها الكثير من المحن الإنسانية.

وفيما يتعلق بمشكلة المعرفة، فإن أول مبدأ ينبغي **تقريره هو أن الله** هو العليم وأنه هو مصدر كل المعرفة، وأن كل المعارف الحقيقية في الروح لا يمكن الحصول عليها دون مساعدة الله. **والمبدأ الثاني هو أن** قدرة الروح على المعرفة تأتي من الله ومن ثم فإنها يجب أن تسير على هديه ــ وهي عبادته وطاعته. **والمبدأ الثالث هو أنه** يجب تنمية قدرة الروح على المعرفة، وأن تنمية هذه القدرة وامتلاك مضامين المعرفة يجب أن يكون بمثابة أمانة. وهذا يعني أنه ينبغي استخدام هذه المعرفة في الخير فقط، وليس في الشر وبهداية من وحي الله. **والمبدأ الرابع هو أنه** في حين أن تنمية هذه المعرفة تؤدي إلى التكامل الفردي فإنها يجب ألا تستخدم لأغراض أنانية ولكن لتحسين أحوال الأمة التي خلقها الله أيضاً لتكون شاهدة على ممارسة الأمانة على الأرض. كما ينبغي على الإنسان أن يدعو الله كي يساعده على زيادة معارفه كما يقول القرآن « وقل رب زدني علماً »[2]، ويبارك له في أعماله الفكرية ويزداد إلهامه وقوته فيها. كذلك فإن الصلاة وسيلة من وسائل الحفاظ على الذكر.

وعلى وجه الدقة، فإنه يتعين على الدارسين المسلمين أن ينظروا إلى العبادات ليس بمعناها المحدود ولكن بمعناها الشامل المقصود من ورائها.

---

(١) سورة الطلاق آية ١٠.

(٢) سورة طـه آية ١١٤.

وينبغي أن يكون موقفهم من العلوم وغيرها من الأنظمة مصحوباً بالخشية الدينية. ويجب أن تكون نظرتهم إلى العلوم الطبيعية (من جوانبها المادية والبيولوجية) على أنها محاولات لمعرفة المزيد من كيفية ظهور الصفات الإلهية في الإنسان وفي الطبيعة. وبهذا فإنهم سينظرون إلى الأحداث الطبيعية على أنها علامات وإيحاءات من الله، كما تقررها العديد من الآيات القرآنية.

والحقيقة أن هذه العلامات تساعد على التذكير بأن الله هو رب العباد.

كذلك يجب على الدارسين أن ينظروا إلى العلوم الاجتماعية ليس فقط على أنها وصف للحياة الاجتماعية بأبعادها المختلفة ولكن أيضاً على أنها معلومات لدراسة واكتشاف كيف أن المبادىء والقيم الإسلامية يمكن تطبيقها عليهم من أجل تحسين أوضاع الحياة الإنسانية. وفي العلوم الإنسانية أيضاً فإن على الدارس المسلم أن يبذل جهده لزيادة قدراته الخلاقة مستوحياً الصفة الإلهية « المصور » كي يجعل الحياة أكثر جمالاً واتساعاً، ذلك أن الله قد أودع في روح الإنسان القدرة على إبداع وتشكيل الأشياء الجميلة كما يشهد بذلك الفن والمعمار والنقش الإسلامي. وبهذه المواقف كلها فإن العبادات تعني من بين أشياء أخرى واجب الروح في تنمية قدراتها على أسس فكرية تتميز بطاعة الله. وبهذا تختفي النظرة العلمانية والمادية من عقل العالم أو الدارس. ولذلك فإن من واجب العالم المسلم حينئذ ألا يخاف من المعلومات والاكتشافات الجديدة في مجالات العلوم المختلفة، وذلك أن استعمالها سيكون أمراً ثانوياً بالنسبة للمواقف آنفة الذكر.

كذلك يجب المشاركة في المعرفة. ذلك أن ليس هناك أحد ـ في الحقيقة ـ يملك وحده معارفه. إن الله وحده هو العليم وهو مصدر المعرفة.

ومن ثم فإن كل المعرفة تعتبر وديعة أو أمانة يجب المشاركة فيها. وبهذا فإن المعرفة لن تستخدم من جانب بعض الأشخاص للتميز على الآخرين. إن امتلاك المعرفة مع إدراك أنها أمانة من شأنه أن يجنب من يمتلكها من تنمية خطايا الكبرياء والشرك التي تنتهي به إلى أن يكون « جهولاً » بل إنها بالأحرى تغرس فيه فضائل الإسلام المتصلة بالوحدة الفكرية والتواضع والرغبة

في توسيع نطاق المعرفة من أجل التكامل الفردي ومن أجل منفعة الأمة الإسلامية بصفة خاصة والإنسانية بصفة عامة.

وفيما يتعلق بقدرات القوة والسياسة فإن ذكر الله ضروري أيضاً لنفس الأسباب التي ذكرناها عند حديثنا عن قدرة المعرفة. والقرآن وهو الذكر، يذكر الإنسان دائماً بأن الله هو « مالك الملك » وهو القوي القادر على كل شيء، والمالك لكل شيء والغني عن كل مخلوقاته. وليس الإنسان سوى خليفة على الأرض. وقد أعطاه الله القوة والسيادة عليها ليعبده ويؤدي الواجبات الأخرى المنوطة به. وكل ذلك يعني أن قدرات الروح مثل القوة والسيادة ما هي إلا وديعة أو أمانة، ومن ثم فإن الروح ستحاسب أمام الله على كل أعمالها. وينبغي لهذا أن يكون امتلاك كل أشكال القوة واستعمالها من أجل الخير وليس من أجل الشر وذلك طبقاً للتوجيهات والأوامر الإلهية. وينبغي توجيه القوة إلى التكامل الشخصي والمصلحة الاجتماعية وليس إلى المنفعة الذاتية أو النزوات الشخصية كذلك فإنه ينبغي أن تكون كل أشكال السيادة كمظهر من مظاهر ممارسة القوة قائمة على أساس الاستحقاق والكفاءة، وليس على مجرد العلاقات الأسرية، حيث أنه وإن كان من سلالة بعض الأنبياء مثل إبراهيم الذي أعطاه الله السيادة فإن منهم من أثبت أنه مخطئ في عمله.

والثروة كلها في الإسلام هي ملك لله الذي يعطيها للإنسان. ومن ثم فإن كل ما يسمى بحقوق الإنسان في الملكية لا يمكن أن تكون حقوقاً مطلقة له ولكن لا بد أن تكون خاضعة لأوامر الله. وبهذا المعنى فإن كل الملكية أمانة لدى الإنسان. ويقف الإسلام ضد كل أشكال الاستغلال واحتكار الثروة أو خيرات الأرض لمصلحة البعض وليس لمصلحة المجموع. والأسباب هنا واضحة وهي أن الاستغلال يحط بالكرامة الفطرية للفرد، كما يجب أن ينال كل شخص نصيبه العادل والكافي من ثروات الأرض إذا استطاع أن ينمي في نفسه تلك القدرات التي وهبها الله للروح كي تساعده على طاعة الله. ولهذا السبب فإن للمحتاجين حقوقاً معلومة في ثروات المؤمنين. والهدف من أداء الزكاة في الإسلام هو جعل هذا الحق قائماً في

المجتمع. على أن هذا الحق المعلوم في نهاية الأمر هو ملك الله لأنه هو الذي جعل الأرض قابلة للإخصاب والإنبات. وكما حدث في الماضي من اختبار للمسلمين في تعليمهم وقوتهم السياسية والعسكرية، فإن بلادهم يجري عليها الاختبار في الوقت الحاضر أيضاً من خلال كيفية استخدامهم لثرواتهم الهائلة الجديدة المستخرجة من الأرض.

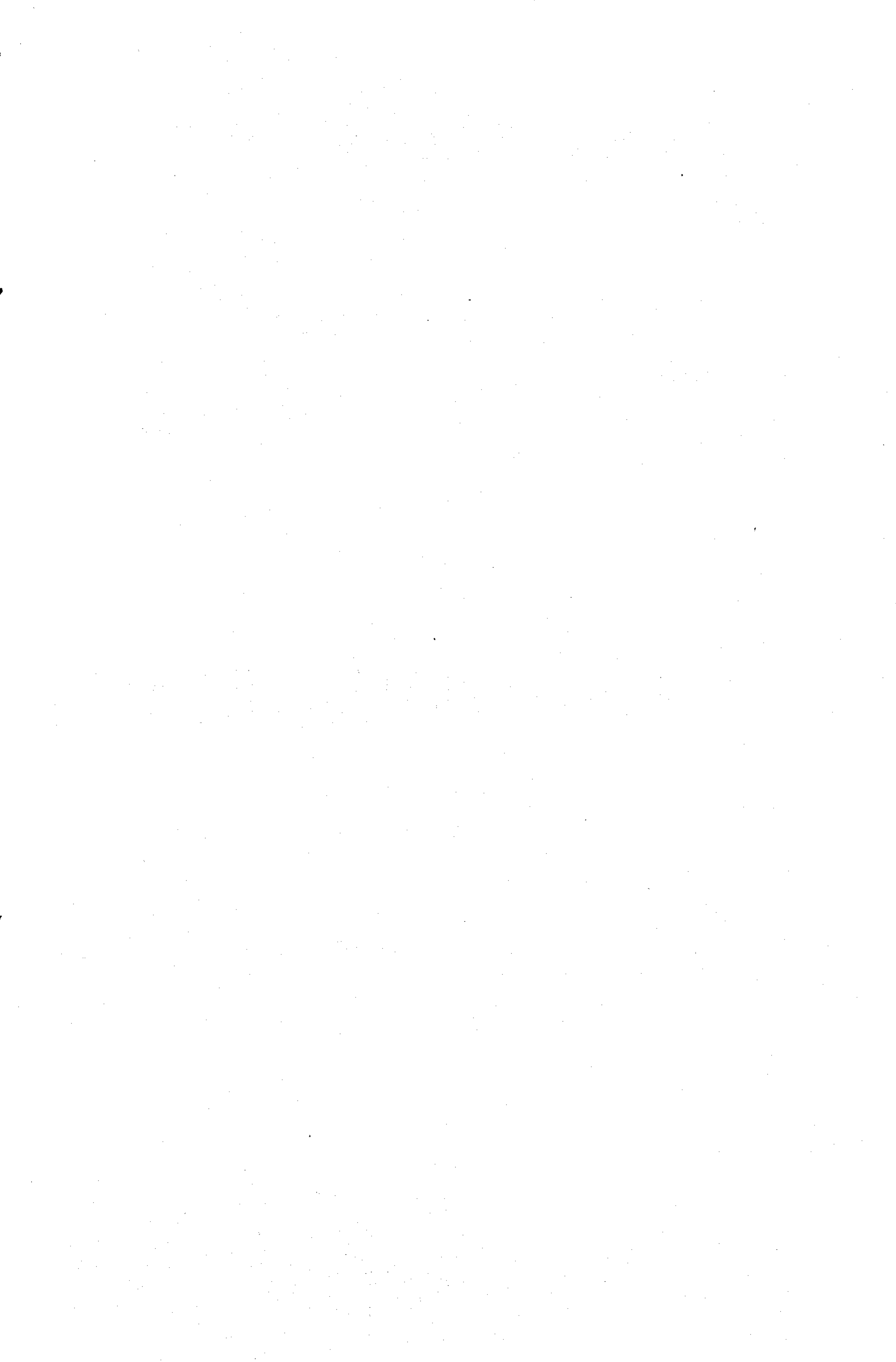
ومن أشكال القوة المنتحلة التي حرمها الإسلام بحق هي القوة الكهنوتية، حيث إن القوة الكهنوتية تعني تحويل المعرفة الدينية إلى قوة مادية. وكثيراً ما كان القساوسة والرهبان ينسون رسالتهم التي كرسوا حياتهم لها ويستخدمون دينهم كوسيلة لجمع الثروات من أجل الحياة الرغدة أو من أجل السلطة السياسية. وتشكل مثل هذه الأعمال استغلالاً للميول الدينية للمؤمنين وكذلك استغلالاً لممتلكاتهم المتواضعة.

وتدور الفكرة الإسلامية حول التأكيد على أن كافة أشكال القوة والسيطرة على الثروات إنما هي أمانة. ولهذه الفكرة مدلولات كثيرة لا يمكن حصرها كلها. ولكن يكفي أن نذكر قليلاً منها. إن الحياة نفسها هي شكل من أشكال القوة، والحياة كلها تأتي من الله وهو الحي والمحيي. ومن ثم فإنه لا يمكن للإنسان أن يقضي على حياته أو حتى يعرضها للخطر. ولا يمكن أن يقضي على أية حياة إلا بالعدل. ويبلغ احترام الحياة في الإسلام إلى الحد الذي يحرم فيه على المسلمين قتل الحيوانات إلا إذا كانت للأكل أو لخطرها أو أذاها للإنسان. وعند قتل الحيوانات الأليفة التي أعطيت للإنسان كأمانة ليستفيد منها في طعامه فإنه يجب ذكر اسم الله عليها. كما أنه يجب قتل مثل هذه الحيوانات بأقل قدر ممكن من الألم لها. ذلك أن القضاء على الحياة بأي شكل من الأشكال يعتبر مسئولية رهيبة لأن الله هو المحيي وهو المعطي. وباحترام حياة الآخرين فإن الإنسان يصبح أكثر قرباً من الله لأنه هو وحده مصدر كل حياة.

كذلك فإن النساء والأطفال أمانة لدى الرجال وليسوا ملكاً لهم بأي حال من الأحوال. إن الوالدين هما مجرد أداتين خلقهما الله من أجل حفظ النوع وهما بهذا لا يملكان أبناءهما. كذلك فإن رعاية الأبوين الكبيرين تعتبر أمانة في أعناق أولادهما.

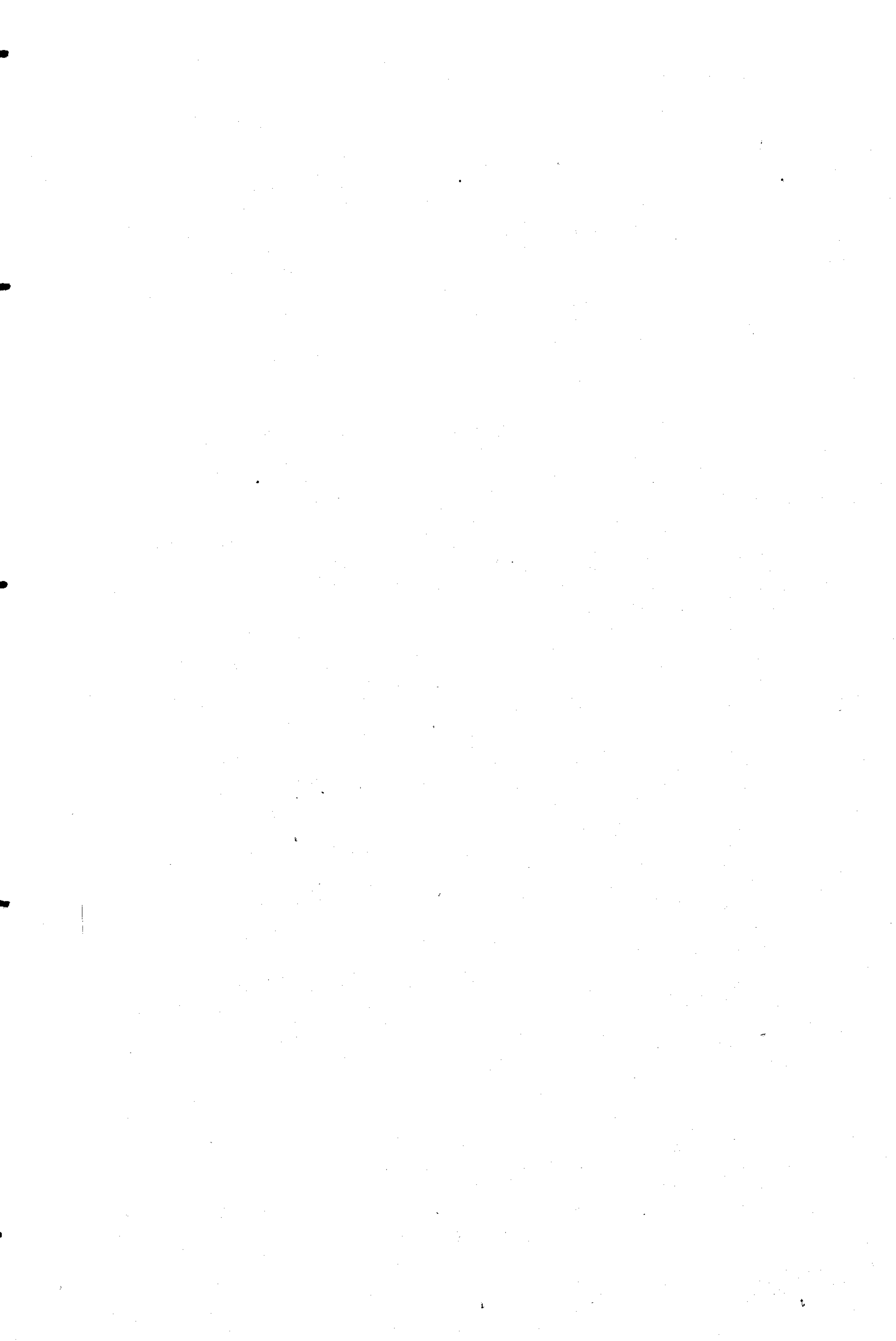
ولقد فرضت الصلاة لله على المسلمين، ليس لمجرد إبعاد الغواية أو النسيان عنهم، ولكن أيضاً لتولد فيهم ذلك الإحساس بالقداسة الذي يساعدهم على ممارسة كافة أشكال القوة واستخدام ثرواتهم في الطريق المستقيم. وباختصار فإنه إذا واظب الإنسان على ذكر الله باستمرار، وإذا استخدم المعرفة ومارس كافة أشكال القوة على أنها أمانة في نطاق وحدود وحي الله، فإن الشرين اللذين ابتلي بهما العالم الحديث، وهما العلمانية والمادية، سيختفيان في نهاية الأمر. كذلك فإن الجهل والظلم والطغيان ستقل إلى حد كبير. وعندئذ سيبدأ الإنسان من جديد في تحقيق ذاته الحقيقية، أي روحه بما وهبها الله من قدرات. وبهذا فإنه سيكون انعكاساً للكثير من الصفات الإلهية التي أراد الله له أن يكون مثلاً لها. وحينئذ، وحينئذ فقط يمكن القول بأن الإنسان قد عرف ربه بصورة أفضل.

* * *



منجزات الحضارة الإسلامية في مجال العلوم والفنون

للاستاذ حكيم امتياز حسين



بسم الله الرحمن الرحيم

لم يكن لشبه الجزيرة العربية قبل الإسلام أي أثر للثقافة أو العلوم أو المعرفة الواسعة أو الاقتصاديات، ولأسباب جغرافية كان العرب يعيشون في فقر ومسغبة، فريسة للخرافات ومنعزلين عن التيارات العالمية. ولقد غيّر الإسلام كل ذلك، وراحت الحضارة التي خلقها تفتح قلوب الناس وعقولهم في كل مكان أمام إمكانيات جديدة. وباختصار شديد رفعت القبائل المتخلفة في العالم إلى مستوى رفيع في كافة المجالات. ولقد كانت معجزة الإسلام الكبرى تتمثل في ظهوره بصورة بالغة الرشد الروحي في بيئة بالغة الانحطاط والفقر. وكانت معجزته الثانية تتمثل في قدرته على رفع مستوى هذه البيئة إلى درجات لم يسبقه إليها أحد بفضل قوته الايحائية وبدون أية مساعدات خارجية. والثالثة تتمثل في قدرته على خلق مركز ثقافي يشع بإشعاعات قوية، ويقوي عوامل النهضة بين الشعوب الأخرى ذات البيئات المتباينة في مختلف أرجاء العالم. والرابعة تتمثل في الدعوة إلى الإيمان بمخاطبته الهادئة للعقل والمنطق وبعمقه واتساع نظرته. والخامسة والتي تعتبر أكثرها تألقاً تتمثل في قدرته على التأثير على الأمم الأخرى من كافة المعتقدات بنظرته السامية الروحية والعقلية جميعاً.

إن العلماء المحدثين، حتى أولئك الذين تدفعهم عصبيتهم إلى اتخاذ موقف نقدي ومعاد للإسلام، يزداد اهتمامهم كل يوم بالسرعة التي تم بها

انتشار الإسلام وبالنتائج الخيرة لقوى البشرية في الفكر والدراسة وبتقدمية الأفكار التي جاء بها إلى الحضارات الراكدة.

على أنه يتعين على كافة « التقدميين » في كل مكان أن يلاحظوا أن هذا التقدم المتألق لكل البشرية كان ملازماً لتنظيم روحي ذاتي وتجنب للملذات التي تصحب ترك العنان للشهوات وضبط متأن للغرائز الخلاقة من شأنه توجيهها إلى خلق أعمال فنية وفكرية واجتماعية جديرة بالإنسان الناضج. إن هذا التنظيم الداخلي الذي يحتاج إليه الإنسان من شأنه أن يقوي الحرية الداخلية التي يبتغيها وهو أحد أسباب سيطرة الإسلام الواسعة على عقول الناس في أوائل العصور الوسطى. ذلك أن الإسلام لم يوفر للإنسان مجرد أشكال خارجية للحياة ولكنه أعاد تأكيد جوهر الروح فيه. كما قضى الإسلام على روح الاضطهاد التي كانت وليدة التعصب الأعمى وضيق الأفق.

ففي أوروبا العصور الوسطى وفي الوقت الذي كانت فيه الكنيسة تفرض سيطرة على مختلف القوميات وتكبلها بقيود تحد من جريتها، كان الإسلام يقيم ثقافة متعددة الجوانب تضع الأساس لازدهار العلوم والمعرفة والأعمال الفنية و « التكنولوجية الخلاقة » التي تبعث ذلك وصارت تسمى « بالنهضة ». كان ذلك يتم في الوقت الذي كانت فيه الكنيسة تدين « جاليليو » لتأكيده على نظرية « كوبرنيكوس » عن دوران الأرض حول الشمس.

يقول الدكتور « جوستاف لوبون »، في كتابه عن الحضارة الإسلامية والعربية : « لقد سار المسلمون في طريق العلوم بتطبيقات عميقة. وفي كل مدينة كانوا يأخذونها، كان أول عمل يقومون به هو إقامة مسجد ثم مدرسة. وقد أدى ذلك إلى إقامة مؤسسات رائعة للتعليم في عدد هائل من المدن ».

ويضيف : « لقد وضع المسلمون العلم على طريق الدقة والتجربة والاكتشاف المتطلع إلى المستقبل عن طريق الفرضيات بحماس منقطع النظير، في الوقت الذي أصدروا فيه الكتب والأبحاث وبنوا فيه المدارس التي كانت تنشر أعمالهم الفكرية في كافة أرجاء المعمورة. وبهذا فقد فتحوا

لأوروبا الطريق أمام نهضتها. ومن ثم فانه يمكن بحق إضفاء لقب « أستاذ أوروبا » على القوة النامية الجديدة حيث أنه تمّ من خلالها إعادة اكتشاف كنوز علوم الإغريق والرومان القديمة وتطويرها وإعادتها إلى أوروبا حين بدأت تخرج من أسار العصور الوسطى ».

وعن القرون الأولى لتقدم الإسلام في مجال الثقافة يقول « جوزيف ما كاب » في كتابه « عظمة المسلمين في أسبانيا » (ص ١١٧) : « إنه حتى أدنى الطبقات في المجتمع كانت تتعطش لتعلم القراءة. وكان العمال البسطاء يقصرون نفقاتهم على الطعام والكساء وينفقون ما يتبقى معهم على شراء الكتب. وكان أحد العمال يجمع مكتبة يقصد إليها رجال العلم. وقد دخل العبيد المحررون طبقة المتعلمين. كما أن رجالاً من أمثال « ابن خلكان » وضعوا أسس هذا التقدم الكبير.

وفي الصفحات التالية سنورد بعض المنجزات العظيمة للحضارة الإسلامية والتي تم جمعها من المصادر الموثوق بها :

العلــوم الطبيــة :

إن اهتمام العرب بالطب لم يبدأ بظهور الطب العربي الحقيقي. فحتى في زمن النبي ﷺ لم يكن الطب محصوراً فقط في مدرسة الطب الشهيرة في « جوندي سابور » ببلاد الفرس. كما أنه في أكثر كتب الحديث وثوقاً وهو كتاب البخاري نجد في بداية المجلد الرابع بابين في موضوع الطب. فإلى جانب النصائح ذات الصفة الروحية الخاصة يتحدث محمد ﷺ عن أنواع العلاج العربي التقليدية مثل الكي والحجامة وتناول العسل. وتشمل الأمراض التي يشير إليها، أمراض الشقيقة (الصداع النصفي) والرمد وذات الجنب والصرع والطاعون. وينصح النبي ﷺ أتباعه بعدم الذهاب إلى البلاد التي ينتشر فيها الطاعون، وربما يكون ذلك هو أول معرفة ــ وإن كانت غير واضحة ــ بالعدوى.

وتزخر المؤلفات الإسلامية العربية والفارسية بالعديد من القصص والحكايات ذات الطبيعة الطبية، مما يعكس مدى الاهتمام الكبير بالأمور

الطبية وقد شاعت على وجه الخصوص تلك القصص التي تتناول ما لا يمكن تسميته بالطب « المباشر » ولكن ما يطلق عليه اسم « العلاج النفساني » أو « الطب النفسي » وهو العلاج الذي يتم بالإيحاء والأساليب « السيكولوجية »، مثل إثارة غضب المريض أو فرحه أو إحداث صدمة له. وتستحق بعض الأساليب التي كان يستخدمها ابن سينا اسم التحليل النفسي، ذلك أن العلاج الذي كان يطبقه كان يتمثل في إرجاع مريضه إلى ذكرياته المبكرة ليسترجع منها إحدى الحوادث المنسية والتي كانت بكمونها في « اللاشعور » سبباً في مرض جسماني من حيث طبيعته، وإن كان نفسياً من حيث أصله.

ولقد كان الأطباء المسلمون يستفيدون كثيراً من إيمان المريض. ولما كان الإيمان يسيطر على كل من علوم المتعلمين وعلى حياة العامة، فإن الأطباء لم ينسوا قط تلك الوحدة القائمة بين الروح والمادة، وبالتالي كانوا يلجأون إلى القوى الدينية التي تحرك مرضاهم مثلما يلجأون إلى العناصر « البيولوجية » و « الفسيولوجية » فيهم. ومن ثم فإن التفرقة الموجودة حالياً بين الطب الشرعي والتحليل النفسي والعلاج بالإيمان لم تكن موجودة في الطب العربي، مثلما أن العلوم الإسلامية نادراً ما كانت تنفصل عن الفلسفة أو الدين، إن الله سبحانه، والغيبيات، والسموات، والعالم بأسره لم يكن يغيب عن ذهن الطبيب. وكما هو الحال في الرياضيات وعلوم الفلك، كان الأمر كذلك في الطب العربي ــ لم يكن الدين بأي حال من الأحوال عائقاً أمام التقدم وإنما كان حليفاً قوياً له.

ولقد كان أول طبيب مسلم هو أبو بكر محمد أبو زكريا الرازي الذي ظهر في القرن التاسع وصار مشهوراً في كل أنحاء العالم واحتل مكاناً بارزاً في تاريخ الطب وصار أحد مراجعه المرموقة. وقد ألف الرازي ما يزيد على عشرين كتاباً، وكان أول شخص وصف بدقة مرض « الحصبة » ومرض « الجدري ». وأهم مؤلفاته هو كتاب « الحاوي » وهو موسوعة طبية مفصلة للغاية ظل يستفيد منها الأطباء والدارسون ليس فقط في الشرق ولكن أيضاً في كافة أرجاء أوروبا.

أما ثاني أكبر موسوعة طبية أصدرها أحد المسلمين، فهي موسوعة « قانون ابن سينا » الذي يعتبر أشهر الفلاسفة والعلماء المسلمين. لقد كان ابن سينا أستاذاً في الشريعة الإسلامية والفلسفة والعلوم الطبيعية والرياضيات. وعندما بلغ الثامنة عشرة من عمره وصلت شهرته كطبيب إلى الحد الذي كان يحدو بالأمراء من الحكام إلى السعي في خدماته. وقد وضع ابن سينا ستة عشر كتاباً في الطب من بينها كتابه الشهير « القانون » الذي تبلغ عدد كلماته نحو مليون كلمة. وتتناول هذه الموسوعة كافة الأمراض والعلاج والأدوية المعروفة حتى ذلك الحين والتي وضعتها المراجع الإغريقية والعربية. وقد صدرت من هذه الموسوعة نحو ثلاثين طبعة باللاتينية وغيرها من اللغات الأخرى. وكانت تشكل نصف المنهج الطبي بالجامعات الأوروبية خلال القرن الخامس عشر.

ويقول الدكتور « ماير هوف » عن كتاب القانون لابن سينا : إنه تحفة للعلوم الطبية وقد أثبت قيمته من خلال طبعه ست عشرة طبعة في نهاية القرن الخامس عشر، خمس عشرة منها باللاتينية، وواحدة بالعربية، وفي القرن السادس عشر تم طبعه عدة مرات بسبب قيمته كإنجاز علمي، ولقد استمرت فائدته خلال القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر إلى أن صار أشهر المباحث الطبية وأوسعها انتشاراً. وما زال هذا الكتاب مرجعاً هاماً بمدارس الطب حتى يومنا هذا.

وقد تبع هؤلاء علماء آخرون نذكر منهم : أبا القيس وابن زهر بالأندلس، وعباس الإيراني، وعلي بن رضوان في مصر، وابن بلطان في بغداد، وابن منصور موفق في حبرات، وابن وفيد في أسبانيا، وماسويا ببغداد، وعلي بن عيسى في بغداد، وعمار في الموصل، وابن رشد في الأندلس. وقد ترجمت أعمالهم إلى اللاتينية وكانت تدرس في الجامعات الأوروبية. ولم تكن أوروبا تعرف شيئاً عن جراثيم « الكوليرا » عندما دخل العرب أسبانيا. وكان الناس هناك ينظرون إلى هذا المرض على أنه عقوبة نزلت عليهم من السماء لتكفر عنهم الخطايا التي ارتكبوها. ولكن الأطباء المسلمين كانوا قد برهنوا بالفعل على أنه حتى الطاعون ليس سوى أحد الأمراض المعدية.

كذلك أحرزت الجراحة تقدماً مماثلاً على أيدي الجراحين المسلمين الذين استخدموا حتى أساليب التخدير، على الرغم مما يعتقد بأنها من الأمور الحديثة. وكانوا يستخدمون في ذلك البنج المستخرج من أحد النباتات المخدرة.

وكان من بين ابتكارات الرازي استخدام الماء البارد لمعالجة الحمّى المستمرة، والحجامة الجافة لعلاج مرض السكتة ومرهم الزئبق ومعدة الحيوان لعلاج الجروح وغيرها.

كذلك كان تشخيص مرض السل من أظافر اليد، وعلاج اليرقان واستخدام الماء البارد لمنع نزيف الدم، وكذلك تفتيت الحصا في الكلى والكبد لتسهيل إزالته وجراحة الفتاق ـ كل ذلك كان من اكتشاف الحضارة الإسلامية.

ولقد كان أعظم الجراحين المسلمين هو « أبو القاسم بالأندلس» والذي لم يكن جراحاً جيداً فحسب، بل كان أيضاً مخترعاً لكثير من الأدوات الجراحية ومؤلفاً للعديد من الكتب التي تصفها وتشرح طرق استعمالها.

أخيراً وليس آخراً، كان العرب هم أول من أنشأ مدارس الطب الخاصة التي تعقد امتحانات صحيحة، ومن ثم مهدوا الطريق أمام إنشاء كليات الطب في أوروبا. كما كانوا أول من أنشأ المستشفيات مقسمة إلى عنابر حسب الأمراض المختلفة، ومن ثم قدموا المثل للمؤسسات ذات الصبغة المماثلة.

المستشفيات :

في خلال قرنين من وفاة النبي ﷺ كانت هناك مستشفيات في مكة والمدينة وغيرها من المدن الإسلامية الكبيرة. وكان الحكام العباسيون ووزراؤهم يتنافسون فيما بينهم على إنشاء أفضل هذه المؤسسات لرعاية المرضى في أقاليمهم. وكان في بغداد وحدها أربعة مستشفيات هامة. وفي القرن الثالث الهجري أقام الحاكم عضد الدولة الديلمي المستشفى

العضدي، والذي كان يضم أربعة وعشرين إخصائياً كل منهم أستاذ في مجال تخصصه. وقد اكتسب هذا المستشفى شهرة فاقت ما عداه من المستشفيات في العالم الإسلامي.

ويقول الدكتور جوستاف لوبون في كتابه « الحضارة الإسلامية والعربية » : « كانت المستشفيات الإسلامية تمارس الطب الوقائي والمحافظة على الصحة مثلما تقوم بعلاج المرضى، وكانت جيدة التهوية وبها الكثير من المياه الجارية. وقد صدر أمر السلطان إلى محمد بن زكريا للبحث عن أفضل الأماكن الصحية المجاورة لبغداد لإقامة مستشفى جديد فيه. وقام الرازي بزيارة كافة الأماكن بالمدينة وما حولها وعلق قطعة من اللحم في كل منها وتركها في الوقت الذي ظل فيه يدرس موضوع الأمراض المعدية والأحوال الجوية وكذلك حالة المياه في المناطق المجاورة. وبعد ذلك راح يزيد كل هذه الاختبارات التجريبية إلى أن وجد أنها جميعاً تشير إلى أن آخر مكان حدث فيه تعفن وظهور للبكتريا المعدية في قطعة للحم هو أنسب مكان لإقامة المستشفى. ولقد كانت بهذه المستشفيات عنابر عامة كبيرة كما كانت بها عنابر خاصة للأفراد، وكان الدارسون يقومون بعمليات التشخيص ويدونون الملاحظات ويجرون التجارب للوصول إلى أفضل النتائج في دراساتهم كما كانت توجد مستشفيات خاصة للأمراض العقلية وصيدليات تقوم بصرف الأدوية مجاناً ».

الصيدلة :

يقول الدكتور جوستاف لوبون : « إلى جانب استعمال الماء البارد في علاج التيفود ـ وهو علاج ترك فيما بعد على الرغم من أن أوروبا تأخذ بهذا الاكتشاف ـ ظهرت فعالية هذا العلاج الإسلامي ثانية في العصر الحديث بعد مرور عدة قرون عليه ـ فقد اخترع فن مزج المواد الكيميائية في شكل أقراص ومحاليل، ومازال الكثير منها حتى يومنا هذا على الرغم مما يقال من أنها اختراعات جديدة تماماً أدخلها في قرننا الحالي بعض الكيميائيين ـ وهم في الحقيقة يجهلون تاريخنا. ويوجد في تاريخ الإسلام نظام العيادات التي كانت تكتب الوصفات للمرضى، وفي المناطق التي لم تكن بها

مستشفيات كان الأطباء يقومون بزيارات إليها ومعهم معداتهم لحماية الصحة العامة ».

الكيمياء :

اشتهر جابر بن حيان، تلميذ جعفر الصادق أحد أحفاد نبي الإسلام ﷺ، في كل أرجاء العالم بأنه « أبو الكيمياء »، وقد كان أثره على الكيمياء في الغرب عميقاً ومستمراً، ويوجد له حتى الآن نحو مائة مؤلف. ويقول عنه المرحوم « سيد هبة الدين ستاني » - وكان وزيراً للتعليم في إيران - : « لقد رأيت نحو خمسين مؤلفاً من مؤلفات جابر بن حيان كلها مهداة إلى سيده الإمام جعفر الصادق وقد طبع له أكثر من خمسمائة مؤلف وتوجد معظمها بين كنوز المكتبات الوطنية في باريس وبرلين. ويطلق عليه علماء أوروبا لقب « أستاذ الحكمة » وينسبون إليه فضل اكتشاف تسعة عشر عنصراً من المادة ووصفها ووزنها... الخ ويقول جابر بن حيان إن كل شيء يمكن إرجاعه إلى جسيم أساسي بسيط يتكون من شحنة من الضوء (الكهرباء) والنار، والذرة هي أصغر وحدة من المادة لا يمكن انقسامها. وتقترب هذه الأفكار من علوم الذرة في العصر الحديث ».

ولقد كان مزج المواد الملونة والصباغة واستخراج المعادن وصناعة الصلب ودبغ الجلود من بين الأساليب الفنية الصناعية المبكرة التي اتقنها المسلمون. وقد أنتجوا حامض النتريك، وحامض الكبريتيك والنتروجلسرين وحامض الهيدروكلوريك والبوتاسيوم ومحلول الأمونيا وكلوريد النشادر ونترات الفضة وكلوريد الكبريت ونترات البوتاسيوم والكحول والقلوي (وهما مازالا يعرفان باسميهما العربيين) وكبريتور الزرنيخ الأصفر والبوراكس. فضلاً عن ذلك فقد كانت هناك فنون كثيرة أخرى شائعة في ظل الخلافة العباسية مثل التقطير والتبخير والتكرير واستخدام الصوديوم والكربون والبوتاسيوم والكلوريد والأمونيا.

الرياضيات :

يشير البارون كارادينو مؤلف فصل « الفلك والرياضيات في تراث

الإسلام » إلى أن كلمة « الجيبرا » هي الترجمة اللاتينية لكلمة « الجبر » العربية (أي تحويل الأعداد المركبة إلى لغة الرموز البسيطة). وبهذا يكشف ما يدين به العالم للعرب بهذا الاختراع. كذلك فإن الأعداد المستعملة هي أعداد عربية ليس فقط بالاسم ولكن أيضاً في الحقيقة. وفضلاً عن ذلك فإن إدراك العرب لقيمة الرمز الهندي للصفر قد وضع أساس كل التكنولوجيا الحديثة التي تعتمد على الكمبيوتر ».

ويضيف دينو : « باستعمال الأصفار صار العرب مؤسسي علم الحساب الذي يستخدم في الحياة اليومية. كما وضعوا الجبر على أسس علمية دقيقة وطوروه تطويراً كبيراً. كذلك وضعوا أساس علم الهندسة التحليلية. كما أنهم بلا منازع هم مؤسسو هندسة المثلثات البحتة والكروية. كما كان الأسطرلاب من اختراع الرزقالي العربي الذي عاش في أسبانيا في الفترة من ١٠٢٩ ـ ١٠٨٧م. كذلك نظام العدِ العشري في الحساب والذي يسمى باللاتينية « الخورزم » هو الترجمة اللاتينية لاسم مخترعه الخوارزمي. لقد أحيا العرب الحياة الفكرية السامية ودراسة العلوم في الوقت الذي كان فيه الغرب المسيحي يحارب بعضه بعضاً بصورة بربرية.

الجغـرافيــا :

في أحد أيام عام ١٥٢٠م أسر قراصنة البحر الإيطاليون « حسناً الوزان » وهو شاب عربي يبلغ من العمر خمسة وعشرين عامـاً. وقد تأثـروا كثيراً بمعارفه الجغرافية لدرجة أنهم أخذوه إلى الفاتيكان ليمثل أمام البابا « ليو » العاشر الذي تأثر بدوره بمعارف الشاب العربي. وتقديراً لصفات الشاب العربي أعطاه الباب اسمه « ليو ». وقد كان حسن الوزان من أصل مغربي ولكنه ولد في غرناطة عام ١٤٩٥م وتعلم في فاس. وقد بدأ ليو رحلاته الإفريقية في سن مبكرة، وفي الوقت الذي أسر فيه كان يعتبر أعظم خبير في شئون القارة « السوداء » التي كانت حتى ذلك الحين شبه مجهولة. وبإيحاء من البابا كتب تقريراً عن رحلاته وقام بنفسه بترجمته عام ١٥٢٦ من اللغة العربية إلى اللغة الإيطالية. وقد اعتبر هذا الكتاب في العالم بأنه المرجع الأول الموثوق به عن إفريقيا. على أن « ليو » لم يكن سوى الحلقة الأخيرة في

سلسلة طويلة من الجغرافيين العرب البارزين الذين أسهموا كثيراً في معرفتنا بالعالم. ولا شك أن طبيعة الإسلام من ناحية واتساع الامبراطورية العربية من ناحية أخرى هما السبب في ظهور العديد من المؤلفات الجغرافية العربية.

ولعل من أعظم الرحالة العرب ابن بطوطة الذي سافر إلى كل البلاد العربية وكذلك إلى تركيا وبلغاريا وجنوبي روسيا وبلاد الفرس ووسط آسيا. وفي الهند التي قضى بها عدة سنوات عين كبيراً للقضاة في دلهي ثم سفيراً إلى أمبراطور الصين. وفي الصين استمر أيضاً في رحلاته دون انقطاع إلى أن وصل إلى بكين شمالاً وإلى كانتون جنوباً. وأثناء رحلة العودة زار كافة بلاد شمال أفريقيا. وقد أخذته رحلته الثانية عبر أسبانيا وأجزاء من غرب أفريقيا وتشمل أقاليم مالي والنيجر. وعلى الرغم من أنه لم يكن جغرافياً متخصصاً إلا أنه جمع قدراً هائلاً من المعلومات تجعله في مصاف أكبر الجغرافيين في كافة العصور. ولا بد أن ما قطعه من مسافات تبلغ نحو ٧٥٠٠٠ ميل في وقت كانت تنحصر فيه وسائل النقل في الحصان والجمل والقارب الشراعي. وإلى جانب المعلومات الجغرافية فإن ابن بطوطة أورد كافة التفاصيل المتعلقة بالجوانب السياسية والإدارية والاجتماعية والاقتصادية للبلاد التي زارها.

على أن العلماء الغربيين لم يعرفوا كتاب « رحلات ابن بطوطة » إلا في القرن التاسع عشر. ويعتبر هذا الكتاب هو أول كتاب عربي يتضمن تفصيلات كثيرة عن الهند والصين وروسيا.

وأسماء أبي ريحان البيروني وأبي الحسن وأبي زيد وابن فضلان تعتبر من الأسماء البارزة في علم الجغرافيا. وتعتبر ملاحظاتهم الدقيقة وكتاباتهم المضنية من المنجزات التي تدعو للفخر في علم الجغرافيا الحديث.

ويعترف العلماء الغربيون في أوروبا وأمريكا في العصر الحديث بأن ما كتبه الحجاج المسلمون أفضل مما كتبه الحجاج الأوربيون. ويؤكدون على القيمة العلمية لما كتبه الرحالة المسلمون من يوميات وكتب عن رحلاتهم، من أمثال ابن جبير ومحمد بن رشيد والهراوي. وقد وجه الكثير من الرحالة العرب اهتمامهم بصفة خاصة إلى المعارف النباتية وبهذه الطريقة زودوا معرفة

العالم بكثير من النباتات التي لم تكن معروفة، ولعل أعظم هؤلاء من علماء النباتات الجغرافيين هو ابن بيطار الذي يعتبر أعظم عالم نباتات في العصور الوسطى.

وهناك أسماء بارزة أخرى من الجغرافيين العرب نذكر منهم المسعودي والإدريسي وياقوت. وقد جمع المسعودي موسوعة جغرافية تاريخية تعتبر بما حوته من معلومات مختلفة فريدة في نوعها. فإلى جانب ما تضمنته من حقائق جغرافية كانت تحتوي على معلومات كثيرة عن العلوم الأخرى حتى إنها تضم نظرية بدائية عن التطور.

أما الإدريسي فقد فاق كل معاصريه من الجغرافيين في الشرق والغرب. وقد ولد الإدريسي في وسط مراكش عام ١١٠٠ وعندما قرر الملك النورماندي روجر الثاني وضع أطلس للعالم دعا العالم المسلم العربي الإدريسي إلى عاصمته لهذا الغرض وكانت النتيجة أنه تم وضع « الكتاب الروجري » (كتاب روجر) وكان أفضل كتاب يصف : العالم في العصور الوسطى. ويحتوي الكتاب على معلومات عن كل من البلاد المسيحية والإسلامية. وتكمن قيمته الأساسية في الخرائط السبعين التي تضمنها وتصور بعضها مناطق من العالم لم تكن معروفة من قبل، كذلك أعد الادريسي للملك رسماً للكرة الأرضية من الفضة.

وقد اشتهر عبد الله ياقوت (١١٧٠ ـ ١٢٢٩) بأنه مؤلف أحد أقدم القواميس الجغرافية التي تتناول علوم الفلك والرياضيات وقواعد النمو والتاريخ وتاريخ حياة العلماء.

وتدين علوم البحار بدَيْن آخر للجغرافيا العربية أو بتعبير أدق للمعارف البحرية العربية. وكما هو معروف فإن « فاسكودي جاما » هو أول من اكتشف الطريق إلى الهند عام ١٤٩٨م. فبعد أن أبحر حول أفريقيا وصل إلى مالندي على الساحل الافريقي الشرقي. وكان البحار العربي « أحمد بن ماجد » هو الذي أرشده إلى الطريق ومن ثم فتح هذا الطريق الهام أمام البحارة الغربيين. وقد كان أحمد بن ماجد يملك خريطة ممتازة أعدها العرب

ولم تكن معروفة في أوروبا. وكان يستخدم في إبحاره معدات بحرية لم تكن معروفة للأوربيين على الإطلاق.

الفــــن :

يعتبر مسجد قرطبة من أرقى آثار المسلمين في أوروبا. وكانت عمارته وبناؤه نتاجاً للعبقرية المحلية التي قدمت الكثير من الابتكارات، وقد برز المسلمون في فنون تركيب الفسيفساء والترصيع والنقش والزخرفة بكافة أشكالها. وهناك الكثير من الأبواب والمنابر والأسقف الرائعة والمزينة في كثير من المساجد القديمة المنتشرة في العالم الإسلامي. وتزين هذه المساجد تصميمات مزركشة من الفسيفساء والعاج المحفور والخشب والجص وكذلك قطع ماسبة من الخشب المحفور متداخلة مع بعضها البعض بشكل فني رائع. ويوجد الخشب والعاج المحفور في كل مكان منها.

أما الصناديق والحقائب والتوابيت المرصعة بالجواهر فهي منتشرة في كل مكان وإن كان أفضلها معروضاً في متاحف دمشق والقاهرة. وكان المسلمون أيضاً أساتذة في فن الجص المحفور والملون بأسلوب مازال قائماً حتى اليوم على الرغم من أن « التكنولوجيا » الحديثة تزيد بمرور الوقت من مثل هذه المهارات. وتوجد أمثلة من فنون القرن العاشر المزخرفة أيضاً في الأندلس. وتحتوي الحمراء على تحف من القرن الثالث عشر مازالت تلمع مثل الخزف الإيطالي المزخرف. وتعتبر زهرية الحمراء الشهيرة والتي يبلغ ارتفاعها متراً ونصف المتر فريدة من نوعها في هـذا المضمار. ولقد كان استعمال قطع الرخام ذات الألوان المتعددة على واجهات المباني لتكوين أشكال رائعة لبعض الكنائس الإيطالية الفخمة قد سبق إليه العرب من قبل.

كذلك حظيت صناعة الفخار العربية بشهرة كبيرة بين الخبراء الأوربيين وكان كثير من الأمراء المسيحيين يستدعون صانعي الفخار العرب لينتجوا لهم مصنوعات فخارية للعرض. وكان من أشهر أنواع الفخار تلك التي كانت تأتي من مصر وسوريا ومراكش.

ومن أكثر الأشياء شهرة تلك التي كانت تحمل بالخطأ اسم

« الصيني الأزرق » والحقيقة أن هذا الأزرق لم يكن صينياً وإنما كان اختراعاً عربياً. وكان الصينيون يستوردون المواد اللازمة له من الشرق الأوسط ويطلقون على ما ينتج منها اسم « المحمدي الأزرق ». وفي القرن السابع عشر كان التجار الهولنديون يستوردون « الصيني الأزرق » الذي ينتجه العرب على أنه من الصناعة الصينية.

ومن الفنون العربية « الصغرى » التي حافظت على مكانتها العالية في كل أنحاء العالم حتى يومنا هذا هي صناعة الجلود. وحتى اليوم يطلق الغربيون من منتجي البضائع الجلدية على أفضل منتجاتهم اسم الجلد « المراكشي ». ففي فترة مبكرة جداً تم في مراكش التوصل إلى وسائل متقدمة لدبغ الجلود (وخاصة جلود الماعز) لتكون في نعومة الحرير وكذلك صبغها بأصباغ نباتية تحتفظ بلونها على الدوام. ولعل صناعة الجلود التي تركت أعمق الأثر في أوروبا هي فن تجليد الكتب وكتابة أسمائها محفورة بالذهب على أغلفتها. وكان فن تجليد الكتب يقلد كثيراً في البندقية وفلورنس حيث مازال أسلوب العرب في تجليد الكتب وصناعة بعض المواد الجلدية موجوداً فيهما حتى اليوم.

ولقد كانت الحضارة الإسلامية هي التي أدت إلى استبدال الورق المصنوع من نسيج القطن بالرقاع القديمة وكان هذا الاختراع هو الأساس الذي قام على أساسه اختراع الطباعة في أوروبا باستخدام أسلوب صيني قديم.

وقد وجدت مخطوطة من الورق عام ١٠٠٩ في مكتبة أسكوريال ويعتقد بأنها أقدم مخطوطة في الوجود لكتاب نسخ باليد على الورق. ولا شك ان الورق المصنوع من نسيج الحرير يعتبر اختراعاً صينياً حيث أن الحرير كان منتشراً في الصين ونادر الوجود في أوروبا. وتتمثل العبقرية الإسلامية في البحث عن إمكانية إحلال القطن محل الحرير وبذلك وفرت لأوروبا المادة الموجودة بكثرة لإنتاج الكتب.

وقد كتب « فيليب حتي » في كتابه « تاريخ العرب » : إن فن بناء الطرق كان فناً متطوراً للغاية في البلاد الإسلامية حتى إنه كان في قرطبة

أميال من الطرق المعبدة التي تضاء ليلاً من البيوت القائمة على جانبيها حتى يسير فيها الناس آمنين مطمئنين، في الوقت الذي كان فيه الشخص في لندن أو باريس إذا تجرأ بالخروج في ليلة ممطرة يغوص بقدميه في الطين. وقد ظل هذا الوضع قائماً فيهما لمدة سبعة قرون بعد رصف شوارع قرطبة، وكان رجال أكسفورد يعتقدون في ذلك الحين أن الاستحمام من أعمال الوثنية في الوقت الذي كان فيه الدارسون في قرطبة يستمتعون بالحمامات العامة الفاخرة.

ومن الاختراعات الرائعة للعلماء المسلمين صناعة الساعات وخاصة تلك التي تتحرك بالماء أو الزئبق أو حتى بالشموع المحترقة. ولم يكتف المسلمون بصناعة العديد من الساعات الرائعة من مختلف الأنواع ولكنهم عكفوا كذلك على كتابة الكتب عنها. وقد اكتسبت هذه الكتب شهرة تماثل شهرة الأشياء الموصوفة فيها وفي واحد من أشهر هذه الكتب يصف « رضوان » الساعة المائية التي صنعت في أوائل القرن الثالث عشر على يد والده « محمد بن علي ». وكانت هذه الساعة موضوعة بالقرب من إحدى بوابات دمشق وكانت تعتبر في نظر المسلمين في كافة أنحاء العالم إحدى عجائب الدنيا. وفي عام ٨٠٧م أهدى الخليفة العباسي هارون الرشيد إلى شارلمان ساعة صنعها علماؤه تدق جرساً كل ساعة. وقد انبهر وأعجب بها كل بلاط الأمبراطور الروماني الجديد.

كذلك وجه العلماء المسلمون اهتمامهم إلى موضوعات أخرى أكثر جدية أيضاً. ففي عام ٩٦٠ أصدر أبناء موسى بن شقير كتاباً عن الصنائع المبتكرة وصفوا فيه مائة صناعة فنية منها : إقامة الآبار ذات المستوى الثابت وصناعة أواني الماء البارد والماء الساخن. ومن بين مؤلفي الكتب العلمية الأصيلة نجد واحداً من أوائل الفلاسفة العرب وهو الكندي يكتب عن الأوزان والبصريات وانعكاس الضوء والمد والجزر. كما أن فيلسوفاً آخر أكثر شهرة وهو ابن سينا يكتب عن تكوين الجبال والمعادن. وقد كان العرب المسلمون هم أول من استخدم الإبرة المغناطيسية في الملاحة البحرية. كذلك يجمع الخبراء المحدثون على أن البصريات التي اخترعها

المسلمون الأوائل كانت تفوق بكثير تلك التي كانت موجودة في أوروبا في العصور الوسطى. ولقد ظلت أوروبا لقرون طويلة تعتمد اعتماداً كبيراً على كتاب عربي صدر في هذا المجال وهو « كتاب المناظير » لابن الهيثم البصري الذي ترك أثره على الفكر العلمي لمدة ستة قرون على الأقل.

الفيــزيـــاء :

اهتم العرب اهتماماً بالغاً بكل شيء يتعلق بعلوم حركة المياه (الهيدروليكا) وكانوا أول من نقل إلى أوربا الحقائق المتصلة بالميكانيكا الأرشميدية الهيلينية، .كما اهتم العرب بدراسة كثافة المادة وخاصة المعادن والأحجار الكريمة. وقد اتجهوا إلى هذا الموضوع في القرن التاسع. وهنا يتعين ذكر بعض الأسماء الشهيرة مثل الرازي والبيروني وابن سينا وعمر الخيام... الخ وقد كتب الخزيني أهم المؤلفات في هذا المجال في القرن الثاني عشر. وإلى جانب تناوله لكافة علوم الفيزياء يتضمن الكتاب جداول عن الجاذبية الخاصة بالمواد الصلبة والسائلة ويدل على شمولية الكتاب ذلك الحشد الهائل من الموضوعات التي يتناولها ومن بينها نظريات الجاذبية والخاصية الشعرية والروافع والقياس والأحمال... الخ.

* * *

لقد حاولت في هذه الصفحات أن أعرض باختصار كنوز العقل والروح التي تدين بها البشرية للحضارة الإسلامية. ولقد ظلت هذه الكنوز مهملة ومنسية لفترة طويلة من الزمن ليس فقط من جانب الذين استفادوا منها بطريقة غير مباشرة ولكن أيضاً من جانب أحفاد أصحاب هذه الكنوز أنفسهم.

ولكن إذا استطاعت البشرية أن تعيش كأسرة موحدة وهي دعوتنا ومصيرنا فإن ذلك لن يتم إلا على أساس احترام وتقدير بعضنا لبعض.

إن هذا التقويم الناضج يزداد نمواً، فالعلماء المحدثون يظهرون الآن امتنانهم لما قام به القائد العربي طارق بن زياد عام ٧١١ من إنزال قواته بالجبل الذي يسمى حتى الآن باسمه وهو « جبل طارق ». ولقد كانت قواته

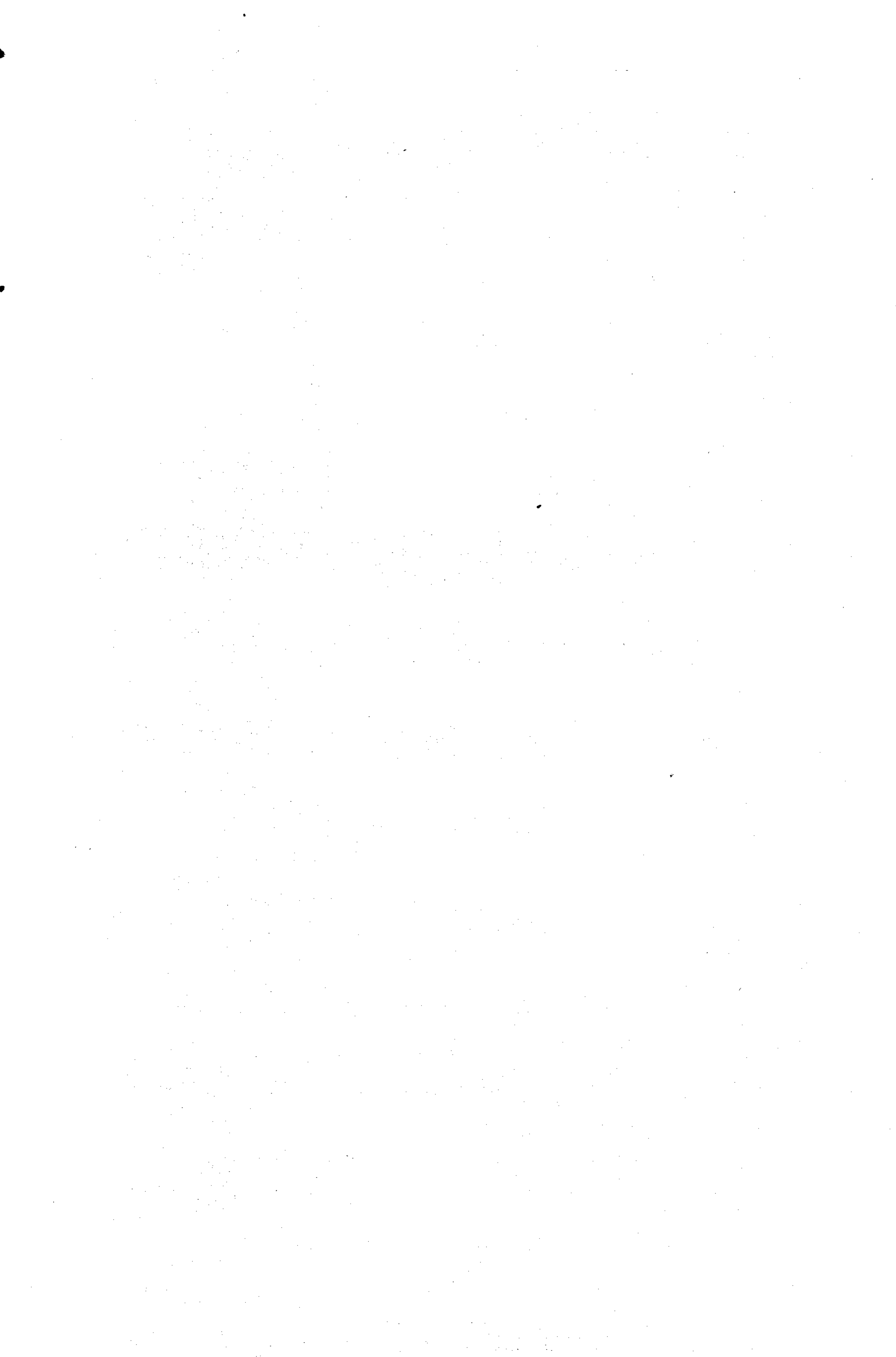
في ذلك الحين بمثابة قوات غزو لم يتم الترحيب بها، لقد كانت فترة نسيت فيها أوروبا فوائد الوحدة الرومانية والتقدم الثقافي وغرقت مرة أخرى في ظلام العصور الوسطى تحت جحافل البرابرة التي اجتاحتها من الشمال. وبقدوم العرب جاء معهم حافز جديد لتنشيط العقول من خلال نقل الفكر الإغريقي واليوناني إلى أوروبا وحثها على التعلم والبحث العلمي والفلسفي وإيقاظ روح الخلق الفني فيها.

واليوم يعترف العلماء والمؤرخون الأوروبيون والأمريكيون بالإسهام الكبير الذي قدمه الإسلام لكافة أوجه التقدم الحديث من علوم ورياضيات وتكنولوجيا وفلسفة. وليكن أملنا في مستقبل مشرق بل أكثر إشراقاً من الماضي ولندع الله العلي القدير أن يمنحنا الحكمة والمعرفة حتى تصبح الحضارة الإسلامية مرة أخرى منارة للدنيا، وليعنّا الله على الخروج من إسار الجهل والأمية إلى آفاق العلم والمعرفة والثقافة وإلى السمو بأخلاقنا الاجتماعية وسلوكنا القويم. آمين.



المـــراجــــع

(١) الحضارة الإسلامية والعربية ـ دكتور جوستاف لوبون.
(٢) نظرات في تاريخ العالم.
(٣) العظمة الإسلامية في اسبانيا ـ جوزيف مارك كاب.
(٤) عقيدة الإسلام ـ جيولوم وارنولد.
(٥) التراث العربي في الحضارة الغربية.
(٦) تاريخ العرب ـ فيليب حتي.
(٧) الإسلام ـ جي. اي. جرونبوم.
(٨) محمد في مكة ـ دبليو. ام. وات.
(٩) أصول الشريعة المحمدية ـ جي. شاخت.
(١٠) قلب الشرق الأوسط ـ آر. كوك.
(١١) ثورة في الصحراء ـ تي. اي. لورانس.
(١٢) الدولة والاقتصاد في الشرق الأوسط ـ اي. بون.
(١٣) اسلام العصور الوسطى ـ جي. اي. جرونبوم.
(١٤) دين الإسلام ـ اي. اس. تريتون.
(١٥) العقل والوحي في العصور الوسطى.
(١٦) روح فلسفة العصور الوسطى ـ اي. جيلسون.
(١٧) الحضارة العربية في نظر المسلمين ـ تي. آر. جولدنج.
(١٨) الثقافة الإسلامية ـ دبليو. يار تهولد.
(١٩) العـالم والغــرب.
(٢٠) بحث عن العلوم والفلسفة والدين ـ جي. اي. جرونبوم.



المحتويات

الصفحة

الندوة العالمية للشباب الإسلامي



أبحاث ووقائع اللقاء الرابع
للندوة العالمية للشباب الإسلامي

المنعقد في الرياض من ٢٠ - ٢٧ ربيع الثاني ١٣٩٩هـ الموافق من ١٨-٢٥ مارس ١٩٧٩م



بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ
وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ
عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ
يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ

صدق الله العظيم



ودور
الشباب المسلم



الباب الثالث

تحديات الحضارة الغربية المعاصرة

دراسة مقارنة للحضارة الإسلامية والحضارة الغربية المادية ودور الشباب المسلم

للدكتور : محمد منظور عالم

التحدي الحضـاري وكيف نواجهه

للدكتور : محمود محمد سفر

التحديات الثقافية المعاصرة التي تواجه الأمة الإسلامية

للأستاذ : أحمد فون دنفر

كتاب إنسانية الإنسان : تأليف رينيه دوبو

تحليل وعرض وتلخيص

للدكتور : نبيل صبحي الطويل

الإسلام ومواقفنا من حضارة العصر

للدكتور : التهامي نقرة

التحديات الحضارية المعاصرة للأمة الإسلامية

للأستاذ : فيصل حســون

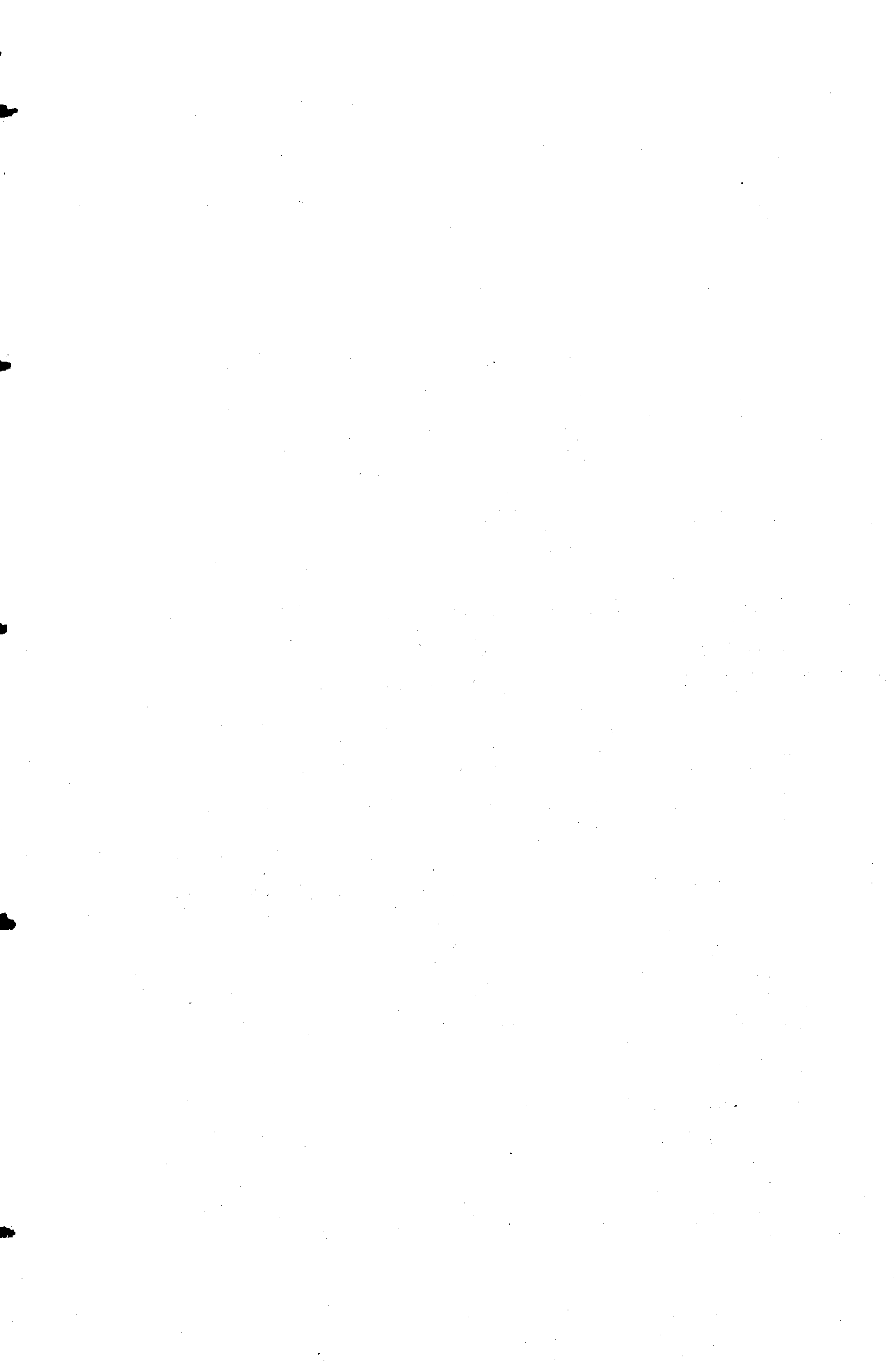
الصراع على تبني الحضارة والثقافة الغربية في تركيا الإسلامية

للأستاذ : عثمــان أوزتورك

ثورة الجنس في عالمنا المعاصر « نظرات طبيب مسلم »
للدكتور : حسـان حتحـوت
مشكلات الأقليات الإسلامية التي تعيش بين أغلبيات مسيحية
للدكتور : عبـده كاسـوزي

دراسة مقارنة للحضارة الإسلامية والحضارة الغربية المادية
ودور الشباب المسلم

للدكتور محمد منظور عالم



بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ الحضارة لا يمكن تشبيهها بالبدن الذي تنمو أعضاؤه في آن واحد، وكذلك لا يمكن تشبيهها بلعبة رياضية تقذف فيه الكرة من هنا إلى هناك، وإنما هي عملية تلاحم منظم تندمج فيها الآراء والمظاهر الثقافية المختلفة. كما أن الحضارة ليست ظاهرة طبيعية ساكنة أو جامدة ولكنها ظاهرة تموج بالحركة والنشاط، وتعتمد القوى المحركة لهذه الظاهرة أساساً على العقيدة الفكرية التي تشكل قاعدة هذه الحضارة.

وسنتناول في هذا البحث ما يلي :

- العقائد الفكرية للحضارة الإسلامية.
- تأثير هذه الأيديولوجيات ـ تحليل مقارن.
- دور الشباب المسلم.

إن الحضارة التي نعيش فيها ونتنفس هواءها أصبحت تعرف بين الناس باسم « الحضارة الغربية »، وهي أيديولوجية موضوعة « من صنع الإنسان »، تستمد أصولها من الفلسفات الإغريقية والرومانية والمسيحية، أي أن الحضارة الغربية ـ بعبارة أخرى ـ هي حصيلة وجماع ما وصلت إليه المعارف البشرية والثورة على اضطهاد الوثنيين المسيحيين. غير أن لهذه الحضارة الغربية نجاحها العظيم الذي يتمثل في النمو الاقتصادي الضخم

والتقدم العلمي والتكنولوجي وتوحيد المسافات في الكرة الأرضية وما يكتنف الحياة من دعة وطمأنينة اقتصادية. ولكن « يجب أن ننظر إلى كل ظاهرة اجتماعية في إطار روابطها وتطورها التاريخي، كما أن كل شكل من أشكال التنظيم البشري يظهر إلى حيز الوجود وهو يحمل في طياته بذور فنائه »[1].

والمقومات الأساسية للحضارة الغربية هي الآتي :

- العلمانيــة
- الليبراليــة (النزعة التحررية)
- الديمقراطيــة
- القــوميــة
- المــاديــة

وقد غرست بذور العلمانية على يد فلاسفة الإغريق منذ الفيـن وخمسمائة عـام خلت عندما أعلنوا أن الجنس البشري في مقدوره أن يبلغ الكمال دون أدنى مساعدة من قوى ما وراء الطبيعة، وباستخدام ملكاته العقلية المجردة لأن قيمة الإنسان تعتمد على عمله لا عقيدته. وقد نبتت بذور النزعة اللادينية وترعرعت تحت سمع المسيحية وبصرها من خلال الحركة الرهبانية[2] بالإضافة إلى محاكم التفتيش التي لم تعرف الرحمة إليها طريقاً والتي أقامها المنشقون عن الكنيسة[3] والتي أحدثت رد فعل عنيف ضد فلسفة الكنيسة الميتافيزيقية. وهكذا نجد أن بذور الزندقة، التي خرج شطؤها في عصر النهضة[4]، قد استوت على سوقها واستغلظت في الفترة التي سبقت نشوب الثورة الفرنسية، وهي الفترة المعروفة بعصر الرشد أو التنوير[5].

وفي ضوء تلك الحقائق التاريخية المفزعة لم يكن هناك مناص من نشوء كراهية شديدة للكنيسة والتمرد عليها. فراح كبار المفكرين يندِّدون برجال الدين المسيحي وبكافة الأديان من قبيل التناظر والتشابه على اعتبار أنها خرافات وتعصب، وساووا بين العلمانية و « التنوير ». وهكذا بعـد

---

(١) انظر الحاشية ص ٢.

التنديد بكافة القيم الدينية التي تتجاوز خبرة البشر، وبالفلسفة الميتافيزيقية للكنيسة، ظهر هنالك مبدأ جديد ومختلف أشد الاختلاف يستند إلى حواس الإنسان : السمع، والبصر، والشم، واللمس، أو الإدراك عن طريق عضو حسيّ وهو حقيقي تماماً وله قيمته. « وفيما وراء هذه الحقيقة الحسية إما أنه لا يوجد شيء، أو إذا كان هناك شيء لا نستطيع أن نحسه فإنه يعادل شيئاً غير حقيقي وغير موجود ومن ثم يمكن تجاهله وإغفاله إغفالاً تاماً... ذلك باختصار هو الأساس الذي قام عليه بنيان الحضارة الغربية »(٦).

وقد ظهرت فكرة التحررية جنباً إلى جنب مع العلمانية « لإعفاء الإنسان العادي من قيود الشعائر والطقوس الدينية »، وإن كانت قد تبدل حالها تقريباً. ومع ظهور المذاهب المختلفة التي أسهمت هي الأخرى في تموين هذه الآراء. « فالاكتشافات الجغرافية، وعلم الكونيات الجديد، والاختراعات التكنولوجية، وظهور ميتافيزيقيا علمانية مجددة، وأهم من ذلك ظهور أشكال جديدة للحياة الاقتصادية، هذه التطورات جميعها أسهمت بمقدار في تكوين الآراء الباعثة للحضارة »(٧). ولقد كانت في الواقع ظاهرة صحية لأنها أيقظت الجماهير من غفوتها، كما كانت أشبه بعملية تشريحية وجراحية للكنيسة ونظامها اللاهوتي وأخلاقها الاجتماعية. كما فتحت الطريق أمام التحليل الدقيق لطبقة النبلاء، والأساس الاجتماعي الاقتصادي السياسي للمجتمع باستخدام مقص الجدل والمحاجاة وتشكيل مصيرهم على النحو الذي يريدون. ولكن هذا المقص وقع في أيدي « الرجعيين ». فقد استخدم العلماء أسلوب النقد المنطقي لكي يعلنوا أن الحرية عنصره، وأن القيود بطبيعتها عنصر الشر، وسعوا للتخلص من كل ما يقيد حرية الفرد في سعيه للتعامل مع الحياة(٨). ولا جدال أن هذا المذهب كان له تأثيره العميق على كافة نواحي الحياة ومؤسساتها.

أما العنصر الثاني الذي تتألف منه الحضارة الغربية فهو مبدأ الديمقراطية، وهو المبدأ الذي أقصى الرب والإله والخالق والرازق من ساحة

انظر الحاشية

السلطان والفنون. وقد آلت السيادة إلى أيدي الشعوب بدلاً من نوابها وممثليها لأنه من المعتقد أن الجماهير هي المصدر الحقيقي للسلطة السياسية وصاحبة الحق في استعمال السيادة مما قضى على ذلك التقسيم الثنائي بين الملك والرعية، فقد أصبح الشعب هو الحاكم والمحكوم، ومن المعتقد أنه يمكن التوفيق بين السيادة والحرية من خلال هذه المطابقة (بين الحكومة والمحكومين)[٩]. ومن هنا تعتبر إرادة الشعب أو الإرادة العامة معصومة مثلما كانت العصمة مكفولة لإرادة الملك في العصور الوسطى. فليس لأحد أي حق في أن يتدخل أو أن يفرض قيوداً من أي نوع على إرادة الشعب. وهكذا دفن مبدأ الحق الإلهي للملوك في أعماق الأرض، وفوق قبره ارتفع مبدأ جديد يعرف بحق المنفعة.

أما أخطر العناصر المكونة للحضارة الحديثة وأشدها فتكاً فهو مبدأ القومية، وله وجهان : أحدهما خارجي، والآخر داخلي. فمنذ مطلع القرن التاسع عشر تحول عنصر الأمة والمجتمع والشعب والحكومة من المنفعة والروابط السياسية والقوى التاريخية والعاطفية إلى مبدأ الشعب والسيادة القومية نتيجة للديمقراطية، وطبقاً لهذا المذهب أصبح لكل أمة الحق في إقامة حكومتها الخاصة المستقلة بإرادة شعبها، غير أن هذا المذهب يخدع الناس بتأكيده على أن حقوق الأمة التي يفترض أنها تمثل رغباتها تعلو فوق كافة الحقوق الأخرى. فالقومية الحديثة تعني أن المكانة الرفيعة والعظمة لا تتعلق بتحسين أحوال شعب ما فحسب وإنما يرتبط بها أيضاً إبادة جميع الشعوب الأخرى من ناحية، كما يرتبط بها من ناحية أخرى « الأسلحة شديدة التفجير والقنابل الذرية وأشعة الموت والوطنية الجامحة العمياء والتي تسعى بحق القوة القادرة على انتزاع الاحترام والاهتمام ». هذا ما لدينا عن الوجه الخارجي للقومية.

أما في الداخل فإن مبدأ سيادة الأمة يهدف إلى تبني مصالح الأفراد وتحسين قيم البشرية كما يهدف إلى إنجاز حق الأفراد، ولكن « الأمة تصبح هي القوة الشمولية العليا[١١]. أما الفرد فلا يعدو أن يكون مجرد خلية في الكائن الحي أو أداة ثانوية لا حيلة لها في الآلة الكبرى. فالفرد يعيش من

أجل الأمة. وتبدو الأمة كنظام خاص ولا يسمح لأي شيء بأن يتدخل في سياستها[١٢].

والأمة لا تهتم بالأخلاق والفضائل وإنما تهتم فقط بما يحقق سلطة السيادة ويحافظ عليها، وقد وفق « الهرفريك » وزير الداخلية الألماني الراحل في رأيه الذي أعلنه في روح القومية عندما قال : « إن خدمة هتلر تعني خدمة ألمانيا، وخدمة ألمانيا تعني خدمة الله ». « إن ما يقرره هتلر هو الصواب وسيظل صواباً إلى الأبد »[١٣]. ومن هنا وفي مثل هذه الظروف تبدو مثل السلام والتآلف وحكم القانون وحقوق الأفراد مجرد كلمات جوفاء، فقد تحولت الوطنية إلى استعمارية عدوانية[١٤].

وإلى جانب هذه المقومات هناك عنصر آخر يمثل أحد أهم المقومات التي تتكون منها الحضارة الحديثة ألا وهو « المادية ». إن النمو المادي الهائل والضخم قد أعمى أو غشى أبصار الجماهير بل والمفكرين أما أنه قد جعل الإنسان يعتقد أن المادة هي البديل لله وأنه فيما وراء المادة لا يوجد هنالك شيء. لقد هبط الإنسان من مرتبة الكائن البشري إلى مرتبة الكائن الحيواني. ومن المظنون أيضاً أن الإنسان لا يعدو أن يكون مركباً من الالكترون والبروتون ومجموعة من الاستجابات لبعض المثيرات والدوافع خليط من الطاقات الانفعالية السيكلوجية وفقاً للتحليل النفسي. وهكذا أصبحت شرعة الزندقة وإنكار الدين حيوية للغاية وتطرفت إلى حد أن الله قد نفي إلى أرض نائية وحلت مكانه شهوة لا حدود لها للانغماس في الشئون الدنيوية. إن الرجل الأوروبي العادي ـ سواء أكان ديمقراطياً أو فاشستياً، وسواء أكان رأسمالياً أو بولشفياً عاملاً يدوياً أو مفكراً لا يعرف سوى ديناً إيجابياً واحداً فحسب وهو عبادة التقدم المادي. وقد أدى هذا الاتجاه إلى نشوء نوع من الأخلاق البشرية لا تتعدى نطاق المنفعة العملية وتنحصر معاييرها العليا لقياس الخير والشر في النجاح المادي. وبذلك أصبح العالم الآن أشبه بالعمل التجاري ـ مشروع عملي ونشاط اقتصادي : « فالأمة هي مؤسسة تجارية، والحكومة هي متجر البيع، ودبلوماسيوها باعتها المتجولون الذين يسعون لإبعاد منافسيها وانتزاع الأسواق الجديدة منهم، أما رجال إعلامها ومفكروها فهم المحاسبون الخبراء في تلك المؤسسة[١٥] ».

لقد تناولنا فيما سلف الجوانب الأيديولوجية في الحضارة الغربية المادية، ومن الناحية الأيديولوجية نرى أن أبرز مظاهر الحضارة الغربية المعاصرة أو قاعدتها الصلبة التي تقوم عليها هو « الاتجاه العلماني » لهذه الحضارة. ولقد بلغت نزعة الزندقة هذه حداً من التطرف جعل الجماعات الدينية المنظمة نفسها تتحول إلى طريق العلمانية شيئاً فشيئاً. فبدلاً من أن يقدم رجال الدين ترياقاً لإبطال مفعول السم نجدهم يتغاضون عن تحويل الكنائس والمعابد إلى صالات للحفلات الصاخبة وقاعات لمآدب الزفاف وملاعب رياضية للشباب(١٦) ».

التأثير والانجازات :

مما لا شك فيه أن عصر النهضة يعتبر نجاحاً باهراً إذا نظرنا إليه كحركة فكرية وتقدم علمي وتطور تكنولوجي ونمو اقتصادي، فليس هناك فرع من فروع المعرفة (المظاهر المادية للحياة) لم تظفر بإسهام ضخم من جانب هذه الحضارة. وموجز القول أنها قد حققت تقدماً مادياً لم يسبق له مثيل، فقد تمت لها السيطرة على قوى الطبيعة واستغلالها، وأوجدت مجتمعاً صناعياً وتكنولوجياً لا نظير له في عظمته وروعته وكفاءته، ولكنها فشلت فشلاً ذريعاً في التحكم في المشاعر الدنيا داخل نفسها وبناء علاقات إنسانية على أسس من الأخلاق والقيم الروحية والحب والتضحية والثقة والتقوى والمعروف. ومن هنا أصبح لديها « خادم ممتاز » « وسيد شرير ».

وهنا يثور سؤال بطبيعة الحال : هل هذا التقدم المادي كان من صنع « عصر التنوير » أو « حركة النهضة » ؟ والجواب أن هذا التقدم المادي هو الحصيلة الطبيعية لطبقات الفكر التي أرستها الحضارات العديدة التي أفرزت رصيداً من الأفكار التي تم الانتفاع بها واستثمارها في سبيل تحقيق هذا التقدم العظيم.

« إن هذا العالم القديم كان جاهلياً كما رأينا، فعلم الفلك والرياضيات كانت علوماً أجنبية مجلوبة لبلاد الإغريق ولم يتهيأ لها أن تتأقلم

تماماً مع الثقافة الإغريقية. لقد برع الإغريق في الترتيب والتصميم ووضع النظريات، أما أساليب البحث الدؤوب وتجميع المعارف الإيجابية والأسلوب العلمي الدقيق والملاحظة التفصيلية المستأنية والاستقصاء التجريبي فكلها أساليب غريبة على المزاج الإغريقي. وكانت الاسكندرية في عهدها الإغريقي هي وحدها التي سارت على المنهج العلمي في العالم القديم. وقد نشأ ما نسميه بالعلم في أوروبا نتيجة لظهور روح جديدة تسعى للبحث والتحقيق وأساليب جديدة للدراسة والاستقصاء وأساليب التجربة والملاحظة والقياس وتطور العلوم الرياضية بشكل لم يعرفه الإغريق. تلك الروح وهذه الأساليب دخلت العالم الأوروبي على أيدي العرب ».[١٧] إن ضخامة التطور المادي والتقدم العلمي والتكنولوجي كان من صنع الحضارة الغربية وهو النتيجة الطبيعية لاستغلال خبرة العقول والمواهب سعياً وراء بلوغ هدف واحد وهو تحقيق الحد الأقصى من القوة والسرعة والكفاية واللذة والراحة والرفاهية في أقصر وقت ممكن : فلا شأن لها بالقيم الأخلاقية والروحية وإنما تحركها وتوجهها المادية المجردة والعلمانية[١٨].

إن هذا التطور المذهل لعلوم الفيزياء والاحياء يكفي لكي يعهد للفكر بدور توجيه نشاط الإنسان ووضع قواعد الأخلاق ؟ كلا ! « إننا نملك كذا من المشاهدات والملاحظات التي جمعها العلماء والفلاسفة والشعراء والأسرار الدينية العظيمة لكافة العصور. لقد اكتشفنا جوانب محددة فقط من أنفسنا ولكننا لا نفهم الإنسان ككل. إننا نعرف الإنسان على أنه يتألف من أجزاء متميزةولكن حتى هذه الأجزاء نفسها إنما هي من تأليف أساليبنا ومن ثم فإن جهلنا بأنفسنا مطبق ومعرفتنا بأنفسنا بدائية للغاية »[١٩]. وهكذا نجد أن الفكر وحده بلا عون من الوحي الإلهي، والعلم بلا توجيه من الإيمان بالمبادئ الأخلاقية، « قد جلبا للعالم فوضى عارمة ». إن الإنسان الحديث، وقد طغت عليه تماماً نتائج نشاطه العقلي، لم يعد يحيا حياة مفعمة بالعواطف أي من داخله، ولكنه في عالم الفكر يعيش في صراع سافر مع نفسه وفي مجال الحياة الاقتصادية والسياسية يعيش في صراع سافر مع الآخرين. لقد استحوذ عليه الواقع بمعنى المصدر الحالي المنظور للحس والشعور بحيث انفصل تماماً عن أعماق ذاته وكيانه والتي لم تسبر أغوارها

بعد :[٢٠] وعلى ذلك فإن الحضارة الحديثة قد تضفي على الإنسان القوة ولكنها لن تضفي عليه البصيرة والإلهام. وتلك هي الغلطة الكبرى والفادحة التي وقعت فيها هذه الحضارة.

هل هذا التطور التكنولوجي والميكنة دواء عام لكل هذا التقدم المادي بلا حدود ؟ إن الميكنة المكثفة والتطور التكنولوجي قد حول أمريكا من مجتمع زراعي إلى مجتمع صناعي فأصبحت شبكة من الطرق السريعة، ونظم النقل الجمالي وأقيمت مهابط لطائرات الهيلوكبتر فوق أسطح المباني الشاهقة، وتم التغلب على قيود النقل وازدادت الأبنية علواً وارتفاعاً وزاد عدد السكان. لقد توقفت معظم المدن الأمريكية الكبرى عن النمو الآن. ومن بين المدن العشرة الكبرى في أمريكا نجد خمساً منها ـ هي نيويورك وشيكاغو وفيلادلفيا وديترويت وباليتمور ـ قد قل عدد سكانها في الفترة من ١٩٦٠ ـ ١٩٧٠ في حين لم يطرأ تغير على سكان واشنطون... وأصبحت مراكز هذه المدن تتميز بالضوضاء والتلوث والجريمة وإدمان المخدرات والفقر وإضرابات العمال وانهيار الخدمات الاجتماعية. لقد تدهور نمط الحياة في قلب المدينة وتوقف النمو جزئياً من جراء مشكلات لا توجد حلول تقنية لها[٢١] ».

إن كافة مقومات الحضارة الحديثة مهيأة لإضعاف كيان الأسرة بقدر الإمكان بما يترتب على ذلك من آثار مهلكة على الصحة العقلية والعاطفية والروحية للإنسان، لقد بدأ نظام الحياة الأسرية في التفكك بل في التداعي والانهيار كما صرح بذلك رأي « بونفنبرز » خبير تنمية الطفل في جامعة كورفيل حيث قال « هناك عديد من الشواهد والأدلة التي تؤكد ذلك. فنحن نرى أن الأسرة القديمة التي يمتد تاريخها على مدى عدة أجيال قد اختفت بالفعل بكل أفرادها في أمريكا منذ الحرب العالمية الثانية وحتى نواة الأسرة الصغيرة التي تتألف من الأم والأب والأطفال بدأت تضمحل هي الأخرى. ونجد الآن أن أكثر من سدس مجموع الأطفال في بلادنا يعيشون في عائلات تضم أحد الأبوين فقط وهي في العادة الأم التي أصبحت على رأس أسرة مستقلة وهي غالباً ما ترتبط بعمل يتطلب دواماً كاملاً. وإلى جانب

ذلك يرتفع عدد الأمهات غير المتزوجات ارتفاعاً صاروخياً على الرغم من تحديد النسل وهذه التطورات كلها قد تركت كثيراً من الأطفال دون رعاية على الإطلاق ». كما يشير إلى أن « ما يربو على ٥٠٪ من النساء اللاتي لديهن أطفال يتعلمون بالمدارس يعملن الآن. وكذلك الحال بالنسبة لأكثر من ثلث النساء اللاتي لديهن أطفال تقل أعمارهم عن الثالثة. لقد أصبحنا الآن في وضع نجد فيه الأب يعمل والأم تعمل أيضاً والسؤال هو من ذا الذي يرعى أطفال أمريكا ؟ إن الجواب على هذا السؤال يدعو للانزعاج فإن عدد الآباء والأمهات الذين يقومون بواجب رعاية لأطفال يتضاءل يوماً بعد يوم ».

إن الإحصاءات التي تتناول التغييرات الأساسية التي طرأت على الأسرة الأمريكية تدل على وجود اتجاهات حيوية بغض النظر عن التفسيرات التي تستخلص من هذه التغييرات :

- فقد تضاعف معدل الطلاق خلال العشرين سنة الماضية.
- من المقدر أن اثنين من كل خمسة أطفال ولدوا في هذه الحقبة سيعيشون في بيت يرعاه أحد الأبوين لمدة لا بأس بها من فترة شبابهم.
- زاد عدد الأسر التي ترأسها النساء إلى أكثر من الضعف خلال جيل واحـد.
- وهناك العدد المتزايد من الأولاد غير الشرعيين حيث بلغت نسبتهم ١٥٪ من مجموع المواليد.

ولقد كان لتدهور الحياة الأسرية آثاراً خطيرة عديدة على الشباب فأصبح الانتحار يمثل السبب الثاني في ارتفاع عدد الوفيات بين الشباب وشاع استعمال المخدرات كما انتشرت جرائم الأحداث.

ويقول الدكتور هارولدف. راث كبير الأطباء النفسيين في مؤسسة فينجز إنه لا غرابة في أن تقدر اللجنة الرئاسية للصحة العقلية أن ثمانية ملايين طفل أمريكي في حاجـة إلـى مساعـدة عاجلـة لعلاجهـم من الاضطرابات النفسية ونظراً لتدهور الأسرة فليس هناك ما يدعو للدهشة عندما نعلم أنه في خلال عام واحد وقع ٧٠٠٠٠ اعتداء على المدرسين و ١٠٠ جريمة قتل في المدارس وإتلاف لممتلكات مدرسية تبلغ قيمتها بليون

دولار ». ولقد ازداد الآن التساهل في تربية الأطفال كما ازداد انهيار الأسرة وأخذ جنوح الشباب يتزايد بسرعة.

إن نبذ كافة القوانين العلوية والقيم الأخلاقية قد عرض البشرية للخطر وانحدر بالإنسان إلى مرتبة الحيوان. فقد تفشى النشاط الجنسي بشكل عنيف وفي سان فرانسسكو احتشدت جماعة من النسوة واللوطيين (جبهة تحرير المرأة وجبهة تحرير أنصار المتعة الاجتماعية). وراحوا يهتفون « فيتنام فاحشة، الجنس ليس بفاحشة ».

إن جمعيات الجنس التي تنادي سواء بإباحة اللواط والشذوذ الجنسي بين الرجال والنساء تصدر العديد من المجلات وتحظى مطالبهم ومظاهراتهم باهتمام التلفزيون الذي يحرص على تغطية أخبارهم كما تنتج الأفلام السينمائية دفاعاً عنهم. ويزداد الاهتمام والتأييد دوماً لقانون يدعو لإباحة الإجهاض ولقانون آخر يبيح الطلاق بموافقة الطرفين أو حتى على أساس قرار من جانب واحد ولقانون ثالث يسمح بالشذوذ الجنسي.

إن « مادية » الغرب « وزندقته » قد جعلت العالم بأسره مرتعاً لاستغلاله واستعماره، وإنه لمما يدعو للسخرية أن عصر الديمقراطية التحررية كان هو نفسه عصر الاستعمار، فعندما كانت باريس تدوي جنباتها بالشعارات الثورية التي تنادي بالحرية والإخاء والمساواة كانت القوات الفرنسية تسحق الدول المستقلة في أفريقيا وجنوب شرق آسيا وتخضعها لنير استعمارها، وفي الوقت الذي كانت الديمقراطية لها اليد العليا في انجلترا وأمريكا كان يجري إخضاع الصين والهند، ولقد استعبدت هاتين الدولتين بلا هوادة ودمرت ثقافاتها بطريقة لا تمت للإنسانية بحال من الأحوال. فقد خنقت الصناعات الهندية لإفساح الطريق أمام صناعة النسيج في لانكشير وتم إفقار الصين لكي يتحقق الثراء لبريطانيا وأحرقت مكتبة شنغهاي العظيمة لغير ما سبب سوى إشباع التعطش الاستعماري للسيطرة. وتعرضت روسيا لغزو الجيوش الغربية في الأعوام ١٦١٠، ١٧٠٩، ١٨١٢، ١٩١٥، ١٩٤١ وتعرضت شعوب أفريقيا وآسيا لموجات متعاقبة من الاعتداءات الاستعمارية في شكل المبشرين والتجار والمغامرين الوافدين من الغرب منذ القرن

الخامس عشر. وفي تلك الفترة نفسها استعمر الغرب أمريكا واستراليا ونيوزيلندا وجنوب أفريقيا وغربها وأباد السكان الأصليين أو أخضعهم لسيطرته. وتم استرقاق ملايين الإفريقيين الذين نقلوا عبر المحيط الأطلنطي للعمل في خدمة المستعمرين الأوربيين في الامريكتين كآلات حية تعمل على إشباع نهم سادتهم الغربيين إلى الثراء. وبذلت كل المحاولات للقضاء على الثقافات المحلية في كافة أرجاء آسيا وافريقيا وزرعت في عقول الجيل الجديد بدقة متناهية بذور التمرد على حضارتهم الأصلية وتم اغتيال عقولهم وفكرهم عن طريق التعليم وأجهزة الإعلام. فلا يسمح أحد بظهور ثقافاتهم وحضاراتهم في الوقت الذي فرضت عليهم فيه نظم الغرب.

من هنا يتبين لنا بالتحليل الدقيق للحضارة الحديثة أن نسيجها متعدد الألوان قد نسج من هذه النزعة الدنيوية والعلمانية ومبدأ المنفعة. وترتب على ذلك أن نظام الأسرة بدأ يتفكك وأخذت الهوة التي تفصل بين الأجيال تزداد وتتسع وانحدرت العلاقات الاجتماعية إلى الدرك الأسفل وتفشى الاستغلال الاقتصادي وأصبح التوسع السياسي هو الاتجاه الغالب واتسع نطاق المنافسات الدولية وتمزقت أوصال المجتمع الإنساني بفعل التوترات الثقافية بينما أخذ الظلم الاجتماعي يمزق الإنسان.

لقد تناولنا فيما سبق الأساس الأيديولوجي للحضارة الغربية وانجازاتها وتأثيرها على المجتمع، وسنلقي الآن نظرة على عقيدة الإسلام التي تقوم على أساسها حضارته.

ينبغي لنا في البداية أن نفهم معنى كلمة « الإسلام »، فهي كلمة عربية تعني الخضوع والاستسلام والطاعة والسلام. إن الإسلام كدين يدعو للخضوع التام والطاعة لله ولهذا سمي بالإسلام.

إن الإسلام توجيه إلهي وهو ليس رسالة جديدة أتى بها محمد ﷺ وإنما هو رسالة جميع رسل الله إلى البشرية ــ وهي الخضوع التام من جانب الإنسان لله ــ وهو الدين الوحيد الذي أنزله الله للبشر منذ أن خلق آدم مروراً بنوح وابراهيم وموسى وعيسى حتى محمد ﷺ (القرآن الكريم سورة ٢ آية ٣٦، سورة ٣ الآيات ١٩، ٦٧، ٨٣ ــ ٨٥، سورة ١٠ الآيات

٧٢، ٨٥، سورة ١٢ الآية ١٠١، سورة ٥ الآيات ٤٤، ١١١، سورة ٢٧ الآية ٤٤). غير أن الرسالة الأصلية تعرضت للتحريف والتغيير والتشويه والنسيان كما أدخلت على نصوصها تحريفات وزيادات وقد أراد الله إزالة هذه التحريفات والإضافات وأنزل الإسلام بصورته الأصلية النقية للبشرية عن طريق محمد ﷺ ولما كان محمداً ﷺ خاتم النبيين فإن الكتاب الذي نزل عليه قد حفظ كلمة كلمة (القرآن الكريم سورة ٦٢ آية ١٣، سورة ١٥ آية ٩، سورة ٨٥ الآيات ٢١ ـ ٢٢، سورة ٣ الآية ٨٤) لكي يكون مصدراً للتوجيه الإلهي.

إن القرآن الكريم يدعو الناس جميعاً وآل ابراهيم إلى كلمة سواء من أجل تحقيق الهدف المشترك الذي يمكن البشرية من أن تعيش في سلام مع ربها بالخضوع لمشيئته (القرآن الكريم سورة ٣ آية ٦٤). كما يدعو الإنسان لأن يسلم نفسه لخالقه فحسب وأن يوفق بين إرادته وبين مشيئة الله وأن يكون خليفة في الأرض بهذا الاستسلام النبيل (القرآن الكريم سورة ٦ الآيات ١٦٢ ـ ١٦٣).

ومن الناحية العقائدية فإن التوصية والرسالة والإيمان بالآخرة هي الأسس التي تقوم عليها الحضارة الإسلامية. وسنلقي الضوء على هذه الصيغة التي تتألف من ثلاث نقاط: كيف توجه وكيف تصوغ حضارة كاملة.

إن التوحيد مفهوم وهو حجر الزاوية في الفلسفة الإسلامية وفي ثقافة الإسلام وحضارته. وهذا المفهوم لا يعني مجرد الاعتقاد بأن الله موجود وأنه واحد أحد وإنما يمتد أيضاً إلى الاعتقاد بأنه هو الخالق والمولى والحاكم والرازق والمسيطر ورب كل ما هو موجود (القرآن الكريم سورة ٦ آية ٧٣، سورة ٢٣ آية ١٦، سورة ٢٠ آية ٨، سورة ٧ آية ٥٤، سورة ٣٢ آية ٥، سورة ٢ آية ١٠٧، سورة ٢٥ آية ٢، سورة ٤٩ آية ٣٨).

إن الكون موجود ويؤدي وظيفته لأن الله يريد له أن يوجد وأن يؤدي وظيفته (القرآن الكريم سورة ٣٥ آية ٣، سورة ٥١ آية ٥٨، سورة ٦ آية ١٦٤). والسيادة المطلقة لله وحده لا يشاركه فيها أحد بأي قدر مهما كان (القرآن الكريم سورة ٦ الآيات ١٧ ـ ١٨، سورة ١٨ الآيات ٢٦ ـ ٢٧، سورة ٥٧ آية ٥، سورة ٥٩ آية ٢٣، سورة ٦٧ الآية الأولى، سورة ٣٦ آية

٨٣، سورة ١٠ آية ١٠٧، سورة ٧٢ آية ٢٢ وغيرها من الآيات) والألوهية المطلقة له فله وحده الأسماء الحسنى التي لا يدعي بها أحد سوى الله (القرآن الكريم : سورة ١٩ الآيات ٨١ ـ ٨٢، سورة ٣٦ الآيات ٧٤ ـ ٧٥، سورة ١١ آية ١٠١، سورة ١٦ الآيات ١٧ ـ ٢٢ ـ ٥٥، سورة ٤٦ الآيات ٢٧ ـ ٢٨، سورة ١٠ الآية ١٨ وغيرها من الآيات) ولديه العلم المباشر والكامل والمطلق بما يجري في الكون فهو العليم القدير (القرآن الكريم : سورة ٤٧ الآيات ١٣، ١٤ ـ ١٩، سورة ١٧ آية ٢٦، سورة ٥٠ آية ١٦، سورة ٥٧ آية ٤، سورة ٢٧ آية ٦٥، سورة ٣٤ آيات ٢ ـ ٣، سورة ٦ آية ٥٩) وهو وحده الباقي والدائم (القرآن الكريم : سورة ٥٧ آية ٣، سورة ٢٧ آية ٨٨، سورة ٥٥ آية ٢٧، سورة ٢ آية ٢٢٥، سورة ٤٠ آية ٦٥). وكل ما خلا الله زائل وفان. وهو لم يلد ولم يولد وليست له بنت ولا ولد وليست له والدة ولا والد (القرآن الكريم : سورة ١١٢ آية ٣، سورة ٢ آية ١١٧، سورة ٦ آية ١٠٢، سورة ٢٣ آية ٩١، سورة ١٨ الآيات ٤ ـ ٥، سورة ١٩ الآيات ٣٥ ـ ٨٨ ـ ٩٣). وهو الإله الأوحد للإنسان وكل العبادة تنصرف إليه ولا يشرك في عبادته أحد وهو وحده الذي يعطي ويمنع وأي التجاء لأحد غيره يعادل الشرك به (القرآن الكريم : سورة ٣٩ آيات ٣ ـ ٦٤، سورة ٢٨ آية ٨٨، سورة ٧ الآيات ٥٥ ـ ٥٦، سورة ١٠ آية ١٨، سورة ٣١ آية ١٣، سورة ٣٨ آية ٦٥). وهو الشارع الوحيد وله الحاكمية المطلقة في كل مجال ولا ينازعه فيها أحد (القرآن الكريم : سورة ٣٥ آية ٤٣، سورة ٩ آية ٣١، سورة ٤٢ الآيات ١٠ ـ ٢١، سورة ٢٢ الآيات ١١٦ ـ ١١٧، سورة ... الآيات ١ ـ ٣، سورة ١٢ آية ٤٠، سورة ٧ آية ٣ وغيرها من الآيات).

وننتقل الآن إلى ثاني المقومات الهامة للعقيدة وهو الرسالة. إن الله قد بعث رسالته للإنسان عن طريق الأنبياء الذي ظهروا في أزمان وأماكن مختلفة، ولكن محمداً ﷺ كان آخر الأنبياء وخاتمهم وقد أكد رسول الله ﷺ ذلك بقوله : « إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وصغت هذه اللبنة ؟ قال : فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين.

إن الإيمان بالرسل وبمحمد باعتباره آخر الرسل شرط أساسي للإسلام فلا يدخلن في دين الإسلام ما لم يؤمن بالرسول مثلما يؤمن بالله (القرآن الكريم : سورة ٢٤ آية ٦٢، سورة ٤٩ آية ١٥). وبذلك يتحدد وضع الرسول تحديداً بيناً فهو ليس أكثر من عبد الله وهو يدعو الناس لأن يعبدوا الله لا لكي يعبدونه هو (القرآن الكريم : سورة ٣ آية ٧٩) وهو بشر وليس له أي نصيب، مهما كان، من الألوهية (القرآن الكريم : سورة ١٨ آية ١١٠).

ومفهوم الرسالة يتلاءم مع المخطط العام لصرح الإسلام فمهمة الرسول على وجه التحديد هي إبلاغ رسالة الله. إن المبادىء والتوجيهات مبينة في القرآن الكريم ولكن لا يمكن فهمها على الوجه الصحيح دون النظر في سيرة النبي ﷺ والتي كانت الترجمة الصحيحة لتلك المبادىء ووضعها موضع التطبيق. ومن هنا فإن طريق النبي ﷺ هو طريق التوجيه الإلهي (القرآن الكريم : سورة ٢٤ آية ٥٤) ومن يطع الرسول فقد أطاع الله في الواقع (القرآن الكريم : سورة ٣ آية ٥٠، سورة ٤ الآيات ٦٤ ـ ٨٠ وغيرها من الآيات).. وكل ما يأمر به الرسول ﷺ يجب أن يطاع وكل ما ينهى عنه يجب تجنبه (القرآن الكريم سورة ٥٩ آية ٧). وموجز القول أن « سنة محمد هي بيان تفسيري لمقاصد القرآن الكريم وهذا البيان التوضيحي نفسه موصى به إلى محمد من الله الذي نزل القرآن ». فتفسير القرآن الذي صدر عن النبي ﷺ يحظى بتأييد من الله (القرآن الكريم : سورة ١٦ آية ٤٤، سورة ٧٥ الآيات ١٧ ـ ١٩) وليس لأحد أن يعترض عليه ». إن الله قد أنزل للبشر عن طريق النبي شريعة عليا كما أنزل منهجاً دائماً للقيم وهذه القيم مطلقة فما هو صالح في نظر القرآن والسنة يصلح لجميع الأزمان وما هو شر سيظل شراً إلى الأبد. وكل ما أمر به القرآن والسنة على أنه واجب سيظل واجباً على الدوام وما أعلن أنه مباح سيظل مباحاً إلى الأبد وما هو محرم في القرآن والسنة سيظل حراماً في جميع الأزمان فلا يمكن إدخال تعديل على هذه الشريعة أو حذف شيء منها أو إضافة شيء إليها أو إلغاء جزء منها ما لم يقرر شخص ما أو جماعة ما الارتداد عن الإسلام ».

وثالثة العقائد التي ترتكز عليها الحضارة الإسلامية هي الإيمان بالآخرة فهذا الإيمان بالآخرة جزء لا يتجزأ من الإسلام ولا يدخلن أحد في الإسلام إذا لم يؤمن بالآخرة مثلما يؤمن بالله والرسول. وبالتالي فإن إنكار الآخرة هو في حد ذاته إنكار للإسلام (القرآن الكريم : (سورة ٦ الآيات ٣٠ ـ ٣١، سورة ١٠ آية ٤٥، سورة ١٣ آية ٥ وغيرها من الآيات)، وفيما يلي بيان للمقومات الأساسية لهذه العقيدة.

إن الإنسان ليس مخلوقاً جامحاً تحركه الرغبة في الأكل والشرب والجنس كما أنه ليس متوحشاً وغير مسئول عن أعماله تحركه الغريزة وإنما الإنسان هو أفضل المخلوقات (القرآن الكريم : سورة ٥١ آية ٥٦) ومسئول عن أعماله وسلوكه بالطاعة أو المعصية لله (القرآن الكريم : سورة ٥٨ آية ٧، سورة ٥٧ آية ٢، سورة ٧٥ آية ٣٦، سورة ٧٦ آية ٢ وغيرها) في يوم الحساب الذي يحدده وسيقدم جميع أفراد الجنس البشري حساباً وافياً عن أعمالهم يوم يبعثون وسيوضع سجل أعمالهم دون أدنى تغيير أمام محكمة الله العلنية (القرآن الكريم : سورة ١٨ الآيات ٤٨ ـ ٤٩، سورة ٢٤ آية ٢٤، سورة ٣٦ الآيات ١٢ ـ ١٦ وغيرها من الآيات والحكم سوف يعلنه الله وحده ! القرآن الكريم : سورة ٢ الآيات ١٦٦ ـ ٦٧، سورة ١٠ الآية ٢٨، سورة ١٤ الآيات ٢١ ـ ٣١، سورة ١٦ الآية ٨٦ وغيرها) وسيجري الدافع إلى العمل والسلوك على أساس هذه القاعدة : « هل أقدم الإنسان على هذا العمل طاعة لله والتزاماً بالحق المنزل على الرسل وإيماناً منه بأنه سيحاسب على هذا العمل في يوم الحساب ؟ فإذا كان الجواب بالإيجاب فإن الثواب هو الجنة أما إذا كان سلباً فإن العقاب هو النار (القرآن الكريم : سورة ١٨ الآيات ١٠٥ ـ ١٠٦، سورة ٢٨ آية ٦٥، سورة ٣٤ آية ٧١ وغيرها).

ولقد أحسن السيد محمد النقيب العطاس في بيان العقيدة الإسلامية عندما قال : « إن الإسلام هو الدين الشخصي الذاتي للفرد كما أنه هو نفسه الدين الموضوعي العام للجماعة ـ فهو يحدث مفعوله في الفرد ككيان مستقل مثلما يحدث مفعوله في المجتمع الذي يتألف من مجموع

هذه الكيانات المستقلة. ومن المفهوم ضمناً في عرضنا هذا أن الإسلام اعتقاد وإيمان وهو الانسجام في العبادة وهو تصديق بالقلب والعقل وإقرار باللسان والعمل وهو يمثل علاقة الانسجام بين الروح والبدن إنه طاعة لله ولرسوله ﷺ إنه التسليم التام بكلمة الشهادة بأنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. إن الإسلام هو جماع هذه العقائد كلها بكل ما يترتب عليها في الاعتقاد والعمل في شخص المسلم كما في الجماعة ككل. فلا يمكن أن يكون هناك انفصال أو تقسيم بين أجزاء هذه الوحدة من العقائد المترابطة بانسجام.

إنَّ مفهوم (الوحدة) ذو مدلولات وآثار بعيدة المدى فإذا كانت الأشياء جميعها تحتويها وحدة الله ـ كلا من الطبيعة في تعددها والإنسان في جوانبه ـ فليس هناك شيء، سواء على المستوى الفردي أو على مستوى المجتمع، لا تشمله هذه الوحدة فلا يمكن أن يكون هناك مجال روحي منفصل عن المجال الدنيوي. ولا يمكن أن يكون هناك فصل بين الدنيا والدين أو بين المقدس والمدنس أو بين الكاهن والعلماني أو بين الخاص والعام أو بين الوطني والدولي وكل هذه التقسيمات التي يرفض الإسلام بإصرار أن يقرها.

إن هذه الصيغة ذات النقاط الثلاث هي القاعدة الأساسية وهي قاعدة كافية لبناء الحضارة الإسلامية وقد وهب الله لنا مبادىء توجيهية في كل مجال من مجالات الحياة لتكون بمثابة هداية دائمة لنا ولا يتسع المقام لنا للدخول في التفاصيل ولكنا سنتناول بإيجاز نواحي التطبيق لهذه الصيغة والهداية الدائمة كما وردت في القرآن الكريم والسنة.

إن الإنسان، باعتناقه العقيدة والإيمان بوحدانية الله، يتحرر من كافة أشكال العبودية والخضوع لأي قوة أخرى ابتداء من إحناء الرأس أمام الأصنام والأشياء الجامدة الميتة ومختلف أشكال الوثنية ومن غرور وغطرسة استعباد غيره من بني الإنسان والشعوب وذلك فضلاً عن استئصال كل أنواع الخوف من مخلوقات الله. فالإنسان يعترف بخالقه على أنه القوة العليا. وخلاصة القول أنه بقبوله دور العبد لله الواحد الأحد يصبح سيداً لكل

مخلوق آخر كائناً كان أم جماداً. وبذلك يشعر الإنسان بالمكان الرفيع الذي أفرده له الله بين الأشياء.

إن المفهوم القرآني للتوحيد له وجهان لا ينفصلان، أولهما وحدانية الله، والثاني وحدة البشر، وقد تعرضنا للوجه الأول، أما الثاني فيقدم لنا مفهوم المساواة والأخوة بين كافة البشر (القرآن الكريم : سورة ٣ الآيات ١٠٢ ـ ١٠٣ ـ سورة ١ الآية الأولى). فالإسلام يستنكر تقسيم البشر على أساس الطبقات الاجتماعية والعقائد أو القبائل أو الشعوب أو أي نوع من الانتساب لفئة رفيعة المنزلة (القرآن الكريم : سورة ٥ آية ١٨). وهكذا نجد أن الإسلام يندد بالمذهب الطبيعي كما يندد بمذهب التمييز العنصري ويعلن الرسالة الثورية التي تبشر بالمساواة بين البشر. وهاتان العقيدتان : وحدانية الله ووحدة البشر، هما الأساسان الطبيعيان لإقامة أي صرح للسلام والتقدم والصداقة والتعاون بين مختلف الشعوب والأمم. وهما معاً يوجدان رابطة من الأخوة بين بني الإنسان، فإلههم إله واحد وأبوهم جميعاً أب واحد. إن وحدانية الله هي المبدأ الروحي للمساواة بين البشر وصلة النسب المشترك بين الرفيع والوضيع والأبيض والملون تضع كافة البشر على نفس المكانة الإنسانية (القرآن الكريم : سورة ٤٩ آية ١٣). بل إن الإسلام قد زاد من رفعة شأن الإنسان لأن الله جعله خليفة في الأرض (القرآن الكريم : سورة ٢ آية ٣٠). وأخبر الله أن الإنسان هو أفضل المخلوقات وأنه هو المسيطر على العالم بأسره وكل ما فيه (القرآن الكريم : سورة ١٧ آية ٧٠).

إن الإسلام لا يضع أية حدود فاصلة بين الحياة الروحية والحياة الدنيوية، فالتوجيه الإلهي يؤدي إلى طريق التوازن أو الصراط المستقيم ـ فالإسلام يحرم كلا من المادية المفرطة والروحانية الزاهدة، ولقد علم الله الإنسان أن يدعوه قائلاً :

« ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة[1] ».

ويتضمن الإسلام نظاماً كاملاً للحياة بكل جوانبها ومجالاتها.

(١) سورة البقرة آية ٢٠١.

ويجلب الطمأنينة للنفس وللأسرة والمجتمع والحاكم والمحكوم والأمم لأن السلام يسود بين الروح والمادة وبين الابن وأبويه وبين المرء وزوجه ويحل الوئام والانسجام بين الأغنياء والفقراء وبين الحكومة والشعب وبين المعلمين والطلاب وبين المعوزين وعامة الناس. وهذا النظام يستأصل الجور والمظالم ويقضي على الفوضى والاضطراب والخوف والجزع فهو يدعو الناس للتأمل في الكون وطلب العلم والتفكير في حركة العالم والكشف عن البحار المترامية والتنقيب في سطح الأرض وأعالي الجبال. ومن هنا عرف تاريخ البشرية التجربة العظيمة التي عاشتها الثقافة والحضارة الإسلاميتين بطريقة رائدة على أساس القيم والخصائص المنوه عنها آنفاً. ونتيجة لذلك فقد سيطر المسلمون على ممالك العالم بنفس السرعة التي سيطروا بها على ممالك الدول المجاورة لهم. وكانت الروح الدافعة وراء تلك الإنجازات العلمية التي حققها المسلمون تتلخص في أنهم كانت لديهم رغبة عارمة لتفهم العالم الذي خلقه الله وتقبلهم للعالم المادي على أنه ليس أدنى من العالم الروحي بل هو صنوٌ له في شرعيته والواقعية الشديدة التي تعكس بصدق الطبيعة غير العاطفية للعقل العربي وأخيراً فضولهم الذي لا يشبع. وفي ظل الإسلام لم يسلك كلا من الدين والعلم طريقاً منفصلاً بل إن الدين في الواقع كان من أهم الحوافز التي شجعت العلم.

وهنا يبرز سؤال وثيق الصلة بموضوعنا : إذا كانت العقيدة الإسلامية سماوية وأثبتت تفوقها وصلاحيتها فكيف تسنى للحضارة الغربية أن تسود العالم أجمع بما فيه العالم الإسلامي ؟ والجواب على هذا السؤال ليس بعيد المنال فالقاعدة الأساسية التي قام عليها البناء الرائع قد اهتزت بفعل السكان. إن ضعف العقيدة وتراخي الإيمان بالمبادىء الإسلامية قد أحدث تأثيره في انحطاط الحضارة الإسلامية. لقد خمد الحافز للتعمق في فهم الكون وتجمعت الرغبة في معرفة العالم المادي والروحي وتراخت القوى الدافعة لاكتشاف المعالم وتلاشت عناصر التحفيز والتشجيع على الاختراع والابتكار واضمحلت اللهفة على دراسة الكون المادي دراسة منظمة. وفي نفس تلك الفترة التي أسلم فيها المسلمون للرقاد استيقظ الغرب وراح يسعى وراء التقدم المادي. وبالتالي فقد حدث تطور هائل في العالم المادي، ومع

هذا الشعور الهائل ظهرت تكنولوجيا متفوقة وتنظيم أفضل وطاقة مادية كبرى ودعاية رهيبة وأجهزة إعلام جماهيرية بهرت عيون العالم وحتى العالم الإسلامي نفسه وخلقت عقدة نقص لدى الدولة النامية بعامة والدول الإسلامية بصورة خاصة.

إن ما نحتاجه بالفعل ليس بأقل من الاندماج الكامل لكافة الطبقات في نظرتنا لتنمية العالم والتي تقسم العالم إلى مراتب وطبقات أي النظر في آن واحد لكافة الجوانب المتعلقة بتطوير البشرية.

وهكذا نرى أن الحركة التي بدأت بقيام عصر النهضة قد فشلت فشلاً ذريعاً في حل مشكلات الجنس البشري.

وها نحن نرى الآن حالة البلاد الإسلامية، ففي الوقت الحالي توجد دول إسلامية بسكانها ولكنها اتخذت لنفسها أيديولوجية غريبة تماماً على شريعة الله. ودول أخرى اتخذت حكوماتها لنفسها أسماء الاشتراكية والبعثية والديمقراطية الشعبية وهلم جرا. وفئة أخرى من هذه الحكومات تؤثر صفة « العلمانية » على الرغم من أن السواد الأعظم من سكانها مسلمون. وهناك حكومات استبدلت بمكة المكرمة موسكو أو واشنطن كمركز روحي تولي وجهها شطره واتخذت من ماركس وغيره من فلاسفة الغرب مثلاً أعلى لهم بدلاً من محمد ﷺ وأصبح (رأس المال) وغيره من الفلسفات الغربية كتابهم المقدس بدلاً من القرآن الكريم. وأكثر من ذلك أن بعض هذه الدول تعلن أنها تسير على نهج الماركسية ــ اللينينية أو الماركسية الإسلامية لأنها تتفق مع المصالح العليا لشعبنا. ودول أخرى تسير في طريق التغريب دون ما قيد على ما يسمى بالتنظيمات أو التنمية.

ولننظر الآن في سؤالنا الأخير : كيف يعامل الإسلام الشباب وما هو الدور الذي ينبغي أن يضطلع به الشباب ؟

يصف مصطفى الرافعي فترة الشباب فيقول « إن الشباب هو القوة، لأن الشمس لا تشرق بعد الظهر بقدر ما تسطع في الصباح. وفي الشباب ضرب من الحياة يبدو الموت معها وكأنه سبات من النوم، والشجرة تثمر في شبابها وبعد فوات الشباب لا تعطي الأشجار سوى الخشب ».

وقد قدر الرسول ﷺ الشباب حق قدره وأبرز قيمته وأعلى شأنه، ويقول القرآن الكريم : « الله الذي خلقكم من ضعف، ثم جعل من بعد ضعف قوة، ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة[1] ».

وتوضح هذه الآية الكريمة ثلاث مراحل في حياة الإنسان : الطفولة والشباب والشيخوخة. والمرحلتان الأولى والأخيرة من حياة الإنسان تتميزان بالضعف والعجز والاعتماد على الغير، ومن المعروف عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه أنه كان يستعيذ بالله من الهرم ومن أرذل العمر، فالشباب رمز للقوة والبأس والحيوية والنشاط. ومن حقائق الحياة الثابتة أن فترة الشباب تعتبر عند الجميع الفترة التي تبلغ فيها ملكات وطاقات الإنسان الجسدية والعقلية والفكرية والمعنوية أقصى مستوى لها من النمو والاستعمال. فهي الفترة التي يفرز فيها العقل إمكاناته الإبداعية في أحسن صورها. وقد أوجز القرآن الكريم هذا الأمر في الآية الكريمة :

« لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس[2] ».

وفي هذه الآية يعتبر الحديد رمزاً للقوة والبأس وهي أنسب ما تكون في الإطار المنطقي للأمور.

كما روي عن الرسول ﷺ أنه دعا المسلم كي يغنم من شبابه قبل شيخوخته وأنه ذكر من بين سبعة يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله شاباً نشأ في طاعة الله.

ونرى أيضاً أن القرآن الكريم والرسول ﷺ يذكران أنه خلال تاريخ رسالات الله للبشر منذ عهد آدم حتى عهد محمد ﷺ كان الشباب هو الذي اضطلع بالدور الأكبر والحاسم في إعلاء كلمة الله وشريعته.

قال عبد الله بن عباس رضي الله عنه إن الله لم يبعث رسولاً إلا وكان شاباً وما من عالم حصل علمه إلا في شبابه. ومن هنا نجد القرآن الكريم

---

(١) سورة الروم آية ٥٤.

(٢) سورة الحديد آية ٢٥.

يصف هذه الفترة التي تبلغ فيها قدرات الإنسان أقصاها بأنها « بلوغ الأشد »، وهي الفترة التي تقع فيما بين الثلاثين والأربعين من عمر الإنسان (القرآن الكريم سورة ٤٦ آية ١٥، سورة ١٩ آية ١٢، سورة ٦ آية ١٥٢، سورة ١٢ آية ٢٢). وهو العمر الذي يبلغ فيه المرء أوج نضجه ويصبح فيه مؤهلاً لتولي أقصى المسئوليات وتلقي أشد الواجبات. وكثير من الأنبياء نزلت عليهم الرسالة عندما بلغوا أشدهم (القرآن الكريم سورة ٢٨ آية ١٤)، ومن بينهم النبي محمد ﷺ.

وبعد أن أوضحنا أهمية الشباب في تعاليم الإسلام وعقيدته ننتقل الآن للحديث عن الدور الذي يجب على الشباب المسلم أن يقوم به في سبيل إحياء الحضارة الإسلامية. وهنا نقلب مرة أخرى صفحات التاريخ لنعرف أسباب تدهور الحضارة. لقد لخص القرآن الكريم تاريخ البشرية كلها تلخيصاً علوياً دقيقاً في قول الله تبارك وتعالى بأن حب الشهوات هو السبب الأساسي في انحطاط الحضارات الغابرة وهو ما ينبغي للإنسان أن يعتبره تحذيراً بالنسبة للحضارة الراهنة يقول الحق تبارك وتعالى :

« قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل، كان أكثرهم مشركين[1] ».

لقد كان حب الشهوات متفشياً قبل ظهور الإسلام وقد تداعت الحضارات الإغريقية والرومانية أيضاً بتأثير هذا الداء الوبيل. كان الإجهاض أمراً شائعاً، وكان وأد الأطفال يكاد يكون مباحاً في كل مكان، وشاعت حفلات المصارعة التي كان المجالدون يلقون حتفهم فيها، وكانت الإباحية أمراً مقبولاً في مجتمع الإغريق والرومان مما تسبب في تدمير حضاراتهم تدميراً تاماً. ولقد تفشت هذه العلل الآن في العالم أجمع وفي الغرب بصفة خاصة.

وها هي دعوة الإسلام للشباب أن الهدف من الحياة هو العمل لا المتعة. فاللذة والسعادة في الإسلام هما النتيجة الطبيعية لارتياح المرء وهو

---

(١) سورة الروم آية ٤٢.

يؤدي واجبه وفقاً لما يمليه عليه ضميره ابتغاء مرضاة الله لكي ينجو من العذاب في الآخرة. وواجب الشباب الأول والأهم هو أن يحذروا الجماعات والأمم بطريقة مخلصة صادقة مقنعة ويبينوا لهم أوجه الشبه بين أسلوب معيشتهم وبين الأساليب التي أدت إلى سقوط الجماعات الأخرى، وأن يشرحوا لهم بشيء من التفصيل كيف يؤدي الانحراف عن طريق الله إلى البؤس والشقاء وكيف يؤدي في نهاية الأمر إلى تردي الجماعة وسقوطها إن لم يقض عليها قضاء مبرماً.

وهذه العملية لن تظهر فجأة كالمعجزة، ولكن من الضروري لنشأتها أن تتكون في البداية حركة تقوم على أساس يتفق مع المبادئ الأساسية للإسلام فيما يتعلق بنظرتها إلى الحياة والمثل الأعلى للوجود ومستوى الأخلاق والفضائل والشخصية والروح التي يدعو إليها الإسلام. ويجب أن يكون قادة هذه الحركة وأنصارها رجالاً مؤهلين نفسياً وروحياً لتقبل مثل هذه الشخصية وبعد ذلك يتعين عليهم أن يسعوا بهمة لا تفتر لخلق نفس هذا الاتجاه الفكري والروح الأخلاقية بين الناس. وعلى أساس هذه الاتجاهات العقلية والفكرية يبنون نظاماً تعليمياً لتثقيف وتشكيل الجماهير وفق نمط الحياة الإسلامية. وسوف يفرز هذا النظام علماء مسلمين وفلاسفة مسلمين ومؤرخين مسلمين واقتصاديين مسلمين وخبراء ماليين مسلمين وقانونيين وسياسيين مسلمين. وموجز القول أنه يجب أن يضم كل فرع من فروع المعرفة رجالاً تشربوا بالعقيدة الإسلامية وتشبعوا بروحها، رجالاً لديهم القدرة على بناء نظام كامل من الفكر والحياة العملية على أساس من المبادئ الإسلامية، رجالاً لديهم القوة الكافية للوقوف في وجه الزعامات الفكرية للعلماء والمفكرين الملحدين المعاصرين.

لقد ذكرنا آنفاً الواجب الأول والأسمى للشباب المسلم، ولكن التعليم والمعرفة شرط مسبق لتولي هذه المسئوليات.

ونسوق فيما يلي طريقة لإحياء الحضارة الإسلامية وهي جديرة بالنظر فيها :

إن الإسلام دين عالمي. وقد أصبح العالم الآن وحدة واحدة ينقل كل

تطور يقع في أي من أرجائه إلى كافة الأرجاء الأخرى بسرعة الضوء، ولذلك فإن توحيد الكرة الأرضية يتطلب عملًا وحركة دولية لنشر رسالة الله. ونحن نطلق عل هذه الجهود والمساعي اسم « الحركة الفكرية الدولية » وهذه الحركة هي مطلب الساعة ويمكن تنفيذها باتباع الطريقتين الآتيتين :

الأولى : إقامة أمانة عامة للقيام بأغراض متعددة ويمكن أن نسميها « منظمة الأمانة الإسلامية للتعليم والثقافة والتنمية الفكرية » وهي على غرار منظمة اليونسكو ويمكن لهذه المنظمة أن تتخذ الوسائل الآتية لتحقيق هدفها :

- تجميع المواد بكافة اللغات الهامة وجمع المعلومات مع تحليلها.
- تشكيل لجان من الخبراء في جميع المجالات وهذه اللجان يمكنها دراسة المشكلات وإعداد الحلول التفصيلية لها وكذلك تلبية الاحتياجات التي تنشأ مع الزمن.
- دراسة المشكلات القائمة في الدول المختلفة وإعداد توصيات بشأنها.
- إقامة أجهزة إعلام جماهيرية (سمعية ـ بصرية وصحافة وإعلام... الخ) للدعوة للإسلام والتبشير بحل مشكلات البشرية.

والطريقة الثانية : أن كل دولة تنشئ منظمة قوية تواصل الحركة الفكرية عن طريق ناد ثقافي وتعليمي وينشر هذا النادي نشاطه في كافة أنحاء البلاد (من العواصم والولايات والمناطق إلى القرى) ويقوم هذا النادي بدور التوجيه في مجالات التعليم والثقافة والنشاط الروحي والترفيه وغير ذلك من المجالات على أن ترتبط جميع المنظمات التي ستقام في كافة الدول بالمنظمة المنوه عنها في الخطوة الأولى.

بشـــرى :

مما يشجع المرء ويقوي عزمه (وان لم يجعله يشعر بالرضا عن نفسه) أن شعور اليقظة أخذ يتغلغل في نفوس الشباب المسلم في كافة أنحاء العالم. وأروع مثل على ذلك تلك التطورات التي وقعت مؤخراً في بعض الدول. إن القلق في نفوس الشباب قد بلغ ذروته، ومستقبل الصحوة

الإسلامية مشرق إن شاء الله. والفترة الحالية هي أنسب الأوقات لبذل الجهود الدائبة، ولكن ينبغي أن نتنبه للأخطار الكامنة في الموقف، فإن أعداء الإسلام يبذلون أقصى جهدهم لضرب الصحوة الإسلامية، وتوجيه المساعي والجهود الإسلامية وجهة خاطئة عن طريق الدعاية وأجهزة الإعلام وخلق جو من سوء الفهم لهذه الحركة.

التحدي الحضاري وكيف نواجهه

للدكتور محمود محمد سفر



بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيـد :

إن أمانة الباحث في ما يواجهه المسلمون من تحديات حضارية تستدعي منه أن يغوص في أعماق التحديات ليصل إلى جوهرها حتى يتسنى له إيجاد العلاج الناجع لمواجهتها.

وقد يستهوي الباحث غير المدقق جمع البيانات وزخرفة المنحنيات وتنميق العبارات، وربما تتكدس مئات الأبحاث دون أن يخرج القارىء منها بنتيجة محددة قابلة للتطبيق لأنها لم تمس جوهر المشكلة ذاتها.

إن هذا البحث هو محاولة للوقوف وقفة موضوعية مع أنفسنا، كمسلمين، لنحدد سوياً أين نكون، وما هو موقعنا من العصر والحضارة المعاصرة، وما هي العقبات والقيود التي تمنع حركتنا وانطلاقنا، مع تقييم صريح لواقعنا ومواجهة واضحة لأنفسنا.

ولا ننكر أن بعض الأفكار التي سنثير في هذا البحث قد تحتاج إلى دراسة متخصصة ومتأنية وأكثر تعمقاً ليس المجال هنا متاحاً للإسهاب فيها، ولكننا نود بطرحها أن تكون إطاراً للبحث قد نتفرغ أو يتفرغ غيرنا في وقت ما لبحثها والخروج منها بنتائج أكثر تحديداً وأعمق مردوداً.

جوهر التحدي وديناميكيته :

لا نظن أن أحداً منا ينكر أننا كمسلمين لا نملك اليوم حضارة تحمل سماتنا، ولكننا نعيش في ظلال حضارة أقامها الأجداد، تمثلت في التراث الحضاري العريض والعريق الذي ورثناه والذي لم نبذل الجهد الكافي ولم نبد الجدية المطلوبة حتى الآن لإحيائه وتقديمه للشباب بأسلوب يتمشى مع العصر الذي نعيشه.

وعندما توقفت مسيرة تراثنا الحضاري حقبة من الزمن وصاحب ذلك التوقف ولازمه وارتبط به ظهور عصور الانحطاط الإسلامي ضاعت منا معالم الطريق، فلم نعد ندري ماذا نفعل ومن أين نبدأ، واكتفينا بأن ركن البعض منا إلى التفاخر بهذا التراث وكأنه حقنة مخدرة جذبتنا إلى نوم عميق.

وبقدر اعتزازنا وفخرنا بهذا التراث العريق والعريض والذي اعترف به العالم أجمع والذي قالت فيه عالمة ألمانية مستشرقة وهي زيجريد هونكه (ان الدّيْن الذي في عنق أوربا وسائر القارات الأخرى للمسلمين كبير جداً) والذي قال فيه مستشرق آخر (إن العلم هبة خطيرة وهبتها الحضارة الإسلامية إلى العالم الحاضر)، نقول بقدر تقديرنا واعتزازنا بذلك إلا أننا يجب ألا نعيش على أطلال تلك الحضارة ولا يجب أن تكون هذه الأطلال متكأ لنا نجلس عليه في مواقع المتفرجين مستسلمين لأحلام الماضي واليأس المريح.

لقد وجد الغرب في الفترة التي توقفت خلاها مسيرتنا الحضارية فرصة ملائمة فأخذ من العلوم والفنون الإسلامية ونهل من المعرفة والثقافة العربية ما شاء وأقام عليها بنياناً حضارياً ضخماً نقف اليوم مشدوهين أمام عظمته منبهرين بمنجزاته.

أما ارتفاع هذا البنيان الضخم واتساع الفجوة الحضارية التي تفصلنا عن العالم المتقدم نجد أنفسنا وقد فرض علينا تحد يجب أن تكون لدينا الشجاعة على مواجهته.

إن التحدي الذي يواجهنا كمسلمين في مرحلة إقلاعنا الحضاري يكمن أساساً في ثباتنا على مبادئنا والتزامنا بقيمنا وتمسكنا بأصالتنا واعتزازنا

بشخصيتنا، ولن يكون الأمر سهلاً ولا ميسوراً والعالم من حولنا يعيش في دوامات فكرية وبريق حضاري زائف، ولنعلم تمام العلم أننا ونحن نواجه هذا التحدي الحضاري لن نترك وشأننا لأن هناك من يتمنى فشلنا ويترصد أخطاءنا ويحلم بانتكاسنا فلنحذره ولنفوت عليه الفرص بثباتنا على مبادئنا والتزامنا بقيمنا وتمسكنا بأصالتنا واعتزازنا بشخصيتنا... ذلك هو جوهر التحدي الحضاري.

ولنا أن نسأل، هل يستطيع مسلم اليوم، بما يملك من عقيدة وإيمان، أن يعبر تلك الفجوة وأن يأخذ من أساليب العصر وأن يستوعبها ليكون قادراً من خلال تطويرها وتطويعها على وضع حضارة تحمل هويته وتعبر عن شخصيته وتفرض نفسها على الحضارات الأخرى.

في اعتقادي أننا لا نستطيع مواجهة هذا التحدي إلا إذا ملكنا روح المسلم الأول الذي كان يتمتع بقوة العقيدة وعمق الايمان اللذان مكناه من أن يغرس قيمه في كل حضارات عصره لتتوحد عقيدتها ومن ثم تتوحد وجهتها وتنصهر في بوتقة واحدة لتعطي حضارة إسلامية ازدهرت على مدى عدة قرون وامتدت من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب.

وبجانب روح المسلم الأول وفي مرحلة إقلاعنا الحضاري لا بد أن تكون لدينا البصيرة والقدرة على حماية أنفسنا من الوقوع في شراك التقليد والمحاكاة للحضارات الغربية دون تفريق بين مزاياها ومساوئها وأن نكون قادرين على حماية مجتمعنا الإسلامي في طور نموه من الأمراض التي أصابت مجتمعات الغرب وما زالت تستشري فيها.

عناصر التحدي الحضاري :

إننا نعتقد أن عناصر التحدي الحضاري الذي نواجهه تكمن في :

* القدرة على شحذ الفعالية الروحية للأمة.
* القدرة على استيعاب حضارة العصر استيعاباً كاملاً.
* القدرة على تبني أساليب الحضارة المعاصرة أو إبداع البدائل.
* القدرة على حماية المنجزات الحضارية للأمة.

وسوف نتعرض بالتحليل والإيضاح لكل من هذه القدرات فيما يلي :

القدرة على شحذ الفعالية الروحية للأمة :

إن الإنسان ـ ولا شك ـ هو محور العملية الحضارية بل هو المؤسسة الحضارية الأولى التي يجب تكوينها وبناؤها البناء السليم. إننا إذا نمينا قدراته وصقلنا مواهبه ونفضنا الغبار عن عزيمته وفجرنا طاقاته تدفق عطاءً حضارياً متجدداً. لذا يجب بادىء ذي بدء شحذ الفعالية الروحية، ونستخدم هنا لفظ الفعالية لأننا لا نريد الروحية المخدرة التي كانت وما زالت سبباً في عزل الإنسان المسلم في إطار ذاته بعيداً عن مجتمعه وعصره، ولكنا نريد الروحية الفعالة التي تجند إمكاناته وطاقاته ليكون مستعداً للأخذ والعطاء وللتلقي والإبداع.

ورغم الأهمية القصوى لشحذ الفعالية الروحية في مرحلة الإقلاع الحضاري فإن الحاجة لهذه المهمة تظل قائمة لاستمرارية الحضارة، حيث تمدها الحضارة بوسائل جديدة تواكب بها مقتضيات العصر.... وعندما تنسى الأمة هذه المهمة تبدأ مشاكلها مع محاولة البقاء.

وعملية بث الأشواق الروحية في الإنسان المسلم، موضوع الحضارة، هي ولا شك عملية هامة وتحتاج إلى علم بها وصبر عليها ورعاية لها.... ولا يهم هنا كيف بثت الأشواق.. وإنما المهم أن يحدث تفريغ للطاقة الروحية المبثوثة في اتجاه واحد هو اتجاه البعث الحضاري للأمة.... وأن ذلك ليذكرنا بالأسس العلمية لجهاز الليزر.

ويبرز سؤال :

من الذي يقوم بمهمة شحذ الفعالية الروحية للأمة ؟

بالتأكيد ليست هي مهمة السياسي.. فهذا رجل مشغول بصيانة منجزات الحضارة..

وليست كذلك هي مهمة حفظة التراث.. فهؤلاء مشغولون بتنظيم الكتب في رفوف رؤوسهم.

وليست هي كذلك مهمة هؤلاء المهنيين المنشغلين بدقائق مهنتهم المنصرفين إليها بكلياتهم.

إنها مهمة النفر القدوة المؤمنة إيماناً عقلانياً.. حيث تترجم رسالة الإيمان إلى تصور ذهني وسلوك عقيدي يضيء بالقدوة أكثر مما يضيء بالفلسفة ويجمع حوله القلوب والأفئدة فتنساب في سلوك جماعي موحد تلمسه في تصرف البسطاء من الناس كما تراه في علمائهم.

وهي أيضاً مهمة الجامعات، وخاصة العقائدية منها، التي لا بد أن تفرغ لإثارة الوعي الحضاري المتمثل في التصور الذهني والسلوك العقيدي المنبثقين عن الرسالة التي آمنت بها، فوظيفة الجامعات الأساسية ومهمتها الأولى هي تكوين المؤسسة الأولى للحضارة ألا وهي الإنسان المسلم السوي القدوة المستعد للتلقي والإبداع الحضاريين.

إن الحضارة في طور نموها الكامل سوف ترث كل تصورات وأخلاقيات هؤلاء النفر القدوة الذين وضعوا بذورها.. وأن طبيعة الرسالة سوف تحدد معالم الحضارة وتطبعها بطابعها.

القدرة على استيعاب حضارة العصر استيعاباً كاملاً :

إن حضارة العصر التي تبدو لنا في غاية التعقيد قامت على أساس العلم، ومدخلنا إليها لن يكون إلا عن طريق شحذ الفعالية العلمية للأمة. وسبيلنا إلى شحذ الفعالية العلمية هو جهازنا التعليمي المتطور.

لقد أمضى الغرب زهاء خمسة قرون ليبني قلاعه العلمية والتكنولوجية، وكان لكل فرع من فروع العلم والتكنولوجيا مسيرة معينة تتميز بفترات التكدس والاستيعاب ثم فجائيات الإبداع. ولنذلل على ذلك ونزيده إيضاحاً نضرب مثلاً بفرع من فروع المعرفة وهو علم « الميكانيكا ». في عصر ما قبل العالم « كبلر » كان علم « الميكانيكا » هو عبارة عن مجموعة معلومات مكدسة عن حركة النجوم والكواكب لا يستبين الإنسان قوانينها الحاكمة، ثم جاء « كبلر » واستخرج منها قوانينه الثلاثة المشهورة، فاستغنت الإنسانية على يده عن هذا الركام الضخم من المعلومات واستبدلته

بثلاثة قوانين لا تشغل أكثر من نصف صفحة، تهتم بمسار جسم تحت تأثيره قوة جذب مركزية. وفي الفترة ما بين « كبلر » و « نيوتن » كان علم « الميكانيكا » يزداد بطريقة تكدسية.. معلومات متفرقة عن أشياء متفرقة.. لا يبدو واضحاً ما يحكمها من قوانين. حتى كان « اسحاق نيوتن »، فأحدث باكتشافه لقوانين الحركة الثلاث، فجائية إبداعية كانت من بين الأسس العظيمة التي بنى الإنسان عليها حضارته العلمية والتكنولوجية. إن قوانين « نيوتن » الثلاثة لا تصف حركة الكواكب والأقمار في مساراتها فحسب وإنما تصف ديناميكية التحرك لكل الأجسام تحت تأثير أي نوع من القوى.

واستمر علم « الميكانيكا » بعد ذلك في حالة تزايد تكديسي دونما طفرة حتى جاء « أينشتاين » فعمم قوانين « نيوتن » في طفرة إبداعية أخرى بحيث أصبحت قوانين « أينشتاين » قادرة على وصف حركة الأجسام جميعاً، بينما كانت قوانين « نيوتن » تقف قاصرة عن وصف حركة الأجسام الدقيقة ذات السرعات العالية التي تقترب من سرعة الضوء.

ومنذ أن نشر « أينشتاين » بحثه عن النظرية النسبية الخاصة في عام ١٩٠٥م وحتى الآن يتزايد علم الميكانيكا تزايداً تكديسياً.

وما أوتي الإنسان من العلم إلا قليلاً.. فما زلنا ننتظر فجائيات إبداعية تحدث نقلة أساسية في مستوى العلوم والتكنولوجيا.

والسؤال الآن : كيف تستطيع أمتنا، وهي تقف عند أبواب القلاع العلمية والتكنولوجية لحضارة الغرب، أن تستوعب علوم الغرب وتكنولوجياته ؟ هل هناك جدولة زمنية مثلى لتتابع إدخال علوم وتكنولوجيات.. إذا استوعبنا مرحلة بدئنا بمرحلة ثانية.. وهكذا ؟.

في اعتقادنا أن في محاولة تدريب مجتمعاتنا الناشئة، علمياً وتكنولوجياً، لا بد أن نأخذ بعين الاعتبار المسار التاريخي لتطور العلوم والتكنولوجيا. إن الأمة الجّادة يمكنها أن تختصر ٤٠٠ عام من تاريخ التطور العلمي والتكنولوجي للعالم الغربي إلى ٤٠ عاماً أو أقل ولكنها لا يمكنها أن تستسيغ الحضارة دفعة واحدة مهما أوتيت من مال.

إن التكنولوجيا الحديثة نشأت من تزاوج العلم والحرفة ومن إصرار المجتمع على هذا التزاوج في صورة مراكز تطوير الصناعات المختلفة.

ولذلك فنقطة البدء هو تعليم الحرف وانتشارها بين الأغلبية الساحقة من أبناء المجتمع.. بينما يتوجه جزء للتعليم الفني ليكون قادراً على تطوير الحرفة ونموها.. ينفر جزء من ذوي العقول النادرة لتتبع ما يطرأ على العلوم من تطور ونظريات والنظر في إمكانية تسخيرها لخدمة التكنولوجيا المستحدثة.

قد نستطيع القول أن أمة تحاول أن تبني لنفسها قلعة علمية وتكنولوجية يجب أن توجه ٨٠٪ من أبنائها لأعمال حرفية و ١٠٪ لأعمال فنية و ٥٪ للعلوم والبحوث و ٥٪ لشحذ الفعالية الروحية للأمة.

إن أرباب التكنولوجيا الحديثة لن يسمحوا بتعليم دقائقها لآخرين... هذا هو الواقع في عالمنا المعاصر.. إن علينا أن نعي جيداً أنه لن يمكننا الحصول على دقائق التكنولوجيا المعاصرة حتى لو دفعنا من أجلها المال الوفير.

طريقنا إلى التكنولوجيا الحديثة لا بد أن يمر بمراحل علمية تشبه التطور الزمني في بلاد الغرب.

ولكي نستزيد هذا الأمر إيضاحاً نضرب مثلاً بصناعة السيارات فنقول : إننا لا يمكن أن نصنع سيارة من غير أن نتعلم كيف نصنع ترساً من تروس نقل الحركة. إن الكتب العلمية لتمتلىء بالمعلومات النظرية والنظريات العلمية عن كيفية صناعة ترس ولكن لا بد أن يجيء المهندس ليحول هذه المعلومات إلى روتين يقوم الفني بتبسيطه للعامل وقد ينشأ عن ذلك مشاكل في التصنيع فيرفعها المهندس لمجموعة التطوير من المهندسين والعلماء لتبدأ محاولات وتجارب تتوصل بها مجموعة التطوير إلى حلول علمية لمادة الترس ومعالجتها الحرارية وطريقة تصنيعها. ويترجم المهندس ذلك كله إلى خطوات واضحة للفني يتولاها بعد ذلك مع العمال.

إننا نصنع تروساً في بعض البلاد العربية ولكن الشكوى منها دائماً أن المعاملة الحرارية لسطوحها رديئة جداً إذا قورنت بالتروس الأوربية.. أي أن

هناك دقائق في الصناعة الأوربية لا يمكن أن نحصل عليها إلا إذا وفقنا إليها عن طريق العلم والتجربة.

لقد أخذت الحضارة الغربية ٤٠٠ عام لتصل بتروسها إلى حالتها الحالية وحققت ذلك من خلال الاصرار على تزاوج العلم والتكنولوجيا. ونحن يمكننا أن نختصر هذه المدة إلى عشرها أو أقل شريطة أن نلتزم بتزاوج العلم والتكنولوجيا، زواج تأبيد، وأن نتبصر بالتتابع الزمني في عملية تدريب الأمة على الحرف والتكنولوجيات المختلفة.

إننا نستطيع أن نسقط عمر الحضارة الغربية المعاصرة على عمر الإنسان في أمتنا، فنبدأ معه منذ الطفولة، نعلمه مثلاً كيف تنتقل الحركة بالتروس والسيور وكيف نصل الأشياء بعضها ببعض.. أي نعلمه نظرية الآلات مبسطة حسب إدراكه وسنه.. متطورين معه كما تطورت الحضارة في طريقها الطويل.. ولكن هذا يستدعي تطوير أجهزتنا العلمية وأنظمتنا التربوية وبرامجنا التعليمية. كما أن الأمر يحتاج إلى جهد مضاعف لبناء أجهزة متمكنة تعني بهذا النوع من التعليم الحرفي لعامة الناس ومن رغب من خاصتهم.

إن العلم هو الذي يصنع من أبجديات الحرف ـ بكسر الحاء وفتح الراء ـ كلاماً مفهوماً نسميه تكنولوجيا، وينتج فيما بعد أدباء يصنعون أدباً يختلط فيه العلم والذوق والفن فيما نسميه حضارة.

إن هناك ضروريات لا بد من مراعاتها في عملية الاستيعاب الكامل للحضارة المعاصرة في مجتمعاتنا النامية نوجزها فيما يلي :

* نعني بالاستيعاب الكامل للحضارة المعاصرة استيعاب الأصول والطرائق أما الدقائق فهذه لا يمكن لأصحاب الحضارة منحها وإنما تدرك بالممارسة الواعية والتفاعل البناء.

* لا بد أن لا يسبق العلم الحالة التكنولوجية بكثير فيؤدي ذلك إلى انفصاله عنها.

لا يمنع ذلك وجود قلة من المتخصصين في الجامعات ومراكز

البحوث تنفرد للعمل عند مشارف العلوم وتكون مهمتها التطور المستمر للعلوم لتصبح أكثر ملاءمة لتحقيق الهدف التكنولوجي.

* إن الذي أسلفنا ذكره سيضع شروطاً جديدة على أنظمتنا التعليمية كلها.. فالواضح أن الأنظمة الحالية لا تحقق الأهداف التي ذكرناها، وإذا لم تتطور فإنها قد تخلق في بعض الأحيان تناقضات من شأنها أن تعوق عمليات الاستيعاب المطلوبة. إن بعض أنظمتنا التعليمية تسرف مثلاً في التركيز على التعليم الجامعي كبديل وحيد للتعليم العالي ومازالت أعداد ضخمة من طلاب هذا النوع من التعليم تتجه إلى العلوم الإنسانية.

القدرة على تبني أساليب الحضارة المعاصرة أو إبداع البدائل :

مع التطور المستمر والنمو المضطرد لمؤسسات الحضارة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية المعاصرة تطورت ونمت النظم المهيمنة على هذه المؤسسات منطلقة من المبادىء والأخلاقيات التي شحذت الفعالية الروحية لأصحاب هذه الحضارة في مرحلة الانطلاق الحضاري ومعدلة نفسها مع تغير المفاهيم والاخلاقيات في مجتمعات ترى أن جوهر الأخلاق متغير غير ثابت.

ومشكلتنا كمسلمين، ونحن نقف على أعتاب الحضارة الغربية، أننا نريد أن نبني مؤسسات حضارية شبيهة بأختها في ديار الغرب وتقوم على نظم تنطلق من مبادىء وأخلاقيات غير متطابقة مع المبادىء والأخلاقيات التي انطلقت منها حضارة الغرب.

ومحنتنا أننا لا نعرف أننا لا نملك النظم الحاكمة للمؤسسات الحضارية المطلوبة، وكل ما نملكه مجموعة من المبادىء والقيم التي يمكن أن تنبثق عنها النظم المرجوة.

ومحنتنا أيضاً أننا لا ندرك أن النظم الحاكمة لا تولد فتية متكاملة، ولكنها تبدأ طفلة وتنمو مع التجربة والمحاولة والخطأ والصواب.. لا يحكمها إلا محاولتنا الدائمة أن نجعلها لا تميل ولا تحيد عن مبادئنا وقيمنا وأخلاقياتنا.. فإن حادت أو مالت لا بد أن نعيدها عن طريق نظام دائم للتغذية الخلفية كما نقول في علم نظم التحكم الآلي.

فإن استبان لنا أننا لا نملك النظم الحاكمة للمؤسسات الحضارية المرجوة أصبح أمامنا واضحاً خياران :

الخيار الأول ؛ أن نتبنى المؤسسات الحضارية الغربية بوضعها الحالي، آخذين في الاعتبار أن نظمها الحاكمة تحتاج إلى تعديل وتبديل يأتي عن طريق الممارسة والتجربة، والإصرار على تحقيق المبادىء والقيم والأخلاقيات في النظم المعدلة.

والخيار الثاني ؛ أن نبدع البدائل.. وهذا أمر لا يفتي فيه غير متخصص في أعمال مثل هذه المؤسسات. إن خيار إبداع البدائل للنظم لا بد أن يوضح دور فقهائنا وعلماء الدين فينا. إنه دور العين السحرية الثقافية المتبصرة في نهاية خط الإنتاج، أي دور التحكم في النوعية.... النوعية التي تحكمها المبادىء والقيم والأخلاقيات الإسلامية... فما وافقها من النظم مضى... وما خالفها يعاد لأهل الاختصاص للتغيير والتبديل.

فمهمة إبداع البدائل لا بد أن يضطلع بها متخصص في دراسات النظم التي تحكم مؤسسات شبيهة بالمؤسسات المرجوة كما أسلفنا... آخذين في الاعتبار أن البديل المقترح هو من قبيل المحاولة الإسلامية وليس هو الإسلام.. لأننا من خلال التجربة والاحتكاك قد نكتشف تقصير النظم المقترحة في تحقيق كل جوانب مبادئنا وقيمنا وأخلاقياتنا، فنلجأ إلى تغيير هذه النظم أو إصلاحها حتى تكون أكثر تحقيقاً لما ندين له ونؤمن به.. إن الصراط المستقيم في مثل هذه الأمور ليس واضحاً من غير هداية الله.. وهداية الله لا تأتي إلا بالمجاهدة المستمرة.. فنحن ندعو في كل صلاة : « إهدنا الصراط المستقيم ».. وربنا يقول : « والذين جاهدوا فينا لنهدينَّهم سبلنا ».. ويبدو أن غياب هذا الفهم جزء من محنتنا.. فكثير منا يتصور أن الكتاب والسنة قد اشتملا على كل النظم الحضارية المطلوبة.. قلب في الصفحات تجدها.

والحق الذي نؤمن به أن الكتاب والسنة قد اشتملا على كل المبادىء والقيم والأخلاقيات الكافية واللازمة لانبثاق نظم حضارية.... ولكن النظم الحضارية نفسها هي محاولات بشرية تنطلق متحررة من كل القيود إلا القيود

الأخلاقية والمبادئ الأساسية التي يحددها الكتاب والسنة والتي نؤمن أنهما خير أساس لقيام حضارة إنسانية ليس كمثلها حضارة.

باختصار شديد، أمامنا طريقان : طريق **التبني لنظم غربية**، مع العزم على تغييرها مع الزمن والتجربة لتوافق مبادئنا وأخلاقياتنا، أو **إبداع بدائل** لهذه النظم، آخذين في الاعتبار أن هذه البدائل ليست الصراط المستقيم وإنما هي محاولة للقرب منه، وأنه عندما يثبت من الممارسة أن هذه البدائل أوقعتنا في تناقض مع مبادئنا وأخلاقياتنا نصبح أحراراً حينئذ في تبديلها وتغييرها غير متحجرين ولا متبلدين.. لا يحكمنا في الأمر كله غير قرآن ربنا وسنة نبينا صلوات الله وسلامه عليه.

القدرة على حماية المنجزات الحضارية للأمة :

للحماية هنا شقان : شق ذاتي، وشق خارجي. فالشق الذاتي مطلوب لحماية المنجزات الحضارية من الأمراض الحضارية التي تصيب الحضارات عندما يصاب المجتمع بالغفلة والوهن، ويركن للترف والدعة، وينسى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتحيط به ملذاته وأهواؤه، وتصدأ نفسه، فيفقد المعنى الحق لجهاده وسبب وجوده.

إن المجتمع المسلم لا بد أن يعدّل دوماً في نظمه في إطار مبادئه وقيمه، وفي إطار الوقاية من الأمراض الحضارية.. فلا يسمح نظامه الاقتصادي مثلاً أن يصبح هناك إنسان مترف وبجواره فقير معدم.. أو يسمح نظامه السياسي أن يصبح الفرد آلة صماء لا رأي له ولا مشورة.. أو يكون نظامه الاجتماعي بحيث تنتفي روح الأخوة وروح الأسرة.... أو يعمل نظامه الثقافي على تبلد الفكر وركود المعرفة.

أي يجب أن تكون نظم الحضارة نظماً فعالة.. تعمل على الوقاية الدائمة لنفسها ضد الأمراض التي قد تصيبها من داخلها.

وفي إطار الشق الذاتي تأتي أيضاً القدرة على النمو الذاتي من غير الاعتماد على الإمداد الخارجي، ويستلزم ذلك سعة سكانية واقتصادية من شأنها أن تتيح الاكتفاء في فترات الصراع العالمي ومحاصرة الحضارة.

أما الشق الخارجي فيتعلق بالقدرة على بناء أجهزة دفاع قوية تذود عن حمى كل المنجزات الحضارية أمام أي أمة طامعة، سواء كان هذا عسكرياً أو اجتماعياً أو نفسياً.

قيود التحدي الحضاري :

أما وقد حددنا جوهر التحدي وعناصره بقي علينا أن نتعرض إلى القيود التي تغل حركتنا وتحد من تحركنا رغم وضوح الهدف وإضاءة الطريق. إن تعرضنا لهذه القيود هو محاولة أخرى لرفع العقبات وإزالة العوائق حتى نضمن عدم تعثر المسيرة الحضارية لأمتنا الإسلامية.

إن قيود التحدي الحضاري في اعتقادنا صنفان : قيود ذاتية، وقيود خارجية. وتمشياً مع منهج هذا البحث في التركيز على الإنسان كوسيلة وهدف، فالقيود التي سنهتم بها هي القيود الذاتية التي تنبع من ذات الإنسان أو ذات المجتمع الذي يكونه الإنسان، ونترك القيود الخارجية لحديث آخر، لأننا لو عرفنا ذواتنا وحللنا ما يقيدها من قيود نكون قد قطعنا شوطاً طويلاً في التصدي للتحدي الحضاري ومواجهته.

والقيود الذاتية على أنواع :

قيود فكرية.
وقيود تنظيمية.
وقيود اجتماعية.

القيود الفكرية :

إن الحالة الفكرية لأي أمة في لحظة ما من تاريخها هي خليط من فكر نافع، وفكر لا ينفع، وفكر مدمر.

وإذا كانت هذه اللحظة من تاريخها تمثل نقطة البدء في دورة جديدة من حضارتها يصبح القيد الفكري هاماً لأنه ربما كان مثبطاً لكل جهد يبذل من أجل إقامة الحضارة.

وحالة الأمة الفكرية تتكون من تراث منقول عبر الأجيال، وفكر يتسرب من الحضارات المحيطة، وفكر هو نتاج جيلها المعاصر.

وتطور الفكر من مجموعة من العقائد يتعرض في مساره التاريخي لمراحل صعود، ومراحل ثبوت، ومراحل انحطاط.

وعندما تبدأ أمة محاولة إقامة حضارة في أعقاب دورة حضارية، تجد نفسها أمام تراث فكري قد تخلف لديها من أيام الصعود والثبوت والانحطاط مضافاً إلى هذا الفكر المتسرب من الحضارات المعاصرة المحيطة بها.

وهنا تبدأ في الأمة معارك وصراعات بين ألوان الفكر المختلفة.. الفكر المتسرب من الحضارات المعاصرة قد تمثل في أنظمة متقدمة عصرية حية، بينما فكر التراث قد تمثل في أنظمة للماضي أصبحت تاريخاً وآثاراً.. وكلاهما بالنسبة للأمة لا يمثل الذاتية.. الأول يمثل تغايراً في المكان، والثاني يمثّل تغايراً في الزمان.

إن الحيرة الفكرية هي أعضل مرض يصيب الأمة في فترات الإعداد الحضاري، وخاصة عندما لا يكون لهذه الحيرة عمق علمي، بل يكون الأمر كله حيرة بين شعارات مختلفة تبدو متناقضة متنافرة. عندها تجد الأمة نفسها تبحث عن الإنتاج الفكري لجيلها المعاصر... تبحث عن فكرها الذاتي.

> والفكر الذاتي هو هذا البناء العقلي الذي ينمو من مجموعة القيم والمبادىء التي تمثل عقيدة الأمة، والتي استقر في وجدانها عن طريق الرسالة السماوية أو عن طريق رجال أوتوا الحكمة فطرة وإلهاماً، والحكمة ضالة المؤمن.

ولفهم القيود الفكرية أساسيات يجدر بنا أن نوجزها فيما يلي :

* إن صلاحية النظم التي تمثل الأفكار في بلد ما في وقت ما لا يعني بالضرورة صلاحية هذه الأفكار لإيجاد نظم شبيهة في بلد آخر.. أو في نفس البلد في وقت آخر.. إن التغاير الزماني والتغاير المكاني لا يمثلان شيئاً في ذاتهما بقدر ما يمثلان تغايراً في الساحة النفسية والاجتماعية للأمة.

* إن الأفكار التي تنبثق من عقيدة التوحيد يجب عدم الخلط بينها

وبين العقيدة التي انبثقت عنها.. كما أن الدفاع عن الأفكار يجب أن تحده احتمالات الاجتهاد فيها من صواب وخطأ.

* إن صلاحية عملية الانبثاق الفكري من عقيدة التوحيد تختبر من خلال صلاحية الأفكار المنبثقة ذاتها.. وإن صلاحية الأفكار المنبثقة تعتبر من خلال النظم الصادرة عنها.. أي أننا في النهاية نحتكم إلى التجربة والخبرة في الحكم على مدى صلاحية أفكارنا وفعالية نظمنا ومن ورائهما طريقتنا في الانبثاق عن العقيدة المهيمنة على قلوبنا.

قيود تنظيمية :

في المجتمعات الراكدة الساكنة والتي تنقصها العقيدة الموحية للتفاعل لإبداع حضارة تنمو وفق مسارها التاريخي.. في مثل هذه المجتمعات لا يرث الناس الأفكار فحسب وإنما يرثون النظم. يقول الله تعالى :

« وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ـ أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ». **صدق الله العظيم** البقرة ـ ١٧٠

إن الأفكار يجب أن لا تورث مع الأرض وإنما هي مهمة كل جيل أن يبصر لنفسه.. وكذلك الأمر في عالم النظم التي هي وليدة عالم الأفكار.... فديناميكية الأفكار تستدعي ديناميكية النظم.. وديناميكية النظم تستدعي ديناميكية الأفكار.

وعندما تفقد الأفكار ديناميكيتها تبدأ النظم في فقدان ديناميكيتها، ويؤثر ذلك على الأفكار مرة أخرى فتفقد المزيد من الديناميكية وهكذا دواليك لتصل الأمة إلى ما نسميه فترات الانحطاط حيث تتجمد الأفكار والنظم معاً..

وعندما تكبّر الأمة معلنة نيتها لبعث حضاري تصطدم بما ورثته عن الآباء من نظم جامدة، فماذا تفعل ؟.

لا ريب أن أول الطريق هو بعث الديناميكية في عالم الأفكار...

يقول الله تعالى :

« ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ».

صدق الله العظيم سورة الرعد ١١

وبعث الديناميكية في عالم الأفكار هو مرآة طبيعية لشحذ الفعالية الروحية للأمة.. فالأفكار ـ هي البنية العقلية التي تنمو من مجموعة القيم والمبادىء التي تمثل عقيدة الأمة مقيدة بمجموعة من الضوابط الأخلاقية المصاحبة لهذه القيم والمبادىء.

إن الأصل في ديناميكية الأفكار هو أن كل نظم البشر، قديمها وحديثها، ينقصها الكمال وليس فيها شيء مقدس، ومن هنا يتحرك الفكر ليكمل النقص، ثم يتحرك الزمن وتتغير الأحوال فيبدو في النظم نقصاً ما كان ليراه الأولون، فهو لغير زمانهم، فيتحرك الفكر مرة أخرى لسد النقصان وإقامة العمران.

أما إذا جمد الفكر عند نظم موروثة فقَدَّسَها فإن هذه النظم سوف تصبح قيداً حضارياً يعوق مسيرة الحضارة وتفاعل الإنسان مع البيئة والزمن.

ومن الممكن بالطبع تبني النظم الموروثة عند نقطة البدء ـ إن كانت ما زالت كنقطة بدء ـ ولكن لا بد من الأخذ في الاعتبار أنها سوف تتعرض لعمليات تحوير وتبديل وتغيير لنصل بها إلى الكمال المنشود أو بعض منه.

وإذا كانت بعض هذه النظم الموروثة لا تصلح حتى كنقطة بدء، وكانت عجلة الزمان الدائرة تستدعي وجود نظم تحكم علاقتنا وشئوننا، ورأى مفكرونا نظماً أجنبية تصلح كنقطة بدء.. فلا بأس في هذه الأحوال من التبني المبدئي لها، واضعين في الاعتبار أيضاً أن هذه النظم سوف تتعرض للتغيير والتبديل والتحوير لنصل بها إلى توافق كامل مع حركة أفكارنا المنبثقة من عقيدتنا.

قيــود اجتماعيـة :

إن هذه مجموعة من القيود التي تقيد بها المجتمعات نفسها من غير

أن تمليها عليها عقائد تؤمن بها أو فلسفة تهيمن عليها. وهي مجموعة من القيود توارثتها المجتمعات جيلاً عن جيل، وربما كانت منابعها عميقة عمق التاريخ غير المكتوب لهذه المجتمعات.

ولا يعنينا في هذا البحث العادات الاجتماعية التي لا تؤثر على قيام الحضارات سلباً أو إيجاباً، وإنما يهمنا فيه العادات الاجتماعية التي تمثل قيداً على عملية البعث الحضاري نفسه.

ونضرب مثلاً بنوع من العلاقات الاجتماعية بين الأبناء والآباء السائدة في كثير من مجتمعاتنا الإسلامية والتي تقوم على مفهوم التقليد والمحاكاة للآباء وهو تحريف شديد لمفهوم البر بالآباء في الإسلام. إن مثل هذا النوع من العلاقات يؤثر تأثيراً بالغاً على القدرة الإبداعية لدى الأبناء ويلقي ظلالاً كثيفة على كل سلوكهم في مجتمعهم الكبير، وربما يكون هذا هو المنبع للتواكل والاستسلامية التي تصبغ كثيراً من مجتمعاتنا.

وفي مجتمعاتنا العربية تتخذ بعض علاقاتنا الاجتماعية أشكالاً تعوق الضمير الفردي من الانطلاق وتحده في إطار الضمير الاجتماعي ولو كان خاطئاً.

إن ضمير الجماعة غير ملزم لضمير الفرد، فالقرآن ينكر على الإنسان أن ينجرف مع التيار الاجتماعي، فمسئولية الإنسان مسئولية فردية.. وحسبنا أن نقرأ هذه الآيات في محكم التنزيل لنتبين حث القرآن للإنسان المسلم أن يعيش بضمير يراقب الله وحده ويخشى الله وحده : يقول الله تعالى :

> « وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه، ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين ».
>
> سبأ ــ ٣١

« قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم، بل كنتم مجرمين ».

سبأ ـ ٣٢

« وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً، وأسروا الندامة لما رأوا العذاب، وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا، هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ». **صدق الله العظيم**

سبأ ـ ٣٣

إن التواكل والمجاملة على حساب المصلحة العامة، والإسراف في الاستهلاك في المناسبات والأعياد، والركون إلى الكسل وعدم إتقان العمل، كلها عادات ليست من الإسلام في شيء، وتشكل عوائق أساسية للإقلاع الحضاري.

ان البعث الحضاري للأمة يقتضي منا تغيير كثير من عاداتنا الاجتماعية التي تمنع حركتنا من الانطلاق، ولن يتم هذا التغيير إلا بالقدوة الحسنة والإرشاد الهادف.. إن المسئولية كبيرة ولا بد أن يشترك فيها أبناء المجتمع كله، فهي مسئولية الجميع وإن كانت تقع في جزئها الأكبر على القدوة.

خاتمة :

إن مفهوم التحدي الحضاري الذي يواجهه المسلمون في القرن العشرين لن يكون شاملاً ودقيقاً في غياب المعرفة التامة بما يحيط بهم من قيود تحكم حياتهم اليوم، ولعل ما حاولنا إثارته في الصفحات السابقة يؤكد أن جوهر التحدي الحضاري يكمن في أن يلتزم المسلمون بعقيدتهم، ويثبتوا على مبادئهم، ويلتزموا بقيمهم، ويتمسكوا بأصالتهم، ويعتزوا بشخصيتهم وهم

يتأهبون للإقلاع الحضاري ليعيدوا الفترات المشرقة من التاريخ الحضاري لأمتهم، وليستعيدوا أمجادها الغابرة بعزم وإصرار. ولن يكون الأمر سهلاً وميسوراً وهم يعيشون ومن حولهم دوامات فكرية طاغية، ويتعايشون مع بريق حضاري زائف.

إن التيه الحضاري الذي يعيشه الغرب، والأمية الحضارية التي يعيشها العالم الإسلامي يفرضان أبعاد التحدي، وما لم نستنفر جميع قدراتنا الروحية والمادية، ونتحلل من القيود الفكرية والتنظيمية والاجتماعية التي لا ترتكز على عقيدتنا، فإن مواجهتنا للتحدي الحضاري ستظل محدودة الفعالية، بل وعديمة الجدوى.

إن الصحوة الإسلامية التي نشهد انبثاقها اليوم في أرجاء وطننا الإسلامي الكبير جاءت كنتيجة حتمية لنداء التضامن والتآخي والعودة إلى تحكيم كتاب الله... ذلك النداء الذي انطلق من هذه الأرض الطاهرة المقدسة،ودوى به صوت ذلك المؤمن القوي، فيصل بن عبد العزيز رحمه الله.

إن هذه الصحوة تبدو وكأنها بشرى ميلاد دورة حضارية جديدة في حياة الأمة الإسلامية، ولنا أن نستبشر بذلك ونتفاءل.

التحديات الثقافية المعاصرة التي تواجه الأمة الإسلامية

للأستاذ أحمد فون دنفر



بسم الله الرحمن الرحيم

مفهـــوم الثقافـــة :

الثقافة، شأنها شأن كثير من المفاهيم التي يستعملها علماء الاجتماع، اصطلاح ومفهوم شاع استعماله دون الاتفاق على تعريف عام له، أو بعبارة أخرى، فإن الحديث عن الثقافة يعني أولاً تحديد ماهية الثقافة ومكانها في تفكير الفرد. وسأقوم بهذه المحاولة بعد مناقشة مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية عند الغربيين.

وإذا كان علماء القرن التاسع عشر يميلون إلى ربط مفهومهم للثقافة بالمسلمات الفلسفية التي راجت في ذلك العصر، وكانوا غالباً ما يتحدثون عن الثقافة كشيء منفصل عن « الأشكال الخارجيـة التـي تنظـم هذا المفهوم »، فإن علم الاجتماع الحديث يرى أن الثقافة ينبغي النظر إليها كجزء لا ينفصل عن الواقع الاجتماعي. وقد استعمل هذا المفهوم، ومازال يستعمل حتى الآن بصدد العلاقات الخاصة بالسلوك الإنساني التي تعلن عن نفسها في صور شتى. ويمكن أن نضرب مثلاً بعادات الطعام لتوضيح الاختلافات البينة العديدة التي نصادفها في ضرب واحد من ضروب النشاط الإنساني المتعددة، فبعض القبائل الرعوية مثل قبائل الصومال أو الماساس

في كينيا يعيشون في أغلب الأحيان على اللبن ومنتجاته فحسب، بينما تعيش قبائل الصيد في بلاد الاسكيمو على اللحوم والأسماك. وهناك سكان آخرون يتألف طعامهم من الخضروات وحدها. وشبيه بذلك عادات الأزياء والملابس، وطرق الانتاج والحرف الاقتصادية، وكذلك تتعدد العلاقات التي تنشأ فيما بين الجماعات والمعتقدات والأيديولوجيات.

وفي منتصف القرن التاسع عشر ظهرت المدرسة التي تؤمن بمذهب النشوء فضلاً عن النظريات التي شاعت حينذاك عن التطور البيولوجي، بزعامة مورجان الأمريكي وتايلور البريطاني، وقد روجت هذه المدرسة للفكرة القائلة بأن الجماعات البشرية والمجتمعات التي تعتبر « متحضرة » هي أكثر تطوراً وارتقاء من العناصر البشرية التي تعتبر « بدائية ». وكان لديهم افتراض بأن الإنسان « البدائي »، إذا ما توفرت له الحماية والرعاية والدوافع الضرورية، فإنه سوف يصل في نهاية الأمر إلى مرحلة مساوية للمرحلة التي بلغها من سبقوه في الصعود على سلم الارتقاء. وما تزال آثار هذا المفهوم بادية في كل مناقشة تدور حول الدول المتقدمة والمتخلفة، وعن العالم الأول والعالم الثالث، وعن العالم الغربي والعالم غير الغربي. ومن الحقائق المعروفة والتي لا تحتاج إلى مزيد من الإيضاح في هذه المقام أن هذه النظريات التي تتحدث عن النشوء والتطور البيولوجي والاجتماعي هي التي دعمت العنصرية بصورها المختلفة، وساندت الامبريالية والسيطرة الاستعمارية وهيأت لها الشرعية التي تستند إليها. إلا أنه ينبغي ألا يغيب عن أذهاننا أن أول تعريف حديث له وزنه للثقافة قد ظهر في إطار تلك البيئة الثقافية. كان من رأي تايلور أن جانباً كبيراً من السلوك البشري لا يمكن تفسيره استناداً إلى الاعتبارات البيولوجية وحدها، ومن ثم فقد عرف الثقافة بأنها ذلك الكيان المركب الذي يتضمن المعرفة والمعتقدات والفن والقانون والأخلاق والعادات وأي قدرات أو عادات أخرى يكتسبها الإنسان كعضو في المجتمع. كما أجرى كروبر وكلاكهون دراسة مقارنة لعدة مئات من التعريفات والتوصيفات للثقافة والتي وضعها علماء الأجناس البشرية وغيرهم، وتبين لهما أن معظم علماء السلوك يصوغون الآن مفهوم الثقافة على نحو قريب من الآتي :

« تتألف الثقافة من أنماط صريحة وضمنية للسلوك المكتسب، ويتم نقلها باستخدام رموز تمثل الإنجازات الغريزية للجماعات البشرية بما في ذلك ما صنعته أيديهم من أشكال تجسيدية. والجوهر الأساسي للثقافة يتكون من الأفكار التقليدية (بمعنى الأفكار الناشئة والمنتقاة من مصادر تاريخية) وخاصة ما يرتبط بها من قيم. ويمكن اعتبار النظم الثقافية على أنها من إنتاج العمل من جهة، كما يمكن اعتبارها من جهة أخرى على أنها مؤثرات تتحكم في العمل الجديد » ولا تختلف هذه الصيغة كثيراً عن تعريف تايلور على الرغم من اختلاف المفردات اللغوية المستعملة فيه، وان يكن تعريف تايلور قد شدد بعض الشيء على ما يعرف « بالثقافة المادية »، وعلى أية حال، فإننا إذا نظرنا إلى « لب » الثقافة سنجد « الآراء » و « القيم » تمثل ما أسماه تايلور « بالمعرفة والمعتقدات والقانون والأخلاق والعادات ».

وهنا نصل إلى استنتاج بأن المفهوم الحديث للثقافة في العلوم الاجتماعية لا يختلف كثيراً عن المفهوم السابق مع وجود مؤثرات واضحة لمذهب النشوء والارتقاء تبدو ظاهرة للعيان.

ويرى علماء الأجناس البشرية (الأنثروبولوجيا) أيضاً أن الثقافة لها مجالات ثلاثة متميزة وهي المجال التكنولوجي والمجال الاجتماعي والمجال العقائدي. ومع أنه تجري مناقشة كل من هذه المجالات على حدة بغرض التحليل والدراسة، إلا أنها ــ فيما يقال ــ مجالات وثيقة الصلة والترابط ويؤثر كل منها على الآخر، لأن حدوث تغييرات في المجال التكنولوجي أو الاجتماعي سيؤدي إلى حدوث تغيير في المعتقدات مما يؤثر بدوره من جديد على التنظيم الاجتماعي. وقد أجرى « جيرتز » دراسة مقارنة لمدينتين في أندونيسيا أوضحتا مثل هذه العلاقة المتداخلة بين التغيير الاجتماعي والتحديث الاقتصادي، مما يشير إلى أن التأثير العقائدي ــ وليس التغيير التكنولوجي أو الاقتصادي فحسب ــ يمكن أن يكون عاملاً مشجعاً على التنمية والتطور. فقد كتب يقول :

« في ضوء نظريات (ماكس ويبر) عن الدور الذي لعبته البروتستانتية في تشجيع قيام مجتمع الأعمال والتجارة في الغرب، قد لا يبدو أن القادة الذين اضطلعوا باقامة مثل هذا المجتمع في مدينة (موجو كوتو)، كانت أكثريتهم من دعاة الإصلاح المسلمين، وذلك لأن الدور الفكري لحركة الإصلاح الديني في الإسلام يقرب ـ من بعض النواحي على الأقل ـ من الدور الذي لعبته الكنيسة البروتستانتية في المسيحية. ومن هنا فإن حركة الإصلاح الديني التي اجتاحت الطبقات التجارية في مدن جزيرة جاوة في الفترة من ١٩١٢ ـ ١٩٢٠، قد مهدت الطريق لنشوء آداب أصيلة لأرباب التجارة من خلال تشديدها على أن السعي المنظم الدؤوب لتحقيق أغراض دنيوية يمكن أن يكون فضيلة لها أهميتها الكبرى ومغزاها الديني. كما أن استبدال هذه الحركة لمبدأ حرية الإرادة الذي يستهدف تحقيق التقدم بمبدأ الجبرية التقليدي في الإسلام، كان له أثره في حقن البيئة التجارية بقوة ديناميكية فعالة كانت تفتقر إليها في الماضي... ومن هنا نجد أن التنمية الاقتصادية في (موجو كوتو) تميل إلى الشكل التقليدي الذي عرفناه في الغرب رغم ما بين المجتمعين من اختلافات ثقافية ملحوظة. فلقد برزت من صفوف الطبقة التجارية التقليدية هنا جماعة من صغار التجار والصناع الذين كانوا موضع زراية بصفة عامة، وراحت تسعى، تحركها دوافع دينية إلى حد ما على الأقل، للوصول إلى وضع أفضل في مجتمع هبت عليه رياح التغيير، عن طريق طلب الثروة بطريقة رشيدة منظمة »[١].

وليس في نيتي أن أتعرض لكافة القضايا التي يمكن أن تثار في هذا الصدد، والأحرى بنا أن نكتفي بهذه الملاحظة، وهي أن الكاتب عندما يتعرض لوصف حركة ما في بيئة ثقافية حتى ولو كانت بيئة غير غربية بشكل واضح المعالم، فإن التفسير الوحيد الذي يفكر في طرحه هو التفسير الذي يعد شائعاً في المحيط الغربي. وإذا كان « ماركس » هو أبرز المصادر التي يرجع إليها لتأييد الرأي القائل بأن حدوث تغيير في وسيلة الانتاج وبالتالي في الأساس الاقتصادي، يؤدي إلى حدوث تغيير في العقيدة الأيديولوجية، فقد

(١) حاشية ـ صفحة ٥.

جرت العادة على الاستشهاد بأقوال « ويبر » لتأييد أية ملاحظات تدل على أن التغيير الأيديولوجي يؤثر على البنية الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع.

غير أنه من الواضح أن عقد مقارنة بين الإصلاح الديني في الإسلام ـ ويقصد به تأثير الأفغاني ومحمد عبده[1] ـ وبين الحركة البروتستانتية في المسيحية على الرغم من وجود بعض أوجه للتشابه الواضح بينها ـ في أسلوب التعبير أكثر وليس في المفهوم ـ هذه المقارنة تتطلب أكثر من مجرد الكلام العام، ولا يمكن أن توضح ما يرمي « جيرتز » إلى شرحه وتبيانه. لأن ما يعنينا في هذا المقام هو الثقافة، وإذا كان ويبر يدعي في كتابه « الأخلاق البروتستانتية » أساساً أن ازدياد النشاط الاقتصادي نجم عن الفكرة المستقاة إلى حد كبير من مذهب « كالفن » والقائلة بأن الله قد اختار لكل إنسان مصيره وأن السعادة والغنى في هذا العالم دليل على أن ذلك أمر أراده الله[2] »، فإن مثل هذا المفهوم لا وجود له في الإسلام. وفضلاً عن ذلك فإن جيرتز نفسه، بادعائه أنه وجد أن « مذهب الجبر التقليدي في الإسلام قد حل محله مبدأ حرية الإرادة التي تستهدف التقدم[3] »، يتزعم هذا الادعاء والقول المنافي للعقل. فالواقع أن فكرة الجبرية والقدرية في حركة البروتستانتية المسيحية هي التي أدت ـ طبقاً لما يقوله ويبر ـ إلى حدوث التغير الاقتصادي وظهور « روح الرأسمالية ».

وأخيراً وليس آخراً أود أن أوجه الانتباه إلى الفكرة القائمة على أساس مذهب النشوء أساساً، والتي تلازم هذا التحليل الذي يتجاوز نطاق الثقافة، وكذلك الفكرة الخاصة باستقرار الثقافة والتي تتردد حاليا في العلوم الاجتماعية الغربية : « أن النظم الثقافية تظل باقية في بيئات معينة لأنها قابلة للتكيف مع هذه البيئات، والمعنى الأساسي لذلك هو أن المنتسبين لهذا النظام الثقافي يمكنهم البقاء والاستمرار والانتاج عن طريق ترجمة المعتقدات

---

(١) حاشية ـ صفحة ٦.

(٢) حاشية (١) ص ٧.

(٣) حاشية (٢) ص ٧.

والسياسات المختلفة التي يتضمنها التراث الثقافي إلى عمل.... وبعبارة أخرى فإن استمرار نظام ثقافي ما يعتمد على ما يمكن أن نسميه ولاء المنتسبين إليه، كما يعتمد على قدرة هذا النظام على تقديم الحلول لمشكلات التكيف[1] ».

ومن الواضح أن الفكر التطوري الكلاسيكي، مع ارتباطه بنظرية النشوء والارتقاء، قد ترك طابعه على هذه الآراء أيضاً، وهو ما يلمحه حتى القارىء العابر من قراءته لبعض الألفاظ الأساسية في تلك النظرية مثل : البقاء والبيئة والتكيف. ولكن الأهم من التحليل اللغوي هو الفلسفة الجبرية التي تشكل الأساس لكل من نظريتي النشوء البيولوجي أو الارتقاء الاجتماعي. فهذه الفلسفة تبدو هنا وفي مواضع أخرى واضحة في معادلة البقاء مع التكيف مع البيئة، وتلك على وجه التحديد هي النقطة التي يثير المسلم عندها الاعتراضات. وإنه لمما يدعو للسخرية أن المسلم، عندما يتهمه المتحدثون باسم الفكر العلمي الحديث بأنه يعتنق مبدأ الجبر ويصفونه بأنه يؤمن بالقضاء والقدر، فإنه يدعي مناقضاً أن الثقافة، أو ثقافته الإسلامية على الأقل، لا سبيل لها للبقاء عن طريق التكيف، ولكنها تأتي إلى الحياة ويتسنى لها البقاء والاستمرار فقط عن طريق إحداث تغيير في البيئة، وعنده أن البيئة هي التي ينبغي لها أن تتكيف مع ثقافته وليس العكس.

وقبل الإضافة في شرح هذه النقطة يثور سؤال عما ينبغي أن تكون عليه ثقافة المسلم، ومن أجل هذا الغرض يجدر بنا أن نقدم تعريفاً أوسع نطاقاً للثقافة طالما أن نظرة المسلم إلى العالم نظرة كونية بطبيعتها. ويمكن القول بأن الثقافة يكمن وراءها بعض الأنماط للسلوك البشري، ومع أنه قد تكون هناك قليل أو كثير من مجالات النشاط البشري التي تتحكم فيها، هذه الأنماط السلوكية بشكل ظاهر، فإن هذه المجالات جميعها ترتبط بتلك الأنماط بمقدار قبولها أو نبذها طوعاً أو كرهاً، والثقافة هي حصيلة هذه المبادىء أو الأنماط عندما توضع موضع التطبيق بدرجات متفاوتة من

---

(١) حاشية (١) ص ٨.

الكمال والأصالة والتكيف الإرادي. أو بعبارة أخرى فإن الثقافة تصبح هي العقيدة الأيديولوجية نابضة بالحياة.

* * *

الثقافة الإسلامية :

لا ريب في أن القرآن الكريم والسنة هما مصدر القوانين والمبادىء التي تحكم حياة المسلم. وفي حين نجد القرآن الكريم، وهو الكتاب المنزل من الله للبشر، كثيراً ما يحدد قواعد السلوك والأحكام التفصيلية لبعض الحالات مثل الزواج والميراث، نجد في حالات أخرى أن سنة الرسول ﷺ هي التي ترشدنا إلى الطريقة التي يمكن بها تنفيذ مبدأ معين ورد في القرآن الكريم، ويجب النظر إلى ما تتسم به السنة من طبيعة عملية تنحو منحى التطبيق في إطار نظرة المسلم بأن السنة أمر من الله، شأنها شأن القرآن الكريم، وأنها ملزمة للإنسان. وقد شرح الإمام الشافعي هذه النظرة بشيء من التفصيل في « كتاب الرسالة » في الباب الخاص بالسنة حيث يقول : « إن كل ما أمر به الرسول ولا يستند إلى أمر من الله في كتابه، إنما فعله بأمر من الله، لأن الله دلنا على ذلك في قوله تعالى « وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم، صراط الله[1] ». لأن الرسول حدد السنة لما ورد فيه نص في كتاب الله، ولما لم يرد فيه نص. ومهما كان ما جاءت به السنة، فإن الله أمرنا بأن نطيعه، وهو يعتبر طاعتنا له طاعة لله، وعدم طاعتنا له عصيان لله لا يغتفر، وكذلك ليس ثمة عذر يبرر الامتناع عن طاعة سنة رسول الله »[2].

وهذا الاتجاه توضحه أيضاً نصوص القرآن الكريم :

« يا أيها الذين آمنوا، أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم، فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخرِ، ذلك خيرٌ وأحسنُ تأويلاً »[3].

---

(١) سورة الشورى آية ٥٢.

(٢) حاشية رقم (٢) ص ١٠.

(٣) سورة النساء آية ٥٩.

وبعبارة أخرى يصبح من المحتم على من يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يستمدوا مقاييس السلوك والعمل من الله ورسوله مما يعني أن يستمدوها من القرآن والسنة.

وكتب الحديث المفيدة، التي نقلت إلينا سنة الرسول عليه الصلاة والسلام، هي في الواقع دوائر معارف حقيقية تتناول كافة مجالات السلوك الإنساني. فالإسلام كما حدده القرآن الكريم وطبقه الرسول، هو طريقة حياة شمولية، والمسلم الذي يجتهد منذ أن يصبح إلى أن يمسي، وحتى في ساعات نومه اللاإرادي، في التكيف مع هذا الأسلوب المعيشي، إنما يجد ضالته المنشودة في الرسول نفسه :

« لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً »[١].

وروي عن الرسول ﷺ أنه قال :

« ما تركت شيئاً مما أمرني الله به لم أبلغكم به، وما تركت شيئاً مما نهاكم عنه لم أنهكم عنه ». وهذا البرنامج الشامل لسلوك الإنسان في كافة مجالات حياته وأوجه نشاطه المتعددة، يعتبر مطلقاً من ناحيتين :

أولاً : أنه يطلب الخضوع التام من الفرد.

ثانياً : أنه موجه لكافة البشر. فقد أمر الله رسوله ﷺ بأن يتوجه برسالته، ليس لعشيرته الأقربين أو لبني قومه، وإنما للناس جميعاً.

« قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً.... »[٢].

وإذا نحينا جانباً ما قد يثور من تساؤل حول ما إذا كان هذا البرنامج العملي الشامل الذي أقامه القرآن الكريم والسنة ينطبق تمام الانطباق على ما يعنيه علماء الاجتماع بالأيديولوجية، فإنه يبدو جلياً من العرض الموجز الذي قدمناه أن الهداية كلها ــ عند من اختاروا الإسلام ديناً ــ تأتي من عند الله عن طريق وحيه المنزل كما ورد في القرآن الكريم، وكما طبقه الرسول ﷺ

---

(١) سورة الأحزاب آية ٢١.
(٢) سورة الأعراف آية ١٥٨.

بنفسه ونقل إلينا في السنة المروية عنه. وهكذا تحددت أمام المسلم معايير السلوك في الحياة تحديداً واضحاً، وهذه المعايير في متناول كل من يرغب في العمل بها. ولقد سجلت هذه المعايير كتابة وتدويناً، وحفظت في الذاكرة ليسهل الرجوع إليها ولحمايتها من أي تحريف مقصود أو غير مقصود. وفضلاً عن ذلك فقد كلف المسلمون بواجب تبليغ رسالة الإسلام، وبالتالي تصبح المعايير التي تحكم طريقة الحياة الإسلامية في متناول العالم أجمع. وإذا ما وقع شيء من الخطأ أو التحريف أو سوء الفهم خلال عملية نشر الإسلام، فإنه من السهولة بمكان الرجوع إلى القرآن والسنة اللذين يحتويان على كل ما يدعو إليه المسلم وكل ما ينبغي أن يدعو إليه المسلم.

أما عن الابتداع في الدين والذي ندد به الرسول عليه الصلاة والسلام في أقوى عبارة[1]، فإنه من السهولة كشف أمره، ثم فضحه وطرحه طالما أن المعايير الصحيحة محفوظة بنصوصها الأصلية وموجودة في متناول الكافة.

ومن هنا نجد أنه لم يترك شيء للصدفة فيما يتعلق بالإرشادات التي وضعت لكي يسير المسلم على هديها وبرنامج العمل الذي يحدد سلوكه، لأن الله ورسوله قد حددا بوضوح أنماط السلوك التي يجب الاقتداء بها والتي جاءت على نحو يفهمه كل من أراد السير عليها.

وأخيراً يجدر الإشارة إلى أن اعتناق المسلم لأسلوب الحياة الإسلامية في ظل هذه الظروف، ليس عملاً لا إرادياً، بل هو قرار واع يحتاج إلى تجديده باستمرار على ضوء الاختيارات التي يتعين على المسلم أن يأخذ بها في حياته اليومية، والتي يعرض له فيها دوماً أن يختار بين اتباع هدى الله أو الاقتداء بمعايير أخرى، ومن هنا نجد أنه على الرغم من أن المعايير الخاصة بأسلوب المعيشة الإسلامي ثابتة ومحددة، فإن الطريقة والمدى الذي يذهب إليه المسلم في وضعها موضع التطبيق، متروكان لتقدير المسلم. وهنا تقع مسئولية الإنسان عن عمله. وعلى أية حال فإن هذه النقطة تخرج عن نطاق هذا البحث، وسوف نصف الآن بإيجاز كيف استطاع المسلمون الحفاظ

---

(١) « ... كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار » ـ الأربعين للنووي ـ رقم ٢٨.

على المعايير التي أسندت أمانتها إليهم في مواجهة التحريفات التي حدثت خلال تاريخهم.

إحيـاء الدين والثقافة الإسلامية :

إن نظرة عابرة على سجلات تاريخ الشعوب الإسلامية منذ وفاة الرسول ﷺ تكشف النقاب عن أن تعاليم الإسلام تتعرض لهجوم مستمر من جهات عديدة، وما أكثر قصص الانحرافات ومحاولات البدع والضغوط بشتى الصور والأشكال، ولو تعقبناها لملأت الصفحات الطوال، فكيف تسنى إذن لتعاليم الإسلام وأنماط السلوك التي ذكرنا أنها الأساس الذي تقوم عليه ثقافة المسلم أن تبقى خالصة نقية دون تشويه ؟ إن التفسير الوحيد الذي يمكن أن يسوقه المسلم لهذه الظاهرة هو أنها إرادة الله الخالق والرزاق الذي أنزل الإسلام شريعة كاملة وخاتمة للإنسان في الحياة[١]. والذي أوحى لنبية ﷺ أن يبين بوضوح في الحديث التالي كيف ستتم المحافظة على تعاليم الإسلام. فقد روى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال :

« إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل قرن من يجدد لها دينها »[٢]. ويمكن أن نضيف إلى ذلك ما قاله أبو الأعلى المودودي من أن هذا الحديث لا يعني بالضرورة أفراداً مستقلين يتحملون عبء حماية الإسلام من النساء، ولكن هذه المهمة في الواقع قد يضطلع بها عدد من الأشخاص أو الجماعات في نفس القرن »[٣].

ونعود إلى بحثنا الأصلي حول ثقافة المسلم التاريخية والتي نعتبرها ـ حسب تعريفنا السابق ـ بمثابة الأيديولوجية الحية وأنماط السلوك الإنساني الموضوعة موضع التطبيق بدرجات متفاوتة من الأصالة، وهنا لا بد لنا أن نكون واضحين إزاء هذه الحقيقة وهي أن الثقافة الإسلامية، وإن ارتبطت ارتباطاً أساسياً بالمعايير الإسلامية للسلوك البشري، لا يمكن معادلتها

---

(١) انظر القرآن الكريم ٥ : ٤.

(٢) حاشية رقم (٢) صفحة ١٥.

(٣) حاشية رقم (٢) صفحة ١٥.

بالأنماط المنزلة من عند الله. ومع ذلك فإن الثقافة الإسلامية محددة بقضاء الله وقدره وأنه هو سبحانه الذي فرضها على الأنام. ثم تكونت المسافة التي تفصل بين الثقافة الإسلامية الواقعية وبين الأنماط التي تشكل الأساس لهذه الثقافة، ويرجع ذلك جزئياً بطبيعة الحال إلى عزوف الكثيرين عن تطبيق المعايير المطلوبة في حياتهم. ومن ناحية أخرى كان هناك دائماً وماتزال توجد حتى اليوم محاولات مضادة مقصودة للوقوف في وجه أية مساعي يبذلها الفرد المسلم أو شعب مسلم بأسره لكي يعيش طبقاً للقواعد المقررة في القرآن والسنة، وسوف نناقش هذه المسألة بمزيد من التفصيل عندما نتعرض لتجربة التبشير المسيحية في الأقطار الإسلامية، وقد تختلف الدوافع التي تحرك مثل هذه الحملة المضادة، ولكنها تسعى وراء هدف واحد ألا وهو الحيلولة دون وضع الإسلام موضع التطبيق، وما ذاك إلا لأن تطبيق الإسلام، والذي يعني تشكيل الواقع طبقاً للمعايير المقررة من عند الله، لن يجعل النصر حليفاً لغير المسلمين، بل إن على غير المسلمين أنفسهم أن يمتثلوا للمعايير الإسلامية في هذه الناحية أو تلك، مما سيحول بينهم وبين تحقيق الغايات والأهداف التي وضعوها نصب أعينهم سواء أكانت فرض ضغوط غير مشروعة أو تحقيق مكاسب مادية أو حتى فرض سيطرتهم على الشعوب والدول.

الصـــراع من أجل الثقافة الإسلامية :

إن الصراع بين الإسلام والجاهلية مازال مستمراً حتى يومنا هذا، وإذا كان عالمنا الحديث قد طرأت عليه تغييرات كثيرة خلال الحقب الأخيرة، فلقد وقفت حقيقة واحدة في مواجهة كثير من الأباطيل. وإذا كان يبدو لنا أن الشخصيات الإسلامية الفذة التي ظهرت في الآونة الأخيرة قد ساندت تعاليم الإسلام الصحيحة ضد كل أشكال الفساد، فلعل قربنا من الأحداث الأخيرة هو الذي يجعلنا ننظر إلى الحركات الإسلامية التي التفت حول تلك الشخصيات الفذة على أنها القوى الحقيقية وراء الصراع المستمر، ولكننا لو

درسنا تاريخ هذا الصراع بمزيد من العمق، لأدركنا على الفور أن هذا الأمر ينسحب على الماضي أيضاً[1].

وها نحن نرى المسلمين اليوم في كافة أرجاء العالم تحت زعامة قائد فذ في بعض الأحيان، أو في جماعات صغيرة أحياناً أخرى أو في منظمات كبرى، نراهم يجاهدون لتحقيق هدف واحد في بقاع كثيرة من العالم، وهو تطبيق الإسلام. ومما يدعو للأسف أن هذا الكفاح يوصف في بعض الأحيان وصفاً سطحياً بعبارة « تطبيق الشريعة الإسلامية ». ومع أنه ليس هناك أدنى شك في أن التطبيق الكامل للشريعة هو الطريق الأمثل لإقامة الثقافة الإسلامية ودعمها، فإننا يجب أن نتذكر أن الإسلام ليس مجرد الشريعة، وأنه في حاجة إلى مسلمين بمعنى الكلمة لكي يجعلوا من تطبيق الشريعة عملاً له مغزاه وأداة نافعة لتحويل المجتمع إلى مجتمع إسلامي. فالإسلام لا يوضع موضع التطبيق بمجرد إصدار قرار بتطبيق الشريعة أو ربما بتطبيق أجزاء منها فحسب على نحو ما نراه اليوم في كثير من أقطارنا التي استبدلت القوانين الأجنبية فيها بكل أوامر الإسلام تقريباً.

وإذا أريد توثيق الصلة بين الثقافة الإسلامية وبين الأنماط التي تشكل أساس هذه الثقافة بالقدر الذي يستطيعه البشر، فلا بد من خوض كفاح عظيم وجهاد مستمر، وهو الكفاح الذي خاضه أجدادنا. وكان الدرس البسيط الذي يكمن وراء جهادهم الذي استمر طوال حياتهم هو أن يكونوا في حياتهم الخاصة وحتى في أدق شئونهم وأحوالهم الشخصية على صلة وثيقة بالقرآن والسنة، وأن يعرضوا عن كل البدع التي يقصد بها أن يضاف إلى الإسلام ما لم يأمر به الله ورسوله.

---

(١) ان ظهور ما يسمى بمدارس الفقه أو المذاهب لدليل على أن أولئك الأئمة العظام مثل أحمد بن حنبل والشافعي لم يقاوموا الأخطار التي تهددت التعاليم الإسلامية بمعزل عن الأمة، بل ان هؤلاء الأئمة رأوا أن من واجبهم ومن حقهم أن يقفوا مع الأمة ويتحدثوا باسمها، كما يتضح من موقف النووي ـ كمثل واحد من مواقف عديدة ـ الذي طرده السلطان بيبر من دمشق لأنه رفض أن يصدر فتوى تبيح اتخاذ اجراءات غير شرعية ضد ممتلكات أهالي سوريا.

كانوا يؤمنون، ونحن نؤمن معهم، بأن حياتنا الشخصية وحياتنا الجماعية، وشئوننا اليومية ونظام عملنا ونشاطنا الخاص في أي دور نضطلع به، رجلاً أم امرأة، زوجاً أو زوجة، والداً أم ولداً، معلماً أم تلميذاً، تاجراً أو مشترياً، جندياً أم صانعاً...... الخ، هذه الشئون كلها يمكن أن تصاغ وفقاً للأنماط التي حددت لنا في القرآن والسنة. ومن هنا نجد أن كفاحهم، والكفاح الذي ينتظرنا أيضاً، هو تغيير الواقع الاجتماعي الذي يحيط بنا بحيث يتمشى مع المعايير التي يقبلها الله باعتبارها المعايير الأنسب والأكمل والأكثر تآلفاً واتساعاً.

ومعنى هذا في التطبيق العملي أن ننظر نظرة فاحصة للواقع الاجتماعي ولجميع القوى والمؤثرات التي تشكل هذا الواقع وتحدد إطاره، فما كان منها موافقاً للقرآن والسنة قبلناه ونفذناه، وما لا يتفق منها مع معاييرنا أو يناقضها فيجب تعيين هويته على أنه مخالف لهذه المعايير، والربط بينه وبين ما يحدثه من آثار، والعمل على إلغائه بأنسب الطرق. وهذا التحليل، وهذا الإجراء يجب أن يشمل الواقع الاجتماعي كله، من قمته إلى قاعدته الدنيا، بحيث يتناول كل المجالات التي يتألف منها هذا الواقع ابتداء من التعليم حتى الزعامة والرئاسة، ومن القانون حتى توزيع الثروة ومن العادات القروية إلى العلاقات الدولية. ويجب خوض الكفاح في كل مجال من هذه المجالات بصور مختلفة تبعاً لما تتطلبه مقتضيات الموقف ابتداء من المعارضة الصامتة إلى عدم المشاركة وانتهاء بالصراع المسلح والتضحية بالنفس والمال[1]. وبذلك نسعى كمسلمين لتشكيل ثقافتنا وصوغها بطريقة إيجابية وجعلها موافقة للنمط الذي قبلناه على أنه مقرر لنا من عند الله خالقنا وناصرنا، بدلاً من أن نشكل نحن أنفسنا وتصاغ حياتنا طبقاً لثقافة مأخوذة في معظم عناصرها من قيم ومبادىء مخالفة ومناقضة لمبادئنا وقيمنا، والتي جلبها إلينا أعداؤنا عامدين، أو التي نشأت وتكونت نتيجة للتفاعل بين جهودهم وجهودنا.

---

(١) انظر الأحاديث الأربعين للنووي ـ رقم ٣٤.

بقي لنا أن نقول أن النبي ـ ﷺ ـ والمؤمنين حقاً خاضوا الصراع في الوسط المباشر الذي كانوا يعيشون فيه، غير مبالين بمساكنهم أو أعمارهم أو مكانتهم الاجتماعية أو ثرواتهم، ولم يتساهلوا حتى مع ذوي قرباهم أو حتى مع آبائهم أو أبنائهم. فقد أعلن النبي نفسه أنه لو سرقت ابنته فاطمة لقطع يدها. وبذلك نرى أن توثيق الصلة بين السلوك الفردي والجماعي وبين الأنماط التي قررها القرآن والسنة، تقع مسئوليته أولاً على عاتق كل فرد منا وصراعه في محيط واقعنا الاجتماعي وبيئتنا وأسرتنا وقريتنا ومدينتنا وبلدنا.

الغـــرب :

ينبغي لنا أن نوضح منذ البداية أننا نعني بكلمة « الغرب » تلك الثقافة التي تشمل كلا من المعسكرين الرأسمالي والشيوعي، لأن كليهما من نتاج هذه الثقافة، ومن المسلّم به الآن أن الاستعمار والامبريالية اللذين حددا مسار تاريخ العالم خلال القرون الماضية، يعتمدان في أساسهما على أسباب اقتصادية، وهذا القول صحيح إلى حد بعيد حتى بالنسبة للحروب الصليبية التي تمثل صورة من صور العدوان المبكر على المسلمين وثقافتهم وعقيدتهم[١].

أما بالنسبة لتاريخ الغرب الحديث في اضطهاد واستغلال أجزاء كبيرة من العالم ـ الإسلامي وغير الإسلامي على السواء ـ فإن دعاة التوسع الاستعماري لم يحاولوا مطلقاً إخفاء دوافعهم الحقيقية. فالاستغلال الاستعماري لم يكن من صنع الرحالة والمكتشفين وإنما كان من تدبير مؤسسات وشركات كبرى أسست خصيصاً لهذا الغرض. وموجز القول أن العلاقة الاقتصادية بين الغرب وبقية العالم تقوم على أساس توزيع الأدوار على

---

(١) ظل المستشرقون حتى عهد قريب يرددون دون اعتراض من أحد، أن فكرة نشر العقيدة بالسيف، وهي الأساس الذي قامت عليه الحملات الصليبية، ليس لها أساس في المسيحية، ولا بد أنها مأخوذة من الإسلام. كما ورد في كتاب لا يزال مقرراً حتى اليوم في الجامعات الألمانية كمدخل لتاريخ العرب.

(٢) منذ أن تأسست شركة الهند الشرقية الهولندية في عام ١٦٠٣م وهي توجه حكامها في جاوة « لاقامة التجارة في جزر الهند بما يعود بالنفع على اسم المسيح العظيم، ويحقق الخلاص للوثنيين ».

النحو التالي : يتخصص العالم غير الغربي في إنتاج المواد الأولية بأسعار رخيصة، وتستخدم الدول الغربية هذه المواد في إنتاج بضائعها التي تبيعها بأسعار باهظة للدول غير الغربية. ويؤدي الدوران في هذه الحلقة إلى زيادة الاستغلال وتزايد اعتماد الشعوب غير الغربية على الغرب.

ويجدر بنا أن نلقي نظرة سريعة على تاريخ الامبراطورية العثمانية على سبيل الإيضاح، فلقد ساعدت الدول الغربية وعلى رأسها فرنسا الحكام العثمانيين في إصلاح الجيش والذي كان يعتبره السلطان سليم ضرورياً نظراً لتدهور الدولة العثمانية بعد القرن السابع عشر. وفي عام ١٧٩٣م، أصدر السلطان سليم عدداً من القوانين تعرف باسم « النظام الجديد » تهدف أساساً لإقامة جهاز عسكري جديد يتولى تدريبه الضباط الفرنسيون[١]. وأدى ذلك بالتالي إلى نشوء الحاجة إلى إقامة نظام تعليمي جديد، كما ساعد على نشر اللغة الفرنسية كلغة للتعليم، ومهد الطريق لترجمة المؤلفات الفرنسية إلى اللغة التركية، وبعد ذلك أصبحت مبادىء الثورة الفرنسية أثيرة لدى الصفوة التي تلقت تعليمها وتدريبها على أيدي الفرنسيين. وهكذا وصل، مع استيراد التكنولوجيا العسكرية إلى الامبراطورية العثمانية، ثقافة كاملة قدمت للمسلمين على أنها قمة الحضارة والتطور »[٢].

وغني عن القول أنه جنباً إلى جنب مع استعمال التكنولوجيا الفرنسية، بدأ استيراد المنتجات الفرنسية بمختلف أنواعها إلى الامبراطورية العثمانية وبالتالي ازداد الاعتماد على القوى الأوروبية باطراد مع ازدياد الواردات الأجنبية، وكان إفلاس الدولة العثمانية بعد ذلك هو الذي أتاح الفرصة للدول الغربية بأن تفرض ما يسمى بالامتيازات الأجنبية وأن تحدد، ليس مصير الأتراك وحدهم، بل ومصير جزء كبير من العالم الإسلامي الذي كان في ذلك الحين جزءاً من الامبراطورية العثمانية.

---

(١) ليس من الغريب اذن أن نرى تركيا في أعقاب الحرب العالمية الأولى تسير على منوال فرنسا في اقامة دولة علمانية، والتي ليست سوى النتيجة الطبيعية للتغلغل الثقافي والسيطرة التي دامت قرنين أو ثلاثة، وليست عملا خلاقاً ابتدعه رجل واحد هو كمال أتاتورك كما يقال في كثير من الأحيان.

(٢) انظر كتاب : حاشية رقم (٢) صفحة ٢٢.

إن ما عرضناه آنفاً بايجاز ينطبق مع الأسف الشديد بنفس طريقته على كافة الشعوب الإسلامية تقريباً في عصرنا الحالي. وإذا نحينا جانباً فصول التاريخ الحزينة التي تصف في كل صفحاتها كيف وقع المسلم فريسة للدول الغربية، فإنه يكفي القول هنا بأنه ما من دولة إسلامية واحدة لم يتدفق عليها أولاً السلاح والخبراء العسكريون، ثم تعقبهم ثانياً كافة أنواع المستوردات الأخرى من الخارج. وليكن مفهوماً أننا كما قلنا في البداية، نعني بذلك كلا من الدول الرأسمالية والشيوعية، وكما أشرنا من قبل فإن الثقافة هي الأيديولوجية عندما توضع موضع التطبيق. وفيما يختص بالإسلام فإننا نعرف ونسلم بأنه قد حدد إطاراً متوازن الأبعاد توضع فيه السلع المادية، ولكنه يأبى أن يصبح السعي وراء الأهداف الاقتصادية الغرض الأسمى في حياة الفرد أو الجماعة[1]. أما في الثقافة الغربية فإن هذا الهدف هو الغالب والمهيمن ولهذا السبب أصبحنا نسميها بالثقافة المادية.

الفكر العلماني :

أشرنا فيما سبق إلى أن الدولة العلمانية هي الشكل الجديد للمجتمع الذي يقوم على أساس الثقافة الغربية والتي تنتقل جنباً إلى جنب مع السلع الغربية والتعليم الغربي إلى الشعوب الإسلامية.

والعلمانية مفهوم نشأ من خلال الصراع الذي نشب بين المسيحية والمفكرين الأحرار الملحدين، ذلك الصراع ساد المناخ الفكري في أوروبا منذ نهاية العصور الوسطى وبلغ ذروته في الفصل بين الكنيسة والدولة وما آل إليه الأمر من عبادة « آلهة العقل » أثناء الثورة الفرنسية[2]. فمن الجلي الواضح أن الصراع بين العقل والعقيدة، والذي يؤدي إلى الفصل الدائم بينهما على نحو ما يدعو إليه مفهوم العلمانية لا يمكن أن ينشأ إلا حيث توجد

---

(١) انظر المناقشة السابقة للمقارنة التي عقدها جيرتز بين البروتستانتية في أوروبا وحركة الاصلاح الديني في الإسلام.

(٢) لا داعي للافاضة والشرح لأثبات أن التراث الفكري الاغريقي الذي أدى إلى نهضة أوروبا وقيام عصر العقل، نقل إلى الأوروبيين على أيدي المسلمين الذين أسهموا هم أنفسهم اسهاماً هائلاً في إثراء ما أصبح فيما بعد الرصيد الفكري المشترك للمعارف الغربية.

تناقضات خطيرة بين العقيدة والعقل. غير أن مفهوم العلمانية نفسه بالطريقة التي نما بها تاريخياً، لا يمكن أن يتخلى تماماً عن الكنيسة والدين، حيث أنه يبرز موقفه بمعارضته لهما. وعلى أية حال فإن الدين في المجتمع العلماني يمكن أن يهبط إلى مستوى يفقد أهميته عنده ويصبح عديم الأثر في حياة الجماعة، وقليل التأثير في حياة الفرد. وإذا ما اعتنق الإنسان ما يمكن أن نسميه نظرة عالمية « مجزأة » بمعنى أنه يتصور الواقع على أنه ذو طبيعة عالمية شاملة تتضمن مجالاً دينياً ينحصر في النطاق الشخصي فقط ـ إن وجد أصلاً هذا المجال ـ فإن الإنسان يرفض قبول الهداية وأنماط السلوك التي أنزلها خالق الإنسان ورازقه، لأن هذه المعايير التي تتعلق بالمسائل الشخصية للفرد، ليس لها تأثير على المجتمع.

إن الثقافة الغربية تستند إلى مثل هذه النظرة العالمية العلمانية، ولذلك لا يحاول الإنسان الغربي أن يستمد قيمه ومعاييره من الكنيسة أو الدين. بل إن الكنيسة وقد اشتركت هي نفسها في الصراع على النفوذ الدنيوي منذ عدة قرون، قد عجزت عن تقديم بديلات مقنعة بل إنها ساعدت في الواقع على قيام مثل هذا الوضع الخطير. ولما كان الإنسان الغربي يعتنق قيماً ومعايير ذات طبيعة نفعية بحتة، ولما كانت الأهداف الاقتصادية تمثل الدوافع الوحيدة لنشاطه وسعيه، فإنه قد أقام ثقافة بعيدة عن قانون الخالق، هذا إن لم ينكر وجود الخالق نفسه. وتلك هي الثقافة التي تحمل إلى الشعوب المسلمة جنباً إلى جنب مع المنتجات والسلع التي يستوردونها من الغرب.

النزعـة العلمانية والتبشير المسيحي :

إذا كنا قد عرفنا العلمانية بأنها أيديولوجية تهدف إلى استبعاد أهمية الحقائق الروحية وإعلاء شأن القيم التي صنعها الإنسان فقط، فإن النزعة العلمانية يمكن تعريفها بإيجاز بأنها عملية تؤدي إلى تقليل أثر الدين على المجتمع والثقافة[1]. وعند العلماني أن الدين بوضعه هذا لا ضرورة لانكاره، وإنما تسند إليه اختصاصات محدودة فقط مثل تقديم العون العاطفي لمن

---

(١) حاشية رقم (١) صفحة ٢٦.

يفقد الثقة في نفسه في هذا العالم الحديث، أي الدين أصبح إحدى الوسائل التي تعين على البقاء.

والعلمانية، التي تعني في النطاق الإسلامي إضعاف تأثير القيم الإسلامية، هي المدخل الوحيد للمبشرين الأجانب سواء أكانوا مسيحيين أو شيوعيين أو أياً ما كانوا. ويجدر بنا أن نلاحظ أيضاً أن الاتجاه العلماني سوف ينتهي به الأمر بالطبع إلى إقامة الدولة العلمانية التي تعني أساساً انصراف الجماعة، إن لم يكن انصراف الفرد، عن الله. ويجب أن تكون في غاية الوضوح بالنسبة لما نقوله : إن النزعة العلمانية تعني في النطاق الإسلامي إضعاف القيم الإسلامية، وسيؤدي هذا ـ كما أسلفنا ـ إلى التمادي في نزع الطابع الإسلامي عن ثقافة المسلمين، تلك الثقافة التي تقوم على أساس أنماط السلوك الإسلامية ووضعها موضع التطبيق بدرجات متفاوتة من الأصالة. ويصف المبشّر « كين » بإيجاز ما حدث في شبه القارة الهندية فيقول : أن بنجلاديش تحولت إلى دولة علمانية بمجرد انفصالها عن باكستان، ويستطرد قائلاً في حديثه عن النزعة العلمانية في العالم الإسلامي :

« إن النزعة العلمانية تمضي قدماً في كافة أنحاء العالم، ويوماً بعد يوم يقل عدد الحكومات التي لديها استعداد لتأييد الدين بصفة عامة، ناهيك عن مساندة دين بعينه. وإذا سلمنا بأن هذا الاتجاه العلماني حديث العهد في العالم الإسلامي، فإنه سوف يقوى وينتشر في السنوات القادمة »[1]. ويلمح المؤلف نفسه إلى أنه في دول الشرق الأوسط الإسلامية يجب أن يكون التعليم بديلاً عن الأشكال المباشرة للتبشير بالمسيحية[2]. وبطبيعة الحال تتردد بعض الأصوات من داخل الكنائس تدعو إلى إنهاء عمليات التبشير في صورتها الراهنة على الأقل[3]. ولكن يجب ألا يتبادر إلى أذهاننا أي فهم خاطئ لما يعنيه هذا القول، فطالما أن جميع الكنائس ترى أن

---

(١) حاشية رقم (١) صفحة ٢٧.

(٢) نفس المرجع السابق ـ ٣١٧.

(٣) هذا الرأي تردد في المؤتمر الثالث المنعقد في لوزاكا في ١٩٧٤م.

التبشير بالدين المسيحي من واجباتها الأولى[1] ، فإن هذا النقاش يدور فيما يبدو حول المنهج لا غير. وفضلاً عن ذلك فإنه على الرغم مما يتردد حول وقف النشاط التبشيري، فإن أياً من الكنائس الافريقية أو الآسيوية لم تطلب من الجهات التي تدعمها في الغرب أن توقف إرسال الأموال أو المبشرين أو المساعدات المادية إليها، مما يدل على أن مثل هذه الآراء والمناقشات لا علاقة لها بما يحدث فعلاً في هذا المضمار. ويضاف إلى ذلك أن ما يسمى بالجماعات الإنجيلية، وخاصة في أمريكا الشمالية، لم تتخل مطلقاً عن الرأي القائل بأن التبشير بالإنجيل في كافة أنحاء العالم « واجب على جميع المسيحيين من كل أرض وكل لغة وكل ثقافة »[2]، وهي تعني بالطبع الثقافة الغربية في المحل الأول. « ولما كان في العالم بليونان من الناس، وهم في طريقهم إلى أن يصبحوا ثلاثة بلايين عما قريب، لا يعرفون المسيح، فإن عملية التبشير بالإنجيل يجب أن تستمر »[3]. وليس من الغريب إذن أن نعلم أنه عقد في أكتوبر من عام ١٩٧٨م مؤتمر سري في الولايات المتحدة حضره حوالي ١٥٠ مبشراً وأطلق عليه اسم « مؤتمر تنصير المسلمين ». وما تزال أنباء مداولات هذا المؤتمر ونتائجه شحيحة، ولكن ليس هناك شك في أن الثقافة لعبت دوراً بارزاً في ذلك المؤتمر. وقد نُمِيَ إلى علمنا من الأبحاث التي لم تنشر على الجمهور، أن أحد النتائج المباشرة للمؤتمر، إنشاء معهد التدريب والبحوث الإسلامي الإنجيلي، والذي سيقام في باسادينا بولاية كاليفورنيا، وهدفه الأسمى « استمالة المسلمين الذين لم تتم استمالتهم نحو المسيح »[4].

وتم الاتفاق أثناء مناقشات ذلك المؤتمر على استراتيجية « استخدام الأساليب الحساسة من الناحية الثقافية بالنسبة للمسلمين من واقع ثقافتهم »[5]، والفكرة من ذلك هي « أن الوقت قد حان لكي نكون أمناء

(١) حاشية رقم (١) صفحة ٢٨.
(٢) حاشية رقم (٢) صفحة ٢٨.
(٣) حاشية رقم (٣) صفحة ٢٨.
(٤) حاشية رقم (١) صفحة ٢٩.
(٥) حاشية رقم (٢) صفحة ٢٩.

فيما يتعلق بثقافاتنا والثقافات الإسلامية، فإن أياً من هذه الثقافات لم يصدر عن وحي حقيقي ولم يحظ بتأييد إلهي »[1].

وقبل أن ننفض أيدينا من هذه الأقوال هناك أمران يجب أن ندركهما بوضوح : أولهما أن أولئك المبشرين الذين يخططون لزيادة نشاطهم وبخاصة بين المسلمين يتلمسون الطرق والمداخل الحساسة من الناحية الثقافية، ومعنى هذا ببساطة أنه لا بد من إقامة وسائل أفضل للاتصال، والاتصال له الأولوية المطلقة في استراتيجية التبشير. « وقبل أن يصبح في الإمكان نشر الإنجيل لا بد من إقامة خطوط المواصلات »[2]. وتلك هي النقطة التي يجب أن تجري عندها دراسة واعية لما يسمى بالحوار بين الأديان، لأن هذا الحوار قد لا يعني أكثر من إقامة خطوط المواصلات التي يتحدثون عنها.

والأمر الثاني هو أن ما ذهبوا إليه من « أنه لا توجد ثقافة صادرة عن وحي حقيقي أو تحظى بتأييد إلهي » إنما هو تبرير لمحاولة منع المسلمين من توثيق الصلة بين ثقافتهم وبين أنماط السلوك المقررة من عند الله، والتي هي أساس تلك الثقافة، وقبولهم وترحيبهم بالاتجاه العلماني كوسيلة للتمهيد للتبشير بالإنجيل. إن القول بأن وحي الله ومباركته لا وجود لهما على الإطلاق في الثقافة حكم لا ينطبق على المسلمين، لأن واجبنا كمسلمين ـ على نحو ما أوضحناه في مستهل هذا البحث ـ هو أن نشكل الواقع ونصوغه طبقاً للمعايير المنزلة من عند الله والتي أقرها الله بل وفرضها. ومن ثم فكلما اقتربنا بثقافتنا من تلك المعايير، كلما احتجنا إلى المزيد من التأييد. ولكن عندما يحدث إغفال وإنكار لأهمية هذه المعايير بالنسبة للمجتمع والثقافة، يبرز الاتجاه العلماني، وهو الاتجاه الذي يوافق مصلحة التبشير المسيحي الذي يأمل رجاله أن يؤدي إلى القضاء على آثار المعايير الإسلامية وإلى إحداث فراغ يمكن أن تصب فيه تعاليمهم. ومن ثم يبدو واضحاً أن الأمر كله ينتهي عند ذلك السؤال الوحيد عن صحة المعايير التي تشكل

(١) حاشية رقم (٣) صفحة ٢٩.

(٢) حاشية رقم (٤) صفحة ٢٩.

قاعدة الثقافة الإسلامية. فالمسيحيون بإنكارهم لنبوة محمد، يرفضون هذه المعايير، وإنطلاقاً من تجاهلهم لأوامر الله، يزعمون أنه ليست هناك أية ثقافة ـ بما في ذلك الثقافة الإسلامية ـ موحى بها من الله أو تحظى بتأييد من الله. وهذا الرأي في حد ذاته ليس سوى مظهر آخر من مظاهر التفكير العلماني المحض. ومن هنا نرى أن أخطر تحد تواجهه الأمة الإسلامية هو ذلك التساؤل عن علاقة الله بالفرد والمجتمع على النحو الذي يثيره العلمانيون.

وفي الختام نوجز ما تعرضنا له في هذا البحث :

ـ في البداية أوضحنا أنه بينما المفاهيم الغربية للثقافة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بنظرية النشوء والتطور، فإن الثقافة الإسلامية تخرج إلى حيز الوجود من خلال محاولة تشكيل الواقع طبقاً لأنماط السلوك الإنساني المنزلة من عند الله وليس عن طريق التكيف مع البيئة، وهو الرأي الشائع في الغرب على أنه يمثل طريقة البقاء والاستمرار بالنسبة لأية ثقافة.

ـ وبعد ذلك تناولنا باختصار المصادر التي تستمد منها القوانين والمبادىء التي تشكل قاعدة الثقافة الإسلامية وتتمثل هذه المصادر بطبيعة الحال في القرآن الكريم والسنة، كما تعرضنا للتساؤل عن كيف أمكن حماية تعاليم الإسلام من الفساد والتحريف. ولكي يتسنى تقريب الثقافة الإسلامية بقدر الإمكان من معاييرها المقررة، يتطلب الأمر كفاحاً مستمراً من جانب الفرد على كافة مستويات الوجود الإنساني.

ـ ثم انتقلنا لعرض موجز لطبيعة التوسع الغربي الاقتصادية أساساً والمادية بالتالي، وأوضحنا كيف أدى أستيراد المنتجات الغربية ـ كما هو الحال بالنسبة للامبراطورية العثمانية ـ إلى جلب الثقافة الغربية والتي تتميز بالفكر العلماني، وفي هذا الفكر لا ينظر إلى القيم والمعايير على أنها من عند الله.

ـ وأخيراً أوضحنا أن الاتجاه العلماني الذي يسمح باعتبار المعايير المنزلة من عند الله غير ذات موضوع ـ هذا الاتجاه يفتح الطريق أمام المبشرين المسيحيين الذين يبذلون الآن جهوداً متزايدة للتبشير بالانجيل بين

المسلمين، ومن أجل هذه الغاية يؤيدون الاتجاه العلماني في الدول الإسلامية، وهو الاتجاه الذي يؤدي في حد ذاته إلى الإعراض عن الله المولى والنصير.

كتاب إنسانية الإنسان

تأليف : رينيه دوبو

تحليل وعرض وتلخيص : الدكتور نبيل صبحي الطويل



بسم الله الرحمن الرحيم

نبذة قصيرة عن المؤلف :

رينيه دوبو — René Dubois — استاذ اميركي من أصل فرنسي، هاجر إلى الولايات المتحدة في سن الرابعة والعشرين بعد أن أنهى دراسته الجامعية في باريس متخصص في علم الحياة ـ البيولوجيا ـ ويعمل في جامعة « روكفيلر » بنيويورك وهو أحد أبرز علماء البيولوجيا المعاصرين، كان أول من أظهر إمكانية صنع عقاقير مضادة للجراثيم.. من الجراثيم نفسها. نال (دوبو) لإسهامه العلمي الهام عدة جوائز آخرها جائزة نوبل بالاشتراك مع عالم آخر في أدبيات العلوم لعام ١٩٧٦م كذلك نال الجائزة العلمية لمركز العلوم للمحيط الهادي ونال أيضا جائزة (بولتزر Pulitzer) لعام ١٩٦٩م.

والبروفسور (دوبو) مؤلف ومحاضر مشهور بالإضافة لكونه باحثاً علمياً.

نبذة قصيرة عن الكتاب :

صدر الكتاب بالانجليزية لأول مرة في لندن عام ١٩٧٠م عن شركة

(Rupert Hart — Davis — Ltd.) وأعادت شركة (abacus) طبعه عام ١٩٧٣م وهو في مائة وخمس وسبعين صفحة من الحجم الصغير مقسم على فصول ستة بعد المقدمة والتمهيد، مع مائة وستة وثمانين مرجعاً. وعنوان الكتاب بالانجليزية (So Human an Animal) والتعريب الحرفي لهذا العنوان هو « يا لإنسانية هذا الحيوان ».

والكتاب على حد تعبير جريدة الأوبزرفر اللندنية « هجوم مدمر على المجتمعات الصناعية الاستهلاكية الحديثة واعتقادها المحزن بأن السبيل الوحيدة للسعادة والغنى الحقيقي مرصوفة بسلسلة من التركيبات الاقتصادية والتكنولوجية ».

لماذا عربت الكتاب ؟؟

الانبهار الذي تحدثه مظاهر حضارة الغرب المادية لدى العديد من مواطني العالم الثالث ـ حيث تعيش غالبيته المسلمين ـ أمر لا يستطيع أحد إنكاره. ولكن إذا جاز لغير المسلمين أن يؤخذوا بالقوة المادية الغاشمة والسطوة الاقتصادية المسيطرة المستغلة وناطحات السحاب والصناعات الثقيلة والحربية منها بخاصة والصواريخ العابرة للقارات والأقمار الصناعية والتطور التكنولوجي الهائل... فلا يجوز أبداً للمسلم الواعي أن يخدع بهذه المظاهر المادية دون دراسة متأنية وتحليل دقيق لمنطلقات هذه الحضارة والثقافة المصاحبة لها والأفكار الناشئة عنها حسب تقويم إسلامي واضح. فمع إعجابنا كعلماء ومفكرين إسلاميين بالتقدم العلمي والتكنولوجي الذي واكب هذه الحضارة المادية، إلا أننا نعلم أن هذه كلها أدوات ووسائل ليس لها أخلاق، ويمكن استعمالها لخير البشرية، أو لدمارها على حد قول (دوبو) وتتوقف استعمالاتها على أخلاق وأمزجة الذين اخترعوها وانتجوها. ومن البديهي أن المنطق الخاطىء لا يؤدي إلى نتائج سليمة وصحيحة، وهذا ما حدث فعلاً للمجتمعات الغربية التي أسهمت في تشييد هذه الحضارة التي أصبحت بدورها وبالاً على أهلها وعلى العالم.

إنها حضارة خاوية بلا مضمون عقيدي أصيل... جامدة بلا روح خيرة معطاءة، مظلمة بلا نور رباني يهدي للتي هي أقوم... ظالمة لأنها لا

تستنـــد إلى عدل إلهــي صحيح الموازين ، عشوائية الحركة لأنها بلا هدف واضح نبيل، وأخيراً فهي انتحارية المسار في تسارع عجيب كما ينبئنا بذلك أصحابها.

ولعل أحسن من يستمع إليهم في نقدها أبناؤها ونتاجها من العلماء والمفكرين والباحثين، ونحن في دار الإسلام على تخلفنا المادي الحاضر بحاجة لسبر غور هذه الحضارة، حتى لا يتبناها البعض دون دراية كافية بحسناتها وسيئاتها، فإذا افترضنا ـ جدلاً ـ أن في ظاهرها رحمة فباطنها العذاب كله. وبين ظهرانينا في العالم العربي من المتغربين السطحيين ومن مدعي العلم وأنصاف المثقفين عدد كبير من المبهورين بهذه الحضارة المادية ـ بجناحيها الرأسمالي والماركسي ـ وإيصال بعض محتوياتها إليهم هو أحد أهداف تعريبي لهذا الكتاب، ففيه يشهد شاهد من الأهل في عملية نقد ذاتي، ان الغرب يعاني من حضارته وهو ضائع تائه زائغ البصر فاقد البصيرة، وإذا أوصلت التكنولوجيا أقمارهم الصناعية إلى الكواكب الأخرى فمجتمعاتهم غارقة في الأوحال كما قال رئيس بلدية مدينة (كليفلند) الامريكية متهكماً : « إذا لم نكن واعين فسيذكرنا التاريخ على أساس أننا الجيل الذي رفع إنساناً إلى القمر... بينما هو غائص إلى ركبتيه في الأوحال والقاذورات ».

والهدف الثاني من تعريبي لهذا الكتاب هو رجائي أن تصل آراء (دوبو) إلى مسامع وقلوب أولي الأمر في الدول العربية ليستوعبوا تماماً موضوع النمو والتنمية... فليس كل نمو... تقدماً... وليس كل حركة... بركة. والخرافة التي تقول : النمو هو التقدم ما هي إلا « توراة الدمار » كما سماها السيد (أودال) ناظر الداخلية الامريكية الأسبق، والذي أعرب عن أمله في أن يتصاعد الغضب ويتعاظم الاستنكار في المجتمعات الغربية نفسها « لتوراة الدمار » هذه. فالشوارع العريضة والبنايات الشاهقة والاسمنت المسلح وزحمة السيارات وتكاثف دخان التصنيع التكنولوجي وتلوث البيئة... كل ذلك لا يشكل مدنية حقة إذا فقد الإنسان معها روحه وتاه عن الهدف في وجوده. والتطلع إلى موقف إنساني غير خاضع للتكنولوجيا ليس رجعية ولا

انهزامية... بل هو « موقف تقدمي وجهد » « بطولي » على حد تعبير (دوبو).

والمؤلف ليس مواطناً عادياً في المجتمع الغربي، فهو يجلس على قمة الهرم العلمي مع كبار المفكرين والباحثين، وهو أولاً وأخيراً من محبي هذه الحضارة والمشفقين عليها، لذلك عندما يهاجمها بعنف لا يدفعه لذلك تحامل أو غرض أو حقد ولا يبالغ في اتهاماته الصحيحة ونقده الموضوعي اللاذع.

ومن الطريف ملاحظة أن العالم الباحث المؤلف نفسه مثل أيضاً للحيرة والضياع اللذين يطبعان مجتمعه وحضارته. (فدوبو) يتأرجح في كتابه بين يقين وشك وإلحاد، فبين قيمه الثقافية المؤسسة أصلاً على معتقدات (يهودية مسيحية) محرفة فقدت روحها كما يقول، وبين فرضية داروين المادية التي يتبناها ـ بيولوجيا واجتماعيا ـ تناقض واضح فالمسيحية على حد تعبيره أصبحت طقوساً جامدة ومواقف مبهمة لا تستطيع إلهامه وإعطاءه مع مواطنيه معنى « للحياة التي يعيشونها فهو دائب التفتيش عن فلسفة أو دين جديد يرضي فضوله العلمي ويملأ فراغه العقيدي ويطمئن نفسه القلقة ويعيد له ولمجتمعه التوازن والاستقرار والصلات الإنسانية الحميمة والتفاعل الطبيعي المتبادل بينه وبين بيئة نظيفة في كون متناغم.

وتتهاوى الداروينية المادية كلها بين يدي (دوبو) عندما يقف عاجزاً عن تفسيره النقلة الكبرى من الحيوان إلى الإنسان على أساس التطور البيولوجي العضوي، فهو يعترف أن الإرادة في الإنسان تميزه عن الحيوان الذي قد يشبه ظاهراً في بعض بنيته العضوية، أما كيف جاءت الإرادة للإنسان من « جده » الحيوان ـ على حد زعمهم ـ والأخير يتسير بالغريزة بأسلوب شبه آلي، وكيف تطورت المادة العضوية في الحيوان لتصبح قيماً معنوية روحية في الإنسان، فلا يجد أستاذ البيولوجيا العالمي مخرجاً داروينيا لها. لنسمعه يقول :

« يقوم الإنسان بأعمال ويبدي طموحات ليس لها ضرورات بيولوجية بل قد تتعارض معها. ومن أبرز النواحي المميزة للإنسان ميله للسمو على

الدوافع البيولوجية البسيطة. والحقيقة أن ميل الإنسان لتخيل الأشياء التي لم توجد بعد او التي لا تقع بدون إرادة وعمل حر يقوم به هي الناحية البارزة التي تميزه بوضوح تام عن الحيوان وهي التي تسهم كثيراً في تعقيد بنيته النفسية التي أعيت الأطباء ».

وهذا الموقف الصعب (لدوبو) ينسحب أيضاً على كل المجتمعات الغربية كما يقول هو نفسه : « فالقبول الواسع لمواقف لا دينية في المجتمعات الغربية المعاصرة وضع إنسانها الملحد في موقف صعب لأنه ملاحق دائماً بنفس الحقائق التي يحاول إنكارها ».

ولا بد من الإشارة هنا بأسف إلى العيب الظاهر في كتاب المؤلف (دوبو)، فهو، رغم علمه الغزير واطلاعه الواسع، لا يلتزم الموضوعية فيما يتعلق بالإسلام، وهذا عيب يشاركه فيه أغلب أبناء دينه وحضارته، فهو يجهل أو يتجاهل الإسلام كلية في كتابه وكأنه لم يكن أبداً ولا هو واقع قائم في عالم يضم ألف مليون نسمة. فإذا كان الأمر جهلاً بالإسلام فهو نقص فاضح في ثقافة المؤلف واطلاعه بخاصة وهو ينقطع للبحث في الإنسان على مستوى العالم فرداً ومجتمعاً، تاريخاً وحضارة، عقيدة وثقافة. وإذا كان الأمر تجاهلاً مقصوداً فالأمر أدهى وأمر، إنه تعصب أعمى وحقد دفين بل هروب جبان من الحقائق لا يليق بعالم في مستواه، سيما وأن بعض المفكرين الغربيين قد تحرروا ـ نسبياً ـ من هذا الحقد الموروث والمكتسب ـ على الإسلام وكتبوا فيه موضوعياً ما يشرفهم في ميدان العلم والبحث عن الحقيقة.

منذ أشهر قليلة نشر العالم والكاتب الأمريكي (مايكل هارت) كتاباً عن أعظم مائة من أعلام البشر مرتبة حسب تأثيرهم في تاريخ الإنسانية، ووضع نبي الإسلام محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه أول القائمة مع تبرير منطقي ودعم تاريخي وحضاري لهذا الاختيار.

أما (دوبو) فقد جهل الإسلام أو تجاهله.. لم يذكره في بحثه للتاريخ ولا ذكره في سياق دراسته للحضارات، ولا ألمح له في عرضه للفلسفات والأيديولوجيات الاجتماعية، بل ولم يورد خبره حتى في مناقشته للأفكار

الدينية مع أنه أتى على ذكر « الهندوسية » و « بوذا » والمسيحية واليهودية
ورحم الله الشاعر القائل :

إذا كنت لا تدري... فتلك مصيبة وإن كنت تدري... فالمصيبة أعظم

فلو أنصف (دوبو) مع نفسه ودرس الإسلام بذهن متفتح وموضوعية حقة، لوجد فيه الحل للمعضلات الحضارية والمشاكل الإنسانية ـ الاجتماعية والنفسية والبيئية ـ التي يشكو منها مجتمعه ولا يجد لها حلاً مرضياً.

وهكذا نرى أن (دوبو) لم يهدف من تأليفه الكتاب الوصول إلى ما يستخلصه منه القارئ الإسلامي الواعي من تأكيد وتثبيت لاعتقاده الراسخ : « إن الدين عند الله الإسلام »[1]، وإن ما دونه من فلسفات وأيديولوجيات وضعية وحضارات مادية كلها قاصرة سطحية زائلة، لا تجلب للإنسان إلا التعاسة والعقدوالأمراض والضياع لأنها ضلت سبيل ربها السوي. ولكن شاء الله أن تكون اعترافات هذا العالم الغربي بالحقائق المخيفة عن مجتمعه المادي تأييداً قوياً مباشراً لحقائق الإسلام وتدميراً كاملاً لأباطيل خصومه وترهاتهم. يقول المفكر السوداني الدكتور عون الشريف قاسم :

« وإنه لجدير بنا، والإنسانية تستشرف عهداً جديداً من الانعتاق والتحرر، أن نعيد النظر في كثير من المعطيات الفكرية التي مكن لها الغرب بنفوذه الثقافي في عقول كثير من مثقفي العالم، وعلى رأس ذلك مكانة الدين من مسيرة التطور البشري عامة، ومن حياة المجتمع خاصة، ولعل ذلك هو المنطلق لتفجير الثورة الحضارية التي تنتظرها الإنسانية، وهي تقف على حافة الهاوية التي دفعت بها إليها حضارة الاستهلاك الراهنة التي تغذي الجسد وتميت الروح وتجعل من المتعة الحسية العابرة سبيلاً إلى إلغاء إنسانية الإنسان، فلا يصبح أمامه من مخرج سوى الانتحار الذري أو الفناء الحضاري. ومن الواضح أن التجربة الأوروبية رغم خيرها العميم على الإنسانية في كثير من المجالات وتطويرها للحضارة الإنسانية على المستوى الفكري

---

(١) سورة آل عمران آية ١٩.

والعلمي وما نجم عن ذلك من ازدهار مادي... فإن الخواء الروحي الذي أشاعته في حياة البشر من أكبر معاول الهدم لمنجزات الإنسان »[١].

وإنا على يقين من أن القارئ المسلم الواعي سيزداد شعوراً بالعزة عند قراءته لهذا الكتاب « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين »[٢]، أما المتغربون من القراء فلعل بصائرهم تتفتح... وضمائرهم تستيقظ... فيهتدون ومن يهده الله فلا مضل له.

تمهيــــد :

يقول (دوبو في التمهيد لكتابه) :

« نشأ هيكل هذا الكتاب عن اهتمامي الشخصي بردود فعل الإنسان على محيطه المادي والاجتماعي، ومن معلوماتي المهنية عن القوى التي يمكن ملاحظتها مخبرياً والتي تؤثر على كل مظاهر الحياة، وفي السنوات الأربعين الأخيرة أتاحت لي نشاطاتي كإخصائي في علم الجراثيم ملاحظة أن خصائص كل مخلوق حي تتأثر بعمق بأحوال معيشته.

ولقد استعملت معلوماتي من المصدرين المذكورين لأعرض أن كل مخلوق بشري فريد في الطريقة التي ترد بها موهبته (التكوينية ـ الارثية Genetic) على تحديات عوامل محيطة. ومحور البحث في هذا الكتاب هو أن كل التجارب التي يمر بها الإنسان تترك طابعاً على خواصه العضوية والفكرية، ولقد أوليت تأكيداً خاصاً للتأثيرات المبكرة، لأن نتائجها هي من العمق والديمومة بحيث تكون عواقبها كثيرة على الحياة الإنسانية : فمن جنوح الأحداث... إلى النزاع العنصري، ومن الحساسيات الفنية إلى النبوغ، قليل من هذه الخصائص الفردية والمجتمعية لم تتأثر بعمق ودوام بالعوامل المبكرة.

وبما أن شخصية الإنسان هي محصلة لمجموع بيئته وتكوينه الإرثي،

---

(١) الدكتور عون الشريف قاسم من مقالة « نحو ثورة روحية » مجلة العربي رقم ٢٣٧ سنة ١٩٧٨م.

(٢) سورة المنافقون آية ٨.

فمن الممكن ـ نظرياً ـ تحسين وضع الإنسان بتغيير عوامل البيئة. وفي عالم العصر الحاضر يشكل (التحضير Urbanization) والتكنولوجيا بالتأكيد أهم عوامل البيئة المحيطة، لذلك من المؤسف ألا نرى دراسات كافية عن عواقبها على الحياة الإنسانية.

نحن ندعي أننا نعيش في عصر العلم، إلا أن الحقيقة هي أن الميدان العلمي كما يدار الآن ليس فيه توازن يسمح للعلم بأن يكون ذا فائدة تذكر في إدارة أمور الإنسان.

والحياة الشاذة التي يعيشها عامة الناس الآن تخنق وتعطل التفاعلات الحيوية الضرورية لسلامة الإنسان العقلية، ونمو الإمكانات الإنسانية، وكل المفكرين قلقون على مستقبل الأبناء الذين سيقضون حياتهم في بيئات اجتماعية ومادية سخيفة باطلة عابثة نخلقها نحن لهم بدون أي تفكير، وأكثر ما يزعج هو علمنا بأن الخصائص العضوية والفكرية للإنسان تخططها اليوم البيئات الملوثة والشوارع المتراصة والأبنية الشاهقة والخليط الحضري المتمدد والعادات الاجتماعية التي تهتم بالأشياء وتهمل البشر. ولدى الشباب أسباب وجيهة لرفض القيم التي تحكم مجتمعات التكنولوجيا.

إلا أن الاحتجاج على الأساليب السائدة في السلوك أو الاعتزال والانسحاب من النظام الحالي لا يكفيان لتغيير الاتجاه الانتحاري الذي نسير فيه، والحل الإيجابي ليس سياسياً أو اجتماعياً فقط... بل يتطلب أن نردف معلوماتنا عن الأشياء وفيزيولوجية الجسم بعلم عن حياة الإنسان.

لقد ألفت كتابي هذا إيمانا مني بأنه من الممكن أن نبحث علمياً في التجربة الحياتية للإنسان، والمعلومات العلمية عن تأثيرات البيئة والأحداث الجارية وطرق المعيشة في النمو الإنساني تتيح أفقاً أوسع لحرية الإنسان باعطائه أساساً منطقياً للاختيار والعمل، فيصنع الإنسان شخصيته عن طريق اختيارات مستنيرة تسمو بإنسانيته ».

ويبدأ (دوبو) الفصل الأول وعنوانه « ثوار يبحثون عن هدف » بما يلي :

« وددت لو أن كتابي هذا قد ألف في جو عاصف غاضب، لكنت عبرت بأقوى لغة ممكنة عن ضيقي برؤية كثير من القيم الإنسانية والطبيعية

تخرب وتدمر في المجتمعات الغنية، وعن سخطي لفشل الأوساط العلمية في تنظيم جهد منسق ضد تدنيس الحياة والطبيعة، فمن الممكن التسامح في عملية تقبيح البيئة واغتصاب الطبيعة إذا جاء الأمر نتيجة الفقر، أما أن تقوم العملية في المجتمعات الغنية... بل تكون نتيجة للغنى نفسه، فلا مجال للتسامح في ذلك، ومن الممكن تبرير إهمال الأوساط العلمية للمشاكل الإنسانية إذا كان هناك نقص في المال وفقر في طرق المعالجة، ولكن لا يمكن التسامح في ذلك في مجتمعات تستطيع إيجاد المال اللازم لممارسة أمور تتعلق فقط بالمصالح والأنانيات الخاصة.

والكتابة بالأسلوب الغاضب تحتاج لموهبة أفتقدها لسوء الحظ، وهذا هو عذري إذن في عرض هذا الكتاب بصيغة مناقشة هادئة لذنبنا الجماعي.

نحن ندعي أن العلاقات الإنسانية وعشرة الطبيعة هي المصادر الأخيرة للسعادة والجمال، ومع ذلك فنحن لا نتردد في تخريب بيئتنا وصلاتنا الإنسانية من أجل القدرة على امتلاك السلطة والمال، إن شعورنا الجماعي بالذنب ناتج عن وعينا بأن مدحنا للقيم الإنسانية والطبيعة ما هو إلا نفاق طالما أننا نمارس اللامبالاة الاجتماعية، ونحول أرضنا إلى مطرح ضخم للنفايات وشعارات « عالم واحد » و « أخوة إنسانية » ترد بصورة مستمرة في الأحاديث والمباحثات الرسمية في نفس الوقت الذي تقوم فيه حروب سياسية، وتنتشر الفتن العنصرية في كل أنحاء العالم.

السلوك العدواني للحصول على المال أو المكانة، تدمير الجمال الطبيعي والمعالم التاريخية، تبديد المصادر الطبيعية، الأخطار على الصحة من التكنولوجيا بدون تفكير... كل هذه الخواص لمجتمعنا الحاضر تسهم في تجريد الحياة من صفاتها الإنسانية، فاكتساب المزيدمن الغنى والقدرة لن يصلح المجتمع بل عوضاً عن ذلك يجب أن نجعل الاعتبارات الاقتصادية والتكنولوجيا خاضعة للحاجة والقيم. والعلامة الموحية باكبر قدر من الأمل في المستقبل، هي محاولة تمرد الشباب الذي يرفض قيمنا الاجتماعية، فاحتجاج الشباب يشير إلى أن البشرية مضطربة بسبب التجريد المتعاظم للحياة من معالمها الإنسانية ومن الممكن فعل شيء لعكس هذا الاتجاه،

ورغم التراجعات المتعددة للقيم الفكرية والأخلاقية وعلى الرغم من الإثباتات الكثيرة أن القيم الإنسانية تخرب وترخص ورغم التخريب الهائل للجمال والمصادر الطبيعية.. رغم كل ذلك هنالك بريق أمل معقول بإمكانية إنقاذ مجتمعاتنا ما دام في وسطنا ثائرون.

والتمرد يتغلغل في كل نواحي الحياة الإنسانية وهو نابع من رغبة لاشعورية في البشر بعدم الاستسلام للقوى الهدامة، إلا أن التمرد ـ في ذاته ـ لا يعني وجود هدف معين لتحسين « الكيف » في حياة الإنسان، ولا يعني صياغة برامج عمل بناء، ومتمردو هذا العصر هم مثل كثير منا ثائرون بدون برنامج هادف.

ولمجتمعنا اليوم الخبرة الكافية للسيطرة على العالم الخارجي، وحتى على العقل الإنساني، إلا أن علاقاتنا مع الأناس الآخرين ومع المخلوقات الأخرى جميعها تضعف تدريجياً ويقلل من شأنها، ولدى هذا المجتمع من الرفاه والأمان والقوة أكثر مما كان لأي مجتمع سابق ـ إلا أن « نوعية » الحياة فيه تفقد من قيمها وترتخص بسبب ركام من النفايات العضوية والعاطفية التي خلقناها بأيدينا. نحن نعلم أن الأحوال الاجتماعية السائدة تعطل الحياة، ومع ذلك فنحن لا نزال نسهم في نظام يخرب الأرض... والعلاقات الإنسانية، وأكثر الثوار المعاصرين مثل الباقين منا غير راغبين في التخلي عن امتيازاتهم الشخصية التي جاءتنا نتيجة أوضاع نعلم جميعاً أنها غير مقبولة. إلا أن الثائر لا يزال يلعب دوراً اجتماعياً معيناً، فهو ينقل على الأقل اهتمامنا الجماعي، ويجعلنا نعي ذنبنا المشترك... ولكن الاعتراف بالذنب... لا يكفي.

والتذمر من الوضع الحالي يبقى غير متبلور ولا مؤثر، وذلك راجع أكثره إلى أن الميول والعادات والسياسات القائمة لا يمكن تغييرها بالأعمال السلبية فقط بل يلزمنا معتقدات إيجابية، والبدائل لا تأتي عن طريق تعديلات جزئية، وقيام البديل يتطلب ثورة فكرية وشعورية. ولن نستطيع تغيير العالم ما لم نبعد عن ذهننا الجماعي الفكرة القائلة : إن أهداف الإنسان هي قهر

الطبيعة وإخضاع العقل الإنساني. والوصول إلى هذا الموقف البديل ليس أمراً سهلاً، ففكرة العمل للسيطرة على الطبيعة وقيام تنمية غير محدودة تشيع جواً مثيراً يكاد يكون مسكراً، بينما الإيحاء بالاقتراب من حالة الاستقرار يخلق حالة من الخمول، لذلك لن نستطيع تغيير أساليبنا ما لم نتبين أخلاقاً اجتماعية جديدة، بل ديناً اجتماعياً جديداً، ومهما كان شكل هذا الدين الجديد يجب أن يكون أساسه تناسق وتوافق وانسجام بين الإنسان والطبيعة بدل الميل المتهور للاخضاع والسيطرة. لقد قبلنا مبدئياً فكرة الأخوة الإنسانية ولكن... قليلاً ما طبقناها.

في الاجتماع السنوي لجمعية تقدم العلوم بأمريكا عام ١٩٦٦م دعا المؤرخ (لن هوايت الابن) إلى نظرة جديدة نحو طبيعة الإنسان وقدره، ورأى أن الأمل الوحيد لإنقاذ العالم هو الاتجاه الديني العميق الذي قال به الفرنسسكان في القرن الثالث عشر، وهو الترابط الروحي والعضوي بين جميع أجزاء الكون، وحث (هوايت) علماء الايكولوجيا على اعتبار القديس (فرنسيس) رائداً لهم.

اسم القديس (فرنسيس) وكلمة ايكولوجيا يقرنان بموقف معين نحو العلم والتكنولوجيا والحياة يختلف تماماً عن موقف الذين ينظرون لمستقبل الإنسان على أنه متوقف على مهارة الإنسان في السيطرة على الكون. وخلق بيئة تجعل تكنولوجيا العلم بالإنسان مستقلاً عن قوى الطبيعة... تجعلنا نتصور المستقبل المرعب حيث يستخدم الإنسان (الهياكل الآلية Robots) فيصبح هو نفسه مثلها. إن الخاصة الإنسانية في الحياة تتوقف قبل كل شيء على نوعية العلاقة بين الإنسان وسائر المخلوقات... الرياح والنجوم الأزهار والحيوانات والبشرية الباسمة الضاحكة والحزينة الباكية.

قبل قليل من وفاة الكاتب والفيلسوف البريطاني (الدوس هكسلي) عام ١٩٦٣م تأسف هذا الأخير في مناسبات عدة لأن الآداب والفنون لم تستلهم عبراً مهمة من العلم والتكنولوجيا المعاصرة، وظن أن السبب في هذا الإخفاق راجع لكون الفنانين والكتّاب لم يطلعوا على النمو العملي والتكنولوجي، قد يكون هذا التفسير صحيحاً، إلا أنه لا يمثل إلا جزءاً يسيراً من المسألة، فالكتّاب والفنانون مثل سائر الآدميين يهتمون بالأحاسيس

والمشاعر والعواطف والقيم، وهذه كلها أمور تتجاهلها الأوساط العلمية عمداً في محيطاتها. وعلى العلماء ألا يكتفوا بدراسة الهياكل البيولوجية التي يستطيعون التأثير على أجسامها وأدمغتها بالعقاقير والآلات فمن الأساسي والحيوي بالنسبة لاهتماماتهم أن يركزوا على طبيعة الإنسان وأهدافه في الحياة.

التشاؤم الجديد :

يعتقد المتنبؤون المتشائمون أن البشرية في طريقها إلى تدمير نفسها بنفسها، فإذا لم يحدث ذلك ـ وهذا احتمال ضعيف ـ فستسير البشرية قدماً نحو التخلي عن قيم ورفاه المدنية الغربية، فالأسلحة النووية وتلوث البيئة وانقطاع التيار الكهربائي وانعدام الطاقة والفساد المتنامي في الآداب المدنية... كل هذه أمور تشكل تهديدات واضحة مباشرة للوجود الإنساني، أضف إلى أن الشدة في تقنين الحياة الاجتماعية وانعدام حرمة المنزل قد تصل إلى حد تزول معه إمكانية العيش التقليدي في حياة متحضرة، وتتعرض النظم السائدة لتهديدات قوى المجتمع التكنولوجي التي تتزايد سيطرتها على العالم.

وأكثر المطلعين على الواقع الحالي يؤيدون ما كتبه الصحفي الأمريكي (جيمس رستن) في أكثر الصحف اليومية نفوذاً وفي أكثر مدن العالم ازدهاراً، « إن الوهم المتفائل القديم أن باستطاعتنا عمل أي شيء نريده... بدأ يتلاشى في بحر من الشكوك ليحل محله تشاؤم « جديد »، ويبدو أن عناوين الصحف اليومية تعكس وتؤكد الفكرة القائلة : إن مشاكل الحواضر الكبرى والعنصريات والشعوب أمور لا طاقة لنا بحلها أو مكافحتها والسيطرة عليها، والخوف منتشر في كل مكان ويظهر بوضوح تام بالنسبة للأسلحة النووية الأخطار التي تتهدد الصحة وارتفاع نسبة الآلات الذاتية الحركة، والإدارة في عالم الصناعة والآثار الضارة غير المحددة لتكنولوجيا العلم.

وبصورة خاصة يتهم العلم الآن بتهديم القيم الدينية والفلسفية، دون أن يجد بدائل لها توجه السلوك، أو تقدم تصوراً معقولاً ذا قيمة بالنسبة للكون والتأثير الساحق لضياع الإيمان، عبر عنه بأسلوب لاذع في الجيل

السابق الفيلسوف الأمريكي (جون ديوي) في إنذاره : « إن الحضارة التي تسمح للعلم بتحطيم القيم المتعارف عليها، ولا تثق بقوة العلم في خلق قيم جديدة، تدمر نفسها بنفسها ».

ولقد وصل القلق للأوساط العلمية نفسها، ففي الوقت الذي لا يزال كل العلماء على اعتقادهم بأن الفرص المتاحة للمعرفة العلمية لا حدود لها، كثير منهم يشك في حكمة وأمان الامتداد التطبيقي لهذه المعرفة، بالإضافة لذلك هناك ادعاءات بدأت تظهر بوجود محدودية في بنية العالم المادي ربما هي التي ستبطئ ثم توقف تماماً نمو التكنولوجيا العلمية التي أدت إلى إنجازات باهرة في هذا العصر. فالطائرات لن تستطيع ـ عملياً ـ الطيران بسرعة أكبر مما هي عليه الآن ـ وهي تفوق سرعة الصوت ـ والأدمغة الالكترونية اقتربت من حدودها النظرية في السرعة والمقدرة، ولن تستطيع آلات الإسراع الاستمرار في الزيادة غير المحدودة في الحجم والقدرة، حتى رحلات الفضاء ستصل إلى حدود الإمكانات الإنسانية بعد عدة عقود من الزمن.

والتشاؤم الجديد نابع في الغالب من عدم ارتياح الرأي العام لدى إدراكه أن العلم لا يستطيع حل كل مشاكل الإنسانية.

عصـــر القلـــق :

وتعابير « العصر الكلاسيكي » و « عصر الإيمان » و « عصر الرشد » و « عصر الرومانسية » قد لا تتوافق تماماً مع الحقائق التاريخية إلا أنها مع ذلك توحي أن البشرية تواقة لبعض هذه الخصال في الحياة وأكثر الناس يقرنونها ـ صواباً أو خطأً ـ بالماضي، وبالمقابل نحن نميز جيلنا بتسميته « عصر الذرة » و « عصر الفضاء » و « عصر الهياكل الآلية » و « عصر المضادات الحيوية » أي بتعبير آخر عصر هذه التكنولوجيا... أو تلك. هذه تعابير نستعملها برضى أهل التكنولوجيا. أما الإنسانيون فيحتقرونها... والتعبير الوحيد الذي لقى قبولاً إجماعياً فهو : « عصر القلق ».

نشرت المنجزات التكنولوجية والاجتماعية الرفاه الاقتصادي، وزادت

رخاء، كذلك زادت سرعة وسائط النقل وكافحت بعض أنواع من الأمراض لكن الكفاية المادية التي نتجت لم تزد كثيراً في... السعادة وفي معنى حياة، حتى ان العلوم الطبية لم تف بوعودها فمع أنه أنجز الكثير في ميدان لوقاية والعلاج لبعض الأمراض المعينة إلا أنهم فشلوا في إطالة حقيقية لعمر لإنسان وفي تطوير الصحة بصورة إيجابية. ومن التناقض أن يكون عصر رفاه والعجائب التكنولوجية والمعجزات الطبية هو أيضاً عصر الأمراض لمزمنة، والقلق واليأس، وظهرت أعراض « الغثيان الوجودي » أي القرف من لحياة في عقر دار مجتمعات الرفاه المادي وفي أكثر أجزاء العالم تقدماً كنولوجياً. وتتكاثر في هذه المجتمعات مشاكل فكرية شديدة، كالنزاع لعنصري، والفقر المادي، والعزلة العاطفية، والقباحة المدنية، في الحواضر لكبرى، والمظالم بكل أشكالها وأنواعها والجنون العام الذي يسبب تهديداً دائماً بالحرب النووية. والجذور العميقة للقلق المعاصر موجودة في البنية لنفسية للفرد ـ كل فرد ـ من أفراد هذه المجتمعات. وأكبر مشكلة حادة في الحياة المعاصرة هي في الغالب شعور الإنسان أن الحياة قد فقدت معناها، فالمشاعر الدينية والتقاليد الاجتماعية القديمة تنخرها المعلومات العلمية وسخافة الأحداث العالمية الباطلة ونتيجة لذلك انتشر تعبير « مات الإله » بصورة واسعة في الأوساط اللاهوتية والعلمانية على السواء. وبما أن فكرة الإله كانت ترمز لوحدة الكون بمجموعة : الخلق والمخلوقات، لذا يبقى الإنسان الآن بدونها كسفينة بلا مرساة لا قرار له، والذين يؤكدون مقولة « مات الإله » يعنون بها موت الإنسان التقليدي الذي كان يستمد معنى حياته من صلاته ببقية المخلوقات في الكون والبحث عن معنى وصياغة مفاهيم جديدة لكلمتي « الله » والإنسان ربما يكون أفضل ما يجب أن ينشغل به عصر القلق والغربة النفسية.

والغربة كلمة مبهمة، إلا أنها تعبير عن حالة منتشرة بصورة هائلة الآن في مجتمعات الرفاه المادي، والإحساس بالغربة تجربة قديمة اتخذت أشكالاً مختلفة عبر التاريخ، وكثير من الذين عانوها في الماضي ظهر لهم آنذاك أن أوضاع الإنسان والكون منفصلة لا ترابط بينها ولا معنى لها، ولقد عزا (جان جاك روسو) ذلك في القرن الثامن عشر إلى التباعد بين الإنسان

والطبيعة، وسبب ذلك على رأي (روسو) الحياة المصطنعة التي يحياها الإنسان في المدن.

وتتعايش الآن في مجتمعاتنا أشكال متنوعة من الغربة، فالضيق الاجتماعي والثقافي لا يؤثر أيضاً على الذين يشعرون بانسحاق فرديتهم، فالأوضاع السائدة تفرض عليهم مقاييس جماعية لا تسمح لهم بإبراز وتوكيد ذاتيتهم وهويتهم. ومن الأسباب الأخرى للغربة النفسية الفشل التام ـ حتى في أكثر المجتمعات تقدماً ورفاهاً مادياً في إقامة علاقات متناسقة متناغمة بين حياة الإنسان ومجموع بيئته، والاعتقاد بأن العالم سخيف باطل ليس مقتصراً على الفلاسفة والأدباء المبرزين، فهو منتشر بين كل الفئات الاجتماعية والاقتصادية، ويؤثر على كل مظاهر ونشاطات الحياة. ويميل علماء النفس والاجتماع والأخلاق إلى عزو القلق واليأس لانقطاع الصلات الاجتماعية الحميمة، والانفراد والوحشة التي تعم المدن المعاصرة، والانقطاع هذا ليس فقط بين البشر أنفسهم بل أيضاً بينهم وبين قوى الطبيعة. والإنسان العصري قلق حتى ولو كان في زمن السلم وفي جو البحبوحة الاقتصادية لأن عالم التكنولوجيا الذي يشكل محيطه المباشر، والذي فصله عن عالم الطبيعة فشل في توفير حاجات الإنسان الأساسية التي لم تتغير ولم تتبدل ويشبه إنسان العصر من نواح كثيرة الحيوان البري الذي يقضي حياته في حديقة الحيوانات، فالإنسان كهذا الحيوان يتوفر له الغذاء الكافي والحماية الكافية من القسوة، ولكنه يحرم من المثيرات الطبيعية الأساسية للعديد من وظائفه الجسمية والفكرية، فإنسان اليوم ليس فقط غريباً عن أخيه الإنسان وعن الطبيعة بل الأهم بكثير أنه غريب معزول عن أعماق ذاته.

وأهم مظاهر التشاؤم الجديد، الاعتقاد الغالب بأن الحد من حرية الفرد سيأتي نتيجة لازدياد هائل في الكثافة السكانية، وعلى الإنسان تبعاً لذلك القبول ببيئة حضرية تكنولوجية تافهة، ويمكننا إيراد مجموعة مكثفة من الأشعار التي كتبها الأدباء والعلماء في هذا الموضوع ينعون فيها التضحية بالذات وبالحرية على مذبح النظم التكنولوجية. وكلما ارتقت المجتمعات في تنظيماتها تذوب شخصية الفرد تدريجياً في كتلة بشرية مغفلة. وفي كتاب الناقد الامريكي (لويس ماوفورد) «أسطورة الإله» يتنبأ الكاتب بمستقبل

يصبح فيه الإنسان سلبياً لا هدف له، حيواناً تكيفه الآلة، تخطط له وتسيطر عليه لمصلحة منظمات جماعية مجردة من أي طابع ذاتي.

وطبيعي أن يوجد بعض المتفائلين بين المتنبئين المعاصرين إلا أن العالم الجديد الذي يتخيلونه ليس إلا صورة مكبرة قبيحة مخيفة للواقع الحاضر ؛ زيادة هائلة في الدخل القومي للولايات المتحدة، ارتفاع متوسط دخل كل عائلة بحيث يكون في كل بيت آلات وكميات غير محدودة من الأدوات الالكترونية، عمليات جراحية معقدة ونقل أعضاء جدد لجسم الإنسان بحيث يتحول المواطن العادي إلى مجموعة من رجال في رجل واحد، تقصير ساعات العمل وارتفاع متوسط العمر لدرجة تتوفر فيها فترات غير محدودة للتمتع واللهو... وأخيراً... ربما يخصص الوقت الباقي ــ إذا بقي ــ للبحث في سبب للوجود، ويظهر أن أنبياء العصر المتفائلين يكتفون بوصف عالم تزيد فيه سرعة كل شيء ويتضخم كل شيء ويصبح ميكانيكياً معقماً لا جراثيم فيه آمناً صحياً ــ فلن تمس أي يد الطعام في المطابخ الآلية الذاتية الإدارة، أما العناية بالأطفال ومراقبة سلوكهم فتكون الكترونياً، ولن يكون هناك حاجة لدعوة صديق للزيارة، لأنه سيكون بالإمكان استدعاء صوته وصورته وحركاته وشكله وملامحه على شاشة الرأي التليفزيونية في غرفة الجلوس، وسيكون العيش سهلاً بدون أي جهد وبدون ضغوط في بيوت مكيفة الهواء مضاءة بصورة رومانتيكية مثيرة وظلال مختلفة الألوان حسب ذوق ومزاج الشخص.

وإنصافاً « لأنبياء العصر » يجب القول أن لهم رؤى تتعدى توفير حياة دعة وخمول ولهو... إلا أن ما يحلمون به غير ذلك سخيف أيضاً وعابث كطائرات تفوق سرعتها سرعة الصوت بكثير لدرجة أن المسافرين يذهبون ويعودون للنقطة التي بدأوا منها قبل أن ينهوا القدح الأول من « الكوكتيل ». أما تنبؤاتهم عن رحلات الفضاء أو العيس في أعماق المحيطات فهدفها الرئيسي على ما يظهر هو توفير صور عن بيئات جديدة حيث الفتيان يلتقون بالفتيات وحيث « البطل » كالأفلام السينمائية يتغلب على « الشرير » أي بتعبير آخر بيئات يتصرف فيها الناس كما يتصرفون تماماً الآن على هذه الأرض. والظاهر أن الشوارع الخاصة بالعشاق

المراهقين والمستهترين الأوباش بقبعاتهم الكبيرة ومسدساتهم.. أمر حيوي لعالم المستقبل غير المعقول مثلما هو حيوي للقصص التقليدية البسيطة التي تباع بعشرة قروش ولافلام رعاة البقر (الكاوبوي) وكتاب روايات (الأساطير العلمية) الذين يحرضهم على ذلك عدد غير قليل من العلماء البارزين ركبوا موجة إغداق الوعود التي ستؤدي حتماً إلى خيبة عندما يظهر جلياً أن هذه الوعود غير قابلة للتحقيق. ويوجد الآن في العالم المعاصر اتجاه « مريض للتطلع إلى مستقبل الإنسان في جبل « الأولمب » لتحويل الأعين عن « وديان » العوز والفاقه والحزن والدموع، ومن الغريب أن توفر العلوم الطبيعية اليوم أسهل وأرخص الوسائل للهروب من الواقع.

والرجل المطلق Opti-man الذي يتخيله « أنبياء » التفاؤل المخيف الكريه، ليس فقط إنساناً أجوف، بل هو أيضاً شبه إنسان ولن يكون مجرداً من كل صفاته الإنسانية التي تعطيه قيمته الفريدة في عالم الإنسان بل لن يكون قادراً على الاستمرار في العيش، لأنه سيكون مجرداً من المنبهات اللازمة لسلامته الجسمية والعقلية.

ونوع الحياة التي ينبئون بها في القرن الحادي والعشرين غير معقولة لأنها تتناقض مع الحاجات الأساسية لطبيعة الإنسان، وهذه الحاجات لم تتغير إلى حد كبير منذ العصر الحجري، ولن تتغير في المستقبل، وهذه الحاجات تحدد المدى الذي سيكون كل تنبؤ بعده محالاً، ومهما اخترعت تكنولوجيات العلم من أشياء، فالإنسان العادي ذو حواس وسيستمر على العيش بهذه الحواس وعن طريقها يدرك العالم من حوله، ونتيجة لذلك سيرفض الإنسان آخر الأمر التجريدية المغرقة « وآلية الحياة ». وهناك ناحية من نواحي المستقبل قلما يناقشها ويتطرق إليها الذين يحاولون تصور عالم المستقبل، وهي أن البشر سيملون المطابخ الآلية والسفر السريع ومراقبة العلاقات الإنسانية بالأدوات الالكترونية، والتنبؤات التي تنشر اليوم في محاضر اجتماعات الأكاديميات العلمية قد يحيلها البشر عام ٢٠٠٠م إلى مهزلة عندما يقررون أن يستعيدوا صلاتهم بقوى الكون، وفي رأيي أن عام ٢٠٠٠م سوف لا يعكس إسقاطات التكنولوجيين وعلماء الاجتماع والاقتصاد بقدر ما سيعكس حاجات الإنسان ككائن بيولوجي حي.

في آخر مواضيع التربية التي كتبها المؤرخ الامريكي (هنري آدمز) عام ١٩٠٥م تنبأ متشائماً أن عبادة « الدينامو » ـ المحركات الآلية ـ ستكون البديل العصري لعبادة « العذراء » ويظهر أن الواقع الحالي يؤكد هذه النبوءة، إلا أن المستقبل قد يثبت خطأ (آدمز) فلقد بدأنا نلحظ عدم الرضى بين عباد « الدينامو ».

إلى أيـــن ؟؟

« التوسع الفوضوي غير المتماسك الذي تقـوم به المجتمعـات التكنولوجية في العقود الأخيرة سيأتي حتماً على نهاية الحياة الإنسانية إذا استمر لمدة أطول، فالزيادة في الإنتاج بزيادة تسارعه لا تسهم في سعادة الإنسان ولا في إدراك معنى الوجود. وفي الماضي أضر الازدهار الكبير في أغلب الأحيان بالقيم الإنسانية وولد سأماً وضجراً. وأزمة البيئة في العالم المعاصر تشير كذلك إلى أن الازدهار، إذا ما أسيء استعماله، قد يؤدي إلى تدمير شامل لحياة الإنسان. ولقد أشار (رالف ولدو امرسن) في القرن التاسع عشر إلى أن البحبوحة الاقتصادية تقود بصورة عامة إلى سخافة كثير من الناس يعتقدون أن الحياة العصرية في المدن الكبيرة تقترب بصورة خطيرة من حالة الجنون. ولقد وفرت أمريكا الشمالية الجو المناسب لنشوة الفرح التي سادت القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، على أساس الاعتقاد بأن المدنية الصناعية ستؤدي بالتأكيد إلى السعادة، بزيادة الرفاه واختراع سلع أفضل وأرخص. فاتساع القارة وخلوها سهل للمتوطنين قبول أسطورة الحدود المتوسعة أبداً، والمزاج التفاؤلي في الاناس الرحل، والذي كان له أثر كبير في تحديد المؤسسات والمواقف الامريكية، نتج بكل تأكيد عن اعتقادهم في القرن التاسع عشر بأن المتوطن قادر على الانتقال دائماً إلى مروج ومراع أكثر خصباً واخضراراً. وفي القصيدة الحماسية التي لم تكتمل « نجمة الغرب » والتي نشرت عام ١٩٤٣م، يحاول الشاعر الامريكي (ستيـف فنسانت بينيه) أن ينقل الدافع الذي لا يمكن مقاومته للحركة الدائمة قدماً دون اهتمام كثير بالغاية ومكان الوصول. فإنه يعتبر مجرد السير قدماً هو خاصية العبقرية الامريكية.

« لا ندري إلى أين نحن سائرون... ولكننا نسير.

أيها الامريكان الذين تصفرون خلال سيركم، أنتم في الواقع لا تعرفون إلى أين تسيرون ولا تهتمون حقاً بذلك ».

ولهذه القصيدة أهمية تاريخية لسببين : أولهما أنها تعبر بوضوح عن النشوة الدافعة للتوسع التي اختص بها القرنان التاسع عشر والعشرون، وثانيهما أن تاريخ نشر القصيدة يكاد ينطبق تماماً على نهاية فترة كانت تقدر التوسع للتوسع نفسه... ومنذ عام ١٩٥٠م أخذ اهتمام الرأي العام بالنتائج غير المرغوبة للنمو الاقتصادي يغطي تدريجياً على دافع النمو.

ربما لا زال أمريكان القرن العشرين يصفرون أثناء سيرهم، ولكن القلق يعمر قلوبهم، فهم في تساؤل دائم إلى أين ؟ وأحياناً كثيرة تأخذهم الحيرة، فهم مترددون أيستمرون أم يتراجعون. هنالك أسباب عدة للريبة في فوائد النمو التكنولوجي غير المحدود بل حتى في إمكانية قيامه. أحد هذه الأسباب هو الوعي الذي ذكرته سابقاً بأن الرفاه ووفرة السلع يصبح عديم المعنى بعد حد معين، زد على ذلك أنه أصبح من الواضح جداً أن لبعض الاندفاعات الحاضرة حدوداً لن تتعداها لان ما بعدها يقود إلى سخافات وتفاهات... إذا استمرت ستولد اندفاعات معاكسة تماماً.

ويحاول « دوبو » التمييز بين نظرته هذه ونظرة « شبينغلر » في كتابه (انحطاط الغرب ١٩١٨م فيقول : « يجب أن لا يخلط بين نظرتي التي تقول ان على مدنية الغرب أن تتخلى عن أسطورة النمو وبين مقولة الفيلسوف الألماني « شبينغلر » بأنه لا مفر للعالم الغربي من السقوط، فنظرتي تشكل تعبيراً عن اعتقادي بأن ثقافة الغرب وبخاصة علوم الغرب يمكن إعادة تكريسها بقيم أكثر بقاء ومعنى من قرنها بالتكنولوجيا والنمو الاقتصادي ».

ويختم « دوبو » الفصل بقوله : « نحن نشكو تجريد الإنسان من إنسانيته. ويخبرنا علم الأجناس ـ الانتروبولوجيا ـ أن الإنسان يكتسب مشاعره الإنسانية خلال صلاته الحميمة بالأحياء الآخرين من حوله، وأن كل أطوار نموه متكيفة دائماً بالاثارات الاجتماعية التي يتلقاها خلال فترة حياته،

فعلينا أن ننشئ الآن علماً للرجل المعاصر لا يعتبر الإنسان مادة. فبالإضافة لتعلم المادة والأشياء الجامدة يجب علينا أن ننمي علم الإنسانية. ورأس الحكمة يقتضي أن تكون مواقف الحكماء والعلماء موحدة على مستوى للإنسان أسمى وأرقى من وجوده وقدره التكنولوجي. فالعقلانية الخالصة تنحط بالحكمة إلى مستوى تجريدي جامد لا حياة فيه، والتفكير التكنولوجي يحول الإنسان إلى مجرد آلة.

ويبحث « دوبو » في الفصل الثاني بعض تاريخ الإنسان والإنسانية فيقول :

« تشير الآثار المكتشفة إلى أن إنسان العصر الحجري قد اتقن مهارات عدة وكانت له تنظيمات عائلية ومجتمعية مركبة. ويتميز البشر عن الحيوان في قدرتهم على تجميع التجارب الاجتماعية خلال نشاطات جماعية على مر آلاف الأجيال، وبتعبير آخر يتميز الإنسان بتاريخه الاجتماعي وهو وحده ـ حسب ما هو معروف ـ الذي استطاع استعمال النار والسيطرة عليها، وربما حدث ذلك قبل مليون من السنين، وهذا يوحي بأن الإنسان عرف باكراً جداً أهمية السيطرة على النار للانتقال من حياة متوحشة إلى حياة أفضل منها. ولمئة ألف عام تقريباً لم تقرن حياة الإنسان باستعمال النار فقط بل بوجود مأوى له وملبس وعدة عمل وأسلحة وبنية اجتماعية مركبة وممارسة لنوع من السحر أو لنوع من العبادة. وحقيقة أن الإنسان كان خلال العصر الحجري يدفن موتاه توحي بوجود نوع من الاهتمام بنهاية الحياة منذ ذلك الوقت.

وكان الانتقال من أساليب القنص والصيد إلى الزراعة في العالم القديم في منطقتين متباعدتين لا صلة بينهما في الظاهر : جنوب غربي آسيا أولاً ثم جنوب شرقيها بعد ذلك. ومن مناطقه الأصلية قبل حوالي عشرة آلاف سنة انتشر أسلوب حياة العصر الحجري الأخير في أوروبا وأفريقيا وباقي مناطق آسيا متخذاً أشكالاً مختلفة بتأثير الأحوال والمصادر المحلية وظهرت وفرة متزايدة في مؤنة المواد الغذائية مع استقرار المستوطنات البشرية في جنوب غربي وجنوبي شرقي آسيا، وهذه بدورها فتحت الطريق أمام الحضارات العظيمة التي تقرن تقريباً بالعصر الحجري الأخير وتعلم أبناء الشرق الأدنى

مزج النحاس والقصدير حوالي العام ٥٠٠٠ ق.م وانشأوا مدناً كبيرة وأسسوا بنية سياسية مركزية قوية ونموا هندسة معمارية خاصة وبنوا المعابد والأهرامات وكثيراً من الفنون المساندة الأخرى. وكان أوائل السامريين ـ على ما يظهر ـ أول من اخترع اللغة المكتوبة في بلاد ما بين النهرين وسجلوا أحداث حياتهم قبل ستة آلاف من السنين بأسلوب يمكن قراءته اليوم. ومع هذا التطور الهام انتقل علمنا عن البشرة من فترة ما قبل التاريخ إلى التاريخ الكلاسيكي المدون.

وكل أثر من آثار إنسان ما قبل التاريخ يوفر شواهد أخرى للفكرة القائلة بأن الخواص الأساسية للجنس البشري لم تتغير منذ العصر الحجري.

تعريف الثقافة والحضارة بمفهوم (دوبو) :

« الثقافة : كل شيء مكتسب بالتجربة وينتقل من جيل لجيل، إنها تعبير عن ردود فعل الإنسان على البيئة المادية والبشرية وتكون على شكل نماذج سلوكية وعلاقات عاطفية وتنمية حاجات نافعة، ومن الواضح أن باستطاعة الثقافة أن تبلغ مستويات عالية بدون حاجة لتكنولوجية معقدة. والتفاعل المتبادل بين طبيعة الإنسان والقوى المحيطة ظاهرة بصورة مدهشة في التاريخ المقارن لقدماء بلاد ما بين النهرين ومصر. فالمنطقتان متجاورتان في الشرق الأدنى ولهما تبعاً لذلك أشياء كثيرة مشتركة بينهما، ومن أهم الأمور الخاصة اللازمة لنموهما الأولى ـ اقتصادياً واجتماعياً ـ حقيقة أن كلا منهما تتركز حول نهر كبير تتمتع ضفتاه بمساحات واسعة من الأرض الخصبة وكان على سكان المنطقتين أن ينشئوا الأرض الزراعية من القفر بالكد والتعب والبراعة. ولقد نجحت مصر وبلاد ما بين النهرين في تنمية تكنولوجية صالحة للري ونظام اقتصادي في وقت مبكر ولهذا استطاعتا تأسيس حضارتين عظيمتين هما أقدم الحضارات في سجل التاريخ المدون وكانت الحضارتان على احتكاك واتصال منذ البداية، وتقدمتا بسرعة متوازية ومع ذلك فرغماً عن تشابه أصولهما وتعدد صلاتهما اختلفتا اختلافاً عميقاً في الروح والمحتوى الأساسي، فالتوجيه العام في بلاد ما بين النهرين كان عالمياً أما في مصر فكان إقليمياً، كان الاعتقاد الديني لسكان ما بين

النهرين يولي مكاناً بارزاً للقبة الزرقاء والشمس والقمر والنجوم أما في مصر فكان هناك ميل لعبادة الحيوان في النيل وعلى ضفافه أكثر من التطلع للأجرام السماوية. ودارسو الشرق الأوسط يعتقدون أن هذه الاختلافات الثقافية راجعة جزئياً إلى اعتبارات جغرافية وبخاصة حقيقة أن ضفتي النيل ضيقتان ومحدودتان بجرفٍ عال أما في ميزو بوتاميا ـ بلاد ما بين النهرين ـ فهي واسعة مفتوحة على السهول المحيطة تسهل تبعاً لذلك فرصاً للاتصال بالعالم الخارجي.

وفي فترات ما قبل التاريخ المدون والتاريخ القديم شواهد على تعدد الثقافات الإنسانية وتنوعها، والذي يمكن استخلاصه من الطقوس الدينية لثقافات العصر الحجري ومن مناقشة السلوك السياسي (لأفلاطون وأرسطو) هو أن الخصائص الهامة في المجتمعات البشرية بقيت كما هي عليه مدة عدة آلاف من السنين، لقد اختلفت مظاهرها إلا أن الحاجات والمطامح الأساسية بقيت على حالها. وتؤثر الثقافات بوضوح على مصير الإنسان إلا أنها معدومة التأثير تقريباً على طبيعته البيولوجية، والذي يختلف هو البيئة الاجتماعية، فالعادات والمهارات تتجمع في المجتمع على شكل مستودع يستعين به إنسان الأجيال المقبلة ولكن كما يقول (آرنولد توينبي) المؤرخ الإنجليزي المعروف : « إذا رفعنا القشرة الرقيقة ومحونا بذلك ما استفدناه من التربية المستمرة سنكتشف شيئاً مماثلاً للإنسانية البدائية في أعماق طبيعتنا ». وهذا صحيح ليس فقط في السلوك الاجتماعي بل في احتياجاتنا البيولوجية والعاطفية، ولو تربيِ إنسان ما قبل ثلاثين ألف سنة بيننا الآن لاستطاع أن يعمل على الآلات الالكترونية وربما أصبح مدير الشركة (I.B.M) وباستطاعة إنسان العصر العودة بسهولة إلى الحياة البدائية. والواقع أنه يفعل ذلك إلى حد ما كلما احتاج ذلك.

ويلحظ القارىء أنني استعملت كلمة « الحضارة » بالمفرد و « الثقافات » بصيغة الجمع في محاولة للتمييز بين الكلمتين، استعملت لفظة (حضارة Civilization) لأعني القيم التي يمكن أن تكون مشتركة، وهذا حاصل باطراد عند أكثر الناس بغض النظر عن أصلهم وعرقهم وديانتهم واستعملت لفظة (ثقافة Culture)لا عبر عن مجموع قيم وأفكار ومعتقدات

تخص مجموعة معينة من الناس. فالعلم والتكنولوجيا النابعة منه والأخلاق هي أمور لها معنى وأهمية لدى غالبية البشر ويمكن أن تصلح كأساس لقيام حضارة أو مدنية عالمية واحدة، أما القيم الثقافية التي تختلف بين مجموعة وأخرى فهي متغيرة مع الزمن وتعكس التنوع الفطري في البشرية والعاملين والتنوع ـ كما سأؤكد مراراً وتكراراً ـ وجهتان متكاملتان في طبيعة الإنسان.

تخص مجموعة معينة من الناس. فالعلم والتكنولوجيا النابعة منه والأخلاق هي أمور لها معنى وأهمية لدى غالبية البشر ويمكن أن تصلح كأساس لقيام حضارة أو مدنية عالمية واحدة، أما القيم الثقافية التي تختلف بين مجموعة وأخرى فهي متغيرة مع الزمن وتعكس التنوع الفطري في البشرية والعاملين والتنوع ـ كما سأؤكد مراراً وتكراراً ـ وجهتان متكاملتان في طبيعة الإنسان.

لقد أثبتت التجربة باستمرار أن أي فرد ولد في بيئة لا تعرف تكنولوجيا العصر يستطيع أن يتعود على الحياة العصرية ويكتسب مهارات تكنولوجية معقدة. وفي القرون الماضية نقلت موجات الهجرة المتتالية مجموعات متنوعة من أنماط البشر إلى القارة الامريكية، ونتج عن تزاوجهم اختلاط عنصري ناجح وهذا التوافق الفيزيولوجي ـ الوظيفي ـ و (التكويني الإرثي Genetic) بين الأجناس والعناصر التي كانت منفصلة متباعدة خلال آلاف السنين يؤكد الشواهد الثقافية على أن البشر جاءوا من أصل واحد واحتفظوا بطبيعة أساسية واحدة وهم يتناسبون ويتوافقون بيولوجياً ـ عضوياً ـ وفكرياً ولهم ـ على ما يظهر ـ نفس الإمكانات الكامنة. وفي الوقت الذي تظهر في طبيعة الإنسان هذه الوحدة والديمومة البارزتين تتنوع المؤسسات الاجتماعية وأساليب المعيشة وتتغير بصورة كبيرة جداً فالثقافات تختلف باختلاف الأزمان والأمكنة لأن الإنسان يتمتع بإمكانات واسعة تسمح له بمرونة كبيرة لدى ردود فعله على شروط البيئة المحيطية.

وصدق الله العظيم : « إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا »[1]. ويختم « دوبو » الموضوع بقوله : « والمعتقدات الدينية والفلسفية، والتقاليد الاجتماعية، والمؤسسات

(١) سورة الحجرات آية ١٣.

السياسية، هي من العوامل الكثيرة ـ غير عوامل البيئة المادية والاقتصادية ـ التي تحدد مصير الإنسان، فهي تؤثر بطريقة غير مباشرة، ولكنها فعّالة وقوية، إنها تسيطر على أسلوب الحياة وعلى المظهر المادي فيها وتنعكس على أنماط السلوك وعبر هذه التأثيرات وغيرها يفرض الطابع الخاص لكل ثقافة »

وتحت عنوان « الأسلاف والمعاصرون » يقول « دوبو » في آخر الفصل الثاني :

يشبه الناس أجدادهم، لأنهم لا يأخذون عنهم خصائص تكوينية إرثية فقط بل كثيراً من خصالهم التي اكتسبوها في طفولتهم بالتعلم والتجربة، كذلك يشبه الناس معاصريهم أيضاً. فضمن اطار بلد معين وجماعة اجتماعية معينة يتأثر أكثر أفراد جيل ما، بنفس الوقت وبصورة متشابهة، بالعوامل المحيطة السائدة خلال فترات نموهم. وعندما يكون تأثير الوراثة مسيطراً، كما هو الحال في المجتمعات المستقرة المحافظة، يكون الناس أكثر شبهاً بأسلافهم، أما حين تكون الحياة متغيرة بسرعة، تطغى تأثيرات القوى المحيطة على تأثير الوراثة، وتطبيقها يبقى مستودع العوامل التكوينية الإرثية كما هو ـ أساساً ـ عندما ينتقل من جيل للجيل الذي يليه، وكل تغيير في خصال الإنسان يجب تتبعه إذن في أسلوب تربية الأولاد والمؤثرات البيئية الصادرة عن مجموع المحيط.

والكثافة السكانية وتقنين المعيشة وتلوث البيئة واضطراب الإيقاع البيولوجي الأساسي، كل هذه بعض أوجه الحياة التي تعيشها المجتمعات المتقدمة تكنولوجياً وحضرياً، غنية كانت أم فقيرة، وهذه التأثيرات تثير في الإنسان ردود فعل تنتج عنها اضطرابات عضوية وعقلية واجتماعية، والتي تعرف الآن بأمراض الحضارة. وردود الفعل هذه تترك طابعها الخاص على الحياة العصرية، وهي المسئولة عما لاحظه (إمرسون) من أننا نشبه بعضنا البعض أكثر مما نشبه أجدادنا.

وإذا استثنينا الظروف الخاصة، فالإنسان يميل لقبول تقاليد جماعية على أنها هي الحقيقة، وحتى عندما يثور عليها يحاول دائماً أن يمزج في تقاليده الجديدة كثيراً من تقاليده القديمة، وهكذا يبقى معتمداً على ماضيه

الاجتماعي والثقافي. ولكل الثورات طابع قومي بخاصة تلك التي ترفع شعار العالمية، كذلك الأمر في كل بلد، فالشبيبة التي تمردت في الماضي وشبيبة الجيل الجديد لها نماذج سلوك تعكس بعض نواحي أصولها الثقافية، وهذا ما يفسر غالباً فشل هذه الثورات إذ يجد المتمردون أنه من السهل عليهم العودة إلى أحضان مجتمعهم.

ومعرفة الماضي أمر أساسي لفهم الحياة الحاضرة والمستقبلة. لا لأن التاريخ يعيد نفسه فإن ذلك لا يحصل تماماً كما يقال، بل لأن الماضي جزء من كل معالم الحاضر، لذلك فهو يؤثر في المستقبل. والحياة الإنسانية في كل مرحلة حاضرة هي تجسيد للماضي وعبر عن ذلك الفيلسوف الأسباني جوزيه اورتيفا أي غاست ـ ١٨٨٣ ـ ١٩٥٥) في كلمته المأثورة : « ليس عند الإنسان طبيعة.. فما عنده هو التاريخ ». وكانت قناعته أن الماضي يصوغ سلوك الإنسان.

الإنسان هو فعلاً نتاج ماضيه إلاّ أن التاريخ أكثر تعقيداً مما توحي به كلمة (أورتيفا) ويستمر نمو الإنسانية عن طريق تجسيد الماضي.

وفي الفصل الثالث يبحث « دوبو » في طبيعة الإنسان ودور التربية في تكوين شخصيته فيقول : « تعبير طبيعة الإنسان في الاستعمال العام يعني، بصورة رئيسية إن لم يكن بصورة مطلقة، صفات الإنسان النفسية والأخلاقية. وعندما يستعمل علماء البيولوجيا تعبير طبيعة الإنسان فانهم يعنون بالإضافة لذلك البنية التشريحية والخصائص الوظيفية لجسم الإنسان الموروثة فيها، المكتسبة أو المعدلة بالتجارب. وسواء كان التعبير محدوداً بمعناه الأول أو الثاني ـ الأكثر شيوعاً ـ فلقد كان محور نقاشات فلسفية وعلمية طابعها القائم حول « الطبع » أو « التربية ».

« أبو قراط » يقول : إن الإنسان هو نتاج بيئته. و « جون لوكس ١٦٣٢ ـ ١٧٠٤ » و « جان جاك روسو ـ ١٧١٢ ـ ١٧٧٨ »، وغيرهما من أتباع نظرية « التربية في نمو الإنسان »، اعتقدوا أن الوليد مثل الصفحة البيضاء التي يدون عليها كل شيء في سياق الحياة بالعلم والتجربة، كذلك (شاركل فوربيه) و (كلود هلفيتيوس)، وذكر (توماس هاكسلي ـ ١٨٢٥ ـ

١٨٩٥) أن الوليد لا يحمل عند ولادته يافطة تشير إلى أن هذا « زبال »، وذاك « صاحب دكان »، وذلك « قسيس »، وآخر « أمير »، فالوليد يشبه كتلة غير متميزة في العجينة الحمراء وبتربيته فقط نستطيع اكتشاف مواهبه وإمكاناته (وصدق رسول الله : « ما من مولود يولد إلّا على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه »...).. وتمسك (توماس هوبز ـ ١٥٨٨ ـ ١٦٧٩) و (هوبرت سبنسر ١٨٠٢ ـ ١٩٠٣) الداروينيون الاجتماعيون بفكرة أن الطبع ـ الوراثة ـ تحدد إلى حد كبير خصائص الأشخاص اليافعين منهم والبالغين، وعلى أساس إحصاء مغلوط استنتج (فرنسس غالتن ١٨٢٢ ـ ١٩١١) أن هذه الفكرة تقلل بأسلوب مقنع طبقية المجتمع الإنجليزي، فالقضاة ينجبون قضاة، أما العمال والحرفيون وحتى أصحاب الأعمال فلن ينجبوا في الغالب أولاداً لهم القدرة العقلية اللازمة لأداء أعمال ناجحة في عالم الفكر.. ومن (جوزيف ارثر غوبينو ١٨١٦ ـ ١٨٨٢) إلى (ادولف هتلر ١٨٨٩ ـ ١٩٤٥) وحتى الوقت الحاضر أدى هذا التفسير الضيق لفكرة لمحددات التكوينية الإرثية Genetic إلى مواقف جنونية وإجرامية فيما يتعلق بوجود (أجناس راقية سيدة)، و (أجناس سافلة منحطة) على حد زعمهم.

ويمكن صياغة فرضية عامة الآن لتفسير الحقيقة القائمة، وهي أن البيئة تعدل الطريقة التي تتحول بها الموهبة الموروثة إلى صفات وظيفية تشكل شخصية الفرد كما هو عليه بسلوكه وتصرفاته، وكل إنسان مخلوق فريد ليس له نظير سابق ولن يكون له نظير لاحق.

ومن المؤكد أن التأثيرات الباكرة هي التي تلعب الدور الأهم في تحويل الإمكانات الموروثة إلى صفات شخصية.

ويحار المؤلف، مثل غيره من الداروينيين، في وصف وتحديد القيم الروحية التي تضبط الرغبات والدوافع البيولوجية ـ الغريزية السفلى في الإنسان، وبما أنهم لا يعترفون بالروح التي وهبها الله لخلقه، والتي تسمو على التركيب العضوي لجسم الإنسان، نراهم يتخبطون في تسميات مادية. ولنستمع إلى (دوبو) في هذه الحيرة وهو يقول : « في أكثر الحالات يضم سلوك الإنسان بعض العمليات غير المنطقية التي تصدر

عن جزء من الدماغ يسمى (ديانسفالون Diencephalon) نما خلال تطور قديم قبل زمن طويل من تطور الطبقة السطحية (قشرة الدماغ)، فالفزع والغضب والأشكال المتعددة للرغبة الحيوانية... وفي الواقع كل ما يسمى بالدوافع السفلى هي عمليات غريزية لها مظاهر فيزيولوجية شديدة في الكائن البشري، وهي تتطلب مراقبة (قشرة الدماغ) التي تضبطها وتصلها بثقافة كل مجتمع بعينه، وتعبير (كبرياء قشرة الدماغ) استعمل لوصف حقيقة أن الإنسان كثيراً ما يتجاهل الدوافع السفلى في طبيعته، ويترك لسلوكه أن يسير كلية بأوامر مستلهمة من ثقافته وصادرة عن قشرة دماغه.

وفي كل أنحاء العالم نمت ممارسات اجتماعية بأسلوب تجريبي لتسمح للدوافع غير العقلية ـ أي السفلى ـ للإنطلاق في ظل شروط ضابطة في احتفالات وطقوس كانت تجري في اليونان ويشترك فيها (سقراط) نفسه، ولا تزال هذه الطقوس ـ وهي كصمامات الأمان ـ تمارس في أكثر بلاد العالم الغربي تقدماً في احتفالات رأس السنة الميلادية ورقصة (الميبول) والتهتك والعربدة في (عيد المرافع ـ عيد انتهاء الصيام المسيحي Mardi Gras) وفي الإثارات الجنسية الإيقاعية في رقصات (الروك أندرول).

ويعود (دوبو) ليعترف مرة أخرى بالفروق التي تميز الإنسان عن الحيوان والتي تنقض الداروينية فيقول : « وأكثر السلوك في الحيوانات العليا غريزي لا صلة له بالعقل، ومن النادر إن لم يكن من المستحيل، أن تجد سلوكاً حيوانياً متوجهاً نحو المستقبل البعيد الذي يحاول الحيوان التكهن به والسعي لإيجاده، وبالمقابل فإن ردود فعل الإنسان لأكثر الإثارات المحيطة تتأثر بعمق بتكهناته عن المستقبل، سواء كانت هذه التكهنات مبنية على الخوف أو الحقائق المعلومة أو الرغبة في الإنجاز أو على الآمال الحالمة. والحقيقة أن ميل الإنسان لتخيل الأشياء التي لم توجد بعد والتي لن تقع بدون إرادة وعمل حر يقوم به هي الناحية البارزة التي تميز الإنسان بوضوح تام عن الحيوان وهي التي تسهم كثيراً في تعقيد بنية الإنسان النفسية التي أعيت الأطباء. ومن أبرز النواحي المميزة للإنسان هي ميله للسمو على الدوافع البيولوجية البسيطة، فعنده الاستعداد لتحويل العمليات العادية في وجوده إلى أعمال وأعراض ومطامح ليس لها ضرورات بيولوجية ـ

غريزية ـ وربما تتعارض مع استمرار حياته، بل اكثر من ذلك ان الإنسان يميل ليرمز لكل شيء يحدث له، ثم يتفاعل مع هذه الرموز كما لو أنها إثارات محيطة حقيقية ».

ومع تأكيد (دوبو) على المادة العضوية في دراسته لطبيعة الإنسان فإنه يسلم أخيراً بأن كل ذلك غير كاف لتفسير طبيعة الإنسان إذ يقول : تتفاعل عوامل التجربة وعوامل الوراثة لتهندس المظاهر البيولوجية والسلوكية لحياة الإنسان ولكنها ـ مجتمعة ـ غير كافية لتفسير طبيعة الإنسان. ويتمتع الإنسان بقدر كبير من الحرية في الاختيار والتقرير، فهو المتميز في كونه قادراً على الاختيار والتمحيص والتنظيم... ومن هنا يأتي الإبداع، ولن تفهم طبيعة الإنسان تماماً حتى يصبح بالإمكان إيجاد الصلة التي تجمع ناحيتين متكاملتين فيها : المحدودية.. الجبرية... والإرادة الحرة ». ـ أي الوجود المادي البيولوجي والوجود المعنوي الروحي ـ.

ويقول (دوبو) **في الفصل الرابع** : « إن من أقدم الاهتمامات المستمرة للإنسانية الجهود الصابرة المتأنية الدقيقة لفهم علاقات الإنسان بغيره من البشر والكائنات والكون، وهناك أجوبة لهذه الأحجية بقدر ما هنالك من أديان وفلسفات ». **ويذكر أن ملحدي العالم الغربي يعانون موقفاً دفاعياً صعباً، فالحقائق التي يحاولون إنكارها تلاحقهم أبداً، ويؤكد أن الإنسان ذو طبيعة دينية مستقرة في أعماق كيانه منذ وجد، ثم ينتقد العلوم الطبيعية لأنها تتجاهل أهم ظاهرة في حياة الإنسان وهي الحرية. والبحث في حرية الإنسان هو أبرز ما يحتوي الفصل الرابع. يقول « دوبو »** : « من المعروف أن كل مظاهر الحياة مشروطة بالوراثة وتجارب الماضي وعوامل البيئة، إلّا أنه من المعروف أيضاً أن الإرادة الحرة تمكن البشر من السمو على ضوابط التحديد البيولوجي، فالقدرة على الاختيار بين الأفكار وأساليب الأفعال المختلفة يمكن أن تكون أهم صفات الإنسان، ولقد كانت في الغالب ـ ولا تزال ـ مدداً هاماً في تطور الإنسان، وفهم الوعي والإرادة الحرة وغيرها من المظاهر الإنسانية الحقة في الحياة يحتاج لنظريات جديدة تختلف ولكنها تتكامل مع النظريات البيولوجية الحاضرة. ولقد لاحظ الباحثون المعنيون بالنشاطات العقلية المؤدية للاختيار واتخاذ

القرارات، إنه لا يكون باستطاعة دماغ الإنسان أساسياً ومنطقياً الوصول لفهم كامل لذاته ولما يجري فيه، مثلما هو الأمر في الآلات الحاسبة ـ الأدمغة الالكترونية ـ فهي غير قادرة على التنبؤ بمستقبل العالم والتي هي جزء منه.

وتولد الإرادة الحرة ظواهر الحرية، وبالقدر الذي تسمح به الشروط الحاضرة والماضية، وتمكن من تطبيق الأفكار والآمال المتوقعة. والمثل على ذلك أن الأولاد في الأحياء الفقيرة للحواضر الكبرى يكتسبون في مقتبل حياتهم ثقافة من الصعب عليهم التخلص منها بعد ذلك، فبيئتهم تحطم كثيراً من إمكانات الحرية الكامن فيهم. ولقد عبر عالم الوراثة الإنجليزي (ج. ب. س هالدين ١٨٩٢ ـ ١٩٦٤) بدقة عن مدى تأثير البيئة في ممارسة الحرية فقال: « يتمتع المجتمع بقسط كبير من الحرية، وفيه تستطيع غالبية البشر تنمية مهاراتها الخاصة، ومن المعروف بصورة عامة أن الحرية تتطلب مساواة في الفرص، إلا أنه ليس من المعروف بنفس القدر من الحرية تتطلب أيضاً تنوعاً في الفرص، والإرادة الحرة لا تستطيع العمل إلا حيث يوجد نوع من الإيمان والاعتقاد، والمعلومات العلمية وحدها لا تقدر على فرض وتحديد قيم سلوكية ولكنها توفر حقائق يمكن على أساسها الاختيار، صحيح أن الاختيار يكون أكثر منطقية إذا بني على معلومات حقيقية وعلى تقدير للنتائج إلا أنه ـ أي الاختيار ـ يحتفظ دائماً بعنصر شخصي لأنه في النهاية يضم محاكمة تقويمية ».

« والحرية لا تهتم فقط بما يجب أن يعمل بل ربما تهتم أكثر بما يجب أن لا يعمل فالملائكة ليسوا أحراراً كما يذكرنا بذلك القديس (أوغستينس) لأنهم غير قادرين على ارتكاب الخطيئة أما الإنسان فهو حر لأنه قادر على عدم ارتكابها وله الخيار في ذلك ».

وصدق الله العظيم : « ونفسٍ وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها »[1]. ويتابع (دوبو) قائلاً : « وحتى في أجواء الماديين التقليديين قليل منهم من لا يوافق الفيلسوف

---

(١) سورة الشمس الآيات ٧ ـ ١٠.

المتدين (م. تلليستي، ١٨٨٦ ـ ١٩٦٥) على رأيه « أن الإنسان يصبح إنساناً حقاً فقط في ساعات التقرير والحسم عندما يمارس إرادته الحرة ».

« وحرية الإنسان تعني ـ من ضمن ما تعنيه ـ قدرته على التعبير عن إمكاناته الكامنة، وقدرته على الاختيار، واستعداده لقبول المسئوليات ».

وصدق الله العظيم : « إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان »[1] ... **ويختم دوبو الفصل الرابع** بتأكيده أن : « حرية الإنسان لا تعني الفوضى والانفلات الكامل، فمثل هذه المواقف تؤدي حتماً إلى تفسخ حياة الأفراد والجماعات والنظام الاجتماعي، ورفض النظام أمر غير بيولوجي أيضاً لأنه يتعارض مع الصحة الجسمية والعقلية والاجتماعية وبقاء الجنس البشري، فالحياة تتميز بالنظام والتخطيط، لا بالفوضى والتخبط، في حياة الإنسان يعني القبول بل والاختيار الحر لبعض الضوابط والتخطيط مع ذلك هو تعبير عن إرادة حرة لأنه يضم محاكمات تقويمية وتكهنات للمستقبل ».

ويبدأ (دوبو) فصله الخامس بالبحث عن معنى للحياة :

« منذ قرنين تقريباً والإنسان الغربي يعتقد أن خلاصه سيأتي عن طريق الاكتشافات التكنولوجية، ولا جدال في أن المكتشفات التكنولوجية زادت من غناه المادي وحسنت صحته العضوية، إلا أنها لم تجلب له بالضرورة الغنى والصحة اللذين يولدان السعادة والهناء. ومن الصعب تحديد الأسباب الدقيقة لأمراض المدنية الحديثة، ولكن لا شك أن كثيراً من هذه الأسباب ناشئ بطريقة مباشرة أو غير مباشرة عن التأثيرات المحيطة المؤذية، وكثير من أصول المشاكل الصحية للإنسان المعاصر ـ حاضراً ومستقبلاً ـ تكمن في الآثار الضارة للبيئة التكنولوجية، وطرق المعيشة الجديدة، وتنمو هذه الآثار الضارة ببطء وتدرج، فمن المعلوم منذ مدة طويلة أن أضرار الإشعاعات قد لا تظهر قبل عقد أو عقدين من الزمن، وعواقب التدخين وتلوث البيئة تنمو كذلك ببطء شديد، وبعض المشاكل الطبية والنفسانية في حياة البالغين لها

---

(١) سورة الأحزاب آية ٧٢.

أصولها في سوء التغذية وبعض أنواع الحرمان الأخرى التي عانوها في طفولتهم.

كان الناس في الماضي يعيشون غالباً في مجموعات صغيرة، كل فرد منهم يعرف الآخر معرفة شخصية، وقد يحتاج الإنسان لتجمعات أكبر من آن لآخر، ولكن من المؤكد أنه لا يحتاجها بصورة دائمة، وعندما يختلط الإنسان اجتماعياً أكثر من اللازم تكون ردود فعله على الأرجح خيبة وظلماً وعدواناً تتطور كلها لتصبح أمراضاً عصبية ونفسانية. وقد يأتي يوم لا يكون العنف فيه ـ حتى ولا القنابل ـ تهديداً خطراً بل انفراجاً وارتياحاً.

فالمستويات العالية للرفاه تستطيع إذن خلق الكثير من الأوضاع غير المرغوبة، فتتراكم على مدى الحياة، ويكاد جميع الناس يتفقون على مخاطر التخمة والتدخين الشديد وعدم القيام بتمارين رياضية، والاستهلاك الكثير للكحول والأدوية والمخدرات والتعرض لتلوث البيئة... ولكن القليل من هؤلاء الناس يريد بذل الجهد اللازم للوقاية من هذه المخاطرة، أضف إلى ذلك أن تأثيرات مخاطر البيئة هي غالباً غير مباشرة ومتأخرة لدرجة أن الرأي العام لا يعيها تماماً، وكثيراً من التأثيرات الضارة تتوطن في الجسم والفكر دون أن يعي الإنسان المصاب إنه تغيير بصورة دائمة، لا يمكن ردها بتأثيرات محيطية لم يشعر بها وعيه وإحساسه.

كذلك عندما يحدث التغيير التدريجي في الحياة الاجتماعية، يمكن أن تتفسخ نوعية الصلات الإنسانية دون أن يعي الأفراد أنفسهم الخسارة الحاصلة. وعندما يتسع الأفق الاجتماعي للفرد يزيد عدد معارفه وينقص عادة عمق صلاته بهم. وقد يكون لساكني المدن الكبرى عدد لا بأس به من الأصدقاء، إلا أن هذه الصداقة سطحية بصورة عامة. ومن أسوأ نتائج الحياة العصرية برأي مخطط التحضير الأمريكي (كريستوفر الكسندر) عارض الاعتزال والاستقلال الذاتي يقول (الكسندر) : إن أكثر الناس يستعملون بيوتهم للهروب من ضغوط العالم الخارجي، ويمارسون العزلة الاجتماعية كشكل من أشكال وقاية الذات، وفي النهاية يصبح الانسحاب والاعتزال عادة، ويصل الناس لنقطة لا يستطيعون معها بل ولا يريدون السماح للآخرين

بولوج عالمهم الذاتي الخاص بهم. فالفردية المفرطة والاستقلال الذاتي ينموان بصورة عامة وغير واعية نتيجة الانسحاب الوقائي من الضغوط. ويبقى الناس الذين أنجزوا هذا الاستقلال الذاتي معتمدين على الفئات الاجتماعية الذين هم جزء منها، إلا أن هذا الاعتماد يظهر فقط في مجال المال، والمال بدوره يميل لخلق عالم يعزز الفردية والانسحاب من المجتمع. وقليل من الناس لسوء الحظ يعون فقر الحياة الناتج عن عارض الاعتزال والاستقلال الذاتي، ويظهر أن عدداً أقل من هؤلاء يدرك أن الجِّد في سبيل معنى للحياة مكتوب له الفشل، ما لم يتعلم الإنسان مرة أخرى أن يتحاور مع الناس الآخرين. وسيتابع الإنسان البحث عن معنى للحياة بمحاولته الانتماء إلى غيره من الناس، وإلى المجموعة التي تمثل بالنسبة له « الله ».

وتحت عنوان : أبنيتنا تحدد أشكالنا يبدأ (دوبو) بالمقطع التالي :

« تعب الكثير من الناس من هذا السباق المجنون للتغيير الدائم، وأنهك هذا الصراع البالغين، أما المراهقون فلقد أصبحوا لا يجدون فيه أية قيمة تذكر. وعندما يشاهد هؤلاء جميعاً لتحل مشاكل خلقتها التكنولوجيا نفسها يعلو صراخهم : « قفوا هذا العالم فنحن لا نريد أن نخرج منه، إنهم يريدون العودة إلى (أركاديا)، رواق النعيم الأسطوري آملين استعادة بساطة ونقاء الحياة الأصلية، إلا أن (أركاديا) لم توجد أبداً إلا في الأحلام، أضف إلى ذلك أننا لا نستطيع العودة (لأركاديا) حتى ولو كان الأمر حقيقياً بعد ما أثقلنا بالآثار البيولوجية والاجتماعية للحياة المدنية ».

ولقد ظهرت أسطورة تقول إن للإنسان قدرة غير متناهية على التأقلم لبيئات دائمة التغيير فمن الممكن تحويل حياته بصورة مستمرة وحتى تحويله هو شخصياً بواسطة التكنولوجيا. والواقع أن هناك حدوداً بيولوجية (عضوية ونفسية) لمدى قدرة الإنسان على التأقلم والملاءمة، وهذه الحدود هي التي يجب أن تفرض أبعاد التغيير التكنولوجي.

والصلات المتبادلة بين البشر هي من أهم العوامل التي يجب أخذها بعين الاعتبار، وكثير من علماء الأنثروبولوجيا وعلماء الاجتماع ينظرون بحزن وتشاؤم إلى آثار الشروط المحيطة العصرية على العلاقات الإنسانية ولا

يجدون كبير أمل في قدرة الوضع الحاضر على توفير الحاجات الأساسية لقيام صلات ودية حميمة بين أفراد قلائل، وفي المجتمع القديم كان الإنسان مرتبطاً بالإنسان، أما في التجمعات الحديثة ـ ولا يمكن تسمية هذه التجمعات مجتمعاً ـ فيعيش الإنسان وحيداً، وكل شواهد الطب النفسي تشير إلى أن عضوية الإنسان في جماعة أو مجتمع تقويه وتمكنه من الإبقاء على توازنه أمام الصدمات العادية في الحياة، وتساعده على تربية أولاد يكونون بدورهم سعداء مرنين. وفقدان الانتماء للجماعة في جيل ما قد يجعل الناس في الجيل التالي أقل قدرة على الاندماج في عضوية الجماعة والمدنية، وهي أساساً محطمة لحياة الجماعات الصغيرة تترك الرجال والنساء تعساء يشعرون بالوحدة. ولابقاء مستوى « الكيف » في حياة الإنسان من المهم أن يكون هناك بيئة يستطيع أن يرضى الإنسان فيها ميله للهدوء وللاحتفاظ بحرمه الشخصي واستقلاله ومبادئه الفردية والانفراج الفسيح من حوله هذه ليست حواشي ولا كماليات بل هي ضرورات بيولوجية حقيقية.

ولكل أفراد البشر ـ نظرياً ـ حاجات أساسية واحدة، ولكن من الناحية الواقعية تتأثر الحاجات بالمجتمع، فهي تختلف اختلافاً عميقاً من مجموعة بشرية لأخرى، وقد تصبح الحاجات التي تبدو حيوية اليوم غير ذات أهمية في جيل آخر وليس مرد ذلك لتغيير في طبيعة الإنسان بل لاختلاف البيئة الاجتماعية وتعبير لحاجاته الأساسية إذ لا معنى له لأن الواقع يثبت أن الناس يحتاجون ما يرغبون والحاجات لا تحددها المتطلبات البيولوجية للإنسان بقدر ما تحددها البيئة الاجتماعية التي يعيش فيها بخاصة البيئة التي نما فيها وترعرع « والحياة الجيدة » هي الكفاية في هذه الحاجات، سواء تطابقت تماماً أم لم تتطابق مع الحاجات البيولوجية، ولا تصبح الرغبات حاجات بالنسبة للأفراد فقط بل بالنسبة لمجتمعات بأكملها ففي أيامنا هذه يهتم « المجتمع العظيم » على ما يظهر بخلق طبقة متوسطة، ومدنية مادية مكسوة بالمظاهر التافهة، والبيئة التي يخلقها الناس من خلال رغباتهم تصبح مرآة تعكس مدنيتهم، بل الأهم من ذلك أنها تشكل أيضاً كتاباً تنظر فيه صيغة حياتهم، وينقل للآخرين وللأجيال المتعاقبة بعده. وأهمية خصائص المحيط ليست في كونها تؤثر فقط على الراحة

« والكيف » في الحياة المعاصرة بل في كونها تؤثر على نمو وتربية الجيل الناشئ ومن ثم على مجتمعات الغد.

وفكرة أن الإنسان يهندس مستقبله عبر قرارات تتعلق ببيئته عبر عنها (ونستون تشرشل) بأسلوب صوري عام ١٩٤٣م عندما كان يناقش شكل الهندسة المعمارية لبناية مجلس العموم البريطاني. لقد كان البناء القديم غير مريح وغير عملي، ونتيجة للغارات الجوية تهدم إبان الحرب العالمية الثانية، وهكذا سنحت الفرصة لتبديله ببناء أكثر ملاءمة، ومع ذلك فقد ألح تشرشل على إعادة بنائه على نمط البناء القديم تماماً. وفي كلمة ذات مغزى قال (تشرشل) : إنّ أسلوب المناقشات البرلمانية في انجلترا تأثر شرطياً بالخصائص المادية للبناء القديم، وأي تغيير في الهندسة المعمارية سيؤثر حتماً على طريقة المناقشات والمساجلات وبالتالي على بنية الديمقراطية الإنجليزية. ولخص فكرة التأثير المتبادل بين الإنسان ومجمل بيئته بجملة درامية لها قيمتها إذ قال : « نحن نهندس عماراتنا، وعماراتنا تهندسنا بدورها بعد ذلك ».

وكثير من الأجهزة التربوية تحاول دفع الصغار إلى أنماط تقليدية بالتلاعب بعوامل بيئتهم وكثيراً ما تنجح في ذلك رغم بعض المظاهر المعاكسة وعلى كل مسئول عن تلفزيون أو أي مدير لبرنامج دعائي موجه للصغار أو الناشئة أن يشعر بتبكيت ضميره ـ إذا كان له أي ضمير اجتماعي ـ عندما يعلم أنه يؤثر ويشرط أذواق وآراء وأنماط ردود الفعل عند هؤلاء المشاهدين والمستمعين لمدة طويلة وربما لن تستطيع الناشئة التخلص أبداً من هذا التأثير لأجهزة الإعلام. ولقد استعمل الزعماء السياسيون هذه المعلومات للتلاعب بالرأي العام وبخاصة لقولبة عقول الناشئين.

ولكل الأشكال الهندسية المعمارية العظيمة موقف ما من الحياة وهذا صحيح أيضاً بالنسبة للبيت والحديقة والمعبد والقرية والحواضر الكبرى. ولكي تنجح العمارة ـ جمالياً وعملياً ـ يجب أن تعكس روح المؤسسات والمجتمع الذي أنشئت فيه وما أن تصوغ المجتمعات أفكاراً أو مواقف ذات قيمة حتى يعمد القانون إلى إعطاء هذه الأفكار والمواقف حيوية وشكلاً مادياً مناسباً. وكانت الأشكال المعمارية دائماً وفي أحسن أحوالها ـ

تعبيراً عن مثاليات مادية على الفلسفة الاجتماعية للمؤسسات الإنسانية، فهي تشكل تعبيـراً بنيوياً للحاجات الاجتماعية ولسوء الحظ أكثر عمارات الشقق السكنية والمكاتب الآن لا توحي بشيء أكثر من الفاعلية والغنى الظاهر ومن هنا تأتي تفاهة هندستها المعمارية.

لقد ورثنا آثاراً عظيمة من الماضي أما ما سنورثه للأجيال القادمة فليس هناك على ما يظهر إلا السيارة. فالسيارة هي رمز أيامنا هذه وهي تمثل تهربنا من مسئولية إبداع شراكة بيننا وبين بيئتنا من أجل المستقبل. إن فشلنا المخيف في إقامة مدن مرغوبة وعمارات ومكاتب جذابة لم ينتج عن فقر في خبراتنا الهندسية، ولا سوء في مهاراتنا العملية، بل نتج عن حقيقة أن المهارات التكنولوجية لا تستطيع إبداء شيء ذي قيمة ما لم تكن في خدمة هدف ذي قيم نبيلة. ومؤسساتنا لم تهندس للمساعدة في قيام حياة أفضل، بل لجعل البشر أكثر إنتاجاً والآلات أكثر فعالية في ميداني الصناعة والتجارة، مع أن الواضح أن الإنتاج والفعالية ليست لها ـ مجردة هكذا ـ أية قيمة فهي واسطة لغاية والحقيقة أن الإغراق في الاهتمام بالإنتاج والفعالية يتعارض ويعرقل البحث عن معنى في الحياة. وتقود التكنولوجيا العلمية المدنية المعاصرة إلى الانتحار إذا لم تعكس مسيرتها في الوقت المناسب. وفي كثير من أحداث الماضي فقدت المدنيات الإرادة أو القدرة على التغيير بعد ما سارت في اتجاه معين مثل هذه المدنيات تصرف سريعاً ما فيها من مضامين روحية، وقابليات إبداع طبعت مرحلتها الأولى وسرعان ما تتفسخ إلى سخافات قبل الغرق تماماً في بحر التفاهة.

والحقيقة على ما يظهر أن بيئتنا وطرق معيشتنا تؤثر بعمق على مواقفنا ومواقف الأجيال المقبلة، وليس هناك شيء أكثر كرباً وغماً بالنسبة لمستقبلنا القريب والبعيد من انحطاط وبشاعة مراكزنا الحضرية الكبيرة، واضطراب وسائل النقل العامة، والتركيز الزائد على الراحة المادية الأنانية، وفقدان السلوك الفردي والاجتماعي والتضحية « بالكيف » في مجالي الإنتـاج والتربية، والنقص في ردود الفعل المبدعة تجاه الأخطار بخاصة يثبط الهمم ويبعث على اليأس لأن كل الناس المفكرين يعون الحالة الحاضرة وهم متلهفون لعمل شيء ما لإصلاحها، ولكن لا يمكن القيام بعمل جماعي لأن

هذا النوع من العمل يحتاج إلى إيمان موحد وهو غير موجود، ولسبب حاجتنا لهذا الإيمان يصبح البحث عن معنى لحياتنا أهم واجباتنا في هذه الأيام.

وينتقد (دوبو) المسيحية فيقول :

إذا راجعنا التاريخ ربما يظهر موضوع البحث عن معنى عملاً لا فائدة منه. ففي كل مرة تتعرض البشرية لمثالية تعطيها معنى لحياتها، تتبخر هذه المثالية وتختفي، ولقد ظهر في الماضي كثير من العقائد الدينية والفلسفية والاجتماعية أنارت للبشر طريقهم لمدة ما، وضاعت من بعد ذلك في مستنقع من شكوك فلسفية وجدل ضيق عقيم. بدت المسيحية في القرون الوسطى كقوة موحدة عندما أعطت شعوب أوروبا بعض الآمال والمطامح المشتركة والسلوك الاجتماعي المستوحى من محبة الله وخوفه ولقد حركت أفكار المسيحية القدرات البشرية في أعمال جماعية مدهشة كبناء الأديرة والكاتدرائيات ذات الفن الغوطي والروماني، ولكن بعد ذلك انشغل المسيحيون باطراد في محاولات لاهوتية مكررة، وتحولت المسيحية من عقيدة روحانية من المحبة إلى اعتقاد جامد محافظ خال من أي إلهام وكثيراً ما نراها الآن تتفتت لتصبح فئات متعددة تتبنى أخلاقاً اجتماعية مبهمة، واللاهوتيون مشغولون بمناقشات فلسفية زائفة لمحاولة التوفيق بين المسيحية وبين الرأي الذي لا معنى له عن « موت الإله ».

ثم ينتقد (دوبو) العلم لأنه قاصر وحده عن إعطاء وجهته ومعنى للحياة بالإضافة لمحدوديته بقدرة الفهم المحدودة في الإنسان ؟ يقول (دوبو) :

ومع التنور الذي حدث في القرن الثامن عشر برزت تدريجياً مكانة التعليل العلمي ليصبح هو الإيمان الجامع للناس، إلا أنه أيضاً بدأ مرحلة ضعيفة منذ بضعة عقود، لأن محدوديته الفكرية والتطبيقية ظهرت بجلاء، قليل من الناس يشك في أن العلم هو أعظم القوى في العالم المعاصر، ولكن لم يبق إلا عدد قليل جداً من الناس بخاصة المتعمقين منهم على اعتقاده أن العلم قادر على تفسير معضلات الكون، أو أنه قادر لوحده أن يعطي للحياة

الإنسانية وجهة ومعنى ومدى العلم الحديث تحدده بالتأكيد مقدرة الفهم المحدودة في الإنسان والموجودة أصلاً في طبيعته. وتواجهنا العلوم المادية بتناقضات لا حلول لها عندما نحاول فهم حدود الفضاء أو بدايات الزمن، أضف إلى ذلك أن الانجازات العلمية تثير بصورة عامة مسائل أخلاقية يعتبرها كثير من العلماء خارج نطاق كفاءاتهم ويشيرون إلى أن العلم والتكنولوجيا أدوات ووسائل ليس لها أخلاق ويمكن استعمالها لخير البشرية وهذا ما يكذبه الوعي المتزايد بأن تكنولوجيا العلم تثير مشاكل جديدة في محاولاتها لحل المشكلات القديمة ».

ويتخبط (دوبو) في تيهه ويقترب من بؤرة الإيمان الصحيح تارة ويبتعد عنها تارة أخرى :

« فإذا كان الزمن يسبب تآكل وتفتيت كل المعتقدات الدينية والفلسفية والاجتماعية فهل من المنطق البحث عن معنى للحياة والأمل في حلول كاملة للمشاكل العملية ؟ إن فلاسفة العالم التقليدي وبناة الكاتدرائيات ومؤسسي التفسير العلمي بل وزعماء أية حركة اجتماعية أو دينية في مجرى التاريخ لم يهتموا بصياغة فلسفة محدودة، أو حل للمشاكل العملية الآنية. والقاسم المشترك للمعتقدات التي أدت إلى وحدة جماعات من الناس هو غالباً مجموعة من القيم التي مكنت الإنسان من تناسي الفردية، ليجد معنى في إطار أوسع. وسواء كان الاعتقاد دينياً أو فلسفياً أو اجتماعياً فإن الشعور بالمعنى ينبع من وعي الإنسان ـ مهما كان مبهماً ـ إن وجوده كله متصل بالكون بالماضي والمستقبل وبباقي البشرية، فمثل هذا الشعور بالصلة ربما يكون مماثلاً للتجربة الدينية، ولقد أخذ الإيمان أشكالاً عدة عبر التاريخ، وسواء كان الاعتقاد بإله أو بفلسفة غير مادية فإنه يحوي دائماً نظرة إلى الإنسان وامتداده لما وراء الزمن الحاضر، وكلما اتسعت الصلة كلما كبر المعنى، ولهذا اختلط الدين والفلسفة رغم نقصهما الظاهر في القيم العملية بجاذبيتهما للبشرية. صحيح أن الأديان والفلسفات لم تسهم كثيراً في المساعدة على فهم وتطوير الإنسان كآلية حية إلا أنها مع ذلك ساعدته مساعدة غير محدودة بتوفير نظريات وإجابات محتملة، للأسئلة التي تلاحقه : من أين أتيت... وإلى أين أذهب ؟ وبخاصة : من

أنا ؟ ومآسي المراهقين الجانحين تعطي هذه الأسئلة حدة خاصة.

وينتقل (دوبو) ليتهم المجتمع الأمريكي كله بالجنوح :

« عادة لا يسلك الولد الجانح مسلكاً غير اجتماعي بسبب ميل إجرامي متعمد، فهو يتصرف لإرضاء دافع أو شهوة أو رغبة آنية، إنه يعيش للحاضر فقط، وبسبب عامل إرثي أو في الغالب لأسباب اجتماعية ثقافية يكون غير قادر على إيجاد الصلة بينه وبين الآخرين، بينه وبين الماضي، وبينه وبين المستقبل، وأسوأ ناحية في قدره هذا أنه لا يجد أي معنى لحياته، لذلك فهو لا يرى سبباً لتنمية شعوره بالمسئولية، وليس من العدل ولا من المعقول التأكيد على أن الناس العاديين يتصرفون الآن كالأولاد الجانحين، ومع ذلك فيجب اعتبار الناس في بلاد المدنية الغربية ـ وبخاصة أمريكا اليوم ـ من الجانحين لأنهم يتصرفون وكأنما المقياس الوحيد لسلوكهم هو إرضاء رغباتهم ودوافعهم الغريزية الآنية دون النظر لعواقب ذلك على باقي الطبيعة وعلى الذرية، وتستنكر الكتب المدرسية الملاحظة غير المسئولة التي أطلقها لويس الخامس عشر : « من بعدي فليكن الطوفان »، ومع ذلك فنحن نستعمل الأرض كأننا آخر جيل يسكنها، ونتصرف اجتماعياً كأنما نريد أن نعذر أعمالنا السيئة بقولنا : « وماذا صنعت ذريتي من أجلي ».

كل حياة شخصية ناجحة، وكل مدنية ناجحة، دعمتها أجهزة منظمة من العلاقات التي تصل الإنسان بالمجتمع وبالطبيعة، وهذه العلاقات الأساسية ـ ليس فقط بالنسبة لرفاه الفرد بل ولبقاء الجماعات ـ تضطرب بسرعة وعمق الآن بسبب الحياة العصرية التي نحياها، والخطورة ليست مقصورة فقط على اغتصابنا للطبيعة بل في تهديدنا لمستقبل البشرية نفسه.

وقبل أن أعرض القوى المدمرة التي أطلقها العالم العصري لا بد من أن أؤكد أن الذنب في الوضع البيئي والاجتماعي المخيف، لا يمكن التأوه على بعض ذوي المصالح الأنانية المتعمدين الشر للبشرية، فالحقيقة أنه لا يمكن لوم فرد بعينه. فمثلاً المعلومات عن الإشعاعات الذرية والقدرة النووية نمت على أيدي رجال ذوي مثاليات عظيمة لدرجة أنهم كانوا يعتبرون في نظر الناس من قديسي العصر ومع ذلك نشأت عن نشاطاتهم العلمية أضرار

لا تحد، والمولدات ذات الاحتراق الداخلي كانت أول الأمر نعمة للبشرية ومع ذلك أدت زيادة استعمالها إلى تلوث الهواء وبتعبير آخر لم تأت الأخطار الناجمة عن الاكتشافات التكنولوجية والابتكارات الاجتماعية نتيجة سوء نية واعية في الإنسان، بل سببتها أساليبنا السياسية والاجتماعية التي عفا عليها الزمن، إذ أنها لا تصلح للعالم العصري، فهي غير قادرة على التنبؤ ولا التحكم بالنتائج الفظيعة لاستغلال النمو التكنولوجي في أهداف اقتصادية. فتظهر اختراعات كثيرة وتطبق تقريباً في آن واحد معاً وتتوزع في جميع أنحاء العالم وتؤثر في الواقع على جميع أوجه الحياة قبل أن يعرف أي شيء عن نتائجها المحتملة في الإنسان والبيئة الاجتماعية وشروط البيئة المادية.

ولقد طورت العلوم الطبية أساليب ذات فاعلية هائلة يمكن أن تؤثر في وقت واحد ـ بطرق لا يمكن التنبؤ بها ـ على مصير أعداد ضخمة من الناس هم وذرياتهم وغالباً ما تثير هذه الأساليب حالات مرضية جديدة في الوقت الذي تكافح فيه الأمراض القديمة ولا وجود لسابقة تاريخية لمثل هذا التأثير الطبي الواسع كما أنه لا توجد معلومات نظرية في علم التكوين الإرثي ولا في علم الفيزيولوجيا للتنبؤ بطبيعة ومدة التأثير الذي ستحدثه هذه التغييرات « الثورية » على البنية والمناعة العامة لإنسان المستقبل.

قد تبدو التكنولوجيا العلمية اليوم للنظرة الأولى وكأنها امتداد ـ ولو أنه مدهش ـ لما بدأ في أوائل القرن التاسع عشر ولكن الواقع أنها تختلف في طبيعتها، فحتى قبل عقود قليلة كان اهتمام العلماء منصباً على مسائل محدودة واضحة تتعلق برفاه الإنسان ؛ رأى هؤلاء البؤس والمرض بسبب نقص شديد في الغذاء وبعض الحاجات الضرورية البسيطة وشاهدوا كيف أن الجهل يولد الإرهاب والاعتقاد بالخرافات ويؤدي في كثير من الأحيان إلى القسوة والعنف، وكان هناك ضرورة سريعة للخلاص من تهديد العوز لمساعدة الإنسان على مواجهة العالم الطبيعي بدون خوف، وجعلت تكنولوجيا العلم الأمر ممكنا للوصول لهذه الغايات وكانت خادمة حقيقية للبشرية، ولكن لسوء الحظ طور إنسان العصر قوى تكنولوجية جديدة قبل أن يعرف كيف يستخدمها بحكمة. وكثيراً ما نرى الآن العلم يستخدم في تطبيقات تكنولوجية لا علاقة لها بحاجات الإنسان، ولا تهدف إلا لابتداع

رغبات مصطنعة جديدة حتى إن أكثر التكنوقراط حماسة يعترف أن كثيراً من الرغبات الجديدة التي اصطنعت حديثاً تضر بالصحة وتشوه مطامح الجنس البشري، بل أكثر من ذلك هنالك دلائل على أن نواح تكنولوجية بكاملها بدأت تخرج من مجال سيطرة الإنسان عليها. وباختصار فاستعمال التكنولوجيا الحديثة دون النظر لكل النتائج الممكنة هو أمر يوازي تحضير قنبلة زمنية ستنفجر في وجه المجتمع سواء بعد شهر أو بعد جيل ».

ويركز (دوبو) في آخر الفصل الخامس هجومه على أسطورة النمو والتنمية فيقول :

« كل المجتمعات المتأثرة بمدنية الغرب تتبع (توراة التنمية) كعقيدة، وتدور في دائرة تشبه (حلقات ذكر الدراويش)، وتقول هذه التوراة « انتجوا.... أكثر لكي تستهلكوا أكثر.... ثم لكي تنتجوا أكثر »، ولا يحتاج الإنسان لأن يكون عالم اجتماع حتى يدرك أن هذه فلسفة مريضة مجنونة فلن يستطيع تسارع النمو الاستمرار طويلاً فضلاً عن الاستمرار الدائم إلى ما لا نهاية. وفي حديث بعنوان : « هل تستطيع أمريكا التغلب على خرافة النمو » كان سكرتير وزارة الداخلية الأسبق (ستيوارت ل. أودال) شجاعاً عندما قال إنه من السهل اعتبار أمريكا التي صنعها الإنسان... كارثة على مستوى القارة « إننا نملك أكبر عدد من السيارات وأسوأ ساحات الخردة بالمقارنة مع أية دولة أخرى في العالم، ونحن أكثر سكان العالم تنقلاً، ونتحمل أكبر قدر من الازدحام ونولد أكبر كمية من الطاقة. وفي أجوائنا أكثر الهواء تلوثاً في العالم. ولقد نقل عن رئيس بلدية (كليفلند) قوله متهكماً : « إذا لم نكن واعين فسيذكرنا التاريخ على أساس أننا الجيل الذي رفع إنساناً إلى القمر... بينما هو غائص إلى ركبتيه في الأوحال والقاذورات ». وعبر (أودال) في آخر حديثة الرائع، عن أمله في تصاعد الغضب والاستنكار « لتوراة الدمار » التي تقول : ويجب الاعتراف أن موقف المعارضة لا يضم إلا نسبة صغيرة من الرأي العام، ولكن الجيل الجديد هو أقل انبهاراً بالتكنولوجيا من آبائه المسنين، وربما سيكون الجيل القادم أقل انبهاراً أيضاً من سابقه، وأملنا أن يستطيع « عدم اكتراث » الأجيال القادمة مساعدة أمريكا على التغلب على « خرافة النمو ».

وفي الفصل السادس والأخير يكشف (دوبو) تضارب مشاعره، ويركز مرة أخرى هجومه في تلخيص نقده للحضارة المادية والمجتمعات الغربية المعاصرة في أساليب معيشتها وتخريبها للبيئة، وينتقد العلماء لتهربهم من مواجهة الحقائق المرة، ويثير مرة أخرى التناقض الواضح بين المفهوم المادي للداروينية والقيم الروحية للإنسان.

يقول (دوبو) مبتدئاً الفصل : « أنا أعيش في وسط « مانهاتن » بنيويورك، وأعاني مثل الكثيرين من أبناء جيلي علاقة حب وكراهية بيني وبين مدنية التكنولوجيا، بإمكاني أن أرى العالم كله... ولكن المناظر المتاحة لي من نوافذ شقتي في الطابق السادس والعشرين تكشف فقط عن خليط من الأسمنت والفولاذ يستحم في ضوء وسخ غيوم الدخان الكثيف؛ وهو تعبير ملطف للأوحال التي تنشر الروائح الكريمة في الجو وتلطخ زرقة السماء، وضجيج المدنية ليلاً ونهاراً يوفر خلفية غير متماسكة لزعيق نشرات الأخبار العالمية المذاعة باستمرار منقولة بالراديو. كل شيء آكله أو أشربه أو أستعمله مستورد من أماكن بعيدة أو من مكان مجهول فهو محفوظ بالكيماويات ومراقب الكترونياً ومنقول على عدد لا يحصى من الآلات المغفلة قبل أن يصل إليّ. ولا تستطيع (نيويورك) الاستمرار في العيش حتى ولا لأسبوع واحد إذا طرأ حادث أو جرى تخريب في شبكة مياهها إبان الصيف أو في تيارها الكهربائي في أواسط الشتاء. حياتي تعتمد على تكنولوجيا أنا عاجز عن فهمها حقاً ومع وعيي الكامل بالمخاطر المترتبة على اعتمادي هذا فأنا أقبل هذه التكنولوجيا كأمر لا بد منه. أقضي أيامي في وسط الضوضاء والأوساخ والقباحة والسخافة.. لكي أكون على مقربة من مختبرات حسنة التجهيز، ومكتبات ومتاحف... وبعض الزملاء المثقفين الذين يحبون حياة مادية سخيفة كحياتي.

وأنا أشك في أن باستطاعة البشرية تحمل أسلوب حياتنا السخيف لمدة أطول دون أن تفقد أفضل ما في الإنسانية، وعلى الرجل الغربي أن يختار مجمعاً جديداً وإلا فإن المجتمع الحديث سيفنيه ؟ قال (هارفي كوكس) خلال نقاش جريء في مؤسسة (ماشوستس) للتكنولوجيا : هناك عناصر في الموقف الحاضر يمكن إيجاد أجوبة لها في التكنولوجيا، ولكن

هنا عناصر أخرى لا يمكن للتكنولوجيا أن تجيب عليها. وهي تتعلق إلى حد ما بموضوع نظرتنا الفلسفية الأساسية بالنسبة للإنسان وما يعني تطبيقها. إن تعديل نظرتنا الفلسفية لتناسب التكنولوجيا الحديثة أمر خطر ـ في أحسن حالاته. وقليل من الناس ـ على افتراض وجودهم ـ يحبون هذه الشروط البيئية التكنولوجية ـ ونحن نتبع حتى الآن التكنولوجيين حيثما تقودهم أساليبهم نحو « أوتوسترادات قاتلة » أو نحو القمر في ظل تهديد القنابل النووية أو ازدياد السرعة التي تفوق سرعة الصوت ولكن هذا لا يعني أن علينا الاستمرار إلى ما لا نهاية على هذا الطريق الانتحاري المجنون... وكثيراً ما نرغب أن تكون لدينا الشجاعة للتوقف عن السير في هذا الطريق، لنعود إلى أنفسنا الطبيعية. والرغبة في الانسحاب من أسلوب حياة نعرف أنه غير إنساني. هذه الرغبة منتشرة انتشاراً واسعاً في الغالب وربما تصبح قوة اجتماعية مسيطرة في المستقبل. والتطلع إلى موقف إنساني غير خاضع لأوامر التكنولوجيا ليس رجعية ولا انهزامية، بل هو موقف تقدمي وجهد بطولي، وإنجاز مثل هذا الموقف يحتاج لشجاعة لتحرير أنفسنا من المعوقات الثي تمنع أكثرنا من اكتشاف طبيعة الحقيقة والتعبير عنها.

جواب لماذا ؟ قبل جواب كيف ؟ في موضوع البيئة، يقول (دوبو) :

وبما أن العوامل البيئية تؤثر بعمق على أكثر نواحي حياتنا اليومية وبخاصة النمو البيولوجي والنفسي للأطفال والأولاد، فمن أكثر الضرورات تطبيقاً في تخطيط المدن التفهم الأفضل لمتطلبات الإنسان البيولوجية وما يرغبه ثقافياً وما يأمل أن يكون. وفي هذه الناحية كما في النواحي الهامة الأخرى للحياة معرفة جواب « لماذا » ؟ أمر ضروري قبل معرفة جواب « كيف » ؟ ولسوء الحظ نحن نعطي دائماً في الواقع الأسبقية للاعتبارات التكنولوجية على العوامل الإنسانية ويجد إنسان العصر سهولة في تأدية عمل لإنتاج سيارات أو إنشاء أوتوسترادات وناطحات سحاب وصواريخ موجهة وغذاء بلا حريرات... ولكنه حتى الآن لم يتعلم كيف يعمل كإنسان عندما يجب أن يتصرف بحكمة عند استخدامه للحاجات التي صنعها بإسراف

يثير الغثيان، وستعاني مجتمعاتنا لا محالة من كوارث بيولوجية ونفسية ما لم تنمي بيئات تكنولوجية وحضرية تتناسب حقاً وحاجات الإنسان، فأمراض المدنية وتمرد الشباب هي إنذارات بأن العافية البدنية والصحة العقلية والرضى العاطفي والشعوري كلها تحتاج لأكثر من الغنى المادي وإنتاج الأشياء ومعرفة أسرار الذرة.

وينتقد (دوبو) العلماء فيقول :

عندما احتفلت الأكاديمية الوطنية للعلوم بيوبيلها المئوي عام ١٩٦٣م قدم حوالي عشرين عالماً أمريكياً مشهوراً الأوجه المختلفة للجهود العلمية في سلسلة رسائل ممتازة عن مواضيع تتراوح بين علم الفلك وسلوك الحيوان... ولكن لم يبحث أي منها في المشاكل التي تعترض الإنسان ذا اللحم والدم في عالم القرن العشرين. لم يكن عدم بحث هذه المشاكل نتيجة سهو ؛ لقد عكس حقيقة هي أن الطرق التي تبحث فيها مشاكل الحياة الإنسانية في عالم الواقع لا توفر معلومات على مستوى فكري رفيع تصلح لعرضها على المستوى المهيب في الأكاديمية الوطنية للعلوم.

أصل المنظومة الشمسية أو استعمال المجهر الالكتروني في دراسة أنسجة الحيوان الميت... نعم، اختناق الإنسان وشعوره بالغربة في مدننا... لا ؛

يتهرب العلماء من المشاكل التي تعترض الحياة الإنسانية، لأنها غير قابلة للدراسة بالأساليب التقليدية للعلوم الطبيعية، ولهذا السبب لن تؤدي الدراسة إلى نتائج دقيقة واضحة حاسمة، ومن ثم لتقدم العلماء المهني فالطريق إلى النجاح العلمي إذن هو باستبدال المواضيع الهامة التي تظهر معقدة صعبة بمواضيع أقلّ أهميــة يمكن حلها في ظرف قصير نسبياً، وهذا الحال ليس وقفاً على المجتمعات الرأسمالية فقط فلقد نقل عن الفيزيائي السوفييتي (ل. أ. تسيموفتش) قوله « البحث العلمي هو طريقة لإرضاء الفضول العلمي الخاص على حساب المال العام ». وهذه الجملة ليست مزاحاً كما يوحي مظهرها فهي تدل على مشكلة جدية تتعلق بالعلم وصلاته بالمجتمع. ورغم نجاحات العلم في الميادين العملية لم تترسخ بعد المعرفة

العلمية نفسها كقيمة أصيلة لها معنى في ذهن العامة. فكما صرح المؤرخ الإنجليزي للعلوم (ستيفي تولمين) عن العلم : « يمكن أن يقال اليوم عن مجتمع الغرب أنه ينظر للعلم كآلهة غريبة قوية غامضة، وأي تبديل أو تغيير في حياتنا هو من صنع يديه إلا أن الغربيين بعيدون عن فهم طبيعة هذه القوة الغريبة كبعد فلاح القرون الوسطى عن فهم لاهوتيات (توماس الأكويني) ». وإهمال العلماء لهذه المشاكل الإنسانية التي تستحوذ على الاهتمام العميق للإنسان قد يقلب الثورة ضد المجتمع وضد المفكرين في العهد الحاضر إلى صليبية ضد العلم نفسه ».

ويعرج (دوبو) مرة أخرى على موضوع التناقض بين فرضية (داروين) والواقع الإنساني فيقول : « يحاول العلماء المعاصرون تفهم كيف ولدت المواهب البيولوجية للإنسان تدريجياً (!) القيم الروحية التي أعطت للتاريخ الإنساني عدة خصائص غير موجودة في حياة الحيوان، ورغم أن الجنس البشري بقي بيولوجياً كما كان في العصر الحجري استمرت الحياة الإنسانية في تطورها عبر طرق اجتماعية ثقافية، ونحن نعي باطراد هذا التغيير ونحاول بمحض إرادتنا مرتبكين أن نحكم حياتنا بأسلوب أكثر معقولية. وبينما اعتقد (أرسطو) كشيء مسلَّم به أننا خلقنا لهدف ما... إلا أننا نفضل أن نقرر نحن أهداف حياتنا بأنفسنا.

ويستمر (دوبو) في التخبط الحائر ومحاولة إيجاد تفسير للنقلة البعيدة من « مادة » في الحيوان إلى « الروح » في الإنسان فيقول : « المستبعد أن يكون الحواري (القديس بولص) قد فكر في أي شيء يشبه نظرية التطور العصرية عندما كتب عن طبيعة الإنسان « لقد بذرت كجسم طبيعي وتربيت كجسم روحي، الإنسان الأول من التراب. أما الإنسان الثاني فهو الإله في السماوات ». ـ تعالى الله عما يشركون ـ « ومع ذلك فإن رأي الحواري (بولص) يعبر رمزياً عن الاعتقاد بأن الإنسان تفلت مما يربطه بماضيه ـ الحيواني ـ وهو يبدع طرقاً في حياته يعدل فيها باطراد الغرائز والدوافع الحيوانية فيه ويرد منها بانشغالات وقيم روحية ». وتنهار النظرة المادية تماماً عند الاعتراف بالحقيقة الثابتة التالية : « ويدرك البشر العالم بحواسهم ومن التناقض أن أكثر ما يقدرونه في العالم من حولهم لا يعتمد على هذا

الإدراك الحسي، والواقع أن كثيراً من بني الإنسان ضحوا بوجودهم المادي على مذبح قيم غير مادية تدركها الروح ولا يحسها جسم اللحم والدم. وقد يبدو مبهماً تنبيه (التوراة) الذي يقول « من أراد إنقاذ حياته عليه أن يكون مستعداً لفقدها » إلا أن كثيراً من الناس وعوا معناه العميق حين اتخذوا هذا القول التوراتي كدليل أخلاقي. والأنبياء والزعماء الدينيون بشروا بهذه التوصية التوراتية كحقيقة منزلة واعترف الفلاسفة بمعناها الإنساني وحاولوا اكتشاف معناها الدقيق تاريخياً ونفسياً وأدبياً ».

التأثر بالفكر الإسلامي ... دون الإشارة إليه :

ويتابع (دوبو) قوله : « كل مدنية أدت قسطاً من الإسهام في التعريف التحليلي الواعي لحكمة الفطرة ولثقة الإنسان بقدرته على أن يكون سيد نفسه، وكتابات الإيطالي (كونتي جيوفاني بيكو ديلاميراندولا) في القرن الخامس عشر تشكل نقطة فاصلة ذات أهمية خاصة لمدنيتنا، لأنها تعبر عن روح النهضة الإيطالية في فجر العهد العلمي، ففي خطابه عن كرامة الإنسان يرفض (بيكو ديلاميراندولا) الفكرة التقليدية التي كانت سائدة آنذاك، ويؤكد أنه ليس للإنسان خواص أخلاقية ثابتة، ولكن الله وهبه القدرة والمسئولية ليختار نوع وقيم حياته يقول (ميراندولا) : « الخالق المبدع الكبير خلق الإنسان بدون أن يحدد له طبيعته وقال له : « أنت ستحدد بنفسك طبيعتك حسب إرادتك الحرة، وطبيعتك ليست سماوية ولا ترابية، وبإمكانك تكوين نفسك بالشكل الذي تختاره، بإمكانك أن تنحط إلى أدنى مستويات الكائنات الحية وهي البهائم المتوحشة، ولكن سيكون بإمكانك أيضاً إذا اختارت روحك ذلك أن تولد من جديد في أرقى شكل وهو الشكل الإلهي ». واقتبس علماء عصر النهضة من رأي (ويلامير أندولا) عن حرية الإنسان وقدرته على تنمية طبيعته الداخلية عقيدة مبدعة شاملة في العلوم الإنسانية.

ويختم (دوبو) كتابه بالعودة لذكر طغيان التكنولوجيا على إنسان الغرب فيقول، نقلاً عن (جاك أتول) من كتابه (مجتمع التكنولوجيا) :

« إن اجتياح التكنولوجيا لحياتنا بدأ ووصل إلى حد قد لا يمكن

الرجوع عنه، ولقد أصبحت التكنولوجيا غاية بحد ذاتها ». ويتابع (دوبو) : « والمشاكل التي يثيرها الضبط الاجتماعي للتكنولوجيا هي واحدة في المجتمع الرأسمالي والاشتراكي والشيوعي، وبغض النظر عن الفلسفة السياسية يجب اكتشاف صيغ جديدة للتخطيط الاجتماعي بحيث تكون التكنولوجيا في خدمة حاجات الإنسان القيمة، بدل السماح لها بالنمو لذاتها أو كأداة للتوسع الاقتصادي والقومي ».

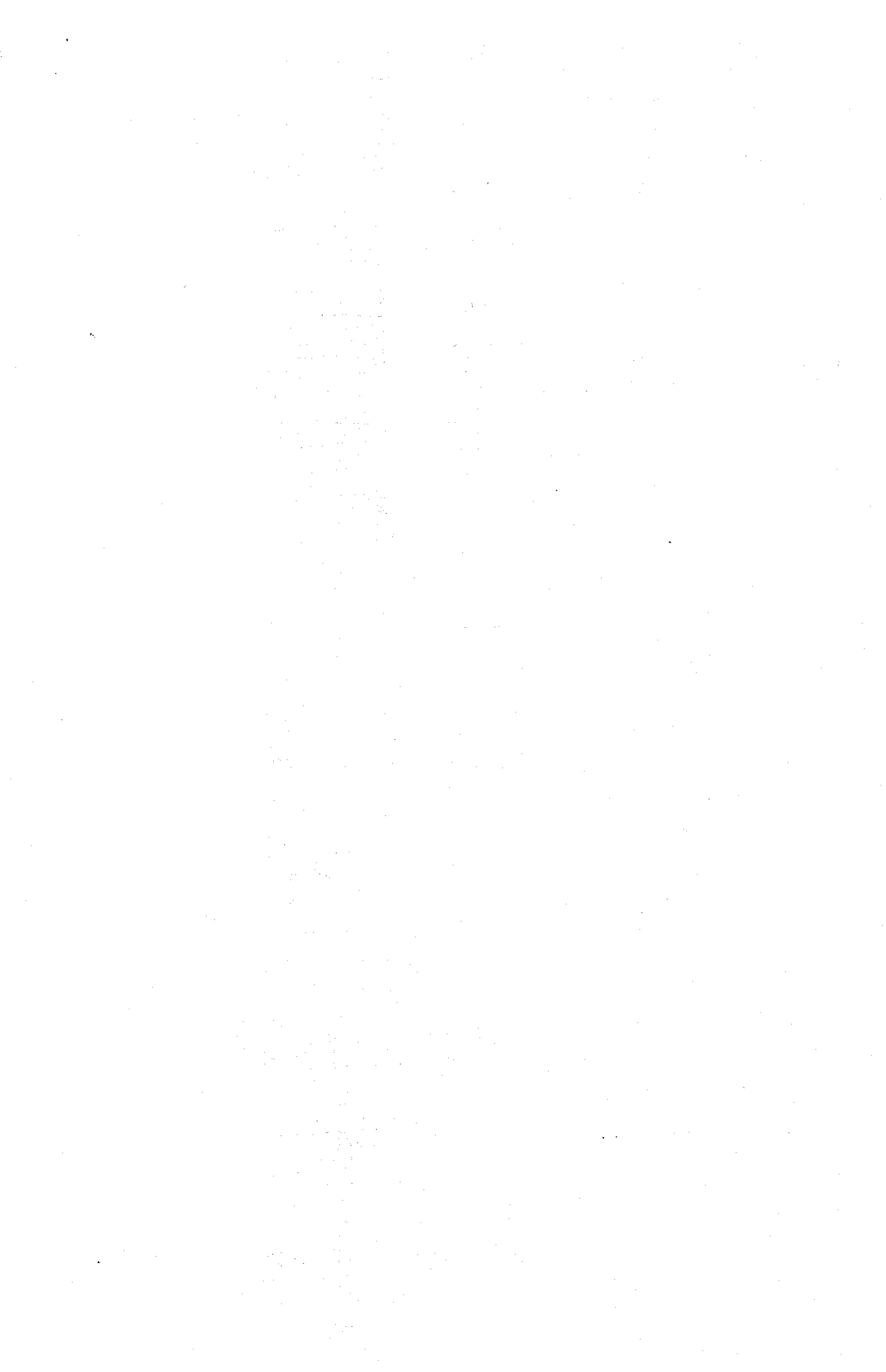
هذه هي حضارة الغرب... انفصام تام بين المادة والروح، سواء كان المجتمع علمانياً أو ملحداً. ولعل أفضل ما أختم به عرض هذا الكتاب مقطع من مقالة المفكر السوداني المؤمن الدكتور عون الشريف قاسم « نحو ثورة روحية »، قال : « ولم يبلغ الانفصام درجة من الخطورة على تطور البشر مثلما بلغه في هذه المرحلة الحاسمة من تاريخ الإنسانية، بسبب الانحراف الكبير في مسار التطور الديني الذي أحدثته التجربة الغربية، فحادت به عن وجهتها الصحيحة، ودفعت بها إلى هذا الوضع الحضاري الخطير الذي تجابه به عصر الصناعة المتطورة، بنفوس ممزقة وشخصيات مزدوجة، هذا في حين أن مسار الفكر الديني من لدن آدم عليه السلام كان وما يزال يحدو الإنسانية حتى يبلغ بها الغاية في ذلك بمزج قيم الدين بمواصفات الدنيا، كما تمثلت في رسالة الله الخاتمة التي بعث بها محمد ﷺ لمواجهة تحديات هذه المرحلة الخاتمة من تطور البشر التي نعيش فيها. وإذا كانت التجربة الغربية انحرافاً عن هذا المسار، والتواءً به عن غايته، فإنه لزام علينا، نحن حملة هذه الرسالة الخاتمة الذين كرمنا الله سبحانه وتعالى بأن جعلنا خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله، أن نعود بالإنسانية إلى حيث انتهى بها المطاف قبل أن تدهمها هذه الهجمة الغربية الرعناء التي انتكست بالمسيرة، ووقفت في سبيل بلوغ الغاية التي اختطها الله جلت قدرته للإنسان بأن يكون خليفته في الأرض ».

توضيح لبعض التعابير المستعملة في التعريب

تكويني ارثي ـ أو وراثي ـ	Genetic
بيئة أو محيط	Environment
علم التأثير المتبادل بين الكائن الحي وبيئته ـ ايكولوجيا ـ	Ecology

ثقافــة	Culture
حضــارة أو مدنيــة	Civilization
تكنولوجيا ـ أو تقنية ـ	Technology

* * *



الإسلام ومواقفنا من حضارة العصر

للدكتور التهامي نقرة
أستاذ الدراسات القرآنية بكلية الشريعة وأصول الدين - تونس



بسم الله الرحمن الرحيم

مفهــوم الحضــارة :

في اللُّغات كلمات تعيش وتنمو وتتطوّر بتطوّر الحياة، وتتنقّل في مدلولها عَبر الزمن تنقّلاً مرحليّاً، وكأنّها كائن حيّ !

فكلمة (حضارة) : كانت في الأصل تدلّ على إقامة مجموعة من الناس في الحضَر ومواطن العمران، وتُقابلها كلمة (بداوة)، وتعني : حياة أهل البدو المتنقّلة التي تسكن الخيام، وتعيش على رعي الأغنام، وهي حياة يتّسم أهلها بخشونة العيش، وجفوة الطبع، لِبُعدهم عن منازع الحضارة، وطباع التمدّن، وملكات العلوم والصنائع، كما قال ابن خلدون : (إنّما تكثر العلوم حيث يكثر العمران، وتعظم الحضارة. والسبب في ذلك أنّ تعليم العلم من جملة الصنائع التي تكثر في الأمصار. وعلى نسبة عمرانها في الحضارة والتّرف تكون نسبة الصّنائع في الجودة والكثرة، لأنه أمر زائد على المعاش.... واعتبر ما قرّرناهُ بحال بغداد وقرطبة والقيروان والبصرة والكوفة، لمّا كثر عمرانها في صدر الإسلام، واستوت فيها الحضارة، كيف زخرت فيها بحار العلم، وتفننوا في اصطلاحات التعليم وأصناف العلوم، واستنباط المسائل والفنون، حتى أربوا على المتقدمين، وفاقوا المتأخّرين)[1].

---

(١) ابن خلدون : المقدمة : ٧٧٧ (ط. بيروت ١٩٦١).

وقد حلّل ابن خلدون مفهوم الحضارة، فذكر أنها نمط من الحياة المستقرّة، التي تزدهر في ظلّها فنون من العيش والعلوم والصناعات، وإدارة شئون الحكم والحياة، وتوطيد أسباب الرفاهية والدّعة. وهي تعبّر عن التقدّم الإنساني. لكنّ التّرف يقَوِّض أركانها ويُرديها.

ومن الاستعمالات الأولى للحضارة في معنى مقابل للبداوة قول القطّامي التغلبي :

فمن تكُنِ الحضارةُ أَعجبته   فأيّ رجال باديةٍ ترانا ؟

وقد أبرزتْ ميسونة (*) بعض المظاهر البسيطة في مقارنتها الطريفة بين التحضّر والتبدّي في قولها :

لَبيت تخفق الأرواح فيه   أَحَبُّ إليَّ من قصر منيف
وكلب ينبح الطراق عني   أَحَبُّ إليَّ من قط ألوف
ولُبسُ عَباءة وتقرَّ عيني   أَحَبّ إليَّ من لبس الشُّفُوف
وأكلُ كُسَيْرةٍ في قعر بيتي   أَحَبُّ إليَّ من أكل الرغيفِ
وأصواتُ الرياح بكلّ فَج   أحبُّ إليَّ من نَقْر الدُّفوف
فما أبغي سوى وطني بديلا   وحسبِيْ ذاك من وطن شريف

ولكنّ الحياة في سيرها وتطورها أعطت تفسيراً جديداً للحضارة، فاتّسع مدلولها باتساع آفاقها، ونمت عناصرها وتداخلت، وتنوَّعت مُقوماتها من عصر إلى عصر، ومن أمة إلى أخرى، بتنوع صُور التقدم ومظاهر الرقي عند الإنسان، ماديةً كانت أم روحية، رغم ما نبتَ فيها من طُفيليات، واختلط بها من سلْبيات، ونشأ عنها من آفات، عبّر عن بعضها المتنبّي في قوله :

حسنُ الحضارة مجلوبٌ بتَطريةٍ   وفي البداوة حسنٌ غيرُ مجلوبِ

وربّما كان الزيف والخداع والعبث من لوازم كلّ حضارة ماديّة تتنكر

(*) ميسونة * : هي أم يزيد بن معاوية. كانت بدوية، فتزوجها معاوية ونقلها إلى حياة القصور، ولكنها ضاقت بحياة الحضارة المترفة، وتاقت إلى حياتها الأولى حيث الأجواء الطلقة، والحياة البسيطة. فطلبت من معاوية أن يطلقها لتعود إلى أهلها، ففعل.

للقيم، ولا تقوم على أساس من خُلق أو عقيدة ! ولكلّ حضارة مظاهرها وعناصرها ومقوّماتها، وهي جديرة بالدرس والتحليل.

ومن هنا كانت الأسس التي قامت عليها، والأهداف التي وَجّهت خطَّ سيرها، والسّماتُ التي أبرزت معالمها، محاورَ لبحوث مستفيضة من الباحثين القدماء والمحدّثين : من أرسطو، إلى الفارابي وابن خلدون، إلى توينبي وديورانت وابن نبيّ وسبنجلر، وكولون ولسن، وغيرهم ممن كانت آراؤهم في تعريف الحضارة وتحديد مقاييسها متقاربة أو مختلفة باختلاف النظرة بين مؤرخ وفيلسوف، ومؤمن وملحد، وشرقي وغربي.

ولعلّ أشمل تعريف للحضارة، أنها : مجموع العلوم والفنون والتشاريع والنّظُم والتقاليد، ومظاهر العمران والتقدّم التكنولوجي، وما لذلك كلّه من انعكاس على الحياة الفكريّة والاجتماعية والثقافية والسياسية، وعلى الأخلاق العامة في مرحلة معيّنة من مراحل التاريخ، وفي بقعة من بقاع الأرض.

مقـاييس الحضــارة :

ولكل حضارة سماتها الخاصّة، وطابعها المميِّز، والسمّة البارزة في حضارة عصرنا تغلغلُها في دنيا العلم على اختلاف أنواعه وفروعه، وقد وصفوها بأنّها حضارة علمية تقنيّة منفعيّة. وما كان يميّز حضارات الشعوب عن بعضها في جانب العقيدة والفنّ وتقاليد الحياة، لم يعُد في عصرنا يمثّل إلّا جانباً من الحضارة، فإنْ لم تصحبه حركةٌ علميّة ذات إنتاج حيّ في كل فروع المعرفة ومجالات الحياة، قَصُر عن أن يكون وحده عنواناً على التقدم الحضاري، واختلافُ مقاييس الحضارة في عصرنا يرجع أوّلاً إلى اختلاف المفاهيم والزوايا التي ينظر منا المعيِّرون والمقوِّمون، وتعدّد جوانبها وأولويّاتها في درجات السُّلّم الحضاري، لمعرفة مَدَى تقدّم الشعوب أو تخلّفها. ولا بدّ هنا من تحديد مفهوم التقدّم والتخلّف ؛ إذ الدّقة في تحديد المعاني تُزيل الخلافات وسوء التفاهم، وبخاصّة في هذا العصر الذي تعدّدت فيه مقاييس الحضارة وتنوَّعت.

فهنالك المجالُ الاقتصادي الاجتماعي الذي يقيس الحضارة بمتوسّط الدّخل، وبالنظام الاجتماعي.

وهنالك المجال الثقافي الذي يقيس بدرجة انتشار الثقافة وازدهار الفنون.

وهنالك المجال العلمي التقني الذي يقيس بدرجة التصنيع والأجهزة والآلات الميكانيكية.

وهنالك المجال السياسي الذي يقيس الفوارق في حياة الناس بين مجتمع وآخر من حيث الوعي والنضج ودقّة التخطيط، ووفرة الانتاج وجودتُه، والشعورُ بالمسؤولية، وممارسة الحريّات الأساسية، والاستقرار السياسي، واستتباب الأمْن. فلأيٍّ مقياسٍ تكون الأوْلَويّة في البناء الحضاري، أم لا بد من تضافر كلِّ المقاييس، باعتبار أن الحضارة متعددة النواحي وشأنُها في ذلك شأن الأمم، وأنّ وسائل التقدّم ليست واحدة ؟ قال ألبارْت شفايتزر، معرّفاً الحضارة : « إنها بذلُ الجهد من أجْل التقدّم » وهذا التعريف لا يخلو من غُموض ؛ لأنّ اختلاف الرأي في مفهوم التقدّم بعيد المَدى، فقد يكون ما هو تقدّم عند قوم، انحطاطاً عند آخرين ؛ فلا بدّ إذَنْ من معيار صحيح يُعتمد عليه، ويكون محلّ اتفاق عند الجميع أو عند معظم الباحثين كقاسم مشترك.

يذهب الدكتور زكي نجيب محمود إلى أنّ هذا القاسم المشترك (هو العقل). (فإليه يكون الاحتكام في قبول ما يقبله النّاس، وفي رفض ما يرفضونه ؛ وهو الفاصل بين الحقّ والباطل، ومدارُ القياس لدرجات الحضارة عنده).

(النظرة العقلانية، وهي، أن تنظر إلى الواقع كما هو، لتحوّره إذَا أردت تحويره، وأن تردّ الظواهر إلى أسبابها الطبيعية. فلا يفسّر المرض مثلاً إلَّا بالجراثيم التي أحدثته، ولَا يُعلّل سقوط المطر إلّا بظروف المناخ وهكذا.... ويترتب على هذا الربط السببي الصحيح أن نلتمس للأشياء أسبابها الطبيعية. والعقلاني ذُو نَهَم في معرفة الحقائق والطبائع والعلل، لا يَصُدُّهُ عن ذلك شيء من التحريم الذي يفرضه البدائيّون على أنفسهم، بل يوجّه فعل العقل نحو العلوم الطبيعية وأجهزتها. فإن عجز عن الإسهام في هذا الميدان، كان لزاماً أن يجعل منهاج تلك العلوم منهجاً له في أيِّ ميدان يُتاح له النظرُ فيه.

فقد تعدّدت ميادين النظر : فهنالك ميدان العلوم الاجتماعية : علم النفس، وعلم الاقتصاد، وعلم الاجتماع.

وهنالك مجالات الارتفاع بمستوى العيش : من حيث التغذية، والسكن، والتعليم، والعلاج الطبي، ووسائل الراحة، وتأمين الأفراد ضدّ كوارث الزمن.

هنالك كل هذه الميادين التي تتفاوت فيها الأمم في عصرنا ارتفاعاً وانخفاضاً، مما قد يوحي بأن أيّاً منها يصلح أن يكون أداة لقياس التقدم والتخلّف، إلّا أنها جميعاً تلتقي في نقطة واحدة، هي النظرة العقليّة بمنهاج العلم إلى كلّ أوجه الحياة)[1]. ولا شكّ أنّ من يرى بُعْد المسافات التي تفصل في مستوى الحياة بين شعوب عجزتْ أن تؤمِّن ضرورات عيشها، فأخذت تتسلّى عن عجزها بأمجادها، وشعوبٍ جعلتها مهارتُها في العلوم الحديثة، تتطلّع إلى المزيد من الرقيّ، وتوفير وسائل الرفاهة والتقدّم، فتجِدُّ في حاضرها لتبني مستقبلها، إنّ من يَرى بُعْد المسافات بين البلاد المصنّعة، والبلاد المتخلّفة، يَذهله البون الشاسع عن حقيقة، وهي : أنّ الإنسان لا يعيش بالمادّة وحدها، وأنّه مهما ارتفع المستوى في حياته الماديّة، فلن يُطفئ ذلك ظمأه الرّوحي : والنمط الغربي من التفكير نراه اليوم أسقط من حسابه أو كاد هذا الجانبَ الإنساني الأصيل، فاعتبَرَ البحث عمّا وراء الطبيعة جرياً وراء السّراب، وعائقاً عن التقدُّم.

نظرتنا الثنائيـة :

ولعلّ كاتبنا المعاصر ممّن تأثّر بهذه الوجهة حين قال : (التقدّم الحضاري يقتضي حتماً ألّا نجعل الماضي مقياساً للحاضر، وكيف نجعله المقياس، إذا كان هذا الحاضر أفضل منه بحكم فكرة التقدّم نفسها ؟. النظر إلى الماضي هو نظرٌ إلى الوراء، على حين أنّ التقدّم يقتضي أنْ نُوجّه النّظر إلى أمام ! والانحصارُ في الماضي هو انحصار في نمط واحد من

---

(١) زكي نجيب محمود : ثقافتنا في مواجهة العصر : ٢٠٢ ـ ٢٠٣ (ط. دار الشروق ١٩٧٦.

أنماط الحضارة ؛ مع أنّ التقدّم يحتّم علينا الخروج من نمط أضيق نطاقاً إلى نمط أوسعَ أفقاً، وأرحبَ إطاراً)[1].

إنّ هذه الدّعوة المتحمّسة من الكاتب إلى التحضّر بحضارة العصر في أخصّ مميّزاتها، وهي العلوم التجريبيّة، وتحويل النظرة في الحياة إلى علميّة موضوعيّة، لا نعارضها، بل نحثّ عليها وندعو إليها، لولا ما انطوت عليه من آراء لا نؤيّدها، لأنّها لا تخدم الحقيقة. ومن ذلك إلغاءُ الماضي في مقياس التقدّم، واعتبارُ الحاضر بكل ما فيه من غثّ وثمين أفضلَ منه على الإطلاق، وهو تعميم تنبو عنه الدّقة ؛ لأنّ هذا المعيار الذي يقيسُ به التقدّمَ والتخلّف لم يكن نابعاً من ذواتنا، ولم تَتّخِذ فيه الأشياءُ نِسَبَها الصَّحيحة.

فالسبيل الذي يوصلنا إلى أن نأخذ مكانَنا في هذا العالم المعاصر ـ حسب رأيه ـ أن نجعل العقل إمامنا، والعلمَ الحديث هدفَنا، وأن نشحذ عزيمتنا، حتى نحطِّم أسوار السجن الذي حبسْنا فيه أنفُسَنا : سجنَ ماضينا، ونظرتنا الماورائيّة، ونظرتنا الثنائيّة في تفسير العلاقة بين الأشياء. إنّه يوضّح هذه الرؤية في كتابه : (تجديد الفكر العربي) فيقول : (.... وإنّي لانظر، فأرى سلسلة الخصائص التي يُراد لها أن تُقتَلَع جذورُها من تربتنا الثقافية، قبْل أن يتاح لنا استنبات زرع جديد ؛ إنّما تترابط حلقاتُها.... وأُولى هذه الحلقات وأعمقها جذوراً، وأكثرها فروعاً، هي نظرة العربيّ إلى العلاقة بين الأرض والسّماء، بين المخلوق والخالق، بين الواقع والمثال، بين الدُّنيا والآخرة، بين المعقول والمنقول....

هذه كلها ظلال من موقف واحد، وحقيقة واحدة. ونظرةُ العربي في صميمها : هي أن السّماء قد أمَرتْ، وعلى الأرض أن تُطيع، وأنْ الخالق قد خطّط، وعلى المخلوق أن يَقنع بالقسمة والنصيب، وأنّ المثال سرمدي ثابت، وعلى الواقع أن يقسر نفسَه على بلوغه، وأنّه إذَا ما تعارضت الآخرة والدنيا، كانت الآخرة أحق بالاختيار، وأنّ المنقول إذا تناقض مع المعقول، ضحّينا بالمعقول، ليسلَمَ المنقول.

---

(١) المصدر السابق : ٢٠١.

تلك هي وقفة العربي في صميمها. لك أن تقول : إنها وقفة أفلاطونية أكثر منها أرسطية، إذْ هي وقفة من يجعل الثباتَ للسماء، والفناءَ للأرض ! ففي السماء الأصول، وعلى الأرض الأشباحُ والظّلال. إنها ثُنائيّة حادّة بين الغيب والشهادة، بين الروح والجسد، بين الإنسان والله. والعلاقة بين الطرفين ليست هي التبادل بالأخذ والعطاء، بل هي علاقة الحاكم بالمحكوم. والحاكِمُ هنا مُطلَق السُّلطان، والمحكوم معدومُ الحَوْل والحيلة ؛ ولا يغيِّر من الصورة أن يكون الحاكم المطلَق عادلاً، وأن يكون المحكوم ملاقياً جزاءَه وِفاقاً، إذا ما يزال طريقُ السير في اتّجاه واحد، يهبط الأمرُ من أعلى، فيصدع به الأسفل مهما تكن ظروف الواقع وتفصيلاته التي تحيط بهذا الأسفل، إذ هو يؤدّي الفعلَ على الأرض بكل خشونةِ سطحِها وحزونته سهلاً ووعراً. تلك هي الحلقة الأولى من السّلسلة تلزم عنها حلقة ثانية، وهي : أن قوانين الأشياء والظواهر في الطبيعة قد تطرد أوْ لا تطرد بحسب ما يشاء لها الحكم السماوي المطلَق. فليقل العلم ما أراد أن يقوله في أشياءِ الطبيعة وظواهرها ـ بما في ذلك الإنسان ـ وسيظلّ الحكم الحاسم للمشيئة الإلهيّة آخر الأمر... إنّه في ظلّ ثقافة كهذه تُبتَر الروابط بين الأسباب ومسبباتها، بين الوسائل وغاياتها، فتكون العلاقة مبتورة بين الغرس والثّمر)[1].

هذا ما يؤاخذنا عليه كاتبنا المعاصر ؛ وهو بَيْن الإعجاب والثورة. الإعجابُ بما حققته حضارة العصر، والثورةُ على أوضاعنا المزريّة ونظرتِنا الشّاردة.

والحقّ أنّ ما أنتجته العلوم الحديثة وتقنياتُها من مبتكَرات ومخترعات كشفت النّقاب، ورفعت الحجاب عن عبقريّة الفكر الذي صنع حضارة نابضة بالحياة والحركة، يُشرق في جنباتها ضياءُ العلم، وتُدفئها حرارةُ العمل، ويزيّنها بريق الرّخاء المادّي، ووسائل الترفيه والتسلية.

ومن ذا الذي لا يبهره هذا التقدّم التقني الذي جسّد القوانين العلميّة النظريّة في أجهزة يُديرها الإنسان أو تدير نفسَها، فحقّقتْ أحلامَ الإنسان

---

(١) زكي نجيب محمود : تجديد الفكر العربي : ٢٩٤ ـ ٢٩٦ (ط. دار الشروق ١٩٧٣).

وأمانيه، وما لم يكن يحلم به أو يتصورن في هذا العصر الذي أُطلِق عليه : « عصر اختراق الفضاء » ؟.

وكأنّي بكاتبنا القدير، وهو يدعونا إلى أن نتشرّب روح عصرنا، حتّى تجري عُصارتُه في شرايينا، غير واثق من بلوغنا لهذا الهدف، ما دامت تجُول في أعماقنا رواسب قرون خلتْ، ونَصِفُ ماضينا بالعصمة والكمال، متمنّين لو كرَّت الأيام راجعة لتعيد إلى الناس ما كان للأسلاف من سلوك ورؤية ! فالتفاتُنا إلى هذا الماضي يعوقنا ـ حسب رأيه ـ عن كلّ تقدّم، ويُبعدنا عن عصرنا بُعْدَ ما بيْنَ السطح والأعماق، ويَحُول بيننا وبين الغوْص فيه، والتكيُّف به، ومسايرة ركبه.

وإذا أردنا الاعتراف بالحقيقة، فإنّنا نعيش اليوم في غربة عن ماضينا وحاضرنا معاً ؛ إذ أنّنا نُعاني عقدة الضعيف الذي يحسّ أنَّ النّاس لا يعيرونه اهتماماً، ولا يُولُونه ما يستحقّ من تقدير واحترام.

ومن شأن المغلوب أن يأخذ ثقافته من مبادرات الآخرين، فينظرَ بمنظارهم، وينقُد نفسه وغيره بنقدهم ؛ وهي وضعيّة استلاب كلّي، تزيد في غرور خصومناالذين ما فتئوا يضاعفون فينا الشعور بالنقص، ويُنكرون فضل حضارتنا على الإنسانية، ليحجبوا عنّا ذاتيتنا وأصالتنا، لنعيش منبتّين، أو يشغلونا بالدفاع عن أنفسنا، وردّ الاتّهامات وتصحيح المفاهيم.

شخصيتنا الحضارية :

ومن دسائسهم فيما كتبوه عن الإسلام وحضارته : أنّ حضارة الإسلام ليست إلّا امتداداً لحضارات الشعوب التي انْطَوَتْ تحتَ سُلطة المسلمين بقوّة السيف، ولم ينشئها الإسلام، ولم تتميز بشيء عن الحضارات السّابقة، حتى التشريع الإسلامي لم يكن في نظرهم إلّا نسخة طبق الأُصل من الفقه الروماني الذي كان منتشراً بالشام. ويقولون عن العالم المسيحي الغربي : (إنه ثَمرة المسيحية. ولو نجحت الحروب الصليبيّة، لبَسَط ظلّه في أراضي آسيا ذات الأهميّة البالغة !). وقد ظهر حديثاً للكاتب المجري آرثر كوستلر كتاب (السائرون المتكلّمون وهم نائمون)، ويعني عباقرة العلماء وكبار

المخترعين ؛ دَرس فيه حياةَ هؤلاء في التاريخ الغربي، وحاول التعرّف على الميزات العقلية لهذه الشخصيات الفذّة، ولا نجد في كتابه ما يشير إلى حياة المخترعين العرب الذين لمعت أسماؤهم في سماء العلم، ومهّدوا السبيل لغيرهم، وكان لهم فضل السبق والتأسيس مثل الخوارزمي واضع علم الجبر، ومؤلف كتاب (الجبر والمقابلة) الذي تُرجم إلى اللّغات الأوروبيّة، واعتَمد عليه الأوروبيون لعدة قرون ؛ ومثل الرّازي مكتشف الحُميّات وأمراض الأطفال، وابن سينا مكتشف الطفيليات، وواضع كتاب « القانون » الجامع لشئون الطب والصيْدلة ؛ وابن الهيثم واضع المؤلفات التي تبحث في الرؤية المستقيمة، والمنعكسة، والمنعطفة، وفي الضوء والمرايا، والعدسيات والبصريات، والمبتكِر لطريقة إيجاد البُعد البُؤْري، وغيرهم ممن حملوا مشاعل النور ومصابيح الحضارة في عصر تسوده الهمجية والوحشية، ويطبّق عليه ظلام الجهل. ولكن الكثيرين من مفكّري الغرب يدينون للحضارة الإسرائيلية واليونانية والرومانية في حضارتهم الحديثة، ولا يعترفون بفضل للحضارة العربية تعصُّباً وحقداً، ولكنّ المنصفين من مفكّري الغرب لا يجدون غضاضة في الاعتراف بفضل الحضارة الإسلامية، يقول بريفليف في كتابه (البحث العلمي) : (إنّ محاولة إسناد الطريقة التجريبية لغير العرب ليست إلّا تصحيفاً في فهم المصدر الحقيقي للحضارة الأوروبية). ويقول لوبون في كتابه (حضارة العرب) : (إنّ أوروبا مدينة للعرب بحضارتها، وقد ظلّت كتب العرب المترجمة إلى اللّغات الأوروبية، ولا سيما الكتب العلميّة مصدراً وحيداً للتدريس في جامعات أوروبا خمسة قرون).

ويقول هوناربارخ(*) في مبحث تحت عنوان : (تأثير الفكر الإسلامي في أوروبا) : خلال زيارتي للمكسيك سنة ١٩٦٥ تأملتُ الفنّ المعماري المعرّب المدجّن والمعروف بـ (Merdéjon) والذي انتقل من إسبانيا إلى أمريكا اللّاتينيّة، ووجدتُ الأثر العربيّ المتمثّل في الفندق والقيصريّة، فخيِّل إليَّ وأنا أسير بين تلك العمارات ذات الطابع الإسلاميّ، بأنّني في شمال إفريقيا العربية المسلمة).

(*) هو رئيس معهد الدراسات الإسلامية ومعهد اللغات الشرقية بجامعة بون.

ويقول : أمّا العلوم التجريبيّة التي انتشرت في أوروبا فقد كان البدء فيها للعرب، وتلك حقيقة لا تقبل الإنكار[1].

وما الذي يخيف الكاتب من استلهام ماضينا، وفيه ملامح شخصيتنا العقائديّة والحضاريّة والنضاليّة ؟ فشخصيتُنا العقائديّة تعصمنا من الانحرافات والبدع والتيّارات الفلسفيّة الهدّامة، وشخصيتُنا الحضاريّة تقينا شرّ الهمجيّة والتخلّف والرجعيّة. وشخصيتُنا النّضاليّة تحفظنا من الخذلان والوهن، وتقوّي عزمنا على مقاومة الأباطيل والمحن.

إنّ الأمّة الإسلاميّة في مسيرتها اليوم لا بدّ أن يكون لها محور ترتكز عليه، وترجع إليه محورٌ نابع من شخصيّتها التاريخيّة، وذاتيّتها العقائديّة، حتّى تأمن الزيغ والعثار في تطوّرها.

فهلّا قال كاتبنا المفكّر مثلاً : يجب أن نعيد كتابة تاريخنا وقراءته، ونعيد النظر في تراثنا، لنقدّمه من جديد في أثواب قشيبة، وبشكل يكون أكثر ملاءمة للغة العصر، وذهنيّة المسلم المعاصر، واحتياجاته المتطوّرة، دون أن نمسّ بجوهر الأحكام الإسلامية الثابتة، ومبادئه التي لا تقبل التغيير ! والإسلام يدعو إلى التسليم لخالق الكون، العالم بطبيعة التكوين الإنساني، والاحتياجات المتجدّدة لهذا التكوين، وإلى الابتعاد عن الأهواء، والتمسّك بالحقّ، ويحذّر من وضع الأشياء في غير مواضعها، كإطلاق اسم الرجعيّة ونحوها على الالتزام بالحقيقة. ثمّ ما هدف الكاتب من ثورته على التمسّك بثنائيّة الغيب والشّهادة، والروح والجسد، والخالق والإنسان، والآخرة والدنيا والمعقول والمنقول، وغير ذلك من الثنائيّات التي بيّن شدّة تأثيرها في نفس العربيّ، متحدّياً بذلك كلّ شعور ديني بجلال الله وقدسيّته ؟

إنّ هذه الثنائيّة التي كان يدين بها علماء الإسلام التجريبيّون لم تمنع أن يكونوا هم المؤسّسون للمنهج التجريبي، والمنطق الاستقرائي الذي سارت عليه الحضارة الأوروبيّة واعتمدته في بحوثها وكشوفها.

وهل سبقهم أحد في نظريّات علم الضوء، وقياس محيط الكرة

---

(١) الملتقى السادس للفكر الإسلامي ١٩٧٢ : ٣٦ ـ ٣٧ (ط. الجزائر).

الأرضيّة، وضبط نقط المواقع بواسطة خطوط الطول والعرض، وإقامة الصناعات، واختراع الآلات، وغير ذلك بشهادة الباحثين النزهاء من الغربيين الذين يقرّون بأنّ العرب هم الذي أسّسوا البحث العلمي القائم على الملاحظة والتجربة.

فالبيروني يقرّر أنّ للطبيعة قوانين ثابتة لا تخطىء، حتّى أنّه لا يفسّر ظهور المخلوقات الشّاذة بأنّه غلط الطبيعة كما يزعم البعض، بل إنّه ناشئ عن خروج المادّة عن حدّ الاعتدال في المقدار، ولا يُصدِّق ما يعلّل بأسباب غير منطقيّة، أو بأسباب غير واضحة، وكان مع ذلك سنيّاً مستنيراً. وهو لعلوّ كعبه في العلم، وسعة فكره، وتنوّع معارفه، وتفطنه للحدود التي لا يصحّ أن تتجاوزها أحكام التجربة الإنسانية، المعتمَدة على المشاهدة، ويتمسّك بحقائق الدّين، فلا يعجبه التأويل الهازل للقرآن، ولا الإنكار المتحذلق من غير برهان لما يُروَى من غريب الأفكار[1].

وجُلّ العلماء المسلمين الذين نبغوا في الرياضيّات أو الفلك أو الفيزياء أو العلوم الطبيعيّة والصناعيّة كان الجانب الروحي فيهم قويّاً منيعاً، وكانوا يتعمّقون في فهم حكمة الخالق وأفعال الطبيعة. فلم تعقهم بحوثهم التجريبيّة عن بحوثهم الدّينيّة رغم اختلاف المنهج، ولم يكونوا مادّيين أو حسيّين أو ملاحدة، لأنّ الصّورة التي قدّمها القرآن الكريم للإنسان ـ وآمنوا بها ـ يرتبط فيها كيانه الرّوحي بجذوره الترابيّة في مثل قوله تعالى : « هو أنشأكم من الأرض واستعمَركم فيها » (هود : ٦٠)، وهي صورة يلتحم فيها المادّي بالروحي التحاماً تامّاً.

وانه لأمر عظيم حقـاً أن يُحيي القرآن في الإنسان شعوراً عميقاً متجدّداً بما بينه وبين الكون من وشائج، وأن يوقظ فيه تلك الرّوح التجريبيّة في عصرٍ كان يرفض عالَم المرئيّات بوصفه قليل الجدوى في بحث الإنسان وراءَ الخالق[2].

فالثنائيّة الحادّة التي يتبرّم بها الكاتب ليست علّة إخفاقنا وتأخّرنا !

---

(١) تاريخ الفلسفة في الإسلام (ت) أبو ريدة : ٢٠٤ (ط. القاهرة ١٩٤٨).

(٢) محمد اقبال : التحديد الديني في التفكير الإسلامي (ت) عباس محمود : ٦١ (ط. مصر ١٩٥٥).

وهل نحن في حرب مع التخلّف أو مع السّماء ؟ وهل إنّ تقدّمنا رهين بتمرّدنا عليها ؟! وهل يجوز أن نلقي أسباب عجزنا وتبِعةَ تخلّفنا على الله ؟

إن ما أشار إليه من عقليّة القسمة والنصيب، وما ينجرّ عنها من تواكل وتقاعس، قد ولّى عهدها بفضل الحركات الإسلامية الإصلاحيّة التي كان من أبرز روادها محمّد بن عبد الوهاب وجمال الدّين الأفغاني ومحمّد عبده، والتي تلتها يقظة العالم الإسلامي ؛ فلم يبق لبِدَع الاعتقادات وباطل العادات وساذج الخرافات من أثَر، إلّا في بيئات لا يصحّ أن تكون قاعدة للتعميم والحكم المطلق على العالم الإسلامي قاطبة. وأخطرُ من ذلك كلّه في هذا العصر المذهبُ الحضاري المادّي الذي يغزو عقول الشباب باسم التّحرّر، ويمحق القيم الدّينيّة باسم التطوّر، ويعتبر الدّين عرقلةً لكلّ تقدّم، لأنّ الإنسان ـ في رأيهم ـ خاضع دائماً للضرورات الماديّة، وليس وراء المادّة من حاجة أو مطلب. والدّينُ والأخلاقُ والمُثُل ليس لها تصوّر عُلويّ، ولكنّها وسيلة لحفظ المجتمع.

فإذا كنّا في عزلة أو قطيعة عن المصدر الأعظم للوجود، وتَعلّقْنا بالأسباب الطبيعيّة وحدَها، وآمنّا بتأثيرها دون سواها، فقد جعلّنا منها إلَهاً آخر، وأنكرنا وجود قوّة عُليًا قادرة على تعطيل خصائص الأشياء. والإنسان كما قال الفيلسوف الألماني(كانت) : حلقة اتّصال بين عالَمين. ورغم شعوره بقدرته، فهو جزء من الكون، فاعلّ ومنفعل، ومرتبط بما تحتَه بحُكْم طبيعته الماديّة، وبما فوقَه بحُكْم ما في كيانه من نفخَة علويّة. وإذا حصل عِداءٌ شديد خلال القرون الوسطى في أوروبا بين الحضارة والدّين، فمرجعه إلى ما كان يسود أوروبا من نظام إقطاعي جائر، ومن سلطة رجال الدّين الغاشمة.

وفي القرن الخامس عشر تململ المجتمع الأوروبي من سلطان هذين العاملين، وتفكّكت أواصر الوحدة الكاثوليكية، واتّسعت دائرة المعارف، وتعدّدت الاكتشافات، وأضحى الإنسان محور النماذج والموضوعات.

أمّا الإسلام الذي نشأت في ظلّه حضارة راسخة البناء، فلا مبرّر لاتّهامه، وهو الذي يدعو إلى تعمير الدّنيا، ورفع مُستوى الحياة، وخدمة

الإنسانيّة، والانتفاع بما سخّر الله لها في الكون، على أن يكون سبحانه من وراء القصد.

ولقد أبان الواقع عن أخطاء أتاتورك وتصوّراته التائهة حين استقرّ في ذهنه باطلاً : أنّ الإسلام هو الذي أقعد تركيا عن بلوغ نهضة أوروبا وتطوّرها، فأسفرت ثورته عن آثار ونتائج ظهرت أعراضها في علمانيّة دولة تركيا، وانفصام أمّة عن شخصيّتها الثقافيّة التاريخيّة، واستبدال الحروف العربيّة بحروف لاتينيّة، جعل الشّباب يشعر بغربة عن تراثه العلمي والحضاري، رغم ما كان لتركيا من نضال في سبيل الإسلام، وما كان لها من فضل في صدّ الحملات الصليبيّة على كثير من البلاد الإسلاميّة.

وإذا كان من الضّروري لتركيا أن تكون صِلاتُها مع العالَم الغربيّ أمتن وأعمق من صلات العالم الإسلامي به، لموقعها وبيئتها ومصالحها، فليس من المثاليّة في شيء أن تتغرّب، ولها في الحضارة الشرقيّة قَدَم راسخة، وقد كشفت الأحداث أنّ الدّول الغربيّة لم تُؤازرها في الملمّات، ولم تفتح في وجهها أبواب التقدّم التقني والازدهار الاقتصادي والصناعي، كما فَتحتْها لأصغر الدّول الأوروبيّة المسيحيّة.

وكم من متحاملين على الإسلام لسوء حال المسلمين قد اختلط عليهم الأمر، ولم يميّزوا بين جوهره النقيّ وبين ما اندسّ فيه من بدع ومنكرات، ومَنشأ هذا الخلط سوءُ الفهم كما يقول الشاعر :

وكم من عائبٍ قولاً صحيحاً ... وآفَتُهُ من الفهم السّقيم

وكما يقول الآخر :

ومن يَكُ ذَا فَمٍ مُرٍّ مَريضٍ ... يجِدْ مُرّاً بِهِ المَاءَ الزُّلَالا.

ومن الآراء الهدّامة الشّائعة في هذا العصر : أنّ رقيّنا الحضاري في أن نعيش عصرنا، ونلغي كلّ علاقة بين الدّين والحياة العمليّة، فرديّة كانت أم اجتماعيّة.

قال الله تعالى : « وابتَغ فيما آتاك اللهُ الدّارَ الآخرةَ، ولا تَنْسَ نَصيبَك مِن الدّنيا، وأحْسِنْ كما أحسنَ اللهُ إليْكَ، ولا تَبْغِ الفسادَ في الأرض. إنّ الله

لا يُحِبُّ المُفْسِدين » (القصص : ٧٧) وهل نجح الإسلام في ثورته الموفّقة إلّا بدعوته إلى رفض الأوضاع القائمة، وإحلال نظرة جديدة إلى الإنسان والكون مَحلَّ النظرة القديمة، فجَمَع بين ديناميّة الفعل وديناميّة الأخلاق، واهتمّ بحركة الواقع وحركة التاريخ، وكانت حضارتُه شاملة تغطّي وجه الحياة بكلّ نواحيها، ولكنّ المسلمين الذين لم يتخلّصوا من ربقة العبوديّة الفكريّة، واستولَتْ عليهم حضارة الغرب وامتلكت نفوسهم، حتّى أصبحوا لا يُبصرون إلّا بأعينٍ غربيّة، ولا يسلكون إلّا الطرق التي مهّدها لهم الغرب، هم الذين استقرّ في سويداء قلوبهم أنّ الحقّ ما يعدّه الغرب حقّاً، والباطل ما يعدّه باطلاً من تصوّرات وأفكار ومدنيّة وأخلاق، وأنّ مقياس الغرب في كلّ شيء هو المقياس الصحيح عندهم.

كان الرومان يقسّمون العالَم إلى روم أحرار وبرابرة همّج. وشبيهٌ بهذا التقسيم العنصري العرقي تصنيفُ المجتمعات المعاصرة تصنيفاً منبثقاً عن الاثنوغرافيّة التي جعلت كلّ المجتمعات الأوروبيّة تحت عنوان الحركيّة والمدنية، وجلّ المجتمعات الإفريقية والآسيويّة بما فيها المجتمعات الإسلاميّة تحت عنوان التخلف والرجعيّة ؛ وهي أسطورة تتناسى أن البشر مؤهّلون إلى كلّ أنواع الحضارات، وأنّ التحرّك أو عدم التحرّك، والتقدّميّة أو الرجعيّة نظرة نسبيّة ترجع في الحقيقة إلى انفجارات القرن العشرين، لا إلى وجود ذهنيّة الثنائيّات عند قوم والتخلّص منها عند آخرين، كما يرى الكاتب، موهماً بأنّها متناقضة ولا تناقض في الحقيقة.

من الواقع والمثال :

ولنذكر مثلاً ثُنائيّة الواقع والمثال، فكثيراً ما يلتبس على الباحثين الواقع إزاء مثاليّة الإسلام، فيجعلون الجمع بينهما مستحيلاً في التطبيق، كالجمع بين متناقضين. وهذا يكون صحيحاً لو كان موضوعهما واحداً، أمّا وهو مختلف في الفكر الإسلامي فلا منافاة.

فالمثاليّة محلّها القلب، وتتعلّق بالعقيدة وبالمقاصد والغايات. فهي في مجال التصوّر : إخلاصُ العمل لله ابتغاء رضاه، ونشدانُ الكمال في الأعمال، حتّى المباحات التي يأتيها المسلم قد ترتفع إلى مرتبة الطّاعات

والعبادات إذا صحبها حسنُ القصد، وأدناه أن يلاحِظ أنّ الله أباحها له، ولو أنه حرّمها عليه لتجنّبها.

وأما الواقعيّة فتتعلّق بالأعمال الخيّرة التي يقوم بها المسلم بنيّة مثاليّة، وإنْ هو قصّر في التطبيق أثناء القيام بها، لعواملَ مختلفة، فإنّ الإسلام دين اليسر والفطرة، أخذ بعين الاعتبار واقع حال الضعف البشري، وواقعَ النّفس التي زُيِّن لها حبُّ الشهوات والمخالفات، والنزوع إلى المغامرات، وذلك بفتح باب الغفران، كي يتخلّص المذنب بالتوبة من وخزات الآثام، ويلقي عن كاهله أثقال الأوزار، ويستأنف السير في طريق الهدى، ويجدّد العهد مع الله كما قال وهو أصدق القائلين :

« وإنّي لغفّارٌ لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثُمَّ اهتدى » (طه : ٨٠).

ومن هنا جاء التكليف في حدود الطاقة البشريّة، ورُفعت المسؤوليّة في الأحوال التي لا يملك الإنسان دفعَها : كالخطأ والنسيان والإكراه، كما رُوعي في أساليب الإرشاد والتربية، وفي أصول المحاسبة والجزاء واقعُ أحوال المجتمعات الانسانيّة، وتفاوتُ أفرادها في مداركهم، واستعدادهم وخصائصهم[١].

روي عن أنس رضي الله عنه قال : دخل النّبي ﷺ المسجد، فاذا حبلٌ ممدود بين ساريتين ـ فقال ما هذا الحبل ؟ قالوا : هذا حبل لزينب، فإذا فَترتْ تعلّقتْ به. فقال ﷺ : حُلّوه، ليصل أحدكم نشاطه، فإذا فتر فليرقد. (رواه الشيخان).

الانفعاليّة والموضوعية :

ولعل الكاتب ـ وهو يُحكِّم وجهة نظره ـ كان تحت تأثير حالة نفسيّة من الأسى، لِمَا آل إليه أمرنا في عصر يزخر بالعلم والصناعة، ونحن مازلنا نتلمّس الطّريق بحثاً عن أساليب جديدة للحياة، فلم ينفذ إلى صميم المشكلة، ولم يهتد إلى موطن الدّاء، وشعر كأنّه لم يتجاوز حدود نفسه،

---

(١) عبد الرحمن حسن الميداني : أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها : ١٩٠ ـ ١٩١، الدار العربية للطباعة والنشر.

فقال محترزاً : « قد أكون على غير هدى فيما أقول. ولكنّني ـ على الأقل ـ أصدق القول مع نفسي حين أقرّر ما أراه أمامي واضحاً، وهو : إمّا أن نعيش عصرنا بكلّ ما يقتضيه من أخلاق، وإمّا أن نكون قادرين على تحويره، بحيث نُعيد صياغته على مثالنا. أمّا أنْ نتمرّد عليه، ثمّ نعجز عن تحوير أيّ شيء فيه، فذلك حكمٌ على أنفسنا بموتٍ حضاري لا يعلم إلّا علّام الغيوب متى تكون قيامته ؟»[1].

وأبسطُ ما يقال في مناقشة هذا الرأي : هل الحضارة الغربية المعاصرة مثاليّة رائدة مكتملة العناصر في كلّ شيء، وليس لنا من النماذج سواها، حتّى نعيشها بمحاسنها ومساويها ؟ أو هو التشبُّه بالأمم الغالبة في عاداتها ومظاهر عيشها وإنْ كان يصطدم بأصول الدّين والأخلاق والتقاليد عندنا، فنسلك مسالكهم حتّى في أوقات لهوهم وفراغهم ؟

والزعامةُ في ميدان العلم والعمل مكفولة اليوم لمن يتقدّم بالدّنيا إلى الأمام، لا لمن يجذبها إلى الوراء، والغرب هو الذي غمر الجوّ العالمي بسيطرته الفكريّة، وغلَبته الماديّة، وتمكّنه العلمي، واستيلائه السياسي، فلْنصغ إلى ما يهتف به بعض مفكّريهم على الأقل، من تحذيرهم أبناءهم من الأخطار التي تكمُن وراء هذه الحضارة الماديّة الصّاخبة. فيقول أرنولد توينبي (Arnold Toynbee) : (إنّ المشاكل التي أحدقت بالحضارات الأخرى وقضت عليها، قد وصلت إلى ذروتها في العالَم الذي نعيش فيه، وصار مجتمعنا الغربي متورّطاً في كثير من الأخطاء والكوارث التي قضت على حضارات كثيرة يُعَدّ تاريخها من بدايته إلى نهايته بِمَثَابة كتاب مفتوح)[2].

فنحن إذ نقبل من العصر تقنيّاته، وندعو أبناء الجيل للإقبال على العلوم التقنيّة بكلّ ما أوتوا من مواهب وطاقات، فإنّ ذلك لا يَعني دائماً الدّعوة إلى تعويض قيَم قديمة بقيم جديدة، إذ لا يصحّ أن يكون المقياس الحضاري في هذا العصر أنْ نقبل على كلّ جديد، لأنّه جديد، وأن نُلغي

---

(١) زكي نجيب محمود : ثقافتنا في مواجهة العصر : ٢٠٣.

(٢) أرنولد توينبي : الحضارة في الميزان : (ت) محمود أمين الشريف : ٣٧ (ط. الحلبي ـ القاهرة).

كلّ قديم لأنّه قديم، وإنّما المقياس الصحيح في صحّة التمييز لكلّ ممتاز، والاختيار لكلّ ما يستحقّ أنْ يُختار. فإذا تعلّمنا عن الغرب مرغَمِين متّبِعين، فلنتعلّم الآن مختارين مبتدعين ؛ وقد غابت عن كاتبنا بعض الحقائق، لأنّ الرؤية قد لا تتّضح في الضباب والغبار كما قال العقاد : (إنّ عصر الجمود في بلاد العالم الإسلامي قد خلّف وراءه كثيراً من الأنقاض المعطّلة، والأركان المتداعية. ولا بدّ من هدم قبل كلّ بناء، ولا بدّ من غبار وسقوط حول كلّ مهدوم، ولا بدّ من تعثُّر قبل كلّ استقامة. فإذا انكشف الغبار واتّضحت القواعد الباقية التي يرتفع البناء الجديد على أساسها، زال التشاؤم وبطل التطيّر، وتراءى للبصائر والأبصار معالم الثقة والاطمئنان[1].

ونرجو أن تكون القواعد التي سيُبنى عليها صرحُ مستقبلنا قد انقشع عنها غبارُ الهدم وأنقاضُه أمام المفكّر المسلم، فتقشّعت غيومُ التشاؤم، واتضحتْ له الرؤية، وعدّل من آرائه ومواقفه إزاء حضارة العصر، فلم تعدْ تستبدّ به فكرة التقدّميّة وحدها دون سواها لمواكبة موجات الحضارة والتطوّر كما رأينا ذلك من كاتبنا الكبير في البحث الذي قدّمه سنة ١٣٩٤ هـ بالجزائر للملتقى الثامن للفكر الإسلامي، والذي جاء فيه : (في ديننا الحنيف قيم أخلاقيّة محدّدة المعالم والأهداف، أملتها علينا الرسالة الإسلامية، ولم تكن من وضعنا واختيارنا. فليس من حقّنا أن ننسخ بعضها، أو أن نضيف إليها ما يُناقضها تحت ضغوط حبّ التطوّر.

وهذه القيم لا يجوز أن يحملها مسلم دون آخر، أو أن تعمل بها شعوب إسلاميّة دون أخرى. ومعنى ذلك أنّ المبادئ الأخلاقيّة الإسلاميّة ليست كغيرها من القوانين وليدة الحياة الواقعيّة..... فلا يكون المعوَّل في السلوك الإنساني الصحيح على التجارب وحدها، إذ ليست حدود الصّواب والخطأ من صنع الإنسان، ولكنّها حدود شاءها الله للإنسان[2].

ويؤيّد هذا الرّأي، أنّ الإسلام دين للآخرة وللدّنيا معاً ؛ اختلف عن غيره من الأديان التي تغلغلت في مادّيات الحياة، ثمّ أضْفتْ عليها مسحة

---

(١) عباس محمود العقاد : أثر العرب في الحضارة الأوروبية : ١٦٠، (ط. مصر ١٩٤٦).

(٢) الملتقى الثامن للفكر الإسلامي بالجزائر سنة ١٣٩٤ هـ ١١٦٢/٣ (ط. الجزائر).

من العبادة أو الفلسفة السّطحيّة، أو التي تغلغلت في الروحانيّات التجريديّة فانفصلت عن الحياة الواقعيّة، فكان ديناً حيّاً أكثر التصاقاً بالحياة في مفهومها الحقيقي وصورتها الواقعة، وأكثر التصاقاً بالروحانيّات في تزكية النفس، وإحياء الضمائر، والتّسامي بالمشاعر، والسير بالإنسانيّة قدماً في طريق الخير والتقدّم والسلام. وتلك هي الدّعامة الأساسيّة لحضارة الإسلام.

عوامل الحضارة الإسلاميّة ومميّزاتها :

فالإسلام دينُ قِيَم وضوابطَ سلوكيّة ومعنويّة، بعضها يتّصل بحياة الأفراد، وبعضها الآخر بحياة الجماعات، فهو لِمَا اتّصف به من جَمْع بين المادّة والرّوح، ولِمَا أعطاه بِقِيَمه وضوابطه من نمط مميّز في أسلوب الحياة، والتّفكير ؛ كان ديناً حضاريّاً، وليس دين لاهوت وطقوس كما تعرِّف الموسوعات الأجنبية كلمةَ (دين)، لأنّه أنشأ لوناً من الحضارة عُرف باسمه وهو (الحضارة الإسلاميّة). ومميّزاتها أنّها متكاملة شاملة تنبع من وحي رسالة سماويّة خُتمت بها رسالات السّماء. فهي لا تقتصر على تراثنا الروحي والتاريخي والفلسفي واللّغوي والأدبي والفنّي، ولا على مجرّد النُّظم والنّظريّات العلميّة والمخترعات، وإن كانت من المظاهر الهامّة للحضارة، ولكنّها تتألّف من كلّ ذلك مجتمعاً، لتشمَلَ كلّ الجوانب المادّية والرّوحيّة التي شملتْها رسالةُ الإسلام، حتّى أصبح هناك قدْر حضاري مشترَك بين جميع المسلمين في مختلف أقطارهم، لم يتحقّق مثلُه لأيّ ديانة أخرى ذات انتشار.

وقيامُ هذا الطابع الإسلامي العامّ المميِّز للحضارة من بلاد المسلمين على اختلاف أجناسهم وألسنتهم وألوانهم يرجع إلى عواملَ كثيرة. أهمُّها :

١) ـ أنّ الإسلام بوصفه طاقة روحيّة، وثورة حقيقيّة في الفكر وفي الحياة العمليّة وفي النُّظم الاجتماعية، كان له إصلاح جذري مَسَّ كلّ الأوضاع في حياة النّاس على أساسٍ عقيدةٍ إيجابيّة دافعة، تجلّت آثارها فيما ترتكز عليه من إيمان وعمل صالح، وانتشرت على نطاق واسع لم يتحقّق لغيرها من حيث اتّساعُ الرقعة الجغرافية، وتَنَوّعُ السّلالات. فإنّه لم يكد يمضي على الإسلام قرن ونصف حتّى صار العالم الإسلامي ممتدّاً من

الأندلس في غرب أوروبا إلى الهند والتركستان والصين في شرق آسيا، ثمّ تغلغلت الدعوة الإسلاميّة إلى أقاليم أوروبا الجنوبيّة، وإلى مختلف أقطار القارّة الإفريقية.

ولمّا استقرّ المسلمون في الأندلس أنشأوا مدارس وجامعات يؤمّها طلّاب العلم من أوروبا، وينقلون ما تعلّموه إلى اللّغة اللّاتينيّة.

فالعقيدة الإسلاميّة تُمثّل في ذاتها تَصَدِّياً إيجابياً لتصحيح الديانات السماويّة التي شوَّهَهَا الزّمن فردَّتْ إليها أصالةَ الفكر التوحيديّ. وكان هذا التحدّي مصدر قوّة ودفع للفكر الإسلامي، وما اتّصل به من حضارة مادّيّة وروحيّة، استطاعت أن تحقّق وحدة لا نظير لها في الحضارات الأخرى. ورغم تباين المجتمعات الإسلاميّة، واختلاف بيئاتها الطبيعيّة، فقد استطاع الإسلام أن يسبغ طابعه المميّز على ألوان الحضارة في البلاد التي انتقل إليها، وأن يكيّف ما أخذ منها في إطاره العام، بفضل عقيدته الدّاعية إلى النظر والمعرفة، ونظامه الهادف إلى التكافؤ والوحدة.

وللعبادات في الإسلام أثرٌ في بناء حضارته، فلمعرفة أوقات الصلاة أنشأ المسلمون علمَ الميقات، واخترعوا المِزْوَلَة، ثمّ المرْمَلَة ثمّ الساعة التي انتقلت من صوْمعة الجامع إلى صومعة الكنيسة، وتولّد عن الصلاة فنٌّ بناء الجوامع ومعمارها وهندستها.

ومن أجل الحجّ استنبطوا للأسطول البُوصَلة أو بيت الإبرة، والاسْتِرْلَابْ الذي تُضبط به نُقط المواقع بواسطة خطوط الطُّول والعرض، وخطّطوا الخرائط، ووضعوا علم المِلاحة وألّفوا فيه، كمّا ألّفوا كتب المسالك والممالك لمعرفة الطرق ومحطّاتها، وكتبَ الرحلات التي بلغت منتهى الجودة في دقّة الوصف والملاحظة، وبنوا القناطر والجسور والخانات[١].

٢) ـ إنّ العوامل الجغرافيّة كالعوامل الاقتصاديّة، وإنْ لم تَخلق الحضارة، لكنّها تُهيىء أسبابها وسبيل ازدهارها، ومن هذه العوامل وقوعُ الأمّة على الطريق الرّئيسية، فتتكوَّن لها في عواصمها بحكم الاتّصال، وتبادل

---

(١) عثمان الكعاك : ملتقى الفكر الإسلامي بالجزائر سنة ١٣٩٢ هـ (٣٠٧/١ ط. الجزائر).

البضائع والمنافع حضارات في فترات معيّنة من التاريخ، مثل أثينا في القرن الخامس قبل الميلاد، وبغداد في القرن التاسع المسيحي، وفلورنسة في القرن الخامس عشر وباريس في القرن الثامن عشر.

ولم تنعزل جماعاتُ المسلمين في حياتها وثقافتها وتاريخها عن الوطن الأمّ للإسلام، سواء في التجارة أم في الحجّ، أم في الهِجْرات والزيارات، حتّى الذين كانوا في جهات نائيّة من جنوب شرق آسيا مثلاً.

ولعلّ الحكمة من نزول الإسلام في الأرض الوسَط من حيث موقعُها الجغرافي، لا يعادلُه إلّا حِكمةُ الأمانة التي حمّلها الله تعالى هذه الأمّة الوسَط، من حيث الاعتدال فيما يتّصل بالمادّة والرّوح، وقربُها إلى الفطرة البشريّة، والنفوس الأبيّة التي لم يذلّها حكمُ الطّغاة، ولا تَهِن أمام الشدائد وقسوة الحياة، وليس ذلك إلّا في العرب وأرضهم، والله أعلمُ حيث يَجْعلُ رِسالتَه : « وكذلك جعلْناكم أمّةً وسَطاً لتكونوا شهداءَ على النّاس، ويكونَ الرسول عليكم شهيداً » (البقرة : ١٤٣).

ومن العوامل الذّاتية التي أدّتْ إلى نشر الرّسالة الإسلاميّة في مختلف أنحاء العالم بَساطةُ العقيدة الدّينيّة وخلوُّها من الغموض والتعقيد، وهي في جلائها ووضوحها تستهوي الرجلَ العادي، والعالِمَ المستنير.

ومرونةُ التشريع الإسلامي وصلاحيّته للسير مع تطوّرات الحياة، ووضعُ القواعد العامّة التي تكفل حقوق الأفراد والجماعات.

وقد كانت الجزيرةُ العربية موطنُ الإسلام الأصيل منطقةَ وصل بين أطراف العالم برّاً وبحراً عن طريق الصحراء والمعابر البريّة، وعن طريق البرازخ والخلجان، ومِنْ قَبْلِ الإسلام كانت طريقاً عظيماً بين الشّام والمحيط الهندي. وكان لقريش رحلتان كما هو معروف. يرحلون في الشّتاء إلى اليمن، وفي الصّيف إلى الشّام، فيمتارون ويتّجرون. وكانوا آمنين في حلّهم وتَرحالهم، لأنّهم أهلُ حَرَم الله، كما جاء في القرآن الكريم : « وقالوا إنْ نَتّبعِ الهُدى

---

(١) سليمان حزين : مقومات الحضارة الإسلامية (التوجيه الاجتماعي في الإسلام) (٢٥/١ ـ مجمع البحوث الإسلامية).

معك نتخطّف من أرضنا. أوَ لم نمكّن لهم حرماً آمناً تجبى إليه ثمرات كلّ شيءٍ رزقاً من لدنّا، ولكنّ أكثرهم لا يعلمون » (القصص : ٥٧).

كما استوطن الملّاحون العرب على كثير من الطرق التجاريّة بينَ شبه الجزيرة العربيّة والصّين. ولمّا انتشر الإسلام أعطتْ له هذه الحَركةُ التّجاريّة النشيطة قوّةً تضاعفتْ بعدَ أن دخل الهنود في دين الله، وعملوا لنشره.

والتاريخ يروي أن تُجّاراً وبحّارة من العرب كانوا من القوّة ما جرّأهم على مدينة (كانتون) في جنوبي الصين سنة ١٤١ هـ.

ودعوةُ الإسلام المُلحّةُ إلى الأخذِ بمكارم الأخلاق والبُعْد عن سيّئها، وعن مَواطِن الظُّلم والفَساد، وذلك ما يَنشُده كلّ من يدعو إلى الإصلاح الخُلقي الحقّ. فكانت حضارةُ الإسلام نابعة من مبادئه وتعاليمه وعقيدته، مختلفةً عن كلّ حضارة قديمة لا تمثّل رشْدَ العقل ونضجَه، وعن كلّ حضارة روحيّة مجرّدة، تدعو إلى الزّهد والفقر واعتزال الحياة.

فنظامُها في العقيدة يقوم على توحيد الله، وعبادته وحده، ومراقبتِه في السّرّ والعلانيّة، والإيمانِ برسالات السّماء، وبمَنْ جاءوا بها من الأنبياء، وبالكتب المنزّلة وبالقَدَر خيره وشرّه، وباليومِ الآخر، وبأداء عباداتٍ تصلُ الإنسان بربّه، وتطهّر روحَه وتزكيها.

ونظامُها في الأخلاق يرتكز على صفاء السّريرة واستقامة السيرة، وخلوصِ النيةِ، والتمسّكِ بالحقّ، وفعلِ الخير، والتزامِ الآداب الفرديّة والاجتماعِيّة التي تَسير بالإنسانيّة نحو الكمال.

ونظامُها في التشريع يقوم على رعاية الحقوق، وجلْبِ المصالح ودَرْءِ المفاسد، وحسنِ المعاملة، والعدلِ والمساواة، وإفساحِ مجال الاستنباط والاجتهاد للمتفقّهين في الدّين، في حدود المؤهّلات العلميّة المشروطة ليشرّعوا الأحكام ويسنّوا القوانين في كلّ ما يحدث ويجِدّ من قضايا.

ونظامُها الاجتماعي والاقتصادي يقوم على تماسك الأُسرة وتعاونها، وتكافُلِ المجتمع وتضامنِه، وصونِ كيانهما من كلّ آفات التّصدّع والانحلال، واعتبارِ المال وسيلةً لا غاية، وحُسنِ استثماره وتداولِه، والحث

على بذله في وجوه الخير والبرّ، ولزومِ القصد في المعيشة من غير تبذير ولا تقتير، ومنعِ الاحتكار والاستغلال والتعامل الرّبَوي، وكلِّ ما يضرّ بالمجتمع في المعاملات.

ونظامُها الثقافي يحمل بين جوانحه رسالةً تجمع بين العقيدة والحرَكة، إلى الجوانب المادّية مُمَثّلةً في العلم والاختراع والكشْف، ويعتمد على طلب المعرفة من كلّ وجه ممكن عملاً بقول الرسول ﷺ : « الحكمة ضالّةُ المؤمن، فحيثُ وجدَها فهو أحقُّ بها » (رواه الترمذي)، ويدعو إلى استخدام العقل في كسب المعارف، وتسخير الطّبيعة لخدمة البشريّة وإسعادها، واعتبارِ الثقافة أيّاً كان مصدرُها ومَهدُها تُراثاً عامّاً للإنسانيّة. وقد عُنِيَت الثقافة الإسلاميّة بدراسة الكتاب والسنّة، وما تفرّع عنهما من علوم وفنون. كما عُنِيت بتراث الأمم القديمة عن طريق الترجمة، وأضفتْ عليه مسحَة الإسلام وطَبَعتْه بطابعه، فكانت الحضارة الإسلامية وليدةَ هذا التُراث الثقافي، والتّطبيق المادّي له، والمرآة التي تعكس مقوّماته وخصائصه، وكانت المُنجزاتُ الحضاريّة في ظلّ الإسلام ترجمةً حيّة لنظامه.[1]

وعالَميّة الإسلام في دينه وحضارته وثقافته تنبع من نظرته إلى الإنسانيّة، على أنّها وحدةٌ لا يفرّقها الجنسُ أو اللّون أو اللّغة أو الإقليم « كلُّكُمْ من آدمَ، وآدمُ من تُراب »، ولا يَعُدّ الأمّة بالجيل أو القطر، بل يعُدّ الأجيالَ كلّها أمّةً واحدة، تتّحِد في نفوس المهتدين كما تتّحد في نفوس المنحرفين، على أساس وحدة النفس الإنسانيّة في أصل تكوينها وغرائزها ومنازعها، وفطرتها، وفيها تكمن أسبابُ الاستقامة والانحراف. ولكنّ الأهواءَ وأنماطَ التربية وتأثيرَ البيئات الاجتماعيّة، هي التي تَوَلّد عنها الاختلافُ في المجتمعات. فقال جلّ شأنه : « يا أيُّها الرُّسُل كُلُوا من الطيّبات، واعملوا صالحاً، إنّي بما تعملون عليم. وأنّ هذا أُمّتكم أُمّةً واحدةً، وأنا ربُّكُمْ فاتّقون » (المؤمنون : ٥٣).

---

(١) محمد خلف الله أحمد : أثر الحضارة الإسلامية في رقي البشرية (التوجيه الاجتماعي في الإسلام) : ٤٢/١ (مجموع البحوث الإسلامية).

ومن مؤهّلات الرّسالة الإسلاميّة للتّعميم والخلود ونشرها بين الناس كافّة، أنّها جاءت بالحقّ : « ياأيُّها النّاسُ قد جاءكم الرسولُ بالحقِّ من ربِّكم » (النساء : ١٦٩).

والحقُّ ثابتٌ دائم لا تختلف فيه العقول، والأمرُ باتّباعه لا يكون إلّا عامّاً. وكلّ الأنبياء قبل محمّد عليه السّلام جاءوا بالحقّ، ولكن بَعدَ بعثه ﷺ جاءت رسالتُه الخاتمة الظّاهرةُ على الدِّيانات كلّها، هيَ الحقُّ الثابت الباقي الذي لا حقَّ بَعدَه على مدى العصور كما قال ﷺ :

« لوْ كان موسى حيّاً ما وسعه إلّا أنّ يتّبعني » ؛ (رواه البخاري).

فمُراعاةُ التّسوية بين النّاس في أصل الإنسانيّة، ومراعاةُ العدل بينَهم، واعتبارُ الفطرة البشريّة في أُسسُ الشّريعة الإسلاميّة، وإرادة الخير والسّعادة للنّاس جميعاً، كُلُّ ذلك وضّحتْه رسالةُ محمّد ﷺ الذي بُعِث رحمة للعالمين.

المسيحيّة والإسلام :

وقد يكون من أكبر أسباب العداء الذي تكنّه المسيحيّة للإسلام ــ والذي كان من أسوأ آثاره في التاريخ وفي نفوس المسلمين، تلك الحروبُ الصليبيّة الشّرِسة، ثمّ الاستعمار الغاشم ــ اعتقادُ المسيحيّين بأنّ الإسلام يحارب ديانتهم التي جاءت ــ حسب زعمهم ــ للبشريّة كلّها، لتُخَلِّصَها من أغلال الخطيئة الكبرى، وبهذا الاعتقاد السّائد انتشرت الحركاتُ التبشيرية في إفريقيا وآسيا. وكان البرتغاليّون أوَّلَ من عمل في التبشير عملاً رسميّاً بغانا والكونغو، وذلك في القرن الخامس عشر. ورغم أنّ المسيحيّة والاستعمار ضدّان لا يلتقيان من حيث المبدأ، فإنّ انتشار المسيحيّة في إفريقيا السّمراء قد رافق بدْء الاستعمار، ومَشَى معه إلى نهاية الشّوط.

نشرت مجلّة فرنسا الكاثوليكيّة « La France catholique » في عدد كانون الأوّل ١٩٥٩ مقالاً بقلم أسقف دكّار الفرنسي جاء فيه : إنّ أولئك الذين لا يعرفون الإسلام معرفة جيّدة، يُفاجَأون بأنّ البلدان ذات الأغلبيّة الإسلامية هي التي تنتهج سياسة عدم الانحياز، والابتعاد عن الغرب كغينيا ومالي، بينما تبقى البلدان المتأثّرة بالمسيحيّة في فلْك الغرب، وهي الدُّول

الإفريقية الناطقة بالفرنسيّة. أمّا السّنغال، فإنّه يريد التحالف مع فرنسا، إلّا أنّ ثِقَل الميول الإسلامية والتأثير السّوداني ضِمْنَ (اتّحاد مالي) يدفعُه إلى الاستقلال.

ويقول الأسقف : «إنّ الافريقيين متديّنون، وهم لا يهتمّون بالمساعدات الماليّة لأنّهم قد وطّنوا أنفسهم على شَظَف العيش. فالبلدانُ الأوروبيّة المسيحيّة تخطى، إذَا هي تغافلتْ عن المظهر الدّيني، وهو أحسنُ سفير لها يصون مصالحها. إنّها مَدعُوَّة لدَعم الحركات التبشيريّة.

وكان قيامُ اتحاد مالي من السودان والسنغال ناقُوسَ الخطر بالنسبة للاستعمار الفرنسي والتبشير. وقد تولّتْ أجهزةُ التخريب الاستعماريّة تنظيمَ حملة لإقصاء الفولتا العليا، والدّاهومي عن هذا الاتحاد[1].

وربّما اخترعوا القصص الخرافيّة لتغذيّة عقول الناشئة من المسلمين والمسيحيين على السّواء، بأفكارٍ سيّئة عن الإسلام وعن الرسول الكريم، كما فعلوا في نيجيريا.

يقول العالِم الدّاعية عبد الله الألوري مصوِّراً الوضع أحسن تصوير :

« لقد تحرّرت نيجيريا، ولكنّ المستعمرين قد عوّدونا على أساليب أخرى. فإن أُغلقَ عليهم الباب دخلوا من النافذة. لقد ارتحلوا وخلّفوا وراءهم عملاءهم المبشرين الذين كانوا رواد الاستعمار. وقد أثار كثير من المبشّرين الشكوك حول موقف التبشير من الأماني الوطنيّة. فانقلبت الشّكوك إلى حقائق عندما عمدوا إلى تغذية الطائفيّة ضدّ الإسلام الذي تبنّى الأماني الوطنيّة، وعمل على تحقيقها بسرعة مذهلة »[2].

والإسلام في نَظر هؤلاء المغرضين وأتباعِهم دَعِيٌّ مُنافِسٌ، وخَصمْ عنيد. وبعضُهم لا يتورّع في الندوات والمؤتمرات عن إعلان القول بأنّ عيسى عليه السّلام خاتم الرسل، ورسالته خاتمة الرّسالات. والشُّبهة الحاصلة لهم في ذلك قديمة : فعيسى رسولٌ إلى بني إسرائيل، ولكنَّ تَفَرُّقَهم في أرجاء

---

(١) : ١٩٦١

(٢) ملة حضارة الإسلام : العدد الثالث لسنة ١٩٦٢.

الأرض جعل الحواريين وتلاميذهم يرتحلون إلى الأقطار التي هُمْ فيها للتبليغ، ثمّ اتّخذ التبشيرُ بالمسيحيّة منطلَقاً جديداً ومفهوماً آخر.

والله تعالى يحدّد رسالة عيسى في قوله عزّ وجلّ : « ويُعَلِّمُه الكتابَ والحكمة والتوراةَ والإنجيلَ ورسولاً إلى بَني إسرائيل » (آل عمران : ٤٨).

ومَنْ غيرُ محمّد ﷺ من الأنبياء الذين سبقوه قال مثلَ قوله : « إنّي لَرسولُ الله إليكم خاصّة، وإلى النّاس كافّة »، أو أَرسلَ كما أرسَل هو إلى ملوك يدعوهم إلى الدّين الذي بُعث به، ويطلب إليهم أن يُخْلُوا سبيل الدّعوة إليه في البلاد التي يحكمونها !

وممّا يدلّ على عموم الرسالة المحمّديّة انتشارها في فترة قصيرة بالنسبة للأديان وبين مختَلف الأمم، وسريان تعاليمه في الشعوب سريان الماء في العود، فاتّسعتْ مملكته وامتدّت آفاقُها، وتباعدتْ أطرافُها شرقاً وغرباً في فترةٍ ما قبْلَ سنة ٣٢٤ هـ.

وقد عرّف بحدودها ابنُ حوقل فقال : (حدودُ المملكة الإسلاميّة هي : شرقيّها : أرض الهند، وغربيّها : مملكة السّودان الذين يسكنون على المحيط الأطلسي، وشماليُّها : بلاد الرّوم، وما يتّصل بها من الأرض والخزر والبُلغار والصقالبة والترك والصين، وجنوبيّها : بحر فارس[1]. وكان المسلم يستطيع أن يرتحل داخل حدود هذه المملكة في ظلّ دينه وتحت رايته، وفيها يجد النّاس يعبدون الإله الواحد الذي يعبده، ويصلّون كما يصلّي، وكذلك يجد شريعة واحدة وعُرفاً واحداً وعادات واحدة، وكان في هذه المملكة المتّسعة الأطراف قانونٌ عَملي يضمن للمسلم حقَّ المواطن، بحيث يكون آمناً على حرّيته الشخصيّة، فلا يستطيع أحد أن يَستَرِقّه على أيّ صورة من الصّور....

ولمّا انقسمت هذه المملكة بعد سنة ٣٢٤ هـ. إلى دُول صغيرة وملوك طوائف لم يؤدّ هذا الانقسام إلى ضيقٍ في معنى الإسلام، أو في الوطن الإسلامي، بل صارت هذه الأقاليم تؤلّف مملكةً إسلاميّة واحدة،

---

(١) ابن حوقل : المسالك والممالك : ١ ـ ١١ (ط. ليدن ١٨٧٢).

وبقيت الوحدة الإسلامية في أكبر خطوطها قائمة الذّات، دون أن تتأثّر بالحدود السياسيّة الجديدة[1].

لأنّ مبادئ الإسلام الحنيف من مساواة في الحقوق والواجبات، وأخوّة في الله، وتعاون وولاء، لم تُضعف قوّتَها إقليميّةٌ ضيّقة، أو نُظُمٌ اجتماعيّة متباينة، أو اتجاهاتٌ فكريّة لا ترتبط بالإسلام إلّا من حيث الشّكل والانتماء، مثلَما نرى اليوم هذا الاختلافَ الشديد بين أبناء بعض الأقطار الإسلاميّة في البلد الواحد من مذاهب فكريّة، وإيديولوجيّات ثقافيّة واجتماعيّة، ونزعات سياسيّة، تفرِّق ولا توحِّد، وتُثير الشرّ والفتنة، وتقطع ما أمرَ اللهُ به أن يُوصَل، وتحمل على الثورات وارتكاب الحماقات، لأنّ الأمّة الواحدة إن لم يجمعها الحقّ فرّقها عمّا وراء ذلك من أخطار جسيمة تهدّد الأمن والاستقرار، وهما ركنان أساسيّان في بناء الحضارة، ومن خيوط خفيّة يُمسك بأطرافها خصوم الإسلام وأعداؤه من وراء ستار.

نحو مستقبل مُشرق :

ولينظر المسلمون حيثما كانوا، أين هُمُ اليوم من مركز القوّة في سُلّم الحضارة المعاصرة ؟ ولماذا تنشب في بلادهم وبين أبنائهم نِيرَانُ العداوة والبغضاء، والاصطدامات الدّاميّة من حين لآخر، في عصر توافرت فيه المواصلات، وتقاربت المسافات، وتعدّدت وسائل النشر والإعلام، حتّى أصبح العالَم أشبه بمدينة واحدة، وحتّى أصبحت الشعوب أشبه بأمّة واحدة !؟ ولكنّ العالم الإسلامي كان ولا يزال في صراع مستمرّ مع عوامل الهدم والشرّ والإفساد في الأرض، يواجه قُوى خفيّة شتّى لمنعه من أن يسير في المنهج الإسلامي القويم، ودفْعِه إلى كلّ ما يعوق تقدّمه، ويعرقل سبيله، وانّ الصدماتِ التي يواجهها بعنف تكفي لأن توقظَ أهلَ الكهف. فكيف وقد أفاقت شعوبه من سُبات الجهل، واستضاءتْ بنور العلم، وتحرّرت من أغلال التبعيّة الاستعماريّة ؟

---

(١) آدم متز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع هجري (ت) أبو ريدة. ٢١/١ ، ٢٢ (ط. القاهرة ١٩٤٩).

إنّ مجتمعاتنا الإسلاميّة ماتزال مصابة بداء الاستيراد، استيراد مشاكل الحضارة الغربيّة، في حين أنّ أسبابها الحقيقيّة ليست نابعة من واقعنا نحن، فنكون كمن دفع الغُرم وليس له الغُنم، أو كمن يستورد الهموم بأثمان باهظة.

وليس معنى ذلك أن يبقى المسلمون رهين واقعهم، ولا يتجاوزوا حدود أنفسهم، بل أن يوصدوا النوافذ التي تعصف منها ريح السّموم، وأن يخطّطوا لثورة بيضاء ضدّ الانهزاميّة والانحلال، والركود واليأس. ولئن أضحت العودة إلى أساليب الحياة القديمة غير ذات جدوى، فالواجبُ يفرض عليهم أن يبحثوا عن أساليب جديدة للحياة في اطار الفكر الإسلامي المتفتّح والمتحرّر من الخرافات ورواسب عهود الانحطاط، ومن المفاهيم الظرفيّة المسيطرة على عشّاق الحضارة الغربيّة، فإنَّ ما نُوليه من اهتمامٍ بتُراثنا العلمي والحضاري، لا يعوقنا عن مسيرتنا نحو مستقبل أفضل بل سيعرّف أجيالَنا بما أسهم به أجدادُنا في بناء الحضارة الإنسانية عموماً، والعلوم الحديثة على وجه الخصوص، لإحياء شخصيّة المسلم الأصلية، وانبعاث الفكر الإسلامي العريق، ولتفادي الوقوع في أيّ تَبعيّة. إذ على شبابنا قبل أن يتمثّل مكاسب العرب وثقافته أن ينطلق من نواة أصيلة، تضرب بجذورها في الحركة العلميّة الإسلاميّة في تُراثنا الأصيل، وأن يتغذّى أوّلا من مبادئه قبل أن يغترف من المصادر الأجنبيّة، ويتفتّح على الأفكار والعلوم والتقنيات الحديثة، ضماناً للنموّ والتطوّر والأصالة، فإنّ الشجرة لا ترفع هامَتها إلّا إذا ضَربت بجذورها عميقاً في الأرض، وكذلك الاستنساخ الصِّرف لثقافة أجنبيّة، يؤدّي إلى مظهر مزيّف سرعان ما يذبل.

ولْيعلمْ كذلك أنّ الحياة المعاصرة ليست سوى حصيلةِ جهودٍ حضاريّة متعدّدة على مدى عصور طويلة متلاحقة، ومن جملة هذه الجهود الدّور الذي لعبه المسلمون، في هذه الحضارة، والذي أعان على دفع عجلة التطوّر العلمي مساعدة كبيرة وجادّة، ولكنّ أحفادَهم الذين خَلَفوهم مِنْ بَعْدِهم لم يتابعوا ما وصل إليه سَلفهم من البحوث العلميّة التجريبيّة، ولم يعْتَنُوا بها عنايتَهم بالعلوم الإنسانيّة ؛ كاللغة والأدب والتاريخ والفلسفة والكلام

كما هو معروف ؛ جاء في مقدّمة كتاب (دراسات في تاريخ العلوم عند العـــرب) :

(تُعَدُّ دراسةُ التراث العلمي العربي من الدّراسات التي تُلقي الضّوء على التّطوّر التاريخي للعلوم العربيّة، وما أنجزته العقليّة العربيّة في الحقبة التاريخيّة التي ابتدأت بعصر صدر الإسلام، وانتهت بنهاية العصر العبّاسي. ولم تنَلْ هذه الأمور ما تستحقّه من عناية كبيرة من قِبَلِ الباحثين في التاريخ الحضاري العربي والإسلامي في قرونه المتعاقبة الطّويلة(*)).

ازدهار الحضارة الإسلاميـة :

والباحثون النزهاء في تاريخ العلوم من غير المسلمين يُقرّون بما كان للعرب من فضل في تأسيس الكيمياء الحديثة، واكتشاف الحامض الكبريتي، وماء الفضّة، والبوتـاس، وملح البارود، وكذلك تعيين الكثافة النوعيّة لكثير من الأحجار الكريمة، وإجراء تجارب عديدة لإيجاد العلاقة بين وزن الهواء والكثافة، والقيام بأبحـاث حول الغرفـة المظلمـة (آلـة التصويـر) واستخدامها.

كما اهتمّوا بعلم الحياة وبالطبّ والنباتات الطّبيعيّة ووضعوا علم التشريح، واستخدموا التخدير في العمليّات الجراحيّـة، وأوقفـوا النزيـف الدّمويّ، وأجروا عمليّات لاستئصال السرطان.

وفي الرّياضيات والهندسة كان العرب أوّل من أوجـدوا الإحصاء العشري، وعرفوا الصفر ووضعوا حلولاً جبريّة وهندسيّة لمعادلات ابتدعوها مختلفة التركيب، واستعملوا لها الرموز، ومهّدوا لاكتشاف اللّوغاريتمات، ووضعوا مؤلفات في الأحجام والمساحات، وتحليل المسائل الهندسيّة، واستخراج المسائل الحسابيّة بالتحليل الهندسي، والتقدير العددي، كما بحثوا في الزوايا وتقسيمها، وفي محيط الدّائرة، وفي المضلّعات المنتظمة وربطها بمعادلات جبريّة، وقسّموا الهندسة إلى عقليّة وحسيّة.

(*) لحكمت نجيب عبد الرحمن م (ط. العراق : ١٩٧٧).

وفي الفلَك عرف العرب قبل العصر العبّاسي رصد الكواكب والنجوم، والكسوف والخسوف، ووضعوا جداول لحركة الكواكب، وقالوا بدوران الأرض وبكرويتها، واخترعوا آلة الرّصد (التّلسكوبْ).

وفي الجغرافيا أخذوا عن اليونان ما توصّلوا إليه، ثمّ درسوه ودقّقوا فيه وصحّحوه وزادوا عليه، ونقلوه إلى أوروبا، وألّفوا فيه الكتب مثل : « مسالك الممالك » للاصطخري الذي رسم فيه خرائط ملوّنة لكلّ بلد، و « أحسن التّقاسيم في معرفة الأقاليم » للمقدسي الذي ألّفه بعد رحلة استغرقت نحو العشرين عاماً، و « نزهة المشتاق » للادريسي، وقد حلّاهُ بالخرائط المتنوّعة. ويُعتبر « معجم البلدان » للحموي موسوعة جغرافيّة ضخمة نادرة المثال.

أمّا فنّ العمارة والزخرف والنقش والتصوير، فقد بلغوا فيه مرتبة رفيعة، واقتبس منه الغرب. وعندما أنشأ الفرنسيّون كنيسة (نوتردام) الباريسية استخدموا فيها معماريين من العرب.

وما تزال المعالم الإسلاميّة في الميدان العمراني بالهند وفارس واسطنبول ودمشق والعراق والقاهرة والقيروان وقرطبة، وفي كلّ مدينة إسلاميّة تشهد بدورهم الرّفيع وفنّهم البديع، وبراعتهم الفائقة.

ولمّا زار الشاعر الفيلسوف محمّد إقبال جزيرة صقليّة سكب دموعه على أطلالها العربيّة.

ومن قرأ ما كتبه الغربيّون عن (تاج محلّ) الأثر الإسلامي العظيم في الهند، راعه وصفهم له. وقد وصفه باحث أوروبي بأنّه من عجائب الدّنيا، وهو من المباني الإسلاميّة التي صُبَّ فيها كل ما يمكن أن يجود به الفنّ من الكمال والروعة، وعظمةُ الآثار الإسلاميّة في دهلي معروفة، حتى لكأنّ سحرة ألف ليلة وليلة لا تستطيع أن تبدع ما هو أروع منها.

ولقد قصّ رجال الفنّ والفكر الذين زاروا قصر الحمراء ومسجد قرطبة بالأندلس من مسلمين وغير مسلمين مثل إقبال ولوبون وهيقو وقباني ما شاهدوه من بدائع الفنّ في الجدران المزينة بالنقوش العربيّة الأنيقة، وفي القباب الساحرة المتدلّية ذات الزخارف المطليّة باللّازورد والإبريز والأرجوان.

وكان العرب إذا فتحوا مدينة صرفوا جهودهم الأولى إلى إنشاء مسجد فيها.

والتّاريخ يحدّثنا عن الدّور الأساسي الذي قامت به مساجد إسلاميّة شهيرة لنشر العلم والمعرفة.

فقد كانت تقوم بما تقوم به الجامعة اليوم من دراسة علميّة منتظمة، تُعقد في رحابها حلقاتُ العلم، ويَؤُمّها طلّاب المعرفة من كلّ مكان. والمسلمون اليوم في أشدّ الحاجة إلى إحياء رسالة المسجد وتجديدها في أشكال أخرى ملائمة للعصر.

ومن ينكر ما اشتهر به المسلمون من ابداع في هندسة المنشآت العمرانيّة، وفي الرسوم الجميلة، والخطوط المتنوّعة التي لم تزل قائمة في المحاريب والمنابر والأبواب والقباب التي نشاهدها في المعالم الأثرية الإسلامية، وفي المصاحف والكتب التي تُعرض في المتاحف ؟.

وقد كتب لونقبرييه (Longperier) سنة ١٨٤٦ بحثاً في استخدام الحروف العربيّة في الزخرفة لدى الشعوب المسيحيّة في الغرب[١].

وفي الميدان الصناعي كان لهم تفوّق على الأمم التي عاصرتهم.

فقد أنشأ الأغالبة بمرسي سوسة داراً لصناعة السفن، فأتيح لهم من المعدّات الضخمة والانجازات الجبّارة، ما جعل لهم أقوى أسطول حربي في البحر الأبيض المتوسّط، قهروا به الأساطيل البيزنطية ذات الشهرة الذّائعة آنذاك. وبواسطة هذا الأسطول العتيد تسنّى للأغالبة أن يفرضوا سلطانهم على عدد من جزائر البحر، مثل صقليّة ومالطة وقوصرة وجانب كبير من جنوبي إيطاليا[٢].

يقول هارتمان : (ومن المَدَنيّات القديمة التي استفاد منها العرب مَدَنيّة الإغريق. فأخذَ العرب عنهم الطبّ والفلسفة والجغرافيا والفلَك.

---

(١) لبيب عبد الستار : الحضارات : صفحة ٢٨١ وما بعدها (ط. ٢ بيروت).

(٢) جرترود هارتمان : العالم الذي نعيش فيه : (ت) محمود حامد شوكت ١١٨ (ط. القاهرة ١٩٤٩). =

وقد ترجم العرب هذه العلوم إلى لغتهم، ثمّ أضافوا إليها أبحاثاً جديدة لم يكن الأقدمون قد وصلوا إليها.

ومن ذلك أنّهم أنشأوا علم الجبر وطبّقوه على الهندسة، واستخدموا الكسور العشريّة لأوّل مرّة، وابتدعوا في الطبيعة نظريّات جديدة لانكسار الضّوء، واكتشفوا في الكيمياء خواص الأحماض، وابتكروا مركّبات جديدة، كحامض الكبريت، وحضّروا الزّئبق، وأنشأوا علم الجراحة، وابتدعوا آلاته وعمليّاته، وابتكروا جبر العظام، وكتبوا في أنواع الحمّى، ووصفوا المواد ذات الخصائص الطبيّة، وكانوا أسبق الشعوب إلى إنشاء المستشفيات والصيدليّات، وسبقوا أهل أوروبا في إقامة المدارس والمكاتب والجامعات.

وفنُّهم الإسلامي الخالد لا تزال تشهد به آثارهم في قصر الحمراء بغرناطة وجامع قرطبة، ومساجدهم بالقاهرة والقيروان ودمشق والهند. وهو فنّ لا يُحاكي صورةَ الإنسان، بل يستمدّ روحه من الحياة النباتيّة، والأشكال الهندسيّة والمناظر الطبيعيّة[1] :

وكما ازدهرت العلوم التجريبية في ظلّ الحضارة الإسلاميّة، ازدهرت كذلك علوم الوسائل والمقاصد كالنحو والبيان والبديع والتفسير والحديث والفقه، والعلوم الإنسانيّة كالتاريخ وعلم الاجتماع. وقد درس ابن خلدون في مقدّمته عوامل تطوّر الجماعات، وما يعتريها من ضعف أو قوّة، وبقاء أو انحلال.

وتَعَمّقَ في البحث عن أحوال الأمم، والظواهر الاجتماعيّة المختلفة

= وانظر : كتاب دراسات في تاريخ العلوم عند العرب : حكمت نجيب عبد الرحمن، وكتاب ورقات من الحضارة العربية بافريقية : حسن حسني عبد الوهاب.

وكتاب : العلوم في الإسلام : حسين نصر.

وكتاب : الفنون الإسلامية : أحمد محمد عيسى.

فان في هذه الكتب من التفاصيل المبينة للحركة العلمية وتاريخ العلوم عند المسلمين ما يكشف عن مدى النهضة التي بلغوها في شتى فروع العلم وعن مدى فضلهم في تقدم بعض العلوم الحديثة، بما وضعوا لها من أسس ومهدوا لها من سبل.

(٢٢)

التي اقترنت بأطوار حياتها، فكان بحقّ واضعَ علم الاجتماع والمؤسِّس الأوَّل لأصوله.

والحق أنّ ما أنجزه الفكر الإسلامي خلال هذا العصر الذّهبي للحضارة الإسلامية، وما تركه من تراث مجيد، كان ملء السمع والبصر، وخاصّة في العلوم التجريبيّة، لم نُولِه ما يستحقّ من دراسة ونشر وإحياء، وذلك من حقّ أسلافنا علينا، ومن واجبنا نحوهم ونحو ناشئتنا. ذلك أن العودة نحو الذّات تتطلّب دراسة استطلاعية للماضي الذي بقي مشلولاً مدّة طويلة بكلّ عظمته وأمجاده. فكلُّ طريق نحو التحرّر وبناءِ الذّات يبدأ بالتعرُّف على الماضي الخاصّ.

عَـوْدَةُ الـوَعـي :

والتعرّفُ على مقوّمات شخصيتنا وأوصول ذاتيّتنا، إنّما يعني عودة الوعي وشعور الكرامة إلى أمّة عزيزة امتُهِنت، وعانتْ من ويْلات المؤامرات والاضطهادات ما عانَتْ، وعليها اليومَ أن ترفع هامتَها وتفرضَ وجودها لتضطلع بالأمانة، وتؤدّي رسالتها نحو الإنسانيّة، كما أمرها القرآن. ذلك هو العبء الثقيل الذي وضعه الاستعمار الأجنبي بكل أشكاله وألوانه على عاتق العالَم الإسلامي في هذا العصر. هذا الاستعمار الذي خلّف وراءه الجمود والفقر والانحطاط، وأدّى إلى انهيار الحضارة الإسلاميّة، وإضاعة شخصيّة المسلم، بفرض ثقافته، وقِيَمِه الأخلاقيّة، ومصالحه الشخصيّة.

فلا بدّ للأمّة الإسلاميّة أن تعرف أسباب مجدها الحضاري، وأسباب انحدار هذه الحضارة، لتستخلص من أحداث التّاريخ ما يفيدها في حياتها.

فالعوامل التي ازدهرت بها الحضارة الإسلاميّة صنفان : الصنف الأوّل منها نابع من روح الإسلام ذاته، باعتباره نظاماً متكاملاً للحياة الإنسانية، أرسى قواعدها على أسس سليمة، ودفع بتعاليمه إلى ما يسمو بالإنسان روحيّاً، ويُمكِنُ له في الأرض ماديّاً، حتّى يعيش المسلم الحياة بقطاعيها الباطني والخارجي بتركيز أشدّ... في الباطن يحرّك الإسلامُ كلَّ

قوى الإنسان وإمكاناته العقليّة والعاطفيّة والروحيّة. وفي الخارج يدفعه إلى أن ينمّي علاقاته واستجاباته لكلّ ما يحيط به من قوى مدخورة، وقيم جماليّة.

والصنف الثاني يرجع إلى الأقطار الإسلاميّة التي نمت الحضارة الحقّ في ربوعها، بقدر ما نمت الفضيلة وحبّ الخير في نفوس أبنائها، فاصطحبوا العلم في رحلة الحياة، وذلك بفتح الطريق أمام العقل ليكتشف ويرتاد، وبتكريم العلماء، وخلق مناخ علمي يزدهر فيه العلم والثقافة، وهم في الآن نفسه يحرسون ضمائرهم، ويراقبون ربّهم، ويخلصون له إخلاصَ من يلتزم معه.

وما كُفْرُ الكافرِ ولا جَحْدُ الجاحدِ إلّا عن جهل بالله، وبأسرار هذا الكون الذي خلقَه، وبالسُّنن التي دبّر بها نظامَ سيره.

والمؤمن إنّما يزداد إيمانه بالله بتَزايدِ علمِه به، وبما خَلَق ودَبّر.

وقد كانت رابعةُ العدويّة تناجي ربّها بقولها : (إلهي ! ما عبدتُك طمعاً في جنّتك، ولا خوفاً من نارك، ولكن عرفتُك أهلاً للعبادة فعبدتك).

فلَيْتَك تحلُو والحياةُ مريرةٌ ... وليتَكَ تَرْضَى والأنامُ غِضَابُ
وليتَ الذي بيني وبينَك عامِرٌ ... وبيني وبين العَالَمين خَرابُ
إذَا كان منك الوِدُّ فالكُلُّ هَيِّن ... وكُلُّ الذي فوقَ التُرابِ تُرابُ

عوامل الانحدار :

والعوامل التي أدّت إلى انحدار هذه الحضارة وتَقَلُّصِ ظلّها كثيرة. منها ما هو داخلي، ومنها ما هو خارجي.

فمن العوامل الدّاخلية : تفرُّق الكلمة، والتنافس على الدّنيا، وحَبْكُ الدّسائس والمؤامرات للحصول على السلطة، والانغماسُ في اللّهو والتّرف، وتَوقُّف الحركة العلميّة عن نشاطها ونُمُوّها، ولا سيما العلوم التجريبيّة التي لم

(١) آرناست باركر : تراث الإسلام (ت) علي أحمد عيسى. ج : ١/٨٣ ـ ٨٤ (ط. لجنة التأليف والترجمة ١٩٣٦).

(٢) محمد عبد المنعم خفاجي : الإسلام والحضارة الإنسانية : ٢١٥ ـ ٢١٦ (ط، بيروت ١٩٧٣).

تكد تؤتي ثمارها حتّى انصرف البحث عنها إلى بحوث نظريّة مجرّدة في الفلسفة والكلام والتصوّف وما إليها، حتّى كاد إنتاجنا وتفكيرنا يصبح نظريّاً بحتاً، أو لاَهُوتياً محضاً. وبعْدَ أن تعدّدت الفرق الإسلاميّة وانتشرت مذاهبها، وتكاثَر أتباعُها، غدتْ كلّ فرقة لا همَّ لها إلّا التفكير فيما يدعم مذهبها، ويُضعفُ المذاهب الأخرى، بمهاجمتها أو تكفيرها، أو الردّ على دعاويها ومطاعنها، والخَلَف يتبع سلَفَه في ذلك، فيُعيد أقوالَه وعباراته ؛ والتّآليفُ على كثرتها صارت في فترة من تاريخنا الإسلامي عالةً على ما سبقها، يُكرِّرُ بعضُها البعض، خاليةً من كلّ جديد، وكأنّما أصيبت القرائح بجذب أو عُقم، فجَفّت ينابيعُها، وغاض مَعينها، على حين انكبّ علماءُ الغرب على التُّراث الإسلامي في العلوم التجريبيّة يترجمونه ويتدارسونه، وينشئون المخابر والمصانع، وكانت الحروب الصّليبيّة إحدى العوامل الرئيسية التي أخرجت أوروبّا الجديدة في عصر النهضة وعصر الاستكشاف، وكانَ لهذه الحروب أثر في تطوّر فنّ الحرب في الغرب كما ذكر ذلك آرناست باركر في كتابه (تراث الإسلام) وأمّا العوامل الخارجية فكثيرة ومتنوّعة، وأهمّها :

ـ الحروب الصليبيّة التي امتدّت نحو قرنين من سنة ٤٨٩ هـ إلى سنة ٦٦٨ هـ (١٠٩٧م ـ ١٢٧٠م) وهي من أكبر ضروب التصادم بين المسيحيّة الغربيّة وحضارتها، وبين العقيدة الإسلاميّة وحضارتها من جهة أخرى.

يقول باركر الانجليزي : للحروب الصليبيّة وجهان : فهي من حيث الباعث الأصليّ عليها حركة روحيّة، وحرب مقدّسة باركها رجال الدّين وربطت الأمم المسيحيّة جميعاً برابطة العداوة لعدوٍّ عقيدتِها اللّدود.

وهي من حيث النتائج، الثّمنُ الذي دفعته المسيحيّة أملاً في تخليص أورشليم من ربقة المسلمين، وهي أقدس الأماكن وأبعدُ المزارات الدّينية عن أوروبا، لذلك كان حجّ الأوربيين إليها غفراناً مضاعفاً(*).

(*) انظر كتاب : الحركة الصليبية. لسعيد عبد الفتاح عاشور، في جزءين.

ـ تخطيط التتار لغزو العالم الإسلامي، وتدمير الحضارة الإسلاميّة في بغداد سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م)، وذلك بتحريض من العالم المسيحيّ.

ـ سقوط الأندلس سنة ٨٩٧هـ (١٤٩٢م) في أيدي الإسبان وما تَبع ذلك من اضطهاد وحملات تدميريّة منه في المغرب العربيّ عموماً وتونس على الخصوص.

ـ الحملة الفرنسيّة على الشرق العربي سنة ١٢١٣ هـ ـ (١٧٩٨م).

ـ قيامُ الاستعمار وتدميرُه للعالَم الإسلامي، واحتلالُ الغرب لأراضيه، ونهبُه لكنوزه وثرواته وحضارته، ليُفقِده شخصيّته الإسلامية، ويجعلَه تابعاً له في كلّ شيء.

ـ ظهور المسألة الشرقيّة، وتخطيط الغرب لنهاية الخلافة العثمانية، والامبراطوريّة الإسلاميّة التركية.

ـ قيام إسرائيل سنة ١٩٤٨م بتدبير من الغرب والاتحاد السوفياتي منذ صدور وعد بلفور في الثاني من نوفمبر سنة ١٩١٧م.

إنّ هذه السلسلة من الأحداث والمؤامرات التي صنعها الغرب المسيحي وأحلافه على امتداد التاريخ بمحاولاتٍ مستمرّة، من أجل الوقوف في وجه التيّار الإسلاميّ والقضاء على شعوبه.

ولا يُفزع أعداءَ الإسلام مِثْلُ امتداد نفوذه وسلطانه، وترقُّبُهم ما وراءَ يَقظةِ المسلمين، فلا يُخرجونها لحظة من حسابهم، حتّى يكونوا على استعداد للمقاومة.

وطرُق مقاومتِهم في هذا العصر لم تعُدّ صداماً مسلّحاً، أو مواجهة في معركة أو حرب، كما كانت في العصور الماضية، ولكنّها تتزيا بأزياء متنوّعة، وتختفي خَلْفَ أقنعة مختلفة للتضليل وإمعان التأثير.

وأفْتكُ سلاح ما يُؤثّر في العقيدة والأخلاق، ويُحدِث انقلاباً خطيراً في عالَم الرّوح والوجدان، عن طريق ظواهر المعيشة، والمذاهب الهدامة التي تُشيع الإباحيّة، والاستخفافَ بالقيم الأخلاقية، وتَخْلع على الفساد مَسْحة من الفنّ والطرافة، تستهوي النظر، وتستجيب لأهواء الشباب بما يرضيهم،

دُونَ ما ينفعهم، كالمذاهب الجنسيّة المتحلّلة، والوجوديّة العابثة، والماديّة الملحدة، وغيرها من المذاهب الفكريّة والعقائديّة التي تلامس الروح.

وإذا كان على الشباب المسلم أن يدرس الحضارة الإسلامية، ويعرف مقوماتها وعناصرها ومنجزاتها، ومَا لَها من أبعادٍ روحيّة ماديّة، ثمّ ما انتابها من عوامل الهدم الدّاخلية والخارجية، فإنّ عليه أن يدرس كذلك في شمول وعمق ودقّة، حضارةَ العصر الذي يعيش فيه، والأرْضية التي نبتَتْ فيها، وانطلقت منها، والجوانبَ الإيجابية فيها والسلبيـة، ومـا حقّقتْـه بالعلـم والتصنيع، وما يَكْمُن فيها من آفات وأخطار، حتّى يكونَ على بصيرة، فلا ينخدع ! ومن عرف الشيء على حقيقته سَبَر أغوارَه، وأدرك أسراره.

حضـــارة العصـــر :

إن التقدم العلمي التقني هو السِّمَة البارزة في حضارة هذا العصر، عصرِ التكنولوجيا كما يسمُونه. وحياةُ الناس تُوشك أن تتغير يوماً بعد آخر، تبعاً لسرعة التغيّر الذي يُحدثه العِلْم الحديث في الكمّ والكيف، وَوِفقاً لانعكاسات الثورات الصناعيّة التي تجاوزت مرحلة حلول الآلة محلَّ الأبدان، وتَخَلُّصِ الإنسانِ من الأعمال المضنية التي كان يكابد مشاقّها، واستمتاعِه بفراغ ثمين، واتّساع وقته للأهمّ، إلى الأجهزة الالكترونية التي شَمِلَت فاعليّات العقول وحلت محلّها، بل ربّما كانت بحُكْم تجرّدها من العاطفة والمشاغل والمشاكل، تَفُوقُها ضبطاً ودقة.

وما أكثر أن تتردّد عبارة (التطور) في كل شيء ! في الأفكار وفي العيش وفي أسلوب الحياة، وفي الأدوات والآلات والأجهزة التي تحيط بنا، وتعجّ بها البيوت والشوارع والمصانع، كلُّ ذلك يجعلُنا نعيش في خِضَمّ هائل من ظواهر هذا العصر. فنرى آلات الطباعة تُخرج كتباً ومجلات وصحفاً لا تُحْصى، تامّةَ الطبع، وأجهزةَ المصانع تُنتج أثاثـاً تامّ الصنع والطِّلاء، ونرى من رُكام المصنوعات المختلفة التي نستعملها في حياتنا اليوميّة، وفي شتى مرافق الحياة، ومن الاكتشافات التي مكّنت الغرب من التحكُّم في قوى الطبيعة، واستخدام الكهرباء كمصدرٍ للقوة، والسّيطرة على الجو، ونحو ذلك مما كان يطمح إليه الإنسان، فتندهشُ العقول لما تَرى

من رقيّ عجيب بلغتْه أُمم الغرب في الصناعة والحِرَف والعلوم والفنون والتجارة والمواصلات.

فالمخترعاتُ الحديثة ربطت بين العالَم. فحينما كانت أمم العالَم لم تفصلها عن بعضها مساحات شاسعة من اليابس والماء، كان أهلها غير متعارفين. أمّا الآن فقد طوّق الإنسان العالَم بالسّكة الحديدية والبواخر والأسلاك والراديو والتلفاز.

وهكذا تُوِّج عملُ الإنسان خلالَ العصور بأنّه صار في الإمكان ولأوّل مرة في التاريخ أنْ توجد حضارةٌ عالمية، أليس هذا أَمَلاً تهفو إليه النفوس ؟[1].

لقد رأينا بالأمس شعوباً كانت تعيش على تقاليدها القديمة، أسرعت إلى الأخذ بمظاهر الحضارة الأوروبية حتى في بعض الأمور التافهة، كما أخذتْ بالنظم الغربية في التربية والتعليم، وفي السياسة والاقتصاد والإدارة. بل رأينا شعوباً نبذت تُراثها وراءَ ظهرها واستبدلتْ به تُراث أوروبا.

وكثيراً ما يُنوِّه المسؤولون الأوروبيون بتفتّح قادة البلاد الأخرى الذين أخذوا بأسباب حضارتهم وطبّقوها في حياتهم القانونية والعملية، فيتعمّقُ إحساسهم بأنّ نفوذ حضارتهم قد يصبح هو القوة المسيطرة في العالَم، لِتمكُّنهم العلمي، وغَلَبتهم المادية، ونفوذهم الإقتصادي، واستيلائهم السياسي.

ونزعةُ العُجْب والغرور التي تزداد في نفوس الغربيين حدّةً مع الأيام تصدُمنا بالقول وبالعمل في كل آن، كقول أحد كتاب الغرب : (يجب أن لا يغيب عن بالنا أنّ ما قدمته الحضارة الغربية للإنسانية من عظيم الخدمَات، قد عملتْ في الآن نفسه على توحيد العالَم في إطار غربي) يقول أرنولد تونبي :

(تُرى، ما هي الحوادث التي غَيّرت مجرى التاريخ القومي في الولايات

---

(١) هارتمان : العالم الذي نعيش فيه : ٢٦٩.

المتحدة وبريطانيا العظمى ؟ إنّني إذا وَلّيْتُ وجهي شطر الماضي قلت : هي الحربان العالَميتان، والثورة الصناعية، ورَحلات الكشْف الغربية، والنهضة الأوروبية، واعتناق المسيحيّة. وإنّي أتحدّى أيّ إنسان أن يحدّثني عن تاريخ الولايات المتحدة أو بريطانيا دون أن يجعل هذه الحوادث هي الحوادث الأساسية، كما أتحدّاه أن يُفسّر هذه الحوادث على أنها شئون أمريكية محلية، أو شئون إنجليزية محلية.

وإذا أردنا تفسير هذه الأحداث الكبرى من تاريخ أيّ بلد من بلدان الغرب، فإنّ أصغر وحدة يمكن أن نُدخلها في حسابنا هي العالَم المسيحي الغربي، أعني العالم الكاثوليكي الروماني والبروتستنتي)[1]. والحقيقة أنّ المسيحية لا يصحّ اعتبارها من العناصر المُكوِّنة لحضارة الغرب الحالية، ولكن الكاتب شاء اعتبارها هنا كركن أساسي في بناء هذه الحضارة، في حين أن كثيراً من المفكِّرين الغربيين الذين نشأوا في احضانها وخاضوا غمارها يُعبِّرون عن قلقهم من وضع الإنسان الغربي الذي كان يسكر بنشوة القوة والمقدرة التي زوّدهُ بها العلم، ولكنه لم يتقدم في سبيل الاخلاق، تقدُّمَه في المدنيّة والعلوم، حتّى لا يستخدم هذه القوى لهلاك الإنسان، بل لخيره وسعادته، فهذا اللّورد لوتين(*) يقول عن الحضارة الغربية في مِحاضرة ألقاها بالباكستان : (إنها تركت الإنسان شديد الافتقار إلى الحقّ والصدق في باب الروحانية والدّين، ولم تمهِّد له طريقاً للوصول إلى ذلك الحق. فحالُ الأكثرية من أهل الغرب الآن أنّهم كالصِّغار، مُغْرَمون بسرعة النّقل، وإتيان الأعاجيب، والمتُعة باللذات الحسيّة، ولم تَبق بينهم وبين الحقيقة الأزلية الأبدية التي يعرضها الدّين من صِلة. ولم يؤمنوا من بين وجوه العلم المختلفة إلّا بذلك الوجه الذي يستهدف الرقيَّ المادي وحده، والذي يجعل الحياة معقّدة مستثقلة، حتى صار من الصعب عليهم أن يُوجدوا بين الحياة والروح من التلاؤم ما يُنقذهم من آفات هذا العصر، ومن القوميّة الضيقة).

---

(١) أرنولد تونبي : الحضارة في الميزان : ١٨٥.

(*) هو رئيس تحرير مجلة : روند تيبل « Round Tables »

ولعلّ من عوامل إخفاق المسيحية في الغرب المعاصر من حيث الجوهر لا المظهر، أنّها تدعو الإنسان أن يُعرض عن الدنيا، ويولّي وجهه شطرَ الملكوت السّماوي لينجو. إنها ليست بمذهب اجتماعي كالإسلام، وإنما تُعنَى بنجاة الفرد، لذلك قامت تُعارِض الأمم الأوروبية لما سارت في سبيل الرقيّ بدلَ أنْ تحفُزها على السّير، فاضطرت إلى تحطيم قيودها، شأنُها في ذلك شأن الديانة الهندية، ليس لها قانون خُلُقي يستند إلى العقل، ولا نظامٌ اجتماعي قابلٌ للتوسّع والشّمول.

فأكثر شُعَب الحياة الأوروبية يسيطر عليها اليوم نظام غير مسيحي من حيث العقيدة والفكر، كالعلمانية أو الماركسية وانصبّ الاهتمام على الإنتاج الصناعي ومظاهر الماديّة، ولم تعبأ بالمتطلّبات الروحية للإنسان ولا بالقيم الإنسانية العليا، ممّا أدّى إلى الإحساس العميق بالفراغ والعزلة بحيث يمكن القول بأنّ الغَرب يعيش في غربة، وإن اختلفتْ عنْ غربتنا نحن المسلمين.

وإذا كان من أبناء الحضارة الغربية من ينوّهون بمبتكرَاتهم في مجال كل علم، ومنْ يَشِيدون بأرْضيّتهم الثقافيّة التي نبتت فيها بذور الثورة الصناعية، فهزّت أركان العالم، وغيّرت مجرى التاريخ، ومَنْ لا يزالون يأخذون بتلك الفكرة الغربيّة الخادعة، وهي أنهم عباقرة موهوبون، وليسوا كغيرهم من الناس والأجناس، فإنّ من أبناء هذه الحضارة نفسها من تُساوره المخاوف من مصير هذه الحضارة الماديّة الطاغية، فيقول: (لقد وصلنا إلى آخر المطاف، وحان الوقت لأن نَطوي الشّراع، لأننا لا نستطيع أن نتبيّن أكثر ممّا أمامنا بوضوح، إذا سِرنا إلى أبعد من ذلك. ولكن في وسعنا أنْ نثق من أمر واحد، وهو أنّ الدين سيكون الأساس الذي تقوم عليه الحركة المضادّة، ذاتُ القوة المركزية الجَذّابة)[1].

ومنهم من يرى أنّ العالم اليوم على فَوْهة بُركان، وأنْ أيةَ حماقة يرتكبها سياسيّ أحمق، تكونُ نذيراً بحرْب مدمِّرة تدكّ أُسُسَ الحضارة ولا تُبقي ولا

(١) المصدر السابق: ٧٦ ـ ٧٨.

تَذَر، ولا يكون حظُّ الغالب فيها بأوْفَر من حظّ المغلوب. وأسلِحةُ التجارب السرّيّة تتكون حالياً من ثلاثة أنواع، كما بيّن ذلك الخبَراء :

١) أسلحة كيميائية، تتكوّن من غازات مختلفة، ومنها غاز مؤثّر على الدمّ والأعصاب. وكلُّ من يتعرّض له يصاب بالنزيف أو الشلل، وقد تُوجد أنواع أخرى أفظع، ولكنها ما تزال مُحوطةً بالسريّة والكتمان.

٢) أسْلحة بيولوجية، وتؤثّر على التكوين العضوي، فتصيبه بالعجز أو بالتشويه ومن بين هذه الأنواع من الأسلحة ما يُسبّب في اصابات وبائية بالجراثيم.

٣) أسلحة إشعاعية، تُستخدم فيها المواد المُشعّة، أو الأتربة المشبعَة بالإشعاعات، بحيث إذا ألقيت فوقَ منطقة، أحدثتْ فيها من الأثر ما تُحدِثه الانفجاراتِ النّوويّة[1].

ومن شاء التوسُّع في التصوُّرات المزعجة لنتائج حرب محتملة، ومعرفة ما هيأتْه الحضارة المعاصرة من أسباب خرابها وفنائها بأيديها، فليقرأ كتاب (ما يكون من الحرب القادمة ؟) الذي نشره الاتحاد البرلماني العالمي بجنيف.

وإذا كانت الأخلاق من الدعائم الأساسية للحضارة، فإنّ تهذيب الغرائز بصفة عامة، والغريزة الجنسية بصفة خاصة يأتي في المقدّمة. إذ لا شيء يخرب البيوت، ويزدري بالقانون، وبالتقاليد المرعيّة، ويُحدث اضطراباً في حياة الأسرة والمجتمع، وانحلالاً في الأمة ؛ كانطلاق هذه الغريزة بلا كوابح، كما نرى ذلك في أكثر المجتمعات الغربية.

وقد أصبحت المرأة في المجتمعات الاسكندنافية تطالب بإلغاء عقد الزوجية، لأنه يحدّ من حرية المرأة، وقد نجحت في حليّة الزنا رغم مخالفة الكنيسة، ولم يعُد في هذه المجتمعات عموماً أيّ مانع من إنجاب الزوجة، إذا كان زوجها عقيماً، بالتلقيح الصّناعي أو بغيره.

قرأت أخيراً في بعض المجلّات أن بعض المحلّات التجارية ومخازن

---

(١) أمين محمد عثمان : تراثنا العربي في ضوء العلم الحديث : ١٧٨ (ط. دار الكشاف ببيروت).

البيع الكُبرى في أوروبا وأمريكا عمدت إلى وضع مساطب مستطيلة الشّكل في مختلف زوايا محلّاتهم. وعلى كل مسطبة ترقد حسناء عارية. والهدف من ذلك جلبُ أكبر عدد من المنحرفين الذين تدفعهم شهواتهم لأنْ يَتوافدوا على مِثل هذه المحلّات، ويفترسوا بأعينهم المنهومة الأجساد المعروضة فيها.

وهكذا فإنْ استثارة الشهوات، واستغلالَ جسد المرأة أضحى وسيلة لكسب الأرباح الطائلة في عالَمنا اليوم، ولا ندري ما هو المصير الذي سَيُؤدّي إليه مِثلُ هذه الوسائل الدنيئة ؟

وقد أكّدت التجارب والبحوث المختلفة أن ظهورَ الأمراض النفسيّة وانتشارها، يرجع الكثير منه إلى الضغوط النفسية التي يتحمّلها الأفراد.

أجْرى عالم سويدي تجارب شتى للبحث عن سبب الأمراض النفسية، وكانت تجاربه عرض فيلم جنسي خليع أمام عدد من الشباب والفتيات تتراوح أعمارهم بين ١٨ و ٢٥ سنة، تم أجرى فحوصاً عليهم تبيّن له أثناءها أن زيادة هورمون (استرس) كانت بنسبة ٧٠ في المائة عند الذكور و٢٠ في المائة عند الإناث. وبعبارة واضحة : فإنَّ الرجال عند مشاهدتهم لمثل هذه المناظر الخليعة، تقوي الرغبة عندهم في ارتكاب المحرمات بتلك النسبة نفسها، وإنْ تَغلّبوا على كبح جماع هذه الرغبة فقدْ يُصابون بعقدة نفسية[1].

إن العبث الذي أخذ يطغى على عالم الأخلاق فيصيبنا سرطانه، لا تعطينا مذاقاته إلا المُرَّ والعلْقم، وإن مجتمعنا الإسلامي الذي يسعى للنهوض، هو اليوم في حاجة إلى التماسك من أجل البناء، وشيوعُ الخلاعة والميوعة في حياتنا سيعوقُنا حتماً عن السير في طريق التحول من التخلف إلى التطور، سيما وأنّ تطلع المرأة في الأسرة المسلمة إلى المرأة الغربية كنموذج للمرأة التي تخلّصت من مخلّفات الماضي، وخطت خطوات عملاقة في طريق التحرّر المزعوم، يحُول بينها وبين أن تأخذ بتعاليم الإسلام في تربية النشء الذي سيكون امتداداً لهذه المجتمعات الإسلامية المعاصرة[2].

---

(١) انظر مجلة الفكر الإسلامي لسنة ١٩٧٦ عدد ٢٧ و ٢٨ ـ ص ٥٩ ـ ٦٠.

(٢) محمد البهي : عقبات في طريق المجتمعات الإسلامية المعاصرة : ٢٠ (ط. القاهرة ١٩٧٧).

ومن المؤسف أن نرى الفتاة المسلمة تلهث وراء تقليد المرأة الغربية في هذه المظاهر التحريرية، لتكون أكثر تطوراً وحضارة.

والحياة الماديّة الصّرف لا تُنتج إلّا الأثَرة والنّهم والحقد، ولا تجرّ إلّا إلى الذلّ والخوف والمآسي !

ونحن اليوم كمن يقتل نفسه بالأسلحة التي يقدمونها له. فمتى ينكشف لشبابنا الغطاء ليروا بأعينهم الزيف جاثماً وراء المظاهر البرّاقة ؟؟ هل تساءلوا يوماً عن أسباب الشذوذ والانحراف، وعوامل ارتفاع نسبة الانتحارات في أوروبا وأمريكا ؟

وهل بلغهم نبأ مأساة الانتحار الجماعي لطائفة معبد الشعب التي حدثت بالولايات المتحدة الأمريكية في ١٨ نوفمبر ١٩٧٨ والتي بلغ عدد المنتحرين فيها ما يتجاوز التسعمائة ؟

وهل حلّلوا كيف يحدث مثل ذلك في مجتمع متقدّم كالولايات المتحدة الأمريكية التي ضربت الرقم القياسي في الرخاء، وبلغت الذروة في العلم والتكنولوجيا، ويعتبرها أكثر سكان العالم الثالث النموذج الذي يُحتذَى في الاستقرار الاجتماعي والازدهار الاقتصادي ؟

(ونحن في العالم الثالث، والعالم العربي الإسلامي خاصّة ملهوفون لتحقيق النموّ ـ وحُقّ لنا ذلك ـ لنُوفّر الازدهار والكفاية. غير أن تفتّحنا على الغرب لم يمكنّا فحسب من التكنولوجيا ووسائل العمل والحياة الجديدة والخبرات الضرورية، بل أعشت أضواؤه أبصارنا وبينما نفرك أعيننَا، ولا ندرك أين نحنْ من حضارة الغرب وأسلوب حياته، تَنفث في وجدان أجيالنا الصاعدة، وفي عقول ذوي الكفاءات العلميّة والأدبية الناشئة سموم هذه الحضارة من جانبها السلبي الذي اكتفينا في هذا المقام، بذكر شهادات بعض أقطاب التفكير والتحليل في الغرب عنها، حتى لا يُقال، وحتى لا يقول بعض التائهين حضارياً في ديارنا : إنّنا متعصّبون، أو مصابون بحنين إلى الماضي، بل حرصنا على أن يشهد شاهدٌ من أهلها)[1].

---

(١) محمد مزالي : مجلة الفكر لسنة ١٩٧٩. ع : ٤٦٨/٤ (ط. الشركة التونسية لفنون الرسم).

وأنا أضيف إلى ما استدلّ به الأستاذ محمد مزالي من شهادات أبناء الحضارة الغربية شهادات أخرى.

يقول وِيل ديورانت في مقدمة كتابه (متعة الفلسفة) : لقد أصبحنا أغنياء في التكنولوجيا والآلة، إلا أنّنا فقراء في الهدف. إن الإنسان في عصر العلم لم يتغيّر عن ذلك الإنسان الذي كان يعيش في عصور خلت أسيراً لقوتَي الغضب والشهوة، وعبداً لَهما. لم يستطع العلم أن يُحرِّر الإنسان من أهوائه النفسيّة، ولا أن يُغيّر ذهنيّة التجبّر والسفك والاعتداء من روح الإنسان، مع فارق واحد، هو أنّ روح النفاق والتظاهر قد سادت في العالم، وهيمنتْ عليه.

ويقول أرنولد توينبي وهو من أعلام الفكر الحضاري الغربي أيضاً متحدّثاً عما ينخر كيان هذه الحضارة القائمة، من عوامل بطيئة خفيّة : تُرى ! ما هي الحادثةُ التي سيقع عليها اختيارُ مؤرِّخي المستقبل، ويرون أنها أبرز الحوادث في عصرنا ؟

أظنّ أنها لن تكون إحدى الحوادث السياسية والاقتصادية المثيرة أو المُفجعة التي تشغل عناوين الصُّحُف، وتحتلّ مكان الصدارة في أذهاننا، ولا الحروب والثورات والمذابح، والمجاعة، وإغراقُ الأسواق بالسّلع، والهبوط الفجائي في الأسعار و و......... ولكنها ستكون من الحوادث التي لا نكاد نشعر بها، والتي يتعذّر علينا أن نجعل منها عنواناً مُثيراً.

إنّما تجذب أنظارنَا مِثْلُ تلك الأحداث، لأنّها تطفو على سطح نهر الحياة وهي تَصْرِفُنا عن النّظر إلى الحركات البطيئة ؛ الحركات التي تصنع التاريخ في النهاية، وهي تبدو بارزة في ضوء الماضي حين تتضاءل الحوادث المُثيرة العابرة، وتظهر في نِسَبِها الصحيحة على مسرح الماضي.

سيقول مؤرخو المستقبل : إن الحادثة الكبرى في القرن العشرين، هي اصطدام الحضارة الغربية بسائر المجتمعات الأخرى القائمة في العالم، وسيقولون عن هذا الصِّدام : إنّه بلغ من القوة والشمول بحيث أدّى إلى قلب ضحاياهُ رأساً على عقب، وبطْناً لظهر، وأثّر بشدة في سلوكهم وآرائهم

ومشاعرهم وعقائدهم رجالاً ونساء وأطفالاً، ومسَّ من أوتار الروح ما لا تمسُّه القوى المادية الخارجية وحدها، مهما بلغت شدّتُها وهولها....»[1].

ولقد أحسّ الغرب نفسه بسآمة التّقيّد بالواقع الماديّ كما هو، والتعرّف على الظواهر كما هي في حياته العملية، فالتمس متنفّساً بالفنّ الذي لا يُقيده بالواقع، ولا بالقيود الموضوعيـة. وابتدعتْ أهواؤهُ ما شاء لها أن تبتدع، وهام خياله في كل واد، فأفرز خليطاً من فتنة الجنس، وقلق الحيرة، وتشاؤم العبث، جاء كالكوابيس التي نراها في المنام بلا معقوليتها ولا منطقيّتها.

ومن هنا فإنّ من سمات حضارة اليوم أنه يسودها معقولُ العلم من جهة، كما يسودها لا معقولُ الفنّ من جهة ثانية، «فجعلت من الإنسان إلهاً، ثم جعلت منه في الوقتِ ذاته حيواناً، ثم جعلته في النهاية عبداً سلبياً خانعاً لا حول له ولا طول بإزاء آلهة المادة والاقتصاد، وآلهة الحتميّات»[2].

وإنّا لنرى في كل حين سننَ الله في الأمم تتكرّر أمامنا، ولكنِ هلّ من معتبر ؟ فوَبَالُ الأعمال السيئة الذي ذاقته الأمم السالفة يَحِيق اليوم بالأمم الغربيّة، كآفات الحروب، ومشكلات الاقتصاد، وتفاقم البطالة، وانتشار الأمراض الحضارية الغَربية، وتفكّك الأسرة، وتبدّد النظام العائلي الخ... ﴿ولا يَحيقُ المَكْرُ السيّء إلّا بأهله. فهل ينظرون إلّا سُنَةَ الأولين، فلن تجدَ لسنة الله تبديلاً، ولن تجدَ لسُنّة الله تحويلا﴾. (فاطر : ٤٣).

حضارة الإسلام وحضارة الغرب :

فنحنُ إذا قارنّا بين الحضارتينْ : الإسلامية التي لم يُكتب لها أنْ تعمِّر بكلّ مقوّماتها وعناصرها، وبكل ما يمدُّ فروعَها أُفُقياً ؛ والحضارة الغربية التي تبلغ من العمر نحو ثلاثة عشر قرناً، ولكنّ تناقُضاتها العديدة لا يقبلها منطق سليم ؛ نجد الفروع بينها عميقةً في نقاط عديدة وأَهَمُّهَا :

---

(١) الحضارة في الميزان : ١٨٨ ـ ١٨٩.

(٢) محمد قطب : جاهلية القرن العشرين : ٢٥٤ (ط. دار الشروق ١٣٩٨ هـ).

١) أنّ الحضارة الإسلاميّة روحيّة ماديّة في اعتدال وتناسق وتمازج عجيب.

وطريقُهـا :

ـ ما نزَل به الوحيُ السّماوي على قلب محمد ﷺ.

ـ ما يتوصّل إليه العقلُ بالبحث العلمي.

ـ ما يكْتسِبُه الإنسان بخبْرته وتجربته وممارستِه التطبيقية.

فهي تحمل في طيّاتها ما هو خالد. وتَعْتَبِر : أنّ حاجة الدين إلى الدُّنيا كي يستقرّ ويمتدّ، كحاجَةِ الرّوح إلى البدن السويّ كي يسمع ويُبصر ويمشي على هذه الأرض، ولكن لا ارتباطَ بين التمكين في الأرض، والخبْط في شهوات الدنيا، أو السرّف في شهوات البدن، أو الميل مع نزعات الهوى والظلم[1].

وحضارة العصر ماديّة تعتبر الدّين مسألة شخصية، لا علاقة لها إلا بضمير الفرد، كما هو مذهب أكثر الغربيين أو تُطرِده من حياة الإنسان، كما هو مذهبُ الشيوعيين،وتعاليمُ السماء لم تَعُدْ نافقةً في سوق العالم.

والمبرَّر عندهم : اتّجاه العصر، ووِجهة التيار، وسير الزمان ؛ وأن الإنسان تنحصر حياته كلُّها في هذه الدنيا، وهدفُه أن يحقّق رغباته المادية بأكثر ما يكون من الوفرة والجوْدة، والوجهُ الحقيقي لاستعمال القوة، هو أن ينسجم الإنسان مع ما يجري في هذا الكون من قانون (تنازع البقاء) و (الانتخاب الطبيعي) و (بقاء الأصلح). والحضارة التي اتّخذتْها أوروبا كانت تقوم على هذه النظرية التي جسّمها الاستعمار الأوروبي في أفظع أشكاله وألوانه.

ويكاد العالم يتوزّع بين قوّتين : هما الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفياتي. وكلتاهما تمثّل القوة الماديّة الهائلة التي توصّل إليها الإنسان المعاصر، والتي لها ضغوطُها الشديدة على الشعوب الضعيفة

---

(١) محمد الغزالي : كيف نفهم الإسلام : ٥٢ (ط. مصر).

سياسيّاً واقتصاديّاً وعسكريّاً، وقد تتفق القوّتان على مصالحهما ضدّ بعض المواقف والشعوب.

٢) حضارة الإسلام إنسانيةُ النّزعة في جوهرها ؛ تقومُ على الشّخصانية والفردية، للتنوّع وللإبداع الذاتي، وليكون كلُّ مؤمن نسيجاً وحده، يختلف باطنياً عن الآخرين، وهذا لا يعني إقامة جدران ضِدَّ الوحدة التي بناها الإسلام في المجتمع، ولكنَّ هذا التنوّع، وهذا الاستقلال، أساسٌ لقيام مجتمع لا يطويه التّشَابُه الأصمّ، والتجريد الميّت، وإنّما تتكامل فيه عناصر الإبداع، ومقوّمات التنوّع، فيغدو كلوحة تتناسق فيها الألوان وتتعاطف.

إنّ ما قاله الرسول ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه من صفات ذاتية وصدق باطني، وإيمان راسخ ؛ غير ما قاله لعمر رضي الله عنه من قدرة على تحدّي الغُموض، وثبات على الحق، وسعي دائب لبلوغ الهدف ؛ وغير ما قاله لعثمان رضي الله عنه مقدِّراً فيه حياءَه العميق، وحلمَه الذي لا تحدّه حدود ؛ وغير ما قاله لعلي رضي الله عنه عندما يسلِّمُه الرّاية، ويدفعه إلى القتال فارساً مُنافحاً عن دينه، لا تصدّ عزيمتَه جيوشُ الشّرك ؛ وغير ما قاله لأبي ذرّ رضي الله عنه معلناً أنه سيموت وحده، ويُبعث وحده، لأنه نسيج وَحْده... ؛ وغير ما قاله لكثير من أصحابه الكرام، ومهيِّئاً كلاًّ منهم لدوره المنفرد العظيم .

فَحِرصُه ﷺ على تفرّد أصحابه، وإنماءِ الشخصيّة المستقلة لكل منهم بما يميّزها من تجربة باطنية عن غيرها، ليس إلا تطبيقاً عمليّاً لرغبة الإسلام في إقامة حضارته المتوحّدة على فكرة تنوّع النماذج الإنسانية، ورفضه الشديد لأنْ يتحول المجتمع الإسلامي إلى قَطيع من الأغنام....، إلى أرقام متشابهة في معادَلة رياضية.

صحيحٌ أنّ هناك قاسماً مشتركاً أعظمَ، جاء الإسلام ليجمع عنده مطامحَ المسلمين وتعاطفهم وتكافلهم وآلامهم وآمالهم وأهدافهم المشتركة لكنّ ذلك لم يمنع من إتاحة المجالِ للإنسان الفرد أن يُنمِّي طاقاته الخاصة، وقدراته الذاتية، وتجاربه الشخصية، والإسلامُ في تأكيده على ذلك،

إنّما يريد أن يصبّ ماءه الفرات في محيط الحضارة الواسع، فيزيده غنى وحلاوة وامتلاء[1].

وحضارةُ الغرب إنسانيّةُ النّزعة في مظهرها لا في جوهرها. لأنّ الفرد في المجتمعات الغربية قد تطغى به الأنانية الهدّامة، فيتألّهُ وينسى أنّ بِجَانبه بشراً مثلَه، فيركب رأسه في إشباع رغباته، ولا يهمّه أن يتضرر المجتمع بتصرفاته الحمقاء، إنّه يُرَابِي، ويحْتكر الأسواق، ويُضَيِّق الخناق على الآخرين لِيُثْري، فتغرّه النّعم، ويُغريه الترف، وتموت فيه رُوح النضال والمبادرة في الخير.

والفردُ في المجتمعات الاشتراكية الشيوعيّة لا يوجد إلا للمجتمع، ليكون لَبِنَة من لَبِنَاتِ بنائه، لأنّ المُهِمّ عندهم في الحياة الإنسانية، أنّ المجتمع هو غاية الإنسان، وليس الفرد إلّا وسيلة لتلك الغاية. فهو نسخة مكرَّرة من المجتمع أو هو مجرد جزء مِنْ كُلٍّ اجتماعي. وهذا قد يَصْدق أيضاً على الحشرات الاجتماعية كالنّحل والنمل.

وأهمُّ اتصالات النّفس هو اتصالها بالله، وهو ما ألْغته الشيوعية.

فالعواملُ الماديّة أساسية لنشأة الحضارة، ولكنْ لا بدّ أنْ تضاف لها عوامل روحية تستحثّ خُطاها، وتُحدّد مَسْراها، وتبعث فيها دوافع التّطلّع والإبداع والإنشاء.

٣) حضارة الإسلام مصدرُها رسالةٌ سماوية، فلمْ تقم على البغي والعدوان، بل على مقاومتهما، وعلى نشر العدل والفضيلة والأمن.

والتاريخ يشهد كيف كان المسلمون ـ وبيدهم السلطة والقوة ـ يحسنون معاملة أهل الكتاب من اليهود والنصارى المتساكنين في دار الإسلام، فقد كان لهم من الحقوق المدنية للمسلمين، وربّما بلغ بعضهم إلى عصور متأخرة شأواً لم يبلغه المسلمون أنفسُهم في سَعَة الثروة، وحسن الرعاية، وحريّة المعتقد عملاً بتوصيات الكتاب والسنة.

---

(١) عماد الدين خليل : في النقد الإسلامي المعاصر : ٢٩ ـ ٣٠ (ط. بيروت ١٩٧٢).

على حين أنّا نرى اليوم ما تعاني الأقليّات الإسلامية والجاليات والعَمَلَةُ المهاجرون في الأقطار الأجنبية.

وما الحروب الصليبية المتوحّشة التي سالت فيها دماء الأبرياء انهاراً، والاستعمار التوطيني المفروض على الشعوب الإسلامية بقوة الحديد والنار أجيالاً، والصهيونية الباغية التي انتهكت حرمات المسجد الأقصى، وشرّدت شعب فلسطين الأبيّ، وتحدّت العرب والمسلمين والعالم أجمع باغتصابها للأراضي العربية، وانتهاكها لحقوق الإنسان، واعتداءاتها المتلاحقة على مخيمات اللّاجئين الفلسطينيين، وتشتيت شمل المسلمين وتفريق كلمتهم بالمناورات والدسائس، أليس ذلك كلّه عدواناً مبعثه القوة المادية التي هي إحدى الدّعائم الأساسية للحضارة الغربية، والحافز الكبير عليها في الأصل ؟

يقول آرناست باركر في كتابه (تراث الإسلام) : (كان تأثير الحروب الصليبية عظيماً في تطوّر فن الحرب عندنا، وإيجاد رابطة جديدة للوحدة الأوروبية، شعوراً منها باتّحاد المصالح المشتركة، وكان يسود المسيحية روحٌ دولي قاعدته العامة : العدوان المشترك على العدوّ (المسلمين)، ولئن لم تكسب المسيحية في هذه الحروب بما يُستطاع قياسه على الخريطة، فقد كسبت أشياء أخرى غير محسوسة لها قيمتُها)[١].

ومازالت منتجات الحضارة الغربية تستنزف ثروات البلدان غير المصنّعة بمختلف الوسائل والطرق، وتبتلع معاملُها الموادَّ الخام، من المعادن التي ينتجها غيرها، وتستغل شركاتُها ملايين الأطنان من الطاقة البترولية، وترفع أسعار منتوجاتها بلا حساب.

فماذا قدَّموا مقابل ذلك للشعوب النامية التي هي في حاجة إلى المساعدة بالخبرة الفنية، وتطبيق الوسائل العصرية لتوفير الإنتاج، وإحياء الأرض والزيادة في المحصول، رغم الطلبات الملحّة التي قُدّمت لهم في ذلك لتحقيق توازن اقتصادي عالمي أكثر نزاهة وعدلاً ؟

---

(١) آرناست باركر : تراث الإسلام. ج : ١٣٩/١ ـ ١٤٠.

ثم هل وضعوا حدّاً للمجاعة التي أضحت تهدد جزءاً كبيراً من سكان العالم، سيما ونحن نحتفل هذا العام بالسنة العالمية للطفولة ؛ والإحصائية الأخيرة للأمم المتحدة أثبتت أن نسبة الأطفال المحرومين من ضروريات الحياة في العالم مرتفعة جداً، تزرع الخوف والذّعر، بينما يزداد إثراء البلدان المصنّعة على حساب المعذّبين في الأرض ؟

إن المعجَبين بمنجزات الحضارة الغربية ومعجزاتها، والمفتونين بها أصبحوا ـ اليوم ـ أكثر من أي وقت مضى ـ يبحثون عن موارد هذه الحضارة، وعوامل نموّها وازدهارها، وعن مدى ما أفادت الإنسانية في غير الاستهلاك اليومي لمنجزاتها الذي هو عملية تجارية، كما أعجب غيرُهم من قبلُ بالجمال الفني في بناء الهرم الأكبر، أو بجمال الجواهر في قبر توت غنج آمون مثلاً، ثمّ نشب في نفوسهم صراع بين شعور الاعتزاز بالانتصارات التي أحرزها الفن الإنساني في عهود سحيقة، وبين شعور الألم والاستنكار للثمن البشري الذي اقتضته هذه الانتصارات، ألا وهو الأعمال الشاقّة التي فُرضت ظلماً وبغياً على الكثير من العُمّال والصُّنّاع لقطف أزهار الحضارة اليانعة، التي كانت وقفاً على طائفة محظوظة تجني ثمار ما لم تزرع ! وقد سَلَب سادةُ الحضارة خلال ما يناهز خمسة آلاف عام من عبيدهِم ثمرات الجهود المشتركة دون جزاء، ولا شفقة أو رحمة، كما يُسلَب الشهد من النحل ؟

إن الشناعة التي ينطوي عليها هذا العمل الجائر من الناحية الإنسانية الأخلاقية ليُفسد الجمال الرائع لهذا العمل الفني، وإنْ بَلَغَ ما بلغ من الجودة والدقّة والإتقان. ومن هنا يصح القول بأن الحضارة الغربية ليست وليدة الرجل الغربي، بل هو صنيعتُها.

٤) والنقطة الرابعة : أنّ الحضارة الإسلامية مفتوحة الحدود، تمتدّ أرجاؤها حتى تشمل بالنفع والإحسان، كلَّ ذي نفس من إنسان وحيوان.

جاء في الحديث الصحيح أنّ رسول الله ﷺ قال : « إن الله تعالى شَكَر لرجل رَأى في الفلاة كلباً يلهث من شدّة العطش، فنزل الرجل إلى بئر فيها، فملأ خُفّهُ ماء، ثم خرج فسقى الكلب » فأين هذا من تجنّي الحضارة

الحديثة على الطبيعة وتلويث البحار والمحيطات بما يقضي على الأسماك والحيتان ويمحق ثروة ضخمة سخّرها الله لعباده ؟

وتَفَتُّحُ حدودِ حضارتنا الإسلامية يتمثّل في ثلاثة جوانب :

أ ـ إنّ ضِيق الفكر لا يحدُّ من أبعادها، إذ في ظلها نشأت مختلف الفرق والمذاهب الإسلامية التي أنشأت تراثاً إسلاميّاً ضخماً. ورغم ما نشب بين أصحابها من خلافات حادّة، فإنها تنتمي كلُّها إلى الإسلام الذي لم يضق عن أي فرقة منها، طالما لم تخرج عن أصولِ عقيدتِه وشريعته ؛ لأنّ حضارته تتسامى عن القومية المتعصِّبة، والعنصرية المقيتة، والاقليمية الضيِّقة، كما نرى هذه الحدود في معظم الحضارات البشرية.

ب ـ أنَّ طاقتها المادية والروحية في عُمق البحث والاكتشاف لا تقف عند حدّ معيّن، وذلك ما جعلها في القمّة لا في السفح ؛ لاستجابة الإسلام إلى ما يطمح إليه الإنسان السويّ.
وإذا حصل فراغ أو نقص في العلوم التجريبية، فمرجعه إلى المسلمين، لا إلى طبيعة الإسلام.

جـ ـ أنَّ شمولَها وعالميتها لا تسمح لها بأن تحتكر العلم، بل تفيد به المسلم وغير المسلم على السواء. وإذا أُطلِق العلمُ في الإسلام، شمل كل ما ينفع الإنسان في آخرته أو دنياه، ولم يُعرف عن علماء الإسلام في أيّ فرع من فروع العلم، أنهم كتموا عن غيرهم ما تعلّموه، عملاً بقوله ﷺ : « من كتم علماً ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار ». (رواه ابن حبّان في صحيحه).

فكان بيت الحكمة في بغداد والقيروان، وكانت قرطبة كجامعة مفتوحة للجميع بدون تمييز، يؤمُّها المسلمون والأوروبيّون على السّواء.

ونحن نرى اليوم في البلاد المتقدّمة علميّاً وصناعيّاً مناطق محرّمة من التكنولوجيا الحديثة على أبنائنا الذين تكوّنت لهم بدراستهم في جامعات أوروبا وأمريكا عقولٌ وملكات علميّة بالمعنى الحديث للعلم، ولكن لم يوفّروا

لهم في المخابر والمصانع التجارب التقنية التي تخرجهم من الحدود النظرية المجرّدة، إلى التطبيق العلمي المتجسّم في أجهزة تصنعها التقنية الحديثة، أو تُصلحها إن تعطّلت، أو أصابها عطب. فذلك هو الذي يُبدّل حياة المجتمعات من حال إلى حال.

وإذا تَكَوَّنَ لأحدهم اختصاص ما، أو مهارةٌ في بعض العلوم الحديثة أغرَوه بمختلف وسائل الإغراء، ليبقى، فينتفعوا بخبرته، ويمتصّوا جهوده، رغم احتياج وطنه إليه.

سبيلُنا إلى الحضارة الحقّ :

وخلاصةُ القول : فإنّ سبيل الحضارة الإسلاميّة هو المنهج الذي يتجاوب مع فطرة الإنسان، ويمكّنه من أداء دوره في الحياة، وتفاعُلِه مع عناصر الكون تفاعلاً صحيحاً، دون أن تتحكم فيه المادة، وتستعبده الأهواء، وتنسيَه زينةُ الدّنيا ومتاعُها أنّه ملتزِم مع الله.

وقد حدَّثنا القرآن عن حضارات بلغت درجة رفيعة في الرقيّ الماديّ، ولكنّها عندما أخذت زخرُفَها وازّيّنتْ، وظنّ أهلها أنهم قادرون عليها، أتاها أمرُ الله، فصارت حصيداً كأنْ لَم تَغْنَ بالأمس، ثم بقيت معالمُها أطلالاً، تنطق بما أصاب أصحابَها من بَوَار ودمار، وتبعث على العِظة والتأسّي، كحضارة سبأ وعادٍ وثمود[1] ؛ لأنّ الحضارة التي لم يشدَّها الإيمانُ والعلم والفضيلة، دمّرها الكفرُ والجهل والرذيلة.

« أوَلَمْ يسيروا في الأرض فينظُروا كيف كان عاقبةُ الذين من قبلِهم كانوا أشدَّ منهم قُوّةً وآثاراً في الأرض، فأخذَهم اللهُ بذنوبهم، وما كان لَهم من الله من وَاقٍ » (غافر : ٢١).

ونظرةٌ مقارِنة بين حضارة الإسلام وحضارةِ الغرب تُرينا ما يجب الوقوف عنده للتَدبّر والتفكّر والاعتبار، وما في ديننا الحنيف من قوة ودفع، ومن كنوز ثمينة مفاتيحها بأيدي حُماته من شبابه وقادته، وما في الحضارة

---

(١) توفيق محمد سبع : قيم حضارية في القرآن الكريم : ج ١٩٣/١. (ط. القاهرة ١٩٧٢).

الغربية من سلبيّات خطيرة، واتجاهات هدّامة شَغَل بها أبناءَنا عن عناصرها الإيجابية في علومها التجريبية والتقنيّة التي تعمّدوا إخفاء نُظمِها عنهم لِخطّة مرسومة. فهم يُغدقون عليهم بكل سخاء هذا القصص الجنسي المائع، وهذه الأفلام الجديدة الخليعة والعنيفة، وهذا الغناء في الإذاعة المسموعة المرئيّة، وهذه المجلّات والكتب المفتوحة على حانات الخمر ومراقص الليل، وهذه الأشكال المتنافرة في الملابس، والأزياء ؛ ليطبعوا نفوسهم بطابع العصر، ويُلهوهم بزيف حضارته عن حقيقته، وبِقشْرها عن لُبابها، حتى يفلت زمامُ الأمر من أيدي القادة ورجال الإصلاح نهائيّاً بقوّة التيار.

فلنبدأ من الإيمان بتطهير قلوبنا وأعمالِنا من البدَع، والشّرك الخفيّ، وأخلاقنا من الانحلال والفساد، ومُعاملاتنا من المخالفات والمحرَّمات ؛ ثم نسير نحو أهدافنا البعيدة على ضوء مُخطّط مرْحَلي، كي لا تكون تحرّكاتنا هامشية أو عشوائيّة. إنّنا في حاجة إلى تأصّل وتفتُّح نحققهما عَبْرَ مراحل ثلاثة :

١) مرحلةُ التأصُّل، فيها نحاول استيعاب الفكرة الحضارية التي تتمثل في الدّين الإسلامي إيماناً وعلماً.
فيجب كما قال الشيخ الغزالي : (أن تزول الفجوةُ التي بيننا وبين الإسلام، وأن تقف فوراً هذه الحرب الفاجرة على تعاليمه وأشياعه).

٢) مرحلة البعث. وفيها، نتحسّسُ التخلّف، ونستيقظ من سباتنا ونعتزم أن نحيا كأقوى ما تكون الحياة في حركيّتها الدّائبةو نشاطها المتواصل.
فيجب أن نتخلى عن كل ما يكبّلنا ويخدّرنا من مثل :
« هل رأى الحبُّ سُكارى مثلَنا ».

٣) مرحلةُ التّفتُّح، وفيها نعمل بروح نضاليّة على الإفادة من تقنيّات العلم الحديث ؛ فيجب أن نغيّر الواقع بواقع آخر أقوى، ونعمل أكثر ممّا نقول، حتى لا نمْلأ الجو بانفعال الغضب وصيحات الغيظ، ونظنّ أن هذا كفيل بأنْ تنزاح عن أرضنا دبّاباتُ العدوّ، وتختفي من سمائنا طائراتُه. وقدْ نَصِفُ العدوَّ برذائل الأوّلين والآخرين، ولكنّ ذلك لا يغيّر الواقع في شيء.

فنحن على أبواب قرن جديد، القرن الخامس عشر الهجري الذي أعدّت له الأمانة العامة لمنظمة المؤتمر الإسلامي الترتيبات الخاصّة من برامج عالمية ووطنية ومؤتمرات ومعارض، وما تتطلبه هذه التعبئة الضخمة من جهود ومهارات وتنظيم وتمويل، والذي سَتكُون هذه المنظّمة المجاهدة في الله، المنظّمة العالَمية للشباب الإسلامي التي ستضطلع بدورها الإيجابي في إنجاحه بإذن الله، بحكمة قادتها الهُداة، وإيمان شبابها بأنه لم يُخلَق للانسياق مع التيارات الغربية، بل ليواجهها في صمود وثبات، فليكن واعياً بمسؤوليّاته الجسيمة في هذا العصر الذي تحطّمت فيه الذّرّة، وانشطرت النّواة، واختُرع القمر الصناعي مخترق الفضاء، والصاروخ عابر المحيطات.

فإنّ الدّعوة إلى مواكبة العصر في علومه وتقنياته بالكلمة في خطاب أو مقال أو قصّة أو قصيدة أو كتاب برغم أهميّتها وضرورتها، أصبحت لا تكفي، إذا لم يَقترِنْ بها الفعل الدّؤوبُ في المخابر والمصانع والجامعات. ولا ينبغي أن يكون الهدفُ الوحيد لمجتمعاتنا الحديثة في الرخاء المادّي والترفيه، والاستمتاع بمرافق الحياة العصريّة، ولا أن تأخذ المعاناة اليوميّة في كفاحنا المعاشي من جهودنا وطاقاتنا أكثر ممّا تستحق، ولا أن نَحْمِل اللّامعين من شبابنا في علوم العصر على الهجرة إلى البلاد الأجنبية حيث المرتّباتُ المغرية، والتشجيع الأدبي، بينما أقطارُ العالم الإسلامي في حاجة ملِحّة إلى تبادل الخبرات والتعاون الاقتصادي والفنّي والتقني ؛ ومكتبتنا العربيّة ما يزال ينقصها الكثير من الكتب والبحوث العلميّة العصرية في نواحي المعرفة التي تزخر بها مكتبات الغرب ؛ والمصطلحات العلميّة في لغتنا ما تزال غير موحّدة، وغير مزوّدة بمفاهيم علميّة كاملة، وغير شاملة لكل متطلّبات العصر، ومقتضيات حضارته المادية مثل المصطلحات الأجنبية العلمية من حيث الدقّة في التعبير والتصوير للمدرك العلمي والتقني.

وإذا كان تعلّمُ اللغات الحية ضرورياً لتعلّم العلوم العصرية وإتقانها وترجمتِها، فإنّ تبدُّلَ اللغة كتبدّل الأثواب المختلفة، لا يكون سبباً في تغيير ملامح العصر.... وقد صَبَّ الفرنسي مثلاً نتاج العصر في لغته الفرنسية، فصار بذلك معاصراً لزمانه، وكذلك فعل الإيطالي والألماني والروسي

والياباني. فلا مُبرِّر إذَنْ لمعارضة بعض المتحذلقين ترجمةَ العلوم العصريّة، ظنّاً منهم بأن هذه العلوم لا يليق بها إلا الثّوْبُ الانجليزي أو الفرنسي أو غيرهما من لغات الأمم المتقدمة. وقد قُبِلت العربيّةُ في المجامع الدولية لغةً خامسة، إلى جانب اللغات الحيّة العظمى، ثم إن الحضارة العلميّة الحديثة تقذف في كل يوم بعشرات المصطلحات الجديدة إلى ساحة التداول، فكيف نلاحق هذه السرعة، ونحن مازلنا بعيدين عن الهدف ؟

إنّه لا يحقُّ لنا الحديث عن وجودنا في عصرنا قبل أن نجِدَ هذا العصر بكل مقوّماته قدنطق بلسان عربيّ، وبقدر ما نسكُب مادّة العصر في إنائنا اللغوي يكون نصيبنا من المعاصرة مع احتفاظنا بأصالتنا. وهذه إحدى الخصائص التي تختفي في كل حالة بدائيّة، وتظهر في كلّ حالة حضاريّة.

فإذا أردنا أن نَبقَى على صلة حضارية مع العالم الغربي، فلا يجوز لنا بحال أن نُسقِط الإسلامَ من اعتبارنا، أو نستخفَّ بما يبدو شكليّاً، ولكنه في الحقيقة أساسيّ لصياغة الرُّوح الإسلاميّة عند المسلم، فلا بدّ من احترام لغتنا وإحيائها، ولا بدّ من احترام التاريخ الهجري، والأعياد والمواسم الإسلامية وتوحيدها لتحقيق معنى التضامن الإسلامي في أتَمِّ صُورِهِ وأشكاله، واعتبار مكّة المكرمة، هي القدوةُ المُثلى، والمركز الرئيسي لما يصدر عن المسلمين من مقرَّرات لإصلاح دينهم ودنياهم. والله سبحانه من وراء القصد.

المـراجـع

(١) ابن خلدون : المقدمة : ٧٧٧ (ط. بيروت ١٩٦١).

(٢) زكي نجيب محمود : ثقافتنا في مواجهة العصر : ٢٠٢ ـ ٢٠٣ (ط. دار الشروق ١٩٧٦).

(٣) المصدر السابق : ٢٠١.

(٤) زكي نجيب محمود تجديد الفكر العربي : ٢٩٤ ـ ٢٩٦ (ط. دار الشروق ١٩٧٣).

(٥) الملتقى السادسي للفكـر الإسلامـي ١٩٧٢ : ٣٦، ٣٧ (ط. الجزائر).

(٦) تاريخ الفلسفة في الإسلام. (ت) أبو ريدة : ٢٠٤ (ط. القاهرة : ١٩٤٨).

(٧) محمد إقبال : التحديد الديني في التفكير الإسلامي (ت) عباس محمود : ٦١ (ط. مصر ٥٥).

(٨) عبد الرحمن حسن الميداني : أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها : ١٩٠ ــ ١٩١ (الدار العربية للطباعة والنشر).

(٩) زكي نجيب محمود : ثقافتنا في مواجهة العصر : ٢٠٣.

(١٠) ارنولد توينبي : الحضارة في الميزان : (ت) محمود أمين الشريف : ٣٧ (ط. الحلبي القاهرة).

(١١) ع. محمود العقاد : أثر العرب في الحضارة الأوروبية : ١٦٠ (ط. مصر. ١٩٤٦).

(١٢) الملتقى الثامن للفكر الإسلامي بالجزائر سنة ١٣٩٤ : مج : ١١٦٢/٣ (ط. الجزائر).

(١٣) عثمان الكعاك : ملتقى الفكر الإسلامي بالجزائر سنة ١٣٩٢ مج : ٣٠٧/١ (ط. الجزائر).
(١٤) سليمان حزين : مقومات الحضارة الإسلامية (التوجيه الاجتماعي في الإسلام : ٢٥/١ (مجمع البحوث الإسلامية).
(١٥) محمد خلف الله أحمد : أثر الحضارة الإسلامية في رقي البشرية (التوجيه الاجتماعي في الإسلام : ٤٢/١ (مجمع البحوث الإسلامية).
(١٦) L'Afrique aux trois visages P. Houart : (Bruxelles 1961 : ١٩٦١)
(١٧) مجلة حضارة الإسلام. العدد الثالث لسنة ١٩٦٢.
(١٨) ابن حوقل : المسالك والممالك : ١٠ - ١١ (ط. ليدن ١٨٧٢).
(١٩) آدم متز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري (ت) أبو ريدة ٢٢.٢١/١ (ط. بيروت ١٩٦٧).
(٢٠) لبيب عبد الستّار : الحضارات : صفحة ٢٨١ وما بعدها (ط. ٢ بيروت).
(٢١) جرترود هارتمان : العالم الذي نعيش فيه : (ت) محمود حامد شوكت : ١١٨ (ط. القاهرة ١٩٤٩).
وانظر : كتاب دراسات في تاريخ العلوم عند العرب : حكمت نجيب عبد الرحمن.
وكتاب ورقات عن الحضارة العربية بافريقية : حسن حسني عبد الوهاب.
وكتاب : العلوم في الإسلام : حسين نصر.
وكتاب : الفنون الإسلامية : أحمد محمد عيسى.
فان في هذه الكتب من التفاصيل المبينة للحركة العلمية وتاريخ العلوم عند المسلمين ما يكشف عن مدى النهضة التي بلغوها في شتى فروع العلم وعن مدى فضلهم في تقدّم بعض العلوم الحديثة، بما وضعوا لها من أسس ومهدوا لها من سبل.

(٢٢) L'emploi des caractères arabes dans l'orientation chez les peuples chrétiens d'occident (Revue Archéologique 1846).

(٢٣) آرناست باركر : تراث الإسلام (ت) علي أحمد عيسى. ج : ٨٣/١ ـ ٨٤ (ط. لجنة التأليف والترجمة ١٩٣٦).

(٢٤) محمد عبد المنعم خفاجي : الإسلام والحضارة الإنسانية : ٢١٥ ـ ٢١٦ (ط. بيروت ١٩٧٣).

(٢٥) هارتمان : العالم الذي نعيش فيه : ٢٦٩.

(٢٦) أرنولد توينبي : الحضارة في الميزان : ١٨٥.

(٢٧) المصدر السابق : ٧٦ ـ ٧٨.

(٢٨) أمين محمد عثمان : تراثنا العربي في ضوء العلم الحديث : ١٧٨ (ط. دار الكشاف بيروت).

(٢٩) انظر مجلة الفكر الإسلامي لسنة ١٩٧٦ عدد ٢٧ و ٢٨ ـ ص ٥٩ ـ ٦٠.

(٣٠) محمد البهي : عقبات في طريق المجتمعات الإسلامية المعاصرة : ٢٠ (ط. القاهرة ١٩٧٧).

(٣١) محمد مزالي : مجلة الفكر لسنة ١٩٧٩. ع : ٤٦٨/٤ (ط. الشركة التونسية لفنون الرسم).

(٣٢) الحضارة في الميزان : ١٨٨ ـ ١٨٩.

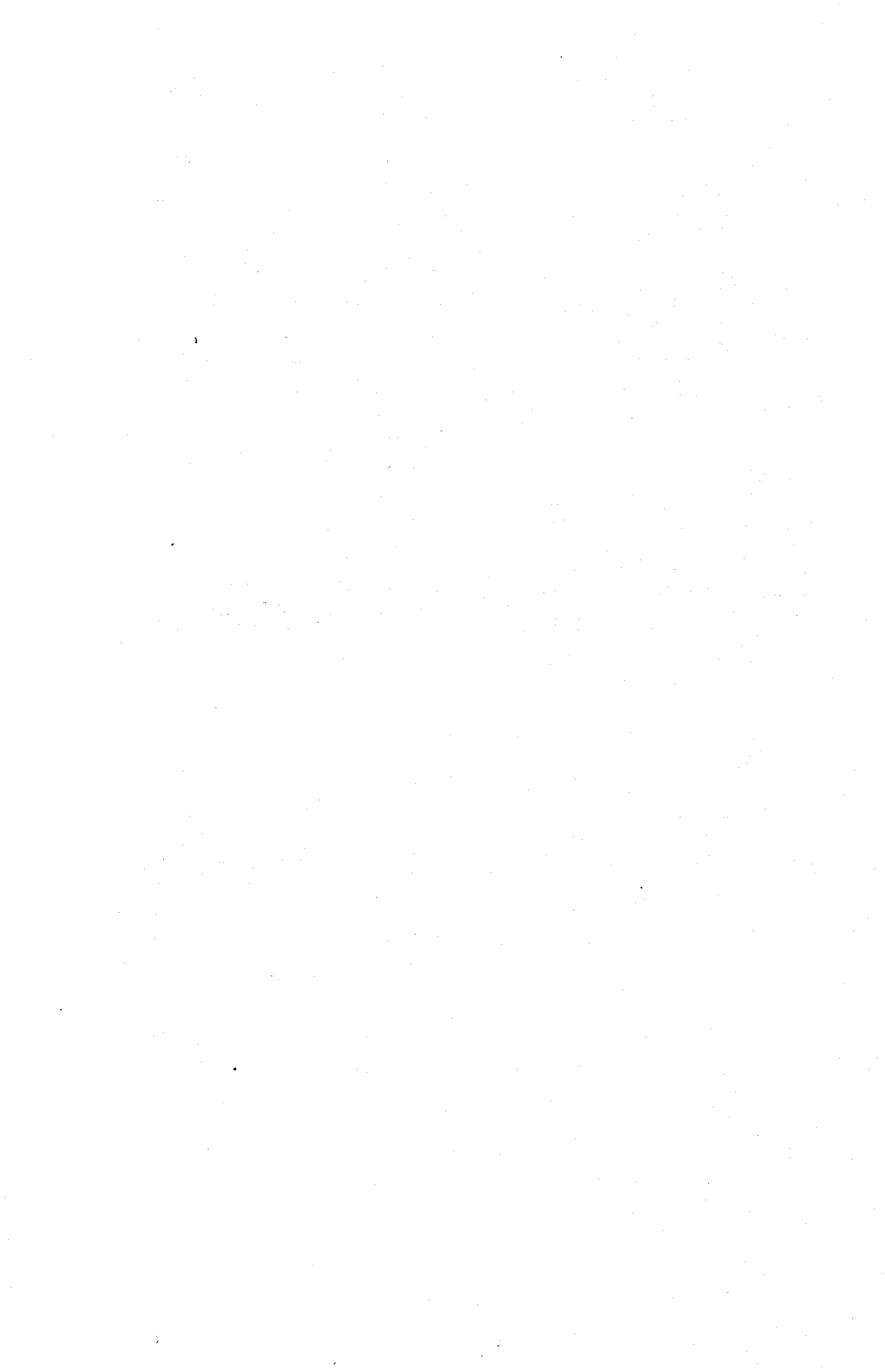
(٣٣) محمد قطب : جاهلية القرن العشرين : ٢٥٤ (ط. دار الشروق ١٣٩٨ هـ).

(٣٤) محمد الغزالي : كيف نفهم الإسلام : ٥٢ (ط. مصر).

(٣٥) عماد الدين خليل : في النقد الإسلامي المعاصر : ٢٩ ـ ٣٠ (ط. بيروت ١٩٧٢).

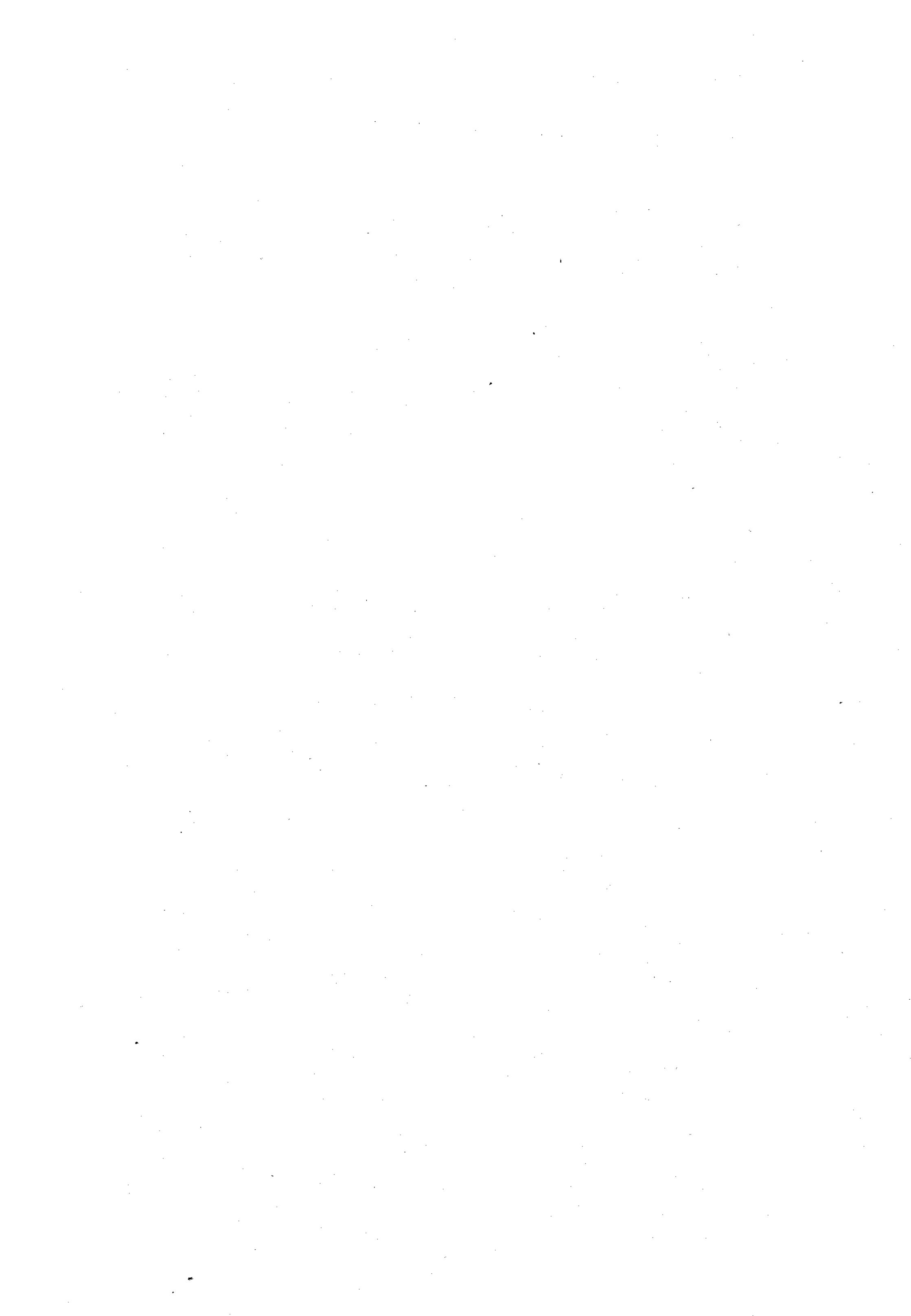
(٣٦) آرناست باركر : تراث الإسلام. ج : ١٣٩/١ ـ ١٤٠.

(٣٧) توفيق محمد سبع : قيم حضارية في القرآن الكريم. ج/١٩٣/١ (ط. القاهرة ١٩٧٢).



التحدّيات الحضاريّة المعاصرة للأمّة الإسلاميّة

للأستاذ فيصل حسّون
نقيب الصحفيين السابق في العراق



بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين، ونصلي ونسلم على خاتم المرسلين محمد بن عبد الله، الذي أدى الأمانة، وبلغ الرسالة، وترك للبشرية كتاب الله وسنة رسوله، منهاج حياة كاملاً شاملاً، لن تضل إن اتبعته، ومضت على هديه أبد الدهــر ... وبعــد ،

فليس تعبير « الحضارة » بالمفهوم المتداول حالياً بين بني البشر، لكونه تعبيراً مستحدثاً، دخل لغة العصر عندنا، وعند غيرنا من الأمـم والشعوب، بالرغم من أنه لا يزال حتى الآن تعبيراً مطاطاً يحتمل كثيراً من المعاني بمثل ما يعجز عن الإحاطة بكثير سواها.

وفي لغتنا العربية فهمنا الحضارة على أنها البديل عن البداوة أو نقيضها، وأنها ليست أكثر من انتقال البداة إلى الحواضر، بما يكسبهم ذلك الانتقال من عادات وما يتراكم نتيجة له عندهم من تراث وما يطرأ على حياتهم من تغييرات.

الحضــارة والبــداوة :

وقد تحدث ابن خلدون في مقدمته عن البدو والحضر فقال : « إنا إذا فتشنا أهل مصر من الأمصـار وجـدنا أكثرهم من أهـل البدو الذين بناحية ذلك المصر وفي قراه، وأنهم أيسروا فسكنوا المصر وعدلوا إلى الدعة

والترف الذي في الحضر. وذلك يدل على أن أحوال الحضارة، ناشئة عن أحوال البداوة وأنها أصل لها ».

أما في اللغة الإنكليزية فقد اختلطت التعبيرات ببعضها، فقيل في الحضارة أنها Civilization ثم قيل مرة أخرى أنها Culture مع أن كلمة Culture تعني في الأعم الثقافة، ووصفت الحضارة أحياناً بأنها Progress التي تعني التقدم أكثر مما تعني شيئاً آخر، أي أن تعبير الحضارة ذاته يتسع ليشمل مدلولات ومفاهيم المدنية والثقافة والتقدم معاً.

تعاريف علمية :

ولو حاولنا أن نذكر التعاريف العلمية للحضارة، لما اتسع لنا المجال، ولذلك نكتفي بالإشارة إلى أن أول من حاول تعريف الحضارة تعريفاً علمياً في أوروبا في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، هو الألماني غوستاف كلم Guster Kelmm إذ وصفها بأنها « العادات والمعلومات والمهارات والحياة الخاصة والعامة في السلم والحرب، والدين والعلم والفن، وتتمثل الحضارة في نقل تجارب الماضي للجيل الجديد ». ثم عرف الإنكليزي سير إدورد تيلر Sir Edward Taylor الحضارة والمدنية بأنها ذلك الكم المركب الذي يحتوي على المعلومات والمعتقدات والفنون والقيم والقوانين والتقليد وجميع القابليات والعادات التي يكتسبها الإنسان بصفته عضواً في مجتمع ما. « وعرف روبرت لوي Robert Lowie الحضارة بأنها مجموع ما يحصل عليه الفرد في مجتمعه، أي المعتقدات والتقاليد والنماذج الفنية والعادات المتعلقة بالغذاء والحرف، التي تصل إليه عن طريق فعالياته الإبداعية بل كميراث في الماضي ينقل إليه بالتعليم العفوي أو المنظم ». أما رالف بدنجتن Ralph Piddington فيأتي بتعريف فريد، إذ يرى أن حضارة شعب ما تتكون من « مجموعة الأدوات المادية والفكرية التي يستطيع بها ذلك الشعب إشباع حاجاته الحياتية والاجتماعية وتكييف نفسه لبيئته ». ويعرفها ميلفل هيركوفتس Melvidle Herkovits بأنها « الجزء الذي يخلقه الإنسان من البيئة »، ثم يصفها بأنها « تتعلم وتلقن وذات كيانات متميزة وقابلة للتقسيم إلى أوجه مختلفة ومتغيرة وتتفرع من كل العناصر المكونة لوجود الإنسان ».

وهكذا نخلص إلى أن تعبير الحضارة يمثل الصورة التي عاشها الإنسان ولا يزال مستمسكاً بها أسلوباً حياتياً له، نتيجة ما حقق من التقدم الفكري والثقافي والعمراني والعلمي، وتمازج وتفاعل الطاقات والأفكار والإمكانات وبذلك تبدو الحضارة وكأنها النهج الثابت الذي تسلكه أمة من الأمم في ميادين الحياة كافة، مع ما يتركه هذا النهج على مسيرة البشرية من بصمات وتراث ومعطيات.

حضارتنا والحضارات الأخرى :

والسؤال الذي لا بد أن نطرحه هو :

من أين انبثقت حضارتنا، وما علاقتها بالحضارات الأخرى القائمة سلباً أو إيجاباً ؟، ولا بد من التوضيح بأننا عندما نقول « حضارتنا »، فنحن نعني بالتأكيد « الحضارة العربية الإسلامية »، التي كان يمكن أن تنطمس مع حضارات عاصرتها ثم اندثرت منذ عهد بعيد وضاعت معالمها تحت غبار وقائع التاريخ، أو احتوتها حضارات طغت عليها وطوتها تحت جناحيها.... فما الامتياز الذي انفردت به حضارتنا العربية الإسلامية وجعلها تصمد للتيارات التي تسللت إليها أو تهددت وجودها ؟، بل ما السر الذي كان وراء وقوف حضارتنا شامخة في وجه أعتى التحديات وأعنف الهجمات وأبشع المؤامرات ؟.

امتيـاز ... وسـر :

إنه « الامتياز »، وهو في الوقت نفسه « السر »، اللذان يضعان وجودنا العربي الإسلامي في هذه المرحلة من التاريخ موضع الامتحان والاختبار، بل في مواجهة أخطر معركة وأقسى تصادم مع الحضارات والتيارات العالمية الأخرى.

فمنذ تميزت حضارتنا عن سواها من الحضارات بأنها رسالة « خير أمة أخرجت للناس » حيث ولدت مع قوله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً »[1]، وبعد أن

---

(١) سورة المائدة آية ٣.

حدد المنهج الإلهي أبعادها في قوله تعالى : « إن الدين عند الله الإسلام، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلّا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم، ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب »[1]، وقوله تعالى : « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين »[2].

منذ تلك اللحظة والإسلام، ديناً ونظاماً اجتماعياً وحضارة، يتعرض لمقاومة حضارية تقودها قوى وعناصر الردة والاستمساك بالقديم والجديد الذي لا يخرج عن إطار وحضارة القديم.

العقيدة المثلى للإنسـان :

والإسلام ـ كما يقول عباس محمود العقاد : « هو العقيدة المثلى للإنسان منفرداً ومجتمعاً، وعاملاً لروحه وعاملاً لجسده، وناظراً إلى دنياه، أو ناظراً إلى آخرته، ومسالماً أو محارباً، ومعطياً حق نفسه أو معطياً حق حاكمه وحكومته، فلا يكون مسلماً وهو يطلب الآخرة دون الدنيا، ولا يكون مسلماً وهو يطلب الدنيا دون الآخرة، ولا يكون مسلماً لأنه روح تنكر الجسد أو لأنه جسد ينكر الروح، أو لأنه يصحب إسلامه في حالة ويدعه في حالة أخرى، رهيناً بوساطة بينه وبين السماء يتولاها في المعابد سدنة موكلون بالوساطة بين المخلوق والخالق وبين العابد والمعبود، ولكنه هو المسلم بعقيدته كلها مجتمعة لديه في جميع حالاته وجميع حالاتها، سواء تفرد وحده أو جمعته بالناس أواصر الاجتماع. إن شمول العقيدة في ظواهرها الفردية وظواهرها الاجتماعية هو المزية الخاصة في العقيدة الإسلامية »[3].

شمـول العقيـدة الإسـلامية :

والعقيدة الإسلامية كما يقول سيد قطب : « هي المثال الواحد الذي عرفته الإنسانية في تاريخها الطويل، إنها العقيدة التي تتسع فتشمل كل نشاط الإنسان في كل حقول الحياة، فلا تقتصر مهمتها على حقل دون

---

(١) سورة آل عمران آية ١٩.
(٢) سورة آل عمران ضاية ٨٥.
(٣) كتاب « الإسلام في القرن العشرين » ص ١٦.

حقل، ولا على اتجاه دون اتجاه، إنها لا تدع ما لقيصر لقيصر، وما لله لله، فما لقيصر وقيصر ذاته في العقيدة الإسلامية كله لله، وما لقيصر حق ليس للفرد من رعاياه، وإنها لا تتولى روح الفرد وتهمل عقله وجسده، أو تتولى شعائره وتهمل شرائعه أو تتولى ضميره وتهمل سلوكه، وإنها لا تتولاه فرداً وتهمله جماعة ولا تتولاه في حياته الشخصية وتهمل نظام حكمه أو علاقات دولته »[1].

وإذا كان التاريخ قد حدثنا بإسهاب وإطناب عن صراع الحضارات، فإن بواعث هذا الصراع المصيري مردها العقيدة التي تجسدها كل حضارة أو التي تدفع وتوجه وتتمثل كل حضارة، أي أن الحضارة هي صورة العقيدة التي صنعتها، وحين تنحسر حضارة من الحضارات أو تأفل شمسها وتخبو أضواؤها فمعنى ذلك أن العقيدة التي تجسدها تلك الحضارة هي التي انخذلت وذهب ريحها ولم تعد تقوى على الصمود والاستمرار.

العلاقة بين العقيدة والحضارة :

وعلاقة العقيدة بالحضارة علاقة عضوية متينة وعميقة، وهي تؤدي بالنسبة لها وظيفة الروح نحو الجسد، وكما أن جسداً بلا روح يغدو جثة بلا حراك سريعة العطب معرضة للتحلل والزوال، فإن حضارة تنشأ بدون عقيدة متميزة أصيلة، لا بد أن تتلاشى حين تقوم على عقيدة مهزوزة، أو تنبت في مجتمع ليست له « عقيدة » وإنما يكتفي باستعارة ثوب الحضارة المزركش موهماً نفسه بأنه ثوبه، محاولاً التمتع بثمار الحضارة الجنية ـ من تقدم علمي أو ارتفاع في مستوى وأساليب المعيشة، أو انتفاع من مخترعات أو مبتكرات العصر دون استيعاب واستكناه العقيدة التي خلقت ذلك كله وكانت وراء تحقيقه.

عقيدة خالية من التعقيدات :

وصحيح أنه قامت حضارة في بلاد العرب ـ في اليمن وفي وادي الرافدين وعلى شواطئ الخليج وفي وادي النيل ـ قبل بزوغ نور الإسلام،

---

(١) كتاب « السلام العالمي والإسلام » ص ٨.

لكنها لم تكن حضارة عقيدة متميزة لتصمد وتثبت وتنتشر وتسود، بل سرعان ما تقاذفتها تيارات مطامع الحضارات القائمة يومئذ، فاجتاحتها جيوش الفرس حيناً، وغزاها الأحباش حيناً آخر، وتسلط عليها الروم حيناً ثالثاً، إلّا أنه ما كادت رسالة الإسلام تنطلق بدعوة التوحيد من واد غير ذي زرع، لتقضي على الوثنية وعبادة الأصنام، وما كاد الدين الجديد يرسي قواعد وأسس الحياة الكريمة بنظامها الإلهي الأمثل في ديار العرب تمهيداً لنشر الدعوة إلى الدين والنظام الجديد في أرجاء الأرض كلها، حتى رأينا الحضارات التي تمثلها امبراطوريات وعروش وعقائد، تتراوح بين عبادة النار وعبادة الأوثان، وادعاء الصليبية واصطناع العقائد التلمودية، رأيناها جميعاً تنهار أمام الزحف الإسلامي الجارف الذي اكتسح العالم المتحضر في ذلك الوقت ـ لا بالسيف فقط لأن السيوف التي كانت تحمي تلك الحضارات أكثر وأعز جنداً، وإنما بالعقيدة والإيمان أولاً وقبل كل شيء ـ ليفرض عليه الحضارة العربية الإسلامية، ويقيم النظام الإسلامي المتميز بكونه إلى جانب أنه دين إلهي منزل من لدن بارىء الأكوان، وخالق كل شيء، فهو دين الفطرة والعقل الذي يقول عنه البروفسور مونتيه : « إن الإسلام في جوهره دين عقلي، بأوسع معاني هذه الكلمة من الوجهتين الاشتقاقية والتاريخية، فإن تعريف الأسلوب العقلي Rationalism بأنه طريق تقويم العقائد الدينية على أسس من المبادىء المستمدة من العقل والمنطق ينطبق عليه تمام الانطباق، وتتلخص العقيدة الإسلامية من وجهة نظر المؤمنين : في الاعتقاد بوحدانية الله ورسالة نبيه. أما من وجهة نظرنا ـ نحن الذين نحلل عقائدهم تحليلاً لا روح فيه ـ فهي العقيدة في الله والحياة الآخرة، وهذان المبدءان هما أقل ما ينبغي للاعتقاد الديني، وهما أمران يستقران في نفس المتدين على أساس ثابت من العقل والمنطق، ويلخصان كل تعاليم العقيدة في القرآن. وان بساطة هذه التعاليم ووضوحها لهي على وجه التحقيق من أظهر القوى الفعالة في الدين وفي نشاط الدعوة إلى الإسلام، وكان من المتوقع لعقيدة محددة كل التحديد، خالية كل الخلو من **التعقيدات الفلسفية، ثم هي تبعاً لذلك في متناول إدراك الشخص العادي : أن تمتلك ـ وأنها لتمتلك فعلاً ـ قوة عجيبة لاكتساب طريقها إلى الناس** ».

لمـاذا انتشر الإسـلام سريعاً ؟ :

وفي كتابه « الدعوة إلى الإسلام » « The Preaching of Islam » يقول البروفسور توماس أرنولد Thomas Arnold : « يجب ألا نتلمس الأسباب التي أدت إلى مثل هذا الانتشار السريع للعقيدة الإسلامية في أخبار الجيوش الفاتحة، بل الأجدر أن نفتش عن ذلك في الظروف التي كانت تحيط بالشعوب المغلوبة على أمرها، وقد أمد الخليفة هؤلاء الذين دخلوا حديثاً في الإسلام بما ينبغي أن يمدهم به من علماء يلقنونهم مبادئ الدين. ومن الأمثلة على التسامح الذي بسطه المسلمون الظافرون على العرب المسيحيين في القرن الأول من الهجرة واستمر في الأجيال المتعاقبة نستطيع أن نستخلص بحق أن هذه القبائل التي اعتنقت الإسلام إنما فعلت ذلك عن اختيار وإرادة حرة وأن العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد على هذا التسامح ».

اصبـع الله في الفتوحـات :

ويضيف أرنولد قائلاً : وقد استطاع ميخائيل الأكبر Michael the Elder، بطريك أنطاكية اليعقوبي، أن يحبذ فيما كتبه في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي ما قرره إخوانه في الدين، وأن يرى **إصبع الله في الفتوح العربية** حتى بعد أن خبرت الكنائس الشرقية الحكم الإسلامي خمسة قرون، وقد كتب يقول بعد أن سرد اضطهادات هرقل : « وهذا هو السبب في أن إله الانتقام ـ الذي تفرد بالقوة والجبروت والذي يدير دولة البشر كما يشاء فيؤتيها من يشاء ويرفع الوضيع ـ لما رأى شرور الروم الذين لجأوا إلى القسوة فنهبوا كنائسنا وسلبوا ديارنا في كافة ممتلكاتهم، وأنزلوا بنا العقاب في غير رحمة ولا شفقة، أرسل أبناء إسماعيل من بلاد الجنوب ليخلصنا على أيديهم من قبضة الروم »، ولما بلغ الجيش الإسلامي وادي الأردن وعسكر أبو عبيدة في فحل كتب الأهالي المسيحيون في هذه البلاد إلى العرب يقولون : « أنتم أحب إلينا من الروم ـ وإن كانوا على ديننا ـ أنتم أوفى لنا وأرأف بنا وأكف عن ظلمنا وأحسن ولاية علينا، ولكنهم غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا ».

رحمة الإسلام وقسوة الآخرين :

ويمضي أرنولد إلى القول : « ويمثل لنا تاريخ الحروب الصليبية الثانية حادثاً على جانب عظيم من الأهمية، فكان البون شاسعاً بين المعاملة الرحيمة التي لقيها الحجاج المسيحيون من المسلمين، وبين ما عانوه من قسوة أخوانهم المسيحيين الذين فرضوا عليهم السخرة وضربوهم وابتزوا منهم ما ترك لهم من متاع قليل، حتى أن كثيراً منهم دخلوا في دين منقذيهم بمحض إرادتهم ».

وبعد أن رسخت العقيدة الإسلامية وأقامت حضارتها المتميزة انتشر الدين الحنيف على ضفاف نهر الفولغا في أواسط روسيا بفضل البلغار المسلمين الذي حاولوا جذب الروس في القرن العاشر الميلادي لاعتناق العقيدة الجديدة. ويقول البروفسور أرنولد : « أن الأخبار دونت كثيراً من دخول الناس في الإسلام أفواجاً، وقد قيل أن **أكبر الفضل في نجاح هذه الدعوة يرجع إلى مستوى الحياة الأخلاقية في المجتمع الإسلامي الذي كان أكثر رقياً**، كما يرجع أيضاً إلى شعور التآخي الذي يشيع في هذا المجتمع والذي كان أكثر تماسكاً وقوة، وكان كل مسلم ساذج أمي، داعية إلى دينه ».

دين دعوة هادية :

ويؤكد أرنولد أن الإسلام « كان منذ بدء ظهوره دين دعوة ـ من الناحية النظرية أو من الناحية التطبيقية ـ وقد كانت حياة محمد ﷺ تمثل هذه التعاليم ذاتها، على أنه ينبغي أن لا نتلمس الأدلة على روح الدعوة الإسلامية في قسوة المضطهد أو تعسف المتعصب، ولا حتى في مآثر المحارب المسلم ـ ذلك البطل الأسطوري الذي حمل السيف في إحدى يديه، وحمل القرآن في اليد الأخرى ـ وإنما نتلمسها في تلك الأعمال الوديعة الهادئة التي قام بها الدعاة وأصحاب المهن الذين حملوا عقيدتهم إلى كل صقع من الأرض ».

أوروبا مدينة لحضارة الإسلام :

وفي كتابه « قانون التاريخ » Lalai de history يقول جوليفيه كارتلو

Jalivet Cartelot : « كان التقدم العربي بعد وفاة الرسول ـ ﷺ ـ عظيماً جرى على أسرع ما يكون، وكان الزمان مستعداً لانتشار الإسلام، فنشأت المدنية الإسلامية نشأة باهرة، وقامت في كل مكان مع الفتوحات بذكاء غريب، ظهر أثره في الفنون والآداب والشعر والعلوم، وقبض العرب بأيديهم، خلال عدة قرون على مشعل النور العقلي، وتمثلوا جميع المعارف البشرية التي لها مساس بالفلسفة والفلك والكيمياء والطب والعلوم الروحية، فأصبحوا سادة الفكر مبدعين ومخترعين، لا بالمعنى المعروف بل بما أحرزوا في أساليب العلم التي استخدموها بقريحة وقادة للغاية. وكانت المدنية العربية قصيرة العمر، إلّا أنها باهرة الأثر، وليس لنا إلّا إبداء الأسف على امحلالها، وإن أوروبا لمدينة للحضارة العربية بما كتب لها من ارتقاء من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر الميلادي، وعنها أخذت الفكرة الفلسفية العلمية التي سرت سرياناً بطيئاً ناقصاً في القرون الوسطى. وإن أوروبا لتتجلى لنا منحطة جاهلة أمام المدنية العربية وأمام العلم العربي والآداب العربية. وقد انقضت أربعة قرون لا حضارة فيها غير الحضارة العربية، وعلماؤها هم حملة لوائها الخفاق ».

في ظل الإسلام ازدهرت الثقافة :

وفي كتابه « أصول أوروبا والمدنية الأوروبية » Les Origines de l'Europe (et la Civilisation Européenne) يقول كريستوفر داوسون : « كانت الحضارة العباسية ولسانها العربية ودينها الإسلام، مكملة بمظهرها العقلي للحضارات القديمة التي مثلتها مملكة العباسيين الواسعة. ويصح ذلك على الخصوص بما نشأ من الفلسفة العربية والعلوم العربية اللذين ارتقيا في ذلك العصر، وأثرا تأثيراً عظيماً في أهل القرون الوسطى عامة. ولقد كانت الحركة العلمية في العالم في أكثر من أربعة قرون بأيدي الشعوب الإسلامية. وعن العرب أخذت أوروبا الغربية أصولها العلمية ويرجع العمل العلمي والفلسفي في العالم الإسلامي إلى العرب وإلى الإسلام نفسه ».

ويضيف داوسون قائلاً : « إنا اعتدنا اعتبار مدنيتنا كأنها تألقت من جوهر الحضارة الغربية حتى صعب علينا أن نعتقد بأنه أتى زمن وأهم قطر متحضر في أوروبا الغربية لم يكن سوى ولاية ذات مدنية غريبة عنها، وأن

البحر المتوسط مهد حضارتنا كان مهدداً بأن يصبح بحراً عربياً، وكادت النصرانية في الغرب والإسلام في الشرق يكونان شيئاً واحداً في زمن كانت فيه آسيا الصغرى نصرانية وكانت أسبانيا والبرتغال وصقلية تؤوي حضارة إسلامية زاهرة. هكذا كان الحال في القرن العاشر الميلادي، وقد فعلت هذه الحضارة فعلها في ترقي العالم في القرون الوسطى، فانتشرت الثقافة الغربية في ظل حضارة الإسلام واستطاعت النصرانية في قرونها الوسطى بفضل هذه الحضارة، أن تأخذ طرفاً من التراث العلمي والفلسفة اليونانية، وما كان ذلك قبل القرن الثالث عشر، ولم يتم إلا عقبي الحروب الصليبية وبعد فاجعة المغول الكبرى، حين تمكنت الحضارة النصرانية الغربية من بلوغ مكانة مساوية بعض المساواة للمدنية الإسلامية، وبقيت مع هذا متأثرة بالمؤثرات الشرقية ».

الإســلام دين المستقبــل :

هكذا كان الإسلام منطلق الحضارة العربية والإطـار الـذي رسم معالمها والمعين الذي نهلت ـ وستظل إلى الأبد تنهل ـ منه، وهو بالتالي صاحب الفضل الأول والأكبر على الحضارة الغربية الأوروبية التي انفردت في المرحلة الأخيرة، بزمام التقدم الإنساني واحتكرت ظواهر المدنية والازدهار العلمي والاقتصادي، ولولا الإسلام لما استطاعت البشرية في كل مكان الوصول إلى ما وصلت إليه، وما الزعم بأن العقيدة الإسلامية هي سبب الشعوب والأمم التي تؤمن بها، إلا محض افتراء رخيص وتجديف باطل تدحضه اعترافات كبار مفكري الغرب نفسه ممن لم يأكل الحقد على الإسلام قلوبهم، وممن لم يضع التعصب غشاوة على أبصارهم تعميهم عن رؤية الحقيقة وتجعلهم ينكرون أن الإسلام هو نظام الحياة الأكمل الذي لن تجد البشرية ـ مهما أجهدت أجيالها بالبحث ـ بديلاً عنه أو نظيراً له يحقق للإنسانية الخير ويوفر السعادة ويؤمن الرخاء والاستقرار، حتى أن الكاتب الأيرلندي الشهير برنارد شو لم يتردد ـ بعد أن درس الإسلام دراسة متعمقة ـ عن الجهر بالقول : « **اني أرى في الإسلام دين أوروبا في القرن العشرين** ». بل هو القائل : « أعتقد أن رجلاً كمحمد ـ ﷺ ـ لو تسلم زمام الحكم في العالم بأجمعه لتم النجاح في حكمه، ولقاده إلى الخير وحل

مشكلاته على وجه يكفل للعالم السلام والسعادة المنشودة ». وما أروع ما هتف به غوته أديب الألمان وكاتبهم الكبير متسائلاً : « **إذا كان هذا هو الإسلام، أفلا تكونوا مسلمين ؟** ».

الإسلام والرأسمالية والاشتراكية :

وفي عنفوان الصراع بين الأنظمة الاقتصادية القائمة في هذه الحقبة من عمر الدنيا يرتفع صوت الاقتصادي الفرنسي جاك أوستري Jacques Austray في كتابه « الإسلام في مواجهة النمو الاقتصادي » L'Islam face au développement économique قائلاً : « إن طريق الإنماء الاقتصادي ليس محصوراً في الاقتصادين المعروفين الرأسمالي والاشتراكي، بل **هناك اقتصاد ثالث راجح هو الاقتصاد الإسلامي** الذي يبدو بأنه سيسود عالم المستقبل لأنه أسلوب كامل للحياة يحقق المزايا كافة ويتجنب المساوئ كافة »[1]، ويقول فرانشيسكو جابرييلي كبير المستشرقين الإيطاليين المعاصرين : « ولد الإسلام في منطقة صحراوية من العالم القديم، ولكنه سرعان ما تجاوزها وأصبح عقيدة تشع منها قوة عجيبة أنتجت حضارة تدعو إلى الإعجاب رغم اختلاف البيئات والمستويات الثقافية التي ازدهرت فيها ».

نظام للبشر كافة :

والإسلام الذي انبثق نوره في أرض العرب ليبدد دياجير الجهل ويقضي على ضلالات الجاهلية لم تقتصر رسالته على تلك الرقعة في الدنيا، وإنما جاء هدى ورحمة للبشر كافة، ولقد خاطب الله تعالى رسوله الأمين عليه الصلاة والسلام بقوله : « وما أرسلناك إلا كافةً للناس بشيراً ونذيراً، ولكن أكثر الناس لا يعلمون »[2]. ولقد حدد سبحانه وتعالى مسلك البشرية بصورة حاسمة ونهائية بقوله : « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين »[3]. وعندما بلغ الإسلام هذه المرحلة في

---

(١) طبعة باريس عام ١٩٦١ م.
(٢) سورة سبأ آية ٢٨.
(٣) سورة آل عمران آية ٨٥.

مواجهة عناصر الضلال، حدث ما كان لا بد أن يحدث، إذ تصدت العقائد والحضارات والقوى السياسية والاجتماعية السائدة في العالم يومئذ للدعوة الجديدة بالعداء السافر والمقارنة العنيفة استمساكاً بنهج عتيق أو حرصاً مزعوماً على أباطيل متوارثة « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله، قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيأ ولا يهتدون »[1]، خوفاً على مصالح ومكاسب احتكرها أولئك الضالون بغير وجه حق ويخشون أن يجردهم منها النظام والعدل الجديد.

انتصارات تثير الحفائظ :

وبدأ الصراع منذ بدأت الدعوة تهدي الناس إلى الطريق القويم، وانبرى المشركون والوثنيون وحملة لواء اليهودية التلمودية البعيدة عن شرعة موسى عليه السلام والتي ابتدعها اليهود في عهود السبي البابلي، انبرى كل أولئك للإسلام يناصبونه عداء حاقداً خبيثاً مجافياً للمنطق، متجاوزاً حدود الأخلاق والقيم والأعراف، وبالرغم من « ان الدين عند الله الإسلام »[2]، فإن الإسلام لم يعامل الذين أوتوا الكتاب معاملة المشركين بل دعا الله تعالى رسوله ﷺ إلى إقامة حوار معهم بقوله : « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون »[3]، ومع أن الإسلام ميز اليهود والنصارى على عبدة الأوثان وأهل الشرك ومنحهم أفضليات وسوى بينهم وبين المسلمين في كثير من الحقوق ولم يكرههم على ترك دينهم والانخراط في الدين الحنيف فقد أبت اليهودية التلمودية ومن بعدها النصرانية الصليبية إلا أن تتحالفا ـ على فداحة ما كان بينهما ولا يزال من تناقض حاد وخلاف عميق الجذور ـ ضد الإسلام في مواقف كثيرة وفي أزمان متفاوتة، ولقد حاول الإسلام أن يثنيهم عن ذلك المسلك بقوله تعالى :

---

(١) سورة البقرة آية ١٧٠.
(٢) سورة آل عمران آية ١٩.
(٣) سورة آل عمران آية ٦٤.

« يا أهل الكتاب لِمَ تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون »[1].
إلا أن قوى الشر أمعنت في غيها واستسلمت لنداء الشيطان وازداد سعار حقدها تأريثاً واشتعالاً بارتفاع رايات الإسلام في العالم المتحضر، آنذاك كله والانتصارات التي حققها برغم المكائد والمؤامرات التي حيكت ضده وبرغم الصراع الدامي الذي خاضه المسلمون أفراداً وجيوشاً، حتى دقت طلائع الإسلام أسوار الصين شرقاً ووقفت خيولها على شاطئ بحر الظلمات الذي يسمى الآن بالمحيط الأطلسي غرباً. وكانت أوروبا مجرد مغارة يخيم عليها ظلام الجهالة وتسودها قوانين الغاب البربرية، حين اندفع الإسلام إليها عبر بوابة الأندلس، وراحت الحضارة الجديدة التي ولدت ونمت وازدهرت في ظل النظام الإسلامي تبهر العالم كله بمعطياتها وبهائها، واندمجت الشعوب والأمم التي شرح الله صدور أبنائها للإسلام في كيان الدولة العربية، الإسلامية الكبرى التي امتدت رقعة سلطانها لتشمل العالم المعروف يومئذٍ بأسره. وبدأ أعداء الإسلام الذي أثارت الانتصارات الإسلامية المذهلة حفائظهم يحاولون الانقضاض على الحضارة الإسلامية سواء بالاندساس فيها والعمل على تخريبها من الداخل، كما فعل الشعوبيون أو بالتآمر عليها وممارسة التصادم والغزو معها في خارج الحدود كما فعل الروم والأقوام الوثنية واليهودية التلمودية.

الحروب الصليبية وفضائح النصرانية :

ومن المؤلم أن المسلمين قد استهانوا بالأخطار، وسمحوا للصراعات الداخلية بين قادتهم وطوائفهم أن توهن من كيان الدولة الإسلامية التي فقدت وحدتها على نحو جعل الأعداء يتنمرون ويستأسدون وينقضون على الوطن الإسلامي يقتطعون منه الأجزاء واحداً بعد الآخر، ويستبيحون الأقطار الإسلامية قطراً بعد قطر، محاولين أن يقضوا في النهاية على الإسلام، وهيهات « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون »[2]، إذ حتى المغول ـ بقسوتهم ووحشيتهم التي تحدث عنها

---

(١) سورة آل عمران آية ٧١.

(٢) سورة التوبة آية ٣٢.

التاريخ ـ لم يستطيعوا أن يقتلعوا جذور الحضارة الإسلامية، رغم أنهم دمروا حواضر الإسلام وبددوا التراث الحضاري الإسلامي، وفي النهاية تحولوا إلى الدين الحنيف وحملوه إلى ديارهم ليقيموا حياتهم وفق نظامه الأمثل. ومن قبلهم هبت عاصفة الحروب الصليبية التي صورها جوليفه كستلو بأنها « حملت ريحاً من الجنون في أفكار الناس » بدعوى محاولة شعوب أوروبا النصرانية الاستيلاء على القبر المقدس في إيليا إذ كانت الحملة الأولى عام ١٠٩٥م ـ كما يقول كستلو ـ مؤلفة من مائة ألف فرنسي وألماني فنيت في الطريق ولم تصل إلى غير القسطنطينية، ثم مزق الأتراك شملها في آسيا الصغرى والتحقت بها حملة مؤلفة من مليون إنسان فيهم النساء والأولاد والمحاربون منهم ثلاثمائة ألف خلص منهم ثمانون ألفاً إلى القدس ففتحوها، أما سائر الحملات فقد أخفقت، ومع هذا كانت كنوز الشرق تغوي الحملات الأخيرة أكثر مما تستهويهم أوهام الدين. ولكم أن تشبهوا حملات النصارى على الشرق بحملات البرابرة المتوحشين، وإن كانت دعوى انقاذ القبر المقدس المشكوك في أنه قبر المسيح، قد اتخذها الباباوات ثم الملوك، حجة ليحمسوا الشعوب ويجندوا الناس. وكانت هذه الحملات الكبرى شؤماً على أوروبا. وكان من طمع الباباوات ما استغلوا به سذاجة الجماهير، فكلفهم باهظ التكاليف وتجلت في ذلك شهواتهم المفرطة كي يحرزوا الثروة السهلة المأخوذة من غير حلها. وتولت المحنة تكذيب أوهامهم فكان من ذلك أشد المصائب. وبينما كانوا يرجون أن يسقطوا على سعادة وغنى ومجد، لم يشهدوا إلا آلاماً وبؤساً وقد أرخوا العنان لغرائزهم المتوحشة مدفوعين إليها بعامل الفاقة والأمل. **وستظل الحروب الصليبية إحدى فضائح النصرانية السياسية**، ونحن لا نرى فيها ما يعزوه إليها المؤرخون من الفوائد إلا كذباً وبهتاناً عظيماً. إن تبادل الأفكار بين الشرق والغرب قد نتج من الاحتكاك بين عرب أسبانيا والأوروبيين أكثر مما كان من أثر الصدمة البربرية بين جيوش النصرانية والإسلام. وعلى كل حال فإن أوروبا مدينة كثيراً للحضارة العربية والتركية أكثر مما تدين الحضارة العربية للحضارات المنحطة في الغرب بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر الميلاديين ».

لمـاذا ينشغل الغربي بالإســلام :

وإذا كانت الحضارة الإسلامية قد انكمشت نتيجة التحديات التي جابهتها والظروف الصعبة التي مرت بها إثر طرد الصليبيين من ديار الإسلام والامتحان بوحشية ومذابح المغول والتتار والتدهور الذي أصاب الكيانات التي قامت في البلدان الإسلامية وضياع الأندلس والثغور والمواقع المتقدمة في مواجهة أوروبا، حتى وقوع ديار الإسلام تحت سلطات الاستعمار الغربي في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، فإن مرحلة التقوقع والتراجع عن أداء الحضارة الإسلامية دورها الرائد في هداية البشر، لم تفقدها وجودها، ولم تجعلها تندثر، شأنها في ذلك شأن حضارات غابرة سبقتها أو عاصرتها ثم انتهت بانتهاء سيطرتها السياسية أو العسكرية. وهنا يكمن سر الحضارة الإسلامية التي تستمد وجودها وخلودها من وجود الإسلام وخلوده. ومن هنا أيضاً تبدأ مرحلة أخرى من مراحل الصراع والتحدي الذي يخوضه الإسلام ضد قوى الشر وجنود الشيطان. فالإسلام ليس دعوة عصر من العصور تنتهي مهمته بانتهاء ذلك العصر، بل هو منهاج حياة ثابت يصلح لكل زمان وكل مكان، وهو بطبيعته متطور يلتقف كل أفانين التطور ولا يجعلها تتجاوزه أو تنجح في محاولتها تصويره بأنه متخلف عنها. وبهذه الصفة فالإسلام يظل قائماً بمهمته، ويظل متربصاً بكل فكر وكل نظام وكل منهج يمكن أن يطلع به مفكر أو تطرحه فئة من الناس أو تدعو إليه جماعة من الجماعات، حتى يظهر عليه ويبرز بمميزاته ومعطياته ومعجزاته في مواجهته، ولذلك نرى « أن الغربي ـ كما يقول عباس محمود العقاد ـ مشغول بأمر الإسلام شغلان من يشعر بيقظته ويترقب ما وراء هذه اليقظة فلا يخرجها من حسابه، وأهم ما يهمه أن يعلم كيف يقف الإسلام غداً من مجاميع الأمم الغربية والشرقية، وكيف يكون مسلكه إذا التحمت المعسكرات ثم افترقت عن هزيمة هذا وانتصار ذلك »[1].

تحذيـر صليبي من صحوتنا :

أما الكاتب الألماني باول شمتز فإنه لا يتحرج من إعلانها صريحة

---

(١) كتاب « الإسلام في القرن العشرين » ص ١١٨.

إلى حد الوقاحة والصلف في كتابه « الإسلام قوة الغد العالمية » عندما يحذر العالم الأوروبي تحذيراً شديداً من الإسلام، ويحفز الهمم فيه إلى « التكاتف والعمل الجماعي لمواجهة العالم الإسلامي الذي بدأ ـ على حد قول شمتز ـ يصحو وينفض النوم عن عينيه ».

تاريخنا مع الاستعمار الغربي :

ولو رجعنا إلى تاريخنا الحديث مع الاستعمار الغربي، لوجدناه زاخراً بالأمثلة والوقائع التي تؤكد أن المستعمرين لم يستهدفوا في الحقيقة الاستحواذ على خيرات أرضنا والاستمتاع بثروات أقطارنا بمقدار ما استهدفوا ـ وما زالوا يستهدفون ـ القضاء على « عقيدتنا ».

وبعرض سريع لما نستذكره من أحداث على سبيل المثال لا الحصر، نجد أن المحاولات الصليبية تجددت ـ رغم انتهاء الحروب الصليبية في عام ١٢٩١ الميلادي، تحت ألوية وشعارات جديدة في ظاهرها لكنها هي هي في مقاصدها ومطامعها وأهدافها.

وكانت حملة نابليون بونابرت على مصر ثم إنطلاقه منها في سنة ١٧٩٩م جزءاً من الحروب الصليبية التي توقفت معاركها قرابة خمسة قرون لتتجدد أشد نكراً وأخبث مكراً، وأغرب ما أسفرت عنه تلك الحملة ذلك النداء الذي وجهه نابليون إلى يهود العالم كافة يستحثهم فيه على الانضواء تحت رايته لإعادة بناء ما أسماه « مجد إسرائيل الضائع في القدس »، والهدف طبعاً هو التواطؤ الصليبي ـ الصهيوني ضد أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين.

ولم يكتف الغرب الصليبي باحتضان الحركة الصهيونية التي قادها التلمودي تيودور هيرتزل، وإنما انعقد في لندن مؤتمر لجنة الاستعمار الذي تدارس مستقبل المصالح الإستعمارية وتدارس موقف الإسلام وخطورته على تلك المصالح فيما لو اتحدت شعوبه أو قامت وحدة بين الأقطار العربية، ولذلك أوصى تقرير المؤتمر الذي عرف باسم تقرير كامبل ينرمن وقدم إلى وزارة المستعمرات البريطانية في عام ١٩٠٨ بأن « يقام حاجز بشري قوي وغريب على الجسر البري الذي يربط آسيا بأفريقيا ويربطهما معه بالبحر

الأبيض بحيث يشكل في هذه المنطقة وعلى مقربة من قناة السويس قوة صديقة للاستعمار عدوة لسكان المنطقة ». وكان هذا كله قبل أن تفكر بريطانيا بمنح اليهودية العالمية الوطن القومي اليهودي في فلسطين، وقبل أن يصدر وعد بلفور بعقد من السنين. وعندما دخل الجنرال الإنكليزي اللنبي مدينة القدس عام ١٩١٧م قال كلمته التي رددتها من بعده أوروبا كلها والتي لا يجوز أن ينساها مسلم أبد الدهر : « اليوم انتهت الحروب الصليبية ». واختار الإنكليز لتنفيذ سياستهم ومخططاتهم في فلسطين مندوباً سامياً يهودياً هو هربرت صموئيل... أما القائد الفرنسي الجنرال غورو الذي دخل دمشق في عام ١٩٢٠، فقد وقف على قبر البطل الإسلامي صلاح الدين الأيوبي الذي طرد الصليبيين من ديار الإسلام ليقول ـ حاقداً متشفياً وهو يدق بسيفه على بناء القبر ـ « صلاح الدين... نحن هنا ».

جرائم في ديار الإسلام كلها :

والكلام عما جرى في الجزائر وفي الشمال الأفريقي على أيدي الفرنسيين والإيطاليين وما جرى في مصر والعراق والخليج العربي وجنوبي شبه الجزيرة العربية وفي الهند وإيران وأواسط أفريقيا وفي جنوبي شرقي آسيا على أيدي الإنكليز وفي أندونيسيا على أيدي الهولنديين وفي تركستان وعلى شواطىء بحر قزوين وفي أذربيجان على أيدي الصليبيين من القياصرة ثم الذين رفعوا بعدهم رايات الشيوعية الحمراء، من محاربة للإسلام وللحضارة الإسلامية.. الكلام عن هذا كله يطول ولا ينتهي ويمكن وينبغي أن تكتب عنه المجلدات، بل لا بد أن توضع في مراجعته ومتابعته الدراسات التاريخية وتجري بشأنه الأبحاث العلمية التي ستكشف دون ريب، أي دور مخز مجرم لعبته ـ وما زالت وستظل تلعبه ـ الصليبية الحديثة بالتعاون مع اليهودية التلمودية لتقويض أركان الحضارة الإسلامية وإفساد عقائد وعقول الأجيال المسلمة الجديدة، بمحاولة تهجين الفكر الإسلامي وحرفه عن شرعته السمحاء وإشاعة المفاهيم والقيم الصليبية والتلمودية والمانوية والإلحادية لتحل محل العقيدة الإسلامية تحت ستار حرية الفكر أو دعوى محاربة التخلف والانفتاح على المدنية العصرية أو نشر الديموقراطية المشوهة بإقامة أنظمة حكم وفرض تشريعات وقوانين واتباع أساليب حياة ناشزة تتعارض مع

النظام الإسلامي ولا تحقق بالتالي للمسلمين حياة السعادة الروحية والمادية معاً إلى جانب توفير العدل والرخاء والإزدهار.

تسلط على التعليم والفكر :

وقد نشأت ـ في ظل تلك السياسة الخبيثة التي تسلطت على التعليم ومارست نحوه أبشع ألوان الغزو والتشويه الفكري وأشاعت فيه سمومها ـ مدارس وأجيال وأفكار وأحزاب ومنظمات ودعوات إبتعدت كثيراً عن الإسلام، بل كانت مهمتها الأساسية محاربة الإسلام، إلى جانب نشاط الجامعات والبعثات التبشيرية وفعاليات أكثرية من يسمونهم بالمستشرقين... وأوشكت أن تحقق الأغراض الصليبية التلمودية، بعد ما زرعت إسرائيل في قلب الوطن العربي الإسلامي، وبعد أن استقطب الإستعمار ولاء طوائف وعناصر حاقدة على العرب والإسلام ممن عاشوا في ديار الإسلام، واستظلوا بحمى الإسلام ولكنهم قابلوا الجميل بالنكران وكان جزاء الإسلام منهم جزاء سنمار، وأوشكت الحضارة الإسلامية أن تصاب بزلزال مدمر لولا أن رحمة الله قد أدركت المسلمين فبدأ الوعي الإسلامي يحرك هذه الأمة ويوقظها من سباتها، ويرفعها إلى أن تنهض بمسئولية رسالتها، ولم يكن أمام المسلمين، إلّا أن يرفعوا الصوت بالعودة إلى شرعتهم ونظامهم الأمثل والأكمل. وكانت الدعوة إلى الحكم بشرعة الإسلام في منطقة تتوافر لها إمكانات مادية وبشرية ـ وقبل ذلك رسالة إلهية وعقيدة مثالية ـ يمكن أن تحولها إلى قوة عالمية كبرى تستأنف مسيرة الدعوة الإسلامية التي حطمت في بدء انطلاقها عروش كسرى وهرقل والمقوقس، ولا بد أن تضع الأنظمة والقوى المتحكمة في العالم اليوم في موقف حرج ينتهي بها إلى ما انتهت إليه من قبل أنظمة وقوى كانت تسيطر على الدنيا إبان مولد الإسلام.

تحالف ثلاثي غير مقدس :

وهكذا اندفعت الصليبية واليهودية التلمودية والشيوعية في تحالف ثلاثي غير مقدس لإعلان حرب شرسة ولئيمة ضد الإسلام والحضارة الإسلامية، على امتداد جبهات العالم الإسلامي كله. ولو أننا ألقينا نظرة عابرة على ما يحدث في ديار الإسلام من مجابهة تصل إلى حد القتال

الدامي والصراع الذي لا يتعفف عن إزهاق الأرواح وإهدار الأموال فضلاً عن استباحة الضمائر والأفكار والعقول، نجد أن قوى التحالف الثلاثي تعمل بتنسيق وتوافق عجيب، على الرغم من مزاعم التناقض والخلاف التي يفترض أنها تباعد بينها ولا يمكن نظرياً أن تجعلها تجتمع بأي وجه من الوجوه... لكن ما حدث هو أنها اجتمعت ـ وربما لأول مرة ـ صفاً واحداً في مواجهة الإسلام، كيف... ولماذا... وفي سبيل أي شيء ؟!

إن الرد على هذه التساؤلات يمكن أن نعثر عليه، لو أننا حللنا بإيجاز موقف أية قوة من القوى التي يتألف منها هذا الثالوث المعادي للإسلام.

اليهودية والعداء القديم :

فاليهودية التلمودية التي رفعت قبل نيف ومائة عام شعار « الصهيونية »، وبدأت غزوتها لديار الإسلام باغتصاب فلسطين متصدرة القوى والتيارات المحاربة للإسلام، ليست إلا وريثة تلك الطغمة التي ناصبت الدعوة الإسلامية منذ بدء مسيرتها قبل أربعة عشر قرناً أعنف العداء، والتي لا تنسى أنها هزمت في يثرب وفي خيبر ويوم ذهاب ريحها، قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : « لا يجتمعن في جزيرة العرب دينان » وقد جاءت الآن تريد تصفية حساباتها القديمة مع الدين الإسلامي ولا تخفي أطماعها في العودة إلى المدينة المنورة والولوج إلى قلب الجزيرة العربية، بل طالما تبجحت بصلافة وقحة بأنها تملك ذراعاً طويلة تستطيع الوصول إلى أي مكان من الوطن العربي الإسلامي. ومنذ عهد بعيد كانت « الاسرائيليات » نتاجاً شيطانياً لتشويه الإسلام ومحاولة إقحام ما ليس منه عليه، والعمل على إشاعة الفتنة وبذور الشكوك وزرع الريب والأباطيل لطمس معالم الدعوة وتحقيق الأمل اليهودي القديم بالقضاء عليها وتنفيذ أحكام التلمود التي فصلتها بروتوكولات حكماء صهيون المشهورة.

أحقاد موروثة متجددة :

والصليبية الجديدة وارثة أحقاد تلك الحملات العدوانية السبع التي بدأت في عام ١٠٩٦ الميلادي، ولم تتوقف إلا بعد أن كتب لها الاخفاق والخذلان في عام ١٢٩١ الميلادي... هذه الصليبية التي تعيش وشبح

الانهيار مخيم على أقطارها، بعد أن تزعزعت العقيدة التي قامت عليها حضارتها، وبعد أن تراجعت المسيحية عن طبيعتها الأصيلة، حتى لقد تحولت الكنيسة عن أداء رسالة الدين نحو المجتمع الذي تعيش فيه أو نحو الإنسان الذي ينبغي أن تتولى مسئولية وواجب هدايته وإرشاده لتكتفي بأن تكون مجرد أداة سياسية تحكمها شهوات التسلط وتسيرها مطامع وأهداف الاستعمار متلفعة بدعاوى التبشير ونشر رسالة المسيحية في بلدان متخلفة بالرغم من إدراكها تماماً أن أوروبا قد أفرغت من الإيمان برسالة الدين، وتهاوت فيها القيم وسقطت المفاهيم والنوازع الروحية لتحل محلها مادية بشعة رخيصة تخاطب الغرائز وتثيرها وتأخذ مكانها أفكاراً إلحادية متحللة كان من حصادها هذا التيه الذي انزلقت إليه الحضارة الغربية وما زالت ماضية في انحداره لا يعصمها من ذلك غلاف قشري رقيق من مظاهر التقدم العلمي والتكنولوجي يزيد من عذاب الإنسان الأوروبي في هذه المرحلة التي يعيشها ويعمق من إحساسه بأنه يواجه خواء في فكره وفراغاً في حياته، وضياعاً لا نهاية له في حاضره ومستقبله. ومع أنه كان بوسع الحضارة الغربية أن تخرج من محنتها وتتلمس سبيل خلاصها من الجحيم الأرضي الذي تعانيه وتحسم المشكلات اليومية التي تنشأ وتتضخم باستمرار في مجالات الحياة الفكرية والاجتماعية والاقتصادية، عن طريق اللجوء إلى الإسلام شرعة ونظام حياة ومسلكاً لبناء المجتمع المتحضر السليم العامر بالخير والتعاطف والعدل، باعتبار الإسلام طوق النجاة الوحيد الذي ينقذ البشرية في النهاية من التدهور والانحدار إلى هاوية الانحطاط والانهيار. إلا أن القوى الشريرة الممسكة بأعنة الأمور في المجتمع الغربي والمستغلة لسلبيات حياة هذا المجتمع، أبت إلا أن تركب رأسها وتمضي في غيها وضلالها وتؤرث أحقاداً متراكمة في أعماق بعض النفوس، وكان مؤملاً أن مضيّ سبعمائة عام عليها كفيل بإطفاء جذوتها وإخماد سعارها.. إلا أن الصليبية الجديدة انطلقت في حربها للإسلام ـ حتى بشعارات الصليبية القديمة ـ مع إدراكها أن الإسلام هو البديل الأفضل لها ولأي نظام أو عقيدة أو مسلك حياة مندثر أو معاصر، وهي تريد أن تسد الطريق بوجه هذا البديل لأنها ترى فيه الخطر على وجودها ومصالحها بغباء وجهالة تسقط

معهما من حسابها مستقبل الأجيال التالية ومصالحها الروحية والحضارية. ولم يكن غريباً إذن أن تحزم الصليبية الجديدة أمرها وتخطط للذود عن باطلها بالعودة إلى أسلوب الغزو الفكري والغزو الاقتصادي والغزو السياسي والعسكري تحت لواء الصليب وباتحاد كلمة شعوب وأقوام ودول نبذت أكثريتها المسيحية وأنكرت جهاراً شرعة عيسى عليه السلام لتنادي بديلاً عنها بدعوى العلمانية ولتفسح المجال لنزعات الإلحاد والكفر بكل الأديان، رغم أنها تحارب الإسلام باسم الصليب، وتخوض معاركها ضده سراً وعلانية بأسلحة التبشير أو باقتحام المجتمعات الإسلامية بالبدع وتيارات الانحراف والإفساد وتحطيم الكيانات المسلمة في آسيا وأفريقيا، وليس ما حدث في نيجيريا ـ عندما قتل تفاوه بليوه وأحمد وبللو وأثيرت فتنة دولة بيافرا التي التفت حولها قوى المسيحية الصليبية جمعاء ـ ولا ما حدث في الباكستان ـ عندما مزقت الهندوكية وحدة البنجاب والبنغال بدفع من الصليبية والشيوعية معاً حتى أصبح البلدان يعيشان تمزقاً ومآس ليس لها أول ولا آخر ـ ولا ما حدث في الصومال وأريتريا ـ عندما وقفت الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا الغربية جنباً إلى جنب في دعم نظام منغستو هيلا ميريام الصليبي الشيوعي المدعوم من إسرائيل للقضاء على الوجود الإسلامي في أثيوبيا وإقليم أوغادين ـ ليس كل ذلك إلا صفحات ـ كما يقول العسكريون ـ من المعركة المستمرة التي بات من حصادها هذا التسلط العجيب على البلدان الإسلامية، حيث تتحكم الأقلية المسيحية في الأغلبية المسلمة وتتولى سلطة الحكم في نيجيريا وفي كل من السنغال وأثيوبيا وتشاد ولبنان الذي شاءت الصليبية أن تتحدى بمأساته المسلمين في عقر دارهم فجعلته ساحة تراق فيها دماؤهم وتستنزف طاقاتهم ويتهدد وجودهم، والغرب واسرائيل والشيوعية معاً يعملون يداً بيد لإذكاء النيران وإلهاب المواقف وإبقاء سيف الخطر والإرهاب مسلطاً فوق الرؤوس والأعناق.

دور الشيوعية الإلحادي :

أما الشيوعية، هذا النتاج الذي أفرزه تمازج الصليبية واليهودية التلمودية، فإنه السلاح الذي ابتدعه حكماء صهيون ليتولى على المدى البعيد تمهيد الطريق أمام مؤامرة تنفيذ مقرراتهم، وهو في الوقت نفسه الصيغة

الجديدة التي تطرحها الصليبية الكافرة بالقيم الروحية ليؤدي بالنيابة عنها مهمة إشاعة الإلحاد والعودة بالإنسان إلى عبادة المادة والارتهان لها وتحكيمها في تصرفات البشر وسلوكه وحتى في كتابة التاريخ، وقد تبدو الشيوعية لأول وهلة بأنها جاءت لهدم التلمودية والصليبية وغيرهما معاً، فهي إذن جديرة بعدائهما، لأنها ـ كما يدل على ذلك ظاهر الحال ـ لا تلتقي معهما في أي ميدان ولا يمكن أن تمضي معهما في أي طريق. لكن ما حدث ويحدث الآن هو العجب العجاب. فالشيوعية قد ولدت في رحم اليهودية التلمودية وانتشرت في أكثر البلدان اتباعاً لنهج الكنيسة وإذعاناً لنفوذها، وها هي الآن تجتمع مع اليهودية والصليبية صفاً واحداً في خصومة الإسلام، لأن هذا الدين الحنيف والحضارة التي أقامها هما الطود الشامخ الذي تتكسر على جدرانه دعاوى وإرهاصات التيارات الثلاثة وشعاراتها الزائفة عن التسامح والتقدم والعدل الاجتماعي وبناء الإنسان الجديد والحضارة المزدهرة المتميزة، وهكذا نجد الشيوعية تفتح نيرانها على كل مجتمع إسلامي، ناشرة الإلحاد مروجة الأباطيل، دافعة عملاءها للتسلط وانتزاع الحكم باستغلال الحريات وتزييف إرادة وانتهاك حرماته... وقد كان من نتيجة ابتعاد بعض الدول المسلمة ـ أو أغلبيتها ويا للأسف بتعبير أدق ـ عن النهج الإسلامي القويم، أن انفتحت الأبواب أمام الشيوعية لتتسلل وتضرب ضربتها في أقطار كثيرة كالأفغان واليمن الجنوبي والصومال، ولتفسد عقول وعقائد وضمائر كثير من العناصر والفئات التي اضطربت عندها القدرة على التمييز بين الصالح والطالح من الأفكار أو التي انخرطت في العمالة الشيوعية والارتكاس في حمأتها سواء كان ذلك لقاء أجر معلوم أو على سبيل الغواية والتطوع والاختيار. ولأن الإسلام هو وحده النظام الذي يجسد جماع أماني البشر في قيام المجتمع الحر السعيد، ولأنه دين الله الوحيد الخالد على هذه الأرض فكان من الطبيعي أن تجعله الشيوعية أول أعدائها الذين لا تألو جهداً في حربهم وخصومتهم.

أرضية تحالف القوى الثلاث :

وإذا كانت اليهودية التلمودية دائبة على تحقيق المطامع والأغراض التي تتطلع إلى الفوز بها منذ أكثر من أربعة آلاف عام، وهي ترى في

الإسلام الجدار الذي تصطدم به والذي يبدد أحلامها وأساطيرها.

وإذا كانت الحضارة الغربية وهي تعاني الإفلاس وتواجه حالة الاحتضار وتخشى أن ينفسح المجال أمام الإسلام ليصحح مسيرة البشرية بنظامه وسلوكه وأحكامه على أنقاض الصليبية القديمة والجديدة.

وإذا كانت الشيوعية تعيش الآن مرحة الجزر بعدما افتضحت دعاواها وأباطيلها عن الفردوس الشيوعي الذي تحول معه كل بلد ابتلى بهذا الفكر الجهنمي كلياً أم جزئياً إلى سجن كبير يقاسي فيه الإنسان أبشع ألوان خنق الحريات وعذاب القهر وهتك الحرمات وامتهان الحقوق والمقدسات، فأخوف ما تخافه الشيوعية على مستقبلها هو الإسلام باعتباره النظام الذي ينسخ مزاعمها وأكاذيبها عن السعادة والعدل الاجتماعي وحرية الإنسان.

وهكذا نجد أن التحالف بين القوى الثلاث ينطلق من أرضية واحدة، متجهاً بالرغم من ظواهر اختلاف مسلكه نظرياً، إلى هدف واحد.. فكل من اليهودية والصليبية والشيوعية على السواء تمر بظرف مصيري قد ينتهي باندثارها، ولا تجد في الوقت نفسه عدواً تخشى خطره سوى الإسلام الذي تشعر بأنه قوة المستقبل التي لا بد أن تهدي البشرية سواء السبيل، وترد عنها غائلة الحضارات القائمة التي طحنت الإنسان وحولت حياته إلى سلسلة من المتاعب والقلق والضياع ليس أدل على فداحتها من الارتفاع المذهل لأرقام جرائم القتل والانتحار والاغتصاب والسلب وادمان المخدرات وامتلاء المعتقلات والسجون بضحايا الإرهاب السياسي والاجتماعي فضلاً عن تمزق شمل الأسرة وتفشي الفساد الأخلاقي وانعدام روح الحب والمودة والتراحم في قلب الإنسان غير المسلم.

وكان طبيعيا إذن أن يتم التحالف بين القوى الثلاث بالرغم من الاختلافات والتناقضات المظهرية التي بينها، لتتجه جميعاً، وأحياناً كل واحدة من منطلقها الخاص لضرب الإسلام، بوصفه العدو الأهم، والأول والأخطر. أما ما بينها من صراعات فيوظف أيضاً للمهمة ذاتها.

ولو وقفنا قليلاً عند الغزو الفكري الذي تمارسه القوى الثلاث في ديار الإسلام كافة، لرأينا بوضوح أن كلاً من الصليبية والشيوعية واليهودية

تعمل بتوافق مذهل لتحطيم الفكر الإسلامي وزرع السوس في بنية المجتمعات الإسلامية على نحو يحقق لها جميعاً في النهاية لا سمح الله ـ أغراضها ومآربها.

ومع أنه يبدو أن كل قوة تعمل وحدها ولحسابها، إلا أننا ونحن نرى التواطؤ الصليبي ـ اليهودي من جهة، والتواطؤ اليهودي ـ الشيوعي من جهة أخرى، وما حدث منذ الحرب العالمية الثانية ومنذ قيام إسرائيل ومنذ قيام أنظمة حكم في البلدان الإسلامية تتنكر للإسلام وترفع الرايات الحمراء ـ وهي أنظمة هيأت لقيامها وتسلطها أنظمة زرقاء... لا بد أن نكتشف عند تقييم حصيلة ذلك كله أن القوى الثلاث كانت ومازالت ماضية نحو غاية واحدة مهما اختلفت بها السبل ومهما تنوعت الوسائل والأساليب.

الإسلام في مواجهة التحديات :

والآن وقد وصلنا إلى هذه الحقيقة المرة التي وضعت الإسلام والحضارة الإسلامية أمام امتحان مواجهة التحديات الحضارية المعاصرة التي تمثلها هذه الحرب الشرسة والحاسمة التي تتحالف فيها ضدنا الصليبية واليهودية والشيوعية... ما هو موقف المسلمين وما الذي ينبغي أن يفعلوه ؟، هل سيظلون سادرين عن الخطر، غير مقدرين عواقبه الوخيمة فيما لو تركناه يستفحل ويستشري ويتفاقم ؟، وما المنهاج الذي سنتبعه للدفاع عن ديننا وحضارتنا ووجودنا... بعد أن اتضح بما لا يقبل الشك أو الجدل أن أعداءنا الثلاثة عازمون هذه المرة على تصفية الحسابات القديمة والجديدة وخوض المعركة الفاصلة ضدنا، لاعتقادهم بأننا إذا ما اجتزنا هذا الامتحان الصعب، فإن أبواب المستقبل ستفتح للإسلام كما انفتحت في بداية انطلاقته قبل أربعة عشر قرناً، ومن هنا تتجلى جسامة مسئولية المسلم، وتبرز أهمية وخطورة الموقف وما لا بد أن نقوم به في مواجهة ما يراد بنا ولنا على أرضنا وفي كل مكان.

لا يجوز لنا أن نبقى ـ كما كنا حتى الآن ـ مسلمين بالوراثة، نحمد الله على أن منَّ علينا بنعمة الإسلام دون أن ندرك أن الإسلام والحضارة

الإسلامية في خطر وأن مسئوليتنا تجاه ديننا لا تقتصر على أداء شعائر العبادة والصبر على ما تجري به المقادير.

ولا يجوز أن نجلس في حلبة الصراع متفرجين على ما يجري، وكأن الأمر لا يهمنا أو يعنينا...

فالأمر أخطر بكثير مما نتصور، أو مما يتوهم بعضنا أنه مجرد إغراق في التشاؤم أو تخوف في غير محله... والموقف لا يحتمل أن نسكت عليه أو نضيع وقتاً في الحيرة والتردد.

إن أعداء الإسلام يتحركون بسرعة، لأنهم يدركون ـ قبل إدراكنا نحن ـ أن الإسلام بما هيأ الله له من ظروف وإمكانيات وطاقات، بات يهددهم في الصميم الآن أكثر من أي وقت آخر، وهم لذلك حراص على أن يأخذوا زمام المبادرة في حربهم ضده، وقد بدأوا الحرب فعلاً ونقلوها إلى أرضنا وديارنا بل حتى إلى كل بيت من بيوتنا وإلى عقولنا وأدق خصوصيات حياة مجتمعاتنا.

والمسألة ليست مجرد مطامع اقتصادية أو رغبة جشعة في التسلط على خيرات الوطن الإسلامي فقط، ولو كان وراء تحركات القوى الثلاث هذا الدافع الاقتصادي وحده لوجدنا أقطاراً غنية ـ ربما أكثر من غنى بلداننا ـ تتعرض لبعض ما نتعرض له نحن. ففي بلدان كثيرة آبار نفط ومناهج ومعادن وأرض خصبة تخرج أفضل المنتوجات الزراعية وأيد عاملة كثيرة ورخيصة وبحار تفيض بالخيرات... ولكن النيران لا تفتح إلّا علينا، والشرور لا تسلط على سوانا. لأن عندنا عقيدة لا بد أن تقودنا ـ إلى جانب ما أفاء به الله تعالى علينا من نعم وطاقات ـ إلى المضي بالإسلام إلى المركز الأول الذي كان له عند بدء الدعوة، وعندئذ تنهار حضارات وتسقط دعاوى وتتهاوى أباطيل.

معركة تصفية حسابات :

فالحرب المعلنة علينا، هدفها ضرب الإسلام واجتثاث الحضارة الإسلامية من الجذور... وإلى جانب الواجب الديني الذي يحتم علينا أن ندافع عن الإسلام، ونجاهد في سبيل إعلاء كلمة الله، فإن مستقبل حضارتنا

والحرص على وجودنا يحتمان علينا الدفاع عن النفس، بل ان رسالتنا في الحياة وهي رسالة الإسلام ذاته تفرض علينا أن نتصدى للمؤامرات التي تدبر ضد ديننا وضد حضارتنا وضد وجودنا.

ورب قائل يقول، إن الإسلام قد امتحن منذ بدء الدعوة بالأعداء والخصومات وأن ما يجري الآن مجرد حلقة في سلسلة طويلة من المكائد والمحاولات التي لا يبدو أنها ستنتهي، والتي لن تزيد مخاطرها عما عرفنا، وألفناه.

وقد يكون في هذا القول جانب كبير من الصواب قياساً على ما شهدنا من معارك خاضها الإسلام في الماضي... لكن ما نبغي ألا يفوتنا أو نهمل التنبه إليه والحذر منه، هو أن المعركة الراهنة التي تشنها قوى التحالف الثلاث تتجاوز في أهدافها ومراميها كل ما تعرض له الإسلام على مدى أربعة عشر قرناً من حياته، فقد أخذت اليهودية التلمودية والصليبية الجديدة والشيوعية الملحدة على عاتقها مهمة تصفية الحسابات القديمة والجديدة مع الإسلام صفقة واحدة، وقد اقتحمت كل منها ديار الإسلام على شكل من الأشكال :

أولاً : بغزو عسكري استيطاني يقتلع المسلمين من أرضهم ليصادرها ويحل فيها آخرين محلهم.

ثانياً : بغزو فكري عقيدي يزلزل إيمان المرء بربه ودينه وأحكام شريعته وبتركه يواجه ضياعاً وجاهلية لا تختلف عن تلك الجاهلية التي عاشتها الإنسانية قبل الإسلام، إلّا من حيث اختلاف الأزمنة والأمكنة.

ثالثاً : بغزو اقتصادي وسياسي يحرم المسلمين من خيرات ديارهم ويجردهم من الطاقات التي تحقق التقدم الحضاري في ديارهم.

مزاعم ومطاعن وافتراءات :

ولا بد لنا من مواجهة هذه التحديات، بتحديات نثبت بها أصالتنا وجدارتنا بأن نحمل مسئولية الرسالة الإسلامية.

ولعل من فضول القول أن ندعو للعودة إلى جوهر الإسلام، لأن هذه

العودة هي الواجبة والالتزام الإسلاميان، حتى ولو لم تكن هناك حرب أو مخاطر أو تحديات.

لكننا ـ واحسرتاه ـ قد نسينا الواجب وتنكبنا شرعة الله وأوغلنا في العماية حتى بات الإسلام غريباً في دياره، وحتى باتت أحكامه لا تتبع أو تمارس إلّا في القليل النادر، بل لقد عطلت أهم أركانه وفشا التحلل واستباح الكثير من المسلمين المحرمات وربيت أجيال منهم تربية لا صلة لها بالإسلام ولا بفضائله مطلقاً. وقد استقبلنا نحن ذلك كله باستسلام للمزاعم والإفتراءات والمطاعن التي صورت الإسلام بأنه دين تخلف وأن من مقتضيات التمدن والحضارة أن نبتعد عن الدين، حتى أصبح القابض على دينه كالقابض على الجمر، وحتى بلغت الوقاحة بأعداء الإسلام وبعملائهم والدائرين في فلكهم أو المخدوعين بأباطيلهم، أن يصموا المسلم الملتزم بأحكام الدين، بأنه رجعي أو محافظ، أو على أهون الفروض غير عصري، بالرغم من أن الإسلام هو ـ كما يقول الشيخ محمد أبو زهرة « دين العقل فما من أمر جاء به إلّا كان موافقاً للعقل يدركه ويصدقه... وأن النظم التي سنها الإسلام لا تزال برونقها وصفائها أعدل من كل ما اهتدى إليه العقل البشري من نظم، سواء أكان ذلك في نظام الحكم، أم في نظام المال، أم في نظام الأسرة... فالإسلام هو الدين الوحيد الذي يصلح لحكم الإنسانية، وفيه علاج أدوائها »[1].

والإسلام لم يكن متخلفاً أبداً، وهو ليس دين رهبنة وعزوف عن متع ومباهج الحياة والاستمتاع بخيراتها، يقول تعالى: « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون »[2]. وإنما الإسلام دين عبادة وحياة معاً، تقترن فيه العبادة بالحياة وتمتزجان فلا يمكن الفصل بينهما، والعبادة فيه هي ممارسة الحياة، والحياة ذاتها عبادة في ممارساتها الخيرة النبيلة الفاضلة... والإسلام متفتح على كل تطور، وهو يتقبل التقدم

---

(١) كتاب « المجتمع الإنساني في ظل الإسلام ».
(٢) سورة الأعراف ـ ٣٢.

العلمي والتكنولوجي ويتعامل معه من أي مصدر جاء، لكنه يرفض ما يمكن أن يصاحب ذلك العلم من تدهور في القيم والأخلاقيات والأفكار التي تمسخ إنسانية البشر وتحولها إلى حيوانية وانحلال وضياع. وقد قال تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً »[1]، ويقول الشيخ محمد عبده : « إن الناس كانوا قبل ظهور الإسلام على قسمين : قسم تقضي عليه تقاليده بالمادية المحضة، فلا همَّ له إلّا الحظوظ الجسدية كاليهود والمشركين، وقسم تحكم عليه تقاليده بالروحانية الخالصة وترك الدنيا وما فيها من اللذات الجسمانية كالنصارى والصابئين وطوائف من وثني الهند أصحاب الرياضات، وأما الأمة الإسلامية فقد جمع الله لها في دينها بين الحقين : حق الروح، وحق الجسد، فهي روحانية جسمانية، وإن شئت قلت : أنه أعطاها جميع الحقول الإنسانية، فإن الإنسان جسم وروح، حيوان وملك، فكأنه قال : جعلناكم أمة وسطاً، تعرفون الحقين وتبلغون الكمالين »[2].

أسلوبان للتصدي للأعداء :

إننا نستطيع، ويجب أن نأخذ من الآخرين كل ما توصلوا إليه من مخترعات وإنجازات وأجهزة علمية وتطوير صناعي دون أن نتخلى عن عقيدتنا وأصالتنا ومنهج حياتنا وحضارتنا، وإنما نوظف هذه المخترعات والإنجازات والأجهزة والتطوير، ونستخدمها في خدمة ديننا وأصالتنا وحضارتنا، أما الحرب المستعرة ضدنا فنحن مدعوون إلى وضع خططنا للقاء ومناجزة أعدائنا فيها بأسلوبين : الأول ـ داخلي، والثاني ـ خارجي، على أن يسير الأسلوبان في خطين متوازيين ومتلازمين.

والأسلوب الداخلي يتمثل في الرجوع إلى جبهتنا الإسلامية الداخلية لتنقية صفوفنا من الثغرات التي فتحها الأعداء فيها والخلاص من عناصر الفساد والإفساد التي تسللت إليها بهدف القيام بدور الرتل الخامس في تخريب الكيانات الإسلامية ونسفها من الداخل، ولا بد ـ لكي تجعل

---

(١) سورة البقرة آية ١٤٣.

(٢) تفسير المنار ـ ج ١ ـ ص ٤ ـ ٥.

مجتمعاتنا الإسلامية قادرة على الصمود لما يراد بها ـ من المبادرة على الفور إلى اتخاذ الخطوات الآتية :

١) العمل بالشريعة الإسلامية في ديار الإسلام كافة، مع الالتزام بأحكام الشريعة على الصعيد الرسمي والشعبي، ثم الجماعي والفردي في وقت واحد، كما نصحح مسيرتنا وننقذ وجودنا وحضارتنا من الاستمرار في الانزلاق في مهاوي الجاهلية التي يدفع بنا إليها الأعداء وقد قال تعالى : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون »[1].

٢) إعادة النظر في سياسة التعليم ومناهجه في مراحله كافة، بدءاً من رياض الأطفال حتى أعلى المستويات العلمية، وجعل السياسة التعليمية الجديدة نابعة من جوهر الإسلام منسجمة مع أهدافه مجسدة لفضائل لا تشوبها شوائب الزيف والتحريف والتدليس ولا تحيد بأجيالنا المقبلة عن الصراط السوي، وإنما تنشئ المسلمين على الطراز الذي أنشأ به الإسلام أهله، وتفتح أمامهم أبواب الحياة الزاهرة بعيداً عن أوبئة وأدواء الحضارات المعاصرة التي شوهت كل شيء وصورت الإسلام بصور بشعة هو منها براء.

٣) وضع سياسة إعلامية إسلامية موحدة تتولى تنفيذها والالتزام بها أجهزة ووسائل الإعلام في العالم الإسلامي كله، وتكون مهمتها بالنسبة للداخل توعية المسلمين وإفهامهم حقيقة دينهم الذي عمد الأعداء إلى نشر الضباب من حوله وتصويره بأنه عامل تأخر وتعويق عن اللحاق بركب المدنية المعاصرة مع أنه... على العكس من ذلك كله ـ دين تقدم حقيقي ومنهج تطور إلى الأحسن والأفضل والأكرم، أما بالنسبة للخارج فتكون مهمة أجهزة الإعلام الإسلامي تولي مسئولية الدعوة إلى الإسلام ـ لأن الدعوة مستمرة ولا يجوز أن ـ تتوقف أو تتلكأ ـ وبالتالي دحض المفتريات وكشف الأباطيل التي يحاول الأعداء أن يدنسوا بها على الدين الحنيف.

٤) عقد ندوة إسلامية كبرى تضم رجال الفكر والعلم والتقوى من المسلمين كافة مهما كانت مذاهبهم وطوائفهم، للوصول إلى موقف حاسم

---

(١) سورة المائدة آية ٤٤.

ينهي إلى الأبد هذه الخلافات التي ما أنزل الله بها من سلطان ويحول دون استمرار الصراعات الجانبية بين المذاهب والطوائف الإسلامية بالرجوع إلى كتاب الله وأحكامه وسنة نبيه الصادق الأمين ﷺ، لنسد بذلك الطريق أمام الفتن ونحول بين الأعداء وبين إذكاء النيران بين المسلمين أنفسهم، في حين أن الحال يتطلب أن تأتمر بقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين »[1]، وقوله تعالى : « فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة »[2]، وقوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم »[3]، وقوله تعالى : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم. قل إن هدى الله هو الهدى. ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم، مالك من الله من ولي ولا نصير »[4].

٥) إنشاء جامعة للدول الإسلامية تكون مهمتها تحقيق التلاحم بين المسلمين حتى يصبحوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه ازر بعض في ساعات الشدة وأيام الرخاء، وحتى يغدو الدفاع عن الإسلام وعن أي بلد إسلامي مسئولية المسلمين جميعاً، فلا نترك الأعداء ينفردون بكل قطر إسلامي على حده، يكيدون له ويعتدون عليه ونحن نتفرج لا حول لنا ولا طول. وإنما يهرع المسلمون للدفاع عن كل ذرة تراب من ديار المسلمين وكأنهم بلد واحد ورجل واحد لنقضي بذلك على الأسلوب الاستعماري المشهور « أسلوب فرق تسد ». وليس الهدف من قيام جامعة الدول الإسلامية أن تكون بديلاً لجامعة الدول العربية، بل هي قطعاً ستكون سنداً لها ونصيراً، ولا بأن تقوم تكتلات إقليمية إسلامية في أرجاء العالم المتفرقة ـ على غرار جامعة الدول العربية ومنظماتها ـ لتتحقق في نهاية المطاف الوحدة المرجوة بين الأقطار العربية والإسلامية.

---

(١) سورة النساء آية ١٤٤.
(٢) سورة النساء آية ٧٤.
(٣) سورة الأنفال آية ٦٠.
(٤) سورة البقرة آية ١٢٠.

٦) إقامة منظمات ثقافية واقتصادية واجتماعية وإعلامية إسلامية تعمل على تحقيق التكامل بين الأقطار الإسلامية لنستطيع التعاون فيما بيننا واستثمار خيراتنا بأيدينا ولمصالحنا ولنواجه القوى العالمية ونحن قوة عزيزة الجانب نتصرف من مركز المنعة والإقتدار لا أن يتحكم بنا الآخرون ونحن ضعاف لا نملك إرادة حرة ولا نستطيع أن نمنع من يريد استغلالنا والتسلط علينا من أن يفعل ذلك.

٧) التعجيل في الدعوة إلى مؤتمر قمة إسلامي يحضره ملوك وأمراء ورؤساء الدول الإسلامية جمعاء، وتكون أولى مهامه إبراز وحدة العالم الإسلامي في مجابهة الأخطار وإعداد الخطط العاجلة والبعيدة المدى لتحقيق التحام المسلمين وبدء التحرك للدفاع عن الإسلام والحضارة الإسلامية، سواء باتخاذ قرارات العودة إلى العمل بالشريعة الإسلامية أو بإعداد مناهج تعليمية وثقافية إسلامية شاملة أو وضع سياسة إعلامية موحدة أو جمع ندوة الفكر الإسلامي لإنهاء خلافات المذاهب أو إنشاء جامعة الدول الإسلامية أو إقامة منظمات ثقافية واقتصادية واجتماعية وإعلامية على امتداد ديار الإسلام.

في الميدان الخارجي :

أما الأسلوب الخارجي فيتمثل في نقل معركة التحدي إلى معاقل الأعداء باتخاذ الخطوات الآتية :

١) تكثيف الجهود في مجالات نشر الدعوة إلى الإسلام على أوسع نطاق، وإنشاء مجلس أعلى للدعوة مخول بأكبر السلطات ومزود بأضخم الإمكانات توضع بتصرفه وسائل الإعلام الناجحة من صحافة وإذاعة ودور نشر وتليفزيون وسينما وغيرها .ويتوسع في إنشاء الصحف والمجلات باللغات العالمية الحية في مدن العالم الكبرى، لإبراز حقيقة الدين الحنيف بوصفه نظاماً حياتياً كاملاً وناجحاً لا بد أن ينقذ البشرية من التردي في الهاوية التي توشك أن تنتهي إليها.

٢) إقامة مؤسسة دولية كبرى في إحدى العواصم الغربية تكون لها فروع في أنحاء العالم كافة ومهمتها العمل على رصد الحركات المناوئة

للإسلام والتصدي لأية محاولة تستهدف الإساءة للدين الحنيف بالنشر أو بث الأراجيف أو إذاعة المفتريات وتوفر لهذه المؤسسة الإمكانات المادية والفكرية الضخمة التي تجعلها قادرة على أداء رسالتها على أكمل وجه، وعندما نعلم أن لدى الأعداء مؤسسات كبرى مماثلة هدفها تشويه صورة الإسلام فلا أقل من أن نقابلهم بمثل السلاح الذي يشهر في وجوهنا.

٣) دعم الحركات والتجمعات الإسلامية في الأقطار والبلدان التي يؤلف فيها المسلمون أقلية مستضعفة أو البلدان التي تسلطت على أغلبيتها الإسلامية أقلية باغية والعمل على إسناد هذه وتلك من الأقليات أو الأغلبيات الإسلامية والدفاع عن حقوقها والحيلولة دون استمرار اضطهادها ومحاربتها في دينها باستخدام الوسائل والأساليب الفعالة وعدم توفير نفوذ وإمكانات الدول الإسلامية في هذا السبيل.

٤) إتخاذ الدول الإسلامية مواقف موحدة وحازمة في تعاملها مع الدول الأخرى سياسياً وثقافياً واقتصادياً حيث تكون أفضلية التعامل وتبادل المنفعة قاصرة على الدول التي تخطب ودنا وتسالم نهجنا، أما الدول التي تختار الوقوف ضدنا وتجاهرنا العداء، فليس لها عندنا إلّا الجفاء والعداء.

٥) إنشاء تجمع إسلامي في المنظمات الدولية ـ كالأمم المتحدة والمنظمات التابعة لها أو المنظمات الفنية والعلمية والمهنية ـ للدفاع عن مصالح المسلمين وإظهار وحدة كلمة الإسلام في المحافل والمجالات الدولية.

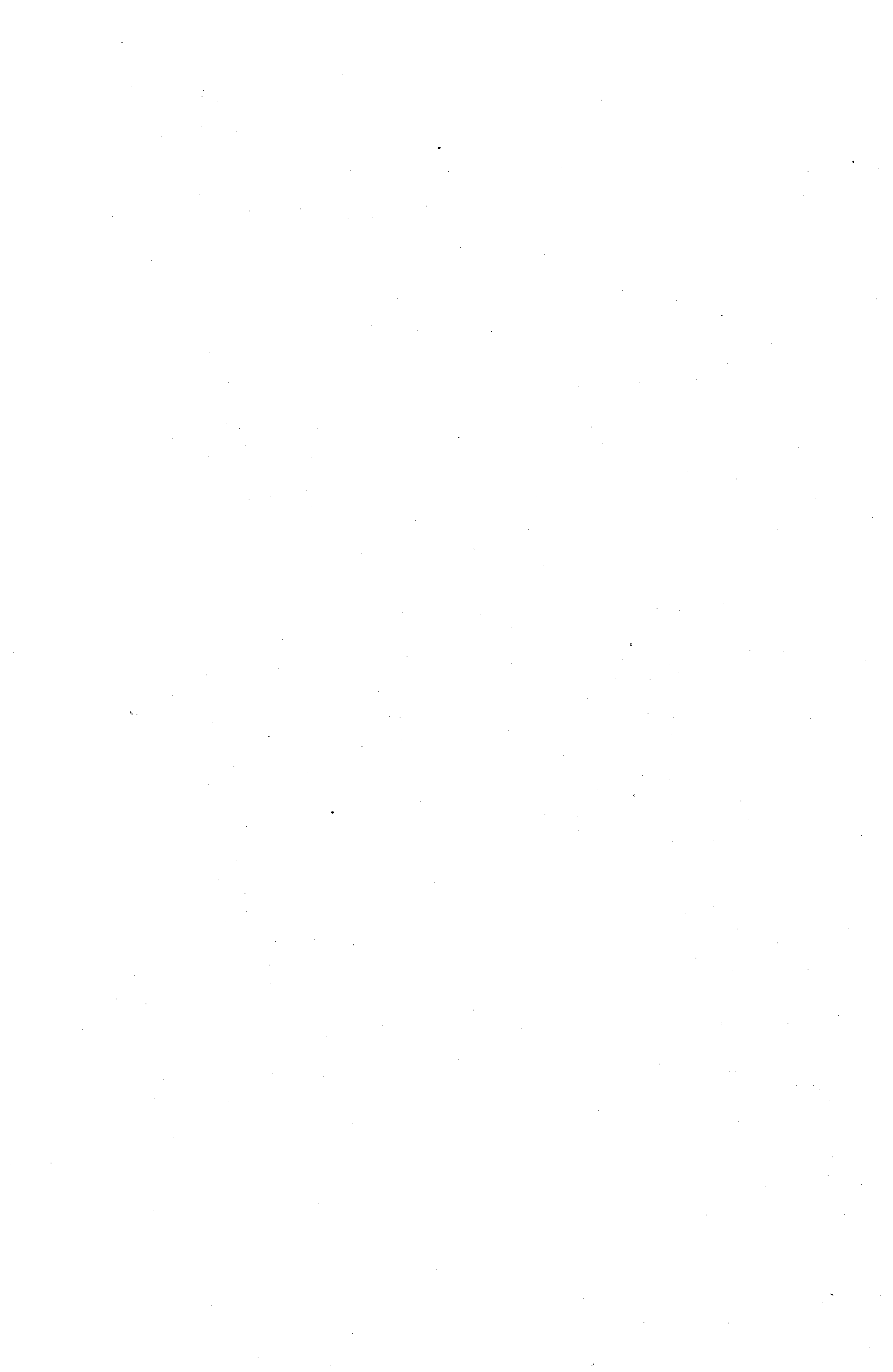
وخلاصة ما تقدم من البحث أن الحضارة الإسلامية التي صمدت على مدى أربعة عشر قرناً بفضل الله تعالي وفضل الإسلام الذي انبثقت عنه وفضل حيويتها وأصالتها إنما تواجه امتحاناً رهيباً وقاسياً بعدما اجتمعت قوى التحالف الثلاثي الذي يجسده تواطؤ الصليبية واليهودية التلمودية والشيوعية، لخوض المعركة الفاصلة مع الإسلام. وكما قال الأستاذ سيد قطب منذ ربع قرن من الزمان فإن « كل دولة مستعمرة سارت على طريقة في مقاومة هذا الدين وخنقه منذ قرون مضت، وما تزال تسير على خطة متعاونة في صميمها تبدو في موقف الأمم الغربية من كل قضية تواجه فيها الإسلام من قريب أو

بعيد... والذين يحسبون أن نفوذ اليهود المالي في الولايات المتحدة وسواها هو الذي يوجه الغربيين هذا التوجيه، والذين يحسبون أن المطامع الإنجليزية والمكر الانكلوسكسوني هو الذي يوجه الموقف، والذين يحسبون أن الصراع بين الكتلة الشرقية والكتلة الغربية هو الذي يؤثر... كل أولئك يغفلون عنصراً حقيقياً في المسألة يضاف إلى هذه العناصر جميعاً هو الروح الصليبية التي تحملها دماء الغربيين والتي تنغرس في عقلهم الباطن، مضافاً إليها الخوف الاستعماري من الروح الإسلامي، والعمل على تحطيم قوة الإسلام، حيث يربط الغربيين جميعاً شعور موحد ومصلحة موحدة في تحطيمها، تجمع بين روسيا الشيوعية وأمريكا الرأسمالية، ولا ننسى دور الصهيونية العالمية في الكيد للإسلام وتجميع القوى ضده في العالم الاستعماري الصليبي والعالم المادي الشيوعي على السواء وهو الدور المستمر الذي قام به اليهود دائماً منذ هجرة الرسول إلى المدينة وقيام دولة الإسلام »[1].

ويبقى على هذا الجيل من شباب الإسلام أن يدركوا جسامة المسئولية وأن يحملوها وينهضوا بعبئها مضيـاً في سبيل إعـلاء كلمة الدين الحنيف وذوداً عن حضارة إسلامية هي عنوان فخر الإنسانية ومصدر عزها وسعادتها وسلامها. ولن يضيرنا أن تتجمع هذه القوى الغاشمة صفاً واحداً في محاربتنا ـ والكفر دوماً ملة واحدة ـ لأننا أصحاب الحق ورواد العدل ودعاة الخير. وقد قال تعالى : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين »[2]، كما قال تعالى : « ومن يتولى الله ورسوله والذين آمنوا، فإن حزب الله هم الغالبون »[3]، صدق الله العظيم.

---

(١) كتاب « العدالة الاجتماعية في الإسلام » ص ٢٥٢ ـ ٢٥٦.
(٢) سورة آل عمران آية ١٣٩.
(٣) سورة المائدة آية ٥٦.



الصّراع على تبنّي الحضارة والثقافة الغربيّة في تركيا الإسلاميّة

للأستاذ عثمان أوزترك



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نعني بكلمة « المستغربة » (أي التي تميل للغرب) تلك الأمم التي تقوم على الحضارة والفلسفة الاغريقية القديمة، ومن ثم فإن « الاستغراب » (أي الميل للغرب) أمر ممكن عقلياً ومنطقياً لكل تلك الأمم التي كانت مستغربة بهذا المعنى فقط. ولكن من الخطأ أن نفكر في استغراب أمة غير غربية. ذلك أن استغراب أمة غير غربية لها أسس حضارية وثقافية مختلفة لا يمكن اعتباره في حقيقة الأمر إلا وقوعاً في حبائل الغزو الثقافي الاستعماري والأجنبي الذي يعتبره كل العاقلين بأنه انتحار لهذه الأمة. ودعنا ننظر في المجرى التاريخي لحركة الاستغراب والميل لأوروبا والتي بدأت أولاً في تركيا ثم انتقلت عدواها إلى الدول الإسلامية الأخرى التي كانت تسيطر عليها القوى الاستعمارية ـ تلك القوى التي سيطرت سيطرة كاملة على تلك الدول بعد القضاء على الخلافة.

وقبل كل شيء ينبغي أن نؤكد أن تركيا، من الناحية التاريخية والثقافية، ليست غربية ولكنها شرقية. ذلك أن الأتراك ظهروا في مختلف مراحل التاريخ في وسط آسيا، كما أنهم في العصور التالية كان لهم تاريخ مشترك مع الأمم الشرقية وليس مع الغرب. وباعتناقها الدين الإسلامي فإن تركيا دولة شرقية باتجاهها خمس مرات في اليوم نحو مكة. إنها ليست أوروبية ولكنها شرقية. وبتاريخها المشترك وروابطها الدينية وثقافتها التي ترتكز على

الدين الإسلامي، فإنها دولة شرقية من الناحيتين النظرية والعملية. وبالنظر إلى أسلوب تفكيرها والعرف السائد فيها وعاداتها وتقاليدها ومعاييرها للقيم، ونظرتها إلى الخير والشر والفضيلة والرذيلة ـ أي بنظراتها الكلية إلى كافة الأمور الدنيوية فإن تركيا والأتراك يعتبرون مستشرقين وليسوا مستغربين ففي حين أن نظرة العالم الغربي ترتكز على المادية فإننا نحن الأتراك المسلمين قد أثبتنا أن نظرتنا أخلاقية. ولقرون عديدة كنا نقيم للزوار مؤسسات لرعايتهم مثل بيوت الفقراء والمطاعم المجانية والمساجد والنافورات والجسور والمدارس. وفي الوقت الذي ينشأ فيه المستغرب في الماضي والحاضر على حب المتع الدنيوية، فإننا كمسلمين نستلهم الإسلام ولم يغب عن ذهننا قط الخوف من الآخرة والتمسك بكل الوسائل بالقيم الأخلاقية وليس بالقيم المادية. لقد كان الكثير من الناس يتناولون طعامهم في مطعم الفاتح مجاناً، ولكن الأوروبي مازال يشعر بأن عليه أن يدفع ثمن أكله في البيت الذي يدعى إليه كضيف. ومن ثم فإن تركيا الإسلامية دولة آسيوية أخلاقية وليست دولة أوروبية مادية.

ونظراً لهذه الخصومة الطبيعية بين الأمم الإسلامية الشرقية والأمم المسيحية الغربية، فإنه من الواضح أن الاستغراب أمر غير منطقي بالنسبة لتركيا مثلما هو بالنسبة للدول الإسلامية الأخرى. ولكن لسوء الحظ اختارت تركيا بِرُعونةٍ كاملة الطريق غير المنطقي، وفي أعقابها تسابقت غيرها من الدول العربية والإسلامية إلى اتباع نفس الطريق المحفوف بالمخاطر.

ويمكن اعتبار القرن الثامن عشر بداية لحركة الاستغراب في تركيا. وفي بداية الأمر لم يكن مخططو الحركة يتحدثون عن الاستغراب والميل إلى أوروبا، نظراً لأن الظروف والأحوال السائدة كانت تحول دون رفع مثل هذا الشعار. وقد أخفى المحركون للاستغراب أهدافهم الحقيقية خلف مقترحات جذابة. وكانت النتيجة أن جيشنا الذي لم يعرف الهزيمة أبداً بدأ يعاني من الهزيمة. وكان السبب هو أن الضباط والجنود لم يكونوا متمرسين على الأساليب العسكرية الحديثة. وكحل لذلك بدأ إحضار ضباط متخصصين من أوروبا لتدريب الضباط في كلياتنا العسكرية. ومن جهة أخرى بدأ إرسال الطلاب إلى أوروبا لدراسة العلوم العسكرية. وبهذا حقق المعجبون بأوروبا

مهمتهم. وكالمريض مرضاً مزمناً يهتم بكافة أنواع النصائح، أخذت الدولة العثمانية، في أكثر فتراتها ضعفاً، بهذا الوصف كمنقذ لحياتها. ومعنى ذلك أن تركيا قد اختارت المجال العسكري (الجيش) كأول هدف في حركة الاتجاه إلى أوروبا. ومن ثم فإن الجيش التركي الحالي كان أول من ابتلعه الاستغراب ونتيجة لذلك بدأ يدير ظهره للدين. ولعل أكثر الأمثلة تحديداً في حركة الاتجاه لأوروبا في المجال العسكري هو قانون « النظام الجديد » الذي صدر عام ١٧٩٣، وبموجب هذا النظام جاء الضباط من فرنسا وسويسرا. وكان الزي العسكري « لضباط الإسلام المنتصرين » خليطاً من الأزياء العسكرية الفرنسية والانجليزية والروسية. ونتيجة لكل ذلك أخذت حركة الاستغراب تتشكل في المجال العسكري بسرعة هائلة. ومنذ إعلان الجمهورية عام ١٩٢٣ حتى اليوم يتم نقل أهم الأسرار والمواقع العسكرية إلى الغرب من أجل الاستغراب وإظهار أن تركيا دولة أوروبية. على أنه يتعين علينا في نفس الوقت أن نضع في أذهاننا أن الممارسات والأفكار المتعلقة بالاستغراب والاتجاه إلى أوروبا، سواء في المجال العسكري أو في غيره من المجالات الأخرى كانت تختلف في فترة ما قبل إعلان الجمهورية عام ١٩٣٢ عما بعدها. فلقد كان الاستغراب قبل عام ١٩٢٣ يعني إنشاء المؤسسات ذات الصبغة الأوروبية، وتشجيع إدخال الأفكار وأساليب الحياة الأوروبية في المؤسسات العثمانية. ولكن بعد إعلان الجمهورية بدأت ممارسات ومفاهيم الاستغراب في مواجهة الإسلام بتحطيم أمجادنا الوطنية وقيمنا الأخلاقية، والنظر باستعلاء إلى أعرافنا وعاداتنا، وبعداء إلى تاريخنا. وقد قتل الكثير من الناس بسبب إدخالهم أسلوب الحياة الغربية بعد صدور قانون عام ١٩٢٥.

ولقد كان الهدف الأكبر لحركة الاستغراب في تركيا قبل عام ١٩٢٣ وبعده هو مجال التعليم العام. فإلى جانب كلية الديانة الإسلامية، أنشئت عام ١٨٤٥ جامعة على الطراز الغربي هي « دار الفنون ». وفي كلية الحقوق التابعة لها بدأ تدريس مواد ليس لها علاقة بنا، مثل القانون الروماني والقانون الفرنسي على أيدي أساتذة غير مسلمين، وذلك باسم الاستغراب. وبعد قيام الجمهورية دعت الدولة أستاذاً سويسرياً يدعى « أ. مالشي » لجعل هذه

الجامعة أكثر ميلاً للغرب. وقد تم قبول التقرير الذي تضمن رأيه في إصلاح الجامعة ووضع موضع التنفيذ. وفي عام ١٩٢٣ أغلقت دار الفنون وكلية الديانة الإسلامية بها، وحلت محلها جامعة اسطنبول بناء على نصيحة الأستاذ « مالشي ». وقد أنشئت كليات هذه الجامعة لسوء الحظ على أيدي أساتذة أجانب، ولم يكن الأساتذة الأتراك يمثلون أكثر من نصف عدد الأساتذة فقط. وقد وصل الجنون بالأفكار الغربية إلى حد أنه حتى عشر سنوات مضت كانت اللغة العربية واللغة الفارسية تدرسان في كلية الآداب بهذه الجامعة على أيدي أساتذة ألمان (ه. ريتر، أ. رايشر). ومن أجل الاستغراب كان المجال مفتوحاً أمام المدارس الانجليزية والفرنسية والألمانية للتدريس بلغاتها وكانت إداراتها غير خاضعة للرقابة التركية. وفي عام ١٩٢٦ تم حذف الدروس الدينية من مقررات كافة المدارس. وبعد عام ١٩٥٠ سمح بتدريسها مرة واحدة في الأسبوع في بعض الفصول الدراسية فقط. وبين عام ١٩٣٠ وعام ١٩٥٠، كانت قراءة القرآن محرمة. وفي عام ١٩٢٨ تم التخلي عن النسخة القرآنية التي ظللنا نستعملها نحو ألف عام، ومن ثم فإن كافة الأعمال المكتوبة قبل هذا التاريخ لم تخاطب الشباب التركي المسلم وبالتالي انقطعت صلته بدينه وتراثه الثقافي. وقد قامت وزارة التعليم بطبع كتب من المؤلفات الاغريقية القديمة مثل أعمال هوميروس وشيكسبير وسرفانتس وذلك باسم الاستغراب.

وبعد عام ١٩٢٣ وفي الكتب المقررة على الشباب التركي تم استبدال التاريخ الغربي وجغرافيته وأدبه بتاريخناوجغرافيتنا وأدبنا، ومن لا يستذكرها يرسب في الامتحان. وقد وصل الاندفاع نحو الاستغراب والميل إلى أوروبا إلى حد أنه في عام ١٩٢٥ أعدت وزارة التعليم كتاباً دراسياً يدعو إلى هجر الموسيقى الشرقية. وقد رفض مجلس التعليم الذي انعقد في ١٥ يناير ١٩٤٣ إعادة تنظيم الأخلاقيات الوطنية وانحصرت أهدافه في تربية الشباب التركي ليكونوا رجالاً تربوا على أخلاقيات الأمم الغربية غير الإسلامية والمعادية للوطنية. ومن المرحلة الابتدائية حتى المستوى الجامعي كان الطلبة ذكوراً واناثاً، يضطرون للدراسة معاً. وقد كان ذلك انعكاساً آخر للاستغراب بعد قيام الجمهورية. ونتيجة لحركة الاستغراب وخاصة بعد قيام الجمهورية ظهر

التعليم الوطني التركي معادياً للوطنية. وقد أدى ذلك إلى ظهور جيل جاهل بدينه وبتراثه وليست له ثقافة أو شخصية قائمة بذاتها. ونتيجة لذلك صارت هذه الجامعات مكاناً خصباً لتفريخ الفوضويين الذين كانوا يملأون الشواع ويحرمون المجتمع التركي من الأمن على حياته وممتلكاته. ولما كان التعليم هو روح الأمة وعقلها فان الأزمات والفوضى في التعليم قد بذرت في كل رجالنا على مختلف المستويات والطبقات في المجتمع بذور الأزمات والفوضى. وطبقاً لفكرة الحضارة فانها كل لا يتجزأ. ومن ثم فإنه كان من اللازم الأخذ بكل أساليب الحضارة الغربية. وعندما تم استدراج الأتراك المسلمين الذين لم يكونوا غربيين مطلقاً إلى حظيرة الاستغراب نشأ وضع غريب أدى إلى استغراب تركيا التي فقدت طريقها ومرشدها. وعلى الرغم من أنه لم يكن أمراً طيباً، إلا أنه لو تم استغراب تركيا بالكامل لكانت في وضع أفضل مما هي عليه الآن[1]. فقد كان من الممكن على الأقل حل مشكلات الطرق والمياه والكهرباء. ان الذين يحولون تركيا في اتجاه الغرب يعرفون جيداً أنه حتى الطرق الريفية في أية دولة غربية أفضل بكثير من أي طريق في مدينة استطنبول. إن إسرائيل تحول مياه البحر بالتقطير إلى مياه صالحة للشرب. أما تركيا التي تدعي أنها غربية فإنها لا تستطيع الاستفادة بالكامل من مياهها الكثيرة ذات النوعية الجيدة والموجودة بكثرة في آبارها، وتعاني من الجفاف ولا تستطيع الاستفادة من أنهارها. وإنه من الصعب أن نجد تياراً كهربائياً غير منقطع ليس فقط في القرى وإنما أيضاً في المدن بل حتى في المدن الكبيرة مثل اسطنبول وأنقرة.

وفيما يلي بعض مظاهر تركيا المستغربة :

* تسيطر المادية الغربية على كل القطاعات. وقد وصل الإلحاد المادي إلى حد أنه حتى الخدمات الدينية لا يتم أداؤها دون إغراء مادي.

---

(١) هذا مجرد افتراض عقلي، وقد يكون الافتراض صحيحاً كذلك (أي أن تكون تركيا قد وصلت إلى حضيض أسوأ مما وصلت إليه في ظل التغريب الجزئي).. ذلك لأن قوانين التاريخ ومسيرة الحضارات لم تكتب حالة واحدة لأمة مقلدة نجحت في الوصول، من خلال التقليد والذوبان، إلى مستوى الإبداع الحضاري.

* كافة أشكال المظاهر الغربية من ملابس وأطعمة وشراب ومتعة واحتفالات يعتبر اتباعها أمراً ضرورياً.
* في سنة ١٩٢٥ وباسم الاستغراب تم إغلاق مساكن الدراويش (التكية)، والتي كانت تعتبر من بقايا مؤسسات الانقطاع لعبادة الله، وحلت محلها الحانات والنوادي الليلية « وصالات » الرقص وغيرها من أماكن الرذيلة وذلك بأعداد كبيرة غطت كل أرجاء البلاد.
* لم تتم حماية صناعاتنا الوطنية بل تم فتح الأبواب لكل أنواع المنتجات الصناعية الغربية.
* تركت الموارد والثروات التجارية للشركات الأجنبية.
* بدأت القيم الاجتماعية في الانحدار، وأخذ المال والشهرة والمنصب تستحوذ على الاحترام وليست الفضيلة والقيم والأخلاق.
* ظهر جيل جديد لا يعرف شيئاً عن قيمه الدينية والوطنية والتاريخية، بل يعرف الكثير عن الممثلات والمغنيات والراقصات الغربيات.
* أصبحت الأغلبية التي لا تملك عقلاً والتي تربط خلاصها بالغرب هي سيدة الكلمة في البلاد.

ويمكن إيراد الكثير من هذه الأمثلة التي تبين أن تركيا قد سقطت بالفعل في أحضان الاستعمار والثقافة الغربية. وللأسف ليس هناك أية محاولة جادة وحقيقية للتخلص من ذلك. بل على العكس يزداد كل يوم اختناقنا بالأفعى الغربية.

إنه يتعين على أمة الإسلام أن تأخذ حذرها من الدور الذي لعبته حركة الاستغراب في تركيا. ويجب أن يكون معلوماً أولاً أن « الكفر ملة واحدة »، وأن المسيحيين أو اليهود لا يمكن أبداً أن يكونوا أصدقاء لنا إلا إذا قبلنا دينهم، إن واجب المسلمين هو أن يعملوا على كسب رضا الله وليس أوروبا أو أمريكا. كما أن عليهم أن يتبعوا طريق الحق وهو طريق الله وليس طريق الغرب.

إن خلاص الدول الإسلامية يكمن في الاتجاه إلى الإسلام وليس في الميل إلى الغرب.

ثورة الجنس في عالمنا المعاصر

« نظرات طبيب مسلم »

للدكتور حسان حتحوت

أستاذ الولادة وأمراض النساء - جامعة الكويت



بسم الله الرحمن الرحيم

عالمنا يتقارب بعضه من بعض بانتشار الكلمة المسموعة أو المطبوعة والصورة المرئية المتحركة أو الثابتة ووفرة المواصلات التي تحمل الناس بأسرع مما يسري الصوت في الهواء. ولم يعد أحد يطمح أن يعيش بمعزل عما يدور في أرجاء هذا العالم، وأصبح نتاج هذه المدنية يخترق الحدود والحواجز في سهولة ويسر، سواء أكان هذا النتاج مادياً أم كان فكرياً.

لهذا أحببنا أن ليكوّن شبابنا المسلم على بينة مما يدور حوله، وعلى ما يكتنف العالم من تيارات، وعلى حقائق العصر ليكون فيها رأيه الإسلامي على بصيرة وفي ثقة، وحتى لا يجرفه الإعلام أو الاعلان أو الأعراف الباطلة إلى ما لا يرضاه له ربه، سواء ارتحل شبابنا في أرجاء الأرض واختلط بمن فيها وما فيها، أم ظل في داره، فقرعت بابه الأفكار والمذاهب والفلسفات.

ولعل من أكبر ما يميز عصرنا الحاضر هو تلك المراجعة الجذرية الشاملة للقيم الجنسية التي كانت مستقرة منذ قرون ومعبرة حتى عقد أو عقدين من الزمان، وركوبها موجة السرعة المذهلة للتقدم التقني والعلمي التي هزت نفس الإنسان هزة خلخلت ما بينه وبين القيم التي كان يستهدي بها،

فكأنها زلزال لا يبقى إلا أنقاضاً ويجعل المجال خالياً لإتمام بنيان جديد على نمط جديد ومفاهيم جديدة.

ونود أن نطوف في إيجاز غير مخل بطائفة من الموضوعات المحددة التي تشكل سمات واضحة على وجه الثورة الجنسية المعاصرة..

(١) الفلسفــة الإباحيــة :

ليست فلسفة الإباحة الجنسية جديدة على التاريخ الإنساني ولكنها بالتأكيد جديدة على الحقبة الحاضرة منه. وقد تتالت على التاريخ كالموجات ترتفع ثم تنخفض، وطالما كانت سبباً في انهيار حضارات قامت قوية ثم استقرت ثم دخل إليها الوهن من هذا الباب كما تدخل جراثيم المرض الجسم من مدخل ما، وتبقى فيه فترة لا تظهر فيها عليه أعراض مرضية وهي ما تعرف في علم الطب بفترة الحضانة، فإذا تمكنت واستحكمت وانتشرت عجلت بالانهيار وأفضت إلى النهاية.

حدث ذلك للامبراطورية الرومانية، وحدث في سادوم وعامورة، وشهدنا نموذجاً مصغراً له في فرنسا بين الحربين العالميتين، كما اعترف مارشالها بيتان وهو يستسلم للألمان. وجرثومته بالتأكيد ناشطة في جسم حضارتنا المعاصرة التي تعرف بالحضارة الغربية، وإن كانت بعد كامنة لم تفض إلى نتائجها البعيدة المدى بعد..

نشأت فيما بين الحربين العالميتين فلسفة ذات ذراعين مدتهما إلى العالم، شرقه وغربه، ولن يعجزكم بعد أن أصفهما أن تعرفوا لمن الذراعان، ومن الرأس المدبر.

الأولى تنكر الله تماماً. وتعزو خلق الكون إلى حتمية الصدفة المادية المتطورة.. وترى أن الدين اختراع بشري ابتكرته سلسلة من المصلحين الاجتماعيين هم الأنبياء والمرسلون، وأن الآخرة هي بديل لمصرف وهمي وعدوا الناس أن يكافئوهم منه بعد الموت لقاء طاعتهم لهم.. وأن الدين بذلك أفيون الشعوب. وانتشرت هذه الفلسفة مستغلة العمى الروحي آناً، والعنف والقهر آناً آخر، حتى أصبحت تبسط رواقها على أكثر من ثلث سكان عالمنا المعاصر، وهي الفلسفة المادية الشيوعية. أما الذراع الأخرى

فامتدت في صورة غزو فكري إلى العالم الغربي المسيحي.. انبثقت عنه الفلسفة المسماة بالفضيلة الجديدة **New Morality** استغلت هذه الحركة التقدمات العلمية الهائلة التي أنجزها العقل البشري خلال القرن الأخير، وانبهار الناس بما تفتق عنه عقل الإنسان من مخترعات ومكتشفات : فدعت إلى تحكيم هذا العقل في كل أمور الحياة الإنسانية والنزول على رأيه والاهتداء به وحده. وكان مما عرضته على العقل كذلك كل التراث الأخلاقي سواء ارتكز على العرف أو على الدين.. يدخل ضمن ذلك العلاقات الجنسية.

كانت الدعوى أن ما وافق العقل فهو نافذ، وما خالفه فهو باطل. وفاتهم أن العقل ذاته أداة ناقصة، فلو سلمنا للعقل بالكمال لكان علينا أن نغلق المختبرات ونوقف الأبحاث، بل إن كل كشف جديد اعتراف بنقص عقلنا قبل أن نكشفه، وسعينا وراء الجديد اعتراف منا بالمدى الذي مازال العقل يجهله وما أكثره. والحق أنه كلما ازداد العلم تقدماً ازداد إدراكاً بمدى ما يجهله. العقل إذن ناقص لا يقدر أن يصدر الأحكام المطلقة، فضلاً عن أن العقل قابل للإيحاء وهذه من صفات الإنسان، يغالبه الهوى وتلح عليه النزوة ويلاحقه الإلحاح فيلين رويداً رويداً، ويميل خطوة خطوة، فإن ما كان بالأمس خطأ يصبح اليوم مقبولاً ويصبح في غد ممدوحاً : وإن ما كان بالأمس رذيلة يصبح في غد فضيلة.. وهكذا صار في قضية الجنس. بتحكيم العقل أحلت هديه محل الهدي الإلهي.. فاتبع الإنسان هواه وكان أمراً فرطاً. وإذا الفضيلة الجديدة هي الرذيلة القديمة. وألفت كتب مثل كتاب « فضيلة بلا دين » تحض على معرفة الشر والخير لا ديناً ولكن بما تسببه من نفع وضر. ووجدت من يؤيدها من فلاسفة مثل برتراند راسل الذي دعا لحرية الجنس بين الطلاب والطالبات في الجامعات، ومن رجال كهنوت مثل الأسقف الأحمر في انجلترا الذي ادعى أنه إذا ضاجع الشاب فتاة في محبة وبغير قهر كان ذلك مبرة.

وأساتذة علم نفس يحذرون من العواقب الوخيمة من جراء الكبت الجنسي لدى الشباب المتمسكين بالعفة.. ومن رجال تشريع أخذوا يعبثون بالقوانين حتى لم يعد اللواط جريمة يعاقب عليها القانون.. ومن مؤلفين

ومخرجين ومنتجين وسينمائيين وصحافيين وعلماء اجتماع مازالوا بأممهم حتى تغير مناخ القيم الأخلاقية تماماً.

وكم آلمني أن أقرأ أن لجنة من مجلس الكنائس البريطاني : في تقرير لها عن الجنس والفضيلة تقول : « أنها ضد الاستغلال الجنسي وأنها تبارك الصلة الجنسية في الزواج ولكنها ترفض الرأي الداعي إلى العفة قبل الزواج.. أو الالتزام بعده، وترفض رأي الإنجيل ضد الزنى الذي تراه مسموحاً في بعض الأحوال، إن شكل امتزاجاً شاملاً بين بالغين راضيين ». (مجلة تايم ٢٨ أكتوبر ١٩٦٦ ص ٣٨).. ويدعو التقرير إلى تهيئة وسائل منع الحمل للفتيات غير المتزوجات، وإلى مزيد من التراخي في تشريعات الإجهاض. وفي موجة الحرية والمساواة دعوا إلى مساواة المرأة بالرجل في حرية الجنس بدلاً من دعوة الجنسين إلى مراعاة العفة.

ولا نرانا في حاجة لبيان رأي الإسلام في هذا الموضوع فهو أعرف من أن يعرف، ونحمد الله على أن الإسلام تكفّل منزله سبحانه وتعالى بحفظه وحفظ كتابه فلم تمتد إليه يد بهذا العبث. ولكن على الشباب المسلم في المقام واجبين :

الواجب الأول أن يحكم صلته بربه، ويوثق قبضته على دينه، فإن تعرضه لوسائل الإغراء الفائقة التي أتقنتها الرذيلة وتأنقت فيها لم يطش صوابه أو يزايله إيمانه أو تعصف الفتنة بثباته على طاعة ربه.

والواجب الثاني أن يدعو القوم إلى سبيل الرشاد ولو استمد الحجة من منطقهم ما داموا لا يؤمنون بقرآننا، ولم يعودوا يؤمنون بإنجيلهم. وهنا نأخذ عليهم السبيل بما يرفعون به أصواتهم من دعوى العدالة والمساواة بين الناس رجالاً ونساء. ونقول لهم بمنطقهم إن أية علاقة بين اثنين لا تتوزع نتائجها على الاثنين بالتساوي فهي علاقة نابية عن العدل. ونظرة إلى العلاقة الإباحية التي صارت عرفاً متبعاً في الغرب والتي تبيح المعاشرة بغير رباط الزواج ومسئولياته، نظرة إلى النتائج ترينا أن المردود غير موزع بالتساوي. فالمرأة دائماً هي الخاسرة.. إن عوشرت ثم هُجرت فهي الخاسرة... وإن حملت سفاحاً فهي الخاسرة، فإن لجأت إلى الاجهاض فهي الخاسرة، فإن

وضعت وتنازلت عن وليدها فهي الخاسرة، وإن احتفظت به ولداً بلا والد فهي الخاسرة.

ووراء القشرة البراقة التي تشبه الطُّعم الذي يُستعمل في الوقيعة بالفريسة، يغص المجتمع الغربي بالحقيقة المرة والمضاعفات الكريهة والضحايا من النساء والولدان، وأعلم ذلك علماً مباشراً فأنا طبيب لأمراض النساء وعملت في بريطانيا وفي أمريكا وأبصرت شناعة ما يحيق بالمرأة وأقنعت زملائي وأساتذتي الغارقين في الدهشة والخجل والتسليم أن مجتمعهم قد ظلم المرأة.

* * *

(٢) منع الحمل :

في رأي الكثيرين من علماء الاجتماع أن عصرنا الحالي سيتسم في التاريخ بأنه عصر حبوب منع الحمل أكثر من كونه عصر تحطيم الذرة. فلأول مرة يمكن التحكم في الخصوبة البشرية بصفة فعالة وبوسائل ميسورة يسراً يجعلها في متناول من يريد. وقد هلل الكثيرون من هل الدراسات السكانية والاقتصادية لمجيء هذا الإنجاز في الوقت الذي بدأ فيه أن خطر الانفجار السكاني يوشك في رأيهم أن يهدد الحياة البشرية على الأرض. ويتوقعون أنه إذا استمر معدل الزيادة في السكان على ما هو عليه فستصل الأرض في حياة كثير منا إلى مرحلة التشبع، فلا يعود ما فيها من رزق يكفي من فيها من السكان.

على أن مسألة التحكم في الإنجاب هذه تعنيني أنا من وجه آخر أود أن أورده قبل أن أتعرض للتعقيب عل الرأي الاجتماعي العام الذي أسلفته. وأعني بذلك ما يختص بعملي طبيباً متخصصاً في أمراض النساء والولادة، ومما لا شك فيه أن الكشوف الجديدة أصبحت عوناً لنا فى كثير من المواقف. فقد تصاب السيدة بمرض من الأمراض التي تتفاقم مع الحمل فتهدد حياتها أو كيانها، وقد تجتاز فترة من الزمن.. ومن الناحية الاجتماعية قد يحجم الشباب عن الزواج لأنه لا يستطيع الباءة، وهي القدرة على تكاليف الزواج كما ورد في حديث رسول الله ـ ﷺ ـ : « يا معشر

الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له، وجاء » « صحيح مسلم ». وفي وجود طريقة للتحكم في الإنجاب ربما يتشجع الكثيرون على عدم تأجيل الزواج انتظاراً للدخل الأوفر.

وفي مجال عملي وجب عليَّ أن أنظر في هذا الأمر نظرة المسلم ونظرة الطبيب، لأن الطبيب المسلم يمتاز عن غيره من الأطباء بأنه محكوم بإسلامه.

ودلني النظر في هذا الأمر إلى أن منع الحمل، ككثير غيره من الأمور، لا يحكم له أو عليه حكماً عينياً بالحل أو الحرمة. حكماً عابراً.. بل أعتقد أن العبرة بالتطبيق. الذين يقولون بالحل يتمثلون بإجابة الرسول عليه السلام لسائله بقوله : « اعزل أو لا تعزل فإنه آتيها ما قدر لها ».. ويقول بعض الصحابة : كنا نعزل على عهد رسول الله فلم ينهنا. وبتفريق الغزالي وغيره بين منع الحمل وبين الاجهاض والوأد من حيث الأخيرين عُدْوان على موجود كائن حاصل وليس كذلك منع الحمل.

ومع ذلك فلا شك أن من يجرد الزواج من وظيفة التكاثر ويقصره على وظيفة المتعة فقد نبا عن الصواب. وإن كانت الأمة في حاجة إلى الكثرة العددية التي تفي بالقيام بأمرها واستخراج خيراتها والذود عن حياضها أصبح الانجاب تلبية لحاجة عامة وأصبح النكوص عنه أنانية غير حميدة.

هناك كذلك على النطاق العالمي اهتمام مركز على مسألة تحديد النسل، ومن يبصر هذا الاهتمام يتوهم أن تحديد النسل هو المدخل الوحيد لتوقي شح الموارد.. ولا نرى ذات الاهتمام ينصب على التعاون على استخراج خيرات الأرض واستنباطها، سواء كانت الأرض اليابسة أو الأرض المغمورة بالبحار والمحيطات.. ولو تنافست الدول القادرةُ في الإعمار جزءاً يسيراً من منافستها في الإعداد للحرب والدمار لتغيرت الحال تماماً. بل إن بعضاً من الدول تملك الفائض الغذائي ولكنها تضن به أو تستعمله للمقايضة السياسية، أو حتى تهلكه حتى لا تنخفض أسعاره.. ومنذ برهة وجهت الحكومة في إحدى دول أوربا المتقدمة نداء إلى الشعب تناشده أن يأكل

الفرد بيضه زيادة كل يوم لتصريف الفائض لدى الفلاحين، بينما تعاني الملايين من أبناء الأسرة الإنسانية في مواطن أخرى من الفاقة والحرمان.

ونحن المسلمين، وإن كنا في عالمنا المعاصر دولاً ذات حدود وحكومات، ينبغي ألا يصرفنا ذلك عن أننا أمة واحدة عرفها الله بقوله : « وان هذه أمتكم أمة واحدة ».. وينبغي أن تنسق الحكومات فيما بينها فتجعل من أمة الإسلام وحدة مؤتلفة متعاونة متراحمة متآزرة، ولو استطاعت أن يكون واقعها هو حاصل جمع ما تملكه من أرض ومن ماء ومن معادن ومن سواعد ومن عقول ومن شواطئ ومن أنهار ومن بحار، إن تعاملت فيما بينها جمعاً وضرباً وليس طرحاً وقسمة، لحققت بذلك رسالتها، ولحلت أزمتها وأزمة العالم، وليس من سبيل لذلك إلا بأن تحيا في قلوب أبنائها جذوة الإسلام من جديد، فليس لها دون الإسلام من رباط مهما جربت من رباط، وليس لها من دون الله من نصير مهما شرقت أو غربت في البحث عن النصير : إنه الإسلام وليس غير الإسلام، فلذلك فليدع الشباب المؤمن.

(٣) الاجهـــاض :

الاجهاض هو خروج الجنين من رحم أمه ولما يكتمل نموه لدرجة تتيح له أن يعيش بعد ذلك. وقد يحدث الإجهاض تلقائياً لعلة مرضية ظاهرة أو خفية، ولكن الذي يعنينا هنا هو ذلك الاجهاض المحدث عنوة بفعل فاعل. ومنذ بواكير الحضارة الإنسانية، ومنذ فجر المهنة الطبية وأعلامها كالوزير « أمحوتب » في مصر القديمة ثم « أبقراط » في العهد اليوناني كانت حرمة الحياة الإنسانية تنسدل على الجنين، فكان من قَسَمِ الأطباء ألّا تمتد يدهم بالأذى دوائياً أو جراحياً للجنين المحمول. وظلت هذه من مقدسات المهنة الطبية وموروثاتها حتى عقدْنا الحالي، حين امتدت إليها كذلك تلك اليد التي آلت على نفسها أن تعبث بكل ما استقر من تراث الإنسان. ومسألة الاجهاض خيط من نسيج وجزء من صورة كلية. وأعود إلى موانع الحمل فأقول : إنها وإن كانت تقدماً علمياً وعوناً طبياً واجتماعياً، إلا أن أبحاثها الأولى كانت ممولة ومحفوزة من قبل الحركة التي سمت نفسها حركة تحرير المرأة، وكان مما تدعو إليه تلك الحركة في انجلترا مساواة المرأة

بالرجل، وكان من شعائر تلك المساواة أنه إن كان الرجل يمارس الجنس دون أن يهدد بالحمل فينبغي أن يكون للمرأة كذلك أن تمارسه دون تهديد الحمل.

ولم تكد تستقر أمور منع الحمل حتى جعلوها في المتناول الميسور للبنات غير المتزوجات.. وفي حضوري المؤتمرات الدولية المتعاقبة لفتت نظري في أوائل الستينات نغمة جديدة ذرت بقرنها على استحياء تنادي بحق المرأة في جسمها، ثم تنادي بأنه من الظلم أن تضطر المرأة إلى أن تحتفظ في أحشائها بجنين لا تريده، وكان القائمون على هذه المؤتمرات بادىء ذي بدء يعلنون تنصلهم من هذه الأفكار ويعزونها إلى آراء فردية لأقلية متحمسة، ولكن ما إن طرقت هذه الأفكار الأسماع مرة تلو مرة وأصبح الجهر بها أمراً مألوفاً لا يثير صدمة حتى ظهر أنها كانت مقدمة لحملة منظمة شاملة هادفة. وتداعت تلك القوى حتى نجحت في تشديد ضربتها إلى التشريع البريطاني. وبعد أن كان الاجهاض الطبي مباحاً فقط في الحالات التي يشكل فيها استمرار الحمل خطورة على حياة الأم، صدر في سنة ١٩٦٧ قانون الاجهاض الجديد في بريطانيا، ورغم اعتراض الهيئات الطبية المعنية واحتجاجها، مرر المشرعون أعضاء البرلمان القانون الجديد الذي وسع رقعة الإباحة لتشمل ليس فقط تهديد حياة الأم إن استمر الحمل، بل تهديد صحتها الجسمية أو النفسية، أو الصحة الجسمية أو النفسية لأي أحدٍ من أفراد الأسرة بما فيهم الأبناء بالتبني، ويستوي أن يكون هذا التهديد في الحاضر أو في المستقبل المرتقب.

وأفضى هذا القانون إلى أن يعبث كل من طاوعه ضميره في الأرض إجهاضاً. فإن القانون الجديد لم يشكل ضابطاً ولا رادعاً. لو أن أسرة تبنت طفلاً ثم حملت السيدة فذهبت للطبيب تقول إن متبناها يشعر بالغيرة من قدوم طفل جديد، فالقانون الطيع اللين يسمح بالاجهاض إن وافق الطبيب على أن ذلك يهدد الصحة النفسية للمتبنى في المستقبل.

فماذا كان بعد ذلك ؟..

ظهر أن هذه الإباحة لم تستخدم في المحافظة على صحة الزوجات

أو للحد من نسل الأسرة كثيرة العيال التي تؤودها النفقة..

ولكن طالعتنا الإحصاءات بأن الكثرة الغالبة من المجهضات كن نساء غير متزوجات بل حاملات من سفاح، فكشفت بذلك عن حقيقة الحاجة التي لباها التشريع الجديد وحقيقة الظمأ الذي رواه...

ثم أصبح الاجهاض تجارة رابحة، وصارت له سوق تحتية تلبس مسوح الطب وتبطن جشع الشيطان. وفي ظل القانون الواحد ثبت أن حفنة قليلة من دور العلاج الخاصة كانت تنجز من الاجهاضات أضعاف ما تقوم به المستشفيات الحكومية ذوات العدد والسعة. وأمست لندن عاصمة الاجهاض وعاصمة البغاء.. وفي كتاب حديث لبريطاني وبريطانية تنكرا في هيئة عشيقة حامل وصديقها... يرويان ما شهداه في مطافهما بسوق الاجهاض، مما تشمئز له نفس الإنسان فما بالكم بالطبيب..

وتكونت شبكة اجهاضية وكأنها المؤسسات السياحية ترتب للبنات هناك أو القادمات من الخارج كل شيء من أول التاكسي بالمطار مروراً بالفندق والمستشفى والعملية حتى المطار مرة أخرى للمغادرة.

ومن العجيب أنهم ظنوا أن شيوع الاجهاض سيمنع ظاهرة الأطفال المولودين سفاحاً، فهالهم أن هؤلاء في ازدياد، ومع إقبال الأسر المحترمة على الحد من عدد الأبناء أصبح كل خامس مولود في بريطانيا مولوداً من سفاح.

وانتقلت العدوى التشريعية من بريطانيا إلى كثير من دول أوربا وكثير من ولايات أمريكا.. وأذكر أنني في إحدى زياراتي لإحدى أمهات المستشفيات في أمريكا مررت بجناح الحوامل فإذا كلهن ما عدا واحدة آنسات غير متزوجات، وحضرت لست عمليات إجهاض فإذا كلهن بنات غير متزوجات.

وأعجب لهذا الفصام الذي أصاب المهنة الطبية. فمن معالم التقدم الطبي في السنوات العشرين الأخيرة ظهور التخصص الجديد الذي يسمى الطب الجنيني.. والذي أفضى إلى تشخيص كثير من العلل في الجنين المستكن في الرحم وتناولها بأصنافه من العلاج الدوائي أو حتى الجراحي.

معنى هذا أن الطب اعتبر الجنين زبوناً من رعاياه يبسط عليه رواق الوقاية والعلاج.. فكيف بالله تجيز نفس المهنة أن تمتد يد الطبيب إلى الجنين السوي البريء وتقتلعه من جذوره إلى سلة المهملات.

وانظر إلى مسألة الاجهاض نظرة إسلامية فتطالعني بادئ ذي بدء دلالات كريمة هادية في الآيات الكريمة :

(١) « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق ».
(٢) « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ».
(٣) « وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم لِيُرْدوهم ».
(٤) « ياأيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألّا يشركن بالله شيئاً، ولا يسرقن، ولا يزنين، ولا يقتلن أولادهن، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن، ولا يعصينك في معروف، فبايعهن واستغفر لهن الله، إنَّ الله غفور رحيم ».

آيات تدور كلها حول جريمة قتل الأولاد ــ وكلمة الأولاد تشمل الذكور والإناث، وهو قتل يشارك في اقترافه الرجال والنساء. ونعلم أن الجاهلية في جريمة الوأد كان رجالها وحدهم يئدون الإناث وحدهن : فمن تكون الضحايا ذكوراً وإناثاً تغدر بها الرجال والنساء جميعاً إلا إن كان القصد أنها الأجنة تغدر بها يد الاجهاض ؟ ثم أنظر في الشريعة الإسلامية وموقفها من الجنين فأجد الآتي :

أولاً : اذا مات رجل وظهر أن امرأته حامل حجز من تركته نصيب ولد، ولم يأخذ باقي الورثة أنصبتهم إلا إن تعهدوا إن وضعت المرأة أكثر من ولد أن يردوا على التوأم نصيبه.

ثانياً : إذا حكم على امرأة بالإعدام وتبين أنها حامل أرجئ تنفيذ العقوبة حتى تلد، وفي رأي حتى ترضع.. حتى لو كان الجنين محمولاً من سفاح.

ثالثاً : إذا أجهض جنين في أية مرحلة من الحمل وظهرت عليه أية علامة من علامات الحياة كتحريك إصبع أو نفس أو سعلة أو عطسة أو

غيرها ثم مات بعدها.. فإن هذا الجنين يرث أيّاً من مورثيه الشرعيين مات بعد بداية الحمل، ثم يرث الجنينَ ورثتُه الشرعيون.

رابعاً : في الإسلام عقوبة مالية على الاجهاض لا تجب غيرها من عقوبات التعزير على عدوان أو اصابة أخرى. وهذه الغرامة اسمها « الغرة » وتبلغ عشر دية البالغ. تدفع لورثة الجنين الشرعيين. فان كان من بينهم متسبب في الاجهاض دفع حصته من الغرامة وحرم نصيبه منها.

كل هذا يدل على أن من له هذه الحقوق فإنها تالية للحق الاصيل وهو حق الحياة. فحياة الإنسان محترمة في نظر الإسلام حتى وهو جنين. ولقد كانت هناك شبهة فقهية في السابق، إذ كان يظن أن الحياة تبدأ في الجنين في الوقت الذي تشعر فيه أمه بحركته في بطنها، ويكون ذلك عادة في نهاية الشهر الرابع.. لهذا أجاز بعض السلف الاجهاض قبل هذا الوقت، أما الآن فنعلم علم اليقين أن الجنين حي من البداية، نرقب بأجهزتنا حركة ودقات قلبه، وانما تشعر به الأم بعد أن يكون بلغ مبلغاً من الحجم والقوة واستطالة الاطراف يمكنه من أن يركل رحم أمه ويلكمه بصورة محسوسة. حياة الجنين اذن محترمة، ولا يضحى بها إلا إن كان في استمرار الحمل خطورة على حياة الأم المريضة، لأن الأم في الشريعة أصل والجنين فرع، والفرع فداء الأصل.

(٤) الأمراض الجنسية :

وهي التي تعرف أيضا بالأمراض السرية وتنقل عدواها عن طريق الاتصال الجنسي عادة. ونود أن نوجز كلمات عن المرضين المشهورين الرئيسيين منها.

الأول مرض السيلان :

سببه مكروب ثنائي صغير.. يستقر في غدد الجهاز البولي والتناسلي فيحدث أولاً التهاباً حاداً يتميز بحرقة البول وتكوين صديد يُخرج قطرات منه على غير إرادة من فتحة البول. وإذا لم يعالج فإن دوره الحادّ يهدأ ولكنه

يتحول إلى الطور المزمن حي تتحصن المكروبات في أعماق الغدد البولية والتناسلية وهي مخابئ تأمن فيها على نفسها، وتستمر في إفراز سمومها التي تمتص في الدورة الدموية فتحدث آثاراً بعيدة في أماكن كالمفاصل أو القلب أو العين، ومن مخاطر هذا المرض أن الالتئام منه قد يُحْدِثُ تليفاً يُضيّق قنوات مسار المني أو يسدها.. وبالرغم من أن الالتئام شفاء إلا أنه إن أفضى إلى انسداد القنوات المنوية أدى إلى العقم.. لأن الحيوانات المنوية لا تستطيع أن تجد طريقها إلى الخارج فيكون السائل المنوي خالياً من الحيوانات المنوية ويكون الرجل عقيماً.

وقد تحدث نفس النتيجة في المصابة الأنثى إذا التهبت ثم تليفت ثم انسدت القناتان اللتان تجتازهما البويضات إلى الرحم فيحكم على السيدة بالعقم.. وفي حياتي الطبية أمثلة عديدة لسيدات شريفات عفيفات أصبن بالعقم نتيجة لخطيئة زوج فرط في الأمانة فنقل العدوى من المومس البغي إلى الزوجة الطاهرة.

أما المرض الثاني :

فهو الزهري.. جرثومته لولبية الشكل تبدو تحت المجهر في صورة الحية. ولا تظهر آثار هذا المرض ظهوراً سريعاً كالسيلان ولا هي تصحب بالالتهاب الحاد أو الألم. ولكنه يغزو الجسم في بطء وأناة وثبات ماراً بأدوار ثلاثة :

الدور الأول : قرحة تظهر بعد برهة طويلة منذ الاتصال الجنسي تقدر بأسبوعين إلى أربعة، وتظهر القرحة على المكان الذي ثقبت فيه الجرثومة سطح الجسم. قد تكون على العضو الذكري أو الفرج أو المهبل أو عنق الرحم في الأنثى مكنونة في الداخل غير ظاهرة.. وقد تكون على الشفة أو اللسان إن دخلت الجرثومة بالتقبيل.. ومن الأسف أن هذه القرحة غير مصحوبة بألم، ويتحالف عدم الألم ووجودها في مكان مستور مع مزيج من الخجل أو الجهل أو الإهمال على تثبيط المريض عن الاستعانة بالطبيب، ويساعد على هذا أن القرحة تختفي بعد تماماً فيظن المسكين أنه شفي ولكن هيهات. وبعد شهر أو اثنين يظهر.

الدور الثاني : على هيئة طفح جلدي عام على الجسم.. ولا يلبث هذا أن يزول ليأتي **الدور الثالث** بعد أشهر أو سنوات. وتحكم القبضة على المريض، وللدور الثالث صور شتى : منها زهري الجهاز الدوري الذي يضرب القلب والشرايين الكبيرة، ومنها زهري الجهاز العصبي الذي يفضي إلى صور من الشلل والجنون، ومنها الزهري الكامي الذي تهترئ معه أجزاء متفرقة من الجسم كالعظم أو المخ أو القلب أو الرئة أو غير ذلك. وتستطيع جرثومة الزهري في جسم الحامل أن تخترق المشيمة إلى الجنين، فإما مات عاجلاً أو آجلاً، وإما ولد وعاش مريضاً بالزهري الذي يسمى آنذاك الزهري الوراثي.

من أجل ذلك وغيره قال ربنا جل وعلا : « ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا ».

ويعلم الجميع أن هذه الأمراض قديمة.. فما بالنا نوردها تحت عنوان « ثورة الجنس في عالمنا المعاصر » ؟.

نوردها قصداً وعمداً. لأنها في عالمنا المعاصر قد اتخذت هيئة ثورية. فعندما اكتشف الطب المضادات الحيوية في الأربعينات بدءاً بالبنسلين.. فرحت الهيئات الطبية بفعاليتها ضد هذه الأمراض وظنت أنها قد قضت عليها إلى غير رجعة. وسرعان ما تبين أن ظاهرة خطيرة قد جدت.. ذلك أن فصائل من المكروبات قد غيرت من نشاطها الحيوي مستغنية عن أدوار في نموها كانت هي مقاتلها بالنسبة للمضادات الحيوية.. وظهرت فصائل ذات مناعة ضدّ ما في جعبتنا من الأدوية.. وكلما استنبطنا دواء جديداً نجح برهة من الزمن ثم تملصت منه المكروبات بتلك المناعة المكتسبة..

وعاد الزهري والسيلان من جديد.. ولكن بفروق عما كانا عليه من قديم، وهنا مكمن الثورية وخطورتها..

فالأنواع الجديدة من الزهري والسيلان أعصى على التداوي من أجيالها السابقة عند بدء استعمال المضادات الحيوية.

ونوع المريض وسماته قد اختلفت عن ذي قبل اختلافاً خطيراً.. لم يعد التوزيع الجنسي كما كان في السابق خمسين رجلاً لكل امرأة. ولكنه

أصبح متساوياً بين الجنسين من المرضى..

ولم يعد معدل سن الإصابة حول الخامسة والثلاثين ولكنه أصبح نحو العشرين. لم يعد مصدر الإصابة مومس الأمس يقصدها العديد من الرجال المنحرفين.. ولكن زنى اليوم صار دولة بين الشباب، فزانية اليوم في الغرب هي الفتاة العادية الشابة في كافة مرافق الحياة.

وهنا الجناية.. يمهد لها ويعين عليها حشد كامل ذكي لكل ما يثير الغرائز من أزياء ومن مطبوعات ومن أفلام ومن أقلام ثم من مفاهيم جديدة. تسمي الزنا حباً وتسمى الرذيلة حاجة فسيولوجية وتسمى العفة والشرف رجعية وتخلفاً وجموداً لا يليق بمدنية العصر.

ووراء النور الذي يجذب الفراشةَ النارُ التي تحرقها.. ويعلن الدكتور و. براون من المركز الأمريكي لمكافحة الأمراض أن ستمائة وخمسين ألفاً من الأمريكان شباباً وفتيات تحت سن العشرين يصابون بالزهري أو السيلان،... وأن حالات الزهري المعروفة قد ازدادت في عام واحد ٥٥ بالمائة في نيوجرسي و ٣٣ بالمائة في مدينة نيويورك.. ويعلن الدكتور ماكنزي بولوك من الجمعية الصحية الأمريكية عن تفاقم الإصابات ويدعو إلى إعلان حالة الطوارئ القومية.

وبعـد ..

فهذا يجري في عالمنا ولا مهرب لنا من أن نلقاه فيغلبنا أو نغلبه. ونحمد الله على أن عالمنا الإسلامي مازال محتفظاً لدرجة كبيرة بقيمه الإسلامية في هذا المضمار.. فانهم في الغرب يصعقون حين نقول لهم إن معدل البكارة عندنا في الفتيات دون الزواج يكاد يكون مائة بالمائة. وشبابنا جزء من الشباب العالمي.. فما موقفه من هذا التيار الهادر ؟

أود أن أقول من خلال مهنتي إنني أكره الشر ولا أكره الشرير. وأقول إن مهنتي تفرض عليّ أن أتعامل بالرحمة وليس بالعدل. وتفرض علي كذلك أن أستر وأن أصون السر وألّا أخون إذا ائتمنت.

ويأتي إليّ الزاني مصاباً، أو الزانية سفاحاً، أو العدوّ القالي، أو

الخصم المحارب، فليس في جعبة الطبيب إلا الرحمة وإلا العلاج وإلا النصيحة المخلصة بالحكمة والموعظة الحسنة. ومع العلاج أدعو إلى التوبة إلى الله توبة نصوحاً والفرار إلى الله لا الفرار منه. وقد وسعت رحمته كل شيء.

أما شبابنا المسلم، في حله وترحاله، فيعلم أن عليه واجبين : واجباً دفاعياً، وآخر هجومياً. أما الدفاعي فأن يُثَبِّت جنانه وايمانه تجاه كل ما يتعرض له من إغراء إن بدا لذيذاً طيباً، فكم من لذة ساعة أورثت أهلها غماً طويلاً. القلب المليء بالله ليس فيه متسع لسواه، فلتعمر القلوب بذكر ربها : ولتحسن اسلامها فالاحسان أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك. واعلم أنك كما تدين تدان.. فارْضَ لبنات آدم ما ترضاه لأختك أو زوجك أو ابنتك، كفى بهذا زاجراً وواعظاً وإنه لبرهان ربك بليغاً جلياً.

وأما الواجب الهجومي، فوفاء بواجب من آتاه الله النور، والناس تتخبط في الظلام، « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ». ومسئولية من آتاه الله الدواء والناس في قبضة المرض. علينا أن نطب للانسانية المريضة، وأن ننير لها السبيل، وأن ننتشلها من وهدتها، ونقيلها من عثرتها.. لا باللوم والسباب ولكن بتحبيبها فيما ندعو إليه من سبيل الله.. ولا بالكره والانطواء ولكن بالقدوة الصالحة والكلمة الطيبة والحكمة والموعظة الحسنة.

ويوم نستطيع أن نُري الناس الإسلام في صورة رجال تمشي على الأرض، ويوم نستطيع أن نملك زمام أنفسنا فسنملك زمام الناس إن أحسنا التبشير وأخلصنا في الدعوة وصبرنا على الناس صبر أولى العزم فقد علمنا أن الله لا يضيع صبر الصابرين.

والطريق طويلة. والبناء أشق من الهدم، والرذيلة ذات فتنة وزينة ورواء، ولكن أي امرئ أولى بالثقة ممن علم أنه مع الله وأن الله معه.. وكان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما..

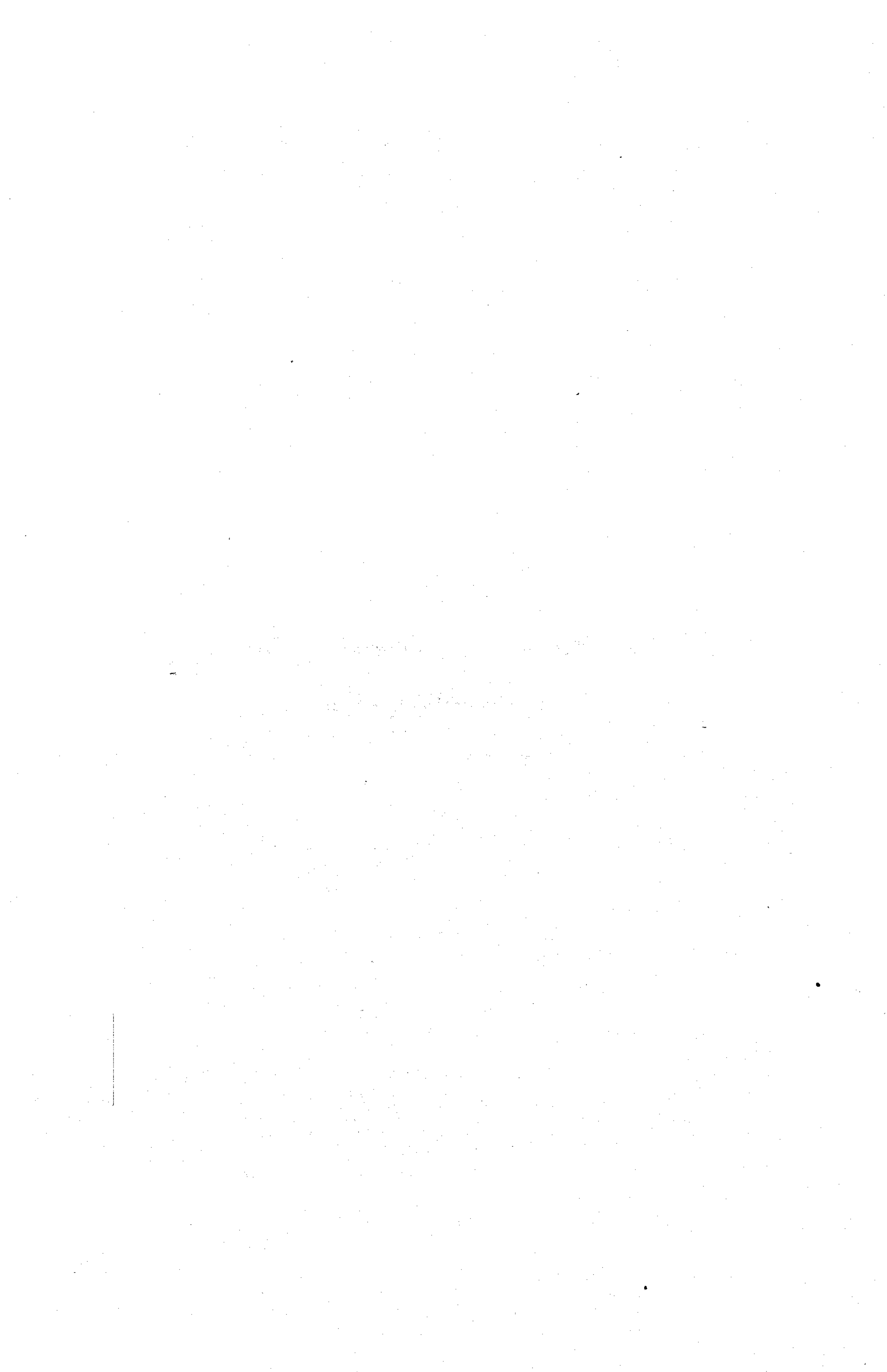
« ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون ».

صدق الله العظيم ..



مشكلات الأقليات الإسلامية التي تعيش بين أغلبيات غير إسلامية

للدكتور عبده كاسوزي
الأستاذ بجامعة ماكريري - أوغندا



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

يعتبر الدين أفضل العوامل الأخلاقية التي منحها الله للإنسان من حيث أنه يقدم له قوانين للسلوك وشرائع تقوده في هذه الحياة الدنيا وفي الآخرة. ولهذا فإن الدولة الإسلامية بالنسبة للمسلمين هي الشكل الأمثل للحكومة، وفي الدول التي وجد بها أكثر من دين واحد يصبح من العسير ليس فقط تحديد قانون أخلاقي واحد، أي تحديد ما هو صواب وما هو خطأ، ولكن أيضاً بالنسبة للأقليات التي تعيش طبقاً لما تعتبر أنه صواب وإن كان يتعارض مع ما تعتبره الأغلبية كذلك، كثيراً ما تكون هذه الأغلبية هي القوة المسيطرة من الناحية السياسية والاجتماعية، وغالباً ما تجد الأقلية أن القوانين الأخلاقية للأغلبية هي التي توضع كمعيار لما هو صواب وما هو خطأ.

وفي أفريقيا جنوبي خط الاستواء تعتبر أغلبية الشعوب في معظم هذه الدول (باستثناء تنزانيا) مسيحية[1]. ويهدف هذا البحث إلى إلقاء الضوء

---

(١) المصدر دبليو. ام. وات : « الصلة السياسية للإسلام في شرق أفريقيا ».
الشئون الدولية ـ ٤٢ ـ ١٩٦٦ ـ ص ٣٥ ـ ٤٤.
ملحوظة : قد تكون هذه الأرقام مشكوكاً فيها، ولكنها تعطي لمحة عن الوضع.

على مشكلات الأقليات الإسلامية التي تعيش في مجتمعات أغلبياتها مسيحية، مستخدمين شرقي أفريقيا عموماً وأوغندا على وجه الخصوص كأمثلة على ما نقول. وفي الختام سأحاول أن أقترح ما يمكن عمله لتصحيح الوضع.

ـ حاجة الإنسان للدين :

يحتاج الإنسان للدين كي يبين له ضوء الحق الرائع، ويرشده في هذه الحياة من خلال إظهار ما هومقدس وما هو صواب وما هو خطأ. كما أن الدين يطهر قلب الإنسان ويساعده على أن يعيش في سلام مع نفسه ومع جاره. كذلك يكشف له أسرار الكون ويساعده على معرفة الطبيعة المادية لهذه الدنيا على أساس قاعدة ثابتة ترتكز على الإيمان بأنه لا إله إلا الله وحده.

ولما كان الإنسان كائناً سياسياً كما قال أفلاطون منذ القدم فإنه في حاجة إلى المجتمع كي ينمي قدراته نحو الأفضل، ويمكن أن يزيد الدين من سعادة المجتمع وطاقته من خلال توفير الانسجام فيه إذا تمكن من جعله مجتمعاً أخلاقياً واحداً تسوده معتقدات متماثلة وسلوك متماثل وقوانين متماثلة وأذواق متماثلة تجاه الحياة الطبيعية[1] ومعنى ذلك أنه إذا كان لمجتمع ما دين واحد فإن هذا الدين يستطيع أن يساعد أفراد هذا المجتمع على تحديد أهدافهم ومثلهم العليا. إنه يوحد أفراد هذا المجتمع ويجعلهم متماسكين ككتلة واحدة صلبة تشترك في تجارب وشعائر ومواقف وقيم ووسائل مشتركة في الحياة. وفي نفس الوقت فإنه يفصل هذا المجتمع عن غيره ممن لم يشاركوه نفس المعتقدات. وعلى الرغم من أن المؤمنين بهذا الدين قد تكون بينهم فوارق شاسعة من حيث المنشأ والمهنة والثروة والمنصب والجنس، فإن الدين يستطيع أن يوحدهم في مجتمع واحد يعمل من أجل مصير واحد. ولقد كان الدين دائماً هو موحد الأمم والأمبراطوريات لأجيال طويلة. وهذا أمر طيب في المجتمعات والدول التي تدين بدين واحد.

---

(١) دوركيم : « الأشكال المبدئية للحياة الدينية » ـ ١٩٢٦ ـ ص ٤٧.

ـ الدول التي بها أكثر من دين واحـد :

إذا كنا نعني بالأخلاق ذلك القانون أو نظام الأفكار التي تعتبر صواباً في مجتمع من المجتمعات، فإنه يتعين، لكي يكون قانون الأخلاق فعالاً، أن يكون مقبولاً على أنه صواب من جانب كل الناس أو من كل الصفوة الموجـودة بهذا المجتمع. لهذا فإنـه يضع مبدأ ما يمكن اعتبـاره صواباً أو خطأ ويحدد ماهية الأخلاق الحميدة والأخلاق السيئة. وإذا ما استطاع المجتمع أن يحدد قانونه الأخلاقي فإن عاداته وأسلوب حياته ومعاييره المقبولة تتشكل وتصبح معروفة للجميع. وهكذا يبدأ أفراد هذا المجتمع في تحديد سلوكهم داخل إطار القانون الأخلاقي المقبول في مجتمعهم فهذا أمر ممكن وسهل في المجتمعات التي يسودها دين واحد. أما المجتمعات التي بها أكثر من دين واحد فإنه ليس فقط من العسير اتباع قانون أخلاقي واحد فيه ولكن في الحقيقة تنشأ الصراعات داخل هذا المجتمع لتحديد أي القوانين الأخلاقية جدير بالاتباع. ويرجع ذلك في كثير من الحالات إلى أن الأديان تختلف في تفسيرها لما هو صواب وما هو خطأ. فما هو مسموح به في دين من الأديان يعتبر محرماً في دين آخر والعكس صحيح. وفي نفس الوقت فإن أتباع كل دين ليس لديهم الاستعداد للتنازل عما يعتبرونه الحق في نظرهم. ويدعي كل مجتمع ديني بإصرار شديد أن قوانينه الأخلاقية هي الحق وأن قوانين غيره هي مجرد أكاذيب.

وفي مثل هذه المحن فإن ما يحدد مجريات الأحداث هو امتلاك السلطة. ومهما يكن لدى جماعة دينية ما من قوة، فإن السلطة السياسية هي التي تحدد في أغلب الأحيان ما هو الصواب وما هو الخطأ. ذلك أن قوانينها الأخلاقية تصبح هي المصدر الرئيسي لسلوك المجتمع ما لم يكن هناك مستوى عال من التسامح ـ وهو أمر نادر في الدول النامية. وتجد الجماعات الدينية غير المميزة ـ وهي في الغالب جماعات الأقلية ـ أنه ليس أمامها سوى التوافق مع القيم الأخلاقية والالتزامات الدينية للجماعة الحاكمة.

٣ ـ حالـة أوغنـدا :

يوجد في أوغندا وفي غيرها من دول شرق أفريقيا أكثر من دين واحد.

وقد دخل الإسلام أوغندا في أول الأمر على يد أحمد بن ابراهيم عام ١٨٤٤ [1]. وقد جاءت البعثات التبشيرية الانجليكية البروتستنتية عام ١٨٧٧ ثم جاء القساوسة الكاثوليك عام ١٨٧٩ [2]. وإلى جانب اعتناق الديانات الموجودة في العالم كان الكثير من الناس مازالوا يعتنقون الديانات الأفريقية التقليدية. ويعد كل دين من هذه الأديان على أنه في جانب الحق وأن غيره على الباطل.

ولقد كان ذلك هو الموقف على وجه الخصوص بين المسيحيين من ناحية والمسلمين من ناحية أخرى. وكانت النقاط التي اختلفوا حولها هي فكرة الله، والتثليث، ووضع مؤسس الديانتين، والموقف من الكتب المقدسة، واستعمال الصور والتماثيل، والزواج، وشرب الخمر، وأنواع الطعام التي تؤكل، ويوم الراحة الأسبوعية.

وتتمثل الفكرة الإسلامية عن الله في أنه واحد أحد خالق كل المخلوقات بالأرض والسموات، لم يلد ولم يولد كما تقرر سورة الإخلاص. وقد يبدو أن المسيحيين قد فهموا العقيدة الإسلامية، ولكنهم كانوا يُصرّون على استعمال اسم « الله » باللغة العربية حتى وإن كانوا يتكلمون باللغة الانجليزية أو أية لغة أخرى، ليوهموا غير المتعلمين بأن المسلمين يعبدون إلهاً غريباً اسمه « الله ».. ومن ناحية أخرى كان المسلمون يفسرون عمداً فكرة التثليث، وهي فكرة الثلاثة في واحد، بأنها تعني أن المسيحيين يقولون بأن لله ابناً مجسداً. وكان المسيحيون يركزون على الحياة الخاصة للنبي محمد ـ ﷺ ـ ليسخروا من زواج المسلم من أكثر من زوجة واحدة، كما أن المسيحيين كانوا يفسرون موقف القرآن الكريم بطريقة لا يقبلها المسلمون.. فالقرآن بالنسبة للمسلمين هو كلمة الله التي أوحى بها إلى النبي محمد ـ ﷺ ـ عن طريق كبير الملائكة.. أما المسيحيون فإنهم يقولون بأن القرآن هو تجميع لأقوال وكتابات محمد، وليس من عند الله،

(١) « سيرجون جراي » أحمد بن ابراهيم : أول عربي يزور يوجندا. جريدة أوغندا ٢ – ١٩٤٩ – ص ٨٠ – ٩٧.

(٢) جي. في. تايلور : « نمو الكنيسة في يوجندا » ـ لندن ـ ١٩٥٨.

وهم بهذا يشبهونه بالإنجيل الذي جمعه الحواريون. وقد اتهم المسلمون، الذين لا يقبلون التمثيل المادي لله أو للنبي أو للملائكة، اتهموا المسيحيين وخاصة الكاثوليك بأنهم يعبدون صور وتماثيل مريم العذراء الموجودة في كنائسهم. كما أن المسيحيين الذين يريدون أن يبنوا المجتمع على أساس أن يتزوج الرجل امرأة واحدة، وجدوا أن المسلمين يبيحون تعدد الزوجات، وقد جعل ذلك بعض المسيحيين يثيرون التساؤلات حول هذا الأمر[1]. وقد أراد المسلمون أن يقيموا مجتمعاً لم يتم فيه تناول الخمور أو المخدرات، ولكن المسيحيين أباحوا شرب الخمر. لم يكن المسلمون يستطيعون أن يأكلوا إلّا اللحوم المذبوحة طبقاً للشريعة الإسلامية، ولكن المسيحيين لا يعبأون بالطريقة التي يذبح بها الحيوان، ويوم الجمعة هو يوم الراحة الأسبوعية للمسلمين، في حين أن يوم الراحة للمسيحيين هو يوم الأحد. ولقد حسمت السلطة السياسية الوضع، في نهاية الأمر، بالنسبة لهذه المحنة.

أ ـ استعمال السلطة السياسية ـ ١٩١٠ ـ ١٩٤٥ :

في عام ١٩١٠ لم يهزم المسيحيون في أوغندا المسلمين هزيمة كاملة في معارك السيطرة على السلطة فحسب، ولكنهم أيضاً حولوا الكثيرين منهم إلى المسيحية. ومن ثم فقد استخدموا السلطة الرسمية لإقامة القوانين الأخلاقية المسيحية كأساس للسلوك في أوغندا، ولهدم الإسلام بكل طريقة ممكنة. وكانت الجماعة المسيحية الرئيسية التي كانت ترى في الإسلام عائقاً أمام إقامة أسلوب الحياة المسيحية هي البعثات التبشيرية المسيحية الأوروبية.

ومنذ عام ١٩٠٨ كان موضوع تقدم الإسلام وكيفية القضاء عليه على رأس قائمة الموضوعات التي تتناولها مؤتمرات التبشير.. كما كان هذا الموضوع يملأ صفحات مجلات التبشير في أوروبا[2]، وقد ذهب الأسقف « كاسيان سبيس » إلى حد القول بأن المسلمين ليس عندهم أخلاق، وهم

---

(١) أبولو كاجوا : « كيف جاء الإسلام إلى أوغندا » من مذكرات أوغندا ـ المجلدات ١٩٠٢.

(٢) آراء أوليفر : « العامل التبشيري في شرق أفريقيا » ـ ص ١٠٩ ـ ١٢٤.

مخادعون ومصابون جميعاً بالأمراض التناسلية[1]. وقد كانوا دائماً يحذرون الحكام المستعمرين من أخطار الإسلام، وكانوا يروجون من الناحية السياسية القول بأن المسلمين أقل ولاء لأسيادهم المحتلين من المسيحية.

وفي المؤتمر الاستعماري الذي عقد في برلين عام ١٩١٠ تم التأكيد على أن شرق أفريقيا الإسلامية لن تكون إلّا مناهضة لأوروبا[2]. وخوفاً من شرق ووسط أفريقيا الإسلامية نصح « ويليس » أسقف أوغندا الحاكم أن يستخدم القوة الرسمية لمنع حدوث مثل ذلك[3]. وقد وافق الحاكم (أو المفوض) السير « هاري جونستون » الأسقف على ذلك بقوله إنه يعارض بشدة انتشار الإسلام أكثر من ذلك، وأن هدفه هو طرد الإسلام إلى أبعد ما يمكن في السودان[4] وقد كان يرى أن أوغندا هي الحصن المنيع في أفريقيا الاستوائية لنشر المسيحية تدريجياً في المناطق المحيطة بها[5]. وقد نصح موظفيه السياسيين بالوقوف في وجه انتشار الإسلام بقوله : « إنه ليس من مصلحة الحكومة البريطانية أن تكسب المحمدية أتباعاً آخرين أكثر مما نستطيع، ذلك أننا لا نستطيع التعامل مع المسلمين الذين يعارضون دائماً أن تدير أمورهم سلطة مسيحية[6].

وفي عام ١٩٢٤ عارض وزير الشئون المحلية حركة إدخال التعليم الغربي للمحمديين[7]. وعندما حاول المسلمون الأفارقة إحضار مدرس هندي مسلم لتعليم أولادهم التعليم الغربي الرسمي عمل الحاكم على إحباط محاولتهم[8]. وفي شرق أفريقيا الألمانية قامت السلطات هناك بأساليب

---

(١) مذكرات وسجلات تنجانيقا ـ رقم ٦٢/٦٣ ـ ص ٨٣ ـ ٩٠.

(٢) آراء أوليفر : نفس المصدر ص ٢٠٦.

(٣) ويليس : مذكرات منجو ـ أغسطس ١٩٠٦ ـ ص ٢٣.

(٤) جونستون إلى تاكي ـ أول ديسمبر ١٩٠٠ ـ أرشيف الحكومة ـ عنتيبي.

(٥) تقرير أوغندا عام ١٩٠٣ ـ ٤ ـ أرشيف الحكومة ـ عنتيبي.

(٦) المفوض السامي (جونستون) إلى بوجوسا ـ ٣ ديسمبر ١٩٠٠. مراسلات. برجوسا ـ بند ٥٣/١ أ، ٥٣/١/١١ ـ أرشيف الحكومة ـ عنتيبي.

(٧) فيلنيس كارتر : « تعليم المسلمين الأفارقة في أوغندا » ـ جريدة أوغندا ـ ٢٩ ـ رقم ٢ ـ ١٩٦٥ ـ ص ١٩٣ ـ ١٩٩.

(٨) دبليو. ان. جورز إلى وزير المستعمرات ـ ٣٠ نوفمبر ١٩٢٣ ـ رأشيف الحكومة عنتيبي.

اضطهاد للإسلام أكثر إلتواء من خلال العمل على تخريبه تماماً في السر، وادعاء مناصرته في العلن، وقد أصدر حاكم شرق أفريقيا الألماني منشوراً دورياً للحصول على المشورة خلال ثلاثة أشهر عما يمكن عمله في كل مقاطعة للوقوف بشكل فعال في وجه الدعوة الإسلامية. وقد اقترح منع الأئمة من أداء واجباتهم وتحريم الختان وفرض تربية الخنازير كمصدر دخل لكل المواطنين[1]. وفي كل أقاليم شرق أفريقيا الثلاثة، وهي : كينيا، وأوغندا وتنجانيقا، كان يوم الأحد هو يوم العطلة الأسبوعية، أما يوم الجمعة فكان يوم عمل بالنسبة للجميع بمن فيهم المسلمين. كذلك كانت أيام أعياد المسلمين مثل عيد الفطر وعيد الأضحى أيام عمل عادية، في حين أن أيام عيد الفصح وعيد رأس السنة الميلادية (الكريسماس) كان إجازات عامة ولم يتم جعل أيام الأعياد الإسلامية إجازات عامة إلّا بعد الاستقلال. كذلك لم تكن توجد قوانين تفرض ذبح الحيوانات على الطريقة الإسلامية. ولما كانت الأقليات الإسلامية تعيش بين المسيحيين وتختلط بهم في المناطق الريفية والحضرية على السواء فإنه لم يكن من الممكن منع المسلمين من أكل اللحوم غير النظيفة.

ب ـ استخدام السلطة الاجتماعية :

إلى جانب السلطة السياسية « الرسمية » فإن الجماعات الحاكمة تفرض إرادتها على المحكومين باعتبار أنها هي التي تضع المعايير التي يتعين على الجميع الالتزام بها، ولما كانت هذه الجماعات الحاكمة في الغالب من صفوة المجتمعات التي تحكمها، فإن ما تعتبره صواباً يؤخذ في أغلب الأحيان على أنه المثل الذي يتعين احتذاؤه. إن ما تعتقده يؤخذ دائماً على أنه الحق وما تحتقره يصبح مدعاة للسخرية.

ومن ثم فإن الأغلبيات التي قد لا تؤمن بما تعتقد السلطة الحاكمة بأنه صواب، تعتبر غير قادرة على التكيف مع المجتمع، كما يصبح ما تؤمن به لا ينظر إليه بعين الجدية.

---

(١) سجلات موشى ـ أرشيف الحكومة ـ عنتيبي.

وهذا هو ما حدث في أوغندا. فبعد هزيمة المسلمين في حروب أوغندا الدينية في الفترة من ١٨٨٠ ـ ١٩٥٠ أقام المسئولون الاستعماريون البريطانيون مجتمعاً مسيحياً من كافة جوانبه.. وكان هذا المجتمع يتكون من ثلاثة قطاعات. فعلى قمة الهرم كان يقف الإداريون الأوروبيون وكلهم من المسيحيين، وبعدهم كانت تأتي البيروقراطية الأفريقية التي تضم الرؤساء وصغار الإداريين ورجال الأمن. وكان معظم هؤلاء أيضاً من المسيحيين. والحقيقة أنه كان من العسير أن يكون هناك أي رئيس يتمتع بمركز من المراكز دون أن يكون مسيحياً[1]. وقد شاع مثل بين قبيلة الباسوجا، وهي قبيلة صغيرة في شرق أوغندا، مؤداه أن أي شخص يريد أن يكون رئيساً فإن عليه ألا يكون مسلماً أبداً. وهذا يرجع إلى أنه لم يكن هناك أي شخص مسلم ذي أهمية تذكر.

وقد كانت تلك هي الميزة الرئيسية للمسيحية على الإسلام. لقد كان الرؤساء الذين يقلدون أساليب أسيادهم البيض هم الذين يضعون المعايير للمجتمع. وكان كل ما يعتبرونه صواباً يؤخذ على أنه صواب، وما يظنونه خطأ يؤخذ على أنه خطأ من جانب المحكومين.

وفي نهاية درجات السلم كانت تقف جماهير الشعب التي كانت تتكون في أوغندا من صغار الفلاحين الذين يعيشون على قطع صغيرة من الأرض التي يملكونها أو يستأجرونها. وكان الكثير منهم فقراء، ولكن بعضهم ولا سيما المسيحيين منهم استطاعوا أن يرفعوا أبناءهم إلى مستوى القطاع الثاني في المجتمع بالحصول على درجة جيدة من التعليم الأوربي.. ولكن لم تتوفر مثل هذه الفرصة للمسلم الذي لم تكن تتاح له فرصة دخول المدارس، لأنه لم تكن هناك بعثات إسلامية تبني المدارس.

ومن ثم فإن معظم المسلمين كانوا يحصلون على أدنى الأعمال مثل : عمال المزارع وسائقي الشاحنات، والجزارين والسعاة، وما إلى ذلك..

---

(١) انظر :

أ ـ اف. بي. ولبورن : « الدين والسياسة » في أوغندا ١٩٥٢ ـ ١٩٦٢ ـ نيروبي ـ ١٩٦٥.

ب ـ مسلمو بوجوسا إلى الحاكم ـ ١٦ مايو ١٩٤٥ ـ أرشيف الحكومة ـ عنتيبي.

جـ ـ آي. آي. رتشاردز « رؤساء شرق أفريقيا » ـ ١٩٥٩.

لقد كانوا يعيشون في هذا الوضع الأدنى في المجتمع الأوغندي لدرجة أن الأطفال الصغار كانوا يقولون : « لقد قابلت شخصين ومسلماً »[1]..

وكانت أغلب الخدمات الاجتماعية تقدم للطبقة الحاكمة.. ففي المدارس كان التعليم يهدف إلى الترويج لمعتقدات الجماعة الحاكمة، وتزييف معتقدات الأقلية المعارضة، ويكفي أن نورد مقتطفاً من أحد كتب تاريخ أوغندا المقررة في المرحلة الابتدائية لنبرهن على ما نقول. يقول الكتاب للتلاميذ والمدرسين عن النبي محمد، ﷺ :

« ... وقد استطاع أن يدرس كتابات اليهود والمسيحيين.... وبعد أن بلغ سن الأربعين بدأ يعطي وقتاً أكثر فأكثر للعبادة والتأمل. ثم بدأ يكتب القرآن... وفي عام ٦٣٢ مات محمد في مكة ودفن هناك... ويقال أن محمداً كان مقاتلاً جيداً ورجلاً مقدساً »[2]..

ومن الطبيعي أن الكثير من التلاميذ المسلمين والمسيحيين يقرأون مثل هذه الكتابات ويكونون موقفهم من الإسلام على أساسها، وفي المستشفيات والمراكز الاجتماعية والأندية وغيرها من المؤسسات العامة يصبح ما تمليه الأغلبية هو القانون الأخلاقي المقبول للسلوك، أما معتقدات الأقلية فإنها تختفي تحت مستوى سطح البحر.

والنتيجة النهائية لهذا الضغط الاجتماعي على عقول الأقلية الضعيفة هي تشككها في صحة معتقداتها. إنها تبدأ في طرح الأسئلة حول مدى صحة قوانينها الدينية.

ونتيجة لذلك فإنها تبدأ في التساهل في بعض المبادىء الأساسية لدينها. كما أن البعض منها يبدأ في الشعور بالخجل مما هو عليه، ومن مظاهر هذا الوضع في أوغندا تغيير أسماء الشباب المسلمين لتصبح بقدر الإمكان أكثر اقتراباً من الأسماء المسيحية على أمل أن ينظر إليهم على أنهم مسيحيون.. ومن ثم فإن « عبده » يصبح « آبي »، « موسى » يصبح

(١) ولبورن ـ نفس المصدر ـ ص ٦.
(٢) ام. هودجز : « كتاب تاريخ أوغندا » ـ ١٩٦٦ ـ ص ٥٥ ـ ٥٦.

« موسيس »، و « محمد » يصبح « ميد »، و « فاطمة » تصبح « فاتي » أو « فاتينا » و « عائشة » تصبح « آسي »، « ابراهيم » يصبح « ابرام »، و « جمعة » يصبح « جيمي »، و « ادريس » يصبح « ايـــدي »، و « اسحق » يصبح « ايزاك »... الخ. ثم يبدأ هؤلاء الشباب في حضور المناسبات الاجتماعية المسيحية ويفضلون اعتبارهم مسيحيين فيتوقفون عن الصيام وأداء الصلاة ويبدأون يشربون الخمر مثل أترابهم غير المسلمين.

وباختصار يبدأ شباب الأقلية الإسلامية يفقدون ثقتهم بأنفسهم. وعندما يفقد المجتمع أو جماعة منه ثقته في أخلاقياته وكيانه وتكوينه، فإن باب الانهيار لا يمكن إغلاقه بسهولة.. وعندما يكبر هؤلاء الشباب فإنهم يحملون معهم عاداتهم الفاترة تاركين المجال مفتوحاً أمام جيل آخر من الشباب يقلد ما كان يفعل الكبار منهم. إنهم يفعلون كل ذلك ليس بسبب الضغط الحكومي أو الرسمي، ولكن بسبب الحافز البيئي الذي يضغط عليهم كي يتكيفوا بالمثل السائدة بين أغلبية المجتمع الذي يعيشون داخله كأقلية محتقرة ومحرومة.

٤ ـ ما الذين يمكن عمله ؟

إنه من الصعب في هذه المرحلة، وقبل أن تجري الأبحاث في مختلف المناطق التي تعيش فيها الأقلية المسلمة على حافة الانهيار، أن نقترح ما يمكن عمله. ذلك أن كل منطقة وكل جماعة معينة من الناس لها مشكلاتها الخاصة التي لا يمكن حلها إلا بد دراسة أوضاعها الداخلية، ولكن بصفة عامة، فإن الأمة الدولية تستطيع أن تساعد هذه الأقليات من خلال مساعدتها على مساعدة نفسها بالوسائل التي سنوردها فيما بعد، والتي اقترحتها في مذكرتي إلى الأمين عن « أطماع الكنيسة في شرق أفريقيا » وهي على النحو التالي :

أ ـ مساعدتهم في إنشاء مؤسسات تنظيمية :

إن هناك حاجة ماسة لإقامة مؤسسات أو أنظمة للإدارة لجمع الأقليات معاً من أجل مراقبة حقوقها والمحافظة على قوانينها ومساعدتها على تخطيط استراتيجيتها، ونشر الأفكار المناسبة داخل المجتمع. وليس معنى ذلك أننا ندعو إلى إقامة دولة داخل الدولة، ولكننا نقترح إقامة أجهزة دينية

لمعالجة مختلف المشكلات الطارئة للأقلية الإسلامية.

ب ـ الحاجة إلى قادة دينيين :

إن الأقلية التي تريد الحفاظ على كيانها تحتاج إلى قادة، ولا سيما القادة المتعلمين تعليماً جيداً ليس فقط من أجل تذكير أتباعهم دائماً بدينهم ولكن أيضاً لمساعدتهم على التغلب على الضغوط التي يتعرضون لها، والتي سبق أن تحدثنا عنها من قبل. إنه بدون قادة، فإن الأتباع يصبحون كالأغنام بدون رعاة. ولكن يتعين أن يكون هؤلاء القادة على دراية كبيرة بمشكلات هذه الحياة الدنيا والآخرة. إن عليهم أن يكونوا متعلمين كي يكسبوا الاحترام، وأن يعرفوا دقائق المجتمع والعلوم ومشكلات الناس الذين يقودونهم. كما أن عليهم أن يقوموا بواجب حماية الأقلية من عداء البيئة التي تحيط بهم.

كما أنه يتعين توفير الخدمات الاجتماعية مثل : المدارس (وخاصة دور الحضانة والمدارس الابتدائية)، والمستشفيات، والمكتبات، والمسارح وما إلى ذلك من خدمات. ذلك أنه في مثل هذه الأماكن فإن المؤمنين لن يشعروا بالأمان فقط، ولكنهم سيشعرون أيضاً بأن مجتمعهم يهتم بهم. إن ذلك من شأنه أن يوقظ في قلوبهم الإحساس بالواجب والمسئولية تجاه مجتمعهم. وبهذه الطريقة فإنهم سيتعلمون كيف يرعون ويحمون أقليتهم الصغيرة.

جـ ـ الشبـــاب :

لما كان الشباب هم الذين يقررون نجاح أو فشل مجتمعهم في المستقبل فإنه ينبغي تربيتهم بكل عناية حتى يعتنوا بمجتمعهم، وينبغي وضع كافة الأفكار الحيوية عن الدين والسلوك القويم في قلوبهم. ويتعين عليهم أن يعلموا أنهم إذا تعثروا أو ترددوا، فإن مجتمعهم سوف يسقط، ولكنهم إذا ساروا إلى الأمام، فإن مجتمعهم سوف يتقدم أيضاً إلى الأمام.

د ـ وسائل الإعـلام :

إن تأثير الرأي يعتبر أمراً حيوياً في حياة المجتمعات. وإن من

يستطيع السيطرة على تأثير الرأي يمكنه في نهاية الأمر أن يسيطر على المجتمع. ومن ثم فإن على الأقليات الإسلامية أن تجد الوسيلة للتأثير ليس فقط على آرائها بل أيضاً على آراء الناس، كما أنه يجب محاربة برامج التليفزيون والإذاعة والتقارير الصحفية التي تميل إلى توجيه الإهانات إلى دينها بكل وسيلة ممكنة.

وبهذه الطريقة فإننا نأمل أن تتمكن الأقليات الإسلامية التي تعيش وسط أغلبيات مسيحية من المحافظة على كيانها بصورة محترمة. وإذا استطاعت هذه الأقليات أن تحقق احترامها لنفسها، فإنها تستطيع بعد ذلك أن تجاهد من أجل كسب المزيد من الأتباع إلى صفوفها.. ولكنها إذا حاولت أن تكسب المزيد من الأتباع إلى صفوفها دون أن تكون واثقة من نفسها، فإنها بذلك قد تجلب مزيداً من النسور إلى معسكرها.

* **مذكرات :**

١ ـ إلى جانب نقص الأموال اللازمة لجمع البيانات ذات العلاقة، فإن هناك مشكلات كثيرة، بعضها سياسي في جمع المعلومات عن الانتماءات الدينية، ففي أوغندا مثلاً : لم تورد إحصائية عام ١٩٦٩ أرقاماً عن الانتماءات الدينية حيث كان المسيحيون خائفين من أن تأتي إحصائية عام ١٩٦٩ في صالح المسلمين.

وعلى أية حال، فإن المسلمين كانوا خلال العقدين اللذين سبقا الاستقلال يشكلون أقلية كبيرة جداً في شرق أفريقيا كما يتضح من الجدول التالي :

البلد	السنة	البروتستانت	الكاثوليك	المسلمون	آخرون
أوغندا	١٩٥٩	٢٤,٨ ٪	٣٢,٦ ٪	٥,٢ ٪	٣٧,٢ ٪
كينيا	١٩٤٨	٢٤,٨ ٪	٧,٧ ٪	٤,٣ ٪	١٢,٩ ٪
تنجانيقا	١٩٥٧	٧,٨ ٪	١٧,١ ٪	٣٠,٩ ٪	٤٤,٢ ٪

الباب الرابع

عوامل انحطاط الحضارة الإسلاميّة وسبيل النّهوض بها
ودور الشباب في بعثها

عوامـل انحطاط الحضارة الإسلامية

للشيخ : محمد الغـزالي

كيف ننهض بالمجتمعات المسلمة المعاصرة

للأستاذ : محمد رأفت سعيد

القيــادة في المجتمع المسلـم

للأستاذ محمد صـلاح الدين

الإسـلام والحضـارة ودور الشبـاب

للدكتور : محمود فوزي حمد

القدوة ودور الشباب المسلم في المجتمع الإسلامي المعاصر

للدكتور : مسعد سيد عويس

الشباب والتغيير

للأستاذ : فتحي يكن

دور الشباب في بناء الأمة والحضارة وكيف نعنى به

للدكتور : عبد المجيد العبد

معالم الشخصية الإسلامية الفاعلة في الفرد والجماعة

للأستاذ : فاروق بدران

الوراثة الصالحة للحضارة المعاصرة

للدكتور : فاروق حمادة

عوامل انحطاط الحضارة الإسلامية

للشيخ محمد الغزالي
الأستاذ بجامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة



بسم الله الرحمن الرحيم

أسباب انهيار الحضارة الإسلامية :

في غضون القرن الثالث عشر والرابع عشر للهجرة، كان الوجود الإسلامي يعاني من علل مبرحة، كان الرجل المريض ـ كما سموه ـ يترنح وهو يسير ببطء نحو مصيره، حاول نفر من المصلحين أن يعطوه حقناً تجدد حياته بيد أن جهودهم ضاعت سدى.

سقطت الدولة الإسلامية سقوطاً مروعاً، وظهر جلياً أن الانهيارات الداخلية هي التي عجلت بهذا الختام الكئيب.

ومع أن الدولة قضت إلا أن الأمة بقيت تواجه مستقبلها، وشرعت الجماهير تتلمس الطريق إلى مستقبل أشرف، وتتغلب بجهد شديد على العقبات الكثيرة التي تسد أمامها المنافذ.

وإذا كان أغلب البلاء جاء من عند أنفسنا فيجب أن تتجه الجهود إلى الإصلاح الداخلي قبل أن نفكر في ضرب العدو المتربص، فإنها لو هزمت عدوها ـ فرضاً ـ وبقيت أدواؤها الداخلية على جسامتها فلن يعد ذلك نصراً للإسلام، ولن تكون الأمة المنتمية إليه قدوة حسنة للعاملين،

فكيف ونحن لا ننتصر إلا بالإسلام وحده، وبالولاء له والتطبيق الحسن لتعاليمه. من أجل ذلك نريد إلقاء نظرات صريحة على أسباب تخلفنا بعد أن كنا طليعة معجبة، ولا يجوز أن نخجل من إحصاء عيوبنا إذا كنا نريد الشفاء المريح والرضاء الأعلى.

ويمكن أن نقول إجمالاً، إنه كان هناك قصور في فهم الإسلام شمل عدداً من المفاهيم والقضايا، كما كان هناك تقصير متعمد بإضافة تعاليم صريحة والخروج عليها، والقصور ضعف في الفقه، أما التقصير فعصيان سافر، وقد يرى القاصر أو المقصر أنه سليم المسلك.

ولكن المعلول لا يعد صحيحاً إذا كانت الجراثيم تسرح في كيانه، ولا بد أن تثأر منه سنن الله الكونية التي لا تحابي أحداً.

من الرذائل المنكرة التي انتشرت في تاريخنا حب الرياسة وطلب الإمارة مع أن الإسلام رَهّب ترهيباً شديداً من هذه الخلة وبيّن أن أمر هذه الأمة لا يسلم لمن يطلبه ويحرص عليه ويتوسل بما أمكن ليبلغه.

وهناك أناس يتعشقون الصدارة كي يفرضوا ذواتهم على المجتمع، أقلهم يملك المواهب التي تسعفه، وأكثرهم مريض بحب الظهور وتجاوز الآخرين. والأمم السعيدة هي التي تمنح قيادها من يقلق لتحمل المسئولية، ومن ماتت في نفسه غرائز الأثرة والاستعلاء.

والغريب أن التاريخ الإسلامي تقسمته أفراد وأسر من الصنف المعتل الذي يشبع بالحكم نهمته إلى السلطة والترف.

والويل لأمة يتولى أمرها شرارها، وتتمرد على قوله تعالى : (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها[1]).

ذاك نموذج سريع للتقصير في ميدان الحكم، أما التقصير في الميدان الاجتماعي فهاك صورة سريعة له.

جاء في السنن الصحاح عن عبد الله بن عمر أن رسول الله قال : لا

---

(١) سورة النساء آية ٥٨.

تمنعوا إماء الله مساجد الله، فلما روى ابن عمر هذا الحديث قال ولده : والله لنمنعهن، فأقبل أبوه عليه يسبه أشد السب، وقاطعه طول حياته، والغريب أن الأمة الإسلامية خلال القرون المتأخرة تبعت الابن العاق، وغضت الطرف عن الحديث الذي رواه أبوه.

فتقرر حرمان النساء من دخول المساجد للصلوات الجامعة، ولسماع الخطب والدروس، ولما كنت مديراً للمساجد بمصر بذلت جهوداً كبيرة ليأخذ النساء وضعهن في بيوت الله، وأمكن بعد لأي إعداد أماكن لهن في بعض المساجد على أغماض من الرجال وضيق.

ولا يزال منع النساء من المساجد حكماً سارياً في أقطار شتى مما أضر أبلغ ضرر بالأسرة المسلمة، وارتباطها بالعبادات المقررة.

ولنعط كذلك نماذج عاجلة للقصور الديني عند بعض الناس...

كنت أقرأ لمؤلف ينفر الأتراك من الدين الإسلامي، فرأيت هذه العبارة : (يا للحيرة من عقولكم واعتقاداتكم الباطلة، تتركُون تقديس سلطان قوي الشوكة كحضرة الفاتح ـ يقصد السلطان محمد الفاتح ـ وتوجهون احترامكم لشخص خيالي موهوم). وقضية أن الخضر رضي الله عنه حي يرزق يسبح في الأرض قضية تافهة وسخيفة، ومع ذلك فان أعداداً من المتصوفة تتعصب لها وتجادل دونها كأنها من معالم الدين، وهي ـ كما ترى ـ من أسباب مروق بعض المتمردين.

وحدث من مظاهر القصور الديني ـ أن استقدم بعض العلماء ليقرأوا البخاري في سفن الأسطول التركي حتى تحصل البركة، وكان تعليق بعض الطرفاء أن الأسطول يسير بالبخار لا بالبخاري.

ومن الأحداث الجديرة بالنظر أن أحمد عرابي باشا أقام مع رجاله قبيل موقعة التل الكبير حفل ذكر ـ رقص ديني بالتعبير الصريح ـ كي ينصره الله على الانكليز، وكانت النتيجة أن انهزم بعد معركة استغرقت ثلث الساعة[1].

كان التصور الديني أن تلاوة الأوراد، من الكتاب، أو السنة، أو تأليف

---

(١) يخشى أن يكون هذا من زيادات المؤرخين الغربيين لتشويه الحركة العرابية (عويس).

المشايخ، تصنع العجائب، وقد صنعت فعلاً صدعاً هائلاً في تاريخ كبير.

فلنترك هذه الأمثلة السريعة ولننظر آثاراً مفصلة للقصور والتقصير في حياتنا الإسلامية كي نعرف ما نال منا في الماضي حتى نتجنبه في يومنا وغدنا.

(١) التصور الجزئي للإسلام :

الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة، هل هذه الشعب مركوم بعضها فوق البعض كيفما اتفق ؟ هل هي كسلع اشتراها شخص من السوق ثم وضعها في حقيبته كيفما تيسر ؟، لا... إنها شعب متفاوتة الخطر والقيمة ولكل منها وضع عتيد في الصورة الجامعة لا يعدوه.

والشبكة التي تُكون شعب الإيمان كلها تشبه الخارطة الموضوعة للجهاز العامل في إحدى الوزارات أو إحدى المؤسسات، وهناك مديرون وهناك مساعدون وهناك فعلة وهناك مراقبون، وبين هذه وتلك علاقات مرسومة ونظم إرسال واستقبال وتنفيذ وإنتاج.

إن شعب الإيسان التي تعد بالعشرات تشبه السيارة المنطلقة... لها هيكل وإطارات وقيادة ووقود وكوابح ومصابيح وكراسي وغير ذلك، وكل منها له وظيفته وقيمته ومرتبته.

ومنذ بدأت الثقافة الإسلامية والإيمان أركان ونوافل وأصول وفروع وأعمال قلبية وأعمال جسمية.

والذي يحدث عند بعض الناس أن جزءاً ما من الإسلام يمتد على حساب بقية الأجزاء كما تمتد الأورام الخبيثة على حساب بقية الخلايا فيهلك الجسم كله.

وقد كان الخوارج أول من أضيب بهذا القصور العقلي أو بهذا الخلل الفقهي، فقاتلوا علياً أو يتبرأ من التحكيم، وقاتلوا عمر بن عبد العزيز أو يلعن آباءه ملوك أمية.

وسيطرة فكرة معينة على الإنسان بحيث تملأ فراغه النفسي كله، ولا تدع مكاناً لمعان أخرى شيء لا يستساغ، لقيني رجل من المعروفين بالطيبة

وسألني هل تؤمن بكرامات الشيخ فلان، قلت لم أقرأ سيرة هذا الشيخ، قال إليك كتاباً يشرح سيرته، ثم لقيني بعد فترة وسألني ما رأيك ؟ قلت، نسيت أن أقرأ الكتاب، قال، كيف ؟ ـ بانفعال ـ قلت الأمر غير مهم، إذا مت وأنا لا أعرف صاحبك فان الله غير سائلي عنه وعن كراماته، فانطلق يشيع عني أني مارق لا أؤمن بالكرامات، وقابلني آخر يقول، ما رأيك في الموسيقى فأجبت ان كانت عسكرية تثير الحماس والتضحية فلا بأس، وإن كانت عاطفية تثير النشاط أو الرقة فلا بأس، وإن كانت تثير العبث والمجون فلا، فانطلق يشيع عني أني متحلل أسمع الحرام.

كلا الشخصين آمن بشيء حسبه الدين كله، فهو يحاكم الأشخاص والأوضاع إليه.

وهذا التورّم الذي يصيب جانباً دينياً معيناً هو السرّ وراء فقهاء لهم فكر ثاقب وليست لهم قلوب العابدين، ومتصوفين لهم مشاعر ملتاعة وليست لهم عقول الفقهاء، وهو السر وراء محدثين يحفظون النصوص ولا يضعونها مواضعها ولا يجيدون الاستنباط منها، وأصحاب رأي يلمحون المصلحة ولا يحسنون مساندتها بالنص المحفوظ، وهو السر وراء حكام يعملون حسب المواصفات المقررة ـ رعاة للجماهير، وباعهم في تقوى الله قصير، وعامة يعكفون على العبادات الفردية فاذا بلغ الأمر النصح والزجر والأمر والنهي والتعرض لغضب الحكام لاذوا بالصمت الطويل، وهو السر وراء أنا يتقنون مراسم العبادة ولا يفرطون ذرة في صور الطاعات الواردة، ومع ذلك لا يعون من حكمتها شيئاً ولا يستفيدون منها خلقاً.... الصلاة تورث النظام والنظافة وهم فوضى شعثون، والحج رحلة العمر التي تعمر القلب والجوارح بالسكينة والرحمة وهم في أثناء المناسك وبعدها خسأة سيئون، إن الدعوة تحصد الشوك من أناس قليلي الفقه كثيري النشاط ينطلقون بعقولهم الكلية فيسيئون ولا يحسنون.

ماذا يفيد الإسلام من شبان يغشون المجتمعات الأوروبية والأمريكية، يلبسون جلاليب بيضاء ويجلسون على الأرض ليتناولوا الطعام بأيديهم، ثم

يلعقون أطراف أصابعهم، وهذا في نظرهم هدي الرسول في الأكل والسنة التي يبدأون من عندها عرض الإسلام على الغربيين.

هل هذه آداب الإسلام في الطعام ؟.

وعندما يرى الأوروبيون رجلاً يبغي الشرب فيتناول الكأس ثم يقعى وكان واقفاً ليتبع السنة في الشرب، فهل هذا المنظر الغريب هو الذي يغري بدخول الإسلام ؟.

لماذا تُجسم التوافه على نحو يصد عن سبيل الله ويبرز الإسلام وكأنه دميمُ الوجه ؟.

ثم إن الدعوة إلى الإسلام لا يقبل فيها عرض القضايا الخلافية مهما كانت مهمة عند أصحابها، والأكل على الأرض أو بالأيدي مسألة عادية وليست عبادية، ومن السماجة عرض الإسلام من خلالها.

ووضع النقاب على وجه المرأة أمر تناوله الأخذ والرد ولا يسوغ بحال تقديمه عند عرض دين الله على عباد الله. وتدبر هذا الحديث الذي رواه البخاري في أسلوب عرض الرسالة الإسلامية كما أحكمه رب العزة عن يوسف بن ماهك قال : إني عند عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها إذ جاءها عرقبي فقال : أي الكفن خير ؟ قالت ويحك، وما يضرك ؟ قال : يا أم المؤمنين أريني مصحفك، قالت : لم ؟ قال : لعلي أؤلف القرآن عليه فإنه يُقرأ غير مؤلف قالت : وما يضرك أيّة قرأتَ قبل ؟ ؛ إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء (لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل : لا تزنوا لقالوا لا ندع الزنا أبداً، لقد نزل بمكة على محمد ﷺ وإني لجارية ألعب (بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر)، وما نزلت سورة البقرة والنساء إلّا وأنا عنده، قال : فأخْرجَت له المصحف فأملت عليه آي السورة).

لكن أناساً يشتغلون بالدعوة لا فقه لهم ولا دراية يسيئون إلى هذا الدين ولا يحسنون، وفيهم من يمزج قصوره بالاستعلاء ولمز الآخرين.

وقد تطور هذا القصور فرأيت بين أشباه المتعلمين ناساً يتصورون الإسلام يحد من جهاته الأربع : بلحية في وجه الرجل، ونقاب على وجه المرأة، ورفض للتصوير ولو على ورقة، ورفض للغناء والموسيقى ولو في مناسبات شريفة وبكلمات لطيفة.

ولا أريد تقرير حكم معين في أشباه هذه الأمور، وإنما أريد ألا تعدو قدرها، وألا يظنها أصحابها ذروة الدين وسنامه، وهي شئون فرعية محدودة يعتبر القتال من أجلها قضاء على الإسلام وتمزيقاً لأمته.

٢) الثقافة الإسلامية في طورها القائم تحمل مخلفات القرون الماضية بما فيها من قوة وضعف واستقامة وعوج وأخلاط لا حصر لها من أفكار ومذاهب تفتقر إلى التمحيص وتفرض علينا ميز الخبيث من الطيب.

وهناك ملاحظات صادقة على هذه الثقافة الموروثة، يجب وعيها لأنها وراء المد والجزر الذي تعرض له تاريخنا الطويل، ونوجزها فيما يلي :

أ) التقعر في دراسة ما وراء المادة، مرض أصاب المسلمين ولوى مسيرتهم العلمية لياً شائناً والمعروف أن الآيات المحكمة هي أم الكتاب ومناط التكاليف الاعتقادية والعلمية، وأنه بحسب المسلمين في عالم الخلق والسلوك وعالم العقيدة والعبادة وعالم القضاء والتشريع ـ أن يعتمدوا على هذه الآيات المحكمة وحدها، أما ما تشابه في الحديث عن ذات الله وصفاته فلا مجال للعقل في بحثه.

إن العقل البشري أعجزُ من أن يفقه حقيقة الروح بين جنبيه، بل أعجز من أن يفقه تحول الأغذية في جسده إلى طاقة وخلايا فكيف يريد أن يعرف كنه الألوهية، واتصال الذات بالصفات ؟.

لكن المسلمين للأسف خاضوا بحاراً مغرقة في هذه البحوث العقيمة كان لها أثر وخيم في تعجيز العقل الإسلامي عن البحوث المادية وإحسان الإفادة منها، وهذا الاتجاه الشارد عصيان لله الذي أمر بالنظر في الكون، وبنى على هذا النظر السديد حسن الإيمان وجميل المنفعة.

ب) الإسلام دين عملي يؤثر الواقع على الخيال، ويؤثر الحقيقة على

الظن، ويؤثر الحركة الماضية في مرضاة الله على اللغو والشقشقة وافتراض الفروض وتشقيق الكلام، وهل نجح سلف الأمة إلّا بهذا المنهج ؟.

بيد أننا وجدنا الدراسة الدينية تميل إلى الشروح النظرية المطولة دون سبب واضح والذي أحسه أن دراسة الطهارات والصلوات لا تحتاج إلى هذه التآليف المسهبة والأوقات المتطاولة، ومع ذلك فقد أصبح ذلك جزءاً من أعمار المسلمين، ومثار افتراق واسع بين الدهماء، بل بين نفر من المنتسبين إلى العلوم الدينية.

ولم يكتف البعض بهذا الطول المفتعل فأضاف إلى أعمال الحج أدعية في أشواط الطواف وأشواطاً لسعي لا أصل لها، حتى يزيد المراسم وعورة وتهيباً، وقد تأدت هذه المزايدات إلى إضعاف علاقة المسلمين بالحياة، وكانت مشغلة لهم عن إنتاج أهم وأجدى.

جـ) هناك فارق مؤكد بين درجة التخصص ودرجة التثقيف العام، فالمتخصص يلم بمعارف شتى في فنه ويعيبه أن يجهل ناحية ما في ميدانه، أما أصحاب الثقافة العامة فيكفيهم ما يحتاجون إليه في بيئاتهم وأحوالهم ولا معنى لحشو أذهانهم بما لا أثر له في معايشهم.

وقد رأيت أناساً من العوام تبلبلت أفكارهم إثر أحاديث نبوية درّست لهم وهي أحاديث صحيحة السند، ولكن ليس من الحكمة أن يعرفها العوام، فهي فوق طاقتهم الذهنية، وقد جاء في الأثر : (انك ما حدثت قوماً بحديث لم تبلغه عقولهم إلّا كان لبعضهم فتنة). ومع ذلك فإن قرويين وبدواً وهملاً من الخلق يذكر لهم أن نبياً ضرب ملك الموت ففقأ عينه، وأن آدم حاج موسى في القدر فغلبه، وأن موسى راجع نبينا في الصلوات الخمسين حتى جعلها خمساً، وأن الجبار ليلة الأسراء هو الذي دنا فتدلى...... الخ.

لماذا تشغل أذهان الجماهير بهذه الأمور ؛ ولماذا لا يختار لهم من السنن ما يصحح وجهتهم في الحياة ؟ لقد توارث العوام أن سماع هذا الكلام عبادة وأورثهم ذلك شيئاً من الخدر والاسترخاء غير قليل.

د) أَلِفَ المسلمون أن يحفظ القرآن للأطفال، وألفوا أن يوجه للتعليم الديني الضعاف والفقراء وذوو العاهات، وفي بعض الأقطار الإسلامية يكاد

العلم الديني يكون نصيب المطرودين من ميادين التعليم التي يشترط فيها التفوق والتبريز أو حسن المظهر وقوة العصبية.

وهذا المسلك يزري بمعنى التدين، ويضعف أهل الدين عن اقتياد الحياة بقوة، وقد يعجزهم عن مقاومة الجبارين والخطائين.

وعلى ضوء التجارب الكثيرة ينبغي وضع سياسة أخرى للتعليم الديني.

ولنذكر أن الفجوة عمقت بين العلم والحكم في تاريخنا، وأن عدداً من الأئمة والأشياخ أدى واجبه شامخاً راسخاً.

ولكن عدداً آخر ـ ربما كان أكبر ـ آثر الانزواء، وارتضى في تغيير المنكر أضعف مراتب الإيمان.

وهناك فريق آخر ربما كان أكبر وأكبر مشى وراء الساسة مداهناً فأكثر من الأكل من حلوائهم وسكت عن أهوائهم.

وإذا فسد العلماء والحكام أخذت الأمم طريقها إلى القاع.

٣) موقف المسلمين من الدنيا :

الذي أبدع هذا العالم الكبير يعرف أنه أبدع شيئاً يبهر ويعجب، وعندما يلفت النظر إلى أسرار جماله ووساقة بنائه فهو يرجعنا إلى الشعور بعظمته ويثير في أنفسنا الخضوع والإعزاز لقدرته وحكمته.

أحياناً أفكر في هذا الهواء الرقيق المنتشر في الجو، إنه بلطافته يثير الأبخرة فتتصاعد سحباً ومع ذلك فهو يضغط داخل أطر السيارة فإذا الهواء المضغوط يحمل فوقه عصابة من الرجال وكتلات الأثقال.

إن صانع هذا الهواء يقسم به في أطواره المختلفة....

« والذاريات ذروا * فالحاملات وقرا * فالجاريات يسرا * فالمقسّمات أمرا * إنما توعدون لصادق »[1].

ما معنى هذا القسم ؟ إنه لفت نظر لما في هذه الحياة من آيات

---

(١) سورة الذاريات / ١ ـ ٥.

تدل على الرب المبدع، وليس غريباً أن يقول لك المهندس العبقري الذي صنع سيارة جيدة انظر السرعة الفائقة، انظر الآلات الدقيقة، انظر الكراسي الوثيرة، انظر المصابيح الكاشفة، إنه يلفت إلى ما صنع لك، ولكنه قبل ذلك وبعده يلفتك إلى عبقريته ومهارته، ولقد كان جديراً بالمسلمين أن يفكروا في الكون وينتهزوا فرصة حياتهم على الأرض ليعرفوا عظمة رب العالمين بدراسة خواص المادة والقوانين السارية بين شتى العناصر، إن الله لا يعرف بدراسة ذاته فهذا مستحيل، وإنما يعرف بدراسة ملكوته الضخم واستجلاء الآيات الدالة عليه هنا وهناك، لا بأسلوب شعري هائم ولكن بأسلوب علمي صارم، وذلكم هو منهج القرآن الكريم. وقد ولدت الملاحظة والتجربة في البيئة الإسلامية وكان يمكن أن تترعرع وتؤتي ثمارها إلى آخر مدى لولا الانحراف الذي أصاب العقل الإسلامي بالتقعر فيما وراء المادة، ولولا انطلاق بعض المخربين يصرفون الناس عن الدنيا ويضعون على حواسهم حجباً فلا يدركون من فوقها ولا من جمالها شيئاً.

ويستحيل مع الجهل بالحياة وقوانينها أن يقوى الإيمان، ويستوى على الطريق !! والثقافات الإسلامية المبتدعة والمنحرفة سر هذا العوج، وفي مقدمتها التصوف الدخيل. إن الله جل شأنه لما خلق البشر خلق لهم كل ما في الأرض ليستمتعوا به ماداموا على ظهرها أحياء، ومعنى ذلك أن يعرفوا ما هيأ لهم معرفة شاملة، فمن الغباوة أن يأكل المسلمون ما زرع غيرهم أو يستهلكوا وينتج غيرهم.

إن العلم بالحياة الدنيا وارتفاقها والاستمكان منها معان إنسانية عامة فطر الناس عليها ولا يعد التنبيه إليها مثار دهشة بل الدهشة أن يتقلب الناس في جنبات الأرض دون قدرة على إثارتها.

وكما ينتفع الناس بالحياة الدنيا لذواتهم ينتفعون بها في دعم أفكارهم وتأييد مبادئهم وقيمهم، فالكف العزلاء تخذل الحق، والسلاح التافه يجر الهزيمة.

وقد استطاع ناس كثيرون أن يعرفوا من دراسات الأرض والسماء ما جعل أيديهم باطشة وأسلحتهم فاتكة، فأين منزلة المسلمين من هؤلاء ؟.

عندما كنت أقرأ الهجوم الفرنسي على مصر في القرن الثالث عشر للهجرة، كنت أحس طنيناً في دماغي لغزارة ما سفك من دمائنا دون جدوى. كان الفرسان الشجعان يذوبون أمام المدافع الحديثة والذخائر الخبيثة، وكانت خبرة الفرنسيين بالحياة وعلومها وكشوفها تساعدهم على التوغل بقدرة، وترغم الأحرار على الفرار أو الموت الرخيص.

لماذا جهلنا الحياة وبحوثها على هذا النحو ؟ إن الأرض الإسلامية كلها استبيحت نتيجة هذا الجهل الغليظ مع أن العلم بها لا يقل عن العلم بأركان الصلاة، فإن بقاء الإيمان في الأرض وصحة الجهاد دونه لا يتمان إلا بهذا العلم الدنيوي.

العلم الواسع بالدنيا والقدرة التامة عليها كانت أموراً بديهية عند أسلافنا، وقد نصروا الحق بهذا الإدراك السديد، ثم خلف من بعدهم من نفض يديه من شئون الدنيا فخزى نفسه ودينه على سواء.

وقد قال المربون الأذكياء : املك الدنيا بغير حدود، ولكن اجعلها في يدك لا في قلبك... اجعلها في يدك لتتنزل عنها فداء دينك وشرفك عند أول نداء، ولا تجعلها في قلبك فتستعبدك وتكون كاليهود الذين ذمهم الوحي لشرههم فقال : (ولتجدنهم أحرص الناس على حياة)[1].

لقد كان من أسباب انهيار الحضارة الإسلامية سوء الموقف من الدنيا وعلومها وبناء التربية الدينية على أفكار غبية شاعت بين فريق من المتصوفة والزهاد والفقهاء الصغار.

ولنفرق بين النوعين من التذكر والتفكر، فإن الشائع بين جماهير العابدين الذكر العددي، وهو ذكر تافه لا يفتح أغلاق القلب ولا يوسع آفاق النظر، وهو أن يردد اللسان اسماً من أسماء الله الحسنى عشرات أو مئات أو ألوف المرات، وقد تضاحك الظرفاء لأن الذاكره الذي يصيح يا لطيف أعداداً متتابعة تتحول الكلمة على لسانه (فلطى فلطى) وهي كلمة تشبه بغام الدواب ولا تغني شيئاً، إن هذا الذكر قليل الغناء، وقد استحسنه العباد من

---

(١) سورة البقرة آية ٩٦.

عند أنفسهم لا من عند الله، فإن الفكر الإنساني المتعرف على ربه أشرف من ذلك وأجل. إذا قال الله تعالى : (انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه، إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون)[1]، فهل هذا الأمر يعني النظر الحالم ؟ أو النظر القاهر ؟ أو النظر العقيم ؟.

وهل تكرار هذا النظر العقيم ؟

أو هل تكرار هذا النظر التافه يفيد يقظة أو ثقافة أو يفتق أمام العقل منفذاً يصله بعظمة الله وآياته ؟.

والواقع أنه ما يوجد كتاب دين أمر بالنظر في الكون كالقرآن الكريم، وما يوجد ناس في قرونهم الأخيرة، عموا عن النظر في الكون كجمهور المسلمين.

ونشأ عن ذلك أن الأقمار الصناعية تنم عن أحوالهم وهم يلعبون في بلادهم، وأن غيرهم يغزو الفضاء ويتلمس الكواكب وهم لا يحسنون التنقل على الأرض إلا إذا صنع لهم غيرهم سيارة يركبها أو طائرة يستقلها.

إن الإسلام بريء من هذه البلادة، وقد كان المسلمون حتى عهد محمد الفاتح متفوقين على خصومهم حضارياً ومدنياً وعسكرياً، ثم غلبهم الضعف العلمي والعجز النفسي، فأخذوا ينهارون ويتهاوون حتى ذهب ريحهم تماماً أول هذا القرن، وقضية الغنى والفقر تحتاج إلى بيان صحيح، فإن جمهور المسلمين كان يفضل الفقر على الغنى، ولا تزال كتبنا المتأخرة ترى أن الفقير الصابر أفضل عند الله من الغني الشاكر، وقد يجري على لسان المسلم في ذم الثراء وأهله قوله تعالى : (فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم، إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا، وتزهق أنفسهم وهم كافرون)[2].

وهذا خطأ فاحش، فالآية في الأغنياء الذين سخروا ثرواتهم في نصرة الباطل وضرب الإيمان، وهل هزم هؤلاء إلا أغنياء سخروا أموالهم في نصرة الحق وكسر الطغيان ؟ إنه لأمر ما أحصى الله العشرة المبشرين بالجنة، فكانوا

---

(١) سورة الأنعام آية ٩٩.

(٢) سورة التوبة آية ٥٥.

جميعاً من هؤلاء الأغنياء الذين باعوا أنفسهم وأموالهم لله.

إن المال قوة هائلة، والقدرة على مساندة الدين به عمل صالح راجح.

وتسأل : كيف تبني مدرسة أو قلعة، وتزود هذه وتلك بالمعلمين والمقاتلين ما لم يكن ثَمَّ مال موفور ؟ وكيف تنشأ أجهزة الحرب والسلام وهي الآن فنون باهظة الكلفة ما لم يكن وراءها مال ممدود.

ان ترجيح البأساء والضراء على النعمة والعطاء تفكير بالغ السخف. والمال، كما قال القرآن الكريم في أثره، أساس الحياة : (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما)[1].

ونحن لا نعرف مصير كل فرد ولا دخيلة نفسه ولا حقيقة نيته، ولا تزال أنصبة الناس من الفقر والغنى مجهولة السبب.

ففي البلاد الشيوعية فقر حقيقي وغنى حقيقي، والتمتع الذي يباح للوزير أو مهندس الفضاء غير ما يتاح للساعي أو الجندي.

وفي البلاد الأخرى فقر وغنى كذلك وقد اعتبر القرآن الكريم أن كلا الحالين ابتلاء يحكم الله فيه يوم اللقاء.

وليس ذلك إلينا، وإنما الذي نستطيع تقريره بقوة أن الصعلكة لا تساند قيمة ما وأن الغنى مطلوب لتربية الفرد وتقوية المجتمع.

ويظهر أن هناك خلطاً بين الغنى والاسراف والترف، وأن هناك خلطاً لذلك بين الفقر والقصد والاستعفاف، وهذا الخلط مرفوض بدءاً ونهاية، فلكل معنى حكمة والذي نريد توكيده أن على المسلمين امتلاك الدنيا وحسن بذلها لله، فإن الفقر العام شَانَ حضارتهم في القرون الأخيرة، وجعل أيديها السفلى في أكثر من ميدان.

الجبرية في العالم الإسلامي :

من أسباب انهيار حضارتنا شيوع مبدأ الجبرية بين الناس، فالمرء لا

---

(١) سورة النساء آية ٥.

حول له ولا طول، ولا قدرة ولا إرادة، وإنما هو يحيا بتوجيه خفي أو جلي من مشيئة الله التي تدفع به ذات اليمين أو ذات الشمال، والتي تهيىء له حياة العسر أو حياة اليسر برغمه.

وقد يذكر من باب التغطية أو الاعتذار عن الشرع (!) أن للإنسان كسباً أو اكتساباً، والحقيقة أنه مسلوب الإرادة على حد قول الصوفي.

أنا قلم والاقدار أصابع.

وما يصنع القلم وحده ؟ إنه أداة وحسب.

أو كما يقول الجبريون أنفسهم في بيان حال الإنسان مع الأقدار الغالبة :

كريشةٍ في مهب الريح حائـرة   لا تستقر على حال من القلق

ولا يزال أغلب المسلمين إلى يومنا هذا يرون أن الطاعة والمعصية والغنى والفقر حظوظ مقسومة وأنصبة مكتوبة، وأن المرء مسيّر لا مخيّر.

ونشأ عن ذلك أن الشخصية الإسلامية اهتزت، وسيطر عليها لون من التسليم والسلبية.

والسبب في ذلك علم الكلام والتصوف وبعض مفسري القرآن وشرّاح السنن.

إن التربية الصحيحة تقوم على حقائق واضحة، وعلى تقرير حاسم للمسئولية الإنسانية ولا يجدي في هذا المجال جدل ولا لعب بالألفاظ.

ومذهب الأشعري الذي اعتنقه جمهور المتأخرين يتحدث عن المسئولية الشخصية بأسلوب غامض لا تتضح معه عدالة التكليف حتى قال الظرفاء فيه، أخفى من كسب الأشعري.

أما الصوفية فقد محقوا الإرادة البشرية، وجعلوا الإنسان مشدوداً بخيوط الهية إلى مصيره المجهول أو المعلوم.

وكذلك فعل بعض علماء التفسير والحديث وهم يشرحون النصوص المتصلة بالقدر ولا بد من تخليص العقل الإسلامي من هذا القصور والتخبط

بحيث يقبل المسلم على الحياة وهو موقن بأنه مكلف حسب استعدادات حرة، وأن له قدرة وإرادة يملكان قدراً من الاستغلال يسأل به عما يفعل، وأنه لا جبر ولا افتيات ولا تمثيل في قصة هذه الحياة التي نحياها.

المسلمون وقانون السببية :

وينضم إلى شيوع مبدأ الجبر ضعف الصلة أو انقطاعها بين الأسباب والمسببات فعدد كبير من المربين والموجهين أشعروا الأمة بأن النار قد توجد ولا يوجد الإحراق، وأن الماء قد يوجد ولا يوجد الري، وأن السكين قد توجد ولا يوجد القطع، وأن الواجبات العادية قد تتخلف، وأن قانون السببية ــ على الإجمال ــ غير ملزم ولا مطرد.

وعلماء الكلام الذين مالوا إلى هذا الرأي أرادوا الرد على بعض الفلسفات الإغريقية التي تجعل الأسباب خالقة، وتنسب إلى الطبائع ما يقع هنا وهناك.

وكلام اليونان أن الطبيعة تخلق، وأن السبب ــ من ذاته ــ يفعل هو كلام لا وزن له، ولا دليل عليه بيد أن الرد لا يكون بنفي ما أودع الله في الأشياء من خواص وما ناطه بها من آثار، فإن الأسباب ــ بقدر الله فيها ــ تؤتي نتائجها حتماً، أما خوارق العادات فلها شأن آخر وتعليلات فوق المعارف المعتادة وهي، إذا صدقت فهي شذوذ يؤكد القاعدة ولا يهدمها.

لكن المسلمين ــ خصوصاً في القرون المتأخرة ــ جعلوا الدنيا لا تضبطها قاعدة ولا يحكمها قانون، ومن المقبول عقلاً وشرعاً أن يتزوج رجل في المشرق بامرأة من المغرب، وأن تلد منه على بعد الشقة، لأنه قد يكون من أهل الخطوة، أي ربما انتقل من المحيط الهندي إل الأطلسي في لحظة ما من ليل أو نهار.

وهذا التصور المخبول لا ينضج معه علم، ولا يصح فيه بحث، ولا يملك أصحابه الأدوات التي يحققون بها نجاحاً عملياً في هذه الحياة.

والمقرر في العلوم الكونية والتجريبية والإنسانية وغيرها أن قانون السببية محترم وأن رفضه جنون.

والغريب أن كتابات دينية كثيرة جعلت (الولاية) مقرونة بخرق العادة، ولما كان في كل قرية شيخ مشهور بالصلاح، ولما كان لا يخلو زمان من هؤلاء الأشياخ العظام.

ولما كان خرق العادة يقع منهم أحياء وأمواتاً بطريقة يعتبر إنكارها جرماً فإن سيلان الخوارق زحم العالم الإسلامي، وجعل قانون السببية لغواً، وكان لذلك أثر محزن في انهيار حضارتنا واختلال ثقافتنا.

وقد تدارك العلماء هذا العوج وألفوا رسائل في دعم قانون السببية وضرورة احترامه.

والشيء الذي نقف عنده قليلاً هو هوس بعض الكاتبين في إثبات الولايات وخوارقها وكأن الرسالة الإسلامية ما جاءت إلا لإثبات هذه القضية.

والذي بدا لي أن هذا الهوس يرجع إلى التعلق بغير الله ودعاء المقبورين لعمل العجائب.

فإذا قلت : رجل مات ما تنتظرون منه ؟ قيل : إنه ــ حياً أو ميتاً ــ يفعل بقدر الله، فالتعلق به لا ينكر، فإذا اعترضْتَ جاء الاتهام السريع : أتنكر كرامات الأولياء ؟ وأمة يدور تفكيرها في هذه القوقعة كان لا بد أن تنهار أمام أعدائها.

تقاليد الرياء في المجتمعات الإسلامية :

كان السلف الأول أسلم الناس فطرة، وأصفاهم طبيعة، كان الله تبارك اسمه غايتهم فيما يفعلون ويتركون، وكان رسوله قدوتهم المحببة، وكان هواهم تبعاً لما جاء به ﷺ.

وكان انقياد الأمم لهم يتم بعد التعرف عليهم والتفرس في سيرتهم، والواقع أن هذا هو السر الأول في انتصار الإسلام واستقراره في الأرض.

أما مسلمو القرون الأخيرة فقد استحدثوا تقاليد كثيرة في نواحي حياتهم كلها، تقاليد تقوم على التكلف والتزويق وتبتعد عن فطرة الإسلام السائغة، وجعلوا هذه التقاليد حدوداً صارمة لا يتعدونها مهما فدح ضررها.

لما تأيمت حفصة بنت عمر بن الخطاب من زوجها الأول لم ير الرجل الكبير غضاضة من مفاتحة صديقه أبي بكر في الزواج منها.

وعمر بهذا التصرف رجل يحترم الطبيعة الإنسانية وتتحرك في فؤاده عاطفة الأبوة، والإطار الذي يعمل داخله هو فطرة الإسلام السهلة فلا ريبة إلا فيما يغضب الله، وكرامته الخاصة مصونة وغالية ما بقي حريصاً على مرضاة الله ورسوله ثم خلفت خلوف لها منطق آخر يحار فيه أولو الألباب.

الرجل له ابنة في سن الزواج بل توشك أن تتخطاه، يجيئها خطيب كفؤ يعرض المهر الذي استطاع جمعه، فإذا الأب يقول في صراحة : لا، لا بد من عشرات الألوف من الريالات.

ثم تمر السنون ويغلق الأبواب على عوانس كثيرات بائسات يائسات، لِمَ ؟ لأن تقاليد الرياء التي تحكم المجتمعات الإسلامَية في بلاد كثيرة حكمت بهذا البتات.

إن الرياء شرك، وهذا الشرك سيطر على أعراف وعادات جعلت المسلمين يرقب بعضهم بعضاً ويتقي بعضهم بعضاً، وجعلت الرجل ــ باسم كرامته الخاصة أو كرامة الأسرة التي ينحدر منها ــ يعيش طول عمره وفق أوضاع وقيود من صنع الاستعلاء والتزمت.

أراد عمر بن عبد العزيز إسراج مصباحه فقام وفعل ما أراد، فقال له واحد من المجلس كنت تأمر أحدنا بذلك، فقال : قمت وأنا عمر ورجعت وأنا عمر.

إن الرجل العظيم لم يحس غضاضة في تصرف يأنف منه الصغار في عصور الانهيار، ولا غرو فعمر يقلد رسول الله ﷺ الذي قام بنفسه يخدم وفد الحبشة فلما قيل له نكفيك هذا، قال : لا، إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين.

وهو الذي رأى أن يجمع الحطب عند اعداد الطعام واشتراك الأصحاب في ذلك فلما عرضوا عليه أن يستريح أبي لأن الله يكره أن يتميز الرجل على أصحابه، إن الأمة الإسلامية في القرون الأخيرة جمعت الكثير من

الجاهليات في مسالكها الخاصة والعامة، في نفقاتها، في صداقاتها، في أحزانها، وأفراحها، في علاقاتها بحكامها، ولم تكن تفسيراً عملياً لأحكام الإسلام وحدوده، ودهماء محصورون في طلب القوت، ومساجد سامقة البناء، يعمرها من لا همة لهم ولا طموح، وكأن المسلمين أخوة لمن وجدهم ذو القرنين دون السدين : (لا يكادون يفقهون قولا............).

وضع المرأة في عصور الضعف :

في حديث مكذوب رواه الحاكم أن المرأة لا يجوز أن تتعلم الكتابة، وفي حديث متروك آخر أن المرأة لا يجوز أن ترى أحداً ولا يراها أحد.

على هذه الآثار انبنى حرمان المرأة من التعليم ومنعها من الذهاب إلى المدرسة وفي مرويات أخرى تخالف المتواتر والصحيح من السنن حظر على النساء جملة الذهاب إلى المساجد، فأقفرت منهن بيوت الله، وانقطعن عن التوجيه الديني، فلا قرآن ولا حديث ولا فقه، فضلاً عن سائر العلوم الأدبية والانسانية.

وبذلك أصبحت المرأة المسلمة دون غيرها من نساء العالم أقل ارتباطاً بالدين واتصالاً بالمجتمع.

ولما كانت المرأة ربة البيت وحاضنة الأولاد وغارسة الشمائل الطيبة أو الخبيثة والأفكار الخاطئة أو الصحيحة، فإن حبل التربية اضطرب في العالم الإسلامي اضطراباً شديداً وكان ذلك لا ريب من أسباب خوره وانهزامه.

وقضية المرأة لا تعالج على ضوء النصوص قدر ما تعالج على ضوء ملابسات نفسية أخرى، فهناك ناس مصابون بسوء الظن وشدة الغيرة، وتصديق الأوهام، وهناك مصابون بعلل الشيخوخة وأعراض الضعف الجنسي، يتطيرون من خروج المرأة إلى مسجد أو مدرسة فيطوحون بكل قول صائب إيثاراً لما وقر في نفوسهم.

فإذا انضم إلى هؤلاء أتباع الشائعات العلمية والآثار التافهة علمنا أي حيرة تكتنف قضية المرأة.

والواقع أن الملك فيصل رحمه الله لم يتمكن من تعليم البنات في

السعودية وفتح المدارس لهن إلا بعد لَأْيٍ وفي وجه مقاومة ما كان غيره يستطيع التغلب عليها.

وبديهي أن الخط الذي رسمه الإسلام للمرأة غير الخط الذي رسمته الحضارة الحديثة، فإن هذه الحضارة أطلقت الاختلاط وارتضت نتائجه على الأعراض، ورفضت قيماً مقررة في كل وحي نزل.

وقد يكون الأغبياء من رجال الدين أحد الأسباب وراء هذا الانحلال، كانوا يعاملون المرأة بعقلية السجان، فجاء من قذف بها في الطريق متحررة من كل شيء.

إن تعلم المرأة وتعبدها يجعلان منها إنساناً مصوناً مأموناً ويجعلان منها ربة بيت منجبة محسنة، تنشأ الأجيال في كنفها وفي تألف الشمائل الزاكية والمسالك العالية. وأكاد أجزم بأن انهيار التربية السليمة في العالم الإسلامي ـ خلال الأعصار المتأخرة ـ يرجع إلى أن المرأة قصرت على الشئون الحيوانية من طعام وسقاء، وأن ما وراء ذلك يجيء على هامش حياتها، وحياة الأسرة.

عندما كانت المرأة تذهب إلى المسجد حتى القرن الخامس والسادس كانت مصدر خير لرجلها وولدها والجماعة كلها، وقد قرأت أن سيدة مؤمنة تأثرت بحديث خطيب المسجد عن جهاد الصليبيين، وما أعد الله من درجات علا لأولئك المجاهدين، ولكن أنى لها الجهاد وهي امرأة ؟ فماذا تصنع ؟ جذت شعرها المسترسل وبعثت به إلى المسجد مع رقعة كتبت فيها : إنها ترجو أن يجدل هذا الشعر ليكون حبلاً يقيد به جواد احد المجاهدين في سبيل الله.

قرأ الخطيب الرقعة على الناس، وضج المسجد بالبكاء والتكبير.

وانبعث أولو النجدة والبأس إلى الميادين بعد ما هزهم هذا المثل من امرأة مؤمنة أن حملة الصليب لم ينكسروا وينكسر معهم شعارهم إلّا بهذه المعادن الصلبة من الإيمان الصاحي في قلوب الرجال والنساء على سواء.

أما النسوة الجاهلات فهن يحسن البكاء على عقود أو الصياح لرغبة

لم تجب وما يدرين عن قضايا الدين والدنيا شيئاً.

ونحن نؤكد مرة ومرة أن مكانة المرأة المسلمة في المجتمع المسلم شيء آخر غير ما يقع في أوروبا وأمريكا الآن للنساء، وشيء آخر غير ما يقع في أقطار واسعة من العالم الإسلامي حيث شخصية المرأة ممحوقة من الناحية الدينية والثقافية وقد تكون باقية للحديث عن ثوب غال وحلية نفيسة، أما ما عدا ذلك فهي منه صفر.

وأذكر أن بعض الحراس على تقليد الجهل ناقشني في هذا الموضوع وقال : الزوج أو الأب يعلم النساء في البيت ويعودهن الصلاة داخله، ولا معنى لخروجهن والتعرض للفتنة.

قلت : إن صاحب الرسالة لم يرسم هذه الخطة التي تقترحها، فهي مرفوضة من هذه الناحية وناحية أخرى، ان هذا الذي ترجوه معلماً لأهل بيته يحتاج مثلهن للتعليم، ضعف الطالب والمطلوب.

المرأة الروسية غزت الفضاء، ويراد أن تعجز المسلمة عن معرفة الطريق إلى المسجد، كل دين في عصرنا مهما بلغ بطلانه ربط النساء بمعابده، ويراد من الإسلام وحده أن ينفي النساء عن بيوت الله.

لقد أشرت إلى أن قضايا النساء لا تعالج بعلم قدر ما تعالج بعقد نفسية وأمزجة سوداوية وقصور يدعي الغيرة ويتطاول على الحقائق والمعالم التي صان الإسلام بها الأعراض ينبغي إبرازها، فلا خلاعة ولا تبرج ولا يؤذن بخلوة مع أجنبي، ولا يؤذن بعمل ما يؤدي إلى ذلك، والأعمال الفنية والإدارية التي يقوم بها النساء، وكذلك جميع الثقافات اللاتي يحتجن إليها أو يرغبن فيها يمكن أن توضع لها الضوابط الإسلامية التي تحفظ حدود الله.

والحكم في هذه الأمور لا يؤخذ من أشباه حفيد عمر الذي قال لأبيه بنزق وطيش : والله لنمنعهن ـ وهؤلاء كثيرون في دنيا الناس ـ إنما يؤخذ الحكم من الفقه الصادق في الكتاب والسنة.

والغريب أن الشيخ محمد ناصر الألباني ألف كتاباً في الحجاب اعتمد فيه على ما ثبت من نصوص، ولكن الكتاب منع تداوله لأنه على غير

ما يهوى البعض، فإن عقلية السجان لا تزال تسيطر على نفر غير قليل من المتحدثين في شئون المرأة، إنهم يريدونها محبوسة في قعر الدار لا ترى أحداً ولا يراها أحد حتى تنتقل من ضيق البيت إلى ضيق القبر.

ذيــول الأدب العربي :

التدين الفاسد لا يكسب الآخرة، ولا يحفظ الدنيا، وقد لوحظ أن المسلمين لما ضعف إيمانهم وجفت ينابيع التقوى في أفئدتهم، أضاعوا دولتهم القائمة على قيم بينة، وأضاعوا في الوقت نفسه عناصر حياتهم العاجلة وفقدوا الإحساس بالجمال والقبح وأصاب ملكاتهم الأدبية ضمور شائن، فانحط الشعر والنثر، وقل الأدباء المصورون، كما قلَّ المؤلفون والمفكرون، ونظرة إلى الأدب ورجاله منذ القرن السادس تجعلنا نشعر بهذه الحقيقة، فالديباجة الفخمة والنفس الرائق والوصف الكشاف والحكمة النفاذة والغزل الرقيق والرثاء الذي يغزو النفوس بالحزن الرفيع والمدح الذي يرسم المثل العالية خلال الثناء الصحيح أو المزعوم، كل ذلك تلاشى.

وانكمش الأدب شعراً ونثراً انكماشاً يثير الاشمئزاز فبعد أن كان الشاعر يقول القصيدة ملأى بالجمال الفني أياً كان موضعها جاء شعراء صغار احتقر التاريخ أسماءهم، بقول أحدهم ملغزاً في خاتم، أو واصفاً شمعة أو مهنئاً بمناسبة، وكان العرب في جاهليتهم أقدر على الحياة وأشعر بأفراحها وأحزانها منهم بعد سقوط بغداد، أو حتى بعد فتح القسطنطينية.

وقد فار الأدب العربي أوائل هذا القرن الرابع عشر فورة عظيمة، وجد شعراء كشوقي ومحرم والبارودي وحافظ والزهاوي والرصافي، كما وجد أدباء أعادوا للعربية قوة الأداء وسحر البيان، ولكن هذه النهضة اعترضت بقوة ويجري الآن قتلها ومحو آثارها، لأن القضاء على اللغة العربية جزء من المخطط المرسوم للقضاء على الإسلام نفسه.

ونريد التنبيه إلى أن ازدهار الأدب يعين الدعوة الإسلامية على الانطلاق كما يعين مراجع الإسلام الأولى على التألق وقرب الانتفاع منها.

ويوجد علماء دين في هذا العصر نصيبهم من الأدب العالي والبيان

الشافي قليل، وهؤلاء عبء على الإسلام وفقهه ودعوته، فإن معجزة هذا الدين كتاب، ورسوله إنسان مرهف الحس أوتي جوامع الكلم، فكيف يتذوق الإسلام امرؤ محروم من الذوق الفني ومن القدم الراسخة في اللغة وآدابها ؟!!

سياسة المال في المجتمع :

اضطربت سياسة المال وساء تداوله في المجتمع الإسلامي، ونشأ عن ذلك فقر مدقع وترف مفسد، وكادت تعاليم الإسلام في هذا الميدان الخطير تنسى أو تجحد.

أ) إن الأرض لم تشهد جيشاً يسير لأخذ حقوق الفقراء من الأغنياء الباخلين إلّا الجيش الذي سيره الخليفة الأول، ولم تشهد فقهاً اقتصادياً منصفاً للكادحين والمساكين إلّا فقه الخليفة الثاني.

وبين الحين والحين تبرق لمع من العدل تضيء الطريق للمتبعين ولكن أغلب الحكام لم يهتم بهذا الجانب الإسلامي، فتعرضت جماهير الفقراء لغبن كبير.

ب) أعلن الإسلام أن المال صنو النفس وأن الحفاظ عليه والدفاع عنه يساوي المحافظة والمدافعة عن الدم والعرض.

ومع ما تقرر من أن كل لحم نبت على سحت فالنار أولى به، فإن كثيراً من الحاكمين وحواشيهم أخذ الأموال الوفيرة عن طريق النهب الذي ترتفع له العيون دهشة أو طريق الرشوة التي لا تقضى الحاجات إلّا بها.

ومن أقبح صور الرشوة والفساد ما وقع من (بلطجي باشا) قائد الجيش التركي، فإن الجنود المسلمين استطاعوا تطويق الروس في إحدى المعارك الحاسمة وكادوا يقضون عليهم قضاء مبرماً، ولكن القيصرة كاترين ذهبت إلى القائد التركي بنفسها ومالها وكان ما كان، وصدرت الأوامر بفك الحصار.

واستأنف الروس ضربهم لدولة الخلافة الضرب الذي قرب الرجل المريض من الموت، وشيوع الرشوة بين المسئولين الكبار أمر يخزي حتى قيل :

وزيـر لا يمــل من الرقاعـــة يولـى ثم يعـزل بعـد ساعـــة
إذا أهـل الـــرشا صاروا إليـــه فأحظى القـوم أوفرهـم بضاعـة

والصورة الساذجة للرشوة مال يهدى، ولكن صور الرشوة أمست أعقد من ذلك وأبعد عن المؤاخذة، ولكن هل من نجا من مؤاخذات الجماعة يفر من عقاب الله ؟ (فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين والوزن يومئذ الحق......)[1].

ج) البطالة آفة تأكل الدولة وتجرها إلى الحضيض، والمفروض أن الدولة مسئولة عن إيجاد شتى الحرف للعاطلين، وافتتاح أبواب الرزق من أبعد مظانها حتى تضمن موارد ثروة لهم ولها، وإلّا فكيف تؤدي رسالتها ؟.

إن النبي ﷺ وجه العاطلين للعمل، وعدَّ نفسه مسئولاً عن القاعد حتى يعمل والمحتاج حتى يجد.

والدولة التي ترفع رايات الوثنية والإلحاد والشرك ترى من صميم وظيفتها النهوض بهذا الواجب فكيف تنكل عنه حكومة مسلمة ؟.

والبطالة المقنعة لا تقل سوءاً عن البطالة الصريحة، ومن المأثور عن عمر بن الخطابُ إني أرى الرجل فيعجبني فإذا علمت أنه لا عمل له سقط من عيني.

وقد امتلأ العالم الإسلامي بالطاعمين الكاسين من فضول أموال لا يدرى كيف نبتت أصولها، ولا بد من النظر بخوف إلى هذه الفئات التي تستهلك ولا تنتج والذي يدفعنا دفعاً إلى هذا النظر، ليس ما وقع في الماضي فقط من مآسي شداد إنما هو ما يقع في العالم الآن من تجنيد لكل الطاقات.

ونحن نعلم أن دولاً تقوم الآن على أن بطاقة الأكل لا يحرزها إلّا من لديه بطاقة عمل، فمن المهم أن تعمل الحكومات الإسلامية بجد على جعل العمل معصوباً بجبين كل رجل بحيث لا يبقى مكان محترم للبطالين.

---

(١) سورة الأعراف الآيتان ٧ ـ ٨.

الفســاد السيـاسي :

يقول الله عز وجل : (يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون)[1] لكنه في ميدان الحكم طاحت الأمانات وقلما عثر لها على أثر.

ما وسد الأمر إلى أهله، وما حاول الذين وسد إليهم الأمر أن يرتفعوا إلى مستواه، ولا قنعوا مادياً وأدبياً بالعيش في نطاقه المحدد.

لقد خولفت خطة السلف في اختيار الأكفاء فإذا كان أبو بكر بويع لأنه أفضل الناس، وإذا كان عمر اختير لكفاءته وقوته فإن الجمهرة العظمى من الحكام ولوا مناصبهم دونها بمراحل، ولما ولوها اتخذوها مصيدة لدنيا عريضة واستمتاع مطلق، وكانت نتيجة ذلك وبالاً على الدولة وسواد الأمة ومستقبل الرسالة.

وقد بدأ هذا الانحدار رويداً، ثم شرع على اختلاف الليل والنهار يتكشف حتى سقطت الخلافة أول هذا القرن.

واقترن باختيار الخلفاء على ذلك النحو ما يلي من مخالفات دينية :

أ) أهملت الشورى، ولم يعتمد عليها الحاكمون في أحكام الشئون الدينية مع أن الإسلام قرر أن المجتمع يقوم على التناصح والتواصي بالحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتعاون على الخير ورفض الإعجاب بالرأي والافتيات على الجماعة، وهذه المعاني قد تقع لها صور ساذجة فيما يدور بين الناس من حديث أو فيما يسعون له من مصالح، لكنها تحتاج إلى مؤسسات جادة ضخمة لضبط شئون المسلمين بين المحيطات العظمى التي تحدّ عالمهم الكبير.

ب) العجز الإداري، وهو وراء الفتوق والخروج على الدولة في عهود شتى ونشوء دويلات كثيرة، بعضها لم يخلص للإسلام ولاؤه، بل بعضها كان حرباً عليه.

---

(١) سورة الأنفال ، الآية ٢٧

ومن الفواجع أن دولة القرامطة فتكت بقوافل الحجيج سنين عـدداً، وأنها انتزعت الحجر الأسود من مكانه، وعجزت دولة العباسيين عجزا مفضوحاً عن استرداده، فما عاد الحجر إلا بتفاهم بين القرامطة والفاطميين.

وقد فرض النظام اللامركزي نفسه في وجه رغبة من الخليفة العاجز أن يحكم القارات دون مواهب وقدرات.

وقد يختفي العجز الإداري حيناً مع وجود حاكم شديد البأس، ثم يبرز الداء ويعاني المسلمون آلامه.

جـ) فقدان الأجهزة المسئولة عن الدعوة في الداخل والخارج.
المسلمون حملة رسالة، ودولتهم تنهض على فكرة معينة، وبديهي أن تتكون في مجتمعهم الأداة التي ترقب سير الدعوة في الخارج وتشرف على كيانها في الداخل، وأن يكون هناك رصيد يقظ للأرباح والخسائر، والانتصارات والهزائم، وقد كنت أسأل نفسي أحياناً : وهل انعقد مؤتمر للبحث عن سبب سقوط القدس في الحملة الصليبية الأولى ؟ هل انعقد مؤتمر للبحث عن سقوط بغداد وأسباب اجتياح التتار للدولة ؟، هل انعقد مؤتمر للبحث في أصول مسلمي الأندلس وتعرض دولتهم للانكماش حتى تلاشت !!.
تلاشت !!.

إن الجفوة الرهيبة بين العلم والحكم كانت من وراء الاضطراب الشديد في العالم الإسلامي، وكانت من وراء الذهول المعيب عن قضاياه الكبـرى.

ربما كان هناك اكتراث شعبي ينفح العلماء أحياناً ليتحول إلى عمل مبرور وجهاد صالح، لكن الحكام كانوا في واد آخر ولعلهم آخر من يعلم ويتحرك.

د) مع الغفلة السائدة عاشت داخل الكيان الإسلامي فرق دينية أبطنت الخيانة والمروق وظلت تنتظر الفرص المواتية لضرب الإسلام وطعن أمته في ظهرها، وقد تحركت هذه الفرق مع الزحف الاستعماري الأخير وأعانت الغزاة على إدراك لباناتهم من هذا الدين المسترسل السمح.



كيف ننهض بالمجتمعات المسلمة المعاصرة

للأستاذ محمد رأفت سعيد
المحاضر بكلية الشريعة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
والمشرف على النشاط الثقافي بها



بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدك اللهم ونستعينك ونستهديك، ونصلي ونسلم عل خاتم أنبيائك ورسلك سيدنا محمد.

وبعـــد ..

فإن معالجة هذا الموضوع تتعدد بتعدد الوسائل، وترتيبها في نظر كل بـاحث.

وهذه الوسائل كلها تهدف في النهاية إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

ووسائل النهوض بالمجتمعات المسلمة المعاصرة كثيرة، فبعض الباحثين يرى أن الجانب الاقتصادي له أهمية كبرى في ذلك فيركز عليه، والبعض يرى أن الاهتمام بالتعليم هو الأهم في النهوض بتلك المجتمعات، وفريق ثالث يرى أن العناية بالقوة العسكرية هي الوسيلة، وتبع ذلك كثرة في الخطط (لا شك أنها مفيدة) وكثرة في اللقاءات والمؤتمرات (ولا شك أنها مثمرة).

لكني أرى أن الآثار المترتبة على تلك الخطط لا تصل بالمجتمعات المسلمة إلى نهضة. فالمجتمعات كما هي ـ بل تزداد عن إسلامها بعداً. فما السبب في ذلك ؟..

السبب في ذلك هو أن هذه المجتمعات لا تتفاعل مع هذه الخطط ؛ لأن أجهزة التفاعل فيها قد فسدت أو شغلت بما لا ينفعها، ولذلك أقبلت على هذه الأجهزة في الإنسان محاولاً التعرف على خصائصها وكيف تسلم. وكذلك كيف تمرض. لنصل بعد ذلك إلى خطة نستطيع بها أن نصلح أجهزة التفاعل في مجتمعاتنا ؛ فنقبل بها على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، مسترشدين بفهم السلف الصالح لهذين المصدرين لنحسن التلقي عن الكتاب والسنة ؛ فنأخذ بكل ما جاء عن الله ورسوله فننهض في فكرنا وفي اقتصادنا وفي حربنا وفي علاقاتنا الاجتماعية وعلاقاتنا بالأمم الأخرى. أو قل لنصل بهذا إلى ما كان عليه سلفنا الصالح. « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، سيماهم في وجوههم من أثر السجود »[1].

وأحب قبل أن أتحدث عن هذه الأجهزة. وهي السمع والبصر والفؤاد أن أشير إلى أن حديثي عنها سيكون في دائرة الكتاب والسنة، ولن تكون هناك شطحات تخرجني إلى عالم الخيال، إن شاء الله تعالى.

ان مفتاح هذا البحث في قوله تعالى : « ولقد يسرنا القرآن للذكر. فهل من مذكر ؟ »[2].

إنه في هذا التقرير الصادق والاستفهام الذي يليه.

ولنبدأ في عرض هذا التقرير الإلهي لتيسير القرآن للذكر ؛ حتى لا يبقى للإنسان عذر يعتذر به من عدم الاعتبار أو « الادكار ».

لقد يسر القرآن الكريم للذكر منذ أن دوى صوت في جو السماء ينادي يا محمد أنت رسول الله. وأنا جبريل..

---

(١) سورة الفتح آية ٢٩.

(٢) سورة القمر آية ١٧.

« نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين »[1].

فحامل الوحي إلى النبي – ﷺ – أمين – والاشارة بنزول الوحي على قلب النبي ﷺ تفيد أنه نزل في قرار مكين ومع تمكن الوحي من القلب فهو في وضوح وجلاء لا يداخله لبس أو غموض فهو « بلسان عربي مبين »[2].

وذاق النبي حلاوة القرآن فتشوق إلى استقباله، وإذا قرأ عليه جبريل حرك لسانه شوقاً فأوحى الله إليه مطمئناً له « لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه، ثم إن علينا بيانه »[3].

فوعد الله سبحانه رسوله ﷺ بجمع القرآن في قلبه وإقراء القرآن له، وكذلك على الله بيانه.

ويحفظ الرسول الكريم ما ينزل عليه من الوحي ويأمر بكتابته على أدوات الكتابة المعروفة آنذاك ويحفظ من يجلس إليه من أصحابه، فإذا عاد الرجال إلى بيوتهم كانت الزوجات حريصات على معرفة ما ينزل من الوحي فيحفظن كما حفظ أزواجهن. ثم يعلمن أطفالهن. فالقرآن الكريم يرتل في مجالس النبي ﷺ ويرتل في الصلوات وفي قيام الليل ويرتل في البيوت. والرسول الكريم يشجع عل ذلك ويذكر ما أعده الله لمن يتلو كلامه : « إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور »[4].

وعن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « إن هذا القرآن مأدبة الله فتعلموا من مأدبته ما استطعتم. إن هذا القرآن هو حبل الله. النور المبين والشفاء النافع عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن اتبعه لا يعوج فيقوم ولا يزيغ فيستعتب ولا تنقضي عجائبه ولا يخلق عن رد. فاتلوه فإن الله يأجركم

(١) سورة الشعراء الآيتان : ١٩٣ ـ ١٩٤.
(٢) سورة الشعراء آية ١٩٥.
(٣) سورة القيامة الآيات ١٦ ـ ١٩.
(٤) سورة فاطر الآيتان ٢٩، ٣٠.

على تلاوته بكل حرف عشر حسنات. أما اني لا أقول ألم حرف »[1] ويقول ﷺ : « من أعطي ثلث القرآن فقد أعطي ثلث النبوة ومن أعطي ثلثي القرآن فقد أعطي ثلثي النبوة ومن قرأ القرآن كله فقد أعطي النبوة كلها غير أنه لا يوحى إليه ويقال له يوم القيامة اقرأ وارق فيقرأ آية ويصعد درجة حتى ينجز ما معه من القرآن ثم يقال له اقبض فيقبض ثم يقال له : أتدري ما في يديك فإذا في يده اليمنى الخلد وفي اليسرى النعيم »[2].

فهذا الحث الكريم من النبي ﷺ والتشجيع على التلاوة يتضمن أيضاً وصفاً تفهم منه الخصائص التي منحها الله لكتابه والتي يستطيع الإنسان أن ينتفع بها إذا أحسن في تلقيها. ولا شك في أن هذا قد حبب الصحابة في الإقبال على القرآن الكريم وشجعهم على تلاوته وحفظه والعمل به والتفاني في تبليغه فضلاً عن أسلوب القرآن المتميز والآخذ بالقلوب في حماسة واقناع عقلي حكيم. وفوق كل ذلك الشعور بسمو القرآن الكريم على كل كلام وإيمانهم تبعاً لذلك أنه كلام رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلب المعلم ﷺ.

ونستطيع أن نقول إن منهج الصحابة مع القرآن الكريم كان كما علمهم النبي ﷺ :

١ ـ الاستمـاع.
٢ ـ ثم الفهم لما يسمع.
٣ ـ فالحفـظ لما يفهم.
٤ ـ يتبع ذلك بالعمـل.
٥ ـ ويكون الإخلاص رائداً للمسلم في كل ذلك.

وقد سجلت السنة المطهرة لأصحاب النبي ﷺ كل هذا. فهم إذا جلسوا إلى النبي ﷺ فكأن على رؤوسهم الطير. آذانهم تسمع وقلوبهم تخشع إلى ذكر الله وما نزل من الحق.

---

(١) ص ٥ من تفسير القرطبي. وانظر الترغيب والترهيب جـ ٣ ص ١٧١ حديث ٢٠٨٢.
(٢) ص ٧ من تفسير القرطبي. وانظر الترغيب والترهيب جـ ٣ ص ١٦٧.

والمجلس النبوي الذي كان يشهد آيات الله ووحيه كان على أعلى مستوى للبيئة العلمية فهو مجلس لا تسمع فيه همساً إذا علا صوت النبي ﷺ.

وقد تولى القرآن الكريم تأديب الصحابة بأدب الاستماع الجيد حين قال لهم : « يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون. إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم »(١).

فالجالسون في مجلس النبي مستمعون أفسحت ألسنتهم المجال لآذانهم كي تتحقق من السماع إلّا في سؤال يوجه أو استزادة تطلب أو مراجعة في أدب. يوضح المعنى ـ أيضاً ـ حديث النبي ﷺ الذي يلقن فيه أدب الإنصات حين التلقي الجماعي فيقول : « إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة والإمام يخطب :« أنصت » « فقد لغوت »(٢).

فالجو كان مهيئاً للاستماع الحسن الذي يتبعه الفهم ثم الحفظ وذلك بتعاهد ما سمع وفهم، فعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعقلة إن عاهد عليها أمسكها وإن أطلقها ذهبت ».

فإذا ما حفظوا ترجموا هذا المحفوظ إلى أعمال أي أن القرآن الكريم حفظ في قلوبهم وحفظ أيضاً في سلوكهم فعن علي رضي الله عنه قال : كانت السورة إذا نزلت على عهد رسول الله ﷺ أو الآية أو أكثر زادت المؤمنين إيماناً وخشوعاً ونهتهم فانتهوا »(٣).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : كنا إذا تعلمنا من النبي ﷺ عشر آيات من القرآن لم نتعلم العشر التي بعدها حتى نعلم ما فيه فقيل

---

(١) سورة الحجرات الآيتان ٢ ، ٣.

(٢) رواه الجماعة إلا ابن ماجه، انظر فقه السنة ص ٢٦٥ جـ ٢.

(٣) ص ١٩٩ من حياة الصحابة.

لشريك : من العمل ؟ قال : نعم »[1].

وظل هذا الحال حتى اكتمل نزول القرآن الكريم حفظه الرجال والنساء والأطفال، ويرتل في البيوت فيسمع لهم بالليل دوي بالقرآن كدوي النحل. وقصت علينا السيرة استماع الرسول الكريم لأبي موسى (وكان يقرأ في بيته) وأثنى الرسول الكريم على قراءته وصوته وأنه يشبه أصوات آل داود فيجيب أبو موسى : لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحبيراً.

كما حكت السيرة تأثر عمر بآية سمعها من بيت مسلم فتوقف من سماعها، فالذي يسير في الشارع يسمع القرآن، والذي يجلس في المسجد يقرأ أو يسمع القرآن، والذي يصلي يصلي بالقرآن، وصبغت الحياة بالصبغة القرآنية. وكان جبريل ينزل في ليالي رمضان فيدارس النبي ﷺ القرآن، وعرضه في جبريل في العام الأخير عرضتين.

ولحق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى وقد حفظ القرآن الكريم كله في الصدور، كما سجل في السطور. ميسراً ومبيناً.

وجاء عهد أبي بكر وشاوره عمر في جمع القرآن الكريم المكتوب في أدوات الكتابة (يومها) في مصحف واحد. وبعد مراجعة شرح الله صدر أبي بكر لما شرح له صدر عمر، وتكونت لجنة بإمارة زيد بن ثابت وكانت تشترط لكتابة النص القرآني وجود حافظين من الرجال بالإضافة إلى النص المكتوب حتى تم تسجيل القرآن الكريم بتلك الطريقة العلمية الدقيقة في مصحف واحد حفظ عند أبي بكر، فلما مات أبو بكر حفظ عند عمر، فلما مات عمر حفظ عند أم المؤمنين حفصة ـ زوج النبي ﷺ ـ. فلما كان عهد عثمان رضي الله عنه، (وقد اتسعت رقعة الأمة الإسلامية ودخلها أهل بلادهم لهجاتهم الخاصة) خشي صحابي جليل عنده غيرة على كتاب الله أن يختلف الناس، فأشار على عثمان بكتابة مصاحف وتوزيعها على الأمصار المفتوحة، فكتبت اللجنة بنفس الدقة مجموعة من المصاحف وزعت على الأمصار الإسلامية المفتوحة في ذلك الوقت، وصارت مرجعاً

(١) نفس المصدر.

لكل من أراد مصاحف من أهل هذه البلاد، كما صارت مرجعاً لكل من أراد أن ينسخ مصاحف جديدة. حتى وصل إلينا كتاب الله ما كان قرأه رسول الله ﷺ لم يزد فيه حرف ولم ينقص منه حرف، سجل على اسطوانات وكتبت منه ملايين النسخ، وصار في متناول كل إنسان إن أراد أن يستمع أو أراد أن يقرأ، وصدق الذي قرر :

« إنا نحن نزلنا الذكر وإنّا له لحافظون »[1].

والحمد لله الذي لم يجعل حفظ كتابه موكلاً إلى عهد البشر. الذي يعتوره الفتور والكسل بل تولى حفظه بحوله وقوته وتوفيقه لأولى العزم من البشر.

ويتضح لنا من هذا العرض السريع صدق التقرير الإلهي الجليل : « ولقد يسرنا القرآن للذكر » ويبقى التساؤل. « فهل من مدكر ؟ »[2] هل من معتبر ومتعظ بهذا القرآن الذي يسر للذكر ؟

وأمام هذا التساؤل القرآني الكريم « فهل من مدكر ؟ » يقف الإنسان أمام صورتين :

صورة لمجتمع كان مريضاً فيسر الله له الدواء فأقبل عليه وأخذه بالطريقة التي أرادها الله لشفائه فعوفي وصار قوياً « كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه »[3] وصورة لمجتمعنا المعاصر والذي ينتسب إلى هذا المجتمع القوي غير أنه أهمل في الدواء فلم يأخذه متكاملاً وإذا أخذ منه شيئاً أخذه بهواه وبطريقته الخاصة وليست بطريقة من أنزله وجعله شفاء لأمراض النفوس والمجتمعات. فصار مجتمعاً مريضاً يطمع فيه أعداؤه ويريدون أن يرثوه وهو حي لأن حياته تشبه حياة الأموات من شدة الأمراض.

ومن العجائب والعجائب جمة قرب الدواء وما إليه وصول
كالعيش في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول

فالدواء والشفاء ميسر للذكر منذ أن أنزل إلى يومنا وإلى يوم القيامة

---

(١) سورة الحجر آية ٩.

(٢) سورة القمر آية ١٧.

(٣) سورة الفتح آية ٢٩.

والناس يتفاوتون في الأخذ منه فمن أقبل عليه وجعله إمامه قاده إلى الخير في الدنيا وإلى الجنة في الآخرة، ومن جعله خلفه حرم من خيره في الدنيا (ولا خير في غيره) ثم ساقه إلى جهنم في الآخرة.

ولذلك فإن الإجابة على السؤال تتضح لنا من تتبع الآثار ..

فإن وجدت الآثار القرآنية على مستوى الفرد والأسرة والمجتمع (في البيت، وفي الشارع، وفي العمل، وفي المسجد، فيما تراه العين، وتسمعه الأذن، في اقتصاديات المسلمين، وتعاملاتهم الدولية) كان هناك ادّكار بالقرآن. فإن تخلفت الآثار القرآنية دل ذلك على عدم الادكار.

ولكي نقف على الشهادة التي لا غش فيها على مجتمعنا المعاصر في أنه لا يدكر بالقرآن ولا يحسن الأخذ عنه أذكر هذه المقارنة السريعة. يقول الله تعالى في وصف المجتمع المسلم الذي انتفع وربي بالقرآن : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود »[1] فماذا عن مجتمع المسلمين اليوم ؟

هل هم أشداء على الكفار ؟

هل هم رحماء بينهم ؟

هل تراهم ركعاً سجداً ؟

هل ترى في وجوههم نور وجلال السجود ؟.

إن واقع المسلمين يجيب على هذه التساؤلات لنصل في النهاية إلى أنه لا إدكار. والاعتراف بالمرض هو الخطوة الأولى في طريق العلاج..

فما أسباب عدم الادكار ؟

إن السبب في عدم الإعتبار والاتعاظ بالقرآن هو أن أجهزة التفاعل مع القرآن في الإنسان قد شغلت بغيره.

---

(١) سورة الفتح آية ٢٩.

أو بمعنى آخر أصابها مرض أو موت فلم تحسن التعامل مع كتاب الله عز وجل أو آياته الأخرى وهذا يتضح إذا تدبرنا هذه الآية الكريمة :

« ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه، وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة. فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء، إذ كانوا يجحدون بآيات الله، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون »[١].

فهؤلاء قد منحوا السمع والبصر والفؤاد فعطلوا كل هذه النعم، لأنهم[٢] جحدوا بآيات الله فلم ينتفعوا بسمع أو ببصر أو فؤاد.

كما توضح آية أخرى أداة الإعتبار في الإنسان حينما تقص علينا ـ أيضاً ـ هلاك من هو أشد بطشاً، فنقبوا في البلاد هل من محيص. إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد »[٣].

فأدوات الإعتبار في الإنسان هي سمعه وبصره وفؤاده.

ولذلك نص الله تعالى على مسئولية الإنسان عن هذه الأدوات لخطورتها، ولشدة تأثرها وتفاعلها، فإن أحسن في استعمالها ووجهت إلى ما ينفعها أمدت صاحبها بعناصر السلامة والقوة، وإن ترك لها الأمر لتتفاعل مع كل شيء دون أن يختار لها هدمته وزلزلت بنيانه، ولذلك يقول الله تعالى : « ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً »[٤].

ولما كان الناس في تفاوت نحو هذه المسئولية رأينا هذه الأدوات في تباين أيضاً من جهة سلامتها. ولنأخذ أهم هذه الأدوات لنفرده بالحديث كي يتضح الموقف ثم نبين تأثره بالأداتين الأخريين.

أهم هذه الأدوات بدون شك ـ القلب ـ وفيه قال النبي ﷺ « ... ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا

---

(١) سورة الأحقاف الآية ٢٦.

(٢) « اذ معمولة لا غنى وأشربت من معنى التقليل » انظر تفسير الجلالين ص ٦٦٩.

(٣) سورة ق الآيتان ٣٦ ـ ٣٧.

(٤) سورة الإسراء : آية ٣٧.

فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب »[1].

ومن عجيب خلق الله تعالى أنه جعل هذا القلب محل الإيمان والكفر، والطمأنينة والقلق والحب والكره.

وهذا القلب قد يكون صالحاً سليماً، وقد يكون مريضاً، وقد يشتد به المرض فيفتك به ويصير قلباً ميتاً، وهذه الدرجات هي الجديرة بالدراسة لنقف على حقائقها ولنتمكن من الإنتفاع بهذه المضغة ـ كما سماه رسول الله ﷺ ـ.

أولاً : القلب السليم :

وهو القلب الذي منحه الله قيادة صاحبه في الدنيا حتى يدخله الجنة. وشهد الله بتلك المكانة للقلب في قوله الحكيم : « يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلّا من أتى الله بقلب سليم »[2].

وإذا فتشنا في هذا القلب السليم لرأينا أن سلامته نشأت من سلامة الإيمان فيه، فإن سلامة الإيمان تطرد كل ما يسبب فساد القلب. ولكن يبقى التساؤل : كيف يكون الإيمان سليمكا ؟ ونحن نسمع من الجميع أنهم مؤمنون.

وهنا ينبغي أن نفرق بين نوعين من الإيمان. نوع لا يتجاوز الإدعاء، أو يتجاوز النطق بكلمة الإيمان فإذا فتشت عن مدلول الكلمة لا تجد شيئاً.

إن الإيمان في هذه الحالة لا يحرك ساكناً ولا ينتج أثراً ولا يشعر صاحبه بحلاوة ذلك الإيمان، إنه إيمان ميت.

أما النوع الآخر من الإيمان فهو الإيمان الحي النابض، المتحرك، الدافع الذي يشعر صاحبه بحلاوته وأثره.

ونتساءل أيضاً : وكيف يكون الإيمان بتلك الحالة النابضة ؟ أي كيف يكون الإيمان سليماً ؟.

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) سورة الشعراء : الآيتان ٨٨ ـ ٨٩.

يكون الإيمان سليماً نابضاً بأشياء، منها شيء قد جعله الله متاحاً لكل إنسان، لأن كل إنسان يستطيع أن يمارسه قدر جهده ألا وهو التفكير ومادة التفكير ــ كما قلنا ــ تتنوع بتنوع المفكر.

يستطيع الإنسان لكي ينعش إيمانه أن يفكر في الطعام الذي يأكله... كيف صب الله الماء صباً، وشق الأرض شقاً، وأخرج له منها طيبات تختلف في ألوانها ومذاقها، وكيف تقضم بأسنانه، وتهضم بأجهزته، ويبقي الله ما ينفعه من عناصر الغذاء في جسمه، ثم يجعل للضار من الطعام مخرجاً. وقد مارس أصحاب النبي ﷺ مثل هذا التفكير.. فسلم إيمانهم وسلمت قلوبهم، فقد أثر عنهم رضي الله عنهم هذا القول بعد قضاء الحاجة:

« الحمد لله الذي أذاقني لذته، وأبقى فيّ قوته، وأذهب عني أذاه ».

يستطيع الإنسان أن يفكر في الماء الذي يشربه. كيف جعله الله عذباً فراتاً برحمته بعد دورة تصاعد فيها البخار فوق سطح البحر، ولو شاء الله لتجمعت السحب فوق البحر ثم أفرغت ما فيها في البحر مرة أخرى ولكن الله يرسل الرياح كوسيلة لحمل هذه السحب وسوقها إلى الأماكن التي تبعد عن سطح البحر ليشرب الناس جميعاً بفضل الله ورحمته، ولو عامل الله الناس بذنوبهم لجعله ملحاً أجاجاً، ولذلك كان رسول الله ﷺ ــ يقول عقب الشرب:

« الحمد لله الذي جعله عذباً فراتاً برحمته، ولم يجعله ملحاً أجاجاً بذنوبنا ».

يستطيع الإنسان أن يفكر في الهواء الذي يستنشقه. كيف ركب بهذه التركيبة، وكيف يملأ صدره منه في شهيقه دون أن يجد من يحسب عليه الشهيق والزفير « قل انظروا ماذا في السماوات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون »[1].

---

(١) سورة يونس آية ١٠١.

أما الذين آمنوا فإن النظر والتفكير ينمي هذا الإيمان ويزكيه ويصفيه ويجعله ايماناً سليماً يسلم به قلب صاحبه.

وهذا الإيمان السليم لا يجعل في القلب مكاناً لآفة أو مرض مما يصيب القلوب ـ والذي سنشير إليه عند القلب المريض ـ فيظهر بذلك للقلب السليم علامات واضحة تميزه وبها يعرف الإنسان أنه يحمل قلباً سليماً. من هذه العلامات :

١ ـ هواية القلب :

قال تعالى : « ما أصاب من مصيبة إلّا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه، والله بكل شيء عليم ».(١)

وهداية القلب التي جعلها الله سبحانه وتعالى جواباً لشرط الإيمان من أهم الأدلة والعلامات على صحة هذا الإيمان وسلامته. وهي على ذلك من أجل النعم، لان القلب إذا اهتدى عرف كيف يستقبل الأحداث، إن أصابه خير شكر فكان خيراً لصاحبه، وإن أصابه شر صبر فكان خيراً لصاحبه. وهذا الحال ـ كما أخبر النبي ﷺ ـ ليس إلّا للمؤمن فأمره كله خير.

إنه بهداية القلب يتماسك عند النعمة فلا يتكبر ولا يختال، ويتماسك عندما يصيبه ما يكره فلا ييأس ولا يتحطم بل يبقى على سلامة نفسه حتى يخرج من محنته ظافراً برضى الله تعالى ومستعداً لممارسة تجربة أخرى.

٢ ـ سكينـة القلب :

وفي ذلك يقول الله تعالى : « هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم »(٢).

ويقول جل شأنه : « لقد رضي الله عن المؤمنين، إذ يبايعونك تحت الشجرة، فعلم ما في قلوبهم، فأنزل السكينة عليهم، وأثابهم فتحاً قريباً »(٣).

---

(١) سورة التغابن آية ١١.

(٢) سورة الفتح آية ٤.

(٣) سورة الفتح : آية ١٨.

٣ ـ الربط على القلب :

وهو دليل على الإيمان السليم وثمرة من ثماره. فيخبرنا الله تعالى عن أصحاب الكهف فيقول : « إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى، وربطنا على قلوبهم، إذ قاموا فقالوا : ربنا رب السموات والأرض، لن ندعو من دونه إلهاً، لقد قلنا إذاً شططاً »[1].

ومن العلامات التي يتعرف بها المؤمن على سلامة قلبه :

٤ ـ نقاء القلب وتقواه :

فيما رواه ابن ماجه : « قيل لرسول الله ﷺ : من خير الناس ؟.

قال : كل مؤمن مخموم القلب.

قيل : وما مخموم القلب ؟.

فقال : هو التقي النقي، الذي لا غش فيه ولا بغي ولا غدر ولا غل ولا حسد »[2].

وسلامة القلب من هذه الموبقات من أبرز علامات القلب السليم والتي ركز عليها القرآن الكريم حينما وصف ركائز هذا المجتمع وحينما حدثنا عن صفات الرعيل الأول من هذه الأمة فقال مثنياً على الأنصار رضوان الله عليهم :

« والذين تبوّؤوا الدار والإيمان من قبلهم، يحبون من هاجر إليهم، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا »[3].

وبعد هذا الحديث العطر عن المهاجرين والأنصار يأتي الحديث عمن سيأتي من بعدهم :

« والذين جاؤوا من بعدهم يقولون : ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين

---

(١) سورة الكهف : آية ١٣ ـ ١٤.

(٢) رواه ابن ماجه جـ ٢ ص ١٤٠٦ من كتاب الزهد باب (٢٤) الورع والتقوى حديث رقم ٤٢١٦.

(٣) سورة الحشر : آية ٩.

سبقونا بالإيمان، ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا، ربنا إنك رؤوف رحيم »[1].

فإذا سلمت القلوب من هذه الأدران، وتطهرت من الحسد والضغينة، تفرغت لربها وآياته، فأحسنت استقبالها وادّكرت بها على أحسن وجه. أما إذا شغلت بعداوة المخلوقين فلا وقت عندها لربها وآياته، ولعل ذلك هو السر في أن الرسول ﷺ قد حذر من فساد ذات البين، وأخبر أن فساد ذات البين هو الحالقة التي تحلق الدين، وبالتالي فإن صلاح ذات البين هو المناخ الملائم لانتعاش الدين، والحالة المناسبة لاستقبال الذكر الحكيم.

ولذلك ـ أيضاً ـ كان الرسول ﷺ يقطع كل أسباب انشغال القلب فيقول : « لا يبلغني أحد من أصحابي عن أحد شيئاً، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر »[2].

فإذا تفرغ القلب بهذه الصورة الطيبة، فلم يعد فيه ما يشغله من آفات، سنذكرها بعد قليل إن شاء الله تعالى ـ صار قلباً رقيقاً ليناً، ولذلك فإن من علامات القلب السليم أيضاً :

٥ ـ لين القلب إلى ذكر الله :

قال تعالى : « الله نزَّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله »[3].

٦ ـ الوجـــل :

وهو الخوف من الله والفزع من عذابه، ويصف الله سبحانه أصحاب هذه القلوب السليمة بذلك حين يقول :

« وبشر المخبتين، الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم »[4].

---

(١) سورة الحشر : آية ١٠.

(٢) رواه أبو داود والترمذي.

(٣) سورة الزمر : آية ٢٣.

(٤) سورة الحج : الآيتان ٣٤ ـ ٣٥.

٧ ـ التفاعل مع آيات الله التي تتلى عليهم :

فيقول الله تعالى، بعد ذكر وجل القلب إذا ذكر جل جلاله :

« وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً »[(١)].

فهذه القلوب السليمة هي التي تنتفع ـ وحدها ـ بآيات الله فتزداد بها إيماناً. وهذا التفاعل القلبي مع آيات الله التي تتلى، ومع معاني الوحي التي تخرج من فم النبي ﷺ له مظاهر مرئية، منها : **البكاء** :

ففي حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه يقول :

« وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة، وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون »[(٢)].

« أتيت رسول الله ﷺ وهو يصلي، ولجوفه أزيز كأزيز المِرْجَلِ من البكاء »[(٣)].

وهذا القلب السليم هو القلب الذي يذّكر بالقرآن، وهو الجهاز الوحيد الذي يتفاعل مع وحي الله، يتلقى ما يبلغه عن الله كأحسن ما يكون التلقي، فيحتفظ به، ويترجمه إلى سلوك وعمل. ويظل هذا القلب في الانتفاع بوحي الله حتى يصل إلى الدرجات العلى من الصفاء، ويمد بالنور الذي يفرق به بين الحق والباطل، والبر والإثم. وقد بلغ أصحاب النبي ﷺ هذه الدرجة العليا. ولذلك رأينا آثار وحي الله في نفوسهم وفي مجتمعهم.

يقول النبي ﷺ : « لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدثون ـ يعني ملهمون ـ فإن يك في أمتي أحد، فإنه عمر »[(٤)].

(ومما روي أن عمر رضي الله عنه قال في أثناء خطبته وهو على المنبر : « يا سارية الجبل » حين انكشف لعمر أن العدو قد أشرف على

---

(١) سورةالأنفال : آية ٢.

(٢) أبو داود والترمذي.

(٣) أبو داود والترمذي.

(٤) رواه مسلم.

سارية فحذره لمعرفته ذلك. ثم يصدق سارية بعد ذلك على بلوغ صوت أمير المؤمنين إليه).

ويكفي أن تطالع صفحات من حياة الصحابة والتابعين لكي تقف على هذه النماذج الطيبة من القلوب السليمة.

علاقة القلب بالسمع والبصر :

والسمع والبصر هما النافذتان اللتان يتعامل بهما القلب مع العالم الخارجي. وقد حمل الإنسان مسئولية النافذتين مع القلب، ومنح إمكانية التحكم فيهما نظراً لأن ما يحيط بالإنسان من مرئيات ومسموعات قد يختلط أمرها فيصبح استقبال بعضها بالسمع أو البصر خطراً على القلب.

والقلب ذو حساسية مرهفة، فقد ينتعش ويزكى بنظرة اعتبار واحدة، وقد يُقْتَلُ بنظرة شهوة واحدة. ولعل ذلك هو السر في التحذير النبوي الكريم من فتح العين على ما حرِّمَ عليها، في قوله ﷺ : « النظرة سهم مسموم من سهام إبليس..... »

فالنظرة المحرمة سهم يقتل القلب لأنه مسموم. وإذا قتل القلب فلا حياة لصاحبه، ولذلك حينما أمر القرآن الكريم بغض البصر فقد أراد الحياة الطيبة للمؤمنين بسلامة قلوبهم من الشهوات : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم، إن الله خبير بما يصنعون »[1].

ويسمع الإنسان آية كريمة أو حديثاً شريفاً أو نصيحة طيبة أو أي قول نافع، فيتلقاه القلب السليم فيزداد بهذا السماع خيراً.

ويسمع الإنسان لغواً من القول أو فاحشاً من الكلام، فينفذ إلى القلب فيفسده وإذا فسد القلب فسد صاحبه..

من أجل ذلك اهتم الإسلام بالبيئة المحيطة بالإنسان منذ خروجه من بطن أمه، فأمر المحيطين بالمولود أن يسمعوه خيراً، وألّا يرى منهم إلّا خيراً، لأن تكوينه سينشأ ويتم من مسموعاته ومرئياته، فوجه الرسول الكريم ﷺ إلى أن يكون الأذان هو أول ما يطرق أذن المولود.

---

(١) سورة النـور : آية ٣٠.

والقرآن الكريم قد نبه إلى خطورة السمع والبصر والفؤاد في عملية التكوين الأولى ثم ما يتلوها حينما قرر أن الإنسان قد أخرجه الله من بطن أمه لا يعلم شيئاً، وجعل له سمعاً وبصراً وفؤاداً، أي أن بداية علمه وبداية تكوين شخصيته الفكرية ستكون بعد خروجه من بطن أمه بالسمع والبصر والفؤاد، « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون »[1].

فالسمع والبصر يبنيان القلب، وأيضاً يهدمانه. ومن أجل هذا كانت المسئولية. والمسئولية في هذا تتوزع على فريقين :

الفريق الذي يلقي، والفريق الذي يتلقى.

وطلب الإسلام من الفريق الأول ألا يسمع إلّا خيراً، ولا يرى منه إلّا الصالح، والذي ينتسب إلى الإسلام من أفراد وجماعات يلتزم بهذا، لأنه يعلم أن المؤمن ليس بطعّان ولا لعّان ولا فاحش ولا بذيء، ولأنه يعلم أيضاً أن الله تعالى سيحاسبنا على العمل، وعلى آثار العمل ؛ فمن سنَّ سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سنَّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة.

فإذا قام الملقي بهذه المسئولية والتزم بآداب الإسلام فيها، فإن المتلقي سيستريح، لأنه لن يسمع إلّا خيراً ولن يرى إلّا صالحاً. أما إذا لم يلتزم الفريق الأول بهذا وفرط في مسئوليته، فإن الفريق الثاني، إن أراد الحياة الطيبة لنفسه، فعليه بالجهاد، صيانة لبصره وسمعه، وحفاظاً على نقاء قلبه.

ولقد جاهد أصحاب النبي ﷺ في هذا الميدان جهاداً عظيماً، فصرفوا سمعهم عن البكاء والتصدية والغناء الفاحش ولهو الحديث، إلى كتاب الله عزّ وجل.

كما صرفوا أبصارهم عن مرئيات الجاهلية وصحائف النصارى واليهود إلى كتاب ربهم، وظل جهادهم هذا حتى صارت البيئة لهم، فعمروها بوحي الله، وعطروها بسلوكهم الإسلامي، فما يرى الناشئة إلّا إسلاماً متحركاً في

---

(١) سورة النحل : آية ٧٨.

كل مجالات الحياة، وما يسمع الناشئة إلّا ما يزكي هذا الجو الإسلامي الكبير.

ولكن أعداء الإسلام والذين لا يحبون الحياة الطاهرة النظيفة، مكروا مكرهم ووضعوا خطتهم للقضاء على هذه الأمة بذكاء خبيث استخدموا فيه قديماً حاسة السمع ولكنهم لم يفلحوا، ورد الله كيدهم في نحورهم.

فاستخدموا حديثاً حاسة السمع والبصر في تنفيذ نفس الخطة القديمة، ونجحوا. فما هي هذه الخطة ؟ وعلى أي أساس تقوم ؟

لقد أخبرنا الله تعالى بهذه الخطة على لسانهم حيث يقول جل شأنه :

« وقال الذين كفروا : لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تَغْلِبُونَ »[1].

فهم قد عرفوا مصدر القوة لهذه الأمة، وهو القرآن الكريم.

وأنه ما دام المسلمون يسمعون لهذا القرآن، ويستجيبون له، ويتفاعلون معه بالطاعة الكاملة، فإنه لا مجال للغلبة عليهم.

فرأوا أنه، لكي يتغلبوا على هذه الأمة، لا بد أن يسلكوا واحداً من طريقين :

١ ــ أَلَّا يُسْمَعَ لهذا القرآن. ولم يستطيعوا ذلك لأن الله تعالى قد يسر القرآن للذكر ــ كما رأينا.

٢ ــ إحداث اللغو فيه : ومعنى ذلك أنهم رأوا أنه لا بأس من سماع القرآن إذا أحدثوا اللغو معه، لأن القلوب عند ذلك لن تحسن استقبال القرآن الكريم، فلا تظهر آثاره عليهم.

فإشغال المسلمين عن القرآن باللغو والتشويش هو منهج أعداء الإسلام، ولكنهم استخدموا حاسة السمع لذلك في بداية الأمر، وفي وقتنا، ومن قبل بقليل استخدموا السمع والبصر.

---

(١) سورة فصلت : آية ٢٦.

في بداية الدعوة جاء عمر بجوامع من التوراة إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله، جوامع من التوراة أخذتها من أخ لي من بني زريق ؛ فتغير وجهه ﷺ. فقال عبد الله بن زيد الذي أُريَ الأذان، أمسخ الله عقلك، ألا ترى الذي بوجه رسول الله ﷺ. فقال عمر : رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً وبالقرآن إماماً، فسُرِّيَ عنه ﷺ. ثم قال : والذي نفس محمد بيده لو كان موسى بين أظهركم ثم تبعتموه وتركتموني لضللتم ضلالاً بعيداً، أنتم حظّي من الأمم، وأنا حظكم من النبيين »[1].

فلم يقبل النبي ﷺ أن يشغل مسلم عن كتاب ربه. أما في وقتنا الحاضر ـ ومن قبل بقليل ـ فقد شغل أعداء الإسلام المسلمين عن القرآن الكريم، مستخدمين في ذلك المسموع والمقروء.

وجرب أعداء الإسلام طرح الفكر الذي يتناقض مع الفكر الإسلامي، وتوصيله بأحدث الأساليب إلى المسلمين، وإثارة الشبهات حول الإسلام، مستخدمين في ذلك جهاز المستشرقين، وبعض أبناء المسلمين. ولكنهم في تلك المحاولة كانوا كالبعوض الذي أراد أن يحجب بأجنحته ضوء الشمس، لأن منهج الله سبحانه وتعالى لا يزيغ فيستعتب، ولا يعوج فيقوم، ولا يستطيع فكر بشري قاصر أن يزاحم وحي الله أو أن يقلل من قدره.

فلجأ أعداء الإسلام إلى أسلوب آخر حقق لهم أغراضهم بنجاح وهو إفساد قلوب هذه الأمة وسمعها وبصرها حتى لا تستطيع أن تتلقى كلام ربها. فاستخدموا لذلك الكلمة المسموعة والصورة المشاهدة، وضربوا على أوتار الشهوات، وساعدهم في ذلك أمران :

الأول : أن أجهزة التوصيل للكلمة والصورة قد غطت كل بيت من بيوت المسلمين.

الثاني : أن فريقاً من أبناء المسلمين ممن يتبعون الشهوات قد كفى أعداء الإسلام من الظهور المباشر لأداء هذه المهمة.

---

(١) للكبير وفيه أبو عامر القاسم بن محمد الأسدي، ولم أر له من ترجمه وبقية رجاله موثقون، كذا في مجمع الزوائد جـ ١ ص ٧٤ ـ وانظر جمع الفوائد جـ ١ ص ٣٠.

فسممت الكلمة، ولعبت الصورة دورها في إلهاب الغرائز، حتى أصيبت القلوب بالمرض.

والقلب إذا مرض لا يحسن التلقي عن الله ورسوله، فيسمع القرآن الكريم بأذنه، وتحول الشهوات بينه وبين تدبر ما يسمع، والتفاعل مع آيات ربه، والاستجابة لأوامر الله ورسوله ؛ ولذلك من الضروري أن نتعرف بدقة على الأمور التالية :

١ ـ كيف يمرض القلب ؟.

٢ ـ وما علامات مرضه ؟.

٣ ـ وكيف يعالج القلب المريض ؟.

أما كيف يمرض القلب ؟

فإن صاحب القلب إذا أصاب ذنباً نكتت في القلب نكتة سوداء. وهذه هي بداية المرض. فإذا تمادى صاحب هذا القلب في ارتكاب الذنوب اتسعت رقعة السواد وازداد القلب مرضاً.

فإذا استقبل بعينه أو سمعه ما حرم عليه وتفاعل القلب معه دب الداء إلى القلب واسوَدَّ. ففي الحديث الشريف : « إن الرجل ليصيب الذنب فيسوَدّ قلبه، فان هو تاب صقل قلبه »[1].

وعن حذيفة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال :

« تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً، فأي قلب أُشْرِبَها، نكتت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها، نكتت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين : على أبيض مثل الصفا، فلا تضره فتنةَ ما دامت السماوات والأرض. والآخر أسود مرباداً[2] كالكوز مجخياً[3] لا يعرف معروفاً، ولا ينكر منكراً، إلّا ما أشرب من هواه »[4].

---

(١) رواه الترمذي.

(٢) ممزوجاً بياضه بسواد.

(٣) منكوساً.

(٤) رواه البخاري ومسلم.

١ ـ العناد والتمرد على حكم الله ورسوله :

وقد صور القرآن الكريم الذين في قلوبهم مرض تصويراً يكشف عن حقيقة أمرهم إذا ما عرضت عليهم آيات الله سبحانه. ويزيد الله موقفهم بياناً حينما يذكر لنا موقف المؤمنين مع آياته الكريمة، فيقول القرآن الكريم في ذلك :

« وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول : أيكم زادته هذه إيماناً ؟ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون، وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون[١].

ومن العجيب أن الذي في قلبه مرض يدعي الإيمان بالله وبالرسول كما يدعي الطاعة، فإذا ما دعي إلى تطبيق حكم الله ورسوله فإذا هو من المعرضين. وهذا هو التصوير القرآني لنفوس مثل هذا المريض :

« ويقولون : آمنا بالله وبالرسول، وأطعنا، ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك، وما أولئك بالمؤمنين.

وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم، إذا فريق منهم معرضون. وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين.

أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا، أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله، بل أولئك هم الظالمون »[٢].

ويتبع هذا المرض القلبي، الذي يجعل المريض يعرض عن حكم الله ورسوله، إقبالٌ على حكم البشر (مع قصوره وثبوت عجزه)، ولذلك أيضاً علامات منها :

أ ـ تمجيد الفكر البشري وإعلاؤه، وتقرير دراسته على الناشئة المسلمة، وتنحية منهج الله عن مناهج التعليم، وتعمد تشويهه أمام أعين المسلمين، وعرض بعضه مشوهاً، والإعراض عن أكثره.

---

(١) سورة التوبة : آية ١٢٤ ، ١٢٥.

(٢) سورة النور : الآيات ٤٧ ـ ٥٠.

ب ـ ويتبع ذلك الانقباض إذا ارتفع صوت ينادي بتحكيم شريعة الله، والاستبشار إذا طرحت أفكار البشر، وطرح اللغو من القول :

« وإذا ذُكِرَ الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة، وإذا ذُكِرَ الذين من دونه إذا هم يستبشرون »[(١)].

ج ـ ونظراً لأن ما أقبلوا عليه من فكر بشري يعرض له من التغيير والتبديل والتعديل والتصويب الشيء الكثير، فإن هؤلاء في اضطراب دائم وتناقض مستمر.

٢ ـ الخداع والظهور بغير الواقع :

ويقول الله تعالى في ذمهم : « ومن الناس من يقول : آمنا بالله وباليوم الآخر، وما هم بمؤمنين. يخادعون الله والذين آمنوا، ومايخدعون إلّا أنفسهم وما يشعرون. في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً، ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون »[(٢)].

٣ ـ التطلع والتشوق إلى المعصية :

ولذلك علم القرآن الكريم النساء المسلمات بالتوجيه إلى نساء النبي ﷺ ـ ألا يخضعن بالقول حتى لا يطمع من كان في قلبه مرض. يقول تعالى : « فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض »[(٣)].

٤ ـ كراهية الجهاد :

لضعف يقينهم في الآخرة وشدة تعلقهم بالدنيا. يقول الله تعالى : « ويقول الذين آمنوا، لولا نُزِّلت سورة، فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت »[(٤)].

---

(١) سورة الزمر : آية ٤٥.

(٢) سورة البقرة : الآيات ٨ ـ ١٠.

(٣) سورة الأحزاب : آية ٣٢.

(٤) سورة محمد ﷺ آية ٢٠.

هذا هو القلب المريض وتلك بعض علاماته، فكيف يعالج مرض القلب ؟.

إن علاج القلب من مرضه أمر جعله الله ميسراً، وذلك من رحمته بعباده. فإذا عرفنا أن سبب المرض هو اقتراف الذنوب، فإن علاج القلب وصقله يكون بالتوبة الصادقة من هذه الذنوب، التوبة التي تعني اعترافاً من التائب بفعله الذنب وكراهيته لهذا الذنب، والعزم على عدم اقترافه، والرجاء أن يعفو الله عنه. فبهذه التوبة يذهب المرض ويصقل القلب. وقد مر بنا الحديث الشريف الذي يقول فيه النبي ﷺ : « ...... فإن هو تاب صقل قلبه ».

فإذا ما صفا القلب وطهر صار سليماً يحسن استقبال وحي الله جل شأنه، ويبقى الأمر الأهم بعد هذا في استمرار هذا الصفاء القلبي.

ويكون ذلك ـ بعد أن عرفنا علاقة القلب بالسمع والبصر ـ بارتفاع نسبة الشعور بالمسئولية في المجتمع المسلم (بما فيه من ولاة للأمور والرعية) لما يسمع ولما يرى، ويتبع هذا الشعور المرهف بمسئولية الكلمة المسموعة والصورة المرئية الرقابة الكاملة والمتابعة المتصلة من أولياء أمور المسلمين ليحاسبوا بدقة تامة من لا يلتزم بالكلمة الطيبة النافعة، ومن يظهر أو يظهر بصورة غير طيبة. ولقد زادت هذه المسئولية على الحكام المسلمين، وذلك لتعدد مصادر الكلمة والصورة، وسنتناول من تلك المصادر ماله دور بالغ التأثير على القلوب، لنرسم في هذا التناول الخطة الواجبة في هذا السبيل للنهوض بالمجتمعات المسلمة.

١ ـ المذياع والتلفاز :

وهما من أهم الأجهزة التي يسر دخولها في كل بيت. والجهازان لهما دوران متناقضان : البناء والهدم.

فإذا أردنا بالمجتمعات المسلمة خيراً ونهوضاً فلنسخر هذين الجهازين للبناء، ولنحذر كل الحذر من استخدامهما للتدمير.

وأقترح لذلك ما يأتي :

أولاً : تكوين مجموعة من العلماء المخلصين، الذين عرف عنهم الورع والغيرة الصادقة على الدين، والقيام بواجب الدّعوة إلى الله تعالى، وأن يكون أعضاء هذه المجموعة ذوي تخصصات في جميع فروع العلوم الإسلامية. وتقوم هذه المجموعة بوضع برنامج إسلامي متكامل لحياة المسلم والمسلمة، وبأسلوب ميسر يصل إلى العام والخاص من الناس.

وأن يبث هذا المنهج الواعي في الجهازين بأصوات جيدة وإخراج طيب.

وأن يختار لهذا المنهج أنسب الأوقات.

وبذلك نُكَوِّنُ في كل بيت مدرسة تلقن منهج الله يومياً بصورة مشوقة، فنملأ الفراغ ونصقل القلوب.

ثانياً : تدريب مجموعات من الشباب المسلم على الفنون التي لا تتصادم مع الإسلام حتى يقوموا بإعداد وتقديم البرامج الأخرى دون تناقض أو تضارب بينها. وحتى نطمئن على الكلمة الأمينة والصورة الحسنة التي تقدم.

ثالثاً : أن تفرغ مجموعة مسلمة غيورة لمتابعة ما يرى وما يسمع قبل أن يُبَثَّ، ويكون لها الحكم الفوري النافذ. وألا تقبل هذه المجموعة عملاً فيه أدنى مساس بالمفاهيم. فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه.

رابعاً : ألا يكون الهدف هو كمية ما يبث بل نوعية ما يبث. ولا حرج من التوقف إذا لم نجد الكلام، فرحم الله امرءاً قال فغنم أو سكت فسلم.

خامساً : أن يحاسب كل من يخالف (في الكلمة أو الصورة) أمراً إسلامياً محاسبة فورية، وأن يعزل عزلاً نهائياً عن بث الكلمة أو الصورة. وقد نفي المخنث وضرب المشكك حتى ذهب شكه.

سادساً : أن ترتفع في نفوسنا والقائمين على الجهازين مسؤولية الكلمة والصورة ونشعر بأهميتهما وخطورتهما. وأن يكون أمام أعين المتكلمين قول الله تعالى : « ما يلفظ من قول إلّا لديه رقيب عتيد »[1]، وأن

---

(١) سورة ق : آية ١٨.

يكون شعار الذين يقدمون الصورة قول الله تعالى : « إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم، وكل شيء أحصيناه في إمام مبين »[1]، فالله يحاسبنا على الكلمة، ويحاسبنا على آثار أفعالنا وما نقدمه فيتبعه غيرنا.

سابعاً : أن يتوقف البث في أوقات الصلاة تماماً وبمقدار كاف لصلاة خاشعة. وأن ينتهي الإرسال بعد صلاة العشاء بساعة على الأكثر، وأن يبدأ البث مع أذان الفجر، حتى يستقيم حال المسلمين مع الزمن، ولكي يناموا مبكرين ويستيقظوا مع السحر مستغفرين، وليبدأوا يومهم بنشاط وهمة.

١ ـ الصحف والمجـلات :

وهذه تحمل الكلمة المقروءة والصورة المشاهدة، ولكي تكون من أدوات النهوض بالمجتمعات المسلمة فينبغي أن تنطلق من الفكر الإسلامي الصحيح، وأن تحافظ على المناخ الفكري وتغذيه بمادة ترتفع بمستوى من يقرأها، وخاصة أن الذي يقرأها قد حصل نصيباً من المعرفة، وأن تكون أداة ربط لهذه المجتمعات المسلمة المتباعدة، وأن يقوم على هذه الأداة رجال فيهم روح الإسلام، والشعور بأن المسلمين كالجسد الواحد، فينقلـون إحساس المسلم الذي يقيم شرق الأرض إلى المسلمين في بقيتها حتى يتم التعارف والتآلف والتناصر والتآزر.

وألّا تسمح لنفسها (بمسئوليتها الحساسة للكلمة والصورة) أن تنساق وراء الكسب المادي فتقبل من الاعلانات ما يخالف الإسلام، أو تنشر من المقالات ما يتصادم مع الفكر الإسلامي. وأن لا تشغل الناس بما لا ينبغي أن يشغلوا به من تفاهات الأمور.

وأن يحاسب من يكتب على أسلوبه اللغوي، فلا يترك المجال للعبث بلغة القرآن الكريم حتى يتعود القارىء المسلم على لغة كتاب الله، وأن تكون تعليقاتها نابعة ومنسجمة مع المفاهيم الواضحة..

والأمر الأهم في ذلك إن تلزم الصدق والقول السديد، فلا تخادع، ولا تداهن، ولا تخش في الله لومة لائم.

---

(١) سورة يس : آية ١٢آ

ومسئولية ولاة الأمور في ذلك أن يكونوا ـ أيضاً ـ جهاز رقابة متخصص، فيه غيرته الإسلامية لكي يراقب ويحاسب بحزم من ينحرف عن السبيل المستقيم في كتابه أو عرضه لصور.

والموضوعات التي تحتاج إلى معالجة صحيحة لتقدم إلى الشباب المسلم في عالم اليوم الذي أثيرت فيه الشبهات هي الجديرة بالدراسة والتحليل، أما أن تملأ الصفحات باللغو من الكلام فهذا ما نهينا عنه.

وإن كان الرسول ﷺ قد أنكر على عمر قراءة صحيفة غير القرآن، فما بال المسلمين اليوم والصحف تشغلهم بأفكار تناقض القرآن.

واقترح في ذلك ألا يتاح النشر لكاتب في صحيفة أو مجلة يتداولها الناس إلّا إذا كان مسلماً صادق الإسلام، يعرف الإسلام ويدين به، ولا يلبس الحق بالباطل ويكتم الحق على علم منه.

٢ ـ المدارس والجامعات :

وهي الأماكن التي نلقي فيها بأبنائنا رجاء أن يتعلموا علماً نافعاً يؤهلهم لحياة إسلامية عزيزة متقدمة، فإذا بالنتائج على غير ما رجونا، ويرجع ذلك للأسباب الآتية :

١ ـ المعلم الذي يعلِّم.
٢ ـ المادة التي تُعَلَّم.
٣ ـ المنهج الذي يعلِّم به.
٤ ـ التلاميذ أنفسهم.
٥ ـ التناقض بين المدرسة وغيرها.

فالمعلم الآن ـ إلّا من رحم ربي ـ قد تعلم في هذه المدارس وتلك الجامعات وليست لديه الصورة الواضحة للمفاهيم الإسلامية، فقد ضلله الإعلام بوسائله، ولم ينل حظه من كتاب الله، فلم يستقم لسانه على الفصحى. فماذا يعطي ؟

والمادة التي يدرسها وضعها أعداء الإسلام فجردوها من روحها الإسلامية، وجعلوها تنأى بالمعلم والمتعلم عن فكر الإسلام الذي لا يعرف

التجزئة. وإنما يرى العلم والدين شيئاً واحداً. فيدرس الظواهر الكونية ويتعمق فيها ويكتشف أسرار هذا الكون وهو يشعر بأنه يؤدي فريضة، ويستجيب لأمر ربه « قل انظروا ماذا في السماوات والأرض »[1].

« فالخواجة » هو الذي عرّى العلوم بسلخ الدين منها فشوهت، وأقبل عليها المسلم بنفس متشائمة، ولذلك تأخر فيها.

أما في العصور الأولى فلم يحدث الفصل، فبرع المسلم في العلوم الكونية وقعّد القواعد وحدد المفاهيم العلمية.

ولذلك فالأمر في حاجة إلى تغيير شامل لما يدرس للطلاب المسلمين، وأرى في ذلك ما يأتي : ـ

١ ـ أن تفتح دور حضانة قرآنية إجبارية للأطفال منذ السنة الخامسة، يقتصر فيها على حفظ القرآن الكريم وتجويده، ومبادىء القراءة والكتابة والحساب.

٢ ـ أن تصنف المواد تصنيفاً جديداً تعاد فيها الروح الإسلامية.

٣ ـ أن تعرب العلوم الكونية حتى يدرسها الطالب العربي بلغته، فيبرع فيها ويطورها ولا يظل أسيراً لما يقدمه له (الخواجة).

٤ ـ أن توضع مواد إسلامية خفيفة الأسلوب تصحب المتخصصين في العلوم الكونية طيلة سنوات الدراسة.

٥ ـ أن تبقى الدراسات الإسلامية المتخصصة في كلياتها وأن يشجع الطلاب عليها.

وأما المنهج فهو أيضاً في حاجة إلى تغيير لأنه ليس من صنعنا إنما صنعه من لا يدين بديننا، وتقبلناه بقبول حسن فأنتج أنصاف المتعلمين. ولدينا منهجنا الإسلامي الذي له السبق والتكامل، لأنه منهج الله سبحانه وتعالى. ألم يقل ربنا جل شأنه لرسول الله ﷺ : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »[2] ـ أي القرآن الكريم ـ « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما

---

(١) سورة يونس : آية ١٠١.

(٢) سورة الحجر : آية ٩.

نزل إليهم »[1]. أي أن الله أنزل القرآن وأنزل بيانه.

أو قل بعبارة أخرى، علم الرسول القرآن وعلمه كيف يبين القرآن، أي علم المادة والمنهج.

ولو أننا أقبلنا على سنة نبينا ﷺ وعايشناها وتدبرناها لتوصلنا إلى هذا المنهج المتكامل العظيم. ولقد آمنت بهذا ودفعني هذا الإيمان إلى إجراء دراسة حول هذا المنهج فوجدت الطريق والحمد لله ممهداً ولا يحتاج منا إلى الأخذ بمفتاح وحي الله، ألا وهو التدبر. فإذا تدبرنا منحنا الله من كنوزه التي لا تفنى.

وما وصايا علم النفس التعليمي (في عملية التعليم والتعلم) بجانب هذا المنهج إلا كعبث الأطفال أمام جدية الرجال.

وأما التلاميذ فهم آثار إعلام ليست فيه المفاهيم الإسلامية المتكاملة، وآثار بيوت نتحدث عن أثرها الآن.

٣ ـ البيــوت :

والبيوت ـ كما نعلم ـ هي المكان الأول الذي يتعلم فيه المولود عن طريق الكلمة والمشهد. فإذا أردنا البنـاء فليعرف الوالد مسئوليته ولتعرف الأم مسئوليتها. في الملاطفة أولاً ثم التأديب ثانياً ثم المؤاخذة ثالثاً. ولكن البيوت قد ألقت العبء على أجهزة أخرى على المدرسة والجامعة وتركت التوجيه تركاً كاملاً.

ولو وجه بيت نحو الخلق الإسلامي وربي التربية الإسلامية لوجد في نفس البيت من يناقضه، فالشاشة أمام الأبناء وتأثيرها أقوى، والمذياع تحت أيديهم وتأثيره كذلك كبير. فماذا يفعل الآباء وتفعل الأمهات ؟ ومتى يكمل البنيان تمامه إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم ؟.

ومع كل ذلك فالأمر سهل إذا أردنا النهوض. ويمكن أن نوفر على الآباء والأمهات عناء التربية إذا جعلنا في كل بيت مدرسة، وذلك كما ذكرنا ـ آنفاً ـ إذ وظفنا التلفاز والمذياع لتوصيل المنهج الجديد الذي يربى عليه

---

(١) سورة النحل : آية ٤٤.

كل مسلم. إذا فعلنا ذلك فقد أحسنّا في تربية الأبناء وجعلنا مناخاً طيباً لتوجيه الآباء والأمهات. ولكن لماذا لا يحدث هذا وهو ميسور ؟ إن هذا لأمر عجيب.

٤ ـ الطـريـق :

والطريق ملك للجميع وليس خاصاً بأحد، ولذلك ينبغي أن يكون متسماً بالسمات الإسلامية فلا يحدث فيه أمر مخالف لخلق إسلامي، ولا يسعى فيه النساء على غير ما أمرهن الله به. ولا يحتج على ذلك بالحرية الشخصية لأنها حرة في مكانها الخاص، أما المكان الذي يشترك فيه جميع الناس ويمشي فيه البر والفاجر فإن ولي الأمر مسؤول عن صيانة الجميع بالضرب على المنحرفين والمنحرفات في الطرقات. فلكي تنهض المجتمعات فلا بد من إعطاء الطريق حقها من التستر وغض البصر وإفشاء السلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإماطة الأذى عنه.

٥ ـ الأســواق :

ويبرز فيها التعامل بين الناس ويترتب على هذا التعامل كثير من العلاقات الاجتماعية. فإذا ما تراحموا وكان الصدق شعارهم، والأمانة صفتهم، دعمت الثقة فيما بينهم. أما إذا سمعت الأيمان الكاذبة، وشوهدت صور من التحايل والغش فإن هذا هو الخطر على علاقات المسلمين وخاصة في التعامل المادي. ولذلك أقترح للنهوض بهذا المرفق الهام في حياة المسلمين ما يأتي :

أ) أن ينشأ معهد يقوم بتدريس الأحكام المتعلقة بالبيع والشراء والشبهات التي يمكن أن يقع فيها البائع والمشتري.

ب) أن تكون مدة الدراسة بهذا المعهد وجيزة لا تزيد على الشهر.

جـ) لا يسمح للتجار المتفرغين للتجارة والدائمين فيها بمزاولة هذا السبيل إلا بحمل شهادة من هذا المعهد تفيد أنهم استوعبوا أحكام الإسلام في البيع والشراء.

د) أن تكون الرقابة مباشرة في الأسواق حتى لا يتساهل في تلك الأحكام.

فإذا تم ذلك استراح البائع وربح واطمأن المشتري، دون أن نسمع أو نرى أمراً مخالفاً ومغضباً لله تبارك وتعالى.

٦ ـ دور السينما والنوادي والمقاهي :

ومعالجة هذه الأدوات هين، وذلك لأنها لا تذهب إلى الناس بل يسعى الناس إليها. فإذا ما أصلحنا الأدوات السابقة فلن تجد إلّا نضوجاً يفرق بين الغث والسمين. فلا يسعى الإنسان إلا إلى ما يجد فيه صلاحه وصلاح كل أمره.

وإذا أردنا نهوضاً بهذه الدور فلنلاحظ ما يأتي :

أ) ألا يكون الهدف من عرض الأفلام الحصول على أكبر قدر مادي بجذب أكبر عدد المشاهدين.

ب) ألا تستغل الغريزة الجنسية في جذب الشباب الذي أثير بالأدوات السابقة.

جـ) أن تعرف السينما دورها في تقديم ما يتلاءم مع الفكرة الإسلامية تلاؤماً كاملاً.

د) أن تربط العالم الإسلامي بعروض تقدم فيها حياة المسلمين في كل بلاد العالم ليقف على الحقائق جميع المسلمين.

هـ) الإمكانات الضخمة التي تنفق فيها الآن وهي بعيدة عن رسالتها الإسلامية توجه لإنتاج إسلامي جديد.

و) ما قلناه في التلفاز والمذياع من تدريب مجموعات مسلمة على أعمال فنية نافعة ضروري للقيام بهذا الدور.

ز) وحتى يتم هذا الاصلاح تتوقف دور السينما عن عرض أي فيلم فيه أدنى مخالفة للإسلام.

خ) أن يكون لجهاز الرقابة المسلم الحق الكامل في إسقاط العمل الذي لا يناسب.

ط) محاسبة من يخالف محاسبة فورية وإقصاؤه عن هذا الميدان.

وأما النوادي فيمكن الانتفاع بها لتقوم ببناء الأجسام مع برامج أخرى لبناء القلب والعقل. وأما إذا ظلت على حالها من بناء للأجسام فقط، ومع بنائها للأجسام تثيرها بما تقدمه لها من شهوات في صورة أفلام صارخة، فإن هذا هو التدمير وليس البناء.

وأما المقاهي فهي المكان الذي خصص لحرمان الآباء من الجلوس مع أبنائهم (ملاطفين أو مؤدبين)، وخصص أيضاً لقتل الأوقات وتضييعها فيما يغضب الله من ألعاب وسماع. في الوقت الذي فيه الواجبات على المسلم أكثر من الأوقات. ولا حاجة للمسلمين فيها.

ويبقى أخيراً الحديث عن المساجد، وجعلتها في آخر هذه الأجهزة لأنها والحمد لله مازالت بخير. وما زالت الكلمة الطيبة تخرج منها، والعمل الصالح يرى فيها. ولكن لي اقتراحات بشأنها حتى تعود عودة كاملة إلى رسالتها الأولى، فمن هذه الاقتراحات :

١ ــ أن يلتزم إمام المسجد في خطبه ودروسه بمنهج إسلامي متكامل يربي المسلم في عقيدته وسلوكه ومعاملاته وسائر حياته ــ ولا بأس بوضع ذلك المنهج بمعرفة رجال متخصصين لهم اهتمامات بارزة في الدعوة الإسلامية (كما ذكرنا في الاقتراح الخاص بالتلفاز والمذياع)، ولكن الفارق هنا هو أن هذا المنهج سيدرس بطريق إمام المسجد. والذي يحضر لدراسة هذا المنهج هم أهل الحي الذي يحيط بالمسجد وأي مسلم آخر.

غير أن أهل الحي يلتزمون بالحضور ــ وخاصة ــ إذا اختير الوقت الذي يناسب كل حي من الأحياء السكنية. والحاضرون سيكون منهم العامل والزارع والطبيب والمهندس والتاجر أي أنها لا تقتصر على فئة معينة.

٢ ــ أن يطبع هذا المنهج المتكامل في كتب وتوزع مجاناً على أهل الحي.

٣ ــ أن يكون لهذا المنهج فترة زمنية تحدد على أساس حجم هذا المنهج.

٤ ـ أن يعقد اختبار شفوي من مجموعة من العلماء لكل من يرغب من أهل الحي في نهاية الدورة.
٥ ـ الذي ينجح في هذا الاختبار يحمل إجازة بتدريس هذا المنهج.

والغاية من هذا أن يربط أهل الحي ببيت الله ـ وأن يحيط المسلم بكل جوانب إسلامِه بدلاً من تكرار خطب ودروس في أمور قتلت من كثرة الكلام فيها، ومل الناس من استماعها.

وأن نعيد صورة التلقي الأولى حيث كانت مجالس العلم تضم جميع الناس ويتخرج من تلك المجالس العلماء الكبار.

وأن نمحو تلك الأمية المتفشية حيث نجد الجهل بأمور هامة في الإسلام، ولا عذر لنا في الجهل بها.

ثم نعمل بذلك على الاكثار من الدعاة الذين سيدرسون هذا المنهج وكثير من بلدان العالم الإسلامي ـ الآن ـ يشكو من قلة الدعاة أو انعدامهم.

٦ ـ يلزم من ذلك أن تبقى بيوت الله مفتحة الأبواب في الليل والنهار حتى تتاح المدارسة لأبناء الحي في مسجدهم.
٧ ـ كما يلزم لذلك أن يكون في كل مسجد مكتبة عامرة بالكتب الإسلامية في كل التخصصات وتبقى دائماً مفتحة الأبواب.
٨ ـ أن تكون خطبة الجمعة ملتزمة بهذا المنهج ـ على الأقل ـ في الجزء الأول منها ـ وتكون للخطيب حرية (التعليق والنصح) على ما يحدث في العالم من حوله في الجزء الثاني منها.
٩ ـ أن يختار العاملون في المساجد من أئمة وعاملين على أساس صدقهم في إسلامهم واهتمامهم بالدعوة إلى الله على بصيرة.

وواضح من هذا أن النهوض بتلك الأدوات جميعها من مسئولية أولياء الأمور الذين مكنوا في الأرض بفضل من الله عليهم. لأن جهود الأفراد وحدهم لا تستطيع القيام بهذا. أو لو قامت بهذا ولم تكن عند ولاة الأمور همة النهوض بتلك الأدوات فسيجد الأفراد العنت والمضايقات. ولذلك فمسؤولية

ولي الأمر المسلم في ذلك كبيرة، وعليه أن يقوم بها يناصره فيها أولو العزم من المسلمين الصالحين، فيسلم القلب بتوبة صاحبه وينتعش المناخ الذي يحيط به، ويغذيه من وسائل الإعلام المسلم، والمدارس والجامعات المسلمة، والبيت المسلم، والطريق والسوق والسينما المسلمة والمسجد. وتصبح القلوب بذلك متفاعلة مع وحي الله فتأخذه بقوة وتطبقه بهمة، وتظهر آثار هذا التطبيق تقدماً مادياً يصحبه ويجاوره بل ويمتزج به تقدم وارتقاء روحي.

فنرى الآثار في عزة النفوس، وإبائها التبعية لأحد ممن لا يدين بالإسلام، ونرى الآثار في التكامل الاقتصادي بين إخوة توحدت شعائرهم فتوحدت مشاعرهم، وتآلفت قلوبهم، وصار ما عند بعضهم يصل إليهم دون عوائق. نرى الآثار في التقدم العلمي الرائد والاستعداد بالقوة لكل ما يواجه المسلمين في كل مكان من أرض الله الواسعة. نرى الآثار في صلاح حال المسلمين وفي تهيئة المناخ للناشئة المسلمة حتى تستنشق عبير الإسلام فتنمو عليه دون تناقض أو تضارب.

عندها ستخرج الشبيبة المسلمة فلا تجد تناقضاً بين توجيه حسن في المسجد يبنى وتدمير يراه في الشارع أو في غيره. سنرى الانسجام في كل شيء. سنرى الغرائز هادئة. وعندما يأتي وقت هيجانها ستجد المصرف الحلال الذي تهدأ وتسكن فيه. سنجد المجتمع الرباني الذي ارتضاه لنا ربنا حين قال لنا : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً »[1]. ولكن إذا تاب صاحب القلب المريض وصقل قلبه، ولم يجد تهيئة المناخ لكي يسمع طيباً ويرى حسناً.

وإذا أراد الصلاح لنفسه وقصر ولاة الأمور المسلمين في مسئوليتهم، وفرطوا في حق ربهم وحق شعوبهم، فحملوا أوزارهم وأوزار من يفسد من شعوبهم ــ فإن المسئولية لا تسقط عن الفرد المسلم، بل عليه أن يسلك سبيل الجهاد لحماية بصره وسمعه وفؤاده.

---

(١) سورة المائدة : آية ٣.

وقد وعده الله تبارك وتعالى بهذا الجهاد أن يهديه سبيل الرشاد، « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا. وإن الله لمع المحسنين »[1].

وقد مر بنا أن الذي يجاهد نفسه، فلا ينظر نظرة محرمة خوفاً من ربه، أبدله الله إيماناً يجد حلاوته في قلبه. ويجد حلاوة الإيمان في جهاده الذي يحرص به على ألا يعود إلى المعصية أو الكفر كما يكره أن يقذف به في النار.

وليعلم وهو في جهاده أنه يشق طريقه إلى الجنة فقد « حُفَّت الجنة بالمكاره وحُفَّت النار بالشهوات ».

ويظل في هذا الجهاد حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً. لأن الله تبارك وتعالى لا يترك الأمة إذا ارتدت عن دينها فترة طويلة حتى يأتي الله بقوم آخرين صالحين، « يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله واسع عليم »[2].

هذا ما منّ الله به عليّ من رؤية في معالجة أهم أمور المسلمين، وكيف ننهض بالمجتمعات المسلمة، ورأيت أن ذلك النهـوض لا يكون إلا إذا أحسنت هذه الأمة في تلقيها لوحي ربها وتفاعلها معه وتطبيقها له في كل حياتها دون تفريق بين أمر وأمر، فحرصت على معالجة القلب الذي هو أداة التفاعل في الإنسان وصلته بالسمع والبصر، ومسئولية ولاة الأمور والأفراد في ذلك، والأجهزة التي تستخدم هذه الحواس. فإن كانت الرؤية صائبة فذلك فضل الله، وله الحمد من قبل ومن بعد. وإن كانت سوى ذلك فأسأله أن يهدينا سواء السبيل. « إن أريد إلا الإصلاح مااستطعت، وما توفيقي إلا بالله. عليه توكلت وإليه أنيب »..

* * *

(١) سورة العنكبوت : آية ٦٩.

(٢) سورة المائدة : آية ٥٤.

القيادة في المجتمع المسلم

للأستاذ محمد صلاح الدين
محرر جريدة ديلي جسارات - كراتشي - باكستان



بسم الله الرحمن الرحيم

إن مشكلة القيادة ترتبط بالخصائص الذاتية للمجتمع وقوانينه الأساسية واستهدافاته وغاياته .. وفوق كل هذا، الأساس النظري العقائدي للمجتمع.

فصحيح أننا يمكن أن نستعمل كلمة « قائد » للدلالة على أي شخص قادر على توجيه غيره من أعضاء المجتمع لما يتمتع به من قدرات غير عادية أو الامتياز عليهم في ميدان نشاطه على أساس من المعرفة والخبرة والإدراك والحكمة وبعد النظر والقدرة على اتخاذ القرار والجلد وما يتمتع به من إقدام ومبادرة وصبر.

وعليه فإن سر القيادة يكمن في الفكرة والرؤية التي تؤدي دوراً مهماً في رسم الاتجاه وتحديد الغاية... والواقع أن كل الكفاءات التي يتمتع بها القائد تتضح الحاجة إليها في كل مراحل تقدمه نحو تحقيق غاياته.

ومهما علا شأن القائد وسمت شخصيته فإنه لا يمكن التعرف على قيمته الحقيقية إلا بربطه ونسبته إلى مجتمعه. فأعلى الديموقراطيين الغربيين كعباً قد لا يساوي شيئاً في مجتمع شيوعي. وبالمثل فإن أعظم القادة الشيوعيين لا ينتظر له أن يصل إلى القيادة في المجتمع الديموقراطي.

فإذا ما تطرقنا إلى مشكلة القيادة في المجتمع المسلم واجهتنا أفكار ووجهات نظر أهم وأعظم.

فالمجتمع المسلم يقوم على معتقدات معينة وله أهداف محددة، ويقوم على أساس إيماني يجعله يستلهم مصدراً معيناً للهداية حتى يحدد خطة للتصرف بادئاً من أبسط الشئون اليومية إلى القيام بأمر الحكم والدولة. ومن ثم فإن شخصاً يملك أرقى المواهب الإدارية ثم يفتقر في تكوينه الإيماني والفكري إلى التلقي من منبع الهداية فلا شك في أنه لا يصلح لشيء من القيادة في مجتمع المسلمين.

ونحن ـ في الحقيقة ـ نحتاج إلى القواد في ميادين السياسة والاقتصاد وعلم الاجتماع والتعليم والتقنين وغيرها من ميادين الحياة، ولا يكفي أن يتمتع هؤلاء بالحذق والكفاءة الأكاديمية والفنية في مجالاتهم، بل يلزم أن يكونوا متجردين لإسلامهم مؤمنين به ذوي عزم وتصميم على وقف كل قواهم وجهدهم للبعث الإسلامي والنهوض بالمسلمين.

ومما يدعو للأسف أن العالم الإسلامي لم ينجح حتى الآن في تبني وتربية هذا النمط من القادة على مستوى كبير، فنحن مازلنا نعاني نقصاً شديداً ونواجه حاجة ماسة في كل مجالات الحياة إلى أمثال هؤلاء الأشخاص الذين يمكن أن يصلوا إلى مستويات القيادة الإسلامية.

وهناك سببان أساسيان لهذا الوضع المؤسف :

١) وقوع أكثر بلاد العالم الإسلامي تحت وطأة الاحتلال الاستعماري البريطاني والفرنسي والهولندي وغيرها مما جعل شعوب هذه البلاد تفقد استقلالها. وفي أثناء فترة حكم الاستعمار أدخل نظام جديد للتعليم في غالبية البلاد المحتلة بغرض تخريج موظفين مخلصين.. وكان الأشخاص الذين يتخرجون تحت ظل هذا النظام يعينون كذيول وأدوات في مختلف قطاعات الحكومة. وحملت غالبية هذا الصنف من الناس راية استلهام علمانية (لا دينية) الغرب الديموقراطي.. وانتهوا إلى تقطيع أواصر ارتباطهم الفكري مع باقي المسلمين الذين ظلوا على استمساكهم بالإسلام.. وأخيراً حين حصلت هذه البلاد على الاستقلال الوطني وصلت كل السلطات السياسية والإدارية إلى أيدي هؤلاء الطغمة القليلة من ذوي الصبغة العقلية العلمانية.... ومن ثم فحين تحركت القوى الإسلامية فيما بعد

الاستقلال لإقامة نظام إسلامي كانت هذه الفئة هي التي سدت الطريق.. ومن ثم فقد تطور صراع القوى الإسلامية والقوى المعادية للإسلام.. في كل البلاد الإسلامية التي حصلت على استقلالها حديثاً.. وفي أثناء هذا الصراع استيقنت القوى المعادية للإسلام أن الناس لن ترضى ما لم يتغير النظام الاستعماري العفن. وانطلاقاً من هذا الفهم خرجت هذه الطبقات الحاكمة بالشعارات الاشتراكية إبقاء على سلطانهم وهيمنتهم، وهم حساسون للإسلام ـ فقط لأنهم غير مستعدين للتخلي عن الانفصالية السياسية والإقليمية التي أشربت بها قلوبهم من خلال نظام التعليم الاستعماري. نعم.. لقد تقبلوا الشيوعية كبديل.. أما الإسلام فكان شيئاً بغيضاً بالنسبة لهم.. وتستمر هذه الطبقة عقبة كؤوداً في طريق الإسلام إلا أنها ترخي قبضتها تدريجياً أمام ظهور القوى الإسلامية واضطراد قوتها.

٢) وسبب آخر لعدم توفر الكفاءات القيادية المطلوبة في المجتمع المسلم. تمثل في هذه القرون من الركود والتبعية التي تركت المسلمين متخلفين تماماً عن ركب العلوم وفنون الأداء التكنولوجي. وغيرها من النظم الحديثة.. وبرزت الحاجة إلى تعليم عال.. فلما كانت فترة ما بعد الاستقلال لم يكن بد من ابتعاث الأبناء إلى جامعات البلاد الخارجية مثل بريطانيا وفرنسا وألمانيا وكندا والولايات المتحدة الأمريكية لتحصيل ما يتيسر من علوم وفنون وتدريب.. ونظم التعليم في هذه البلاد جزء من كل متكامل.. فهو قائم على أيديولوجياتهم الخاصة بهم.. ويستهدف إيجاد قيادات لمجتمعاتهم هم.

وطالما أن نظام التعليم في الغرب قائم على أسس المادية والعلمانية ـ الانفصام عن الدين ـ فإنه سيؤدي إلى التأثير على عقول المسلمين الذين يدرسون على أساسه ومن هنا نستطيع تفسير ميول واتجاهات هذه الطبقات التي تلقت هذا التعليم.. فهم ليسوا فقط في حالة عدم اتساق مع قيمنا ونظمنا الإسلامية.. بل وفي حالة مناقضة وتناقض واضح مع تعاليم الإسلام.

فأولاً : إن التصور الغربي للحياة تصور ترفي يجري وراء المتعة. وهذا التصور الذي كان المثل أمام النخبة من المسلمين التي تلقت

تعليمها الغربي. ففي الغرب ظهر جنون التعالي في البنيان والجري وراء زينة الحياة وفاخر الأثاث والرياش وكل وسائل الترف والمتعة. وأن أسلوب الغرب في الحياة قد نفذ إلى مجتمعنا ولا أحسب أن أحدنا لديه الوقت الذي يستطيع أن يحصي فيه عدد الأشياء التي نستخدمها.. وهل هي من إنتاجنا.. وكم من المال ندفع في سبيل الاستمتاع بهذه الأشياء غير الضرورية من الواردات.

ثانياً : والمجتمعات المسلمة اليوم ترقد عرضة لهذه الحضارة الغربية القاتلة على أيدي هؤلاء الذين تعلموا على أيدي الغرب. فالأدب الهابط والأفلام الخليعة والملابس التي لا تستر عورة وتشف عن الفتنة.. وغيرها من وسائل التوجيه الخلقي والإفساد قد غزت مجتمعنا بصورة كاملة.. وتسببت في تعفن وفساد أخلاقي كامل.

لا شك في أن التعليم الأجنبي قد مكننا من مواكبة تطورات العصر الحديث وأعاننا على التقدم مادياً في مختلف الميادين إلا أننا إذا حاولنا أن نقيم موازنة لثمرة هذا التعليم لوجدنا الحاصل والأثر على ميادين الاجتماع والاقتصاد والسياسة قد دمر بشماله ما قد بنى بيمينه.

إن القيادة النابعة من النخبة المستغربة Westernized قد أشربت تماماً أسلوب القيادة الغربية.. وحتى إذا اتسمت بالإخلاص والحماس للإسلام فإنها تميل إلى أن تنهج نهج الغربيين فيما تتخذه من قرارات في كافة شئون الحياة العملية، لأنها لا تستطيع أن تنبذ وتتخلى عن الروابط الفكرية التي تربطها بالبيئة التي نشأت فيها.

ويستلزم هذا الأمر الانتباه إلى سرعة اكتفاء العالم الإسلامي ذاتياً في مجالات التعليم والتكنولوجيا بحيث توظف كل مواردنا في إقامة هيكل متكامل جيد للتعليم العالي.. بحيث ينتهي تماماً اعتمادنا على الغرب في هذا المجال.. والواقع أن مدارسنا ـ فقط ـ هي التي ينبغي أن تسد احتياجنا من القيادة التي تقوم بدورها المهم في إعادة بناء وتطوير مجتمعنا المسلم على الأسس المناسبة.

وإن القيادة التي نحتاجها إنما تنبت من طهارة الخلق والشخصية،

بينما يركز التعليم الأوروبي استهدافه في تحصيل الخبرات الأكاديمية والمهارة الفنية ـ ومن ثم فالناحية المعنوية (الخلقية) ليست ذات أهمية في حس الأوروبيين، ولذلك فإن كل الأفكار المثالية الأخلاقية تتقلص بصورة واضحة في الغرب. وطبيعي ألا نجد ـ حتى مجرد الأثر للمبادىء العليا الأخلاقية.. التي تتطلع إلى ترسية أساس تعليمنا المتميز عليها.

والآن نعود إلى السؤال الأساسي عن تصورنا للقيادة.. وما هو هذا التصور ؟ وما هو النموذج والمستوى من القيادة الذي قدمه لنا القرآن ؟ وما هي الصفات الأساسية لمثل هذه القيادة ؟

ويمكن أن تدلنا الدراسة الواعية للقرآن الكريم إلى أن الأنبياء إنما اصطفاهم الله لتعليم وهداية البشرية. وعلى النقيض من ذلك أورد القرآن بعض الحكام ـ مثل فرعون والنمرود وهامان.. وغيرهم.. كنماذج للقيادة السيئة التي أوردت الإنسانية موارد الهلاك والدمار. فالله يقول في سورة طه : (وأضلَّ فرعون قومه وما هدى) : ٢٠ : ٧٩)

والنبي محمد ﷺ، ليس آخر وخاتم النبيين فحسب، وإنما هو المثال الكامل للقيادة.. ولم يكن ما جاء به من وحي هو الوحي الخاتم فحسب وإنما كانت بعثته تجسيداً للأسوة والريادة في مجال التوجيه وإرشاد البشرية إلى طريق الخير وحتى يوم القيامة.. وهذه القيادة صالحة لكل الأزمان والأحوال. ويلزم كل من جاء بعده أن يتبعه ومن بين من يهتدون بهم خلفاء الرسول.

وحقيقة الأمر أن نموذج القيادة الذي قدمه الخلفاء الأربعة الأول : أبوبكر وعمر وعثمان وعلي (رضي الله عنهم).. لم يكن بدعاً وشيئاً آخر غير ما كان عليه الرسول، وإنما كان اتباعاً مخلصاً صادقاً للقائد الأول. وإنما كان نجاحهم قائماً على أساس كونهم أصدق أتباع محمد وأشدهم التزاماً بما جاء، وتاريخ الإسلام كله مصبوغاً بهذا المبدأ. وعلى طول زمن الأمويين والعباسيين والعثمانيين وغيرهم.. اضطردت هذه القاعدة وأثبت الحكام أنهم متبعون للقائد الأول.. وكانوا يعرفون بقادة المسلمين، سواء كانوا حكاماً أو معلمين أو أئمة مساجد. فعمر بن عبد العزيز، بالرغم من انحداره من أسرة

مالكة، حاز على شعبية لأنه التزم التزاماً كاملاً بالاقتداء برسول الله ﷺ.. وضم المؤرخون فترة حكمه إلى فترة الحكم الراشد للخلفاء الأربعة. وما استطاع واحد من حكام بني أمية أن يحقق مثل هذا الأمر.. ثم جاء وقت أحس فيه الناس أنه ليس من حكامهم ـ من العباسيين ـ من يلتزم بهدي رسول الله ﷺ فالتفتوا إلى الأئمة البسطاء يلتزمون أوامرهم ولا يقيمون وزناً لما يصدره من على العرش من أوامر ومراسيم. ولما جاهد ـ أور نجزيب ـ من المغول في الهند ليلتزم بالسنة النبوية تقبله الناس قائدا للمسلمين تتبعه جماهير المسلمين في زمانه، واليوم نجد المغفور له الملك فيصل وصاحب الجلالة الملك خالد يتمتعان بحب الناس، ليس فقط في المملكة العربية السعودية بل في كل العالم الإسلامي، لالتزامهم بسنة رسول الله ﷺ ولخدماتهم الجليلة للإسلام. وعلى نقيض ذلك نجد أن شاه إيران عوقب لما يضمه صدره من عداء للإسلام، وفي الباكستان أقدم الرئيس ضياء الحق على مبادرة لتطبيق الشريعة الإسلامية واقتفى أثر النبي في حياته الشخصية، ومن ثم فقد أصبح محبوباً ليس بين الباكستانيين فقط وإنما نال تأييد المسلمين في كافة بقاع الأرض.

وهذه الحقائق التاريخية والميل المستمر من جانب جماهير المسلمين، لهي شهادة جلية للحقيقة القائلة بأن للأمة قائداً واحداً وزعيماً فرداً، هو خاتم النبيين. وقد أفصحت هذه الحقيقة وأعلنت عن نفسها مرات عديدة. غير أنها ـ ولسوء ـ الحظ لا تلقى ما تستحق من الالتفات والفهم. إن فكرة خاتمية الرسالة كائنة في حسنا وعقلنا الباطن في الوقت الذي أخفقنا في جعلها واقعاً ملموساً في حياتنا.

إن المبدأ الأساسي في فلسفتنا عن القيادة هو اتباع قائد واحد في كل مجالات الحياة.. سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو تعليمية، تشريعية أو قضائية.. فبادئاً من أدنى مسئول إلى أعلى قائم بأمر المجتمع المسلم نجدهم يتطلعون إلى أخذ يد المسلمين بكل احترام ولطف وأمان وهم في ذلك متبعون مخلصون للقائد الحق الوحيد، فكل سلوكهم قائم على أساس التأسي برسول الله ﷺ.. والواقع أنه بقدر ما يظهر منه من نقاء وصدق تكون محبته والتعلق به.

وقد أعطى القرآن الكريم حكمه الواضح الصريح في أن النموذج الواجب الاتباع، وحتى يوم القيامة، إنما انحصر في شخص خاتم النبيين محمد ﷺ « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة » (٣٣ : ٢١).

في المجتمع المسلم لا يستطيع إنسان أن يرقى إلى مرتبة القيادة دون اتباع كامل للنبي.. فإذا ما بدأنا هذه البداية فلننطلق بحثاً وراء المكونات اللازمة للقائد المسلم في ضوء القدوة الحسنة.

١ ـ اجتناب الشـرك :

التوحيد هو أساس الإسلام، ووصف القرآن الشرك بأنه أكبر الكبائر.

« لا تشرك بالله، إن الشرك لظلم عظيم » (٣١ : ١٣)

« واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ».. (٤ : ٣٦)

« .. هو الله ربي ولا أشرك به أحداً » (١٨ : ٣٨)

وليس اجتناب الشرك هو العمل الوحيد الذي يلزم القائد المسلم، بل يطلب منه محاربة كل صور الشرك وإقامة التوحيد.

٢ ـ الإسلام والخضوع لله :

ونجد أن واحداً من المكونات المهمة لنموذج القيادة يقدمها القرآن على لسان رسول الله، « قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي. إن أتبع إلا ما يوحى إليّ، إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم » (١٠ ـ ١٥). وقد أبان القرآن أن طاعة الأقوام لأنبيائهم ليست لذواتهم وأشخاصهم، وإنما بأمر الله ولأنهم يحملون رسالة ربهم..

« وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله »... (٤ : ٦٤)

فإن طاعة الرسول في الحقيقة هي طاعة لله..

« من يطع الرسول فقد أطاع الله » (٤ : ٨٠).

٣ ـ طاعـة رسـول الله :

أما عن المكون المهم الثالث في القيادة الإسلامية، فهو طاعة النبي ﷺ فقد أمر الله المسلمين :

« .. أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ».. أي أننا أمرنا

بطاعة النبي كطاعتنا لله، غير أن الآيات المذكورة آنفاً توضح أن الطاعة للنبي ـ هي في الحقيقة ـ طاعة وخضوع لله، وعموماً فإن طاعة السلطات المشار إليها في الآية طاعة مشروطة، فالسلطات واجبة الطاعة طالما أطاعت هي الله. ويتضح هذا تماماً في الآية التالية :

« فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول ».... (٤ : ٥٩).

فواضح أن الاختلاف قد يقع من السلطات وليس من الله ـ سبحانه ـ أو نبيه ـ ﷺ ـ والسبيل الوحيد لحل هذا النزاع وفضه إنما يكون في ضوء الشريعة كتاباً وسنة. وهناك مكون ـ هو في الحقيقة نتيجة طبيعية لفهم هذه الآية ـ إن قيادة المجتمع المسلم لا يجوز لها أن تصدر قوانين تتعارض مع أوامر الكتاب والسنة لأن الاستسلام والخضوع الكامل ـ دون قيد أو شرط ـ لأمر الله وأمر الرسول من متطلبات الإيمان ومقتضاه.

« فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجَرَ بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلّموا تسليماً » (٤ : ٦٥).

٤ ـ التقوى :

من المكونات المهمة للنموذج المطلوب للقيادة الإسلامية :

« إن أكرمكم عند الله أتقاكم » (٤٩ : ١٣).

وتقرر هذه الآية المستوى القياسي والمعيار الذي يقاس عليه في المجتمع المسلم.

وقد أكد رسول الله ﷺ في خطبة الوداع (على عرفة) :

« كلكم لآدم وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ».

وقد اشترط الفقهاء عنصر التقوى في القيادة، وصح هذا في اختيار الخلفاء الراشدين.. وحين ترك عمر وصيته طلب أن ينظر إلى الأتقى.. ومن ثم فإنه لا يتصور أن يسند أمر المسلمين إلّا لمن يتوفر فيه هذا العنصر.

٥ ـ الخوف من الآخرة :

إن الخوف من الحساب في الآخرة أساس لكل عمل صالح، ولا

يتصور أن يخلو حس إنسان من هذه الرهبة ثم يكمل إيمانه.. فإن أسمى غايات المؤمن أن يكون من الفائزين في الآخرة.. فإذا ما آثر الآخرة الباقية على العاجلة الفانية حصل على السعادة حتى في هذه الدنيا، ولذلك فإن علينا أن ندعو « ربنا آتنا في الدنيا حسنةً وفي الآخرة حسنةً وقنا عذابَ النار » (٢ ؛ ٢٠١)

وان تفاهة هذه الحياة الدنيا ـ بالقياس إلى ما في الآخرة ـ قد أوضحته هذه الآية :

« قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لم اتقى ولا تظلمون فتيلاً » ومن واقع القرآن نجد أن الفوز الحقيقي إنما هو فوز الآخرة.

« قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً، رضي الله عنهم ورضوا عنه، ذلك الفوز العظيم » (٥ : ١١٩).

وان الشعور بالحساب في الآخرة ينتج في الإنسان فضيلتين :

١ ـ الشعور بالمسئولية

٢ ـ أسلوب التفكير المستقبلي.

فالإنسان بذلك يتعلم من الماضي دون أن يغرق فيه.. وهو يجاهد ليكون حاضره أفضل.. سعياً وراء مستقبل أكثر نجاحاً ترضى به نفسه.

وان السمة المميزة للقيادة الرشيدة تتجلى في نهوضها بالحاضر وسعيها نحو غد أفضل.

٦ ـ الأهليـــة :

إن كون القائد أهلاً لعبء القيادة شرط ضروري لتولي هذه القيادة « ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها »...

وقد وردت كلمة الأمانات بمعناها الشامل.. بحيث تشمل كل الموارد والطاقات.. فكل المسئوليات يجب أن يعهد بها إلى من هو لها أهل وعلى أعبائها قادر. والحق أن النبي ﷺ عَدَّ من الخيانة أن يختار الذي هو

أدنى دون الذي هو أفضل مع توفره ووجوده.. بحيث عَدَّ من علامات الساعة أن يسند الأمر لغير أهله.

ومن ثم ففي نظرتنا إلى قيادة المجتمع المسلم يلزم أن نهتم بأمر الأهلية والاستحقاق.. وفوق ذلك كله، فإن المسئولية الجماعية للأمة تنصبُّ على ضرورة اختيار الأصلح وتنحية من لا يصلح ولا يستحق عن مكان القيادة.

الاستخـــلاف :

إن مثال القيادة الذي يقدمه لنا رسول الله ﷺ لا تكتمل له ملامحه دون وجود الثقة.. والإسلام يعطي تصوراً شاملاً جداً عن الخلافة في الأرض. فهو لا يحصرها في الأمور المادية بل يجعلها تضم إليها كل الكون. فالله ملك كل شيء ومالكه.. فكل ما للإنسان، حياته وممتلكاته وقدراته ومهاراته.. ووسائله الاقتصادية ومؤسساته السياسية.. كل ذلك ملك لله، وعليه أن يستخدم كل هذه الأشياء وفق إرادة الله وحسب مشيئة المالك ـ الله ـ لأنه محاسب عليها في الآخرة.. لأنه اؤتمن عليها واستخلف فيها. وهنا يبرز عقد واجب الوفاء بين الله وبين المؤمنين. جاء في القرآن على هذا النسق :

« إنَّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنَّ لهم الجنة »... (٩ : ١١١)

وبتمام هذا العقد أصبحت كل الأشياء التي وهبها الله.. بما في ذلك الحياة نفسها.. أصبحت أمانة وموضوع الاستخلاف.. ومن ثم فليس هناك أي مبرر أو دعوى يمكن على أساسها الانحراف عن إرادة الله ومشيئته وتوجيهات رسوله بحيث يستغل ما استخلف فيه لصالح نفسه وبإرادته الحرة..

٨ ـ الشعـور بالمسئوليـة :

إن القيادة الإسلامية قد عهد إليها بمسئوليات جسام فيما يتعلق بحقوق الله وحقوق الناس.. كرعاية شئون المسلمين ورفاههم والدفاع عن أرض الإسلام ولإعلاء كلمة الله.

ومن المهم أن تظل القيادة يقظة مهتمة بهذه المسئوليات، وأن المدى الذي وصل إليه شعور رسول الله ﷺ ـ نفسه ـ بثقل هذه المسئوليات قد صوره القرآن الكريم :

« لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيزٌ عليه ما عَنِتُّمْ حريصٌ عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ».

وهذا الشعور بالمسئولية جعل الخلفاء الراشدين لا يقر لهم قرار حتى يكونوا دائماً على الجادة. وعلى الرغم من تسلمهم ذروة القيادة فما هدأوا وما استراحوا لأنهم يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة.

٩ ـ اليقظة والعملية (في القيـادة) :

إن المثال الذي قدمه لنا رسول الله ﷺ لم يكن نموذج قيادة مفكر أو فيلسوف أو رجل يجري وراء الترف العقلي.. لا تتجاوز جهوده ووظيفته وضع المصطلحات والقواعد.. وتنفيذ المبادئ البراقة، بل كانت حياته دفاقة ملأى بالفاعلية، وقد وهب حياته فداء لدعوته ـ لأنه ـ أي الرسول ـ وأصحابه مأمورون من رب العالمين بأن يكونوا مستعدين ـ نشطين ـ يستفيدون من كل القدرات المتاحة لهم :

« وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم ».... (٨ : ٦٠)

وقد بين الله أن رضوانه إنما يصيب العاملين المجاهدين من المؤمنين بحيث لا يستوون مع القاعدين والمتقاعسين :

« لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، فضَّلَ الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة، وكُلاًّ وعد الله الحسنى، وفضَّلَ الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً » (٨ : ٩٥).

« الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله، وأولئك هم الفائزون ». (٩ : ٢٠).

ولذلك فإن الفوز والفلاح في الدنيا والآخرة من نصيب من يدأبون

على الجهاد في سبيل الله ورفعة دينه.. ولا يضنون بأنفسهم وأموالهم أن يبذلوها في سبيل هذا الهدف المقدس.

إقامة السلام والأمان :

إن القائد المسلم مأمور أن يستخدم كل وسائله وقدراته لتحقيق السلام والأمن والأمان في كل العالم، وأن يزيل مظاهر الهرج والاضطراب وكل مظاهر الطغيان.

« تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً، والعاقبة للمتقين » (٢٨ : ٨٣).

إن القهر والفساد شر يؤدي ـ تلقائياً ـ إلى قتل كفاءة الشخص بحيث لا يستطيع أن يحمل أمانة القيادة.. وحتى ذرية الأنبياء لا بد لهم أن يمروا بهذا الامتحان، فحين جعل الله إبراهيم إماماً.. وطلب إبراهيم هذه الإمامة لأبنائه من بعده فأجابه الله تعالى بوضوح :

« لا ينال عهدي الظالمين »

١١ ـ الشدة على الكافرين والرحمة بالمؤمنين :

إن الرحمة ملمح مهم من ملامح شخصية القائد.. والتي تمثلت في شخص الرسول الكريم.. والقيادات من صحابته الذين رباهم.. فكانوا أشداء على الكفار رحماء بينهم كما حكى عنهم القرآن الكريم :

« محمدٌ رسول الله، والذي معه أشدّاءُ على الكفار رحماءُ بينهم »... (٤٨ : ٢٩)

وينبني على ذلك أن القيادة المسلمة يستحيل أن تمارس شيئاً من العنف والقسوة نحو المسلمين، لأن هذا يدخر لمواجهة الأعداء من الكافرين فقط.

١٢ ـ العدالة :

ألزم الله ورسوله أئمة المسلمين بالعدل.. وأمروا أن يسووا بين الناس دون النظر إلى جنسهم أو دينهم..

« وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل »

والواقع أن المعيار الذي وضعه الإسلام للعدل هو معيار لا يطال إليـــه..

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين، ان يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا، وإنْ تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً ». (٤ : ١٣٥)

وإن من أوجب واجبات القيادة الإسلامية إقامة شرع الله على الأرض، ويستحيل أن يتقبل المسلمون قائداً لا يصل إلى هذا المستوى من إقامة العــدل.

١٣ ـ الحكمة والقـدرة على الحكم :

يلزم ـ بالضرورة ـ أن يكون القائد المسلم حكيماً.. وقد وصف الله هذه الخصيصة في نبيه الكريم.

« يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم، ويعلمكم الكتاب والحكمة، ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون » (٢ : ١٥١).

ومعنى هذا أن عمل النبي ﷺ، لا ينحصر في إيصال كلمة الله والبلاغ فحسب، وإنما يستلزم قدرة خاصة على الإبانة وتجسيد معاني الكلمة من ناحية، وتطبيقها عملياً من ناحية أخرى.. وهذا الذي سماه القرآن الخير الكثير.

« يؤتي الحكمة من يشاء، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ». (٢ : ٢٦٩)

وقد أمر الله المسلمين أن يقدموا دين الله بأسلوب معين أساسه، الحكمة والموعظةالحسنة.

« أُدْعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنـة، وجادلهم بالتي هي أحسن » (١٦ : ١٢٥)

كما أمروا ألّا يعهدوا بشئونهم للسفهاء.

« ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً »... (٤ : ٥).

والله سبحانه لا يستوي عنده الحكمة وما عداها :

« قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون » (٣٩ : ٩).

١٤ ـ الشـــورى :

مهما علا كعب امرئ وسمت وحسنت أعماله.. وحتى في مجال الحكمة والحكومة وإدارة شئون الدولة.. فإنه مطلوب منه أن يسلك طريق الشورى. ومع أن النبي كان يوحى إليه فيتلقى التوجيه المباشر من رب العالمين إلا أنه كان يطلب المشورة ترسية لمبادئ مهمة في مجال الشورى ـ قد أمر من لدن الله.

« وشاورهم في الأمر » (٣ : ١٥٩)

وعلى ذلك تأسس المبدأ والسلوك في كافة أفراد الأمة.

« وأمرهم شورى بينهم » (٤٢ : ٣٨)

ولا يستثنى من هذه القاعدة قائد مسلم لأن في هذه القاعدة وقاية للأمة من الجنوح إلى « الدكتاتورية »، الطغيان.

١٥ ـ حسن الخلق :

الواقع أن اللفظ القرآني المستخدم في هذا المجال قد استوعب كل الصفات التي تناولناها آنفاً لأن الله حين أراد أن يمتدح نبيه ويصف شخصه الكريم ـ وفي إيجاز ـ قال :

« وإنك لعلى خلق عظيم » (٦٨ ـ ٤)

وحين أراد النبي أن يوضح دعوته ورسالته، وفي كلمات قلائل، قال :

« إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » (رواه أحمد، والبيهقي)[1]

وفي حديث آخر :

« خياركم أحاسنكم أخلاقاً » رواه مسلم[2].

---

(١) ورد باللغة العربية في الأصل الانجليزي.. ولم نقم بالتحقيق.

(٢) ورد باللغة العربية في الأصل الانجليزي.. ولم نقم بالتحقيق.

وفي عدة مواطن في القرآن نجد الإشارة إلى الصلاح والاستقامة جنباً إلى جنب مع تعليمات الحكمة والعمل.. لأن إقامة الأخلاق وتحقيق الاستقامة من أخطر مهام النبي.. ويستحيل على قائد مسلم أن يمضي في القيادة دون التخلق بالخلق، والمنتظر منه ليس الوقوف عند حد التحلي بهذه الأخلاق والوصول إلى الاكتمال بل يلزم ـ أيضاً ـ أن يعلم الناس ويحول بينهم وبين التردي في الخطأ والانحراف عن فاضل الخلق. ويضع القرآن ـ في هذا الصدد ـ قاعدة مهمة لقيادة المجتمع المسلم.

« والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله ».

والواقع أن هذه الآية تحدد اتجاه كل سعي وجهاد يلزم أن يمارسه الفرد أو الجماعة أو الدولة وأن يقيم عليه ويستمسك به، ومن الطبيعي ألا نعطي الثقة لقائد في المجتمع المسلم إلا إذا اتضح من واقع حياته إخلاصه والتزامه هذا الطريق.

هذه إذن بعض الصلاحيات الأساسية التي نلمسها ـ واضحة في الأسوة الحسنة.. رسول الله.

وان علينا بعد دراستنا لهذه المجالات ـ أن نطرح هذا السؤال : هل يمكن لنظام التعليم الغربي وبيئة معاهده التعليمية وكل ما تتميز به أجواؤه الثقافية.. هل يمكن أن يمدنا بقيادات من النوعية التي عرضنا لها وتحتاجها المجتمعات المسلمة ؟ لا شك أن الاجابة بالنفي.. ومما لا شك فيه أيضاً أننا يجب أن نزف تهانينا لأولئك الشباب القلائل الذين يعودون بعد أن ينهوا تعليمهم في الغرب دون أن ينسلخوا عن إيمانهم.. ولا يقدح وجود هذا العدد الضئيل الناجي في حقيقة أن هذه المعاهد يستحيل أن يتخرّج منها قيادات للمجتمع المسلم.

وعلينا أن نقيم نظاماً تعليمياً مستقلاً في بيئتنا مستمداً من عقيدتنا وديننا ليخدم ويحقق أهدافنا وغايتنا.. وكلما أسرعنا في كسر إسار العبودية الفكرية كان ذلك أفضل.

وتقع المسئولية الحقيقية في هذا الصدد على أكتاف أجيالنا الشابة..

فمن ناحية يلزم أن يشن شبابنا حرباً لا هوادة فيها على النفوذ الغربي في المجتمع المسلم وخاصة في مجال مواجهة اتباع الشهوات وسوء الأخلاق والجري وراء المادة... ومن ناحية أخرى على الشباب أن يقوم بالدور الرئيسي ليصوغ أفراد وجماعات المجتمع المسلم على نمط الأسوة والقدوة الكبرى محمد رسول الله ـ ﷺ ـ وفوق هذا فإن العمل الأكبر والأهم يتشكل في إقامة مراكز تعليمية ومراكز للأبحاث ضخمة لتنافس وترقى إلى مستوى معاهد الغرب ومؤسساته، وعلى الأجيال الحالية أن تبدأ بذلك حتى تعطي الفرصة وتمهد الطريق أمام الأجيال القادمة وحتى لا تحتاج هذه الأجيال القادمة إلى السعي إلى الغرب للحصول على التعليم.. بل يتلقون تعليمهم في جوهم النظيف المشبع بقيمهم الإسلامية.. ولعل واحدة من مميزات عدم الاعتماد على الغرب في مجال التعليم العالي سيتيح الفرصة أمام الكافة فلا يقتصر على أولاد الأغنياء وهم قلة.. وان في اتساع قاعدة التعليم العالي ـ والتخلص من ربقة التبعية لأوروبا سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وأخلاقياً كفيل بتوفير الفرصة للثورة الاقتصادية الاجتماعية التي نصبو إليها.. والتي بدونها لن نستطيع أن نتخلص من قبضة تبعية عقولنا وأجسادنا.. كما أننا لن نستطيع إيجاد القيادات الإسلامية التي يمكن أن تؤثر في الفكر الإسلامي والشخصية الإسلامية.

الإسلام والحضارة ودور الشباب

للدكتور محمود فوزي حمد
رئيس قسم الهندسة الميكانيكية - كلية الهندسة - الرياض



بسم الله الرحمن الرحيم

الحضارة لغة هي سكنى الحضر. وأخذت في العصر الحديث معنى اصطلاحياً، وهو ما تتمتع به أمة من الأمم في عصر من العصور وفي بقعة من بقاع الأرض من معرفة وعلم وثقافة، وما لها من أخلاق وعقائد ومبادئ وآداب، وما يربطها من نظم وقوانين وشرائع وطبائع وعادات وتقاليد، تنظم حياة أفرادها العقيدية والأخلاقية والاجتماعية والفنية والسياسية والاقتصادية. وغايتها تأمين حياة إنسانية كريمة، وسعادة مادية ومعنوية، وحرية ينطلق في رحابها العقل والفكر والنفس والوجدان.

وعلى هذا فأسس الحضارة هي : عقائدية وفطرية، وعالمية وإنسانية، فكرية وعلمية، تقنية وفنية، أخلاقية واجتماعية، سياسية واقتصادية.

والحضارة في اعتقادنا هي إيمان بمبادئ سامية وعقيدة إلهية حقة تتحلى بأخلاق فاضلة، ومسلك إنساني كريم، سواء سكن الإنسان الحضر أو القفر، أو قطن المدينة أو البادية.

والإسلام بعقيدته وعباداته وأخلاقه ومعاملاته وما يدعو إليه من وحدانية وعبودية لإله واحد، وحكم بدينه وقرآنه، هو الحضارة الخالدة بعينها، مشتقة أصولها وجذورها ومبادئها من تعاليمه ومبادئه الثابتة التي لا تتغير بتغير أشكال هذه الحضارة ولا بتعدد صورها وهياكلها.

ودور الشباب المسلم وواجبه يمليان عليه أن يأخذ بما جاء به القرآن ويهتدي بهدي النبوة، ويعمل جاهداً لإصلاح المجتمع ونشر الفضيلة والخير، ويسعى دائباً لإقامة حكم الله في الأرض وتطبيق شرعه ليكفل السعادة للبشرية، والحرية للشعوب ليقيم العدل والحق، وينشر السلام، ويعم الخير تحت راية الرحمن ولواء الإسلام.

* * *

الحضارة لغة هي سكنى الحضر وهي بمعنى المدينة وهي سكنى المدن وهي بخلاف البداوة وهي سكنى البادية أو الصحراء.

وعلى هذا فإن الفوارق بين عادات وطبائع وأخلاق سكان كل من المدينة والبادية، والاختلافات بين الأسس التي تبنى عليها الحياة في كل منهما تقدم التعريف لمعنى الحضارة.

وبهذا المفهوم صُور للناس حياة البداوة بأنها التأخر والجهل والتقهقر والبؤس وأن حياة الحضر هي حياة المعرفة والعلم والتقدم والنعيم.

وأخذت كلمة الحضارة معنى اصطلاحياً في العصر الحديث وانسلخت عن معناها اللغوي، وإن كانت لا تزال تحمل في جنباتها ذلك التصور الذي ألمحنا إليه سابقاً.

أخذت تدل على ما تتمتع به أمة من الأمم أو شعب من الشعوب في عصر من العصور وفي بقعة من بقاع الأرض من معرفة وعلم وثقافة، وما لها من أخلاق وعقائد ومبادئ وآداب، وما يربطها من نظم وقوانين وشرائع وطبائع وعادات وتقاليد، تنظم حياة أفرادها العقيدية والأخلاقية والإجتماعية والفنية والسياسية والإقتصادية. كل ذلك في سبيل تأمين حياة إنسانية كريمة وسعادة مادية ومعنوية وحرية ينطلق في رحابها العقل والفكر والنفس والوجدان.

ويُعرّف معالي الأستاذ محمد المبارك، في كتابه « الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية »، الحضارة بأنها : « مجموع المعارف العلمية والتشاريع والنظم والعادات والآداب التي تمثل الحالة الفكرية والاقتصادية والخلقية والسياسية والفنية وسائر مظاهر الحياة المادية والمعنوية

في مرحلة من مراحل التاريخ، وفي بقعة من بقاع الأرض سواء شملت شعباً أو أكثر ».

ويحدثنا في مكان آخر من نفس الكتاب عن غاية الحضارة قائلاً « إن غاية الحضارة الارتفاع بالحياة الإنسانية، والحياة الإنسانية معقدة كثيرة الجوانب. فإن فيها حياة فكرية عقلية، وحياة مادية وعلمية معاشية، وحياة نفسية خلقية، وحياة اجتماعية، إلى جانب الحياة الفردية، والحضارة الصالحة الخيرة هي التي ترتفع بهذه الجوانب كلها وتعدل بينها، فلا يظلم جانب منها جانباً آخر ولا ينمو واحد ولا يضمر آخر ».

وعلى هذا فإن أسس الحضارة هي :

عقيدية ، فطرية.

عالمية ، إنسانية.

فكرية ، علمية.

تقنية ، فنيـة.

أخلاقية ، اجتماعية.

سياسية ، اقتصادية.

وترتفع حضارة أي أمة بارتفاع هذه الأسس وتقدمها وتوفرها وتضافرها وتناسقها، وأي خلل في إحداها يؤثر قليلاً أو كثيراً على حضارة الأمة وقد يرفعها إلى السماء أو يهبط بها إلى الحضيض.

هذه الأسس لا تحمل نفس الأثر وليس لها نفس الأهمية في الوصول إلى الغاية وتحقيق الهدف.

هذه الأسس بعضها مادي وبعضها معنوي، بعضها يُؤَمِّنُ للإنسان حياة مادية سعيدة مريحة وبعضها يؤَمِّنُ حياة عقلية وفكرية كريمة، حياة نفسية ووجدانية، سامية في أهدافها ومراميها.

وأي حضارة في عقيدتنا لا تسمو بأفرادها فكراً ووجداناً، عقلاً وشعوراً.

أي حضارة لا تُؤَمِّنُ للناس حريتهم وكرامتهم.

أي حضارة لا يسود فيها الحق والعدل.

أي حضارة لا تُبنى على المودة والأخوة.
هي حضارة فاسدة ومدنية زائفة.

ولقد فهم بعضهم أن الحضارة هي العيش الرغد، هي المجون، هي احتساء الخمر ولعب الميسر والانخراط في الجنس والرذيلة.

لقد فهمها بعضهم بأنها الربا والزنا والخنا، أنها الرقص والتخنث والتقليد الأعمى للغرب في لباسه وعيشه وأخلاقه وتصرفاته.

لقد فهمها بعضهم أنها البعد عن الدين والقيم الأخلاقية الفاضلة والصفات النبيلة.

لقد فهمها بعضهم أنها البعد عن التقاليد الطيبة الموروثة والعادات الخيرة والتنكب للفضيلة والعقيدة.

لقد فهمها بعضهم أنها النطق بلسان أعجمي ولغة أجنبية، وفهمها بعضهم أنها الإلمام بالممثلين والممثلات والراقصين والراقصات ومعرفة أحوالهم ومخازيهم.

وفهمها بعضهم أنها الشرك والكفر والإلحاد.

وفهمها بعضهم أنها الرأسمالية أو الشيوعية أو الاشتراكية.

هذه المفاهيم، مع كل أسف جميعها، تسلب الإنسان إنسانيته وتبعده عن فطرته السليمة الطيبة، وتمرغه في الوحل أو تستعبده لآلهة خسيسة دنيئة : تارة هي المال، وأخرى هي المادة وثالثة هي الجنس، ورابعة هي الحكم والسلطة.

أَمِنَ الحضارة أن يكون من أكثر الناس رخاء وثراء أصحاب الحانات ؟

أَمِنَ الحضارة أن يكون أكثر الناس رخاء وثراء الفاجرات والعاهرات ؟

أَمِنَ الحضارة أن تُكرّم البغايا ويرفع شأن الراقصات ؟

أَمِنَ الحضارة أن تكسب الواحدة من هؤلاء في ليلة واحدة ما لا يكسبه علماء أمة وأئمة في سنة كاملة ؟

أَمِنَ الحضارة أن نجد شعوباً تئن جهلاً وتتضوَّر جوعاً وتشكو مرضاً وتموت ظلماً واستطالة ؟

أَمِنَ الحضارة أن تنفق الدول الملايين والمليارات في سبيل تكريم ما يسمى زوراً بالفن والفنانين، في إقامة النصب والتماثيل، وإحياء الليالي الساهرة ؟ وقرى بأكملها تحتاج إلى النور والماء، تحتاج إلى المسكن والمأوى، تحتاج الدواء والعلاج.

أَمِنَ الحضارة أن تخترع القنابل الذرية والأسلحة المدمرة والمواد الكيميائية المحرقة، والجراثيم المهلكة ؟ لاستئصال الشعوب وتدميرهم في سبيل الشيطان ورغبة في السيطرة والاستعباد.

أهذه هي الحضارة ؟

هل الحضارة طعام وشراب وعيش خلاب كذاب ؟
هل الحضارة كشف الصدور وتعرية النحور ؟
هل الحضارة غش وكذب ولهو ولعب ؟
هل الحضارة فسق وفساد وظلم واستعباد ؟
هل الحضارة رشوة وسلب وسرقة ونهب ؟
كـــلا !

ليست الحضارة تعرية للصدور وكشف للشعر.
ليست الحضارةِ في مراقصة النساء واستمرار البغاء.
ليست الحضارة في ارتداء أفخر الثياب وإطالة الشعر والكعاب.
ليست الحضارة في اقتناء الأثاث الوثير وسكنى القصور.
ليست الحضارة تقليد الغرب في الإيجاب والسلب.
ليست الحضارة في ارتياد دور السينما وأندية اللهو.
ليست الحضارة في لعب الميسر واحتساء الخمر.
كـلا وألف كـــلا.

ليست الحضارة أن نخلع ثوب الحشمة والفضيلة ورداء الأدب والعفة كلما قصدنا بلاد المجون وأرض الفساد، ولِمَ نقصدها إن لم يكن هناك

غرض نبيل، ومقصد شريف، وإن لم يكن هناك علم مفيد يبتغى، أو صناعة متقدمة تنشد، وتجارة خيرة ترتجى.

ليست الحضارة هجراً للغة الآباء والأجداد، وتحريك اللسان بكلمات أجنبية، كثيراً لا نحسن نطقها.

الحضارة في يقيني واعتقادي هي إيمان بالمبادئ السامية والتحلي بالأخلاق الفاضلة، هي التقدم في المعرفة الخيرة وفي العلم المفيد.

حضارة أمة هي تاريخها المشرق المشرف المليء بجلائل الأعمال.

حضارة أمة هي صناعتها الموجهة لخير الإنسانية وسعادة الشعوب وازدهارها.

حضارة أمة هي اقتصادها المبني على التعاون والصدق والأمانة، الموجه لعمارة الأرض ورفاهية الشعوب لا للاستغلال والإذلال.

حضارة أمة هي أخلاقها الفاضلة وعاداتها الكريمة وتقاليدها الشريفة.

حضارة أمة هي مسلك أبنائها في معاملة بعضهم وسلوكهم في معاملة أعدائهم وخصومهم.

حضارة أمة هي شرف الكلمة وصدق الوعد ووفاء العهد.

حضارة أمة هي إخلاص وأمانة وعزة وكرامة

حضارة أمة ضمير حي يتفجر في نفوس أبنائها بالخير والنبل والعطاء عند رؤية فقير أو مريض أو مظلوم أو يتيم..

حضارة أمة هي أدبها الرفيع وفنها البديع، هي فكرها النقي وقلبها التقي، التي كلها تسمو بنفوس أبنائها وتهذب طباع أفرادها وتوجههم نحو الخير والفضيلة، وتعلمهم الشهامة والكرامة، والبذل والعطاء والحب والإخاء.

حضارة أمة هي معتقدها الذي يفجر إنسانيتها الخيرة، ويهبها حريتها للانطلاق في دروب السداد وطرق الرشاد، ويفيض عليها بالطمأنينة والأمن، ويرشدها بتعاليمه الربانية إلى أفضل الأعمال وأشرف الأفعال، ويسددها بمبادئه الإلهية نحو السمو والرفعة والإباء.

أي حضارة لا تؤسس على العقيدة الحقة والأخلاق الفاضلة هي

حضارة زائفة بل هي رجعية وفساد، وظلم واستعباد.

ويحدثنا الدكتور مصطفى السباعي في كتابه « من روائع حضارتنا » : « وكلما كانت الحضارة عالمية في رسالتها، إنسانية في نزعتها، خلقية في اتجاهاتها، واقعية في مبادئها، كانت أخلد في التاريخ، وأبقى على الزمن، وأجدر بالتكريم ».

والإسلام هو المنهج الرباني الخالد، الذي أنزله الله عز وجل على رسوله محمد بن عبد الله ﷺ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور يعبدون الله لا يشركون به أحداً.

والإسلام : عقيدة، وعبادة، وأخلاق، ومعاملات.

الإسلام إيمان بإله واحد لا إله إلّا هو الحي القيوم له ملكوت السماوات والأرض وهو الخالق المصور الحاكم المدبر.

الإسلام إيمان بالله وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره.

الإسلام شهادة أنْ لا إله إلّا الله وأن محمداً رسول الله.

والإسلام عبودية لله عز وجل وحده وإفراد له في الحاكمية والألوهية، والحكم بشريعته التي جاء بها القرآن الكريم، وبهدي محمد عليه الصلاة والسلام.

« ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » (المائدة ٤٤)

والإسلام صلاة وزكاة وحج.

والإسلام دعوة إلى الخير والعدل والحق والصلاح، دعوة إلى الأخوة والمحبة والمساواة، دعوة إلى العزة والكرامة والشهامة، دعوة إنسانية لا تعرف قومية ولا عنصرية ولا تميز بين أسود وأبيض ولا بين رجل وامرأة ولا بين غني وفقير ولا بين حقير وأمير.

(يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم) (الحجرات ١٣).

(ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) (آل عمران ١٠٤).

﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾ (آل عمران ١١٠).

دعوة ربط فيها خير الدنيا بخير الآخرة، فالإحسان والصدق والإخلاص بل المودة والمحبة سبيل الجنة، وبهذا يقول عليه الصلاة والسلام محمد بن عبد الله :

« لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه، والذي نفس محمد بيده لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولن تؤمنوا حتى تحابّوا ».

هذا هو الإسلام دين الفطرة، وتلك هي الحضارة الحقة الخيرة. والمتأمل لأسسها وأركانها، والمدقق في أهدافها وغاياتها يجدها نبتة من نبتات الإسلام وأسس من أسسه ومعالم من معالمه، وعامل من عوامله.

وان ما يدعو إليه الإسلام هو الحضارة التي فيها خير الإنسانية جمعاء هو المدنية التي تسعد فيها البشرية برخاء، وتعيش معها في رغد وأمان، وراحة واطمئنان.

وان ما يأمر به الإسلام هو الحضارة التي لا تذبل على مدى العصور ولا تخبو على مر السنين. حضارة تضيء بنور الله وتخلد بخلود كتابه وتسمو بهدي رسوله.

فالمسلم المؤمن المطبق لتعاليم ربه هو متحضر بانتمائه للإسلام، متحضر بأخلاقه ومسلكه ومعاملاته، متحضر بمسكنه وملبسه ومأكله. سواء سكن الصحراء أو الحضر، وسواء عاش في بادية أو مدينة، وسواء نام على الأرض أو السرير، وسواء لبس الكتان أو الحرير، وسواء هو غني أو فقير، وسواء هو سوقة أو أمير.

إن حضارة الإسلام مبنية على أسسه ومبادئه، مشتقة من أصوله وتعاليمه التي هي ثابتة صادقة على مدى الزمن ومر العصور. وقد تتخذ هذه الحضارة أشكالاً متعددة أو صوراً مختلفة في تركيبها المادي وبناء هيكلها،ولكن تبقى الأسس ثابتة والأصول مستقرة راسخة، لا تتغير بتغير الزمان والمكان ولا تتبدل بتبدل الأحوال والظروف ولا بتعدد الأشكال واختلاف الصور.

أصول هذه الحضارة ومقوماتها كما لخصها الشهيد سيد قطب في كتابه معالم في الطريق :

« العبودية لله وحده.

التجمع على آصرة العقيدة فيه.

استعلاء إنسانية الإنسان على المادة.

سيادة القيم الإنسانية التي تنمي إنسانية الإنسان لا حيوانيته.

حرمة الأسرة.

الخلافة في الأرض على عهد الله وشرطه.

تحكيم منهج الله وشريعته وحدها في شئون هذه الخلافة.

إن أشكال الحضارة الإسلامية التي تقوم على هذه الأسس الثابتة تتأثر بدرجة التقدم الصناعي والاقتصادي والعلمي »

حضارة شيدت على العدل ليكون أساساً للملك « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » (النساء ٥٨)

حضارة أسست على مبدأ القصاص في الحياة (ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون) (البقرة ١٧٩).

حضارة قامت على الفضيلة والعزة والشهامة.

حضارة أسست على الصدق والصبر (.. الصادقين والصادقات والصابرين والصابرات.. أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً) (الأحزاب ٣٥)

حضارة بنيت على أسس عقيدية إلهية متينة ومبادىء علمية نفسية عميقة، وأصول تربوية واضحة، علمت الإنسان الحر المسلم كيف يلين لأخيه ومتى يثور لكرامته :

(يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم) (المائدة ٥٤).

حضارة أسست على إجلال العلم وتقدير العلماء.

(يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) (المجادلة ١١).

حضارة غايتها العبادة (وما خلقت الجن والإنس إلّا ليعبدون) (الذاريات ٥٦).

حضارة تخاطب معتنقيها (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً) (البقرة ١٤٣).

حضارة تعلم أصحابها (فبما رحمة من الله لِنْتَ لهم، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم) آل عمران ١٥٩).

حضارة تؤكد :

(والعصر إن الإنسان لفي خسر إلّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) (سورة العصر).

حضارة تعلن :

(فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) (الزلزال ٧ و ٨).

حضارة تحض على الجهاد في سبيل الله والدفاع عن المستضعفين (وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان) (المائدة).

حضارة هذه مقوماتها وأوصولها وتلك صفاتها، حكمت شعوباً مختلفة لم تفرّق بين قويهم وضعيفهم، غنيهم وفقيرهم، مسلمهم وذميهم، مجوسيهم وصابئهم، بشريعة سمحة ونظام عادل ومبادئ فاضلة، وكان أكرمهم عند الله أتقاهم وأحبهم إليه أكثرهم رأفة بعباده وأوصلهم للقربى وأشدهم عطفاً على الفقراء ومساعدة للضعفاء، ولهذا علت دولتها وسمت مدنيتها وانتشرت تعاليمها وخفقت رايتها على البشرية بالسعادة والخير والهداية.

حضارة هذه أسسها وتلك هي مقوماتها هي حضارة حية لا تبلى جدتها ولا تخمد جذوتها، هي حضارة عالمية بنيت على عقيدة إلهية لها

فهم واقعي وحقيقي للحياة وقيمها وتفسير منطقي للتاريخ والمجتمع. بنيت على عقيدة حررته من شتى أنواع العبودية وجعلت الحاكمية لله وحده. وبنيت على شريعة من عند الله حققت له إنسانيته وسعادته.

حضارة سمت مبادئها وبرزت جلائلها وشعت فضائلها في ميادين الفكر والفن، في ميادين العلم والأدب فعلا سعدها، وخفق علمها، وطار صيتها، وساد بنوها، وملكوا الأرض وحرروا البشرية من الظلم والظلام، من العبودية والاستعباد، من الذل والفساد.

حضارة دانت لها البلاد وشغف بها العباد.

حضارة أخذت بالألباب، ومالت لها الرقاب، إجلالاً وحباً.

حضارتنا هي إسلامنا، برزت مشرقة في أخلاقنا ومعاملاتنا وبدت جلية في تقاليدنا وعاداتنا في رحمتنا وتسامحنا.

حضارتنا هي عقيدتنا سمت في ميادين العلم والمعرفة نوراً واختراعاً وفي ميادين الأدب والفلسفة فكراً وإبداعاً. وفي مجالات التشريع والقانون عدلاً وحقاً، وفي مجالات الاقتصاد والاجتماع نظاماً وخيراً.

حضارتنا هي شريعتنا بدت واضحة في تاريخنا وآثارنا العلمية والفلسفية والأدبية، وظهرت ساطعة في مخترعاتها العلمية وقصورنا ومدننا وفننا.

حضارتنا تجلت فيما خلفنا من مكتبات ومستشفيات ومدارس ومعاهد.

حضارتنا تجلت حتى في حروبنا وفي معاملاتنا لأعدائنا وأسرانا، وبرزت في معاملاتنا لليهود والنصارى والطوائف الأخرى.

وأمة أدَبها القرآن.

فكان الإسلام دينها فتصدت للجاهلية وحاربت الإلحاد، ورفضت الشرك وحطمت الأصنام.

وكان الإسلام عقيدتها فنبذت الأفكار الفاسدة والمبادىء المستوردة والمدنيات الدخيلة.

وكان الإسلام هويتها. فعادت القبلية والقومية والعنصرية.

وكان الإسلام خلقها فعُرِفت بالتقى والصلاح، والصدق والأمانـة، والعدل والحق، والرحمة والشفقة، والعزم والحزم، والشجاعة والقوة، والصبر والحلم.

فهمت أن المال والثروة التي وهبها إياها الله عز وجل هي أمانة لديها لا تنفق منها إلا بميزان الحق والخير.

وفهمت أن الصحة والقوة نعمة أنعمها الله على الناس ليعبدوه ويقوموا بخلافة الأرض على أسس الفضل والخير والتقى والحق.

وفهمت أن السلطان والحكم عبء وأمانة، وتكليف لا تشريف، وخدمة لا تسلط، ورعاية لا جبروت.

وفهمت حق الجار والمريض والفقير.

وفهمت وصانت حق الذمي والكتابي والعدو والمحارب.

أي أمة في التاريخ تحتل بلاداً أو تدخل أرضاً ويقاضيها المغلوب إلى قاض منها فيحكم على جيشه بالخروج وإعادة البلاد إلى أهليها، أي جند هؤلاء الذين أطاعوا قرار قاض يحكم عليهم بإعادة بلاد بكاملها إلـى أهليهابعد أن تم لهم النصر واستولوا عليها وحكموها. وأي جند هؤلاء الذين سَحَروا بمعاملتهم المثلى وسلوكهم الفـاضل قلـوب أعدائهـم وأفئدتهـم فجعلوهم يقبلون بهم حكاماً ويرضون بهم قضاة وولاة وبعد أن قضي لهم ورغم استردادهم لحريتهم وأرضهم. قبلوا ذلك بعد أن لمسوا عدل الغالب ذلك العدل الذي حلموا به دائماً فوجدوه محققاً، ورحمة المنتصر تلك الرحمة التي طالما تمنوها طول حياتهم.

أي أمة في التاريخ عاملت أسراها وأحسنت إلى أعدائها كالمسلمين في حربهم وسلمهم. هذه وصاة أبي بكر رضي الله عنه وأرضاه إلى جنده، وهذا عفو صلاح الدين بعد نصره، أمثلة ما عرف التاريخ لها شبيهاً.

أي جندي حدثتنا عنه الحرب يبتر فيها ساعده ويبقى عالقاً بكتفه فلا يشكو ولا يهدأ ولا يفتر، حتى إذا ما أعاقه، وهو يتدلى على جانبه، عن

الحرب، وضع كفه تحت قدمه وتمطى حتى خلع ساعده ورماه واستلّ سيفه وتابع جهاده يريد الشهادة أو النصر. أي جندي هذا وأي عقيدة وجهته وأي إيمان سما به وأي شجاعة وبطولة وصبر تجعل منه ثورة عارمة وروحاً محلقة في نور الله راغبة في جنته فلا يشعر بألم ولا يهوله دم ينزف ولا موت يزحف.

هذه هي الحضارة وهذا هو الإسلام، هذه هي مدنيات الأرض وهذه هي حضارة الإسلام، هذه هي فلسفات الأمم الأخرى والدعوات المختلفة والمذاهب المتباينة وهذه هي عقيدة الإسلام وفلسفته.

وهذا ما كان عليه ماضينا وما بلغه أجدادنا من سؤدد وشرف ومجد وما كانوا عليه من قوة وسلطان ومن علم ومعرفة. هم قرأوا القرآن ففهموه ديناً ودولة مصحفاً وسيفاً، فهموه رحمة وعدلاً، فهموه علماً وعملاً. قرأوا القرآن فظهر في قلوبهم إيماناً ويقيناً، وفي أفئدتهم عدلاً وحقاً، وفي عقولهم علماً وعملاً وفي وجدانهم رحمة وحباً، وفي دمائهم عزماً وحزماً وفي سلوكهم خيراً وفضلاً. اعتصموا بحبل الله فجمع شملهم، وأنابوا إليه فقواهم وأيدهم، نصروه فنصرهم وعبدوه فأحياهم. أطاعوا أمره فآتاهم نصره.

حضارة هذا مبلغ إبداعها وسموها، فلماذا يخبو نورها وينقطع إشعاعها ويجافيها أبناؤها ويخذلها بنوها.

أمة هذه مقوماتها ومواصفاتها، هذه أصولها ومبادئها، هذه تعاليمها وعقائدها، فماذا أصابها ؟ ما حل ببنيها ؟ وجرى لرجالها وحملة لوائها ؟.

ويتساءل معي المستشرق « كارادیفو » عن سبب توقف العلم عند المسلمين ويقول : إنه لا يجد ضرورة في نفسه لمحاولة البحث عن السبب.

فهل نجد نحن أحفاد المسلمين أسباب تأخرنا وسر خمولنا ودواعي ذلنا وصغارنا، وسبق الأمم لنا واستعمارهم إيانا ؟

نعم هل نجد السبب ونعرف العذر ونكشف السر ؟

إنه دور الشباب المسلم ليشمّر عن سواعده ويعرف دوره في هذه الحياة ليعيد للمسلمين رفعتهم ويبني لهم دولتهم ويرفع لهم رايتهم. أجل إنه دور الشباب المسلم ليعقد النية ويحزم الأمر ويؤكد العزم على نصرة الإسلام ورفع راية القرآن وعبادة الله تعالى وحده.

أجل ما هو دور الشباب المسلم ؟ أو ما يجب أن يكون عليه دوره ؟ ما هو واجبهم نحو دينهم وبلادهم وأمتهم، نحو مقدساتهم وتقاليدهم وأخلاقهم ؟

دورهم أن يعملوا ليقيموا حكم الله في الأرض خالصاً نقياً كما جاء في قرآنه وسنة رسوله.

دورهم أن يسعوا ليعيدوا اليقين إلى قلوب المسلمين بدينهم وعقيدتهم، وليتمثلوه عقيدة وعبادة وسلوكاً وأخلاقاً.

دورهم أن يجدّوا ليدفعوا عن أمتهم الجهل والفقر والمرض والخمول.

دورهم أن يتكاتفوا ليرفعوا عن شعوبهم الذل والجبن والعبودية ويعيدوا إليهم العزة والشجاعة والحرية.

دورهم يأمرهم أن يبعدوا عن إخوانهم شبح اليأس والقنوط ويُحيوا في نفوسهم الصبر والتجلد والأمل.

دورهم يأمرهم بالعبادة والسلوك الفاضل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

دورهم يأمرهم أن يأخذوا بأسباب العلم والمعرفة والصناعة والتجارة وأن يكون لهم دورهم الكبير فيها جميعاً.

دورهم يأمرهم أن يُشيعوا المحبة والأخوة والرحمة وأن يدعوا إلى التكاتف والتعاون والتغافر وأن ينشروا العدل والحق والخير والمساواة.

دورهم يدعوهم للتضحية في الجهد والوقت والمال ويأمرهم بتقديم العون والمساعدة للمحتاج والفقير والمريض.

دورهم يدعوهم للسعي في توحيد صفوف المسلمين وأفكارهم وأهدافهم.

دورهم يأمرهم أن ينتشروا في الأرض داعين لله عز وجل، مبشرين بدينه.

دورهم يأمرهم أن يقيموا الندوات والمؤتمرات، يناقشون فيها أمورهم ويتدارسون فيها أحوالهم ويتخذون من الأسباب الفعالة لجلب الخير لأمتهم

ودفع الشر عنها.

دورهم يدعوهم للكتابة والتأليف والنشر ليبلغوا دعوة الله وينشروا الحق ويدفعوا الظلم ويفضحوا الكذب ويقضوا على الفساد.

دورهم يدعوهم أن يتميزوا بأخلاقهم وسماتهم، بأقوالهم وأفعالهم فلا تسيطر عليهم ثقافة منحلة أو لغة أجنبية أو لباس غريب أو عادات فاسدة.

دورهم يدعوهم أن يعود المغترب منهم إلى أرض الإسلام ليقدم له علمه وعمله ومعرفته وخبرته، وليضمن صلاح ذريته ونشأتها في أرض طيبة صالحة، وألا يبقى بعيداً عنها إلا من له سبب شرعي يدعوه لذلك.

دورهم ألا يتزوجوا من الغربيات والأجنبيات غير المسلمات حتى ولو أسلمن، ومهما كن عليه من الصلاح ففاقد الشيء لا يعطيه، وإن أحلَّ الإسلام الزواج من الكتابيات فما أحله إلا لضرورة وضرورة ملحة.

دورهم يدعوهم إلى تحرير المرأة من الجهل وسوء المعاملة التي لم يأمر بها الإسلام، والله يأمرهم بتعليمها ما ينفعها في حياتها وفي بيتها وفيما يتلاءم مع وظيفتها التي أعدها الله عز وجل لها. كما يأمرهم أن يحرروها من كل دخيل على حضارتنا وعاداتنا وأخلاقنا، أن يعيدوا إليها عفتها وحشمتها وحياءها، ويعدوها لتأخذ دورها الفاضل المشرف البناء في هذه الحياة. لقد احترم الإسلام المرأة أيما احترام ورفع من منزلتها ومكانتها وجعل الجنة تحت أقدامها وحفظ لها حقوقها وصان لها شرفها وعزتها وأمرها بالتعلم وسمح لها بالعمل والجهاد عند الحاجة.

دورهم يدعوهم لرعاية الناشئة من أخطار المذاهب الهدامة كالشيوعية والاشتراكية والرأسمالية، ومن فساد المبادئ الخطرة والأفكار الإلحادية والإباحية ومن أضاليل الدعوات المنحرفة المضللة كالقومية والعنصرية والقبلية.

دورهم يدعوهم لتوعية الناشئة من الغزو الصليبي واليهودي والصهيوني ومن غزو الماسونية والقاديانية والباطنية والبهائية.

دورهم يأمرهم بدرء مخاطر التقاليد والعادات الغربية عن شبابنا

وشاباتنا وتنبيههم إلى مساوئها وأخطارها وتحذيرهم من مفاسدها وأضرارها وتحصينهم ضد التغريب وفضح طرقه وأساليبه من مجلات وجرائد وأفلام وأشرطة وحفلات.

دورهم يحتم عليهم فضح أساليب الاستعمار والتبشير التي استغل فيها المدارس والمستشفيات والجمعيات الخيرية والنوادي كالروتاري والأسود وغيرها. وكشف دور الاستشراق الخطر في تشويه تاريخ الإسلام وسرقة تراث علماء المسلمين.

دورهم يحتم عليهم الانتباه إلى دور السفارات والقنصليات والشركات الأجنبية، والخبراء الأجانب غير المسلمين عقيدة وتطبيقاً، الذين كثيراً ما يُروّجون الرذيلة وينشرون المفاسد، ويفسدون ذمم الناس وأخلاقهم عن طريق المال والنساء والخمور، والذين كثيراً ما تكون دورهم ومنتدياتهم كنائس تقام فيها الطقوس ومراقص تدار فيها الكؤوس ويضيع فيها الشرف والناموس.

دورهم يدعوهم للعناية بالمزارع وابن القرية والفلاح والعامل يزودونهم بالعلم والمعرفة، وينتشلونهم من الجهل والفقر والمرض، ليضمنوا لهم المسكن والنور والماء، ويمكنوهم من أن يعيشوا عيشة كريمة طيبة ويرفعوا من مستوى معيشتهم وليحسنوا من مدى تفكيرهم ومنطقهم، ويَصِلوهم بالمعرفة والثقافة والحضارة الخيرة. ليُعِدّوهم ليكونوا لبنة صالحة في بناء المجتمع، علماً وفهماً، ليكونوا جنوداً مزودين بفنون الحرب وضروب القتال وأسس الجهاد العقيدية والمادية.

دورهم يدعوهم ليعلموا الناس الاستفادة من ثروات البلاد المختلفة وتوجيهها الوجهة الاقتصادية العلمية الصناعية الخيرة ليستغلوا جميع ما وهبهم الله من نعم وما أفاء عليهم من فضل استغلالاً حكيماً مدروساً، استغلالاً طيباً واعياً.

دورهم يدعوهم إلى إعداد العدة لاستعادة أرضهم المغصوبة وتحرير شعوبهم المستعبدة، يدعوهم للجهاد في سبيل الله، « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهادٍ في سبيله

فتربصوا حتى يأتي الله بأمره، والله لا يهدي القوم الفاسقين » (التوبة ٢٤).

دورهم هو دور التوعية والنصيحة والإرشاد، دورهم هو دور كشف مخططات الأعداء وحيلهم وألاعيبهم، دورهم هو دور رفع الهمم وشحذ النفوس وتزويدها بالصبر والشجاعة واليقين والأمل خاصة ولقد هزمنا الأعداء نفسياً وغدا الواحد منا يائساً من مستقبله قانطاً من النصر، لقد هزمونا في عقيدتنا وفي أخلاقنا وعاداتنا وفي معاملاتنا، كما هزمونا في العلم والتقنية وأصبحت التبعية منالهم وأضحى من خصائصنا الثناء بحمدهم، ومن سجايانا تعظيمهم، ومن شيمنا إجلالهم.

التبعية شيء وذكر الفضل لأهله ونسب العمل لصاحبه شيء آخر، احترام الآخرين أمر والاستخذاء والعبودية أمر مختلف، ولهذا على المسلم أن ينتبه إلى أمره ويعود إلى رشده ويترك القنوط ويبتعد عن اليأس ويلجأ إلى الله ويعتصم بحبله ويتوكل عليه ويتمتع بالصبر.

« واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم وأصبحتم بنعمته إخوانا » (آل عمران ١٠٣)

« واصبر وما صبرك إلا بالله » (النحل ١٢٧).

ويتصف بالحزم والعزم ويبادر إلى العمل والبذل فهو منتصر بإذن الله ووعده :

(يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) (محمد ٧).

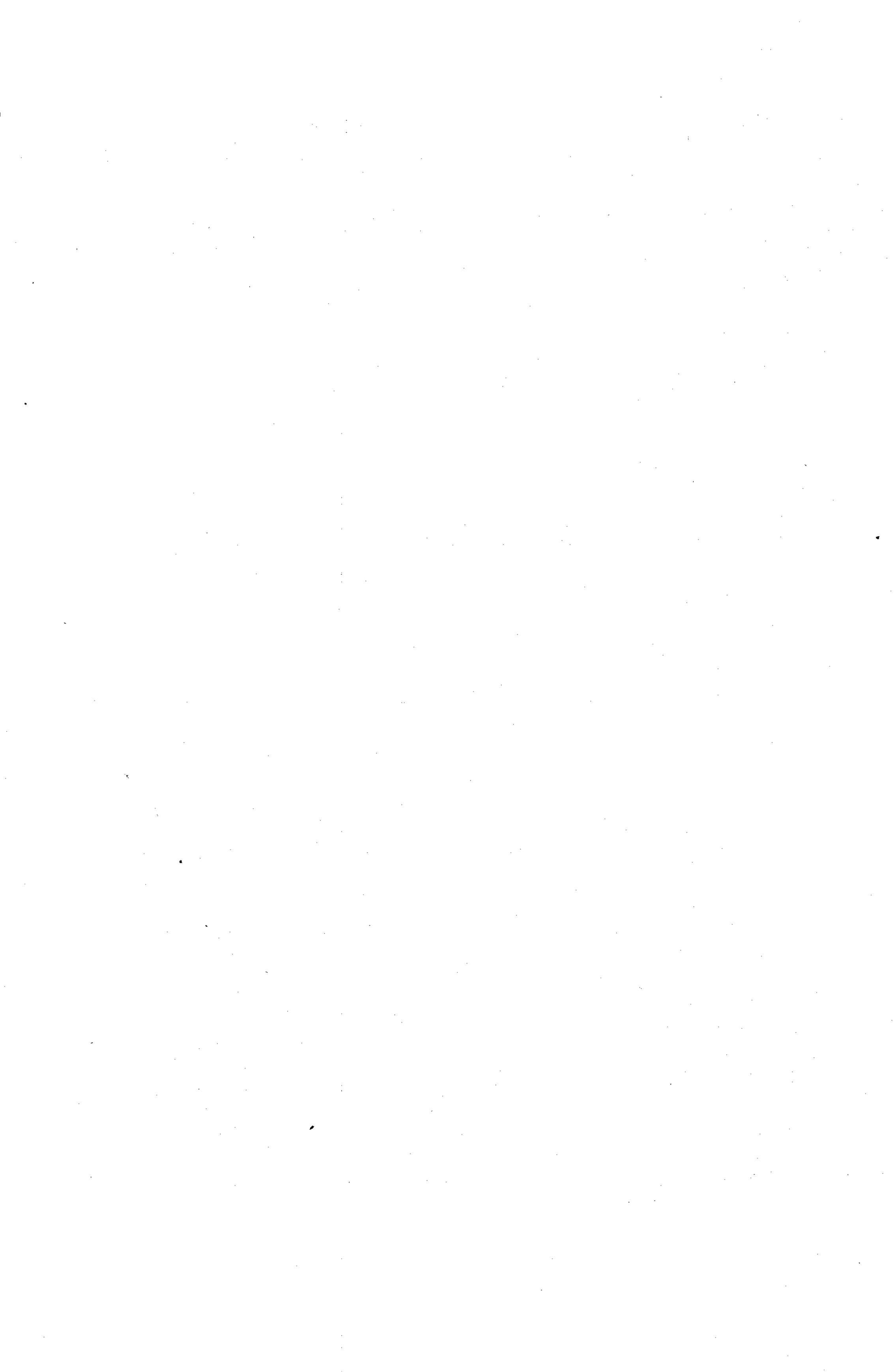
هذا هو دور الشباب المسلم في الحياة وهذا هو واجبه تجاه دينه وأمته وبلاده ونفسه، هذا هو دوره نحو الإنسانية جمعاء، ليكفل لها التقدم والرخاء، والسعادة والهناء، هذا هو دوره في الإشادة والبناء، في العمارة والنماء، وفي البذل والعطاء.

وهذا وعد الله لعباده المؤمنين وهذا إكرامه لهم وأي إكرام أن جعلهم خلفاء في الأرض، (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنَنَّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وليبدلنَّهم من بعد خوفهم أمنا) (النور ٥٥).



القُدْوَة ودَوْر الشباب المسْلم في المجتمع الإسْلامي المعَاصِر

للدكتور سعد سيد عويس
الأستاذ المشارك بكلية التربية - جامعة الرياض



بسم الله الرحمن الرحيم

« لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ».

صدق الله العظيم

(من سورة الأحزاب ـ ٢١)

أولاً ـ مقدمة :

في ضوء أهمية الموقع الخاص للشباب في المجتمع الإسلامي، نجد أنه من المفيد أن تتم مجموعة من الدراسات العلمية والتربوية لمحاولة تفهم الحقائق التي تساهم في تكوين هذا الشباب منذ المراحل السنية الأولى.

وحيث أن الدين الإسلامي الحنيف، قد حدد لنا الإطار العام للأسوة الحسنة وللقدوة الصالحة، فإننا نود، في هذه الدراسة الميدانية الواقعية، أن نتحقق من مدى تطابق القدوة التي يقتدي بها النشء والشباب المسلم مع تعاليم الدين الإسلامي، وذلك من خلال ما تقدمه لهم أجهزة التنشئة التربوية القائمة من برامج تربوية متنوعة... تسهم بلا شك في تشكيل صفات هذه القدوة.

ولعل هذا الموضوع يوضح لنا أثر الاتجاهات التربوية المختلفة في تشكيل شخصية النشء والشباب المسلم من خلال التعرف على نوعية **أشخاص** القدوة الذين يقتدون بهم، الأمر الذي يمكن أن يعكس لنا بعض صور الثقافة الإسلامية لهؤلاء النشء والشباب.

ولقد استهدفت الدراسة الحالية إلى التعرف على القدوة التي يقتدي بها النشء والشباب في محيط قادة بعض المجالات الحيوية مثل المجال الأسري والمجال التعليمي والمجال الديني والمجال الثقافي والمجال الوطني والمجال السياسي والمجال الفني ثم المجال الرياضي.

ولقد تم جمع أعضاء عينة البحث بطريقة عشوائية من معسكرات النشء والشباب، ومن طلاب الجامعات في القاهرة وعين شمس وأسيوط وكان عددهم (٥٦٠ عضواً) من بينهم (٤٦٦ عضواً) من الذكور بنسبة ٨٣,٢٪ و(٩٤ عضواً) من الإناث بنسبة نحو ١٦,٨٪ (انظر جدول رقم ١) كما أجريت هذه الدراسة في الفترة من أغسطس ١٩٧٢ م حتى ديسمبر ١٩٧٤م.

ثانياً ـ الإطار النظري للدراسة :

القدوة هي « الأسوة » ـ يقال فلان قدوة يقتدى به ـ كما يقال : « لي بِكَ قدوة »[٢]. وذلك هو المعنى الذي تبناه الباحث عند قيامه بالدراسة الحالية.

ولقد تبين لنا أن قضية القدوة بوجه عام هي جزء من نتائج العمل التربوي في محيط النشء والشباب، ولقد شغلت هذه القضية اهتمام القيادات الدينية والسياسية والتربوية في مختلف المجتمعات، وتسهم في محاولة التعرف على القدوة التي يقتدي بها النشء والشباب في بعض المجالات المحددة مثل المجال الدراسي أو الديني أو الثقافي... في إلقاء الضوء على بعض الحقائق الموضوعية التي قد تؤثر في سلوك الفرد واتجاهاته. ولعل عملية التعرف على القدوة تساعد كذلك في رسم صورة واقعية للنماذج من القادة الذين يتخذ منهم النشء والشباب نبراساً لهم يعملون على محاكاتهم ويسعون للسير على هديهم.

ويلاحظ أن المجتمعات الإنسانية بوجه عام والمجتمعات الإسلامية بوجه خاص في حاجة ماسة إلى معرفة مدى نجاحها في تكوين صفات القدوة المثلى في وجدان أعضائها، بالمقارنة بالنموذج الأمثل الذي تحاول إرساءه في نفوس هؤلاء الأعضاء منذ المراحل السنية الأولى وعن طريق أجهزة التنشئة التربوية المعنية.

وتقوم أجهزة التنشئة التربوية هذه، ممثلة في الأسرة والمؤسسة التعليمية والمؤسسة الدينية والمنظمات السياسية وأجهزة الإعلام... وغيرها، في تشكيل (نموذج القدوة) الذي يمكن للنشء والشباب أن يقتدوا به في ضوء القيم والمثل العليا للمجتمع، وكذلك في ضوء المصالح الرئيسية للجماعات التي يتكون منها المجتمع. ولا شك في أن موضوع القدوة من الموضوعات التي تؤثر عادة في اتجاهات وسلوك النشء والشباب في فترات تكوينهم الأولى. وقد تؤثر القدوة على حاضرهم ثم على مستقبلهم وبالتالي قد تؤثر على حاضر ثم على مستقبل المجتمع الذي يعيشون فيه.

ولقد حددت الكثير من الدراسات العلمية التربوية كيف أن القدوة تختلف وتتطور من مجتمع لآخر ومن وقت لآخر، ولقد لوحظ كذلك أن القدوة التي تصلح في مجتمع ما قد لا تصلح في مجتمع آخر. كما أن القدوة التي تصلح في وقت ما قد لا تصلح في وقت سابق أو في وقت لاحق. وقد يكون ذلك لأن كل مرحلة من مراحل التطور الاجتماعي تضع أمامها مهام محددة في المجال الاقتصادي والاجتماعي مما يحدد لها بالتالي معالم خاصة بنماذج القدوة في تلك المرحلة ويكون السعي للوصول لهذه النماذج من القدوة هو هدف الأهداف الذي تسعى أجهزة التنشئة التربوية ـ في حدود مصالح جماعات المجتمع الرئيسية المهيمنة على هذه الأجهزة ـ للوصول إلى تعميقه في أذهان وضمائر النشء والشباب بالوسائل المختلفة[٣].

عرض لبعض العوامل التي تساهم في تكوين القدوة :

يحاول كل مجتمع من المجتمعات أن يشكل القدوة التي تصلح له

في ضوء المصالح الخاصة به وكذلك عن طريق الأجهزة المتخصصة في التنشئة التربوية كما يحاول كل مجتمع كذلك أن يشكل النماذج البشرية الملائمة للمرحلة التاريخية التي يمر بها، ويسعى عن طريق وسائل العمل التربوي إلى تقديم صفات النماذج البشرية (الصالحة) لكي يقتدي بها النشء والشباب. ويسعى كذلك وبنفس الحماس إلى إقصاء النماذج البشرية (غير الصالحة) حتى لا يقتدي بها النشء والشباب محققاً بذلك للفلسفة التي يرجى السعي لإرسالها داخل هذا المجتمع.

وقد يختلف (نموذج القدوة) باختلاف المراحل السنية التي عبر بهاالفرد. فالأطفال مثلاً يتأثرون بالنماذج البشرية المحيطة بهم داخل الأسرة، ثم يتغير أو يتطور أو يتسع نموذج القدوة كلما تفاعل هؤلاء الأطفال مع أجهزة المجتمع الأخرى في البيئة المحيطة (الجيرة) ثم في دور الحضانة ثم في مؤسسات التعليم ثم في دور العبادة، لما لها من إشعاع يسهم في نشر المناخ الديني في نفوس المجتمع صغاراً أو كباراً على السواء. وعموماً فإن الأطفال في مراحل التنشئة الأولى يتأثرون بالآباء والأمهات والأقارب والجيران والمدرسين فضلاً عن تأثرهم، بالطبع، بمن هم في نفس سنهم وبدرجات مختلفة.

أما الشباب فيتوقع أنهم يعتمدون في اختيارهم (للقدوة) على خبراتهم الذاتية النامية وعلى نتائج ملاحظاتهم اليقظة لنشاطات وأعمال القيادات الذين يحيطون بهم، وكذلك عند قادة المجتمع في كافة الميادين ومن خلال الاطلاع والقراءة فضلاً عن دراستهم لقادة بعض الفترات التاريخية السابقة إلى جانب قادة الزمن المعاصرين له. ويعتبر كل ما سبق أمثلة للفرص التي تكوّن أمام الشباب يتعرف من خلالها على بعض القيادات في شتى الميادين الأمر الذي يحتمل معه أن يتخذ من بعضهم قدوة له.

ويلاحظ أن الاستعدادات الخاصة بكل فرد تسهم بلا شك في اختياره للنموذج الأمثل للقدوة التي يقتدي بها. كذلك نجد أن التخصص الدراسي والتخصص المهني بالإضافة إلى الاهتمامات الشخصية من العوامل التي تحدد صفات القدوة التي يقتدي بها النشء والشباب.

وقد تبرز بعض الأمثلة الإيجابية للقدوة الصالحة من خلال الأحداث الاجتماعية التي يمر بها المجتمع الإنساني بوجه عام. ومن الممكن أن تصبح فرصاً طيبة للنشء والشباب ليختاروا من أبطالها وقادتها قدوة لهم.... إذا ما قامت أجهزة في المجتمع باستخدام وسائل أجهزة التنشئة التربوية المختلفة وبصفة خاصة الإمكانات الهائلة لوسائل الإعلام المختلفة لكن على النقيض مما سبق قد تبرز وتطفو على السطح بعض الأمثلة السلبية للقدوة غير الصالحة التي، إن لم يتخذ المجتمع إزاءها الإجراءات اللازمة للحد منها وللقضاء عليها.... لأصبحت فرصاً تربوية غير طيبة للنشء والشباب. وأحياناً نجد بعضاً من النشء والشباب يسعون فعلاً للاقتداء بنماذج بشرية غير سوية في رأي المجتمع لكنها تكتسب بريقاً ولمعاناً بفضل التركيز عليها والإعلان عنها في أجهزة الإعلام المختلفة.

ولا شك أن النموذج الأمثل للقدوة يختلف من مجتمع لآخر في ضوء فلسفته ومعتقداته ومصالحه. لكن الغريب أننا قد نجد تطابقاً لفظياً في مفهوم القدوة الصالحة في مجتمعات تتناقض تماماً في أهدافها وفلسفاتها ومعتقداتها، لذلك علينا أن نراعي الحرص عند تفسير المصطلحات المقصودة من النماذج المقترحة كقدوة صالحة، حيث أن ما يفهم على أنه قدوة صالحة في المجتمع الأمريكي يختلف عن المجتمع السوفييتي أو الإنجليزي... الخ.

والتفسير الصحيح لمفهوم القدوة في كل مجتمع ـ وفي فترة زمنية محددة ـ لا يكون صحيحاً إلّا بعد التعرف على الفلسفة التي تحكم هذا المجتمع. وتتضاعف مشكلة تحديد مفهوم النموذج الأمثل للقدوة الصالحة في مجتمعات الدول النامية حيث تعيش هذه المجتمعات مشاكل متنوعة بعد أن انتهت أو كادت تنتهي من مرحلة التحرر الوطني وتتطلع بعد ذلك إلى اجتياز مرحلة التخلف إلى التقدم. وتبرز هنا مسألة اختيار النموذج المناسب للتنمية وما يصاحب ذلك من مشاكل سياسية واجتماعية واقتصادية عميقة الجذور تتسبب في عدم استقرار هذه المجتمعات لفترات تاريخية غير قصيرة. وتبعاً لذلك نجد أنه من الصعب علينا تحديد المعالم التي تساهم في تشكيل القدوة الصالحة في مثل هذه الدول النامية.

القدوة في المجتمع الإسلامي :

تتحدد القدوة في المجتمع الإسلامي في ضوء ما جاء في القرآن الكريم وفي السنة المحمدية وفي أفعال وأقوال رسول الإسلام محمد ﷺ، أي أن الدين الإسلامي قد حدد الإطار العام للأسوة الحسنة وللقدوة الصالحة.

لذلك فإننا نجد أن دراسة تاريخ نشأة الدين الإسلامي وترجمة سير المسلمين الأوائل وكبار الصحابة وقادة الجهاد الإسلامي منذ فجر الإسلام وحتى الآن أمر من الأهمية بمكان لتحديد معالم القدوة الصالحة للإنسان المسلم. ولا شك أن القدوة الصالحة تكون من خلال الممارسة الفعلية خاصة لكل من يتصدى للعمل في الحقل التربوي مع النشء والشباب في المراحل السنية الأولى. لذلك نجد أننا ندعو، من خلال هذه الدراسة ومن خلال ما قد يظهر فيها من حقائق، إلى تحديد معالم القدوة الصالحة في المجتمع الإسلامي المعاصر مع العمل على التطور بنموذج القدوة طبقاً للمراحل السنية لأعضاء المجتمع الإسلامي. وفي ضوء الظروف الموضوعية لكل جماعة من الجماعات.

وقد يتغير ويتعدل نموذج القدوة الصالحة طبقاً لما سبق من حيث الشكل لكنه من المؤكد أنه يجب أن يكون هناك تحديد لمعالم القدوة الصالحة من حيث المضمون في ضوء تعاليم الدين الإسلامي.

يبين لنا الأستاذ محمد قطب في كتابه « منهج التربية الإسلامية » كيف أن الإسلام يربي بالقدوة ويربي بالموعظة ويربي بالعقوبة ويربي بالقصة ويربي بالعادة ويربي بالأحداث. كما يرى أنه من السهل تأليف كتب التربية أو وضع منهج تربوي، لكن هذا المنهج يظل حبراً على ورق ما لم يتحول إلى حقيقة واقعة تتحرك في واقع الأرض... ما لم يتحول إلى بشر يترجم بسلوكه وتصرفاته ومشاعره وأفكاره مبادئ المنهج ومعانيه. عندئذ فقط يتحول المنهج إلى حقيقة ويتحول إلى حركة ويتحول إلى تاريخ. « يؤكد الأستاذ قطب أنه « **لا بد من قدوة** » وأنه لذلك بعث الله محمداً ﷺ ليكون قدوة للناس... ووضع في شخصه ﷺ الصورة الكاملة للمنهج الإسلامي، الصورة

الحية الخالدة على مدار التاريخ. ثم يدعو سيادته قادة أجهزة التنشئة التربوية إلى : « أنه ينبغي أن تكون سيرة الرسول جزءاً دائماً من منهج التربية سواء في المنزل أو المدرسة أو الكتاب أو الصحيفة أو المذياع، لتكون القدوة دائمة وحية وشاخصة في المشاعر والأفكار »[٤].

ثالثاً ـ عرض لأهم حقائق هذه الدراسة :

١ ـ تبين أن أعمار أغلب أعضاء مجتمع البحث ما بين ١٦ : ٢٥ سنة حيث بلغ عددهم (٢٧٢) عضواً بنسبة نحو ٤٨,٧٪، كما أن هناك عدد (١٠٦ عضواً) تقع سنهم ما بين ١٢ : ١٥ سنة وبنسبة نحو ١٨,٩٪ وتبين أيضاً أن هناك (١٥٨ عضواً) تقع أعمارهم ما بين ٢٦ : ٣٠ سنة بنسبة نحو ٢٨,١٪ ولم يبين (٢٤ عضواً) بنسبة ٤,٣٪ أعمارهم وبذلك تكون أعمار كل أعضاء البحث من الذين ذكروا أعمارهم بالتحديد تقع ما بين ١٢ : ٣٠ عاماً. (جدول رقم ٢).

٢ ـ ومن حيث المستوى التعليمي لأعضاء هذه الدراسة فقد تبين أن (٣٦٥ عضواً) بنسبة نحو ٦٥,٢٪ يدرسون في الكليات والمعاهد العليا أو من الحاصلين على مؤهلات عالية. كما ظهر أن (٣٠ عضواً) بنسبة نحو ٥,٣٪ في مستوى التعليم الابتدائي، كذلك فإن هناك (٩٠ عضواً) بنسبة نحو ١٦,١٪ في مستوى التعليم الإعدادي كما أن (٥٤ عضواً) بنسبة نحو ٩,٦٪ في مستوى التعليم الثانوي، وظهر أيضاً أن (١١ عضواً) بنسبة نحو ٢٪ في مستوى تعليمي فوق المتوسط. ولم يبين (١٠ أعضاء) بنسبة نحو ١,٨٪ المستوى التعليمي الخاص بهم. (راجع جدول رقم ٣).

٣ ـ وفيما يتعلق بالتخصصات الدراسية لأعضاء من ذوي التعليم العالي، فقد اتضح أنها تشتمل على مجموعة كبيرة من التخصصات المتنوعة. فقد بلغ عدد المتخصصين في العلوم التجارية والتعاون والاقتصاد والعلوم السياسية (٦٠ عضواً) بنسبة نحو ١٦,٢٪ كما بلغ عدد المتخصصين في العلوم التربوية وكليات المعلمين (٥٢ عضواً) بنسبة نحو ١٤,٢٪ وعدد المتخصصين في العلوم الزراعية (٤١ عضواً) بنسبة نحو

١١,٢٪ أما المتخصصين في العلوم الهندسية والصناعية والتكنولوجيا فبلغ عددهم (٣٦ عضواً بنسبة نحو ٩,٩٪ وفي الطب والصيدلة (٣٢ عضواً) بنسبة نحو ٨,٨٪ والآداب والفلسفة والدراسات الإسلامية (٣١ عضواً) بنسبة نحو ٨,٥٪ أما في الخدمة الاجتماعية وعلم الاجتماع وعلم النفس فوصل عدد المتخصصين فيها (٢٤ عضواً) بنسبة نحو ٦,٦٪ وفي القانون والشريعة (١٨ عضواً) بنسبة نحو ٤,٩٪ وأخيراً في العلوم الطبيعية والجيولوجيا (١٣ عضواً) بنسبة ٣,٣٪ ولم يذكر (٥٩ عضواً) بنسبة نحو ١٦,٢٪ التخصص الدراسي الخاص بهم على الرغم من أنهم من ذوي المستوى التعليمي العالي. (جدول رقم ٤).

٤ ـ وحول محل ميلاد ومحل تنشئة أعضاء الدراسة فقد اتضح أن (٣٨١ عضواً) بنسبة نحو ٦٨٪ كان محل ميلادهم بالمدينة كما أن (١٧٠ عضواً) بنسبة نحو ٣٠,٤٪ كان محل ميلادهم بالقرية ولم يوضح (٩ أعضاء فقط) بنسبة نحو ١,٦٪ محل ميلادهم بالتحديد. ولقد لوحظ أن هناك بعض التغير في محل تنشئة أعضاء الدراسة بالمقارنة بمحل الميلاد حيث تبين أن (٤٠٦ عضواً) بنسبة نحو ٧٢,٥٪ قد نشأوا في المدينة في حين أن (١٢٥ عضواً) بنسبة نحو ٢٢,٣٪ قد نشأوا في القرية ولم يبين (٢٩ عضواً) بنسبة نحو ٥,٢٪ محل تنشئتهم (جدول رقم ٥) و (جدول رقم ٦).

٥ ـ وحول مدى تواجد (**القدوة**) في محيط أعضاء هذه الدراسة فقد تبين أن (٥١٠ عضواً) بنسبة نحو ٩١,١٪ لديهم قدوة بصفة عامة في حين أن هناك (١٤ عضواً) بنسبة ٢,٥٪ ليس لهم قدوة يقتدون بها، كما أن (١٨ عضواً) بنسبة نحو ٣,٢٪ لا يعلمون تماماً إن كان لديهم قدوة يقتدون بها، كذلك لم يجب على هذا السؤال (١٨ عضواً) بنسبة نحو ٣,٢٪ (جدول رقم ٧).

٦ ـ وكانت (**صفات القدوة**) التي تم حصرها وتحديدها بعد توحيد مفاهيمها عند أعضاء الدراسة الذين قاموا بترتيب هذه الصفات في كل من يودون اتخاذه قدوة لهم كالتالي :

يرى (٤٦٥ عضواً) بنسبة نحو ٨٣٪ أن يتصف القدوة بأن يكون له (مواقف إنسانية) في المقام الأول. وجاءت صفة (التواضع) في المرتبة التالية في رأي (٤٦١ عضواً) بنسبة نحو ٨٢,٣٪ ثم رأى (٤٤٥ عضواً) بنسبة نحو ٧٩,٥٪ أهمية اتصاف القدوة الذي يقتدون به بصفة أنه (مفكر). أما صفة (**التدين**) فقد وردت في رأي (٤٤٣ عضواً) بنسبة نحو ٧٩,١٪ ثم رأى بعد ذلك (٣٧٠ عضواً) بنسبة نحو ٦٦,١٪ أن يكون للقدوة (مواقف طيبة). كما قرر (٣٣٣ عضواً) من أعضاء هذه الدراسة بنسبة نحو ٥٩,٥٪ أن يكون القدوة الذي يودون الاقتداء به (طيب القلب). وتلا ذلك صفات (حسن المظهر) وأن يكون للقدوة (قدرات خاصة) أو أن يكون القدوة قد أدى (خدمات خاصة) لمن يقتدون به بنسبة نحو ٤٦,٦، ٣٣,٢٪، ١٣٪ على التوالي. كما سرد (٢٠٧ عضواً) بنسبة نحو ٣٧٪، مجموعة من الصفات الأخرى المتنوعة (جدول رقم ٨).

٧ ــ ومن حيث مدى الحاجة إلى القدوة فقد اتضح أن أغلب أعضاء الدراسة وعددهم (٤٢٠ عضواً) بنسبة نحو ٧٥٪ لديهم (**حاجة ماسة لوجود القدوة**) في حين أن (٨٩ عضواً) بنسبة نحو ١٥,٩٪ قرروا أنه (**لا يوجد لديهم حاجة لوجود القدوة**) وأفاد (٢٨ عضواً) بنسبة نحو ٥٪ أنهم (**لا يستطيعون تحديد مدى حاجتهم للقدوة**) ولم يبين (٢٣ عضواً) بنسبة نحو ٤,١ ٪ رأيهم في هذا الموضوع. (جدول رقم ٩).

٨ ــ وفيما يتعلق بأسباب اتخاذ أعضاء هذه الدراسة للقدوة فقد تبين أن هناك (١٨٥ عضواً) بنسبة نحو ٣٦,٣٪ رأوا أنهم يتخذون القدوة (**لكي يحاولوا أن يكونوا مثلهم**) في حين أن (١٤٥ عضواً) بنسبة نحو ٢٨,٤٪ رأوا أنهم يتخذون القدوة (**لكي يكونوا مثلهم فعلاً**)، لكن الأكثرية من الأعضاء وعددهم (١٨٩) عضواً بنسبة نحو ٣٧٪، كان رأيهم أن سبب اتخاذهم للقدوة هو (**لكي يكونوا أفضل منهم**)، ولم يوضح (٦ أعضاء) فقط بنسبة نحو ١,٢٪ رأيهم في هذا الشأن (جدول رقم ١٠).

٩ ــ ولقد حدد أعضاء الدراسة بوضوح المجالات التي قاموا بانتقاء القدوة منها وفي ضوء ذلك ترتيب تلك المجالات على الوجه التالي :

١ ـ المجال الأسـري :

أفاد (٤٩٠ عضواً) بنسبة نحو ٨٧,٥٪ أنه يوجد لديهم قدوة في المجال الأسري، في حين أن (٥٩ عضواً) بنسبة نحو ١٠,٥٪ سجلوا أنه لا يوجد لديهم قدوة في المجال الأسري، كما اتضح أن (١١ عضواً) بنسبة نحو ٢٪ فقط غير مبينة إجاباتهم بالتحديد نحو هذا الموضوع. وتركزت القدوة في عشر شخصيات من أعضاء الأسرة من مختلف درجات القرابة وفي مقدمتهم الأب.

٢ ـ المجـال الثقـافي :

جاءت القدوة في المجال الثقافي في المرتبة الثانية حيث يرى (٤٨٦ عضواً) بنسبة نحو ٨٣,٦٪ حيث يرون جميعاً أن لديهم القدوة في هذا المجال. ويرى (٦٧ عضواً) بنسبة نحو ١٢٪ أنه لا يوجد لديهم قدوة في المجال الثقافي، ولم يبين (٢٥ عضواً) بنسبة نحو ٤,٤٪ رأيهم في هذا الشأن. واختار أعضاء الدراسة (٦٨ شخصية) من المفكرين والقادة الثقافيين من العرب والأجانب وفي مقدمتهم العاملين بالصحافة.

٣ ـ المجـال الـوطني :

أظهرت نتائج الدراسة أن المجال الوطني يجيء في المرتبة الثالثة حيث أفاد (٤٥١ عضواً) بنسبة نحو ٨٠,٥٪ أن لديهم قدوة في المجال الوطني لكن (٧٧ عضواً) بنسبة نحو ١٣,٧٪ ليس لديهم قدوة في هذا المجال، ووجد أن (٣٤ عضواً) بنسبة ٦,١٪ غير مبينة إجاباتهم في هذا المجال. وتحددت القدوة هنا في نحو (٦٠ شخصية) من القادة الذين ساهموا في خدمة بلادهم وكان على رأسهم رؤساء الدول.

٤ ـ المجـال الـديني :

كما بيَّنت نتائج الدراسة أيضاً أن المجال الديني يجيء في المرتبة الرابعة حيث قرر (٤٤٢ عضواً) بنسبة نحو ٧٨,٩٪ أن لديهم قدوة في المجال الديني، وقرر (٨٤ عضواً) بنسبة نحو ١٥٪ أنه لا يوجد لديهم قدوة في المجال الديني، ولم يبين (٣٤ عضواً) بنسبة ٦,١٪ رأيهم نحو القدوة

في هذا المجال. وفي محاولة لإلقاء بعض الأضواء على نوعيات وأوصاف الذين تم اختيارهم قدوة في المجال الديني من قبل أعضاء هذا البحث الذين قرروا أن لديهم قدوة في هذا المجال، فقد تبين لنا أنه على الرغم من أن الدراسة قد حددت أن اختيار القدوة في المجال الديني وفي بقية المجالات يكون من القيادات المعاصرة، أو من غير المعاصرة، أي تقتصر على البشر العاديين مهتدين في ذلك بقوله تعالى : « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً »[1]. إلّا أن أغلب أعضاء البحث قد اختاروا القدوة في المجال الديني من الأنبياء والرسل بوجه عام وفي مقدمتهم رسول الله محمد ﷺ. أما الذين التزموا بالمعنى الدقيق للسؤال فقد قاموا باختيار نحو (١٧) قائداً ومفكراً ومجاهداً إسلامياً منهم على سبيل المثال (أحد الخلفاء الراشدين) ثم (مفكر إسلامي معروف) ثم (الأب). جاء أيضاً قدوة في المجال الديني ثم (أحد قادة الأزهر) يليه (مفكر إسلامي وأستاذ جامعي معاصر) ثم (مفكر ديني رحل منذ بداية القرن الحالي) وجاء هؤلاء بنسب نحو ١١,١٪، ٥,٢٪، ٥,٢٪، ٤,١٪، ٤,١٪، ٣,٨٪، ٣,٤٪ على التوالي. وجاء بعد ذلك مجموعة أخرى من المفكرين الإسلاميين من المعاصرين ومن غير المعاصرين. (جدول رقم ١١).

٥ ـ المجال السياسي :

جاء المجال السياسي في المرتبة الخامسة حيث قرر (٣٩٩ عضواً) بنسبة نحو ٧١,٣٪ أن لديهم قدوة في هذا المجال لكن (١٠٥ عضواً) بنسبة نحو ١٨,٧٪ بينوا أنه ليس لديهم قدوة في المجال السياسي ولم يبين (٥٦ عضواً) بنسبة نحو ١٠٪ رأيهم في القدوة في هذا المجال. ولقد حدد أعضاء الدراسة بالأسماء وبالأوصاف (٢٣ شخصية) ممن تولوا مواقع سياسية مختلفة.

٦ ـ المجال الفني :

وتبين أن القدوة في المجال الفني قد جاءت في الترتيب السادس

---

(١) سورة الأحزاب : آية ٢١.

حيث أن (٣٩٣ عضواً) بنسبة نحو ٧٠,٢٪ لديهم قدوة في المجال الفني كما أن (١٣٣ عضواً) بنسبة نحو ٢٣,٧٪ ليس لديهم قدوة في هذا المجال كما لم يبين (٣٤ عضواً) بنسبة نحو ٦,١٪ رأيهم بالتحديد في المجال الفني. ولقد اتسع مجال اختيار القدوة هنا حتى اشتمل على (١٢٣ شخصية فنية) وفي مقدمتهم المطربين والمطربات والعاملين بالسينما والمسرح وكان بعضهم من الأجانب.

٧ ـ المجـال الـدراسي :

كانت المرتبة السابعة تخص القدوة في المجال الدراسي الذي كان لا يقل كثيراً عن المجال السابق حيث قرر (٣٩٢ عضواً) بنسبة نحو ٧٠٪ أن لديهم قدوة في المجال الدراسي في حين أن (١٣٥ عضواً) بنسبة نحو ٢٤,١٪ ليس لديهم قدوة في هذا المجال، ولم يبين (٣٣ عضواً) بنسبة نحو ٥,٩٪ رأيهم في هذا الشأن. ويقدر عدد الذين اختارهم أعضاء الدراسة كقدوة في المجال الدراسي بعدد مقارب لعدد هؤلاء الأعضاء أنفسهم لذلك فقد تم تصنيفهم طبقاً لنوعية المرحلة التعليمية التي اختار منها الأعضاء قدوتهم في المجال الدراسي. وبذلك ظهر أن نحو ٢٧,٥٪ من الأعضاء اختاروا قدوتهم من أساتذة الجامعات والتعليم العالي. ورأى نحو ٦,٦٪ فقط أن يختاروا القدوة من مدرسي المرحلة الثانوية. كما قرر نحو ٢,٥٪ فقط أن يختاروا القدوة من مدرسي المرحلة الإعدادية أو المتوسطة واختار نحو ٥,٣٪ القدوة من مدرسي المرحلة الابتدائية، والغريب أن الأغلبية الكبرى من أعضاء الدراسة بنسبة نحو ٥٨,١٪ قد اختاروا القدوة في المجال الدراسي من غير المرتبطين ارتباطاً مباشراً بالعمل في مؤسسات التعليم. (جدول رقم ١٢).

٨ ـ المجـال الرياضي :

احتل هذا الترتيب الثامن والأخير في رأي أعضاء هذه الدراسة حيث قرر (٣٧٠ عضواً) بنسبة نحو ٦٦,١٪ أن لديهم قدوة في المجال الرياضي كما أن (١٥٧ عضواً) بنسبة نحو ٣٨٪ أفادوا بأنه ليس لديهم قدوة في هذا المجال ولم يبين (٣٣ عضواً) بنسبة نحو ٥,٩٪ رأيهم بالتحديد في هذا

المجال. ولقد اختار أعضاء البحث (٧٥ شخصية رياضية) كان في مقدمتهم لاعبي كرة القدم والملاكمة والسباحة من العرب والأجانب. (جدول رقم ١٣، ١٤).

رابعاً ـ نتائج الدراسة الحالية :

في ضوء الحقائق السابقة يمكن للقارئ أن يستلخص الكثير من النتائج، ولعل أحد هذه النتائج في رأي الباحث أن تكون كما يلي :

١ ـ إن إجابات أعضاء الدراسة قد تأثرت بظروفهم الشخصية وبأماكن تنشئتهم التربوية حيث ظهر أن أغلبهم قد نشأ بالمدينة. فضلاً عن تأثر هؤلاء الأعضاء بأجهزة التنشئة التربوية التي تعاملت معهم منذ مراحل نموهم الأولى. كما يحتمل أيضاً أن تكون طبيعة المرحلة الدراسية والتخصص العلمي والمستوى السني الذي يمرون به قد أثرت على إجاباتهم فيمايتعلق بآرائهم نحو القدوة وفي اختيارهم للقدوة.

٢ ـ ولقد اتضح أن أغلب أعضاء الدراسة لديهم من يقتدون به في مختلف المجالات، الأمر الذي يؤكد أهمية الدور الذي يمكن أن تلعبه القدوة الصالحة في التنشئة التربوية لأعضاء المجتمع.

٣ ـ ولقد تبين أيضاً أن أعضاء الدراسة الحالية قد حددوا الصفات التي يرونها فيمن يودون اتخاذه قدوة لهم وكانت معظم هذه الصفات إيجابية في ضوء القيم والمثل العليا النابعة من الدين الإسلامي، لكن ترتيبها يحتاج إلى مراجعة خاصة، وأن هناك بعض الصفات غير الموضوعية لكنها جاءت في ترتيب متأخر عن الصفات الأخرى.

٤ ـ وتؤكد الحقائق المستقاة من الدراسة الحالية أن أغلب أعضاء العينة قد قرروا أنهم في حاجة ماسة إلى القدوة الأمر الذي يزيد كذلك من أهمية تأثير القدوة الصالحة في تربية النشء والشباب.

٥ ـ ولقد تبين أيضاً أن أغلب أعضاء الدراسة الحالية على أمل في أن يصبحوا (**أفضل من القدوة**) التي يقتدون بها. وإن كان من الممكن اعتبار أن ذلك ثقة منهم بأنفسهم، وهذا أمر إيجابي، إلّا أنه يحتمل وجود

قدر من التفكير اللاواقعي أو الغرور عندما لا تقابل هذه الحقائق من أعضاء الدراسة بمحاولة بذل الجهد المناسب للوصول إلى هذا الهدف.

٦ ـ ولقد قام أعضاء الدراسة الحالية بتحديد مدى وجود القدوة لديهم في بعض المجالات الحيوية التي اهتمت بها هذه الدراسة، بالإضافة إلى (المجال الديني) ولقد ظهر أن هناك تبايناً واضحاً من حيث مدى تواجد القدوة في تلك المجالات في ضوء آراء النشء والشباب، تلك الآراء التي تم تشكيلها من خلال برامج أجهزة التنشئة التربوية التي ساهمت بشكل أو بآخر في تشكيل اتجاهات أعضاء الدراسة نحو القدوة، الأمر الذي يوصي بأنه ليس هناك لدى هذه الأجهزة سياسة تربوية شاملة تسعى لتحقيقها في محيط أعضاء المجتمع.

٧ ـ ولقد ظهر أيضاً أن القدوة في (المجال الديني) قد جاءت في الترتيب الرابع وكان من المتوقع أن تتقدم القدوة في هذا المجال في ضوء المناخ الديني السائد في المجتمع، الأمر الذي يستحق المراجعة والدراسة للتحقق من جدوى جهود مؤسسات التنشئة التربوية في نشر الثقافة الإسلامية بالشكل الذي يتناسب مع كافة المراحل السنية للنشء والشباب. كما أن هناك نسبة لا يستهان بها وهي تزيد عن ٢٠٪ من أعضاء الدراسة الحالية قرروا عدم وجود قدوة لديهم في المجال الديني، أو لم يبدوا رأياً محدداً في هذا الموضوع وهذا الأمر يحتاج إلى مراجعة جادة من قبل المسئولين عن الثقافة الإسلامية.

٨ ـ وفي الوقت الذي لاحظنا فيه مدى صعوبة اختيار القدوة في المجال الديني من رجال الدين المعاصرين عند أعضاء هذه الدراسة نجد أنه على النقيض من ذلك حيث أن نفس أعضاء هذه الدراسة لم يجدوا صعوبة في تحديد القدوة وبأعداد كبيرة في بقية المجالات الأخرى، وقد يعني هذا أن بعض أعضاء الدراسة وأغلبهم من طلاب الجامعات والمعاهد العليا لم يتبلور لديهم بصورة واضحة نموذج للقدوة في المجال الديني من رجال الدين المعاصرين أو من غيرهم من القادة في شتى الميادين طبقاً للسؤال المحدد الذي وجه لهم في هذه الدراسة.

خامساً ـ توصيات مقترحة من خلال الحقائق والنتائج النابعة من هذه الدراسة :

في ضوء الحقائق الخاصة بهذا البحث، ومن خلال النتائج التي أمكن استخلاصها من هذه الحقائق يمكن اقتراح بعض التوصيات التالية :

١ ـ يرجى العمل على اتفاق أجهزة التنشئة التربوية على تحديد مفهوم القدوة الصالحة في ضوء تعاليم الدين الإسلامي وفي ضوء الأهداف والقيم والمثل العليا للمجتمع.

٢ ـ يجب أن يتم وضع السياسة العامة لأجهزة التنشئة التربوية، وفي إطار من الشمول والتكامل، حتى تتكامل بالتالي برامج كافة المؤسسات التربوية في ضوء ما يتطلبه المجتمع الإسلامي المعاصر وفي ضوء النظرة الشاملة للشخصية الإنسانية.

٣ ـ يجب دراسة إمكانية تحديد الإطار والنموذج الخاص بالقدوة في المجال الديني بوجه خاص وكذلك في بقية المجالات بحيث يمكن للنماذج الصالحة من القدوة أن تقوم بدور إيجابي في رفع مستوى الثقافة الإسلامية في محيط النشء والشباب.

٤ ـ تعتبر القدوة الصالحة والأسوة الحسنة بوجه عام عامل هام في تربية النشء والشباب منذ المراحل السنية الأولى، وتتضاعف أهمية القدوة عند إعداد قادة المجتمع في شتى الميادين وبصفة خاصة قادة التربية والتعليم والثقافة والإعلام. لذلك فإنه يجب الاهتمام بتكوين القدوة الصالحة من خلال خطط وبرامج الإعداد التربوي للنشء والشباب منذ المراحل السنية الأولى وفي إطار التربية المستديمة مدى الحياة.

٥ ـ يجب أن يساهم القادة في مؤسسات التعليم وفي أجهزة الإعلام المسموعة والمرئية والمقروءة وفي الأندية والجمعيات وغيرها... ـ بالإضافة إلى جهود الآباء والأمهات داخل الأسرة ـ في تشكيل القدوة الصالحة في ضوء تعاليم الدين الإسلامي بحيث يتيسر للنشء والشباب السعي نحو الاقتداء بها وهم في دور الإعداد والتكوين بحيث تتناسب نوعية (القدوة الصالحة) مع المقومات السنية وخصائص مراحل النمو في تدرج

قائم على الأسس العلمية والتربوية، وأن يتم إعداد البرامج التربوية للقدوة بشكل منطقي وبحيث تكون تلك القدوة شاملة لجوانب الشخصية الإنسانية من النواحي الروحية والبدنيـة والاجتماعيـة والنفسيـة... طبقاً لما تحـدده الشريعة الإسلامية السمحة.

سادساً ـ خاتمـــة :

وختاماً يرجى عند تفسير النتائج التي وردت في هذا البحث وفي ضوء الحقائق التي تم جمعها الالتزام بالبعد الزمني السابق ذكره وبالبعد المكاني الذي نشأ فيه أعضاء عينة الدراسة الحالية فضلاً عن أهمية دراسة كافة البرامج والمناهج التربوية التي قام المجتمع عن طريق أجهزته المعنية بتقديمها لهم بوعي أو بدون وعي. كما يجب أن نتعرف إن كانت هناك خطة تربوية شاملة للعمل مع النشء والشباب أم لا ؟ كذلك يجب أن نضع في الاعتبار تلك الظروف التاريخية التي مر بها المجتمع بصفة عامة.. ومدى تأثيرها على النشء والشباب فضلاً عن أسلوب قادة العمل التربوي الذين ساهموا في تربية هؤلاء النشء والشباب من أعضاء هذه الدراسة، الأمر الذي كان له بعض أو كل التأثير على تشكيل القدوة عند هؤلاء النشء والشباب.

وبالإضافة إلى كل ما سبق يجب أن نضع في الاعتبار كافة عوامل التأثير الخارجي التي تأتي من خارج المجتمع والتي تأثر بها أعضاء الدراسة وغيرهم ممن هم في نفس السن ودرجات تأثير تلك العوامل عليهم في المجال الزمني المحدد.

ويعني كل ذلك أيضـاً أن التفسير العـام لهـذه النتائج ـ لا يكـون صحيحـاً ـ إلا من خـلال الدراسات العلمية الشاملـة للمجتمع حتى يتيسر لنا الفهم السليم لنتائج مثل هذه الدراسة وغيرها من الدراسات العلمية والتربوية المماثلة.

ويجدر بنا الإشارة إلى أن مثل هذه الدراسات يجب إجراؤها كلما مضى وقت من الزمن وبصورة دورية منتظمة لما قد يرجى فيها من فوائد لتقييم المناهج التعليمية والبرامج التربوية التي تقوم بها مختلف أجهزة التنشئة التربوية فضلاً عن تقييم القادة العاملين في نفس هذه الأجهزة. كما أن نفس هذه

الدراسات قد تفيد كذلك في قياس بعض أو كل المؤثرات التي تؤثر في العمل التربوي مع النشء والشباب بوجه خاص ومع أعضاء المجتمع بوجه عام.

والله المـوفـق..

قائمـة المـراجـع
طبقاً لترتيب ورودها في هذه الدراسة

١ ـ القـرآن الكريـم.

٢ ـ محمد بن أبي بكر الرازي : « مختار الصحاح » القاهرة ـ ١٩١١ ـ المطبعة الأميرية ـ صفحة ٥٥١.

٣ ـ مسعد عويس : « القدوة في محيط النشء والشباب » القاهرة ١٩٧٩ ـ دار الفكر العربي ـ الطبعة الثانية.

٤ ـ محمد قطب : « منهج التربية الإسلامية » بيروت ـ القاهرة ـ جـدة ـ دار الشرق ـ صفحات ٢٢١ ، ٢٢٩.

عرض الجداول الملحقة بهذه الدراسة

جدول رقم (١)

(توزيع أعضاء عينة الدراسة من حيث النوع)

البيان	ذكور	إناث	إجمالي
العدد	٤٦٦	٩٤	٥٦٠
النسبة المئوية	٨٣,٢٪	١٦,٨٪	١٠٠٪

جدول رقم (٢)

(عرض فئات السن لأعضاء عينة الدراسة)

البيان	١٢ ـ ١٥ سنة	١٦ ـ ٢٥ سنة	٢٦ ـ ٣٠ سنة	غير مبين	إجمالي
العدد	١٠٦	٢٧٢	١٥٨	٢٤	٥٦٠
النسبة المئوية	١٨,٩٪	٤٨,٧٪	٢٨,١٪	٤,٣٪	١٠٠٪

جدول رقم (٣)

(توزيع أعضاء عينة الدراسة طبقاً للمستوى العلمي)

البيان	ابتدائي	إعدادي	ثانوي	فوق المتوسط	تعليم عال	غير مبين	إجمالي
العدد	٣٠	٩٠	٥٤	١١	٣٦٥	١٠	٥٦٠
النسبة المئوية	٥,٣٪	١٦,١٪	٩,٦٪	٢٪	٦٥,٢٪	١,٨٪	١٠٠٪

جدول رقم (٤)
توزيع أفراد العينة من الحاصلين على مؤهلات عليا أو من طلاب التعليم العالي طبقاً للتخصصات الدراسية وعددهم (٣٦٥ عضواً)

مسلسل	التخصص الدراسي	العدد	النسبة المئوية
١	التجارة والتعاون والاقتصاد والعلوم السياسية	٦٠	١٦,٤٪
٢	العلوم التربوية وكليات المعلمين	٥٢	١٤,٢٪
٣	العلوم الزراعية	٤١	١١,٢٪
٤	العلوم الهندسية والصناعية والتكنولوجيا	٣٦	٩,٩٪
٥	الطب والصيدلة	٣٢	٨,٨٪
٦	الآداب والفلسفة والدراسات الإسلامية	٣١	٨,٥٪
٧	الخدمة الاجتماعية وعلم الاجتماع وعلم النفس	٢٤	٦,٦٪
٨	القانون والشريعة	١٨	٤,٩٪
٩	العلوم والطبيعة والجيولوجيا	١٢	٣,٣٪
١٠	غير مبين التخصص الدراسي	٥٩	١٦,٢٪
	العام	٣٦٥	١٠٠٪

جـدول رقـم (٥)

(توزيع أفراد العينة طبقاً لمحل الميـلاد)

البيـــان	مـدينـة	قـريـة	غير مبيـن	إجمـالي
العـــدد	٣٨١	١٧٠	٩	٥٦٠
النسبة المئوية	٦٨٪	٣٠,٤٪	١,٦٪	١٠٠٪

جـدول رقـم (٦)

(توزيع أفراد العينة طبقاً لمحل التنشئة)

البيـان	مدينـة	قريـة	غير مبين	إجمـالي
العـدد	٤٠٦	١٢٥	٢٩	٥٦٠
النسبة المئوية	٨٢,٥٪	٢٢,٣٪	٥,٢٪	١٠٠٪

جـدول رقـم (٧)

(مكانة القدوة عند النشء والشباب من أعضاء الدراسة)

البيـان	يـوجـد قـدوة	لا يوجـد قـدوة	لا أعلـم	غير مبين	إجمـالي
العـدد	٥١٠	١٤	١٨	١٨	٥٦٠
النسبـة المئويـة	٩١,١٪	٢,٥٪	٣,٢٪	٣,٢٪	١٠٠٪

جـدول رقـم (٨)
صفات القدوة مرتبة ترتيباً تنازلياً طبقاً لآراء أعضاء الندوة

مسلسل	الصفـــات	عـدد التكرارات	النسبـة المئويـة
١	له مواقف إنسانية	٤٦٥	٨٣,٠٪
٢	متـــواضـــع	٤٦١	٨٢,٣٪
٣	مفـكـــــر	٤٤٥	٧٩,٥٪
٤	متـــديـــن	٤٤٣	٧٩,١٪
٥	لـه مـواقف طيبـة	٣٧٠	٦٦,١٪
٦	طيـب القلـب	٣٣٣	٥٩,٥٪
٧	حســن المظهــر	٢٦١	٤٦,٦٪
٨	له قـدرات خاصـة	١٨٦	٣٣,٢٪
٩	يؤدي خدمـات خاصـة	٧٣	١٣,٠٪
١٠	صفـات أخــرى متنوعـة	٢٠٧	٣٧,٠٪

جدول رقم (٩)

(مدى الحاجة إلى القدوة في رأي أعضاء اللجنة)

البيان	نعم هناك حاجة للقدوة	لا توجد حاجة للقدوة	لا أعلم	غير مبين	إجمالي
العدد	٤٢٠	٨٩	٢٨	٢٣	٥٦٠
النسبة المئوية	٧٥٪	١٥,٩٪	٥٪	٤,١٪	١٠٠٪

جدول رقم (١٠)

(بيان أسباب اتخاذ القدوة لدى أعضاء الدراسة
من الذين قرروا أن لديهم قدوة بوجه عام وعددهم ٥١٠ عضواً)

البيان	التكرارات	النسبة المئوية
لكي أحاول أن أكون مثلهم	١٨٥	٣٦,٣٪
لكي أكون مثلهم	١٤٥	٢٨,٤٪
لكي أكون أفضل منهم	١٨٩	٣٧٪
أسباب أخرى	١٤٤	٢٨٪
غير مبين	٦	١,٢ ٪

جدول رقم (١١)
نوعية القدوة في المجال الديني في رأي أعضاء الدراسة الذين لديهم قدوة في المجال الديني وعددهم (٤٤٢ عضواً)

مسلسل	القدوة الدينية	النسبة المئوية
١	الأنبياء والرسل وفي مقدمتهم محمد ﷺ	٤٧,٧٪
٢	أحد الخلفاء الراشدين	١١,١٪
٣	مفكر إسلامي	٥,٢ ٪
٤	الأب	٥,٢ ٪
٥	أحد قادة الأزهر	٤,١ ٪
٦	مفكر إسلامي وأستاذ جامعي معاصر	٤,١ ٪
٧	مفكر ديني راحل منذ بداية القرن الحالي	٣,٨ ٪
٨	مفكر ديني معاصر	٣,٤ ٪
٩	مجموعة من رجال الدين المعاصرين وغير المعاصرين وعددهم عشرة	٥,٦ ٪

ملحوظة :

يلاحظ أننا لم نحاول الإشارة إلى أسماء القادة الذين اختارهم أعضاء الدراسة كقدوة في المجال الديني لأن المعيار ليس في الأسماء المجردة بل في الصفات التي اتخذت القيادات قدوة على أساسها.

جدول رقم (١٢)
نوعية القادة الذين تم اتخاذهم قدوة في المجال الدراسي

مسلسل	البيـــان	النسبة المئوية
١	أساتذة التعليم العالي والجامعي	٢٧,٥٪
٢	مدرسو المرحلة الثانوية	٦,٩ ٪
٣	مدرسو المرحلة المتوسطة والإعدادية	٢,٥ ٪
٤	مدرسو المرحلة الابتدائية	٥,٣ ٪
٥	من غير العاملين في مؤسسات التعليم	٥٨,١٪
	إجمـــالي	١٠٠٪

جدول رقم (١٣)
مدى تواجد القدوة عند أعضاء العينة في مجالات الدراسة طبقاً للترتيب التنازلي

ترتيب		البيان	يوجد قدوة	لا يوجد قدوة	غير مبين	إجمالي
١	المجال الأسري	العدد ٪	٤٩٠ ٨٧,٥	٥٩ ١٠,٥	١١ ٢	٥٦٠ ١٠٠٪
٢	المجال الثقافي	العدد ٪	٤٦٨ ٨٣,٦	٦٧ ١٢	٢٥ ٤,٤	٥٦٠ ١٠٠٪
٣	المجال الوطني	العدد ٪	٤٥١ ٨٠,٥	٧٧ ١٣,٧	٣٢ ٥,٨	٥٦٠ ١٠٠٪
٤	المجال الديني	العدد ٪	٤٤٢ ٧٨,٩	٨٤ ١٥	٣٤ ٦,١	٥٦٠ ١٠٠٪
٥	المجال السياسي	العدد ٪	٣٩٩ ٧١,٣	١٠٥ ١٨,٧	٥٦ ١٠	٥٦٠ ١٠٠٪
٦	المجال الفني	العدد ٪	٣٩٣ ٧٠,٢	١٣٣ ٢٣,٧	٣٤ ٦,١	٥٦٠ ١٠٠٪
٧	المجال الدراسي	العدد ٪	٣٩٢ ٧٠	١٣٥ ٢٤,١	٣٣ ٥,٩	٥٦٠ ١٠٠٪
٨	المجال الرياضي	العدد ٪	٣٧٠ ٦٦,١	١٥٧ ٢٨	٣٣ ٥,٩	٥٦٠ ١٠٠٪

جـدول رقـم (١٤)
بيان عدد الشخصيـات القيـاديـة
التي تم اتخاذها قدوة في مختلف مجالات الدراسة

الترتيب	المجـالات	عـدد الشخصيات التي تم اتخاذها قدوة
١	الأسـري	١٠
٢	الثقـافي	٦٨
٣	الـوطنـي	٦٠
٤	الـديني	١٨
٥	السيـاسي	٢٣
٦	الـفـنـي	١٢٣
٧	الـدراسي	٣٩٢
٨	الـريـاضي	٧٥

الشَّبَابُ وَالتَّغيير

للأستاذ فتحي يكن
أمين الجماعة الإسلامية - لبنان



بسم الله الرحمن الرحيم

التغيير شعار كثر طرحه في الأزمنة الأخيرة من قبل ما يسمى (بالإتجاهات الثورية)، والماركسية أبرز الاتجاهات التي تؤمن بالتغيير القسري، أي بالعنف، وماركس يفصح عن رأيه في الأسلوب الذي ينبغي أن تعتمده الحركة الشيوعية في تغيير المجتمعات والكيانات الرأسمالية فيقول (لا سبيل لإحلال الإشتراكية محل الرأسمالية إلّا بالثورة).

والشباب هو القطاع المعتمد لدى كل الاتجاهات ذات الاستراتيجية التغييرية، فالثورات والإنقلابات، التي قامت وتقوم في شتى أنحاء المعمورة، اعتمدت أساساً على الشباب في سبيل تحقيق أغراضها.

فما هو حظ الإسلام من الاعتماد على الشباب ؟، وما هو دور الشباب في التغيير الإسلامي المنشود ؟، وما هي سمات التغيير الإسلامي ؟، كل ذلك ما سنحاول مناقشته وتناوله خلال بحثنا هذا (الشباب والتغيير).

لماذا الشباب ؟ :

لماذا التركيز دائماً على الشباب ؟.

لماذا الاعتماد باستمرار على الشباب ؟.

في منطق الإسلام، لا يعني الاعتماد على الشباب إغفال دور الرجال والكهول أو إغماطهم حقهم أو الإقلال من شأنهم كما كان حال الشيوعية حين طالب أحد زعمائها بعد الثورة بإبادة جميع المسنين حتى لا يكونوا كلًّا على الدولة.

في منطق الإسلام، كل إنسان له دوره، وكل دور ينبغي أن يعطى حقه من غير حساسيات، وبدون منازعات، وضمن الأصول والقواعد التالية :

١) رحم الله امرءاً عرف حده فوقف عنده.

٢) ليس منا من لم يوقر كبيره ويرحم صغيره.

٣) اقبل الحق ممن جاء به من صغير أو كبير ولو كان بغيضاً بعيداً، وارْدد الباطل على من جاء به من صغير أو كبير ولو كان حبيباً قريباً.

وإذا كان التركيز في نطاق المهمات التغييرية على الشباب فهو من قبيل التناسب والتناسق بين الطاقات والمهمات، فالإنسان في كل طور من أطوار حياته تكون لديه من الإمكانيات والطاقات ما تتناسب مع مهمة معينة، وقد لا تتناسب مع كل المهمات، فهو في سن الطفولة غيره في سن الشباب، غيره في سن الرجولة، غيره في سن الكهولة، (ومنكم من يُرَدُّ إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً)[1].

ــ فلماذا الشباب هنا ؟.

ــ في الحقيقة إن الشباب هو سن الهمم المتوثبة والدماء الفائرة، والآمال العريضة، سن العطاء والبذل والفداء، سن التلقي والتأثر والانفعال.

من هنا كان سن الشباب في منطق الإسلام ذا مسئولية وقيمة خاصة، لطالما حرص رسول الإسلام على إشعار الشباب بها، منها قوله ﷺ (اغتنم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وحياتك قبل موتك، وفراغك قبل شغلك).

الكائن البشري ــ في طبيعة تركيبه وتكوينه ــ يبلغ في سن معينة قمة

---

(١) سورة الحج : آية ٥.

العطاء الحسيّ، ثم يبدأ المؤشر بالتراجع والانحدار، ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾[1]، وصدق رسول الله ﷺ حيث يقول: (إن لكل عمل شِرَّة، ولكل شرة فترة، فمن كانت فترته إلى سنّتي فقد اهتدى، ومن كانت فترته إلى غير ذلك فقد هلك).

من هنا كان الحرص على الاستفادة من سن الشباب ومن الشباب في تحقيق المهمات الصعبة، وتذليل العقبات الكؤود، ومواجهة التحديات التي يفرضها منطق التغيير الحضاري.

لماذا الشباب المسلم ؟ :

والإسلام حين يحرص على الشباب في تحقيق أهدافه التغييرية، فليس لكونه الجيل الذي لديه الصفات والمواصفات التجريدية فحسب، وإنما يفرض ــ فوق ذلك وقبل ذلك ــ أن تتحقق في ذلك الجيل صفةُ الانتماء للإسلام والالتزام بمبادئه أي أن يكون جيلاً مسلماً.

إن الشباب بالإسلام شيء، وبغير الإسلام لا شيء.

إن الشباب بالإسلام هو العطاء وهو الخير وهو البناء، وهو بغير الإسلام تعاسة وبلاء.

فالشباب طاقة يسخرها الإسلام في عمارة الكون وقد يسخرها الآخرون في إهلاك البشرية.

إن المجتمعات البشرية اليوم ممتلئة بالشباب، ولكنه شباب فارغ تائه شارد.

شباب انعدمت شخصيته فهو يقلد كالقردة.

شباب انعدمت أخلاقه فهو إلى الأنعام أقرب.

شباب غاضت رجولته فهو إلى التخنث أميل.

شباب جندته قوى الشر والطغيان، وانتظمته أحزاب الكفر والشيطان.

شباب خنث لا خير فيهم ... وبورك في الشباب الطامحينا

---

(١) سورة آل عمران : آية ١٤٠.

لماذا إعداد الشباب المسلم ؟ :

هنالك تصورات مختلفة حول مهمة الشباب المسلم والهدف من إعداده.

فما هو الهدف الأصيل من إعداد الشباب المسلم ؟.

هل الهدف من إعداد الشباب المسلم أن يحفظ نفسه من مضلات الهوى وبواعث الفتنة، ويؤدي ما افترضه الله عليه ويجتنب ما نهاه الله عنه وكفى ؟.

أم هل الهدف من إعداد الشباب المسلم أن يتزود بحظٍ وافر من الثقافة الإسلامية يمكنه من الكتابة والخطابة فحسب ؟.

وهل الهدف من إعداد الشباب المسلم أن ينهض ببعض الواجبات الخيرية... يطعم المساكين ويداوي المرضى ويواسي البؤساء والمحرومين فقط ؟.

أم هل الهدف من إعداد الشباب المسلم أن يقوم بدعوة الناس إلى الإسلام ــ معذرةً إلى الله ــ استجابوا بعد ذلك أم لم يستجيبوا ؟.

أم هل الهدف من ذلك أن يكون الشباب في تنظيم شبابي إسلامي وكفى، سواء أكان من العاملين فيه أم من المتفرجين عليه أو المعوقين له ؟.

في الحقيقة إننا لسنا أحراراً في أن نختار هذا الهدف أو ذاك...، والعالم الإسلامي يعيش في ظل حكم الطاغوت، والإسلام مبعد عن دوره القيادي ؟.

إنه يتعين أن يكون الهدف من إعداد الشباب المسلم اليوم هو أن يحقق قوامة الإسلام على مجتمعه وعلى العالم. وهذا يفرض بالتالي أن تكون مهمة الشباب المسلم ــ نقل قيادة الأمة، من أيدي الجاهلية وأفكارها وتشريعاتها وأخلاقها، إلى يد الإسلام وأفكاره وتشريعاته وأخلاقه.

إن هذا العمل وما يحتاجه ويتصل به ويتفرع عنه ويتطلبه يجب أن يمثل في الحقيقة المهمة الأساسية للشباب المسلم والغاية الرئيسية من

إعداد الشباب المسلم، وهو في هذا الإطار واجب شرعي لا يسقط حتى تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

إن غاية المنهج الإسلامي تعبيد الناس لله في شتى نواحي حياتهم، في سلوكهم كما في معاملاتهم، في قوانينهم كما في أفكارهم وتشريعاتهم، وهذا يعني بدون شك نقض الأسس والمرتكزات التي يقوم عليها المجتمع الجاهلي والحضارة المادية، وإرساء الأسس والمرتكزات الإسلامية مكانها.

إن ذلك يعني أن مهمة الشباب المسلم (تغييرية) وليست ترقيعية أو ترميمية، أو هكذا يجب أن تكون.

إنها في الحقيقة مهمة صعبة وشاقة ولكنها المهمة المطلوبة، وكل ما عداها من مهمات تفقد قيمتها وهويتها وشخصيتها وتساعد بالتالي على امتصاص النقمة وتعطيل إرادة التغيير، بل ومسايرة الواقع الجاهلي والتعايش معه.

الإسلام منهج تغييري :

ومن خصائص المنهج الإسلامي أنه تغييري، يرفض الترقيع أو الترميم، ولا يرضى بأنصاف الحلول أو أرباعها، كما لا يستسيغ التعايش مع الجاهلية (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله)[1].

نهج الرسول كان تغييرياً :

ونهج الرسول ﷺ في مواجهة الجاهلية كان تغييرياً، فعندما جاءت قريش تعرض على محمد أن يعبد آلهتها شهراً لتعبد إلهه شهراً آخر، ينزل القرآن الكريم بالموقف الحاسم : (قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون، ولا أنتم عابدون ما أعبد، ولا أنا عابد ما عبدتم، ولا أنتم عابدون ما أعبد، لكم دينكم ولي دين)[2]، (فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب، وأمرت لأعدل بينكم، الله ربنا وربكم لنا

---

(١) سورة الأنفال : آية ٣٩.

(٢) سورة الكافرون : الآيات ١ ـ ٦.

أعمالنا ولكم أعمالكم، لا حجة بيننا وبينكم، الله يجمع بيننا وإليه المصير)[1].

وضع الأمة الإسلامية يفرض التغيير :

والتغيير واجب بالضرورة على الشباب المسلم لمواجهة تحديات العصر لوقف الموجات المادية والزحوف الإلحادية التي تتهدد الوجود الإسلامي بالزوال والفناء.

إن نظرة فاحصة إلى أوضاع المسلمين في كل مكان تؤكد ضرورة إعداد الشباب المسلم إعداداً يتكافأ مع مهمة التغيير الإسلامي المنشود، بل وتجعل القيام بذلك تكليفاً شرعياً لا يجوز القعود عنه أو التهاون فيه.

فلسفة التغيير الإسلامي :

والتغيير الإسلامي المنشود ليس فلسفة معقدة كما قد يفهم أو يظن أو يزعم البعض، على عكس ذلك تماماً هي فلسفة التغيير في الإسلام، وبكلمات موجزات عبَّر عن هذه الفلسفة رجل من المسلمين هو ربعي بن عامر، قال ربعي لرستم قائد جيوش فارس بعد أن سأله هذا عن سبب زحوفهم : (الله جاء بنا لنخرج من شاء من العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله الواحد القهار، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأُديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قَبِلَ منا ذلك قبلناه منه ورجعنا عنه وتركناه وأرضه يليها دوننا، ومن أبى قاتلناه حتى نفضي إلى موعود الله).

مفهوم الحكم الإسلامي :

كذلك فلسفة التغيير الإسلامي مرتبطة ارتباطاً وثيقاً مع مفهوم الحكم الإسلامي ولا انفكاك لإحداها عن الأخرى.

فالحكم الإسلامي بهذا المفهوم ليس شعاراً يرفع.

ليس نصاً في دستور الدولة على أن دينها الإسلام.

---

(١) سورة الشورى : آية ١٥.

ليس قراراً يحرم بموجبه عمل، ويباح آخر.
ليس مظهراً سياسياً لدولة.
إنمــا هــو :
- حكم يصدر في كل ممارساته عن تصور الإسلام للكون والإنسان والحياة.
- حكم يحقق ربط الفرد والمجتمع والدولة بالله وفق منهج الإسلام.
- حكم يكون شرع الله فيه أساس التقاضي والتحاكم.
- حكم يكون شرع الله فيه ميزان التعامل في الداخل والخارج في السلم والحرب.
- حكم يأخذ بكل أسباب القوة المادية فضلاً عن القوة المعنوية.

فهو بذلك : ليس حكم دراويش، أو حكماً رجعياً، أو ثيوقراطياً أو مظهرياً.

التغيير الإسلامي عملية شاقة ولكن ليس لنا خيار :

إننا حين ندعو إلى أن تكون الغاية من إعداد الشباب المسلم (تغيير الواقع الجاهلي بالواقع الإسلامي) ندرك أبعاد ذلك وماذا يترتب عليه.

إننا ندرك أن ذلك يعني تألب القوى العالمية كلها - اليهودية والصليبية والشيوعية - لإحباط عملنا.

إننا ندرك أن ذلك يعني كذلك تكاتف القوى المحلية - أحزاب الشيطان وأنظمة الطاغوت - ووقوفها جميعاً في وجهنا.

ولكن في الحقيقة ليس لنا خيار، فالشباب إما أن يعد الإعداد الذي تتطلبه مصلحة الإسلام اليوم فيكون إعداداً متكافئاً مع تحديات الجاهلية، أو أنه سيكون إعداداً لا طائل تحته، فضلاً عن كونه ليس الإعداد المطلوب شرعاً في هذه المرحلة وفي هذه الظروف.

اختيار ذوي الأهليـة :

إن المهمة التغييرية - الصعبة - التي يفرضها الإسلام لاستنقاذ الإنسانية من وهدة الجاهلية التي وصلت إليها، تحتاج، للقيام بها، إلى

شباب على جانب من الأهلية وعلى مستوى من الإعداد.

وهذا يفرض بالتـالي حسن الاختيـار.

ومنطق الاختيار هذا ليس جديداً أو مستحدثاً، فهو المنطق الذي تحققت به مهمات التغيير عبر التاريخ، ذلك أن قابليات البشر واستعداداتهم وإمكانياتهم متفاوتة كماً ونوعاً، وما يطيقه إنسان قد لا يطيقه آخر، وما يقدر عليه هذا قد لا يقدر عليه ذاك، وصدق رسول الله ﷺ حيث يصور تفاوت الناس وتفاوت قابلياتهم في التلقي والعطاء فيقول : (مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكان منها :

١) نقية (أي طيبة) قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير. وكانت منها :

٢) أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي :

٣) قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فَعَلِمَ وعلَّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أُرسلتُ به).

ومنطق الاختيار هذا جعل الرسول ﷺ ينتقي لدعوته من كان يقدر أن لديه الاستعداد والامكانية قبل أن يقوم بعرض دعوته على قبائل العرب وعامة الناس.

ولقد درج على مبدأ الاختيار حيال كل مهمة صعبة.

فيوم خيبر قال : (لأعطين هذه الراية رجلاً يفتح الله على يديه، يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله)، فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ وكلهم يرجو أن يعطاها، فقال : (أين علي بن أبي طالب ؟) فقيل : يا رسول الله هو يشتكي عينيه، قال : (فأرسلوا إليه)، فأتى به فبصق رسول الله في عينيه ودعا له فبرئ حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية.

والقرآن الكريم أشار إلى مبدأ الاختيار في كثير من المواقع والآيات في معرض كلامه عن الأنبياء والمرسلين.

ففي اختيار موسى عليه السلام للرسالة قال : (إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي، فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين)[1]، وقال : (وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى)[2]، وقال : (واصطنعتك لنفسي)[3].

وفي اختيار مريم قال : (وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين)[4].

وفي اختيار آدم ونوح وابراهيم قال : (إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين، ذريةً بعضها من بعض)[5].

وفي اختيار رسول الله ﷺ يقول عليه الصلاة والسلام عن نفسه : (إن الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم)[6].

المؤشرات الأصيلة للأهلية :

إن تفاوت القدرات والاستعدادات بين فرد وآخر أمر بديهي وواقعي، فهنالك عوامل كثيرة تخلق هذا التفاوت وتوجده، منها الفطري ومنها الوراثي ومنها الاكتسابي، أي أن هذه العوامل، منها ما هو أصيل ثابت في شخصية هذا الفرد، ومنها ما هو دخيل عليه.

وعملية الاختيار ينبغي أن تعتمد على ما هو أصيل من هذه الصفات أولاً وقبل كل شيء، من ذلك :

١ ـ الاستعداد الانضباطي :

إن من أبرز الصفات التي ترشح الشاب المسلم لمهمة التغيير الحضاري هي استعداده الانضباطي. فالانضباطية استعداد نفسي وذهني

---

(١) سورة الأعراف : آية ١٤٤.
(٢) سورة طه : آية ١٣.
(٣) سورة طه : آية ٤١.
(٤) سورة آل عمران : آية ٤٢.
(٥) سورة آل عمران : الآيتان ٣٣ ـ ٣٤.
(٦) رواه مسلم في صحيحه.

للتقيد والالتزام، فإذا انعدم هذا الاستعداد انعدم بالتالي عنصر الطاقة وانعدمت بالتالي قابلية التلقي للتنفيذ، وما قيمة القدرات الروحية والفكرية والجسدية إذا لم يمكن الاستفادة منها وضبطها وتوجيهها، إنها قد تكون أحياناً قُدُرات مخربة ومعوقة.

٢ ـ الاستعداد الإبداعي :

ومن الصفات التي يجب أن تتوافر فيمن يرشح لمهمة التغيير صفة الإبداع، أي صفة العطاء والإنتاج، الصفة التي تجعل الشاب المسلم في مجتمعه (طليعياً) وليس (ذيلياً)، نشيطاً متفاعلاً وليس كسولاً خاملاً، الصفة التي تجعله من ذوي المبادرات الذاتية ما دامت هذه المبادرات في إطار المهمات الموكولة إليه، أما الذين لا يتحركون إلا بتكليف وتقريع أو ضغط وتأنيب، فهؤلاء قد لا تكون حاجة الإسلام اليوم إليهم كبيرة، فالحاجة اليوم ملحة إلى من يحملون الإسلام لا إلى من يحملهم الإسلام.

٣ ـ الاستعداد الجهادي :

ومن الصفات التي ترشح الشاب المسلم لمهمة التغيير الإسلامي هي الصفة الجهادية، أي الاستعداد النفسي للجهاد وما يفرضه من تضحية بالنفس والمال وبكل شيء، الصفة الجهادية التي تجعل لدى الشاب المسلم الاستعداد الكامل لوفاء البيعة مع الله مصداقاً لقوله تعالى : ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، يقاتلون في سبيل الله فيَقْتلون ويُقْتلون، وعْداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن، ومن أوفى بعهده من الله، فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به، وذلك هو الفوز العظيم﴾[1].

هذه أبرز الصفات التي يجب أن تتوافر فيمن يُرشح من الشباب المسلم لمهمة التغيير، وعن هذه الصفات الرئيسية تتوالد سائر الصفات التفصيلية الأخرى.

ملامح التشوه في الشخصية الإسلامية الحديثة :

إن إعداد الشباب المسلم لمواجهة التحدي وإحداث التغيير

---

(١) سورة التوبة : آية ١١١.

الإسلامي المنشود يجب أن تُوفر له كل الضمانات التي تجعله قادراً على تكوين الشخصية الإسلامية تكويناً صحيحاً غير منقوص أو مشوه أو ممسوخ.

لقد أصيبت الشخصية الإسلامية الحديثة بكثير من التشوه مما أدى إلى تعطيل دورها الأصيل أو استنزافها في قضايا جانبية لا طائل تحتها، ومما أفقدها القدرة على المضي في الطريق حتى النهاية أو ما شابه ذلك من النتائج السيئة.

إن مناهج الإعداد يجب أن تلحظ الثغرات التالية التي يمكن أن تتسبب في تشويه شخصية الشباب المسلم :

أ) المثالية النظرية والعقم الحركي :

فالشباب المسلم يجب أن يربى بالممارسة والقدوة، إلى جانب النظرية والفكرة ليكون شباباً معطاء قادراً على ترجمة أفكاره ونظرياته إلى سلوك بشري وإنتاج حركي، وصدق رسول الله ﷺ حيث يقول : (ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل).

ب) التطرف والتشنج :

وظاهرة التطرف والتشنج لدى فئات من الشباب المسلم غدت من أخطر الظواهر على الإسلام والعمل الإسلامي، فهي من جهة تدمر أصحابها، ومن جهة أخرى يمكن أن تصبح سلاحاً بيد أعداء الإسلام يصيبون الإسلام به مقتلاً، فكم من ضحايا وتضحيات قدمت ـ بسبب هذه الآفة ـ من غير طائل وبدون ثمن، بل كم من جبهات ومعارك فُتحت على الإسلام وعلى العاملين فيه من غير توقع أو حسبان بسبب تطرف البعض وتشنجهم.

جـ) غلبة الجزئية على الكلية :

وهنالك فريق من الشباب المسلم هنا وفريق هناك استهوتهم جوانب معينة من الإسلام فتشبث بها دون غيرها وغدت محور حياته كلها، فنشأ عن ذلك فرق مهووسة من الشباب، فهؤلاء مهووسون بالعطر والتعطر،

وأولئك باللحية والمسبحة والزي، وغيرهم بوسائل العنف والقوة، وسواهم بالترهب والتصوف، وآخرون بالفقه والتفقه، وكل يدعي الحق وأن ما عداه الباطل.

د) غلبة الشخص على الشرع :

ومن مظاهر التشوه، الانقياد الشخصاني والمبالغة في التبعية البشرية، وهذا ما أدى إلى نشوء محاور بين الشباب المسلم سببها الرئيسي عدم خلوص الولاء لله، والتحزب والتعصب للأفراد والأسماء وليس لما شرع الله، فما أحوجنا في نطاق الإعداد إلى ترسيخ قاعدة : (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق)، وقاعدة : (نحن نعرف الخلق بالحق ولا نعرف الحق بالخلق).

هـ) غلبة الهوى على الحق :

وهناك مظهر آخر من مظاهر التشوه تكون تبعية الإنسان فيه لهواه ومزاجه ورأيه، ولو كان مخالفاً في ذلك رأي قيادته إن كان عضواً في تنظيم، أو رأي شيخه إن كان مريداً، والتربية الإسلامية يجب أن تستأصل النزعة الفردية والمزاجية ليحل محلها الولاء المطلق لله، (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم).

و) بين الرضوخ والطموح :

ومن مظاهر تشوه الشخصية الإسلامية الحديثة قبولها بالواقع والركون إليه، وهذا ما يجعل النتائج والمحصلات مرتهنة لما هو كائن وليس لما يجب أن يكون. إن الفرق بين ما هو كائن وبين ما ينبغي أن يكون كالفرق بين الحق والباطل، وهو المقصود بالتغيير، والشباب المسلم يجب أن يربى على الطموح بالحق والاستعلاء على الباطل وعدم الارتهان للواقع ليتمكن من تحقيق التغيير الإسلامي المنشود.

أطر إعداد الشباب المسلم :

بما أنه قد ثبت لدينا أن مهمة الشباب المسلم مهمة تغييرية، مهمة صعبة وشاقة، فقد أصبح من البديهي أن يكون إعدادهم متكافئاً مع ضخامة

العبء وثقل المسئولية وخطورة المهمة التي سيضطلعون بها، ومن هنا كان لا بد أولاً وقبل كل شيء من تحديد الأطر الرئيسية المبدئية لهذا الإعداد قبل الدخول في تفصيلاته وتفريعاته وجزئياته :

١) أن يكون إعداداً متكاملاً :

بمعنى أن يتناول جوانب الإعداد كلها، الفكرية والنفسية والحركية، فلا يكون إعداداً فكرياً نظرياً فحسب، أو روحياً تربوياً فقط، أو حركياً سياسياً وحده، وإنما تكون العناية بجوانب الشخصية كلها لتكون شخصية إسلامية متكاملة قادرة على الصمود والتحدي والاستمرار وتحقيق الهدف من وجودها.

٢) أن يكون إعداداً متوازناً :

بمعنى أن يكون الاهتمام بإعداد كل جانب من الجوانب بالقدر المطلوب من غير زيادة أو نقصان.

ذلك أن زيادة الاهتمام بأي جانب سيكون حتماً على حساب الاهتمام بالجوانب الأخرى، وسيؤدي هذا ـ لا محالة ـ إلى تشوه في الشخصية واختلاف في توازنها.

٣) أن يكون إعداداً ميدانياً :

بمعنى أن لا يقتصر على النظريات وإنما يعتمد على أسلوب ونهج تطبيقي في عملية التكوين والإعداد، وعلى توفير القدوة الحسنة المتحركة... إن هذا يعني أن يكون الإعداد من خلال الحركة والعمل، وليس فقط من خلال الموعظة والدرس.

إن تحقيق هذه الأطر الرئيسية ـ المبدئية في عملية الإعداد ـ من شأنها أن تساعد على إيجاد الشخصية السوية غير المعقدة وغير المشوهة وغير المتطرفة وغير المترخصة.

هذه الشخصية ـ بهذه الصفة ـ هي التي يحتاج إليها الإسلام اليوم في عملية التغيير.

ملامح منهج لإعداد الشباب المسلم :

يجب أن يتضمن المنهج ثلاثة مناح للإعداد :

١) الإعداد الفكـــري.
٢) الإعداد النفسي.
٣) الإعداد الحركي.

١) الإعداد الفكري :

ونعني به تكوين العقلية الإسلامية لدى الشباب المسلم، فما هي الثقافة اللازمة لذلك ؟.

إن الشاب المسلم، حتى يتمكن من النهوض بواجبه علىٰ أكمل وجه في مهمة التغيير، يحتاج إلى بناء فكري كامل.

أ) الثقافة الإسلاميــة :

فهو يجب أن يتسلح أولاً بالثقافة الإسلامية، وأن تكون هذه الثقافة أصيلة ومركزة وثابتة الأصول والقواعد، فهو بحاجة إليها ـ ابتداء ـ ليقيم حياته على أساسها، كما أنه بحاجة إليها كذلك لاجتذاب الآخرين إليها، وفاقد الشيء لا يعطيه.

ولتكوين الثقافة الإسلامية لا بد من دراسة العلوم التالية :

القرآن وتفسيره ـ السنة النبوية وعلومها ـ السيرة النبوية ـ حياة الصحابة ـ الفقه وأصوله ـ علم العقيدة ـ علم التزكية ـ النظم الإسلامية. (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين).

ب) الثقافـة العامـة :

والشاب المسلم يحتاج، إلى جانب تسلحه بالثقافة الإسلامية، أن يطلع على الثقافات والعلوم والأفكار الأخرى ليتمكن من نقضها ومواجهة ما كان منحرفاً منها. وصدق رسول الله ﷺ حيث يقول : (من تعلم لغة قوم أَمِنَ مكرهم)، (خذوا الحكمة من أي وعاء خرجت).

ولتكوين ثقافة عامة لا بد من دراسة ما يلي :

الثقافة الإنسانية ـ الثقافة العلمية ـ الثقافة الواقعية ـ الثقافة التاريخية.

٢) الإعـداد النفسي :

ونعني به تكوين النفسية الإسلامية لدى الشباب المسلم، والنفسية الإسلامية هي النفسية التي تقوم بتصريف الغرائز والميول وفق أحكام الشرع، النفسية التي تستفتي الإسلام وتلتزم بما يفتي به، فلا يتحكم بها هوى أو تقودها شهوة أو تستبد بها مصلحة.

إن الإعداد النفسي هو بمثابة التجسيد الحي للإعداد الفكري، والترجمة العملية للعقلية الإسلامية.

إن الإعداد النفسي هو ترويض النفس على التقيد بشرعية إشباع الميول والرغبات، بفهم أحكام الشرع لحدود الإشباع أولاً، ثم بترويض النفس بالتكاليف العبادية والتربوية.

٣) الإعـداد الحركي :

ونعني به إعداد الشباب المسلم وتدريبه على كل ما يتعلق ويتصل بالجانب الحركي الإسلامي والمعادي للإسلام، وما يتعلق ببيئة الدعـوة وتركيبها ومشكلاتها، وبدراسة أفضل الوسائل العلمية الحديثة التي يمكن اعتمادها في هذا النطاق.

إن الإعداد الحركي أشبه (بالمناورات) التي تمارس الجيوشُ من خلالها اختباراتها العسكرية قبل أن تخوض المعارك الحقيقية الحية، وما لم يمارس الجيش هذا النوع من التدريب فسيخسر الحرب لا محالة.

وميدان العمل الإسلامي هو في الحقيقة ميدان معركة وجهاد وإن اختلفت الأسلحة، والشباب في ميدان الدعوة كالجنديّ في ميدان المعركة لا بد له من إعداد ميداني يمارس من خلاله تطبيق ما تعلّم من نظريات قبل أن ينزل إلى ميدان التحدي الأكبر وساحة المواجهة الحقيقية.

فكم من علماء مختصين في شتى مجالات العلوم بقيت علومهم

حبيسة رؤوسهم وبقي مجال الانتفاع بهم ضيقاً حرجاً، وذلك لنقص في خبراتهم العملية أو لتهيّبهم الأعمال الميدانية.

ومن فقرات الإعداد الحركي : دراسة الواقع الحركي الإسلامي، ودراسة الواقع الحركي الجاهلي، ودراسة البيئة والمجتمع، ودراسة المنطلقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تمثل آمال الجماهير، ودراسة العلوم التجريبية الاختبارية ـ وأخيراً تدريب الشباب المسلم على ما يلي :

- تدريبهم على طاعة الله وعبادته : بالصلاة الجماعية والصوم الجماعي والحج الجماعي وحضور مجالس العلم والذكر، وتذكّر الموت، وتحري السنة، وتوثيق الصلة بكتاب الله قراءة وحفظاً وتفسيراً والتزاماً، وبسنة الرسول ﷺ وسنة الخلفاء الراشدين من بعده.
- تدريبهم على أساليب الدعوة : كأسلوب التوجيه والإرشاد، وأسلوب المناقشة الموضوعية، وأسلوب الترغيب والترهيب والأسلوب القصصي.
- تدريبهم على حمل المشاق، والتعرض للصعاب، ومواجهة الأخطار ؛ لتقوى عزيمتهم ويشتد عودهم ويعظم صبرهم وتصلب إرادتهم فلا يكونوا ممن عناهم الشاعر بقوله :

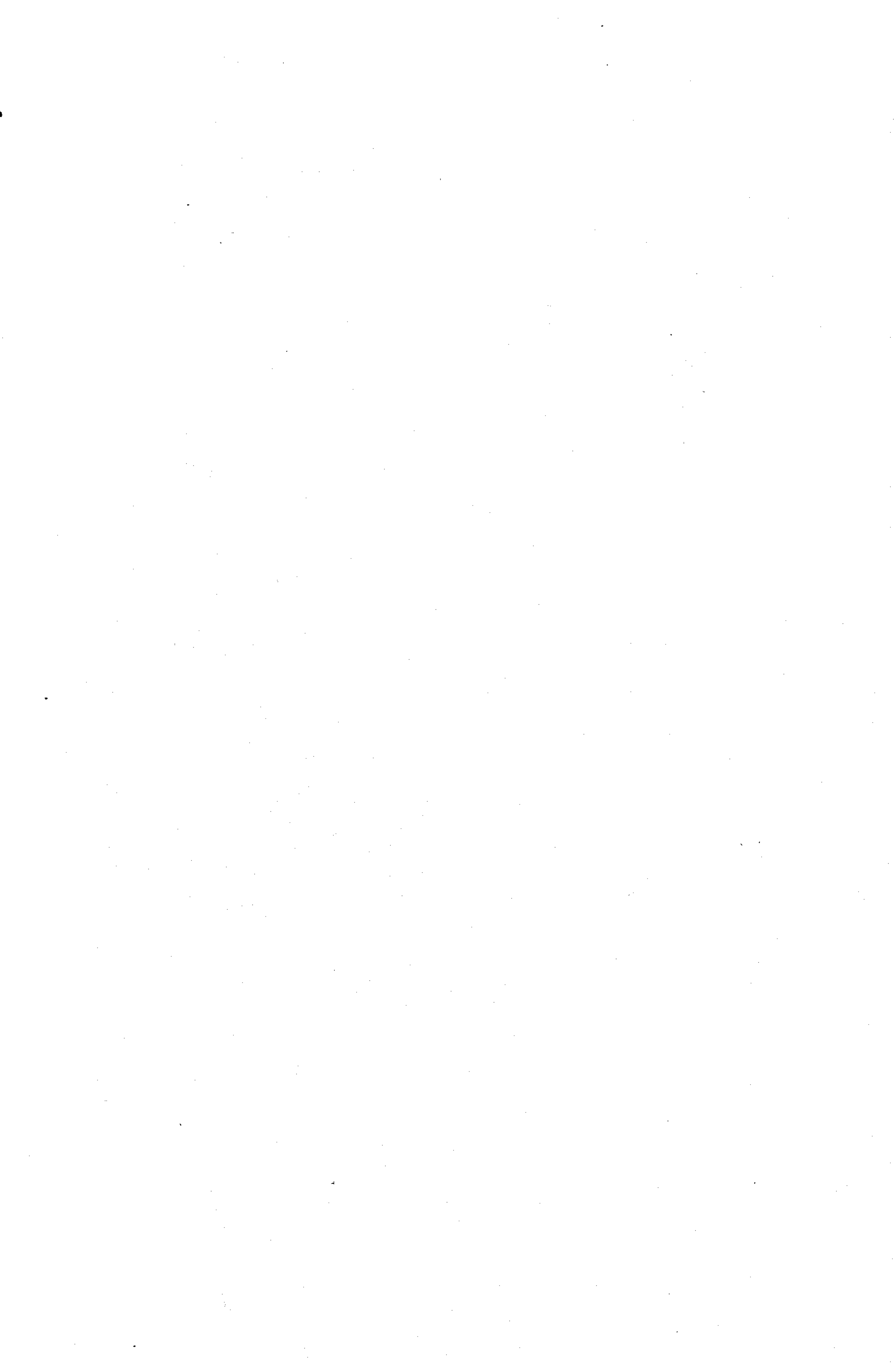
خطرات النسيم تجرح خديه ... ولِبْسُ الحرير يدمي بنانه

* * *

وأخيراً فإن مهمة الشباب المسلم المعاصر مهمة شاقة صعبة، وطريقها محفوفة بالمهالك، إن مهمة إقامة الإسلام في واقع حياة الناس تحتاج إلى جيل قرآني جديد على غرار الجيل القرآني الأول، (ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله).

دَور الشباب في بناء الأمّة والحضارة وكيف نعنى به

للدكتور عبد المجيد العبد
مدير المركز القومي للتدريب والاستخدام



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يمثل الشباب في أي مجتمع القدرة الكامنة على النمو والتطوير والطاقة المحركة التي لو أطلقت لأصاب المجتمع خيراً كثيراً، نتيجة لاستيعاب منجزات العلم والتكنولوجيا والتغلب على تحديات العصر، كما تتوقف حيوية المجتمع وقدرته على إحداث التغيير على مدى ما بشبابه من قوة وأمانة، واستعداده لتحمل مسئولياته في إحداث التطوير.

وعادة ما يمثل الشباب النسبة الغالبة من السكان في المجتمعات النامية، الأمر الذي يقتضي مزيداً من الاهتمام به والاستثمار فيه، حيث يعتمد نمو خبرات هذه المجتمعات وملاحقتها لمطالب التطور، وتفوق هيكل عملها وجودته، على مدى جدوى عنصر الشباب فيها. ولهذا السبب نفسه نجد أن سرعان ما ينهار أي مجتمع وتضيع قيمه، إذا ما وهن شبابه، وأغلقت دونه نوافذ العلم والخبرة، فتتفرق به السبل وتنطفئ جذوة معنوياته. بينما تتقدم المجتمعات الأخرى وتسبق غيرها معتمدة على فارق الزمن في إطلاق هذه الطاقات لأقصى ما تستطيع أو ما تقدر عليه.

لذلك كانت إعانة الشباب في خدمة أمته وتطويع قدراته لدفع عجلة تقدم مجتمعه مسئولية كبرى تتلاقى مع ضخامة دور الشباب في بناء الأمة والحضارة، الأمر الذي يتطلب الربط بينهما لأنهما وجهي عملة واحدة لا يمكن الفصل بينهما.

وإذا ما رجعنا إلى الماضي، وفي أي عصر من عصور النهضة والتطور،

نرى الأمثلة المؤيدة لتحدي الشباب في مختلف المجتمعات بالقدوة الصالحة والسعي وراء إصرارها وإنجازاتها وقيادتها، تماماً كما هو في العمل على محاكاتها. ومتى كان ذلك صحيحاً فيما أرشد إليه التاريخ فإنه لا زال قائماً في كل عصر من العصور التالية، متوقفاً الأمر كله على رسم معالم الطريق لعطاء الشباب وتفوقه، ومعززاً لمدى حرص مجتمعه على إثارة طاقاته وحيويته. وإذا ما قسنا على المجتمعات الإسلامية وعلى قيم الإسلام ومتطلباته في شباب الأمة فإننا قد نجد الكثير من المآخذ التي ينبغي أن يقابلها الكثير من أبواب الإصلاح، والتي لا يجوز أن تترك وشأنها لتأتي بعض الأمثلة الطيبة من الشباب عفوية في حالات فردية قد تنجح في ظل أي نظام اجتماعي أو سياسي، بل يتعين أن تخضع لخطة شاملة تستهدف العمل الجماعي على كافة مستويات المجتمع وعلى طول محاور تقدم الإنسان.

ويناقش البحث هذه المشكلة وفقاً للمراحل التالية :

أولاً : معالم مجتمع الشباب قياساً على ما هو عليه في المجتمع العربي والمجتمع الإسلامي، ذكوراً وإناثاً، كَمّاً ونوعاً، خدمات وانتاجاً، وسيخضع ذلك للأرقام المتاحة والمقارنات المتيسرة مع بعض الدول المتقدمة، وسيصاحب ذلك استخلاص أوجه الضعف ومؤشرات التخلف وردها إلى أسبابها.

ثانياً : ما الذي يمكن عمله بالنسبة لمحاور الإنسان الثلاثة : العقل والجسم والفؤاد، وعلى شتى مستويات المسئولية بين الأسرة، والمدرسة، والمجتمع الصغير، والمجتمع الكبير، والمجتمع الإسلامي بأسره.

ثالثاً : وأخيراً، وحتى لا يأتي البحث في صورة أكاديمية غير مرتبط بخطة تنفيذية، فستتعرض الورقة لدور المركز القومي للتدريب والاستخدام (اقرأ)، وهو أحد المشروعات السعودية المصرية التي تستهدف جانباً رئيسياً من خطة إعداد الشباب، للوقوف على أهداف المركز ونشاطه وما أصابه، وما يمكن أن يحققه العمل الجماعي من مساندة على المستوى الإسلامي. وإن كان هذا المشروع لا زال في سنواته الأولى إلا أنه ينير الطريق إلى بعض ما

قد ينبغي عمله، وما يمكن أن يقاس عليه ونسعى إليه نحو إنشاء بنك إسلامي للثروة البشرية.

أولاً : معالم مجتمع الشبــاب

١) الشبــاب والسكــان :

يوضح الجدول رقم (١) نسب الشباب إلى السكان، والعمر الوسيط للسكان في بعض الدول العربية والإسلامية، مقارنة ببعض الدول الغربية. وكلما ارتفعت نسبة الشباب في سن العمل في مجتمع ما دل ذلك على ارتفاع قدرته على الانتاج، كذلك لو تضاءلت هذه النسبة وارتفعت بالتالي نسب السكان في الأعمار الصغيرة أو بين المسنين من الأعمار الكبيرة كلما انخفضت قدرته على الانتاج. وتشترك دول العالم الإسلامي، شأنها في ذلك شأن الدول النامية، في ارتفاع نسب السكان في سن التعليم ٥ ــ ٢٥ حيث تتراوح بين ٤٢٪ و ٤٦٪ من إجمالي السكان في مقابل ٢٥٪ ــ ٣٠٪ في الدول المتقدمة، وهو ما يلقي عبئاً على هذه المجتمعات ويطالبها بالمزيد من الإنفاق على مجالات الخدمات لهذا القطاع الكبير من السكان الذي لا يزال معالاً من الآخرين، لا ينتج ولا يعطي عائداً لمجتمعه.

وتطالب حكمة التطور نحو الأخذ بأنظمة أخرى في التعليم والتدريب تجمع بين المدرسة والحياة لتستفيد من هذه الفترة من عمر الطفولة والشباب ــ التي قد تستغرق ثلث عمر الإنسان في حياة العمل ــ لتستثمر في الإسهام في أعمال الإنتاج والخدمات، تعويداً للشباب على العمل المنتج من الصغر وتشجيعاً لهم على تحمل مسئوليات الرجال، كمـا تغـرس الإحساس بمشكلات المجتمع وتنمي المفاهيم الصحيحة حول أهمية العمل الفني واحترامه، ولعل ذلك هو نفس منطق مجتمع النحل الذي تشارك فيه الخلية بكافة شغالاتها منذ الصغر حتى نهاية أعمارهـا على طول حياة لا تستغرق إلا حوالي ثمانية أسابيع.

وفي حين تتضاءل نسب الشباب في الأعمال المنتجة في الدول الإسلامية (٢٥ ـ ٤٠ سنة) إلى حوالي ١٦٪ من إجمالي السكان ـ باستثناء الدول التي تزداد فيها معدلات الهجرة إليها حيث ترتفع هذه النسبة بسبب الوافدين إليها من الذكور ـ نجد أن نسبة الشباب في هذه السن في المجتمعات المتقدمة تصل إلى ٢١٪، مما يؤكد قدرة هذه المجتمعات على مزيد من الإنتاج بما يقابل احتياجات المجتمع ويحقق فائضاً يضاف إلى ثروته الاقتصادية ودخله القومي، الأمر الذي ينبغي للمجتمعات الإسلامية أن تعوضه نتيجة إخصابها ووفرة شبابها على أن تحقق ذلك من سن مبكرة.

ومن ناحية أخرى يقع العمر الوسيط للسكان في الدول الإسلامية فيما هو دون ١٧ سنة وبما لا يزيد عن ١٩ سنة، في حين أن هذا العمر الوسيط يرتفع في الدول المتقدمة ليصل إلى ٣٦ سنة، مؤيداً نفس الظاهرة ومؤكداً أهمية توفير المزيد من العناية الصحية والتعليمية للأطفال والشباب قبل هذه السن، والتي تمثل استثماراً مرتفع العائد يرتد إلى المجتمع أضعافاً مضاعفة في سنوات العمل والإنتاج، وهو ما يشير إليه الجدول رقم (٢) عن مؤشرات الوفيات وتوقع الحياة.

ولا يصح أن تقف العناية عند هذه المرحلة بل ينبغي على الدول الإسلامية أن تواصل اهتمامها بشبابها بعد السن الوسيط الذي يقع في مدخل حياة العمل، حياة الإنتاج والعائد، والتحول من صفة المعال إلى العائل. ونظراً لأنها تمتد إلى أكثر من ثلاثة أضعاف حياته السابقة في الطفولة والدراسة، فلا بد أيضاً من مواصلة الاهتمام بها نحو مزيد من العمل المنتج، والتدريب المنظم، والرعاية الموجهة تأكيداً لاستمرار جذوة الحياة في الإنسان من مهده إلى كبره، وأنها ليست قاصرة فقط على مرحلة تعليمه الأولى وحدها، وتتشابه الحكمة في ذلك أيضاً مع ما يجري عليه الحال في مجتمع النحل الذي يدرب على مدى حياته القصيرة في أكثر من ٤ تخصصات، كما تأخذ به الآن المجتمعات المتقدمة التي تزكي الجمع المستمر بين فترات الدراسة والعمل على طول حياة الإنسان.

٢) القــوى العاملـة :

أ) نسبـة الإعالــة :

يقع السكان ذوي النشاط الاقتصادي ممن يضيفون لاحتمالات عائد المجتمع ويضطلعون بإنتاج السلع والخدمات فيما بين ١٥ ـ ٦٤ سنة، ويوضح الجدول رقم (٣) أنهم يشكلون نسبة قدرها ٣٣,٥٪، أي أن كل مائة شخص من السكان يقابلهم ٣٣,٥ شخص داخل سوق العمل، وهو أمر يتوقف بالضرورة على نسب الأطفال والشيوخ من طرفي العمر، بينما نجد هذا المعدل يصل إلى ٤٥,٦٪ في الدول الغربية، الأمر الذي يعني إضافة التزام أكبر على الشباب المسلم الذي يضطر إلى إعالة فردين علاوة على نفسه، أي بنسبة إعالة قدرها ١ : ٣ بينما هي لا تزيد عن ١ : ١,٢ في الدول المتقدمة، وتخفيفاً لهذا العبء ينبغي تشجيع المرأة والشباب من سن مبكرة في المشاركة في العمل طالما جاء ذلك معززاً للدراسة والتقدم.

ب) قـوة العمـل النسائيـة :

في حين تساهم المرأة المسلمة بجانب ضئيل في قوة العمل لا يتجاوز ١١,٣ ترتفع هذه النسبة إلى ٣٥,٤٪ في الدولة الغربية، كما تهبط هذه النسبة في بلاد إسلامية كثيرة إلى ما لا يزيد عن ٤٪ من إجمالي قوة عملها (جدول رقم ٣).

ويرجع انخفاض نسبة مشاركة المرأة في الدول الإسلامية إلى عدة عوامل، أهمها ما توارثته من تقاليد وعادات اجتماعية حالت دون نزولها إلى سوق العمل واشتغالها بما يتناسب وقدراتها، وإن اختلفت نسبة عمالة المرأة في بعض الدول عن غيرها، فلا زالت هذه القاعدة صحيحة، وإنما يرجع الاختلاف إلى طرق التعريف والحساب لقوة العمل النسائية.

وليس من المعقول، وتقضي تعاليم الإسلام بأن الله لا يضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى رغم أن سعيهما لشتى، ومجالات عملهما قد يختلفان، ألّا تسهم المرأة بقدراتها التي تتفوق في بعض الأحيان على الرجل فيما حباها الله من صفات، وفي عصر ضاقت فيه أبعاد الوقت والمسافة، ودخلت الدائرة الالكترونية معظم البيوت، وأصبح تأثيرها كبيراً في مجالات

الترفيه، والأولى تسخيرها لمجالات العلم والإنتاج. وليس من المنطق في شيء أن تظل المرأة محجوبة العائد، بعيدة عن المشاركة في بناء المجتمع والإسهام في زيادة دخل الأسرة، غير قادرة على تأدية رسالتها كمربية للأجيال وصانعة للرجال، لأنه لا تستقيم الأوضاع السائدة، رغم وجودها في المنزل، مع هذا الانتشار الواسع للأمية، وانخفاض مستوى الصحة العامة، وعدم الرغبة في مواصلة التعليم، وكلها أمور كان يمكن أن تستفيد من جهد الأم لتدفع بأبنائها إلى المجالات الصحيحة.

وغني عن البيان أن حوالي ٥٠٪ من سكان أي مجتمع يتشكل من الإناث، فما لم يشاركن في مسئولياتهن تجاه مجتمعهن ويضطلعن بما يقدرن عليه فستظل نسبة الإعالة في المجتمعات الإسلامية مرتفعة بالمقارنة مع غيرها من الدول المتقدمة، على ألّا يعني ذلك تفريط في كرامة المرأة أو امتهان لأخلاق المجتمع، بل تكامل لكافة المقومات، وإطلاق لشتى القدرات.

٣) توزيع قوة العمل حسب النشاط الاقتصادي :

يبين الجدول رقم (٤) توزيع قوة العمل ذكوراً وإناثاً على الأنشطة الاقتصادية الرئيسية : الزراعة والصناعة والخدمات.

وتؤكد الاحصاءات ارتفاع النسبة الغالبة في قوة العمل بين قطاعي الزراعة والخدمات، وانخفاضها في مجال الصناعة، رغم أن الاتجاه الحديث في الدول المتقدمة هو انخفاض نسبة العمالة في مجال الزراعة، وارتفاعها في كل من الصناعة والخدمات، كما توضحه أرقام الجدول.

لذلك لا تعني المقارنة وجود احتياطيات كبيرة في قوة العمل الزراعية فحسب، بحيث يمكن، باستخدام الطرق الحديثة رفع إنتاجيتها وتحويل فائضها إلى المجالات الأخرى، ولكنها تعني أيضاً انخفاض نوعية الخدمات بسبب كثرة القائمين عليها وهبوط معدلات كفاءتها.

كما تؤكد هذه الظاهرة إغراق الدول الإسلامية في استيراد السلع واستهلاكها، بدلاً من قيامها فيما بينها أو بالنسبة لبقية دول العالم كطاقة منتجة تضيف سلعاً ومنتجات شتى بجانب ما تستهلكه، ومن ثم أصبحت

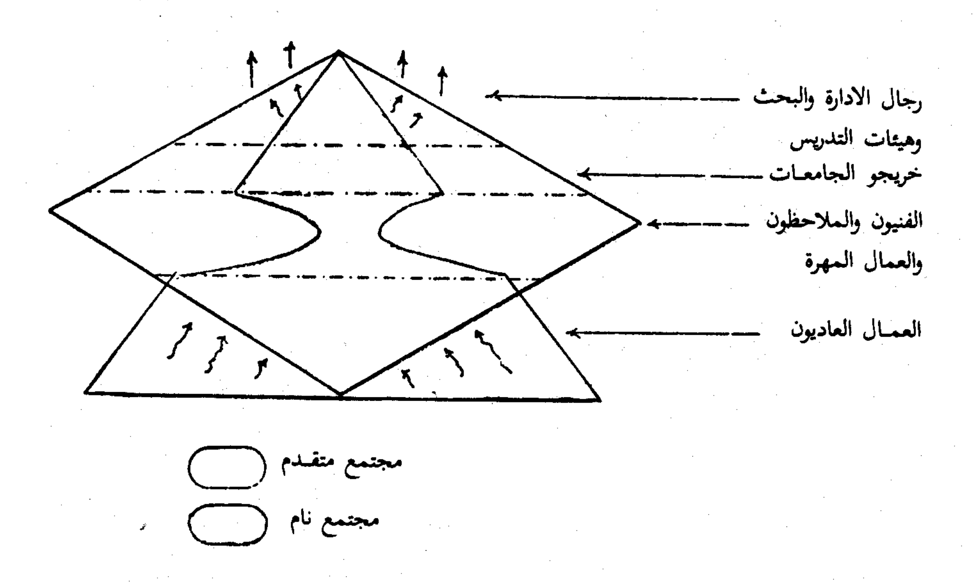
عالة على المجتمعات الصناعية، معتمدة في غذائها وملبسها وخدماتها على ما تستورده من الآخرين وما يتحكم فيه غيرها.

٤) التركيب المهني للقوة العاملة :

يوصف التركيب المهني وهيكل العمالة في الدول الإسلامية باتخاذه شكل هرم تتسع قاعدته أمام كثرة قوة العمالة العادية والمهارة المحدودة المترتبة على انتشار الأمية، بينما تضيق بعد ذلك في اختناق كبير حلقات العمل الوسطى لقلة الاهتمام بالإعداد الفني والتدريب المهني، وتشكل عجزاً خطيراً في مستوى العمال المهرة ولملاحظين والفنيين، ثم يتسع الهرم ثانية أمام زيادة حصيلة الخريجين من الدراسات الأكاديمية والجامعية والعالية في مجالات لا تتناسب مع الموجود من المهارات بين بقية المشتغلين على طول سلم العمل.

في حين يتشكل هيكل العمالة في الدول المتقدمة على صورة معين تضمر قاعدته ويمتد وسطه بعد أن أخذ شكل هرمين متلاصقين ومتضادين يعتمدان على قاعدة مشتركة تشكل مركز القوة في المجتمعات المتقدمة، وهي مركز ضعف المجتمعات الإسلامية، حيث تزداد نسبة المشتغلين بالصناعات التحويلية، وتقل نسبة العمالة العادية محدودة المهارة، ثم تنبعج قمته عندما يرتفع من جهة أخرى حجم المشتغلين بالمهن العملية والفنية والمديرين والأعمال الإدارية والتنفيذية كما يوضحها الرسم المرفق.

هيكل قوة العمل في الدول النامية
والدول المتقدمة



٥) استهلاك الإنسان للطاقة :

يعتبر استهلاك الإنسان لطاقة مؤشراً دالاً على مدى تقدمه وتسخيره للمستحدث من مجالات العلم والتكنولوجيا، حيث يعطي طن واحد من البترول طاقة قدرها ١١,٦ ميجاوات ساعة أي ما يعادل حوالي ٤٦,٦٠٠ قوة بدنية للإنسان، تستجيب لما يطلب إليها دون أية معاناة أو خدمات. ويبين الجدول رقم (٦) البيانات المقارنة لحجم استهلاك الطاقة في الولايات المتحدة وغيرها، الأمر الذي يكشف أن البلدان الإسلامية التي حبا الله، إيران والدول العربية كلها، بفائض من الطاقة البترولية لا تستهلك إلّا قدراً ضئيلاً منها إذا ما قورنت باستهلاك الولايات المتحدة أو دول غرب أوروبا، فبينما تستهلك أمريكا (٢٠٥ مليون نسمة) ثلث الطاقة الإجمالية المتاحة للبشرية، أي ١,٨ بليون طن بترول سنوياً، وبمعدل ٩ طن بترول للفرد سنوياً،

يستهلك العرب والإيرانيون (١٣٥ مليون نسمة) ما يوازي ٦٣ مليون طن بترول سنويا، وهم يفتقدون مصادر الفحم والطاقة الهيدروليكية، أي بمعدل ٠,٤٦٥ طن بترول سنوياً، أي أن استهلاك الإنسان العربي والإيراني للطاقة لا يزيد عن ١ : ٢٠ إذا ما قورن بنظيره الأمريكي، مع مراعاة ظروف اختلاف الجو من حيث احتياجات التدفئة والإضاءة الصناعية.

لذلك فإنه أولى بالمجتمعات العربية، وإيران بصفة خاصة، أن تعيد النظر في سياستها البترولية لتسعى نحو تسخير جزء منها لصالح مجتمعاتها الإسلامية. حيث دل الحساب على أن تصنيع ١٥٪ من فائض البترول العربي والإيراني يمكن أن يخلق فرص عمل منتجة تكفي حوالي ٥٠ مليون فرداً لا يقل دخل كل منهم في المتوسط عن خمسة آلاف دولار، وهو دخل أعلى مما يتمتع به الفرد في مجتمع دبي أو ليبيا، بشرط أن يجد الأسواق المناسبة بين المجتمعات الإسلامية نفسها لكسر الاحتكار السائد، ولن يتأتى ذلك ما لم تغير الدول الإسلامية من سياستها نحو تنمية ثرواتها البشرية واستغلال مصادرها الطبيعية بقدرات أبنائها. وحتى يتحول طغيان الأمية السائد في هذه المجتمعات إلى علم متجدد، ومن مجرد الإقبال على التعليم العام والجامعي إلى تفوق في المجالات الفنية والمهنية، ومن تركيز مراحل التعليم في السنوات الأولى من العمر إلى انطلاق لقدرات البشر على طول سلم الحياة والعمل، وإلى اهتمام الحكومات ورجال الأعمال إلى توازن المهارات البشرية مع مطالب الإنتاج، بدلاً من تحيزهم لسوق الخدمات وحده، والذي لا يعني الكثير بمفرده أمام تحديات العصر.

٦) الدخل القومي ودخل الفرد :

في حين يتفاوت دخل الفرد بين المجتمعات الإسلامية بين ١١٠ دولاراً في الصومال إلى ١٥٤٨٠ دولاراً في الكويت، كما تظهرها بيانات الجدول رقم (٧) أي بنسبة تبلغ ١ إلى ١٥، تضيق هذه التفاوتات في الدول المتقدمة بما لا يزيد عن الضعف كما هو الحال بالنسبة للولايات المتحدة وانجلترا.

ولكن هذه المقارنة لا توحي وحدها بصحة دلالاتها، لأنه رغم أن الكويت والامارات وقطر يزيد دخل الفرد فيها عن نظيره في كل من الولايات

المتحدة وكندا والسويد، فلا يعني ذلك تفوق الدخل القومي في الحالتين، وهو ما يرتبط أساساً بقدرات السكان ومهارات قوة العمل أكثر من ارتباطه بموارد البترول وثروات الدولة الطبيعية ـ الأمر الذي يكشف عن أن هناك منطلقاً كبيراً أمام المجتمعات الإسلامية، لا سيما الغنية بمواردها الطبيعية، عندما تسخر هذه الموارد بواسطة شبابها فتتحول بعقولهم وسواعدهم إلى ثروة مستمرة النماء بدلاً من أن يستغلها غير أصحابها بينما يعيش سكانها كَلّاً عليها.

٧) الأميـــة :

ترشد الإحصاءات الموضحة في الجدول رقم (٨) إلى ارتفاع نسب الأمية بين سكان العالم الإسلامي من الذكور والإناث ابتداء من سن التعليم (١٠ سنوات فأكثر)، وللشباب في سن التعليم (١٠ ـ ٢٩) بالمقارنة إلى نظائرها في بعض الدول المتقدمة.

ورغم أن البيانات تشير إل تحسن مستويات الأمية بازدياد الإنفاق على التعليم الابتدائي إلا أن أي مجتمع يفقد حصيلة سكانه وحجم قوة عمله متى كانت محدودة القراءة والكتابة في عالم يقاس فيه التقدم بانفجار المعارف الفنية والتكنولوجية وتبديلها وتغييرها كل عشر سنوات، الأمر الذي لا يعطي للكثرة الأمية أي وزن يعتد به في عالم اليوم. وتشكل هذه العقبة سداً منيعاً يصعب تخطيه طالما عجزت هذه المجتمعـات عن إدراك مسئولياتها الأساسية في سنوات التعليم الأولى للطفولة والشباب لا سيما بالنسبة للبنات أمهات المستقبل اللائي تزداد فيهن نسبة الأمية.

ثانياً : ماذا يمكن عملـه ؟

١) على محاور الإنسان الثلاثة :

لا يتقدم الإنسان على رجليه بل على محاور ثلاثة هي : عقله وجسمه وفؤاده، حيث يعقد لواء التفوق أساساً على مدى ما أصابه الإنسان في ثبات فؤاده وسلامة قلبه، وتعتبر محصلة هذه المحاولات الثلاثة عاكسة لصفات النفس البشرية خيراً وشراً، ضراً ونفعاً.

ويمثل **العقل** أيسر المحاور إعداداً وتوجيهاً، وهو يحوي من الخلايا الحساسة ما يفوق آلاف المرات أكبر العقول الالكترونية الحديثة، ولكننا مع ذلك لم ننجح في برمجته لفشل الإنسان ذاته ومدرسته ومجتمعه في هذه البرمجة.

وتقدر هذه الخلايا بحوالي عشرة بلايين خلية، بينما تحوي العقول الالكترونية حوالي نصف مليون مركز حساب، ويزداد العقل مضاءاً وذكاءاً بالعلم والممارسة، كما تنمو عضلات الجسم بالحركة والعمل، لذلك ينبغي أن تتصل حياة الدراسة والعمل وتستمر على طول حياة الإنسان مؤكدة إكسابه المزيد من العلم والخبرة والمهارة.

وفيما مضى نجح المصريون القدماء في تلقين صناع آمون الكثير من الخبرات أثناء نومهم، وهو ما بدأ يفكر فيه العالم المتقدم بعد الحرب العالمية الثانية، انتفاعاً من وقت النوم الذي يصل إلى أكثر من ثلث عمر الإنسان.

أما **الجسم** فهو الإطار الشامل الذي يضم العقل والفؤاد، وكلما كان هذا الإطار صحيحاً سليماً كلما زادت خلايا العقل طاقة وقوة، وسكنت النفس وارتاحت في حياتها. ومع ذلك فهناك من الأجسام الهزيلة التي تحوي قوة متجددة من صفاء النفس ورجاحة العقل، ويعتبر ذلك من شواذ القاعدة التي تؤكد سلامتها.

ويشكل الجسم الجانب المادي من حياة الإنسان والذي لا يختلف في إمداده بعناصر الحياة إلا بما لا يتجاوز من حوالي ١٦٠٠ : ٣٢٠٠ سعرة حرارية أي ضعف ما يحتاجه الشبع بالمقارنة بالجوع. وكلاهما حالتان من الإفراط والتفريط ينبغي أن نبتعد عنهما ونلجأ إلى ما بين ذلك لتذليل مشكلة سوء التغذية التي يعاني منها المجتمع الإسلامي. انظر الجدول رقم (٩).

ويضم الجسم تلك الحواس ذات التأثير المباشر على تحصيل العلم واكتساب المهارات، حيث كان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه

مسئولاً، وجميعها تمثل المكونات اللينة والمعنوية التي تنمي العقل وتدفع الإنسان إلى التقدم كلما شعر بتحقيقه مزيداً من النجاح.

أما محور **الفؤاد** فهو الجانب الصعب في محصلة النفس البشرية وليس هناك من المقاييس المتداولة ما يكشف عن قوة السلوك ومتانة الأخلاق كما هو الحال في المقارنات الإحصائية عن المرأة والرجل والنشاط الاقتصادي ومستويات التعليم.

وسيظل الفؤاد، الذي تدفعه الكلمة الطيبة والأصل الثابت، العنصر المرجح في حياة الإنسان ورقيه، أخلاقاً وسلوكاً، وقوة وأمانة. ولكنه للأسف ليس هناك مخططات واضحة حتى في العالم المتقدم ترشد عن هذه البرامج، لأنهم يعيشون حياتهم بقوة دفع المدنية والتي تحوي من معاول الهدم والظلم كما فيها من عوامل الرقي والتفوق. وليس أمام العالم الإسلامي لاستعادة قدوته إلا تطويع الحاضر والمستقبل بما أرشد إليه التراث.

ولا يتميز المؤمن القوي عن المؤمن الضعيف بمدى قدرته على الإنفاق وإخراج الزكاة، بل بمحصلة تقدمه على المحاور الثلاثة في سبيل الخير، وحيث يتفوق من يكتب بالقلم على الأمي نتيجة استخدام قدرتي العقل واليد وانطلاقهما إلى ما بعد ذلك، كما يتميز العامل القوي الأمين على ما دونه أمانة مهما بلغ من قوة بحسن سلوكه وإخلاصه في عمله، ويتفوق ولي الأمر القادر علماً وسلوكاً، ومهارة وخبرة، وقوة وأمانة، على ما دونه مما لا يرقى إلى هذه المستويات، وعندئذ يكون ضرره أكثر من نفعه طالما لم يُعَدّ ولم يُخْتَرْ وفقاً لهذه المقاييس.

٢) الأســرة والبيت :

يتحمل الوالدان عبء تربية الصغار وتنشئتهم، وبينما يجد الشاب في والده قدوته في عمله ودليل مستقبله، يجد في أمه قبل أبيه المودة والرحمة التي تذكره دائماً بهذا الجانب الرقيق من مسئوليته تجاه زملائه ومجتمعه الصغير والكبير، لأن الأم الصالحة معين لا ينفذ نحو إكساب هذه الصفات وغيرها لأولادها في الصغر وحتى الكبر.

لذلك كان سلوك الوالدين وإعداد البنت والأم حجر الزاوية في

إحداث التغيير، وليس الأمر متوقفاً على الغنى أو الفقر، والعلم أو الجهل، بل هو في تمسك عناصر الأسرة من نعومة أظافر أطفالها إلى شباب أولادها ورجولتهم بالمبادئ والقيم الصالحة والحث عليها في الاتجاه الصحيح، ومن ثم كان من الضروري شغل وقت الفراغ في العمل والدراسة، وبدلاً من استخدام برامج الإذاعة الصوتية والمرئية لمجرد الترفيه بل في تعزيز مجالات البناء والتقدم، لتأكيد دور الأسرة ومسئوليتها في تنشئة البنت والولد والشاب راغبين في التقدم والارتقاء. ولعل ذلك يرتبط بصورة أساسية بمستوى معيشتهم وما يجدوه من فرص اكتساب الرزق. لذلك كان التغلب على مشكلة الفقر مدخلاً أساسياً لمكافحة مشكلتي الجهل والمرض.

٣) المدرسة :

تتحمل المدرسة في مراحلها الأولى مسئولية اكتشاف قدرات المجتمع الكامنة في نشئه وشبابه، وما لم توجه البرامج نحو هذا الغرض، فلا تقتصر على مجرد الاستطالة والاستذكار والاختبار، دون التركيز على ما يغذي محوري الجسم والفؤاد، ويعرض الشباب لشتى الأنشطة والخبرات، فلن يكتشف الإنسان نفسه ويتعرف على المجال الأنسب لتقدمه ومواصلة تعليمه. وبذلك يضيع على المجتمع قدرات عطاء شبابه لانفصال طرفي المسئولية لعدم ارتباط المدرسة بالحياة والكلية بالمصنع والمعهد بالمزرعة، وبذلك يسقط النشء والشباب ضحية هذا التباعد تماماً كما يحدث عندما تنفصل عرى الأسرة فيضيع أولادها ضحية هذا التفكك.

ويعتبر هذا المبدأ صحيحاً على طول سلم الدراسة، فهو الذي يربط مكونات البرامج مع خبرة الحياة، وتفاعل قدرات هيئة التدريس مع تجارب هيئات الإنتاج، وارتباط النظرية مع التطبيق، واحتكاك الطلبة المتفوقين بالموهوبين من العمال والمبتكرين.

هذا ما أيدته خبرة الشرق والغرب، وأولى بالعالم الإسلامي وهو أمة وسط بين الناس، أن يبدأ من حيث انتهى الآخرون ولا يكرر الأخطاء الموجودة.

ويعتبر المربي، والداً كان أم مدرساً أم مديراً، القدوة ذات التأثير

الكبير على الآخرين، وكان من الضروري توخي الحرص التام على اختبارهم وإعدادهم. لذلك فقد تأكد أنّ نجاح المدرسة وتفوق تأثيرها على الشباب مرتبطٌ بخطط تنمية هيئات التدريس وحفزهم علماً وقدرة وسلوكاً.

٤) المنشـــأة :

يعتبر دور المنشأة مكملاً لدور الأسرة ودور المدرسة، وكما يجد الشباب في والديه ومدرسيه الانطباع المؤثر على شخصيته وسلوكه، فإنه يجد في رئيسه ومشرفه في منشأته ما يضيف إلى هذا السلوك حسناً أو سوءاً.

ورغم قصر الوقت الذي يقضيه الفرد في كسب رزقه والقيام بعمله (١٦٪ من حياته)، إلا أنه ذو تأثير بالغ على مشاعره وشخصيته، لأن الإنسان يمضي في منشأته زهرة شبابه حتى نهاية حياة عمله بما يفوق ضعفي حياة طفولته ودراسته، ومعتمداً على كسبه ورزقه من حصيلة عمله، الأمر الذي ينبغي معه أن تهتم المنشآت الاقتصادية وأجهزة الخدمات بثرواتها البشرية بقدر أكثر ـ إن لم يتعادل ـ مع اهتمامها بمواردها المادية، بحيث تعمل على الاستفادة من هذه الطاقات في العمل الفـردي أو الجماعي وفي الجانب التنفيذي أو الإداري، بما يزيد من كفاءة الإنتاج وتأدية الخدمات من جانب، ويقوي من روابط المجتمع الصغير ممثلاً في المنشأة من جانب آخر، فيتعلم فيها الفرد على طول محاوره الثلاثة تلك الاضافات الواجبة في حياته العملية.

ففي جانب **السلوك** يمارس الفرد أنماط احترام المواعيد والانتظام في العمل الإخلاص فيه، وتنغمس فيه روح الجماعة والولاء لمنشأته ومجتمعه إلى غير ذلك.

وفي جانب **المعرفة** يتعلم ما يساعده على نمو خبراته وملاحقة تطور العلم والتكنولوجيا تمكيناً له من مواصلة تقدمه، وأن يرتقي في مستويات تعليمه سواء كان أمياً أو متعلماً إلى أقصى ما يستطيع مرتبطاً بتطوير كفاءته، وزيادة رزقه.

وفي جانب **المهارات** يدرب الفرد ويزاول المزيد منها، ليصبح قادراً على القيام بممارسة وظائف متعددة بما يضيف إلى إنتاجية منشأته ويرتفع

بجودة عملها، حيث تتفوق المجتمعات المتقدمة معتمدة على اتساع المهارات التي يقدر عليها الشاب أو العامل.

أما من ناحية **اللياقة** فإنه يقع أيضاً على المنشأة واجب نحو تأكيد سلامة البنية وعدم تعريضها للأمراض المهنية أو إصابات العمل، علاوة على تنميتها بأوجه النشاط خارج المنشأة التي تكسب الصحة وتنمي السلوك.

وليس هناك برنامج واحد يمكن القياس عليه، الأمر الذي ينبغي أن تنطلق معه المنشآت الإسلامية في تنمية ثرواتها البشرية وتتبادل الخبرات النوعية والعامة في هذا المجال الحيوي، وعليها أن تقدر أن تنمية الثروة البشرية تحتاج إلى وقت أطول من مجرد إقامة المباني أو شراء المعدات، وفي حين تبلى الماكينات من أضعف أجزائها، تنهار قوى العمل من أقوى حلقاتها (المدرب ـ المشرف ـ المدير ـ الباحث)، وفي حين تستهلك المعدات بتقادم عهدها يلمع الإنسان في علمه ومهاراته وسلوكه طالما وجد التحدي وسارعت الحوافز الفردية والجماعية إلى دفعه وحثه، وقد دلت الإحصاءات الأخيرة أن أكبر معدل للاستثمار في المنشآت الأمريكية وقد تجاوز ٢٥٠٠٪، كان ولا زال في الإنفاق على التدريب داخل العمل.

٥) المجتمع الكبير :

يتمثل المجتمع الكبير للشباب في مدينته أو إقليمه أو قطره، وكما يعتبر الفرد مسئولاً عن نفسه لتغييرها نحو ما هو أقوم، فإن نظم المجتمع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ذات تأثير بالغ على إحداث هذا التغيير، ولعل صفة الجماعة في « تغيير ما بأنفسهم » دليل على صحة هذا المبدأ. تماماً كما يتحمل الجسم إصابة أو فقد أحد أعضائه ولكنه يتأثر تأثيراً بالغاً بتلف أحد أنظمته (الدورة الدموية ــ الجهاز العصبي) فكأن النظم أشد تأثيراً في الإنسان وفي المجتمع من الأعضاء والأفراد.

وكان أولو الأمر والمسئولون عن الآخرين وواضعو هذه النظم أشد حاجة إلى العناية وأولى بالأسبقية في اختبارهم وإعدادهم عن غيرهم من أفراد المجتمع، وكانت أجهزة الرقابة التي تمثل الصفوة ممن يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر أمر لا غنى عنه كمدخل سليم لإرساء قواعد المشورة

والاطمئنان على سلامة إعداد الأمة، طالما كانوا مسئولين عن كل من فيها.

وليس هناك من مؤشر قوي على إعداد الشباب من اطمئنانهم في حياتهم داخل مجتمعهم الكبير نتيجة تبادل احترام الفرد وقيادة وإعلاء كلمة الحق على القوي قبل الضعيف، وتحمل الأفراد وأولي الأمر عسر الحياة، كما ينتفعون في أوقات أخرى من يسرها، كما هو في الحرص على المنفعة العامة دون المساس بالمنفعة الخاصة إلا بقدر موزون.

ويحتاج تشكيل مثل هذا المجتمع، ما يسمح بالكثير من البحث والتطوير وتبادل الرأي أمام افتقار الدول الإسلامية إرساء مبادئ الإسلام وإثراء العلاقة بين الحاكم والمحكوم.

٦) المجتمع الإسلامي الكبير : (جدول رقم ١٠)

يضم المجتمع الإسلامي الكبير أقواماً شتى من بلدان متجاورة تمتد من شرق آسيا إلى غرب افريقيا، يبلغ عددهم في هذا الجزءمن العالم ما لا يقل عن ٦٠٠ مليون مسلمٍ بنسبة لا تقل عن ٩٠,٤٪[١] من سكان هذه المنطقة. بالإضافة إلى مئات الآلاف الأخرى من المسلمين يعيشون في مناطق متفرقة كانت من قبل تزدهر بالإسلام لا سيما الصين والجمهوريات الشرقية من الاتحاد السوفيتي.

بينما يعاني العالم في هذه الآونة من اهتزاز معتقداته الدينية والمعنوية وانتشار الإلحاد، فقد بات من الضروري على المجتمع الإسلامي أن يثبت شخصيته الإسلامية وتفوق رسالته، إن أراد الله له بعثاً وقوة، كما تم في أول عهد الرسالة وما تلاها من طفرات قوية شاء الله أن يدعمها بها.

وليس أحق بالشباب أن يعي هذا الهدف وأن يقدر هذه الثروة البشرية الكبيرة، وما تملكه من أراضٍ شاسعة وموارد مائية ومعدنية ضخمة، وفي موقع جغرافي متصل بين آسيا وأفريقيا لا نظير له في العالم. ولكن يقف في سبيل تحقيق هذا الهدف اختلاف النظم السياسية، وتعدد اللغات، وعدم وضوح

---

(١) بدون الهنـــد

الرؤية كاملة في قوة هذا الاتجاه وآثاره على المجتمع الإسلامي وعلى العالم.

ولن تتجاوز خطط إحداث التغيير عمر الشباب متى صلحت النيات وعقد العزم على تنفيذها في أمانة وإخلاص، وسيناقش هنا ثلاثة موضوعات لها تأثير بالغ الأهمية على هذه الخطة.

أ) خطـة تثبيت الأفئـدة :

يفتقد العالم المتقدم في شرقه وغربه خطة واضحة المعالم لتثبيت الأفئدة بل تركوا الأمر يسير وفقاً لأنماط حياتهم، وما اكتسبوه من صفات ينقلونها بصورة طبيعية إلى الأجيال القادمة، كما يعززوها بالكلمة المكتوبة والأنظمة السياسية ومنظمات وقت الفراغ، وقد أسفر ذلك مع اهتزاز بعض إيمان أهل الكتاب إلى انتشار عدوى أمراض المدنية وسرعة انتقالها إلى العالم أجمع.

لذلك بات على المجتمع الإسلامي أن يرسم خطة شاملة يركن في تفصيلاتها إلى توزيع أبعادها على الدول والمجتمعات القادرة، لكي تنفذها وتجري عليها وترصد النتائج لتصويبها قبل أن تنشر على باقي الـدول الإسلامية. ويحتاج الأمر في كل ذلك إلى دراسات تفصيلية تنهل من الماضي وتطور الحاضر وتقود إلى المستقبل وتسعى في كل ذلك إلى تثبيت الفؤاد على مستوى الفرد والأسرة والمدرسة والمجتمع الصغير والكبير. وليس هذا بالأمر الهين، طالما كان لا نظير له في العالم المعاصر، مما يحتاج إلى جهد كبير في جمع المعلومات وإعداد البحوث وتنفيذ البرامج ومتابعة النتائج ونشرها، ولكنه متى صحت النيات فإن بلداً أو بلدين كفيلان بقيادة هذه الخطة ووضعها موضع التنفيذ.

ب) اللغـة العربيـة :

يقف حائلا دون تعارف الشعوب الإسلامية، لاسيما بين شبابها، تعددُ لغاتهم، وعدم اعتبار اللغة العربية الأصيلة، وقد يعزى ذلك إلى تصور قلة العائد الذي تجنيه هذه المجتمعات لو منحت اللغة العربية أولوية أولى أو ثانية على غيرها من اللغات، الأمر الذي يصح أن يكون موضع دراسة تهدف

إلى إنشاء صندوق مشترك يدعم نشر اللغة العربية بين الشعوب الإسلامية ويحث على الحوافز الكفيلة بجذب الاهتمام للإقبال عليها والتمكن منها، ومن بين ما يصح اتخاذه.

١ ـ دراسة القرآن الكريم والسنة باللغة العربية مع إدراك معانيها من واقع التاريخ والحاضر، فليس بعد كتاب الله من سبيل لاعتصام الشعوب الإسلامية بحبل الله.

٢ ـ إعداد برامج التعليم العام والفني عن طريق الدراسة الذاتية باللغة العربية، والتي تتخطى فوارق الزمن والمسافة، ولتيسر فهم الدارسين لها ممن يتحدثون بلغات أجنبية مختلفة.

٣ ـ السعي إلى محو أمية قوى العمل المسلمة عن طريق إكساب المهارات وتلقينها باللغة العربية. (انظر محـو الأمية الإسلامية في نهاية البحث).

٤ ـ إتاحة فرص العمل وتشجيع انتقال المسلمين إلى المجتمعات الجديدة التي يجدون فيها معيشة أفضل ومجالاً مشتركاً لصهر مختلف الأجناس في بوتقة واحدة وأمة واحدة، ويعتبر اختيار هذه المجتمعات الجديدة والتخطيط لتنميتها أمراً حيويـاً، يتحدى موارد المال والرجال لترتبط الشعوب بلسان عربي مبين ودين حنيف متين.

جـ) النظـام السياسي :

تختلف الأنظمة السياسية بين الدول الإسلامية اختلافاً بيناً، حتى يكاد أغلبها ينقل من النظم الغربية أو الشرقية أو يتمسك بالأوضاع المتوارثة فيبقى عليها ولا يطورها، بينما لا مجال لإحداث التغيير في الشباب أو غيره إلّا بقدر تفاعل النظام السياسي في صورة يطمئن فيها إلى تطبيق أحكام الإسلام ومبادئ الخلف الصالح.

ورغم أن حرية الرأي والمشورة في الأمر أمران يتفق فيهما الإسلام مع غيره من الأنظمة المتقدمة، إلّا أنه قد يكون الخلاف بينهما فيما يراه المجتمع الإسلامي بعد أن جاءته البينات أن لا يترك قومه يتفرقون ويختلفون شيعاً وأحزاباً، بل يعقد لواء الأمر والنهي إلى من كان يستحق القيادة والولاية، ويحتاج تفسير هذا المدخل إلى تجربة ناجحة يرتفع معها لواء الإسلام أمام قوة تأثيره على كيان المجتمع وشبابه.

ثالثاً : المركز القومي للتدريب والاستخدام « اقرأ »

كي لا يأتي البحث في شكل أكاديمي، بعيداً عن التطبيق، مما قد يؤدي إلى صعوبة فهمه وتنفيذ ما جاء به من توصيات، ونظراً لكونها متعددة متشابكة، فقد رؤي أنه من الصالح القومي أن تتعرض الدراسة في نهايتها إلى تجربة محدودة يقوم بها « المركز القومي للتدريب والاستخدام (اقرأ) »، لكي تنير الطريق أمام الحكومات والمنظمات والشركات والشباب إلى ما يمكن أن يكتسبوه على ضوء ما توصلت إليه دراسة الجدوى بالمركز، وما شرع فيه من تنفيذ في مجالات شتى.

ولا شك أن طرح هذه الأمور على المجتمع الإسلامي إنما هو من باب محاولة الانتفاع بأهمية التخطيط للثروة البشرية وتنميتها، وما « اقرأ » إلا مقدمة لبنك إسلامي للثروة البشرية، هذا البنك هو أحد توصيات ثلاث سبق أن أقرها مؤتمر التضامن الإسلامي للعلم والتكنولوجيا عام ١٩٧٦م بجامعة الرياض.

ما هـو « اقـرأ » :

يمثل « اقرأ » فكراً جديداً متطوراً لا يرضى بالأوضاع التقليدية، أنشأه حضرة صاحب السمو الأمير محمد الفيصل آل سعود بالاشتراك مع الشركة الإسلامية للاستثمار، وشركة القوى العاملة، وبعض المستثمرين المصريين.

وقد اختيرت القاهرة مقراً له حيث تتوفر بها الموارد البشرية والخبرات التكنولوجية التي يمكن أن تكون انطلاقاً لتطوير ما جرت عليه الأمور في العالم العربي والإسلامي.

وفيما يلي ملخصٌ لبعض مشروعاته التي تمس الشباب، ذكوراً وإناثاً، وما يمكن أن تستفيد منه المجتمعات والحكومات الإسلامية، طالما كان الاعتماد على اللسان العربي المبين كوسيلة لانتقال الخبرات وتبادل الرأي.

أ) بالنسبة للشبــاب :

١) الدراسة الذاتيــة :

يمضي الإنسان في العصر الحديث، بناء على ما توصلت إليه

الإحصاءات الأمريكية ـ لمن يعيش ٧٠ عاماً في المتوسط :

١٦٪ من وقته في العمل.

٤ ٪ بين وسائل الانتقال والاتصال.

٤٤٪ لمواصلة الحياة والإعاشة.

بينما يتبقى له :

٣٦٪ لوقت الفـراغ.

ولن تلحق المجتمعات الإسلامية بركب التقدم وتنجح في تضييق فجوة التخلف بينها وبين المجتمعات المتقدمة، إلا إذا مارست جهداً أكبر لتستغل معه وقت الفراغ في التعليم والعمل، لأنه ليس أمامها من رصيد متبقٍّ للحاق بعصرها إلا هذا الرصيد، حيث أنها لن تقدر على منافسة من سبقها في أنشطة العمل أو الاتصال أو الانتقال، وطالما استوى الغني والفقير أو الجاهل والمتعلم في الوقت اللازم لمواصلة الحياة والإعاشة.

والجدير بالذكر أن أبحاثاً تجري الآن في معاهد الولايات المتحدة الأمريكية لمحاولة إكساب الإنسان مزيـداً من المعارف والخبرات أثناء نومه، وهو أسلوب سبقهم إليه من آلاف السنين كهنة آمون في تنمية خبرات صناع آمون.

لذلك فقد اتخذ « اقرأ » قراره بادخال أسلوب الدراسة الذاتية ـ أو ما تسمى بدراسة وقت الفراغ ـ طالما أجمع عليها الشرق والغرب، معتمداً على الخبرات المتاحة في العالم والتي منها، الجامعة المفتوحة بلندن، والمدارس العالمية للمراسلة، ومعهد بيتمان للسكرتارية، لتخدم كل فرد بدءاً من التعليم العام، وعلى طول سلم العمل والإدارة بمختلف مستوياته، وفي كل تخصص يمكن أن يتوافر فيه العدد الذي يبرر ـ اقتصادياً ـ نشر برامجه بالعربية، بعد ترجمتها من لغتها الأجنبية وأقلمتها.

ولقد وصف هذا الأسلوب بأنه سمة القرن الحادي والعشرين، حيث يتوافق مع قدرات الإنسان ووقته، ويتمشى مع استقلاله فلا يحد طموحه دارس ضعيف أو يتحداه دارس متفوق، ولا يحتاج معه إلى ضياع وقته في الانتقال إلى أماكن الدراسة والعودة منها، كما تعتبر نفقاته أقل بكثير من النفقات التقليدية في نظم التعليم والتدريب المباشر، لأن الكلمة المكتوبة هي أرخص

وسائل التعليم وأكثرها جدوى لمن يقدر على قراءتها وفهمها، كما تيسر إكساب الفرد الخبرات والمهارات اللازمة للإسراع بتنمية قدراته عندما يتم تعزيز هذا الأسلوب بالمعينات السمعية والبصرية وبحلقات المناقشة التي تعقد بعد فترات الدراسة المختلفة وفي نهايتها، وتزداد فاعليته عندما يستكمل التدريب بالممارسة العملية في المنشآت التدريبية أو داخل العمل، وبنفس المنطق يمكن ربطه بوسائل التعلم الجماعي عن طريق الإذاعة الصوتية والمرئية كما يحدث في جامعات العالم الشرقية والغربية.

٢) محو الأمية المهنية اللغوية : (انظر محو الأمية الإسلامية في نهاية البحث)

تزداد مشكلة الأمية تفاقماً وازدياداً أمام عيوب نظام التعليم وقلة هيئات التدريس وانصراف الشباب بنوعيه ـ الذكر والأنثى ـ عن استكمال سلم التعلم لظروف شتى. لذلك كان من الضروري أن نبدأ من حيث انتهى إليه الآخرون لمداركة هذا القصور في الشباب والكبار قبل الصغار، والذين ما زالت أمامهم فرص متاحة للتعليم. ويجري « اقرأ » دراسة على نحو مشابه لما نجح في كل من البرازيل والولايات المتحدة بالاعتماد على البدء باختيار مجموعات من المصطلحات الفنية التي يعرفها المشتغلون في هذا المجال ويفهمون معناها واستخداماتها في العمل ولكنهم لا يقدرون على قراءتها أو كتابتها.

عل أن يخضع تنظيم هذه الكلمات والمصطلحات في صورة رتيبة لتعزيز القدرة على فهم الحروف بمفردها ومقاطع الكلمات في صورة متدرجة، كما يساعد على تحقيق ذلك استخدام السمع والبصر أيضاً بصورة ذاتية أو بتدريب مباشر عن طريق الملاحظين والمشرفين في أماكن العمل، وبذلك يمكن لهذا النوع من البرامج تحقيق الاتصال الوثيق بين التعليم والتدريب من جانب مع مهنة العامل من جانب آخر، مما يساعده على اكتساب المزيد من المعرفة الفنية والمهارة داخل مجال عمله، فضلاً عن استخدام هذه المركبة لتمكنه من القراءة والكتابة.

ولكن، بالإضافة إلى ما سبق، يخطط « اقرأ » لمشروعين يكسبان

المرأة والفتاة إنتاجاً مثمراً يضاف إلى عائد الأسرة، ويتمشى مع الحاجة إلى الحفاظ على التراث الإسلامي وإثرائه عن طريق استحداث مجالات وتطبيقات جديدة، كما يحاول « اقرأ » إدخالها، مثل صناعة السجاد الحريري والملابس الحريرية من نبات الخروع، وتجميع لوحات الموزايك، والاستفادة في هذا المجال بالفنون الإسلامية وحصيلة التراث العربي الكبير عبر قرون طويلة من الازدهار، وهو ما يساعد المرأة والفتاة في ذات الوقت على محو أميتها.

ب) بالنسبة للمجتمعات والحكومات :

بالإضافة إلى المشروعات السابقة فإنه يمكن للحكومات والمجتمعات الإسلامية أن تستفيد وتتعاون في مثل ما يلي من مشروعات يقوم بإعدادها وتنفيذها « اقرأ ».

١ ـ الترجمة من الإنجليزية إلى العربية :

يدرس « اقرأ » مشروعاً ضخماً يحاول فيه مع شركة « سمارت » وشركة « بوينج » الأمريكيتين، الاعتماد على الحاسب الالكتروني في أعمال الترجمة من اللغة الإنجليزية إلى اللغة العربية، وقد سبق لهما أن تولتا الترجمة بهذه الطريقة من الإنجليزية إلى الفرنسية والألمانية والأسبانية.

وتتم الترجمة عن طريق تبسيط اللغة الانجليزية في برنامج مبدئي ثم إضافة برنامجين آخرين، أحدهما للمصطلحات الفنية للموضوع الذي تجري فيه الترجمة، والآخر للمصطلحات العامة ومداخل الجمل التي يشيع استخدامها. بحيث يمكن ترجمة ونسخ ٥٠ ألف كلمة في الساعة، أي بما يوازي عمل ٢٥ مترجماً ومراجعاً، ومثلهم من المشتغلين بأعمال النسخ لمدة ٢٤ ساعة يومياً وبصورة مستمرة. ولكنه مع كل ذلك فلن يغني العقل الالكتروني عنِ العقل البشري الذي عليه أن يراجع ويبرمج ما يقوم به الحاسب.

ويعتبر هذا المشروع تحدياً كبيراً للأمة العربية والإسلامية بما يحققه من انفتاح العالم الإسلامي، وباللغة العربية، على حضارة الغرب ومعارفه الفنية والتكنولوجية المنشورة بالإنجليزية.

٢ ـ إنتاج المعينات السمعية والبصرية باللغة العربية :

يقوم « اقرأ » بتعزيز استخدام حاستي السمع والبصر بإنتاج معينات سمعية وبصرية باللغة العربية، مما يضيف فاعلية وكفاءة الدراسة الذاتية وبرامج التدريب العملي المركزة، حيث ينقل مركز المسئولية من المدرس والمدرب إلى الطالب والمتدرب، تمشياً مع أهمية اضطلاعه بالمسئولية وتحمله لأبعادها خلال التدريب، بما يدفعه إلى مثل ذلك أثناء العمل.

٣ ـ البرامج السلوكيـة :

من بين المشروعات الحاكمة التي يفكر « اقـرأ » في تطويعهـا وإعدادها لصالح التدريب السلوكي وتثبيت الفؤاد، استخدام الكلمة المكتوبة والصورة المرئية في قالب إسلامي ولسان عربي مبين، وهو ما استحدثته بعض المنظمات الغربية كمنظمة التسلح الخلقي وغيرها، لتؤكد على علاقة العبد بربه وأهمية إذكاء ضميره بما يحقق هذا الاتصال، أو لتثير فيه أهمية الحفاظ على عنصر الوقت أغلى سلعة في الوجود.

ويعتبر هذا المجال مدخلاً جديداً وكبيراً ينبغي أن يستقطب كل الجهود المفكرة لتوجيه الشباب المسلم أينما كان، وفي أي موقع من المسئولية لأبعاد الأمانة المتعددة.

هذه بعض الأنشطة التي يمارسها « اقرأ » والتي يمكن أن تخدم المجتمع الإسلامي عن طريق نشرها ودعمها، وإنشاء مراكز أخرى لـ « اقرأ » في الدول الإسلامية، وذلك إلى حين أن تتوحد ـ بإذن الله ـ جميعها تحت لواء البنك الإسلامي للثروة البشرية ليعنى في النهاية بتعبئة وتنمية وترشيد إمكانيات الإسلام من القوى البشرية.

جدول رقم (١) نسب الشباب إلى السكان والعمر الوسيط في بعض الدول الإسلامية والغربية ـ عام ١٩٧٨

الدولة	نسبة الشباب إلى السكان			العمر الوسيط للسكان
	٥ ـ ١٠	١٥ ـ ٢٥	٢٥ ـ ٤٠	
الجزائر	٢٦,٥	١٩,٤	١٥,٧	١٦,٠
ليبيا	٢٥,٥	١٨,٧	١٦,٣	١٧,٨
المغرب	٢٦,٤	١٨,٦	١٦,٤	١٦,٤
السودان	٢٥,٩	١٨,٦	١٦,٦	١٧,٢
تونس	٢٥,٦	١٩,٣	١٦,٣	١٧,٤
مصر	٢٤,٥	١٨,٦	١٧,٥	١٩,٤
موريتانيا	٢٤,٣	١٨,٢	١٧,٧	١٩,٠
الصومال	٢٤,٣	٢١,٠	١٧,٧	١٧,٢
البحرين	٢٩,٨	١٧,٩	١٩,٦	١٧,٥
العراق	٢٦,٧	١٨,٧	١٦,٣	١٦,٦
الأردن	٢٦,٧	١٨,٥	١٦,٥	١٦,٨
الكويت	٢٨,٦	٢٤,١	٢٤,١	١٦,٦
لبنان	٢٨,٥	١٧,٧	١٧,٥	١٨,١
عمان				
قطر				
العربية السعودية	٢٥,٥	١٨,٥	١٦,٩	١٧,٦
اليمن الجنوبية	٢٥,٥	١٨,٥	١٧,٠	١٧,٦
سوريا	٢٦,٣	١٨,٩	١٥,٩	١٧,٢
الامارات	٢١,٦	١٧,٦	١٧,٩	٢٣,٠

Source : 1) Demographic Year Book.
2) ILO Year Book.

تابع ـ الجدول رقم (١)

اليمن الشمالية	٢٥,٦	١٨,٤	١٧,٠	١٧,٦
تركيا	٢٣,٩	١٨,٨	١٧,٣	١٩,٠
ايران	٢٥,٦	١٩,٦	١٦,٣	١٧,٠
أفغانستان	٢٥,٧	١٨,١	١٧,٣	١٧,٩
أندونيسيا	٢٥,٥	١٨,٩	١٧,٣	١٨,٠
باكستان	٢٧,٠	١٩,١	١٥,٦	١٦,٦
بنجلاديش	٢٦,٠	٢٠,٣	١٦,٠	١٦,٧
الولايات المتحدة	١٤,١	١٨,٤	٢٠,٩	٢٩,٦
كندا	١٤,٨	١٩,٠	٢١,٢	٢٧,٥
إنجلترا	١٤,٠	١٥,٤	١٩,١	٣٤,١
السويد	١٢,٦	١٣,٥	٢٠,٧	٣٥,٦
الدانمرك	١٢,٩	١٤,٨	٢١,٤	٣٣,٧

جدول رقم (٢) بعض المؤشرات عن الوفيات وتوقع الحياة لبعض دول العالم مقارنة بعض الدول المتقدمة ، ١٩٧٨م

دول إسلامية			
الدولة	معدل الوفيات لكل ١٠٠٠	معدل وفيات الرضع لكل ١٠٠٠	توقع الحياة عند الميلاد
السودان	١٦	١٤١	٤٩
الصومال	٢١	١٧٧	٤١
العربية السعودية	١٩	١٥٢	٤٥
اليمن الجنوبية	١٩	١٥٥	٤٥
اليمن الشمالية	١٩	١٥٥	٤٥
موريتانيا	٢٤	١٨٧	٣٩
أندونيسيا	١٤	١٣٧	٤٨
بنجلاديش	٢٠	١٥٣	٤٦
أفغانستان	٢٢	١٩٠	٤٠

دول غربية واليابان			
الدولة	معدل الوفيات لكل ١٠٠٠	معدل وفيات الرضع لكل ١٠٠٠	توقع الحياة عند الميلاد
الولايات المتحدة	٩	١٥	٧٣
كندا	٧	١٤	٧٣
الدانمرك	١١	١٠	٧٤
السويد	١١	٩	٧٥
فرنسا	١٠	١٤	٧١
إنجلترا	١٢	١٤	٧٢
اليابان	٦	٩	٧٤

تابع ـ الجدول رقم (٢)

بنجلاديش	٨٥,٠	٧٣,١	٨٦
مالديف	٠,١	٠,١٠	١٠٠
ماليزيا	١٣,٠	٧,١٥	٥٥
السنغال	٥,٤	٤,٣٢	٨٠
النيجر	٥,٠	٣,٥	٧٠
تشاد	٤,٣	٢,٥٨	٦٠
جيبوتي	٠,١	٠,١٠	١٠٠
ساحل العاج	٧,٢	٥,٠٤	٧٠
زامبيا	٠,٦	٠,٤٨	٨٠
غينيا	٤,٨	٣,٣٦	٧٠
مالي	٦,٣	٤,٤١	٧٠
البانيا	٢,٦	٢,٢١	٨٥
جملة	١٢٣٤,٠	٦١٢,٧٩	٥١,٠
جملة بدون الهند	٥٩٩,٣	٥٤٢,٦٤	٩٠,٤

المصدر : د. طه عبد العليم رضوان، جغرافية العالم الإسلامي، جدول رقم (١) ص ٢٨ ، ٢٩

Population Reference Bureau Inc., 1978 World Population Data Sheet.

جدول رقم (٣) السكان النشطون اقتصادياً حسب النوع في بعض الدول الإسلامية عام ١٩٧٨

الدولة	عدد السكان النشطين اقتصاديا	٪		معدل العمل ٪	نسبة الإعالة
		ذكور	إناث		
الجزائر	٤,١٤	٩٥,٦	٤,٤	٢٢,٥	٣,٤
ليبيا	٦,٣١	٩٤,٦	٥,٤	٢٢,٥	٣,٤
المغرب	٥,٠٦	٨٤,٢	١٥,٨	٢٦,٨	٢,٧
السودان	٦,٢٩	٨٩,١	١٠,٩	٣٦,٨	١,٧
تونس	١,٤٩	٩١,٠	٩,٠	٢٤,٨	٣,٠
مصر	١١,٣٣	٩٢,١	٧,٩	٢٨,٦	٢,٥
موريتانيا	,٤٢	٩٥,٦	٤,٤	٢٨,٠	٢,٦
الصومال	١,٣٤	٧٠,٨	٢٩,٢	٣٩,٤	١,٥
البحرين	,٠٩	٩٤,٦	٥,٤	٣٠,٠	٢,٣
العراق	٣,٠٥	٩٥,٥	٤,٥	٢٥,٠	٣,٠
الأردن	,٧١	٩٣,٥	٦,٥	٢٤,٥	٣,١
الكويت	,٣٥	٩١,٠	٩,٠	٣١,٨	٢,١
لبنان	,٨٢	٨٠,٧	١٩,٣	٢٨,٣	٢,٥
عمان	,٣٨	٩٧,٦	٢,٤	٤٧,٥	١,١
قطر	,٠٥	٩٧,٨	٢,٢	٥٠,٠	١,٠
العربية السعودية	٢,٥٧	٩٤,٩	٥,١	٣٢,٩	٢,٠
اليمن الديمقراطية	,٤٧	٩٤,٨	٥,٢	٢٤,٧	٣,٠
سوريا	٢,٠٧	٨٨,٢	١١,٨	٢٥,٥	٢,٩
الامارات	,٣٨	٩٧,٥	٢,٥	٤٧,٥	١,١
تركيا	١٨,٠٩	٦٢,٩	٣٧,١	٤٢,٩	١,٣
إيران	١٠,١٦	٨٥,٥	١٤,٥	٢٨,٦	٢,٥
اليمن	٢,٠٤	٩٥,٦	٤,٤	٣٥,٢	١,٨

تابع ـ الجدول رقم (٣)

الدولة	عدد السكان النشطين اقتصاديا	٪ ذكور	٪ إناث	معدل العمل ٪	نسبة الإعالة
أفغانستان	٧,٠٦	٨١,٢	١٨,٨	٣٩,٧	١,٥
أندونيسيا	٥٠,٥٥	٧٠,١	٢٩,٩	٣٦,١	١,٨
باكستان	٣١,٣٣	٨٩,٥	١٠,٥	٢٧,٨	٢,٦
بنجلاديش	٢٧,٤٦	٨٧,٥	١٧,٥	٣٢,٣	٣,١
المتوسط	١٨٤,٠٠	٨٨,٧	١١,٣	٣٣,٥	٢,٠
الولايات المتحدة	٩٩,٠٨	٦١,٤	٣٨,٦	٥٤,٤	١,٢
كندا	١٠,١٤	٦٦,٤	٣٣,٥	٤٣,٠	١,٣
فرنسا	٢٣,٠٦	٦٤,١	٣٥,٩	٤٣,٢	١,٣
ايطاليا	٢٠,٨٢	٧١,٣	٢٨,٧	٣٦,٧	١,٧
السويد	٣,٧٢	٦٢,٥	٣٧,٥	٤٤,٨	١,٢
النرويج	١,٥٤	٧١,٣	٢٨,٧	٣٧,٦	١,٦
الدانمارك	٢,٤٢	٦١,٨	٣٨,٢	٤٧,٥	١,١
إنجلترا	٢٦,٤٠	٦٢,٥	٣٧,٥	٤٧,١	١,١
اليابان	٥٩,٦	٥٩,٧	٤٠,٣	٥١,٧	,٩
المتوسط	٢٤٦,٣٤	٦٤,٦	٣٥,٤	٤٥,٦	١,٢

Source : ILO, 1950-2000 Labour Force, Vols. 1,2,4.

جدول رقم (٤) توزيع قوة العمل حسب النشاط الاقتصادي والنوع ١٩٧٨

النشاط الاقتصادي / الدولة	زراعة		صناعة		خدمات	
	ذكور	إناث	ذكور	إناث	ذكور	إناث
الجزائر	٦٢,١	٢٩,٢	١٤,٦	١٣,٨	٢٣,٣	٥٧,٠
ليبيا	٣٢,٩	١٢,٦	٢٠,٩	٤٠,٩	٤٦,١	٤٦,٥
المغرب	٥٩,٦	٤٠,٣	١٦,٤	٢٣,٤	٢٤,١	٣٦,٤
السودان	٨٢,٣	٧٩,٢	٧,٥	٩,٦	١٠,١	١١,٢
تونس	٥٣,٢	٩,٤	١٨,٨	٤٦,٥	٢٨,٠	٤٤,١
مصر	٥٦,٣	٢٩,٢	١٩,٢	١٣,٣	٢٤,٥	٥٧,٥
موريتانيا	٣٣,١	٣٧,٨	٢٨,٨	١٠,٣	٣٨,١	٥١,٩
الصومال	٨١,٥	٩٢,٢	٧,٨	١,٢	١٠,٧	٦,٥
البحرين	٧,٠	٠,١	٣٥,٨	٤,٠	٥٧,٢	٩٥,٩
العراق	٤٧,٧	١٩,٩	٢١,٧	٢٨,٤	٣٠,٦	٥١,٧
الأردن	٣٤,٣	٢٥,٠	٣٣,٢	٢٦,١	٣٢,٥	٤٨,٩
الكويت	١,٩	,١	٣٦,٦	٥,٦	٦١,٥	٩٤,٣
لبنان	١٨,٩	٢٣,٦	٢٦,٤	٢٠,٠	٥٤,٧	٥٦,٤
العربية السعودية	٦٥,٣	٨١,٥	١٢,١	٣,٣	٢٢,٦	١٥,٢
اليمن الجنوبية	٦٤,٠	٧٨,٣	١٨,٣	٤,٣	١٧,٧	١٧,٤
سوريا	٤٩,٢	٦٧,٧	٢١,٧	١٣,١	٢٩,٢	١٩,٢
اليمن الشمالية	٧٩,١	٨٣,٣	٩,١	٥,١	١١,٨	١١,٦
تركيا	٥٦,٨	٨٦,١	١٧,٥	٣,٠	٢٥,٦	١٠,٩
إيران	٥٠,١	١٧,٩	٢٤,١	٥٦,٨	٢٥,٨	٢٥,٣
أفغانستان	٨٠,٢	٨٨,٤	٧,٨	٥,٨	١٢,٠	٥,٨
أندونيسيا	٦٦,٩	٦٤,٩	٩,٠	١١,٣	٢٤,١	٢٣,٨
باكستان	٥٧,٨	٦٩,٣	١٩,١	١٥,٠	٢٢,١	١٥,٦

تابع ـ الجدول رقم (٤)

بنجلاديش	٨٤,٩	٩٠,٩	٣,٤	٣,٨	١٦,٧	٥,٤
كندا	١٠,٦	٣,١	٣٨,٧	١٨,٠	٥٠,٧	٧٨,٩
أمريكا	٥,٢	١,٠	٤٢,١	٢١,٣	٥٢,٧	٧٧,٧
الدانمرك	١٣,٧	٦,٦	٤٤,٩	٣٣,٨	٤١,٤	٧٠,٦
إنجلترا	٣,٦	١,٣	٥٣,٢	٣٠,٤	٤٣,٢	٩٨,٣

جدول رقم (٥) توزيع قوة العمل حسب المجموعات المهنية في بعض الدول الإسلامية والغربية

الدولة		أصحاب المهن العلمية والفنية	المديرون المشتغلون بالأعمال الادارية والتنفيذية	المشتغلون بأعمال كتابية	المشتغلون بأعمال البيع	المشتغلون بأعمال الزراعة والصيد	المشتغلون بالمناجم والمواصلات وعمليات الانتاج	المشتغلون بالخدمات	غير مصنفين
الجزائر	٦٦	٣,٥	,٨	٣,٥	٤,٩	٤٩,٩	١٤,٧	٨,٧	١١,١
ليبيا	٧٣	٩,٩	,٨	٧,٠	٥,٧	٢٠,٧	٣٥,٣	١٤,٨	٥,٨
المغرب	٧١	٤,٠	٣,٠	—	٥,٦	٥١,٤	١٩,٢	٨,٢	٨,٦
السودان	٧٣	٢,٥	,٣	١,٣	٤,٣	٦٥,١	١٠,٥	٦,٧	٩,٣
تونس	٧٥	٤,٤	,٣	٥,٣	٤,٦	٣٢,٤	٣٣,٧	٥,٨	١٣,٥
مصر	٦٦	٥,٠	١,٨	٥,٦	٦,٥	٥١,٤	٢٢,٠	٧,٨	—
البحرين	٧١	٨,٠	١,٧	٨,٦	٨,٦	١٧,٠	٤٦,٥	١٨,١	١,٥
الكويت	٧٥	١٣,٧	,٩	١٢,٥	٧,٩	٢,٥	٣٤,٨	٢٥,٧	٢,٠
لبنان	٧٠	٩,٢	١,٩	٧,٩	١١,٥	١٧,٨	٣٢,١	١٦,٨	٢,٨
سوريا	٧٥	٤,٥	,١	٥,٢	٨,٨	٥٠,٠	٢٧,٣	١,٧	٢,٤

تابع ـ الجدول رقم (٥)

ايـــــران	٧٢	٣,٥	,٢	٤,١	٨,٤	٤٧,٩	٢٨,٣	٦,٢	١,٤
اندونيسيـــا	٧١	٢,٢	٣,٤	٣,١	١٠,١	٥٩,٠	١١,٨	٣,٨	٥,٩
بـاكستــان	٧٠	٣,٠	٠,٧	٢,٦	٩,٨	٥٣,٨	٢٣,٦	٤,٤	١,٨
دانمـــارك	٧٠	١٢,٢	١,٦	١٢,٩	٩,٦	١٠,٥	٣٨,٩	١١,٤	٢,٩
اليابـــان	٧٥	٧,٨	٤,٢	١٧,١	١٢,٥	١٣,٤	٣٣,٩	٨,٥	٢,٦
فــرنســا	٦٨	١١,٤	٢,٧	١١,٧	٧,٦	١٥,٣	٣٤,٦	٩,٦	٧,١
ايطـاليــا	٧١	٧,٣	٠,٦	١٠,٦	٨,٧	١٦,٥	٤٢,٠	٩,٤	٤,٩
امـريكــا	٧٠	١٣,٨	٣,٨	١٦,٨	٦,٦	٢,٩	٣٣,٥	١٢,٩	٥,٧

جـدول رقـم (٦) الانتـاج والاستهـلاك
من البترول عـام ١٩٧١

الوحدة مليون طن

الاقـليـــم	الانتـاج البترولي	الاستهـلاك البترولي
امريكـا الشماليـة	٢٥٩,٥	٨٤٧,٥
امريكـا الجنوبيـة	٦٠٧,٥	١٤٨,١
افريقيـا بدون العرب	٢٨٠	٤٦,٢
العـرب وايـــران	٨٠٢,٨	٦٠,٣
جنوب شرق آسيا والهند واليابان	٧٧,٥	٣٤٦,٢
المعسكر الشيوعي والاتحاد السوفيتي والصين	٤٢٢,٢	٣٦٩,٤
أوروبـا الغربيـة	١٥,٣	٦٢١,٧
الاجمـــالي	**٢٤٦٤,٨**	**٢٤٣٩,٤**

جدول رقم (٧) الدخل القومي ودخل الفرد سنوياً (بالدولار) بين بعض الدول الإسلامية والغربية

الدولة	الدخل القومي بالمليون	دخل الفرد
الجزائر	١٨,٢١٦	٩٩٠
ليبيا	١٧,٦٦٨	٦٣١٠
المغرب	١٠,٢٠٦	٥٤٠
السودان	٤,٩٥٩	٢٩٠
تونس	٥,٠٤٠	٨٤٠
مصر	١١,٠٨٨	٢٨٠
موريتانيا	٠,٥١٠	٣٤٠
الصومال	٠,٣٧٤	١١٠
البحرين	٠,٧٢٣	٢٤١٠
العراق	١٦,٩٥٨	١٣٩٠
الأردن	١,٧٦٩	٦١٠
الكويت	١٧,٠٢٨	١٥٤٨٠
لبنان	١,٨٢٠	٧٠٠
عُمَان	٢,١٤٤	٢٦٨٠
قطر	١,١٤٠	١١٤٠٠
العربية السعودية	٣٤,٩٤٤	٤٤٨٠
اليمن الجنوبية	٠,٥٣٢	٢٨٠
سوريا	٦,٣١٨	٧٨٠
الامارات	١١,١٩٢	١٣٩٩٠
اليمن الشمالية	١,٤٥٠	٢٥٠
تركيا	٤١,٧٧٨	٩٩٠
ايران	٦٨,٥١٥	١٩٣٠

تابع ـ الجدول رقم (٧)

افغانستان	٢,٨٤٨	١٦٠
اندونيسيا	٣٣,٦٤٨	٢٤٠
باكستان	١٣,٠٥٦	١٧٠
بنجلاديش	٩,٣٥٠	١١٠
الولايات المتحدة	١٧٢٣,١٧٦	٧٨٩٠
كندا	١٧٧,٢٣٦	٧٥١٠
الدانمرك	٣٧,٩٩٥	٧٤٥٠
السويد	٧١,٩٦١	٨٦٧٠
فرنسا	٣٤٩,٧٧٠	٦٥٥٠
انجلترا	٢٢٥,١٢٠	٤٠٢٠

جدول رقم (٨) نسب الأمية بين السكان والشباب في سن التعليم في بعض الدول الإسلامية مقارنة ببعض الدول الغربية

الدولة		نسبة الأمية للسكان ١٠ +			نسب الأمية بين الشباب				جملة
		ذكور	إناث	متوسط	١٠ ـ ١٤	١٥ ـ ١٩	٢٠ ـ ٢٤	٢٥ ـ ٢٩	
الجزائر	٧١	٦٤,٠	٨٣,٢	٧٣,٦		٥٢,٨	٥٢,٦	٧٧,١	٦١,٩
ليبيا	٦٤	٦٥,٢	٩١,٥	٧٨,٣		٥٧,٤	٦٧,٣	٧٨,٩	٦٧,٩
المغرب	٧١	٦٦,٤	٩٠,٢	٧٤,٨	٦٠,٢	٥٨,٨	٦٦,٦	٨٠,٨	٦٥,٩
السودان	٦٦	٧١,١	٩٥,٣	٨٢,٣	٧٣,٣	٧٩,٠	٨٢,٤	٨٢,٢	٧٨,٥
تونس	٦٦	٥٣,٦	٨٢,٤	٦٧,٨	٣٢,٦	٤٧,٢	٦٦,٧	٧٩,٤	٥٦,١
موريتانيا	٦٥	٨٠,٣	٩٦,١	٨٨,٩	٨٩,٦	٩٠,٧	٩٠,١	٩٠,٨	٩٠,٠
الصومال	٦٢	٩٣,٢	٩٩,١	٩٧,٠	٩٢,٧	٩٥,٦	٩٨,٠	٩٩,١	٩٦,٤
البحرين	٧١	٥٠,٨	٧١,٥	٥٩,٨	٢٥,٤	٢٦,٥	٤١,٨	٥٨,٨	٣٨,١
العراق	٦٥	٦٣,٠	٨٤,٥	٧٣,٦	٤٩,٠	٥٣,٨	٦٢,٧	٧٧,٢	٦٠,٧
الأردن	٦١	٦٠,٠	٧٣,٢	٦٧,٦	ـ	٤٩,٣	٦٠,٠	٦٥,٨	٥٨,٤
الكويت	٧٠	٣٦,٦	٥٨,٠	٤٣,١	١٣,٣	٢٨,٣	٣٨,٠	٤١,١	٣٠,١
لبنان	٧٠	٢٥,٣	٣٧,٤	٣٠,١	١٠,٧	١٤,٦	٢٠,٠	٢٦,٥	١٧,٨
العربية السعودية	٦٢	٩٠,١	٩٩,٢	٩٦,٨	٨٩,٤	٩٤,١	٩٦,٤	٩٨,٠	٩٤,٥

تابع ـ الجدول رقم (٨)

اليمن الجنوبية	٧٣	٦٠,٤	٨٥,٦	٧٢,٩	—	—	—	—	—
سوريا	٧٠	٥٠,٠	٦٦,٣	٥٧,٨	٣٢,١	٤٠,٨	٤٥,٢	٥٥,٤	٤٣,٣
الامارات	٦٨	٧٣,١	٩١,١	٧٩,١	—	٢٧,٣	٧٥,٣	٨١,٤	٧٦,٢
اليمن الشمالية	٦٢	٩٠,٠	٩٩,٢	٩٦,٨	٩٢,٩	٩٣,٩	٩٥,٠	٩٨,١	٩٥,٠
تركيا	٧٠	٣٠,٩	٦٦,٤	٤٦,٢	٢٣,٣	٢٦,٢	٣٠,٥	٤٣,٧	٣٠,٩
إيران	٦٦	٦٧,٢	٨٧,٨	٧٥,٢	٤٧,٧	٥٨,١	٦٧,٦	٧٨,٣	٦٢,٩
أفغانستان	٦٥	٨٢,٧	٩٧,٢	٩٢,٢	٨٦,٤	٩١,٤	٩٢,٥	٩٤,٥	٩١,٥
أندونيسيا	٧١	٢٩,٢	٥١,٠	٣٩,١	١٨,٨	١٧,٨	٢٢,٨	٣٨,١	٢٤,٤
باكستان	٦١	٨٠,٠	٩٧,٣	٨٩,٥	٨٢,٣	٨٢,٢	٨٦,٥	٩٣,٠	٨٦,٠
بنجلاديش	٦١	٧٠,٠	٨٩,٠	٧٩,٣	٦٩,٦	٧٣,٦	٧٥,٨	٧٩,٩	٧٤,٧
الولايات المتحدة	٧٠	١,٠	١,٠	١,٠	,٣	,٣	,٣	,٣	,٣
اليونان	٧١	١٣,٢	١٦,٠	١٤,٨	١,٤	١,٨	٢,١	٣,٧	٢,٢
ايطاليا	٧١	٥,٧	٦,٤	٦,١	—	,٩	١,٢	٢,١	١,٤
اليابان	٦٠	٢,٠	٢,٢	٢,١	٠,٢	٠,٢	٠,٢	٠,٢	٠,٢

Source : UNESCO, Statistics of Educational Attainment and Illiteracy, 1945-1974, No. 22

حـدول رقـم (٩)
نصيب الفرد من الطاقة الحرارية في اليوم
مقـدرة بالسعـرات

دول إسلاميـة	نصيـب الفـرد	دول غـربيـة	نصيـب الفـرد
الجـزائـر	١,٧٣٠	الولايات المتحدة	٣,٣٣٠
موريتـانيـا	١,٩٧٠	كنــدا	٣,١٨٠
الصـومـال	١,٨٣٠	الدانمـرك	٣,٢٤٠
أفغـانستـان	١,٩٧٠	انجلتـرا	٣,١٩٠
أنـدونيسيـا	١,٧٩٠	فـرنسـا	٣,٢١٠
		ايطـاليـا	٣,١٨٠

جدول رقم (١٠)
عدد السكان المسلمين ونسبتهم إلى السكان

الدولة	عدد السكان	عدد السكان المسلمين	نسبة المسلمين %
الجزائر	١٨,٤	١٧,٤٨	٩٥
ليبيا	٢,٨	٢,٨٠	١٠٠
المغرب	١٨,٩	١٥,١٢	٨٠
السودان	١٧,١	١٤,٥٣	٨٥
تونس	٦,٠	٥,٧٠	٩٥
مصر	٣٩,٦	٣٧,١١	٩٣,٧
موريتانيا	١,٥	١,٣٥	٩٠
الصومال	٣,٤	٣,٤٠	١٠٠
البحرين	,٣	,٣٠	١٠٠
العراق	١٢,٢	١١,٧١	٩٦
الأردن	٢,٩	٢,٩٠	١٠٠
الكويت	١,١	١,٠٨	٩٨
لبنان	٢,٩	١,٤٥	٥٠
عُمَان	,٨	٠,٧٥	٩٤
قطر	,١	,١٠	١٠٠
العربية السعودية	٧,٨	٧,٨٠	١٠٠
اليمن الجنوبية	١,٩	١,٨٦	٩٨
سوريا	٨,١	٧,٢٩	٩٠
الامارات	,٨	٧,٦٨	٩٦
اليمن الشمالية	٥,٨	٥,٨٠	١٠٠
تركيا	٤٢,٢	٤١,٣٦	٩٨
إيران	٣٥,٥	٣٤,٧٩	٩٨

تابع ـ الجدول رقم (١٠)

أفغانستان	١٧,٨	١٧,٦٢	٩٩
أندونيسيا	١٤٠,٢	١٢٦,١٨	٩٠
باكستان	٧٦,٨	٦٩,١٢	٩٠
الهند	٦٣٤,٧	٧١,١٥	١١,٢١



بسم الله الرحمن الرحيم

محو الأمية الإسلامية

« اقرأ.. الذي علم بالقلم »،

إنها لحكمة بالغة أن يبدأ القرآن الكريم مشيراً إلى أهمية القراءة، والتي ليس معناها فقط مجرد القراءة، بل تحمل أيضاً معنى ترديد الدعوة. ثم ليتبعها بعد ذلك بأهمية الكتابة، والتي تجتمع فيها قدرات العقل مع قدرات اليد، وهما محوران أساسيان لتقدم الإنسانية، سواء أكان ذلك متمثلاً في تسجيل المعارف والخبرات وتداولها بين الأجيال كميرات البشرية من بعض علم الله الذي لا ينفد، أو كانت الإشارة متجهة إلى تطويع المعرفة التي يتزود بها العقل ولتتحول بقدرات اليد إلى عمل صالح ـ وسواء أكانت أداة التحويل قلماً للكتابة أو شيئاً آخر يؤدى به العمل، كأي أداة من أدوات الصناعة.

لذلك كان من الضروري أن نركز على محو الأمية لنرقى ونتزكى ولنحقق المقصود من هاتين الآيتين الكريمتين، وحيث أثبتت التجارب الحديثة في العالم أن الفرد الأمي، ذكراً كان أم أنثى، لن يقبل على وسائل التعليم التقليدية التي تخلف عنها في مقتبل حياته، ولن يرضى بالرجوع إليها بصورة أو أخرى، ما لم يكن هناك حافز قوي وأسلوب جديد يحثه على التعلم كنتيجة مباشرة لزيادة رزقه وانفتاح الطريق أمام مستقبله.

وقد يأتي ذلك عن طريق تحدي الفرد في اكتساب مهارة ما تستخدم فيها اليد، وهي الآلة التي لن يصنع مثلها مهما تقدم العلم أو انفجرت التكنولوجيا، لأنها المقياس الوحيد ذو الأغراض المتعددة والذي يقيس الأطوال والحرارة والأوزان والنعومة والمقاومة، كما يسمح الإبهام الذي يتصل بكافة أصابع اليد بقدرة لا نظير لها في القبض والتحكم ليختلف في ذلك الإنسان عن باقي مخلوقات الله عندما يتزن على رجليه ويخلي يديه ليتقن بهما أي شيء.

من خلال هذا المفهوم ينبغي أن تمحى أمية الناطقين بالعربية، وبنفس خطط البرامج التي ستوضع لمختلف المهن والأعمال يمكن أن تنتقل المهارات وتكتسب الخبرات ذات العائد على الناطقين بغير اللغة العربية من مجتمع الأمة الإسلامية، وعندئذ ينبغي إضافة عناصر أخرى ـ إن لم تكن قد أضيفت ـ لأنهم أشد حاجة إليها تتمثل في مجموعة الكلمات والآيات التي يسمعونها ويرددونها وقد لا يفهمون معانيها أو يقدرون على كتابتها.

ويستخلص تخطيط البرامج وأسلوب تنفيذها فيما يلي :

١ ـ تختار الكلمات الحاكمة في كل مهنة أو مجال والتي يفهمها العامل ويعرف المقصود منها، ولكنه لا يقدر على قراءتها أو كتابتها.

٢ ـ ترتب هذه الكلمات مع الكلمات الأخرى المقتبسة من شعائر الصلاة والآذان والقرآن الكريم ذات الصفة الغالبة والتي تتناسب مع مكونات الكلمات الحاكمة في العمل الذي سيوجه إليه العامل.

٣ ـ ترتب مجموعة الكلمات وفقاً لمقاطعها المتكررة توطئة لتضمينها برامج يعتمد فيها على السمع والبصر، ليحوي كل منها عدداً لا يقل عن ٥٠٠ إلى ٨٠٠ كلمة جديدة.

٤ ـ تسجل الكلمات في دروس متتابعة تخدم تقدم الفرد في مجال عمله، وليستمع إليها أينما كان فيستفيد من كثرة تكرارها عليه وفي الوقت الذي يروق له، وبحيث تضيف إليه حصيلة جديدة من الخبرة، كما تستقر في ذهنه نتيجة انسجام مقاطعها التي أحسن تخطيطها.

٥ ـ يصاحب هذه التسجيلات مرجعاً مزوداً بالكثير من الصور والحروف والمقاطع والكلمات يرجع إليه الدارس من خلال استماعه إلى هذه

الدروس ليحاول معه تفهم أسلوب الكتابة وهدف التدريب الذي ارتبط به وعاش فيه وانتفع منه.

٦ ـ يقاس تقدم العامل في مدى فهمه وتحصيله وقراءته وكتابته بصورة متدرجة خلال هذا البرنامج ليعرف موضعه منها، وسواء ليزداد ثقة في تقدمه أو يعاود دراسة ما فاته.

وعادة ما يتخطى الأمي عقبة أميته بعد إلمامه بحوالي ٢٠٠ ـ ٣٠٠ كلمة ويتمكن من نفسه بعد أن أحاط بكلمات البرنامج كله والهدف منه.

٧ ـ كما يمكن أن يتم ذلك عن طريق ملاحظي العمل من المتعلمين والذين يعتبرون أكثر قبولاً للعامل من أي مدرس له هو من عمر أولاده، وحيث يستمع العامل إلى توجيهه ونصحه من خلال إشرافه عليه. فلا يشعر بأية غضاضة من دوره كمدرس يرشده في عمله ويساعده في تعليمه وتدريبه ويوفر عليه من وقته وانتقالاته، ولكن ذلك لا يمنع من استخدام الوسائل الذاتية التي تعطي العامل حرية التعلم دون ما مساس بشخصيته أو مكانته بين أقرانه.

اني أذكر أن أحد الوافدين إلى الأزهر من نيجيريا كان يشكو للسيد أمين الجامعة العربية بأن مجرد تعلمه القرآن الكريم لا يكسبه رزقاً عند عودته إلى بلاده، لذلك فقد طالب بأنه في أشد الحاجة إلى تعلم مهنة ما ترفع من مستوى معيشته، كما تساعده على نشر الدعوة.

إن هذا الأسلوب المقترح والذي يحتاج إلى جهد كبير لتطبيقه ونشره، يحقق استخدام الأبعاد الثلاث التي يسأل عنها الإنسان « السمع والبصر والفؤاد »، حيث كان السمع والبصر وسيلتي انتقال المعرفة، كما أنه في اضافة محور الفؤاد قوة أخرى لتثبيت المعرفة وحفز الفرد عن طريق توثيق صلته بربه وتطويع قدراته على اكتساب رزقه، هذا فضلاً عن تجاوب هذا الأسلوب لتمكين يد الإنسان لتثبت قدرتها على الكتابة كما تثبت قدرتها كذلك على استخدام الأدوات التي يحتاج لها الفرد في تقدمه ووصوله إلى علم ما لم يعلم.

إن المجتمع الإسلامي يشكو كما تشكو مختلف المجتمعات النامية من نقص كبير في المهارات العملية والفنية، كما يتعرض وغيره من المجتمعات النامية إلى انتشار الأمية بين رجاله ونسائه ـ هذا ويمكن أن تتكيف برامج المرأة الأمية بما ينفعها في أسرتها ويزيد من رزقها ـ بسبب أخطاء برامج التعليم التي حاولنا محاكاتها من الغرب أو الشرق، ولم نقدّر معها ظروفنا وإمكاناتنا، فتسبب في زيادة عدد المتخلفين رغم ما يبدو ظاهرياً من انخفاض نسبة التخلف، لذلك كان في الأسلوب المقترح السبيل الوحيد الآن لتحدي الأفراد من العرب ومن المسلمين لاكتساب ما افتقدوه من قراءة وكتابة أو من قدرة على العمل الصالح، كما هو في تعلم اللغة العربية. إنه لا طريق غيره لمواجهة ازدياد عدد الأميين الآن، بل لا سبيل سواه في تقارب معظم الشعوب الإسلامية عن طريق لسان عربي مبين، وطبقاً لأحدث ما وصلت إليه تكنولوجيا التدريب لخدمة التطور ووحدة الأمة.

معالم الشخصية الإسلامية الفاعلة في الفرد والجماعة

للأستاذ فاروق بدران



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أولاً ـ مقدمة :

الشخصية الإسلامية شخصية متفردة في التاريخ، فهي تسير وفق منهاج رباني منزل من السماء، رأت أمامها خير قدوة هو محمد ﷺ الذي حدد لها تفاصيل طريق العمل ودلها على الحلال فاتبعته وعلى الحرام فاجتنبته.

فخرجت شخصية فريدة في التاريخ، عبر عن ذلك الصحابي ربعي بن عامر حين قال لكسرى : (أمرنا أن نخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام).

هذه الشخصية التي سنتناولها اليوم بالتحليل، ما صفاتها، وكيف تتكون ؟ وكيف تكون فاعلة في الفرد والجماعة ؟ وما الدور المطلوب منها في القرن الحاضر ؟

ثانياً ـ الحاجة إلى الشخصية الإسلامية :

عندما يدلهم الليل، وتعصف المصائب بالأمة الإسلامية، تبدأ بتلمس مواطن الخلاص فتتبعها لعلها تقودها إلى شاطئ الأمان.

والأمة الإسلامية اليوم تقع في مثل هذا الضيق، فالغزو الفكري يكاد يضيع شخصيتها. والاستعمار لم يخرج جنوده من بلد إلا ترك جنوداً من أبنائه، يؤمنون بما يؤمن، ويحبون ما يحب، ويكرهون ما يكره.

والغزو العسكري المتمثل في الغزو الصهيوني لفلسطين، والأثيوبي لأرتيريا والصومال، والهندوكي لباكستان، والشيوعي لسائر أقطار الأرض، كلها تهدد العالم الإسلامي.

والغزو السياسي المتمثل في تبعية بعض النظم إلى الكتل العالمية المتصارعة.

والغزو الاقتصادي الذي يجعلنا سوقاً مستهلكاً فضلاً عما يأخذه من خيـرات البلاد الإسلامية بأبخس الأثمـان.

كل ذلك يدعو المتأمل للسؤال عمن يتولى إخراج شخصية تنقذه من هذه الويلات وتقوده للسير على هدى الإسلام.

إن هذه الشخصية أمنية بل حلم، ولا بد أن تتحقق الأماني والأحلام. ويذكرنا رسول الإسلام محمد ﷺ بهذا المعنى فيقول : « إن الله يبعث على رأس كل مائة عام من يصلح أمر هذا الدين ». فما صفات هذا الداعية الكبير، وما صفاته الشخصية ؟

الحقيقة أن هذا الشخص نعرفه جميعاً، فهو مسلم يؤمن بالإسلام تسليماً، فيلتزم بكل ما يأمر الله به ثم يؤمن بالإسلام تطبيقاً.

فلنبحث عن صفات هذا (الشخص)، إنها تدلنا على ما يلي :

١ ـ الإيمان بالله وحــده :

إن هذا الإيمان يعني أن يؤمن (الشخص) بالله قولاً ثم عملاً فبالتسليم لله بالعبادة يجعل المسلم يخرج عبادة ما سوى الله من قلبه. سواء أكان ذلك من الأوثان أم من البشر أم من الهوى أم من الفكر أم من النظريات الفلسفية ـ بمفهوم القرن العشرين ـ ويجعله دائم التأمل والتفكير والعمل لتطبيق هذا الإيمان.

والجندي والطبيب لا يكون جندياً أو طبيباً بحق إلا إذا تدرب على المهنة التي اختارها، فالمؤمن لا بد له من أن يتدرب على ممارسة الإيمان بالطرق التالية :

أ ـ التدريب على قهر النفس :

يجب على المسلم أن يتدرب على قهر نفسه، وأن يملكها ويحسن قيادتها جيداً، وأن يبعدها عن أن تسير مسار الذين لا يؤمنون بالآخرة.

فالمال الذي بيده ليس له، إنما هو لله تعالى.

والعمل الذي يدرّ عليه المال ليس من مواهبه الخاصة، بل من القدرة الذهنية والفضيلة اللتين منحهما إياه الله سبحانه.

والنفس التي بين جنبيه ليست له، بل هي وديعة يأخذها المودع أنى شاء.

ومتي التزم المسلم بأن يملك نفسه ـ بالتدريب ـ فإنه بذلك يملك الأرض، (انّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين).

ب ـ الممارسة والتطبيق :

لا بد من اقتران الفكرة بالتطبيق والقول بالعمل، فممارسة العدل خير من الكلام النظري عنه، لأن مساعدة المحتاجين والمشاركة في ميادين الخدمة العامة والتطوعية وتنمية صلة المسلم بالمجتمع والاهتمام بمشكلاته هي التطبيق العملي للفكرة، وإلا يكون ترديد حديث رسول الله ﷺ، (من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم)، منطبقاً في هذا المجال. ومن الممارسات التي تصنع شخصية المسلم أن يعي الحلال فيمارسه ويعي الحرام فيتجنبه.

ومن الممارسات، الدقة في المواعيد في إعطائها والدقة فيها، فلا يحتج صاحب الميعاد بأنه تأخر لأنه صلى العصر ـ مثلاً ـ بل كان الأولى به أن يحدد الميعاد بعد صلاة العصر مضافاً إليه مسافة الطريق.

ومن الممارسات عدم إحراج الآخرين بالزيارة دون ميعاد مسبق، ويجب احترام أوقات الآخرين وارتباطاتهم. فإن كان لا بد من الزيارة فإن من حق الفرد ألا يستقبل الآخرين، (فإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم).

والحقيقة أن (الذوق) الذي تتركه الممارسة في نفوس الآخرين ذو أثر

كبير في نفوسهم لأنه هو الذي يفتح للمسلم القلب فيدخله ومعه أفكاره.

وهناك مئات الممارسات مثل هذا النوع، منها الحضور في الوقت المناسب للموظف، والخروج كذلك في الوقت المناسب، وإعطاء العمل حقه وزيادة بل أخذ المزيد من الواجبات. وبهذا تحصل الثقة بين المسلم ورؤسائه فيتقدم في عمله.

ومن الممارسات البعد عن الشهرة الشخصية لأن هذا ينافي الإخلاص، والعمل لوجه الله وحده.

ومن الممارسات البعد عن الأنانية وتطويع النفس على العمل في المجال الإسلامي التطبيقي.

٢ ـ الانتماء الشعوري للإسلام :

إذا آمن الفرد بالله رباً وبالإسلام ديناً، فإن هذا الانتماء ينبغي أن يمس القلب ويجعله يلتزم به لقوله ﷺ : (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به). فإن كان هناك أي موقف في الحياة فينبغي أن يكون إلى جانب الموقف الإسلامي، وهذا يدفعه لتقصي الحقائق عن المواقف.

٣ ـ الوعي العــام :

المسلم مطلع دائماً على الأحداث، يتابعها ويحللها لأنه مأمور بذلك من الله، وقد فرح المسلمون حين انتصر الروم على الفرس لأن الروم كانوا أهل كتاب.

ومن نواحي تدريب الشخصية الإسلامية على ذلك قراءة الصحف اليومية أو الصحف التخصصية واستمرار القراءة والمطالعة لأن المسلم قراء بطبعه.

٤ ـ دراسة المجتمع المحلي والكبير والأكبر :

إن فهم المجتمع مطلوب من المسلم لأن هذا المجتمع هو العقل الذي سيعمل فيه ويبلغ دعوة ربه. ولقد كان الرسول ﷺ يتحدث مع كل وفد من وفود العرب بلهجته الخاصة. كما كان يلبس مختلف طرز الثياب لإشعار هذه الوفود أنه منها فتتفتح له قلوبهم فيدخلها بالإسلام.

٥ ـ الاستفادة من تجارب الآخرين :

المسلم مأمور أن يستفيد من تجارب الآخرين ـ في التطبيق لا في أصول العقيدة ـ .

وفي مجال العمل للإسلام يمكن للمسلم الاستفادة من تجارب الآخرين في ميدان الصحافة وأصول العمل فيها، وفي ميدان الإذاعة والتلفزيون وكيف تعد وتخرج البرامج الناجحة.

بل يمكن القول أكثر من ذلك، وهو أن يتخصص الشباب في ميادين جديدة متجاوزين الميادين التقليدية، أن يتخصصوا تخصصاً علمياً في ميدان الإنتاج والإخراج التليفزيوني والإذاعي والصحافي وسائر مجالات الإعلام من أجل تبليغ كلمة الإسلام إلى الناس كافة، وأن يتخصصوا في ميدان التربية وعلم الاجتماع لما لهذين الميدانين من أثر على فهم المجتمع.

٦ ـ التخصص العلمي :

من نعمة الله على المسلمين في هذا القرن أن مجال العلم والثقافة مفتوحان للجميع، والتخصص ميسر للجميع.

ومن فوائد التخصص العلمي ابتعادنا عن استقدام الخبراء الأجانب الذين ربما يقترحون الحلول غير المناسبة. والتخصص العلمي من شأنه أن يضع الجامعات في متناول دعوة الإسلام فلا تعطي غير العطاء.

لقد ولى الوقت الذي يتولى فيه قيادة المجتمعات القادة التقليديون وربما جاء الوقت الذي يتولى فيه العلماء القيادة لأنهم يملكون فهم مشاكل المجتمع وإعطاء الحل لها مع التزامهم بقواعد الإسلام، (إنما يخشى الله من عباده العلماء).

٧ ـ اتقان العمل :

المسلم متميز في أشياء كثيرة فهو يتلقى التوجيه من الله ورسوله. والله ورسوله يأمران بإتقان العمل، (إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه).

والأجر الذي يأخذه من العمل، رغم أنه من جهده أو من المؤسسة

التي عمل فيها، إلّا أن الأجر من الله هو الأجر الحقيقي. وهذه سمة تفرق بين العمل في الإسلام والعمل من وجهة النظر الغربية.

ومن إتقان عمل المعلم ألّا يضيع وقت طلابه وجهدهم أثناء الدرس، ومن إتقان عمل الأب ألّا يترك أبناءه بغير رعاية.

ومن إتقان عمل التاجر ألّا يكذب ولا يغش.

والحقيقة أن المسلمين ـ سابقاً ـ فهموا هذا المبدأ، وعندما احتكوا بالأمم غير المسلمة رأت فيهم هذا الخلق فاعتنقت الإسلام طواعية، وما أندونيسيا والصين والهند وأفريقيا عن ذاكرتنا ببعيدة.

٨ ـ النظام والنظافة :

من نافلة القول أن نذكر هاتين الخصلتين، إلّا أنهما سلوك مطلوب أداؤه وخاصة في هذا القرن.

أما النظام فهو من خلق المسلم، وكثيراً ما أساء بعض المسلمين إلى الإسلام بعدم التزامهم بالنظام وتنظيم الفكر والعمل منهم، إذا وعدوا تأخروا وأخلفوا، وإذا تحدثوا رأيت الفوضى في معلوماتهم وفي تناولهم للموضوع، وإذا خطبوا أو كتبوا قاسوا أحكامهم على مقدمات خاطئة.

وإذا أردنا أن نتجنب الفوضى في التفكير والسلوك فعلينا العودة إلى سيرة رسول الله ﷺ، ودراسة خططه في الدعوة، وإرسال الوفود، وفي الغزوات لنعرف كيف صهر صحابته رضي الله عنهم في بوتقة التفكير المنظم.

وأما النظافة فلقد علمت أن إخواننا الجدد في الإسلام من المسلمين السود في أمريكا، وقد غيروا هويتهم إلى هوية الإسلام، يحرصون على التميز عن مجتمعهم السابق بالنظافة، فيحرص أحدهم على تغيير قميصه مرتين في اليوم معتزاً بأن الإسلام أمره بذلك، ولذلك جلبوا إليهم الانتباه، وهم الآن يشهدون مرة ثانية وعلى نطاق واسع معنى الآية الكريمة، ﴿ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً﴾.

ثالثاً ـ كيف تكون الشخصية فاعلة :

تكون الشخصية ـ أي شخصية ـ فاعلة إذا توفر لها شروط ثلاثة أساسية : الإيمان بما تقول، والعمل المبني على التخطيط والتدريب، والتقويم المستمر. فإذا توافرت هذه الشروط الأساسية الثلاثة رأت الشخصية لعلمها ثمرة.

والشخصية المسلمة أولى بالأخذ بهذه الشروط لأنها مأمورة أن تعمل العمل الصالح. والعمل الصالح هنا هو العمل الدقيق المخطط المبني على إيمان.

فالإيمان يتم بالتلقي عن الله سبحانه مباشرة، من القرآن الكريم أو من السنة النبوية المطهرة.

وأما التدريب والتخطيط فمبني على إتقان العمل الذي ورد في الحديث الشريف قبل قليل، ولا يكون إتقان العمل إلّا بالتخطيط والتدريب والتأهيل.

وأما التقويم المستمر فمبني على المحاسبة اليومية المستمرة وعرض كل الأعمال على الله تعالى وطلب العون منه.

والشخصية الفاعلة ليست شيئاً جامداً بل هي مكونة من عدة جوانب، ويجب تدريب هذه الجوانب جميعها لكي تكون في مجموعها شخصية فاعلة، فما هي هذه الجوانب :

١ ـ جوانب الشخصية الإنسانية :

وجد الدارسون من العلماء أن الإنسان ليس مخلوقاً عادياً، فهو يفكر ويأكل ويتحرك، وله عاطفة وله نفس تواقة إلى كشف المجهول ومعرفته وهو يحب أن يكون مع مجموعة من الناس.

وقد عبروا عن التفكير بالجانب العقلي، وعن الحركة بالجانب الحركي، وعن العاطفة بالجانب الانفعالي، وعن النفس التواقة بالجانب الروحي، وعن معيشته مع الناس بالجانب الاجتماعي.

والإسلام لم يمانع هذا التقسيم، فلقد أمر بالتفكير واستخدام العقل في كل الأمور باستثناء الغيبيات ـ وأمرنا بتعليم الناشئة السباحة والرماية وركوب الخيل. أما الجانب الانفعالي فلقد شجع الإسلام اتباع النظام الجميل. فلقد سأل رجل رسول الله ﷺ بقوله ـ بعد أن قال النبي الرسول ﷺ عن الكبر (لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر) ـ إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً، قال الرسول ﷺ : (إن الله جميل يحب الجمال). أما النفس التواقة إلى كشف المجهول، فقد أمر الله بالتفكر في خلق الله وبالسموات وبالنجوم وبالكواكب والسير في الآفاق. أما الجانب الاجتماعي فقد أمر الإسلام بالتزام الجماعة، وقال الرسول ﷺ : (إن الذئب يأكل من الغنم القاصية)، حتى إنه أمر بالحديث على الطعام ولو كان الكلام عن السلاح.

وهكذا فالإسلام حريص على تنمية جميع جوانب النفس الإنسانية، فالقراءة والمطالعة والفكر رياضتها العقلية.

والحركة والرياضة رياضتها البدنية.

والتأمل في الكون الواسع رياضتها الانفعالية.

والاتصال بالله سبحانه رياضتها الروحية.

والتزام الجماعة رياضتها الاجتماعية.

هذه هي جوانب النفس الإنسانية التي يجب أن تكون أساسية في تربية الشخصية الإسلامية. وهذه الجوانب تنفي الجمود والجهل والعزلة والتقوقع. هذه الجوانب ينميها الإسلام في الطفل والشباب والبالغين وفي الرجال والنساء، كل حسب قدرته وحدود الإسلام.

٢ ـ وجود القدوة الحسنة :

لقد كانت القدوة الحسنة للصحابة رسول الله ﷺ وهو خير قدوة.

فقراءة سيرته أساس في تربية الشخصية الإسلامية. كيف كان يعامل الأطفال والنساء، كيف كان القلب الكبير للجميع، كيف راض نفسه ـ ترعاه عين الله ـ على أن يكون القدوة الحسنة للناس جميعاً.

واليوم مطلوب من قادة العالم الإسلامي أن يكونوا القدوة الحسنة لشباب العالم الإسلامي، مقتدين جميعاً برسول الله ﷺ، فالإسلام قادر على أن يصنع الرجال في كل وقت.

٣ ـ تطبيق الإسلام على السلوك :

إذا اقترن العمل بالإيمان كانت النتيجة سلوكاً. ولقد أجابت عائشة رضي الله عنها حين سئلت عن خلق رسول الله (كان خلقه القرآن).

والمطلوب من الذين يرعون تربية الشخصية الإسلامية في الوقت الحاضر أن يراعوا هذه الناحية. فعليهم النظر دائماً إلى السلوك وهو النتيجة المطلوبة، فإذا لم يحدده فعليهم أن يفتشوا عن السبب.

ولا أعني بالسلوك الخلق فحسب بل أمور كثيرة، فالاهتمام بمصالح المسلمين من السلوك الحسن، وإعطاء الوقت الجزل لدعوة الإسلام من الخلق الحسن... وهكذا يتربى المسلم على ممارسة التطبيق العملي للإسلام مسترشداً بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

رابعاً : الخصائص العامة للشخصية الإسلامية :

تدلنا سنة الله في خلقه أنه لا شخصية فاعلة إلّا بما تؤمن به وتربي نفسها عليه، وفي هذا المعنى يقترن الإيمان بالعمل في آيات القرآن الكريم، ولقد ورد هذا المعنى في أحاديث رسول الله ﷺ التي منها : (ليس الإيمان بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل. وإن قوماً قالوا أحسنا الظن بالله ولم يعملوا، ألا كذبوا لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل).

ولكي تكون الشخصية فاعلة لا بد من توفر الخصائص التالية فيها :

١ ـ تحديد هدف العمل :

إذا تم الإخلاص لله وحده من خلال الإيمان به وحده يجب تحديد هدف العمل الذي يمارسه المسلم. والعمل للإسلام قد يكون بالكلمة المسموعة أو المرئية أو بالاحتكاك المباشر مع الناس وحل مشاكلهم، أو بالتعليم أو بالقدوة، وذلك هو أفضل أنواع التعليم. ومهما كان نوع العمل فيجب أن يحدد أولاً ثم تتخذ الوسيلة لتطبيقه.

٢ ـ اختيار الوسيلة :

إذا تحدد العمل اختير لتطبيقه أفضل الوسائل. ولنفرض أن صاحب العمل قد حدد هدفه، وهو إيصال الكلمة المسموعة، فعليه أن يدرس ـ دراسة علمية ـ كيف يؤدي عمله. فالنطق السليم، ومعرفة نفسية الذين يوصل إليهم كلمته وعقليتهم والوقت المناسب ـ له ولهم ـ هي من الوسائل التي يوصل إليهم كلمته.

٣ ـ الإخلاص لله في العمل :

ينبغي أن يكون الإخلاص رائد المسلم ـ لله وحده ـ عند إيصال كلمته، فالابتعاد عن المنفعة الشخصية والشهرة وتمجيد الذات أمور أساسية للإخلاص ؛ والنفَس الطويلُ والرحلة الطويلة والمتابعة وعدم اليأس شروط للإخلاص وإلّا فقد المسلم طريقته ووقف بل وربما أساء.

٤ ـ المراجعة المستمرة لبرنامج العمل :

المراجعة أساسية في عملية التقويم المستمر لبرنامج العمل وتعديله، وملء الثغرات التي ظهرت أثناء التطبيق.

٥ ـ الاستراحة والتزود بالوقود :

والوقود هنا هو القرآن الكريم الذي نعود إليه لنأخذ منه الأحكام والمعاني والعبر. فلعلنا نحصل أثناء القراءة على معنى جديد وطريقة جديدة تعين على الوصول إلى الهدف.

٦ ـ التنسيق بين العاملين للهدف :

إن هذا التنسيق مطلوب لمنع الازدواجية والتضارب، فما دامت النية موجودة، والعمل لله وحده، فينبغي أن يكون التنسيق موجوداً بل مطلوباً بين أصحاب الأهداف المتماثلة.

خامساً : الدور المطلوب من القائمين على الندوة :

ما دام الطريق قد وضح في كيفية إيجاد الشخصية الإسلامية العاملة

في الفرد والجماعة، فان الدور المطلوب من الحركة الإسلامية ومن القائمين على الندوة أن يضعوا الأولويات لإخراج القيادات الشابة الإسلامية إلى حيز الوجود. وأعني بالقيادات الشابة، الشباب المؤهل للعمل للإسلام، وله خصائص ومميزات تمكنه من التفاعل مع المجتمع. شباب يدخل المجتمع وقد فتح قلبه له، فيضع فيه البذرة الصالحة التي تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها. شباب مدرب على حسن الأداء.

والاقتراح هنا هو أن يوضع له منهاج للعمل ذو معالم :

١ ـ معالم المنهاج :

للمنهاج أربعة أسس لا يقوم إلا عليها وهي : الهدف، والمحتوى، والوسيلة والتقويم.

فالهدف المطلوب من القيادات الشابة أن تكون عاملة للإسلام ضمن الاختصاصات التي وهبها الله إياها.

ومحتوى المنهاج مادته التي يدرسها الدارسون، ولا بد من أن تكون متكاملة لتغطي جوانب النفس الإنسانية كلها.

ووسيلته هي الطرق التي بها يتحقق تطبيقه. فإن كان الهدف إعداد قادة رياضيين يتولون تدريب أطفال المسلمين فالوسيلة هي وضع أفضل نظم التدريب الرياضي، والإسعاف الأولي والتشريع وغيرها. والتقويم هو الواسطة التي يحكم بها على صحة المحتوى والوسيلة بدلالة الأهداف. فإذا نتج أثناء التقويم نتيجة غير الهدف وغير طبيعية الهدف فلا بد من المراجعة للمحتوى والوسيلة وإصلاح النقص الذي ظهر فيهما.

٢ ـ أهداف مقترحة ووسائل مقترحة :

ما دام الكلام محصوراً في إيجاد الشخصية الإسلامية الفعّالة، فلا بد من ذكر بعض الأهداف والوسائل يمكن للعاملين للإسلام أن يربوا على أساسها الشباب الإسلامي الذي هو الأمل المنشود.

أ ـ الأهـداف :

١ ـ توجيه الشباب حسب إمكاناتهم الذهنية والإبداعية لدراسة الحقول

التي يمكن أن يدعوا فيها ليكونوا فيما بعد قادة في ميدانهم.

٢ ـ تشجيع الشباب على دراسة البيئة المحلية.

٣ ـ إرشاد الشباب إلى أساليب اللقاءات الاجتماعية فيما بينهم بغرض التعارف لإيجاد نوع من المناخ الطاهر.

٤ ـ توجيه خريجي الجامعات لإكمال دراساتهم العليا أو الانخراط في المهن المختلفة.

٥ ـ حث أصحاب الأقلام على نشر الأدب الإسلامي والبدء بالأولويات مثل قصص الأطفال وشعر الأطفال.

٦ ـ تنمية وتشجيع مواهب القادرين على القيام بالتمثيليات والمسرحيات الإسلامية.

٧ ـ تنمية مواهب القادرين على الكتابة في الصحف.

٨ ـ تشجيع إيجاد مجموعات من محرري الصحف.

ب ـ الوسائل :

١ ـ إعداد الشباب على فنون القيادة الصحيحة في مختلف المجالات الحياتية، كل في مجال إبداعه، كالمجال الثقافي أو الرياضي أو الاجتماعي.

٢ ـ تدريب الكفاءات على أصول إقامة الندوات والمؤتمرات والحلقات الدراسية.

٣ ـ تكوين النوادي ليمارس الأطفال والشباب رياضتهم ولتنمية الناحية الاجتماعية فيهم.

٤ ـ إصدار صحافة الأطفال.

٥ ـ إصدار سلاسل من القصص الهادفة للأطفال والشباب.

سادساً : خاتمة :

هذه معالم الشخصية المسلمة العاملة في الفرد والجماعة في رأيي ؛ في الحاجة إليها وخصائصها وعملها وطريقة إعدادها، والله أسأل أن ينفع بها، (قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين).

الوراثة الصالحة للحضارة المعاصرة

للدكتور فاروق حمادة
الأستاذ المحاضر بكلية اللغة العربية - مراكش



بسم الله الرحمن الرحيم

« **ولقد** كتبنا في الزبور من بعد الذكر، أن الأرض يرثها عبادي الصالحون، إنّ في هذا لبلاغاً لقوم عابدين »[1].

هل تستطيع الشخصية المسلمة التي اصطبغت بالصبغة الربانية أن تثبت وجودها في إطار منهج واضح، وبسلوك مطابق للتعاليم الإلهية معبر عن هذه الصبغة صادق التعبير، في هذا العالم المتوتر المشحون بالغضب واليأس، والانحراف والتمرد ؟ أجل، إن هذه الشخصية هي الملاذ، وهي الأمل الذي يبحث الناس عنه، إنها المنقذ الوحيد الذي يستطيع أن يعيد السكينة والطمأنينة إلى هذا الوجود !! « الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، ولله عاقبة الأمور »[2].

إنه ليس عجباً أن ينحسر طوفان هذه الحضارة المعاصرة، ويتراجع في كثير من جوانبه بسرعة مذهلة، بعد أن بسط غثاءه وزبده على كل شيء في

---

(١) سورة الأنبياء : آية ١٠٥ ـ ١٠٦.

(٢) سورة الحج : آية ٤١.

أرجاء المعمورة. وليس غريباً أن ينتشر الذعر والخوف والهلع في أحياء تلك المدن الضخمة الأنيقة وشوارعها الممتدة الطويلة، بعد أن بقيت مدة من الزمن آمنة مطمئنة يأتيها رزقها من كل مكان، وتنشر هي القتل والذعر والدمار خارج حدودها، بعيداً عن أجوائها وأنحائها !! ليس عجباً كل ذلك، بل إننا لنعتقد أن هذا الغزل، الذي حيك على غير هدى من الله ورضوان، سينقض أنكاثا ولسوف تقضي هذه الحضارة كما قضى غيرها من قبل، ان لم تتداركها اليد الصالحة والجماعة المؤمنة فتأخذها حيث يريد الله سبحانه، إنه ناموس كوني وقدر إلهي : « ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب، من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً »[1].

لقد بيّن لنا القرآن الكريم واقع حضارات عديدة، قد شيدت وعلت وتطاولت ثم تهاوت وبيدت وانتهت إلى غير رجعة، ومن استعراض سور القرآن وجدت أن هناك سورة خاصة بقيام الحضارات واندثارها، وقد خصها - أي السورة - النبي ﷺ - بمزيد من التأمل والإمعان لما فيها من هذا المشهد المأساوي المؤثر، حتى أنها أثرت في نفسه عليه الصلاة والسلام أبلغ الأثر وأظهره حين عبّر عن ذلك، وقد سأله أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن ظهور علائم الكبر والتعب في ملامحه صلوات الله وسلامه عليه بقوله : أراك قد شبت يا رسول الله ؟ قال : شيبتني هود، وأخواتها..[2].

أجل.. إن سورة هود قد أبانت عن المثلات والنوازل المريعة التي حلت بالقرون الخوالي والأمم الماضية، وكشفت عن هذا القانون الإلهي الصارم الذي يحكم هذا الكون أمام الباقين عساهم يعتبرون ويهتدون، وإن استعراضاً سريعاً لهذه السورة الكريمة التي أهم النبي ﷺ شأنها، نجد فيها أن ست حضارات قد حلت بها نقمة القوي الجبار فأصبحت حصيداً كأن لم تغن بالأمس، ونجد كذلك من خلال الآيات القرآنية الكريمة أن كل

---

(١) سورة النساء : آية ١٢٣.

(٢) أخرجه الترمذي وقال حسن غريب. أنظر الأحوذي ١٩٣/٤، والحاكم في مستدركه وقال : على شرط البخاري وأقره الذهبي ٣٤٣/٢، وأبو يعلى الموصلي في مسنده، والطبراني، انظر تفسير ابن كثير ٥٢٤/٣.

واحدة من هذه الحضارات قد سيطر عليها نوع بارز من الانحراف الذي جر عليها الوبال والدمار بعد أن أعرضت عن هدى الله سبحانه وتعالى وهديه.

تطالعنا السورة بقوم نوح عليه السلام وقد لبث فيهم داعياً إلى الله والهدى ألف سنة إلا خمسين عاماً وهم مصرون على استكبارهم وعنادهم، قد ملأ قلوبهم الشعور بالعظمة وغشى أبصارهم عقدة السمو والكبرياء، فاحتقروا الضعفاء والفقراء، وازدروا المعدمين والمساكين، وتاهوا في شعاب هذا الترف الطبقي المستعلي على الحق والصدق والهدى، فإذا دعاهم نوح عليه السلام أجابوه بهذا المنطق المنحرف، وجابهوه بهذه الحجة السقيمة، « فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلنا، وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي)[1]، وان أمة سيطرت عليها هذه الضلالة واستخفتها هذه الغواية لجديرة بالفناء والزوال، وكذلك كان « ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون »[2].

أما عاد قوم هود، فقد غرتهم قوتهم، وما هم فيه من شوكة وسلاح، وزادهم غروراً، خيرات الأرض المتدفقة، وثمراتها المتكاثرة، فجحدوا نعمة الله، « ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين »[3]. فعصوا رسله واتخذوا قادة ارهابيين من العتاة المجرمين الذين يحادون الله ورسله، يقطعون الطريق، ويشيعون الخوف والرعب في الأحياء والأنحاء « وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد »[4]، فاستحقوا اللعنة الأبدية، والنكال الأليم : « وأُتبِعُوا في هذه الدنيا لعنة، ويوم القيامة، ألا إن عاداً كفروا ربهم ألا بُعْداً لعاد قوم هود »[5].

---

(١) سورة هود آية ٢٧ بادي الرأي. في قراءة من لم يهمز بادي : معناه ظاهر الرأي، ومن همز معناه أول الرأي، إي تبعوك عن غير فكر ولا ترو ولا نظر، بل بمجرد دعوتك أجابوك سريعاً وانقادوا إليك قبل غيرهم.

انظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢٨٧/١/ وتفسير ابن كثير ٥٤٧/٣.

(٢) سورة هود : آية ٣٧.

(٣) سورة هود : آية ٥٢.

(٤) سورة هود : آية ٥٩.

(٥) سورة هود : آية ٦٠.

وثمود قوم صالح الذين كانوا يرفلون في الرخاء والنعمة، وسعة العيش بعد الفقر والعدم، « هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها »[1]، يتقلبون في جنات وارفة، وعيون ثرة جارية، وزروع مختلفة وأشجار باسقة بشتى الطعوم والألوان والأشكال، كل ذلك في أمن كامل وسلام شامل، تتناثر بينها القصور العتيدة والأبراج الشامخة عنواناً لهذه النعمة الإلهية الغامرة.

« أتتركون في ما ها هنا آمنين * في جنات وعيون * وزروع ونخل طلعها هضيم * وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين »[2]. ولكنهم أسرفوا على أنفسهم وظنوا أن المال كل شيء في هذه الحياة واستخدموه على غير وجهه المشروع، فصدهم بطرهم عن سماع كلمة الهدى ورؤية الطريق الصحيح، وتمادوا على حرمات الله لأنها حالت بينهم وبين شهواتهم ومتعهم، فعقروا الناقة..

« فعقروها، فقال : تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب.... وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين * كأن لم يغنوا فيها، ألا إنّ ثموداً كفروا ربهم، ألا بعداً لثمود »[3]. وهكذا طوتهم صفحة النسيان، ودخلوا ليل التاريخ المظلم، وما كنا لنعلم عنهم شيئاً لولا حديث القرآن الكريم.

ثم قوط لوط الذين سخروا القوة التي كانوا يتمتعون بها لقهر الضعفاء والتنكيل بهم حماية للشهوة المرذولة والسيئات المردية التي انتشرت فيهم انتشاراً خطيراً فلم تعد سراً يستر، وعيباً يستحيا، بل غدا الأمر جهاراً يدافع عنه بحد السيف ويتفاخر به، وتدور في فلكه عصابات وجماعات تتحدى العقلاء وتخرج على قواعد المجتمع وعرفه، ممزقة بذلك هذا المجتمع، قاهرة لكل رجل رشيد فيه ــ إن كان ــ « فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي، أليس منكم رجل رشيد، قالوا : لقد علمت ما لنا في بناتك من حق، وإنك لتعلم ما نريد، قال : لو أن لي بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد »[4].

---

(١) سورة هود : آية ٦١.

(٢) سورة الشعراء : الآيات ١٤٦ ــ ١٤٩.

(٣) سورة هود : آية ٦٥ ــ ٦٨.

(٤) سورة هود : آية ٧٨ ــ ٨٠.

عندما انتشرت فيهم الفاحشة وأصبح كل شيء لأجلها لم تعد تنفعهم دعوات الداعين، ولا شفاعة الشافعين، بل سرى عليهم ما سرى على غيرهم من قانون ونظام هذا الكون : « فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها، وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود، مسومة عند ربك، وما هي من الظالمين ببعيد »[1]، وإن رجاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام ومجادلته دونهم لم يحل دون وقوع العذاب : « فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط، إن إبراهيم لحليم أواه منيب »[2]. إنه قد فات الأوان، وانقضت : الفرصة، « يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك، وإنهم آتيهم عذاب غير مردود »[3].

وإلى مدين قوم شعيب حيث أكرمهم الله بنعمه السابغه، فصبت السماء قطرها، وأخرجت الأرض خيرها وثمرها، فلم يشكروا للمنعم نعمته، بل غووا وطغوا وتنافسوا في التكاثر بالأموال وانحرفوا عن الحق ولعبوا بالموازين شحا وأثرة ليس عن فقر وإملاق، بل عن تكاثر وتفاخر، وسلكوا كل سبل الفساد لأجل ذلك من ربا ومقامرة وغيرها، وصدهم سيطرة حب المال وجمعه على قلوبهم عن الاعتبار بالماضين والاهتداء إلى سنن الصالحين، فكان نبيهم شعيب عليه السلام إذا قال لهم : « يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير.. »[4] أجابوه بأنه لا يعرف أنظمة الاقتصاد، ولا مفاهيم التجارة التي ورثوها عن الآباء والأجداد، « قالوا : يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أوْ أنْ نفعل في أموالنا ما نشاء، إنك لأنت الحليم الرشيد »[5].

وهددوه بالقوة التي عندهم إن لم يكف عن دعوتهم ليرجمنه وليطردنه و.... واستشرت سكرة حب العيش والمال فيهم حتى جاء أمر الله، « وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين، كأن لم يغنوا

---

(١) سورة هود : آية ٨٢ ـ ٨٣.
(٢) سورة هود : آية ٧٤ ـ ٧٥.
(٣) سورة هود : آية ٧٦.
(٤) سورة هود : آية ٨٤.
(٥) سورة هود : آية ٨٧.

فيها، الا بعداً لمدين كما بعدت ثمود »[1]. وجاء بعد هؤلاء جميعاً فرعون وقومه حيث لا تزال طلولهم ماثلة للعيان شاهدة على أن فرعون كان من الظلم والعسف والقسوة بمكان، فأضل قومه واستعبدهم، وقال لهم: « أنا ربكم الأعلى »[2]، « فاتبعوا أمر فرعون، وما أمر فرعون برشيد، يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار، وبئس الورد المورود، وأتْبِعوا في هذه لعنة ويوم القيامة، بئس الرفد المرفود »[3].

إن هذه الأمم لترشدنا الكلمة الإلهية إلى السبب الأساسي في تهاويهم واندثارهم وذلك في قوله تعالى: « .. وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم، فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك، وما زادوهم غير تتبيب، وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة، إن أخذه أليم شديد »[4].

إنه الظلم بمعناه الواسع، والظلم لغة وضع الشيء في غير موضعه المختص، به إما زيادة وإما نقصانا، وإما بعدول عن زمانه أو مكانه[5].

قال بعض الحكماء: الظلم ثلاثة أنواع، الأول: ظلم بين الإنسان وبين الله تعالى، وأعظمه الكفر والشرك والنفاق، ولذلك قال تعالى: « إن الشرك لظلم عظيم »[6]، والثاني: ظلم بينه وبين الناس وهو المقصود بقوله تعالى: « إنه لا يحب الظالمين »[7]، « إنما السبيل على الذين يظلمون الناس »[8].

---

(١) سورة هود: آية ٩٤ ـ ٩٥.
(٢) سورة النازعات: آية ٢٤.
(٣) سورة هود: آية ٩٧ ـ ٩٩.
(٤) سورة هود: آية ١٠١ ـ ١٠٢.
(٥) انظر: الفيروزآبادي: القاموس المحيط ـ مادة ظلم، والراغب الأصبهاني، مفردات القرآن الكريم، مادة ظلم.
(٦) سورة لقمان: آية ١٣.
(٧) سورة الشورى: آية ٤٠.
(٨) سورة الشورى: آية ٤٢.

والثالث ظلم بينه وبين نفسه، وإياه قصد بقوله تعالى : « فمنهم ظالم لنفسه »[1] (أ). وقد جاءت دلالة الظلم الوارد في القرآن الكريم على الأمور التالية : الشرك بالله، والكفر به، وجحود هداية السماء والكتب المنزلة، وعلى ارتكاب المحظورات والمنهيات والمخالفة للجادة، وعلى الاعتداء حلى حرمات الناس بغير حق في أنفسهم وأعراضهم وأموالهم، وتدل على الجور في الحكم والقضاء (ب).

ويجمع هذه الأنواع كلها اسم (المعصية). (جـ). فكل ظلم معصية حيث يخرج به الإنسان عن طاعة الله وهداه الذي أوضحه الرسل والأنبياء، سواء كان ذلك في العقيدة والفكر، أم في المعاملات والمبادلات ـ أعني في القوانين التي تنظم المجتمع ـ أم في السلوك والتصرف ـ وأعني بذلك قوانين بناء الفرد والأسرة والجماعة أو ما يسمونه بالأحوال الشخصية ـ فإذا تعاظمت المعصية وانتشرت فقد حل البلاء ووقع العقاب، ولهذا كان الأمر الإلهي للنبي ﷺ في هذه السورة نفسها تعقيباً على مصارع الأمم الغابرة : « فاستقم كما أمرت ومن تاب معك. ولا تطغوا، إنه بما تعملون بصير. ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار، وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون »[2].

وإن الأمم السابقة قد ابتليت بواحدة أو أكثر من هذه المعاني، فبعضها جحد هداية السماء واستعلى على الرسل والأنبياء، وبعضها أضاف إلى هذا الاعتداد بالقوة والركون إليها، وبعضها اختلت فيها أنظمتها الاجتماعية وفسدت فيها الأمم والنفوس، وبرزت نوازع الشر وسيطر حب المال، وبعضها عمتها الفاحشة واختلت فيها علاقة الرجل بالمرأة خاصة وعلاقة الإنسان بالإنسان عامة فهي في مظاهر الانحراف والفساد التي

---

(١) سورة فاطر : آية ٣٢.

(أ) انظر : الراغب الأصبهاني مفردات القرآن الكريم مادة ظلم.

(ب) انظر : الدامغاني، اصلاح الوجوه والنظائر ص ٣٠٨.

(ج) انظر : الحكيم الترمذي، تحصيل نظائر القرآن الكريم ص ١١٠.

(٢) سورة هود : آية ١١٢ ـ ١١٣.

كانت سبب الدمار والزوال متشابهة تمام التشابه، ولهذا أسماها الله عز وجل « ظالمة » : « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة »[1].

وإن هذا الأمر قد توصل إليه عدد من الباحثين الذين لا يستندون إلى هدى القرآن ولا ينطلقون منه وربما لم يقرؤوا هذا التحليل القرآني لتردي الحضارات ولم يسمعوا به ؛ ومن هؤلاء الفيلسوف الاجتماعي الفرنسي غوستاف لوبون الذي كتب عن الحضارات الأولى وحضارة الهند وحضارة الغرب وغيرها حيث يقول : ونحن إذا ما بحثنا في الأسباب التي أدت بالتتابع إلى انهيار الأمم، وهي التي حفظ لنا التاريخ خبرها كالفرس والرومان وغيرهم وجدنا أن ـ العامل الأساسي في سقوطها هو تغير مزاجها النفسي تغيراً نشأ عن انحطاط أخلاقها، ولست أرى أمة واحدة زالت بفعل انحطاط ذكائها. ووجه الانحلال واحد في جميع الحضارات الغابرة وهو من التشابه ما يسأل به مع أحد الشعراء عن كون التاريخ صفحة واحدة وإن اشتمل على عدة مجلدات.

ومن هؤلاء أرنولد توينبي ـ المؤرخ الشهير في العصر الحاضر ـ حيث يقول : إن الاختلافات بين الحضارات النامية تتسم بالإنفساح والعمق، ومع ذلك سنجد عملية الانحلال تنزع إلى المواءمة في جميع الحالات على نمط قياسي. ويقول فوستل دوكولانج : « ألم يكن المرض الذي كان المجتمع الروماني يألم منه هو فساد الطبائع، بل فتور العزيمة، ومن ثم وهن الأخلاق ».

العاقبة للمتقين : ومن خلال النص القرآني نجد أن الحضارة عندما تتحلل والأمة تندثر لا ينجو منها إلّا الذين عرفوا مكمن الداء فاتقوه، ومركز الخطر فاجتنبوه، ولم يكتفوا بذلك الجانب السلبي، بل كانوا إيجابيين محذرين ومنذرين من سوء العاقبة، وشر المصير، فمع نوح عِليه السلام نجت القلة المؤمنة « حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور، قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلّا من سبق عليه القول ومن آمن، وما آمن معه إلّا قليل »[2].

---

(١) سورة هود : آية ١٠٢.

(٢) سورة هود : آية ٤٠.

وقوم هود، كذلك نجا المؤمنون « ولما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ »[1].

والذين آمنوا بصالح كذلك نجوا وأخزى الله العاصين « فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ، إن ربك هو القوي العزيز »[2].

وقوم لوط الذين لم يكن بينهم غير بيته وليس منهم امرأته نجوا دون العصاة والمذنبين..

« قالوا : يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك، فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك، إنه مصيبها بما أصابهم، إنّ موعدهم الصبح، أليس الصبح بقريب »[3].

ومثلهم قوم شعيب « ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا، وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين »[4]، ونجى الله موسى ومن آمن به، وأغرق فرعون وجنده.

إلّا أن الأمر الملفت للنظر والمؤكد، أن المؤمنين لم يكونوا سلبيين فارين من ساحة المجتمع إلى المغاور والكهوف، بل كانوا دعاة للخير، حرباً عل الرذيلة والمعصية.

استثناء : وإن المجتمعات التي ترتكب واحدة أو أكثر من المعاصي العديد وتستشري فيها يقع بها التغيير بدون شك فهي، إما أن تزول نهائياً وتصبح أثراً بعد عين، وإما أن يقيض الله لها من يهديها إلى مكمن الخطر وتدركه الأمة فتقلع عنه وتغير الاتجاه، وقد حدثنا القرآن الكريم عن هذا النوع من التغيير مرتين اثنتين، الأولى عن الأمة التي بعث فيها سيدنا يونس بن متى عليه السلام، والثانية الأمة المصرية التي ساقت الأقدار الإلهية إليها الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب عليهم وعلى نبينا أفضل

---

(١) سورة هود : آية ٥٨.

(٢) سورة هود : آية ٦٦.

(٣) سورة هود : آية ٨١.

(٤) سورة هود : آية ٩٤.

الصلاة والسلام، وإذا كان حديث القرآن الكريم قد جاء عن أمة يونس مقتضباً مجملاً، فقد جاء عن الأمة المصرية ويوسف مفصلاً كاملاً في سورة كاملة، هي التي هدتني بفضل الله إلى تحديد موقف الشباب المسلم من حضارة تحتضر وتوشك أن تلفظ أنفاسها الأخيرة !!!.

أما يونس بن متى عليه السلام، فقد خصت السورة التي وردت فيها الإشارة إليه مع قومه باسمه، وغير خاف أن تسميه السورة القرآنية كانت من الشارع الحكيم، والسورة مكية نزلت حين كانت الجماعة الوارثة تعاني أشد المحن وأقساها، وتسمع كلام الله يتلى فيه قصص السابقين والغابرين والمنحرفين الذين دمر الله عليهم ديارهم، وكانت هذه الجماعة تنظر الواقع المنحرف المظلم الذي يستحق أهله البوار والدمار، فكانت هذه السورة التي تحمل اسم سيدنا يونس عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام مذكرة بحاله مع قومه حيث يقول الله سبحانه وتعالى عنهم : « فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلّا قوم يونس، لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين »[1].

يقول أبو عبيدة في تفسير هذه الآية : فهلا كانت قرية إذا رأت بأسنا آمنت فكانت مثل قوم يونس، ويقول ابن كثير : خرج رسولهم من بين أظهرهم، فعندما ــ لما رأوا أسباب العذاب ــ جأروا إلى الله تعالى واستغاثوا به، وتضرعوا له واستكانوا، وأحضروا أطفالهم ودوابهم ومواشيهم وسألوا الله تعالى أن يرفع عنهم العذاب الذي أنذرهم به نبيهم، فعندما رحمهم الله وكشف عنهم العذاب أُخِّروا.

أما الأستاذ الشهير سيد قطب فيقول تعليقاً على هذه الآية : وحسبنا أن ندرك أن قوم يونس كان عذاب مخز يتهددهم، فلما آمنوا في اللحظة الأخيرة قبل وقوعه كشف عنهم العذاب، وتركوا يتمتعون بالحياة إلى أجل، ولو لم يؤمنوا لحل بهم وفاقاً لسنة الله المترتبة آثارها على تصرفات خلقه..

---

(١) سورة يونس : آية ٩٨.

حسبنا هذا لندرك أمرين هامين :

أولهما : الإهابة بالمذنبين أن يتعلقوا بخيوط النجاة الأخيرة، فلعلهم ناجون كما نجا قوم يونس من عذاب الخزي، وهو الغرض المباشر من سياقه القصة هذا المساق..

أجل إنها إهابة بالمنحرفين أن يغيروا اتجاههم ومواقفهم فإن رحمة الله قريب من المحسنين، فإذا توفر لديهم الاستعداد وصدقت النية وصحت العزيمة وشقوا الطريق الجديدة، فإن الله يغير حالهم ويبدل مآلهم كما قال تعالى : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »[1].

وحتى لا يظن ظان أو يعتقد معتقد أن الذين آمنوا بيونس فكانوا بمنجاة من العذاب الأليم قلة قليلة وجماعة يسيرة ذكرهم المولى عز وجل في موضع آخر من سورة مكية أنهم أمة كبيرة حيث قال سبحانه وتعالى : « وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون، فآمنوا فمتعناهم إلى حين »[2].

وقبل أن أنتقل إلى الحديث عن الحضارة التي آذنت بالرحيل، فأنقذها الله عز وجل بشباب الإيمان، فغيرت وجهتها واستمرت إلى حين، أذكر بأمرٍ مهم جداً ألا وهو أن هذه السور الثلاث المكية، يونس وهود ويوسف قد نزلت تباعاً في مكة، على ترتيبها الذي بين يدينا الآن في المصحف، وهذا الترتيب من وضع الحكيم العليم كما يرى ذلك جمهور علماء المسلمين، ولم يخالف في ذلك إلّا عدد قليل جداً من العلماء.. وفي هذا الترتيب دلالته ومغزاه، حيث كانت سورة هود تتحدث عن النهايات القاسية التي ختمت بها حضارات انحرفت عن هدى الله، بعد إشارة عابرة إلى نجاة أمة واحدة في سورة يونس قبلها، ثم جاءت سورة يوسف لتوضح أبعاد أمة عريقة في الحضارة والتنظيم، وتدل على مواضع الخلل والمعصية فيها، وكيف يقف الشاب المسلم حيال هذا الخلل وتوضح له السبيل لإصلاحها وإعادة تنظيم هذه الحضارة !! وكأني أرى في ذلك أن البشرية بعد بعثة محمد عليه الصلاة والسلام قد رفع الله عنها الدمار الكلي السريع

---

(١) سورة الرعد : آية ١١.

(٢) سورة الصافات : آية ١٤٧.

الذي كانت تتعرض له الأمم السابقة انطلاقاً من عالمية الرسالة المحمدية وشاهديتها على الناس أجمعين، واستمرار طائفة من حملة هذه الرسالة هداة للحق، وحجة على الناس أجمعين كما قال ﷺ : (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله).

لهذا كان من حكمة الله عز وجل أن يبقى نموذج يوسف، الذي تولاه ربه واجتباه وعلمه الحكمة، مثلاً حياً ونموذجاً عالياً أمام الشباب المسلم في كل العصور والدهور، ولهذا كان جواب النبي ﷺ، عندما سئل عن أكرم الناس وأنقاهم قال : الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحق بن إبراهيم خليل الله، عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام.

وغير خاف أن قصة يوسف وردت بتمامها وطولها في سورة واحدة كاملة بلغت مائة وإحدى عشرة آية، لم يذكر في هذه السورة سوى هذه القصة وما يدور في إطارها، ثم إن هذه السورة تناولت شخصية يوسف عليه السلام الشاب الوسيم القسيم في كل مجالات حياتها وأبعادها، وبكل جوانب هذه الحياة، وبكل استجابات هذه الشخصية في هذه الجوانب، وتلك المجالات.

فارقان أساسيان : عندما حل يوسف عليه السلام في المجتمع المصري بتقدير العزيز العليم كان على إرث سماوي من تعاليم الهداية الإلهية تلقاها من والده النبي الكريم، وعاشها حياة في أحضان والديه وإخوته وأسرته، هذا الإرث لم يكن يعرف منه المجتمع المصري شيئاً، وإن كانت منه بقايا في ذلك المجتمع تحدرت عبر القرون فقد شوهت وتغير وجهها الصحيح، فأصبحت ميتة لا حياة فيها ولا حراك، وهذا فارق أساسي بين أمم وحضارات تمسها نفحة السماء وأمم تسد المنافذ والأبواب في وجه هذه النفحة العلوية !!.

ثم إن يوسف، الذي كان الإنقاذ على يديه، لم يكن من ذلك المجتمع بل كان وارداً عليه من البادية من أرض كنعان حيث لم يبلغ المد الحضاري ما بلغه في المجتمع المصري، وبالتالي فإن الفطرة في مكان نشأة

يوسف أشد صفاء وأكثر نقاء، يستتبع ذلك أن التفكير عند الأقوام التي لم تنشأ في الحضارة وتكون أسيرة لها يكون أقوم وأهدى.. وهذا فارق آخر مهم يؤخذ بعين الاعتبار لتحديد المواقف لتقويم حضارة ما !!.

سمات تلك الحضارة : كانت سمة تلك الحضارة التي واجهها يوسف عليه السلام التنظيم الرفيع والتقسيمات الاجتماعية الدقيقة، يغشى ذلك كله الترف المادي العظيم الذي كانت تنعم به. يدلنا على ذلك قوله تبارك وتعالى : « وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي... »[1]، « قالت امرأة العزيز.. »[2]، « وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه : »[3]، « وقال الملك إني أرى سبع بقرات... يا أيها الملأ أفتوني في رُءْياي »[4]، بطانته من حوله، « وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم »[5]، العبيد المأمورون الذين يرقبون إشارة سيدهم.. وكل منهم يختص بعمل معين، « قال أحدهما إني أراني أعصر خمراً، وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً »[6]، « اجعلني على خزائن الأرض »[7]، وزارة خاصة بالمال.. « سجن » وإدارة للسجُون.

أما مظاهر الترف والنعيم فيدل عليها قوله تعالى : « وأعتدت لهن متكئاً وآتت كل واحدة منهم سكيناً... »[8]، فإن استعمال السكاكين في الأكل والاتكاء على الوسائد والحشايا قبل آلاف من السنين له قيمته في تصوير الترف والحضارة المادية ـ السقاية ـ التي كان يختص بها الملك، « وغلقت الأبواب... »[9]، « واستبقا الباب »[10]، دليل على سعة القصور

---

(١) سورة يوسف : آية ٥٤.
(٢) سورة يوسف : آية ٥١.
(٣) سورة يوسف : آية ٣٠.
(٤) سورة يوسف : آية ٤٣.
(٥) سورة يوسف : آية ٦٢.
(٦) سورة يوسف : آية ٣٦.
(٧) سورة يوسف : آية ٥٥.
(٨) سورة يوسف : آية ٣١.
(٩) سورة يوسف : آية ٢٣.
(١٠) سورة يوسف : آية ٢٥.

وحدائقها وأفيائها وهي محكمة الأقفال عالية الأبراج والأسوار.

أزمة تلك الحضارة :

وكانت تلك الحضارة تعاني أزمات خطيرة تجرها بسرعة نحو الهاوية، يتجلى لنا ذلك من خلال النص القرآني وحده، لأني لم أنقب في غيره من كتب التاريخ عن تحديد زمان تلك الحضارة، لأن كتب التاريخ ضرب من الأوهام والظنون عن أمة لم تشهدها.. وكان النص القرآني كافياً لإلقاء نور عليها وعلى أزماتها وهي كالتالي :

١) أول تلك الأزمات في ذلك المجتمع الفراغ الديني والضياع العقدي، حيث كان الناس متعددي الاتجاهات، مختلفي الديانات، وكلها تتجه نحو غير الله سبحانه وتعالى، يدلنا على ذلك قوله تعالى على لسان يوسف الذي رصد حركة ذلك المجتمع وعاش في قصوره وسجونه فقال : « يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟ ما تعبدون من دونه إلّا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان »[1].

وإن الآية القرآنية في سياقها وكلماتها « أرباب، أسماء » لتدل على الكثرة الكاثرة من الآلهة المعبودة في تلك الأمة، وربما كان فيها إلى جانب مظاهر الطبيعة، بشر وملوك يعبدون كذلك، يدل عليه قوله تعالى « متفرقون »، كل واحد حوله شيعته وطائفة تدين له بالولاء وتظهر له الطاعة، وهذا التعدد والتفرق كان من أكبر الأخطار التي تهدد تلك الحضارة.

٢) أزمة اجتماعية بلغت ذروتها في التحلل الخلقي، وسيطرة الجنس الذي سخر كل شيء في سبيله، ولا سيما في بيوت علية القوم وسادتهم مما دعاهم إلى الدوران حول هذا المحور، وتقديس الجمال والركوع في محرابه والتضحية بكل شيء في سبيل الحصول عليه، فالألم يحتمل، والعذاب يُستمرأ ويدل عليه قوله تعالى : « فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن : حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلّا ملك كريم، قالت : فذلكن الذي

---

(١) سورة يوسف : آية ٣٩ ــ ٤٠.

لمتنني فيه »[1]، إنهن حين رأين جمال يوسف وطلعته الوسيمة، نسين أن أيديهن قد قطعت، وأكملن حديثهن بلهفة وشوق، « حاش لله ما هذا بشراً »[2]..

فإن قال قائل : إن قولهن : امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه يدفع ذلك، نقول : بل يؤكده، حيث كان من المستهجن عندهن أو أن الغرابة في الأمر، أن امرأة عزيز مصر في مكانتها وسلطانها ورفعتها تتدنى إلى مستوى فتاها المملوك، أو الذي تبنته وجعلته كولدها كما جاء في قوله تعالى حيث قال العزيز لامرأته : « أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً »[3]. ويزيد هذا الأمر تأكيداً قوله : « فلما سمعت بمكرهن »[4]، مكرهن حيث تدل هذه الكلمة على أن بقية النسوة ليس لهن الحق في هذا الاعتراض وكثرة القيل والقال، ولهذا عدته امرأة العزيز مكراً. ويدل عليه قول يوسف عليه السلام : « رب السجن أحب إليَّ مما يدعونني إليه، وإلّا تصرف عني كيدهن أصْبُ إليهن... »[5].

ومن هذا نستنتج أن الطبقة المترفة كانت تعيش لهذا.. وتبحث عنه وعن أخباره، وكانت دوائر خاصة ترقب هذا النوع من المعلومات وتتداوله، يدل على ذلك سرعة انتشار خبر امرأة العزيز حيث لم يشهد الواقعة غير زوجها وشاهد واحد من أهلها ويوسف وكانت وراء أسوار وأبراج مقفلة. وإلى جانب التحلل الأخلاقي انحراف القوانين والأنظمة بدليل أن يوسف رفض التمسك بها لأنها جائرة، وانتشار الخيانة والفساد بين الموظفين.

أزمـة الفكر والقيـادة :

حيث خبا نور العلم في هذا المجتمع الذي سيطرت عليه الوثنية وعبادة غير الله، وسخر جهوده في خدمة الشهوة والترف وهذا ما نجده في

---

(١) سورة يوسف : آية ٣١ ـ ٣٢.
(٢) سورة يوسف : ٣١.
(٣) سورة يوسف : آية ٢١.
(٤) سورة يوسف : آية ٣١.
(٥) سورة يوسف : آية ٣٣.

تخبط الملك، وقد رأى رؤياه التي هالته فاستنجد بالملأ القريب والبعيد ليعبروها له، ولكنه وجد معين العلم قد نضب، وعيونه قد جفت، وإني حين أقرأ قوله تعالى حكاية عن الملك : « يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون »[1]، أتخيله يصرخ بأعلى صوته حين لم يجد عند بطانته والمقربين إليه علماً ومعرفة يستنجد البعداء والنائين، لأن (يا) كما هو معلوم تستعمل في نداء البعيد، ومع ذلك كان الجواب عندهم جميعاً « أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين »[2]، وهذه حيلة الجاهل حين يسأل فيقول : لا علم لي بهذا الجانب..

إذا كان الملك والقيادة يتخبطون بجهلهم، وكان الناس وعلماؤهم عاجزين عن حل مشاكل هذه القيادة وتخبطاتها.. وإنه لفقر فكري رغم مظاهر الترف والحضارة العظيمة والتنظيمات الدقيقة وبالتالي إنها لأزمة..

٤) وبدأ يلوح في الأفق نذير أزمات اقتصادية خطيرة، كانت ستهلك الحرث والنسل، وتقطع دابر العباد لولا أن منّ الله على تلك الأمة بيوسف الصديق، هذا النذير الذي بدأ يلوح في الأفق هو الذي دعا الملك حين أوّل له يوسف رؤياه على وجهها الصحيح أن يعجل باستقدامه، وأن يلح في طلبه مستعيناً به راكناً إليه، وعندما طلب منه منصب التحكم في خزائن المال والسيطرة على الميرة لم يتردد الملك لحظة واحدة بل دفعها إليه راضيـاً، وهذا شأن القادة في كل زمان ومكان حين يعثرون بأزمة ويجدون الحل عند شخص ما يسلمون له القيادة، ويعهدون إليه بتسيير كل الأمور..

هذا الأتون الحضاري المستعر الذي ألقي فيه يوسف عليه السلام ليكون طليعة مؤمنة نبراساً للاحقين كيف كانت مواقفه وتصرفاته ـ التي رضي الله عنها وأودعها خالد كلماته عبرة وتبصرة وسبيلاً آمناً لكل المؤمنين ؟ حيث قال عز من قائل : « قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني، وسبحان الله، وما أنا من المشركين »[3].

---

(١) سورة يوسف : آية ٤٣.

(٢) سورة يوسف : آية ٤٤.

(٣) سورة يوسف : آية ١٠٨.

أجل !! كانت مواقف بشرية بكل ما في البشرية من أبعاد، إلا أنها تستلهم هدى الله وتعتمد عليه في كل حال وشأن، وهذا هو مفرق الطريق بين المؤمن الذي وصل حِبالهُ بالله، وبين الكافر الذي قطع هذه الصلة وأخلد إلى الأرض، فمثله كمثل الكلب، إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث.

ويمكننا تحديد بعض المواقف الأساسية في تصرفات يوسف عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام :

١ ـ التعالي عن السوء والفحشاء :

فقد وقف يوسف تجاه سعار الجنس المنتشر وقفة المؤمن المعتصم بالله الذي يأبى أن يدنس أردانه، أو يلطخ عفته، وقد وقف هذا الموقف من منطلق التربية السليمة والمعرفة القويمة التي تلقاها من والده النبي الكريم لحرمة هذه الفعلة الشنعاء، والمنكر الوبيل وقد راودته سيدته وتكررت المراودة، ولكن البشرية أدركت يوسف حيث كانت مواقفه كما قلت مواقف بشر لـه كل نزعاته، وشهواته، وبجوارها في قلبه نور الإيمان وداعي الله، وهنا حين تكررت المراودة، وأدركته لحظة الضعف البشري التي كادت تنتصر لولا أن رأى برهان الله، وقد قيل في ذلك أنه رأى صورة يعقوب عليه السلام في سقف الغرفة وهو عاض على أصبعه، وقيل : إنه رأى سيده، وقيل : أنه سمع صوتاً اتق الله، وقيل إنه قد رأى آيات مكتوبات...... الخ.

ومهما كان الأمر فقد رأى برهان الله فتذكر نعمة الله عليه فإذا هـو مبصر فولى هارباً نحو الباب، إنها حال المؤمن التقي في كل زمان ومكان حيث يقول سبحانه وتعالى : « إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون »[1].

إذاً إنها التربية الإسلامية الصحيحة التي تستند في أوقات الحرج والعنت والحلكة إلى برهان الله، وليس كل الشباب يتأتى لهم رؤية هذا البرهان بوحي من السماء، فيجب على الدعاة أن يمدوا الشبـاب الذين تولـوا تربيتهم بهذا البرهان بين الفينة والفينة، وهذا البرهان الرباني قد استخدمه

---

(١) سورة الأعراف : آية ٢٠١.

النبي ﷺ في تربيته وتقويمه للمنحرفين الذين أعلنوا توبتهم في غير موقف من مواقفه عليه الصلاة والسلام، منها حين حدث أصحابه عن الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفساً وأكمل تمام المائة بالراهب المتعبد، واستفتى بعد ذلك العالم فقال : غيِّر هذه الأرض التي عصيت الله فيها..

إن برهان الله عصم ابن الأكرمين يوسف عليه السلام من السوء والفحشاء في عالم لا يقيم للشرف ولا للعرض وزناً ولا معنى.. وهذا البرهان هو الذي ملك على يوسف أقطار قلبه وجميع مشاعره، فجعله يتمنى السجن والتعذيب ومغادرة القصور والجنان حتى لا ينحدر دون مستوى هذا الإيمان، إنه موقف التربية بالبرهان !!

٢ ــ رجـــل العقيـــدة :

ويظهر يوسف عليه السلام، في هذا الخضم المتلاطم من العقائد والعبادات والشعائر والأفكار، رجل العقيدة الإسلامية الصحيحة التي يبلغها في أي مكان يستطيعه، فلم تبطره النعمة التي كان يحياها في بيت العزيز ولم تطغه، ولم تنسه البأساء واللأواء التي قاساها في غياهب السجن الدعوة إلى عقيدته وبيان زيف العقائد الأخرى بأسلوب حكيم في الوقت المناسب، ويظهر لي ــ والله أعلم ــ أنه كان بإمكان يوسف أن يدعو العزيز وآله إلى الله عندما كان بينهم، خصوصاً عندما كانت المراودة والإغراء على أشدهما، وأن ينصح ويدل زوجة العزيز على الطريق القويم.. كان بإمكانه، ولكنه ــ والله أعلم ــ لم يفعل، ولم يقص ربنا تبارك وتعالى في هذا الشأن شيئاً لأن هذه الطبقة أبعد عن القبول وأنأى عن الهدى من الطبقات الأخرى خصوصاً عندما تكون الحضارة في طور الأفول، وهذا ما يؤكد لنا عناية الدعاة إلى الله بالطبقات الفقيرة، وعدم إهمال الطبقات الغنية، ويؤكد لي ذلك ما جاء في غير موقف وحديث أن ضعفاء الناس ــ غالباً ــ هم الذين يتبعون الرسل ويسبقون الأغنياء إلى الإيمان..

ورجل العقيدة يوسف هو الذي دعته عقيدته إلى هجر حياة النعمة والترف إلى حياة السجن حياة البؤس والشظف، لأن النعماء التي كان يحياها لا تتفق وعقيدته، فطلب السجن الذي يتوارى فيه لأنه أينما تنقل في ذلك

المجتمع سيكون موضع دعوة إلى الفحشاء والسوء، « قال : رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه.... »[1].

٣ ـ السلوك القويم :

وكان يوسف في تقلبه هنا وهناك يعبر أصدق تعبير عن عقيدته بمخالفته للمجتمع الذي هو فيه بسلوك متميز، واستقامة عظيمة، كانت محل تقدير وإعظام من كل من رأى يوسف عليه السلام، هذا السلوك القويم والتصرفات اللبقة، والمعايشة الحسنة جاء التعبير عنها في غير موضع من السورة بوصف يوسف عليه السلام « بالمحسن »، جاءت في قوله تعالى : « ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً، وكذلك نجزي المحسنين »[2].

وقال له صاحبا السجن : « نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين »[3]. وفي قوله تعالى « وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء، نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين »[4]، وقال له أخوته قبل أن يعرفوه : « يا أيها العزيز إن له أبا شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه، إنا نراك من المحسنين »[5]، « قال : أنا يوسف وهذا أخي قد منَّ الله علينا، إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين »[6].

آيات خمس تصف يوسف بأنه من المحسنين، والمحسن هو الذي يعمل الحسن أو الأحسن، ويجانب السيء والقبيح، وبهذا كان يوسف في سلوكه وتصرفه معبراً عن شخصيته وعقيدته بسلوكه قبل قوله وهذا ما دعا صاحبي السجن إلى جعله عيبة سرهم، وموضع ودهم ونصحهم لأنهم رأوه

---

(١) سورة يوسف : آية ٣٣.
(٢) سورة يوسف : آية ٢٢.
(٣) سورة يوسف : آية ٣٦.
(٤) سورة يوسف : آية ٥٦.
(٥) سورة يوسف : آية ٧٨.
(٦) سورة يوسف : آية ٩٠.

من المحسنين وكذلك إخوته قبل أن يعرفوه رجوا منه الخير والرأفة دون أن يسألوه عن معتقده ودينه لأنهم رأوه من المحسنين !!.

وإنها صفة جد هامة في الدعاة إلى الله أولاً وفي المسلمين عامة ثانياً، ولهذا ذكر الإحسان والمحسنون والحسنة والحسن في آيات كثيرة جداً لما لهذه الصفة من أثر هام في الحياة الاجتماعية وإنها لعنوان الحضارة الإسلامية !!.

٤ ـ الكفاءة الفكرية :

لقد أثبت يوسف كفاءة فكرية ومقدرة إدارية واقتصادية أكبر من الأزمات التي لم يهتدوا إلى حلها مما جعلهم لا ينازعونه الأمر ولا ينفسون عليه المرتبة، وهذه الصفات هي التي مكنته من القيادة وجعلته الحاكم المطلق، في حين عجز أبناء تلك الأمة عن إظهار مثل هذه المقدرة حين سئلوا عن رؤيا الملك، وحين علموا أن سنين عجافاً ستعقب سنين خير وخصب فلم يهتدوا إلى الحل الذي ينجيهم جميعاً دون الإجحاف بأحد من الناس، وتقدم واثقاً إلى الملك بقوله : « اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم »[1]، وكأني أشعر أن هذه الآية تشير إلى مميزات يوسف التي تفرد بها. فهو حفيظ أي خازن أمين وهي إشارة إلى انتشار الخيانة بين الموظفين، وعليم، ذو بصيرة ومعرفة بتقسيم الأرزاق والغلات..

وكانت العاقبة للمتقين كما هي السنة الإلهية، « أنا يوسف وهذا أخي قد مَنَّ الله علينا، إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين »[2].

رجل العقيدة المحسن، يوسف عليه السلام، عندما سنحت له الفرصة وتمكن من السلطة، لم يحكم بشريعة الملك ولا بقوانين الأمة المنحرفة بل حكَّم شرع الله،وبدأ يوجه الأمة في هذا السبيل، فحقق الله له كل أمل يريده، ورفعه فوق درجات بتطبيق شرع الله، وذلك حين أراد أن

---

(١) سورة يوسف : آية ٥٥.

(٢) سورة يوسف : آية ٩٠.

يعاقب آخذ الصواع.. « كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك »[1]. وهكذا كان التدبير الإلهي الحكيم أوفق لمصالح يوسف ولمصالح بني الإنسان، وبذلك يرتفع المجتمع الذي يحكم شريعة الله درجات فوق من نشاء، وفوق كل ذي علم عليم »[2]. وشتان شتان بين شريعة الرحمة وشريعة الإنسان !!.

ومن خلال العاقبة الطيبة، والنهاية المشرقة للتقوى، يتجلى لنا في يوسف عليه السلام أمران اثنان أولهما : عدم البطر والأشر والاعتداد بالقوة والملك بل فاضت دموع الشكر والحمد لله ورفع يديه تضرعاً إلى الله أن يختم له بالحسنى ويجعله واحداً في ركب الصالحين لأن الأعمال بالخواتيم حيث قال عليه السلام : « رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث، فاطر السموات والأرض، أنت وليي في الدنيا والآخرة، توفني مسلماً وألحقني بالصالحين »[3].

والأمر الثاني : أنه دعا إخوته وأهله وقال لهم : مصر أمن وسلام لكم فانطلقوا فيها حيث تشاؤون، أما أبواه فقد آواهما إليه، « فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال : ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين »[4]، وكأن يوسف عليه السلام ـ والله ـ يريد أن ينتشر الأسباط في أرجاء المجتمع الذي أوشك أن ينهار ليكونوا معالم هداية ونموذجاً جديداً في السلوك.. وأنه أمر جدير بالنظر في منهج التغيير الرباني !!.

لقد بقيت شخصية يوسف المتفردة في صورتها الخاصة الفريدة من أعظم نماذج الإيمان في موكب الإيمان الطويل.. منهجاً للإصلاح وسبيلاً للتغيير، ومثلاً أعلى يتأساه الشباب المؤمن في كل عصر وحين مذكراً بأن الشخصية الشابة المؤمنة الوحيدة التي جاء القرآن عنها بهذا التفصيل الكافي الدقيق هي شخصية يوسف، دون موسى ودون عيسى عليهما السلام ودون

(١) سورة يوسف : آية ٧٦.
(٢) سورة يوسف : آية ٧٦.
(٣) سورة يوسف : آية ١٠١.
(٤) سورة يوسف : آية ٩٩.

غيرهم من أنبياء الله، ودون أصحاب الكهف الذين حافظوا على إيمانهم وفروا إلى اللهوماتوا على الإيمان، كل ذلك مما يؤكد لي تكامل منهج الإصلاح الإيماني المستمر لكل العصور في هذه الشخصية التي تحدرت من الكرام العظام، وفي صورتها التي هي بصيرة وسبيل.. وقد ترسم الصحابة رضوان الله عليهم خطى يوسف وهم يواجهون الجاهلية، ويجابهون حضارتين عملاقتين فكانوا نماذج على نمطه ولآلىء تضيء الدياجي كما أضاءها الصديق من قبل، فشادوا الحضارة التي كانت خير حضارة عرفتها الأرض. ودار الفلك دورته، وخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، فكان عاقبة أمرهم خسراً، وانتهينا من دوارنا فجأة واذ نحن أمام مدافع جبارة ومخترعات غريبة تنطلق من حضارة بعيدة عن أصولنا ومناهجنا ولكنها قوية على أية حال، ولعلنا نحن نعيش اليوم تحت سيطرة حضارة نشأت بعيداً عن هدى الله، كما نشأ غيرها من قبل ندرك مع غيرنا أن روافد التاريخ القديم والحديث قد صبت في هذه الحضارة، ولكن ـ مع الأسف والأسى ـ كانت هذه الروافد غير نقية ولا صافية، مليئة بالأكدار والأقذار مما يحتم أن تكون نهايتها أليمة كسابقاتها، وخاتمتها إلى لعنة الله إن لم تتداركها يد الشباب المؤمن فتقودها إلى حيث يريد الله وتوجهها وجهة أخرى !!.

وإذا أردنا بكلمات موجزات أن نقيّم عطاء هذه الحضارة لقلنا : إنها قدمت عطاء مادياً رهيباً يتمثل في القوة بشتى أنواعها. وهي الآن موضع التسابق والتنافس على المستوى الدولي، وبين جميع الدول، صغيرها وكبيرها، وأنها أعطت كثيراً في جانب المادة والرفاهية المادية من مخترعات ووسائل نقل وبناء ودور وقصور... مما يخدم متعة الجسد، ومن هذين المحورين انطلقت الحضارة الغربية في القرن التاسع عشر والعشرين (القوة، واللذة الجسدية) وغدا كل شيء في هذه الحضارة يدور حولها، من أبسط الأشياء إلى أعظمها وأعقدها، فالقانون المنظم للمجتمع يزيد في أوارها، والسياسة تدندن حولها، والاقتصاد لخدمتها والعلاقات الدولية تشكل من هذا المنظور.. ولكنها، بعد هذا الشوط الطويل والإنتاج الضخم، والإمكانات الجبارة، تجد نفسها اليوم في مأزق حرج يتسع خرقه يوماً بعد يوم ولم تجد راقعاً له، وبدأت تكر أدراجها لتنقض ما بنته في هذين المحورين اللذين دارت

في فلكهما (القوة. اللذة. والمتعة)، فقد كانت القوة الطاغية التي لا توجه بسلطة الحق الذي يستند إلى نفحة السماء سبب دمار كثير من حضارات القرون السالفة. وها هو التاريخ يعيد نفسه كما يقول غير واحد من دارسي التاريخ والحضارة منهم توينبي : حيث كان للنزعة العسكرية النصيب الأوفر في انهيار الحضارات خلال الأربعة أو الخمسة آلاف سنة التي شاهدت الانهيارات العشرين المعروفة حتى اليوم، إن النزعة العسكرية تصرع الحضارة إذ تثير الصراع والنزاعات القاتلة بين الدول المحلية التي تتألف تلك الحضارة منها، وفي هذا الدمار الذاتي يغدو البناء الاجتماعي كله كوقود لتغذية اللهيب الملتهم.

وإذا كان المثل يقول : الشيء الوحيد الذي لا يمكن عمله بالحربة هو الجلوس عليها، فالواقع أن الحضارة الغربية اليوم بدأت تجلس على الحربة التي أنتجتها وكانت تذبح بها الآخرين بدون حق، وهي وإن كانت لاتزال تستنزف بعض ثمن للجلوس على هذه الحربة من دماء الفقراء وكذا المحرومين، وجهود أبناء ما يسمونه بـ « العالم الثالث » فإنه سيأتي اليوم الذي تكمل فيه جلوسها ولكن دون أن تأخذ ثمناً بل ستكون مجبرة وفي ذلك حتفها ونهايتها.

إن أزمة القوة والسلاح من أخطر المشاكل التي يعانيها المجتمع الغربي لأنها تقوده إلى نهايته بسرعة شديدة ولأن هذه القوة تقتنص العناصر المفكرة والمدبرة من رؤساء، وضباط، وقضاة ومحامين ورأسماليين وتجار كبار ومهندسين وفلاسفة، لذلك أصبحت هذه القوة بركاناً يوشك أن يتفجر من داخله قبل أن يصلى بالحمم من خارجه، ونحن مع (جود) إذ يقول : إننا نملك من القوة ما هو جدير بالآلهة ولكننا نستعمله بعقول الأطفال.

وغدا واضحاً للعيان أن الذي يذبح بالسيف يذبح بنفس هذا السيف في هذا العالم الحضاري الذي بدأ بالمأساة الإنسانية عند إقلاعه الحضاري، وانتهى بالمأساة وهو يواجه أيامه العصيبة على عتبة الأفول.

وأما المحور الثاني.. محور اللذة الذي جرد الإنسان لأجله من كل خصائصه العليا، وصفاته السامية، وهبط إلى مستوى الحيوان، أورث مشاكل

لا حد لها ولا حصر لأنه بنى الحضارة كلها على الفحشاء بواسع معانيها، ثم تطورت هذه الفحشاء مع اتساع المد الحضاري إلى منكر، وإذ بها تصل في هذه المرحلة قمتها في الفحشاء والمنكر وهو ما سماه القرآن الكريم بالبغي، حيث تلاقت القوة الغاشمة مع الفاحشة والمنكر بيد الإنسان الذي نزعت منه خصائص الإنسانية فحق عليه قول الله تعالى : « يا أيها الناس، إن بغيكم على أنفسكم »[1]، فاستعمل القوة لاغتصاب الأموال، والأعراض والممتلكات ليحقق لذاته.

ملامـح الأفـول :

ودون أن أتعرض لسرد أمثلة وتفصيلات جزئية، فذلك مشاهد مسموع في كل مكان، أذكر بالمعطيات التي تحتم أفول هذه الحضارة بناء على السنن الربانية في هذا الكون (جزاء وفاقاً)، ويمكن حصرها في النقاط التالية :

١ ـ **أزمة اجتماعية** : تتمثل هذه الأزمة في كل مرفق من مرافق المجتمع الغربي حيث بدأ منذ أمد طويل يدور كل انسان حول نفسه بدءاً من وعيه لها حتى رحيله إلى العالم الآخر، مما فكك عرى الروابط بين هؤلاء الأفراد وجعل كل واحد ينظر للآخر نظرة البعد السحيق عنه وإن كان تحت سقف واحد، وهذا ما أورث الانشقاق في النفس كما سماه أرنولد توينبي وبالتالي الانشقاق في الكيان الاجتماعي حيث يبدو الناس في جملتهم غير مكترثين بما يجري حولهم أو يحيط بهم. وهذا ما تجليه وتؤكده الانتخابات العامة والجزئية وتظهر أنه لا يقبل عليها إلا عدد قليل، لأن الإنسان انطوى على نفسه.

ومن الأزمات الاجتماعية الحادة التي تنطلق من الانشقاق في النفس والتحليل في الكيان الاجتماعي تهدم الأسرة حتى أننا أصبحنا نسمع النواح والعويل من عدد كبير من أبناء تلك الحضارة ومن مختلف طبقاتها وأصبح كل واحد منا يقرأ الاستغاثات والنداءات في كل مكان. وأقتبس منها واحداً من قلب باريس من مجلة تصدر هناك ولا علاقة لها بالدين حيث تقول :

---

(١) سورة يونس : آية ٢٣.

أزمة اجتماعية يعاني منها المجتمع الغربي بأسره والأزمة اسمها الوحدة، الوحدة القاتلة، صوفي ـ امرأة فرنسية ـ تقول : اعذروا اللواتي يتكلمن وحدهن في الشوارع، هذه المدنية التي قضت على الألفة والمحبة، قضت على الأمومة والأخوة والأبوة...

وهكذا فإن التفكك العائلي أحد أهم أسباب الوحدة.. المجلات النسائية المتخصصة في أوروبا تخصص أسبوعياً صفحات لنقاش هذه المسألة التي تعيشها المرأة هنا، ما الحل ؟ العودة إلى الحياة العائلية، إلى الوفاق الجماعي.

وإن تهدم الأسرة والانطلاق وراء المتعة الجسدية بجوار السعار الجنسي اللاهب قذف إلى المجتمع جيلاً من اللقطاء الذين لا تربطهم بالمجتمع سوى رابطة النقمة عليه والتمرد لتحطيمه لأنهم لا يعلمون من أين جاءوا ؟ ولماذا ؟ وقد أثبتت الإحصائيات أن جل هؤلاء يكون مآلهم في ريعان شبابهم احتراف الإجرام وهذا فتيل خطير في داخل هذه الحضارة يزداد تطاير شرره يوماً بعد يوم.

ولن أقف طويلاً عند التحلل الخلقي لأن هذا جزء من المشكلة الاجتماعية ومعه انتشار الخيانة والرشوة على أرفع المستويات حتى وصلت إلى الرؤساء والوزراء والمسؤولين عن الأحزاب الحاكمة في بلدان عديدة وقد نالت هذه الأمور بعض دراسات لا بأس بها وهي معروفة واضحة لكل ذي عينين، ويمكننا أن نقول ما قاله عدد من المفكرين : إن أخلاق الأمة هي التي تمثل الدور الأساسي في تاريخها.

٢ ـ يعمق هذه الأزمة الاجتماعية القوانين والأنظمة التشريعية التي تسود هذه الحضارة حيث تساهم في توسيع رقعة هذه الأزمة، وذلك لأن القوانين تحمي كل المهدمات الاجتماعية، وهذه الآفات الخطيرة لأنها وضعت ابتداء من منطلق اللذة والمتعة مع القوة.

وأعظم محنة تواجهها هذه القوانين هي المحافظة على التقسيم الطبقي للمجتمع وتوزيعه أشلاء دون رابط بينها وذلك بإقامة تشريعات خاصة ومحاكم خاصة للكبار من الموظفين، ومحاكم خاصة أخرى بتشريعاتها

للعسكريين الكبار وأخرى للصغار، ومحاكم أخرى كذلك متميزة لبقية أفراد الشعب.. فتعدد التشريعات والمحاكم القانونية في الأمة الواحدة يجسد الظلم بأجلى مظاهره مما أحدث ردة فعل قوية ضدها وجعل الناس يدبرون عنها ويحاولون باستمرار التملص منها وتحديها، ويضاف إلى هذا عدم استقرار هذه القوانين وسرعة تغييرها لملاحقة التعاظم التكنولوجي والتغييرات السياسية والاقتصادية السريعة. ولهذا نلاحظ دعوة إلى تغيير القوانين بدءاً من قوانين الأحوال الشخصية وانتهاء بالدساتير، ولكن مهما غيرت فلن يستقر لها قرار لأن الاضطراب ينتشر والفوضى تتزايد يوماً بعد يوم.

٣ ـ أزمات فكرية وسياسية، حيث نلاحظ عدم حل أي مشكلة من المشاكل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية مما يؤكد لنا ضعف القيادات الفكرية التي كان من المفروض أن تجابه هذه المشاكل بشجاعة وتتغلب عليها ولكن... !!

ولقد أصاب الكسيس كاريل حين قال : ونحن ندرك أنه بالرغم من الآمال العريضة التي وضعتها الإنسانية في الحضارة العصرية، فقد أخفقت هذه الحضارة في إيجاد رجال على حظ من الذكاء والجرأة يقودونها عبر الطريق الخطر الذي تتعثر فيه... لأن بني الإنسان لم ينموا بنفس السرعة التي تثب بها الأنظمة من عقولهم.. ومن ثم فإن أكثر ما يعرض الأمم العصرية للخطر هو النقص العقلي والأدبي الذي يعاني منه الزعماء السياسيون...

ولا يتوقع في المستقبل أن توجد قيادات قادرة فيقول : ويبدو أن الحضارة العصرية عاجزة عن إنجاب قوم موهوبين من ناحية الخيال والذكاء والشجاعة.. ففي كل بلد يوجد تناقص في المستوى العقلي والأدبي لأولئك المسئولين عن الشؤون العامة..

وهذا ما تؤكده الاضطرابات السياسية المستمرة في جميع دول الغرب وذيولها في المعسكر الشرقي، وتزحف هذه المشاكل حثيثاً لتصل إلى لحظة الانفجار، فها هي إيطاليا وإسبانيا وبريطانيا العظمى وغيرها قد قاربت لحظة الانفجار وإنها لتعيش الآن ساعات الفوضى التي تسبق الكارثة العظمى التي قد تأتي على يد عصابات من داخل هذه الحضارة، لأن هذه

العصابات أدركت الوهن الذي أصاب تلك الدول والتآكل الذي حل بها، وقوام هذه العصابات شبان مغامرون كان من المفروض أن يتصدروا حماة الأمة والمجتمع.. وليس هناك بلد ليس فيه عصابات يحسب لها ألف حساب.. وفي اعتقادي أن وجود هذه العصابات المسلحة يستند إلى تعدد الولاءات الفكرية، وكثرة المشارب الثقافية بما فيها رد فعل عنيف وقوي على تجريد الإنسان من الإيمان والطمأنينة.

٤ ـ أما نذير الأزمات الاقتصادية فها هو يلوح في الأفق القريب بدءاً من التهديد المستمر بقطع البترول، شرايين الحياة في تلك الحضارة، والذي يتوقف من جراء قطعه ملايين العمال في كافة الصناعات، ومثله الحديد والنحاس، وغيرها من المواد الأولية، هذه الأزمات الحادة التي بدأت تلوح في الأفق القريب دعت دول الغرب أن تجلس مكرهة غير مختارة على مائدة المفاوضات مع دول كانت في نظرها عبيداً لها وأقل شأناً من أن تحسب لها أي حساب، وأحياناً تتدخل بقوة السلاح درءاً لتوقف عجلة الاقتصاد كما حدث هذا في غير موضع، منها منطقة شابا في زائير لحماية مناجم النحاس، والصحراء الموريتانية لحماية مناجم الحديد، والمشرق العربي وإيران لاستمرار إمدادات النفط.. ولكن المفاوضات وقوة السلاح لن تحل المشكل الاقتصادي في الحضارة الغربية.. وكذلك الغول الربوي الذي تقوم على أسسه الحياة الاقتصادية في داخل الحضارة الغربية مما جعل فئة قليلة جداً تملك ولا تعمل والغالبية العظمى تعمل وتجهد ولا تملك بل سعيها وراء لقمة الخبز والاستهلاك السريع..

وان هذه المشاكل والأزمات متداخلة بعضها ببعض لا يمكن فصلها والنظر إليها مجزأة لأن السدى واللحمة في نسيج هذه الحضارة كله على غير تقوى من الله ورضوان، وهي أشبه ما تكون بالحضارة المصرية التي واجهها يوسف عليه السلام.. فأنّى نظرت إلى هذا النسج وجدته كالحاً شقياً، فالمأساة الإنسانية ذاتها تتكرر، وتتعالى أصوات جهيرة بالتغيير والتبديل هنا وهناك.. من رؤساء وقادة وعلماء ومفكرين، ويشيرون إلى بعض مكامن الداء، ولكنهم لما يهتدوا للدواء، أضيف إلى ذلك أن ساعات الإدبار

الحضاري لا تسمع فيها كلمة الرشيد « أليس منكم رجل رشيد »[1]. فما هو البديل الذي يحل الصعاب ؟.

بديـــل زائـف :

وفي مطلع هذا القرن حيث قطع الإنتاج الصناعي والتفسخ الاجتماعي شوطاً لا بأس به وبدأت تنعكس آثاره السيئة على المجتمع، طرحت آنئذٍ أفكار بديلة لحل مشكل الإنتاج والاقتصاد والعمال والأجور، كانت تلك الأفكار من نزعة اشتراكية وتصدرتها الدعوة الماركسية التي أخذت قوتها عندما استولت على السلطة في مجموعة من البلاد. وقد لاقت الأفكار الاشتراكية والماركسية آنئذ نجاحاً ورواجاً لأنه لم يكن على المسرح العالمي أصحاب دعوة ومبدأ سواهم فظهرت بمظهر المخلص المنقذ. ولكن هذا البديل المنقذ لم يستطع الصمود أمام الأحداث ولم يحل المشاكل بل زادها تعقيداً، والسبب الرئيسي في ذلك أن مجموعة هذه الأفكار الاشتراكية وفي مقدمتها الماركسية ليست سوى نقد لأعراض العلل والمشاكل التي بدأت تجتاح الحضارة الغربية، ونحن في هذا الجانب نتفق معها إلى حد ما، وإن كان منظورنا يختلف عن منظورها، وبالتالي فتقويمنا للمشكل ومن ثم حله يختلف عن تقويمها وحلها.. لكن الماركسية لم تقدم الجانب الإيجابي وهو البديل الذي يجعل هذه المشاكل التي تنقدها أمناً وسلاماً، بل إن كل ما كتبه ماركس وانجلز لا يتحدث عن كيفية قيام الدولة وتنظيم الأمة التي تنضوي تحت العلم الأحمر، بل كانا يهومان بتهويمات يبشران فيها بمجتمع يخلو منه الشقاء وتنبت في جميع أرضه السعادة ويكون سادته طبقة البروليتاريا ولم تتضح من خلال جميع كتاباتهم معالم هذه الأمة الشيوعية التي ستنقذ الحضارة، حتى أن الرواد الأوائل في مطلع القرن العشرين كانوا يسيرون في هذا الاتجاه ويتخبطون خصوصاً بعد أن استولوا على السلطة، فكان الواجب عليهم إتمام أعمال ماركس وتطبيقها للوصول إلى رؤية أكثر وضوحاً لِلمجتمع الواجب بناؤه، إلّا أنهم كانوا ـ وما زالوا ـ يخوضون بسهولة في تحليل المجتمع الرأسمالي ويسهبون في هذا التحليل ـ ولا سيما

---

(١) سورة هود : آية ٧٨.

فيما يتعلق برأس المال والإمبريالية ـ وبالسهولة نفسها كانوا يتعثرون عندما يصبح الأمر متعلقاً بوصف تكوين المدينة الاشتراكية، وطريقة دوراتها..

واختلاف القادة على كيفية تكوين الدولة الشيوعية والمجتمع الاشتراكي هو الذي أدى إلى سلسلة من التصفيات الجسدية بين القادة المؤسسين ومن تبعهم، واسما (تروتسكي وبوخارين) نموذج صارخ على هذا الاتجاه.. كما أدى إلى سلسلة متكاثرة من الانشقاقات على مستوى الدول بدءاً من يوغوسلافيا وإدارتها الذاتية ومروراً بربيع براغ بتشيكوسلوفاكيا ومجالس الشغيلة والفنيين فيها وبثورتها الديمقراطية في ربيع ٦٨، وانتهاء برومانيا وتشاوسيسكو واتجاهه نحو الرفاهية ورده الحازم على الروس والتسلح ثم طلاق الصين المساوية للاشتراكية والشيوعية نهائياً. كما ظهرت على إثر هذه الانشقاقات عدد من التكتلات بين مجموعات من الدول التي تسير في هذا الخط علماً بأننا لا نجد في كل هذه المجموعات دولة واحدة تشابه أخرى في بناء هياكلها وتطبيقها للاشتراكية اللهم إلّا شيئاً واحداً هو عدم حكم طبقة البروليتاريا التي ينادون جميعاً بأن الدولة والحكم لها وبيدها.. ومن هذا يظهر لنا حقيقة هذه الأفكار الطوباوية والخرافية.

وفي خضم تخبطات الماركسيين والدول الماركسية لتحقيق العدالة وإزالة الرأسمالية وفائض القيمة... وغيرها من الدعاوى الطويلة العريضة كانت النتيجة فشلاً ذريعاً في كل ذلك، تناقضاً مريعاً في الإنتاج، وضحايا بشرية تقدر بالملايين في جميع المناطق التي طبقت فيها ولم تبرع الدولة الاشتراكية الأولى إلّا في إنتاج آلات الحرب والدمار التي سخرت لها كل مقدرات الشعوب الواقعة تحت حكمها. فعلى سبيل المثال فإن الاتحاد السوفياتي ينفق على تسلحه ما يقارب نفقات الولايات المتحدة في هذا الميدان، في حين يبلغ دخله القومي أقل من نصف الدخل الأمريكي.

وقد غدا التباين بين العقيدة التي تبشر بها الماركسية شعوبها وبين الواقع الذي تعيشه هذه الشعوب والدول واضحاً للعيان، ولم يعد بالإمكان إخفاؤه وستره مما أصبح يدعو لليأس والقنوط من الحركات الاشتراكية والشيوعية في داخل تلك الأسوار الحديدية وخارجها. فقد حرمت الرفاهية

التي تحياها الشعوب في العالم الرأسمالي وأكرهت على الإلحاد والكفر بالله، كما سلبت جزء الحرية الموهومة التي يحياها الآخرون في المعسكر الآخر، فمطالب الطبقة العاملة في البلدان الاشتراكية والماركسية التي كان من المفروض أن تكون هي الدولة ولكن الواقع غير ذلك.. الا تختلف عنها في البلدان الرأسمالية بالرغم من أن شغيلتهم.. الاشتراكية لم تحقق ما حققته الطبقة العاملة في البلدان الرأسمالية ولهذا غدا التقهقر المستمر سمة الأنظمة الاشتراكية في السنين العشر الماضية، وتخلت عن الأساس الركين في نظريتها ألا وهو معاداتها للفطرة والدين ومحاربتها للرأسمالية حيث أسسوا وزارات ـ كما يقولون ـ للأديان واتصل وزير خارجية الدولة الأمينة على النظام الماركسي بالبابا في مقره بروما. وحيث بدأ التمرغ الاشتراكي على أعتاب التكنولوجيا والرفاهية الغربية منذ مدة.. وذلك تحت الضغط الداخلي والمصاعب الاجتماعية التي تلاقيها الماركسية. ولا أريد أن أتحدث عن التكتلات المعادية الداخلية في تلك البلاد وهذا ما يؤكد لي أنها ستنتهي قريباً جداً. وقد بدأت محاولة المفكرين القوية في التراجع إلى الماضي التاريخي أو في استيراد الأفكار من الغرب البورجوازي العدو اللدود سابقاً (وبذلك فقد غدت الماركسية موضع شك في كل البلدان التي يفترض أن تكون مسيطرة فيها دون منازع). ولقد كان موقف الصين أكثر جرأة وإقداماً حيث عادت لتعانق العدو الذي حاربته وستكون بلا شك بوابة واسعة يدخل منه بقية المعسكر..

إلّا أن هذا ليس هو الحل لأن هذه العودة ستكون إلى لهيب الأتون الذي يأكل أهله، فما مثلهم إلّا كمثل ذاك الذي يستجير من الرمضاء بالنار، وما موقع الفكر الماركسي من الحضارة الغربية إلّا انحراف ولد من الانحراف فزاد الوبال والشقاء، والعودة إلى الانحراف الأول ليست علاجاً ولا دواء، فلن تكون سبيلاً للتقويم وأبعد من أن تكون منهجاً للخلاص !!.

وفاق نافع :

في سلسلة التقهقرات الماركسية والشيوعية نرى تزايد نغمة الوفاق مع المعسكر الرأسمالي وسياسة الانفتاح عليه وغزو الغرب التكنولوجي لدول

الشيوعية، وهذا مخالف لصلب المبدأ إلّا أنه نافع ومفيد جداً بالنسبة للطليعة المنقذة التي يعلق عليها الأمل وذلك بأن يطلع أبناء الحضارة الغربية على واقع التطبيق لهذه الأفكار الخيالية لأنها في معمعة الفوضى الفكرية لا تزال تستهوي نفراً منهم، فحين يرون واقع الأجيال التي اكتوت بنارها، لا شك أنهم سيدبرون عنها ويرفضونها، وليوقن الجهولون من أبناء العالم الثالث إفلاس مبادىء المنجل والمطرقة..، وكذلك أوبة الاشتراكيين إلى أحضان الرأسمالية ستوقعهم من جديد في الأزمات التي فروا منها، أزمات العمل والإنتاج، وهذا ما يهيء الجو ويسهل المهمة التي يضطلع بها الشباب المؤمن، جيل الإنقاذ، لأن تهيئة الجو النفسي لتقبل الأفكار الجديدة عملية هامة جداً، وإذا أراد الله عز وجل أمراً هيأ له أسبابه.

المنقذ الحــق :

إن المنقذ الحق والبديل الصحيح لهذا الفراغ العقدي والتردي الفكري والاضطراب الاجتماعي والسياسي والاقتصادي هو القرآن الكريم، « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أنّ لهم أجراً كبيراً * وأنّ الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً »[1].

وبالتالي حملة هذا القرآن وحماته لأنهم البقية الصالحة على وجه الأرض بما يعلنونه من سلوك، وبما يقدمونه من منهج.. نعم إنه البديل الحق لأن هذه النهاية التي نشهد تباشيرها لهذه الحضارة سنة قديمة وليست بالجديدة، « أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم، كانوا أشد منهم قوة، وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون »[2]. ولقد كتب الله عز وجل في ناموس هذه الحياة أن النجاة للذين آمنوا وعملوا الصالحات وعلى أيديهم ينجو من يريد النجاة.. فالمشاكل والأزمات التي تجابهنا اليوم تتزايد ولا حل لها إلّا في هداية السماء وفي رحمة الله التي وضعها بين يدي الإنسان ولذلك فإن كل لحظة يتأخر فيها تقديم الحل

(١) سورة الإسراء : آية ٩ ــ ١٠.
(٢) سورة الروم : آية ٩.

الناجح لهذه المشاكل ستزيد من شقاء الإنسان وتلقي به بعيداً في واد سحيق !!.

وان الفرصة جد مواتية، وإن بدا في الطريق عقبات فيجب على هذه البقية الصالحة الاستعانة بالله وتخطيها ولها في ذلك بشائر النصر من الله عز وجل ومن رسوله ﷺ حيث يحدد لها عملية النجاح في هذا الإنقاذ فيما جاء عنه في أحاديث عدة منها : حديث عبد الرحمن بن سمرة وقد جاء مبشراً بعد غزوة مؤتة قبل أن يصل الجيش فقال له النبي ﷺ : على رسلك يا عبد الرحمن ـ أي لا تتكلم أخذ اللواء زيد بن حارثة فقاتل حتى قتل، ثم أخذ اللواء جعفر فقتل رحم الله جعفراً، ثم أخذ اللواء عبد الله بن رواحة فقاتل حتى قتل رحم الله عبد الله، ثم أخذ اللواء خالد، ففتح الله لخالد، فخالد سيف من سيوف الله، فبكى أصحاب رسول الله ﷺ فقال : ما يبكيكم ؟ قالوا : وما لنا لا نبكي وقد قتل خيارنا وأشرافنا وأهل الفضل منا ؟ فقال : لا تبكوا، فإنما مثل أمتي مثل حديقة قام عليها صاحبها فاجتث زواكيها وهيأ مساكنها، وحلق سعفها فاطعمت عاماً فوجاً ثم عاماً فوجاً ثم عاماً فوجاً، فلعل آخرها طعماً يكون أجودها قنواناً وأطولها شمراخاً، والذي بعثني بالحق ليجدن عيسى بن مريم في أمتي خلفاً من حواريه.

وقال الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ص ١٥٧ : وقد جاء في الخبر، أنه سيظهر العلم في آخر الزمان ويقبل الناس على أمر الله تعالى حتى تتم حجة الله على عباده.

وفي حديث آخر عند الشيخين ـ البخاري ومسلم ـ من رواية أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهاراً ». وهذا لا يكتمل ولا يتم إلّا إذا حصل الأمن والاستقرار.

وها هي طلائع هذه المروج والأزهار بدأت تنتشر هنا وهناك في أرجاء جزيرة العرب !!.

وقد جاء في حديث آخر جامع رسم فيه النبي ﷺ الخط البياني لسير الأمة الإسلامية ويقول فيه : إن أول دينكم نبوة ورحمة، وتكون فيكم ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله جل جلاله، ثم تكون خلافه على منهاج النبوة

ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله جل جلاله، ثم يكون ملكاً عاضاً فيكون ما شاء الله أن يكون ثم يرفعه الله جل جلاله، ثم يكون ملكاً وجبرية فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله جل جلاله، ثم تكون خلافة على النبوة تعمل في الناس بسنة النبي ﷺ ويلقى الإسلام بجرانه في الأرض يرضى عنها ساكن السماء وساكن الأرض، لا تدع السماء من قطر إلّا صبته مدراراً ولا تدع الأرض من نباتها وبركاتها شيئاً إلّا أخرجته.

يقول الأستاذ المودودي ـ رحمه الله ـ معلقاً على هذا الحديث : ولا شك في أنها جاءت مطابقة في معانيها لجميع ما ورد من هذا القبيل في كتب الحديث، وقد أشير فيها إلى خمسة أدوار في التاريخ، ثلاثة منها قد مضت إلى الآن، والدور الرابع تجتازه في هذه الآونة، وأما الدور الخامس الذي جاءت بنوءته في هذه الرواية فتدل جميع القرائن أن التاريخ لايزال يسرع إليه من حيث قد جربت الإنسانية جميع النظم التي قد وضعها الإنسان بنفسه فوجدتها نكدة عقيماً، وأصبحت الآن لا محيد لها عن الرجوع إلى الإسلام بعد طول السرى وفرط اللغوب. ا هـ.

وأعتقد أن الطائفة التي تحمل منهج الإصلاح والانقاذ وتبدأ عملية التحويل والتغيير في اتجاه الحضارة المعاصرة لتحولها إلى حضارة واعدة هم من الشباب الذي أشبع بالثقافة القرآنية وتمسك بالهدي النبوي حق التمسك لا سيما وقد أوصى النبي ﷺ بالشباب خيراً كما جاء ذلك في الحديث الذي أخرجه الامام أحمد في مسنده عن سمرة بن جندب قال : قال رسول الله ﷺ : اقتلوا شيوخ المشركين، واستحيوا شرخهم، قال عبد الله بن أحمد : سألت أبي عن تفسير هذا الحديث فقال : الشرخ الشباب، والشيخ لا يكاد يسلم، والشاب كأنه أقرب إلى الإسلام من الشيخ.

معالم في الطريق :

وأن الله عز وجل قد أرسى لنا المعالم وشرع لنا المنهج في هذه الطريق الشائكة المحفوفة بالمخاطر على يد الكريم بن الكريم بن الأكرم وسيبقى قبسه خيراً هادياً إلى يوم الدين في سورته الخالدة يوسف عليه

السلام حيث واجه ما يواجه الشباب ـ وزادها إيضاحاً وتفصيلاً سيدنا محمد ﷺ ـ فقد واجه يوسف الصديق كما أسلفت الفراغ الروحي والضياع الديني فكان جهير الصوت بالدعوة إلى الله بارع الأسلوب في ذلك ثابت الخطا، موفق المساعي وأن هـذه الأزمة هي أرومة المشاكل الحضارية المعاصرة حيث تعدد الآلهة والأرباب فبعضهم طاف حول المال والبنوك والربا وسجد لها، وبعضهم ركع للجنس وعبده وبعضهم مد يديه للطاغوت الظالم يستطعمه ويسترزقه ويستهديه، وبعضهم أكره على الكفر، وبعضهم عبد نفسه. وتاه المتحضرون في غمرتهم هذه إلى حين ولكن فطرة الله التي فطر الناس عليها عادت لتنتفض من جديد بعد أن رجعوا من شوطهم الطويل المرهق خائبين خاسرين وأصبح البحث الذؤوب عن الدين الحق والعقيدة الصحيحة في غالب أمم الأرض وشعوبها خاصة منها التي بلغت قمة الحضارة قوة لا تقهر، وهنا تظهر مهمة الشباب المسلم الذي شرفه الله تعالى بمهمة الأنبياء والمرسلين ألا وهي مهمة الدعوة والتبليغ وفي الحديث الصحيح الذي أخرجه الإمام مسلم والترمذي والدارمي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين.. فأولى واجباته في هذا الميدان أن يكون هو ذاته قد فهم وعلم العقيدة الإسلامية حق العلم والفهم لأن العقيدة الإسلامية مع وضوحها وشمولها توجب العلم بها والمعرفة كما قال تعالى : « فاعلم أنه لا إله إلا الله »[1]، ودعامة ذلك تعميق الصلة وتقويتها بين الشباب المسلم والقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وكتب السيرة النبوية المنتقاة ضمن برنامج مدروس ومرحلي ومدقق. وهنا يظهر كذلك واجب العلماء والباحثين المسلمين حيث تفرض عليهم الحالة الفكرية أن يهتموا بهذا الجانب الخطير ويؤلفوا فيه مؤلفات بشتى اللغات تستند إلى القرآن الكريم والسنة المطهرة، ونشرها في جميع بقاع العالم عن طريق الشباب المسلم، وهذا لا يعفي المسؤولين الرسميين من مهماتهم بل يجب عليهم كذلك أن يمدوا يد المساعدة القوية للشباب والباحثين العاملين في هذا المجال، بعيداً عن سوقهم في التيار السياسي وجعلهم أحزاباً وشيعاً !!

---

(١) سورة محمد : آية ١٩.

كما لا يعفي الشباب أنفسهم من البحث والسؤال والرجوع إلى أهل الذكر كلما وقفوا أمام مشكل أو جابههم موقف أو خطر ببالهم خاطر بل دائماً نصب أعينهم « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون »[1].. وإذا كان الفكر الإسلامي والعقيدة الإسلامية قد لاقت تشويهاً وتعرضت لحملات مغرضة لا تزال آثارها إلى اليوم، فإن هذا الاضطراب الفكري والقلق الثقافي يساعد على تقبل الأفكار الجديدة لا سيما إذا كانت سليمة مستقيمة، وسيزول قريباً بحول الله هذا الاغراض والتشويه. وفي جانب العقيدة كذلك يجب على المربين والمدرسين أن يولوا اهتماماً كبيراً للناشئة وهم بين أيديهم لتعهد العقيدة في قلوبهم، وربط كل الأفكار بها وتوضيح ذلك، لتكون الناشئة والشباب طائفة في رحاب هذه العقيدة قادرة على رد الفروع إلى أصولها، مدركة المدى الرفيع الذي رفعها الله عز وجل به بهذه العقيدة، وهذه هي الخطوة الأولى والمهمة في بناء الشخصية المسلمة المحسنة التي تستطيع دلالة الناس الحيارى على ربها وبيان واحة السكينة والاطمئنان، وإن انتشار العقيدة الإسلامية بين غير المسلمين أو بين المسلمين أنفسهم عن طريق العاطفة وحدها سيؤدي إلى الوقوع في متاهات أخرى، وانحرافات أخرى، إذ العقيدة علم ومعرفة، وتحتاج إلى علم ومعرفة، وقد قالوا : فاقد الشيء لا يعطيه.

ويأتي بعد ذلك في هذه المرحلة الدقيقة من تاريخ الحضارة الأمر الثاني، ألا وهو الالتزام السلوكي الذي ينطلق من هذه العقيدة في كل مكان يحل فيه الشاب المسلم، أو يعمل فيه أو يدرس فيه، وأخطر أزمة سلوكية تواجه في هذا الجانب هي الأزمة الخلقية، فيجب على الشاب المسلم أن يعتصم بالله ويتعالى عليها ويثبت على منهجه، وهذا الأمر يوجب على كل مسلم غيور، سواء كان في موقع رسمي أو غير موقع رسمي، أن يساعد الشباب على اقتحام هذه العقبة الخطيرة، وذلك بتقديم البرهان كما قال تعالى : « ولقد همَّت به وهمَّ بها لولا أن رأى برهان ربه، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء »[2].

---

(١) سورة النحل : آية ٤٣.

(٢) سورة يوسف : آية ٢٤.

وهذا البرهان هو الصلة الدائمة بين الشباب المسلم وبين العلماء الموجهين الذين يتصلون به اتصالاً دائماً منظماً مذكرين بالله ومبشرين بالجنة ومحذرين ومنذرين من النار والشقاء، وقد كانت تجلية هذا البرهان وتجديده من لب المنهج النبوي الحكيم حيث كان النبي ﷺ يمشي في أطراف المدينة والعوالي ويتصل بالقبائل المؤمنة ويذكرهم بالله عز وجل وهم قريبون منه ويحضرون الصلوات معه عليه الصلاة والسلام فكيف بمن بعد بهم الزمن، ونأت بهم الأوطان وأصبحوا في غربة للإسلام وأهله.. وخصوصاً الشباب الذين يذهبون للدراسات في بلاد الغرب.. ومن المنهج النبوي كذلك تجديد الإيمان فقد قال عليه الصلاة والسلام : (إن الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب، فاسألوا الله أن يجدد الإيمان في قلوبكم). ورؤية عباد الله الصالحين ومذاكرتهم خير ما يجدد هذا الإيمان، وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يلقون بعضهم فيقول أحدهم للآخر : (اجلس بنا نؤمن ساعة) كما أخرج ذلك البخاري وغيره.

ومن صلب هذا البرهان كذلك الكتب والمجلات، والصحف والنشرات الإسلامية التي تحمل في طليعتها أخبار الشباب المسلم ولقاءاته وأفكاره، وتقدم له التوجيهات الخيرة النافعة..

كما أن ما يسمونه بالديمقراطية والحرية يسهل على الشباب المسلم إبراز شخصيته وسلوكه الخاص وإن كان سيلاقي بعض العنت إلا أنه يستطيع ذلك بالصبر والمصابرة، وبذلك سيصل إلى النتيجة التي يقصدها كما قال تعالى : « إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين »[1].

إن استلام هذا الإرث الحضاري الضخم يتوقف على بروز هذه الشخصية إلى عالم الوجود، فمهما نادى الشباب المسلم بالإسلام ودعوا إلى الدين، وكان هناك الانفصام بين دعواهم وسلوكهم فلن يصلوا إلى شيء غير التعب والخيبة والمقت، كما قال تعالى : « كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون »[2]، فتطبيق المبدأ في السلوك والحياة التي يحياها الداعي سر

---

(١) سورة يوسف : آية ٩٠.

(٢) سورة الصف : آية ٣.

نجاحه، وكم من فلسفة ودعوة ونحلة نادى بها أصحابها ولكنها لم تلاق نجاحاً لأن داعيها لم يؤيد دعواه بالتطبيق، وقد سئل الشاعر الهندي طاغور : ما بال نحلة ـ برهمو سماج ـ أخفقت في مساعيها ولم تنجح، مع أنها أنصفت الأديان، وجمعت الحسنات وسالمت جميع الملل، ومن مبادئها وأصولها أن الديانات كلها على حق، وأن جميع المصلحين من الأنبياء والرسل والهداة هم خيار الناس وصلحاؤهم ثم إنها ليس فيها ما يخالف العقل أو يعارض المدنية الحاضرة، أوَ يناوىء الفلسفة الحديثة وصاحب هذه النحلة قد راعى فيها الظروف الراهنة والشؤون المألوفة الآن، ومع ذلك كله لم تنل من الفوز شيئاً، ولم يتح لها من النجاح قليل ولا كثير ؟ فقال طاغور : إن النحلة لم يكن لها داعية يدعو الناس إليها بسيرته الكاملة وهديه العالي، ولم يكن لها لسان يدعو مؤيداً بعمل يصدقه فتهوي إليه أفئدة الناس وتطمح إليه أبصارهم، ويكون لهم من الدعاة أسوة يأنسون بها وقدوة يقتدون بها).

فالسلوك الحسن الذي يوافق الفطرة هو الذي لفت الأنظار إلى يوسف عليه السلام، وبه وصل إلى الملك وتسلم منه مقاليد الأمور، « إنا نراك من المحسنين ».

وبالسلوك القويم الذي التزمه محمد ﷺ وبخلقه العظيم لم يستطع جاحد أو معاند أن يجد مطعناً يجرحه، وبذلك ثبت الإيمان ورسخ في قلوب صحبه الكرام فالتزموا هذا السلوك واهتدوا به في حياتهم كذلك وساروا به في مشارق الأرض ومغاربها..

وإن انحراف السلوك الذي تعاني منه الحضارة ومن جرائه تهدمت به الأسرة وتفككت الروابط الاجتماعية ما يدعو الشباب المسلم القادر على الزواج أن ينشىء الأسرة المسلمة المتآلفة التي ترتع في المودة، وتلفها السكينة لأن إيجاد الأسرة المسلمة مقدمة ضرورية لتكوين المجتمع الإسلامي الوارث، فإن البشرية ـ كما يقول سيد قطب، لا تستجيب عادة لمنهج مقروء أو مسموع، إنما تستجيب لمنهج حي متحرك، مجسم ممثل في حياة جماعة من البشر، مترجم إلى واقع تراه العين وتلمسه اليد، وتلاحظ آثاره العقول.

وبتكوين الأسرة المسلمة يظهر دواء الانشقاق الخطير الذي يشكو منه

الغرب والشرق على حد سواء، وينتحر شبابه إما بانتحار بطيء أو بالانتحار السريع، وإذا وطن الشباب المسلم نفسه للالتزام السلوكي الصارم، والبناء الإسلامي فبذلك يكون قد وصل إلى مرحلة من التوتر الروحي يؤهله أن يجابه كل شيء في هذه الحياة ويتحدى كل صعب في طريقه، لأن الإيمان آنئذ هو الذي ينطلق هادياً وليست الشهرة ولا العقل البشري المعرض للخطأ والصواب، وتكون مرحلة الصعود الحضاري قد بدأت تجاوباً مع توتر الروح. والأمر الثالث في إطار المنهج الإلهي لوراثة الحضارة هو استعداد الشباب المسلم الفكري وقدرته العلمية لمواجهة المشاكل المستعصية والمتزايدة في أرجاء هذه الحضارة، السياسية منها والاجتماعية والفكرية والاقتصادية هذه الكفاءة الفكرية تنطلق من تغطية كافة التخصصات العلميـة والنظريـة الموجودة وإظهار التفوق والسبق في كافة هذه التخصصات، وإننا نوقن جازمين أن المشاكل السائدة لن تجد لها حلاً في إطار هذه المناهج القائمة فمهمة الشباب المسلم تتجلى في جانبين أولهما إبراز وإظهار هذا الخلل وبيان أسبابه وما سيترتب عليه من الأخطار، وذلك في المؤلفات والندوات والمحاضرات والنشرات والمناقشات وغيرها حتى تتهيأ الأنفس وتوقن أنها على شفا جرف هار..

وثانيهما : تقديم البديل الإسلامي في مجالات العقيدة والاجتماع والقانون والقضاء والاقتصاد والسياسة وأنظمة الحكم والعلاقات الدولية، والتبادل التجاري. إن الشباب المسلم يجب أن يحذو حذو يوسف عليه السلام حين قال الملأ للملك : « أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين »[1]، فقال له الصديق بكل ثقة : « اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم »[2]، وها هو الموقف ذاته يعود، فهل استطاع مسئول في العالم منذ سنين طويلة أن يحل معضلة اعترضته داخل بلاده ؟ وهل استطاع المسئولون مجتمعين في مؤتمراتهم الجزئية أو العامة في أروقة الأمم المتحدة وغيرها أن يحلو أمراً ما ؟ أقول جازماً : لا، لا مشاكل الحرب والسلام، ولا مشاكل الاقتصاد والتجارة، ولا مشاكل التنمية والتغذية. ولا الاشتراكية

---

(١) سورة يوسف : آية ٤٤.

(٢) سورة يوسف : آية ٥٥.

والماركسية حققت ما وعدت به من المساواة والعدالة والرفاهية، ولا الرأسمالية استطاعت أن تسعد الإنسان وتكرمه وتجنبه الخيبة، إنهم يعيشون تحت قوله تعالى : « ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً، ونحشره يوم القيامة أعمى * قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى * وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى »[1].

وإن التنسيق لطرح هذه الأفكار العملية في إطار منظمة ما تجمع الشباب المسلم والباحثين المسلمين أمر جد مهم وقوة دافعة لوصول الهدف، لأننا نلاحظ أن كتباً وصحفاً ومؤلفات في هذه الجوانب تلقى بين أيدي الناس، مسلمهم وكافرهم، وما هي في الحقيقة إلا تحريف وتشويه.

ختاماً أقول : إن هذا كله وغيره ينضوي تحت كلمة الجهاد الذي ألزم به المسلم كما قال عليه الصلاة والسلام : (والجهاد ماض إلى يوم القيامة)، والله عز وجل يقول : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا، وإن الله لمع المحسنين »[2].

أجل إن بروز الشخصية المسلمة بأبعادها الثلاثة المتكاملة ـ عقيدة، وسلوكاً، وفكراً، هو الذي سيطوي هذا السراب المظلم المتجهم أمام البشرية المعاصرة، التي أصبحت تبيت على اليأس، وتستيقظ على القنوط ـ إلا من رحم الله ـ وهذه الشخصية المسلمة بتجمعها الحركي المخلص الواعي هي التي ستعيد فتح صفحات مستقبل متفائل من هدي المنهج الرباني أمام إمكانيات هذه الحضارة الجبارة وأناسيها المتشائمين، والفلك يدور لتتحقق سنة الله في هذا الكون، إن العاقبة تكون دائماً للمتقين، وسيعلن في يوم ما.. ركب الإيمان الممتد ـ بعد العناء والبأساء ـ كما أعلن من قبل قول الله تعالى : « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض، ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين »[3].

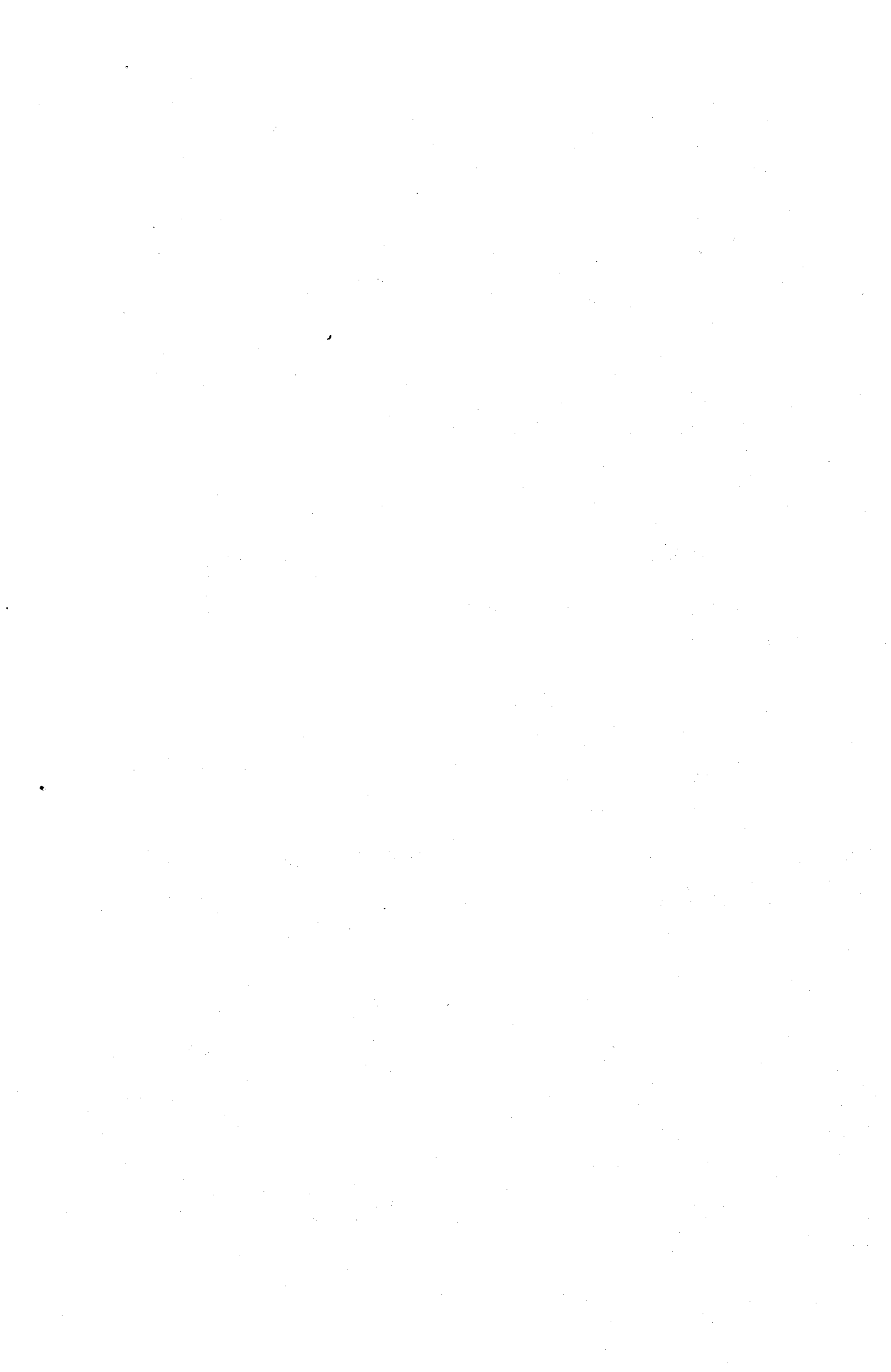
صدق الله العظيم

---

(١) سورة طه : آية ١٢٤ ـ ١٢٧.

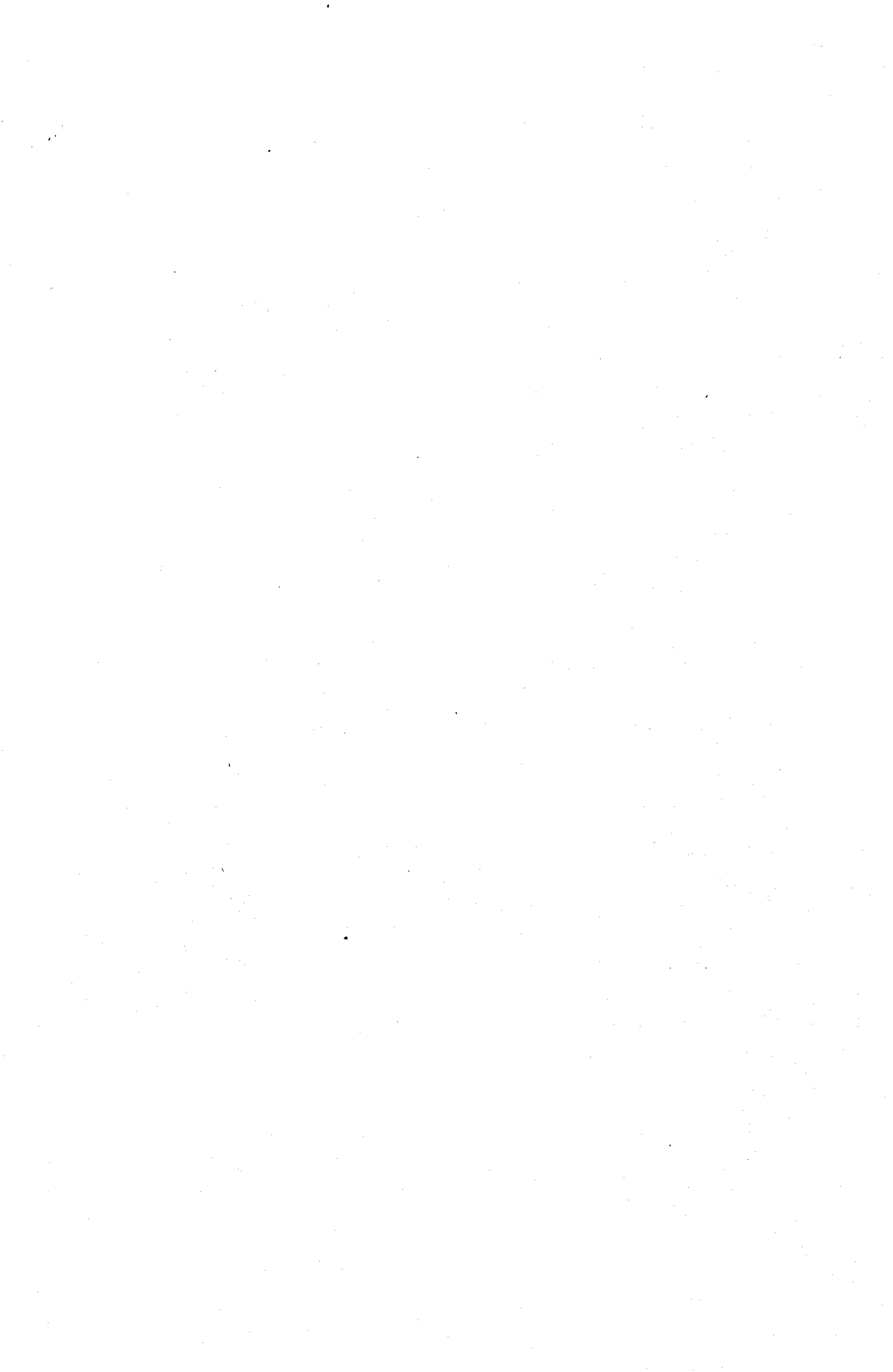
(٢) سورة العنكبوت : آية ٦٩.

(٣) سورة القصص : آية ٥.



إلى الشباب المسلم

للدكتور فؤاد سزكين



بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الشبــاب المسلم ..
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

إن الإنسان الذي يخاطبك هو مسلم كان قبل عقدين أو ثلاثة عقود شاباً مثلك. وهو اليوم يشترك معك في الإسلام ويختلف عنك في الشباب. إن السنوات التي أدت إلى هذا الفارق في العمر كانت مليئة بالمشاق. لقد قدر عز وجل لهذا الرجل المسلم أن يسلك طريق العلم لتتجلى له عظمة التراث الإسلامي، وليستطيع المقارنة بين ماضي العالم الإسلامي وحاضره، وليفكر في مستقبله وفي أسباب الركود بعد الازدهار المستمر المدهش للحضارة الإسلامية، وليوجه لنفسه السؤال حول العنصر البناء لهذا الازدهار الذي ضاع مع مرور الزمن ولم يستطع التحكم في حياة المجتمع الإسلامي حتى يومنا هذا.

لقد شغل هذا السؤال أذهان الكثير من الناس، من مستشرقين ومستغربين، ومَنْ بينهما. فادعى بعضهم هذا التعليل والبعض الآخر ذاك. إن الإنسان الذي يسعد بمخاطبتك اليوم لا يريد مناقشة صحة ما قيل في هذا المجال أو معالجة هذه القضية الشاقة في هذه الفرصة، ولكنه يكتفي بأن

يلفت نظرك إلى بعض المبادئ الهامة للحضارة الإسلامية في فترة ازدهارها، إذ قد تصلح هذه للبدء في نهضة جديدة لابد منها.

أيها الشاب المسلم ..

أنت تعرف أن الإسلام قد جاء في بيئة قاسية وفي قوم ذوي حضارة كانت دون مستوى الحضارة المعاصرة بكثير. وربما تتساءل عن الدافع الأصلي أو الدوافع الأصلية التي أدت إلى انتشار المجتمع الإسلامي خلال قرن، من إيران حتى الأندلس، وإنشاء أمة متعطشة للعلم رامية لأخذ كل ما تواجد من العلوم والمعارف لدى الأمم الأخرى. ربما تكتفي بأن تعلل هذا كله بالدين الجديد بصورة عامة دون الاهتمام بما جاء به هذا الدين لمعتنقيه، مما أدى إلى تعلق هؤلاء بالعلم. لقد أعطى هذا الدين لمعتنقه الثقة بالنفس، والشعور بمسئولية الفرد تجاه المجتمع، والتضحية والسعي للرفاهية العامة، كما علم معتنقه الزهد في الحياة المترفة، وأعطاه المبادئ التي تصلح لتحقيق هذا الهدف، لقد طلب أيضاً من الفرد تعلم ما وصل إليه البشر من معرفة، وألحّ في هذا الطلب بشدة. وكنتيجة لهذا فقد شهد التاريخ، ولمدة نصف قرن بعد ظهور الإسلام، مجتمعاً منهمكاً في طلب العلم، وهو لا يتعلم القراءة والكتابة فحسب، وإنما يتعلم كل ما يتسنى له الحصول عليه من معارف وعلوم..

في هذا المجتمع تطور بعد مدة قصيرة نموذج للعالم : زاهد في حياته الخاصة، سخي تجاه غيره، حريص على المعرفة برغبة للمعرفة لا تشبع، واثق بقدرته على تحقيق أهداف كبيرة في تعليم العلوم، وتنظيم المجتمع، وتذليل المصاعب التي تواجهه في شتى ظروف الحياة.

أيها الشاب المسلم ..

لو درست تاريخ الحضارة لهذه الأمة في قرونها الأولى لرأيت كيف أصبح الدين الذي جاء نظاماً إلهياً لتنظيم الحياة البشرية وإصلاحها، وبعد فترة قصيرة من ظهوره، كان ديناً مصحوباً بالعلم، إذ حكم العلم في قصور الحكام، وتحكم في خطب الخطباء ومواعظ الوعاظ. ولرأيت كيف كانت

المساجد مراكز للعلوم ولطلب العلم. ولو تعمقت في دراستك للحياة الثقافية لهذا المجتمع لرأيت كيف نشأت، هناك وفي أقل من قرن ونصف، بيئة علمية أدبية حيث تؤخذ وتترجم علوم الأجانب وتوضع قوانين اللغة، ومبادئ الكلام والصحبة والمراسلة. وحيث يعيش مجتمع حضاري ذو مستوى لم يتواجد آنذاك في أنحاء أخرى من العالم. لم تكن حياة الإنسان تكيف وتنظم من خلال الدين فقط.. وإنما أيضاً من حياة أدبية وعلمية ذات قوانين خاصة بها. ألم تقرأ في كتب ذاك العهد مثلاً كيف أن شخصاً كبير السن كان يرحل مع ابنه أو حفيده من جانب العالم الإسلامي إلى جانبه الآخر، من خراسان مثلاً إلى قرية بجوار البصرة، ليسمع أو يتتلمذ على عالم مشهور هناك. لم يكن الرجل المسلم يكتفي بما يوجد في بيئته الخاصة بل أراد أخذ كل ما يمكنه الحصول عليه من العلم، مستهيناً بالمصاعب، متخطياً للمشقات في هذا السبيل، كانت هذه الفضيلة عنصراً بناءً للمجتمع الإسلامي. وكانت نتائج هذا التعطش للعلم هي الانجازات العلمية التي لم تنحصر في بيئة محدودة بل كانت عامة وأثرت في بيئات أخرى. وقد استمر الأمر على ذلك مدى قرون عدة.

لو درست الجو السياسي لتلك القرون لرأيت أنه كان مضطرباً ومليئاً بالقلق. مع ذلك فقد استمر العلم في تطوره السريع لأنه كان يستند على أسس سليمة مكثت حتى عهد الركود في القرن الثامن بعد الهجرة.. مما لم يشعر به العلماء والمسؤولون إلا بعد مضي قرون.

لا أريد أن أخوض في نقاش أسباب هذا الركود أو دوافع وظواهر الازدهار. أود أن أشير فقط إلى أن تأثير الحضارة الإسلامية على العالم الغربي المسيحي قد بدأ في القرن الرابع مما أدى، بعد أخذ علومها والتقليد الواسع لمؤسساتها المختلفة، إلى بدء مرحلة جديدة من العلم في القرن العاشر.

ابتدأ المسؤولون في العالم الإسلامي بعد فترة طويلة، وذلك في القرن الحادي عشر، بملاحظة هذه الظاهرة الجديدة. لقد لاحظوا كيف تطور العلم في أوروبا بخطى سريعة دون معرفة أسباب الركود في العالم الإسلامي وطرق معالجة هذا الركود. وكلما وضحت لهم الفروق في التطور العلمي بين

العالم الإسلامي والأوروبي ازدادت الصعوبات في فهم أسباب الركود، وقد تطور الأمر إلى مستوى اضطر فيه العالم الإسلامي أن يأخذ من الغرب من أوحى إليه بأنه شيء جديد، ضروري، مفيد وصالح، لكن عملية الأخذ لم تكن ناجحة، إذ كثيراً ما صحب الأخذ بتقليد المظاهر وعدم الاهتمام بالأسس والمبادىء للظاهرة الجديدة في الحضارة الأوروبية.

لقد أدرك العالم الإسلامي في القرن الرابع عشر، وهو القرن الثالث بعد إحساسه بتأخره تجاه الحضارة الأوروبية، بأن العالم الغربي يسبقه في جميع نواحي الحضارة. وبالرغم من أننا قلدنا الكثير من المؤسسات العلمية للعالم الغربي، وترجمنا آلافاً من كتبهم، فإننا لم نستطع أن نعلل الهوة الكبيرة بين المستوى العلمي لديهم ولدينا. إن الهوة لا تزال في تزايد مضطرد. لذلك فلا يغرنك التقدم الجزيل الذي شهده العالم الإسلامي في نواح مختلفة من الحياة الاجتماعية أو في بعض الميادين الصناعية، ولا يغرنك عدد الجامعات والجامعيين أثناء العقدين الأخيرين. حسبنا أن نقارن هذا التطور بما حصل في العالم الغربي في نفس الحقبة في هذا المضمار.

علينا أن نعرف الواقع وأن لا نخاف منه. علينا الاعتراف بأن نموذج العالم الحقيقي الذي تطور في العالم الغربي في القرنين الأخيرين لم يصلنا بعد كما أن نموذج علمائنا في القرون الذهبية للعالم الإسلامي لم يكن يتصور تواجد مثل هذا في العالم اللاتيني، حتى أواسط القرن السادس عشر الميلادي. فكثيراً ما قارنت كتب العلماء العرب المسلمين مثل ابن الهيثم والبيروني بما للعلماء في عهد النهضة الأوروبية. وكانت نتيجة المقارنة لصالح العلماء المسلمين في الإنجاز والأمانة والوضوح واتساع المعرفة والدقة في الحكم والنقد.

أود الآن أن أحدد رأيي بالقول.. بأن العلم يقود العالم، ويسيطر عليه وخاصة منذ الحرب العالمية الثانية، وبأن مستوى العالم الحقيقي هو ركن أساسي في التطور السياسي، الاقتصادي والصناعي للمجتمع. قد يتوافر لدينا عدد كاف من الرياضيين. الأطباء. الفيزيائيين والمهندسين ذوي الكفاءات والمستويات التي لا تختلف اختلافاً كبيراً عما هي عليه لدى زملائهم في

العالم الغربي، لكن الفروق تبقى كبيرة فيما يخص الفلاسفة والاجتماعيين والمؤرخين، مؤرخي الحضارة والعلوم، وعلماء الفقه والتربية. لكن هذه الطائفة من العلماء هي التي تلعب الدور الأساسي في تنظيم أمور المجتمع ورفع مستواه، وهم الذي يمهدون الطرق الصحيحة للحكماء. إنني أرى أسباب الأزمان السياسية والاقتصادية في العالم الإسلامي في فقدان العلماء. وفي رأيي أن أهم مشاكل العالم الإسلامي وأكثرها إلحاحاً هي تربية وإيجاد مثل هؤلاء العلماء بمستوى معاصر. إن هذا التفكير ليؤدي إلى ضرورة الحصول على جامعات بمستوى جامعات العالم الغربي.

بالرغم من أنني لا أطرح رأيي في كيفية الوصول إلى مثل تلك الجامعات، إلا أنني لا أتردد بعرض رأيي حول هذه المشكلة على المسؤولين في الفرص المناسبة، وأود هنا فقط لفت نظر الشاب المسلم إلى هذه المشكلة، وانه ليسعدني لو ساعدني الشباب المسلم في رأيي هذا.

أيها الشاب المسلم ..

إنني أعلم أن الوصول إلى المستوى المطلوب في العلم ليس بالسهل، والطريق إليه مليء بالعقبات والمشاكل، لكنني أعتقد أن العنصر الوحيد والحقيقي لتحقيق هذا الهدف هو أنت : الشاب المؤمن السليم، الذي يستطيع أن يقبل وأن يجرؤ على قبول كل ما يصلح لنا من المبادئ والعناصر في الحضارة المعاصرة دون انحلال وتوليد عقد نفسية، كما فعل آباؤك في العصور الزاهرة.

أنت تحمل في ذاتك آمالنا وهي الوصول إلى العالِم الذي يحتاجه العالَم الإسلامي.. العالم الزاهد في حياته الخاصة، السخي بغيره، الذي يرى طرق حل مشاكل المجتمع بدراسته العلمية.. أسرع في تطورك لتكون هذا العالم الذي نحتاج إليه. لقد مضى الوقت ولم يستغله أسلافك للتوصل إلى هذا ولم يعد هناك مجال للتأجيل..

* * *



المُحَاضَرَاتُ العَامَّة



المحَـاضرَاتُ العَـامَّة

جوهـر الحضارة الإسلامية

للدكتور : إسماعيل راجي الفاروقي

القرآن والعلم الحديث

للدكتور : موريس بوكـاي

إنسانية اليوم وحضارة المستقبل

للدكتور : المهدي بن عبـود

الأسباب التاريخية لانحراف المجتمعات الإسلامية، والمنطلقـات الإسلاميـة لتصحيح البنية الحضارية المعاصرة

للدكتور : عبد الحميد أبو سليمان

منطلقات إسلامية لحضارة عالمية جديدة

للشيخ : سعيـد حـوى



جوهر الحضارة الإسلامية

للدكتور إسماعيل راجي الفاروقي



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه.

لا شك أن جوهر الحضارة الإسلامية هو الإسلام. ولا شك أن جوهر الإسلام هو التوحيد.

هاتان المسلمتان بديهتان. ولم تكونا موضع شك أبداً من قبل ممن ساهموا في هذه الحضارة أو انتموا إليها. وإن وضعها المستشرقون والمبشرون من أعداء الإسلام موضع شك في هذه الأيام، فنحن نوقن أن للحضارة الإسلامية جوهراً وأن جوهرها قابل للمعرفة والتحليل والوصف، وأنه هو التوحيد[١].

فالتوحيد هو الذي يعطي الحضارة الإسلامية هويتها. هو الذي يربط بين أجزائها. هو الذي يطبع كل ما يدخل إليها من عناصر فيؤسلمها ويصهرها فتخرج من عبورها في التوحيد متجانسة مع كل ما حولها. قديماً وحديثاً كتب مفكرونا آراءهم في جميع الميادين تحت عنوان التوحيد، وذلك لأنهم رأوا فيه المبدأ الأكبر الذي يشمل جميع المبادئ الأخرى،

---

(١) راجع نقد المؤلف للمستشرقين الذين وجهوا شكوكهم إلى حقيقة أن للإسلام جوهر معروف أو قابل للمعرفة. وذلك في مقالته بعنوان: «جوهر الاختبار الديني في الإسلام» (The Essence of Religious Experience in Islam) نشر في مجلة **Numen** في عددها ٢٠ (٣) بتاريخ ١٩٧٣، ص ١٨٦ - ٢٠١.

ورأوا فيه القوة الكبرى التي تفجرت عنها جميع المظاهر المكونة للحضارة الإسلامية.

التوحيد هو الشهادة عن إيمان بأن « لا إله إلا الله »، هذه الشهادة السلبية في مظهرها، والمختصرة « اختصاراً » لا اختصار بعده، تحمل أسمى المعاني وأجلها. فإن أمكن التعبير عن حضارة برمتها بكلمة واحدة، ان أمكن صب كل الثراء والتنوع والتاريخ في أبلغ الكلام ـ وهو أقصره طولاً وأكثره دلالة ـ كان هذا في « لا إله إلا الله » عنواناً للتوحيد، وبالتالي للحضارة الإسلامية.

التوحيد كتصور عام :

التوحيد تصور عام للحقيقة، بما فيها الدنيا كلها والحياة كلها والتاريخ كله. كتصور عام للحقيقة. يعني التوحيد المبادئ الخمسة الآتية :

١ ـ الحقيقة عالمان. عالم الله وعالم الخلق. ينفرد بعالم الله موجود واحد لا شريك له، هو الله جل جلاله. هو الخالق الوحيد، المنزه الصمد. أما عالم الخلق فهو عالم الزمان والمكان بكل ما احتوياه من موجودات وحوادث. ثنائية الحقيقة نهائية قاطعة. ينفصل العالمان عن بعضهما انفصالاً تاماً كونياً ووجودياً. لا يمكن للخالق أن يتحد أو يتصل وجودياً أو يحل أو يتجسد في المخلوق، ولا للمخلوق أن يتحد أو يتصل وجودياً في الخالق أو يسمو بنفسه إلى مرتبة الخالق[1].

---

(١) بهذا يخالف التوحيد الصوفية وبعض مذاهب الهندوكية التي أذابت الدنيا في الله ورفضت الاعتراف بأية حقيقة سوى الله، ففي هذا الرأي لا حقيقة ولا وجود ولا كيان إلا لله وحده، وأن العالم المخلوق وكل ما فيه لا وجود له ولا حقيقة له البتة، إنما هو خيال عابر. ويخالف التوحيد بالمبدأ ذاته المصريين والإغريق القدماء والطاوية والصينيين الذين أذابوا الله ـ تعالى سبحانه عما يصفون ـ في مخلوقاته وقالوا إنه هو فرعون بلحمه ودمه أو النبات الأخضر أو النيل بمائه أو الشمس بحرارتها وضوئها أو مجموع المخلوقات، أو أن كل مخلوق إله اذا انتفخت صفاته وتضخمت إلى درجة اللانهاية والعكس صحيح أي ليس الإله إلا المخلوق المتضخم الصفات. وقد ابتعدت المسيحية كل البعد عن التوحيد عندما ادعت أن الله حل في جسم بشر وتجسم فيه فأصبح المخلوق خالقاً. وإنها لميزة الإسلام الأولى أنه ركز على حقيقة العالمين أو الطبقتين ـ الله الخالق والعالم المخلوق ـ وعلى تمام انفصالهما عن بعضهما البعض طبعاً وطبيعة وأصلاً وفرعاً وبداية ونهاية، وبذلك تميز الإسلام وما سبقه من تراث التوحيد الذي جاء به الأنبياء من قبل، عن عالم الهند والصين المجاور شرقاً وعن عالم مصر والإغريق المجاور غرباً.

٢ ـ ولا صلة بين الخالق والإنسان المخلوق إلا بقوة العقل، وهي قوة فطرية تؤهل المخلوق لإدراك إرادة الخالق وحياً أو تعقلاً، وحياً إن أنزل الله كلامه المعبر عن إرادته، وتعقلاً إن أمعن النظر في المخلوقات فاكتشف سنتها وهي إرادة الله سبحانه[1].

٣ ـ لعالم الخلق غاية من وجوده، هي تحقيق إرادة الخالق، فالله لم يخلق عبثاً، ولم يخلق باطلاً[2]، بل سوّى كل شيء خلقه وقدره تقديراً[3].

فإرادة الله في خلقه ما عدا الإنسان تحقق بالضرورة وذلك بأن الله وضع تلك الإرادة سنة أو فطرة جبلة المخلوق[4]. أما في الإنسان، فإرادة الله تتحقق باختياره فضلاً عن تحققها بالضرورة في جبلته. وللإرادة الإلهية التي تتحقق باختيار الإنسان مرتبة أعلى من مرتبة الإرادة المحققة بالضرورة. وهذا هو التفاضل القائم بين القيم الأخلاقية والقيم النفعية[5].

٤ ـ طالما أن الخلق كله خلق لغاية فلا بد أنه قادر على تحقيقها[6]. ففي الإنسان قوة على تغيير نفسه وتغيير مجتمعه وتغيير الطبيعة المحيطة به، وفي نفس الإنسان ومجتمعه ومحيطه الطبيعي قوة على تقبل

---

(١) يشير هذا المبدأ إلى انقطاع الصلة إطلاقاً بين الله والإنسان عن طريق الاتحاد أو الحلول أو التأليه. وأن كل ما يمكن أن يقوم من اتصال هو أن يأمر الله العبد فيسمع العبد القول ويطيعه، وهذا هو سبيل الوحي، أو أن يعقل الإنسان المخلوقات فيدرك أن لها صانعاً خلقها وقدرها، ومحركاً يبقيها ويوجهها وأنه يجب أن يعبد ويطاع، وهذا هو سبيل التعقل. يخالف التوحيد بهذا المبدأ جميع مؤلهي البشر ومجسمي الآلهة من إغريق ورومان وصينيين وهندوكيين وبوذيين ومسيحيين.

(٢) تؤكد هذا المبدأ الآيتان ٣ : ١٩١، ٢٣ : ١١٦.

(٣) ذلك مما جاء في الآيات ٧ : ١٥، ١٠ : ٥ ، ١٣ : ٩ ، ١٥ : ٢٩ ، ٢٥ : ٢ ، ٣٢ : ٩ ، ٣٨ : ٧٢ ، ٤١ : ١٠ ، ٥٤ : ٤٩ ، ٦٥ : ٣ : ٧٥ : ٤ ، ٣٨ ، ٨٠ : ١٩ ، ٨٢ : ٧ ، ٨٧ : ٢ ـ ٣.

(٤) كما أشارت الآيات ١٧ : ٧٧ ، ٣٣ : ٦٢ ، ٣٥ : ٤٣ ، ٤٨ : ٢٣ ، ٦٥ : ٣.

(٥) فالعمل الصادر عن الطبيعة ـ أي بالضرورة ـ غير خلقي بمعنى أنه لا يستحق الجزاء، لا خيره ولا شره. إذ لا يجزى الإنسان على تنفسه أو هضمه، ولا على معروف أو منكر أكره عليه إكراهاً. وذلك بخلاف العمل الصادر عنه مع تمكنه عدم القيام به أو القيام بعكسه أو بعمل آخر مغاير له.

(٦) يؤكد ذلك ما أشير إليه من آيات في موضوع تسوية وتقدير الله لمخلوقاته (ذيل ٤ و ٥ أعلاه) وجميع آيات التكليف وتحميل المسؤولية التي لا تحصى لكثرتها في القرآن الكريم.

فعل الإنسان[1]. فالخلق كله عجين يقوي الإنسان على تكييفه، على جعله يحقق إرادة الله كما فهمها، على إعادة تخريجه كما ينبغي وتحويله إلى ما يجب أن يكون[2].

٥ ـ إذا كان الإنسان مكلفاً بتحقيق أوامر الخالق وقادراً على القيام به حق عليه الحساب، إذ بدونه تسقط جدية التكليف[3]. فالحساب قائم في التاريخ وبعده. يؤتي المستجيب للأمر، المحقق له، فلاحاً وسعادة ويسراً ويؤتي العاصي للأمر، عذاباً وإخفاقاً وضيقاً.

التوحيد كجوهر حضاري :

للتوحيد كجوهر حضاري جانبان : جانب أسلوبي وجانب فحوي. الجانب الأسلوبي يحدد الشكل الذي تنتظم به المبادئ المكونة للحضارة في التطبيق أو التحقيق. أما الجانب الفحوي فهو المبادئ نفسها المنتظمة بالشكل.

يتألف الجانب الأسلوبي من مبادئ ثلاثة الوحدة، والتعقل، والسعة. فهي التي تؤلف الشكل الجامع، الطابع للحضارة الإسلامية.

الجانب الأسلوبي :

١ ـ الوحدة :

لا حضارة بدون وحدة، أي بدون تعلق المفاهيم الفحوية ببعضها البعض بحيث تصبح نسقاً متجانساً واحداً. فالوحدة انتظام في إطار واحد تكون العلاقات داخله هرمية تفاضلية تشد بعضها بعضاً. وانتظام في الإطار الواحد هو الصهر الإسلامي. فالحضارة الإسلامية انبثقت عن غيرها من

---

(١) وهذا ما حملته آيات التسخير من معاني ١٣ ، ٢ ، ١٤ : ٣٢ ـ ٣٣ ، ١٦ : ١٢ ، ١٤ ، ٢٢ : ٣٦ ـ ٣٧ ، ٦٥ ، ٢٩ : ٦١ ، ٣١ : ٢٠ ، ٢٩ ، ٣٥ : ١ ، ٣٨ : ١٨ ، ٣٩ : ٥ ، ٤٣ : ١٣ ، ٤٥ : ١١ ـ ١٢.

(٢) كما تدل آيات التكليف العديدة.

(٣) آيات الحساب في كتاب الله عديدة جداً لا حاجة لاحصائها. فالإنسان لن يترك سدى (٧٥ : ٣٦) بل على الله حسابه (٨٨ : ٢٦ و ٤ : ٨٥).

الحضارات وأخذت منها. لكنها ليست مجرد جمع وإضافة، بل هضماً وتسوية وتخريجاً جديداً. فما من حضارة إلا خرجت من سابقاتها وتغذت بمواد جديدة غريبة عنها. لكنها هضمتها وسوتها فحولتها من جوهر غريب عن الحضارة إلى مادة فحوية تنتسب إلى الحضارة الإسلامية انتساباً عضوياً. والوحدة الأسلوبية هي وحدة المبادىء المؤلفة للجوهر، ووحدة الجوهر مع جميع الأعراض.

ولعل أسوأ ما نزل بنا من كوارث في العصر الحديث هو انتزاع وحدة الأسلوب من حضارتنا. وذلك بإدخال عناصر غريبة على حياتنا دون أن نصهرها ونسويها ونخرجها التخريج الذي يجعلها نسقاً متوحداً. فجمع الأفندي المسلم للإسلام من جهة وللزي غير الإسلامي ولبناء بيته بشكل غير إسلامي، وتأثيثه وتزيينه بالأثاث والتحف غير الإسلامية من جهة أخرى، وجمع ذلك الأفندي المثقف للدين الإسلامي من جهة ولأسلوب عيش وترفيه غير إسلامي أو لعلوم إنسانية واجتماعية تتناقض مع معطيات هذا الدين من جهة أخرى، وكذلك جمع الأفندي الجامعي للإسلام من جهة وللفلسفات الغربية من جهة أخرى معتقداً بأن الدين شيء والعلم شيء آخر، أو أن الدين شيء والسياسة شيء آخر. فذلك كله من الكبائر التي يأباها الضمير ويشمئز منها الذوق السليم.

فالتوحيد وحدة الله. ووحدة الله هي أنه وحده جدير بالعبادة أي بالطاعة. فإذا عاش الإنسان حياته مطيعاً لله محققاً لإرادته، لا بد لحياته من أن تتسم بوحدة من تدين له، فتأتي مرتبطة الأجزاء بخيط واحد بجمعها. وإذا ارتبطت أجزاؤها وتنسقت كانت ذات شكل أو أسلوب واحد.

٢ ـ التعقل :

التعقل مبدأ أسلوبي مؤلف لجوهر الحضارة الإسلامية. يتألف التعقل من ثلاثة بنود.

الأول : رفض ما يخالف الحقيقة.

الثاني : رفض استمرار المتناقضين.

والثالث : الانفتاح وتقبل الدليل المخالف.

فالبند الأول يحمي من الظن ـ إن بعض الظن إثم ـ ويطالب بموافقة الفكرة مع واقع الحقيقة[1]. والثاني يحمي من التناقض البسيط من جهة ومن الـ (بارادوكس) Paradox من جهة أخرى[2]. ليس التعقل إعلاء العقل على الوحي[3]، بل هو رفض استمرار التناقض بينهما. فالتعقل يرجع المتناقض عليه إلى العقل ليمعن النظر فيه تارة أخرى عله يكتشف فيه جانباً جديداً يزيل التناقض، كما يرجع قارىء الوحي ـ لا الوحي نفسه ـ إلى الوحي ليمعن النظر فيه عله يكتشف فيه معنى غاب عنه يعيد إلى تفهمه للوحي ـ لا إلى الوحي كوحي ـ حسن سياقه مع ما وصل إليه العقل. فاستمرار المتناقضين نهائياً لا يتقبله إلا ضعيف العقل. مبدأ التعقل الثالث، أي الانفتاح أمام الدليل المخالف يحمي المسلم من التزمت والتنطع، ويدفعه إلى التواضع الفكري. فالتعقل هو الذي يقرن حكمه دائماً بـ « الله أعلم » لأنه يعلم علم اليقين بأن الحقيقة أكبر من أن يلم بها كلها.

قلنا ان التوحيد هو الإقرار بوحدة الله. والله، هو الحق. فوحدته إذاً هي وحدة الحقيقة. هو مصدر الوحي وهو خالق الخلق الذي عقله الإنسان. وهو المحرك الموحي للإنسان بكل علمه. هو الذي يؤتي الحكمة لمن يشاء. والله جلا وعلا، منزه عن البداء، أي عن تغيير فكره، منزه عن الخطأ فهو العليم المحيط بكل شيء علماً. وهو منزه عن التناقض، عن إساءة الإعلام، تعالى عما يصفون علواً كبيراً.

٣ ـ السعـــة :

السعة كمبدأ أسلوبي هي حسن الظن بالظاهر إلى أن يثبت خَطَؤُهُ.

---

(١) نهى الله تعالى عن الظن في الآيات ٤ : ١٥٦ ، ٦ : ١١٦ ، ١٤٨، ١٠ : ٢٦ ، ٦٦ ، ٤٩ : ١٢ ، ٥٣ : ٢٣ ، ٢٨.

(٢) لا مرادف لهذه الكلمة بالعربية فهي خاصة بالتراث المسيحي الإغريقي وهي مركبة من كلمتين : « شبه » و « عقيدة » وتعني « كل ما يقبله المسيحي من عقائد يأباها العقل السليم ».

(٣) أعلى الفلاسفة العقل على الدين والوحي وجعلوه حاكماً، وهم طبعا على غير حق في هذا بل في ضلال مبين. للفكر الإسلامي أن يعرف العقل والتعقل تعريفًا مغايراً ينطلق منه. وهذا هو تعريفنا الذي عمل به سلفنا الصالح، أي : التعقل هو رفض التناقض النهائي.

فهي إذاً مبدأ معرفي، يقابله اليسر كمبدأ أخلاقي كما أن اليسر هو تقبل المرغوب فيه إلى أن يثبت فساده[1]. فالسعة الفكرية واليسر الأخلاقي يحميان المسلم من الانغلاق والتزمت ويدفعان به إلى الإقبال على مجالات جديدة ليجول فيها فكره ويعمل فيها ساعده. السعة واليسر تمهدان لإثراء فكر المسلم وإنجازه.

السعة كمبدأ أسلوبي في جوهر الحضارة الإسلامية هي الإيمان بأن الله لم يترك قوماً إلا أرسل إليهم نذيراً يعلمهم بأن يعبدوا الله[2] ويجتنبوا الطاغوت[3]، بل إن في فطرة البشر أجمع ما يؤهلهم لمعرفة الدين الحنيف القيم وإدراك أوامر الله وإرادته. فالسعة هي الإيمان بأن اختلاف الأديان وتعددها مرجعه التاريخ وما يؤثر فيه من تغيير وهوى. وهذا هو ما يجدر بالمسلم دراسته والاطلاع عليه بحثاً عن تلك الفطرة التي فطر الله الناس عليها[4]. أو ذلك التنزيل الذي أنزله على عباده في جميع الأصقاع والأزمنة. حتى في الدين، إذاً، وهو أهم الحقول، تحل السعة مكان النقض المتقابل وتحول المجابهة إلى بحث علمي في تاريخ الدين المذكور. وفي الأخلاق يقوم مبدأ اليسر بإبعاد المسلم عن التنكر للحياة، ويحفظ له حسن تفاؤله رغم كل ما قد يعتري حياته من وهن ومصائب « إن مع العسر يسراً »[5]. وكما أمرنا الله بالتبيّن قبل الحكم[6]، أقر الأصوليون التجربة قبل الحكم على المرغوب فيه إن لم يكن مخالفاً بيناً لأمر الله.

---

(١) تدل على ذلك آيات التساؤل عن التحريم العرفي : ٥ : ٩٠ ، ٧ : ١٣ ، ٦٦ : ١، كما يدل عليه المبدأ الأصولي المجمع عليه بأن لا حرام إلا بنص، وذلك انطلاقاً من قوله تعالى : « وقد فصل لكم ما حرم عليكم » (٦ : ١١٩ ، ١٥٣).

(٢) وهذا ما تؤكده الآيات ٦ : ٤٢ ، ١٢ : ١٠٩ ، ١٣ : ٤٠ ، ١٤ : ٤ ، ١٥ : ٩ ، ١٦ : ٤٣ ، ١٧ : ٧٧ ، ٢١ : ٧ ، ٢٥ ، ٢٣ : ٤٤ ، ٢٥ : ٢٠ ، ٣٠ : ٤٧ ، ٣٧ : ٧٢ ، ٤٠ : ٧٠.

(٣) الآيات ٤ : ١٦٢ ، ٣٥ ، ٢٣. « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله أنا فاعبدون » (٢١ : ٢٥).

(٤) كما أشارت الآية ٣٠ : ٣٠.

(٥) الآية ٩٤ : ٦.

(٦) الآية ٤٩ : ٦.

تنحدر السعة واليسر من التوحيد كمبدأ أخلاقي. فالله الذي خلق الإنسان ليبلوه حسن العمل، جعله حراً قادراً على التحرك في الكون مقبلاً عليه. فالأصل فيه الحركة لا الجمود[1].

الجـانب الفحـوي :

١ ـ التوحيد مبدأ ميتافيزيقي :

تعني الشهادة بأن « لا إله إلا الله » أن الله وحده هو الخالق، هو الموجد لكل شيء، هو الفاعل لكل حادث، هو الغاية من كل شيء هو الأول والآخر. فإذا شهد الإنسان بهذه الشهادة عن وعي وإيمان بمدلولها، أيقن أن كل ما يحيط به من حوادث طبيعية كانت أم اجتماعية أم نفسانية، كلها من فعل الله وتحقيقاً لغاية من غاياته. وهذا اليقين إذا وجد، لا يقوى الإنسان على مفارقة مفهومه ولو للحظة واحدة. فهو يعيش كل لحظات حياته تحت ظله. فإذا رأى الإنسان أمر الله في كل شيء وحادث، كان لا بد له من تتبعه لأنه أمر الله. فإذا تتبعه في الطبيعة، كانت العلوم الطبيعية[2]. ذلك أن أمر الله فيها هو السنن التي فطرت عليها والتي لا تبديل لها[3]. وإذا تتبع غاية الله في نفسه أو في مجتمعه كانت العلوم الإنسانية والاجتماعية[4]. فإذا كان العالم كله مبنياً على هذه السنن التي هي إرادة الله وأوامره كان العالم في نظر المسلم حياً ينبض بأوامر هي المفسرة لكل ما يقوم فيه ويحدث. فتوحيد الله يعني انفراده بتسبيب الأشياء والحوادث، وهذا يعني تجريدها عن كل قوة أخرى.

---

(١) سيأتي بحث هذا الجانب بالتفصيل في ما يلي من صفحات.

(٢) لم تنشأ وتزدهر علوم الطبيعة في أي عصر ومكان إلا بافتراض المبدأ بأن الطبيعة مفطورة على سنن ثابتة لا تبديل لها. وهذا ما قدمه الإسلام وهو السبب المباشر لنمو العلوم الطبيعية في جوه. أما الاعتقاد المعاكس أي أن الطبيعة لا ثبات لها ـ فإنه ما يسمح للآلهة المجسمة في الطبيعة أو السحرة العاملين فيها بالتلاعب في حركتها ومقدراتها. ومثل هذه الطبيعة لا يمكن أن تؤدي دراستها وملاحظتها إلى علم.

(٣) وذلك خلافاً للتاريخ الذي يقف عند كل حادثة أو حقيقة معينة ليحللها ويتفحصها ـ إذ تهتم العلوم بما هو عام مشارك به من قبل المخلوقات كلها أو ما انتمى منها إلى فضيلة واحدة، أي بقانون الطبيعة الذي تسير عليه جميع الوحدات الخاصة بفصيلة أو طبقة معينة من الطبيعة.

(٤) كذلك في العلوم الإنسانية والاجتماعية حيث يبحث العلم عن القوانين المكونة أو المسيرة للإنسان في سلوكه الفردي والجماعي.

وتجريد الطبيعة عن كل قوة غير الله هو علمنتها وهذا هو الشرط الأساسي لقيام العلوم الطبيعية. فقبل علمنة الطبيعة بتجريدها عن سائر القوى، من سحر وآلهة وأرواح وقوى سرية، لم يكن العلم يقف على قدميه. أما في التوحيد، فقد جردت الطبيعة عن الآلهة والأرواح والقوى السحرية فأصبح العلم ممكناً[1].

ليست المسيحية دين توحيد، بل هي دين يؤكد تجسد الإله في الطبيعة، ويعتمد التناقض مبدأ للمعرفة. لذلك لم تنتج المسيحية علوماً طبيعية مدى ألف سنة تحكمت في عقول الناس. ولم ينتج المسيحيون العلوم إلا بعد أن تحرروا من عدم التوحيد الذي فرضته عليهم المسيحية وبعد أن انتقلت إليهم علوم المسلمين. وحكمت الهندوكية والوذية آسيا وجنوب شرقها مدى ألف سنة لم يتقدم أهلها إلى مستوى التفكير العلمي، ولكن ما إن أسلموا ووحدوا الله حتى حققوا وأنجزوا التي نراها في ازدهار العلوم عند المسلمين العرب.

التوحيد هو عكس الخرافة. والخرافة أو الأسطورة هي عدوة العلم والحضارة. التوحيد يجمع خيوط السببية ويرجعها إلى الله. وفي هذا الإرجاع تنظيم للأسباب وترابط لها يمكن الباحث من استقصائها واكتشاف علاقاتها. وذلك هو العلم بها والتمكن منها. وهما الشرطان اللازمان للانتفاع بها واستثمارها.

٢ ـ التوحيد مبدأ أخلاقي :

يقول التوحيد بأن الله الأحد خلق الإنسان وقدره وسواه ليعبده أي ليطيعه ويكون له خليفة في الأرض[2]. وقد حمله أمانته التي لم تقو النسموات والأرض على أن يحملنها وأشفقن منها[3]. والأمانة هي تحقيق إرادة الله الأخلاقية. فالإنسان وحده قادر على تحقيقها لأنها تتطلب الحرية والاختيار والإنسان وحده حر مختار.

---

(١) عملا بقوله تعالى : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » (٥١ ـ ٥٦).
(٢) كما دلت الآيات ٢ : ٣٠ ، ٦ : ١٦٥ ، ١٠ : ١٤.
(٣) الآية ٣٣ : ٧٢.

لم يخلق الله الإنسان عبثاً ولن يتركه سدى. بل منحه حواسه وأحسن خلقه وأكمله، بل ونفخ فيه من روحه[1] ـ كل ذلك لتأهيله للقيام بهذا الواجب العظيم.

فهذا الواجب العظيم هو سبب وجود الإنسان، وهو غايته، وهو تعريفه، وهو معنى وجوده وحياته. فالإنسان مخلوق كوني، له أهمية كونية.. لأن الكون ليس كوناً بدون الجانب الأهم والأعلى من الإرادة الإلهية. ولا محقق لها سوى الإنسان في عمله الحر الاختياري الأخلاقي. فطوبى للإنسان أن يكون الجسر الكوني الذي تعبره إرادة الله الأخلاقية لتدخل التاريخ، ولتحقق في الزمان والمكان.

هذا التكليف الذي اختص به الإنسان لا يعرف حداً. فالوجود كله داخل ضمن نطاقه. جميع البشر هدف لعمل الإنسان الأخلاقي، وجميع الأرضين والأفلاك هدف ومجال له. هو مكلف بها جميعاً إلى أبعد زواياها وأصغر أعضائها. تكليفه عالمي، كوني، لا ينتهي إلّا يوم القيامة.

على هذا تقوم إنسانية الإنسان. فهو أكمل من الملائكة وأرفع منهم درجة لأنه يقدر على العمل الأخلاقي طوعاً. وشتان بين هذه الإنسانية وإنسانيات الحضارات الأخرى. فالإغريقية ألهته وألهت معه فساده. والمسيحية أسقطته وجعلته « كتلة خطيئة »[2] لتقدمه لإلهها تفسيراً لصلبه كعملية إنقاذ وتخليص. والهندوكية صنفته درجات وطبقات، من أسفل سافلين حيث لا يرجى أمل إلى طبقة البراهمة المقربين، دون أن يكون للإنسان ذاته حق في تقرير طبقته وذلك بتمييع شخصيته في انتقالها من جسد إلى جسد. وأما البوذية فقد حكمت على الإنسان والحياة كلها والوجود كله بأنه شر وفساد.

فالتوحيد فقط يقول بإنسانية الإنسان لأنه يحترمه كإنسان دون تأليه ودون تشرير.

---

(١) حسب ما في الآيات ١٥ : ٢٩ ، ٢١ : ٩١ ، ٣٨ : ٧٢ ، ٦٦ : ١٢.

(٢) على حد تعبير القديس أو غسطينوس، ومعناه « كتلة من الخطيئة ».

٣ ـ التوحيد مبدأ قيمي :

يقول التوحيد بأن الله سبحانه وتعالى خلق البشر ليبلوهم أيهم أحسن عملاً[١]، وأن عملهم سيرى[٢]، وأنهم سيجازون عليه خيراً إن كان خيراً وشراً إن كان شراً[٣]، ويقول التوحيد أيضاً أن الله استعمر الإنسان في الأرض[٤]، أي وضعه فيها ليسعى في مناكبها ويأكل من رزقها ويتطيب بطيبها ويتحلى ويتزين بحليتها وزينتها[٥].

هذه هي الإيجابية، الإقبال على الدنيا لأنها خير بريء صنعها الله وسخر كل ما فيها، بما في ذلك الشمس والقمر، كي يعمل الإنسان فيها عمله الأخلاقي ويحقق به الجانب الأعلى من الإرادة الإلهية. فالإنسان مكلف بإشباع غرائزه وحاجاته، بتوفير هذا الإشباع لبني البشر أجمع. هو مكلف بتنمية مواردهم الإنسانية إلى أقصى ما يمكن تحقيقاً لجميع طاقاتهم. وهو مكلف أيضاً بتحويل الأرض كلها إلى رياض وجنان، وله أن يفرقع القمر والشمس إن لزم[٦]. فعليه إدراك سنن الطبيعة وسنن النفس وسنن المجتمع وعليه أن يصنع ويصنع ويحول الدنيا إلى جنة تعلو فيها كلمة الله.

هذه هي الإيجابية المنشئة للحضارة، المؤكدة لحركيتها وتقدمها، فالتوحيد لا يعرف الرهبنة[٧]، ولا الانعزال عن الناس، ولا الزهد في الدنيا ولا التنكر لها. وليست الإيجابية الاقبال على الدنيا دون وازع. فالوازع هنا هو

---

(١) الآيات ١١ : ٧ ، ١٨ : ٧ ، ٤٧ : ٣١ ، ٦٧ : ٢.

(٢) الآيتان : ٩ : ٩٥ ، ١٠٦.

(٣) الآيات ٩٩ : ٧ ـ ٨ ، ١٠١ : ٦ ، ١١.

(٤) الآية : ١١ : ٦١.

(٥) الآيات ٢ : ٥٧ ، ١٧٢ ، ٥ : ٩٠ ، ٧ : ٣١ ، ١٥٩ ، ٢٠ : ٨١.

(٦) أو كما قال تعالى : « يا معشر الجن والانس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا، لا تنفذون إلا بسلطان » (٥٥ : ٣٣).

(٧) الآية ٥٧ : ٢٧. بل أمرنا الله تعالى بقوله : « ولا تنس نصيبك من الدنيا » (٢٨ : ٧٧) وعلمنا سبحانه أن ندعوه بأن يؤتينا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة (٢ : ٢٠١ ، ٧ : ١٥٦)، وأنه تعالى سيستجيب لنا إن أحسنا (١٦ : ٣٠ ، ٣٩ : ١٠).

أمر الله، هو الأخلاق. والأخلاق لازمة للإيجابية إذ بدونها سرعان ما تناقض الإيجابية نفسها وتهدم كل ما أنجزته من بناء.

غالت الحضارة الإغريقية من قبل، كما تغالي الحضارة الغربية اليوم، في إيجابيتها. قالت إن كل ما في الطبيعة خير يرجى وأن كل ما يرجى أو يرغب فيه خير لأنه طبيعة. ولكن الطبيعة تناقض أجزاؤها بعضها بعضاً. فإن لم يكن هنالك وازع أخلاقي يحل التناقض ويضبط المتناقضين ويحسم خلافهما بما يعود على الإنسان والحياة بالخير والنفع فسد أمرها وتحولت إلى جحيم ـ يدمر فيه أعضاؤه بعضهم بعضاً تماماً كما حصل في جبل الألهة ـ أوليمبس وفَالْهَالَا.

ضمانة الإيجابية هي الأخلاق. والايجابية المهذبة بالأخلاق هي الحضارة. وهذا ما يعطينا التوحيد.

٤ ـ التوحيد مبدأ اجتماعي :

يقول لنا التوحيد بأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون[١]. وإنما المؤمنون إخوة، يتحابون في الله، ويتواصون بالحق والصبر[٢]، يعتصمون بحبل الله جميعاً ولا يتفرقون[٣]، يحتسبون بعضهم بعضاً فيأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر[٤]. يطيعون الله ورسوله[٥]. فالرؤيا واحدة، والشعور واحد، والعمل واحد. يجمعون في فكرهم، وفي تقريرهم، وفي موقفهم وشعورهم، وفي سواعدهم. أمتهم ثالوث من مراتب الإجماع، وأخوة عالمية لا تعرف لوناً ولا جنساً ولا هيئة، ولا تفرق بين الناس إلا بالتقوى[٦].

---

(١) الآيتان ٢١ : ٩٢ ، ٢٣ : ٥٣.

(٢) كما دلت سورة العصر (١٠٣) والآية ٤٩ : ١٠.

(٣) الآية ٣ : ١٠٣.

(٤) الآيات ٣ : ١١٠ ، ٥ : ٨٢ ، ٩ : ١١٣ ، ٢٠ : ٥٤ ، ١٢٨.

(٥) كما أمر الله تعالى في آياته الكريمة ٣ : ٣٢ ، ١٣٢ ، ٤ : ٥٨ ، ٥ : ٩٥ ، ٢٤ : ٥٤ ، ٤٧ : ٣٣ ، ٦٤ : ١٢.

(٦) حسب الحديث الشريف من حجة الوداع. المراد من الإجماع المثلث هو إجماع الرؤيا أو العقل والفكر، وإجماع الإرادة أو التقرير والنية وإجماع العمل أو السواعد.

فإذا علم أحد عليه أن يعلم غيره، وإذا طعم أحد عليه أن يطعم غيره، وإذا استقرأ وأفلح أحد عليه أن يعاون آخراً على الاستقرار والفلاح[1].

فلا توحيد إذاً إلا بالأمة. فالأمة هي مجال المعرفة، ومجال الأخلاق، ومجال الخلافة والإيجابية. والأمة نظام ينتظم فيه البشر حتى وإن لم يؤمنوا. فالأمة نظام سلام يدخل فيه كل من يرضى بحرية الفكر والدعوة إلى الحق من أفراد وجماعات. الأمة إذاً نظام دولي أفضل من الأمم المتحدة، لمدة الأمس القريب، القائمة على السلطان القومي ونسبية القيم، والمكتفية بمنع الحروب ولكن دون أن يكون لها وسيلة الجيش الرادع أو المدافع. وضع الرسول ﷺ لها دستورها في المدينة في أول أيام الهجرة، وأدخل فيها اليهود والنصارى مؤمناً لهم حريتهم وعقيدتهم ومعاهدهم وهُويَّتهم. وما من دستور عرفه التاريخ احترم الأقليات كما احترمها دستور الدولة الإسلامية.

فالأمة إذاً نظام سلام عالمي بالإضافة إلى كونه نظاماً اجتماعياً داخلياً. الأمة هي صرح الحضارة الذي لا غنى عنه. وكما قال فلاسفتنا في تمثيلهم العقل الإنساني بحي بن يقظان، كان لا بد لحي، بعد أن توصل إلى الحقيقة النهائية، وهي التوحيد، من أن يصنع مركباً يعبر البحر فيه بحثاً عن الأمة.

فالتوحيد هو الأمنيــة..

٥ ـ التوحيد مبدأ جمالي :

يقول التوحيد بأن لا إله إلا الله، ويعني بذلك أن لا إله في الطبيعة والخلق. فكل ما في الخلق مخلوق، ليس من الله في شيء. فالله منزه عن خلقه تنزيهاً تاماً. ويقول التوحيد أن ليس كمثله شيء، ويعني بذلك أن كل ما في الخلق لا يمكن أن يكون مثلاً لله، لا حاملاً لصورته (ليس لله صورة)، ولا معبراً تعبيراً مرئياً عن الله.

ويقول الفن إن في كل شيء في الخلق، لا سيما في الإنسان (وبدرجة

---

(١) شبه النبي ﷺ المسلم بالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، وبالجسم العضوي الذي يتداعى كله إذا أصيب أي عضو منه بسوء ويعمل لنصرة ذلك العضو.

أقل في الحيوان والنبات) جوهر أولي ما ورائي، قائم بذاته، هو ما يجب على الشيء أن يكونه وان لم يكنه. فالفن هو اكتشاف هذا الجوهر وإعطاؤه الجسد المرئي المطابق له. فهو ليس مجرد نقل عن الطبيعة، بل هو استقراء لها عن جوهرها الماورائي وتصويره أو تمثيل ذلك الجوهر بما يلائمه من ملامح مرئية.

هذا الجوهر الماورائي الذي يهدف الفنان إليه، إلهي في طبيعته الماورائية. فهو جدير بالمحبة والإعجاب الشديد كلما اقترب من الألوهية لذلك جاء النحت الإغريقي تصويراً للآلهة قبل كل شيء. ولم يتدهور إلى تصوير البشر إلا في روما ولكن حتى هناك كان الامبراطور إلهاً مؤلهاً قبل أن تصنع له التماثيل. وكذلك جاءت الفنون المسرحية من دراما وتمثيل في الحضارة الإغريقية كلها تصويراً للآلهة في صراعها مع بعضها البعض. وحقاً قال المستشرق فون جروبناوم، إن الإسلام يفتقر إلى الفنون التشكيلية (من نحت وتصوير ودراما) لأنه خال من الآلهة المجسدة في الطبيعة والمصارعة لبعضها البعض أو لقوى الشر[1].

وقديماً قال اليهود بأن تنزيه الله تعالى يحرم صنيع التماثيل، وتوقفوا عند ذلك الحد فلم يأتوا بأي فن مرئي على الإطلاق[2].

لكن التوحيد لا ينكر الإبداع الفني، ولا يتنكر للجمال. على العكس إنه يؤثر الجمال أي إيثار ويرى الجمال كله في الله وفي كلامه. لذلك اندفع بحبه هذا إلى إبداع فن جديد.

فبما أنه يؤمن بالتوحيد ويقول أن لا إله إلا الله، يقضي الفنان المسلم بأن لا شيء في الطبيعة يحمل صورة الله أو يعبر عنه. لذلك أسلب كل ما صوره، أي أبعده عن طبيعته إلى درجة الإنكار، وقدمه بمثابة شهادته بأن لا إله في الطبيعة.

---

(١) مع الاعتذار للغة واللغويين. فالمعنى المطلوب ـ وهو المشتق من اعتبار الأمة المقولة السائدة التي يرجع إليها في كل شيء ـ لا تؤديه كلمة « أمية » ولا « جماعية » ولا « قومية » ولا « شعبية ».

(٢) راجع تفاصيل ذلك في مقال للمؤلف نشر في مجلة ستوديا اسلاميك الصادرة في باريس، بعنوان « الإسلام والفن » وذلك في العدد رقم ٣٧ الصادر سنة ١٩٧٣ ص ٨١ ـ ١٠٩.

وتأمل الفنان الموحد بأن عدم التعبير عن الله شيء والتعبير عن عدم التعبير شيء آخر، أي أن استحالة التعبير عن الله هي أسمى الأهداف الجمالية التي يمكن له أن ينشدها. ورأى أنه يمكن التعبير عن استحالة التعبير، وذلك يحمل ما يرى على الإيحاء باللانهائية، فاللانهائي هو المحال التعبير عنه.

وعليه أبدع الفنان المسلم فن الزخرفة الإسلامية وهي رسم يمتد في جميع الاتجاهات إلى ما لا نهاية له. فإذا تتبعه المشاهد وأدرك أنه لا نهاية له، أدرك معنى من معاني استحالة التعبير، وبذلك أدرك معنى من معاني التنزيه[1].

لهذا جاءت فنون المسلمين كلها تجريدية، إلا في القليل النادر الذي جاءت فيه مؤسلبة متنكرة للطبيعة وبالتالي للاعتراف بأي جوهر ما ورائي يكمن فيها.

* * *

هذا هو جوهر الحضارة الإسلامية. كلما وضحت رؤيانا له كلما استطعنا التمسك به، وبذلك، الصمود في وجه الحضارة الغازية. وكلما التزمنا به كلما هضمنا الحضارات الأخرى ومنجزاتها. وكلما اختصصناه بولائنا، كلما تمكنا من البناء والإبداع الحضاري.

والحمد لله الذي جعل التوحيد جوهر حضارتنا. فلا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الحمد وله الملك، يحيي ويميت، وهو على كل شيء قدير.

---

(١) انظر مقال المؤلف في مجلة الإسلام والعصر الحديث.
الصادرة في دلهي، بعنوان « في طبيعة العمل الفني الديني ». وذلك في العدد رقم ١ (٢) الصادر في آب ١٩٧٠ ص ٦٨ ـ ٨١.

(٢) إن رغب القارئ بالاستزادة في موضوع علاقة التوحيد بالفنون المرئية الإسلامية فعليه بمراجعة كتاب الدكتورة لمياء الفاروقي : التجربة الجمالية والفنون الإسلامية. نشر جمعية الإسلام والعصر الحديث، الجامعة الملية الإسلامية، دلهي الجديدة، ١٣٩٩/١٩٧٩.

تعقيبات المستمعين وأجوبة المحاضر عليها

الشيخ محمد الدريعي :

١ ـ يقول الأخ الشيخ الدريعي إن المحاضرة أخذت بالمنطقيات واعتمدت في أسلوبها على الفلسفيات، بينما لا تخضع أمور التوحيد لأي منها.

صحيح أن المحاضرة اعتمدت على المنطق وأن أسلوبها مركز لا حشو ولا زخرفة فيه، لكن قوانين المنطق هي قوانين الفكر، والنظر والتعقل. وقد عرفتها المحاضرة بمبادىء ثلاثة هي : رفض ما يناقض الواقع، وعدم تقبل النقيضين نهائياً، والانفتاح للدليل المخالف. فهل في هذا أو ما بني عليه ما يعيبه الشيخ ؟ وهل يسمح الشيخ لأي مفكر أن يخالف هذه القوانين ؟ إن عدم الالتزام بالمنطق وعدم التقيد بمبادئه لا يجيزه العقل السليم، والمفكر الذي يستجيب للشيخ بعدم الاعتماد على المنطق يحط بفكره إلى مستوى التفاهة.

٢ ـ يعترض الأخ الشيخ الدريعي بأن الله لا يوصف بالعالمية. وقد فعل المحاضر ذلك إذ قال بأن الحقيقة عالمان، عالم الله وعالم المخلوقات.

صحيح ما نسب للمحاضر من قول. إلا أن المحاضر أوضح أثناء إلقائه لمحاضرته المعنى الذي حمله لكلمة « عالم » وهو « نوع » أو « صنف » أو « طبقة » كمعنى كلمة (Class) بالانجليزية. وأوضح أيضاً أن

استعماله لهذه الكلمة استعمال منطقي بحت، لا وصفي، أي أن دلالة الكلمة هي أن هنالك نوعين من الحقيقة، نوع انفرد به الله سبحانه ونوع شاركت فيه جميع المخلوقات. فإذا كان اعتراض الشيخ فحوياً كان مردوداً أصلاً. وإن كان لغوياً فهو في غير موضعه لان لا مندوحة من استعمال كلمات اختبارية في الحديث عن الله تعالى. فأي كلمة تقال عن الله إذا حملت ما حمل الشيخ الدريعي كلمة المحاضر باءت بالرفض بحجة التشبيه. والأمر يتعلق بالتفهم الصحيح للأسلوب المنطقي للقضية.

٣ ـ يعترض الأخ الشيخ الدريعي على قول المحاضر بأن كلمة « لا إله إلا الله » تعني أن الله تعالى هو وحده الخالق الذي خلق العالمين وما فيها.

لا ينكر أن الكلمة المذكورة تعني أن الله وحده هو الله، كما لا ينكر أن الله خالق الكون وأن معنى الخلق مضمون في عبارة « لا إله إلا الله » قد يكون للشيخ انتقاد لو اقتصر المعنى على الخلق، ذلك أن الله فضلاً عن كونه خالقاً هو أيضاً رازقاً وفاعلاً ومتكلماً ورحيماً وقادراً.. إلى آخر صفاته. إلا أن أحداً لم يقل بهذا وبالتأكيد لم يقل ذلك المحاضر وجانب الشيخ الدقة في سماع المحاضر.

٤ ـ ويعترض الأخ الشيخ الدريعي أن المحاضر ساوى بين العبادة والطاعة بينما الحقيقة هي العكس أي أن العبادة شيء والطاعة شيء آخر، وأن لا عبادة إلا بالبراءة من الشرك.

يتبين من نص المحاضرة أن العبادة عرفت بالطاعة، لا العكس مما يدل على أن المحاضر يعتبر الطاعة أعم وأشمل وأوسع معنى من العبادة. وليست هنالك عبادة لم يأمر بها الله تعالى. إذ كل عبادة طاعة وتنفيذ لأمر من أوامر الله تعالى. ومع أن العرف الإسلامي يقضي بأن ليست كل طاعة عبادة، إلا أن الروح الإسلامية تميل إلى اعتبار جميع العبادات كأعمال ذات أبعاد غيرية، اجتماعية واقتصادية وسياسية وتربوية.. الخ أما توحيد الله، والصلاة والزكاة والصوم والحج ـ وهي المعاني المألوفة المكونة لكلمة « عبادة » فهي أيضاً طاعات أمرنا الله تعالى بالقيام بها (راجع بهـذا

الخصوص مقال المحاضر في مجلة المسلم المعاصر عدد (١٠) سنة ١٣٩٧، ص ٢٥ ـ ٣٨).

٥ ـ ويعترض الأخ الشيخ الدريعي على قول المحاضر بأن التوحيد ينطوي على الإيجابية والإقبال على الحياة لا التنكر لها والاعتزال عنها، ذلك أن الزهد في الدنيا طيب، يحترم كرامة الإنسان، وأن من يقوم عليه فقد أنعم الله عليه نعمة كبرى.

ليس الزهد عكس الإيجابية ولا هو يساوي التنكر للوجود والحياة والاعتزال عنها، إنما هو الابتعاد عن حطام الدنيا وملذاتها، وعدم الانغماس في طلبها على حساب القوانين الأخلاقية وان قل تعدي هذا الانغماس على تلك القوانين، ولسنا بصدد بحث هذا الموضوع فقد جانب الشيخ الصواب في فهم المطلوب أو لعله فاته ذلك. التنكر المعني هنا هو الحكم المسبق بأن الوجود كله شر وأن خير الإنسان في رفضه أو المرور به بأقصى السرعة دون المحاولة لإعادة بنائه وتركيبه على أي شكل كان. وهذا هو مبدأ البوذية الأول، وتقول به بعض المذاهب الهندوكية كما تقول به أحياناً المسيحية. فشتان ما بين التنكر وما يمليه علينا التوحيد من حمل مسؤولية خلافة الله في الأرض.

* * *

الدكتور عبد الله العجلان :

١ ـ اعترض الأخ الدكتور العجلان بأن المحاضر لم يميز بين إرادة الله تعالى ومشيئته في حديثه عن قوانين الطبيعة.

لا شك أن التمييز مستحسن. فالأفضل أن نسمي « مشيئة الله » كل السنن الدائمة التي لا تتغير والتي فطر الله مخلوقاته عليها، ونسمي إرادة الله كل ما أمر به سبحانه وتعالى وأراد لعباده أن يقوموا به من أفعال.

٢ ـ ويعترض الأخ الدكتور العجلان على قول المحاضر بأن الأمة ينتظم فيها المؤمنون وغيرهم من نصارى أو مشركين.

لم يقل المحاضر هذا قط. فالمشركون ليسوا من الأمة الإسلامية في

شيء، وإذا اعتبرنا الأمة كوجود سياسي عالمي كان لا بد من انتظام المسيحيين واليهود والصابئة وغيرهم من أصحاب الديانات المنزلة إذا عاهدوا المسلمين على التعايش معهم بسلام ودفعوا الجزية لهم. وقد أقر لهم سلامتهم وطمأنينتهم سيدنا محمد ﷺ في ميثاق المدينة وهو دستور الدولة الإسلامية الأولى، كما أقرها لهم الخلفاء الراشدون في عصر الفتوحات. والجانب السياسي للأمة جانب مكون لا غنى لها عنه.

٣ ـ واعترض الأخ الدكتور العجلان على إدخال نظرية الجمال ضمن المعاني التي يشملها التوحيد، محتجاً بأن الجمال ليس ضرورياً وأن لا أهمية له في البحث عن الحضارة وجوهرها وأنه، أي الجمال، يدعو إلى تشبيه الله تعالى بخلقه.

خلافاً للدكتور العجلان نؤكد أن الجانب الجمالي يكون عنصراً مهما جداً من أية حضارة. لا سيما الحضارة الإسلامية. ومن منا يستطيع أن ينكر ما للقرآن الكريم من إعجاز لا يمكن فهمه ولا تقديره إلا بفهم معنى الجمال الأدبي ؟ أو أن ينكر ما للخط العربي والعمارة الإسلامية من أهمية في الحضارة، واتصال مباشر بمعنى الجمال. فإما أن تكون الفنون الإسلامية غريبة، مقتبسة عن الغير أو أن تكون إبداعات المسلمين بوحي من عقيدتهم وإيمانهم وثقافتهم التي كونها لهم الدين الحنيف. إن احتقار المسلمين للفن سبب من أسباب تدهور الفنون عندهم اليوم وعامل من عوامل انحطاطها. ومما يؤسف له أن علاقة الإسلام كدين وعقيدة كتوحيد وإيمان، بنظرية الفن والجمال، موضوع ظريف للغاية لم يطرقه أحد من مفكري الإسلام. وقد طرقه أعداؤنا وفظعوا فيه أبشع تفظيع وأخذ محدثونا يتداولون آراء العدو ويعملون بها مما يجعل الخوض في هذا العلم واجباً جهادياً مقدساً في هذا العصر.

الدكتور جعفر شيخ إدريس :

١ ـ اعترض الأخ الدكتور جعفر على قول المحاضر بأن الاتصال بالخالق لا يقوم إلا بالتعقل والتفكر، وذلك بدليل ما أثبته القرآن الكريم من رؤيا الله في الآخرة. والرؤيا معرفة مباشرة اختبارية لا فكرية ولا تعقلية.

لا شك أن المؤمنين الصالحين سيرون الله تعالى في الآخرة رؤية مباشرة اختبارية وذلك بدليل الآية ٧٥ : ٢٢ التي كانت مدار بحث طويل بين المعتزلة، وغيرهم من المؤمنين. لكن حديث المحاضر منوط بالدنيا وحياة الإنسان فيها. والبحث هو في الحضارة الإسلامية، أي في التاريخ، في الزمان والمكان، ولم يتطرق إلى الآخرة. ففي الدنيا وفي التاريخ، لا اتصال بالله تعالى عن طريق الحس، ولا عن طريق تأليه الإنسان، ولا تجسيم الله ولا حلول الله في جسم أو عقل أو شخصية أحد من المخلوقات بالأخلاق. وهذا معنى أصيل للتوحيد.

٢ ـ واعترض الأخ الدكتور جعفر على قول المحاضر بأن البون شاسع بين الله والخلق بان تفارق الحقيقتين (حقيقة الله وحقيقة الخلق) مطلق. فإن صح ذلك استحال أن يكون الله قريباً رؤوفاً رحيماً.

إن البون الشاسع الذي يفصل بين الله وخلقه بون وجودي، كياني، لا بد من كونه مطلقاً إذا أردنا المحافظة على التنزيه أو التوحيد. إذا امتزج الله بأي طرف منه بأي مخلوق انتهى التنزيه وقضى على التوحيد، لكن هذا التفارق الوجودي لا يحول دون الاتصال الفكري من جهة المخلوق، كما لا يحول دون رحمة الله أو كلام الله أو عفو الله. فالله سبحانه قدير، فعّال لما يريد.

٣ ـ دعم الأخ الدكتور جعفر اعتراضه السابق بدليل أن هناك اتصال وجداني يقوم بين العبد وربه إذا بلغت تقواه درجة عالية. ومن المؤكد أن مثل هذا الاتصال لا يقوم بالعقل أو الفكر.

لا ينكر قط أن الاتصال بالله ممكن عن طريق ما سماه الدكتور جعفر بالوجدان، ولعل مثل هذا الاتصال هو نفسه الاختبار الديني الأولي، لكن الوجدان، وطريقته الخاصة به، ليست إلا فرعاً من فروع المعرفة، طبعاً هي تختلف عن المعرفة الحسية. وتختلف أيضاً عن المعرفة المنطقية أو النظرية وهي أقرب ما تكون إلى المعرفة الحدسية. إلا أنها بالرغم من ذلك معرفة، لا وجود. والذي أكدته المحاضرة هو أن التوحيد ينكر الاتصال الوجودي بالله، أي أن الاتصال به تعالى، مهما كان نوعه ومهما بلغت

درجته، لا يمكن أن يؤدي إلى أي نوع من التواجد الكياني، أي أن به، لا يصبح العارف المعروف ولا المعروف العارف. وكل ما عدا ذلك يوقع صاحبه في الشرك إما بتجسيم الله أو بتأليه الإنسان سواء سمي حلولاً أو إشراقاً أو بالأوضح اتحاداً أو تجسيماً أو تأليهاً تعالى سبحانه عما يصفون علواً كبير.

٤ ـ واعترض الأخ الدكتور جعفر على قول المحاضر بأن حقيقة الخلق حقيقة تامة توازي حقيقة الله كحقيقة تامة أخرى. ودعم اعتراضه هذا بحجة أن الله وحده موجود حقيقي، بل إنه هو الوجود الحقيقي كله. وأنشد : « ألا كل ما عدا الله باطل ».

الحق هو أن المحاضر لم يقل بأن عالمي الله والخلق حقيقتان تامتان متوازيتان أو متساويتان. الفرق بينهما هائل، بل ان تغايرهما مطلق. الله خالق والخلق مخلوق. الله منزه والخلق مختبر. الله أبدي لا بمكان، والخلق مؤقت وخاضع في مكان. الله أزلي، صمد لا يتغير، والخلق سنته التغير والتقلب. إذاً العالمان متفارقان متغايران إطلاقاً. ولكن كون الخلق خلقاً لا يجعله معدوم الوجود أو عدماً أو خيالاً. فهو ليس الخيال الذي يدعيه الهندوكيون والبوذيون، وهو أيضاً ليس جسم الإله أو موضع تجلية أو ظاهرة من ظواهره كما ادعى المصريون القدماء والإغريق والمسيحيون بخصوص يسوع المسيح وخلفائه أساقفة روما والكنيسة المسيحية التي يطلقون عليها اسم « جسم المسيح الإله الطاهر في التاريخ » ان التقليل من حقيقة الخلق يؤدي حتماً إلى الاستهتار به. فالتقليل من حقيقته هو تقليل من قيمته بالضرورة. ولا يمكن أن نعطي خلافة الله في الأرض واستعماره للإنسان فيها وتحميله أمانة السموات، إذا أنقصنا قيمة الخلق بانقاص حقيقته كذلك إذا غلونا في قيمة الخلق وقعنا في شرك.

وعلى كل حال، كل ما يعنينا في هذا البحث هو تأكيد مغايرة الخلق لله وبالتالي ثنوية الحقيقتين. صحيح أن كل الخلق فان في يوم من الأيام لا يعلمه إلا الله، وأن في ذلك اليوم لن يبقى سوى وجه ربك ذو الجلال والإكرام. ولكن هذا لا يعني وحدة الوجود التي ابتدعها ابن العربي. الله حق، والخلق حق، وتكليف الإنسان بحمل الأمانة وتحقيقها في الخلق، أي في الزمان والمكان، حق.



تعليقات على محاضرة

جوهر الحضارة الإسلامية

للدكتور إسماعيل راجي الفاروقي



بسم الله الرحمن الرحيم

سعادة الأخ الدكتور / أحمد عبد القادر باحفظ الله
الأمين العام للندوة العالمية للشباب الإسلامي
حفظـــه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .. وبعد :

بناء على خطابكم ذي الرقم ٧٤٥ وتاريخ ١٠/٢/١٤٠٠ هـ الخاص بتكوين مرئيات عن محاضرة الأستاذ الدكتور / إسماعيل راجي الفاروقي ـ التي ألقاها أثناء انعقاد اللقاء العالمي الرابع للندوة.

أولاً : أشكر لكم حسن ثقتكم بأخيكم وحسن ظنكم به، وأسأل الله أن أكون عند هذا الظنّ.

ثانياً : قرأت هذه المحاضرة، وعلقت على ما فيها مما رأيته يحتاج إلى تعليق في هوامش الصفحات ـ وأرجو إن كنتم تعتزمون طبعها أن تعدل على النحو الذي يبرىٔ كاتبها مما يحتمل أن يوصف به لو بقيت على حالها.

ثالثاً : أود أن أثبت هنا بعض المآخذ على المحاضرة من وجهة النظر الإسلامية كما بدا لي وفوق كل ذي علم عليم. وهذه المآخذ مرتبة حسب ورودها في صفحات المحاضرة.

١ ـ يعرف التوحيد بأنه جوهر الإسلام، والإسلام بأن جوهره التوحيد ص ١ س ٢.

وهذا التعريف للتوحيد أو للإسلام تعريف مجازي من شأنه أن يدخل على القارئ شبهة وبخاصة إذا لم يكن من أهل الاختصاص.

فتعريف الإسلام معروف وكذلك تعريف التوحيد.

٢ ـ عاد فعرف التوحيد مرة ثانية ص ٢ س ٣. تعريفاً مخالفاً لما هو معروف في كتب التوحيد وكتب علم الكلام، إذ جعله تصوراً عاماً للحقيقة. وليس ذلك بصحيح، وإنما التوحيد هو :

الإيمان بالله وحده لا شريك له، ويتضمن توحيد الربوبية وتوحيد الإلهية ـ على ما بين النوعين من فروق دقيقة معروفة.

٣ ـ قال : إن الحضارة الإسلامية انبثقت عن غيرها من الحضارات ص ٤ س ٣ ـ ٤.

وفي هذا الكلام ما فيه من الخطورة إذ الحضارة الإسلامية هي الدين الإسلامي كله، نظمه ومنهجه وآدابه وسلوكه وكل ما أمر به وكل ما نهى عنه ـ وذلك كله من عند الله ليس لأحد من البشر فيه شيء ـ فكيف تنبثق الحضارة الإسلامية، التي أكملها الله وأتمها ورضيها للبشرية ديناً، عن غيرها من الحضارات، حتى القول بأن الإسلام منبثق عن غيره من الأديان مرفوض، لأن تلك الأديان لم يكملها الله، فكيف ينبثق الكامل من غير الكامل ؟

٤ ـ يقول الباحث : « فالسعة هي الإيمان بأن اختلاف الأديان وتعددها مرجعه التاريخ وما يؤثر فيه من تغيير وهوى.. ص ٦ س ١٦ ـ ١٨.

وهذا كلام غاية في الخطورة وفي غاية الباطل، لأن اختلاف الأديان مرجعه إرادة الله سبحانه، إذ الأديان كلها من عند الله سبحانه، أما قول الباحث فمعناه أن الأديان من صنع الإنسان، وتلك فكرة الحادية معروفة، معروف من يرددونها، ومعروف هدفهم وغايتهم، وما أظن الباحث الا يردد ما هو شائع ومعروف في كتابة الأجانب عن الإسلام دون تدقيق في مراجعه، ولو دقق ما قال ما قال.

٥ ـ يقول الباحث : « ... حتى في الدين وهو أهم الحقول، تحل السعة مكان النقض المتقابل وتحول المجابهة إلى بحث علمي في تاريخ الدين المذكور » ص ٦ س ٢٠ ـ ٢١.

وقد يرد هذا في أي دين من الأديان إلّا الدين الإسلامي ـ مع أن الباحث عمم ـ ذلك أن الله سبحانه قد تكفل بحفظ الدين الإسلامي، فكيف يستقيم ذلك في الدين الإسلامي، وليس هناك من غموض أي غموض في تاريخ الإسلام وهو حياة الرسول ـ ﷺ وسيرته ـ إذاً القدوة فيه وحده ـ وسيرة الرسول ﷺ ـ معروفة بتفصيل لم تعرف به سيرة أي رسول من رسل الله سبحانه.

٦ ـ يقول الباحث : « تنحدر السعة واليسر من التوحيد كمبدأ أخلاقي » ص ٧ س ٥.

في هذا الكلام نظر، والأخذ به يؤدي إلى الشرك والعياذ بالله. لأن معنى انحدار اليسر من التوحيد هو تقبل المرغوب فيه إلى أن يثبت فساده ـ على حد قول الباحث ـ ويترتب على ذلك أن يكون التوحيد محتملاً لأن يثبت فساده في المستقبل وذلك أبطل الباطل وأضل الضلال.

٧ ـ قال الباحث : « وتجديد الطبيعة عن كل قوة غير الله هو علمنتها » ... ص ٨ س ٣.

وهذا مفهوم جديد للعلمانية خطير يترتب عليه جعل التوحيد نفسه علمانية ـ ولا قائل بذلك.

٨ ـ قال الباحث : « التوحيد هو عكس الخرافة... » ص ٨ س ١٦.

وهذا الكلام غير مقبول لأنه غير صحيح : إذ هو تعريف سالب للتوحيد وعلينا معشر المسلمين، ونحن نعرف ـ والحمد لله ـ علومنا الأصلية في الإسلام أن نتقيد بمصطلحاتنا الإسلامية في تعريف علومنا، لا أن نلجأ في ذلك لمصطلحات غير المسلمين.

٩ ـ قال الباحث : « .. ولا محقق لها سوى الإنسان في عمله الحر الإختياري » ص ٩ س ١١.

هذا باطل من القول. لأن الإرادة الإلهية تحقق بالإنسان وبغير الإنسان، بل لا يتوقف تحقيق الإرادة الإلهية على شيء بعينه، وتلك شنشنة نعرفها من أخذم ـ رددها من قبل بعض الفلاسفة في شطحاتهم الخارجية عن طريق أهل السنة والسلف الصالحين.

١٠ ـ قال الباحث : « أمتهم ثالوث من مراتب الإجماع » ص ١٢ س ٤.

وهذا التعبير « ثالوث » تعبير كنسي معروف بغيض الينا ـ معشر أهل التوحيد ـ إذ يرمز إلى فكرة إشراكية الحادية تزعم أن الله ثلاثة.

فالأولى طرح هذه التعبيرات من الحصيلة اللغوية إطلاقاً وبخاصة إذا كان الباحث مسلماً موحداً.

١١ ـ قال الباحث : « وضع الرسول لها دستورها.... وأدخل فيها اليهود..... » ص ١٢ س ١٥ ـ ١٧.

والحق أن الرسول ـ ﷺ ـ لم يضع دستور الأمة وإنما تلقاه عن ربه وحياً يوحى ما زاد فيه ولا نقص منه، لأن هذا الدستور هو القرآن الكريم.

وكلام الباحث في غاية الخطر والخطأ والخطل لأنه ترديد غير مباشر لقول أعداء الإسلام بأن محمداً ـ ﷺ ـ هو الذي وضع القرآن. تردد هذا في كثير من دراسات أعداء الإسلام ولا يحتاج إلى تنبيه.

١٢ ـ ينقل الباحث عن جروبناوم قوله : « إن الإسلام يفتقر إلى الفنون التشكيلية من نحت وتصوير ودراما لأنه خال من الآلهة المجسدة.. ». ص ١٣ س ٢١.

دون أن يعلق على خطأ هذا القول، فكأنه بذلك يقر عدو الإسلام جروبناوم على خطئه، فمن المعروف أن الإسلام لا يفتقر إلى شيء وقد أكمله الله وأتمه، والافتقار نقص وقصور.

١٣ ـ يقول الباحث : « فن الزخرفة الإسلامية ». ص ١٤ س ١٥.

ومن الواضح لدى علماء الإسلام أنه لا يوجد شيء اسمه زخرفة

إسلامية، وإنما يقال : فن الزخرفة عند المسلمين. والفرق بين التعبيرين واضح جداً.

١٤ ــ في البحث أخطاء أخرى في استعمال بعض الكلمات مكان بعض، وفيه أخطاء نحوية ولغوية كثيرة، نبهت إليها جميعاً في صلب البحث.

اقتــــراح :

أقترح ــ والرأي لكم أولاً وأخيراً ــ عدم نشر هذه المحاضرة لعدة أسباب :

أولاً : ما تضمنته من أخطاء كثيرة.

ثانياً : ما تضمنته من آراء خاطئة لأعداء الإسلام في الإسلام دون تعليق من الباحث.

ثالثاً : ما يحتمل أن تثيره من تساؤلات، بل مشكلات في أوساط العلماء إذ أن كتب الندوة توزع على نطاق واسع.

رابعاً : ليس في المحاضرة جديد قيّم يستحق كل هذه المخاطر في تحمل مسئولية نشرها.

والله من وراء القصد..

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. ،،

أخـوكـم

د. علي عبد الحليم محمود

كلية اللغة العربية

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

* * *



بسم الله الرحمن الرحيم

إلى سعادة الدكتور أحمد عبد القادر باحفظ الله
الأمين العام للندوة العالمية للشباب الإسلامي رعاه المولى ونفع به
من عبد الفتاح أبو غده ..
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ..

وبعد .. تلقيت كتابكم ذا الرقم ٧٤٥ والتاريخ ١٤٠٠/٢/١٠ هـ وفيه تطلبون مني إبداء ما أراه مناسباً ومفيداً بالاستدراك أو التوضيح أو الإضافة في محاضرة الدكتور إسماعيل راجي الفاروقي (جوهر الحضارة الإسلامية).

وتلبية لرغبتكم الأخوية الطيبة نظرت فيها وبدت لي الملاحظات التي ترونها في الصفحات التالية أبعث بها إليكم لتروا ما ترون فيها أنتم أو الدكتور الفاروقي.

والمحاضرة فيها جهد ظاهر ملموس وهذه الملاحظة التي أبديتها تتوخى رفع الاشتباه أو دفع الخطأ الذي لا يسلم منه الناقد والمنقود فأرجو أن تحمل عباراتي على هذا الوجه والله ولي التوفيق.

وقد تأخرت عن الشهر المؤقت للنظر فيها لأنني كنت في غمرة أعمال جامعية جاثمة أمامي وعنَّ لي الاعتذار عن النظر فيها لكثرة الأعمال

وضيق الوقت فمعذرة عن تأخري هذا ودمتم بالخير والتوفيق والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

١٨/٣/١٤٠٠ هـ

أخـوكـم
عبد الفتاح أبو غـده

* * *

ملاحظات

١ ـ الصفحة (٢) يقول : (الحقيقة عالمان : عالم الله وعالم الخلق...) لا يسوغ أن يقال : (عالم الله) لأن العالم يحتـوي عـدداً من نوع متجانس مثل (عالم الخلق) والله سبحانه فرد واحد لا شريك له، فلا يصح أن يقال (عالم الله). وقال أيضاً : (ينفرد بعالم الله موجود واحد لا شريك له)، وأبدى في (التعقيبات والأجوبة) ص ٢٢ ـ ٢٣ بيان المراد بلفظ (عالم الله) ثم قال : (فإذا كان الاعتراض فحوياً كان مردوداً أصلاً، وإن كان لغوياً فهو في غير موضعه لأن لا مندوحة من استعمال...) إلى أن قال : (ولعل عدم إلمام الشيخ بالأسلوب المنطقي هو ما حال دون تفهمه لما قيل).

أقول : مراعاة اللغة بالنظر إلى التعبير عن الله تعالى واجبه، ومع الإلمام بالمنطق لا يقبل هذا التعبير في جانب الله تعالى لأن العلماء قرروا تبعاً للنصوص القاطعة أنه لا يجوز أن يوصف الله إلّا بما وصف به نفسه ومثل هذا التعبير (عالم الله) يوهم خلاف معتقد المسلم، وإن كان الكاتب حاول تسويغ هذا التعبير فمحاولته لا تنفي عدم سواغيته.

ثم قوله بعد ذلك : (ثنائية الحقيقة نهائية قاطعة ينفصل العالمان عن بعضهما...) مبني على ذاك التصور أو التعبير الذي استساغه الكاتب وهو منتقد كما تقدم بيانه. وكذلك قوله في (الذيول) ص ١٦ في التعليقة ذات الرقم ٢ (... ركز على حقيقة العالمين أو الطبقتين : الله الخالق والعالم

المخلوق) يرد عليه ما سبق فلا يقال أيضاً : (الله طبقة) كما لا يقال : (الله عالم).

٢ ـ الصفحة (١٧) من (الذيول) يقول : (لا يجزى الإنسان على معروف أو منكر أكره عليه إكراهاً). هذا غير سليم فإن الإنسان يؤجر على المعروف يكره عليه لأنه يبقى معروفاً فالصدقة التي تقع من صاحبها المكره يحرز بها أجراً ولا ريب لأنها معروف في الواقع وفي نظر الشرع وإن كان مشوباً في طريق صدوره من صاحبه وفاعله فإن ذلك ينقص من أجره ومثوبته. وكذلك المنكر الذي أكره عليه فاعله، منه ما تصحبه المؤاخذة ومنه ما لا تصحبه.

٣ ـ الصفحة (٤) قوله : (فجمع الأفندي المسلم للإسلام... وجمع ذلك الأفندي... وكذلك جمع الأفندي الجامعي...) لم أفهم وجه اختيار لفظ (الأفندي) هنا ؟ فإن كان كما فهمته فالأولى أن يستبدل به لفظ (الفرد) فيقال : فجمع الفرد المسلم... وهكذا فيما بعده.

٤ ـ الصفحة (٥ ـ ٦) قوله : فوحدته إذاً هي وحدة الحقيقة) جملة موهمة لا داعي لبقائها هنا فيما أرى.

٥ ـ الصفحة (٦) قوله : (والله جل وعلا منزه عن البداء أي تغيير فكره. لفظ (فكر) لا يسوغ أن يضاف إلى الله تعالى فيمكن أن يقال : (عن تغيير علمه).

٦ ـ الصفحة (٦) قوله : (وهو منزه عن التناقض عن إساءة الإعلام) هذه الجملة غير واضحة وقد جعل قوله : (عن إساءة الإعلام) تفسيراً للتناقض وهو تفسير غير صحيح لغة وإفهاماً.

٧ ـ الصفحة (٩) : قوله (والأمانة هي تحقيق إرادة الله الأخلاقية). وقد تكرر هذا التعبير وكأنه تعبير كهنوتي فمدلوله غير واضح والأولى التعبير بلفظ واضح مفهم.

٨ ـ الصفحة (١٠) قوله : (وله أن يفرقع القمر والشمس إن لزم). ما معنى الفرقعة هنا ؟ والذي في « القاموس المحيط » : « فرقع : عدا عدواً شديداً ـ مولياً ـ وفرقع فلاناً : لوى عنقه وفرقع الأصابع : نقضها ـ أي

عركها حتى يظهر صوتها ـ فتفرقعت وافرنقعت والفرقاع بالكسر : الضرط والفرقعة كقنفدة : الإست والإفرنقاع : الفرقعة عن الشيء : الإنكشاف عنه والتنحي » انتهى.

٩ ـ الصفحة (١١) قوله : (كما حصل في جبل الآلهة ـ أوليمبوس وفالها لا) يحسن تفسير المقصود من هذا ليفهم المراد عند من لم يقف على هذه الأساطير.

١٠ ـ الصفحة (١٢) قوله : (أمتهم ثالوث من مراتب الإجماع) تعبير بعضه كهنوتي وبعضه فلسفي فاشتد فيه الإغلاق والغموض ولا يفهم المراد منه، وتفسيره في (الذيول) ص ٢٠ برقم ٤٢ (للإجماع المثلث) لا يفهم ولا يهضم إذا بقي كما هو.

١١ ـ الصفحة (١٣) قوله : يقول الفن : إن في كل شيء في الخلق لا سيما في الإنسان وبدرجة أقل في الحيوان والنبات، جوهراً ما ورائياً قائماً بذاته...). المعنى في هذا الكلام مقبول بعد فهمه ولكنه غير مأنوس في الأسلوب والعبارة.

ثم قوله : (جاء النحت الإغريقي تصويراً للآلهة قبل كل شيء. ولم يتدهور تصوير البشر إلّا في روما...). يريد بهذا معنى يتمم ما سبق في كلامه المقبول في الجملة ولكن العبارة لا يفهم المراد الحسن منها بسهولة ويسر...

١٢ ـ الصفحة (١٤) قوله : (لذلك أسلب كل ما صوره أي أبعده عن طبيعته إلى درجة الإنكار). الضمير في (طبيعته) يعود إلى الله جل جلاله وإضافة (الطبيعة) إلى الله غير سائغة هنا.

هذه الملاحظات التي بدت لي والمحاضرة في ذاتها حسنة الغاية والمقصد بلا ريب، ولكن اسلوبها فلسفي غامض غير مألوف، وكثير من عباراتها ليست عربية ولا تنزل على الوجه القياسي في العربية، فهذا في ذاته يضعف الاستفادة من المحاضرة.

بسم الله الرحمن الرحيم

سعادة الأمين العام للندوة العالمية للشباب الإسلامي

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .. وبعد :

فقد اطلعت على المحاضرة القيّمة التي ألقاها الأُستاذ الدكتور / اسماعيل الفاروقي، والتي حاول فيها وضع نظرية شاملة عن جوهر الحضارة الإسلامية، وقد تدبرت موضوع المحاضرة وشكرت للأستاذ المحاضر رغبته في عرض الإسلام عرضاً جديداً يتفق مع عالميته وحاجة البشر إليه، ولا ريب أن الحقائق التي اهتدى إليها كثيرة وثمينة، ولكن أسلوب الأداء، وأحياناً طريقة التصور تخالف المألوف في ثقافتنا الإسلامية، وربما كان هناك خطأ علمي لم يقصد إليه الأستاذ، ولكنه يفهم من منهج البحث.

وأرى لو أنه صيغت بعض العبارات على نحو آخر لكان ذلك أضبط وأبعد عن الشبهات في موضوع دقيق. وقد وضعت خطوطاً تحت ـ جمل تثير التساؤل ـ

ففي الصفحة الأولى مثلاً وضعت كلمة التوحيد بأنها سلبية مظهرها ؟ وهذا مستبعد.

وفي الصفحة الثانية ـ القول بأن (الله عالم) (والخلق عالم آخر)، والأستاذ المحاضر يقصد إلى نفي وحدة الوجود. ولكن هذا التعبير مرفوض

من الناحية الإسلامية رفضاً تاماً فكلمة « عالم الله » لم تجيء على لسان كاتب مسلم خلال القرون كلها. والأفضل التعبير بأن المخلوقات عالم مغاير للذات الإلٓهية، له قوانينه وخصائصه، أما الذات الأقدس فوجوده وكماله شأن آخـــر.

وفي البند ٢ من الصفحة : يجب إعادة صياغة الجملة الأولى لتفيد أن الإنسان يتصل بالله عن طريق العقل، والقلب. ولا مجال لاتحاد أو حلول، فان العبارة التي ذكرها قلقة.

في الصفحة السادسة ـ يريد الأستاذ أن يقول : ان الدين عند الله واحد في أصوله، وقد تختلف الشرائع الفرعية لاختلاف العصور، ولكن الأستاذ صاغ هذا المعنى صياغة مرفوضة لما قد تثيرة من أوهام. وقبل ذلك في الصفحة نفسها يقول الأستاذ : ان الله منزه عن تغيير فكره ؟ ووصف الله بأن له فكراً أو عقلاً وصف مرفوض.

في الصفحة الثامنة ـ عبارة غامضة تقول : تجريد الطبيعة من كل قوة غير الله هو علمنتها، والمعنى غامض، ولعله يريد أن ما في الكون من قوى مودعة هي من الله وحده، وأن هذه القوى محكومة بقوانين دقيقة هي ما شاء الله لها، وعلينا تعلم هذه القوانين.

في الصفحة التاسعة ـ تعبير مستغرب « طوبى للإنسان أن يكون الجسر الكونيّ الذي تعبره ارادة الله الأخلاقية لتدخل التاريخ، ولتتحقق في الزمان والمكان ».

ان الحديث عن الله لا يجمع فيه القلم كيف يشاء، بل هو محكوم بأداء معين.

وفي الصفحة العاشرة ـ يقول : إن للإنسان « أن يفرقع الشمس والقمر إن لزم ».

ولا أدري لماذا من حق الإنسان أن يفعل ذلك ؟ وهل الإسلام يعطي المسلم الحق في تدمير الكون ؟ وما علاقة هذه الفرقعة بالنفاذ من أقطار السموات والأرض: إن للنفاذ معنى آخر لا صلة له البتة بما يريد الأستاذ.

وفي الصفحة الثانية عشرة ـ كلام يبدأ بهذه الجملة « لا توحيد إذن إلا بالأمة..... الخ ».

وأعتقد أن العبارات كلها تفتقر إلى الضبط والإيضاح.

إن الأستاذ / الفاروقي رسم في محاضرته أهدافاً عالية صحيحة، وإنه لممّا يخدم الإسلام خدمة جليلة، في عصرنا هذا، أن يوائم الأستاذ بين اجتهاده المشكور وبين مواريثنا في الإلهيات والنبوات حتى يسلم كلامه من الاعتراضات.

وندعو الله له بالتوفيق...

محمد الغزالي

كلية الشريعة

جامعة الملك عبد العزيز

مكة المكرمة



بسم الله الرحمن الرحيم

أخي الكريم الدكتور / أحمد عبد القادر باحفظ الله
الأمين العام للندوة العالمية للشباب الإسلامي حفظه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ..

جواباً على خطابكم ذي الرقم ٧٤٥ والتاريخ ١٤٠٠/٢/١٠ هـ بشأن إبداء الرأي في محاضرة الأستاذ الدكتور / اسماعيل راجي الفاروقي — التي ألقاها أثناء انعقاد اللقاء العالمي الرابع للندوة. فاني أرسل لكم الملاحظ المرفقة.

وفقنا الله جميعاً لما يحبه ويرضاه..

أخوكم

مناع القطان

ملاحظ على المحاضرة : جوهر الحضارة الإسلامية

أولاً : النظرة العامة :

أخذت المحاضرة طابعاً فلسفياً في تقسيم عناصرها، وترتيب أفكارها، والتعبير عن هذه الأفكار، ويجد القارىء في بعض العبارات من الغموض ما يجعل ادراك المعنى المقصود متعذراً، للترخص في استعمال الألفاظ واطلاقها على المعاني البعيدة، أو ارادة ما هو أعم من هذه المعاني، ولا بد

في المجاز من قرائن تدل على المعنى البعيد، وقلما نجد هذه القرائن في المحاضرة، ويتبين هذا فيما سنذكره بعد.

ثانياً : الملاحظ التفصيلية :

١ ـ جاء في ص ١ بالأسطر الأربعة الأخيرة : « التوحيد هو الشهادة عن إيمان بأن « لا إله إلا الله »، هذه الشهادة السلبية في مظهرها ». ومأخذنا في ذلك، أن الشهادة ليست سلباً، ولكنها سلب وايجاب، وجاء السلب فيها لتأكيد الايجاب بطريق الحصر، فقولنا : « لا إله إلا الله » يشتمل على نفي واثبات. إذ أن خبر « لا » النافية للجنس محذوف، والتقدير : لا إله موجود إلا الله. فالشطر الأول نفي، وما بعد « إلا » اثبات بطريق الحصر، وهذا أبلغ في إثبات التوحيد من الاثبات المجرد، حيث دل على نفي الالهية عما سوى الله، واثباتها لله وحده، ودلالة ذلك على اثبات الهيته تعالى أقوى من دلالة قولنا : « الله إله » بطريق الاثبات فقط، لأن هذا قد يتطرق اليه احتمال أن يكون غيره إلهاً كذلك، ولذا لما قال تعالى : (والهكم إله واحد) بطريق الاثبات المجرد قال بعده : (لا إله إلا هو الرحمن الرحيم) ١٦٣ ـ البقرة.

واعرابها عند النحاة : « لا » : نافية للجنس، و « إله » اسمها مبني على الفتح، وخبرها محذوف والتقدير : لا إله موجود، و « إلا » : أداة استثناء، و « الله » مرفوع بالضمة : بدل من الضمير المستكن في الخبر المحذوف ـ عند جمهور النحاة ـ : وبدل من لا مع اسمها عند سيبويه، لأن لا مع اسمها عنده في موضع رفع على الابتداء.

٢ ـ يقول المحاضر ص ٢ س ٢ : « التوحيد كتصور عام ـ التوحيد تصور عام للحقيقة.... »، ثم فسر هذا التصور في المبادىء الخمسة التي ذكرها.

وليس التوحيد هو التصور العام للحقيقة. ولكنه يعطي تصوراً عاماً للحقيقة. وشتان بين العبارتين : التوحيد هو التصور العام للحقيقة. والتوحيد يعطي تصوراً عاماً للحقيقة. فالعبارة تدل صيغتها على أنها تعريف للتوحيد.

وهي لا تصلح أن تكون تعريفاً له. لا بالحد، ولا بالرسم، ولا بالمرادف، ولا بالتقسيم.

ومن ناحية أخرى فان التصور يقابل التصديق. والتوحيد هو التصديق بوحدانية الالهية، فكيف نعبر عنه بالمقابل فنقول التوحيد تصور. أما إذا قلنا : انه يعطي تصوراً عاماً للحقيقة، فاننا بهذا نجعل التصديق اليقيني بوحدانية الالهية سبيلا تهتدي به إلى الصورة المتكاملة عن الوجود كله.

ولذا فان الأستاذ المحاضر ذكر التوحيد بتعاريف أخرى في مواضع، فتراه مثلاً ص ٤ آخر الصفحة بالسطرين الأخيرين يقول : « التوحيد وحدة الله ».

ويقول في السطر الأخير ص ٥ : ان التوحيد هو الاقرار بوحدة الله، والله هو الحق، فوحدته إذاً هي وحدة الحقيقة »..

٣ ـ تكلم المحاضر عن الجانب الأسلوبي في الحضارة وأنه يتألف من مبادىء ثلاثة : الوحدة، والتعقل، والسعة : وعندما تحدث عن السعة ص ٦ فسرها تفسيراً يوهم التساوي بين الأديان كلها، وهذا هو محور المحاولات المشبوهة في التقارب بين الأديان بعالمنا المعاصر : التقارب بين المسيحية والإسلام. التقارب بين الأديان، الحوار المسيحي الإسلامي.

ولهذا كله مراكزه العاملة. فنحن بمفهوم السعة كما ذكر المحاضر نساعد على نجاح تلك المحاولات التي تسعى لإذابة الإسلام في المفهوم الديني العام.

اقرأ ـ مثلاً ـ عبارات المحاضر في مبدأ السعة : هي حسن الظن بالظاهر إلي أن يثبت خطأه.. هي الايمان بأن الله لم يترك قوماً إلا أرسل اليهم نذيراً بعلمهم بأن يعبدوا الله ويجتنبوا الطاغوت.

وهذه القضايا حق، ولكنه يصل منها إلى قوله بعد : « فالسعة هي الايمان بأن اختلاف الأديان وتعددها مرجعه التاريخ وما يؤثر فيه من تغيير وهوى.. تحل السعة مكان النقض المتقابل وتحول المجابهة إلى بحث علمي في تاريخ الدين المذكور.

ونحن نؤمن بأن دين الأنبياء واحد، وقد أمرنا الله أن نؤمن بالأديان كلها، ولكننا نؤمن كذلك بأن أهل الأديان السابقة حرّفوا وبدّلوا. وأن أديانهم أمرتهم بالايمان برسولنا محمد ﷺ، فلما بعث جحدوا واستكبروا وأن رسالة محمد ﷺ نسخت الرسالات السابقة، فلا يسع أحداً من أهل الأديان الأخرى سوى الدخول في الإسلام، أو الخضوع لحكم الإسلام فيه.

والسعة التي في ديننا دين التوحيد، تكون في البلاغ والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة.

٤ ـ عبر المحاضر ص ٩ س ٣ و س ١٣ عن الأمانة في الآية ٧٢ من سورة الأحزاب بأنها تحقيق ارادة الله الأخلاقية. والمراد بالأمانة في الآية ـ كما ذكر جمهور المفسرين ـ جميع وظائف الدين وتكاليفه التي ائتمن الله عليها العباد، وهذا يسمى بارادة الله الشرعية، ويقابلها ارادة الله الكونية، فتسمية الارادة الشرعية بالارادة الأخلاقية اصطلاح جديد.

واستعمال هذا الاصطلاح يوهم اعتبار التكاليف الشرعية من باب الأخلاق. والأخلاق بتصرف مفهومها العام إلى التجمل بالفضيلة، ولكنها في المفهوم الإسلامي تكون غاية للالتزام بتكاليف الشريعة أمراً ونهياً.

٥ ـ ذكر المحاضر في نهاية ص ٩ أن الإنسان أكمل من الملائكة وأرفع منهم درجة لأنه يقدر على العمل الأخلاقي طوعاً.

وهذا الحكم ليس على اطلاقه، والتحقيق أن جنس الملائكة أفضل من جنس الإنسان، لأن الملائكة جميعاً جلبوا على الطاعة فقط، أما جنس الإنسان فمنهم المؤمن ومنهم الكافر، ومنهم المنافق، والمؤمنون منهم العصاة، أما اذا قورن الإنسان المؤمن العابد المطيع بواحد من الملائكة فانه يكون أفضل.

هذا وأسأل الله تعالى أن يرزقنا العلم النافع..

بسم الله الرحمن الرحيم

سعادة الأمين العام للندوة العالمية للشباب الإسلامي حفظه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.... وبعد :

أشير إلى كتابكم رقم ٧٤٥ وتاريخ ١٠/٢/١٤٠٠ هـ المرفق به نسخة من محاضرة الأستاذ الدكتور إسماعيل راجي الفاروقي التي القاها أثناء انعقاد اللقاء العالمي الرابع للندوة للاطلاع عليها للاستدراك أو التوضيح أو الاضافة.... إلخ.

أفيدكم أنه بإحالتها إلى أحد المختصين أبدى عليها الملاحظات التي تجدونها برفقه.

شاكراً لكم جهودكم في سبيل الدعوة إلى الله تعالى سائلاً المولى تبارك وتعالى التوفيق والسداد للجميع.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الملاحظات على محاضرة الأستاذ الدكتور / إسماعيل راجي الفاروقي « جوهر الحضارة الإسلامية »

١ ـ جاء في آخر الصفحة الأولى السطر الرابع من أسفل على قوله : « لا إله إلّا الله، هذه الشهادة السلبية في مظهرها ».

الأولى حذف هذه الجملة : السلبية .. إلخ.

وذلك لأن كلمة : لا إله إلّا الله ليست سلبية وإنما هي مشتملة على النفي والإثبات، فهي إيجابية. وبحذفها يبقى الكلام مستقيم المعنى.

٢ ـ جاء في الصفحة الثانية السطر الثاني، والرابع قوله : كتصور عام، الكاف يحسن حذفها.

ـ وفي السطر الخامس قال : الحقيقة عالمان. عالم الله وعالم الخلق.

ولا يصح أن يوصف الله ـ بعالم الله.

والأولى أن يقال : الحقيقة وجودان. وجود الله، وعالم الخلق.

٣ ـ في الصفحة الثالثة يحسن أن تضاف جملة في آخر السطرالثاني عشر وهي : في الدنيا والآخرة. وفي السطر الثالث عشر والرابع عشر قوله : التوحيد كجوهر... إلخ تحذف الكاف من : كجوهر.

٤ ـ في الصفحة الرابعة من السطر الرابع ذكر أن الحضارة الإسلامية انبثقت عن غيرها وأخذت منها... إلخ.

ذكر هنا كلاماً طيباً من حيث أن الحضارة الإسلامية هضمت الحضارات السابقة.. الخ، ولو ذكر هنا توضيحاً وهو أن أهم شيء أضافته الحضارة الإسلامية وامتازت به هو المنهج التجريبي الذي لم تعرفه الحضارات السابقة، وإنما كانت مقتصرة على النظريات.

٥ ـ في الصفحة السادسة السطر الثاني يحسن حذف كلمة : المحرك.

وفي السطر الثالث تحذف كلمة : فكرة، ويستبدل مكانها إرادته، فتكون الجملة : أي عن تغيير إرادته.

وفي السطر الخامس عشر والسادس عشر قوله : بل في فطر البشر أجمع ما يؤهلهم لمعرفة الدين الحنيف القيم وإدراك أوامر الله وإرادته.

يحتاج لتوضيح : وهو أن الفطرة تدل على معرفة الله وأنه هو الخالق

سبحانه وذلك قبل انحرافها كما قال ﷺ : كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه الحديث، أما أوامر الله وما يريده الله من عباده من التفاصيل فلا يدرك إلّا عن طريق الوحي وهو ما أنزله الله على رسله.

وإلّا فالعقول وإن ارتقت وأبدعت في حضارتها المادية فهي في حاجة إلى هداية الوحي ـ يحدثنا بذلك آثار الأقدمين الذين بلغوا ما لم يصل إليه غيرهم ومع ذلك فقد نحتوا حجارة بأيديهم ثم عفروا جباههم لها.

٦ ـ في الصفحة الثانية عشر السطر الرابع قوله : ثالوث من مراتب الإجماع ـ لو حذفت هذه الجملة لكان أولى.

٧ ـ في الصفحة الثالثة عشر السطر الثالث قوله :

التوحيد مبدأ جمالي :

تسمية التوحيد مبدأ جمالي لا يستحسن، ولكن لو قال : إن الإسلام لا ينكر الإبداع الفني، ولا يتنكر للجمال فقد جاء في الحديث : أن الله جميل يحب الجمال ـ لكان أولى من جعل الجمال قسماً من مبادئ التوحيد الخمسة على تقسيمه الذي جرى عليه في محاضرته.

بسم الله الرحمن الرحيم

سعادة المكرم الأمين العام للندوة العالمية للشباب الإسلامي
الأستاذ أحمد باحفظ الله المحترم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ... وبعد :

اشارة إلى خطاب سعادتكم رقم ٧٥٨ في ١٤٠٠/٢/١٢ هـ والمرفق به محاضرة : اسماعيل راجي الفاروقي استاذ الإسلاميات وتاريخ الأديان بجامعة تاسيل بالولايات المتحدة في اللقاء الرابع للندوة العالمية للشباب الإسلامي المقام في ربيع الثاني عام ١٣٩٩ هـ في قاعة الملك فيصل يرحمه الله بالرياض.

وحيث رغبتم في ايضاح وجهة نظري في هذه المحاضرة لا سيما وهي تتحدث عن أهم موضوع هو موضوع التوحيد فانني أوجز لسعادتكم ملاحظاتي بالآتي :

أولاً : ملاحظات عامة :

١ ـ المحاضر كتب هذا الموضوع على طريقة الفلاسفة المحدثين مما لا عهد لكثير من المسلمين به مما يجعل قطاعاً كبيراً من المثقفين لا يستفيدون من هذه المحاضرة أو لا يعيشون مع المحاضر فيما يهدف اليه.

٢ ـ ان المحاضر استعمل في بحثه اصطلاحات غير معروفة لنا

ولكثير من الناس مثل : اصطلاح الجانب الاسلوبي والجانب الفحوي وما يتألف منه كل من الجانب الأسلوبي والفحوي من مبادىء ص ٣ وما بعدها. ومثل : التوحيد مبدأ أخلاقي ومبدأ قيمي ومبدأ جمالي... الخ.

٣ ـ ان كثيراً من العبارات تأتي غير محددة المعنى أو غير واضحة أو محتملة للحق والباطل مثل كلمة الحقيقة فمرة يستعملها بمعنى الوجود ومرة بمعنى الواقع. وتارة بمعنى الكل وتأتي محتملة مثل : قوله فالسعة هي الايمان بأن اختلاف الأديان وتعددها مرجعه التاريخ وما يؤثر فيه من تغيير ص ٦.

٤ ـ ان ما يقررن المحاضر في مكان يتابعه أحياناً في مكان آخر وهذا سيتضح من الملاحظات الخاصة.

ثانياً : الملاحظات الخاصة :

١ ـ التعبير بجوهر الحضارة الإسلامية وأنه هو التوحيد تعبير غير دقيق ولا محدد لان الجوهر يطلق ويراد به معنى اصطلاحي عند الفلاسفة، وهو كل ما استقل عن غيره وقام بنفسه، ويقابله العرض وهو ما لا يقوم بنفسه ولا يظهر إلا في غيره كالألوان، وهذا غير صحيح لأن التوحيد لا يستقل عن بقية شرائع الإسلام ومجرد التوحيد بلا عمل بشرائع الإسلام لا ينفع.

ويطلق الجوهر : ويراد به المعنى اللغوي العام الذي هو الشيء الغالي الثمين والنفيس، سواء كان في الماديات أو المعنويات، ولما كان معنى النفيس الثمين الغالي كلمات واسعة ليست محددة بل انه في المعدن الواحد كالذهب مثلاً وهو يقع تحت مسمى الذهب ويعرف عند أهل الخبرة به أنه على درجات متفاوتة من النفاسة ولهذا فان سلف هذه الأمة وعلماءها في مختلف العصور لم يعبروا بالجوهر عن التوحيد.

٢ ـ قال المؤلف : قديماً وحديثاً كتب مفكرونا آراءهم في جميع الميادين تحت عنوان التوحيد وذلك لانهم رأوا فيه المبدأ الأكبر الذي يشمل جميع المبادىء الأخرى، ورأوا فيه القوة الكبرى التي تفجرت عنها جميع

المظاهر المكونة للحضارة الإسلامية ثم قال : ان التوحيد هو الشهادة عن ايمان بأن (لا إله إلا الله).

فكلمة التوحيد التي ذكرها ليس لها هذا الشمول الذي ذكره المؤلف بل انها تشمل أنواع التوحيد :

١ ـ توحيد الربوبية.
٢ ـ توحيد الالوهية.
٣ ـ توحيد الأسماء والصفات.

ولكنها لا تشتمل على بقية شرائع الإسلام ومبادئه الأخرى في العبادات والمعاملات والدماء والقضاء وغيره مما ينظمه مسمى الشريعة، وليس صحيحاً أن مفكرينا في القديم كتبوا آراءهم في جميع الميادين تحت عنوان التوحيد بل هي دعوى تفتقر إلى دليل.

٣ ـ قال المحاضر : إن حكمة لا إله إلا الله هذه الشهادة سلبية في مظهرها، والحقيقة ان هذه الكلمة تضمنت السلب والايجاب معاً، فان صدرها ينفي وجود إله حق غير الله، وعجزها (إلا الله) إيجاب وهو اثبات الالوهية الحقة لله وحده دون سواه.

٤ ـ قال المحاضر ص ٢ إن التوحيد تصور عام للحقيقة بما فيها الدنيا كلها والحياة كلها والتاريخ كله، وهذا الشمول غير صحيح كما سلف.

٥ ـ تحت عنوان المبادىء الخمسة للتوحيد على حد تقسيمه : (الحقيقة عالمان : عالم الله وعالم الخلق ص ٢) وهذا التقسيم ليس صحيحاً فلا يقال عن الله انه عالم. وإنما يذكر بأسمائه وصفاته سبحانه فقط، ولا يصح حتى من ناحية الوجود لأن قرن وجود الله بوجود الخلق فيه تشبيه إلى جانب مخالفته لما جاء في الكتاب والسنة وأقوال وأعمال السلف والخلف حتى يومنا هذا.

٦ ـ ثم قال : ثنائية الحقيقة نهائية قاطعة. ينفصل العالمان عن بعضهما انفصالاً تاماً كونياً ووجودياً... الخ : فالتعبير بالثنائية، تعبير غير

سليم. اما الانفصال فلا يقال به اذ لم يحصل اتصال من قبل حتى يكون الانفصال.

٧ ــ وقال : لا صلة بين الخالق والإنسان الا بقوة العقل... الخ ونقول إن الصلة بين الخالق والمخلوق صلة ايجاد وخلق وهي خارج العقل وان كانت تدرك بالعقل فهي عقلية من هذه الجهة، وصلة الخلق بالخالق بالطاعة والعبادة صلة قائمة.

٨ ــ وقال ان سنن الله : هي ارادة الله. والواقع أن سنن الله أعم من ارادته فلا تفسر السنة بالارادة.

٩ ــ وقال : لعالم الخلق غاية من وجوده : هي تحقيق ارادة الخالق. وهذا ليس صحيحاً، فان ارادة الله الكونية نافذة في الخلق شاؤوا أم أبوا، وارادته الشرعية يتم تنفيذها في اطار اختيار البشر ومشيئته الخاضعة لمشيئة الله.

فغاية الله من خلق الخلق ليس تحقيق ارادته وانما هي توحيد الله وطاعته وعبادته وفق ما شرع وهذا بنص القرآن. قال تعالى : « وما خلقت الجن والأنس الا ليعبدون »... الآية وهذا نص قرآني على تحديد الغاية من الخلق.

١٠ ــ عند كلام المحاضر على تحقيق ارادة الله في الخلق ذكر انها تتحقق في خلقه ما عدا الإنسان بالضرورة اما في الإنسان فتتحقق باختياره وهذا صحيح، ثم قال : (وهذا هو التفاضل القائم بين القيم الاخلاقية والقيم النفعية)، وهذه الجملة ليست صحيحة لأن ما يتحقق بفعل الإنسان الاختياري منه ما يصح ان يسمى كما عبر عنها بالقيم الاخلاقية والقيم النفسية. فان الإنسان يفعل الطاعة باختياره فتسمو نفسه وتعلو درجته عند الله ويرتفع عن مستوى الحيوان وبقية المخلوقات ــ وهذه ما عبّر عنها بالقيم الأخلاقية ثم إنه يحقق له بذلك مصالح دنيوية في نظام حياته وصلاح عيشه وحصول المنافع العاجلة التي يشترك فيها الإنسان مع الحيوان مثل الطعام والشراب واشباع كل الغرائز الحيوانية.

ثم ان الإنسان منه من لم يكن مطيعاً لله، ومع أنه انسان وله اختيار فاذا عصى الله وكفر به كانت منزلته أحط من الحيوانات عند الله وكان ما

يحصل عليه منافع يصح أن يطلق عليها قيم نفعية : لأنها ليس فيها طاعة ولا سمو ولا تحقيق مراد الله فتساوى مع الحيوان في تناول هذه القيم الحيوان بالالهام والضرورة والانسان بالسعي والاختيار وكانت ميزة الاختيار عنده تهبط به درجات في التقييم لأنه استعملها في التدني لا في الارتفاع.

١١ ـ قال المحاضر : ان للتوحيد كجوهر حضاري جانبان : جانب اسلوبي وجانب فحوي، ثم فسر مراده بكل منهما، بما يفهم منه أن مراده بالجانب الأسلوبي هو الاجتهاد وعمل المجتهدين في التطبيق، وأن مراده بالفحوى نصوص الشريعة التي هي مجال عمل المجتهد ومادته. وقال في أول عنصر من عناصر الجانب الأسلوبي ما نصه : انما الحضارة الإسلامية انبثقت عن غيرها من الحضارات وأخذت منها، لكنها ليست مجرد جمع واضافة بل هضماً وتسوية وتخريجاً جديداً، فما من حضارة إلا خرجت من سابقاتها وتقدمت بمواد جديدة غريبة عنها، لكنها هضمتها وسوتها فحولتها من جوهر غريب عن الحضارة إلى مادة فحوية تنتسب إلى الحضارة الإسلامية انتساباً عضوياً... الخ.

فإذا كانت في كثير من العبارات التي ذكرتها في الملاحظات السابقة ذات مصراعين طيعة تأتي مع الدفع والجذب فان هذه العبارة صريحة لا تحتمل غير المعنى المراد للمحاضرة وهو كلام خطير بل هو غاية في الخطورة وهو رأي كثير من المستشرقين، وهذا الكلام في لفظه ومعناه يعني أحد الأمور التالية :

أ ـ ان الحضارة الإسلامية والتوحيد ليسا من عند الله وانما هما من صنع عبقرية مبدعة كان لها قدرة فائقة في أخذ خامات هذه الحضارة من الحضارات السابقة لها ـ وهي التي عبّر عنها بالجانب الفحوي وصهرها في بوتقة إسلامية ونظمتها في إطار واحد هو الصهر الإسلامي الذي ألف بين أجزاء هذه المواد التي أخذت من الحضارات القديمة ـ وهذه العبقرية هي التي عبر عنها بالجانب الأسلوبي وحددها في المبادىء الثلاثة : ١ ـ الوحدة ٢ ـ التعقل ٣ ـ السعة.

ب ـ أن تكون الحضارة الإسلامية وعقيدة التوحيد من عند الله ولكن

الله سبحانه أخذ موادها من الحضارات القديمة وصهرها بعلمه وحكمته وسواها وخرجها تخريجاً جديداً حتى صارت بهذا الشكل الإسلامي أو كما قال فأسلمها.

وعلى الاحتمالين فالخامات المكونة لنصوص الشريعة ليست من عند الله ابتداء، ولكنها من الحضارات القديمة انتقتها يد مبدعة خلاقة، ولم تكتف بمجرد جمعها وتصنيفها بل هضمتها وسوتها وخرجتها تخريجاً جديداً.

ولكن من هي هذه اليد المبدعة أو الفنان كما سماها فيما يأتي، هل هو محمد ﷺ وأصحابه أو هو الله.. الله أعلم بمراده.. وعلى كلا المعنيين فهو خطأ جسيم في حق الله وحق رسوله.

غير أن ما ذكره المؤلف بعد هذا مباشرة بقوله: (ولعل أسوأ ما نزل بنا من كوارث في العصر الحديث هو انتزاع وحدة الأسلوب من حضارتنا، وذلك بادخال عناصر غريبة على حياتنا دون أن نصهرها ونسويها ونخرجها التخريج الذي يجعلها نسقاً متوحداً الخ). يبين انه أراد المعنى الأول وهي انها من صنع عبقرية انسانية مبدعة وجدت مع فجر الإسلام ولم تتكرر، وهو يدعو اليوم إلى عبقرية جديدة تعيد للإسلام وجوهره ما فقدناه وهو الجانب الأسلوبي المتمثل في الوحدة والتعقل والسعة وهذه كلها أعمال بشرية إذ أن مواد الحضارات الجديدة متوفرة ويمكن اضافتها إلى جوهر الإسلام وهو التوحيد اذا وجد من يقوم بالجانب الأسلوبي وتتولى عملية الصهر والهضم والاخراج والتسوية.. الخ.

ولست في حاجة أمام هذا الكلام الذي ينبىء عن تصور معين للمحاضر عن الإسلام في مصدره وموورده وصلته بالحضارات القديمة وفي جانبه الأسلوبي الفحوى والذي يختلف تمام الاختلاف عن تصور علماء المسلمين قديماً وحديثاً بل حتى عامتهم أن أسرد الآيات القرآنية التي جاءت في الرد على مثل هذه الدعاوى التي وجهت للإسلام منذ فجر تاريخه مثل قوله تعالى عن المنكرين للرسالة: (انما يعلمه بشر)، فرد الله عليهم بقوله تعالى: (لسان الذين يلحدون إليه اعجمي وهذا لسان عربي مبين).

وقوله تعالى : (وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو الا ذكر وقرآن مبين). ومثل قوله تعالى : (وانه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين)، والآيات الدالة على أنه تنزيل من رب العالمين كثيرة جداً لا تدع مجالاً للشك في ذلك بل قال تعالى : (ولو تقول علينا بعض الأقاويل لاخذنا منه باليمين، ثم لقطعنا منه الوتين).

فالحضارة الإسلامية وعقيدة التوحيد التي عبّر عنها بالجوهر لا يمكن أن تكون منزلة من غير الله على رسوله وحياً وفي نفس الوقت تكون موادها من الحضارات القديمة. ولو لم يكن في هذه المحاضرة غير هذا الكلام لكان كافياً لاستبعادها وما ذكره الفاروقي هنا من أن الحضارة الإسلامية مقتبسة من الحضارات القديمة أورده أبو الأعلى المودودي رحمه الله في مقدمة كتابه « حضارة الإسلام أسسها ومبادؤها ». كشبهة من شبه المستشرقين وردها وحمل على القائلين بها بكلام جزل لا يحضرني الآن ويمكن رجوعكم اليه.

١٢ ـ تكلم عن السعة كمبدأ أسلوبي وأطلقها، والسعة في نظر الشريعة لا بد وأن تكون في اطار التشريع الإسلامي لأنه من عند الله الرؤوف الرحيم وهي لا تكون في تتبع الرخص والأخذ بالأسهل.

ثم قال (فالسعة هي الايمان بأن اختلاف الأديان وتعددها مرجعه للتاريخ وما يؤثر فيه من تغيير وهوى... الخ).

وهذا الكلام مجمل يحتمل الحق والباطل. فان اراد بأن هذه الأديان يرجع اختلافها إلى اختلاف حاجات الإنسان واستعداده في فترات التاريخ، وأن رسالة كل رسول قبل محمد ﷺ كانت تأتي شفاء لا دواء منه وصالحة لتلك الفترة الزمنية فقط في شريعتها وفروعها، ورسالة الإسلام جاءت رسالة خاتمة صالحة للفترة التاريخية من البعثة النبوية الشريفة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها فهذا حق.

وان أراد أن الديانات في أصلها وتفاصيلها واحدة وأن تعددها يعد طرائق ابتدعها الناس فجعلوا منها يهودية وأخرى نصرانية وثالثة اسلامية

اختلفت اسماؤها وطرائقها بسبب الهوى فهذا خطأ محض والكلام محتمل للمعنيين.

١٣ - في الجانب الفحوي ذكر المحاضر أن شهادة أن لا إله إلا الله وحده تعني أن الله وحده هو الخالق الموجد لكل شيء وانها تعني أنه الفاعل لكل حادث وأنه الغاية من كل شيء فاذا شهد الإنسان بهذه الشهادة عن وعي وايمان بمدلولها أيقن أن كل ما يحيط به من حوادث طبيعية كانت أو اجتماعية ام نفسانية كلها من فعل الله وتحقيقاً لغاية من غاياته.. الخ).

فهذا الكلام فيه اجمال وخلط فان قصد أن الله هو المالك لكل ما في السموات والأرض وأن ما يحدث هو بقضائه وقدره الأزلي فهذا حق. وأما اذا قصد أن كل فعل يتم في الوجود فالله فاعله بهذا الاطلاق وبهذا التعبير فهو خطأ فانه يتم على وجه الأرض في حياتنا المشاهدة قتل النفس البريئة ونهب الأموال المحترمة وفتك الأعراض المحصنة ويتم القيام بالإفساد في الأرض بكل أبعاد هذه الكلمة فهل يمكن نسبة هذه الأفعال والحوادث إلى الله استناداً إلى صدق كلمة (لا إله إلا الله) تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

الحقيقة أن ما يتم في الوجود من خير وشر هو بقضاء الله وقدره والإنسان مكلف مختار وفاعل لأفعاله حقيقة والله مقدر الأفعال وافعال الإنسان وتصرفاته واختياراته تكون سبباً لما يصيبه من خير أو شر (ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك). كما ان الأفعال ليست كلها تتم لتحقيق غاية من غايات الله، فان الشرك والكفر وأنواع المعاصي أفعال واقعة على المرء بقضاء الله وقدره ولكنها لا تتم لتحقيق غاية فان الغاية من الخلق التوحيد والعبادة والطاعة، والشرك والكفر والمعاصي على النقيض.

المحاضرة لا يخلو موضوع من موضوعاتها من ملاحظات وأخطاء تختلف درجاتها، والحديث عنها يطول، ولكنني أحب أن انتقل من ص ٧ متجاوزاً الملاحظات كلها في الصفحات ٨، ٩، ١٠، ١١، ١٢ إلى صفحة ١٣ وهي الأخيرة مع أن كلّ صفحة من ٨ ـ ١٢ فيها اخطاء كثيرة ليس من الضروري الاتيان عليها لأن المقصود بيان مدى صلاحية هذه

المحاضرة للنشر أو لا وما سلف وحده كاف لاستبعادها. ولكن هذه اللقطة الأخيرة لها أهمية كبرى في الحكم على البحث.

ذكر في ص ١٣ تحت بند ٥ ـ التوحيد مبدأ جمالي : (يقول التوحيد بأن لا إله إلا الله يعني بذلك أن لا إله في الطبيعة يخلق، فكل ما في الخلق مخلوق). ثم يقول الفن ان في كل شيء في الخلق لا سيما في الإنسان وتصرفاته واختياراته تكون سبباً لما يصيبه من خير أو شر (ما ما يجب على الشيء أن يكونه وان لم يكنه.

فالفن هو اكتشاف هذا الجوهر واعطاؤه الجسد المرئي المطابق له، فهو ليس مجرد نقل عن الطبيعة بل هو استقراء لها عن جوهرها الماورائي وتصويره أو تمثيل ذلك الجوهر بما يلائمه من ملامح مرئية. هذا الجوهر الماورائي الذي يهدف الفنان إليه الهي في طبيعته الماورائية فهو جدير بالمحبة والاعجاب الشديد كلما اقترب من الالوهية).

يظهر لي من هذا البحث ان المحاضر يرى قدم المادة واستمراريتها وعدم فنائها وأن ما نراه من فناء الأجسام ليس فناء حقيقاً وانما هو تحول في الشكل والصورة مع بقاء المادة. وأن وظيفة الاله وهو ما سماه بالفن أو الفنان هو اكتشاف هذه المادة في جوهرها وإعطائها الجسد المرئي المطابق له.

فإذا افترضنا أن الجوهر هو الروح في الإنسان مثلاً فان هذا الجوهر دائم لا يفنى وانما يتشكل ويتحول من صورة إلى غيرها. وأن وظيفة الاله هي اكتشاف هذا الجوهر وهي الروح وغطاؤها الجسد المرئي ـ الذي هو الجسم المحسوس المشاهد المطابق الملائم للجوهر. فقد يخرج هذا الجوهر مرة في انسان ثم يموت الجسم وتبقى الروح فتخرج في صورة أخرى باكتشاف الفن لهذا الجوهر واعطائه جسداً آخر حيوان او نبات او غيره حسب ما يلائم هذا الجوهر في ظهوره المتجدد.

وهذا لا يتفق مع عقيدة المسلمين التي تؤمن بأن كل من عليها فان، وأن المادة ليست قديمة بل هي حادثة وفانية أيضاً، وأن الله سبحانه يخلق خلقه بكل مقوماته وجوهره وجسده وغايته ومشاهده، وأن أي روح يموت صاحبها لا تخرج في أي صورة من صور المخلوقات أو النباتات أو غيرها،

وانما تخرج في نفس النفس والجسم الذي وجدت فيه لأول مرة في الحياة الآخرة وهي تبقى تنعم أو تعذب في الحياة البرزخية والحياة الأخرى.

وما ذكره المؤلف في هذا يتفق مع ما ذكره في صدر هذا البحث مما سماه جانبي التوحيد ـ الأسلوبي والفحوي : ومصدر مادة التشريع وطريقة صهرها وإخراجها في صورة جديدة مع أنها في الأصل مجموعة موادها من عدة حضارات عملية المشرع عملية الصهر فقط.

وهي لا تتفق إلا مع مبدأ القول بتناسخ الأرواح وهو مبدأ معروف البطلان عند كل العقلاء.

هذه بعض الملاحظات التي تمكنت من ذكرها في هذه العجالة وقد تجاوزت عدة صفحات تحمل جملة من الأخطاء.

ولعلي أكون مخطئاً في فهمي فيما أسلفت وأن يكون الحق في المحاضرة ظاهراً لغيري إذ أنه يسرني أن يسدد كل مسلم في قوله وعمله، والأخ إسماعيل ممن نكن له كل المحبة والأخوة، ونحفظ له كل عمل مخلص موافق للحق، وكلنا خطاؤون وخير الخطائين التوابون، وما كان في هذه الملاحظات من حق وصواب فمن الله، وما كان فيها من خطأ وباطل فمني ومن الشيطان، أستغفر الله وأتوب إليه، والله الموفق والهادي إلى الصواب...

تعليقات على التعليقات اللاحقة

بقلم المحاضر

د. علي عبد الحليم محمود :

١ ـ ينكر الأخ المعلق قول المحاضر بأن للإسلام جوهر وأن هذا الجوهر هو التوحيد، على أساس أن هذا القول تعريف للإسلام وللتوحيد مغاير لما جاء في كتب الكلام.

لسنا بصدد تعريف الإسلام بل بوصفه بالدلالة على ما يقوم فيه مقاماً جوهرياً، وبوصف الحضارة الإسلامية بما يقوم فيها مقاماً جوهرياً، ولم يقل أحد بأن جوهر الشيء هو كل ما فيه، رغم أنه أهم ما فيه.

٢ ـ يدعي الأخ المعلق أن المحاضر عرف التوحيد مرتين : مرة بتعريف مخالف « لما هو معروف في كتب التوحيد وكتب علم الكلام »، ومرة بتعريف جديد غير صحيح، تفضل المعلق بتعريف التوحيد بأنه « الإيمان بالله وحده لا شريك له ».

لقد عرف المحاضر التوحيد بأنه « الشهادة عن إيمان بأن لا إله إلّا الله » (ص ١)، فهل هذا مغاير لتعريف المعلق ؟ أما ما أسماه تعريفاً ثانياً، أي « تصور عام للحقيقة » فذلك وصف للتوحيد، وهل ينكر أن من يتصف بالتوحيد لا بد وأن ينفرد عن غيره بتصوره العام للحقيقة ؟.

٣ ـ ينكر الأخ المعلق قول المحاضر بأن الحضارة الإسلامية انبثقت عن غيرها من الحضارات مدعياً أن الحضارة الإسلامية هي الدين كله، ثم يسترسل في الظن بأن كلام المحاضر يؤدي إلى أن الإسلام نفسه منبثق عن غيره من الأديان.

لم يقل أحد بأن الحضارة هي الدين إلّا المعلق. فالدين نظام ثابت من المبادئ والقيم. أما الحضارة فهي مجموعة عضوية تشمل كل ما يتصل بحياة البشر الذين ينتمون إليها، بما في ذلك ألوان الطعام وطرق تحضيره، وأنواع المساكن والملابس، والآلات وطرق الإنتاج. ليست هذه الدين، إنما الدين هو ما يربطها بعضاً ببعض فيجعل منها وحدة عضوية بعد أن كانت شتاتاً ويصهرها ويهذبها كي تلتئم أجزاؤها معه ومع بعضها البعض. فالدين أشبه بالخريطة والحضارة أشبه بالحجارة والطين والأخشاب التي تؤلف العمارة. فالحضارة الإسلامية، كالعمارة، لم تأت من عدم بل نشأت نشأة من الحضارة العربية التي شملت الحضارات السامية القديمة وحضارات الإغريق والرومان وفارس والهند. ولا شك أن الإسلام صهرها وطبعها بطابعه الخاص.

٤ ـ يدين الأخ المعلق القول بأن « اختلاف الأديان وتعددها مرجعه التاريخ وما يؤثر فيه من تغيير وهوى » فكرة الحادية معروفة. ويؤكد أن « الأديان كلها من عند الله سبحانه ».

هل التثليث والعنصرية والوثنية « من عند الله » ؟ أو ليست الأديان التاريخية ـ أي التي عرفها التاريخ وكما عرفها التاريخ ـ مغايرة لبعضها البعض ولنفسها من زمن إلى زمن و أو ليس فيها الكثير من الكذب على الله والبهتان ؟ فكيف تكون كلها من عند الله كما قال المعلق ؟ لا بد إذاً من التفريق في كل منها بين ما هو صحيح وحق، إلهي المصدر، وبين ما هو إنساني المصدر، مرجعه الهوى والاجتهاد وغيره.

٥ ـ يريد الأخ المعلق أن يحمي الدين الإسلامي من الظن بأنه مغاير لما أنزل الله، ولهذا يعارض مبدأ السعة.

لكن لا خوف على الإسلام، فليطمئن المعلق. ذلك أن الله تعالى وعد بحفظ الذكر من كل سوء. ومن جهة أخرى، الإسلام هو مصدر التوجيه، وهو مصدر مبدأ السعة. فكيف يكون هدفاً للمبدأ ؟ بل حتى وان اتخذ هدفاً، ألا يأمرنا ديننا بأن نثق بأن من يشهد بأن لا إله إلّا الله مسلم مؤمن إلى أن يثبت لنا أنه مشرك أو مشعوذ ؟ بأن لا نبادر باتهام الناس ؟ أو نظن بهم السوء ؟.

٦ ـ يدّعي الأخ المعلق بأن القول بانحدار مبدأي السعة واليسر من التوحيد كمبدأ أخلاقي « يؤدي إلى الشرك » إذ يترتب عليه « أن يكون التوحيد محتملاً لأن يثبت فساده .

الانحدار المذكور تسلسل منطقي لمبدأ معين ثان من مبدأ معين أول، تماماً كما لو قلت بأن مبدأ هندسياً أو رياضياً ينحدر من معطيات هندسية أو رياضية. ولا يعني هذا ان المبدأ الأول المنحدر منه، خاضع للمبدأ الثاني المنحدر. وأنه لمنطق أعوج أن نستنتج من المبدأ « أمرنا الله بالترفع عن الظن لأن بعض الظن أثم » مبدأ أول.

* وعليه فإنا لن نسيء الظن بزيد وعمرو » ـ مبدأ ثانٍ.

ان علينا أن نضع المبدأ الأول موضع الظن فنقول إننا نترفع عن الظن به عملاً بالمبدأ نفسه. فالتوحيد هو المصدر اليقيني المنحدر عنه. وإذا ألزمنا التوحيد بعدم اتهام الناس أو تكذيبهم أو إنكار المبادئ والتعميمات إلى أن يتبين لنا الفساد، فمن السخف أن نستنتج أن التوحيد نفسه « محتملاً » إلى أن يثبت فساده.

٧ ـ يدعي الأخ المعلق بأن تجريد الطبيعة من كل قوة غير الله هو علمنتها « يجعل التوحيد نفسه علمانية ».

في هذا التعليق خطئان. الأول خطأ منطقي من نفس النوع الذي وقع في تعليقه رقم ٦. فالمنطق الصحيح يأبى إخضاع المبدأ المستنتج منه إلى ما يطلبه المبدأ المستنتج. والخطأ الثاني ناتج عن عدم فهم ما قاله

المحاضر. فتجريد الطبيعة من كل قوة غير قوة الله معناه الإيمان بأن الطبيعة لا تعمل عملها بقوى أخرى، كالآلهة، وأرواح الأولياء والسحرة وغيرهم. وهذا هو مفهوم التوحيد فيما يخص الطبيعة. بل تعمل بقوة الله فقط. ولذلك يمكن درسها وتبين سنن الله فيها، السنن الدائمة التي لا تتبدل. فبدون هذا التجريد الذي يقدمه التوحيد، يختلط الأمر على الباحث في الطبيعة إذ لا سبيل له للتمييز بين الآلهة أو القوى المتعددة ذات المقاصد المختلفة، وبالتالي تبين السنن الدائمة. لذلك قلنا إن التوحيد يعلمن الطبيعة بمعنى أنه يجردها عن الآلهة كما تفعل العلمانية تمهيداً للدخول في البحث العلمي. ولا يخفى على أحد أن العلمانية تنكر الله تعالى، بينما التوحيد يؤكده. إلا أن أثرهما العلمي واحد بمعنى أنهما يحققان الشرط الأول الذي لا بد منه إذا أريد الدخول في البحث العلمي.

إن تساوي المسبّبات أو النتائج لا يلزم تساوي الأسبـاب.

٨ ـ ينتقد الأخ المعلق القول « التوحيد هـو عكس الخرافة » بأنه غير صحيح بل طالب بالتقيد بالمصطلحات المعروفة. ولم يأت بدليل يبين صحة ادعائه. وعليه يفيد : ما المانع من القول بأن التوحيد ينفي أن النجوم تضر وتنفع، بأنه يناقض السحر والخرافة، بأنه يدفعنا إلى تركها ؟ ألم يجعل الشيخ محمد بن عبد الوهاب هذا مفتاحاً وعنواناً لدعوته السلفية ؟.

٩ ـ يعترض الأخ المعلق على القول بأن لا محقق لارادة الله سوى الإنسان في عمله الحر الاختياري.

ليس هذا ما قاله المحاضر لكن ما قاله هو : لا محقق للقسم الأخلاقي من ارادة الله سوى الإنسان. فاما أن يكون نسي ما قيل أو تناسى، أو أنه يؤمن بأن غير الإنسان من المخلوقات قادر على العمل الاخلاقي كما عرفناه.

١٠ ـ يعترض الأخ المعلق على استعمال المحاضر لكلمة « ثالوث ».

وهل للمسيحية المشركة أو لأي دين الحادي أن يتملك لغتنا العربية تملكاً فينفرد باستعمال كلماتها ويمنعنا من ذلك ؟.

١١ ـ يعترض الأخ المعلق على القـول بأن سيدنا محمـداً ﷺ

وضع دستوراً » للدولة الإسلامية وأنه أدخل اليهود في حظيرة تلك الدولة. وحجته أن دستور الدولة هو القرآن وهو غير موضوع.

لا خلاف في أن دستور الدولة الإسلامية هو القرآن الكريم وأنه تنزيل من رب السماوات والأرض بلسان عربي مبين. لكنا لسنا بصدد الحديث عن هذا الدستور، بل عن ميثاق المدينة الذي أملاه الرسول عليه الصلاة والسلام فجمع فيه الأوس والخزرج والمهاجرين واليهود، وأولئك جميعاً ضمن نظام سياسي واحد كان هو رئيسه. وقد حصل ذلك مباشرة بعد الهجرة. ولا ينكر أن ميثاق المدينة كان دستوراً معمولاً به للدولة الإسلامية الفتية.

١٢ ـ يتهم الأخ المعلق المحاضرَ بأنه لم ينقض كلام المستشرق جرونباوم وأنه بذلك أقر عدو الإسلام على خطئه.

فسبحان الله ! وهل ينكر أن ليس في الإسلام آلهة تتصارع مع بعضها البعض فتشكل مادة للدراما والفنون التشكيلية ؟ لا ينقض جروبناوم على هذا، انما ينقض على اعتباره الدراما والفنون التشكيلية ـ المجالات الوحيدة للتعبير الجمالي. وهذا ما فعله المحاضر بالذات.

١٣ ـ يعترض الأخ المعلق على التعبير « في الزخرفة الإسلامية » وينصح باستبداله بفن الزخرفة عند المسلمين ».

وهذا هو عينه ما يقوله أعداء الحضارة الإسلامية والإسلام. إذ هم يريدون الفصل ما بين الحضارة ومظاهرها من جهة وبين الإسلام من جهة أخرى. فإذا انقطعت الصلة بينهما سهل عليهم عندئذ تدمير الاثنين بحجة أن الإسلام دين لم ينتج حضارة وأن الحضارة الإسلامية ما هي إلا مخلفات الحضارات السابقة واقتراضات من الحضارات المعاصرة لها.

١٤ ـ اذا وقعت أخطاء لغوية أو نحوية في البحث فالاعتذار عنها وتصحيحها ضروريان.

الأستاذ / عبد الفتاح أبو غدة :

١ ـ يعترض الأخ المعلق على تعبير « عالم الله » و « طبقة الله » على أساس ان الله لا يوصف إلا بما وصف به نفسه.

أ ـ حقاً، لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه. لكن المحاضر بيّن أنه لا يعني بهذه الكلمات وصفاً لله، بل انه استعملها استعمالاً منطقياً فحسب، لا وصفياً. فهل لا يجوز التفريق بين الاستعمالين ؟ وهل كان استعمال لفظي استعمال وصفي ؟.

ب ـ كيف نعبّر عن فكرة فصل الله عن خلقه، فكرة انهما يشكلان حقيقتين منفصلتين ؟ وذلك لندفع قول معظم الأديان الأخرى القائلة بغير ذلك بالوان متعددة ؟ لنميز الإسلام عنها ؟ ان الاعتراض الذي يعترضه المعلقان على كلمة « عالم » يمكن أن يعترض به على أية كلمة أخرى. حتى الكلمات التي وصف الله بها نفسه يمكن أن يعترض عليها بنفس الاعتراض، وأن تحمل معنى تشبيهياً يتنزه الله تعالى عنه. وذلك بالذات ما فعله المشبهة. فاذا افترضنا وقوع التشبيه. في كلمة « عالم » رغم توضيح المستعمل وتنبيهه لمستمعيه بأن استعماله منطقي لا وصفي، أنّى لبشر أن يتجنب التشبيه في أية كلمة أخرى تطلق على الله تعالى، وان كانت مما وصف به نفسه ؟.

٢ ـ يعترض الأخ المعلق على القول بأنه لا يجزي الإنسان على معروف أو منكر أكره عليه اكراهاً. ويقول بالعكس محتجاً بأن المعروف المكره، كالصدقة مثلاً، يحرز بها أجراً لانها معروف في نظر الشرع وفي الواقع، وان كان مشوباً في صدوره وناقصاً في أجره ومثوبته.

لا ينكر أن للمعروف حسنة أو قيمة قائمة فيه، وكذلك للسيئة. لكن اذا كان المعروف مكرهاً، كانت قيمته نفعية فقط. فلا ينكر أن المال المتصدق به ينفع المتصدق عليه. وشتان ما بين القيمة النفعية هذه والقيمة الاخلاقية. الأولى مادية والثانية روحية. ولو كان للقيمة المحققة عن طريق الاكراه صبغة أخلاقية لاستحسن اكراه الناس على فعل الخير، وعلى ادخالهم في الإسلام لأنه أكبر الخير وأعظمه. ولو كان ذلك صحيحاً لحثنا الله ـ بدل أن يمنعنا ـ على حمل الناس على الدخول في دينه. ولكن صدق الله حيث قال : « لا إكراه في الدين ». وذلك لأن الاكراه يفسد الجانب لأخلاقي مع ابقائه على الجانب النفعي.

٣ ـ يراد بكلمة الافندي. الفرد المتفرنج.

٤ ، ٥ ـ بدون تعليـق.

٦ ـ يقول الأخ المعلق : إن المحاضر جعل « اساءة الاعلام تفسيراً للتناقض، وهو تفسير غير صحيح ».

لم يجعل المحاضر اساءة الاعلام تفسيراً للتناقض. ذلك تحميل المعلق. انما نفى عن الله أموراً عديدة منها التناقش، ومنها أيضاً اساءة الاعلام، أي اعلام الانسان بغير ما هو واقع.

٧ ـ يدعي الأخ المعلق بأن « الأمانة هي تحقيق ارادة الله الأخلاقية » عبارة كهنوتية.

حاشاها أن تكون كهنوتية ولم يقلها أي كاهن. فالأمانة تعبير قرآني، والارادة والأخلاق مشتقة من كلمات قرآنية. وللجملة معنى لطيف فات المعلق يتميز فيه الجانب الأخلاقي في ارادة الله ـ كالتقوى والإحسان والقسط والدعوة والصدقة والنية الحسنة ـ عن الجانب الكوني كسنن الطبيعة وقوانين المادة. وتعبر الجملة عن حقيقة قرآنية هي أن الأمانة التي حملها الإنسان لم تقو الجبال والسماوات والأرض على أن يحملنها لأنها لا حرية لها كما للإنسان. وبالتالي فالأمانة هي الجانب الأخلاقي المتطلب حرية الإنسان لتحقيقه.

٨ ـ الفرقعة بمعنى التفجير، أو ضرب الشيء بشيء آخر حتى يظهر صوته. والقول بأن للإنسان أن يفرقع الشمس والقمر مبالغة يقصد بها تأكيد تسخير الله للشمس والقمر وكل ما في الأرض للإنسان.

٩ ـ جبل أوليمبوس هو مسكن آلهة الإغريق، كما أن فالهالا مسكن آلهة الالمان وأهل شمال أوروبا. وفي كلا الحالتين، دمرت مساكن الآلهة بالنار وعلى رؤوس الآلهة أصحابها، وذلك لكيدهم وتآمرهم ضد بعضهم البعض.

الاشارة في رأيي يجب أن تحفز القارىء على المطالعة، لا على المطالبة بالتفسير.

١٠ ، ١١ ـ مشكلة الأخ المعلق ليست استهجان الكلمات والتعبيرات بل استهجان المعاني. فهو لم يألفها.

١٢ ـ يقول الأخ المعلق : إن الضمير في كلمة « طبيعته » في الجملة التالية : « لذلك أسلب كل ما صوره أي أبعده عن طبيعته »، يعود إلى الله. ويعترض أن اضافة « طبيعة » إلى الله غير سائغة.

كلام الأخ المعلق في رأيي يدل على عدم ادراك ما قرأ. يعود الضمير في « أبعده » و « طبيعته » إلى « ما صوره » أي المخلوق أو الشيء المصور، لا إلى الله تعالى. ان فاعل « أسلب » هو الفنان. والجملة تقول أن الفنان الإسلامي يؤسلب كل شيء يصوره، فيبعد منظره عن الدلالة على طبيعته.

الأستـاذ محمد الغزالي :

١ ـ يعترض الأخ المعلق على وصف كلمة التوحيد بسلبية المظهر.

لا ينكر أن في الكلمة نفي وأن هذا النفي ظاهر. فالمراد من ذكر « سلبية المظهر » الاشارة إلى هذا الظاهر. أما التأكيد الايجابي فيها فهو ليس فقط غير منكر، انما هو موضوع الفقرة كلها.

٢ ـ يعترض الأخ المعلق على كلمة « عالم الله » ظناً منه بأنها تتسم بالتشبيه رغم كل ما قيل احتياطاً لدفع وتحاشي هذا الظن.

الاصرار على هذا يزيل موانع الظن المماثل عند الكلام عن الله تعالى مهما كان. وكأنه يقول مغالياً : ما من احتياط يمكنه أن يتحاشى الظن بالتشبيه. فالكلام عن الله، وان كان من عند الله، لا بد أن يكون معناه مرتبطاً بفهم الإنسان. وهذا الارتباط يفتح باب التشبيه على مصراعيه. ولا يغلق هذا الباب الا بحيطة وتحذير المتكلم.

٣ ـ حكم الأخ المعلق على الجملة التالية بالقلق : « لا صلة بين الخالق والمخلوق الا بقوة العقل ».

قد تكون قلقة لو كانت لوحدها. لكنها وقعت في فقرة مفسرة لها.

٤ إلى ـ ٨ يقول الأخ المعلق إن في حديث المحاضر غموض، وان هذا الغموض قد يثير في ذهن المستمع أو القارىء أوهاماً، وان بعض العبارات في الحديث عن الله مرفوضة لما تثيره من ظن بالتشبيه.

والجواب هو أن في كل كلام محكم ومتشابه، وأن الكلام يرمى بالغموض عندما تكون الفكرة مستهجنة فيحمل مسؤوليتها، فالمخرج في تصريحات الكاتب عما كتب أو المحاضر عما قال. فاذا جاءت « الأوهام » مخالفة لصريح ما قيل أو كتب، كانت مردودة. واذا جاءت في غياب التصريح كانت استهجاناً إلى بقية ما قيل أو كتب ليكشف غمته.

الشيـخ منـاع القطـان :

١ ـ يعترض الأخ المعلق على القول بأن الشهادة « لا إله إلا الله » سلبية في مظهرها ويؤكد ان فيها سلب وايجاب.

لم يقل المحاضر أن الشهادة كلها سلب، أو أن ليس فيها ايجاب، بل على العكس، قال ان الشهادة التي تبدو وكأنها سلبية تحمل أعظم وأغنى المعاني الايجابية، ولا ينكر ان فيها سلب. ولا يجوز فصلها عما تبعها من كلام عن المعاني الايجابية الكامنة فيها.

٢ ـ يدعي الأخ المعلق أن التوحيد ليس تصوراً عاماً للحقيقة بل انه يعطي تصوراً عاماً للحقيقة، مؤكداً أن الفرق بين التعبيرين عظيم.

لا بأس من القول بأن التوحيد يعطي تصوراً. لكن الفرق بين هذا وكلام المحاضر ليس عظيماً، بل هو غير موجود. ولو تأمل المعلق محتوى « تصور عام للحقيقة » لأدرك أن ما من شيء يجده في التوحيد إلا وجاز إدخاله في « التصور العام للحقيقة ». ذلك أن الحق أو الحقيقة يمسّان كل ما في التوحيد ولا يخرج عنهما شيء. ذلك أنه ان خرج عن مسهما شيء كان غير حق أو غير حقيقة، وهذا ما لا يوجد في التوحيد.

٣ ـ يعترض الأخ المعلق على القول بأن « اختلاف الأديان وتعددها مرجعه التاريخ وما يؤثر فيه من تغيير وهوى.. » يوهم بالتساوي بين الأديان كلها « ويساعد على « إذابة الإسلام في المفهوم الديني العام ».

أ ـ وهل ينكر أن الأديان في أصلها كلها واحدة ؟ وأن ما تبدّل منها فأصبح مغايراً لدين الله هو ما جاء به التاريخ بمؤثراته المتنوعة ؟ هذا هو

المبدأ الذي يفرق به المسلم بين الدين القيم، دين الله الحق، والأديان بأشكالها المختلفة.

ب ــ أما مبدأ حسن الظن بالظاهر إلى أن يثبت خطؤه، فهو ما حدا بالنبي ﷺ بتقبل مسيحيي نجران ضمن نظامه السياسي وجعل خلفاءه الراشدين رضي الله عنهم يعتبرون مسيحيي الشام ومصر أهل ذمة. ولو أثبت المسيحيون شركهم بالجهر بالتثليث وتجسيد الله في المسيح لحاربهم الرسول عليه الصلاة والسلام وخلفاؤه الراشدون.

جـ ــ هذا المذهب لا يذوب الإسلام في المفهوم الديني العام. بل على العكس هو ينقل المعركة إلى ديارهم فيحاسبهم على تطور دينهم وذلك بأنه يدعو إلى فرز ما أضيف على دينهم وحرف فيه عن الدين الأصلي المنزل. لكن هذا يوجب الاعتراف بأن في دينهم أصلاً صحيحاً أضيف اليه وحرّف.

٤ ــ لا غرابة في وصف « الإرادة الشرعية » أي « وظائف الدين وتكاليفه التي ائتمن عليها العباد » بالأخلاقية. فهي كلها أخلاقية ولا يجوز نفي الأخلاقية عن أي جزء منها. أما تعريف الأخلاق بالتجمل فقط مما يخرجها عن الالتزام بالأوامر والنواهي الالهية. فهذا لا ينطبق على الكلمة « أخلاقية » بحد ذاتها، وان صح عن بعض النظريات الأخلاقية.

٥ ــ في كلام الأخ المعلق فيما أرى تناقض. فهو يعترف أن الإنسان أكمل من الملائكة وأرفع منهم درجة إذا أطاع الله، ويعود فيقول أن الملائكة أعلى لأن جنسهم أفضل من جنس البشر.

ان قدرة الإنسان على العمل الاخلاقي ــ أي طاعة الله اختياراً ــ تميزه عن الملائكة تمييزاً جوهرياً. الجنس أعلى من العمل وأعم. فاذا كان الجنس أفضل بطل مفعول العمل أو علا الجنس عليه. وهذا ما تقوله العنصرية وهي التي تعتمد الجنس مبدأ أولياً.

د. عبد الله الزايد :

١ ــ ظاهرة السلبية في الشهادة.

علق عليها بما فيه الكفاية. إلا أن الأخ المعلق هذا ينكر الظاهرة ثم يقول بأن الشهادة مشتملة على النفي والاثبات.

٢ ، ٣ ، ٤ ــ التعليقات هذه مقبولة، ولكنها ذوقية. وقد قيل ما فيه الكفاية عن مصطلح « عالم الله ».

٥ ــ يعترض الأخ المعلق على وصف الله بالمحرّك. ولكن، هل من غضاضة في وصف الله تعالى بكونه مصدر الحركة في الكون ؟ هل من وجود دون حركة ؟ أو ليس الله تعالى هو المحرّك لكل شيء ؟.

ويقول الأخ المعلق بأن البشر فطروا على معرفة الله وأنه هو الخالق، لكن معرفتهم لأوامر الله وارادته لا تكون إلا بالوحي. أليس لله سنن في الخلق، وفي أنفس البشر، وفي الآفاق، يعرفها الانسان بالنظر والتأمل والعقل ؟ أليست هذه السنن من أوامر الله وارادته ؟.

أما باقي التعليقات في هذا البند فهي مقبولة، وان كانت ذوقية.

٦ ــ ملاحظة ذوقيــة.

٧ ــ يستحسن الأخ المعلق عدم وصف التوحيد بأنه مبدأ جمالي، ويوصي بالاكتفاء بأن الإسلام لا ينكر الابداع الفني.

المهم هو أن يتحكم التوحيد بالفن فيضبطه ويوجهه إلى الخير والحق، ويمنعه من التردي في الالحاد والرذيلة والمنكر، ويقطع عليه سبيل تأليه الإنسان، وهي مصيبة الانسانية الكبرى في هذا الميدان.

د. عبد الله محمد العجلان :

الملاحظات العامة :

الجواب عليها هو أن الأسلوب والمصطلحات المستعملة غريبة فقط فيما يبدو لمن لم يألف أعمال الفكر الحديث، وفي رأيي، فان من واجب المسلم أنّى كان أن يعرّف نفسه بما يجري في عالم الفكر في هذا العصر.

الملاحظات الخاصة :

١ ـ يعترض الأخ المعلق على قول المحاضر أن جوهر الحضارة الإسلامية هو التوحيد فيقول إن التوحيد لا يستقل عن الشريعة وان فعل فلا يصلح.

ليس الموضوع صلاح التوحيد ان استقل عن الشريعة، بل أولويته عليها. وهذه الأولوية لا تنكر. وقد اعترف الأخ المعلق بأنه يمكن أن يقوم التوحيد دون الشريعة. فهذا يكفي لاعتبار التوحيد أكثر أولية من الشريعة. وهذه الحقيقة سهلة الادراك عند السؤال : هل يمكن لشريعة الإسلام أن تقوم، بل حتى وأن تنفع، اذا لم يقم التوحيد قبلها ؟ يقابل هذه الحقيقة ويسندها قوله تعالى : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ».

لم يستعمل المحاضر كلمة الجوهر بمعنى الحجر الكريم أو الشيء الثمين. فالكلام فيه لا محل له.

٢ ـ ينكر الأخ المعلق أن أشمل مبدأ في الإسلام هو التوحيد. فهو يستثني من شمول التوحيد العبادات والمعاملات والقضاء. ولعله جانب

الصواب في الشمول المنطقي. وهذا بيّن في كلامه عن التوحيد كجوهر. يقوم الشمول على علاقة ضرورية بين الشامل والمشمول لا يقوم المشمول إلا إذا قام الشامل، وعليه نسأل الأخ المعلق وهو الذي أتى بميزان الكفاية والنفع والصلاح، ما فائدة المعاملات والقضاء مع الكفر ؟ وهل تقوم في الإسلام إلا بقيام التوحيد ؟ وهل نحن مكلفون بالعبادات، من صلاة وصوم وزكاة وحج إذا كان هنالك أكثر من إله ؟ أو إذا كان الاله أحداً من الناس ؟.

وينكر الأخ المعلق أن مفكرينا في القديم كتبوا آراءهم في جميع الميادين تحت عنوان التوحيد. والحقيقة هي أنهم ساووا بين التوحيد والكلام، وأنهم أطلقوا اسم « الكلام » على علم يلم بالمبادىء الأولى لجميع الأشياء بما فيها أصول الدين والعقيدة والمنطق والماهية والمعاني والاخلاق والسياسة. (انظر مقدمة كتاب « كشاف اصطلاحات الفنون » للتهانوي، ففيها الكفاية. وان شئت المزيد فانظر تحت مادة التوحيد في موسوعة بروكلمان عن تاريخ الآداب العربية).

٣ ــ نعم تضمنت كلمة الشهادة السلب والايجاب. وقد قيل في هذا الكفاية.

٤ ــ يعترض الأخ المعلق على القول بأن التوحيد تصور عام للحقيقة كلها ولم يأت بدليل.

أنّى له أن يأتي بشيء واحد لا يمت اليه التوحيد بصلة ما. فالتوحيد هو التأكيد بأن الله خالق ومقدر وعالم لكل شيء سبحانه.

٥ ــ اعترض الأخ المعلق على اصطلاح « عالم الله » لكنه لم يأت بجديد. وقد قيل في هذا الموضوع الكفاية.

٦ ــ يعترض الأخ المعلق أنه « لا يقال بالانفصال اذا لم يحصل اتصال من قبل حتى يكون الانفصال ».

اذا وصف النار والماء بأنهما منفصلتان، لا صلة تربط بينهما قط، فهل هذا يفترض أنهما كانتا في يوم سابق متصلتين، أو شيئاً واحداً ؟ وبالطبع فأنا لا أتفق والأخ المعلق في منطلقه هذا.

٧ ـ اعتراضاً على القول بأن لا صلة بين الخالق والإنسان إلا بقوة العقل، يقول الأخ المعلق بأن هنالك صلة قائمة بينهما هي صلة الخلق.

ليس الخلق موضوعاً للحديث هنا. انما الموضوع هو تأكيد استحالة الصلة المكونة أو الوجودية، أي الصلة التي تلزم أن يصبح المتصل به في وجه من الوجوه، فتكون النتيجة تأليه الإنسان أو أنسنة الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

٨ ـ اعترض الأخ المعلق على تسمية سنن الله بإرادة الله محتجاً بأن السنن أعم من الارادة.

والعكس في رأيي هو الصحيح. فما من سنة في الكون إلا أرادها الخالق. وقال ان الارادة الإلهية نافذة، أراد الخلق أم أبوا.

فات الأخ المعلق أن المقصود هو السؤال : لماذا وجد الخلق ؟ طالما أن الخلق ليس أزلياً فلا بد أنه خلق لغاية أو استمر لغاية خارجة عنه. والخارج عن الخلق هو الله وحده.فكل ما عداه مخلوق. فغاية الخلق هي تحقيق هذه الغاية. ولا غاية إلا بإرادة الله.

١٠ ـ كلام الأخ المعلق هنا مرادف لما قاله المحاضر. أما قوله بعدم صحة القول بالتفاضل بين القيم الاخلاقية والنفعية فهو لم يدعمه بدليل.

١١ ـ يقول الأخ المعلق : إن المحاضر قال : إن التوحيد ليس من عند الله، وهذا ليس صحيحاً، بل هو عكس ما قاله المحاضر وهو أن التوحيد من عند الله، وأن الحضارة الإسلامية ليست من عند الله. ذلك أن الحضارة تطبيق للجوهر الذي هو التوحيد. ومن جهة أخرى، تشمل الحضارة أشياء كثيرة ووسائل وآلات وطرق عمل (تكنولوجيا) لا يجوز نسبتها إلى الله تعالى وما أبعد كل هذا عن قول المستشرقين. فالمعلق لا يعرفهم وان قرأ فهو ما ترجم وهو جد قليل.

ولم يقل المحاضر إن الله سبحانه « أخذ موادها من الحضارات القديمة وصهرها ». انما هو المسلم الموحد الذي أخرج الحضارة في ظل ما أنزل الله، وتحقيقاً لأمره وتوجيهه، واتباعاً لاسوة رسوله الكريم ﷺ. فكان التوحيد المبدأ الأول والمعيار الأخير الذي أقيمت الحضارة الإسلامية عليه.

ولم يقل المحاضر بأن الشريعة ليست من عند الله. فهذا استنتاج غير دقيق من الأخ المعلق. اذ ليست الشريعة هي الحضارة، انما الشريعة موجهة المسلم في بناء حضارته.

إن ما تعنيه كلمة الحضارة شيء ينمو ويقوى ويضعف ويتقدم ويتأخر. وهو مرتبط بالتاريخ وعجلته. تقوى الحضارة على هضم أشياء غريبة عنها، كما هضمت الحضارة الإسلامية المروءة والثقافة العربية، والعلوم الاغريقية، والفارسيية والهندية، وطبعتها جميعاً بطابعها الإسلامي.

الجوهر لا يضاف اليه شيء. هو المبدأ الذي بموجبه تجري الاضافة ويجري الصهر والتخريج الجديد. ولو تغير الجوهر لتغيرت الحضارة بالضرورة.

ان الآيات القرآنية الكريمة التي ذكرها المعلق كلها تتحدث عن الوحي المنزل، لا عن الحضارة، موضوع البحث.

لم يقل المحاضر « إن الحضارة الإسلامية مقتبسة من الحضارات القديمة »، إنما قال إن موادها مقتبسة من الحضارة العربية والحضارات القديمة الأخرى.

١٢ ـ ليس في تعليق الأخ المعلق ما يحتاج إلى جواب. اذ لا تكون ممارسة السعة على حساب الشريعة الإسلامية. وان خالفت الشريعة فهي غير مقبولة.

١٣ ـ اتهم الأخ المعلق المحاضر بأنه قال ان الديانات كلها واحدة أصلاً وتفصيلاً.

هذه التهمة غير صحيحة. وهي تتنافى مع ما قاله المحاضر. اذ قال إن أصل الديانات واحد، ومظاهرها في التاريخ شتى. فالأصل من عند الله، والمظاهر من عند البشر. وليس من المسؤولية قط أن يحمل المعلق كلام المحاضر محمل « وثالثة إسلامية ».

كذلك ، لم يقل المحاضر بأن أفعال العباد من حيث أدائها من صنع الله تعالى، ولا أن مسؤوليتها تقع على الله بدل أن تقع على فاعليها، انما المراد هو أن كل ما يحدث في الدنيا يحدث بعلم الله وقضائه وقدره وترتيبه،

فلا يفوته منها شيء. وهذا تفريق لناحيتين أو ظاهرتين في فعل الإنسان، ناحية الاداء وكسب الثواب والعقاب. وهي من فعل الإنسان. ثم ناحية الوجود والكيان والحدوث المادي، أي الخلق والتقدير، فهي من صنع الله تعالى.

١٥ ـ واعترض الأخ المعلق على قول المحاضر بأن التوحيد مبدأ جمالي.

إلا أنه، في اعتراضه هذا فيما يبدو قد خلط بين ما ذكره المحاضر عن الفن الإسلامي لينفيه، وما ذكره ليؤكده ويثبته. فالفن الذي يرى في الأشياء جوهراً ما ورائياً يحاول تصويره وابرازه هو الفن الغربي لا الفن الإسلامي. ولهذا السبب بالذات، قال المحاضر إن الفن الغربي يجر إلى الالحاد أو ينطوي عليه. ولهذا أيضاً ابتعد الفن الإسلامي عن التشكيل والتصوير والدراما. إلا أن المعلق فيما يبدو لم يتبين ما قيل عن الفن أنه له أو عليه.

وأخيـــراً :

إذا استثنينا تعليقات الدكتور جعفر شيخ ادريس التي جاءت في مادة الموضوع، فان فحوى التعليقات الأخرى تتعلق في جوهرها باللغويات. حتى ما كان منها مناف لما قاله المحاضر أو بعيداً عن ذلك نصاً أو مقصداً، وذلك فيما أرى مرده إلى عدم اتضاح ما قاله المحاضر في الغالب عند الأخوة المعلقين.

فما القول في هذه المصاعب اللغوية.

انها تبدو لغوية، ولكن ذلك في مظهرها فقط. فما معنى ان يقرأ عالم أو مثقف من علمائنا ومثقفينا بحثاً باللغة العربية فتأتي جميع الملاحظات على البحث، اما اعتراضات على اللغة، أو اعتراضات سببتها لغة البحث ؟.

الجواب هو أن هذه المصاعب، ان دلت على شيء فهي تدل على عدم ممارستنا في العصور المتأخرة للتفكر بالعمق ـ الواجب ـ أمور ديننا وحضارتنا في ضوء تحديات العصر ومشكلاته ومعطياته ـ فيما أرى ـ حديث في مخاطبة بعضنا البعض في مواضيع الفكر الإسلامي. فكم مجلة في العالم الإسلامي كله تعالج الفكر الإسلامي على مستوى علمي مناسب ؟ وكم قراؤها ؟ لعل هذا هو النقص المعيب.

لا أكن للاخوة الذين تفضلوا بالتعليق على هذه المحاضرة إلا الاحترام والتقدير والاخوة والمحبة. فهم اكرموني بانتقاداتهم، وزادوا في علمي وحكمتي باقتراحاتهم وتوصياتهم.. جزاهم الله عني خير الجزاء.. ووفقهم واياي إلى طاعته ورفع كلمته، انه سميع مجيب..

أعز الله الإسلام ديناً، وهيأ لأمته من أمرها رشداً، وأيدها بنصره وفتحه..

د. اسماعيل راجي الفاروقي
أستاذ الإسلاميات وتاريخ الأديان



القرآن والعلم الحديث

للدكتور موريس بوكاي



بسم الله الرحمن الرحيم

في التاسع من نوفمبر عام ١٩٧٦م قدمت بـ « أكاديمية الطب » عرضاً غير اعتيادي تحت عنوان : « معطيات الفسيولوجية والامبريولوجية (علم الأجنة) في القرآن »، والسبب في تقديمي لهذا العرض وهذه الدراسة هو احتواء القرآن على مفاهيم تتعلق بالفسيولوجيا وبالتناسل. والسبب في ذلك أيضاً أن المعارف الحالية تجعل من المستحيل شرح الكيفية التي استطاع نص القرآن في عصر نزوله أن يحتوي على مفاهيم لم يحظ البشر باكتشافها سوى في العصور الحديثة.

ولأول مرة حدثت أعضاء جمعية علمية طبية عن مواضيع مألوفة لديهم، وكان في إمكاني أن ألفت انتباه أهل الاختصاص في فروع علمية أخرى إلى بيانات لها طابع علمي من نسق آخر موجودة في القرآن. إن علماء تاريخ الأرض وعلماء طبقاتها (الجيولوجيين) والمختصين في علم الحيوان والنبات هم ـ فعلاً ـ مندهشون جداً مثل اندهاش الأطباء لوجود أفكار في القرآن تتعلق بظواهر طبيعية تثير الدهشة. والسبب في ذلك أن المعرفة العميقة بتاريخ العلم تجعلنا نحكم على أنها تجد للتفسير البشري.

هل يوجد كتاب قبل العصر الحديث يحتوي على أحكام مجانسة لأحكام القرآن ومتقدمة على مستوى العلم مثل كتاب القرآن حتى يقارن به ؟

هذه المفاهيم هي معارف حديثة. ولم أجد في شروح تراجم القرآن باللغات الافرنجية سوى إشارات غامضة هنا وهنا بالنسبة إلى هذه الأحداث. ومن جهة أخرى، ان تفاسير القرآن المؤلفة باللغة العربية لم تقدم دراسة أكثر كما لجميع وجهات القرآن التي تلفت أنظار رجال العلم الحديث والاختصاصيين منهم. وبناء على ما تقدم يبدو لي أن فكرة الدراسة الشاملة للمسألة ضرورية.

وأكثر من ذلك فقد بدت بي الرغبة في القيام بفحص مقارن بين معطيات القرآن وبين معطيات من هذا النوع نفسه مأخوذة في التوراة والانجيل. وهكذا فقد تكوَّن لديَّ مشروع المقابلة والمقارنة بين المعارف الحديثة وبين بعض الفقرات من الكتب المقدسة للأديان الثلاثة الموحدة.

وقد نتج عن هذه المقابلة والمقارنة تأليف كتاب بعنوان : « القرآن الكريم والتوراة والانجيل والعلم »، وقد تم نشر الطبعة الأولى لهذا الكتاب في شهر مايو سنة ١٩٧٦م.

هناك طبعات عديدة لترجمة هذا الكتاب باللغات الانجليزية واليوغسلافية والاندونيسية، وهناك ترجمات تحت الطبع باللغات التركية والأوروبية والفارسية وعدة لغات أخرى. وبالنسبة للترجمة العربية فإني أود أن أشير هنا أن دار المعارف بمصر هي الناشر الوحيد الذي سمحت له بإصدار ترجمة للكتاب، وهذه الترجمة هي في سبيل الاعداد، أما الترجمة التي صدرت في لبنان مؤخراً فليس لدي علم عنها، ولا أوافق مطلقاً عليها لأن فيهافقرات لا تؤدي نفس المعنى، وترجمة سيئة للغاية.

ولعل أحسن شيء يصور هذه العلاقات الوطيدة بين الإسلام وبين العلم هو حديث الرسول ﷺ : « اطلب العلم ولو في الصين »، فهذا الحديث عبارة عن دعوة ملحة للإنسان من أجل تنمية معارفه وإثرائها.

إذن فكيف نستغرب اعتبار الدين الإسلامي والعلم دوماً شقيقين توأمين ؟ وفي أيامنا هذه قد حاز العلم تقدماً كبيراً قد جعل الناس يعتبرون العلم شريكاً للإسلام في المدلول، وليس هذا فحسب بل أصبحوا يستعملون بعض معطيات العلم لفهم النص القرآني. وبالإضافة إلى ذلك ففي القرن

العشرين، حيث يرى البعض أن العلم الحديث قد أعطى الضربة القاضية للمعتقدات الدينية، تبرز الاكتشافات العلمية الحديثة الطابع الغيبي لبعض مظاهر الوحي الإسلامي بعد فحصه فحصاً موضوعياً. وإذا نحن فهمنا بالحقيقة على المستوى العام تبدو لنا المعرفة العلمية، مهما قيل فيها مساعدة جداً لتوجيه الفكر في بحثه عن وجود الله. وإذا نحن تساءلنا بدون تعصب وبدون أفكار مسبقة عن العلوم الميتافيزيقية الناجمة عن بعض المعارف العصرية، مثل علم المتناهي في الصغر ومشكلة الحياة، فما هو الصواب الذي نجده في توجيه التفكير في هذا المنحى عن ذلك ؟ وحينما نأخذ بعين الاعتبار التنظيم العجيب الذي يدير نشأة الحياة وصونها.. أليس اذن أن المصادفة تبدو أنها تلعب دوراً أقل احتمالاً كلما تقدمت معارفنا ؟ أليست بعض الأفكار المؤيدة للمصادفة تبدو أقل قبولاً : مثل أفكار العالم الفرنسي الحائز على « جائزة نوبل » في الطب، والذي حاول أن يجعل إمكان خلق المادة الحيوية نفسها بوساطة مصادفة موافقة انطلاقاً من عناصر كيماوية بسيطة، وتحت مؤثرات خارجية، وبمثل هذا تنشأ كائنات حية لتتطور فيما بعد وتصل إلى المركب العجيب الذي هو الإنسان. ويبدو لي أن التقدم العلمي المختص بالتركيب المعقد العجيب للمخلوقات السامية هو حجة على فرضية مضادة تقول : إن هناك نظاماً محكماً خارقاً للعادة يدير ظاهرة الحياة ويرعاها.

وفي آيات كثيرة يحثنا القرآن بعبارات سهلة على الفهم وشاملة لهذا الموضوع، ويحتوي القرآن أيضاً على معطيات دقيقة جداً لها علاقة وثيقة بالنتائج التي توصل إليها العلم الحديث، وهذه المعطيات هي التي تسترعي انتباه العلماء في عصرنا هذا بشدة.

وفي حقيقة الأمر.. ان الناس قد وجدوا أنفسهم عاجزين عن دراستها أثناء عدة قرون بسبب وجود نقص في التطور العلمي وهذا الذي جعل كثيراً من الآيات القرآنية المتطرقة إلى مواضيع تتعلق بالظواهر الطبيعية غير مفهومة المدلول سوى في عصرنا هذا فقط. وإذا قرأنا كتب التفسير ـ على الرغم من تبحر مؤلفيها في العلم ـ نجد شروح أصحابها تبرهن على فهم وإدراك لمعاني هذه الآيات. بل أقول : إن تفرع العلم في القرن العشرين إلى ميادين

مختلفة، بعضها مفصول عن بعض، وبعضها منعزل عن بعض، ثم نموه السريع لا يسمحان لكل عالم، غير اختصاصي، أن يفهم كل ما يقرؤه في القرآن بالنسبة إلى مفاهيم هذه المواضيع دون أن يقوم بأبحاث خاصة. ويعني هذا أنه من أجل فهم جميع هذه الآيات القرآنية يجب أن نملك في عصرنا معارف موسوعية بحق.. أعني بذلك معارف تشمل عدة فنون وفروع علمية.

والتزم هنا بتحديد معنى لفظة « علم » التي أقصد بها المعارف التي قد تم البرهان عليها والتي لا يمكن الرجوع فيها أو في جوهرها على الأقل، وليس العلم هو النظريات التي قد تصلح في عصر لشرح ظاهرة أو مجموعة من الظواهر، ثم لا تلبث أن تهمل لظهور شروح أخرى أكثر احتمالاً بسبب التقدم العلمي.

وبناء على هذا فإنني لا أقوم سوى بإجراء مقارنات ومقابلات بين البيانات القرآنية وبين المكتسبات العلمية التي لا يمكن الرجوع فيها في المستقبل. ثم إنني لا أنسى أن أشير إلى الشأن إذا وجدت هناك اكتشافات ووقائع علمية لم يتم البت فيها أو اقرارها بعد.

ويوجد في القرآن ـ أيضاً ـ النادر من البيانات التي لا يزال العلم الحديث جاهلاً إياها ولم يقدم على إقرارها أو البت فيها. ومهما كان من أمر فإني لا أنسى أن أشير إلى أن كل شيء يدفع بعلماء الاختصاص في هذا العصر إلى غاية الاحتمال، ان القرآن يؤكد مثلاً أن الماء هو الأصل في الحياة، كما يؤكد وجود أراضٍ مماثلة لأرضنا في الكون.

فهذه الاعتبارات العلمية لا يجوز لها أن تنسينا كون القرآن باقياً كتاباً دينياً في غاية السمو، ونحن مهما دققنا النظر فلا نلغي له أي هدف علمي مادي، والدعوات الموجهة فيه للإنسان والتي تحثه على التأمل في صنيع الله وفي الظواهر الطبيعية التي في متناول عقله.. كلها تهدف إلى التأكيد بالأمثلة على القدرة الالهية. فاذا وجدنا في هذه التبصرات والتأملات اشارات لوقائع علمية فذلك هبة من الله، تلك الهبة التي تبرز قيمتها في عصر تحاول فيه المادية الزنديقية ذات قاعدة علمية أن تفرض نفسها على حساب الايمان

بالله. بيد أن القرآن في غنى عن خصوصيات من هذا النوع ليفرض نفسه. وذلك أن البيانات القرآنية تعبير عن ميزة خاصة بالقرآن فقط. اذ هي موجودة في الوحي الإسلامي ومفقودة في التوراة والانجيل.

وقد كان اهتمامي الثابت على مدى أبحاثي هو الموضوعية، وفي اعتقادي انني تناولت دراسة القرآن والعلم كما يتناول الطبيب ملف المريض مقابلاً كل الدلائل التي يمكن جمعها من أجل تشخيص الداء. وأولاً وقبل كل شيء أعترف بأن الايمان بالدين الإسلامي ليس هو الذي سدد خطاي في البداية وإنما البحث عن الحقيقة التي اعبر عنها اليوم كما تبدو لي ظاهرة ان الوقائع هي الأساس والجوهر الذي جعلني انظر إلى القرآن ككتاب منزل من عند الله. وقبل أن أقدم ما هو أساسي فيه فمن الضروري أنِ أذكر نقطة هامة وهي صحة النص القرآني من التحريف.

ان القـرآن قد كان فعلاً يحفظ عن ظهر قلب تبعاً لنزول الوحي على الرسول ﷺ، والمؤمنون آنذاك حوله بما فيهم كتّاب من خاصة الرسول يثبتون القرآن كتابة خلال عشرين سنة بالتقريب. وقد نسخت عدة نسخ في عهد خلافة عثمان بن عفان (رضي الله عنه)، وتولى عثمان الخلافة بين السنة الثانية عشر وبين السنة الرابعة والعشرين بعد وفاة الرسول، اختيرت نسخة واحدة ووزعت في البلدان والأمصار التي انتشر فيها الإسلام. والنقطـة الأساسية التي تسترعي الانتباه هنا توجد في انجاز التحقيق الذي يتعلق بصحة النص القرآني. وأعظم فائدة في إنجاز هذا التحقيق هي وجود هذه التلاوة، فيا لها من تلاوة.. كم كانت ثمينة في عصر لا يكتب كل الناس فيه.. وإنما يحفظون عن ظهر قلب.

إن الاهتمام بالحفظ بوساطة الكتابة مذكور في القرآن، مذكور في الآيات الخمس الأولى من سورة « العلق » التي تبين بدقة بداية نزول الوحي على الرسول ﷺ بتعبير واضح.. « اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق. اقرأ وربكِ الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم ».. أليس هذا ــ هنا ــ ثناء على القلم الذي هو وسيلة يحصل بها الإنسان على العلم، على حد تعبير الأستاذ حميد الله في ترجمته بالفرنسية للقرآن.

وقد ذكرت في كتابي آيات من القرآن وعلى الخصوص من السور المكية التي تشير إلى بداية كتابة القرآن قبل هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة.

وفضلاً عن ذلك فإن الدلائل والشهادات على الكتابة المباشرة للقرآن كثيرة.

وقد بدا لي أن موضوع الخلق يستحق المرتبة الأولى بسبب مقابلة الآيات الواردة في ذلك مع الأفكار العامة التي لدينا عن تكوين الكون في أيامنا هذه، ثم بعد ذلك رتبت الآيات في المواضيع العامة التالية : علم الفلك، الأرض، عالم الحيوان والنباتات، الإنسان ولا سيما الموضوع المتعلق بالتناسل الإنساني الذي أعطى له القرآن الدرجة الأولى من حيث الاهتمام، ويمكن أن تتفرع عن هذه المواضيع العامة فروع ثانوية، كالتربية الجنسية في موضوع التناسل الانساني على سبيل المثال.

ثم من جهة أخرى فقد بدا لي أن من الفائدة بمكان اقامة مقارنات على ضوء المعارف الحديثة بين قصص القرآن وبين قصص التوراة والانجيل فيما يخص مواضيع مثل الخلق والطوفان وخروج موسى (عليه السلام) من مصر. وفي كل هذه المواضيع أستطيع أن أستعين على تفسير النصوص بالمعلومات المكتسبة في عصرنا.

واذا تأملنا أولاً وقبل كل شيء في موضوع الخلق كما يحدثنا عنه القرآن، فسنتأكد من أن فكرة عامة ذات أهمية قصوى تستخلص منه. تلك الفكرة هي التباين بين الرواية القرآنية وبين الرواية التوراتية. وهذا يناقض العرض المقارن الذي قد قام به بعض الكتّاب الأوربيين الذين حاولوا ابراز التشابه بين النصين، مؤكدين على التشابه، مغفلين التباين البديهي، هذا الذي لا يعكس نور الحقيقة. ولعل الموقف المقصود يحتاج إلى تفسير وبيان.

وفي الغالب يدعي الغربيون في موضوع الخلق، وفي موضوعات أخرى أيضاً، أن محمداً ﷺ لم يقم سوى بنقل الخطوط العريضة للتوراة والانجيل في القرآن. نعم لا شك في أن الأيام الستة التوراتية التي خلق الله

فيها الكون، والتي أضيف اليها يوم سابع هو يوم الراحة السبتية للاله، هي في استطاعتنا أن نقربها من آية سورة « الأعراف » :

« ان ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ».

لكن يجب في الحال أن نلاحظ أن المفسرين في العصر الحديث يؤكدون على تفسير اليوم بحقب أو مدة طويلة من الزمان، وليس هو بمعنى الفترة الزمانية المساوية لأربع وعشرين ساعة.

ان الذي يبدو لي أساساً أن القرآن لم يحدد الترتيب الزمني في خلق السموات والأرض خلافاً للرواية التوراتية. فالقرآن يذكر خلق السموات قبل الأرض، كما يذكر خلق الأرض قبل السموات، دون أن يجعل الأول سابقاً على الثاني أو العكس، فهو يؤكد فقط على الخلق العام في بعض الآيات مثل الآية التالية في سورة « طـه » : « تنزيلاً ممن خلق الأرض والسموات العُلى ».

والواقع أنه يفهم من القرآن أن خلق السموات والأرض كان متوافقاً ولا سيما فيما يتعلق بالمعطيات الأساسية، وهي وجود كتلة غازية أولى (دخان)، وحيدة ملتحمة عناصرها (رتقاً)، ثم تفرقت (فتقاً) بعد ذلك، كما هو معبّر عنه في سورة « فصلت » (ثم استوى إلى السماء وهي دخان) وكذلك في سورة « الأنبياء » : (أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما). وهذا التطور من حيث انفصال العناصر الأولى أدى إلى تكوين عوالم عديدة. وقد جاءت لفظة العالمين (العوالم) مكررة عشرات المرات في القرآن بعد أن ذكرت في سورة « الفاتحة » (الحمد لله رب العالمين).

فكل هذا يطابق تماماً المفاهيم الحديثة القائلة بوجود السديم الأولي، ثم بوجود انفصال للعناصر المكونة لهذه الكتلة بحيث أدى هذا الانفصال إلى تكوين مجرات، وبانقسام هذه الأخيرة تكونت نجوم، ومن النجوم تكونت كواكب.

وقد ذكر القرآن أيضاً خلق مادة متوسطة بين السماء والأرض، جاء في سورة « الفرقان » : (الذي خلق السموات والأرض وما بينهما).

فهذه المادة المتوسطة تطابق على ما يبدو تلك الجسور المادية المكتشفة حديثاً خارج الأجرام الفلكية المنظمة.

إن الاتفاقات والمطابقات لتجعلنا نلمح الارتباط بين البيانات القرآنية وبين المعطيات العلمية الحديثة. وهنا نجد أنفسنا بعيدين جداً عن نص التوراة بمراحلها وأطوارها المتتالية التي هي غير مقبولة منطقياً، ولا سيما تلك المرحلة التي تجعل خلق الأرض (في اليوم الثالث)، فكيف اذن يمكننا أن نفهم من خلال هذه الأحوال والأدلة أن رجلاً مثل محمد ﷺ استطاع أن يستوحي من التوراة والانجيل تأليف القرآن، وأن يصحح بنفسه نصَّي التوراة والانجيل ليتوصل بهذا التصحيح إلى نظرية عامة عن تكوين الكون الذي لم يتمكن العلم من وصفه إلا بعد قرون عديدة من بعده ؟.

ولننظر الآن فيما يتعلق بعلم الفلك..

فعندما أذكر أمام الغربيين بالدقة المدهشة التي يختص بها القرآن في بعض المسائل العلمية، ولا سيما علم الفلك، أجد من النادر جداً أن يسلموا بذلك وان لا يرد عليَّ أحدهم بأن ليس هناك ما يدعو إلى الدهشة، لأن العرب قد قاموا تأكيداً باكتشافات هامة قبل الأوربيين.

فيا له من خطأ فادح ناتج عن الجهل بالتاريخ، ان تطور العلم عند العرب قد كان بعد نزول القرآن، وان المعارف العلمية ابان تلك الحقبة الكبيرة للحضارة الإسلامية الزاهرة لم تسمح لأي انسان أن يكتب عن السماء بيانات مماثلة لتلك التي في القرآن.

ربما أن الموضوع طويل هنا فلا يسعني أن أعطي عنه سوى لمحة.

فعندما تتحدث التوراة عن الشمس والقمر كمصباحين، وتفرق بينهما بكبر الحجم، فان القرآن يميز بينهما بالنعوت : فالنور للقمر، والسراج للشمس، والأول جرم خامد يعكس نور الشمس، والثاني جرم سماوي في احتراق مستمر منتج للحرارة والنور.

فالنجم متبوع بصفة تحدد بدقة أنه يشتعل ويحترق، وهو مخترق لظلمات الليل، وقد عبّر القرآن عن ذلك بالنجم الثاقب.

والكواكب في القرآن اسم يطلق على الاجرام السماوية السيّارة التي تعكس النور ولا تنتجه مثلما تنتجه الشمس. وان النظام السماوي، كما نعلم في أيامنا هذه، هو في حالة توازنية بفضل وضع الكواكب في مدارات محددة بفضل القوى المركزية الطاردة المتناسبة مع الكتل وسرعة التنقل، فكل كوكب له حركة خاصة، وفي هذا الصدد.. ذكر القرآن سند هذا التوازن في كلمات قد أصبحت واضحة الدلالة في أيامنا هذه، جاء في سورة الأنبياء - مثلاً - (وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر، كل في فلك يسبحون).

فالكلمة العربية المشيرة إلى التنقل هذا هي فعل « سبح »، فلفظة « يسبحون » في النص القرآني تعبّر عن حركة ذاتية لكل جسم متحرك سواء كان ذلك تنقلاً على الأرض بوساطة حركات الأقدام مثلاً، أو تنقلاً في الماء بواسطة حركات السباحة بالنسبة إلى الاجرام السماوية فلا بد لنا من تفسير لفظة « سبح » بمعناها الحقيقي الاصلي.. وهو التنقل بحركة ذاتية.

لقد قدمت في كتابي الموافقات الدقيقة مع المعطيات الحديثة المعروفة جيداً بالنسبة إلى القمر.. وهي أقل انتشاراً بالنسبة إلى الشمس، بيد أنها حقيقة بالنسبة إلى الشمس أيضاً.

ان شأن تعاقب الليل والنهار هو في حد ذاته حدث عادي لو لم يعبّر عنه القرآن بلفظة لها دلالة في غاية الأهمية في عصرنا هذا. وقد وردت هذه اللفظة في سورة « الزمر »، وهي فعل « كوّر » الدال على التفاف الليل حول النهار والتفاف النهار حول الليل، كالتفاف العمامة حول الرأس. ان الناس لم يكونوا زمان نزول القرآن يملكون عمليات فلكية تسمح لهم أن يأتوا بمثل هذا التشبيه والمقارنة عن طريق العدل المطلق.

ان تطور العالم السماوي وفكرة استقرار الشمس قد ذكرهما القرآن أيضاً، ومدلول هذا الذكر مطابق لمفهوم العلوم الحديثة بالتدقيق، ويبدو أن القرآن أخبر كذلك عن توسع الكون.

وأخبر عن غزو الفضاء المنجز في أيامنا هذه.. بارسال رجال قد نزلوا على سطح القمر، قد تم هذا بفضل تكنولوجيا عجيبة. وكيف لا نفكر في

ذلك عندما نقرأ هذه الآية من سورة « الرحمن » : (يا معشر الجن والانس ان استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا، لا تنفذون إلا بسلطان)، أي بقدرة من عند الله، وموضوع السورة كلها دعوة إلى الاعتراف بنعم الله.

ومن الفضاء ننتقل إلى الأرض في شأن ما يخص كوكبنا من البيانات الكثيرة المتعلقة بالظواهر الطبيعية المنتشرة فيها، وفي بعض الجزئيات الخاصة بالأحياء التي تعمرها.

ومن خلال كل ما قمنا بعرضه تيقّنا.. ان القرآن لم يجئنا بمفاهيم متقدمة على تلك التي كانت سائدة في زمان نزول الوحي فحسب، بل كذلك لم تكن هذه المفاهيم مختلطة بعبارات الأفكار المخطئة التي كانت منتشرة في ذلك العصر المملوءة بالخرافات والأساطير، ونتيجة لذلك فنحن ملزمون أن نضع في طريقنا هذا السؤال : كيف استطاع رجل مثل محمد ﷺ أن يطرق مواضيع كثيرة ومتنوعة في عصر مملوء بالغموض العلمي، وكيف استطاع بارادته الصارمة أن يوحد جميع الاعتقادات الفاسدة في عصره، تلك الاعتقادات قد دلت على خطئها القرون المتأخرة ؟.

ان الآيات المتعلقة بالأرض لتعرض علينا مواضيع للتأمل والتدبر. وقد سردت الكثير منها في كتابي، واقتطفت منها هنا الآيات التي تعرضت لدورة الماء في الطبيعة، وهذه الدورة معروفة جيداً في عصرنا، والآيات القرآنية التي تعالج هذا الموضوع تبدو لنا أنها تعبّر عن أفكار بديهية تماماً، ولكن اذا أخذنا بعين الاعتبار النظريات القديمة أدركنا أنها مطبوعة بطابع الاساطير والتخمين الفلسفي أكثر من طابع معطيات الملاحظة.. رغم كون ذلك العصر يحتوي على معارف تطبيقية مفيدة لري الأراضي.

ولنأخذ على سبيل المثال هذه الآية من سورة « الزمر ».. (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه)، فمثل هذه النظريات تبدو لنا اليوم طبيعية، ولكنها في القديم لم تكن جارية اذ كان الناس ملزمين أن ينتظروا « بيرنار باليسي » في القرن السادس عشر ليخرج لهم أول شرح صحيح عن دورة الماء في الطبيعة. وقد كان

الناس قديماً يتحدثون عن اندفاع المياه الاقيانوسية تحت تأثير الرياح إلى جوف القارات ورجوعها إلى الاقينوس عن طريق لجة كانت تسمى منذ عهد افلاطون بـ « التاتار »، وفي القرن السابع عشر كان يؤمن بذلك منكر كبير مثل « ديكارت »، وحتى في القرن التاسع عشر لم ينفك الناس مولعين بنظرية « ارسطو » التي تفيد أن الماء يتكثف في فجوات باردة بالجبال ويكوّنُ بحيرات تحت الأرض تغذي الينابيع. ونحن نعلم اليوم أن تسرب مياه الأمطار هو الذي يغذي الينابيع. وعلينا أن نقارن بين معطيات علم « الهيدرولوجيا » الحديث وبين الآيات المتعلقة بهذا الموضوع، فنتحقق من التطابق الملحوظ بين الاثنين.

وفي علم الجيولوجيا ان ظاهرة الثني والانحناء في أصل تكوين الجبال هي معروفة مكتسبة في العصر الحديث، وكذلك معرفة القشرة الأرضية التي هي عبارة عن طبقة صلبة يمكن للإنسان أن يعيش فوقها، وتحتها طبقات حارة سائلة غير صالحة لكل أنواع الحياة. ومن جهة أخرى، اننا الآن نعرف أن استقرار الجبال له علاقة بظاهرة الثني التي تساعد على غرز التضاريس في الأرض.

ولنقابل هذه المفاهيم الحديثة بآية من الآيات القرآنية التي تتعرض للموضوع نفسه، جاء في سورة « النبأ » : (ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً).. فالأوتاد المغروزة في الأرض مثل التي تثبت الخيمة وهي المداميك العميقة للثنيات الجيولوجية.

وهنا كما في مواضيع أخرى أكيداً نكتشف عدم التنافر بين ما نعرفه في العلم الحديث وبين هذه الآية، وهذا من شأنه أن يلفت انتباه كل ذي فكر موضوعي.

ولعل البيانات القرآنية المتعلقة بعالم الحيوان والنبات هي التي جذبت انتباهي عند دراستي للقرآن أول وهلة ولا سيما تلك الدراسة المتعلقة بالتناسل. ان هذه المواضيع تستحق وتستوجب عروضاً طويلة.. ولكن ليس في وسعي هنا سوى تقديم بعض الأمثلة.

وألح مرة أخرى أن معاني بعض هذه الآيات القرآنية لم تصبح واضحة

سوى في العصر الحديث، والفضل في ذلك يعود إلى التقدم العلمي. إن كثيراً من التفاسير والترجمات القرآنية قد رفضها المحققون من العلماء. والسبب في ذلك أن هذا العمل قد قام به أدباء لا يملكون معارف علمية كافية. إن هذه التفاسير قد فسرت تفسيراً ناقصاً، وإن هذه الترجمات قد ترجمت ترجمة معيبة. فكل منها قد قدم للقراء في ثوب معناه الظاهري، ليكون سهل الإدراك في الغالب لكن المعنى الحقيقي مغلوط فيه، وسنعود إلى هذا الموضوع فيما بعد.

وتوجد آيات أخرى أقل صعوبة من حيث ادراك معناها، وانما تحتوي على معان رفيعة جداً فيما يتعلق بعلم الاحياء (البيولوجيا)، كما ورد ذلك في سورة « الأنبياء » التي سبق أن سردناها جزئياً : (أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما، وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون) ؟ فهذه الآية تؤكد نظرية حديثة عن الأصل المائي للحياة.

ان التطور في علم النبات لم يكن متقدماً زمان محمد ﷺ في جميع الأقطار، ولم تكن معارف الناس بالنباتات هناك تمكنهم من تقرير قاعدة تسمح لهم بالاطلاع على وجود عناصر ذكرية وأنثوية في أنواع النباتات. ورغم هذا ففي امكاننا أن نقرأ في سورة « طه » ما يشير إلى ذلك : (وأنزل من السماء ماء، فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى).

ومن المعروف في أيامنا هذه أن كل ثمرة أصلها من نباتات مختلفة الأجناس بما في ذلك ثمرات الازهار غير الخصبة (الملقحة)، إلى هذا تشير آية سورة « الرعد » : (ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين). ان البيانات في التناسل داخل عالم الحيوان هي بذاتها البيانات الخاصة بالإنسان وسنتعرض لها عن قريب.

وفي ميدان الفيزيولوجيا تبدو لي هناك آية في غاية الدلالة على المعنى المراد، ذلك أنه بألف سنة قبل اكتشاف الدورة الدموية بثلاثة عشر قرناً بالتقريب قبل أن نعرف ما يجري في الأمعاء لتغذية الجسم عامة عن طريق الامتصاص الهضمي، قبل ذلك كله تحدثنا آية قرآنية عن أصول مكونات لبن الحيوان ابتداء من هذه المفاهيم.

ومن أجل فهم هذه الآية يجب أن نعرف أن الأمعاء هي محل التفاعلات الكيماوية، ومن هنا تنفذ المواد الغذائية الناتجة عن هضم الغذاء من خلال الجدار المعوي إلى السيل الدموي الذي يسوقها في مجار معقدة بعد مروره بالكبد أو عدم مروره، وذلك حسب التركيب الكيمياوي للمواد الغذائية التي تنقل بواسطة الدم إلى مختلف الأعضاء ومنها الغدد الثديية المنتجة للبن.

ولكي نكون ذوي تخطيط جيد يجدر بنا أن لا نتفوه إلا بما هو واضح. إن المواد المغذية المتكونة في الأمعاء تنفذ إلى الأوعية الدموية في جدار الأمعاء ثم تنقل تلك المواد في هذه الأوعية عن طريق الدم إلى الأعضاء المختلفة.

ولا بد لنا من امتلاك هذه المعلومات حتى نتمكن من فهم آية قرآنية قد أعطى الناس خلال عدة قرون بشروح مبهمة صعبة الفهم، نتصور ذلك بدون صعوبة في أيامنا هذه، والآية موجودة في سورة « النحل » هذا نصها :

(وإن لكم في الانعام لعبرة نسقيكم مما في بطونها من بين فرثٍ ودمٍ لبناً خالصاً سائغاً للشاربين).

إن موضوع التناسل الإنساني في القرآن قد فتح بعدة بيانات تتحدى كل امبريولوجي أن يجد تفسيراً إنسانياً لها. والسبب في ذلك أنه ليس في الإمكان أن توجد معطيات من هذا القبيل لم يتمكن البشر من معرفتها إلا بعد ظهور العلوم الأساسية التي جاءت بمعطيات جديدة لعلم البيولوجيا، ولا سيما اكتشاف الميكروسكوب (المجهر)، ولا شيء يجعلنا نعتقد أن البشر الذين وجدوا في القرون الوسطى وفي الجزيرة العربية بالذات كانوا أغزر علماً من الذين وجدوا بأوروبا أو بالأقطار الأخرى فيما يخص هذا الموضوع. لقد عرف اليوم كثير من المسلمين، الذين لهم معرفة راسخة بالقرآن والذين قد تشبعوا بدراسة العلوم الطبيعية، كيف يقربون هذه الآيات المتعلقة بالتناسل من العلوم الحديثة.

وإذا توسعت في جزئيات النصوص القرآنية المتعلقة بالتناسل بقدر ما يستحق الموضوع ذلك فإنني سأتعدى الوقت المحدد لي والمخصص

لمحاضراتي، وأرجو أن أكون قد قدمت في كتابي شروحاً لغوية وعلمية كافية حتى يمكن فهم معاني هذه الآيات على ضوء العلوم دون معرفة بالامبريولوجيا واللغة العربية.

وإذا قارنا هنا على وجه الخصوص بين ما كانت عليه الاعتقادات في القرون الوسطى المملوءة بالأساطير والخرافات وبين المحتوى والمعطيات الحديثة لا يسعنا سوى التعجب من التطابق مع ما نعرفه اليوم، والتعجب أيضاً من انعدام التلميح أو الاشارة إلى الأفكار المخطئة التي ظلت شائعة في العصور الغابرة.

ومن آيات كثيرة جداً نستخرج مفاهيم دقيقة مثل تعقد السائل الملقح، وإن كمية ضئيلة منه تضمن التلقيح.

أما تعشش البويضة في جهاز الأنثى التناسلي ذكرت بدقة في عدة آيات بلفظة (علق) وذلك في السورة المسماة بهذه اللفظة نفسها (خلق الإنسان من علق)، وإنني أعتقد أنه ليس في الوجود ترجمة أخرى منطقية للفظة (علق) سوى هذا المعنى الأصلي. والتفوه هذا بالالتصاق خطأ فادح كما تفوه بذلك « بلاشير »، أو بجلطة دموية كما جاء ذلك في ترجمة حميد الله، فهذه المعاني المجازية المتسقة غير مناسبة هنا تماماً.

وتطور الجنين في رحم الأم موصوف في القرآن وصفاً مختصراً بيد أنه في كامل الدقة بحيث أن الكلمات البسيطة السهلة التي تبينه في القرآن تطابق تماماً المراحل الأساسية لهذا التطور. جاء في سورة « المؤمنون » : (ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً). فالمضغة كأنها لحم ممضوغ وهي تصدق حقيقة على الجنين في بعض مراحل تطوره. ونحن نعرف أن العظام تنمو وتتطور في أحشاء هذه الكتلة (المضغة) ثم تكسى بالعضل، وهذا هو المعبر عنه باللحم الطري.

ثم هذا الجنين يمر بمراحل حيث تكون أجزاؤه بعضها متناسب معه وبعضها غير متناسب إلى أجل ما. أليس ذلك هو مقصود إحدى آيات سورة

« الحج » التي سأقتطف منها هذه الكلمات : (فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلَّقةٍ وغير مخلَّقةٍ).

ثم يذكر القرآن بعد ذلك ظهور الحواس والأحشاء، جاء في سورة « السجدة » : (وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة، قليلاً ما تشكرون). لا شيء هنا في هذه الآية تتناقض مع المعطيات العلمية الحالية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن القرآن لم يذكر أية فكرة مخطئة كانت تسود عصره.

وهناك مقارنة أخرى لا بد لي من الإتيان بها، تلك هي مقارنة بين فصول من القرآن وفصول من التوراة مع وصفية الأحداث والوقائع المشتمل عليها كل منهما، ثم إجراء فحص على المعارف الحديثة المطابقة لتلك الفصول.

والبحث عن أسباب هذه الفروق في نتائج المقارنة بين الكتب المقدسة وبين المعارف الحديثة هو من أكثر الأشياء المفيدة.

إن العهد القديم ليمثل مجموعة من المؤلفات الأدبية التي استمر تحريرها طوال تسعة قرون بالتقريب، وقد ألحقت بها تحريفات شتى، وحظ البشر في تأليف نصوص التوراة نفسها كبير جداً.

أما الوحي القرآني فله تاريخ مخالف لذلك في الجوهر والأساس، فنصه كما قلنا سابقاً، قد استظهر عن ظهر قلب فور نزوله وتبليغه للناس، وضبط تدوينه في حياة محمد (ﷺ) نفسه، بحيث أن القرآن لا يدع أي مشكلة تعرض.

وفحص القرآن بكل موضوعية على ضوء المعارف الحديثة يؤدي إلى التأكيد من التوافق بينهما، والحكم باستحالة وجود رجل في عصر محمد (ﷺ) استطاع أن يكون هو المؤلف لهذه البيانات بسبب حالة قلة المعارف في زمانه. فهذه الاعتبارات قد أعطت للوحي القرآني مكاناً خاصاً وأجبرت العالم المنصف أن يعترف بعجزه عن تزويدنا بشرح معتمدة فيه الاعتبارات المادية فحسب. فهذه الأحداث والوقائع التي استمتعت بعرضها أمامكم تبدو لي فعلاً كحقيقة تتحدى التفسير البشري.

وبما أنني قد أعطيت عن ذلك أمثلة عديدة في كتابي (القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم) فإن هذه المقارنة الثلاثية بين التوراة والقرآن والعلم ستقودنا إلى الاستنتاج الدال على أن التوراة توجد فيها قصص غير مقبولة علمياً، بينما القصص القرآنية المتعلقة بعين المواضيع التي في التوراة هي متطابقة مع المعارف الحديثة على الإطلاق. والسلام عليكم.

إنسانية اليوم وحضارة المستقبل

للدكتور مهدي بن عبود



بسـم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعيـن. ولا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم،

خلق الإنسان عالق الذهن بما يسمى بالزمان الماضي والحاضر والمستقبل، وهذا التعلق الذهني بالزمان يزداد كلما خرج عن طريق الصواب، فاليوم، من أشهر التيارات الفكرية التي يتناولها الإنسان بالبحث ما يسمى بفلسفة التاريخ، لكن فلسفة التاريخ، بدلاً من أن تكون علماً نافعاً فحسب، هي من ناحية الاضطرابات النفسية علامة من علامات المرض، فالرجل القوي السليم البنية، المستقيم السلوك، المطمئن النفس، لا يتساءل عن مجرى التاريخ بمدلهماته وشقائيته وخصوماته وحروبه إلى حد أنه يستعمل ما استعمله « ديجل » من فكرة الضمير المأسوي ومعروف أن أقل الناس تساؤلاً عن فحوى الزمان هو الطفل ـ الطفل يعيش في الوقت بمعناه العميق العتيد، وهو أنه ما مضى فات والمؤمل غيب، ولك الساعة التي أنت فيها، اصدع بما تؤمر. وكلما كان الطفل قريباً من أمه كلما كان قريباً من براءته الأولى التي خلقت في أحسن تقويم، فيجمع الزمن ـ الدقيقة التي يعيشها وهو كامل الصدق مع نفسه ـ على وجنته اليمنى دمعة، وعلى وجنته اليسرى ابتسامة في نفس الوقت ـ الإنسانية تبحث عن نفسها اليوم فيما يتعلق بالإطار العام الذي تتجلى فيه المعطيات الفكرية الباطنية، أو ما يسمى بالحضارة، بكيفية

مختصرة وسريعة، ما يسمى بالثقافة اليوم هو أسلوب تفكير، أما ما يسمى بالحضارة فهو تجلي هذا الأسلوب في التفكير تطبيقاً في المعاش اليومي، أي أسلوب معاش وأسلوب حياة، إذا ما دخل النوع في المعاش لأن هناك فرقاً بين كلمة حياة وكلمة معاش، المعاش يشترك فيه البشر والبقر على حد سواء، في حين أن الحياة هي الاستجابة لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم لا لما يعيشكم فقط، فالإنسانية إذن اليوم في ضميرها المتمزق تتساءل عن الحال والمستقبل في نفس الوقت وخصوصاً عن المستقبل أكثر من الحال فراراً من آلام هذا الحال لماذا ؟ لأن للإنسانية مقومات فطرية أيضاً خلقت في أحسن تقويم لأنها متكاملة. عندما يخلق الإنسان بشفتين غير ملتحمتين، أو يخلق بيد أقصر من اليد الأخرى، يدعى هذا بالتشوه الجسماني، ولكن عندما يخلق متكاملاً يسمى جسمانياً، خلق في أحسن تقويم. نفس الشيء يطبق على النفس ونفس الشيء يطبق على العقل، طبعاً الروح من أمر ربي، وهي النفخة النورانية التي تكون نقطة الوصل بين الخالق والمخلوق، كلما قرب منها الإنسان كان قريباً من ربه، وكلما ابتعد عنها كان قريباً من الحيوانية أكثر منه إلى الربانية في الوجود الأرضي. المعوقات هي وحدة النفوس، هذا هو الحجر الأول للإنسانية جمعاء، ولولا هذا المفهوم لاستحال التخاطب بين الناس فيما يتعلق بالكلام، ولاستحال التقارب بين الناس، ولاستحالت الحياة الاجتماعية قاطبة فيما يتعلق بالعمران، ولذلك كانت حكمة الله في أن خلق الناس من نفس واحدة، ثم جعلهم شعوباً وقبائل نظراً لضرورة الاختلاف للتعارف، فعندما تكون ساعة أمامك وهي تدق الدقائق كما يقول شوقي :

دقات قلب المرء قائلة له   إن الحياة دقائق وثوان

يقع عليها تغيير في حركتها، أي أنها تسقط، تتنبه إليها ويكون الاختلاف من شأنه أن يكون الدافع لتنبيه وجود الناس مع بعضهم بعضاً، الاختلاف في الأشكال وفي الألوان مع أنهم من نفس واحدة، فجاء هذا المفهوم الأول في الدرجة الأولى من مقومات الإنسانية. الدرجة الثانية من المفاهيم هي وحدة الآمال. كل الناس اليوم يبحثون عن شيء يوحد أعمالهم حتى تتوحد آمالهم،

في العصر الحديث مثلاً، حتى لا نطيل الكلام، نرى أن الناس كانوا دائماً وأبداً يسعون إلى الفرار من الحروب ضمن منظمات معينة توحد جهودهم، فكان المشروع الأول هو محكمة العدل الدولية. والمشروع الثاني هو عصبة الأمم. والمشروع الثالث هو الأمم غير المتحدة في نيويورك اليوم لا المتحدة. والمشروع الرابع يفكر فيه الناس ابتداء من الآن لأنهم اعترفوا بفشلهم نظراً لفشل نقطة الانطلاق. كل شيء معياره نقطة انطلاقه لذلك كانت. (إنما الأعمال بالنيات)، كل شيء سواء أنجز أو لم ينجز فهو مركز على نقطة انطلاقه في بداية الأمر، ولذلك كانت نقطة الانطلاق في العالم بأسره من الناحية المعنوية هي نقطة الانطلاق من الناحية الوجودية. فلولا الله ما كان لنا وجود من الناحية المعنوية، لولا الله سبحانه وتعالى ما استقرت لنا حياة، فنقطة الانطلاق هي هنا، كان الفشل في نقطة الانطلاق لأن الناس خرجوا من الوثنية بنيات متغيرة، أما براقرس وأما المال تايمز موني وأما الجنس المرأة والرجل والرجل والمرأة، إذا كان احتفظوا على ذكر الرجل كرجل والمرأة كامرأة لأن الإنسانية المحترقة تسمي الرجل رجلاً والمرأة امرأة لا الأنثى والذكر، لأن ذلك يدخل فيه الجحش والحصان، ثم الراية ثم المرتاب والحدود، ثم الزعيم ماو الرئيس ماو وكتابه الأحمر الذي تعلمون الآن مصيره، ثم هتلر، ثم موسوليني ثم سلزا ثم فرانكو ثم ستالين ثم لينين، ثم إلى غير ذلك فأصبحت وثنيات مختلفة لا حصر لها. هذا هو عصر الوثنيات التي لا حصر لها أبداً، وكانت هي نقطة الانطلاق فكان فيها الغرور، وهو الجامع بين الناس، لا الحق، الغرور هو الجامع بين الناس، فكانت الآمال مبعثرة غير محدودة، لا يعرف الإنسان إلى أي وجهة يولي وجهه أبداً، طبعاً لأن الأشياء بسوابقها والأمور بخواتيمها، في نفس الوقت الخواتيم دليل على صحة السوابق، والسوابق معيار وشرط لنجاح الخواتم، فكانت وحدة الأمل. مهما يكن من أمر فالفطرة غلابة، ويد الله فوق أيدي الجميع، هو الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، وأحسن طبعاً. والمفهوم الثالث لهذه المعوقات هو أن طلب الوحدة هو غاية، وهي النجاة في الدنيا بسعادة هذه الدار، والنجاة في الآخرة إذا ما كان الإنسان مؤمناً ولو كان في دائرة العصيان، لا نتكلم على الملحد لكن نتكلم على المؤمن ولو في دائرة

العصيان، وجهة نظره توليها فطرته التي خرجت من يد الله القادرة والحكيمة نحو مفهوم السعادة في العاجل والآجل معاً، في نفس الوقت، ثم إن هذه الحركات في البشرية كلها، من أين نبعت ؟ من قدرة يعني استطاعة، ومن رغبة يعني آمال وهي المعيشة. خلق الإنسان قادراً على أن يعمل وعلى أن يعرف بأمر من الله، إقرأ. والرسول قدوة حسنة، فالأوامر للرسول هي أوامر لأتباعه مع الفارق في الاستطاعة طبعاً. كانت المعرفة، والمعرفة تحوم حول أشياء معينة أولها إثبات الذات، وهنا تكون نزهة للقارئ إذا ما رجع إلى إقبال لأن محور في الفطر إقبال حول هذه اللفظة، إثبات الذات والعامل الثاني الذي يدخل في هذه المفهومية، الثالثة هو رشد العقل لا العقل وحده ولكن ينبغي أن يكون العقل راشداً حتى يكون مكلفاً، العقل موجود عند الطفل، هو بتجربته الأولى يحرق يده في النار، بعد ذلك ستتكرر التجربة فينعزل عن النار، ويبعد عن النار، فالعقل موجود ولكن ليس براشد، العقل واجب لا مناص منه على شرط أن يكون راشداً بالغاً قدرته التي تجمع بينه وبين مفهوم المسئولية حتى يكون حراً، وبين مفهوم الحرية حتى يكون مسئولاً، لأنه بدون حرية لا مسئولية ـ رشد العقل شيء مؤلم ـ مؤلم جداً لأن هذا العقل هو الذي سيساعدك على المراقبة ـ مراقبة النفس قبل كل شيء، وهذا أصعب من مراقبة الغير. يمكن أن تكون حارساً على الغير ولكن تكون حارساً على نفسك هذا صعب، قل الحق ولو على نفسك. والغريب أن أشياء مثل هذه موجودة في صميم المادة نفسها، عندنا دماغ يمكن أن نراه ونلمسه، ونرى فيه نصف الكرة ونصف الكرة الأيسر وأنه مغطى بما يسمى بالمادة السنجابية (بكلمته بالانجليزية) وهي سنجابية لأنها مركب من رأس الخلايا التي لونها سنجابي في حين أن استطالة الخلايا لونها أبيض، وتكون مادة الدماغ من المادة السنجابية ومادة بيضاء وبيضاء من الاستطالة ـ هذه المادة السنجابية التي تغطي الدماغ تسمى بقشرة الدماغ وفيها الإدراك الحسي والإدراك المعنوي والفرق بين الإحساس والحركة، ثم في الناحية الجبهية العزم على أخذ الأفكار واستعمال الأفكار في نفس الوقت، في حين أن الناحية العاطفية من هذا يروقني وهذا لا يروقني، هذه عين جميلة وهذه عين ماكرة وهذه خائنة الأعين، وهذا شيء حار وهذا شيء بارد، وهذا شيء

رطب وهذا شيء قبيح، وهذا شيء جميل، كله في قاعدة الدماغ، وهذا اكتشاف جديد من سنة ١٩٦٠ مع مساهمة الفص الأيمن التي أصبحت ضرورية، الشطر الأيمن من الدماغ نرى بأن حتى في المادة في الناحية من قشرة الدماغ تدخل أولاً مشكلة الدرجات، ودرجات الإدراك والعلم فوق درجة الإحساس واللذة والمتاع إلى غير ذلك وهي في قاعدة الدماغ، بأسفل الدماغ وهذه من حكمة الله، خلق كل شيء درجات بعضها فوق بعض، حتى في داخل تركيب الإنسان؛ هذا الرشد إذن جاء لرقابة النفس، وعندما يكتمل يسهل الحكم على النفس والحكم على الغير، الحكم على النفس يكون فيه إنصاف والحكم على الغير يكون في درجة الحكمة، وما هي ؟ رأسها مخافة الله، مثلما رأيناه في صدر الإسلام عند أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وخامس الخلفاء كما يقولون بحق عمر بن عبد العزيز هذا، أهمية هذا العامل في المفهوم الثالث إذا كانت رقابة العقل مع رشده سهلة يأتي عامل رابع في المفهوم الثالث وهو سلامة الإرادة، تصبح الإرادة لا كما تمناها فريدريك فيتش إرادة قوة، ولكن تنقلب الكفة، يعني أنها بدلاً من أن تكون منكبة على وجهها تمشي سوية على صراط مستقيم، ستكون قوة الإرادة لا إرادة قوة كما يريد فريدريكنتسه إرادة قوة عند ثور، إرادة قوة عند الغاشم، إرادة قوة عند المستفيد في حين أن قوة الإرادة مالكة لنفسها في مراقبة النفس ومراقبة الغير، يدخل عامل خامس وهو احترام حرية النفس وحرية الغير. وحرية النفس في الاستغناء عن كل ما زاد عن الحاجة، حرية الغير في احترام الوحي المنزل من السماء على رأس الحكمة وهي مخافة الله، لما كرم الله الإنسان ينبغي على الإنسان أن يكرم الإنسان طاعة لله، وهذا الاحترام يجرك إلى حماية الحرية في مبدأ الشورى، في مبدأ الإنصاف، في مبدأ ارحم من في الأرض يرحمكم من في السماء، وهذه المبادئ التي لا حصر لها بكيفية مختصرة هي مقومات الإنسانية الفطرية التي خلقت في أحسن تقويم، ثم بعد اقرأ باسم ربك الذي خلق جاء شيء آخر، من أغرب ما يكون هذا المفهوم الثاني في السورة الثانية من التنزيل الحكيم، أولاً : العلم. ثانياً : يا عالم بعد أن تتعلم اخش الطغيان وسيدخلك الطغيان عن طريق وثنيات متعددة، منها الجاه ومنها المال، كلا إنّ الإنسان ليطغى أن رآه استغنى.

فستكون حرب بين العلم وبين حب المال والجاه، يعني إرادة قوة، إرادة قوة التي هي ليست من شأن البشر هي من شأن البقر لا القوة الحقيقية وهي القوة الحامية للحق، وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل. هذه إعداد فقط لأن الله لا يحب المعتدي فهذا إعداد اعدوا فإن قاتلوكم فاقتلوهم، لكن هنا نرى بأن الإنسان خرج عن الطريق وهي إنسانية اليوم خرجت عن الطريق، ما هو الجسر الذي قطعته هذه الإنسانية حتى تخرج من النور إلى الظلمات. هذا الجسر يسمى بالغرور، لأن الإنسان في أغلب الأحيان إما صادق مع نفسه وإما يوهم نفسه بأنه صادق مع نفسه لأنه لا يرضى أن ينحط إلى أسفل السافلين، مع أنه ردَّ إلى أسفل السافلين بما كسبت يداه، هذا الجسر يسمى بالغرور، وطبعاً هذا المفهوم مدروس في كثير من كتبنا القديمة في تراثنا القديم، يتجلى في القرن العشرين فيما يسمى بالوثنيات هيومانتيز، وطبعاً وصلت عبادة الإنسان هكذا إلى التجرؤ في عبادة تقشعر لها الجلود مثلما صاح بها غير واضحة ينقشع عندما يقول (   ) أعوذ بالله من هذا لا استطيع أن أقولها بالعربي، يقول لقد مات الله والواقع أن الإنسان قد مات، رشد العقل قد مات، حرية الإنسان قد ماتت، مقومات الإنسان الأولى قد ماتت، ويعترف بها أصحاب الجحيم اليوم لأنهم وقعوا في الجهل، هذا الغرور إذن كان على أن الإنسان أعجبته نفسه، الشيء الثاني أعجبه صنعه، يتكلم عن التقدم، رأس التقدم هو رفع الإنسان من مستواه الجاهل إلى مستواه العالم العاقل، من مستواه الغاشم، إلى مستواه المنصف، من مستواه الحيواني النائم الغافل إلى مستواه الإنساني العاقل الراشد الملهم من الله سبحانه وتعالى، وبعبارة أخرى التقدم هو ارتفاع الإنسان بارتقائه الأسباب بسبب اللفظة القرآنية الكريمة، أما ما يسمى اليوم بالتقدم هذا نوع من أنواع قلب الحقائق. اليوم ثلاثة أفكار تطغى على الإنسان، الملاحظة الأولى هي قلب الحقائق. بعد ذلك هي قلب الأوضاع، بعد ذلك هو قلب الاستقرار ـ قلب الحقائق يجعل الإنسان يرى الأعلى أسفل والأسفل أعلى. المادة هي الأولى ثم يأتي ينتج عنها العقل، والعقل ما هو إلا إفراز للدماغ المادي، كأفكار كما أن الكلى تفرز وكما أن الغدة الدرقية تفرز كذلك الدماغ يفرز الأفكار وهذا قلب لأوضاع الحقائق رأساً على عقب لأن نظام

الكون وقرائن نظام الكون كلها تدل على أسبقية العلم عند الواحد القهار في اللوح، كلها تدل وتطمئن إليها النفس ثم يرى بأن تدبير الأمور الإنسانية تحت ظل التدبير الإلهي لهذه الإنسانية، فعندما تنقلب الأفكار تنقلب الأوضاع معها وتدخل الحروب والاختطافات والحروب الأهلية وفي المعسكرات نفسها الشيوعي مع الشيوعي والرأسمالي مع الرأسمالي الراديكالي مع الراديكالي إلى غير ذلك، هذا فيما يتعلق بقلب الأوضاع العامة، أما فيما يتعلق بقلب الأوضاع الخاصة هو أن الإنسان يحب نفسه نظراً للألم الذي يدخل في قلبه بعد ما يمسح من قلبه الإيمان بالله فتكون الفرصة الوجودية الملحدة، الإنسان ملقى به على الأرض، العبارة بالانجليزية بعد ذلك يتحرك، بعد ذلك يرى أنه غريب عن نفسه وغريب عن المجتمع، ومن يشرك بالله فكأنما خرَّ من السماء فتخْطَفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق، والغريب عن نفسه وعن غيره تهوي به النفس، لذلك يرى أنه كلما عبد نفسه ابتعد عنها وكلما عبد الله اقترب من نفسه، من عرف نفسه عرف ربه ومن عرف ربه عرف نفسه في نفس الوقت، كما أن الآية تقول : « من كان في هذه الدنيا أعمى فهو في الآخرة أعمى » والعكس من سيكون في الآخرة مبصراً فهو الأعمى في هذه الدنيا. مبصر لماذا ؟ لأنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور، وهذا يدخل في رشد العقل بمعناه الواسع، بالمعنى الغربي العقل كاد يكون جافاً أو أشد قسوة من الحجر في العمليات المنطقية سواء كانت المنطقية الصورية أو المنطقية الجدلية، لكن فيما يتعلق بالعقل هو ربط الحقائق العليا والدنيا في نفس الوقت في العقل جميعها، فهذا العقل هو الذي سيكون مبصراً بإذن الله سبحانه وتعالى وبوحي منه ورحمة منه عن طريق الرسل. وفي هذه الوثنيات يرى الإنسان البركات، مثلاً يتكلم عن أسطورة « سيزيف » وهو ذلك البطل الذي يحمل صخرة إلى أعلى الجبل نهاراً ثم ينزل ليلاً ثم يرجع نهاراً ثم ينزل ليلاً ثم يرجع نهاراً ثم ينزل ليلاً ثم يرجع نهاراً، وبعبارة أخرى يقول فطور الصباح والغداء والعشاء والعمل والنوم فطور الصباح والغداء والعشاء والنوم فطور الصباح والغداء والعشاء والنوم إلى ما لا نهاية له، إذاً بالعربية الفصحى يسمى حمار طاحون، ونرى في معسكرين الإنسان إمّا مكسوب وإما مرهون،

في الولايات المتحدة العرض أكثر من الطلب لأن المال أقل من العرض فهو يعيش بالدين، في آخر كل شهر يدفع الماهية بأكملها ثم يأخذ ديناً جديداً، فهو مرهون دائما،حمار طاحون، وفي المعسكرات الشرقية والشيوعية هو مكسوب لا حرية له ـحتى في التنقل، أين هو هذا الإنسان إلى اللحد، نفسه ويتشدق بالتقدم وهو في قفص الاتهام باستمرار من المهد إلى اللحد، اما اتهام المحاكمات لأنه لم يؤد دينه، واما الاتهام والاعتراض في معسكر الديمقراطية الشعبية والجماهيرية إلى غير ذلك فيما يتعلق بالتقدم الاسطبلي. الإنسان يمشي على ركبتيه ويظن أنه يمشي سوياً على صراط مستقيم وهذا منتهى الضلال، إلى حد أن أحد المفكرين، ولا زال على قيد الحياة، وهو أستاذ فلسفة في بلجيكا يسمى « ليكووفلام » يقول بالنص : إن الإنسان المعاصر لا يفكر أو لم يفكر بعد ولكنه يعلم كثيراً. الشهادات كثيرة هذا ما يسمى عندما في بعض الأحيان الجهل المدبلم، إننا أصحاب دبلومات، لا يعلم كثيراً ولكن وصل علمه إلى ضيق الفكر بالاختصاصات نظراً لكونه ربّى دعوة المنطق والاتجار بالعلم ولم يربّ دعوة القلب الذي وسع معنى ربه ولم تستطع الأكوان أن تسع معنى ربها، وفي اليمين واليسار نرى الناس يتذمرون ويتألمون لماذا ؟ لأنه من أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا، في الشرق والغرب رغم وجود الأموال ووجود الصناعات ويكون أرقى الناس أشقاهم نظراً لانسلاخهم من أنفسهم بعد انسلاخهم من ربهم وانسلاخهم من ربهم بعد جهلهم بأنفسهم فسيكون المستقبل يتخوف منه الناس، وفعلاً جاء استبنجلر وجاء بعده سُوركيل في الولايات المتحدة وهو من أصلاب سلاف وجاء توينبي ثم جاء ايرمن كوزرلي وهو من أعمق المفكرين الألمانيين المجهولين أيضاً، وجاء ديجول ومالروب، وكان القاسم المشترك بين هذه الأسماء أن الحضارة تنهار ومن سيستلم حضارة المستقبل. في حفلة عشاء بين ديجول وبين وزيرة وكاتبه العظيم أو الكبير مالروب خرجا في ليلة مقمرة وتساءلا : إن الحضارة في طريق الانهيار البطيء ولكن هي في طريق الانهيار ومن سيستلم مشعل الحضارة ؟ فكان أول من تجرأ كعسكري على الجواب هو ديجول قال في نقطتين استفهاميتين : الصين الإسلام وسكت. وجود كلمة إسلام على لسان عسكري رئيس دولة مشهور في التاريخ مواطن غيور حاطب

مثقال، وعى لفلسفة التاريخ وكانت بلاده تستعمر نصف الدول الإسلامية المستعمرة، وجود كلمة إسلام على لسان هذا الرجل ينبغي أن ترى تحت مجهر. ما هو هذا المجهر ؟ هو الحق، إنما الحيلة في ترك الحيلة. جاء الإسلام وخاطب حامل الرسالة. الله يعلم حيث يجعل رسالته. خاطب حامل الرسالة. يقول مراراً وتكراراً بما جاءك من العلم اقرأ باسم ربك الذي خلق، إلى غير ذلك. المسألة هي كلها مسألة علم، هي التي ستعطينا الجواب على مشعل الرسالة، ولكن الله سبحانه وتعالى ما كان رحيماً حتى كان رحيماً بالأجسام والنفوس والعقول والأرواح في نفس الوقت، فيما يتعلق بالنفوس والعقول والأرواح كان رحيماً بإنارتها بالعلم، فهل العلم يقول لنا بأن أبسط قواعد المنطق المتحجر بنفسه هي الأسباب المسببات اذن هذا الكون خالق، الشيء الثاني كل ما يخطر ببالك فالله ليس كذلك، هنا المغايرة. الشيء الثالث إذا كانت هنا المغايرة فستكون مطلقة وستكون مطلقة في العلم والتدبير والتصرف، والتصرف لا يكون علة إلا على يد النور الرباني. أي الروحاني، جبريل الروح الأمين. القرآن نور. الله نور إلى غير ذلك، فلا يكون دائماً على علم وعلى نور عن طريق الجسم الروحاني فقط لأن هنا ليست المسألة مسألة جزئية. حيوان نبات بيت قبيلة، حكومة صغيرة، حكومة كبيرة، لا هذا تدبير الخليقة. منها الظاهر ومنها الباطن، منها المعلوم ومنها الغائب في نفس الوقت، هنا لا بد من الإطلاق، والإطلاق ليس بالصعب إذا كان ملحقاً بالخالق سبحانه وتعالى، بالطبع سيكون صعباً إذا كان ملحقاً بالمخلوق. الكمال لله ـ هذا الإطلاق يستدعي أن يكون برحمة الله مساعدة ربانية وهذه المساعدة هو هذا العلم. يقول إنه إذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها أو أمّرْنا حسب القراءات فخرجوا عن الطريق ففسقوا فيها، خرجوا عن الطريق ومن يخرج عن الطريق فينزلق، ثم عندما ينزلق يذهب إلى بيت الانعاش وجراحة العظام وإلى غير ذلك فيدمم فدمرناها تدميراً، إذن هذا هو الحل، الدواء الرجوع، إذا كان الرجوع روحاني يسمى توبة وإنابة، وإذا كان الرجوع عقلاني يسمى تصحيح المفاهيم، وإذا كان الرجوع نفساني يسمى صفاء القلوب، وإذا كان الرجوع جسماني يسمى اتجاه آخر، وإذا كنت في الطريق المعوج بعد أن تشدقت بأنك بأعلى

عليين تشهد كتاباً مرقوم التعاليم كلها طبعاً موجودة على شرط. إذا كان عندك المال ولا تصرفه ما فائدة هذا المال وإذا كان عندك علم ولا تطبقه ما فائدة هذا العلم ؟ باب التطبيق هو طاعة الله، أنت تنتظر العلم من الله والرحمة من الله والتدبير من الله والمساعدة من الله، وبتدبيرنا فإننا لا نحسن التدبير، تقولها دبر كل صلاة طبعاً على شرط أن تطع والطاعة بمعناها أنك تسلم وجهك للمقولات الجسمانية من تجارب، والمقولات النفسانية من استفتاء القلب والمقولات العقلانية من العلم القويم سواء كان بشري مثل الصناعات والتكنولوجيا إلى غير ذلك، المقولات الروحانية التي تفضل الله سبحانه وتعالى بالإشارة إليها بكيفية ترضي النفوس وهي الأسماء والصفات، الأسماء والصفات هذه هي المقولات الروحانية العظيمة واضحة جلية، جاء الرسول عليه الصلاة والسلام وساعدنا فيها هذا الوحي الذي نرى لا مفر منه وإلا كأنما خر من السماء فتخطفه الطير، هذا الوحي ينبغي أن يبقى متواتراً على مر الأجيال ومحفوظاً في نفس الوقت، إنا له لحافظون حسن في الأوراق. إنا له لحافظون في قلوب الرجال ونفوسهم ودمائهم، دمائهم أيام الجهاد. وقلوبهم عندما يطبقون الحديث الشريف : أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر، هذا الحفظ والحفظ عند سائر العلماء، اما علماء شبان أو علماء العقلاء من الذين سبقونا بالإيمان، والعلم والإحسان والتجارب إلى غير ذلك، هنا يدخل مفهومان، المفهوم الأول من رحمة الله أيضاً أن الوحي محفوظ في كتاب معين، الكتاب الوحيد محفوظ بلغتين، الناس يتكلمون عن اللغة العربية كما لو كانوا يتكلمون عن اللغة الإيرلندية أو اللغة الأكرونية لا هي لغة الله سبحانه وتعالى لتكون وسَيلة التخاطب بين شعوب معينة، هذا معقول تراها في السوق تراها في المسجد تراها في السجن تراها في الجزاء تراها في العقاب هذا شيء دنيوي معقول، لكن من أغرب الأشياء التي يكتشفها الإنسان بعد البحث والتذكير هي أن هذه اللغة العربية تجمع بين السماء والأرض، فهي لغة ما يسمى باللغة المقدسة، وهي في نفس الوقت لغة أرضية، لما كانت لغة مقدسة أصبحت جزئية الأرضية مكسوة بغلاف التقديس أيضاً. أجرة الأجير مقدسة والدين الإسلامي صريح فيها، سلوك الرسول عليه الصلاة والسلام صريح في هذا، لقمة العيش مقدسة والدين

الإسلامي صريح فيها، والرسول عليه الصلاة والسلام لا غبار على كلامه فيها. التوالد والاتصال بين المرأة والرجل مقدس صريح، القرآن شيء والحاكم شيء والسيرة النبوية والسلف الصالح كلّ شيء. عندما يقرأ الإنسان نظام الحسبة في الإسلام يرى نور التقديس على معاملة البشر، المال أيضاً مقدس لأنه من الأشياء التي استخلف الإنسان فيها في الأرض، ولكن في جزئيات الأرض، في المال من ناحية، ومن ناحية أخرى هو رمز عرق الجبين، ومن ناحية ثالثة هو قنطرة الإنصاف والعدل والإحسان بينك وبين غيرك. في الصدقات إحسان، في أجرة الأجير إنصاف، فهذه اللغة جاءت لأنها ممتزجة بالتعاليم السماوية، ومن أغرب الأشياء هي اللغة الواحدة المقدسة التي لازالت إلى اليوم ولم تزل واقفة على ساقيها. اللغة العبرانية. رأيت نصاً ملخصه ما يأتي : مفكر فرنساوي اسمه سابرولزي من أعمق المفكرين الذين وقعت كتبهم بين يدي، له كتاب « فلسفة تاريخ البشرية »، له كتاب عن اللغة العبرانية، له كتاب عن شرح أرجوزة لفيثاغورس التي تسمى اللغة الأجنبية الأبيات الذهبية فيثاغورس ليغيردوري، وكلامه دائماً مشرق ولكن عداوته للإسلام في كلمة واحدة رأيتها، يقول بأنه كاثوليكي وأنه متدين وأنه يتحرق على التعمق والتغلغل في العهد القديم والعهد الجديد وأنه كانت آماله كلها متشوقة تواقة إلى إتقان اللغة العبرانية، ثم يستطرد قائلاً : مع غاية الأسف لقد ماتت نهائياً هذه اللغة ولا وجود لها، لغة موسى لا وجود لها اليوم، وزاد قائلاً : إن ما يسمى بالعبرانية اليوم كان يسمى وينبغي أن يسمى باللغة الآرامية واللغة الآرامية هي المزيج بين اللغة الفينيقية القديمة واللغة الآشورية القديمة التي خرجت منها لهجة جديدة تسمى بالآرامية ويسميها اليوم أصحابها بالعبرانية، ولا وجود للعبرانية، فإذن حفظ هذا الكتاب في دماء الرجال وفي نفوسهم بتأويله الحقيقي مع الإنسان يكون دائماً بين رغبة ورهبة حتى لا يتطاول على كلام ربه لأنه سيرفعه الله إذا لم يتطاول، سيرفعه الله إلى مستويات، ويجعله من المقربين، ومن تواضع لله رفعه وسيكون من أصحاب أعلى عليين، وما أدراك ما عليون كتاب مرقوم يشهده المقربون، سيظل من المقربين، هذه التعاليم ضرورية، التي هي على هذا الشكل والمحفوظة كما رأيناها في الظاهر والباطن في نفس الوقت، والتعاليم القرآنية هي مفتاح حضارة المستقبل،

الناس يقولون بأن رغبة اليسار في العدالة، ورغبة اليمين في الحرية، وخير الأمور أوسطها، فالجمع بين العدالة والحرية هو ما ينبغي أن يكون منشوداً فيما يتعلق بالمستقبل، طيب لماذا ؟ مرة جاءني زبون وهو محام وهو الوحيد الذي رأيته على هذا الشكل من الوقاحة قال لي : عندي من العلامات الفلانية والفلانية هذا سر مهنة، قلت له مرحباً سأكتب لك وصفة بعد الفحص، بعد ذلك قلت له لم يخلق الإنسان حماراً، خلق بشراً والبشر ما هو بشر إلا لوعيه، إنه يعي نفسه (العبارة بالفرنسية)، وعي الوعي معرفة نفسك أنك تعرف وهذا أوعى الوعي يجعلك تكون سبباً من أسباب الاضطرابات النفسانية عندما تخاف، يأخذك الوجع وتقشعر الجلود ويقف الشعر إلى غير ذلك قلت لا، عكس هذا استعمال الإرادة بعقل راشد متى تتحكم في عملية الفود الصم التي لها علاقة بالجهاز العصبي والذي له علاقة بمرضك، فكانت وقاحته أنه قال : أنا جئتك للحصول على وصفة طبية لا على خطبة الجمعة فكان جوابي فوراً، قلت له إجلس عندي جواب، أنا فهمت من أي فصيلة هو، قلت له عندي جواب، إذن الحياة بالنسبة إليك تتلخص في حركة مستمرة، واسمحوا لي أيها الإخوة في حركة مستمرة بين المطعم والمرحاض في دائرة العدالة الاجتماعية، ففعلاً فقد تزلزل شوية — هذا هو المفهوم العام اليوم بما يسمى بإنسانية اليوم وحضارة اليوم هي هذه الحركة العمياء بين إفراغ الحبيب وإملاء البطن وإفراغ البطن وإملاء الجيب — إلى متى، لكن هناك رحمة عظيمة، رحمة عظيمة لا يعلمها الإنسان، الأولى هي الغيب لو علم الإنسان متى سيموت لدخل مستشفى المجانين، فالغيب هذا رحمة من الله، والثانية هي الموت إن الإنسان يعلم بأنه سيموت ويطغى فما بالك لو كان خالداً على وجه الأرض، طبعاً إن ربك لبالمرصاد، ستكون هناك هزيمة نكراء في الصحراء، ستكون هناك هزيمة فيما يتعلق بسلامة العقل إلى غير ذلك، إن ربك لبالمرصاد، المدنية التي نبحث عنها هي مدنية تجمع شتات الإنسان، ترضي فيه المقومات الأربع شوق نفسه إلى العلم المطلق، الطريق الوحيد لأن العقل محدود ويعترف بحدوده، هذا لا يمكن أن يكون إلا إذا رجعنا إلى مفهوم التاريخ بمعناه الحقيقي لا بمعناه الجامعي، اسمحوا لي أصحاب التاريخ، اليوم التاريخ الجامعي يقسم إلى

العصور القديمة والعصور الوسطى والعصر الحديث والعصر المعاصر، هو أربعة لكن لا يتفطن طالب التاريخ بأن الأرض في عمرها أربعة بلايين وسبعمائة مليون سنة فهذا ما كان في التاريخ أبداً، هناك مدنيات ذهبت كما يقول القرآن الكريم، قرون ذهبت فكيف يمكن أن يتجمد التاريخ إلى هذا المعنى، لذلك وجدت مدرسة ثانية تقول بأن التاريخ أقدم مما يظن الإنسان، وبدلاً من أن نتكلم عن آدم بالمفـرد ينبغي أن نتكلم بقولنا آدمون لأن إنسانيات تلت بعضها بعضاً، لذلك في بعض الأحيان تأتي بعض التأديبات الإلهية بأنه سيذهب بنا ويأتي بقوم آخرين، إما بالبشرية جمعاء لأن الساعة تنقسم إلى خمسة إذا مات المرء قامت قيامته ساعة الفردية، ثم ساعة دولة من الدول وحكم من الأحكام، ثم ساعة حضارة، ثم ساعة إنسانية بأكملها، تتم الساعة الكبرى العظمى وهي ساعة الوجود بأكمله ـ فهنا ينبغي أن نرجع إلى التقسيم الذي يقسمه أصحابه إلى العصر الذهبي، وهو أن الإنسان عندما يكون قريباً من ولادته، قريباً بأمه، يكون قريباً من ربه لأنه قريباً ببراءته إلى ربه، نفس الشيء يقع على الإنسانية كلما كانت قريبة العهد بزيادتها وترعرعها وقربها من ربها كلما قربت من طريق براءتها كلما كانت ناجحة وتبقى في جناح أحسن تقويم لا أسفل سافلين، بعد ذلك ترد شيئاً فشيئاً فيأتي بعد العصر الذهبي ـ انتم تعلمون بأن كلمة « ذَهَبٌ » ترمز إلى علو القيمة وصفاء الذات، الذهب الإبريز، يقولون فلان قطعة من ذهب إذن بعد العصر الذهبي يأتي ـ العصر الفضي ثم العصر النحاسي ثم العصر الحديدي الذي نعيش فيه اليوم، فيما يتعلق بهذه الدورة الإنسانية بكيفية عامة لا بد للحضارة من دافع، المعروف أن الرسالات ربانية، أو حتى مهمات بشرية تقوم على كاهل من هم في منتصف الطريق بين المهد واللحد. في منتصف الطريق وهم الشبان، يقال إن الشبان مقابل الشيوخ، وشباب مقابل شيخوخة، ولذلك قلت شبان، هؤلاء الشبان طبعاً لهم مزايا كبيرة، وكلنا يعلم ذلك، فالحركات الاستقلالية والوطنية والعلمية وما إلى ذلك قامت باندفاع الشباب لأنه يندفع وهذا من باب شجاعتهم، ثم إنه حتى الآن لم يتوظف فهو لا يخاف على الماهية الشهرية، إنه يطرد أول شيء والوالدة والعائلة فهو إذن حر. الشيء الثالث أنه شديد الرغبة للحصول على الحق

بالنفس والنفيس ولذلك تكون فيه روح التضحية كبيرة، هذا من جملة مزايا الشبان، لكن هناك مساوىء، الكمال لله، الشيء الأول من المساوىء هي قلة التجربة، في بعض الأحيان شهر من الأسفار يعادل سنة من الدراسة الجامعية وربما أحسن، لأنه يجعلك تلمس العقبة الكؤود في الدنيا. الشيء الثاني هي قلة المطالعة. الشيء الثالث هو العقاد، إنه لا يرضخ لمن سبقه بفكرة وهذا لا يجوز من طلاب علم وطلاب حق طبعاً لا يتملقون، يقول افلاطون في الفصل الخامس من الجمهورية ما معناه تقريباً : عندما ترى الشيوخ يتملقون إلى الشباب وترى الشبان يثورون على الشيوخ فانتظر انهيار الديمقراطية، يعني انتظر انهيار الأمة بنفسها وهذا لا يجوز، وينبغي أن يصارح به الكهول ويصارح به الشبان، يد الله مع الجماعة، وتجربة الأقدمين كما رأيتم فيما يتعلق بأفلاطون في الفصل الخامس وهذا الفصل أثير بحثه ١٩٦٨م لما وقعت الهزة العنيفة في فرنسا هزة الشبان في السربون كيف يصل الشبان إلى النجاح ؟ أولاً باستقلال العقل لا بالانجراف والتقليد الأعمى، نقصان الخبرة والعناد وعدم التجربة والمطالعة طبعاً يجعلهم ينجرفون، والكلمة التي هي نقطة الوصل بين الانجراف وبين عقل الشباب الذي لم يكتمل رشده هي الإغواء، وهذا هو الوصف العالي الكبير للشيطان ـ الشيطان هو صاحب الرفض وصاحب الاستكبار وصاحب بطر الحق ـ بطر بمعنى كفر، وكفر بمعنى بطر ـ بطر الحق أبى واستكبر وكان من الكافرين، لا بد لهم إذن من استقلال، هذا ما يطلب في أول درجة من الشبان، هو تربيتهم على التفكير، الشيء الثاني ينبغي أن يعتمد على عزم العلماء، طبعاً العلماء فيهم أنواع وينبغي ان يستعينوا عليهم، الشيء الثالث هو أن يكون عندهم اعتزاز بالمبدأ عندما يعتنقون المبدأ القويم، وأخيراً إنما العاجز من لا يستبد، من لم يأخذ المبادرة يبقى في مؤخر الركب، مثال فيما يتعلق بالمبادرة الشيطانية، قرر مصطفى كمال بجرةقلمأن يلغيالحروف العربيةفقلب ماضيابأكمله ـ قرر ماركس وانجلز وستالين ولينين قهر المتملكين لأموالهم وأراضيهم بجرة قلم وبرمشة بمن قهروهم وقلبوا وجه الاقتصاد رأساً على عقب، فكيف لا يأخذ المبادرة صاحب الحق والله معه ينصر من ينصره، فكيف لا يمكن أن يأخذ المبادرة من هم طلاب حق، كم سيعيش الإنسان ؟ مائة أو ثمانين سنة

تعلموها مائة وثلاثين أو مائة وعشرة، متفقين ما فيه اعتراض، كم سيعيش ؟ ولكن هل سيلقى الإنسان ربه بقلب سليم، ابداً، أعطاك العلم، أعطاك الوحي، أعطاك الثروة، أعطاك الوسائل، فلماذا لا تأخذ المبادرة. أرجو الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا من الذين يتبعون الحق وينصرون الله، والله سبحانه وتعالى يجزي المحسنين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..



الأسباب التاريخية لانحراف المجتمعات الإسلامية والمنطلقات الإسلامية لتصحيح البنية الحضارية المعاصرة

للدكتور عبد الحميد أبو سليمان
الأمين العام للندوة العالمية للشباب الإسلامي
والأستاذ المساعد بكلية العلوم الإدارية - جامعة الرياض



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

لا بد للباحث في هذا الموضوع من مقدمة تسهل مهمة القارئ في فهم الإطار الذي يدور فيه البحث.

إن الباحث الواعي لأحوال الأمة الإسلامية وما بلغته من العجز والضعف والتدهور بميزان العصر ومواقع أمم العصر ـ خاصة إن لم يؤمن وعي القارئ على جوانب الموضوع ـ لا بد له من الاعتذار والتوضيح قبل أن يبدأ العرض.

لأن المسلمين على ما هم عليه إنما يدَّعون الانتماء إلى الإسلام.

وما كان لمنهج حياةٍ هذه حال من ينتمون إليه أن يؤخذ مأخذ الجد في ساحة التقدم الأفضل للإنسانية نحو المستقبل.

وهذا حق لو وقف عند هذا الحد.

ولكن القضية بالفعل أبعد آفاقاً مما يدل عليه ظاهرها.

ولا بد للمفكر والباحث أن لا يقف عند حد الظواهر، وأن يتمعن تلك الظواهر إذا كان جاداً في البحث إذا دعت دواعي الجد.

والأسباب التي تستوقف الباحث الجاد في الأمر عديدة منها :

١ ـ أن الإسلام دين وينتسب إليه ما لا يقل عن خمس البشرية.

٢ ـ أن الإسلام ظل يسيطر على خيال وثقافة وفكر الأمة الإسلامية عدداً كبيراً من القرون.

٣ ـ أن المسلمين رغم كل الظروف والأحوال والهجوم المر الذي يتعرضون له ولانتسابهم لهذا الدين وهذا المفهوم للحياة، فإنهم يتمسكون بالانتماء إليه، رغم ما في واقعهم من انحراف عن مثله.

٤ ـ أن المسلمين حاولوا كل السبل في تقليد غيرهم، واستيراد أساليبه ومناهجه لإصلاح شأنهم، وفشلوا لعدة قرون، وتحت ظل مختلف الظروف والمؤثرات من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب دون جدوى.

٥ ـ أن المتأمل في أحوال الإنسانية والحضارة المادية المعاصرة رغم كل ما حققته من إنجازات علمية وتقنية مادية لا يخفى عليه وجوه العجز ومواطن الخطر في مسار هذه الحضارة، بل وبسبب ما أنجزته هذه الحضارة من قدرات مادية وهائلة مدمرة دون أن تحقق له النمو والاستقرار النفسي والعاطفي والروحي المتكافىء وهذه القدرات.. ولا أن توفر له المنطلقات الفلسفية اللازمة للسيطرة على هذه القوى الهائلة، فلا تكون وبالاً عليه وعلى أسس وجوده.

من هنا لا يمكن للباحث أن يتجاهل كل هذه القضايا والظواهر، فلا يبحث في أسس بلاء هذا الجزء الهام من البشرية الذي هو الشعوب المسلمة، كما لا يمكنه أن يمر بهذه الشعوب الكبرى من البشرية دون أن يتفحص مفاهيمها ومنطلقاتها في مواجهة أزمة البشرية القائمة في أبعاد حالكة نحو المستقبل، إذا قسنا مستقبل البشرية بماضيها المعاصر في حروب عالمية بربرية مدمرة تفتقد دواعي حكمة المنطق الإنساني السليم.

إن من المهم في هذه المقدمة تحديد عدة قضايا.

أولاً : إن تدهور المسلمين قديم، تمتد جذوره إلى قرون طويلة حتى قبل أن تسقط بغداد وقرطبة وسمرقند.

ثانياً : رغم كل الكوارث فإن المسلمين مصرون على الانتماء راغبون عن التحول.

ثالثاً : إن كل محاولات الحلول المستمرة من المنطلقات الحضارية الأجنبية ولعدة قرون قد فشلت في تغيير حال الأمة وتحريك طاقاتها وحل مشاكلها.

رابعاً : أن منطلقات الحضارة الغربية المادية على مختلف أشكالها تضع الإنسانية في مآزق خطيرة ومستقبل مظلم، لا يغير من تلك الحقيقة كل المنجزات الإيجابية لهذه الحضارة بل إن تلك المنجزات تجعل وجوه القصور مطاعن قاتلة للوجود الإنساني ككل.

أزمة فكر لا أزمة عقيدة :

ولكي تعي الإنسانية موضع الإسلام الذي غطى قدراً كبيراً من تاريخها وكيان شعوبها ووجه اليابسة من تحتها ومن مستقبلها.

ولكي يعي المسلمون حقيقة الأزمة المزمنة التي يعانون منها لا بد لهم من تفحص القواعد الأساسية التي يرتكز إليها كيانهم لتحديد سبب الأزمة والغوص إلى أعماق تلك الأزمة ومعالجتها معالجة جذرية، فلم يعد في واقع حالهم من الخارطة الإنسانية الحضارية ما يحرصون عليه ويخشون ضياعه في بحثهم عن أسباب الأزمة الساحقة المزمنة التي يعانون منها.

وفاعليات الإنسان ترتكز إلى عاملين أساسيين هما :

١ ـ إمكاناته وفاعلياته المادية.
٢ ـ إمكاناته وفاعلياته المعنوية.

ولذلك فالسؤال المنطقي الأساسي : هل سر الأزمة التي يعاني منها المسلمون تكمن في قصور إمكاناتهم المادية ؟

والجواب بالتأكيد بالنفي.

فالمسلمون يتحكمون في رقعة واسعة من الأرض تضم في جنباتها مختلف الإمكانات المادية التي لا تقصر عن حاجتهم الحضارية، كما أن

كيانهم يضم أعداداً بشرية هائلة تنتمي إلى كل أجناس الأرض وشعوبها، ولها من الثقة النفسية قدر كبير فيما سبق لها أن حققته من إنجازات ومواقع تاريخية حضارية.

ومع ذلك فإن سمة العجز والقصور سمة تلاحق كياناتهم على اختلاف مكوناتها ومواقعها المادية.

وإذا لم يكن القصور يكمن في إمكاناتهم وفاعلياتهم المادية، فليس من بد في أن القصور يكمن في إمكاناتهم وفاعلياتهم المعنوية.

ولكن السؤال يكون حينئذ : في أي مكونات الفاعليات المعنوية يكمن الضعف ؟

وقد تبرع الدارسون من أصحاب الغايات والأغراض من الأمم المناجزة للمسلمين حضارياً والطامعين في مقدراتهم، الساعين إلى السيطرة عليهم بالتبرع بالإجابة على هذا السؤال بالقول : إن العلة تكمن في الإسلام، دين الأمة ومنهجها.

وكانت تلك الإجابة هي منطلق محاولات طويلة مرة لأكثر من قرنين للخلاص من سيطرة الإسلام على الأمة ونظامها الاجتماعي، وما تزال الأمة في ضعف وهوان وعجز تزداد هوته وتتعاظم آلامه.

ولكن الحيرة والتخبط يزدادان ولا ينقصان.

ولا يبدو أمام الأمة الآن مخرج ولا منقذ.

والسبب في تصورنا أن قضايا البحث اختلطت بقصد ودون قصد.

فالقضية ليست إن كانت تكمن في منهج الأمة وإسلامها أو لا تكمن، ولكن القضية في وضعها الصحيح هي : في أي مكونات هذا المنهج يكمن الضعف وسبب الأزمة ؟!

هل تكمن الأزمة في عقائد الأمة الأساسية، وقيمها المثالية، وغاياتها الاجتماعية ؟

لا يستطيع عاقل أن يقول إن الأزمة لها أي علاقة بهذا الجانب من مكونات الأمة المعنوية.

ولا يخفى على عاقل سمو تلك القيم والعقائد والمبادئ والغايات الاجتماعية.

وليس يخفى على الناظر أن من مظاهر الأزمة هذا القصور البين بين هذه القيم والتطلعات وبين واقع السلوك والممارسة الإسلامية للأمة.

من منا يشك في غايات الإخاء والعدل والكرامة والقصد والتطهر في عقائد المسلمين وقيمهم.

ومن منا لا يفتقد تلك القيم والغايات في البنية الاجتماعية في واقع الشعوب الإسلامية وممارساتها.

هل يشك أحد في وجوب الصدق والأمانة والرحمة والبذل والتكافل والعدل وحسن الأداء والاتقان في قيم الإسلام.

وهل يشك أحد في تفريط المسلمين في هذه القيم وغيبتها وغيابها في سلوكهم وعلاقاتهم.

نعم من المهم أن نعلم أن عقائد الإسلام التي تقوم على التوحيد والإخاء وقيم الحق والعدل والبذل هي من ضمن أهم مقومات الأمة وفاعلياتها الإيجابية في مواجهة أسباب الأزمة التي تغوص بها في دوامة الضعف والعجز والانهزام.

ولولا قوة دفع هذا الدين، رغم كل التشويه والضباب والقصور في فهمه، لكان حال الأمة من الهمجية والبربرية أشد هولاً، ولكان مصيرها الموت والفناء منذ آماد طويلة.

إذن ما هو سبب الأزمة ـ إن حقيقة الأزمة التي تعاني منها الأمة هي في أساليب دربتها الفكرية وعلاقاتها التنظيمية الاجتماعية. أي أن الأزمة ليست في جوهرها أزمة عقائد وغايات ومُثُل بل هي أزمة فكر وأسلوب وتمثل وتنظيم.

ماهية الأزمة الفكرية وكيف نشأت :

من الواضح والمسلَّم به أن فترة صدر الإسلام تمثل قاعدة البناء الإسلامي التي أرست أسس تكوين الأمة وبنائها، ومن المعروف والمسلَّم به

أيضاً ما تميزت به تلك الفترة من علاقات اجتماعية وقدرات وإنجازات هائلة تركت آثارها التي لا تنمحي في قسمات وكيان الأمة.

ولا تخطىء عين الدارس أنه، بزوال دولة المدنية وانقضاء عصر الصدر الأول، حدث تغير وتحول في كيان الأمة ومسيرتها وعلاقاتها، ولكن الباحثين لا يقفون طويلاً عند هذا التحول الحاسم في محاولة فهم التدهور اللاحق.

وكثيراً ما ينصرفون إلى محاولة تفهم الأسباب في الأحداث المباشرة، لصعوبة الربط بين تلك الأحداث والتدنيات والتحولات التي حدثت في عصور من التاريخ الإسلامي يتميز كيان الأمة فيه بكل مقومات المهابة والقدرة والإنجاز الحضاري في الدولة الأموية والعصر العباسي الأول.

أو بسبب الإرهاب السياسي في عصور الضعف والانحطاط الذي يقاوم النظر السليم والمنطق المستقيم.

أو بسبب الخشية من مزيد من العناء ينكأ جراح الأمة وذكريات محنها وحروبها وصراعاتها الكبرى.

أو بسبب الرهبة والإجلال لتلك العصور والشخصيات التاريخية التي لم يبق للأمة سوى ذكراها.

وبذلك يبقى البحث عاجزاً ناقصاً، يرد الظواهر إلى ظواهر والنتائج إلى نتائج دون قدرة على معرفة حقيقة الأسباب، ولكن تبقى الحقيقة ماثلة في أن الأزمات الكبرى في حياة الأمم والشعوب لا تفسرها الأحداث المباشرة، ولا بد من الغوص في أعماق كيان الأمة وتاريخها وتتبع مجرياته لمعرفة البدايات البعيدة والأسباب الأولية والأساسية وتحديد مساراتها لمواجهتها وتصحيحها والتصدي لمضاعفاتها.

وتبقى الحقيقة أن تحولاً أساسياً، وفي ميدان فاعليات الأمة وإمكاناتها المعنوية، قد حل بها بزوال عهد الصدر الأول والخلافة الراشدة وعلاقاتها الاجتماعية رغم امتداد الدفع المادي وطرح ثماره خلال العهود الأولى اللاحقة لعهد الصدر الأول.

ولكن كيف حدث ذلك التحول.

في تصورنا أن ذلك التحول بدأ بانضمام أفراد القبائل العربية من غير المهاجرين (من قريش) والأنصار (من الأوس والخزرج) إلى صفوف الجيش الإسلامي في مسيرته نحو الشمال لمواجهة الخطر الداهم من قبل الامبراطوريتين العظيمتين في ذلك الوقت، الرومانية والفارسية.

وجنود الأعراب لم يكن لهم من الرؤية العقائدية والتربية الإسلامية ما كان لجيش بناء دولة المدينة بقيادة الرسول عليه الصلاة والسلام، يشهد عليهم القرآن الكريم بقوله : (الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألّا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله) (٩ : ٩٧) ـ (قالت الأعراب آمناً، قل لم تؤمنوا، ولكن قولوا أسلمنا، ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم....) (٤٩ : ١٣) وتشهد عليهم قسوة البيئة التي لم تكن تسمح لهم بما وراء حياة الكواسر كثيراً ولقرب عهد التحول إلى مجتمع الإنسان المسلم.

ولذلك، وقد أصبحوا قوام جيش الأمة ولتعاظم ضعف رجال القيادة في المدينة بالسن وفي العدد، كان لا بد أن يملي جيش القبائل وجوده السياسي وقيمه وتصوراته وعلاقاته الاجتماعية التي لم تكن في جملتها جاهلية بحتة ولا إسلاماً ناصعاً نقياً، ولكن كان مزيجاً من الأمرين، وما تجلّت به ممارساتهم بعد ذلك من المحافظة على الهياكل والرسوم هو في جملته على حساب المحتوى وحقيقة الغايات والأهداف وطبيعة العلاقات الاجتماعية الإسلامية.

وفي ظل هذه المعطيات كان لا بد من الصراع ولا بد من زوال دولة المدينة، وكان لا بد من قيام دولة جديدة كانت هي دولة بني أمية التي لم يقف التغير فيها فقط عند تحول الخلافة إلى ملك عضوض كما يعترف الكتاب الإسلاميون ويقفون في دراستهم عند هذا الحد، فالتغيير السياسي لا يمكنه أن يقف عند ذلك الحد، فلا مكان لمثل هذا التغيير السياسي ولا موضع له دون أن تكون آثاره الاجتماعية والاقتصادية والاخلاقية.

وكان أبعد آثار ذلك التحول هو حال الانفصام والمواجهة بين فكر المدينة ومنطلقاتها وبين السلطات السياسية في الدولة الجديدة، ومثالاً على ذلك، تحديداً للمسئولية وحفظاً للحقوق ومنعاً للتبرير وسوء الاستخدام ـ كان لا بد أن يقف أبو ذر ليرد على معاوية رضي الله عنهما وهو على المنبر

قوله : بأن « المال مال الله »، وهي يبني عصبية ويتألف أعواناً يتحكم بهم في الرقاب في قوم يريدون أن يصطنعوا وأن يميزوا وأن يستخدموا أعواناً على رقاب الناس، وليقول له : بل « مال المسلمين ».

وبقي إقليم النشأة، المدينة، ثائراً رافضاً هذا التحول ـ رغم أن رجال الحكم في دمشق كانوا من قريش ـ فكانت ثورة الحسين وابن الزبير ومحمد النفس الزكية وزيد بن علي وكانت حروباً أهلية طاحنة.

وبقي رجال الفكر الإسلامي وأمناء الفكر الإسلامي في مركز المناجزة والمعارضة، فيموت الإمام أبو حنيفة سجيناً، ويضرب الإمام مالك، ويهرب الإمام الشافعي، ويعذب الإمام أحمد.

وكانت تلك المواجهة والانفصال بين القيادتين الفكرية والسياسية في الأمة هي أخطر آثار ذلك التحول وأس البلاء، حيث انعزل الفكر واضمحل، وجفت مصادر نمائه وتجدده في ميدان التطبيق والممارسة والقيادية، وهزلت السياسة والقيادة السياسية لجفاف منابعها من القيم والتصورات والفكر، وارتكزت إلى الجهل والقهر.

الجمـــود والتـدني :

وكان ذلك التحول، وما يتبعه من تحولات من دولة المدينة إلى دولة دمشق ثم بغداد وما وراء دمشق وبغداد، بكل ما أضافت تلك التحولات من ضباب الرؤية وعماوات جاهلية قبلية عربية وفارسية وهندوكية ورومية وغربية، بداية الانحراف الذي أرسى وعمق عزلة القيادة الفكرية الإسلامية عن القيادة السياسية الاجتماعية للأمة.

وتركت تلك العزلة والفرقة آثارها الرهيبة على الفكر الإسلامي جموداً، وعلى السياسة الإسلامية قهراً وجهلاً، وعلى كافة الأمة خرافة وضياعاً واستضعافاً.

ويهمنا هنا أن نناقش قضية هذا الجمود، جمود الفكر الإسلامي وما ترتب عليه من ضباب رؤية الأمة، فنحن إذا استطعنا في تصوري توضيح هذين الجانبين أمكن لنا أن نشخص الداء وأن ندرك طبيعة الدواء ـ إن شاء الله.

إن عزلة الفكر والمفكرين المسلمين عن الدولة نتيجة ما حدث من تحول أدى بهم إلى الانزواء والتحفز والمعارضة.

وقد انصرفوا في البداية إلى توثيق التصور والتطبيقات الإسلامية، فنشأ علم الحديث وعلم الفقه (بروحه الوصفية)، ونشأ علم العقائد بعيداً عن النظر في النظام الاجتماعي وتنظير تطبيقاته وبقي في حدود قضايا غيبية كمباحث الأسماء والصفات والقضاء والقدر.

ومع تطور الأحوال الاجتماعية فإن عزلة المفكرين الإسلاميين جعلتهم أقل قدرة على إدراكها ومواكبتها، والمبادرة إلى قيادة اتجاهاتها وجعلتهم في نفس الوقت أشد خوفاً على التراث الذي في أيديهم من غايات القيادات السياسية وأساليبها المغايرة مما انتهى بالفكر الإسلامي إلى الغرق في بحر الأسلوب الوصفي والتعلق بالقناعات الذاتية الناجمة عن النظر الجزئي في القضايا التاريخية والعجز عن إدراك التطورات المحيطة أو احتوائها وتوجيهها، والإغراق في العزلة والانغلاق وتأكيد الذات.

وهكذا انتهى الفكر الإسلامي إلى الجمود والركود والوقوف بعيداً عن مجرى الأحداث، وعرف ذلك في تاريخ التشريع بإغلاق باب الاجتهاد.

ولهذا لم تأت الومضات الاجتهادية التطبيقية إلّا من رجال أضافوا إلى حصيلة علمهم الممارسة الاجتماعية والنظرة الكلية والنزول إلى دائرة العمل السياسي، أمثال إمام المدرسة الاصلاحية السلفية الإمام ابن تيمية.

وما أحرانا في هذا المجال أن نعي معنى اجتهادات أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه الهائلة رغم قرب عهده بالرسول عليه السلام.

وعلى سبيل المثال اجتهاده في نظام الخراج، واجتهاده في وقوع الطلقة الواحدة بلفظ الثلاث طلاقاً بائناً رغم معارضة ذلك لظاهر النص القرآني في الأمر (الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) (٢ : ٢٩)، أخذاً منه بحق ولي الأمر المشروع في تقويم أمر الرعية.

من هذا ننتهي في هذا المجال إلى أن المنهج الدراسي الفكري للمدرسة الإسلامية التقليدية يحتاج إلى إصلاح جذري ينقله إلى أسلوب

النظرة الكلية وإلى اعتبارات الممارسة والنظم والتطبيق، والخروج على الأسلوب الوصفي المحدود وإعادة الوحدة إلى الفكر الإسلامي بين النظرية والتطبيق، بين علم العقائد وعلم الفقه، وحتى ترتكز التطبيقات والممارسة الاجتماعية في كل صورها إلى العقائد والتصورات الأساسية التي تحكمها.

الخروج من دائرة الفهم والنظر الجزئي لأحداث الصدر الأول ونصوصه وممارساته إلى الفهم والنظر الكلي الذي يعي عنصر الزمان والمكان في تلك التصرفات والأحداث ويربط بين أجزائها وغاياتها ومساراتها التاريخية الكلية، ويوظف الأسلوب التحليلي في فهم الأمور ووعي دلالاتها. وبذلك تعود للمشاهد حياتها، وللأحداث معانيها، وللقرارات والأوامر دلالاتها، وتزول ذاتية الأحكام ومحدوديتها وغيبيتها.

وعندئذ فقط يتخلص الفكر الإسلامي من الأسباب الموضوعية لجموده ويعود إلى مكان الصدارة في توجيه قرارات القيادة السياسية والاجتماعية وإمدادها بالحلول والبدائل والخطط الرائدة لحسن سير الحياة الاجتماعية وفاعليتها.

الحلقة المفرغة :

وستبقى الأزمة قائمة والداء مستفحلاً والاستقرار مفقوداً والعجز متفاقماً، تتردى به الأمة من هاوية إلى قعر هاوية على بحر هائج من التضحيات والآلام ما لم يكسر الطوق ويوضع حد للدوران في حلقات مفرغة من الحلول الفاشلة البائسة من التقليد الأجنبي أو التاريخي.

إن الحل يكمن بتهيئة الظروف لقرار سياسي بكل تبعاته من قبل الأمة، وأخذ نفسها به ثمناً لآلامها ومعاناتها وآمالها.

هذا القرار هو إعادة صياغة « التعليم » و « الإعلام » لبناء ثقافة موحدة تكون قيادات إسلامية تؤمن بهذه الثقافة وتتفاعل معها.. فكراً وممارسة بشكل إيجابي وفعال وتوفر قاعدة اجتماعية واسعة تراقب وتدعم هذا اللون من القيادات.

تعليم يقدم المهارة الفنية والبحث الفني على أعلى المستويات، على أسس ولغايات إسلامية.

وإعلام يقدم الترويج والثقافة والتصورات للمشاهدين والقراء والناشئة على أساليب ونصائح تمثل القيم والغايات الإسلامية ولا تتعارض معها.

إن المهمة في هذه المرحلة التاريخية تقع على عاتق المفكرين والقيادات الإسلامية في توضيح طبيعة القرار السياسي المطلوب من الأمة حتى إذا ما اتضحت الغاية واتضح الطريق والحل.

أخذت الأمة بكل الأسباب لتحقيق تلك الغاية ومارست الحل بكل الطرق والأساليب وعلى كل المستويات الرسمية وغير الرسمية والمباشرة وغير المباشرة.

وأقامت محاضن الوحدة الفكرية بكل الأساليب والوسائل في التعليم الرسمي والتعليم الخاص، وفي سياسة النشر وفي سبل نشر الثقافة والترويج لها، وفي سياسة العمل والتوظيف وفي كل المواقع وبكل الأساليب في جهاد لا يني وعزم لا ينثني.

عندئذ يتحقق المسار الصحيح لمسيرة الأمة.. وتحل الأزمة الفكرية في أسسها ومنابعها.

تصحيح المفاهيم الإسلامية :

وخلال هذه المسيرة في سبيل اتخاذ القرار السياسي من قبل الأمة في إصلاح مسار « التعليم » و « الإعلام » وتنشئة القيادة الإسلامية الفكرية والسياسية والاجتماعية الموحدة التي ترتكز إلى قاعدة متينة تسندها وتستجيب لها، خلال هذه المسيرة على المفكرين الإسلاميين تصحيح المفاهيم الإسلامية لدى الأمة وإزالة الغبش التاريخي الذي لحق بها من المؤثرات الوافدة والرواسب العالقة والمصالح السياسية الفاسدة التي تحرص على إبقاء الأزمة والترويج لها.

وهذا يكون بتوظيف الطاقات الإسلامية الفنية في كل ميدان لمراجعة المفاهيم السائدة التي لا تعكس روح الإسلام الخلاقة من خلال الفهم

السليم والاستنباط الدقيق للأحوال التي تعنيهم في الواقع والتاريخ، والرصد من خلال اللقطات المحدودة للنصوص وربطها بأحداث الحياة على عهد الرسول ﷺ وسياساته وخلفائه الراشدين، وبحياة الرسول عليه السلام وأصحابه في صدر الإسلام حتى تعود للأمة مفاهيمها الحية الفاعلة الصحيحة التي أعطت للأمة جيل الأصحاب أكثر ما يكونون فاعلية وأكثر ما يكونون عطاء وبذلاً دون إشراف نفس أو طمع أو شره، قوماً رأوا في الحياة والمادة وسيلتهم إلى الوجود والتعبير الخير بها عن إرادتهم وذواتهم، فكانوا بذلك حركة دائمة وفعلاً خيراً مستديماً، حيَاتُهم فاعلية وعطاء وبذلاً، وليست جمعاً وحرصاً وتكديساً لاهثاً فاسداً رخيصاً لا يتوقف ولا ينقطع.

وكان الإسلام بالنسبة لهم ليس لحظة ذكر أو بذلاً وتضحية مرة، لكنه مسيرة دائمة على سبيل الحق والخير واتخاذ القرارات الفاعلة السليمة، أسلوب حياة ومسيرة وجود حتى تلقى وجه ربها خيراً وسعادة أبدية.

ولذلك لا يحقر المرء منهم من المعروف شيئاً ولو أن يلقى أخاه بوجه طلق، وإماطة الأذى عن الطريق صدقة، وفي بضع أحدهم صدقة، والراحمون يرحمهم الله، والمسلم من سلم الناس من يده ولسانه، والمسلم من أَمِنَ جاره بوائقه، والمسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، وكان الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، والمسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضاً، ومثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، ولا فضل لعربي على أعجمي إلّا بالتقوى، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى، والبر حسن الخلق، وما آمن من بات شبعان وجاره جائع وهو يعلم به، والنظافة من الإيمان، وأن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه.

وهكذا أمكن لبضع آلاف من الناس، آمنوا بهذه الحقائق والفضائل وعاشوها، أن يجتاحوا جل العالم المتمدن في عصرهم وأن يتحول الناس إلى عقائدهم وسمتهم بل وحتى لغتهم، وهو ما لم يحقق مثله فاتح في مثل هذه الحقبة من التاريخ.

ولأضرب مثلاً كيف ينحرف الفهم وكيف يجب أن يستقيم، فالعمل

الصالح عند أولئك الأصحاب لا يقف عند الحد السلبي المساعد وهو حد الذكر أو ما يطلق عليه العبادات، بل هو إلى جانب ذلك عمل إيجابي موضوعي فاعل خير يبدل تعبيراً عن الذات والإرادة.

كما أنّ مفهوم العبودية لم يكن يرادف لديهم الاستعباد بل التعبد وهو أخذ النفس بالحق والصواب وتعبيدها وتذليلها، فالله هو الحق، وللمؤمنين القوة والقدرة والفاعلية والعزة.

ومثل آخر كيف أن الدارسين من غير المختصين في علم الحكم أو السياسة لم يمكنهم أن يعوا درساً مثل درس تصرف أبي بكر رضي الله عنه في حرب الردة.

لقد رأوا في ذلك حين لم يعوا طبيعة مجتمع الأصحاب المحدود ومعرفتهم الكاملة ببعضهم البعض، وانشغالاتهم الهائلة بأعمال الفتح والإدارة، وانعدام الهياكل الرسمية، والتنظيمات الاجتماعية المسبقة مما يجعل فهم تصرفاتهم وأعمالهم ودلالاتها من خلال الاهتمام بالهياكل والتصرفات الرسمية ناقصاً مبتوراً ولا يمكن فهمها إلا بفهم البناء غير الرسمي في تلك العلاقات والتصرفات.

فـ « أبو بكر » كان من خيرة الأصحاب والقائد الذي اختاروه لجماعتهم، وكان معروفاً عندهم بالرحمة ولين القلب وكثرة البكاء رقة وشفقة، ولكنه كان ذا بصر ثاقب ورؤية واضحة وجنان ثابت، ولذلك سمي بـ (الصديق).

فلما واجه ثورة العرب على السلطة المركزية لله ثم له، وأعلنوا العصيان وامتنعوا عن دفع الزكاة، كان الأمر بالنسبة لأبي بكر واضحاً وهو أن الأمر ليس أمر عقيدة فقد خاطبهم القرآن الكريم، « ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم »، فالقضية في جوهرها قضية النظام الاجتماعي وإظهار الولاء له في الحياة والعلاقات الاجتماعية العامة وليست قضية إيمان وتعلق ويقين.

فلما ارتفعت أصوات بعض الأصحاب لهول فكرة القتال بين من يدعون الإسلام واختلط الأمر عليهم، كان من الطبيعي أن لا ينكص القائد

الخليفة على عقبيه عند أول صيحة بل يصمد ويوضح رؤيته في هذا الأمر المصيري، فإما أن يرى ما يرون أو يرون ما يرى أو لا يتحمل مسئولية العمل دون قناعته في قرارات مصيرية.

وأخذ النظر والنقاش مجراه بين الأطراف، وهنا يتضح لهم الأمر ويرون ما يرى أبو بكر، ويعلن عمر الثقة المطروحة في أبي بكر ويقول : « فوالله ما إن رأيت إصرار أبي بكر على الأمر حتى شرح الله صدري ».

وهكذا مارس أبو بكر دوره القيادي واتخذ القرار المصيري الصائب في قتال أهل الردة بقناعة، وتقبل الصحابة رضوان الله عليهم دون قسر أو رهبة لم يكن لأبي بكر وسائل غيرها على أي حال.

وهكذا لا يرى في مثل حادثة حرب الردة مثالاً على عدم التزام الشورى إلا من ليس له دراية بعلم الحكم ولا ممارسة إجراءات اتخاذ قراراته.

وهذا شبيه بمن يرى الديمقراطية والشورى أمراً واحداً دون أن يدرك الفوارق الأساسية النابعة من الفلسفات، والمرتكزات التي ترتكز كل واحد من هذه المفاهيم والمصطلحات اليه.

فالديمقراطية هي التعبير عن مفهوم الفلسفة المادية الفردية في اتخاذ القرار السياسي ولذلك فهي تستند إلى حق الفرد المطلق في تحقيق ذاته وأن كل شيء هو وسيلة لتحقيق تلك الذات ومقياس الحق والخير والصواب.

وبذلك فإن الأغلبية حين تتحقق يكون لها الحق المطلق لأن لها القوة للحصول على اراداتها، ولا يكون للأقلية حق، والدساتير الحديثة وحقوق الإنسان الأساسية هي ترقيع لذلك النقص الخطير في التعبير الديمقراطي السياسي وواقع الممارسة في تلك المجتمعات، بينما الشورى تعبير عن مجتمع الإخاء الذي يسعى في حدود الحقوق المترتبة مسبقاً وشرعاً لكل فرد وفقاً لأحكام الإسلام بغض النظر عن موقعه من اتخاذ القرارات أقلية أو أغلبية، وذلك باتخاذ القرارات بروح الإخاء وتوخي المصلحة العامة والسعي نحو الحق لذاته بما تمليه روح الإسلام، ولذلك فالتعبير يحمل معنى التناصح والتشاور دون أن يمس بعد ذلك الزامية المشورة الصحيحة من قبل

المؤهلين لها : (كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين.... فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا..) ٤ : ١٣٥.

هذا اللون من الجهد المكثف المتخصص القادر على تصحيح المفاهيم والتأثير في التربية والسلوك والمؤسسات الاجتماعية سيكون خير عون على توضيح الرؤية والمفاهيم في سبيل الحسم لمصلحة القرار السياسي المطلوب لإصلاح « التعليم » و « الإعلام » وحل « الأزمة الفكرية » وتوحيد القيادات الفكرية والاجتماعية وارتكازها إلى القاعدة السياسية المطلوبة في وحدة ثقافية إسلامية شاملة، وتكون الأمة عند ذلك قادرة على السير في الطريق مهما سبب ذلك من معاناة وجهد مقابل الواقع المر من العجز والضعف والألم التي ظلت تتجرعه على مر قرون من الانحراف والسحق والهزيمة والهوان.

الإسلام ومستقبل الإنسانية :

ولكن ما الذي يعني الإنسانية من هذا الإسلام ومشاكل أمته التي حاولنا القاء الضوء عليها فيما مضى في الصفحات السابقة.

الذي يعني الإنسانية من هذا الدين هو ما يعني المسلمين، بل إن الإنسانية والشعوب القادرة علمياً ومادياً هي فيما أرى أشد حاجة إليه لأنه يحوي المفاهيم التي تجيب على جوانب الضعف في كيانها القائم، والمتفاقمة على مدى المستقبل.

ويتلخص ذلك في أمرين :

الأمر الأول :

أن الإسلام يقيم مجتمعاً يبنى على أساس الوحدة ويقوم على مفهوم الإخاء، ويركز النظر على الاستجابة لحاجة الفرد الأساسية، والاهتمامات المشتركة بينه وبين الآخرين على كل المستويات، انطلاقاً من الأسرة إلى الجار إلى القوم إلى الإنسانية.

وهذه الشعوب وهي تفجر الطاقات المادية التدميرية الهائلة لا يسعها أن تعيش في ظل فلسفات المواجهة و « الصراع » بين الأفراد أو القوميات أو

الطبقات أو ما أسميه فلسفة « الحراب المتقابلة »، فلا شك أنه مع توفر آلات الدمار الكونية، وفي ظل نفسية الصراع والمواجهة والتركيز على وجوه الاختلاف والتعارض، ليس هناك ما يدعو إلى الظن إلا أن يفلت الزمام في لحظة جنون إنساني انتحاري شهدت الأزمان ما يماثلها مع فارق الآثار المدمرة في عالم الغد.

ومن هنا فإن عالم الإسلام أو عالم « الحلقات المتداخلة » و « الأمن الجماعي » هو فلسفة الغد التي لا سبيل سواها لتحقيق النمو والأمن النفسي والروحي والعاطفي الإنساني الذي يحقق الأمن والسلام الصحيح لعالم الغد.

يقول الله.. « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالاً كثيراً ونساء.. » ٤ : ١.

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير » ٤٩ : ١٣.

« ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم » ٣٠ : ٢٢.

« وما كان الناس إلا أمة واحدة، فاختلفوا... » ١٠ : ١٩.

« وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار وذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل... » ٤ : ٣٦.

« من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً.. » ٥ : ٣٢.

« ولا تنسوا الفضل بينكم.... » ٢ : ٨٣.

« وقولوا للناس حسنا .... » ٢ : ٨٣.

« لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم، إن الله يحب المقسطين » ٦٠ : ٨.

« وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » ١٦ : ١٢٦.

« وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا » ٢ : ١٩٠.

« فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين »٢ : ١٩٣.

« ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله » ٦٠ : ٨.

« وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى » ٦ : ١٥٢.

« وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » ٤ : ٥٨.

« وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » ٥ : ٢.

« وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهمـا، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا، إن الله يحب المقسطين. إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم، واتقوا الله لعلكم ترحمون. يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب... » ٤٩ : ٩ ــ ١١.

الأمـر الثـاني :

يتعلق بمعنى المعرفة وطرق البحث العلمي، فالحضارات والفكر المادي يقـوم جوهريـاً على الأسلوب العقلي التجريبي الاستقرائي وهو ينطلق من العالم المحسوس والتجارب والمعلومات المتوفرة للتعرف على القوانين التي تحكم الحياة والكون. وهو فكر منبث عن أي معرفة مسبقة أو وحي منزل لأنه لأسباب خاصة بالأديان الكبرى الأخرى عدا الإسلام، خاصة المسيحية ليس بإمكان اتباعها علمياً الثقة بأي معلومة بعينها مما جاءت في كتبهم المقدسة ولأن كثيراً مما بها لا يقبله العقل والعلم.

وإذا أدركنا التعقيد الهائل للطبيعة الاجتماعية للإنسان، وتعدد العوامل التي تؤثر على السلوك الإنساني في وقت واحد، واستحالة تثبيت بعضها أو إخضاع البشر للتجربة المعملية، أدركنا التخبط الهائل للعلوم الاجتماعية وتوالي النظريات المتناقضة في ميدان العلوم السلوكية والاجتماعية والتربوية.

ولما كانت آثار الأخطاء في هذه المجالات لا تتضح في أمد قصير ولا يسهل تلافي آثارها المدمرة بعد أن تصل إلى مداها في تكوين الجماعات الإنسانية والتأثير على بنيتها.

إذا أدركنا ذلك أدركنا الميزة الموروثة في مجال المعرفة الإسلامية، فالمعرفة الإسلامية تنطبق على المعرفة المادية ولكنها لا تقف عند حدها بل تهذبها وتمنع أضرارها.

ففي الوقت الذي يجب فيه على المسلم النظر والفهم في الخلق والمخلوقات والتعامل معها والإفادة منها ودعايتها إلا أن المسلم لديه كمية من المعلومات والمسلمات المسبقة بلغت إليه وحياً من عند الله تختص بالقضايا الاجتماعية السلوكية الأساسية، فإذا شط الفهم والنظر بالمسلم في قوانين الكون والوجود والعلاقات فإن له من الوحي عاصماً يمنعه من الندم بعد فوات الأوان، فليس صواباً ولا حقاً ما عارض حلالاً أو حراماً بفهم صحيح لنص صريح. وهكذا فإن المعرفة الإسلامية توظف وفي وقت واحد مصادر المعرفة العقلية التجريبية الاستقرائية إلى جانب مصادر المعرفة الكونية الكلية الاستنباطية، فللمسلم أن يتعامل ما شاء له التعامل وأن يتاجر وأن ينتج ما شاء الله له المتاجرة والانتاج إلا أن يكون عملاً يسبب أذى للخلق أو ربا أو ظلماً لهم لا بذل جهد وتبادل نفع.

وللمسلم أن يتخذ له ما شاء من أساليب العيش وتقاليد الحياة الأسرية الكريمة وأن يكيفها وفق ظروفه الخاصة، إلا أن يبيح لنفسه نيل الجنس على غير الغاية منه ودون عقد مشروع يرتب للمرأة وللطفل كرامتهما وحقوقهما النفسية والمادية المترتبة على نيله لوطره وحاجته، فإذا فعل ذلك فقد ظلم وأفحش واعتدى، والله لا يحب المعتدين.

وهكذا حال الوحي وتعاليم الإسلام ليست قيوداً ولا قوالب، وإنما هي مشاعل وعلامات على دروب الحياة لدرء الضلال والغواية والفحش وتحقيق الوجود والعلاقات الاجتماعية الأمثل.

« إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، يعظكم لعلكم تذكرون » ٦٠ : ٩٠.

لا يغير من هذه الحقيقة عن المعرفة الإسلامية ووسائلها جهل أتباع الإسلام لموضع العقل من النقل، ولا استهانتهم بشأنه، فذلك أمر كان وراء طاقتهم بسبب العزلة والانفصام الذي فرضته ظروف الأحداث على قياداتهم الفكرية وقيادتهم الاجتماعية ولعدة قرون.

هذان الأمران اللذان هما « مجتمع الوحدة » في مقابل « مجتمع الصراع » واستكمال « ضوابط » العلاقة في مصادر المعرفة الإنسانية سيكون لهما في تصوري في عالم الغد أهمية خاصة حين لا يستطيع المجتمع البشري دفع ثمن الأخطاء كما تعود في الماضي حين كانت المعارك التاريخية الفاصلة يموت فيها عشرات أو مئات الرجال. وكانت الأمم في مأمن مما يجري على ساحات سواها إلى وقت تصبح الأرض قاطبة كالحجرة الواحدة، كل صرخة منها تخدش أسماع كل من في الغرفة، وكل مأساة منها تصدم أبصار كل من في الغرفة، وكل أذى يقع فيها ينـال كل من حضر الغرفة.

وحين تتيقن الإنسانية ما بلغته من وسائل التدمير والخراب ومن تهديد وجود الأرض في عالم الفضاء.

حينئذ فقط تدرك الإنسانية حاجتها إلى الضوابط الدقيقة الحاسمة ـ المعلومة في كتاب الله وصحيح السنة والتي فرضت احترامها والثقة بها لكل منصف متأمل ـ لتقيها من الانزلاق إلى هاوية الفناء.

وحينئذ فقط لا يكون المخرج بالتطلع إلى المواجهة والغلبة ولكن إلى الوحدة والتقارب وإلى البحث عن عوامل الوجود المشترك والمصلحة المشتركة.

إن على المسلمين حقاً فهم رسالتهم، أداء للحق وإنفاذاً للغاية منها في هذا الوجود على مقتضى حكمة الخالق.

وصدق الله.. « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس... » ٢ : ١٤٣.

« فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » ٩٩ : ٦.

خاتمـــــة :

هذه تأملات فيما آل إليه أمر الأمة، ونظرة حاولت أن أستبطن بها التاريخ لأرى كيف بدأ التغير المأساوي في حياة المسلميـن وأسبابـه، والانطلاق من ذلك إلى أسس التغيير والعلاج في إطار موضع الأمة الإسلامية من الإنسانية في أزمتها الأكبر وقلقها الأبلغ.

وإنني أرجو بهذه التأملات أن أشحذ همم المفكرين بالنظر على امتداد آفاق الوجود الإسلامي والإنساني وعلى أبعد الأعماق علَّ ذلك يوفر الجهد المطلوب على مستوى المعاناة التي تلقاها الأمة الإسلامية والقلق الذي يساور الإنسانية.

إن على قيادات هذه الأمة ومفكريها في اعتقادي أن يعلموا أن مناجزيهم يدركون أن قيم الإسلام وعقائد الإسلام وحضارة الإسلام هي تحدي المستقبل ووارث المستقبل، ولذلك فهم يحرصون على أن يصرفوا المسلمين عن فهم هذه الحقيقة وجرهم إلى متاهات فيها المزيد من الجهد والمزيد من العمل والمزيد من المعارك، ولكن دون تغيير في فهمهم لأنفسهم وإعادة لبناء علاقاتهم ونسيجهم الاجتماعي وفقاً لقيم الإسلام ومنطلقاته الصحيحة.

إن في تصحيح المفاهيم والمنطلقـات، وإعـادة بنـاء العلاقـات الاجتماعية على أسس الإخاء والبذل والعطاء والفاعلية الإسلامية هو تغيير كامل لكل معادلات الوجود والقدرة والفاعلية للأمة الإسلامية، و هو توحيد اتجاه وتفجير طاقة وهو ما يخشاه المناجز، أما الجهد والكد من واقع الأمة السقيم ومفاهيمها الفجة وأساليبها العاجزة وعلاقاتها الفاسدة ونسيجهـا الاجتماعي الواهي المنتن هو مزيد من الضياع والوهن والعجز وهو ما يحرص على إبقائه المناجز، إن عامل الحسم في الأمر ليس في كمِّ الجهد والعمل بقدر ما هو في نوع العمل ووجهة العمل..

هل هو في تنمية قدرة الأمة على الفعل أو في مزيد من إنهاك قدرته على الفاعلية والإنجاز.

إن حقيقة ميدان المعركة هو فكري أيديولوجي وليس اقتصادياً، وهو أمر على أي حال لا يعني التعارض ولكن يوضح علاقة ووجهة وأولوية العمل والبناء، فالبنية الاجتماعية الفكرية النفسية القادرة السليمة، ميدان إنجازها وتعبيرها في شكل مادي اقتصادي عملي تكنولوجي لغايات سليمة، ولا بد أن يكون كذلك بشكل أو بآخر والعكس ليس صحيحاً، فليس للمريض العاجز أن يفعل مهما تبجح أو تمنى.

إن ما يدعو إلى التأمل هنا هو أن الإنجاز الإسلامي هو أيضاً إنجاز إنساني، وأن في تحقيق الذات الإسلامية انقاذاً لمستقبل الذات الإنسانية.

إن هذه حقيقة أرجو أن يعيها عقلاؤنا وعقلاء المناجزين لنا وأن ينصرفوا إلى ما فيه الخير لكافة الفرقاء وعلى امتداد الأبد..

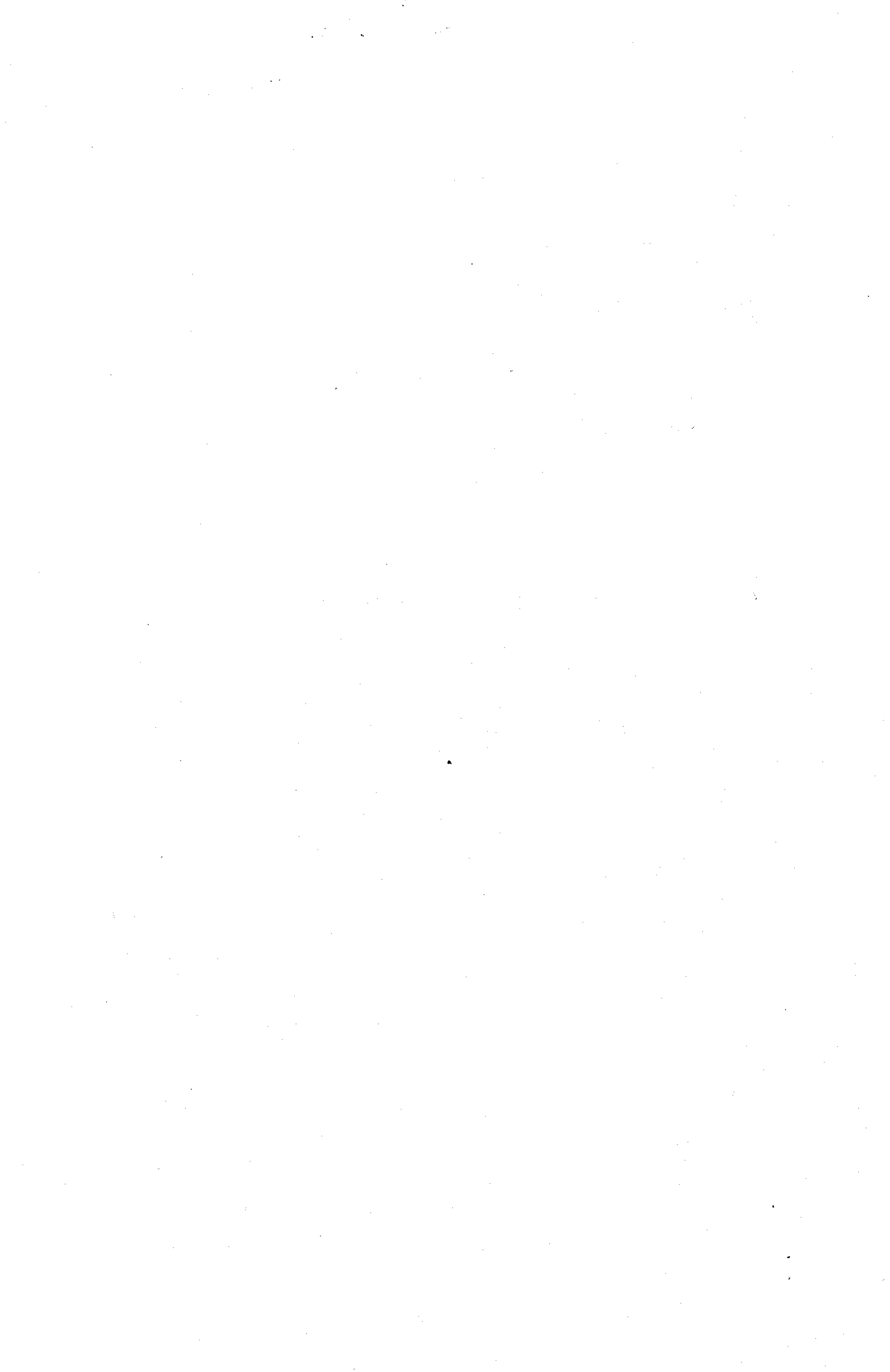
والله أسأل أن يهدي إلى الحق والصواب..

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..



منطلقات إسلامية لحضارة عالمية جديدة

للشيخ سعيد حوى



من التوسع أن هذا المجتمع متقدم مدنياً، ولكنه ليس متقدماً حضارياً. فإذن التقدم الحضاري إنما يكون عندما توجد ثقافة متقدمة ومدنية متقدمة، والتخلف الحضاري يكون عندما تكون ثقافة متخلفة ومدنية كذلك متخلفة، ثم بعد ذلك هناك درجات أخرى، فإذا اتضحت مبدئياً فكرة التخلف الحضاري والتقدم الحضاري فقد يكون بإمكاننا أن نخطو خطوة ثانية في محاضرتنا هذه، هناك صورة من الصور ينبغي أن نفطن لها، وهي أن الأمة المتخلفة ثقافياً أو الأمة ذات الثقافة غير المتقدمة، بأن كانت ثقافتها غير صحيحة أو ليست حقاً أو فيها أخطاء، الأمة ذات الثقافة المنحرفة وّإن تقدمت مدنياً فإن تقدمها المدني مطبوع بتخلفها الثقافي لأن هناك ارتباط بين الناتج المدني وبين الفكر وبين الثقافة التي هي وراء الناتج المدني، ليس هناك انفصال كبير في الحقيقة ما بين الجانب الثقافي والجانب المدني، لأن الجانب المدني عادة يكون مطبوعاً بالجانب الثقافي، فأنت تلاحظ أن كل أمة من الأمم تحاول أن تجعل نواتجها المدنية منسجمة مع فكرها مع ثقافتها، وكثيراً ما تصنع رموز ثقافتها وتفكيرها على نواتجها المدنية. كم من ناتج مدني يظهر في منطقة كذا تجد عليه صورة كذا، فهناك ولو من الناحية الرمزية نوع ارتباط ما بين الناتج المدني وما بين الثقافة التي توجه الناتج المدني، تصوروا هذا العالم تحكمه العقيدة الإسلامية، وتصوروا أن هذا العالِم قد سار تاريخياً تجريبياً من خلال العقيدة الإسلامية فاكتشف هذا العالم كل ما اكتشفه عالمنا المعاصر من كشوف، ولو كان المسلمون هم الذين يسيطرون على العالم مثلاً فماذا سيكون تأثير الثقافة الإسلامية على تسخير الاكتشافات العلمية في طريق خدمة الإنسان، حتماً ستكون النتيجة غير هذه النتيجة التي نراها الآن، الآن كما ترون لو نظرنا إلى الجانب المدمر في الاكتشافات، إنكم ترون أن هذا العالم من أوله إلى آخره يحاول أن يدرس كيف يمكن ان يستفاد من كل اكتشاف علمي لصالح التدمير والتخريب، لصالح التأثير على الشعوب الأخرى، حتى القضايا التجريبية الإدارية والنظريات الإدارية نفسها توجه من ناحية لخدمة شعب من الشعوب ومن ناحية أخرى لصالح هذا الشعب، حتى الدراسات النفسية توجه من ناحية من أجل خدمة الذين يشتغلون فيها ومن ناحية أخرى يفكر في كيفية

الاستفادة منها من أجل ان تجعل شعوب أخرى مسخرة لشعوب. وإذن فأنتم تلاحظون كيف ان ثقافة الأمم المعاصرة قد سخرت الاكتشافات العلمية في الطريق الذي يمكن ان يكون مدمراً للحياة البشرية كلها، بينما لو كان الإسلام هو الحاكم لهذا العالم فإن شيئاً آخر حتماً سيكون، وستسخر هذه الاكتشافات في طريق آخر، فالمنهج الحضاري إذن أيها الإخوة مرتبط ارتباطاً كاملاً بقضية الناتج المدني. مرتبط ارتباطاً كاملاً بالثقافة التي وراءه. واذن فعندما تكون ثقافة أمة ما متخلفة حتى، ولو كانت متقدمة مدنياً، لا بد أن يظهر آثار التخلف الثقافي على مدنية هذه الأمة. لا بد أن نعطي هذا المعنى اعتباراً كبيراً، ونحن ننظر إلى قضية الحضارة وإلى قضية المدنية ـ أيها الإخوة : إن قضية الحضارة الآن في عصرنا أصبحت صنماً من الأصنام ينبغي أن ننتبه إلى خطورته، في الأصل الأمة المتفوقة مدنياً يصيبها الغرور في العادة، والأمة المتخلفة مدنياً يصيبها عقدة نقص بشكل عادي، الأمة المتخلفة مدنياً تصبح تقلد الأمة المتقدمة مدنياً، هذا شيء نراه من استقراء التاريخ عندما كان المسلمون في يوم من الأيام هم المتقدمين مدنياً، كان باباوات روما يلبسون اللباس العربي، عندما أصبحنا في الوضع المقابل أصبحنا نلبس لباسهم، عندما كنا متقدمين مدنياً دخلت كلماتنا في لغاتهم. عندما أصبحوا متقدمين مدنياً دخلت كلماتهم في لغاتنا. الأمة المتخلفة مدنياً تشعر بعقدة النقص وبالتالي تقلد، الأمة المتقدمة مدنياً تشعر بعقدة الغرور فتحب أن تسيطر. في قصة سليمان عليه الصلاة والسلام نجد أن ملكة سبأ عندما جاءت إلى سليمان وأراها عرشها قالت « كأنه هو »، هي معجزة ومع ذلك فإن هذه المعجزة لم تجعلها تدخل في الإسلام، متى دخلت في الإسلام ؟ « قيل لها ادخلي الصرح، فلما رأته حسبته لجَّةً وكشفت عن ساقيها »، كان مصنعاً تصنيعاً عجيباً حسبته لجة، صرح ممرد من قوارير كأنه موج لا يكاد الناظر يدرك أنه زجاج، قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها، قالت انه صرح ممرد من قوارير، عندئذ أسلمت « قالت ربي إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين »، هنا تفوق مدني أثر عليها فأدخلها الإسلام. عندما تكون الأمة متخلفة مدنياً يكون عندها عقدة نقص، عندما تكون

متقدمة مدنياً يكون عندها غرور ورغبة في السيطرة. نحن أيها الإخوة وفي عصرنا ونحن متخلفون مدنياً في هذا العالمْ عاشت شعوبنا عقدة النقص، وأراد لنا غيرنا أن يسيطر علينا وأن يحكمنا وأن يتعامل معنا بلغة الغرور، ومن جملة هذه اللغة التي أثرت فينا بسبب عقدة النقص عندنا ان كل جهة في هذا العالم المدمر الممزق تقول لنا نحن متقدمون مدنياً، هم يقولون حضارياً، نحن لا نعترف بذلك، يقولون نحن متقدمون حضارياً بسبب نظامنا وأنتم أيها المسلمون متخلفون بسبب نظامكم، الطريق أمامكم للتقدم هو أن تأخذوا طريقنا، أن تقبلوا نظامنا، تقول هذا الرأسمالية لشعوبنا وتقول هذا الشيوعية لشعوبنا، ويقول هذا غيرهم وغيرهم كذلك لشعوبنا. وشبابنا الممزق غير الواعي يستجيب لهؤلاء وهؤلاء لأنه تعبدته فكرة الحضارة، لأن عقدة النقص عنده موجودة، لأن وعيه ناقص، تكون النتائج أن ترى هذا الوضع الممزق في شعوبنا وهي أن قسماً من شعوبنا خطفته مدنية أمة ما وأفكارها، وقسماً آخر خطفته مدنية أمة ما وثقافتها وتفكيرها، لذلك أيها الإخوة لا بد أن نضع هذه الأمور في مواضعها، لا بد أن نعرف أن للنظام دوره في إيجاد تقدم مدني، ولكن التقدم المدني يمكن أن يوجد مع أكثر من نظام متى وجدت قوانين التقدم، وعلينا في الوقت نفسه كذلك أن ندرك أننا ونحن نتحدى من خلال التقدم المدني ليس أمامنا خيار إلا أن ندخل معركة التحدي استجابة لتكليف الله عز وجل إيانا لننقل هذا العالم من طور إلى طور ولننقل شعوبنا من طور إلى طور، فإما أن تسحقنا الحضارة المدمرة وإما نسيطر عليها ونوجهها، بعد ذلك قضيتان إذن، القضية المهمة أيها الإخوة التي ينبغي أن تكون في أذهاننا أولاً أن الدعوة إلى نظام من خلال التقدم المدني هذه القضية يغالط بها كثير فإذا لم ندرك نحن قوانين التقدم المدني فإننا سنبقى في مثل هذه الدائرة التي يريد أعداؤنا ان نبقى فيها ولا نعرف أن نتخلص منها، إننا نلاحظ أن في هذا العالم تقدماً مدنياً في النظام الشيوعي، ونلاحظ أن هناك تقدماً مدنياً في النظام الرأسمالي، ونلاحظ أن هناك تقدماً مدنياً في النظام المحافظ كالنظام الياباني في ابتداء نهضته. إذن قد وجد تقدم مدني مع نظام شيوعي ووجد تقدم مدني مع نظام رأسمالي ووجد تقدم مدني مع نظام محافظ مما يدل على أن قضية التقدم المدني تخضع

لقوانين، فأي أمة من الأمم استطاعت أن تكشف هذه القوانين فإنها تستطيع أن تتقدم مدنياً حتى ولو كانت،ثقافتها متدنية حتى ولو كانت ثقافتها غير مناسبة، فما هي قوانين التقدم المدني ؟ ولا أقول التقدم الحضاري. لا يمكن أن نتصور تقدماً مدنياً إذا لم يوجد استغلال كامل للأرض في ظاهرها وباطنها. استغلال الأرض شرط أساسي في التقدم المدني، فعندما ترى شعباً يستغل أرضه ظاهراً في الزراعة وباطناً يستغل موادها الخام استغلالاً كاملاً، عندما نجد شعباً يفعل ذلك يستغل ظاهر أرضه وباطنها يكون قد أخذ بأول قانون من قوانين التقدم المدني، عندما يستطيع شعب أن يستغل وقته وأن يبرمج وقته فلا يبقى عنده وقت ضائع ولا يذهب وقت في غير هدف عندئذ يوجد تقدم مدني، أو تكون هذه الأمة قد عثرت على القانون الثاني من قوانين التقدم المدني. عندما يوجد في أمة اختصاصيون يغطون الحياة كلها ويستطيعون أن يغطوا احتياجات أمتهم في كل شيء، عندما توجد الأمة التي اختصاصيوها يغطون احتياجاتهاتكون هذهالأمة قد عثرتعلى القانون الثالث من قوانين التقدم المدني، ولكن لا يمكن أن تستغل الأرض ولا أن يبرمج الوقت ولا أن يوجد الاختصاص ويؤدي دوره إذا لم يوجد النظام المناسب لذلك، إذا لم يوجد النظام الذي يستطيع أن يعبأ ذلك، إذا لم يوجد الاستقرار المناسب، واذن عندما تستطيع أمة أن توجد نظامها المستقر فإنها تكون قد عثرت على القانون الرابع من قوانين التقدم المدني، عندما يوجد مع هذا كله الثقافة المناسبة للتقدم المدني عندئذ تكون الأمة قد عثرت على القانون الخامس في التقدم المدني، وهي لا بد متقدمة مدنياً سواء كانت شيوعية أو كانت رأسمالية أو كانت محافظة أو كانت غير ذلك، لكن لا بد من توفر هذه القضايا الخمس، لا بد من توفر القوانين الخمسة ـ الثقافة ان لم تكن مناسبة أو مناسبة للتقدم المدني فإن التقدم المدني لا يكون، خذوا مثالاً على ذلك الثقافة الهندوسية ـ ليست قابلة إطلاقاً لأن ينشأ معها تقدم مدني، لماذا ؟ الثقافة التي تحرم قتل الفأر مثلاً ـ قتل الفأر محرم ومن المعلوم علمياً أنه خلال كذا سنة يمكن إذا توالدت الفئران توالداً متوالياً، الفئران فقط يمكن ان تأخذ خيرات الإنسان كلها، يعني هذه النقطة في الثقافة الهندية فقد وهي أن الهندي الهندوسي يحرم قتل الفأر، هذه النقطة

وحدها يمكن أن تدمر حضارة الهند، فثقافة فيها مثل هذه النقطة البسيطة، وبمناسبة ذلك سأعرج على النص الإسلامي الذي يأمر فيه رسول الله ﷺ بأن تقتل الخمس الفواسد التي من جملتها الفأر ندرك في الجزئيات والكليات كيف أن هذا الإسلام له وضعه الخاص، الثقافة النصرانية فيما استقرت عليه الثقافة النصرانية ليست قابلة لان يكون معها تقدم مدني، فالثقافة التي تعتبر أن الأصل الزواج ليس هو الأفضل، الأفضل أن تكون هي العزوبة. الثقافة التي تعتبر الزواج رجساً، هذه الثقافة لو طبقها كل فرد تفنى البشرية كلها من أولها إلى آخرها خلال جيل واحد، فإذن ليست هذه الثقافة مرشحة لأن توجد تقدماً مدنياً، ولا ينبغي أن نخلط إطلاقاً بين التقدم المدني الذي وجد في الغرب وما بين الثقافة النصرانية، لأن الثقافة النصرانية لو أخذت مداها لقتل كل العلماء الذين كان لهم دور في تقدم المدنية المعاصرة، فلا بد من الثقافة المناسبة للتقدم المدني، ولا بد من النظام. النظام غير المستقر لا يمكن أن يوجد معه شيء فلا بد من استقرار نظام. من خلال الاستقرار يأخذ الاختصاص مداه، تستغل الأرض استغلالاً كاملاً، الوقت يستغل استغلالاً كاملاً ويبرمج بما يحقق الوقت فيه هدفاً، فإذن لا بد من النظام ولا بد من الاختصاص ولا بد من استغلال الأرض ظاهراً وباطناً، ولا بد من برمجة الوقت والاستفادة منه. متى وجدت هذه القضايا الخمس وجد تقدم مدني، انظروا إلى هذا العالم حيثما وجدت هذه القضايا الخمس تجد تقدماً مدنياً، النظام النازي على قسوته لأنه توفرت فيه هذه القضايا الخمس أوجد تقدماً. وجد نظام مستقر، وجدت ثقافة تسمح بتقدم مدني، كل شبر من الأرض مستغل، الوقت كله مبرمج، الاختصاص موجود، كانت النتيجة ان هتلر استطاع خلال ٦ سنوات ان يقفز في بلاده من البلد المقيد بمعاهدة فرساي إلى أن استطاع ان يجعل بلاده تخوض حرباً عالمية تكاد ان تكتسح العالم فيها ـ اليابان كذلك عند ابتداء نهضتها عندما توفرت لها هذه القضايا الخمس، نظام راغب في التطوير وهو مستقر كذلك، ثقافة اعتمدت لصالح التقدم المدني، أرض استغلت، ووقت أحسن الاستفادة منه، اختصاص دفع إليه وعقوبة المتخلف فيه القتل، كانت النتائج أن اليابان استطاعت خلال فترة قصيرة جداً أن تقفز قفزتها في عالم التقدم المدني،

المحاضرة مسيرة أخرى، ولما استطعنا أن نتحدث عن مضامينها. كل شيء في هذا العالم يعطل العقل ولذلك لا تقدم ثقافي، وكل شيء في هذا العالم يعطل العلم فلا تقدم ثقافي، ولا اقصد بذلك الوصول إلى القانون وانما اقصد الحياة التي من المفروض أن تنبثق على أساس من القانون. النظرية الشيوعية التي تعطل قانون السببية لا يمكن أن نعتبرها عقلانية، النظرية الشيوعية التي ترفض الأخذ بالعلم إذا تعارض مع مادتها، لقد بقي الاتحاد السوفيتي يحارب نظريات انشتاين ويسجن من يقول بها حتى كادت القنبلة الذرية أن تظهر لأن نظريات انشتاين تتعارض مع فكرة « ديالكتيك » التي يقول بها الشيوعيون فمن قال بأن ها هنا علماً أو عقلاً فإنه يكذب على العلم والعقل.

من يقول بأن الحضارة الغربية تبنى على العقل وتبنى على العلم، هل العلم يقول إن الخمرة مباحة، هل العلم يقول بأن الخمرة لصالح الإنسان، ويقول بأن التدخين لصالح الإنسان، ويقول بأن المخدرات لصالح الإنسان، ومع ذلك أليس التدخين مباحاً في كل قوانينهم، أليست الخمرة مباحة في كل قوانينهم، هذا لا يتفق مع علم، أن نعرف القانون العلمي ثم لا نبني عليه، وكذلك القانون العقلي، وانظروا فقط إلى الجانب العلمي في الحضارة الغربية، إلى الجانب العلمي الذي يعبد كل شيء ولو كان غير صحيح وغير حقيقي في مقابل الخدمة الجزئية أو الكلية التي يمكن أن يخدم بها نظام ما، أين الحقيقة في مثل هذه الحالة، الأسئلة في هذه القضايا كثيرة، المهم أن نعرف أنه لا يوجد في هذا العالم على الإطلاق تقدم ثقافي إلا حيث وجد الإسلام، ولا يوجد تقدم حضاري يجتمع فيه التقدم المدني مع التقدم الثقافي إلا حيث وجد الإسلام، لأن الإسلام كما قلنا يفرض التقدم الثقافي ويفرض التقدم المدني، قوانين التقدم المدني كلها مفروضة على هذه الأمة، وقوانين التقدم الثقافي مفروضة على هذه الأمة. فإذا وجدت قوانين التقدم المدني والثقافي على أساس الإسلام الذي هو الوحيد كما قلنا الذي يعطي أنواعاً من التقدم، عندئذ توجد حضارة متقدمة، شرارتها الإسلام، ضابطها الإسلام، موجهها الإسلام وليس الإسلام حيادياً مع أي جانب من جوانبها، وعلينا أن ندرك هذا أيها الاخوان، إن الإسلام قد أعطى الجواب على كل شيء يحتاجه الإنسان، والله عز وجل قال عن كتابه : « ونزلنا عليك الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله، اللهم لك الحمد واليك المشتكى وأنت المستعان ولا حول ولا قوة إلّا بالله ـ اللهم إنا نعوذ بك من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئاً نعلمه ونستغفرك لما لا نعلم.

أيها الإخوة : لا أكتمكم أنني متهيب هذا اللقاء متهيب الكلام فيه. لأنني أخشى أن أجهدكم بلا طائل مكرراً لما قاله الآخرون، كما أنني أخشى ألا أغطي عنوان المحاضرة، أسأل الله عز وجل أن يجعل هذه الجلسة مباركة وأن يغفر لنا، وأرجو معذرتكم ابتداء.

ماذا تعني كلمة الحضارة ؟ كثيراً ما يحدث لبس بين ثلاث كلمات ـ الحضارة والمدنية والثقافة، ونتيجة لهذا اللبس فقد أراد بعضهم أن يعطي تحديداً لكل كلمة من هذه الكلمات، فقالوا بأن مدنية أمة ما تعني الجانب المادي في هذه الأمة أو لهذه الأمة، وثقافة أمة ما تعني الجانب الآخر في حياة الأمة ولا يقصدون بكلمة الثقافة هنا العلم فقط بل يريدون التصورات والأفكار والسلوك والآداب وكل المعاني التي لا تدخل في الجانب المادي،

فهذه يسمونها ثقافة. ويعتبرون أن حضارة أمة ما تعني مجموع ثقافتها ومدنيتها، إذا توفرت شروط معينة، فالحضارة إذن على رأي هؤلاء هي اجتماع الثقافة مع المدنية ضمن شروط معينة وظروف معينة. إذا أردنا أن نعتمد هذا التعريف المبدئي لكلمة الحضارة، يكون أو تكون حضارة أمة في هذه الحالة هي مجموع ثقافتها ومدنيتها أي الجانب المادي فيها والجانب الآخر بآن واحد. وعلى هذا الأساس فكل أمة من الأمم يمكن أن تكون لها حضارة، إذ ان لكل أمة في هذه الحالة مدنية ما، أي جانب مادي، ولكل أمة كذلك ثقافة بصرف النظر عن مضمون هذه الثقافة، ما إذا كان حقاً أو باطلاً، ما إذا كان مقبولاً أو غير مقبول، بصرف النظر عن هذا فكل أمة لها حضارة. هذه الحضارة هي مجموع مدنيتها وثقافتها على رأي هؤلاء، من الابتداء نقول الأمة ذات الحضارة المتقدمة هي التي اجتمع لها تقدم مدني وتقدم ثقافي، والأمة المتخلفة حضارياً هي الأمة التي اجتمع لها تخلف مدني وتخلف ثقافي، وليست هذه الصورة الوحيدة، فقد نجد أمة متقدمة مدنياً وهي متخلفة ثقافياً، وقد نجد أمة متقدمة ثقافياً ومتخلفة مدنياً، هذا بعض الصورة كذلك، ولأضرب مثلاً يتبين منه بوضوح كيف أن التقدم المدني لا يعني بالضرورة تقدماً ثقافياً، ولا يعني بالضرورة إذن تقدماً حضارياً، لنفرض فرضاً أن مجموعة من اللصوص استطاعت من خلال السرقة ومن خلال الغش أن توجد مجتمعاً وأن تقيم بلداً، هذا المجتمع وهذا البلد لو توفرت لديه كل أسباب الرفاه واستطاع أن يستعمل كل منجزات المدنية فمجتمع هذا شأنه متقدم مدنياً، لأنه استطاع في الجانب المدني، أي في الجانب المادي البحت استطاع أن يستعمل كل منجزات المدنية، ولكن هل نستطيع أن نعتبر مجتمع اللصوص هذا مجتمعاً متقدماً. لو تصورنا مجتمع اللصوص هذا قد اعتمد الاباحية الجنسية، واعتمد المخدرات كشيء رئيسي في حياته، واعتمد كثيراً من الأشياء التي تعتبرها الفطرة البشرية أنها خاطئة، لو أن مجتمعاً هذا شأنه استخدم أعظم منجزات العلم من الناحية المدنية وفي الوقت نفسه هو قائم على اللصوصية والإباحية وغيرها مما تأباه فطرة الإنسان ولا يرضى عنه منطق العقل ولا منطق العلم، فهل نقول عن مثل هذا المجتمع بأنه متقدم ثقافياً ؟ وهل نقول وعلى شيء

فالتقدم المدني أيها الأخوة مرتبط بهذه القضايا، هذه القضايا لا تحتاج إلى شرارة، ولكن تحتاج إلى وجود، فإذا وجدت كانت، ولكن هذه المدنية التي هي أثر على وجود هذه القضايا الخمس يمكن أن توجد مع تقدم ثقافي، ويمكن أن توجد كذلك مع تخلف ثقافي، من يستطيع أن يقول بأن المعاني الموجودة في الغرب حالياً تعني التقدم الثقافي، والمعاني الموجودة في الشرق الشيوعي تعني التقدم الثقافي، هل نظام الاقنان الذي يربط الإنسان بالأرض ربطاً، ويكلف الإنسان به تكليفاً، ليس أمامه خيار أن يرث عمل أبيه، هذا النظام متقدم، كل الناس يقولون هذا نظام متخلف قد طوره التقدم، النظام القائم الآن في روسيا، أليس هو نظام الاقنان قد بلور وتطور بشكل ما، الإنسان ليس أمام خيارات لا في نوع الزراعات التي يزرعها ولا في نوع الصناعة التي يصنعها، هو مكلف أن يكون آلة والويل له اذا شكا أو اشتكى، من يقول ان هذا تقدم في الثقافة. هذا الغرب الاباحي الذي لا يرغب ان تبقى إباحته عند حدود، هذا الغرب الذي يفلسف الاباحة، من يقول إنه متقدم ثقافياً، من يقول إن هذا الغرب الذي اعتمد حتى اللواطة على انها مباحة، من يقول بأنه متقدم ثقافياً، هذا الغرب الذي يعتمد نوادي العري، من يقول بأنه متقدم ثقافياً، هم يقولون بأن الإنسان عندما كان حيواناً كان كذلك، فهو تخلف ورجعية إلى الوراء، الشهوة الجنسية عند كل الحيوانات إنما تستعمل لتؤدي غرضاً، هو بقاء النوع، وذلك يكون بلقاء الذكر مع الأنثى، فعندما يلتقي الذكر مع الذكر أو الأنثى بالأنثى أي تقدم مدني. أي تقدم ثقافي هذا. إذن فيمكن أن تكون أمة متقدمة مدنياً ولكنها متخلفة ثقافياً، لا يمكن أن تكون أمة متقدمة مدنياً وثقافياً في آن واحد إلا بالإسلام، لأن الإسلام يفرض قوانين التقدم المدني فرضاً، وفي الوقت نفسه يفرض قوانين التقدم الثقافي كذلك فرضاً، وفي الوقت نفسه يوجد الشرارة التي تتفاعل بها هذه المعاني كلها، ويوجد الأساس الذي تنبثق عنه هذه الأمور كلها، وهو في نفس الوقت ضابط لهذه القضايا بمجموعها، ثقافة ومدنية، وهو كذلك موجه لها، وهو في كل هذا حق خالص لا يستطيع علم أن ينقضه ولا عقل أن ينقضه. ولو أنني أردت أن أتحدث عن هذا الموضوع بالذات كيف انه لا شيء في نصوص الإسلام ينقضه عقل أو علم لسارت

المحاضرة مسيرة أخرى، ولما استطعنا أن نتحدث عن مضامينها. كل شيء في هذا العالم يعطل العقل ولذلك لا تقدم ثقافي، وكل شيء في هذا العالم يعطل العلم فلا تقدم ثقافي، ولا أقصد بذلك الوصول إلى القانون وإنما أقصد الحياة التي من المفروض أن تنبثق على أساس من القانون. النظرية الشيوعية التي تعطل قانون السببية لا يمكن أن نعتبرها عقلانية، النظرية الشيوعية التي ترفض الأخذ بالعلم إذا تعارض مع مادتها، لقد بقي الاتحاد السوفيتي يحارب نظريات انشتاين ويسجن من يقول بها حتى كادت القنبلة الذرية أن تظهر لأن نظريات انشتاين تتعارض مع فكرة «ديالكتيك» التي يقول بها الشيوعيون فمن قال بأن ها هنا علماً أو عقلاً فإنه يكذب على العلم والعقل. من يقول بأن الحضارة الغربية تبنى على العقل وتبنى على العلم، هل العلم يقول إن الخمرة مباحة، هل العلم يقول بأن الخمرة لصالح الإنسان، ويقول بأن التدخين لصالح الإنسان، ويقول بأن المخدرات لصالح الإنسان، ومع ذلك أليس التدخين مباحاً في كل قوانينهم، ألست الخمرة مباحة في كل قوانينهم، هذا لا يتفق مع علم، أن نعرف القانون العلمي ثم لا نبني عليه، وكذلك القانون العقلي. وانظروا فقط إلى الجانب العلمي في الحضارة الغربية، إلى الجانب العلمي الذي يعبد كل شيء ولو كان غير صحيح وغير حقيقي في مقابل الخدمة الجزئية أو الكلية التي يمكن أن يخدم بها نظام ما، أين الحقيقة في مثل هذه الحالة، الأسئلة في هذه القضايا كثيرة، المهم أن نعرف أنه لا يوجد في هذا العالم على الاطلاق تقدم ثقافي إلا حيث وجد الإسلام، ولا يوجد تقدم حضاري يجتمع فيه التقدم المدني مع التقدم الثقافي إلا حيث وجد الإسلام، لأن الإسلام كما قلنا يفرض التقدم الثقافي ويفرض التقدم المدني، قوانين التقدم المدني كلها مفروضة على هذه الأمة، وقوانين التقدم الثقافي مفروضة على هذه الأمة. فإذا وجدت قوانين التقدم المدني والثقافي على أساس الإسلام الذي هو الوحيد كما قلنا الذي يعطي أنواعاً من التقدم، عندئذ توجد حضارة متقدمة، شرارتها الإسلام، ضابطها الإسلام، موجهها الإسلام وليس الإسلام حيادياً مع أي جانب من جوانبها، وعلينا أن ندرك هذا أيها الاخوان، إن الإسلام قد أعطى الجواب على كل شيء يحتاجه الإنسان، والله عز وجل قال في كتابه: «ونزلنا عليك الكتاب

تبياناً لكل شيء »، فلا يقف الإسلام محايداً أمام شيء يقول عن قضية إنها مباحة فقط، الإسلام هو التغطية الشاملة للحياة كلها ولا يقبل شركة، اذا كانت الشيوعية لا تقبل شركة وهي باطلة، وجوابها باطل، فالإسلام لا يقبل شركة وجوابه صحيح، ومن ثم نقول بأن الإسلام هو الضابط لقضايا التقدم الحضاري جميعاً وهو الموجه، وهو بنفس الوقت كذلك شرارة التفاعل، وهو الأساس الذي ينبثق عنه التقدم الحضاري كله، وإنما نحن في مرحلتنا الحاضرة، السر في وضعنا، السر في تخلفنا، السر في تأثرنا، كل ذلك كامن في أننا لم ندرك حقائق الإسلام هذه لم نعرف الطريق إليها ـ الأرض أيها الإخوة ـ الله يقول : « هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها »، واستعمركم عندما تستعمل الهمزة السين والتاء في هذه الحالة فالمسألة تفيد طلباً، هو أنشأك من الأرض واستعمرك فيها، عليك أن تعمر، عليك أن تعمر هذه الأرض، هو الذي « خلق لكم ما في الأرض جميعاً »، ما في الأرض كلها لك أيها الإنسان، خلق من أجلك. عليك أن تستفيد منه ليس هذا فقط. « ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض »، ليست الأرض مسخرة لك وحدها أيها الإنسان، ما في السموات وما في الأرض مسخر لك أيها الإنسان، استفد منه. الأمر مباح لك، إذا استطعت أن تصل إلى القمر وأن تستفيد منه فهو مباح لك، وإذا استطعت أن تصل إلى الزهرة وتستفيد منها فهو مباح لك، السموات والأرض مسخرة لك، دين يقول هذا، من يقول بأنه لا يفرض قوانين التقدم المدني فضلاً عن الثقافي. فإذا ما أردنا أيها الإخوة أن نستأنف حضارتنا من جديد، ليكون ذلك مقدمة للحضارة العالمية المتقدمة، فلا بد أن نضع في حسابنا أولاً الاستفادة من الكون، والاستفادة من الأرض ظاهرها وباطنها، المواد الخام في الأرض الإسلامية من يستفيد منها استفادة كاملة ؟ الأرض القابلة للزراعة في الأرض الإسلامية هل تستغل استغلالاً كاملاً ؟ عدم الاستغلال الكامل للظاهر والباطن من الأرض، عدم الاستفادة مما في القمر إن أمكن الوصول اليه يعود إلى الإسلام ؟ أو يعود لنا ؟ الوقت. عندما نقرأ شمائل رسولنا عليه الصلاة والسلام، فمن جملة ما نقرأه، انه كان يقسم وقته : فقسم للعامة، وقسم للخاصة، وقسم لعبادة ربه، وقسم لأسرته، وقت مبرمج يخدم شيئاً بعينه. لا يوجد عند المسلم وقت

مهدر، ولا يوجد عند المسلم زمن ضائع، ولا يوجد عند المسلم زمن لا يحقق هدفاً. لذلك قال الخليفة الراشد : إني لأكره أن أرى الرجل لا في أمر دنياه ولا في أمر أخراه. الاختصاص. نبذة من الفقه الإسلامي، ارجعوا إلى كتاب أُلِّفَ منذ زمن، مثلاً حاشية ابن عابدين في فقه الحنفية في الصفحات الأولى منه يقول لك بأن هناك علوماً مكروهة، ويقول إن هناك علوماً مفروضة فرض عين، ويقول إن هناك علوماً مفروضة فرض كفاية وإن هناك علوماً مسنونة، وعندما يضرب أمثلة على العلوم المفروضة فرض كفاية على الأمة يذكر ما يسمى الآن بعلم الاقتصاد وما يسمى الآن بعلم التجارة، وهكذا الإسلام يعتبر أن كل علم يحتاجه المسلمون فهو فرض كفاية، حتى قالوا : لو احتاج المسلمون لصناعة إبرة ولم يوجد بين المسلمين من يحسن صناعتها فكل المسلمين آثمون، في عقلية إسلامية متفتحة، لو أردنا أن نطبق هذا المبدأ فماذا نفعل ؟ المفروض ان نحصي كل العلوم التي يحتاجها المسلمون، احصوا كم من العلوم تحتاجها الزراعة، كم من العلوم تحتاجها الصناعة العسكرية، كم من العلوم تحتاجها الصناعة المدنية، كم من العلوم تحتاجها صناعة البترول، كم من العلوم تحتاجها صناعة البناء، إننا نجد ملايين أو آلاف العلوم على الأقل كلها تعتبر فريضة كفاية على الأمة الإسلامية، وليس فرض الكفاية أن يوجد الرجل الذي يعرفها، بل أن توجد المجموعة التي تغطي احتياجات الأمة، وأن يوضح لهؤلاء الطريق الذي يحققون فيه علمهم. يعني لا يكفي أن يوجد المختص في الذرة ثم لا تقوم صناعة ذرة حتى يسقط الإثم، لا بد أن يوجد المختصون ولا بد أن تقوم الصناعة، عندئذ يسقط الإثم عن بقية المسلمين، فنحن عندما نفتش عن حضارة إسلامية، أو عندما نرغب أن يكون هناك تقدم في الأمة الإسلامية، ثم ننظر إلى واقعنا فنرى أن الاختصاص، وإذا وجد الاختصاص فإن المختص يكلف بغير مهمته، أولاً توضع تحت تصرفه جميع الأشياء التي يحتاجها أو أننا نبرمج أو نخطط لنوع من الاختصاص أما النوع الآخر فكأننا لسنا مكلفين به، بالله عليكم أيها الإخوة، لقد كانت الدولة العثمانية على ما فيها قبيل سقوطها تصنع كثيراً من سلاحها بل تصنع سلاحها، قولوا لي الآن أي أمة، أي شعب في هذا العالم الإسلامي يصنع سلاحه، لماذا لا نصنع

سلاحنا ؟ الاختصاص يفرضه الإسلام، فالتخلف المدني الحالي مرجعه إلى أنه : إما أنه لا يرغب في تطبيق، وإما أنه لا يجرؤ على تطبيق النظام. أيها الإخوة، النظام المستقر يفرضه الإسلام ولذلك الحديث الشريف، « إذا بويع خليفتين فاقتلوا الآخر منهما » عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما كلف ستة بالشورى أمر الأكثرية أن تقتل الأقلية إذا خالفت من أجل وحدة المسلمين، من أجل أن يكون نظامهم مستقراً، ولكن أي نظام ؟ النظام الإسلامي ما هو النظام الإسلامي يا أخي ؟ كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يصر أن يأخذ جواباً على قضية (خليفة أنا أم ملك) ؟ سأل هذا السؤال لأكثر من صحابي وأصر على أن يأخذ جواباً فقالوا له : إذا كنت تأخذ المال من حله وتضعه في محله فأنت خليفة غير ملك، نظام المال لا يؤخذ إلا من حله ولا يوضع إلا في محله، فاذا لم يكن النظام المالي موجوداً فلا نظام إسلامي كامل. عندما نقول إذن النظام الذي يوجد استقراراً. الذي يوجد تقدماً مدنياً مع تقدم حضاري هو النظام الإسلامي القائم على الشورى، والمسلمون جميعاً شركاء في دولتهم، المسلمون جميعاً شركاء في قراراتهم، ليس هناك مسلم إلا وهو شريك، إنما المؤمنون إخوة. ليس هناك في النظام الإسلامي ناس لا يشاركون في القرار، ولا يشاركون في بناء مستقبل أمتهم. فالشورى نظام مالي يؤخذ المال به من حله ويوضع في محله، عدل بعد ذلك. « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل »، فإذا لم يكن عدل ولا شورى ولا نظام مالي يؤخذ فيه المال من حله ويوضع في محله لا يكون هذا هو النظام الإسلامي الكامل، فالنظام المستقر المستمر، كل نظام في العالم يمكن أن يتقدم تقدماً مدنياً ولكن لمرحلة، ثم هو يحمل في طياته عوامل تدميره، النظام النازي حوى في طياته عوامل تدميره، النظام الياباني حوى في طياته عوامل تدميره، النظام الرأسمالي والشيوعي يحويان في طياتهما عوامل تدميرهما، وكل الذين يدرسون ويفكرون يقولون هذا، ولكن وبالتالي فالتقدم المدني الذي نراه لابد أن يعقبه في يوم من الأيام دمار وتخريب لماذا ؟ لأنه يوجد نظام مستقر مؤقت وليس دائماً، أما عندما يكون النظام الإسلامي الكامل، القائم على الشورى، القائم على العدل القائم على أخذ المال من حله ووضعه في محله، ليس هذا نظاماً مستقراً فقط بل نظام

مستمر ومستقر، وبالتالي فعندما يكون هذا النظام يفترض معه كل مقومات التقدم الحضاري فهذه حضارة متقدمة متطورة لا تحوي في طياتها إمكانيات دمارها، بل تحوي في طياتها إمكانية استمرارها وإمكانيات تطورها. أما الثقافة الإسلامية أيها الإخوة، الثقافة التي تقوم على التوحيد، هذه ثقافة لا يمكن أن تكون إطلاقاً لغير صالح التقدم البشري، التقدم الحضاري، والتقدم المدني، أيها الإخوة ماذا يعني عندما يسخر الفراعنة ملايين من البشر لصناعة قبر لهم لأنهم يعتبرون أنفسهم آلهة، وتعتبرهم شعوبهم آلهة، هل هذا لصالح التقدم البشري أن يسخر شعب بأكمله من أجل أن يصنع قبراً لفرعون هذا أثر من آثار الشرك، هناك طائفة في العالم كل سنة تزن من تعتبره إلهها، من تعتبره قد تجسدت فيه ألوان الإلهية، تزنه بالذهب وتقدمه له هدية، شعب كامل يشتغل ليلاً ونهاراً من أجل أن يقدم لإنسان هدية يمكن أن يقدمها لراقصة وقد قدمها لراقصة، هذا مظهر من مظاهر الشرك، ماذا يعني تقديس البقر، يعني شعباً كاملاً مسخراً لخدمة البقر، فبدلاً أن يكون كل شيء مسخر للإنسان وتلك عقيدة التوحيد، الشرك يجعل الإنسان أحقر الأشياء، المشرك الذي يعبد صنماً يعتبر الصنم أرقى منه، فهو أدنى من الحجر، الذي يعبد الشمس كذلك. الملحدون من نظن أنهم غير مشركين، الملحدون مشركون ولكن من نوع خاص، بدلاً من أن المشرك في يوم من الأيام كان يعبد جزءاً من الكون، الملحد أعطى الكون خصائص الإله، أعطى الكون صفات الإله ثم عبده، قد لا يتوجه إلى الشمس والقمر بالعبادة، ولكنه يتوجه لذاته التي هي جزء من الكون بالعبادة « أرأيت من اتخذ إلهه هواه »، الثقافة الإنسانية التي تقوم على التوحيد هي ثقافة تجعل كل شيء مسخراً للإنسان، كلنا قرأنا، كلنا سمعنا عن ناس قتلوا أبناءهم، عن ناس قتلوا آباءهم لماذا ؟ أليست هناك رحمة ؟ أليست هناك رأفة ؟ أليست هناك عواطف إنسانية؟ كيف تنمو عواطف الإنسان؟ كيف تطلق صفاته إن هذا يحدث من خلال العبادة، الله عز وجل أعطى الإنسان كثيراً من صفاته كثيراً من أسمائه، من أسمائه الرحيم، طالبنا أن نكون رحماء، من أسمائه الرؤوف، طالبنا أن نكون رؤوفين، من أسمائه الكريم، طالبنا أن نكون كرماء، من صفاته الإرادة، أعطانا إرادة، وطالبنا أن نوجهها في طريق معين،

عندما يعرف الإنسان الله ويتقدم له بالعبادة، هذا وحده ينمي خصائصه الإنسانية تنمية لا مثيل لها، عندما تسجد لله عز وجل تتساقط الكبرياء عن نفسك، تتساقط معاني العظمة في نفسك، الإنسان الذي يأبى السجود لله لا يمكن إلا أن يكون متكبراً، تنمو خصائص العبودية عند الإنسان وفي الوقت نفسه تنمو خصائص الإنسانية عند الإنسان بأن يرتقي في كثير من أسمـاء الله عـز وجـل مع العبودية الكاملة لله، الثقافة الإسلامية منطلقها التوحيد وكل ما فيها لصالح انسانية الإنسان، والصلاة التي تعتبر رمزاً على الإسلام كله سواء في معانيها أو في الأشياء التي ترافقها، أنت تلاحظ أن من جملة معانيها أنها تحررك من كثير من أخلاق لا ترضي، تجدون في النصوص أن الرسول عليه الصلاة والسلام نهى عن نقر الديك، عن افتراش الثعلب، عن إقعاء الكلب. الإسلام كله أيها الإخوان تنمية لخصائص الإنسان، وبلا إسلام فلا إنسانية، ولذلك تجدون أن القرآن الكريم عبّر عن غير المسلمين بأنه حيوان أو خشب أو حجر « ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة »، « وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم، كأنهم خشب مسندة »، « إن هم إلا كالأنعام بل أضل »، « إن شر الدواب عند الله الصم البكم »، لا تنمو إنسانية الإنسان إلا بالإسلام، فالثقافة التي تنمي إنسانية الإنسان وتضعه في محله وبنفس الوقت توجهه في جوانب التقدم البشري جميعها في جوانب الحضارة كلها هذه ثقافة وحيدة يمكن أن تكون متقدمة، وما سوى ذلك فلا يوجد في العالم ثقافة متقدمة، ولذلك فلا يوجد في العالم حضارة، الثقافة التي تقول للإنسان يفترض على عقلك أن يفكر حتى يعرف الله، يفترض على عقلك أن يعرف الله من خلال التأمل والتفكر، وإذا لم تعرف الله عن طريق العقل والفكر فأنت، إما آثم على رأي بعضهم، وإما لم تدخل في الإسلام أصلاً، بينما الديانة المسيحية مثلاً يقولون إن قضية التثليث هذه قضية لا نستطيع أن نقدم لها دليلاً عقلياً، ولكن ربما جاءت أيام استطاع الإنسان أن يكتشف أدلتها العقلية، فارق كبير جداً بين ثقافة هذا شأنها، وبين ثقافة الجمال، جمال القلب والبياض بياض القلب، والله عز وجل ينظر إلى القلوب لا إلى الصدور والأجسام، والمؤمنون إخوة، وبين ثقافة لم تستطع حتى الآن أن تهضم فكرة إخاء الأسود مع

الأبيض، وبين ثقافة لم تستطع حتى الآن أن تتحرر من فكرة أن الناس بعضهم خلق من وجه الاله وبعضهم خلق من قدميه، هؤلاء منبوذون وهؤلاء مقدسون، الأولون لا يجوز أن يلمسوا الآخرين، ليس فقط أن لا يلمسوا الآخرين، بل ألّا يمر خيالهم على الآخرين، فلو مر خيالهم على الآخرين يكونون قد ارتكبوا ذنباً، ولذلك فعلى المنبوذ أن يظهر صوتاً من فمه يشبه صوت الخنزير، لإشعار الهندوس، لإشعاره بأنه مار فليتنحى عنه، ثقافة هذا شأنها لا يمكن أن تقارن بثقافة هذا شأنها، هذه ثقافة متقدمة وهذه ثقافة متخلفة، إن هذه الثقافة يوجد على أساسها تقدم حضاري، وتلك ثقافة لا يمكن أن يوجد معها حضارة متقدمة، الإسلام إذن أيها الإخوة يفرض كل عوامل التقدم ولكن إذا أردنا أن نذكر ركناً آخر من أركان التقدم الحضاري في الأمة الإسلامية، وللأمة الإسلامية، فلا بد أن نعطي قضية الخصائص محلها، فالتقدم الحضاري في الأمة الإسلامية أركانه : أرض مستقلة، وقت مستقل ومبرمج، اختصاص يعطي احتياجات الحياة جميعاً، ثقافة إسلامية شاملة كاملة، حق، وربانية، نظام مستقر ومستمر.

أيها الإخوة، المجتمع الإسلامي الآن يفقد خصائصه إلّا قليلاً، أين خصائص حزب الله كما ذكر في القرآن، أين هي – « يحبهم ويحبونه »، « أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، يجاهدون في سبيل الله »، « إنما وليكم الله ورسوله ». أين هذه إلّا عند القليل، أين خصائص جماعة المسلمين « فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون. والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، وإذا ما غضبوا هم يغفرون، والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون، والذين إذا اصابهم البغي هم ينتصرون ». أين هذه الخصائص إلّا قليلاً، أين خصائص وراث الأنبياء، كان رسول الله ﷺ إذا وقف للصلاة يسمع من جوفه كأزيز المرجل من خشية الله عز وجل، أين هذا، أين خصائص وراث الأنبياء، أين خصائص جماعة المسلمين التي ينبغي أن تتوفر في كل فرد منهم، أين خصائص المجاهدين الذين مهمتهم أن يجعلوا هذا العالم كله خاضعاً لكلمة الله. هذه الخصائص لا بد أن نعتبرها ركناً من أركان الحضارة الإسلامية المتقدمة. أيها الإخوة أريد أن أنتقل

من هذا الموضوع، مع أن هذا هو صلب المحاضرة، أريد أن أنتقل إلى قضايا أخرى.

نحن أيها الإخوة كسالى واقصد نفسي، أقصد نفسي لأنه من جملة ان كل منا يطالب أخاه وينسى نفسه، فأنا أقول عن نفسي أيها الإخوة نحن حتى الآن نتصور اننا بمجرد أن نتكلم غيَّرنا نظام العالم، حتى الآن نحن نتصور أننا مكلفون ضمن عالم الخوارق ولسنا مكلفين ضمن عالم الأسباب، نحن مكلفون ضمن عالم الأسباب ولسنا مكلفين على أن هناك خوارق، الخارقة نؤمن بها وقد وقعت للرسل عليهم الصلاة والسلام وتقع للأولياء ونحن نؤمن بها، ولكن لسنا مكلفين على أن هناك خوارق، نحن مكلفون بعالم الأسباب، ولكن أين نحن من عالم الأسباب في تطلعاتنا وفي ما نريده لأنفسنا ولأمتنا، أين نحن من هذا، أرى كثيرين منا يقولون : الإسلام إذا طبق حلت جميع المشاكل، الإسلام هو حل كل المشاكل، والله هذا صحيح يا أخي، والله هذا صحيح تماماً، ولكن الصحابة رضوان الله عليهم هل بمجرد أن قالوا بالإسلام انحلت كل المشاكل، أو أن كل قضية من القضايا عرفوها وساروا في الطريق الموصل لتحقيق ما ينبغي فيها ؟ لن تنحل مشكلة في هذا العالم إلّا إذا عرفنا الأسباب التي توصل إليها، لن نصل إلى هدف إلّا إذا عرفنا الأسباب التي توصل إلى هذا الهدف، الله عز وجل في القرآن يقول : « ولو شاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلوا بعضكم ببعض » ـ ليبلوا بعضكم ببعض ـ « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين » ـ نحن لم نكلف بالخوارق، نحن كلفنا ضمن عالم الأسباب، أنت مكلف بكذا فما هي الأسباب الموصلة إليه، مكلفون بالصلاة ما هي الأسباب التي توصلني إلى إقامة الصلاة، مكلفون بأن تكون كلمة الله هي العليا، فما هي الأسباب الموصلة لذلك، كثيرون منا يحملون المسئولية لله في ذلك، كأن ربنا عز وجل لم يقل « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله »، ما هي الأسباب التي توصل إلى هذا الأمر ؟ قد يكون يفترض علينا أن نحقق خمسين ألف قضية من أجل أن نصل إلى تحقيق هذا الأمر، كلها نحن مكلفون بها، نحن لا نكلف أنفسنا حتى عناء التفكير ببعض الأسباب، أي منطق هذا أي تفكير هذا ـ أيها الإخوة، ابرئكم من ذلك، كل الكلام موجه

إلى نفسي، أي تفكير هذا أيها الإخوة، الله عز وجل وصف ذي القرنين، قال « إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سبباً »، آتاه الأسباب الموصلة إلى الغايات. إسرائيل وجدت؛ ما هو الطريق لإنهائها، ما هي نقطة البداية، وما هي النقطة الثانية، وما هي النقطة الثالثة، من يفكر في ذلك، كل ما كلفنا الله عز وجل به إلّا قليلاً نحن نطلب من الله أن يفعله لنا، هذا لسان الحال، « اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون » ، لو كنا مسلمين حقاً ولو كنا مؤمنين حقاً لفكرنا ما تكليف الله لنا في هذه اللحظة. ما هي نقطة البداية ؟ ما هي الخطوة اللاحقة ؟ ما هي الخطوة التي بعدها ؟ عندما يوجد المسلم الذي يفكر، ويوجد المسلم الذي يلتزم، ويوجد المسلم الذي يبدأ من الصفر ولكنه يخطو في كل يوم خطوة عندئذ يكون المسلمون قد بدأوا سيرهم، قد يطول زمن، قد يقصر زمن، قد تحقق زمناً، خلال خمس سنين قد لا تحقق، لكن نكون قد حققنا ما أمرنا الله عز وجل من سننه، إن من أراد شيئاً أعطاه الله عز وجل إياه، « ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن »، من أراد الآخرة وسعى لها سعيها، بالوقت نفسه الذين يريدون الدنيا، الله عز وجل كذلك يعطيهم الدنيا إن شاء، من سننه جل جلاله أن الإنسان الذي يريد شيئاً ويسير في طريقه أن يعطيه إياه، نحن لسنا مكلفين بالنتائج لكنا مكلفون أن نسير في الطريق المناسب لذلك، علينا أن نعرف نقطة البداية.

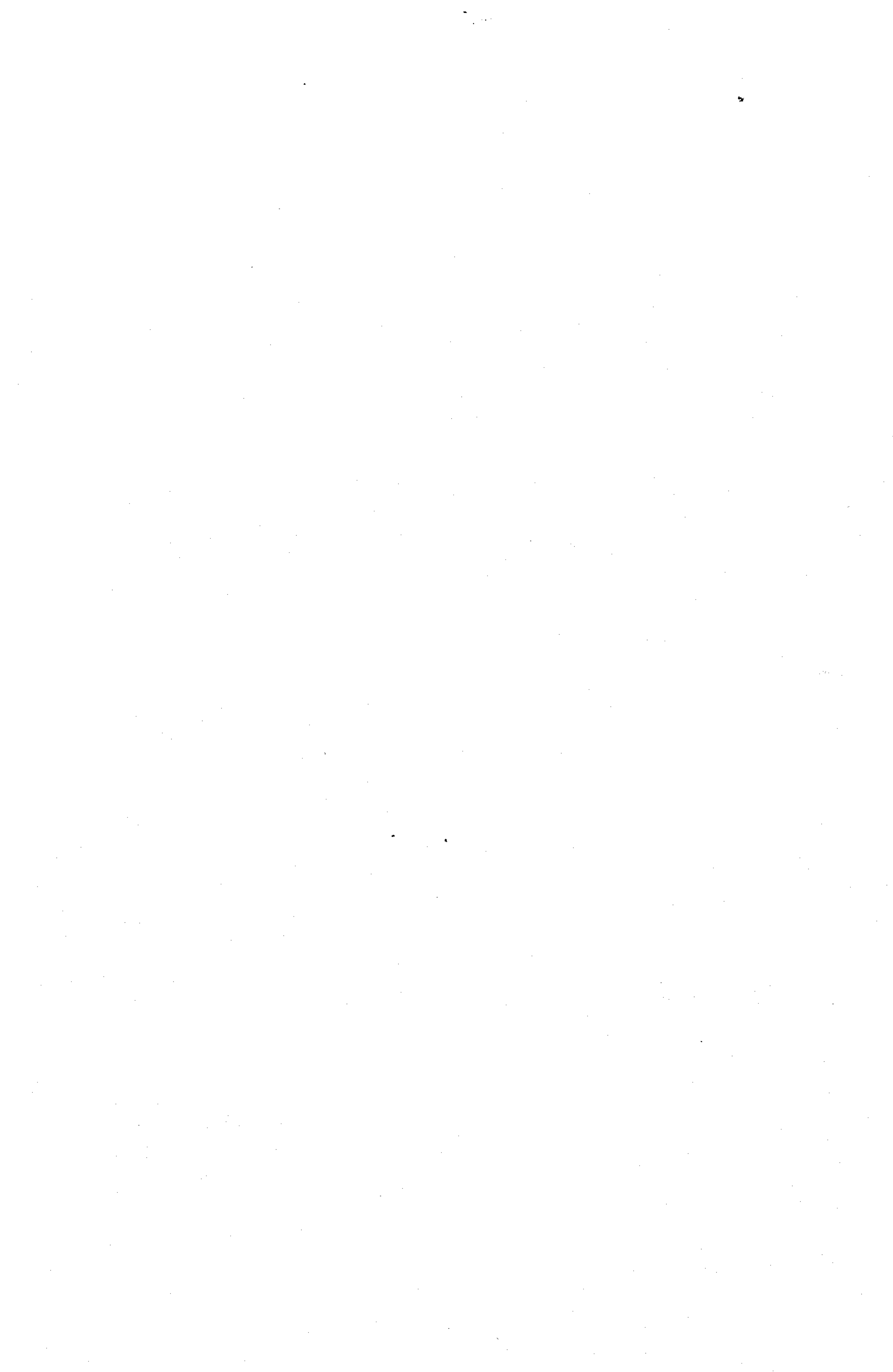
أيها الإخوة، علينا أن نسير في الطريق الذي يحقق الهدف الأول ثم الثاني ثم الثالث ثم الرابع، ونحن أمة موعودة من ربها بالنصر، ونحن على أبواب مرحلة جديدة، هذه المرحلة الجديدة وجدت فيها مبررات جديدة وانتهت مبررات قديمة، نحن على أبواب مرحلة جديدة هذه المرحلة الجديدة أروي فيها حديثاً وأنقل فيه النص الذي نقله أستاذنا المودودي رحمه الله في كلامه عن التجديد الديني في الإسلام هو نص حديث الموافقات. « إن أول دينكم نبوة ورحمة تكون فيكم ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله ـ هذه المرحلة الأولى في الأمة الإسلامية ـ ثم تكون خلافة على منهاج النبوة تكون فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله ـ النصوص الصحيحة تثبت على أن هذه المرحلة انتهت برأس الثلاثين سنة لأن

الحديث الآخر يقول : « الخلافة بعدي ثلاثون ثم تكون ملكاً عضوداً ». لكن « ملك عضود » يعني أنه لا يوجد فيه شيء من الإسلام ولا يعني أن لا توجد فيه أحياناً رجالات توفرت فيها معاني الخلافة الراشدة لا ـ ثم يكون ملكاً عاضداً يكون فيكم ما شاء الله أن يكون ثم يرفعه الله، ثم يكون ملكاً جبرياً يكون فيكم ما شاء الله أن يكون ثم يرفعه الله، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة يرضى عنها ساكن الأرض وساكن السماء ».

أيها الإخوان، نحن في مرحلة مخاض جديدة ونحن فيها بإذن الله منطلقون، ومع أننا قادرون على أن نفلسف الأشياء ولكنا منطلقون بروح الإيمان وبعقلية المؤمنين بإذن الله عز وجل، نحن أيها الإخوة، لا أقصد ذاتي أقصد أنتم جميعاً، أقصد كل من آمن بالإسلام والتزم به، أقصد كل من وعى تكليف الله عز وجل إياه، إن هذه الأمة التي وعت أو التي بدأت تعي، إن هذه الأمة منطلقة، والذي لا يعرف ما يحدث الآن من تفاعلات، ستندم القوة الكبرى في هذا العالم، ستندم وكثير من الناس الذين يحاربون الإسلام سيندمون، وكثيرون من الناس الذين لا يجرؤون أن يقيموا الإسلام كله سيندمون، إن هناك تفاعلات جديدة تحدث في هذا العالم قد يسقط فيها ناس كثيرون، ما بين مشرد ومعتقل وقتيل وشهيد، قد يحدث هذا كله، ولكنها مرحلة لا بد أن تصل في النهاية بإذن الله إلى أن نقطف ثمارها، ولأن يكون المسلمون بيدهم مفاتيح هذا العالم، الذي يتصور بأننا لن نملك مفاتيح هذا العالم بسبب القوى المادية التي نراها الآن، هذا الإنسان، والله واهم، ووالله لنمكنن من مفاتيح هذا العالم نحن المسلمين وفي ذلك أحاديث رسولنا عليه الصلاة والسلام مبشـرة، وإذا قالهـا عليه الصلاة والسلام فإنها واقعة لا محالة، وقد قالها وهي واقعة لا محالة، وسيرى المتريسون، وسيرى كذلك كما قلنا كل هؤلاء الناس، إنهم سيندمون، إن القوى الكبرى في هذا العالم إذا لم تعرف ماذا يجري وتعرف كيف تتعامل معه، وإن القوى على الأرض الإسلامية التي لا تعرف ما يجري من تفاعلات والتي لا تعرف ما هي القوى النفسية الهائلة التي يعطيها الإسلام لأبنائه إذا حملوه، إن على هؤلاء أن يعرفوا وإن موعدنا معهم قريب بإذن الله عز وجل، أقول هذا القول واستغفر الله لي ولكم.



النّـدوات والمنَاقشات العَامّة



موضوع الندوة :

الدور الحضاري المعاصر للفقه والفكر الإسلامي

كلمة الأستاذ يوسف العظم

كلمة الأستاذ أحمد محمد جمال



كلمة الأستاذ يوسف العظم



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله وخليله محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد ..

فإنه ليسرني في هذه الساعة المباركة واليوم السعيد أن أرحب بهؤلاء الإخوة، وأن نلتقي بهذه الصفوة الممتازة من أبناء أمتنا الإسلامية الماجدة التي اختارت الإسلام لها طريقاً والدعوة إلى الله منهجاً، والعمل على إعلاء كلمة الله في الأرض هدفاً، ليكون الدين كله لله وتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى، ويسرني أن يتم هذا اللقاء في ظروف دقيقة من تاريخ أمتنا الماجدة، في فترة دقيقة من تاريخ أمتنا الماجدة التي مرت بها موجة عاصفة من الدعوات المضللة والمبادئ الهدامة التي أخذت بها ذات اليمين وذات الشمال تحت ظل مبادئ تنطلق، إما من منطلقات قومية عرقية وإما من منطلقات تعتمد على دغدغة المشاعر حول العدة وما يتصل بها وزعم أخذ العدالة الاجتماعية من غير الإسلام، وأحياناً في ظل علمانية ضالة غربية، كل هذه المبادئ جاءتنا من وراء البحار ومن خلف السهوب، غريبة على هذا الوطن ـ على الوطن المسلم، باتساع رقعته وتباعد دياره، وقد

عاشت الأمة الإسلامية في فترة التيه التي تزيد عن ربع قرن من الزمان، وقد جربت خلال هذه الفترة من تاريخ حياتها هذه الأفكار كلها، وقد باءت كلها بالفشل الذريع بحمد الله، ولم يعد في مقدور أصحابها أن يدللوا على أي نجاح حققته، على أي قدر من النجاح حققته في هذه الفترة الطويلة، بل إنها زادت من تخلف الأمة الإسلامية، وجعلتها تعيش في فترة من التمزق، الاختلاف والتباعد والتنافر على الأساسيات، ولهذا فإن لقاءنا في هذه الفترة بحمد الله يتم على بوادر صحوة جديدة لهذه الأمة الماجدة، التي حصلت القناعات عند الكثيرين من أبنائها على مختلف المستويات أن حل مشكلاتنا لن تتم إلا بالعودة إلى هذا الدين، في أصوله وفروعه، في عقيدته ومبادئه، ويسرنا أيضاً أن نلتقي هذا اللقاء لنتدارس أحوال أمتنا المسلمة وما آلت إليه، ونتلمس مواطن الضعف، ونبحث عن الوسائل التي يمكن بها النهوض بهذه الأمة من كبوتها، وخير من يناقش مثل هذه الأمور هذه الصفوة الممتازة من رجال العلم والفكر والأدب والدعوة إلى الله ـ الذين تمرسوا بها فترة طويلة من حياتهم، فنرجو أن يكون في لقائنا هذا خيراً للجميع. ومما يزيد أيضاً في سروري بهذه الندوة أن موضوعها من الموضوعات الهامة التي تتصل بالمنهاج العملي التطبيقي للأمة الإسلامية في حضارتها الطويلة، وموضوع الندوة كما يعرفه الجميع : **الدور الحضاري المعاصر للفقه والفكر الإسلامي**، والفقه في مفهوم علماء المسلمين الأوائل حتى أواخر القرن الثاني يعني الشريعة كلها، لأنه يشمل العقائد، كما يشمل المبادىء الهامة في الأخلاق والسلوك في أمور الدنيا والآخرة جميعاً، إلى جانب الأمور الفرعية والمعروفة بالفقه في عهدنا الحاضر، وإن كان الفقهاء المتأخرين قد حصروا الفقه أو مفهوم الفقه في الأحكام الفرعية العملية التي تؤخذ من الأدلة الشرعية، فإن الفقه في الأصل يعني الشريعة كلها، ولهذا فإن الإمام أبا حنيفة رحمه الله عرف الفقه بأنه معرفة النفس ما لها وما عليها، فهذا الموضوع الذي سنتناوله في هذه الندوة موضوع واسع مهم وسع حضارتنا في تاريخها الطويل، نظم حياتها في مختلف جوانبها، قاد الأمة قيادة رشيدة في كل مراحل النشاط البشري، وهو بحمد الله اليوم قادر على أن يقود هذه الأمة إلى الخير والبر والرشاد، لأنه يستند في أصوله ومبادئه إلى كتاب الله

وسنة رسوله ﷺ، وما يتفرع عنهما من أصول تابعة لهذين الأُصلين، ومما يزيد في سروري أيضاً كذلك بهذه الندوة أن يشترك في الحوار فيها قطبين يعرفهما الجميع، هما الأستاذ : **يوسف العظم**، صاحب مدارس الأقصى والداعية الإسلامي المعروف، وهو غني بمكانته وجهاده ومواقفه عن التعريف. والأستاذ الفاضل الكبير الأستاذ **أحمد محمد جمال**، أستاذ الثقافة الإسلامية في جامعة الملك عبد العزيز، وهو بنشاطه ومواقفه وتاريخه غني أيضاً عن التعريف، بمواقفهم وحياتهم وتاريخهم وجهادهم لأنهم يعملون بحمد الله وفي سبيل الله وجزاؤهم على الله.

وبعد هذه المقدمة، أود أن نعرف الطريقة التي تسير عليها الندوة، وهو أن يطرح الموضوع برمته على كل من المشاركين في الحوار، وإلى جانب هذا فإنه سيكون هناك فرصة لا تزيد عن ربع ساعة للأسئلة التي يمكن أن ترد على المحاضرات أو على الحوار، ونرجو أن تكون هذه الأسئلة محددة فيما يتكلم فيه المحاضرون أو المشاركون، ليست محاضرات وإنما هي حوار، يعني كلمات، فأرجو من له سؤال يتصل بالحوار نفسه أو الموضوع نفسه أن يكتبه حتى نستطيع أن نعرضه على المحاضرين أو على المشاركين في الندوة، والوقت قصير ونرجو أيضاً من الإخوان المشاركين في الحوار ألا يزيد كل واحد في الحديث عن ثلث ساعة لأن البرنامج فيه أيضاً لقاءات أخرى ومحاضرات، فأرجو من الأستاذ يوسف العظم أن يحدثنا عن الدور الحضاري للفقه الإسلامي، فليتفضل مشكوراً.

الأستاذ يوسف العظم ..

بسم الله الرحمن الرحيم ـ والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه إلى يوم الدين. أيها الإخوة..

أحييكم بتحية الإسلام، فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

لست بالفقيه ولا بالعالم ولكني تلميذ على موائد العلم عند هؤلاء، وظمآن أتوق لرشف الزلال من فيض علمهم، فأستميحهم عذراً إذا أخطأت، غير أن الموضوع المطروق لا يتناول أحكاماً فقهية مما يجرئني على أن أقف متحدثاً في هذا المجال. ولقد استمعنا عبر هذا اللقاء الرابع من لقاءات

الندوة العالمية للشباب الإسلامي لمحاضرات عدة وأحاديث كثيرة تناولت الفقه الحضاري وتناولت الحضارة الإسلامية وتناولت القيم الإسلامية في المجتمع المسلم، واليوم يطلب إلينا أن نتحدث عن الدور الحضاري المعاصر في موضوع الفقه والفكر الإسلامي، والفقه لغة يعني الفهم، والفكر والتفكر والتفكير ألفاظ لمدلولات تتناول أعمال العقل بقصد الوصول إلى الحق والخير وتجنب الباطل والشر، وعليه فالفقه فهم شرع الله فهماً سليماً، والعمل على تطبيقه في ميادين الحياة، ولقد عرف العلماء هذا المعنى فلم يحصروه قديماً كما حصر اليوم، ولم يحبسوه بين دفات الكتب ولا على أرفف المنازل والمكتبات، عرفوا الفقه بأنه معرفة شئون الحياة جميعاً في ظلال القرآن، بل معرفة أحكام الدارين الدنيا والآخرة، ومن التعاريف الرائعة في الفقه ما دلت عليه الآية، « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون »، وبعض المفسرين يعلق إذ يعرف معنى أهل الذكر بأنهم العارفون بسنن الله في خلقه، من هنا لا أرى أن معنى الفقه هو الاطلاع الواسع العميق على أحكام العبادة من صلاة وصوم وزكاة وحج وتلاوة قرآن، فذلك الجزء العبادي في الأفق الخاص للعبادة، إنما الفقه أن يعرف الفقيه كل شئون الحياة ـ فكيف يبدع الفقهاء اليوم ؟ وكيف يعملون حتى يكون لهم الدور الحضاري الكبير في عصرنا الحاضر، هذا المعنى لا بد من أن يكون الفقهاء من أساتذتنا وعلمائنا الأجلاء على مستوى المسئولية الفكرية في أرقى مستوياتها وأدق تفصيلاتها دون الاكتفاء بالعيش مع الكتب أو إصدار الأحكام على كثير من ممارسات الناس الحياتية، وهم لا يعيشون مع الناس أو لا يطلعون على معطيات العقل البشري الذي أبدع الله صنعه، ولا بد للفقيه المسلم المعاصر أن يكون على قدر وافر من سعة الأفق والاطلاع الغزير والشموخ أمام الباطل ليصنع الأحداث لا أن يعطي فيها الفتاوى المميتة الجامدة التي لا تتجاوز سطور الكتب أو كلمات الألسن، لا يقبل من الفقيه المعاصر أن يطلق فتوى في تحريم أمر أو تحليله وفق أحكام الكتاب والسنة، ثم يبقى في بيته لا يدري أحد به ـ الفقيه يصنع الأحداث فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، الأحداث كلها سياسية واقتصادية واجتماعية وعلمية، ومن هذه الأحداث الشئون التي تتعلق بالعبادة في محراب الصلاة أو تلاوة القرآن. من هنا أرى أن يكون هناك

تبادل معرفة بين الناس في مختلف تخصصاتهم، يلتقي علماء العلوم الكونية بعلماء العلوم الشرعية فيعلم علماءُ العلوم الشرعية علماءَ العلوم الكونية الأمور التعبدية التي تجعل صلاتهم وعباداتهم وصومهم وزكاتهم على مستوى مرضي ومقبول من الله تبارك وتعالى، ويلتقي علماءُ العلوم الكونية مع علماء العلوم الشرعية فيخرجوهم إلى أن يعرفوا كثيراً من شؤون الحياة، وليس بشرط أن يكون الفقيه المعاصر ملماً بكل العلوم الكونية، من كيمياء وفيزياء وما إلى ذلك، ولكن لا بد له أن يكون ملماً بجانب من المعرفة التي تمكنه أن يصدر حكماً شرعياً على قضايا تطرح اليوم كالصعود إلى القمر، والوصول إلى المريخ وما إلى ذلك، لا بد إذن للفقيه المعاصر أن يطلع في علم غزير على كل ما يحيط به، لا يجوز ولا يقبل من فقيه ألا يعرف اتفاقية سياسية تقودنا إلى ذل واستخذاء مع اليهود بزعم أن هذه سياسة، بل لا بد للفقيه أن يدرك أحكامها وأن يعرف مراميها، حتى إذا ما وفق وأصدر حكماً قاطعاً جازماً مستمداً من الكتاب والسنة قال حرمت الصلح مع اليهود للأسباب التالية، ثم يعددها، وحكمت على من يصالح اليهود بالحكم الفلاني، ثم يعدد الأسباب التي اعتمدها. الفقيه المعاصر، لا بد أن يعيش حياة المسلمين لكي يصنع الأحداث فيها وكي يضع الإطار الإسلامي لها، فلا يخرج المسلمون عنه ولا يتعدوا حدود شرع الله تبارك وتعالى كما حدده الفقيه، مستمداً هذا الإطار من الكتاب والسنة ومن القضايا المطلوبة من الفقيه المعاصر، كذلك لا بد له أن يمارس الحياة في كافة جوانبها في إطار نظيف وعفة خالصة ثم يصدر بعد ذلك الأحكام على قضايا نسمع الحديث عنها ـ التأمين فكرة ـ والتأمين تطبيقاً ـ الأعمال المصرفية ما يحرم وما يحل ـ الصلح مع اليهود كما أشرت، أكل اللحوم المجمدة حتى بدأ الأمر مضحكاً يهزأ بنا الأعداء أو الغرب والشرق فيصدر لنا أسماكاً يكتب عليها مذبوحة على الطريقة الإسلامية، وأنتم تعلمون أن السمك مما أحل للمسلمين فلا يذبح ـ كثير من قضايانا الحياتية لا يصدر فيها حكم قاطع وتظل بين شرق وغرب، وتردد ذات اليمين وذات الشمال، والشباب لا يعرفون بما يأخذون وبأي رأي من الفقهاء يتبعون، وانقطاع العلماء عن الإطلاع والعطاء والتزود بالمعرفة، أدى إلى أن يتحول مجتمعنا إلى مجتمع استهلاك لا

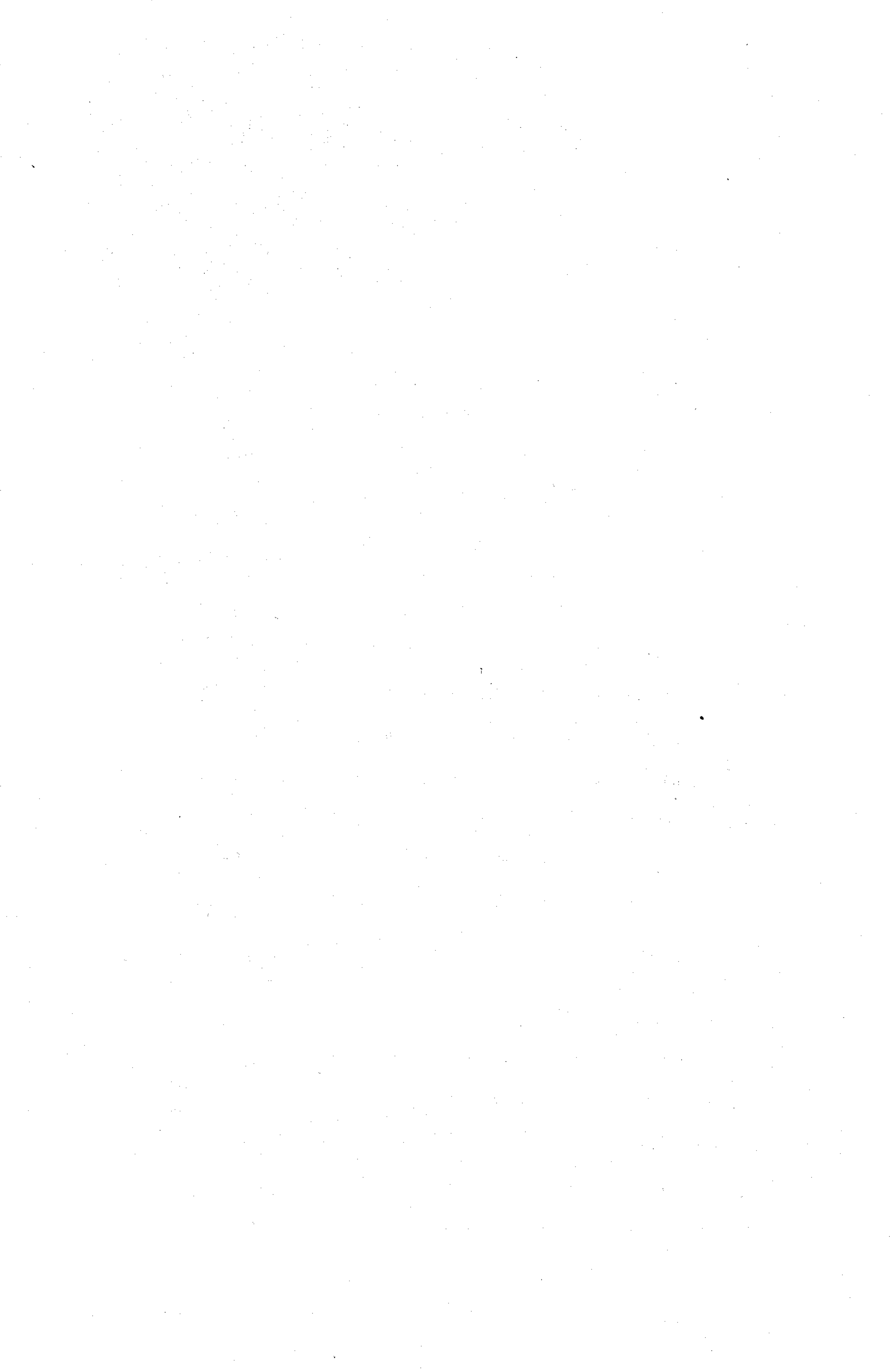
مجتمع إنتاج. ولقد أعجبني معنى رائع للبروفسور الدكتور نجم الدين أربيكان عندما قابلته في أنقره، قال : يا أخي أنا أتمنى أن يأتي اليوم الذي أحارب فيه اليهود، ولكني لا أحب أن أحاربهم بقنبلة من صنع أمريكا ولكن بقنبلة تصنعها يد مؤمنة متوضئة، هذا الأمر الذي لا بد منه وهو اليوم الذي تواجهه إيران إذ تبحث عن قطع للغيار فلا تجد. من هنا على الفقهاء أن ينبروا ويقولوا للمسؤولين الذين يتصدرون مراكز السياسة والقيادة والسيادة ومراكز المال، لا بد أن تقام المصانع الحربية في ديار الإسلام لا أن نستورد كل شيء، حتى الفكر نستورده معلباً مع الثياب والأحذية، لا بد إذن أن يقف الفقهاء يأمرون الناس بالمعروف، ومن الأمر بالمعروف أن يقولوا لأولى الأمر عليكم أن تقيموا المصانع للسلاح لكي يحمل الجند بندقية تصنعها يد مؤمنة، وقذيفة تنطلق ومعها قول الله تبارك وتعالى، « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ». ومن القضايا التي لا بد من طرحها في مجتمعنا أن نغير البرامج التي نعيشها الآن في كليات الشريعة، أو أن ندخل عليها تعديلاً، ففي كليات الشريعة في بعض ديار الإسلام ينحصر مفهوم الفقه كما أشرت إلى موضوع العبادات ويقف الشاب ليكفر الماركسية والماركسيين دون أن يعرف شيئاً عن الماركسية والماركسيين أو الوجودية والوجوديين، لا بد إذن أن يطلع الشباب المؤمن الذي يرشح نفسه أن يكون فقيهاً من فقهاء هذه الأمة على كل ما يقدم في مجتمعه من ضلالات، ورحم الله الإمام ابن تيمية الذي كتب عن الفرق الضالة لأنه كان يعيش عصره، وفقهاؤنا اليوم أرشح لهم كتب كارل ماركس، وأنا لا أخشى عليهم من الضلال فلقد اجتازوا مرحلة من مراحل الخوف عليهم في هذا المجال. أرشح لهم كتب هيجل، كتب فرويد، كتباً كثيرة من التي تطرح في سوقنا للشاب الذي لا يعرف من حقيقة فقهه شيئاً، لكي يصدر الفقهاء عليها أحكاماً تبين أين يكمن الضلال في مثل ذلك الفكر، لذلك أطالب فقهاءنا، وأنا من تلاميذهم، أن يكتبوا لنا كيف يعتبروا الماركسية ضلالاً، وكيف نعتبر الوجودية انحرافاً، وكيف نعرف هذه الأفكار المطروحة في مجتمعنا بعيدة عن الخير والبر والرحمة، هذه صورة أطالب أساتذتنا الفضلاء بها لكي يعيشوا عصرهم ولكي يكونوا من الطلائع التي تقدم الارتباط الحضاري بين فقهنا وبين عصرنا، ومن هنا فإنني لا أعد كلية

الشريعة وأصول الدين وكلية اللغة العربية هي كلها كليات الدعوة، إنما أحب أن أرى في مجتمعنا الإسلامي كلية التربية وكلية التاريخ وكليات العلوم الإنسانية، كليات للدعوة الإسلامية، إننا نرى الآن المجتمع العربي بأبنائه المسلمين قد انقسموا إلى قسمين : فريق يدرس طباً فيتناول الجسد البشري، وفريق يدرس هندسة فيتناول الآلة، وقد تركنا النفس البشريّة والوجدان البشري يعبث بها الفكر اليهودي عبر آراء فرويد، وعبر آراء دارون، وعبر الآراء التي نعرفها جميعاً ضالة منحرفة، لا بد إذن من الفقهاء الذين يوجهون أبناءهم عبر فكر مستنير للكتب والكليات والجامعات التي تدرس العلوم الإنسانية، عبر برامج ومناهج مدروسة ومخطط لها حتى تعطي ثمارها وتخرج الفقيه الواعي والداعية القادر على العطاء. كذلك أدعو إخواننا، وهم أساتذتنا وسادتنا العلماء عبر مفهوم أهل الذكر، أن يستعينوا بالعسكري في فنون الحرب، وبالطبيب في فنون الطب، وبالمهندس في فنون الهندسة، وبالمربي ورجل الاقتصاد والمخترع، حتى أنني أرى، وهم أدرى مني بذلك، أن يعد الواحد من هؤلاء مجتهد، مسألة إن كان مطلعاً على علمه الغزير عبر شروط الاجتهاد التي يعرفها العلماء، ولا بأس أن يعلم أبناؤنا الذين يدرسون في العلوم الكونية بل يجب أن يعلموا أمور دينهم ليفهموها حق الفهم، كيف يتلون قرآنهم، كيف يفهمون أمور العبادات في دينهم، ولكن عليهم أيضاً أن يستنيروا بل أن يبصروا العلماء من فقهاء الشريعة والعلوم الشرعية بما في علومهم الكونية من قضاياهم أحرص الناس عليها والمسلمون في أشد الحاجة إلى تفهمها. ومن هنا فإنني أشبه العلماء بالمعالم والمؤشرات على الطريق عندما يصنعون الأحداث ولا ينتظرونها حتى تقع فيصدروا فتوى تحريم أو تحليل، إنني أرجو علماءنا وفقهاءنا المعاصرين أن يجعلوا للفقه والفكر الإسلامي في دوره الجديد مجالاً كبيراً لحل مشكلاتنا حلاً متكاملاً لا جزئياً، أن يكون لديهم، ومن هنا أرشح فكرة واقترحها على كل عالم مسلم شغله اطلاعه على الكتب من الأمهات، أن يكون لديه شاب أو قريب أو ابن من أبنائه يقدم له خلاصة الصحافة العربية كل يوم، وخلاصة الصحافة الأجنبية كل أسبوع مما له علاقة بالاهتمامات الإسلامية حتى يظل الفقيه مع عصره، يعيش ويواكب موكب الحياة، فيقدم للناس وفق أحدث ما اطلع

عليه في جنبات الحياة المترامية الأطراف، وكذلك أرى أن تدخل مناهج الإسلام وآراء الفقهاء في كل ما أشرت إليه من علم النفس وعلم الاجتماع وعلم الاقتصاد، كما أرى أن يقارن للشباب بين الماركسيـة والوجوديـة والرأسمالية من جهة والقرامطة أو القرمطية والنصيرية والباطنية وما إلى ذلك لكي يعرف الشباب حقيقة ما يطلعون عليه في ظل الإسلام بتوجيه من العلماء، وأكتفي بهذا القدر، فلقد انتهى الوقت وأقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم..

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

- كلمة الأستاذ أحمد محمد جمال



بسم الله الرحمن الرحيم

رئيس الجلسة :

باسمكم جميعاً نشكر الأستاذ على هذه الكلمة المخلصة، والتي رسم فيها الإطار الذي ينبغي أن يلم به الفقيه المسلم، إلى جانب تخصصه الرئيسي، وهو الفقه بمفهومه الدقيق، الذي هو فهم الأحكام الشرعية ودقة الفهم فيها، ونترك الفرصة أيضاً للأستاذ أحمد محمد جمال ليحدثنا عن جانب آخر من جوانب موضوعنا مما لم يتعرض له زميله.

فليتفضل مشكوراً جزاه الله خيراً.

الأستاذ أحمد محمد جمال ..

بسم الله الرحمن الرحيم ـ نحمد الله تبارك وتعالى ونصلي ونسلم على نبينا وسيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان وبعد.

فأريد أن ألخص بعض الأمور التي تتعلق بهذا الموضوع أو هذه القضية، فأقول في البداية، إن عنوان الحوار يدل، وهي دلالة صحيحة وواقعية، على أن الإسلام في العصر الحاضر يعاني إيهاماً من أعدائه واتهاماً من أبنائه بأنه عاجز أو قاصر عن أن يؤدي دوره مع الحضارة الحديثة في

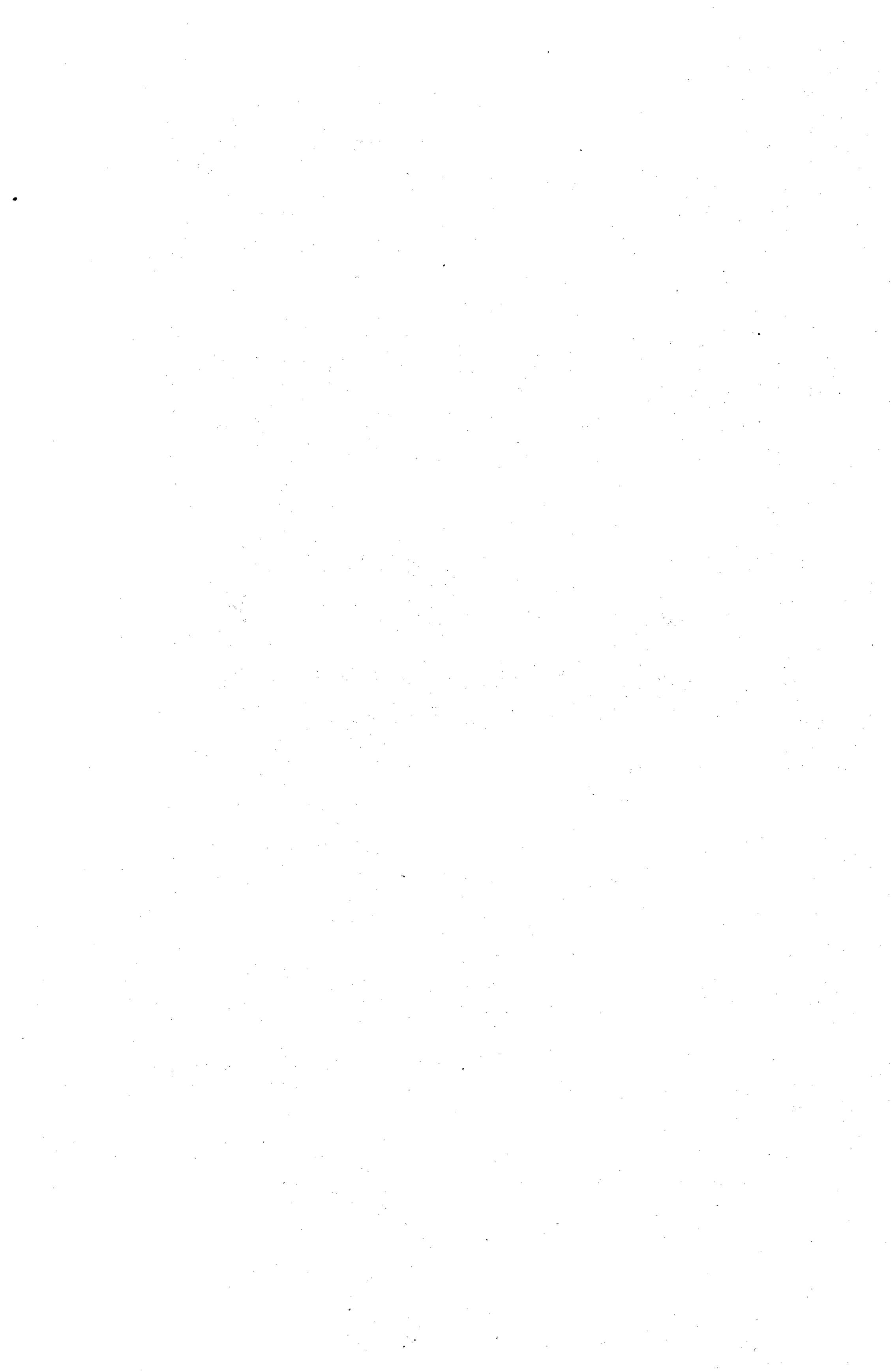
تنظيم الحياة الإنسانية، ليس عجيباً ان يتهم الإسلام الأعداء، ولكن العجيب أن يتهم الإسلام أبناءه بهذا العجز أو هذا القصور، لأنه حسبنا نحن المسلمين شيوخاً وشباباً أن نقرأ في كتاب الله تبارك وتعالى - « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ». وحسبنا أيضاً أن نقرأ في حديث الرسول عليه الصلاة والسلام : « تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا، كتاب الله وسنتي ». ثم مع ذلك نعلم الثروة الضخمة التي خلفها فقهاؤنا السابقون من دراسة وتأمل واستنباط وتخريج للأحكام، فلا يمكن بعدئذ أن نتهم الإسلام بالعجز والقصور لأنه يستند أولاً إلى كتاب الله عز وجل، ثانياً إلى سنة رسوله، ثم إلى اجتهادات الفقهاء من إجماع وقياس، حتى رأينا، في فقهنا أو في هذه الثروة الففهية العظيمة، بعض علمائنا أو فقهائنا من افترض مشكلات في العهود السابقة لم تحدث ووضع لها حلولاً وأحكاماً، وقيل فيما مضى أن هذا افتراض عجيب وسابق لأوانه، ولكن العصور المتتابعة أثبتت عبقرية تلك الأذهان المسلمة المفكرة التي افترضت أحداثاً ووضعت لها أحكاماً. إذن هذا الاتهام مردود من أعداء الإسلام ومن أبنائه على سواء، وهو يعود إلى حقد الأعداء ويعود إلى جهل الأبناء. نحن المسلمين كيف نحل هذه المشكلة، أو نعالج هذه الظاهرة لانها أدت واقعياً إلى أن يأتي حكام المسلمين ملوكاً ورؤساء وأحراراً أن يطبقوا الشريعة الإسلامية في مجتمعاتهم، هم متأثرون لا شك بما يقال عن عجز الإسلام وقصوره، وكم كنا نتهم الاستعمار الأجنبي زوراً وبهتاناً لأنه عندما استقلت الدول الإسلامية أو العربية عن الحكم الاستعماري لا زالت تحكم بعقليته وبفقهه وبقانونه إلى اليوم، إذن هنا مشكلة أو هنا ظاهرة وهي اتهام النظام الإسلامي بالعجز والقصور، إذن لا بد أن يصحوا فقهاؤنا وعلماؤنا ولكن أرى ألا يكون أو لا تكون صحوتهم فردية أو على نطاق فردي، فنحن ما زلنا نقرأ وندرس هذه الآراء أو الاجتهادات الفردية من فقهاء وعلماء. نحن لا ننكر أن في المجتمعات الإسلامية أو العالم الإسلامي فقهاء ومفكرين وعلماء وباحثين ودارسين ومستنبطين ومستدلين بأدلة صحيحة، لكن ما أريد أن نركز عليه، غير أنه ضروري، أن يعالج في هذه الندوة هو : لماذا لم يقتنع المسلمون شيوخاً وشباباً وحكاماً بأن الإسلام

قادر على أن يحكمهم بخير ما يحكم الناس ؟، قلنا إن الاجتهادات الفقهية موجودة وأن العلماء المجتهدين موجودون، ولكن العيب أو سبب القصور هو أن هذه الآراء تلقى كآراء فردية فلا يقتنع بها ـ إذن كيف نعالج الأحداث الجديدة التي حدثت في العصر الحديث وما قبل ذلك وما يحدث بعد ذلك، أنا أعتقد أنها لن تعالج ولا يقتنع بعلاجها إذا ظل كل مفتي في مصر مثلاً، في سوريا، في السعودية، في الكويت، في العراق، في أي بلد إسلامي، في باكستان، في أندونيسيا، لا يقتنع برأي هذا الفقيه المجتهد، أو أراد أن يحل مشكلة أو يعالج قضية من القضايا العصرية الحديثة. إذن لا بد من أن تقرر الدعوة إلى إقامة مجمع فقهي يشترك فيه هؤلاء العلماء من كل قطر إسلامي لتكون الفتوى إسلامية دولية وليس إسلامية سعودية، أو إسلامية عراقية، أو إسلامية باكستانية، فلا بد من إقامة مجمع فقه إسلامي دولي، أي عالمي تشترك فيه الدول الإسلامية كلها لتقتنع هذه الدول بما يصدر عن هذا المجتمع، أو هذه الدار دار الإفتاء الإسلامية، من حل لمشكلة أو فصل لقضية أو علاج لظاهرة في المجتمع الإسلامي لم نجد لها حلاً في الفقه العصور الإسلامية الماضية إغلاق باب الاجتهاد، ولعل لهم عذر أيضاً، نحن نلومهم ولكن نعتذر عنهم، فنقول إنما أغلق باب الاجتهاد لأنهم خافوا على هذه الثروة الإسلامية شريعة وعقيدة من أن يعبث بها العابثون وأن تستبد بها الأهواء، وأن تصدر في معالجة قضايا المسلمين أحكاماً ليست سليمة ولا قويمة، فنحن نلومهم ولكنا نعتذر لهم أيضاً، ونقول إن باب الاجتهاد مفتوح، وينبغي أن يبقى مفتوحاً، لأن الإسلام دين خالد تالد، أنزله الله تبارك وتعالى ليكون ختماً للأديان، وبعث رسوله عليه الصلاة والسلام ليكون خاتماً للأنبياء، وأسلفنا القول بأننا نقرأ في كتابنا : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ». والاجتهاد لم يكن دعوة من تابعي أو صحابي، إنما الاجتهاد كان من النبي ﷺ فيما أرسل به معاذ بن جبل إلى اليمن، فقال له : بمَ تحكم ؟ قال بكتاب الله، قال : فإن لم تجد ؟ قال فبسنة رسوله، قال : فإن لم تجد ؟ قال : اجتهد رأيي. فضرب على صدره وقال : الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله إلى ما يرضي الله، أو كما قال عليه الصلاة والسلام. إذن فالاجتهاد أساس من أسس

الفقه الإسلامي، لأنه يعود إلى الاعتماد على القرآن، فإن لم نجد فإلى السنة، فإن لم نجد نقيس ونجمع، فباب الاجتهاد مفتوح وينبغي أن يكون مفتوحاً، ولكن ينبغي أن لا يترك لأهواء فردية، ولا لاجتهادات فردية، لأننا نريد اقتناعاً جماعياً من المجتمعات الإسلامية، من الدول الإسلامية، من الحكّام المسلمين، هذا الاقتناع لا يتأتى ولا نجده إلا باجتهاد جماعي. نحن الآن في عصرنا الحاضر نحتاج إلى اجتهاد جماعي، إذا كان موضوع الندوة كما طرح هو دور الفقه الإسلامي أو الفكر الإسلامي في القضايا المعاصرة، الدور موجود بين أيدينا ولكننا نعرض عنه ونلتمس أفكاراً وآراء من فقه غيرنا وفكر غيرنا، مثلاً نريد أن نضرب المثل ببعض ما نعاني من مشكلات لم يبت فيها حتى الآن، ولا تزال مبعث حيرة، ليس للشباب وحده إنما لكل المجتمعات الإسلامية، نساء ورجالاً وشباباً وشيوخاً وحكاماً ومحكومين، من هذه القضايا التي اعتقد أن الندوة طرحت هذا الحوار من أجل أن تذكرها وتطالب بحلها عن طريق اجتهاد جماعي إسلامي، كيفية أو الطريق السليم الصحيح في التعامل مع المصارف، ما تزال هناك آراء متعددة من فقهاء مسلمين ومثقفين مسلمين، ما هو السبيل أو ما هي السبل الصحيحة لكي يتعامل المسلمون مع المصارف، وما هي وجوه الربا ؟ ووجوه الشركات، كيف تحول التعامل من تعامل ربوي إلى تعامل بأسلوب الشركات الحلال، هذا مثل واحد لا بد أن يفتى فيه فتوى جماعية من مجمع فقه إسلامي، لتقتنع به الدول والجماعات والشباب وسائر فئات المجتمعات الإسلامية. عقود التأمين، مازالت تتفاوت وتختلف وتتضاد فتاوى العلماء المسلمين في كافة أنحاء العالم الإسلامي، وأقيمت من أجل ذلك المؤتمرات واستمعنا إلى الآراء المختلفة حول عقود التأمين ـ من هؤلاء العلماء من أباحها بإطلاق ومنهم من حرمها بإطلاق ـ فنريد حلاً وسطاً لما يحل منها وما يحرم ـ حلاً جماعياً يرضى عنه فقهاء المسلمين في كافة العالم الإسلامي، من القضايا الإسلامية التي هي محل حيرة للشباب بصفة خاصة تحديد مسئولية الدولة تجاه الأمة، من هنا كان اختلاف أنظمة الحكم في العالم الإسلامي ـ تحديد مسئولية الدولة تجاه الأمة ـ المثل الرابع : تحديد مسئولية المؤسسات التعليمية تجاه الشباب، نريد أن نوحد أنظمة التعليم، أنظمة

التربية في المجتمعات الإسلامية لتسير في طريق إسلامي أو طريق إسلامية صحيحة، فهذه المشكلات وأمثالها، أو هذه الظواهر التي تمس العقيدة لا تمس الشريعة وحدها وإنما تمس العقيدة لأنه فيها تحليل وتحريم لا بد لها من مجمع فقه إسلامي أو دار إفتاء إسلامية تحل هذه المشكلات وتدرسها وتصدر فيها فتاوى جماعية، ويخضع لها الحكام المسلمون والمحكومون، ويقتنع بها الشيوخ والشباب وسائر المؤسسات التعليمية والتربوية والثقافية والسياسية، وأرجو أن أكون بهذه الكلمة القصيرة ألقيت الضوء على أساس المشكلة وما ينبغي لها من علاج، والعلاج كما قلت موجود، ولكننا منصرفون عنه، ونظراً لانتهاء الوقت المحدد لحديثي أقول في ختام الكلمة، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ..



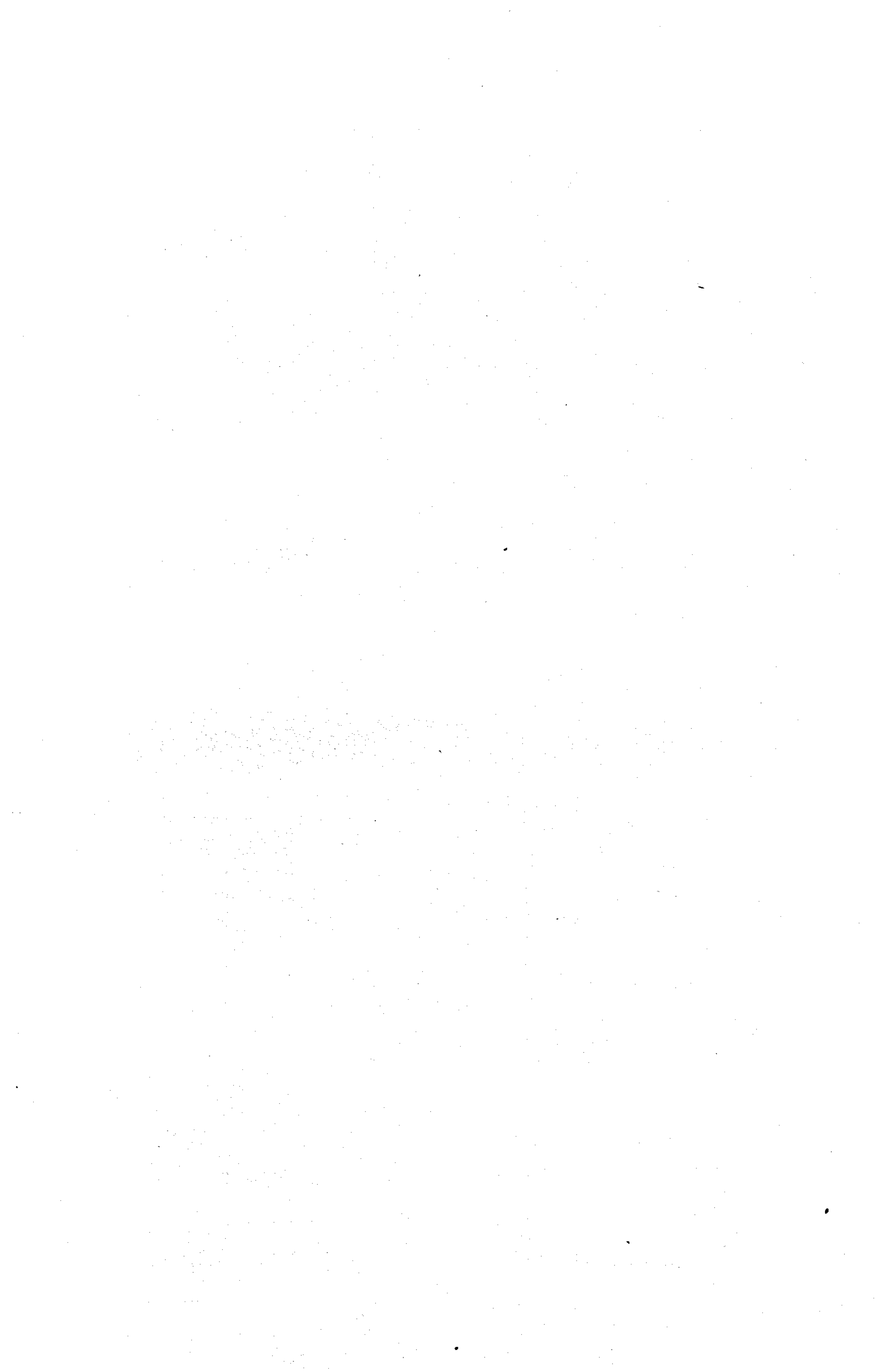
موضوع النـدوة :

عوامل انحطاط الحضارة الإسلامية وسبيل النهوض بها

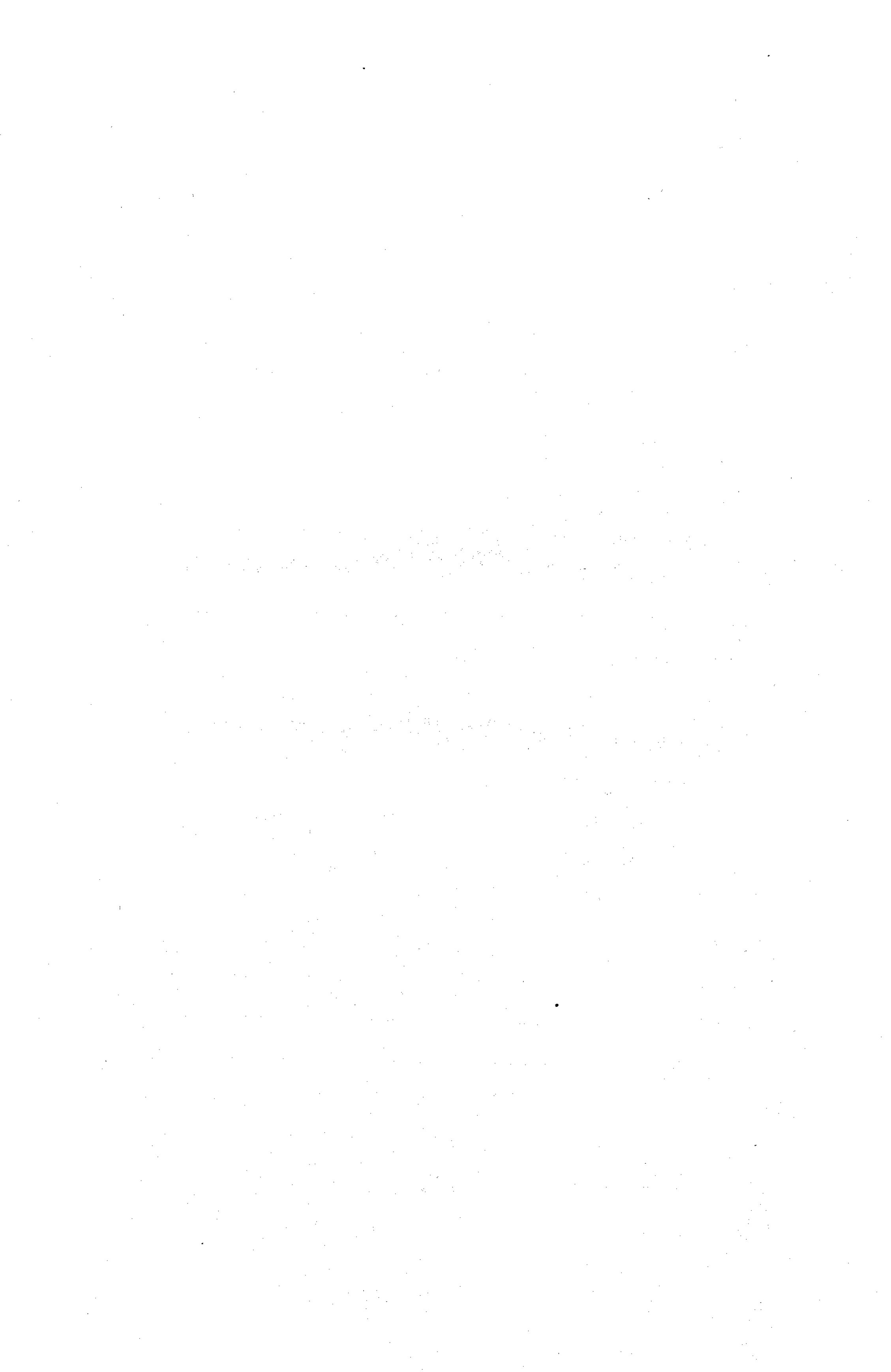
كلمة الدكتور جعفر شيخ إدريس

كلمة الدكتور إسماعيل راجي الفاروقي

التعليقات



- كلمة الدكتور جعفر شيخ إدريس



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الدكتور عبد الحميد ابو سليمـان ..

أيها الإخوة ـ والآن جاء دور ندوة اليوم موضوعها هو : « **عوامل انحطاط الحضارة الإسلامية وسبل النهوض بها** ». وبودّي، قبل أن يبدأ الإخوة أعضاء هذه الندوة الحديث في لب الموضوع، أن أشير إلى بعض قضايا يخيل إليّ التذكير بها أمر هام، لأنه في بعض الأحيان تكون هناك أمور مسلم بها ولكن تبقى في أذهان البعض وفي ظل التفاصيل المطروحة غير واضحة، مما يقلل الفائدة من البحث في أي أمر. البحث والتفكير فيما أصاب المسلمين وما يجب أن يفعلوا لا يعني أن العمل يتوقف أو أن العمل غير موجود. فكلتا القضيتين يجب أن تتم وفي وقت واحد، بينما نحن نعمل نحن أيضاً نفكر، فإذا جلسنا للتفكير فنحن نصب أذهاننا على النظر والتمعن والدراسة، فإذا انفض الجمع ذهبنا لكي نعمل، فلا يأتي وقت التفكير ونقول فلنعمل ـ إذا ذهبنا نعمل نقول ليس لدينا خطة للتفكير، فلا نحن فعلنا ولا نحن فكرنا. الشيء الآخر إن البحث والدراسة والنظر في أي أمر ليست قضية تتم مرة واحدة وتنتهي، هي عملية دائمة مستمرة موازية

للعمل الذي يتغير فيها حسب طبيعة اهتماماتها وتركيزها وأولوياتها وفقاً للظروف ورد فعل لناتج العمل، الشيء الآخر ـ قضية الموضوعية والهدوء في التفكير لا تتنافى مع الحماس والالتزام ـ الالتزام موقف يحدد لماذا أنت تبحث في أمر أو تهتم بأمر بعينه، الحماس يتم أثناء التنفيذ « فإذا عزمت فتوكل على الله »، ابذل غاية جهدك، لا تنصرف، أما حين تجلس للتفكير فيجب أن تكون موضوعياً شأن من يريد أن يرى الحقائق كما هي مهما كانت مرة، ويتبين النتائج مهما كانت قاسية، ليبذل جهده لكي يجعل هذه الحقائق وتلك النتائج تعمل لصالحه على الأمد القصير والمتوسط والطويل فلا تعارض بينها ـ فإذا جلسنا للتفكير يجب أن نهدأ وأن نكون شجعاناً وأن نسمع وأن نبذل الجهد لتبين الحقيقة ـ الانفعال يمنع القدرة على التفكير، أهم ما يجب أن نتذكره، أننا حين نواجه بقضية للتفكير أو موقف متأزم أن نأخذ أنفسنا بضبط النفس والهدوء والبعد عن الانفعال وإلا ضاعت الحقيقة وساء التصرف ـ أمر آخر قبل أن نبدأ ـ عادة المتحدث يتحدث للسبب الأساسي الذي يراه سبباً أو قضية، هذا لا يعني أن المتحدث يقول لا يوجد إلا هذا السبب فقط، أو إلا هذه القضية، إرجاع القضايا إلى السبب الواحد أمر أصبح غير مقبول عادة، الحياة متشابكة ومعقدة والعوامل المتشابهة كثيرة ولكن منها ما هو أساسي ومنها ما هو ثانوي، فإذا ركز المتحدث على سبب أساسي هذا لا نفترض فيه أنه لا يرى هناك سبباً آخر مساعداً أو مؤثراً. إذا أعطى هذا الانطباع يمكن التفكير، أعضاء هذه الندوة هم : **الأستاذ الدكتور جعفر شيخ ادريس،** أستاذ الفلسفة والمدرس بقسم الدراسات الإسلامية بجامعة الرياض، وهو من القيادات الإسلامية المعروفة التي لا تحتاج إلى تعريف. والعضو الآخر هو **الأستاذ الدكتور إسماعيل راجي الفاروقي** أستاذ الفلسفة ودراسة الأديان المقارنة بجامعة كمبل بالولايات المتحدة، وقليل منا من لم يستمتع قبل الآن بسماع الأستاذ الدكتور الفاروقي، وكلاهما كما ترون أساتذة فلسفة، وللفلسفة مزايا وأشياء أخرى، منها أننا نجيد الفهم وندرك الأعماق، وإن كان في إجادة الفهم وإدراك الأعماق صعوبة تجعلنا نقول إن هذه فلسفة، على كل حال نحن على ثقة بقدرة الأساتذة ـ وهذا موضوع يحتاج منا أشد العمق ـ إلى أن نتوصل إلى

الإحساس بأن المأساة في الحضارة التي يعيشها العالـم الإسلامـي قد أصبحت في حكم الزوال، وأننا بسبيل الارتفاع منها إلى القمم وليس الانحدار من هاوية إلى هاوية، حتى يحدث ذلك الإحساس، فإن البحث في هذه القضية يأخذ أولوية خاصة وأولوية هامة، الاستاذ جعفر شيخ ادريس سيكون أول المتحدثين فليتفضل.

الأستاذ الدكتور جعفر شيخ ادريس ..

بسم الله الرحمن الرحيم ـ إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، اللهم اجعل كل كلامنا طيباً واجعل كل كلامنا صالحاً واجعله كله لوجهك خالصاً ولا تجعل لأحد فيه شيئاً، أيها الإخوة : إن الانحطاط بعد الارتفاع عقوبة، إنه زوال نعمة، وقد بيّن القرآن الكريم السبب الأساسي لزوال النعمة : « ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ـ فالسبب الأساسي لانحطاط المسلمين بعد ارتفاعهم وتقدمهم لا بد أن يكون كامناً في أنفسهم، وأنا أشكر الأخ الدكتور عبد الحميد أن نبهكم إلى مسألة الأسباب الأساسية والأسباب الثانوية، نحن نتحدث عن الاستعمار، عن الصهيونية العالمية، وعن كذا وعن كذا وعن كذا ـ لكن كل هذه ليست هي الأسباب الأساسية بحسب النص والتوجيه القرآني، والآية تقول : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » وإذن فالسبب الأساسي سبب إرادي، إنه ليس شيئاً مفروضاً على الأمة من خارجها، والسبب الإرادي لا يفسر بأسباب خارجية. إذا كفر الإنسان فلا يفسر هذا بأن هنالك ظروفاً خارجية أجبرته على الكفر، إنه حينئذ يكون مختاراً، ولهذا فنحن لا نسير مع أصحاب ما يسمي بفسيولوجيا الدين أو المعرفة إذا كان المقصود بها أن هناك ظروفاً معينة تفرض على

الإنسان أن يكون متديّناً أو أن يكون كافراً ـ ما هو هذا الفعل الإرادي الذي يجلب زوال النعم، في القرآن الكريم، أمثلة على هذا : « لقد كان لسبأ في مسكنهم آية، جنتان عن يمين وشمال، كلوا من رزق ربكم واشكروا له، بلدة طيبة ورب غفور، فأعرضوا ـ هذا هو فعل الإرادة ـ فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتا أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل ». بل إن هذا هو التفسير القرآني لمثل هذه العقوبة الشديدة التي تثير الحضارة مرة واحدة، بل هو التفسير القرآني حتى لما نسميه النكسات المؤقتة التي وقعت لأصحاب رسول الله ﷺ، فالتفسير القرآني لكل ما أصاب المسلمين من هزائم مؤقتة في زمن الرسول ﷺ كان لإرجاعه إلى شيء في أنفسهم، « أوَلمّا أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم ». وفسر هذا الذي هو من عند أنفسهم في الآية الأخرى : « منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ». فالذين أرادوا الدنيا حتى من الصحابة كانوا هم السبب في الهزيمة، فإذن هنالك سبب أساسي ؛ هذا السبب الأساسي ينتج عنه أسباب تنتج عنه آثار تكون هي بدورها آثار لأسباب أخرى وهكذا وهكذا ـ لنضرب مثالاً، لنفرض أن عدد الذين يحبون الحياة الدنيا قد ازداد في مجتمع ما، أو أن الذين يحبونها ازداد حبهم لها، لا بد أنه ما دامت هذه قد صارت ظاهرة في المجتمع، لا بد أن يجدد بعض هؤلاء طريقهم إلى القيادة، إما القيادة العلمية، أو القيادة السياسية. إذا وصلوا إلى القيادة السياسية وكانوا يحبون الدنيا فإن هذا سيؤثر في معاملتهم للناس، سينتج عنه ظلم، سينتج عنه استكبار، سينتج عنه كذا وكذا، هذه بدورها تقود إلى آثار أخرى ضارة ـ إذا وجدوا مكانهم إلى القيادة العلمية كان لا بد أن يؤثر هذا في تفكيرهم، في فتاواهم، في مواقفهم، وكان لا بد أن يؤدي هذا إلى شرور أخرى ـ مثلاً لقد عاقبنا الله سبحانه وتعالى بسبب هذا التغيير بأن سلط الأعداء علينا، والله سبحانه وتعالى يقول : « ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً »، فجعل لهم سبيلاً علينا لأن الشرط لم يكن أساسياً عندنا، أصل الإيمان موجود ولكنه ليس الإيمان الذي ينتج عنه هذا الوعي، فسلط الله سبحانه وتعالى الأعداء علينا ـ تسليط الأعداء كان لا بد أن يؤدي إلى شرور أخرى

ـ أثر في التعليم ـ التأثير في التعليم أدى إلى آثار أخرى وهكذا، قبل أن أنتقل إلى النقطة الأخرى أريد أن أقول، إذا كانت هذه هي العلة فإذن سبب النهضة أيضاً لا بد أن يكون كما عبّر عنه الأخ عبد الحميد في ندوته، لا بد أن يكون بقرار، لا بد أن يكون في الأمة طلائع تعلو على هذه الأوضاع الشريرة وتتغلب عليها وتعزم على أن تعود إلى الحق، ولا نقول أن تغير لأن العودة لا تسمى تغييراً، سنتحدث بعد قليل عن هذا، ولكن إذا كان هذا هو سبب الانحطاط فلا بد أن يكون السبب في الارتفاع هو أيضاً بقرار تتخذه الأمة أو تتخذه طلائع الأمة ـ أنا أريد أن يكون حديثي تكملة لأحاديث كثيرة دارت حول هذا الموضوع، فلذلك لا أحب أن أعالج الموضوع من كل جوانبه بل أكتفي ببعض النقاط ـ من المشاكل التي سألني عِنها الشباب كثيراً، يقولون : إذا كان السبب في انحطاطنا هو أننا تركنا ديننا، فنحن على الأقل خير من هؤلاء الذين سلطهم الله علينا، نحن مسلمون وهم ليسوا بمسلمين، نحن مسلمون وهم يهود، والله يقول : « إن تنصروا الله ينصركم »، نحن لم ننصره كما يجب ولكن هؤلاء تمردوا عليه، فلماذا إذن ينصرهم علينا، والجواب يقول لكني أشير إلى بعض النقاط، أولاً : إن الله سبحانه وتعالى بحسب هذه القاعدة التي وضعها. « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ». إن العقاب حين يغير ما بالناس هذا التغيير يكون بحسب تغييرهم، هم إذا أعرضوا كقوم سبأ كفروا وجحدوا فإن الله سبحانه وتعالى يستأصلهم مرة واحدة، ليس بقتلهم جميعاً ولكن يستأصلهم كأمة كما قيل لقوم سبأ ـ فقد تشتتوا في البلاد وزالت حضارتهم، لكن هذا العقاب قد يكون أقل من هذا، يكون مؤقتاً وهذا الذي أرجو أن يكون قد حدث لنا ـ فالله سبحانه وتعالى يعاقبنا عقاباً مؤقتاً ينصرنا بعده، وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية، إن هذا العقاب، هذه ليست الفاظه ـ إن العقاب هذا المؤقت يكون رحمة بالمؤمنين. لماذا لأننا إذا استمررنا في التفوق المادي ونحن مستمرون في البعد عن الله فإن هذا يغرينا بزيادة الكفر وبمزيد من الابتعاد عن الله سبحانه وتعالى، فإذا ما عاقبنا الله سبحانه وتعالى فعسى أن ننتبه ونصلح من أمرنا ـ أضرب لهذا مثلاً، في غزوة حنين فسر الله سبحانه وتعالى هزيمة المسلمين بأن قال لهم : « ويوم حنين إذا أعجبتكم

كثرتكم »، لنفرض أن الله سبحانه وتعالى نصرهم رغم أنهم كانوا معجبين بكثرتهم، إن هـذا سيؤكد لهم أن سبب النصر هو الكثـرة، ولكن الله سبحانه وتعالى هزمهم هزيمة مؤقتة وجعل النصر على أيدي قلة قليلة جداً، فنبههم إلى أن سبب النصر ليس هو الكثرة، وأظنكم وأظننا نعتقد أنه قد مرت بنا ظروف لو انتصرنا فيها لعبد بعض الناس من دون الله سبحانه وتعالى، ولكن الله تعالى رحمة بالمؤمنين يسبب لهم هذه الهزيمة المؤقتة حتى يكون النصر على أيدي الرجال الذين يستحقون أن ينصروا، وحتى يكون في النصر رحمة بالمؤمنين لا مزيداً من القهر والتعذيب والبعد عن الله سبحانه وتعالى ـ وإذن فكما أن هزيمتنا قد تكون رحمة بنا، هي رحمـة بنا نعم إذا أحسنا الاستفادة منها، فإن غلبـة الكفار وبال عليهم، هي وبـال عليهم ووبال على البشرية « ظهر الفسـاد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس » حسب بعض التفـاسير، الظهور هنا معنـاه العلو والطغيان، فإذا كانت اليد العليا للمفسدين وكانوا هم الظاهرين فمعنى هذا أن هذا عقوبة للمقهورين وعقوبة للغالبين ـ ولعل في حديث الرسول ﷺ ـ عجب الله لقوم أو لأناس يدخلون الجنة في السلاسل، هؤلاء يحاربون المسلمين فينتصر عليهم المسلمون ويؤخذ منهم أسرى ثم يسلمون فكأنهم قيدوا إلى الإيمان قهراً، هؤلاء طبعاً سيقولون يوم القيامة الحمد لله، وأظن أنهم سيقولون قبل يوم القيامة حتى في هذه الدنيا الحمد لله الذي هزمنا وجعل هذا سبباً لنا في الدخول في الإسلام ـ إذن وهذا في اعتقادي وأرجو ألا يكون هذا مجرد حماس، في اعتقادي أننا برغم هزيمتنا لا زلنا نملك عوامل البقاء كامنة ـ إن فينا من عوامل البقاء ما ليس في الحضارة الغربية. الحضارة الغربية فيها حيوية ولكنها مؤقتة، يمكن أن نشبهها بذبابة تعيش مدة قصيرة، فهي حية ولكنها بعد قليل تموت. ويمكن أن نشبه المسلمين بأنهم في حالة نوم أو إغماء ثم يعودون بعدها إلى الحياة إذا توفرت هذه الشروط ـ كيف ننهض ـ أولاً أنا أرجو حين نفكر في النهضة الا يكون كتفكير كثير من غير الإسلاميين وهو أننا نريد أن نكون مثل الغربيين، نحن لا نريد هذا، نحن نريد أن ننهض، ولكن غايتنا من النهضة أن نكون من الذين أنعم الله عليهم فجعل تمكين الدين على أيديهم وجعلهم رحمة للبشرية، لا نريد فقط أن تكون لنا مصانع

كما لهم مصانع ومدارس كما لهم مدارس وكذا كما لهم كذا ـ لأن هذه يمكن أن تستعمل ضدنا وضد البشرية، لكن إذا أردنا هذا فإنا والطريقة الأساسية والوحيدة إليه هو القرار بأن نعود إلى الدين عودة صادقة ـ أصل الدين موجود فينا ولكن هذا الأصل لا يكفي لبناء الحضارة وللتغلب على الأمم الأخرى لا بد من تقوية هذا الإيمان وتنقيته والالتزام بلوازمه في حياتنا الخلقية أولاً، ثم في حياتنا الخارجية، لا بد أن تؤول القيادة الفكرية والسياسية إلى هذا النوع من الناس، إن الذي نحتاج إليه ليس شطارة سياسية، وإن كانت الشطارة السياسية أحياناً تفيد على قاعدة ـ إن الله لينصر هذا الدين بالرجل الفاجر، ولكنه لا ينصره بسبب فجوره ولكن ينصر المسلمين به كما ينصرهم بالنعاس وبأي شيء آخر، أريد هنا أيضاً أن أشير إلى بعض النقاط، السبب الذي ينبغي أن نركز عليه هو إنشاء أو تكوين هذه الطليعة المؤقتة التي سيؤول إليها بإذن الله أمر القيادة السياسية والفكرية في العالم، كيف نفعل هذا ؟ أشير إلى بعض النقاط، لا بد من تعديل المؤسسات التربوية والإعلامية بحيث تساعد على هذا، وقد تكلم كثير من الإخوان في هذا، لا بد من إنشاء مراكز لإعداد المفكر المسلم ـ شعرت من حديث الأخ يوسف العظم بالأمس رغم إعجابي به، ولكن قلت إن هذا ترقيع إنه يفترض أن الفقيه سيكون كما هو الآن ويريد أن يصلح من حاله، ولكن الذي نحتاج إليه هو مؤسسات تخرج لنا الفقيه الذي يريده الأخ يوسف العظم، لا بد أن نفعل هذا. إن الحركة الإسلامية قد وصلت إلى طور لا تكفي معه هذه المنظمات رغم استمرار حاجتنا إليها، بل نحن محتاجون إلى مؤسسات جديدة، وهذا لم تفعله لنا المؤسسات التقليدية القائمة الآن. الجامعات وكذا، فلا بد إذن من إنشاء مثل هذه المؤسسات ـ النقطة الثالثة هي ينبغي أن نكون واقعيين في تفكيرنا، والواقعية أعني بها الصرامة الشديدة في الالتزام بالمبادىء وبالغايات النهائية، والمرونة في تقبل الحلول الجزئية. هذا كلام أنا أعرف أن بعض الشباب لا يحبونه، ولكن إذا لم نفعل هذا فسنظل دائماً نتكلم ولا نستطيع أن نفعل شيئاً، الذي يساوم على الأهداف مخطىء، والذي يقول إنه يريد أن يحقق أهدافه كلها في يوم واحد أو في سنة واحدة، أيضاً مخطىء، فلا بد إذن من قبول الحلول الجزئية ما دام كل حل بإذن الله

سيؤدي إلى حل آخر وكل حل سيؤدي إلى حل آخر ـ من المشاكل التي تعانيها الأمة الإسلامية والتي ينبغي أن يسعى كل إنسان لحلها، هي إقناع حكومات العالم الإسلامي بأن محاربة الإسلاميين هي محاربة للأمة، فينبغي ألا يجاملوا أصدقاءهم من الغربيين في هذا الأمر، وليعلموا أن هذا في النهاية ضار بهم أنفسهم، هؤلاء الحكام، أقولها باختصار ينبغي ألا نظن أن الطريقة لإعادة الحضارة الإسلامية ـ هي أن نحطم الحضارة الغربية أو أن يكون لنا من القوة المادية ما لهم حتى نستطيع أن نتغلب عليهم، إن الأسباب الفعلية كثيرة جداً فينبغي ألا نحصر أنفسنا في واحدة منها ـ مثلاً من الممكن جداً أن يقبل كثير من هؤلاء الإسلام فيرثنا الله سبحانه وتعالى أرضهم وديارهم، يعني لا ينبغي أن نفكر في الإسلام تفكيراً قومياً فنظن أن المسلمين هم الذين يسكنون ما يسمى الآن بالعالم الإسلامي، يمكن أن ينشأ مسلمون في ديار الغرب نفسه يؤول إليهم أمر هذه الحضارة بإذن الله سبحانه وتعالى ـ أقول قولي واستغفر الله العظيم لي ولكم ـ ..



- كلمة الدكتور إسماعيل راجي الفاروقي



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخواني في الله السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، الانحطاط في نظري مجرى ذو اندفاع وليس حالة جامدة، وعلى هذا، إذا كان هنالك سبب لانحطاط، فإن هذا السبب هو نتيجة أسباب أخرى جاءت قبله، فالله يزيد المهتدين هدى من جهة، ويزيد الضالين ضلالة من جهة أخرى، لذلك إذا تكلمنا عن أسباب الانحطاط لا بد أن نتعرض لأسباب قد يراها البعض منا نتائج، وقد يراه البعض الآخر كأسباب.

العامل الأول في نظري الذي أدى إلى انحطاط هذه الأمة ـ هو التصوف ـ وأنا لا أنكر فضل التصوف في الدعوة وفي نشر الإسلام، وفي تزكية نفوس المسلمين، وفي تنوير الإسلام فيهم، وفي المحافظة على التزام المسلمين بإسلامهم، إلا أن هنالك جوانب أخرى للتصوف قد تسمى بالتصوف الغالي، إلا أنها عملت عملها في عقل ونفس وذهن الأمة الإسلامية

ـ فأدت بها إلى الانحطاط، إذا كان وجه التصوف قد تغير أو قد زال بعض الزوال عن هذه الأمة فإن العوامل المكونة له لا زالت قائمة بيننا، فإن لم تكن في المعهد العلمي أو في الجامعة فإنها حتماً قائمة في الأكثرية الساحقة منها. ما هي هذه المبادئ الصوفية التي أدت إلى انحطاطنا :

أولاً ـ في حقل المعرفة ـ المعرفة كما يقول التصوف نور يقذف به الله في القلب، فهو غير مكتسب، وهو غير نقدي، وإذا كان تسبب أو إذا كان نتج هذا النوع عن شيء من التهذيب كطاعة الشيخ فهذا التهذيب لا علاقة له بعملية المعرفة. ويقول التصوف أيضاً إن هذه المعرفة سرية أو باطنية، الأسس التي يعرف المعروف بها ليست علنية، بل هي عرفية ينقلها الشيخ إلى تلميذه ـ ورابعاً : المعرفة عند المتصوفة تعتمد على حالة العارف لا على حالة المعروف، فهي لا تسمح لوصف المعروف ولا لفحصه ولا لإقامة التجارب فيه، ومعرفة من هذا النوع لا يمكن أن تؤدي إلى معرفة الحقيقة، فمعرفة الحقيقة تتطلب تعقل، والتعقل هو تحكيم العقل بشكل علني عام، هو الدأب والاجتهاد في الوصف والتمحيص، هو النقد، هو الانفتاح على الدليل أنّى وجد، هو المنهج التجريبي.

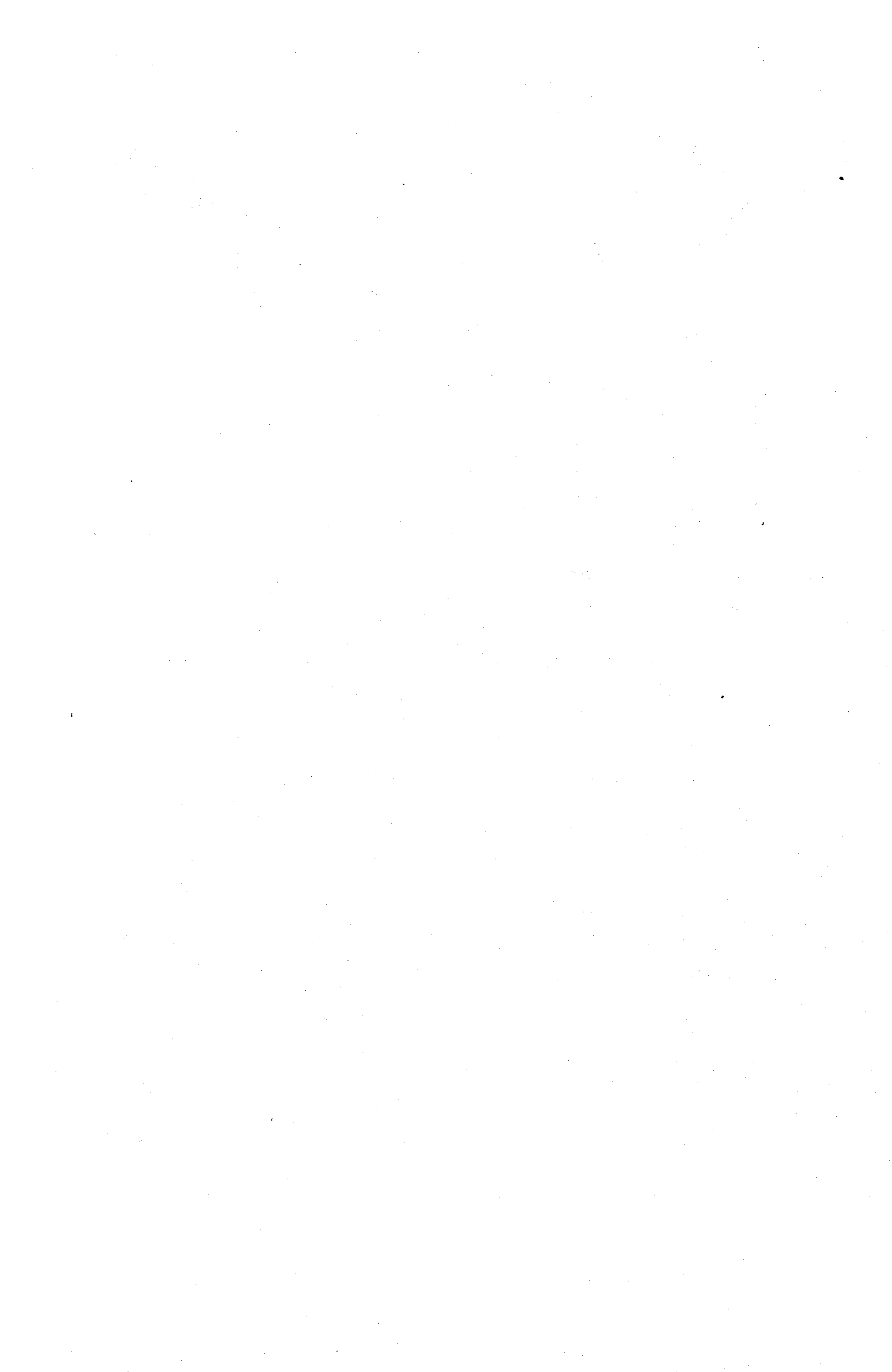
ثانياً ـ في حقل الأخلاق الشخصية، فالتصوف يقول : إن الخير حالة نفسية (جنوفس) ـ حالة الاتحاد أو الإشراق أو الاتصال، وهذا التعريف للخير يناقض معنى الخير كما يعرفه التوحيد : كأنه تحقيق لإرادة الله في الزمان والمكان ـ أيضاً في الأخلاق الشخصية يقول التصوف : إن السبيل للخير هو التهذيب النفسي، والتهذيب النفسي يأتي بالطاقة والرعاية الروحية، فهو يناقض الرياضة العلمية والعمل بالأركان ـ الأركان هنا بمعنى أركان الجسم.

ثالثاً ـ يقول التصوف كما تقول المسيحية إن الأخلاق كلها قائمة على النية، على الحالة النفسانية، وهذا يتعارض تماماً مع ما علمتنا الشريعة من أن الأخلاق ليست فقط النية ـ النية مشترطة فيها، ولكنها هي الدخول في معمعة الحياة، الدخول في الزمان والمكان والخضوع للشريعة فيه، في العمل فيه، فهنالك شريعة، وهنالك محاكم، وهناك حسبة واحتساب لا بد من العمل وتغيير الزمان والمكان حتى تتم الأخلاق.

رابعاً ـ أدت هذه المبادىء الأخلاقية إلى انسحاب المسلم من المسجد إلى الزاوية أو الخالطة، ومن المعمل والعمل إلى الانعزال والتأمل، ومن الجماعية إلى الانفرادية ـ هذا في حقل الأخلاق الشخصية، أما في حقل الأخلاق العامة، فالانفرادية أدت إلى الانسحاب من السياسة، هذه السياسة التي كانت تقول الشريعة لتأمينها : إن على المسلم أن يساهم فيها، بأن يبايع خليفته وأن ينصحه ويرشده وينتقده، وأن يجاهد ويعمل ويكسب الرزق ويعيل عائلة وهلم جرا ـ أدت إلى الانسحاب من السياسة، أدت إلى عدم الاهتمام بالعائلة، بالحارة بالمدينة، وأدت إلى الانسحاب من الجيش وترك الجهاد، وأولت كل آيات الكتاب الكريم وأحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام في موضوع الجهاد والخيل وغبار الحرب إلى نفسانيات وأشواق وتأملات، كذلك في الأخلاق العامة، على أثر هذه الانفرادية لم تستطع الدولة أن تقوم وتؤدي واجبها، فالدولة تعيش على مساهمة المواطن، فإذا لم يساهم ولم يبايع ولم ينصح ولم ينتقد ولم يؤثر، تناول الدولةَ الطغاةُ لقمةً سائغةً. وثالثاً : يقول التصوف في الأخلاق العامة بالتقليل من أهمية الدنيا والتنكر لها والزهو بها، وأنا أرجعكم إلى حوالي ٢٠ صفحة في كتاب الإحياء « إحياء علوم الدين » للإمام الغزالي رحمه الله عن ذم الدنيا، كلها مليئة بالحقد والكراهية الموجهة للدنيا ـ شبه الدنيا فيها بالمرأة الخادعة، وشبه الساعي فيها بصاحب الجمل الذي يسعى ليقدم له الماء البارد للشرب، وعمم هذا التعميم بأن الدنيا كلها ضد كل خير، فجاءت نظرته إلى الدنيا كأنها نظرة مسيحية بوذية، وإن كان لم يتعد هذا الأمر إلى التوصية بالرهبنة. والتصوف في الميتافيزيقا حول القول الإسلامي من أن الله هو الفاعل، هو الخالق، هو المحرك لكل شيء وهو غاية كل شيء إلى أن الله هو كل شيء، إذ لا وجود إلا وجوده، ولا حقيقة إلا حقيقته، مع أن الإسلام علمنا أن الحقيقة عالمان : عالم الله وعالم الخلق، وأن كلاهما، الله والخلق حقيقة، ولذلك قال التصوف بوحدة الوجود، وهذه الوحدة طمست الفوارق بين الأشياء ـ وطمس الفوارق بين الأشياء حال بين المسلم وبين العلوم الطبيعية، لأنه حال بينه وبين اكتشافه للأسباب المسببة لها، وكذلك وحدة الوجود طمست الفوارق بين الخالق والمخلوق، وهذا الفارق

ضروري للأخلاق، وطمست أيضاً الفوارق بين الخير والشر وهو أيضاً مبدأ ضروري للأخلاق، وقد حالت دون نمو الذوق الشرعي الذي كان يتمتع به السلف الصالح، وحالت بين المسلم وبين النقد الأخلاقي وذلك بتمييعها للمفاهيم الخلقية حسب هذا المبدأ، والتصوف أيضاً في حقل آخر هو حقل خلافة الإنسان، حوَّل قول الإسلام من أن الخلافة هي حمل الأمانة وتغيير الزمان والمكان إلى ما يحقق أوامر الله، إلى الولاية، وهي شطحة أو حالة يغيب فيها الوعي، ويرى الإنسان فيها نفسه بين يدي الله، أو كأنه الله، وفي هذا المضمار ايضاً حولت الإسلام عن التاريخ، عن الاهتمام بالتاريخ، فالتاريخ في نظر الإسلام هو المسرح اللازم لأنه لا مسرح سواه ـ المسرح اللازم للقيام بتحقيق أوامر الله ـ حولت هذا النظر في التاريخ والاهتمام بالتاريخ إلى عدم الاهتمام بالتاريخ، لأنها حكمت عليه بأنه كله معطيات وجذب واجتذاب إلى الشر، فنظرة التصوف إلى التاريخ نظرة لا تغاير المسيحية بشيء، وحولت أيضاً مفهومنا عن القدر، كفاعلية الله في الكون وهذا الفاعلية التي نسميها القدر هي قاعدة مفتوحة على فعل الإنسان ـ بمعنى أنها لا تنكر قيام الإنسان بالعمل ولكنها تؤمن أن جميع ما يحدث في الكون من فعل الله، حولت هذا التفهم إلى اعتبارات القدر كأمر محتوم مغلق ولا فاعلية ولا أثر للإنسان فيه ـ وفي العلوم الإسلامية تحول التفسير إلى تأويل، وتحول الاجتهاد إلى تقليد، وليس من الغرابة أن تحولت علوم المسلمين جميعها من علم فلك وكيمياء وطب وصيدلة وهندسة وغيرها إلى شعوذة، فمن الامتثال بالنبي عليه الصلاة والسلام وصحابته في فعاليتهم وديناميكيتهم وحركيتهم إلى الدعوة، إلى الركود، إلى الاعتزال والتأمل والرياضة النفسية، وذلك فقط ليس بتأويل القرآن والحديث، بل أيضاً بوضع الأحاديث الداعية إلى التصوف، فالتصوف، باختصار، نقض التعقل، ونقض الفعالية، ونقض الإيجابية، ونقض الأمة. هنالك عوامل أخرى غير التصوف، وأنا اختصر على العوامل الداخلية أرى في مطلعها **عامل القبلية أو الشعوبية**، وهو التقليل من العصبية الإسلامية والعودة إلى العصبيات الجاهلية، فهذه القبلية مزقت الأمة، أفسدت الثقة المتبادلة بين أعضائها، خربت العروة الوثقى بين المسلمين، وفي هذا المضمار نال العرب النصيب الأول، ونال الفرس

النصيب الثاني، ونال النصيب الثالث شعوب وقبائل أواسط آسيا ـ **العامل الثالث في انحطاط الحضارة الإسلامية هو الغُلوُّ في قيمة الكلمة إذا قورنت** بالمعنى. حتماً إن الكلمة مهمة جداً في نظرنا، بل نحن نفتخر أننا نعطي الكلمة أهمية لا يعطيها أحد، ولكننا في انحطاطنا غلونا في هذه القيمة ففصلناها عن قيمة المعنى أي فصل، مع أن إعجاز الكلمة هو في الاثنين معاً، فغلو المسلمين في الكلمة ككلمة حوَّلَ انتباه الناس عن المضمون، ولا شك أن أدب المدح والذم ساعد في اتخاذهم هذا المجرى ـ **العنصر الرابع** لانحطاط الحضارة الإسلامية هو ازدواجية التشريع، وازدواجية التشريع لم تأت علينا إلا بعد أن جاءنا الاستعمار، ولكنها كما قلت سابقاً أصبحت الآن كامنة فينا بعد أن زال الاستعمار، وكذلك ازدواجية التربية والتعليم، وازدواجية التربية والتعليم قائمة بيننا بالرغم من انتهاء الاستعمار الذي أدخلها علينا لأول مرة. وهنالك **العنصر السادس** ولعله الأهم فيما يتعلق بنظرتنا إلى المستقبل وهو الكسل، فما من مسلم، إلا ما ندر، يعمل جهد طاقته سواء كان طالباً أم موظفاً أو عاملاً أم مزارعاً، ولهذا لا ينتج المسلمون ما يستهلكون من طعام وأثاث ومواد. أما **العنصر السابع** ولعله الطامة الكبرى فهو الأخلاق ـ والأخلاق أو النقص الأخلاقي الذي نتمتع به الآن هو أننا نفضل ذاتنا على غيرنا فنحن أنانيون ـ هو أننا نفضل كرسينا على المصلحة العامة، هو أننا نفضل المنفعة المادية على المنفعة البعيدة العامة. وهو أننا لا نبادر بالحسنة بل نبادر بالسيئة، أما سبل النهوض بالحضارة الإسلامية فهي عكس ما قلت، ولا شك أن عكس التصوف هو التوحيد، ولا شك أن عكس القبلية هي العالمية، ولا شك أن عكس ازدواج التشريع والتربية والتعليم هو توحيدها، ولا شك أن عكس الأنانية هو حب الغير، وعكس الكرسي هو المصلحة العامة، وعكس المنفعة المادية هو الأخلاق الحسنة، ولعل السبيل الأكبر الذي ينقصنا الآن هو القدوة الحسنة ـ القدوة الحسنة. ذلك المسلم الذي يبادر إلى القيام بالواجب، سواء في حقل التربية أو السياسة أو العائلة أو الشارع، فقط بعكس هذه العناصر المؤدية إلى الانحطاط فقط، بهذا السبيل للنهضة نستطيع أن نعيد للرؤيا المحمدية نارها المتأججة المبدعة. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..



تعليقات

« ندوة عوامل انحطاط الحضارة الإسلامية وسبيل النهوض بها »

في اللقاء الرابع للندوة



الدكتور عبد الحميد أبو سليمان..

شكراً للدكتور اسماعيل الفاروقي، وقبل أن نفتح باب النقاش في هذه القضية الهامة، وصلتني ورقتان ببعض الملاحظات، الأولى منهما حول الاقتراح بمشاركة الأخوات في هذه المناسبات والأسلوب المناسب، ربما في أماكـــن منفصلة وربما استخدام دوائـــر التليفزيون المغلقة. الواقع أنـــه اقتراح جيد ، ونرجو في المناسبات الإسلاميـــة والأعمال الإسلامية أن نتمكن دائماً من العمل المشترك وفقاً لآداب الإسلام وقواعد الإسلام وغايات الإسلام، وأن تتوفر لنا الوسائل المناسبة ـ الورقة الأخرى، أحد الأخوة بمناسبة عرض موضوع أفغانستان اقترح التعرض لموضوع آخر، وأعلم اخوة آخرين كان يهمهم التعرض لبعض هذه المواضيع. الواقع أن إعطاءنا الفرصة للأخوة في افغانستان ليتحدثوا إليكم ـ الواقع إن أفغانستان اليوم تواجه عمل جهاد يجب أن يكون لديكم وعي على أوضاعه العملية، فرص العمل لا تنتظر فإذا لم تفعل في اللحظة المناسبة تخطئ، الشيء الآخر،أن قيادة العمل في أفغانستان هي في يد إسلامية والحمد لله، ومن هنا فهو أمر يخصنا وبشكل عاجل فيما يختص بأعمال الندوة، أنتم ترون أنها منظمة تختص بأعمال الشبـاب وبترقيـة برامـج الشبـاب واستكمـال أدواتـه ـ

المؤسسات الإسلامية السياسية هي الأولى بالنظر في القضايا السياسية وإصدار القرارات والتصريحات المناسبة المدروسة، وطبيعة القرارات السياسية والأعمال السياسية أنها كما يقولون سهلة وتطغى بطبيعتها على أي عمل آخر حين يتم تناولها، ولأننا هنا أمام مهمة سياسية هي في ذاتها تعبئة وتهيئة للعمل السياسي والمؤسسات السياسية، فمن هنا الندوة لا تتعرض لهذه الأمور، لا لأنها غير مهمة، ولا لأنها لا يجب أن يعطيها المسلمون الاهتمام اللازم، ولكن لأن المفروض أن هناك منظمات ومؤسسات سياسية هي الأرضية المناسبة للأداء في ذلك الأمر وحتى لا ننصرف عن أداء مهمتنا الأساسية.

والآن يفتح باب النقاش للأخوة الكرام للبحث واستكمال الأمر هذا..

أحمد البورقادي من المغرب ..

قضية انحطاط المسلمين والحضارة الإسلامية قضية واقعة ـ الكثير من الشباب يتساءل كما سألوا الشيخ ادريس : لماذا يبقى الكفر بمنجى عن الهلاك والمسلمون تتعاور عليهم المصائب والمهالك ؟ ـ آية واحدة من القرآن تفصل في هذا ـ يقول الله سبحانه وتعالى : « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ». فسبب الحضارة وسبب التقدم ليس هو الإيمان ولكن هو الاصلاح، فما دام هناك إصلاح فإن الله لا يظلم القرية المصلحة بل يبقي عليها وهي متقدمة، اما الإيمان فليس شرطاً في الإبقاء على الحضارة، لكن الإيمان شرط أساسي ينفي التمكن في الأرض بدليل قول الله سبحانه : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنَّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكننَّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وليبدلنَّهم من بعد خوفهم أمناً ».

إذن قضية الاستخلاف في الأرض وقضية التمكن، الإيمان شرط أساسي ينفيها، أما قضية الحضارة وقضية التقدم كما عند الكفر الآن فهي ليست قضية إيمان وإنما هي قضية إصلاح ـ أما الشيخ الدكتور فاروقي فلا أدري ما هي الأسباب التي دعته إلى التحامل على قضية التصوف، مع أن التصوف في مظهره الروحي، وفي مظهره السامي، وفي مظهره العملي، وفي

مظهره الذي يسمو ويصفو، هو شيء جاء به الإسلام، في حديث جبريل عن حديث رسول الله ﷺ أنه سأل الرسول ما الإحسان : أخبرني عن الإحسان، قال : « أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ».

الأستاذ يوسف العظم ..

إنّنا بمجرد أن نصف الحضارة الإسلامية ارتفع عنها الانحطاط، فأما حضارة المسلمين منحطة لأنهم تخلوا عن إسلامهم واما عوامل انحطاط المسلمين أنفسهم ـ واحدة ـ الثانية ـ الموضوعية التي أشار إليها الرئيس، في مجتمعنا العربي موضوعيتان : موضوعية علمية هادفة وهي التي أعجب بها كثيراً وتبناها أمثال الدكتور الفاروقي، وهو أستاذ من أساتذة الجيل، والموضوعية المشبوهة التي تدعو شبابنا إلى التخلي عن الدين والأخذ بالقومية أو الماركسية، ويتبناها الصليبيون في الديار العربية أو يترك المسلم دينه، وأن يترك المسيحي دينه فإذا ما ترك المسلم الشاب دينه وجد الذي دعاه، أصبح قسيساً هذا الذي أعنيه بالموضوعية المشبوهة والتي نرفضها. أما ضبط النفس والهدوء الذي أشار إليه الأخ الرئيس والتفكير والعمل فهو أمر سليم وصحيح، لكن لا نملك إلا أن نشير إلى أن الله قد وهب قوماً طبقة صوتية ونبرات خاصة، ولذلك نجد المحاضر غير الخطيب، والخطيب غير المتحدث، والمتحدث غير المناظر وهذه كلها قد تجتمع في رجل واحد ولكنها لا تجتمع في موضوع واحد ووقت واحد معاً، فالتفكير له وقته والعطاء العملي له وقته، ولكن في موضوعية علمية لا موضوعية مشبوهة، وهي التي تبرأ ندوتنا ولقاؤنا منها بإذن الله، وشكراً.

صلاح الدين جورجي من تونس..

إني أعتبر أهم ما قيل في هذه المناسبة هو محاولة تحليل أو البحث عن عناصر الانحطاط في الحضارة الإسلامية، وأهم هذه العناصر التي لم تدرس دراسة علمية من طرف المفكرين المسلمين هو التصوف، فنحن لا نعرف حقيقة هذا التصوف وماذا فعل في حياة المسلمين، لذلك أرجو من السيد المحاضر أو من غيره من المفكرين المسلمين التأكيد، أو تلبية

بمعطيات أكثر علمية وأكثر موضوعية، لدور التصوف في انهيار الخط البياني في الحضارة الإسلامية، لأن هذه حقيقة في رأيي، أعتبرها هامة جداً، فإذا عرفنا كيف نبينها ونكشفها نكون بذلك قد أعدنا النظر في تقييم تاريخنا الذي لا يزال لم يراع ولم يدرس دراسة موضوعية.

الدكتــور صبحــي ..

ثمة ملاحظتان أود الإشارة إليهما حول فكرتين، الأولى للدكتور جعفر شيخ ادريس والأخرى للدكتور فاروقي ـ الأولى حول تفسير الدكتور شيخ ادريس للقوم الذين يقادون بسلاسل إلى الجنة، ففيه شيء من التبرير لمعنى الضعف الذي انتهت إليه حال أولئك القوم، وما أظن ذلك كان مراداً في هذا الحديث، بل هي صورة مجازية عما يمكن أن يصل إليه المؤمن السعيد من دخول الجنة ربما رغم أنفه. وقد وردت في مثل هذا المعنى أحاديث أخرى ونصوص لا مجال لذكرها، والمهم من هذا ألا يكون في أي كلمة نقولها من مركز قيادي ما يبرر ضعفاً أو وهناً نفسياً يرتضيه أحد للمسلمين ـ أما بالنسبة للدكتور الفاروقي فلا شك أن ما أدلى به عن الحقائق المتعلقة بالتصوف مقبول منه قدر كبير إلى حد لا بأس به، ولا سيما إذا كنا نريد أن نتحدث عما آل إليه التصوف لا عن بدايته ومجرد وجوده، فمثلاً كل الذي قاله عن العوامل التي أدت إلى إفساد التصور الإسلامي في حقل المعرفة، وفي حقل الانتقال من الجماعة إلى الفردية، وحتى في حقل الأخلاق العامة، وفي ميدان التقليل من أهمية الدنيا، وفي فكرة وحدة الوجود، وفي نقض الإيجابية والواقعية والتعقل وحتى نقض الأمة باستيلاء روح فردية عليها بدلاً من الروح الجماعية، في هذا كله بدون شك توضيح لحقائق، من الصعب أن ينكرها أحد منا إذا كنا لا نريد أن نتأثر ببعض العوامل التي ساقتنا مساقاً عاطفياً ووجدانياً لإظهار حسنات في شيء كان له أصل أصيل وقد أصبح هو له البديل وهو الزهد في الإسلام وهو التصوف الذي هو إلى حد كبير تأثر بأشياء ليست من أصالة الإسلام الحقيقية في شيء، لكن في اعتقادي أن الدكتور الفاروقي في حديثه عن الخير وارتباطاته بحال نفسانية من طريق التصوف لم يستشف الروح الحقيقية لهذا الموضوع لأن في هذا الجانب

عند أهل التصوف وأرباب القلوب خيراً كثيراً، ربما لا نقع على مثله عند أي قيادي واقعي أو إيجابي أو حتى ثائر في عصرنا الحاضر، فمثلاً أنكر ارتباط الحالة النفسية الخيرية بالبيئة، أو أنكر أن يتعلق أكثر ما تعلق بالبيئة مع أنه يعلم، كما يعلم كل عالم مسلم، أن حديث رسول الله ﷺ في النية المشهور المستفيض الذي بلغ حد التواتر : « إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى ». ومثله حديث رسول الله وهو أيضاً صحيح : « نية المؤمن خير من عمله ». هذا وذاك وأحاديث أخرى من هذا القبيل تنقض أن يكون أي معنى متعلق بالنية مسبباً بعداً خيرياً عن حقيقة معنى الخير الأصيل، لأن تصورنا للنية لا يكون إلا إرادياً والإرادة عمل عقلي والعمل العقلي ينافي أن يكون التصور للخير تصوراً قائماً على أساس فردي أو فردائي، فأرجو من الدكتور اسماعيل الفاروقي أن يوضح هذا الأمر لأني معتقد اعتقاداً جازماً أنه يقصد إلى ما أقصد إليه، ولكن ربما كان التعبير هو الذي أسأت أنا شخصياً فهمه.

وشكراً على كل حال..

الدكتور جعفر شيخ ادريس ..

أريد أن أصرف جزءاً من وقتي في مناقشة الدكتور الفاروقي ـ لقد كان التصوف في رأيي رد فعل ضد الاتجاه الذي حصر الدين في المظاهر الخارجية ـ الدراسة قدمت على التقوى، العمل الخارجي قدم على الأحوال النفسية ـ إرادة الإنسان نسيت معها إرادة الله ـ علوم الدين صارت كفنون الحدادة والتجارة لا روح فيها، لهذا اسمى الغزالي كتابه « إحياء علوم الدين ». والانطباع الذي خرجت به من كلام الأخ الدكتور الفاروقي أنه يريد أن ينتقل من طرف إلى طرف آخر، وأنا أدعو وأعتقد أن التوحيد ليس مع التصوف، وليس مع الطرق الأخرى، إنما وسط بينهما ـ إنه يجمع بينهما ولا تناقض بينهما، وكثير من الأشياء التي أخذها على المتصوفة فيها جزء من الحقيقة، المتصوفة أخطأوا فيما أنكروه وأصابوا في كثير ما أثبتوه ـ المعرفة نور يغدقه الله في القلب نعم ـ ولكن هذا لا يعني أنه ليست له أسباب خارجية ـ المعرفة تعتمد على حال العارف نعم ـ ولكن هذا لا يعني أنها

لا تعتمد أيضاً على حال الذي يراد معرفته، الخير أساساً في النفس نعم، ولكن هذا لا يعني أنه يبقى في النفس فقط ولا يترجم إلى الخارج، التهذيب النفسي هو الأساس، الأخلاق قائمة على البيئة، كل هذا صحيح، والأحاديث كما ذكر الأخ المناقش توضح هذا، ولكن الخطأ هو أن نقول إن هذا ليس ذاك الصحيح. إن الدين أساس في القلب ولكن العمل هو ترجمة ضرورية لهذا القائم في النفس وإلّا لم يكن هناك فرق بين المنافق والمؤمن، لأن المنافق يمكن أن يأتي بأعمال خارجية تشابه أعمال المؤمن، وأيضاً إذا قلنا هذا فإن الرجل الذي يعزم على الخير عزماً قوياً ولكنه لا يستطيع أن يترجم عمله هذاإلى أشياء لن يعتبر خيراً،ونحن نعلم أن هذا خير.انفق ما تبقى من الوقت على ما جاء من الاسئلة: الإيمان ليس شرطاً في بقاء الحضارة،هذا يا أخي ليس صحيحا، الإيمان ليس شرطاً في وجود الحضارة المادية لأن هذه نعمة، والله سبحانه وتعالى لا يشترط للنعم أن يكون المنعم عليه بها مؤمناً، فهو يعطيها فضلاً منه، فالإيمان ليس شرطاً في وجودها ولكنه شرط في استمرارها، لأن الذي يعطي هذه النعمة ثم يستمر في كفره بالله وظلمه للناس وكذا وكذا لا بد أن تنهار حضارته وهذا هو أملنا في انهيار الحضارة الغربية من هذه الناحية ــ قوم يقادون إلى الجنة في سلاسل... الحديث، كما أفهمه، كما عرفت من تفسيره يا أخي ليس فيه تبرير لذل المسلم، وإنما الحديث معناه أن بعض الناس يكونون كفاراً ــ فيحاربون المسلمين فيأسرهم المسلمون فيكون هذا سبباً في إيمانهم فهم عندما أذلوا كانوا كفاراً ولم يكونوا مسلمين. إن كنت قلت ينبغي ألا تكشف عيوب الحضارة الغربية فأنا مخطىء بل ينبغي أن نفعل هذا ولكن أظن أن الذي قلته هو أننا لا ينبغي أن نتصور أن الطريق الوحيد لقيام حضارتنا هو أن تنهار الحضارة الغربية بمعنى الجانب المادي فيها. ليس من شرط قيام الحضارة الإسلامية أن ينهار هذا الصرح المادي للحضارة الغربية، بل يمكن أن يبقى هو وأن تزول الأسس الثقافية الفلسفية له، ويكون هذا ميراثاً للمؤمنين، فيتحول إلى حضارة إسلامية، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

الدكتور اسماعيل الفاروقي ..

أولاً في قضية التحامل على التصوف، أنا لن أنبس ببنت شفة في موضوع التصوف، اعترفت بفضل التصوف على تاريخ المسلمين ـ فيما يتعلق بالتحامل قلت إنني اعترفت بفضل المتصوفة قبل أن أبدأ بانتقادهم، وذكرت مما اعترفت فيه فضلهم في تغوير الإسلام في النفوس وتزكية النفوس، والدعوة وإدخال غير المسلمين في الإسلام وهلم جرا، ولربما لم أذكر الجهاد، ولا شك أن عدداً كبيراً من المتصوفة جاهدوا وساهموا في الجهاد وكان الجهاد هو عنوان تصوفهم وعليهم لا تقع لومة لائم. المشكلة الثانية هي المشكلة التي أثارها الشيخ جعفر شيخ إدريس وهي أن التوحيد وسط بين الطرفين : الطرف الأول هو طرف الاعتماد على الحقيقة الصوفية، بمعنى أن ما جاء به المتصوفة من حقيقة والابتعاد عما نسب إليهم من خطأ ولو كان هذا هو التصوف، لو التصوف هو هذا الشيء الطيب الذي ذكره الأخ الدكتور جعفر لما لزم أن يكون هناك تصوف ولا صوفية، لكان الإسلام كافياً ولكانت كنية المسلم أنه مسلمٌ كافية. ليس التصوف مجرد ردة فعل، ولو تصورنا أن التصوف كان ردة فعل لوجب علينا أن نقول إن الإسلام تدهور وجاء المتصوفة يردون على هذا التدهور فالتزموا بتدهور مقابل، وهذا التدهور لا يزيد الحالة إيضاحاً، ومن جهة أخرى عندما نقرأ كتب المتصوفة نرى أن المسألة عندهم ليست مسألة توسط، والمسألة بالفعل في الأخلاق وفي السياسة وفي الأخلاق الشخصية أو العامة، ليست المسألة مجرد توسط إنما هي وضع الأولوية على جانب دون الآخر، وأنا ألح على هذا وأعطي لكم مثلاً ـ المثل الذي تفضل به الدكتور صبحي ـ قضية ارتباط الخير بالنية ـ لا شك أن هذه الأحاديث التي ذكرها الدكتور صبحي صحيحة، وأنا لا أشك فيها ـ « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى » صحيح، ولكن في الإسلام في تصوري فيما يقوله الإسلام أن النية شرط لازم لا بد منه كي يأتي الفعل محققاً للقيم الأخلاقية، شرط لا بد منه، فكل فعل لا تتوفر فيه النية الطيبة نفاق كما قال الدكتور جعفر، ولكن إذا كان المتصوف يقول هذا ولا يقول أكثر من هذا فما الداعي لتمييزه عما يقوله بقية المسلمين ؟ الداعي

لتمييزه عن بقية المسلمين هو أنه يقول شيئاً آخر، هو أنه يعطي الأهمية على النية دون الدخول في الزمان والمكان وتحريك الزمان والمكان وتحقيق الأمر أو الغاية بالزمان والمكان، ولو لم يكن هذا لما كان هنالك تصوف ـ فما هو الإسلام ـ ماذا يقول لنا الإسلام ـ قالت لنا المسيحية إن النية هي الكل في الكل، وطبعاً في الأناجيل ما الذي يحكم النية أو يتحكم في النية ـ صاحب النية يتحكم فيها حتماً ـ ولكن ما هي الأداة أو السلطان الذي يمكنه أن يحكم على النية، الله من جهة، والإنسان صاحب النية من جهة أخرى، لذلك لا ضرورة لوجود قانون عام ولا قانون لوجود حدود وعقوبات، ولا ضرورة لوجود محاكم ولا سجون، لماذا ؟ لأن النية عنصر شخصي، ولأن تحويل النية مادية وعظية شيء يأخذ به الوعاظ، ويعمل القديسون والأولياء على تصنيفها طيلة حياتهم، وكذلك يحاولون أن تصفى هذه النية في الناس ـ الإسلام يقول : لا بد من محاكم، ولا بد من شريعة، ولا بد من حدود وسجون، لأن المسلم مكلف بالدخول في الزمان والمكان، وتحرير الزمان والمكان، وتحريك الزمان والمكان، وتغيير الزمان والمكان معناه التعرض إلى شيء عام خارج النفس الإنسانية، وهذا الذي هو خارج النفس الإنسانية لا يمكن أن يترك لحكم الضمير فقط، يجب أن تدخل فيه الشريعة ويدخل فيه الغير ويحكمه ويقومه ويسويه، وعند اللزوم يقاصصه ويضعه في السجن، أو يقتله وهلم جرا، لذلك أكرر أن المتصوفة لم تتبع الطريق الوسط الذي هو طريق التوحيد كما قال الدكتور جعفر، إنما مال التصوف إلى الجانب الآخر وهو جانب الشخصية النفسانية والانفرادية، إلى آخر القائمة التي ذكرت، ولهذا حقت عليها الكلمة، وحق عليها اللوم.

الأستاذ سعيد حوى ..

في الحقيقة الذي دفعني إلى الكلام أن هناك موضوعاً طرح وهو يمس قطاعاً كبيراً في العالم الإسلامي بل في العالم كله، ولهذا وجدت أنه ليس من المناسب إلا أن أقول كلمة توضع فيها بعض الأمور في مواضعها بالنسبة لقضية التصوف. قبل أن أقول هذه الكلمة أحب أن أقول ما فهمت من الدكتور جعفر، هو قال إن قضية الصراع والظفر والتغلب على الحضارة

الغربية، أو على الغرب بشكل عام ليس له طريق وحيد، هكذا فهمت منه وإنما هناك طرق متعددة ـ نسلكها في قضية سيطرة الحضارة الإسلامية على هذا العالم، قد يكون منها مثلاً التركيز على الدعوة، وأن تصبح هذه المجتمعات نفسها إسلامية في يوم من الأيام، قد يكون هذا ـ هذا الاحتمال كبير، لكن هذا فهمي لكلمته والله أعلم، ليس هذا رداً على الأستاذ، ولكن يظهر أنه أخذ جزءاً من كلمته ورد عليها والله أعلم. أقول بالنسبة للتصوف أيها الأخوة إنه نشأ كأثر من آثار الاختصاص، انبثق عن الكتاب والسنة علوم كثيرة ـ انبثق عن الكتاب والسنة علم التوحيد الذي أسمي في مرحلة من المراحل باسم علم الكلام، انبثق عن الكتاب والسنة علم الفقه، وانبثقت علوم كثيرة جداً. لو أخذنا هذين العلمين : علم الكلام وعلم الفقه فماذا نرى في علم الكلام ؟ نقرأ أن الله عز وجل متصف بالسمع والبصر والإرادة، له أسماؤه الحسنى. وهكذا في علم الفقه نعرف كيف نركع وكيف نسجد ومتى تصبح صلاتنا صحيحة ـ بقيت ثغرة ـ هذه الثغرة هي : إذا عرفت أن الله سميع، فكيف أعرف الطريق لاستشعر أن الله يسمعني ـ إذا عرفت أن الله بصير، فكيف استشعر أن الله عز وجل يراني، إذا عرفت كيف أركع وأسجد، فكيف يستشعر قلبي الخشوع أمام الله عز وجل، فوجد علم ثالث مكمل للعلمين الأولين علم الفقه وعلم العقائد، ووجد العلم المكمل وهو علم التصوف ـ الخطأ الذي حدث أيها الإخوة هو ما يلي ـ علم التصوف هو علم التحقق المقيد بعلم العقائد وبعلم الفقه، ولذلك قال الفقهاء خلال العصور ـ الصوفي يحكمه الفقيه ولا يحكم الفقيهَ الصوفيُّ فالصوفي ليست مهمته أن يقول في العقائد، وليست مهمته أن يقول في الفقه، بل عليه أن يلتزم بعلم العقائد، وأن يلتزم بعلم الفقه، مهمته أن يتحقق ـ مهمته أن يسير في الطريق الذي يكمل به علم العقائد على ضوء علم العقائد، أن يكمل به الفقه على ضوء الفقه. الذي حدث في التاريخ أن هناك مرحلتين ـ المرحلة التي كان يعتبر الصوفي فيها نفسه مقيداً بكلمة الفقيه، والمرحلة التي أصبح فيها الصوفي هو الذي يضع العقائد وهو الذي يصنع الفقه. نحن إذا أردنا أن نأخذ التصوف وعلى رجاله فإنما نأخذ على من صار في طريق يعتبر نفسه منظِّراً، يعتبر نفسه فقيهاً، فيطرح القضية مع أنه ليس مجتهداً، الذي يعتبر

نفسه أن عنه تنبثق قضية العقائد والتحقيق العلمي فيها ـ أمثال هؤلاء نأخذ عليهم ولكن ـ ابن تيمية رحمه الله مثلاً له مجلدات في قضايا الصوفية. ابن تيمية رحمه الله يقول عن الشيخ عبد القادر الجيلاني بأن كراماته منقولة تواتراً، فإذن عبد القادر الجيلاني الذي يعتبر مجدداً للمذهب الحنبلي في القرن الخامس، هذا الإنسان الذي انطلق من خلال فقه صحيح ومن خلال عقائد صحيحة وكان لكلمته في عصره دورها الكبير، عندما كان يقول الكلمة كان يهز الخلفاء ـ كان يهز الخلفاء، ومعلوم لديكم كلمته عندما جلس إليه الخليفة فقال له : كيف تولي أظلم الظالمين شئون المسلمين، ماذا تقول لله رب العالمين ؟، فبكى الخليفة وتراجع عن بعض تصرفاته ـ ابن تيمية رحمه الله يقول عن الشيخ عبد القادر الجيلاني بأن كراماته منقولة تواتراً ـ أيها الإخوة ! لا يصح أن نتصرف في كل قضية من القضايا بردود فعل، ينبغي أن تكون دراساتنا مستوعبة ـ أن نعتبر التصوف بإطلاق هو سبب انهيار الحضارة ـ بعضهم يقول بأن الفقهاء هم سبب، وجنودهم هم سبب انهيار الحضارة الإسلامية، كل شيء ينبغي أن نعطيه حجمه في التحليل، وينبغي أن نمتلك الدقة الفقهية والعلمية بحيث لا نطلق إطلاقات ـ هذه الإطلاقات تجعلنا أمام إحراجات كبيرة، سواء إحراجات علمية أو إحراجات في الحركة اليومية للأمة الإسلامية ـ التصوف ذو طابعين ـ الصوفية الملتزمون بعلم العقائد الصحيحة وبالفقه، يعني بتعبير آخر الصوفية السلفيون، هؤلاء لا يستطيع أحد أن يقول بأنهم كانوا عوامل انحطاط حضارة، بل هؤلاء كانوا الامتداد العادي للحضارة الإسلامية في تيارها المتدفق الذي يجتمع فيه الروح والمادة والجهاد، ولكن هناك نوع آخر من التصوف ومن الصوفية، هم الذين اعتبروا أنفسهم أن من حقهم أن يطرحوا عقائد جديدة مثل وحدة الوجود، هم الذين اعتبروا من حقهم أن الفقيه ينبغي أن يتابعهم لا أن يكونوا وراء فتوى الفقيه، الفتوى البصيرة المبصرة، أمثال هؤلاء الذين ابتدعوا والذين ضلوا بل والذين كفروا، أمثال هؤلاء ينبغي أن نقول فيهم ما نقول ومهما قلنا فإن لكلامنا محله، لكن لا بد أن نستثني كما قلنا الصوفي الذي أكمل دور الفقيه والذي أكمل دور المتكلم، لا بد أن نستثني هؤلاء ونحن نتكلم عن هؤلاء، فالتصوف علم متمم لعلم الفقه ولعلم التوحيد. واستغفر الله من الإطالة..

موضوع النـدوة :

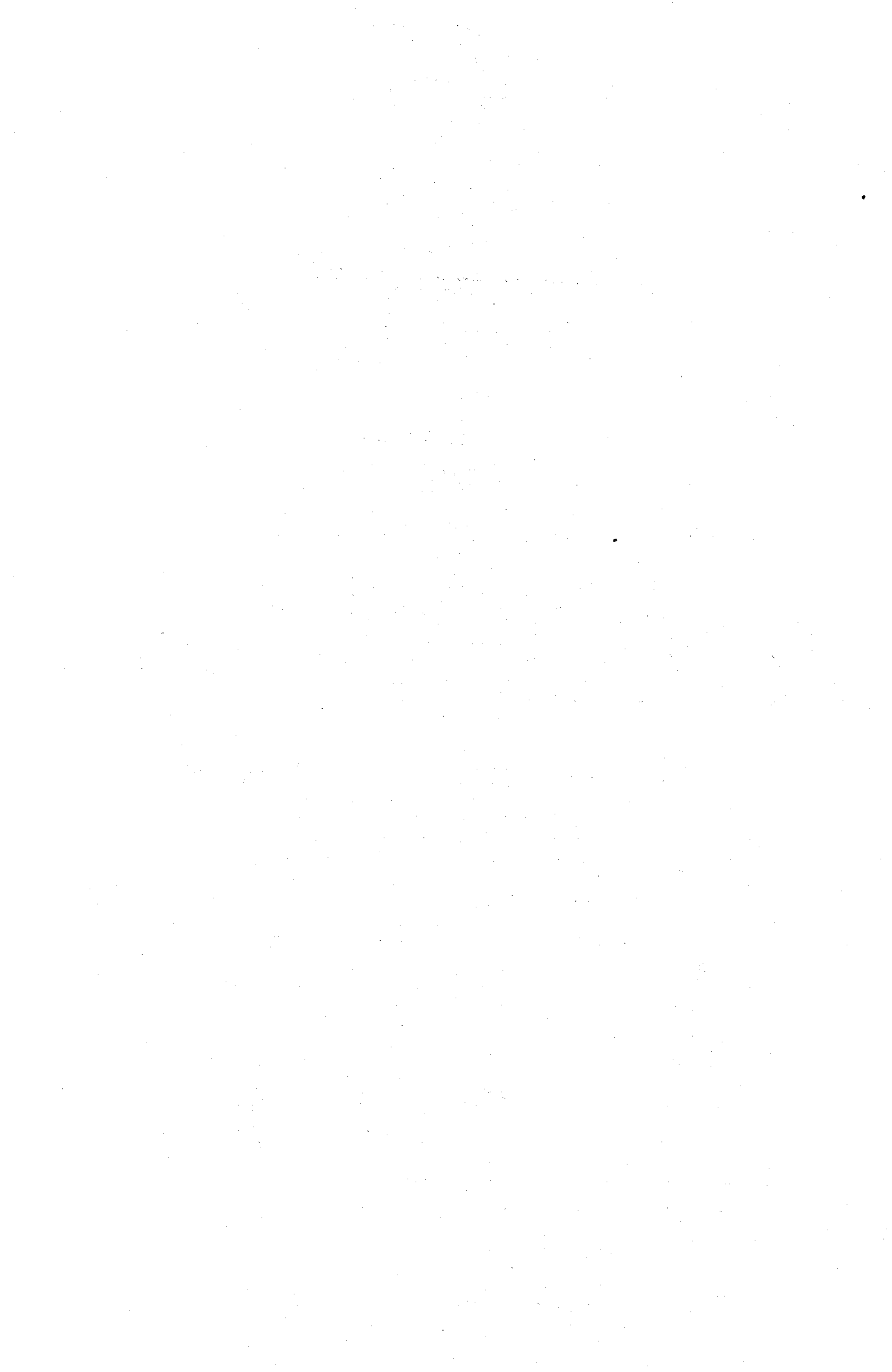
تأهيل الشباب للقيادة الحضارية

برئاسة الأستاذ إبراهيم جدوان

يشارك فيها : د. خورشيد أحمد
د. معروف الدواليبي
الأستاذ أنور إبراهيم



كلمة الدكتور معروف الدواليبي



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد المرسلين وبعد ..

أيها السادة الحاضرون ـ إني أشكر أخواننا في ندوة الشباب العالمي الذين اختاروا عنواناً لهذه الندوة : تأهيل الشباب للقيادة الحضارية، وإن كنت خائفاً على نفسي من أن أخوض في موضوع لم أتهيأ له من قبل، ولكن أخواننا حفظهم الله وضعوا يدهم على الجرح، فنحن المسلمين مازالت شريعة الله من كتاب وسنة قائمة بيننا، فهي التي صلحت بها أحوال الأمة، وانتقل بها العرب من رعاية الغنم إلى قيادة الأمم. فالكتاب والسنة موجودان، والشعب المسلم أيضاً موجود ولكن النقص بكل صراحة في القيادة ومؤهلاتها الذين يتعطشون للعمل الإسلامي وخاصة من الشباب المتحمس، إنهم والحمد لله كثر، ولكن علينا أن نتبادل الرأي لتحديد تلك المؤهلات. فموضوعنا إذن جدير بالعناية بالدرجة الأولى، لأن مشكلة النهوض بالأمة الإسلامية هي مشكلة قيادة قبل أي شيء آخر، فإذا استطعنا بعون الله تجهيز الشباب بمؤهلات القيادة رجونا عندئذ من الله خيراً كثيراً لهذه الأمة.

واسمحوا لي بإيجاز أن نحصر موضوعنا من خلال مفهوم كلماته الثلاثة : التأهيل. القيادة. الحضارة. ولا حاجة فيما أرى لشرح مفهوم كلمتي التأهيل والقيادة لوضوح المراد منهما. أما كلمة الحضارة هنا فلا أريد أن أقول فيها أكثر من أننا نريد منها الحضارة الإسلامية، ولسنا في موقف لأن ننازع غيرنا في تسمية حضارته بالحضارة المسيحية أو الحضارة المادية أو الحضارة الماركسية لأننا إنما نبحث في صدد تأهيل القيادة الإسلامية من أجل الدعوة للحضارة الإسلامية. فكل دين ظهر فيه دعاة إلى حضارته، بل منهم من حصر الحضارة فيه، ولسنا هنا في مقام تصويبهم أو تخطئتهم وإنما المراد أن نحدد المراد من الحضارة الإسلامية، ومتى تكون حضارة إسلامية أو غير إسلامية، وهنا أيضاً أوجز الكلام فيها فأقول : إنها تكون حضارة إسلامية عندما تقوم على القيم الإسلامية، فما هي هذه القيم التي يجب أن يدعوا إليها شبابنا وأن يتأهلوا بمعرفتها ؟ هنا أيضاً ينبغي أن نعمد إلى الإيجاز بالنسبة لضيق الوقت ورغبة في التجريد والتوضيح وذلك بطريق التجريد والتحديد لعناصر القيم الإسلامية. وأفضل ما نعتمد عليه في ذلك هو القرآن الكريم، فهو دليلنا وهو مرشدنا، فاذا عرفنا تلك العناصر للقيم الإسلامية ثم أقمنا عليها بعد ذلك حضارتنا، كانت حضارتنا عندئذ حضارة إسلامية بجميع مقوماتها، من مادية وروحية، وكان مجتمعنا إسلامياً، ودولتنا إسلامية، وثقافتنا إسلامية، فمن أين ننطلق في ذلك لتجهيز شبابنا. أرى أن ننطلق من المعرفة والعلم، خاصة ونحن نعيش في عصر هو بحق عصر الفتوح العلمية التي لم يسبق لعصر من عصور الحياة البشرية أن وصل إليها، والإسلام في رأيي هو وحده الذي يستطيع الاستفادة من هذه الفتوح العلمية لأن الإسلام بصريح القرآن قال : « ونفصل الآيات لقوم يعلمون ». وفي آية « لقوم يعقلون »، وفي آية « لقوم يتفكرون »، في حين أن الكنيسة أقامت الدين على مفهوم صريح واضح عندهم كما جاء في كتبهم الرسمية، ولست أنا الذي ألخص وإنما هذا قولهم. عرفوا الدين من أصل مائة تعريف طرحوها وقالوا إنها ليست بتعاريف علمية، وإنما التعريف العلمي، الذي اختاروه من أصل مائة تعريف، إن الدين هو كل مفهوم لا يتفق والعلم، لذلك انفصل الدين عن العلم منذ القرن الثامن عشر واصبحت الثقافة علمانية لا دخل

للدين فيها، ولم يعد في الإمكان أن نقول إن هناك حضارة مسيحية أو يهودية كما زعم بعض الكتّاب من الغرب. وأحاول مرة بعد مرة أن أعود إلى الإيجاز لأن الموضوع واسع، وأرجع في ذلك إلى ما جاء في كتاب « الذريعة إلى أحكام الشريعة » للإمام الراغب الأصفهاني رحمه الله، حيث حدد مراد الله من خلق الإنسان بثلاثة أفعال فقال : فالفعل المختص بالإنسان ثلاثة :

أولاً ـ عمارة الأرض المذكورة في قوله تعالى « واستعمركم فيها ».

ثانياً ـ عبادته تعالى المذكورة في قوله تعالى « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون »، بالامتثال للباري في عبادته، في أوامره ونواهيه.

ثالثاً ـ خلافته المذكورة في قوله تعالى « ويستخلفكم في الأرض فينظرَ كيف تعملون ».

وهكذا فان الشباب المسلم يجب أن يتزود أولاً بالمعرفة الكلية الإسلامية التالية، وذلك أن الإنسان في عقيدة الإسلام مكلف :

أولاً ـ بعمارة الأرض، فلا تتحدانا عندئذ الحضارة الحديثة المادية لأننا مكلفون بعمارتها.

ثانياً ـ أن الإنسان مكلف بعبادته تعالى في الأرض من خلال عمارتها وفقاً لشريعته.

ثالثاً ـ أنه بعد ذلك خليفة في الأرض مسئول، أي أنه موظف بكل معنى الموظف في دائرة دولة. إنه موظف فيها بعمارتها ولعبادة الله فيها، أي أن يمشي في العمارة وفقاً لشريعة الله، فإذا عمرها وفقاً لشريعة الله كانت أعماله كلها عبادة وكان مؤتمراً بأمر الله ولم يعزل عن الحياة ما بين الجدران، فالعلم كما ترون لا يتحدى الشاب الداعية القائد عندما يتجهز بهذه المعرفة الثلاثية من أن المعرفة الكلية للإسلام أو مراد الله من الإنسان في الخلق عمارة الأرض خلافته، أنه موظّف له في الأرض يعمرها، وإنه عليه أن يعبده فيها ومسئول مثل أي موظف في الدولة عما قد وكّل إليه، فإذا استطعنا أن نجهز شبابنا المسلم بهذه المعرفة الكلية لم يقف أمامه بعد ذلك شيء من تحديات العلم والحضارة المادية، لأن الإسلام يدعو إليها من غير تحديد

وذلك بمختلف وسائل النظر والتكنولوجيا وبمختلف حاجات الفم والجنس، ولكن وفقاً لشريعة الله عملاً بقوله تعالى « قل انظروا ماذا في السموات والأرض » ففتح بذلك جميع أبواب التكنولوجيا من غير تحديد، كما أنه لم يحرم حاجات الفم والجنس ما كانت وفقاً لشريعة الله، فقد قال الله تعالى « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا » يعني كأن الله يتجاهل الكافر وأن طيبات الأرض إنما خلقت من أجل المؤمن فيستفيد منها الكافر تبعاً له.

فلسنا نحن نتخلى عنها، ولذلك أكّد بالنسبة للآخرة أن في الآخرة ستكون خالصة له، وأخيراً فقد حدد الإسلام معنى العبادة أيضاً فلم يجعل من العبادة عبئاً وتكليفاً كما يظنه الظانون، فهو مفهوم إنساني عملي دنيوي أيضاً نحن في حاجة إليه، فقد جعل من العبادة ما يجب على كل موظف فيما وظف فيه من العمل وذلك بأن يكون دائماً وفي كل حركة من حركاته وسكناته ذاكراً شريعة الله فلا يتعداها، مثل أي موظف في الدولة حين يدخل مكتبه حيث لا ينظر في قضية إلا وهو ذاكر أحكام القانون فيرجو ألا يخطئ ولا يسيء بالخروج على قوانين الدولة فلماذا يكون الإنسان غير ذلك، وماذا فيه من المشقة، هل فيه مشقة على الموظف أن يراعي قوانين الدولة كلما تحرك في مكتبه أو استلم عملاً، فليس في عبادة الله أي مشقة، بل هي واجب حيوي وعملي فيرجو ألا يخطئ الموظف في الدولة ولا يسيء بالخروج على قوانين الدولة، فاذا فعل الإنسان ذلك فطار في السماء وغاص في البحر وأكل وشرب ونال حاجات جنسه وفقاً لشريعته تعالى كان محققاً لمراد الله منه على الأرض.

وهكذا أعود فألخص أن مؤهلات الشباب فيما أراها للقيادة الحضارية هي تلك المعرفة التي أشار إليها القرآن الكريم، وهي لا تقف أمامها تحديات الحضارة المادية، وبالاضافة إلى تلك المعرفة طبعاً لا بد من العمل. « والعصر إن الإنسان لفي خسر إلّا الذين آمنوا » فالإيمان شيء ضروري ولكن بدون عمل نكون أفسدنا نظام الدولة كما لو آمن موظف الدولة، وعندما يوقع أنه واجب عليه أن القانون يجب أن يكون دائماً بارزاً أمامه ومؤمنا بأنه لا يجوز له الخلاف، ولكن إذا عمل عكسه أفسد إيمانه،

لذلك عليه أن يتجهز بتلك المعرفة الثلاثية لعمارة الأرض وأنه موظف في الأرض لعمارتها ومسئول، وأنه مكلف بالعبادة، بالعمل بشريعته، فإذن عليه أن يتجهز بتلك المعرفة الثلاثية، والعمل على أساسها، والدعوة إليها، وبذلك أنهي هذه الملاحظات الخاطفة، وأترك الأمر إلى تبادل الرأي عساني أن أكون تمكنت من لملمة الموضوع، لأنه موضوع واسع جداً، والمؤهلات إذا دخلنا في تفصيلاتها وخرجنا عن الكلية فلا يتسع لها المقام، وعسى أن يكون في أسئلتكم ومناقشاتكم ما يتمم ما نقص إليه فكري المتواضع.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..



كلمة الدكتور خورشيد أحمد



بسم الله الرحمن الرحيم

الإسلام والجهل ضدان لا يجتمعان. ولكي يتولى الإسلام قيادة العالم لا بد من التركيز على العلم والجسم، بيد أن العلم هو نقطة البداية. وإذا كان يلزمني هنا أن أقرر بأن العلم لا يعني كسب المعلومات عن الإسلام، رغم أهمية ذلك، ولكنه يستهدف المعرفة التامة بكل التيارات الفكرية في عصرنا والحضارة المادية التي يتحتم علينا أن نعلن الحرب عليها. ولكي نتمكن من ذلك لا بد أن نتسلح بسلاح المعرفة التامة بظروف العصر، ونوضح الأسس المنهارة التي تقوم عليها هذه الحضارة، ونحاول إعادة بناء الفكر الإنساني على أساس جديد من قيم ومبادىء الإسلام. ولا يكفي المعرفة السطحية والتعرف على غلاف الحضارة المادي، وإنما يلزم التسلح بعمق الفهم والمعرفة الخلّاقة وبذل الجهود المضنية المستمرة والتي لا تعرف الكلل، لإعادة بناء الفكر الإنساني على أساس إسلامي.

الأمر الثاني هو إيجاد العاطفة الثورية لدى الشباب لكي يستمدوا شخصيتهم وكيانهم من الإسلام وليس من خدود أقطارهم السياسية أو أرضهم أو منظماتهم أو مصالحهم أو تاريخهم المحلي، وإنما ينتمون بحق

إلى الإسلام بحيث يمكن أن نقول يوماً ما إننا أبناء الإسلام. وعندئذ فقط يستطيع الشباب أن يسهم في إيجاد القيادة لحضارة الإسلام. ومن ثم يوجد التهيؤ الأخلاقي والإعداد التنظيمي، لأن العمل الذي ينبغي علينا القيام به لا يمكن أداؤه وفق نمط معين أو في أعقاب أحاديث الصالونات أو بتجاهل بناء الخلق الفردي.

إن الحساب بين يدي الله مسئولية كل فرد، ولذلك فإن أي تنظيم يتجاهل مشكلة بناء أخلاق الأفراد لا يمكن أن يحدث التغيير المنشود الذي يريده الإسلام.

ولذلك فإن الأمر الثالث الهام ينحصر في تطوير واكتساب الأخلاق الإسلامية لكل فرد، ويتبع ذلك الاستعداد والاشتراك في الكفاح والنضال، لأنني أعتقد أنه من خلال الاشتراك في الكفاح تبرز العناصر الشبابية الممتازة وتعبّر عن نفسها.

وإذا اعتمدنا على الخطط النظرية، ولم نشترك عملياً في الجهاد، فلن نتمكن من تنمية القدرات والملكات التي يحتاجها الإسلام. أما الاشتراك العملي في الكفاح والنضال لنصرة الإسلام فيبعث الهمم ويبرز الامكانيات ويحولها إلى حقيقة واقعة ويركز الجهود في إيجاد النموذج الحقيقي.

إنه عن طريق القدوة وإقامة النظام الإسلامي في وقت معين ومكان محدد يمكن تحويل مجتمعنا وشعبنا وتغيير مجريات الحوادث في العالم الإسلامي، وبالتالي التأثير على بقية أنحاء العالم.

هذه بالنسبة لي هي الخطوط العريضة التي ينبغي التمسك بها إذا أردنا حقيقة تحقيق القيادة الحضارية.

تعليقات
ندوة تأهيل الشباب للقيادة الحضارية



الأخ ابراهيم جدوات :

أشكر الأخ خورشيد أحمد على حديثه الحافل بالأفكار، ولدينا الآن عشرون دقيقة، وأرجو من لديهم أسئلة أن يكتبوها ويرسلوا بها إلى المنصة نظراً لضيق الوقت، كما نرجو من الأخوة الذين يوجهون الأسئلة أن يلتزموا بالاختصار ولا يخرجوا عن الموضوع.

الأخ حافظ محمد إدريس :

أشكر الأخ جدوات وأعتقد أن الوقت قد حان ليتفضل الأخوة بكتابة أسئلتهم وإرسالها، وأنتهز هذه الفرصة لأطلب من الأخ خورشيد أن يلقي ضوءاً على التجارب التي تمت في باكستان بالنسبة لإعداد الأمة الإسلامية والشباب المسلم بالذات كي يقوم بدور في المستقبل.

الأخ خورشيد أحمد :

إن هذا الأمر يتطلب توضيحاً تفصيلياً لا يسهل إعطاؤه الآن في هذه العجالة، ولكن الشيء الوحيد الذي يمكن قوله هو أن باكستان، في الوقت الحاضر، تمر بمرحلة انتقالية، والحركة الإسلامية وكافة الناس المرتبطين بالإسلام في تلهف شديد لانتهاز هذه الفرصة التي أتاحها الله من أجل إحداث تغييرات إسلامية جوهرية، وإن الاستراتيجية التي نتبعها هي نفسها نص عليها القرآن الكريم بقوله سبحانه وتعالى : « الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر.... ».

ولذلك فإن البرنامج يتجه إلى الصلاة التي تدعم قوة ارتباط الإنسان بالله، وإلى فرض الزكاة التي تستهدف تغيير النظام الاقتصادي الاجتماعي،

أفراده لذواتهم إلى نظام جديد له طبيعة مختلفة ويعتمد المشاركة حيث أن ما يكتسبه الإنسان ليس نتيجة جهده الخاص وحده ولكنه نتاج العديد من العناصر المتداخلة فينبغي أن يشاركنا فيه الغير وألا يتجه الجهد الاقتصادي لصالح قلة معينة وإنما لمصلحة الجميع.

ويتبع ذلك اتباع سياسة تبنى على إحقاق الحق وإزهاق الباطل على كافة المستويات : مستوى البواعث، ومستوى التعليم، ومستوى السياسات الاقتصادية والاجتماعية، ومستوى القانون بحيث عندما تتجه الجهود لإقرار الشريعة تكون جميع القوانين المخالفة للشريعة قد استؤصلت وانتفت من الدستور وتم تنفيذ الحدود وفرض قوانين الزكاة والعشور وطبقت التشريعات الأخرى في المجالات الأخرى، ولكننا نعتقد أن الإسلام لا يفرض بالقانون.

إن التغيير لا بد أن يحدث على مستوى البواعث، ومستوى المعلومات، ومعرفة الناس، وتثقيف الجيل الجديد، واتباع السياسات الاقتصادية الاجتماعية للدولة.

وفي هذه المجالات تبذل الجهود الآن لتكييف الأوضاع وتغيير الأحوال، وما أتممناه مجرد نقطة البداية، وأرجو أن تكون بداية طيبة، بمعنى أن يكون مستوى رؤية المجتمع الذي نريده على درجة كبيرة من الوضوح. ولكن الطريق حافل بالمشاكل والصعاب، ونحن نمر بفترة لا تعمل فيها الأجهزة السياسية بكفاءة تامة، وهناك الكثير من المخاطر، ونأمل مع استمرار الجهود أن تتمكن القيادة الحالية للبلد من أن تمهد الطريق لإدخال النظام الإسلامي ككل في المستقبل القريب إن شاء الله وأشكركم.

الأخ ابراهيم جدوات :

السؤال الآن : كيف ننظم أنفسنا في مواجهة القوانين والنظم المحلية لأقطارنا ؟. هل نعمل مع أحزاب غير المسلمين ومنظماتهم سواء كانت اشتراكية أو وطنية ! أم ماذا نفعل ؟

والسؤال موجه باللغة الانجليزية ونتقدم به للاستاذ خورشيد أحمد ليتفضل بالاجابة :

الأخ خورشيد أحمد :

تعلمون أن الداعية عليه أن يتحسس طريقه رغم الحواجز والمشاكل التي تعترض وضعه المحلي. ومثله في ذلك كمثل الماء المتدفق على التلال، تعترضه الاحجار والعقبات والعوائق ولكنه يشق طريقه رغم ذلك. وفي معظم الأقطار بالتحديد هناك أوضاع محلية وقوانين تحول دون العمل الإسلامي، ولكنني لا أشك في أن العامل للإسلام يكيف نفسه مع الظروف ويشق لدعوته الطريق. ولكن عندما يستحيل المخرج، في هذه الحالة نفكر في اللجوء لنوع من الضغوط العالمية، لأن الحقوق الإنسانية الأساسية مكفولة للمسلمين كي يعيشوا وفقاً لإسلامهم. وهذه الوسيلة قد استخدمت من قبل قوم آخرين ولا سيما في العالم الحديث. وليس هناك ما يحول بيننا وبين استخدامها، بمعنى أن نشكل ضغوطاً مشابهة، وأن نشق لنفسنا طريقاً وسطاً، بحيث تزول الحواجز والموانع، فاذا تعذر اللجوء إلى أي أسلوب آخر فالمسلم مكلف إلى الحد الذي يستطيعه وفق طاقته.

وما أريد أن أؤكده هو أن العامل للإسلام لا يقبل بحال إذا واجه الصعاب أن يتخلى عن عمله أو يشجبه فهذا مستحيل. عليك أن تُخْضِعَ الظروف وأن تكافح وتتلمس السبل، إما بتغيير القوانين بالضغوط الدولية أو من خلال الضغوط المحلية والخارجية، أو بتطوير الوسائل لإزالة العقبات وأعتقد أن هذا هو الإطار المتواجد في الأقطار التي يشكل المسلمون فيها أقلية.

ولن يصعب علينا أن نشق طريقنا.

وأضرب لكم مثلاً من الأقطار الشيوعية التي يجد المسلمون فيها أنفسهم غير قادرين على العمل، ولكن حتى في هذه الأقطار نجد بحمد الله في السنين الأخيرة، رغم أن الشيوعية هي القوة المسيطرة، ولكننا نجد أن جيلين ونصف من المسلمين قد عبروا محنة هذا النظام الدكتاتوري واستطاعوا أن يجدوا الطرق والوسائل للاستمرار في العمل رغم كل المشاكل. وأنتم تعلمون أنه في العشر أو الاثني عشر سنة الأخيرة قد فرضت قوانين جديدة في روسيا، وبالذات في مناطق المسلمين للحد من الأنشطة الدينية. لماذا هذه القوانين الجديدة بعد ٥٠ أو ٦٠ سنة من الحكم الشيوعي وفي مناطق

المسلمين بالذات ؟. لأنه رغم كل الحواجز استطاع المسلمون أن يشقوا طريقهم حتى في مجال التعليم ـ تعليم الأطفال.

لنترك روسيا جانباً. ولنرجع إلى التاريخ : ماذا حدث في إسبانيا ؟ إن التاريخ يشهد أنه في إسبانيا ظل المسلمون لمدة ٤٠٠ سنة على الأقل قادرين على المعيشة تحت وطأة الحكم المسيحي رغم ما كان يسوقه لهم النظام الكنسي المسيحي من استئصال أو طرد أو تحويل عن الملة.

ولم يكن أمامهم خيار آخر، وظلوا ٤٠٠ سنة يعيشون وفقاً لأوامر دينهم، وظوروا لأنفسهم لغة مختلطة جديدة تجمع بين مزيج من العربية والإسبانية، وأصبحت معروفة ومميزة عند المسلمين الذين كانوا يعيشون في هذه المناطق تحت أسماء مسيحية. وأنا ألمح إلى هذه الأمثلة ولا أحب أن أضرب في أعماق التاريخ لأدلل على أن الأوضاع التي تواجهها الأقليات المسلمة اليـوم لا يمكن مقارنتها بالأوضاع التي اضطـر هـؤلاء النـاس لمواجهتها ومعاناتها، ولكنهم ظلوا قادرين عى خدمة الأهداف التي أرادوا خدمتها لخدمة ذواتهم ووجودهم، وأعتقد أنه في عالم اليوم سوف يفشل المسلمون إذا لم يستغلوا قوتهم السياسية والاقتصادية ويستخدموها بمهارة لتأكيد حقوق الأقليات المسلمة.

ولست في حاجة إلى القول بأن هناك أقليات في العالم لا يتحقق لها هذا الوضع الذي يتحقق للأقليات المسلمة، ولكنهم استطاعوا أن يستغلوا نفوذهم بدرجة أنه إذا اعتقل أحدهم في موسكو فإن الصحافة ووسائل الإعلام تهتز وتتحرك لصالحهم في جميع أنحاء العالم.

هذه بعض الأمثلة التي نراها ولا معنى لليأس على الإطلاق.

الأخ ابراهيم جدوات :

السؤال التالي موجه إلى الدكتور الدواليبي وأرجو أن يتفضل بالإجابة.

الأخ د. الدواليبي :

(أجابه باللغة العربية)

....

الأخ ابراهيم جدوات :

السؤال الآن موجه إلى الأخ أنور إبراهيم

س : كيف نحدد مدلول الحضارة الإسلامية ـ كما هي ماثلة في أذهاننا ؟ ما هي الأهداف الموضوعة لهذه الحضارة ؟ وهذا أمر لازم لكي نميز الحضارة الإسلامية عن الحضارة الغربية التي أفسدتها المصائب العديدة ؟

الأخ أنور ابراهيم :

جـ ـ في الحقيقة نجد أنه من الصعوبة بمكان أن نحاول أن نشرح ماهية الحضارة الإسلامية في الوقت المحدود المتاح لنا الآن. وأظن أن بعض المتحدثين قد حاول أن يلم بهذا الأمر باختصار، وقد عبرنا عما يعنينا بصفة عامة عندما نتحدث عن الحضارة الإسلامية.

فنحن نتحدث عن نظام إسلامي متكامل وجديد ومغاير تماماً للحضارة الغربية. وسواء استطعنا تحقيق هذا الأمر الذي نفكر فيه ونعمل من أجله ونجعله هدفاً مرجواً لهذه الحضارة، فإن تحقيق النظام الإسلامي هو المعني من وراء تطبيق نظام الحياة الإسلامية.

ان النظام الإسلامي مبني على أساس فكرة التوحيد، وهذا يمكن تحقيقه بادئ ذي بدء بتفهم طبيعة العمل الذي يقوم عليه النظام الإسلامي، إن البناء السياسي والبناء الاقتصادي والبناء التعليمي وتطوير الشخصية المسلمة بحق، والجوانب المناسبة في الإسلام، كلها أهداف لا بد من العمل على تحقيقها لأن الكثير من المسلمين يفشلون جزئياً، وكثير من قادة الأقطار الإسلامية في الماضي وفي الحاضر يتحدثون عن الإسلام مُجَزَّأً وليس ككل متكامل. إنهم لا يتحدثون عن الحضارة الإسلامية كتطبيق لنظام الحياة في الإسلام، ورغم أن الحضارة الإسلامية لها مدلول تاريخي خاص ولكنني أعتقد أن نصائح علمائنا القليلين تتجه دائماً إلى أن نفهم النظام الإسلامي ونحاول تطبيقه بطريقة منظمة وبحكمة، بحيث نعطي جوانب الحياة جميعاً من مجالات اقتصادية واجتماعية وسياسية وثقافية، لأن من مجموع هذا التطبيق نصل إلى مدلول الحضارة الإسلامية، وأشكركم.

الأخ إبراهيم جدوات :

هناك عشرة أسئلة موجهة إلى خورشيد أحمد، ولا أدري هل لدينا الوقت للإجابة على كل هذه الأسئلة، أو نقترح عقد دورة خاصة مع الأستاذ خورشيد أحمد، لأن كل سؤال في حد ذاته يصلح موضوعاً لمحاضرة مستقلة.

وقد انتهى الوقت المخصص الآن، وأحب أن أسأل الأخوة عن رغبتهم، هل يريدون الاستمرار أو إنهاء الدورة الآن، وربما استطعنا تدبير وقت آخر لتوجيه هذه الأسئلة للأستاذ خورشيد، وأرى أن قراركم الإجماعي أن نختم الدورة الآن.

وندعو الله سبحانه وتعالى أن يهدينا سواء السبيل، وأن يمكننا من تنفيذ جميع التوصيات، إن شاء الله تعالى.

توصيات اللقاء الرابع

تَوصِيَات اللِّقَاء الرَّابع
للنَّدْوَة العَالَمِيَّة لِلشَّبَاب الإسْلَامِي



بسم الله الرحمن الرحيم

الرياض : ٢٠ ـ ٢٧ ربيع الثاني ١٣٩٩ هـ ـ الموافق ١٨ ـ ٢٥ مارس ١٩٧٩ م

«**وجاهدوا** في الله حق جهاده، هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج، ملة أبيكم إبراهيم، هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس، فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله، هو مولاكم، فنعم المولى ونعم النصير». (سورة ٢٢ ـ ٧٨).

بعون الله تعالى .. واستجابة لدعوة معالي رئيس الندوة الشيخ حسن ابن عبد الله آل الشيخ ـ عقد اللقاء العام الرابع للندوة العالمية للشباب الإسلامي في مدينة الرياض في الفترة من ٢٠ ـ ٢٧ ربيع الثاني عام ١٣٩٩هـ، الموافق ١٨ ـ ٢٥ مارس (آذار) ١٩٧٩م.

والندوة تنتهز فرصة هذا اللقاء المبارك لتعرب عن كريم شكرها وجميل تقديرها لخادم الحرمين الشريفين صاحب الجلالة الملك خالد بن عبد العزيز وولي عهده صاحب السمو الملكي الأمير فهد بن عبد العزيز وحكومته الرشيدة لما حظيت به الندوة من دعم المملكة وعونها تعبيراً عن التزام هذا البلد بمبدأ التضامن الإسلامي، ونصرة الدعوة الإسلامية.

والندوة في ختام لقائها الرابع هذا وما حفل به ـ بفضل الله ـ من فرص التعارف والتعاون والتنسيق، وتبادل الرأي والخبرة بين المفكرين الإسلاميين، ومن تيسير وتوفيق في اختيار ممثلي المناطق لمجلس الأمانة العامة للدورة المقبلة، فإنها تتقدم بعظيم التقدير والعرفان إلى معالي رئيس الندوة الشيخ حسن بن عبد الله آل الشيخ، وإلى الأمين العام الدكتور عبد الحميد أبو سليمان، وإلى كافة الأخوة أعضاء الأمانة العامة والجهاز التنفيذي لمكتب الأمانة، مؤكدة شكرها لما بذلوه من جهد مخلص في إرساء دعائم هذه الندوة وما وصلت إليه في مسيرتها، من تحقيق لغايات العمل الشبابي الإسلامي، ودعم لمنظماته، وفي تجميع الصف الشبابي الإسلامي وإثبات وجوده، وتفجير طاقاته في خدمة الأمة بروح الاتحاد والثقة والعزيمة والطموح، ولتصبح الندوة واسطة عقد وحلقة وصل ومصدر قوة للأمة والدعوة والشباب.

كما تزجي الندوة عميق شكرها إلى العديد من الهيئات والشخصيات والعاملين الذين واصلوا دعم هذه الندوة وأخذوا مواضعهم في مسيرة جهادها، جنداً في سبيل الله لتحقيق أهدافها النبيلة، لهؤلاء جميعاً خالص الدعاء بأن يجزيهم الله سبحانه وتعالى أعظم الأجر والجزاء.

إن الندوة العالمية للشباب الإسلامي، إيماناً منها بأهمية الدور التاريخي للإسلام وشبابه نحو إصلاح حاضر الأمة المؤلم، واستنقاداً لمستقبل الإنسانية الانتحاري، رغم إنجازاتها العلمية والمادية الباهرة، بل بسبب تلك الإنجازات لما تنطوي عليه من قوى مهلكة مدمرة.

إن الندوة ـ إيماناً منها بكل ذلك ـ قد خصصت الموضوع الفكري في أعمال لقائها الرابع لبحث قضية :

« الإسلام والحضارة و دور الشباب المسلم »

وقد دعت قيادات الشباب المسلم في العالم، ونخبة طيبة من الكتاب والمفكرين الإسلاميين لتجلية هذه القضية الخطيرة من جوانبها التالية :

أولاً : **القيم والمبادىء الأساسية** التي يقوم عليها الإسلام، والنموذج الإسلامي في الحياة الإنسانية ووجوه عطائه وتميزه بشكل واضح شامل يعين على الفهم والرؤية ويكون معالم بارزة على طريق البعث الإسلامي المعاصر، وذلك بالدراسة العميقة الشاملة للأصول القرآنية التي تحدد القيم والمبادىء والغايات الإسلامية في ضوء إدراك تاريخي سليم للتجربة الرائدة في الصدر الأول من الإسلام، مما يجلو الفكرة الإسلامية ويعيد إليها صفاءها وبساطتها وفعاليتها في الحياة الإنسانية بعيداً عن ضباب الرؤية الذي خلفه الغزو الفكري والحضاري، من داخل كيان الأمة وخارجها، بما حملته من جاهلياتها القبلية والشعوبية والفلسفات الدخيلة من الشرق والغرب، حيث أن وضوح الرؤية والتحديد القاطع للملامح الإسلامية شرط أساسي سابق لأية مساهمة إسلامية فعالة في مسيرة الحضارة الإنسانية.

ثانياً : **الآفاق المستقبلية** للعطاء الإسلامي من خلال فهم الواقع الحضاري المعاصر، والمنحدرات السحيقة التي تهوي فيها، وتحديد الدور الإسلامي بتوضيح احتياجات وسبل العمل الإسلامي ليستطيع حمل أمانة الخلافة، وتعديل المسار المادي للحضارة وتوفير البديل المؤهل لوراثتها.

ثالثاً : **الوعي الصحيح للإنجاز التاريخي للحضارة الإسلامية** من حيث دلالاتها ورؤيتها بمنظار إسلامي، والتعرف على جوانب القوة الحقيقية فيها بشكل مفاهيم مقارنة، لتستعيد قطاعات هامة من شباب الأمة ثقتها بنفسها في مواجهة خطط التجهيل العلمي التي نجمت عن تبعية المؤسسات العلمية في العالم الإسلامي للغرب، ولتصحيح هذا الفهم ودلالاته من واقع المنطلق الإسلامي لا المنطلقات المعادية.

رابعاً : الفهم العلمي الصحيح **للأسس الفكرية والفلسفية والعقائدية التي تقوم عليها الحضارات الكبرى** في التاريخ وخاصة الحضارة

المادية المعاصرة بما يوضح جوانب هذه الحضارات، ويفسر للشباب المسلم معنى الأمراض التي يعاني منها المجتمع المعاصر، وصرخات الذعر التي تصدر عن عدد متزايد من قادة الفكر الغربي.

خامساً : دراسة **للواقع الحضاري المعاصر للعالم الإسلامي** والأسباب التي وضعته في موضعه، ومخاطر هذا الوضع، والمنطلقات إلى تصحيح مسار الأمة من التبعية والضعف والهوان والفساد، إلى الأصالة والقوة والعطاء والريادة.

سادساً : الموقع الخاص للشباب في الفهم والتعلم السليم للمنطلقات الصحيحة والتأهيل الخاص لحمل رسالات التطور والتغيير، والقدرة على تنفيذ مخططات العمل، وبناء المؤسسات، وإقامة الحضارات، وتصحيح مساراتها.

إن اللقاء الرابع للندوة العالمية للشباب الإسلامي، استصحابا لروح اللقاء ومؤشراته الفكرية، وتفهماً لمداولاته، وتطبيقاً لشورى ندواته ومحاضراته ولجان عمله حول « **الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم** ».

والتزاماً بمنهج الإسلام في الجمع الوثيق بين الفكر والعمل، وتقديراً لجهاد الندوة ودأب رجالها في العمل لدعم الشباب الإسلامي – انتهى إلى التوصيات والمقررات التالية :

أولاً : في مجال التوصيات العامة :

١ – يحيي اللقاء المملكة العربية السعودية ومؤسساتها وكافة الهيئات الحكومية والأهلية، ومنظمات العمل الإسلامي، وكل العاملين والمخلصين، لما حققوا من توصيات اللقاءات السابقة للندوة، وما قدموا من دعم لجهودها في خدمة الشباب والأمة والدعوة.

ويهيب اللقاء بالجهات المذكورة لتنفيذ الكثير مما ورد في تلك التوصيات والقرارات وبذل جهد أكبر وسرعة أعظم، وفاء بحق الإنسانية والأمة والشباب.

٢ - يحيي اللقاء وزارة التعليم العالي، ووزارة المعارف، والجامعات في المملكة العربية السعودية لدعمها جهود الندوة وعونها على تحقيق أهدافها وذلك بتوفير المحاضر الإسلامي، والكتاب الإسلامي، والمنح الدراسية للشباب المسلم.

٣ - يحيي اللقاء الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد في المملكة العربية السعودية لجهودها في سبيل نشر الدعوة الصحيحة، وتوفير حاجاتها الأساسية، وتعاونها المخلص مع الندوة لخدمة شباب الأمة.

٤ - يحيي اللقاء منظمة المؤتمر الإسلامي وصندوق التضامن الإسلامي لدعمهما برامج الندوة، وإسهامهما الفعال في عون الندوة على تحقيق أهدافها، ومن ذلك إسهامها الفعال في مجال إقامة المخيمات الشبابية الإسلامية في مختلف مناطق العالم.

٥ - يحيي اللقاء البنك الإسلامي للتنمية لما يقدمه من عون للأقليات الإسلامية في جهادها للحفاظ على شخصيتها، ويأمل أن تتسع رقعة نشاطه ليشمل عدداً أكبر من هذه الأقليات بما يوفر لها حاجاتها الأساسية.

٦ - يحيي اللقاء حكومة قبرص التركية، لما قدمته من عون قيم في إنشاء مخيم قبرص الإسلامي الدائم وفي استقبال أفواج الشباب المسلم من شتى بقاع الأرض على مدار العام.

ثانياً : قضايا حاضر العالم الإسلامي :

٧ - يحيي اللقاء شعب إيران المسلم وتصميمه على تحكيم الشريعة الإسلامية على طريق هداية الإسلام والتمسك بكتاب الله وسنة نبيه، كما يحيي اللقاء الشعب الباكستاني المسلم على العزم بالتزام الشريعة الإسلامية منهاجاً لحياته.

ويتوجه اللقاء بالدعاء إلى الله أن يوفق جميع الشعوب الإسلامية نحو العودة إلى دين الله وتحكيمها شريعة الإسلام. وأن

يوثق الله بين هذه الشعوب عرى الإخاء والتضامن.

٨ ـ يهيب اللقاء بالأمة الإسلامية أن تعمل جاهدة على بذل التضحيات اللازمة، لإنقاذ المقدسات الإسلامية الغالية، والذود عن حقوق الشعوب الإسلامية السليبة، والتأكيد على وحدة الأمة وحرمة كرامتها وأعراضها ودمائها ومواردها وأراضيها في بقاع الأرض كلها، والنهوض بواجب الدفاع عن الأرض والمقدسات، والتصدي لقوى البغي والطغيان.. « ولينصرن الله من ينصره، إن الله لقوي عزيز ».. (سورة ٢٢ ـ ٤٠).

٩ ـ يؤكد اللقاء أن الإسلام قوام الأمة ومبرر وجودها، وأن الأمة ستقف في وجه كل باغ يطغى على رجال الدعوة، أو يتصدى لمنظمات العمل الإسلامي، أو ينال من الحركة الإسلامية لما في ذلك من إضعاف لكيان الأمة، وتدمير لقواها، وتمكين لأعدائها والطامعين فيها.. « انا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، يومَ لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنةُ ولهم سوءُ الدار ». (سورة ٤٠ ـ ٥١).

١٠ ـ يناشد اللقاء الأمة ضرورة مواجهة هجمات الأعداء على السنة، بالتمسك بالإسلام عقيدة وشرعاً، والرجوع إلى كتاب الله الكريم وسنة نبيه الأمين، ولزوم جماعة المسلمين.

١١ ـ يحذر اللقاء شباب الأمة من الانخداع بقوى الشر والمكر والفساد، والمؤسسات والهيئات والمذاهب الهدامة المدسوسة على الأمة لتدمير قواها وشبابها وصرفهم عن دينهم وولائهم الخالص لأمتهم، مهما تنكرت هذه المذاهب والمؤسسات أو حملت من أسماء شيوعية أو صهيونية عالمية أو وجودية أو قومية أو تبشيرية أو ماسونية أو فوضوية أو نوادي الروتاري أو أندية العراة وسواها من مستنقعات الفساد وبؤر الهدم.

ثالثاً : في مجال الأنشطة الشبابية :

أ ــ الشبــاب :

١٢ ــ يوصي اللقاء الندوة بأن تعين المنظمات التي تمتلك أو تدير بيوتاً للشباب المسلم، بأن تلتقي في « اتحاد عالمي لبيوت الشباب المسلم »، لرفع مستوياتها وتبادل الخبرات فيما بينها والعمل على انتشارها، كما يوصي اللقاء بإصدار دليل بيوت الشباب المسلم في العالم، يعرف الشباب المسلم بمواقع هذه البيوت والخدمات التي تقدمها.

١٣ ــ يوصي اللقاء بالتعاون بين الندوة والرئاسة العامة لرعاية الشباب ومنظمات الشباب الإسلامي ونواديه بتنفيذ خطة واسعة متكاملة في مجال النشاط الرياضي بما يحقق غايات التربية الإسلامية للشباب، ويغرس القيم الإسلامية في نفوسهم، في إطار عالمي ينمي قدراتهم البدنية وانتماءاتهم الإسلامية.

١٤ ــ وفي سبيل توثيق الإخاء بين الشباب المسلم وتنمية وعيه وحمايته من إغراءات المؤسسات المندسة والأنشطة السياحية الفاسدة المسمومة.

يوصي اللقاء المخلصين من الهيئات الرسمية، ورجال المال والأعمال المسلمين المهتمين بالأنشطة السياحية، بالعمل على وضع أيديهم في المجالات والخدمات السياحية، وإنشاء وكالات سياحية إسلامية في مختلف البلدان لإدارة المشروعات السياحية بمعايير ولغايات إسلامية، وتقديم برامج ترويحية، وتبادل الزيارات بين الشباب المسلم، وإصدار نشرات للتعريف بالأماكن السياحية المرموقة، وأن تعمل الندوة على تسهيل هذه المهمة والاستفادة من مخيماتها الدائمة وخبراتها الهادفة في هذه المجالات.

١٥ ــ يوصي اللقاء ــ ضمن أعمال رعاية الشباب المسلم ــ أن يتولى الأساتذة والمختصون، الذين هم على اتصال بتجمعات الشباب

المسلم وتماس به في البرامج والنشاطات والمخيمات، وعلى علم بالقضايا والمشاكل التي يتعرض لها هذا الشباب ـ خاصة في الغربة والأقليات ـ أن يشرعوا بإصدار الكتب والنشرات التي تتضمن الفتاوى والحلول والبدائل المناسبة لمشاكل هؤلاء الشباب، وترجمة هذه الأعمال إلى اللغات المختلفة، والتوسع في توزيعها تيسيراً لحصول الشباب عليها.

١٦ ـ يوصي اللقاء الندوة والمنظمات الإسلامية بالعناية الخاصة بالجانب الفكري، كما يوصي بأن تنشئ الندوة لجنة متخصصة من خيرة المفكرين والمختصين في الفكر لدراسة القضايا الفكرية الهامة التي تمس الشباب من وجهة نظر إسلامية، بما يخدم جموع الشباب ويعمق ولاءها للإسلام، ويحميها من هجمات المناجزين والفكر الهدام، ويجعلها قوة مبدعة فاعلة رائدة لما فيه خير الشباب وخير الأمة والدعوة.

١٧ ـ يحيي اللقاء مؤسسة (المغفور له) الملك فيصل الخيرية في بواكير جهودها في خدمة الأمة، ويوصي برصد جائزة شبابية طلابية عالمية تغطي فروع الإنجازات الفكرية والعلمية والفنية والتطبيقية بما ينمي قدرات الشباب ويعمق قيم الإسلام ويخدم رسالته.

ويدعو اللقاء رجال المال والأعمال إلى المبادرة بإنشاء المؤسسات الخيرية المماثلة، خدمة للأمة ودفعاً لذاتية النمو الحضاري الإسلامي.

١٨ ـ يوصي اللقاء ببناء مقر دائم للندوة يتناسب وحجم أنشطتها والمرافق اللازمة لأعمالها.

كما يوصي اللقاء بإنشاء مقرات دائمة للندوة في الحرمين، ومخيم دائم في « منى » لخدمة ضيوف الندوة، من قيادات الشباب المسلم العالمي في موسم الحج ولتكون مقرات دائمة على مدار العام تمكن الندوة من أداء مهمتها في تشجيع النابهين والقيادات الشبابية الإسلامية وتنمية عطائهم الروحي.

كما يوصي اللقاء الهيئات الرسمية والجهات الخيرية والمخلصين القادرين بمساعدة الندوة على إقامة مكاتب دائمة في الحواضر والمراكز الهامة لخدمة شباب الأمة بتوفير الخدمات اللازمة للتنسيق والاتصال في المناطق المختلفة من العالم.

ويؤكد اللقاء أهمية مخيمات الحج الشبابية للجامعات في المملكة العربية السعودية، ويوصي الندوة، بالتعاون مع الجامعات في هذه المخيمات في المساهمة في برامجها الإسلامية الشبابية والثقافية والتربوية وبرامج المسابقات وتبادل الزيارات.

ب - التدريب القيادي الإسلامي والمخيمات :

١٩ - يؤكد اللقاء أهمية برامج التدريب القيادي الإسلامي وترقيتها.. ويحيي اللقاء الجهود الرائدة بالأمانة العامة للندوة في هذا المجال بهدف تنمية القدرات القيادية الإسلامية وتوفير المهارات والخبرات اللازمة للنشاطات الشبابية الإسلامية في مختلف المجالات لخدمة العقيدة والدعوة.

ويوصي اللقاء بالإسراع في نشر وإخراج وترجمة البرامج المطورة باللغات العالمية ولغات الشعوب الإسلامية الكبرى، وتعميمها على منظمات العمل الشبابي الإسلامي، مع مراعات الفوارق والاحتياجات الخاصة بذلك.

كما يوصي اللقاء بأن تستعين الندوة في ذلك بالاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية.

٢٠ - يوصي اللقاء منظمات العمل الإسلامي عامة والشبابي خاصة بالتعاون مع الندوة للإفادة من برامج التدريب القيادي، وتوفير المعلومات اللازمة عنها والمرافق المتوفرة لديها في هذه المجالات للإستفادة منها والتعريف بها.

كما يوصي اللقاء هذه المنظمات بالمساهمة في تطوير هذه البرامج، بالفحص والتقويم المستمر لها، ووضع ذلك أمام أنظار المختصين في الندوة لتحقيق الغاية المرجوة منها.

٢١ ـ يوصي اللقاء الندوة بالعناية بإقامة دورات تدريبية متخصصة للعناصر القيادية الشبابية المتفوقة، وانتداب بعض هذه العناصر، بغرض التخصص الفني الذي تحتاجه العناصر القيادية لخدمة العمل الإسلامي، إلى الدورات التدريبية التي تقدمها المعاهد المتخصصة في تلك المجالات.

٢٢ ـ يوصي اللقاء أن تضم مخيمات التدريب القيادي الإسلامية مكتبات تدريبية تستجيب للاحتياجات المختلفة لمستويات الأعمار والثقافة التي تؤم هذه المخيمات، وكذلك إمدادها بالمجلات والدوريات المناسبة.

٢٣ ـ يوصي اللقاء بالتعاون بين الندوة والرئاسة العامة لرعاية الشباب والجامعات في المملكة العربية السعودية وكافة الجهات المعنية في مجال التدريب القيادي الإسلامي للشباب وتنمية قدراته والبلوغ بهذه البرامج والمؤسسات والوسائل إلى المستوى المأمول من شباب الأمة وتأهيله لحمل مسئولياته التاريخية.

٢٤ ـ يوصي اللقاء بإنشاء مركز عالمي متخصص للتدريب القيادي يعنى بإعداد البرامج اللازمة لشؤون التدريب القيادي الإسلامي، وتنمية القدرات والخبرات اللازمة لأدائه مع العناية بتطوير المواد والوسائل السمعية والبصرية في أداء البرامج.

٢٥ ـ كما يوصي اللقاء الندوة والهيئات الإسلامية والرسمية المخلصة بالتعاون في إنجاز الخطة الكاملة لإقامة المخيمات الإسلامية الدائمة على قدر حاجة الشباب المسلم، تكون مدارس للتدريب والخبرة والتلقي الإسلامي السليم في مناطق العالم الإسلامي المختلفة.

كما يؤكد اللقاء الحاجة الماسة للإسراع في إتمام مخيم « أبها » الإسلامي الدائم لخدمة الشباب المسلم من المملكة وفي كل بلد مسلم، وليكون مرفقاً للتربية والتدريب، وتعريفهم بمهد الرسالة ومهبط الوحي وأرض المقدسات.

٢٦ - يوصي اللقاء بأهمية العناية بالمرأة المسلمة في برامج عمل المنظمات الشبابية الإسلامية وبرامج التدريب القيادي للقيام بواجب الدعوة في صفوف النساء وإعدادهن لأداء الواجبات المتعلقة بأدوارهن الاجتماعية في حدود الآداب والقيم والغايات الإسلامية.

٢٧ - يوصي اللقاء الندوة والمنظمات الإسلامية بعقد المزيد من المخيمات التدريبية الدائمة والمؤقتة. وتوفير النفقات والمدربين والمختصين والمواد الثقافية، مستفيدين من كافة العناصر الإسلامية الفنية والقيادية القادرة في مختلف البلاد والمتعاونة مع المنظمات الإسلامية المخلصة واستكتابها في مجالات خبراتها وما يتعلق بشعوبها وبلادها ومناطقها.

رابعاً : في مجال مستقبل العطاء الحضاري الإسلامي :

إيماناً من هذا اللقاء بالأولوية الكبرى لإنقاذ الأمة وتصحيح مسار مجتمعاتها المعاصرة، وتمكينها من أداء رسالتها الحضارية الإسلامية المقدسة في قيادة الإنسانية نحو آفاق الحق والأمن والسلام، فإن اللقاء يؤكد الأهمية القصوى لدور الشباب المسلم، رؤية وتربية وإعداداً وبذلاً وقدرة..

ويؤكد مسئولية مفكري الأمة وقياداتها الإسلامية والمخلصين من أبنائها في تحقيق الشروط الموضوعية، وإرساء قواعد العمل اللازم لبلوغ الغايات في مستقبل الأمة الحضاري، وتحقيق دورها الرائد الخير وعطائها الإسلامي النبيل.

ويؤكد اللقاء على وجوب وضوح رؤية الشباب والأمة المسلمة، وتنقية معتقداتها على أساس من الفهم الكلي السليم لمصادر الشريعة الإسلامية الأساسية، من وحي الله في كتابه الكريم وسنة نبيه المطهرة، بحيث يكون مبدأ التوحيد الخالص - المنزه عن ضلالات الشرك والخرافة والجهل وألوان الإلحاد والمادية وكل وجوه الزيغ والانحراف - هو المحور الأساسي لفكر الأمة لإقامة نظمها وعلاقاتها الاجتماعية على مبادىء الإسلام في الخلافة والإخاء، منزهة

عن ألوان الفساد والظلم والبغي والإسراف والكبر وسائر ما نهى عنه دين الله من المنكرات.

ويؤكد اللقاء وجوب العزيمة على وحدة ثقافة الأمة من منطلق إسلامي، بكل ما يعنيه من جهد، يعم طبقات الأمة وينمي ويطور مناهج التربية والتأهيل والتعليم والإعلام ووسائلها ومؤسساتها.

فإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. ووعد الله حق للذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم.

ويؤكد اللقاء توصيات الندوة في لقاءاتها الثلاثة السابقة في مجالات إرساء الفكر الإسلامي الصحيح وإصلاح مؤسسات التعليم والإعلام.

ويوصي اللقاء بما يلي :

في مجال التربية والتعليم :

٢٨ ـ يوصي اللقاء بتوفير الموارد والوسائل اللازمة لخدمة الفكر والثقافة والتربية الإسلامية، لدعم المؤسسات والمنظمات والجهود القائمة، من مراكز وجمعيات واتحادات تخدم الأهداف التربوية والتعليمية بغاية إسلامية.

وهي في هذا تحيي الاتحاد العالمي للمدارس العربية الإسلامية الدولية، لجهوده في خدمة التعليم العربي الإسلامي ومؤسساته ومناهجه.

كما تحيي جامعة الملك عبد العزيز، وجامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية وجامعات المملكة العربية السعودية لخطواتها الرائدة في أسلمة العلوم الاجتماعية، وإنشاء المراكز والأقسام والكليات الجامعية لهذا الغرض، وتأمل أن تتحقق لها الوسائل والمستويات المأمولة.

ويؤكد ضرورة إقامة مراكز البحث في كافة العلوم الاجتماعية والإنسانية لتطوير مناهجها وإعداد الخطط والأبحاث والمواد العلمية اللازمة لتدريسها، وإصدار المؤلفات الخاصة بها.

٢٩ ـ إنشاء المدارس والمعاهد والجامعات النموذجية الإسلامية الأهلية، وإقامة المؤسسات الخيرية والأوقاف التي تخدمها وتوفر الأموال اللازمة من الهبات وموارد الزكاة لتسييرها خدمة لشباب الأمة والثقافة الإسلامية.

٣٠ ـ ضرورة العمل بأكبر جهد ممكن لإقامة أكاديمية عالمية إسلامية مستقلة لخدمة الفكر والثقافة الإسلاميين.

٣١ ـ كما توصي الندوة بالعناية البالغة بدراسات حاضر العالم الإسلامي، ودراسات الحضارة الإسلامية، وإنشاء مراكز البحوث الجامعية لخدمتها وبلورة مفاهيمها وحسن عرضها والترويج لها، وتنشئة الشباب على إدراك غاياتها ووجوه عطائها.

٣٢ ـ كما تؤكد الندوة على أهمية دراسة الثقافة الإسلامية، وتحيي الجامعات السعودية وتشيد بقرار اتحاد الجامعات العربية باعتماد الثقافة الإسلامية في جميع الجامعات العربية، وتوصي بتعميق مناهجها وتطويرها لتستجيب للغاية منها في بناء الشخصية الإسلامية للشباب المسلم.

كما يؤكد اللقاء أن دراسات الثقافة الإسلامية ليست بديلاً عن جعل العلوم الاجتماعية والإنسانية علوماً إسلامية، وهو أمر مطلوب في مراحل التعليم ومناهج الكليات الجامعية كافة، وأن مادة الثقافة الإسلامية وعاء للمجهود العلمي في مختلف وجوه المعرفة والعقيدة والقيم الاجتماعية للأمة الإسلامية، يستكمل به غير المختص حاجته العلمية والثقافية.

٣٣ ـ يناشد اللقاء المثقفين والإسلاميين والهيئات المختصة إقامة المؤسسات، والأخذ بكافة الوسائل لأسلمة العلوم الاجتماعية والإنسانية.

واللقاء، إذ يحيي جمعية علماء الاجتماع المسلمين في الولايات المتحدة وكندا تجربته الرائدة في استقطاب علماء الاجتماع المسلمين الملتزمين وتشجيعهم لبذل جهودهم في سبيل استثمار قدرتهم وتخصصهم لخدمة أهداف الأمة وإسلامية العلوم، فإنه يدعو كل المثقفين الإسلاميين في كل بلد أو تجمع مسلم لإقامة جمعيات مماثلة، والتعاون في إطار اتحاد عالمي لهذه الجمعيات يخدم هذه الغايات الاستراتيجية المشتركة.

كما يدعو اللقاء جمعية علماء الاجتماعيات المسلمين في الولايات المتحدة وكندا إلى إصدار مجلة علمية تخدم جهود الجمعية ومؤتمراتها وحلقات دراساتها الدورية.

٣٤ ـ يدعو اللقاء الجامعات والجمعيات والمؤسسات العلمية للعمل على إقامة البرامج ووضع الخطط لتكثيف الجهود العلمية الإسلامية، وإنجاحها بتوفير المنح اللازمة للدراسات والأبحاث لدرجات الماجستير والدكتوراه في مجال أسلمة العلوم الاجتماعية، وتوفير المنح الدراسية لما بعد الدكتوراه للدارسين والباحثين.

٣٥ ـ يوصي اللقاء بالعناية بالدراسات الإحصائية وتوفير المعلومات عن العلماء المسلمين وتخصصاتهم وخبراتهم، وكذلك المعلومات التقويمية عن الجامعات ومعاهد التعليم في العالم الإسلامي وفي البلاد الغربية تسهيلاً للتعامل معها.

٣٦ ـ يوصي اللقاء بالعناية بالدراسات الإحصائية وتوفير المعلومات عن العلماء المسلمين وتخصصاتهم وخبراتهم، وكذلك المعلومات التقويمية عن الجامعات ومعاهد التعليم في العالم الإسلامي وفي البلاد الغربية تسهيلاً للتعامل معها.

٣٧ ـ يوصي اللقاء بالاهتمام بالكتاب الإسلامي أداة أساسية للمعرفة والتوجيه الاجتماعي وبناء الشخصية المسلمة، وللتصدي للفلسفات المادية والدعوات الهدامة، وتحفيز المؤسسات الإسلامية للتأليف والنشر، واستكتاب القادرين والمختصين والعاملين لسد النقص في

المراجع الأساسية الإسلامية بمختلف اللغات الكبرى ولغات الشعوب الإسلامية في العالم.

٣٨ ـ يحيي اللقاء وزارة الأوقاف في الكويت لموالاة مجهوداتها المباركة في إصدار موسوعة الفقه الإسلامي.

ويوصي اللقاء بالإسراع في العمل على إنشاء دور النشر لإصدار الموسوعات العلمية الإسلامية تلبية لاحتياجات فئات الأعمار والاختصاص المختلفة.

ويؤكد اللقاء الحاجة الماسة إلى دار نشر رئيسية لإصدار موسوعة إسلامية عامة وأخرى للشباب، لسد النقص الذريع في أدوات الثقافة والمعرفة بمفهوم إسلامي صحيح.

٣٩ ـ يوصي اللقاء بوجوب العناية بلغة القرآن، لغة حضارة الإسلام، والاهتمام بتدريسها، واعتماد ألفاظ القرآن الكريم ومصطلحات الفكر الإسلامي مادة لتعليمها، والتعليم بها، والعناية بآدابها وجوانبها العلمية في مراحل التعليم كافة.

٤٠ ـ يؤكد اللقاء وجوب رسم خطط شاملة متكاملة لإصلاح مناهج التعليم ومؤسساته في البلاد الإسلامية ولغايات إسلامية تأخذ ما سبق من توصيات في حسبانها.

وينبه اللقاء إلى الفشل المستمر في إقامة قاعدة علمية في البلاد الإسلامية رغم الجهود المستمرة المتواصلة طيلة عقود القرن الأخير في إعمار مؤسسات التعليم، وفي ابتعاث أبناء الأمة الإسلامية وطلائعها العلمية والقيادية إلى البلاد والمؤسسات الأجنبية.

ويؤكد أن السبيل إلى تحقيق النجاح وبناء القاعدة العلمية والتكنولوجية المطلوبة للأمة لا تكون إلّا ببناء المعرفة على قواعد إسلامية سليمة تتجاوب مع بناء العقلية والنفسية الإسلامية ودوافعها ومكامن الطاقة فيها، واتخاذ الوسائل الصحيحة للعناية بدراسة اللغات الأجنبية داخل البلاد الإسلامية، والعناية بدراسة أصول البحث

العلمي في ضوء الالتزام الكامل بمصادر المعرفة الإسلامية، إطاراً وقاعدة للنظر العقلي الصحيح.

وكذلك إقامة معاهد الترجمة ودور النشر والتأليف لإثراء اللغة العربية ولغات الشعوب الإسلامية بالمعارف والعلوم المعاصرة، ونشرها وتدريسها بتلك اللغات في عرضٍ وانتقاءٍ موضوعي لإثراء ثقافة الشعوب الإسلامية، وإطلاعها على المعرفة على أوسع الصور من منابعها من خلال نظرة إسلامية فاحصة.

٤١ ـ العمل على توفير الأجواء اللازمة لاستقطاب العقول الإسلامية المتخصصة القادرة، ومنع هجرتها، والاستفادة من العناصر المهاجرة منها في مواقعها في خدمة الأمة والمعارف والثقافة الإسلامية.

خامساً : في مجال التوصيات العامة لخطة النمو الحضاري الإسلامي :

٤٢ ـ يؤكد اللقاء وجوب الفهم الشامل لمشكلة العناء الحضاري ـ عند المسلمين ـ في العالم المعاصر، ويؤكد أهمية الفهم الدقيق لأصولها، وتوفير الحلول اللازمة للتغلب على التحديات والعقبات التي تواجه الأمة، وضرورة إعادة بناء المجتمع الإسلامي ومؤسساته على أساس من قيم الإسلام وغاياته، والقضاء على كافة وجوه الفساد الاجتماعي على مستوى الفرد والجماعة.

سادساً : في مجال الإعلام والترويج :

انطلاقاً من تكامل الأنظمة الاجتماعية الإنسانية، ومن تكامل التعليم والإعلام والأنشطة المنهجية والأنشطة الحرة، فإن اللقاء يوصي بما يلي :

٤٣ ـ تأكيد الحاجة إلى بناء الإعلام الإسلامي الصحيح الذي يعكس ثقافة الأمة ومفاهيمها وغاياتها ويقدم القدوة والمثل والخبرات السليمة لأبناء الأمة، فإن اللقاء يوصي بضرورة إنشاء اتحاد عالمي للصحافة الإسلامية، ومكاتب فنية لخدمة الصحافة والدوريات الإسلامية وتمثيل مصالحها وإقامة وسائل الاتصال بين مؤسساتها.

٤٤ ـ يؤكد اللقاء ضرورة بذل الجهود العلمية وعقد الندوات الإسلامية لدراسة النشاطات الحرة والترويحية الموجهة لتنمية المهارات والقدرات عند الشباب بواسطة وسائل الإعلام والنوادي الشبابية الثقافية والرياضية التي لها أهمية كبرى في دعم الجهود التربوية والتعليمية.

ويؤكد اللقاء أهمية النشاطات الرياضية التي تتعدى المجالات الاستعراضية إلى تنمية المهارات، وبناء الأجسام الصحيحة، وملء الفراغ الشبابي في خدمة الأمة وجهادها في إعلاء كلمة الله وصلاح المجتمع.

٤٥ ـ يؤكد اللقاء أهمية التزام الإعلام في كافة برامجه اللغة العربية الفصحى، وباستخدام مستويات الأداء المناسب لتقويم ألسنة أبناء الأمة وتحسين قدرتهم على التعبير والحفاظ على دينهم ووحدة كيانهم.

٤٦ ـ يؤكد اللقاء أهمية العمل لتصحيح مسار الواقع المسلم بروح أصيلة، والعناية بأن يواكب أبناء الأمة حركة البناء والتغيير الاجتماعي لتسير بشكل لا يهز كيان الأمة ولا يعرضها لضغوط أسرع من قدرتها للاستجابة والتحرك السليم الممكن في بنية تركيبها الاجتماعي.

٤٧ ـ يدعو اللقاء ـ والأمة المسلمة تودع القرن الرابع عشر الهجري مع إهلالة قرن هجري جديد ـ إلى القيام بإجراء دراسات علمية موضوعية لتقييم الجوانب المختلفة لهذا القرن في المسيرة الإسلامية وموقعها الحضاري، والتعرف على الجهود الإيجابية للحركات والجماعات الإسلامية العاملة نحو إعادة بناء المجتمع الإسلامي وتحريك الطاقات الكامنة في كيان الأمة.

٤٨ ـ تقديراً للجهود التي تبذلها الندوة والمنظمات الشبابية الإسلامية بتأهيل الشباب وتجديد قوى الأمة.

وحرصاً على أن يشارك في هذه المسيرة كل المخلصين، فإن اللقاء، وهو يتقدم بخالص الامتنان لما قدمته وتقدمه حكومة المملكة

العربية السعودية للندوة وجهودها في مرحلتها التأسيسية ـ ليرجو أن تضاعف المملكة عطاءها المبرور لتحقيق آمال الأمة، كما يدعو الحكومات والهيئات الإسلامية والقادرين المخلصين من أبنائها في كل بلد وموقع إلى توفير المزيد من الموارد الضرورية لجهود ومشاريع الندوة في خدمة الدعوة والشباب والمنظمات الإسلامية في كافة أنحاء العالم.

وبعـد :

فإن الندوة العالمية للشباب الإسلامي ـ باعتبارها هيئة إسلامية شبابية متخصصة مستقلة مقرها في هذا البلد الكريم مهبط الوحي، ومهد الدعوة، وهي تعمل في خدمة الأمة والدعوة الإسلامية بكل طاقاتها وآمالها ومشاريعها وبما بلغته من رصيد الخبرة والثقة لتجعل شباب الأمة ومنظمات العمل الإسلامي تنظر بعين الأمل إلى مزيد من الإنجاز على سبيل العزة والكرامة ـ لتكرر الشكر لكافة الهيئات والعاملين المخلصين على ما قدموه من عون ودعم، وتدعوهم إلى مزيد من العمل والبذل والعطاء في سبيل الله.

والله نسأل أن يمد الندوة والمخلصين بعون من عنده، وأن يجعل أعمالنا جميعاً خالصة لوجهه الكريم، وأن يهدينا سبلنا، وأن يأخذ بأيدينا جميعاً إلى الحق والخير والرشاد ـ إنه سميع مجيب..

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين..

والسـلام عليكم ورحمة الله وبركاتـه ..

* * *

خَاتِـمَة



القضية الفكرية الإسلامية أساس وأولوية هامة لنجاح جهود نهضة الأمة الإسلامية

للدكتور عبدالحميد أبوسليمان (١)

في نهاية هذا السفر الجليل عن « الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم » الذي كان لي شرف اقتراح فكرته وتخطيط موضوعه، والإشراف على تحريره وانتاجه كأمين عام للندوة، وذلك كما في أعمال اللقاءين العالميين الثاني والثالث للندوة، « قضايا الفكر الإسلامي » و « الإعلام الإسلامي والعلاقات الإنسانية : النظرية والتطبيق ».

وبعد انتهاء الدورتين الأولى والثانية للأمانة العامة للندوة التي قمت فيهما بمهمة الأمين العام للندوة والتي آثرت في نهايتهما الانصراف إلى مرحلة جديدة من العمل في خدمة الأمة والإسلام بإذن الله في مجال خدمة الفكر الإسلامي.

يهمني هنا أن أقف مع الأخوة الشباب والمفكرين والعاملين الإسلاميين وقفة أوضح فيها قضايا أساسية في عمل الندوة وفي عمل لقاءاتها العالمية ومنها اللقاء الرابع كجزء من مسيرة العمل الإسلامي المعاصر.

---

(١) أستاذ العلوم السياسية والعلاقات الدولية المساعد بكلية العلوم الادارية بجامعة الرياض، والأمين العام السابق للندوة العالمية للشباب الإسلامي وعضو مجلس الأمانة العامة للندوة.

وبالطبع فليس المقصود من هذه الوقفة التعريف بالندوة ونشاطاتها بقدر ما هو الوقوف عند قضية الفكر الإسلامي[1] وتوضيح أهميته كما أراها.

فالمنظار والرؤية التي عملت من خلالها هذه الفترة منذ أيام الدراسة والطلب، وفيما كتبت وساهمت فيه من عمل مع منظمات العمل الطلابي والشبابي خاصة اتحاد الطلبة المسلمين في الولايات المتحدة وكندا، وجمعية علماء الاجتماعيات المسلمين في الولايات المتحدة وكندا، والتي كان لي شرف اقتراح فكرتها للتخصص في العمل على إسلامية العلوم الاجتماعية، وإعادة التجديد إلى الفكر الإسلامي على أسس علمية موضوعية، واستقطاب علماء الاجتماعات أصحاب الالتزام الإسلامي وخدمتهم في سبيل خدمة الإسلام والأمة، وقمت، لعظم اهتمامي بالأمر، على إعداد مؤتمر إنشائها لإيماني بأهمية القضية التي تخدمها، وكذلك من خلال عملي بالندوة العالمية للشباب الإسلامي والمنظمات المتعاونة معها.

هذا المنظار وتلك الرؤية تمثلت في قناعتي أن مشكلة الأمة الإسلامية، التي تتضح في الفجوة الهائلة بين ماضي الأمة وحاضرها، وبين واقعها وتطلعاتها، وبين إمكاناتها وإنجازاتها، هذه الفجوة من الواضح أنه لا يمكن فهمها ولا حلها بمزيد من الدوائر المفرغة من محاولات الإصلاح المبنية على الإصرار على العودة إلى قوالب تاريخية لا تدرك ما أصاب المسيرة الإسلامية عبر التاريخ من تغيرات بعد العهد الراشد، وما أصاب كيان الأمة من انحراف، أدى إلى الانفصام بين القيادة الفكرية والقيادة السياسية والاجتماعية، وسبب عجز الفكر وجموده، وجهل السياسة وجهالتها، وهكذا فقد الفكر الإسلامي عوامل الحيوية والحركية فيه، وفقد القدرة على إدراك البعد الزماني والمكاني في أعمال التراث الإسلامي.

وكذلك لا يمكن فهم تلك الفجوة ولا حلها بمحاولات الإصلاح المبنية على التقليد الأجنبي الذي يسود في العصور المتأخرة أجواء الأمة، ويفتقد بالطبع أيضاً عنصر البعد الزماني والمكاني في كيان الأمة، فكان من

(١) المقصود بالفكر الإسلامي الفهم الإنساني المخلص للوحي والدين والشريعة.

الطبيعي أن تفتقد تلك الإصلاحات أيضاً الأبعاد الخاصة المميزة للأمة عقائدياً ونفسياً وتاريخياً وحضارياً، لتشكل مسلسلات من الصور الفاشلة من الإصلاحات الإدارية والاقتصادية والعلمية والحضارية والعقائدية عجزت جميعها، على مدى قرون منذ عهود الخلافة العثمانية، وعلى امتداد العالم الإسلامي في تركيا ومصر والبلاد العربية وشبه القارة الهندية وجنوب شرقي آسيا، عن بلوغ الغايات المرجوة منها.

ولقد كانت المساهمة في حل تلك المشكلة بالطبع محور جهودي واهتمامي، وذلك عن طريق العمل على إعادة صياغة فكر الأمة الإسلامية بشكل علمي موضوعي سليم، يقي بُعْدَ الزمان والمكان ويعيد وحدة كيان الأمة على أساس سليم من عقائدها، ويعيد بناء كيان نظمها على أساس من تلك القيم، ويقرر على أساس من كل ذلك أصول التربية الإسلامية ومفاهيمها، إذ من الواضح أن الأمة الإسلامية لا تنقصها الموارد البشرية ولا الموارد المادية ولا التاريخ ولا العقائد والقيم، بل إن المشكلة الحقيقية التي تعاني منها الأمة هي إعادة صياغة فكرها بشكل ومنهج سليمين على أساس من قيمها وعقائدها وغاياتها، وعلى أساس التعامل مع واقعها وواقع العالم من حولها.

إن الخروج من دوامة المحاولات اليائسة المتكررة للاصلاح لا بد له من التعامل مع المشكلة الفكرية، حيث أن حلها يعد شرطاً مسبقاً للعمل الناجح، لأن كل عمل ناجح لا بد له من تصور ورؤية وخطة سليمة مسبقة، وإن كان هذا لا يعني بالطبع الانفصام بين الفكر والعمل، وبين النضج والتجربة، ولكن يبقى الأمرُ أمرَ أولويات وتنسيق جهود، في مجال الفكر ومجال الممارسة، حتى تثمر الجهود وتتقدم الخطا.

ومن جانب آخر، وإلى جانب قضية البعد الزماني والمكاني في الفكر الإسلامي، فإن هناك قضية أخرى لها أهمية مماثلة، كثيراً ما يسيء الكتاب معالجتها ويخلطون بين جوانبها المختلفة، والسبب في تصوري أن جل هؤلاء الكتاب ليسوا مُعَدِّين فنياً للنظر القادر في هذه القضية لأسباب تتعلق بمنطلقاتهم أو إعدادهم، أو عدم انصرافهم إلى الدراسة والتركيز اللازم للنظر والتأمل في أحوال الأمة وواقعها وما بلغته من الحال في مسيرتها.

وهذه القضية هي مكونات النظام الاجتماعي ومهمة أجزائه المختلفة والأداء في كل مستوى من مستوياته على حده، ويكون الخلط من جانب الكُتّاب هنا بعدم إدراك الجوانب المختلفة للكيان الاجتماعي ومعالجة كل جانب على حده وفق دوره وطبيعته ومتطلباته دون إهمال لعلاقاته وتفاعله مع الجوانب الأخرى.

والجوانب والمستويات التي يهمني الإشارة إليها وإدراك طبيعتها هي جوانب ثلاثة كما يلي : .

١ ـ جانب أو مستوى العقائد والقيم والمبادئ والمنطلقات.
٢ ـ جانب أو مستوى التنظيمات أو النظم والإجراءات التي بواسطتها يتم وضع القيم والمبادئ موضع التنفيذ في واقع المجتمعات.
٣ ـ جانب التربية والتدريب لأفراد المجتمع الذي يعكس ويقوم على أساس جانب القيم والمبادئ في بناء الشخصية وتوفير القدرات اللازمة لها باتجاه تحقيق غاياتها، وإعداد الأفراد للعمل والإنجاز، وذلك من خلال أجهزة التنظيمات والإجراءات وبالاستجابة لمتطلباتها، في سبيل تحقيق الغايات والقيم والمبادئ، ووضعها في حياة الأمة موضع التنفيذ.

وفي يقيني أن التفرقة بين هذه الجوانب أو الأبعاد الثلاثة (القيم والتنظيمات والتربية) في بناء المجتمعات الإسلامية، أمر أساسي للانطلاق إلى التعامل مع مشكلات كل جانب على حده، وإلى إقامة العلاقة التكاملية والتفاعلية بين هذه الجوانب، بما يحقق في النهاية بشكل حقيقي وعملي، وضع الأطر اللازمة للإصلاح والتطور والنمو في حياة المجتمعات الإسلامية، والخروج بها من مأزق الحيرة والعجز الذي لا تبدو له نهاية، ولا يستجيب لفهم أو نظر أو عمل.

ومن المفيد البدء بتعريف سريع بكل جانب من هذه الجوانب قبل النظر في بعض المصاعب التي تواجه الأمة في كل جانب منها.

ـ الجانب الأول : العقائد والقيم :

وجوهر هذا الجانب لدى الأمة الإسلامية هو الرسالة السماوية التي تمثل الجانب المشرق والإيجابي في حياة الأمة منذ ولادتها، والتي كانت

حجر الزاوية في تحويل القبائل البدائية الجاهلية العربية إلى أمة ذات كيان حضاري، كما أصلحت على ذلك الزمان كيان أمم الأرض التي فسدت واهترأت، وصهرتهم جميعاً في كيان حضاري فتيٍّ، في وثبة جديدة على المسيرة الإنسانية للحضارة.

هذا الدين هو القوة الحقيقية التي تقف خلف كل التسامي، الذي يشد هذه الأمة ضد قوى الفساد التي تتجاذبها إلى أبعاد سحيقة لا تنتهي من الانحطاط والعجز والتفكك والتناحر والتخلف، ولم يعد للأمة اليوم ـ ضد عوامل الانحطاط في كيانها ـ ما يخفف من مأساتها سوى هذا الدين، بما يمثل من عقائد وقيم ومبادئ قويمة.

ـ والجانب الثاني : جانب النظم أو التنظيمات والإجراءات :

وهذا الجانب هو مجموع الخطوات والإجراءات والمؤسسات والنظم التي يقصد بها وضع القيم والمبادئ موضع التنفيذ في حياة المجتمع، وتسيير دفة الحياة عملياً بواسطتها.

فمثلاً إذا كان الجانب الأول يقرر العدالة، فإن الجانب الثاني هو الذي يضع التنظيمات المختلفة، قضائية وقانونية وتنفيذية، لوضع العدالة موضع التنفيذ في حياة الناس، وأي خلل أو انحراف أو نقص أو تعقيد في المستوى أو الجانب الثاني قد يجعل ما يقرره النظام العقائدي والقيمي لا معنى له، ولاغياً في واقع حياة الناس.

ولذلك فإنه يجب عدم الخلط بين الجانبين وبين مهمتيهما، لأن سلامة القيم والمبادئ لا تغني عن سلامة التنظيمات والإجراءات، ولا يقوم أيٌّ منهما مقام الآخر مهما اشتد تأكيد جانب أو آخر، واشتد التغني به، وعلت شعاراته.

ـ والجانب الثالث : التربية والتدريب :

وهذا الجانب هو جانب طرق تربية أفراد المجتمع وأساليب نشأتهم، وهو يُعنى ببناء الشخصية كما يُعنى بتوفير القدرات والخبرات اللازمة لهؤلاء الأفراد في خدمة الأمة والنظام الاجتماعي ككل.

ويعتمد هذا الجانب بالطبع على مجموعة العقائد والقيم والمبادئ والغايات التي ينبني عليها الدين أو الإيديولوجية، ويهدف إلى غرسها وتأصيلها في شخصية الفرد إلى جانب الخبرات والقدرات اللازمة له، بما يُهيِّئُهُ للعيش والعمل من خلال التنظيمات أو الأنظمة في المجتمع، وبما يوافق طبيعتها ليحقق الفرد بذلك ذاته ويضع قدراته وخبراته بواسطتها في خدمة الأمة.

وهكذا فإن سلامة وسائل التربية وأساليبها وتوفر محاضنها أمر ضروري لتمثل القيم واستيعابها وحسن أداء التنظيمات والمؤسسات الاجتماعية، كما أن فشل وسائل التربية والتدريب في بناء الأفراد المتمثلين لقيم الأمة ومبادئها والقادرين على خدمة التنظيمات والمؤسسات الاجتماعية والتعامل معها يؤدي إلى شلل تلك المنظمات والمؤسسات، وإلى ظهور الفجوة بين غايات المجتمع ونظمه، وبين سلوك الأفراد وغاياتهم، وإلى ظهور الفساد الاجتماعي وازدواجية الشخصية الاجتماعية، كما سيؤدي إلى الصدام بين الأفراد والجماعات وبين التنظيم الاجتماعي، وتكون النتيجة هي الصراع الاجتماعي والتدهور وعدم الاستقرار.

بعد هذا التعريف والتوضيح الموجز لهذه الجوانب الثلاثة، فإنه يمكننا النظر إلى واقع الجوانب والأبعاد الثلاثة في كيان الأمة الإسلامية المعاصر، وتحديد بعض المشاكل التي تعاني منها الأمة في كل جانب منها، والتي لا بد من علاجها، منفصلة ومتصلة بالجوانب الأخرى، إذا شئنا تخطي الأزمة الراهنة التي توارثناها في كيان الأمة.

أولاً : البعد الإيديولوجي : العقائد والقيم :

والبعد الإسلامي لهذا الجانب يحويه القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

والقرآن الكريم كما هو معلوم، محفوظ بالرواية والاستظهار التعبدي والكتابة، ممايجعله متواتراً بعيداً عن أي شك أو تَقَوّل. وكذلك السنة النبوية المطهرة، فان رواة الحديث قد بذلوا جهداً جباراً متميزاً في نقل هذه السنة بشكل صحيح، لكن على درجات من الصحة فيما يختص بكل نص على

حده، من ناحية المتن أو السند، ويبقى بذلك لنا جوهر السنة صحيحاً موثوقاً بعيداً عن كل شك.

وأهم القضايا التي يجب على المفكرين المسلمين النظر فيها والعناية بها في رأيي في هذا المجال، هي مواجهة الانحراف في فهم هذه العقائد والمبادىء والقيم، وعدم تمثلها بمثل ما كان للجيل الأول، ولذلك لم تعد في حياة المتأخرين محرك قوة وقدرة وفاعلية وبذل وتقوى بمثل ما كانت عليه في حياة ذلك الجيل، نظراً لما داخل فهم هذه العقائد من مفاهيم منحرفة، وتخليط صوفي أعجمي مغرق، ووثنيات وعصبيات وتشنجات جاهلية زائفة، ساعدت في موت جزء من الأمة وتطرف جزء آخر، وإلى انصراف جزء ثالث عن الإسلام لما تعرض له من مؤثرات ثقافية أجنبية، ولما يراه من حال الفئات السابقة التي غلبت صورتها المشوهة على الإسلام في كثير من البــــلاد.

إنه من المهم أن نعلم أن حصيلة فهم الجيل الأول لغاية إسلامهم في هذه الحياة هو العمل الخيّر، وأن الحياة الآخرة ليست إلا حصيلة الفعل والتفاعل البناء مع المادة والحياة تعبيراً عن الإرادة الإنسانية.

ولذلك كانوا فاعلين عاملين مجاهدين قادرين باذلين في إيثار وعطاء وعفة نفس، لا طمع فيها ولا تشوف إلى الاكتناز أو الإسراف، ففتحوا في أمد قصير، لم يعرف له مثيل في التاريخ، جل العالم المتمـدن القديم أرضـاً وقلوباً، حتى غيرت الأمم بتأثير دينهم وشخصيتهم الإسلامية، ليس فقـط دينها وعقائدها وأزياءها، بل ولغاتها، وهو قدر من التأثر والتأثير فذ في التاريخ لم يعرف حتى اليوم له مثيل.

وهذه الصورة المتألقة والمفاهيم القادرة المشعة تفتقدها الإنسانية في المتأخرين كما هو مشاهد، حيث أنهم بانحراف مفاهيمهم واهتزاز رؤيتهم أمسوا بين منصرف عن الحياة والتأثير فيها، لا يرجو إلا الموت والخـلاص، وبين منصرف عن الدين والقيم والالتزام في غيبوبة، لا يرجو إلا الجمع والاكتناز وسرف الاستهلاك، ومن ثم بدت شعارات الدين والقيم والالتزام باهتة جوفاء في واقع مجتمعات أمة الإسلام.

لهذا يجب على المفكرين الإسلاميين تصحيح الصور القاصرة والجزئية والمنحرفة للعقائد والقيم والمبادئ الإسلامية، والتي تشوه الشخصية الإسلامية وتعوقها عن أداء دورها الرائد، كما أراده لها الإسلام.

أما فيما يخص السنة النبوية فإنه يجب الاستفادة من الإمكانات العلمية الحديثة لجمعها وتصنيفها، والإفادة من كل الجهود العلمية السابقة في سبيلها، وتسهيل مهمة الاستفادة منها لكل العلماء والمثقفين، ومن الناحية الأخرى فإن على المفكرين الإسلاميين التيقظ للأبعاد الزمانية والمكانية في توجيهات الرسول عليه السلام في المعاملات والحياة الاجتماعية على عهده، بحيث يحسن فهم تلك السنن وإعادة تطبيقها في واقع الحياة المعاصرة وصورها المادية المتغيرة المستحدثة، ومن ذلك على سبيل المثال توجيهات الرسول عليه السلام في الحرب، في منع قتل المرأة والصبي والشيخ ومن إليهم، وفهم دلالة هذه التوجيهات في واقع الحروب الحديثة التي يصعب في كثير من الأحيان والمواقع تلافي مثل تلك الأعمال، ولكن تبقى الغاية من توجيهات الرسول عليه السلام أبدية الدلالة، وهي أن هؤلاء ليسوا مقاتلين، وليسوا عنصراً في تقرير مصير المعركة ضد المعتدين، وإن قتل أمثالهم فساد في الأرض وإسراف في القتل، وإن على السياسي والقائد ألا يقتل، وألا يدمر ما لا تدعو ضرورة المعركة إليه بحال من الأحوال، وهذه توجيهات ومفاهيم ستظل تمثل إطاراً وتوجيهات للفكر والسياسة الإسلامية في شئون الحرب والقتال، يفهمها ويفيد منها القادة السياسيون والقواد العسكريون في حمل مسؤوليتهم وأداء مهامهم على مدى الزمان.

وللتعامل مع عنصر الزمان والمكان في السنة النبوية فإنه لا بد للمفكرين من أخذ أنفسهم بالنظر في السنة بكلياتها، وفهم مقاصدها وسياساتها للوصول إلى التوجيه السليم الكامن في السنة، في سبيل تحقيق قيم الإسلام مجدداً في واقع الحياة الإسلامية المعاصرة. إن تحقيق ذلك لن يتم إلا بالمعالجة المنهجية والتجديد الضروري العلمي المناسب في مسائل الأصول حتى تؤدي مهمتها بالأسلوب العلمي السليم المناسب لفهم الرسالة والسنة في واقع العصر وصوره المتغيرة حتى يمكن توجيه الحياة الإسلامية المعاصرة إلى غاياتها الصحيحة البناءة.

إنه من المهم العناية الصحيحة بالسنة لأهميتها الكبرى لاستمرار رسالة الإسلام، حيث أنه دون شك لن يسهل فهم بعض الرسالة فهماً صحيحاً دون السنة، وفي جوانب أخرى لن يمكن الوصول أصلا إلى فهم سليم لها دون السنة.

وأن السنة من جانب آخر هي الدليل الحقيقي على أن القرآن وقيمه وغاياته ومفاهيمه، وإن كانت مثالية سامية، فهي أيضاً واقعية وممكنة، وليست مجرد أطروحة خيالية فهي ـ والسنة هي الدليل ـ قد تحققت فعلاً في الزمان والمكان على يد الرسول الإنسان عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

إنه من المهم معرفة أن القضية التي يجب أن تشغل بال المفكرين في ميدان السنة في هذا الوقت ليست قضية صحتها أو الثقة برواياتها، فعلم الحديث الإسلامي قد غطى هذا الأمر بشكل عبقري لا ينكره إلا من جهل أسراره، وجهد المعاصرين في هذا الميدان في رأيي يجب أن ينصرف إلى التوضيح والتيسير، أما القضية الحقيقية فهي في كيفية فهم السنة والاستفادة منها، خاصة من قبل المثقفين والمفكرين الذين ليست لهم دراية بالتراث وعلوم الفقه الإسلامي، وإن كان لهم باع في القضايا والعلوم الفنية، وعلى أساس من الفلسفة والمناهج المعاصرة غير الإسلامية، حتى يمكن بشكل عملي فتح باب الاجتهاد مجدداً في حياة الأمة وأساليب عيشها وحركتها الحضارية وفق عقائد الإسلام وقيمه ومبادئه وغاياته.

فالعناية بجانب العقائد والقيم، وتصفية رؤيتها، وفهمها في أعماق الأمة، أمر أساسي وضروري، ولكنه أمر ممكن، وليس عزيز المنال، لأن أصوله ومادته قائمة وموثوقة، رغم كل ضباب وجاهليات الأمم التي دخلت في الإسلام.

ثانياً : البعد التنظيمي والإجرائي :

وهذاالجانب كثيراً ما يتناوله غير الفنيين والممارسين بالكتابة النظرية، ويخلطون قضاياه بقضايا العقيدة والدين، وينتهون إلى نظرة سطحية جامدة تسعى إلى صياغة النظم أو التنظيمات والإجراءات في حياة الأمة في عالم

اليوم على غرار من الفترات التاريخية الماضية وصورة طبق الأصل منها وخاصة عهد الخلافة الراشدة، وذلك لانعدام الفهم والوعي بطبيعة التنظيمات والإجراءات الخاصة بتلك الفترة وذلك العهد، وعدم القدرة على إدراك معنى البعد الزماني والمكاني لذلك العهد، يساعد على ذلك ما لتلك الفترة من قدسية وتألق في النفوس.

إن عهد الخلافة الراشدة كان ولا شك عهداً متميزاً وله خواص يصعب تكرارها وتوفر ظروفها وشروطها في العهود اللاحقة، وبالتالي لا بد من الحذر عند تقليد أي صورة من صوره دون فهم معناها ودلالتها حتى يمكن الإفادة منها في وضع صياغة التنظيمات والإجراءات في المجتمعات الإسلامية المناسبة لظروف العصر الراهن، وبذلك فقط يمكن الإفادة من درس الخلافة الراشدة والسعي لتحقيق شيء من إنجازاتها.

لقد تميز عهد الخلافة الراشدة بخصوصيات يعود بعضها إلى ذلك الجيل وموقعه من التاريخ، ومن ذلك أن القيادة السياسية والاجتماعية قد حصرت كأمر واقع في جماعة الأصحاب دون منازع، لأنهم هم الذين قامت الدولة والمجتمع الإسلامي على أكتافهم، وبالتالي فلم تكن هناك حاجة إلى أي تنظيمات وإجراءات لاختيار القيادة السياسية والاجتماعية على فهم القيادة وهم أولياء الأمر.

كما أن صحبتهم حول رسول الله ـ ﷺ ـ في العمل والبناء والسلاح، وموضعهم من الرسول عليه السلام، حدد أدوارهم بشكل أساسي حول الخلفاء من بعده، مما جعل لما يسمى بالمؤسسات غير الرسمية في فهم تنظيم عهد الخلافة الراشدة أهمية تفوق الجانب الظاهر الرسمي لتلك المؤسسات الذي يكاد ينحصر في شخص الخليفة.

ولما كان عهد الخلافة الراشدة قد تميز بالتحديات الهائلة التي جابهها الأصحاب بعد وفاة الرسول عليه السلام، في مواجهة القبائل والامبراطوريات، كما تميز بعدم وجود سابق خبرة تنظيمات سياسية امبراطورية في الحجاز أرض الخلافة والعهد الأول.

لذلك كان لا بد أن يتسم عهد الخلافة الراشدة بالبساطة والتلقائية وندرة الأشكال الرسمية للمؤسسات والتنظيمات وقلة الإقبال على الصياغات الإجرائية الموسعة، دون أن يعني ذلك الوضع الفوضى أو العشوائية أو الاستبداد في بناء ذلك العهد أو تصرفات قياداته، فقد كان معروفاً لكل موضعه وقدره وقدرته ومهمته.

ومن المؤسف أيضاً أن نظام الخلافة الراشدة قد سقط على أيدي القبائل وقياداتها التي لم تلق نفس النصيب من التربية والتجربة الإسلامية، وبالتالي حرم المسلمون فرصة الحصول على الصيغة الراشدة للتنظيمات والإجراءات اللازمة لنقل السلطة والمشروعية إلى الجيل الثاني الذي لم يكن - إلى حد كبير - يتمتع بنفس مكانة الأصحاب في حق القيادة والاستئثار بها، ولذلك فإن جل ما حصلت عليه الأجيال اللاحقة في هذا المجال هو شكلية البيعة.

لهذا يجب لفت النظر إلى أهمية الدراسة المجددة والصياغة الواعية للتنظيمات والإجراءات في مختلف جوانب الحياة السياسية والتشريعية والقضائية والتنفيذية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية وما دونها في بناء النظم الاجتماعية لمجتمعات الأمة الإسلامية في الوقت الراهن، على أساس من واقعها وإمكاناتها والظروف التي تمر بها في سبيل تحقيق الغاية الإسلامية السامية وتمكين الشريعة الإسلامية السمحة.

إنه لا بد لنهضة الأمة من كبوتها واستعادة قدرتها من دقة وسلامة وانتظام وكمال التنظيمات والإجراءات في كيانها بما يتفق وروح الدين والشريعة والقيم والمبادىء الإسلامية وغاياتها، وإن ضعف وقصور وانحراف وتعقيد هذه الأنظمة والإجراءات لا بد أن ينتهي بالنظام الاجتماعي إلى غير الغاية التي هدفت إليها عقائده وقيمه ومبادؤه، وإلى ازدواجية بين قيمه ومبادئه وبين واقع دوران عجلة تنظيماته وإجراءاته بحيث تصبح الحياة فارغة المعنى، كلها جعجعة وعجز وفساد.

إنه من المهم لكي نفهم معنى ما سبق وأهميته أن نذكر أن فكرة أو مبدأ العدل شيء، وأن التنظيمات والإجراءات المؤدية لتحقيق العدل شيء

آخر، كما أن مبدأ المساواة شيء، والتنظيمات والإجراءات المؤدية إلى تحقيق المساواة وتكافؤ الفرص شيء آخر، ولا يغني واحد عن الآخر لتحقيق المطلوب.

ثالثاً : بعد التربية والتدريب :

وكما سبق أن ذكرنا، فإن سلامة القيم وسلامة الصياغة النظرية للتنظيمات والإجراءات لا جدوى منهما إذا لم تكن أساليب التربية والتدريب ومحتواهما مما يناسب تلك القيم والتنظيمات وينسجم معها ويتوجه للحرص على حسن أدائها، فما لم تؤهل محاضن التربية للنشء وتبنى شخصياتهم ويزودون بالقدرات التي تخدم التنظيمات أو النظم وتنسجم معها، فإن التناقض بين النظام الاجتماعي ومكونات شخصية الفرد في المجتمع لا بد وأن يشل النظام الاجتماعي، ويزلزل السلام النفسي لأفراد المجتمع، وينتهي بالمجتمع إلى الاضطراب وعدم الاستقرار.

كما أن العكس صحيح، حيث أن عدم تمثل القيم الصحيحة وانحراف مفاهيمها، وكذلك قصور وانحراف التنظيمات والإجراءات في النظام الاجتماعي يشل التربية ويمنع عطاءها، مهما كانت العناية بها والنجاح في تربية بعض الأفراد في بعض محاضنها.

إن التباين بين أساليب التربية وفحواها عن واقع القيم أو التنظيمات القائمة والسائدة في المجتمع لا بد أن يؤدي إلى مزيد من عدم الإستقرار الاجتماعي، وإلى مزيد من التجسيم لمأساة اختلال مكونات النظام الاجتماعي، وبالتالي تتفشى ظاهرة الانحراف والنفاق والانتهازية، وكذلك ظاهرة الرفض والتطرف والتشنج والثورة، وينتهي الأمر إلى حرمان المجتمع من إيجابية طاقاته البشرية، وإلى انحطاط المجتمع وتفككه وترديه وزلزلة قواعده وزوال استقراره.

إنه من المهم أيضاً التنبيه في هذا المقام إلى أن روافد مفهوم المعرفة الإسلامية تتأتى من الوحي والعقل، مما يجعل لها تميزاً على كافة ألوان المعرفة الإنسانية وروافدها عند الأمم الأخرى.

فالوحي يحدد الكليات العقائدية والقيمية للتشريع والمعرفة وبالتالي يضع العلامات على الطريق ضد انحراف العقل وقصوره وزيفه كما نلحظ عند علماء المعرفة والمشرعين بمفهوم عقلي بحت، ومن خلال أخطائهم وتضارب نظرياتهم وتغيرها المستمر من النقيض إلى النقيض.

ولكن المعرفة الإسلامية عقلية أيضاً، ففي حدود التوجيه السماوي ومناراته على الطريق يترك للعقل والاستقراء المجال ليتعلم المسلم ويستكشف ويعي ويبني، ومن المهم إدراك أن تقصير التربية الإسلامية في غرس حب المعرفة والتعلم والاستكشاف والتحليل في بناء عقلية المسلم وتكوين قدراته ليس فقط يحرمه من ثمار المعرفة العقلية بل إنه يحرمه من ثمار المعرفة السماوية، لأن قصور عقل المسلم وقلة إدراكه ستعوقه عن الفهم السليم والوعي الصحيح لمعاني المعرفة السماوية ودلالاتها، وقد ينتهي به الأمر أن يكون أقل حظاً في المعرفة من أي انسان آخر على قدر قصور عقله وعجز أداته في فهم الوحي وإدراك معانيه وأسراره.

إنه من المهم لأساليب التربية والتدريب الإسلامي أن تعنى بالمعرفة، بوجهيها الرباني والعقلي، وأن تعني بغرس أساليب الاستنباط والاستقراء السليم لدى الناشئة، فالمعرفة الصحيحة ليست كمّاً محدوداً يستظهر، ولا سجناً ضيقاً تخبو فيه العقول وتذبل، وهي ليست بحراً مهلكاً تنعدم فيه منارات الأمن وسبل النجاة.

إن المعرفة بمفهومها الإسلامي طريق ممتد مهتد، يقود إلى القدرة والسعة والطمأنينة والإيمان، لا إلى القلق والإلحاد والدمار.

ان من المهم أن ندرك علاقة التربية والتدريب وتأثرها وتأثيرها بقيم المجتمع وتنظيماته، كما أن علينا أن نصحح مفهومنا وممارساتنا في ميدان المعرفة الإسلامية في الاتجاه الصحيح، إذا شئنا لأبنائنا في عالم اليوم بلوغ القدرة وتحقيق السبق والريادة وحمل الأمانة وأداء الرسالة.

وفوق كل ذلك وبعد كل ذلك، على المفكرين والعاملين الإسلاميين إدراك الجوانب الثلاثة (القيم والتنظيمات والتربية) كل على حده، والتعامل مع ما يخص كل واحد منها وفق طبيعته ومقتضياته، والتذكر أن سلامة أداء

كل واحد منها لا يغني عن سلامة أداء الآخر، وأن البداية الصحيحة هي الإصلاح الفكري على العمق وبالمنهج المطلوب الصحيح.

ـ غايات النـدوة :

هذه القضايا التي أشرت إليها وحرصت في هذه العجالة الختامية على توضيح أهميتها كانت نبراساً حدد لي أولويات مجهوداتي في العمل في بناء كيان الندوة وخطة عملها، ومن خلال تعاونها مع مختلف المنظمات والبرامج حَرِصْتُ قدر الطاقة أن تؤدي الندوة واجبها في خدمة الأمة في هذا الاتجاه.

ولذلك كانت القضية الفكرية وترقية البرامج الفكرية من أهم ما قصدْتُ إليه وقصدَتْ إليه أعمالُ الندوة، وأصبح هذا ملموساً من خلال الكتاب والمحاضرين والبرامج التي تولتها الندوة أو ساهمت فيها أو دعمتها، ومن ذلك أعمال اللقاءات العالمية، ومنها أعمال هذا اللقاء التي بين يديك الآن أيها الأخ الكريم.

ومن المجهودات التي أحب أن أنوه بها في هذا المجال، برنامج الندوة في إقامة المكتبة المنزلية للأسرة الإسلامية التي يرجى أن تقدم قريباً مجموعة الكتب اللازمة لكل فرد من أفراد الأسرة المسلمة ليتحصل على المعرفة الضرورية لبناء شخصيته وتوجيه سلوكه وبمنظور إسلامي صحيح.

ومن الجهود التي تستحق التنويه في هذا السبيل جهود الندوة في تكوين مكتبة مرئية توفر الثقافة والترويح ضمن الغاية الإسلامية رعاية لأبناء المسلمين أمام الغزو الجائح للمادة الترويحية الفاسدة التي تشوه تصورات الطفل والشباب المسلم بما لا ينفع معه نصح ولا توجيه، وقد انتهت المرحلة الأولى من هذا المشروع، ونرجو أن تتكاتف الجهود لخروجه إلى حيز الوجود على المستوى العام، وللمنظمات وشبابها، وعلى المستوى الخاص، وفي الأسواق قريباً ـ إن شاء الله تعالى.

إن الندوة حاولت وتحاول من خلال العمل مع منظمات الشباب المسلم وترقية برامجه ولقاءاته ومخيماته إلى دفع قضية التربية وترقيتها

وتناسقها مع الجهود في مستوى تصفية الرؤية العقائدية على أساس من التوحيد الخالص بعيداً عن ضلالات الوثنية والتصوف الأعجمي، المنحرف، وبعيداً عن سموم المادية والإلحاد والعصبيات الجاهلية.

إنني أحب أن ألفت نظرك أيها الأخ الكريم إلى أن المقصود من أعمال اللقاء الرابع « الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم »، هو التوجيه إلى الأمة الإسلامية وشبابها على وجه الخصوص ليرى ويعي ويفهم دوره الحضاري الرائد، ليس في ماضي الانسانية فحسب ــ ومن خلال مادة قليلة الغناء عن منجزات علمية حضارية لا يدرك الشاب معناها إذا قاس كمها بما يتحقق أمام عينيه من منجزات الحضارة غير الإسلامية المعاصرة، بل ليدرك معنى ما تم من إنجاز حضاري لأمته ودلالته ومنطلقاته، وأن يتعرف إلى تأثيره اللاحق في حضارة اليوم، وليدرك دور الإسلام المستقبلي، عقيدة وفكراً ومنطلقات، في خدمة الإنسانية وأن يعي مؤهلاته وأمته ودينه وحضارته لإرث حضارة العصر الملحدة ومنع آثارها المدمرة بإذن الله، حيث قد بدت مؤشرات انهيارها مما يعيه قادة ومفكرو تلك الحضارة قبل سواهم.

إنه من المهم أن ندرك أن أعمال اللقاءات العالمية للندوة وتوصياتها هي جانب من جوانب جهد الشباب المسلم نحو رؤية أفضل ونحو مستقبل أفضل، وهي صوت للشباب المسلم يعبر به عن بعضٍ من قناعاته وتوجيهات مسيرته نحو الغد.

إن الأمل كبير في أن تواصل الأمة ومنظمات العمل الإسلامي ورجاله وشبابه السير نحو إعادة نظرة شاملة وجذرية لواقع الأمة، وإعادة صياغة هذا الواقع بما يحقق بأسلوب علمي موضوعي عملي وعلى المستويات الثلاثة بشكل سليم متسق، الالتزام والقوة والعزة والتقدم بعد أن ظلت هذه المعاني بعيدة المنال تراود الأمة أجيالاً في أعقاب أجيال.

إن مسئولية المفكرين والقيادات الإسلامية تكمن في وعي القضية في أبعادها الحقيقية، وإعطاء القضية الفكرية حقها من الاهتمام والإعداد والرعاية، لتحقيق الرؤية المطلوبة والشروط اللازمة المسبقة للنهضة الحقيقية للأمة ومواجهة التحدي الحضاري في كافة أبعاده، دون الانغماس في القضية

السياسية والعسكرية الآنية وحدها، مما يستنزف طاقات الأمة ويعوق نموها وما يزال يتسم به حالها لعدة قرون خلت. وإن ذلك أمر ضروري للمرحلة القادمة والتي تأخرت في عمر الأمة طويلاً، ولا مجال إلى بلوغ ما وراءها من إنجاز دونها.

إنني آمل أن يكون هذا العمل الذي بين يديك أيها الأخ الكريم عملاً جاداً، وخطوة جديدة، ومؤشراً نحو الغاية التي أرجو أن تواصل الندوة والمنظمات والمؤسسات الإسلامية ورجال الفكر الإسلامي سيرهم لتحقيقها في عزم، وبالاهتمام والجهد الحقيقي اللازم لها مهما كانت المعوقات والصعاب التي تقف في وجهها وفي وجه المؤسسات والتنظيمات التي يجب أن تقوم على كافة الصور وبكل الأساليب وببذل كل الجهود لادائها.

إنني بالطبع آمل في مرحلة خطة عملي المستقبلي أن أتعرض بجهد علمي فني لهذه القضايا وسواها مما يتصل بتصحيح مسار الفكر الإسلامي وأساليبه ومناهجه ومسيرة الأمة بشيء من التفصيل والدراسة رجاء المساهمة في توفير الشروط المسبقة لنجاح مسيرة الأمة وجهودها المخلصة، للخروج من دائرة التدهور المفرغة التي لا يبدو لانحداراتها قرار إلا هلاك الأمة وخضوع أشلائها لأعدائها المتكالبين على مواردها ومقدراتها ورقاب أبنائها.

إن الأمل في الشباب ومفكريه وقياداته أن يواصلوا المسيرة، وأن يحملوا المسئولية، وأن يؤدوا الرسالة، وأن ينجزوا المهمة، والله في العون ما خلصت النية وصدق العزم وجد الجهد وصفت الرؤية، وما تم إدراك الأولويات بشكل سليم.

ولايفوتني في هذه الوقفة أن أعبر عن عميق تقديري لما لقيته من العون والتعاون من جميع من سعدت بالعمل معهم في الندوة ومنظمات العمل الإسلامي ومن الأخوة الشباب والعاملين والمخلصين.

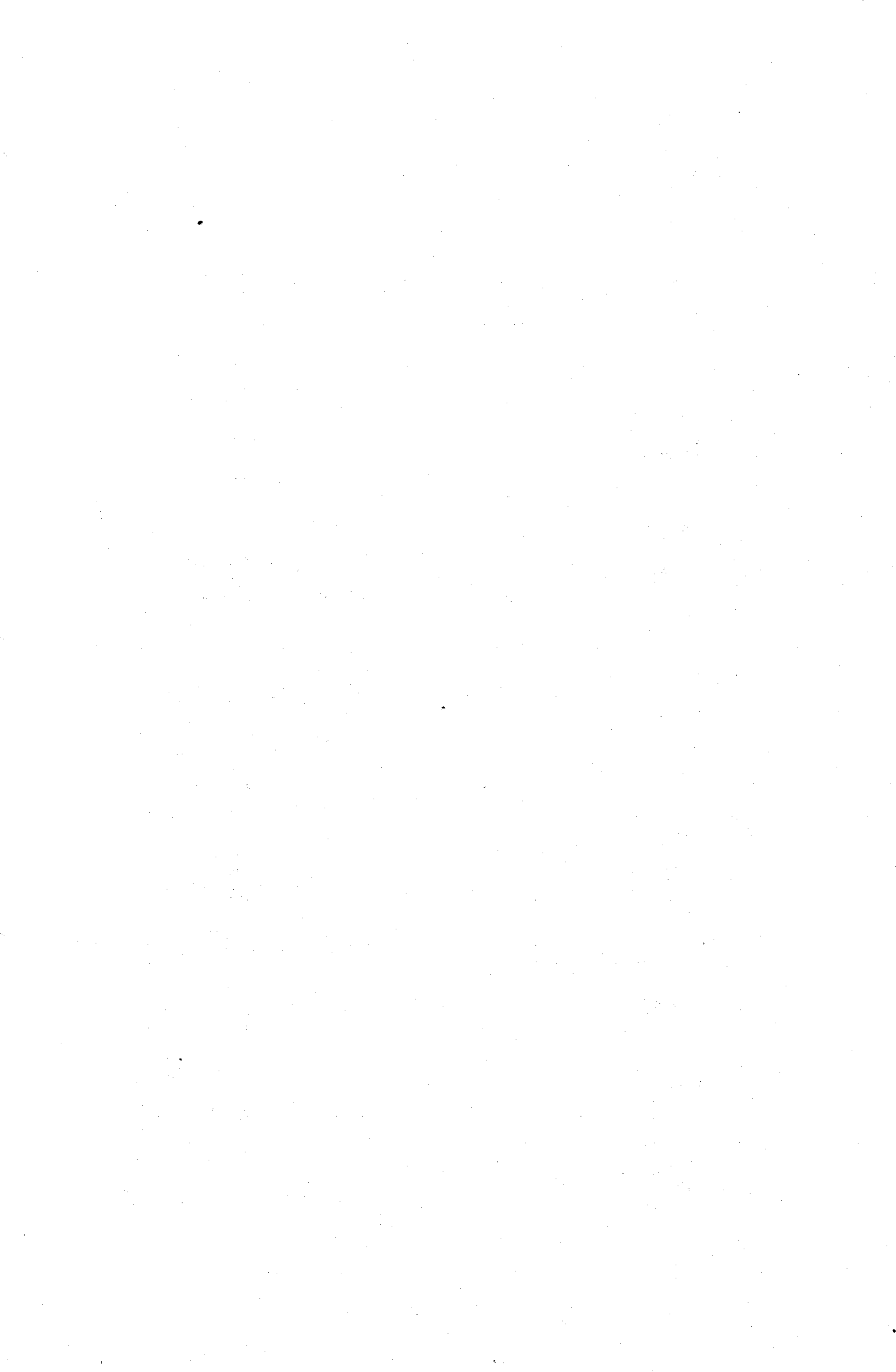
كما أنني أتوجه بالشكر إلى معالي رئيس الندوة الشيخ / حسن بن عبد الله آل الشيخ، لما لقيته من سماحته وتشجيعه وكريم خلقه، وكذلك إلى الأخ الدكتور / أحمد توتونجي ـ الأمين العام المساعد لما لقيته من تعاونه وتضحيته ودأبه، وكذلك إلى كافة الأخوة أعضاء مجلس الأمانة لما لقيته من

تفهمهم وتأييدهم وتعاونهم، فلم يكن بالإمكان إنجاز ما تم إنجازه دون جهودهم وما أحاطوني به من محبتهم وتأييدهم.

والله أسأل أن يجزيهم جميعاً خير الجزاء، وأن يحقق الآمال في خدمة الدين والأمة، وأن يأخذ بيد الندوة في مرحلتها الجديدة إلى مزيد من التوفيق والنجاح، وهو الهادي إلى سواء السبيل.. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين..



شكر وتقدير



بسم الله الرحمن الرحيم

ان واجب الوفاء يفرض علينا أن نسجل باسم « الندوة العالمية للشباب الإسلامي » تحية خالصة من الأعماق :

أولاً : لذكرى رائد التضامن الإسلامي الطيب الذكر، جلالة المغفور له الملك فيصل بن عبد العزيز، فقد نبتت فكرة الندوة في عهده، واستمدت وجودها من رؤيته ودعمه ورعايته.

ثانياً : للعاهل السعودي ـ حامي الحرمين ـ جلالة الملك فهد بن عبد العزيز وولي عهده سمو الأمير عبد الله بن عبد العزيز فقد أوليا ـ ولا يزالان ـ يوليان الندوة رعايتهما الكريمة لتؤدي رسالتها على أكمل وجه.

ثالثاً : لصاحب المعالي الشيخ حسن بن عبد الله آل الشيخ، رئيس الندوة، فقد منح الندوة وشباب الأمة ـ ولا يزال ـ خالص عنايته وتوجيهه وعظيم اهتمامه.

رابعاً : إلى سعادة الدكتور عبد الحميد أحمد أبو سليمان ـ وسعادة الدكتور أحمد باحفظ الله اللذين شغل كل منهما منصب الأمين العام للندوة في الفترة السابقة، وإلى الاخوة أعضاء مجلس الأمانة والقيادات الإسلامية، لما تحقق ويتحقق على أيديهم وبجهودهم من خير للندوة إن شاء الله تعالى.

والله ندعو أن يثيبهم ويثيب كل من أعان هذا العمل الإسلامي الخير وكل عمل إسلامي.. وافر المثوبة والجزاء.. إنه سميع مجيب الدعاء.



المحتويات

المجلّد الثاني